دائرة الخطأ 1

أسطورة الوداع

چنى الجارحي

البارت الأول
"الحكاية"

"لم يكن العالم كما وصفته روايات الأطفال التي قرأتها

بل كان أكثر رعبا."

في ظلام دامس، لا يوجد سوى البرد القارس والأرضية الباردة، في أجواء مهيبة تلتف حول طفلٍ صغيرٍ يرتدي ملابس خفيفة بالكاد تغطي جسده عيناه محمرتان من كثرة البكاء، أنفه ينزف، وعروقه بارزة من التوتر، وسط شهقاته التي لا تنقطع، تحدث بصوت مختنق:

- خرجوني من هنا، والله أنا معملتش حاجة، خرجوني ومش هقول حاجة.

اندلع بكاءه بقهر، وأصوات الصفير في أذنه لم تهدأ يديه مقيدتان، وقدمه الأخرى مربوطة بإحكام، بالكاد يتنفس، فتح الباب فجأة، ودخل رجل بعينين سوداوتين، تلك العينان اللتان لم ينسهما الطفل يومًا، جسده متوسط البنية، لكنه طويل القامة، ولحيته السوداء زادت من بشاعة ملامحه، مما جعل الطفل يكرهه بشدة، يكره صوته، وجوده، وكل شيء فيه، اقترب منه الرجل بخبثٍ وحقدٍ ينبعثان من داخله:

ـ هششش، ليه بتعيط؟ حد زعلك؟ أنا قولتلك قول الحقيقة ومحدش هيلمسك.

تقدم بخطوات باردة تجاه الطفل الذي بدا وكأنه على وشك الموت، لم يُظهر أي اهتمام لحالة الطفل، مرتعبًا، بدأ يهز رأسه بحذرٍ:

- والله ما قولتلوش حاجة، أصلًا مش بيكلمني ولا بيحبني.

ابتسم الرجل بخبثٍ وهو يجلس بجانب الطفل، بصوتٍ مملوء بالسم، همس:

-مش قولتلك إنه بيكرهك! محدش بيحبك، إزاي عايش ومحدش بيحبك؟

أمك ميتة، أبوك تخلى عنك، ما عندكش حد، إيه اللي مخليك عايش؟

كانت هذه الكلمات قاسية، لكنها بالنسبة للرجل كانت مجرد كلمات عادية، بينما للطفل كانت كالسياط التي تضرب قلبه العاري رغم معرفته بكل هذه الحقائق، إلا أنه دائمًا يحاول تجنب التفكير فيها، لأنه كلما تذكرها، تحطمت مشاعره، وانهارت حصونه الداخلية، تلك الحصون التي بناها حول قلبه كي لا ينهار مرة أخرى بصوت مملوء بالرجاء، قال الطفل وهو يحاول استعطاف الرجل:

-أنا عايز أطلع من هنا، والله مش هقول لحد.

لكن الرجل لم يتأثر، بل استمر في كراهيته المتأصلة. ابتسم بمكرٍ مصطنع قائلًا:

-ها افكر، بس لما هما يوافقوا.

رد الطفل برجاء مرة أخرى، غير قادر على التعبير عن مشاعره:

- ممكن طلب واحد؟

التفت إليه الرجل بنظرة حادة مليئة بالحقد، وقال ساخرًا:

- اطلب، بس ما تقوليش أخرجك من هنا.

هز الطفل رأسه نفيًا، وقال بصوت مرتجف:

- لا، أنا بس مش قادر أتحمل البرد؛ عاوز الجاكيت بتاعي.

ابتسم الرجل بخبث قائلاً:

- من عيوني، إنت تؤمر.

ثم ألقى عليه زجاجة مياه باردة، غمرته بالكامل، وهو يهتز من البرد القارس غادر الرجل الغرفة بضحكة مقيتة، وأغلق الباب خلفه بلا مبالاة، تاركًا الطفل يرتجف على الأرض، وقد حطم قلبه من الداخل.

- قل للطبيب الزفت بتاعك يقلل جلسات الكهرباء، الواد دا لو مات، أبوه مش هيكفيه موتنا كلنا.

منذ ساعات لم يسمع الطفل أي شيء سوى الصفير الذي لا يهدأ في أذنه. يداه ترتعشان بلا توقف، وعقله يعذبه بلا رحمة، لا أحد يستطيع تحمل هذا القدر من الألم.لكن فجأة، تغير كل شيء بدأت عروقه تبرز بشكل مخيف، جسده تمدد بعنف ليتمكن من تحطيم قيوده ضرب رأسه بالحائط مرارًا حتى سال الدم من أنفه وفمه، وتحطمت النوافذ، والزجاج تناثر على الأرض،ثم توقف فجأة، ليسقط جسده النحيل المحترق وسط بركة من الدماء.

"لو كنت تظن أنك نجوت، فأنت مخطئ. لن يتوقف عقلك عن مهاجمتك، ولن يتوقف ماضيك عن مطاردتك، ولن يرتاح قلبك حتى النهاية... حتى تكون بلا رحمة."

دوّن تلك الكلمات قبل أن يلبس خوذته السوداء المماثلة لملابسه، ثم ركب الدراجة النارية، في مكان ما حيث تُعدُّ المحرمات مباحة بشكل مقزز، هنا حيث يأكل البشر لحوم بعضهم ودماءهم: حيث تجار الأسلحة والمخدرات، وحتى تجار الأعضاء، ولم يخلُ المكان من تجار النساء مؤسسي بيوت الدعارة الذين يتظاهرون بالفضيلة والشرف، حيث الخمور واللعب والهوى، كان يقف في ذلك المكان الذي يثير الاشمئزاز.

كان شابان في مقتبل العمر ينتظران صديقهما الآخر ليتحمل مزيدًا من الأعباء فوق كاهلهما.

- متأكد إن محدش هيكشفنا؟

تحدث سيف بقلق عن المآل الذي ينتظرهم، لم تكن الأقدار رحيمة، فلم ترحم قلوبهم لأنهم أطفال، ومرة أخرى لم ترحمهم وهم في مقتبل عمرهم، ربما الرحمة ليست مكتوبة لأمثالهم!

أجابه "أحمد"، الذي زفر من دخان لفافة تبغه التي لاقت حتفها أسفل قدمه بعد أن انتهى منها، بثقة تملأ عينيه:

- ومن أمتي كنا متأكدين أننا مش هاتضيع! ربك يسهلها.

مخزن مليء بالأسلحة التي تسفك دماء الأبرياء، يلوح طيفه من بعيد بشكل مهيب، ثلاثة شباب يفرغون عبوة البنزين على الأرضية مع قنبلة صغيرة، ثم يخرجون وكأن شيطانًا أو شبحًا ارتكب تلك الفعلة، أراهن أنَّ لا أحد سيعرف من الجاني، وكم من جرم ارتكب دون جاني! كم من روح انتهت وكم من دماء سفكت من أجل الحروب!ثم دوّى انفجارٌ لكنه لم يكن كالانفجار الذي يحدث في قلبه، حتى النيران لم تعد تخيفه الآن، ولا ذلك الصوت، كل شيء انتهى بداخله، لقد تدمرت مشاعره، وتجرد هو الآخر من معاني الإنسانية، وما هي الإنسانية! لو كانت بشخص لكان ارتشف دماءها بكل هدوء، لو كان للإنسانية معنى لما كان هو الآن بهذا السوء.

في الحفلة، يقف رجال الأمن بين كل مكان وآخر، غير قادرين على النطق من الصدمة الهائلة والخسارة التي حلت بهم

.بينما هو يركض في الطرقات؛ محاولًا الهروب من هذا المكان القذر الذي يكاد يخنقه، اصطدم بأحد الرجال، فنطق هذا الذي اصطدم به قائلاً باستفسار والشك يطرح نفسه بداخله:

-أنت مين؟

استطاع أن يعرف أنه من العصابة التي ارتكبت الجريمة، لم يكن الأمر صعبًا، رجل ملثم في وسط حفلة، إن لم يكن مجرمًا، فماذا يكون؟ فبحدة تحدث وهو يمسك بقميص الآخر:

-انطق بسرعة، وإلا هنقتلك.

كان الآخر مُلقى على الأرض، وهذا يجلس بقدمه على بطنه - تحقق من أنه فاعل هذا الانفجار - ضربات متتالية ومحاولة لنزع القناع عنه حتى كاد ينجح، لكنه لم ينجح؛ بسبب لكمة قوية من يد الآخر، والتي نزع فيها آخر قطعة من القناع قبل أن يتلقى ضربة على مؤخرة رأسه توقعه أرضًا!لم يشعر بما أصابه، فبعد تلك الضربة القوية سقط الرجل عليه بجسده، ولم يستطع الخلاص إلا عندما جذبه سليم صديقه من ملابسه وهم يسرعون للخارج قبل أن يُكشف أمرهم.

تحدث "سليم "بصوت مضغوط، يحاول جاهداً أن يظل هادئًا وهو يكتم جرح صديقه" محمد" داخل السيارة، التي تتسابق بعيداً عن الموقع الذي تعرضوا فيه للحادث:

- إحنا لازم نروح المستشفى؛ لإن النزيف مش هيقف.

أجابه" أحمد" من المقعد الأمامي، تعبيره يشير إلى عدم اكتراثه، وسخرية واضحة في صوته:

-وتقول للدكتور إيه؟ دا كاتشب!

حاول "محمد "أن يخفف من حدة الموقف، متمالكًا أعصابه رغم الألم الذي يشعر به، قائلاً:

- بلاش خوف، أنا كويس، متخافوش، ودوني عند سمر بس، وأنا هبقى تمام.

بدا" سيف "منزعجاً، يشير إلى أنه يشعر بالضيق من تصرفاتهم غير الجادة، خاصةً أنه طبيب ويتوقع منهم تصرفًا أكثر عقلانية:

- إنتَ شكلك أهبل أصلًا، أنا دكتور وبقولك مستحيل جرحك يقف بالطريقة دي.

تحدث "محمد" بتفكيرٍ عميق، وكأنه يحاول استرجاع صورة رجل قد يكون له علاقة بما يحدث، وهو يمسك برأسه بقلق:

- أنا متأكد إني شُفت الراجل دا قبل كدا! شُفته متأكد، عينه دي عدت عليا والله، وريحته كمان.

واصل "إسلام" القيادة، مركزاً على الطريق بتركيز، لكنه لم يفوت فرصة المزاح، قائلاً بطريقة غير جادة:

-ولا، إنتَ مش هتبطل داء الكلاب بتاعك دا! في حد بيعرف الناس بريحتها يا أهبل!

رد محمد بمزاح، محاولاً التخفيف من الجو المشحون:

-يا سلام لو تبطل دبش يا سومي!

بدا عز متعباً، قد أجرى مكالمة هاتفية أخيرة لإبلاغ أخيه بوضعهم، قائلاً بنعاس:

-أنا كلمت أمير علشان يدبر أمر الدكتور.

تحدث محمد بنبرة متفاجئة، محاولاً السيطرة على الموقف وعدم تعقيد الأمور أكثر:

- ليه بس؟! إنتَ أهبل!

في المشفى...

كان المستشفى من أفخم الأماكن الطبية في المدينة، نُقل إليه بعد الضربة العنيفة التي تلقاها على رأسه. بدا المشهد هادئًا، غرفة واسعة تملأها رائحة المطهرات، سريره يتوسط الغرفة، بينما يقف رجل على يساره وامرأة على الجانب الآخر، إلى اليمين. كل شيء من حوله كان مرتبًا ومهيبًا، لكنه شعر بأن الفوضى كانت تعصف بداخله.

على الرغم من ذلك، كان هناك توتر يخترق الصمت، تمالكت شقيقته "سوزي" نفسها، حاولت أن تبدو مطمئنة وهي تخشى عليه، صوتها كان مرتجفًا قليلاً، لكنها أخفت ذلك خلف كلمات رقيقة:

- الحمد لله على سلامتك يا حبيبي، أكلم الدكتور؟

كانت كلماته عالقة في حلقه، لم يستجب لحديثها، عيناه تائهتان، تلاحقان أفكارًا تتصارع داخله. كل ما كان يشغل باله هو ذلك الشاب الذي تجرأ عليه، طعنة كبريائه كانت أشد وقعًا من أي ألم جسدي.

تحدث أخيرًا، بصوت متعب، وكأنه يحاول جمع قوته من بين الحطام:

-هاتيلي الموبايل.

أخذ الهاتف بيد مرتعشة، عينيه تضيقان بنظرة تحد، ثم اتصل بأقرب شخص يمكنه الوثوق به، اختار رقمه بعناية، وحينما رد الطرف الآخر، كانت نبرة صوته حادة، مليئة بالغضب المكبوت:

-هبعتلك تفاصيل عن واحد، تجيبلي الولد دا حي، سامعني؟

كلمته الأخيرة كانت مشحونة بالغضب، وكأنه كان يضغط على أسنانه، يفرغ بها غضبه المتراكم كلما استرجع في ذاكرته ما حدث

كسر الصمت صوت "مصطفى"، زوج شقيقته، الذي كان يقف متوترًا، قلقًا على وضعه الصحي:

-الحمد لله على سلامتك يا (عادل).

رفع "عادل" رأسه قليلاً، وعيناه تلمعان بالشك، لم يكن ذهنه حاضراً بشكل كامل. تساءل بنبرة غامضة عن سبب الحادثة التي قلبت حياته رأساً على عقب:

-إيه حوار المخزن اللي انفجر دا؟

"مصطفى" ابتلع ريقه، وظهر عليه ارتباك واضح، ابتعد بنظره للحظات قبل أن يرد بصوت متقطع:

-ها! دا مخزن عربيات قديم، ملوش لازمة يعني.

ظل "عادل" يحدق فيه بصمت، شعور بالشك يتسلل إلى قلبه، لكنه آثر التمسك بما قاله "مصطفى". في بعض الأحيان، يكون التمسك بالوهم هو السبيل الوحيد لإخماد الشكوك التي لا نهاية لها.

منزل واسع بحديقة كبيرة، قد تظن أنه راقٍ أو فخم، ولكن حتى وإن كان هذا المنزل كذلك، فيكفي أن يسكن به اثنان من الشياطين، في الطابق الأول من المنزل، في إحدى الغرف الواسعة المنظمة بألوان هادئة ومريحة، تحلم تلك الفتاة على السرير بكابوس مزعج، مشهد لا يُنسى، في يوم بالغ القسوة في غرفة مغلقة حيث يحاول أحدهم لمس جسدها بطريقة مقززة.

تحاول إبعاده عنها ولكنها لا تستطيع بسبب فرق الحجم بينها وبينه، ونتيجة لربط يديها، فتصرخ صرخة مدوية في المكان، ترى من زجاج الباب منقذها الوحيد عاري الصدر بجسد بارز وعيون متسعة وعروق تكاد تخرج من مكانها، يده ملطخة بالدماء وبيده سكينة.ثم يعيد عقلها مشهد الاعتداء الجسدي، حيث يضربها أحدهم على السرير ويحاول التحرش بها، شهقات متتالية، بكاء ونحيب، ثم تحتضن نفسها وتخفي وجهها عن العالم، لتتحدث بخوف واهتزاز:

- مش هانسى، محدش بينسى موته.

ليست البداية؛ فالبدايات عادةً ما تكون وردية في حين النهايات عكس ذلك أو الاثنين ورديين، لكن هنا حيث كل شيء مؤذٍ وواقعي حد الجنون، وحيث لا تنتهي المعاناة. كذلك لن تنتهي قصتنا؛ فالقادم أسوأ..

ربما نحيا بلا موعد في انتظار اللامعروف، ونحن نتصارع لأجله.

الحياة ليست قصة أو رواية تنتهي عند آخر صفحاتها؛ الحياة جزء أكبر وأقسى، لا ينتهي فيها العالم عند أحدهم

.كان "محمد"، الذي لم يتخط عامين في عقده الثاني ببنيته الجسدية القوية وزوج من الأعين الرمادية، بخصلات شعره التي أخذت لون القهوة ولحيته، جالساً بعدما انتهى الطبيب من معالجة جرحه.

ربما ما زالت دراسته في قسم هندسة الصوت تؤثر على أعصابه وأذنه. ذلك الطنين المزعج، لا يعلم إن كان بفعل الذكريات أم أنه ما زال عالقاً، يتأرجح في ذكرياته.

بجانبه صديقه "أحمد المهدي"، صديق عمره الذي قضى معه معظم أوقاته. حتى عندما اختاروا الالتحاق بالجامعة، ذهبوا بنفس قسم هندسة الصوت. ربما كانت ملامحهم مختلفة؛ كان يبدو على "أحمد"، صاحب البشرة البيضاء والأعين الزيتونية، ملامحه الهادئة عكس الآخر بملامحه الشاذة عن الملامح الشرقية والحادة.

ظهرت المذيعة على التلفاز لتزف خبراً للمواطنين:

- مساء أمس، حدث انفجار هائل في أحد المخازن على الطريق الصحراوي المصري، لمخزن خاص بعائلة الجبالي، لصاحبه "أنس الجبالي"، مما أسفر عن إصابة ٧ أشخاص ووفاة خمس حراس وإصابة آخرين. وبالنسبة لمرتكبي الحادث، فلا توجد أي معلومات عنهم حتى الآن، سوى عين حورس التي تركها الجاني مرسومة على الجدران

.من كان يعلم أن هذا الطريق الذي سلكته للنجاة كان مقتلك؟ لو كنت تعلم أن طريقك هذا خطير، لو كنت تعلم أن النهاية مكتوبة هنا في أول فصل، لما أكملت تلك الرحلة التي تضمك لدائرة الخطأ. ومن منا معافى من الخطايا غيره هو الإله والسند.

أنصحك بالانسحاب الآن قبل أن تغلق الدائرة.

البارت الثاني

"مابعد البداية"

تجلت الشمس في السماء عند الغروب، وأخذت ألوانها الذهبية تتسلل عبر أفق القاهرة، رغم أجواء الصيف الحارة التي طغت على المدينة،تلك الأجواء لم تمنع سكانها من التفرق في بقاعها المختلفة، كل واحد منهم يسعى وراء حياته الخاصة.

في أحد المنازل الراقية، حيث الفخامة تنبثق من كل زاوية، وعلى الرغم من الرقي الظاهر في المجتمع والمكان، مع حديقة واسعة ومنزل ذو طابع راقٍ، إلا أن هناك شيئاً ما ناقصاً، نقصٌ في الحياة التي تتوق إليها الجدران.

ركضت "هاجر" على الدرج، بخطوات متسارعة تعكس ملامحها الهادئة التي استمدت منها الكثير. لم يكن عمرها العشرون كافياً لتظهر براءة الشباب، بل كانت ملامحها أكبر سناً مما يجب، بشرتها التي طغى عليها الانطفاء، عيناها الخضراوان وخصلاتها البنية الهادئة، كل ذلك كان يظهرها أكثر شوقاً لخالها الذي لم تلتق به منذ أكثر من أربعة عشر عاماً. تحدثت بفرح ملؤه الشوق:

- خالو، إنتَ جيت؟

نظرت إلى جرح رأسه، الملتف حوله الضمادات، وأكملت بقلق:

- المفروض تفضل في المستشفى!

جذبها "عادل" إليه، يحتضنها برفق، يشعر بشوق عميق لتلك الصغيرة التي رأى فيها دائماً طفولته، ولكن، لماذا تبدو على غير عادتها؟ كأن الحياة قد سلبتها حيويتها، شحوب وجهها يضيف إلى المشهد الحزين، أجابها عادل بهدوء يحاول تهدئتها، رغم النيران المشتعلة في داخله:

-أنا كويس، متخافيش، مش محتاج مستشفى.

تحدثت "سوزي"، والدتها، بنبرة حازمة تتخللها بعض التوتر:

- خلاص يا هاجر، اطلعي أوضتك وسيبه يرتاح.

أماءت" هاجر "برأسها، لكن الغضب كان يلوح في عينيها، وقالت:

-هطلع، بس هتكلم معاك تاني.

أمسك "عادل" بكفها بحنان، حتى وهي تبتعد، قائلاً:

-أكيد يا حبيبتي.

بعد أن دخلت غرفتها، جلست على السرير بقلق، وهي تحاول الاتصال به للمرة المئة بعد المليون. لا إجابة، غير أنه غير متاح الآن.

ربما ليست فقط شركة الاتصالات التي تجهل مكانه، بل العالم بأسره يجهله. تحدثت مع نفسها بضجر:

-رد بقا يا محمد، أنتَ بتروح فين بجد كل ما أحتاجك!

يمكنك أن ترى عند كل بداية نهاية، ولكنك تتجاهل نهاية المطاف دائماً لتحظى بدرب جيد رغم أحزانك. فعند كل سؤال أجابته يمكنها أن تهلك قلبك، لتظل حائرة بين الانتظار والألم.

عند الظهيرة في منطقة وسط البلد، حيث يجتمع النشاط والضجيج في شوارع المحروسة، كان شارع مصري مليئاً بالباعة الجائلين الذين يرفعون أصواتهم مروجين لبضائعهم، والأطفال يلعبون بالكرة تحت أنظار المارة، الفتيات يصرخن بأسماء صديقتهن، بينما الشباب والرجال يجلسون في المقاهي، يتحدثون في هراء لا ينتهي، لو كان المصريون في الخمسينيات والستينيات يعلمون ما ستؤول إليه الأمور في بلدهم، لكانوا سارعوا إلى تغيير المسار قبل أن تصل الأمور إلى هذا الحد.

تحدثت سيدة في عقدها الخامس بصوت مليء بالاستنكار:

-يا بن الحرامية، كيلو البصل بـ ١٥ جنيه؟! أنت بتسرقني ولا إيه؟

أجاب البائع بصوت أجش، محاولاً تهدئة الموقف:

-جرا إيه يا ست "سمر"! ما هو في كل حتة بـ ١٥

ردت" سمر "بصوت غاضب، رفعته حتى اجتمع حولها الناس:

-لا يا روح أمك، الواد عمر بيبيعود بـ ١١، يا بن النصابة. اهجموا عليه يا ستات، مبادرة ضد الغلاء!

"سمر"، إحدى سيدات الحي النشيطات في إطلاق المبادرات، باتت مشهورة بإعلان مبادرات ضد كل شيء، من الذكور إلى الغلاء، ورغم ذلك، تحظى بمحبة الجميع في الحي.

بعد كلماتها، تبادل السيدات نظرات مليئة بالغضب واقترين من الرجل، ثم هجمن عليه بالأحذية، كان المشهد كالتالي: الرجل ملقى على الأرض، والعديد من النساء من حوله يضربنه، بينما بعض الرجال يراقبون دون تدخل.

وصل" محمد "إلى الشارع، ليكتشف أن والدته هي من تسببت في هذه الفوضى صرخ بصوت عالٍ، محاولاً إيقاف الصخب:

-بس بس يا أمي، بتعملي إيه يا سمر؟

حاول "محمد "أن يبعد الرجل عن الأيدي الغاضبة، فيما صرخت سمر بصوت مرتفع، مليء بالثورة:

-سيبني عليه، ابن الحرامية ده نصاب، لازم يقف عند حده!

أجاب "محمد"، وهو يحاول تهدئة الموقف، محاولاً إنقاذ الرجل من الموت:

-أبوس راسك، سيبه، وأنا هشتريلك البصل والطماطم وكل اللي عاوزاه.

بعد الكثير من المعاناة، جلسوا في وسط المنزل بعد انتهاء الشجار بين "سمر "والبائع، بجانبها كانت "زينة"، ابنة شقيقتها الراحلة، التي تولت "سمر" تربيتها.

كانت" زينة "شابة في منتصف عقدها الثاني، وقد أخذت من ملامح المصريين القدماء كل شيء: بشرتها الداكنة التي تزينت بطمي النيل، عينيها السوداء المكحلة، وخصلاتها التي أخذت لون عينيها، حتى قررت دراسة الآثار.

هدأت" زينة" من حالة خالتها بابتسامة هادئة:

-خلاص بقى يا خالتي، مكانش كيلو بصل اللي هيعمل فينا كده.

أجابت" سمر" بحنق بعد هزيمتها وفشل مبادرتها النسائية:

-لا لا، كله إلا الاستغلال يا بت، ده حرامي.

بينما تحدث" محمد "بنفاد صبر، وهو يمسح على وجهه بضجر:

- يا دي النيلة عليا وعلى اللي خلفوني، ما خلاص بقى يا سمر، استهدي بالله.

أجابت" سمر" وهي تهندم حجابها بهدوء، قبل أن تتذكر خطتها الأخرى لهذا الوغد بجانبها:

-لا إله إلا الله يا أخويا! كنت فين؟؟ إيه مطمرش فيك تربيتي!؟ أنا اللي قولت أبني حتى لو مخلفتوش. قولت هينصرني في ثوراتي، تقوم تقتل الحزب بتاعي؟؟، مبادرتي ضاعت، بسببك يا ذكوري يا قاتل النجاح.

نفد صبر" محمد" وهو يحاول تهدئتها دون جدوى، وتحدث يسب نفسه بعد كل تلك المعاناة:

-خلاص يا سمر، أنا إنسان مش متربي بعد ما لمتيني من الشوارع وكبرتي، سيبتيلي سر أحزابك القوية، أنا دمرتها.

قاطع حديثهم "سليم"، صديقهم الشاب في عامه الثاني والعشرين، ذو البشرة الخمرية والعينين اللتين أخذتا من لون العسل، جسده متوسط، وخصلاته الذهبية التي أعطته بريقاً إضافياً. كان يدرس في الصف الثاني من الهندسة الميكانيكية. صاح بهم وهو يشعر بالإرهاق من الضوضاء:

-كفاية كفاية. أومال لو كان ابنك بجد يا سمر، كنت عملتي فين؟ أنا جوعت وعاوز أكل.

خرج "أحمد "من صمته قائلاً بتفكير:

-أتوقع إننا مضطرين نطلب أكل. صح؟

رمقهم "عز"، صديقهم الذي كان على مشارف انتهاء عامه السادس والعشرين، والذي أنهى دراسته في الحسابات والأعمال منذ عام واحد. بنيته القوية والرياضية وطول قامته، وعينيه الملونتين، وخصلات شعره ولحيته البنية الداكنة، تعطيه ملامح هادئة. تحدث بضجر ووجه حانق:

-يا بني ارحمنا بقى، دي المرة العشرة اللي تاكل فيها في أربع ساعات!

أجابه "سليم "وهو يرفع أحد حاجبيه بعند:

-وأنا باكل من تلاجة بيتكم!

أجابه عز بسخرية:لا يا أخويا، بتاكل أكلي.

بعد تشاجرهم المعتاد لعدة ساعات، أوقفهم أحد الشباب وهو يطرق على الباب لتوصيل الطعام. بعد نصف ساعة، كانوا يتناولون الطعام الذي أحضره موصل الطعام.ليقطع الصمت صوت هاتف سليم. تحدثت سمر بتعجب:

-ولا يا سليم، الحكومة بترن!

أجاب سليم بعد أن شاهد اسم المتصل على الهاتف:آه، ده بابا.

تحدثت زينة بتعجب من الاسم:

- فيه حد يسمي باباه الحكومة يا أهبل؟

لم يستمع سليم لردها، بسبب إجابته على الهاتف، وقال:ألو يا بابا.

ابتعد سليم إلى الشرفة وهو يتحدث لوالده، الذي كان مسافراً منذ عشر أعوام، وعمل لفترة طويلة بالخارج، ولم يكن معتاداً على مكالمات طويلة بينهم من الأساس

خرج سليم من الشرفة، مصعوقاً، وعينيه تتفحصان الأفق بتعجب. بعد أن علم من والده أنه سيأتي إلى مصر خلال يومين، أصبح الأمر أكثر سوءاً بسبب الأموال التي أنفقها في مشروع جديد فشل كما هو معتاد

.تحدث إلى "عز"، صديقه وابن عمه في الوقت ذاته، وشريكه في المشروع الفاشل، وكان يأمل أن يجد له حلاً:

-بابا جاي مصر خلال يومين.

أصاب عز الخبر بالذهول، وسأل بدهشة:

-إزاي؟! وهنقول له إيه عن مشاريعنا الفاشلة!؟

رد سليم، وهو يجلس على المقعد بقلق:

- طيب، أنت حياله ابن أخوه، وأمير هيدافع عن العك اللي عملته

أجابه "عز" بغضب، متظاهراً بالثقة، وهو يرفع حاجبيه:

-ولا، متنساش إني أخوك، والكبير كمان. ضبط الأمور.

بينما "سيف"، الذي كان يشعر بالضجر رغم صداقتهم الطويلة التي دامت أكثر من اثني عشر عاماً، كان يختلف عنهم في كل شيء،من خصلاته الذهبية ولحيته المحددة إلى عينيه الزرقاء الهادئة وبشرته الفاتحة، كان مختلفًا حتى في اختياره للدراسة في كلية الطب لمساعدة المرضى والأطفال.

تحدث سيف بضجر، غير قادر على فهم تعقيدات علاقاتهم:

- يا أخي، علاقة عائلية معقدة! مين أبو مين ومين أخو مين، وإيه حياتكم!

أجابه "أحمد"، الذي اعتاد على فهم هذه الصلات المعقدة، بشرح مبسط:

- أنا أفهمك، عز وسليم ولاد عم، وأمير أخو عز، لكن عز أخو سليم في الرضاعة، يعني سليم وعز ولاد عم وأخوات، وولاد خاله كمان. فهمت حاجة؟

جاءت الإجابة متفقة من الجميع، حيث نطقوا في نفس واحد بكلمة نافيه:

-لا.

حرك "أحمد" كتفيه بلا مبالاة، متحدثًا بملل:

-أحسن، مش هشرح تاني.

نهض "محمد" مبتعدًا عنهم ليأخذ اتصالاً، وقبل أن ينطق بحرف، تحدثت هي من الجانب الآخر قائلة:لسه فاكر ترد؟

أجابها وهو يجذب خصلاته للخلف بغضب من ذاته بعدما رأى مكالماتها المتكررة وهو لم ينتبه:

-معلش يا "هاجر"، كان عندي مشكلة كده.

سألته هي بتساؤل عن حاله:

-طيب، أنت عامل إيه؟

تردد محمد في كيفية الرد، هل يقول إنه بخير ويكون كاذبا، أم يخبرها بالحقيقة ويعبر عن تعاسته، أم يكون أكثر رومانسية

ويغزل بها، قائلا إنها الخير الوحيد في حياته؟

أجاب مقتضبًا، متسائلًا عن أحوالها بفرح:

-أنا تمام أكيد ما دام سمعت صوتك. أنت بقى عاملة إيه في الجامعة؟ بتروحي الكورس؟ عملتي إيه مع مامتك؟ قولي كل حاجة، أنا سامعك.

أجابت هي مكتفية بوصف حالها، ثم قالت:

-أنا الحمد لله كويسة، بس عندي خبرين ليك، واحد حلو وواحد وحش.

تحدث محمد بمزاح، ضاحكًا:

-قولي الحلو أحسن، معنديش حاجة عدلة أعرفها.

ترددت هي قليلاً، ثم قالت بتوتر:

-خالو رجع من السفر.

لم يستوعب محمد ما قالته، وفضل عدم الفهم، فقال مزاحًا:

- خالك؟ طيب مبروك يا ستي، فين الخبر الحلو بتاعي؟

أعادت "هاجر" بتعجب:

-محمد، بطل هزار، بقولك خالو رجع.

أجاب محمد بضجر، وسخرية:

&بقولك مبروك، أعمل إيه يعني؟ مبروك، لولوى مبروك ريمكس مبروك، إيه ده، أنت أمك ليها إخوات تانية؟

تحدثت هي بتذمر ونفاذ صبر:

-محمد، أقولك حاجة ومتزعلش؟ أنت تقرب لي إيه؟

سخر محمد من حديثها، فهو لم يشعر يوماً بأنه ينتمي لتلك العائلة، وقال بسخرية:

-أعوذ بالله يعني، أمك تبقى عمتي للأسف.

غضبت "هاجر" بسبب وصفه لأمها:

أولًا: بطل قلة أدب، ثانيًا: مفهمتش حاجة بقى؟

فهم محمد مقصد حديثها، وأدرك أنه اختلق الدعابات ليهرب من الواقع.

تحدث بعدم استيعاب وبصدمة:

-لا، لا بتهزر دي، صح؟

أجابت هي بفرح، ظنًا منها بأن هذا سيسعده:

-لا، مش هزار، باباك رجع بجد

.صرخ محمد بغضب وصوت مرتفع:هاجر، متقوليش الكلمة دي لو سمحتي.تحدثت "هاجر" بتساؤل، عاقدة حاجبيها بشك:

-أنت ما فرحتش، وبعدين يعني إيه مش باباك؟

أجاب بنبرة جامدة، وهو ينهي الحديث:

-يعني معلش، هكلمك تاني، بس سيبيني دلوقتي.

ظل محمد واقفًا في مكانه، محدقًا في السقف، لا يستوعب ما قالته. ماذا تعني كلمة "أبيه"؟ أيستحق رجل رمى بطفله الذي لم يتجاوز السنتين لأخته، ثم ذهب ليستمتع بحياته غير مكترث بالطفل الذي ألقاه في الدنيا ليواجه مصيره؟ أيستحق أن يكون أبًا؟ رجل لم يعرف ابنه إلا في الثامنة من عمره، خلال إجازته الأولى. تخيل الموقف، أن يهتم والدك الذي لم تراه منذ سبع سنوات بشؤون أخته وأولادها، بينما أنت مجرد قطعة ورق منسية. أيستحق أن يكون أبًا عندما طلب منك باكيًا أن تظل معه ولم تستمع له؟ هذا هراء، ليس هو أبوه. الأب الحقيقي هو من رباه منذ كان في الثالثة عشرة، الذي أنقذه من الدمار، الذي علمه الشعر والحب والحياة، والذي يستحق لقب الأب المثالي من وجهة نظره. لكنه ذهب إلى مكان بعيد، تاركًا إياه في الحياة وحيدًا مع أخيه. لم يستسلم، وبدأ حياتهما سويًا، لكن الحياة لم ترحم، وأخذت أخاه أيضًا، ليبقى عاريًا

في وسط الصحراء بلا أهل للمرة الثانية. فقط تلك القطعة المتبقية من النور تضيء له حبه إليها، لكنه فاقد للحنان والحياة والحب، فاقد لكل المشاعر، لكنه يحمد الله على حب أصدقائه ووالدته سمر، وهي تلك القطعة المنيرة في قلبه.

تساءلت "زينة"، التي كانت بمثابة شقيقته الكبرى بعدما علمت هوية المتصل، بلهجة مشوبة بالقلق:

- كان عاوزة إيه "هاجر"؟

نبس هو بهدوء، وقد اختلطت نبراته برماد الحزن:

-"عادل الجبالي" رجع.

كان حديثه كافيًا ليكشف للجميع عمق حزنه، فلطالما كان هذا الاسم بمثابة اسم الشيطان بالنسبة إليه. حتى في الأوراق الشخصية الخاصة به، قد غيّر اسمه إلى "محمد نوح زكي". هو يعلم أن هذا تزوير، ومن الممكن أن يؤدي به إلى السجن. ويعلم أيضًا بأمر أوراقه الشخصية الحقيقية، لكنه أخفاها ليظل بتلك الأوراق المزورة، التي كانت السبيل الوحيد له لإكمال دراسته.ما عاناه من ألم دائمًا ما فصل بينه وبين الواقع بحاجز كبير من الأحزان لم يتمكن من تخطيه حتى الآن.

في غرفة واسعة يغمرها ضوء النهار المتسلل عبر زجاج يطل على حديقة خضراء مترامية الأطراف، كان الهواء مشبعًا برائحة الطبيعة الطازجة. بين النباتات المورقة وحوض السباحة الكبير، وقف رجلان من الأمن يراقبان المكان بحذر.

أما داخل الغرفة، فتوزعت الآلات والمعدات الرياضية بعناية. ووسط هذا الجو الهادئ، كان هو يتنقل بانسجام بين تمارينه الرياضية. حركاته كانت سلسة ودقيقة، تدل على مرونة غير متوقعة لرجل في الثانية والأربعين من عمره. خاصة مع ارتدائه لسترة رياضية سوداء وبنطال مماثل، مما أضفى عليه مظهرًا يبعث على الهيبة والقوة.

تحدث بطلاقة وهدوء بلغة ألمانية ناعمة، لكن كلماته كانت تحمل تهديدًا قاسيًا:

–Ich verstehe das, Sheriff, aber der Junge dieses jungen Mannes lebt. Handeln Sie schnell, denn wenn er wegläuft, schwöre ich bei dem, der mich erschaffen hat, Ihre Seele wird mir nicht genügen.

"أفهم ذلك يا شريف، لكن أريد ذلك الشاب حيًا، تصرف بسرعة؛ لأنه إن هرب، أقسم بالذي خلقني أن روحك لن تكفيني.

"كان صوته صارمًا ومليئًا بالثقة، يعكس شخصية لا تقبل المساومة. عاد ليتذكر ملامح الشخص المطلوب:

–Wegen des Schals, den er um das Gesicht trug, kenne ich seine Gesichtszüge nicht im Detail. Er war groß, sein Körper war athletisch, ich glaube, er war Anfang Zwanzig, er hatte ein braunes Kinn.

"لا أعرف ملامحه بالتفصيل بسبب الوشاح الذي كان يغطي وجهه، لكن كان طويل القامة، وجسده رياضي، ربما في أوائل العشرينات، وله ذقن بني.

"تعمق في تهديده، وكأن كلماته تنساب كسم بطيء:

–Ich werde darauf warten, ihn unter meinen Armen zu sehen, während ich seine Seele anstelle deiner nehme. Du hast mich verstanden.

"سأنتظر أن أراه بين يدي، بينما آخذ روحه بدلًا من روحك. هل فهمت؟

"في تلك اللحظة، تسللت "هاجر" إلى الغرفة بهدوء، عينها تتأمل المكان من حولها قبل أن تجلس بهدوء. لم يكن الاشتياق له وحده ما يملأ قلبها، بل كانت تدور في رأسها أفكار معقدة حول ما ينتظر عائلتها في المستقبل. ومع ذلك، كان السؤال الذي يقض مضجعها ويسيطر على أفكارها واحدًا: هل يمكن للإنسان أن يغفر بالكامل؟

بحسب ما تعلمته في قسم علم النفس، كانت تؤمن بأن النفس البشرية لا تستطيع أن تسامح تمامًا؛ بل تظل هناك بقايا من المرارة والضغينة عالقة في زوايا القلب، حتى لو بدا العفو ممكنًا.نظرت إليه بتحدٍ ممزوج ببعض الخبث، وكأنها تبحث عن ثغرة في درع قوته:

- أيوة، بس مش حاسس إنك ناقصك حاجة؟

رفع عينيه نحوها، وجهه يعكس استغرابًا لحظيًا. لم يكن يتوقع هذا السؤال المفاجئ:

- حاجة إيه؟ أنا ظبطت كل حاجة هنا.

ترددت قليلًا قبل أن تتحدث مجددًا، عينها تراقب كل تفصيل في ملامحه، وكأنها تخشى إجابته القادمة:

- لا، حاجة أهم من كده، ابنك مثلًا؟

شعرت بنبرة صوتها وهي تمس الوتر الحساس داخله، كلمتها كانت كالسهم الذي أصاب هدفه بدقة فجأة، شعر بغصة تضغط على قلبه،.لم يكن يعرف إذا كان ما يشعر به هو اشتياق عميق لابنه أم خوف من شيء مجهول يقترب منه ببطء. حاول أن يخفي ارتباكه بكلمات مختصرة:

- ها، أشوفه قريب.

لكن، كانت عيناه تقولان أكثر من ذلك. تلك النظرة التي تحمل في طياتها أسرارًا أعمق مما يستطيع التعبير عنه بالكلمات. هناك أشياء دفينة في قلبه، أشياء لا يمكنه البوح بها، و"هاجر" وحدها تملك مفاتيح حل تلك الألغاز.

ما معنى الحقيقة؟
تساءل بصوت مبحوح وكأنه يبحث عن إجابة في عالم خال من اليقين.
"لا شيء ثابت في هذه الحياة، فكيف يمكن أن تكون هناك حقيقة ثابتة؟ كل شيء يتغير، العمر، العدل، الحياة نفسها، بدون شروق الشمس، لا توجد حقائق.

"كانت "سمر" تجلس في زاوية الغرفة، نظراتها تتوجه نحو ابنها الذي طال صمته منذ أن تساقط الخبر عليه كالصاعقة في الصباح. لم يكن الحزن شعورًا جديدًا بالنسبة له، فقد كان رفيق دربه الأول منذ سنوات،لكنها لم تحمل هذا الطفل في رحمها، ولم ينبت في أحشائها، ورغم ذلك أصبح جزءًا منها، تشعر بحزنه كما تشعر بفرحه، منذ خمس سنوات، حينما رأته لأول مرة وهو يلجأ إليها للاحتماء من العالم. شعرت بذلك الرابط الخفي بينهما، ربما أبعدته الظروف عنها في مرات عديدة. لكن الزمن دائمًا ما كان يعيد جمع شتاتهم، قطعت "سمر" الصمت بكلماتها الحنونة:

– وبعدين؟ هتفضل قاعد ساكت كده يا حبيبي؟ ده أمر واقع وملوش علاقة بيك.

"رفع "محمد" عينيه نحوها، وتحدث بنبرة حزينة تختلط بالأسى:

– هو أنا متحبش بجد؟ يعني أستحق الكل يتخلى عني وينفر مني؟

ردت عليه وهي تمسح خصلات شعره بحنان، تنفي ما قاله بحركة بسيطة:

– ليه بس كده؟ ده وجودك معانا بالدنيا كلها، أنا أمك يا حبيبي.

تحدث "محمد" بسخرية مريرة، وكأن حزنه يتسرب من خلال كلماته:

– بس مش ده اللي شايفه، أنا شايف عيل مالوش لازمة أمي ماتت من يوم ولادتي، صوتها ما سمعتهوش ولا شوفت صورتها، أب تخلى عني من غير سبب، أهلي اللي المفروض يكونوا أهلي، آذوني بدون سبب، طفولة محطمة بالمعنى الحرفي عمري ما كنت طفل، اتربيت بين عصابات ومجرمين وفي بلاد ما عرفش عنها حاجة، حتى الشخص الوحيد اللي انتشلني من ده كله وبقى ليا أهل وبيت وأب وأخ، عملت كل حاجة وحشة في الدنيا، ويوم ما اتصلحت، سابني ومات، رجعت أسوأ من الأول، عمري ما فرحت، وكل حاجة بتضيع مني. مش بببن علشان اتعودت، أنا سرقت الحب من كل اللي حبتهم، حتى إنت، مش هعرف أحضنك لأني مش ابنك، ومش هعرف أبكي لأن بكائي ملوش معنى، ومش هقدر أهدأ.

احتضنت "سمر" وجهه بيديها المرتعشتين، عيناها تمتلئ بالدموع، وقلبها يغلي من الحزن:

– بس كفاية، ليه بتجلد نفسك كده يا بني؟ كفاية على نفسك كده، كفاية.

"شعر "محمد" بالقهر والحزن العميق يتسلل إلى قلبه، وأطلق تنهيدة مثقلة بالهموم:

– كان نفسي تكوني أمي بجد، يكون لي حق في حنانك وفي حضنك، بس أهي جزء من الحاجات اللي كانت نفسي وراحت.

في تلك اللحظة، شعرت "سمر" بخوف عميق يعتريها الخوف من أن يُؤخذ منها كما في المرة السابقة. لكن هذه المرة، لن تسمح لأحد بأن يسرقه منها مهما كان الثمن،احتضنته بقوة، وكأنها تحاول حماية قلبه وروحه من الانكسار:

- أيوة أنا أمك، ومحدش يقدر يقول غير كده. أنت ابني أنا وبس، سامع؟

"سكت "محمد"، وترك نفسه ينغمر في دفء حضنها. كم مرة تحدث عن البكاء، وكم مرة منعته الحياة من أن يذرف دموعه. الحياة قاسية، لا تمنحه فرصة للتنفس. ضربة تلو الأخرى، وهو لا يزال واقفًا، يكافح ليظل على قيد الحياة، ومعركته لم تنته بعد

في بعض الأحيان، تجبرنا الحياة على اتخاذ منعطفات لم نكن لنختارها بإرادتنا. نجد أنفسنا في غربة لا نعرف أين ينتهي الطريق، وتجرنا تلك المسارات بعيدا، لتضعنا في مفترق طرق لا رجعة منه.

بعد أكثر من عشرة أيام من الانشغال، أنهى "عادل" أخيراً كل أعماله التي كانت تعيقه عن لقاء ابنه الوحيد.

أخذته "هاجر" إلى النادي حيث تعلم أن الابن يأتي مع أصدقائه هنا لقضاء بعض الوقت، حتى ولو كان قليلاً، بينما كان "عادل" ينظر إلى ساعته بقلق، تساءل وهو يعقد حاجبيه:

- متأكدة إنه بيجي هنا؟

أجابته "هاجر" بحيرة وشيء من الإحباط بسبب التأخير:

- الحقيقة هو مش عضو هنا، بس قال لي قبل كده إنه بيجي مع أصحابه، والنهارده المعاد اللي قال لي عليه، غير كده، "إسلام" صاحبه مدرب هنا.

"بعد انتهاء التدريب، كان "إسلام" يخرج أولاً ممسكًا بمنشفة وزجاجة ماء. بنيته الرياضية القوية كانت نتيجة عمله كمدرب بعد تخرجه من كلية التربية الرياضية، حيث قرر أن يمارس شغفه في الرياضة، الشيء الأقرب لقلبه. حتى ملامحه عكست شغفه؛ خصلاته الفحمية، لحيته المشذبة، وعيناه السوداوان المكحلتان. كلها كانت تعطيه مظهر القوة والانضباط.

تحدث "إسلام" بروح قيادية مليئة بالاعتزاز الزائف بعدما أنهك "سليم" في التدريب لمدة ساعتين دون طعام:

- كده تيجوا يومين في الأسبوع، هعملكم فورمة فظيعة.

عقّب "محمد" بسخرية وتهكم:

- أحسن حاجة إنه قال فظيعة.

فجأة، صدح صوت مألوف في المكان، رفع "محمد" عينيه باحثًا عن مصدر الصوت، لم يكن بحاجة إلى البحث بعينيه كثيراً؛ قلبه كان يعرفها كما يعرف المسلمون القبلة، تحدثت "هاجر"

وهي تلوح له من بعيد، محاولة لفت انتباهه:

- أنا هنا يا "محمد"!

أسرع نحوها متخطياً الجميع، وعيناه لا تفارقان وجهها، تحدث بشوق، مشاعر حنينه واضحة في صوته:

- يا "هيرو"، كنتِ فين؟

لكن "هاجر" أنهت كل شيء بإشارة واحدة حين قالت:

- بص مين هناك؟

كان المشهد الذي رأوه كفيلاً بشل ألسنتهم. لم يعرفوا كيف يتصرفون. هل يعرفهم؟ هل هو السبب وراء كل هذا؟ كيف للصدف أن تلعب بمصائرهم هكذا، بلا شفقة، وتلقي بهم في هاوية لا مخرج منها؟

البارت الثالث

"يوم بألف ليله"

في ليلة باردة من ليالي ديسمبر، كانت الغرفة مغلقة منذ أكثر من ثلاثين يومًا، واسعة لكن يملأها البرد الذي يخترق العظام، ورغم ذلك، شعر أنها أضيق من القبر، تكاد تطبق على أنفاسه، لم يذق طعم النوم منذ أربعة أيام، والهلاوس بدأت تسيطر على عقله المرهق، في الركن البعيد من الغرفة، كانت تظهر له صورة جثته المتعفنة، والصقور تنهش من لحمها، بينما في مكان آخر، كان يرى نفسه يغرق في بحور من الدماء، وكما في كل مرة، يتكرر أمامه ذلك المشهد الذي غيّر مسار حياته إلى الأبد.

كان عائدًا من المدرسة، منهكًا بعد يوم طويل في محاولات فاشلة للتأقلم مع زملائه، وجده جالسًا في غرفته، وعلى وجهه علامات القلق. عقد حاجبيه وسأله بارتباك:

- رجعت بدري!؟ مش هتروح الحفلة مع المدرسة

؟أجابه الصغير بنبرة مقتضبة، وكأنه لا يطيق سماعه:

- لا، صحابي مش هناك.

ازدادت حيرة الآخر وارتباكه، فلم يكن يتوقع وجوده:

-أنا جاي لي ضيوف، روح عند هيثم صاحبك.

رد عليه الطفل وهو يلقي جسده على السرير، متثاقلًا من شدة الإرهاق:لا، أنا هنام، مش عاوز أخرج. لما عمتي ترجع، صحيني.

بعد لحظات، بدأ يسمع ضحكات مكتومة قادمة من الطابق السفلي، فتح عينيه بتثاقل، ثم تحرك ليأخذ زجاجة الماء التي بجانبه، لكنها كانت فارغة، قرر النزول للأسفل ليأخذ كوبًا من الماء، كان المنزل هادئًا على غير العادة، والضوء خافتًا،الأرضية مغطاة ببعض الملابس المبعثرة، لكنه تجاهلها، أخذ كوب الماء وصعد مرة أخرى إلى غرفته، ولكن ما شاهده بعدها ظل محفورًا في ذاكرته إلى الأبد.

رأى الرجل الذي اعتاد أن يثق به وهو يحاول أن يقوم بفعل شنيع مع الطفلة الصغيرة، ابنة المساعدة الخاصة بالمنزل، كانت الطفلة تبكي بشدة، مستنجدة به بصوت متقطع:

-الحقني، أرجوك!

كانت شهقاتها تعلو بينما بدأت يد الرجل تضغط على عنقها الصغير لم يتمالك الطفل نفسه، هرع نحوها ليحاول تحريرها، لكن ضربة واحدة من الرجل أسقطته أرضًا، لتنتهي به الحال ساقطًا من الطابق الثاني.

طرقات خفيفة على الباب أعادته من كابوسه إلى واقع أشد قسوة، أفاق ليجد نفسه مقيد اليدين والقدمين ومعصوب العينين جسده كله كان ينبض بالألم، وكأن كل جزء فيه يناديه بالهروب، أصابته نوبة هلع، فبدأ يركل الأرض بقدميه، يحاول تحرير نفسه، وتحرك رأسه بشكل هستيري، محاولًا استيعاب ما يحدث.

بصوت خافت يشبه الفحيح، همس:

-مش قولتلك امشي؟ قولتلك امشي! وقولتلك من زمان صابر عليك، بقالي سبع سنين، بس أنت اللي بدأت، زي ما أبوك بدأ زمان... العين بالعين، والسن بالسن، والبادي أظلم.

منذ ذلك اليوم، لم يعد الطفل الصغير كما كان. صاحب السبع سنوات تحول إلى رجل يحمل في قلبه أحزانًا وآلامًا لا تحتمل. انتهى كل ما كان يسعده، وتحوّل العالم إلى مسرح للجحيم، وكأن الحياة تخبره أن رحلته التي بدأت لن تنتهي إلا بمصيره المحتوم... الموت.

الأقدار، تلك التي تكتب فقط لأجلك، إما أن يكون ما كتب لك شقاء، أو شقاء مضاعفا، تتداخل الأقدار لتتركك تائها في بحور الندم والظلام.

أفاق من غيبوبته عندما سمع صوت "هاجر" الرقيق يحاول إيقاظه وهي تقول:

- محمد... إنت سامعني؟

رد عليها بجفاف وهو يتجنب النظر إلى عينيها، وكأن كلماته نفسها حملت ثقلًا لا يُحتمل:

-سامع... محتاجة حاجة؟

في تلك اللحظة، كان "عادل" يضيق عينيه وهو يراقب "محمد" بتفحص، محاولًا أن يستجمع صورة ضائعة من ذاكرته، فقال بتساؤل يختلط بالشك:

-أنا شوفتك قبل كده، صح؟

مر الصمت كغيمة ثقيلة على أرواحهم، شعور الهلاك يتربص بهم من كل زاوية، والموقف كشف أوراقهم جميعًا.. بدا الهروب مستحيلًا، وسط هذه الأجواء المشحونة، كان "عز" أول من استعاد توازنه، فقال بلهجة ساخرة:

-أظن ده شيء طبيعي، ده ابنك... لكن بالشكل ده، معتقدش.

غص "عادل" بجرح خفي في كبريائه، لكنه كتم غيظه، واختار أن يرد بسخرية لاذعة وهو يحاول الحفاظ على أعصابه:

- وأنت محاميه ولا إيه؟

رفع "محمد" يده أمام "عز" بإشارة صامتة طلبًا للتوقف عن الكلام، لكن عقله كان مشغولًا، كان ينظر إلى "عادل" بعينين تعكسان صورة مشوهة، كأنه يرى وجهًا قديمًا يعود من بين الغبار، لكنه لا يستطيع التعرف عليه بوضوح، مشاعر الغربة والخوف تسربت إلى قلبه، ولم يجد ملامح مألوفة في هذا الوجه الذي يحدق فيه، قطع "محمد" هذا السكون المحرج بسخرية ثقيلة وهو ينظر إلى "هاجر" ثم إلى "عادل":

-حمد الله على سلامة خالك يا هاجر... أنا وراي شغل، أشوفك بعدين.

شعرت "هاجر" بضغط يحيط بها، وهي تتابع "محمد" يفر من أمامها كما لو كان يهرب من حقيقة لا يريد مواجهتها، كانت تعلم أن العلاقة بينهما معقدة، لكنها لم تتوقع أن تصل لهذا الحد من السوء. الخوف من المستقبل تسلل إلى قلبها، كانت تعلم أن ما هو قادم قد يكون أسوأ بكثير

وقفت متجمدة في مكانها، لا تعرف كيف ترد، ثم همست بصوت مكسور وكلمات ثقيلة:

-خالو... أنا آسفة، هو أكيد بس اتفاجئ.

نظر "عادل" حوله بتفحص وهو يزفر ببطء، محاولًا طرد المشاعر المتخبطة داخله، ربما لم يكن يهتم لأمر "محمد" من قبل، لكنه لم يتوقع أن يكون لقاؤهما الأول بعد كل هذه السنوات بهذا الشكل، أو ربما كان يتوقعه، لكنه رفض الاعتراف بذلك.لم يرد "عادل"، واكتفى بدفع الحساب، ثم أخذ "هاجر" باتجاه السيارة بصمت.

ما هي خطاياك لتقضي عمرك في صراع دائم مع العالم؟ هل كان وجودك قدرا محتوما؟ ماذا لو أنك لم تولد... هل كانت الأمور ستسير بشكل أفضل؟

بعد خروجهم من النادي، جلسوا في السيارة حيث تولى "محمد" القيادة، لكن قيادته كانت سريعة ومتهورة، وكأن الطريق أمامه يتأرجح، لا شيء ثابت رغم سطوع الشمس، كان الضباب يسيطر على الرؤية، لم يكن هذا مجرد طريق للسير، بل كان انعكاسًا لطريق حياته الذي يمضي فيه بلا وجهة واضحة، الجو من حولهم كان مختنقًا بغضبهم الذي لم يتبدد.

قطع "إسلام" الصمت بنبرة غاضبة، وكأنه يشعر أن كل ما يحدث حوله مؤامرة ضخمة، موجهًا حديثه إلى "محمد":

- إنت شوفت اللي أنا شوفته؟ إنت كنت عارف وقت ما ضربته في الحفلة، صح؟.

شعر "محمد" بقشعريرة تسري في جسده، محاولًا أن يُخفف الضغط الذي كان ينهال عليه من كل اتجاه. غرس أظافره في كف يده محاولًا تهدئة نفسه بصعوبة، ثم رد بانفعال وهو يضرب

يده بقوة على مقود السيارة:

- هعرف منين؟ أنا معرفش مين ده أصلًا!

حاول "سليم" أن يخفف من حدة التوتر واحتواء الموقف وهو يتحدث بنبرة هادئة تهدف إلى تبريد الأجواء:

-إهدوا يا جماعة... الحمد لله إنه مش فاكرنا أصلًا.

لكن كلمات "سليم" لم تخفف شيئًا، كانت أنظار الجميع تتجه نحو "محمد"، الذي لم يستطع تحمل الاختناق الذي شعر به، خرج من السيارة وهو ينظر حوله بقلق، قبل أن يهرول باتجاه طريق مجهول، لا يعرف إلى أين يذهب، كل ما كان يريده هو الهروب، الهروب من كل شيء حوله، لكنه كان غارقًا في بحر من الأفكار والذكريات، وكأن قدميه مقيدة بأغلال من حديد، كان يصارع الموت، يصارع الذكريات، يصارع الأمواج المتلاطمة، يبحث عن نفس... مجرد نفس

يستطيع أن يتنفسه. ما أغرب الإنسان، يتمنى الموت ويهرب، لكن عندما تُسلب منه أنفاسه، يصارع للبقاء على قيد الحياة.

"أحمد" شعر بالقلق الشديد وهو يبحث بعينيه عن صديقه في كل مكان. وكأنه أم تبحث عن صغيرها الضائع، رغم كل ما يحدث من شر وخوف واضطراب، كان "محمد" بالنسبة له ما زال ذلك الطفل المتعب، الضائع في خضم مشاعره. انفجر "أحمد" في وجه "إسلام" الذي كان السبب في كل هذا، وقال بغضب:

-عجبك كده؟ مش مهم عندك غير نفسك! خلينا ندور عليه تاني.

"إسلام"، الذي كان يشعر بالذنب، حاول الدفاع عن نفسه وهو يخرج هاتفه ليرسل رسالة لشخص ما ليبحث عن "محمد":

-وأنا ذنبي إيه؟ أنا قولت الحقيقة... خلاص، هكلم "أمير" يدور عليه.

لكن الموقف بدا وكأنه محاولة يائسة للنجاة وسط النيران المشتعلة. لهيب الغضب والندم كان يتصاعد من حولهم، ورغم ذلك كانوا متمسكين ببصيص من الأمل في أن يجدوا "محمد". وكم هو قاسٍ ذلك الأمل عندما يكون في مواجهة الموت.

الطريق... ما هو الطريق؟ تلك الطرق التي حملتنا في أوج لحظات السعادة، وحملتنا في أقسى لحظات الحزن والانكسار.

الطريق هو ذلك الرفيق الذي يختبئ بداخلنا، وكأن مكتوبا عليه أن يكون طويلا بلا نهاية. يحملنا مرة ويقتلنا مرة أخرى.من كان يعلم أن طريقه سيكون بهذا الطول؟لم يدر "محمد" كم من الوقت مضى حتى وصل إلى هذا المكان: العيادة النفسية

الخاصة بالدكتور "نبيل"، طبيبه النفسي الذي قضى معه ساعات من الحزن والخذلان.

طلبت منه الممرضة أن ينتظر بالخارج، فجلس يدون بعض الكلمات في دفتره:

- الألم الذي في جسدي مات وانتهى... لكن ماذا عن قلبي، أيها العالم؟ هل سينتهي ألمه مثل الجسد؟ هذا الألم الذي في صدري هشم أضلعي، ألمه لا تكفيه المسكنات، ولا حتى استشارة طبيب! هذه المشاعر... أشد فتكًا بقلبي من أي شيء آخر."

كتب كلماته متزامنًا مع خروج دخان السيجارة من فمه لم يعلم عدد السجائر التي دخنها، لكن مهما أخرج من دخان، ظلت النار في قلبه مشتعلة، قاطعت الممرضة صمته، وهي تعلم أن ملامحه لا تبشر بالخير:

- اتفضل يا أستاذ "محمد"، ادخل.

دخل إلى الغرفة بخطوات غير متزنة، مشوشًا لا يعلم إن كان فقد الإحساس بالدفء، أم أن الجو بالفعل أصبح مثلجًا لهذه الدرجة، جلس كالجبل الذي انهار من شدة الألم.رحب "نبيل" به بلطف وهو يشير له بالجلوس قائلاً:

- أهلاً بالأستاذ اللي مطلع عيني.

رد "محمد" بنبرة مكتومة، مجرد كلمات متدفقة بلا معنى واضح:

-هو... هو... كنت متأكد إنه هو اللي شوفته.

تساءل "نبيل" مستفسرًا وهو يدرس حالته جيدًا:

- مين يا محمد؟ إنت كويس؟ أنا سامعك.

لاحظ "نبيل" وجود بعض الدماء على يده وأظافره، ولاحظ أيضًا تلك الرجفة التي تسيطر على يده واتساع حدقة عينيه، علم أن النوبة قد أتت له. أخذ حقنة صغيرة من مكتبه وطلب منه أن يستلقي على الشازلونج الطبي، ثم وضع الحقنة في يده ليهدئه، وتحدث بهدوء:

-مين بقى اللي شوفته؟

رد "محمد" بضعف وإرهاق تحت تأثير الحقنة المهدئة التي بدأت تسري في دمه:

-"عادل الجبالي"... هو نفس الشخص اللي ضربته في الحفلة.

عقد "نبيل" حاجبيه متسائلًا:

-باباك؟ إنت كنت عارف؟

سؤال واحد، وإجابة لا تتغير... دائرة فارغة ندور فيها بلا نهاية، أجاب "محمد" بصوت مرتفع ونبرة غاضبة:

- ده مش أبويا! "عادل الجبالي" مش أبويا! أبويا هو "نوح"... اللي جابني هنا من تسع سنين، أبويا اللي دفنته بإيدي من أربع سنين، وأخويا "هيثم نوح" اللي دفنته بإيدي من سنة ونص، دول أهلي، أمي هي "سمر" اللي ربتني ست سنين، غير كده مليش أهل إنت سامع؟

بعد أن اختتم حديثه، هدأ جسده وسقط على المقعد محاولاً التنفس بصعوبة كان يشعر بالاختناق، وكأن أكسجين العالم كله لا يكفيه، نبضات قلبه كانت تتصارع، وكأنها تقف فوق روحه.

تحدث "نبيل" بعقلانية وهدوء، محاولًا احتواء الموقف:

-إهدا يا محمد... خلاص مش باباك، بس دي الحقيقة. أولاً ده أمر ربنا، إنت ابنه من لحمه ودمه يعني ابنه قانونًا وشرعًا، وبعد عمر طويل هتكون وريثه الشرعي.

بدا الهدوء يعود إلى "محمد" لكنه ما زال يتصارع مع مشاعره المتناقضة، وقال:

-أنا حسيت إني أعرفه وأنا بضربه، حسيت... بس مش أبويا، لو كل الدنيا قالت كده، ده مش أبويا، ده مشافنيش من عشر سنين ده راجل غريب هترجع تقولي أبوك؟ هسيبك وأمشي.

أمسك "نبيل" بيده محاولًا إيقاف رجفتها، وتحدث بهدوء:

-"محمد"... إنت مش ناوي تواجه؟

تحدث "محمد" بسخرية، وابتسامة ميتة ترتسم على وجهه:

-أواجه مين بالضبط؟ أواجه "عادل"؟ ولا "سوزي"؟ ولا "هاجر"؟ ولا أواجه "مصطفى"؟ ولا أواجه نفسي؟ أواجه العيل الصغير اللي لسه متعلق في رقبتي؟ العيل اللي قتلوه بإيديهم وخلوه مجرم ومريض واترمي في الشارع؟

"نبيل" تأثر بكلماته "محمد" ليس مجرد حالة نفسية، بل هو صديق وأخ صغير، هو دائمًا ما يشعر بالمسؤولية تجاهه تحدث "نبيل" بهدوء:

-"محمد"... واجه نفسك. "نوح" دايمًا كان بيقول واجه نفسك اعمل كده... بلاش تهرب، إفتكرت حاجة من اليوم اللي كنا بنتكلم عنه؟

أجاب "محمد" بتعب وإرهاق وهو يمسك برأسه التي كادت تنفجر من شدة الضغط:

-لا، غير إن الدواء اللي إنت كاتبه مبقاش يأثر زود جرعة المورفين.

رد "نبيل" بغضب على طلبه، يعلم أن ألمه يستحق مهدئات قوية، لكن لا يستحق الانتحار:لا، مفيش جرعة زيادة يا "محمد".

بعد انتهاء جلسته الطبية، توجه إلى منزل والده "نوح" وجلس في غرفته. كانت الغرفة مليئة بالدخان بسبب تدخينه المستمر لساعات طويلة دون توقف، ودون تناول طعام. كان هاتفه مغلقاً لكي يظل بمفرده. شهقاته كانت تملأ المكان، ولكنها كانت شهقات خالية من البكاء، وكأنك غارق ولا تستطيع التحدث. هل جربت يومًا أن تكون على وشك الموت، وتكون وسيلة نجاتك الوحيدة هي الصراخ، ولكنك غير قادر على ذلك؟ هذا هو الشعور، عزيزي.

في غرفة منظمة وواسعة، كانت الإضاءة الطبيعية تتسلل من النوافذ الكبيرة، مما يضفي على الأثاث الهادئ بريقًا هادئًا. على المكتب، المليء بالكتب والروايات المتنوعة، كانت هناك أدوات طبية متناثرة هنا وهناك، مما يشير إلى أن هذه الغرفة كانت تستخدم في بعض الأحيان لأغراض طبية، كانت الغرفة تبدو نظيفة ومريحة، لكن تلك الأجواء المريحة لم تعكس حالة سيف الداخلية.

"سيف" كان يقف على الشرفة المطلة على المدينة، حيث كان الهواء النقي ينفخ في وجهه بينما تتراقص أشعة الشمس على المباني، لكنه لم يكن يهتم بهذا المنظر؛ قلقه الشديد كان يتغلغل في أعماقه، كانت يداه ترتجفان قليلاً بينما كان يحدق في الأفق، وقد أدرك تمامًا أن هذا القلق كان يضغط على صدره بشكل متواصل.

تسلل صوت الهاتف فجأة إلى أذنه، وكأنه ينبهه إلى العالم الخارجي. عندما عرف هوية المتصل، ابتسم بمرارة، وهو يتذكر أنه كان في حاجة ماسة إلى هذا الاتصال، رغم كل مشاعره المضطربة،عندما رفع سماعة الهاتف، كانت نبرته تحمل خليطًا من القلق والغضب، وبدأ في الحديث مباشرة:

-مش عارف يا أمير، معرفش والله. هو مش بيرد بقاله يومين. روحنا المقابر عند هيثم، مش موجود. روحنا الاستوديو، مش موجود روحنا لسمر، مش موجود بردو، روحنا للدكتور قال إنه شافه من يومين. روحنا شقتنا، مش هناك، ولا في شقة إسلام.

كان صوته يرتفع تدريجياً، وكأن كل كلمة تعبر عن مزيد من القلق والغضب ثم، ومع تحول نبرته إلى نبرة أكثر هدوءاً، أضاف:

- مستشفيات أي يا أمير؟ لا طبعاً. هو أكيد بخير.

أعقب ذلك، وهو يحاول السيطرة على مشاعره:

- أمير، أقفل، أنا هتصرف.

أغلق الهاتف، وأخذ نفسًا عميقًا ليهدئ نفسه، محاولة إقناع نفسه بأن صديقه بخير وأن غيابه ليس أكثر من حالة عادية. لكنه لم يكن قادراً على تحمل فكرة فراق أحد أصدقائه، وخصوصاً "محمد"، الذي كان دائمًا من يفهمه ويحتويه.

فجأة، قاطع صوت الهاتف تفكيراته، وكأنما كان ذلك تذكيرًا بأن هناك من يهتم،عندما عرف هوية المتصل، كانت نبرته أكثر دفئًا، وقال بسعادة:

-الو يا سمائي.

سُرّ لسماع صوتها، حيث كانت فترة غيابها بسبب سفرها قد زادت من احتياجه لوجودها في حياته،ردت هي من الجهة الأخرى بصوت يحمل بعض القلق والقلق، وهو يذكّره بأن هناك من يهتم بحاله:

-مش بترد ليه يا "سيف"؟

استجاب "سيف" بحديث مقتضب، مملوء بالتوتر، وهو يشعر بأن الوقت يمر بسرعة:

-مش عارفين نوصل "لمحمد".

قالت بخوف، وقد ظهرت مشاعرها تجاه حال "سيف" وصديقه بوضوح:

-طيب، أكلم" هاجر"، يمكن تعرف هو فين؟

أجابها بنفي، محاولاً تخفيف قلقها:

-لا يا" سما"،كده هتقلقيها على الفاضي.

نبس محاولاً التخفيف عن نفسه، أضاف:

وحشتيني جداً، على فكرة.

ردت بخجل وسعادة، وهي تنظر إلى الهاتف، وكأنها تحاول التخفيف من همومه:

- وإنت كمان، بس من إمتى بتقول الكلام الحلو ده؟

تحدث بسرعة وحرج، كأنه يحاول تجنب الحديث عن مشاعره الحقيقية:

-ما هو أصلًا هم قالولي أقولك كده.

قالت بتشنج، وهي تقضم أظافرها، تعبيراً عن قلقها:

-مين اللي قالك يا سيف؟

رد بغباء وعدم مبالاة:

- العيال "أحمد" و"محمد" قالولي.

ردت "سما "بغضب، وهي تشعر بالاستياء من رده:

-أقفل يا "سيف"، أقفل وشوف صاحبك.

رد بسرعة، محاولاً تقديم مبرر:

-خلاص، هقولك حاجة كنت قرأتها.

سألت "سما "بسعادة، وكأنها تحاول إدخال بعض الفرح إلى الحديث بدا حديثك قال:

’أعودُ منتصراً بكل معاركي وأمام عينيها البريئة أهزم لي ألف بيت بالفصيح، أجدتها لكنني في حبها أتلعثم.’

تحدثت بحب وسعادة، وهي تنسجم مع الكلمات التي قرأتها:

- دى بتاعتك أنت اللي كتبها؟

رد "سيف "قاتلاً جميع أحلامها:

-لا، دي بتاعت امرؤ القيس.

تحدثت "سما" بغضب، وقد ظهرت على صوتها علامات الاستياء:

ـ ما أنا عارفة، بس كنت قولي قريتها علشانك، أي حاجة إنما تقولي أمرؤ القيس.

أجاب هو بحب، محاولاً تعويض خيبة أملها:

-مش دي بس، أنا أي حاجة بقراها بشوفك فيها يا سمائي.

ردت هي بكلمة واحدة، مملوءة بالحب:

-بحبك يا "سيف".

لم يستطع الرد قبل أن تغلق الهاتف، فتحدث لنفسه قائلاً بحب:«ستظلين سمائي ونجمتي وقمري يا سما.»بعد ذلك، قرر سيف أن يرتدي ملابسه وينزل مع أصدقائه ليبدأوا رحلة البحث عن صديقهم. كان الإصرار في عينيه، والأمل في قلبه، مستعداً لمواجهة أي صعوبة تعترض طريقهم.

لطالما كان الفرق بين البشر قاسيا؛ تخيل أن تعتاد على شخص ثم يختفي فجأة. عندها، ستشعر وكأنك عاري الجسد في وسط صحراء قاحلة، مجرد ورقة مهملة بلا قيمة.

هذا ما شعر به وهو يودع أباه وأخاه في تلك الحفرة الصغيرة.

حيث أخذت منه الحياة أغلى ما لديه، كان يتساءل يوميا: لماذا فعلت به الدنيا كل هذا؟ لماذا أخذت منه كل شيء بلا عوض؟ لماذا لم تكن رحيمة؟ لماذا كل هذا الألم؟

ثم جاء صوت الشيخ، كعزاء في الظلام: "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ".

كان يكاد يختنق، لا يستطيع البكاء ولا التنفس تذكر المسجد كملاذ أخير، وذهب إليه مترددًا، كيف يدخل بيت الله وهو يخالف أوامره؟ كيف يقف أمامه وهو في حالة لا تسر أحدًا؟ كيف يتوب وهو في هذا الحال؟لكن يدًا دافئة امتدت على كتفه قائلة: -ادخل، يابني، ربنا غفور رحيم،ادخل، فقد أذن لك بالتوبة.

في تلك اللحظة، تمنى لو يستطيع السجود شكرًا لله بعد الصلاة، تذكر تعاليم الصلاة والوضوء التي تعلمها من هيثم وأبيه، لم يقطع الصلاة إلا مرة واحدة، عندما ارتكب خطأ عظيمًا ظن أن الله لن يغفر له، لكنه لم يكن يعلم أن الله يغفر كل شيء، قال الرجل الكبير في السن: -لسه متردد؟

ثم أضاف: - مالك؟ ادخل، ده بيت ربنا.

رد" محمد"، وكأن الكلمات هي طوق نجاته:

- تعبان أوي، عارف إني غلطت وسأظل أغلط. عارف إن روحي هتجرني للغلط تاني وتالث ورابع وعاشر.

رد الرجل بطمأنينة:

-احكي، واعتبر نفسك بتتكلم مع الهواء، احكي.

بدأ "محمد" بسرد كل ما مر به منذ ولادته حتى الآن. رد الرجل بحكمة:

- الابتلاء، يابني، هو اختبار من ربنا ليبقيك على الخير، ويعطيك فرصة للبدء من جديد. كما قال الله: بسم الله الرحمن الرحيم، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا."

رد "محمد "بصوت مبحوح:

-بس مش عارف أعمل إيه.

أجابه الرجل بهدوء وحب، كأنه ينصح صغيراً بدأ الحياة مبكراً:

- مش هينفع أقول لك انسَ الماضي، لكن قلبك وربك هيوجهوك. اتبع قلبك، فهو دليلك.

بعد ساعات من التأمل، عاد "محمد "إلى منزله وفتح هاتفه ليرى المكالمات والرسائل من أصدقائه وأسرته بين الرسائل، كانت رسالة "هاجر" التي تبكي فيها خوفًا من فقدانه او رحيله فجاةبدأ يكتب لها: "عمري ما هسيبك، أنتِ كل حياتي، ومفيش حد يسيب روحه .

ثم أضاف بالعربية: "لو مال قلبي عن هواك نزعتهُ، وشتريتُ قلبًا في هواك يذوبٌ. آياتُ حبكَ في فؤادي أحكمت، من قال أنني عن هواك أتوب."

كان هذا أول اعتراف صادق من قلبه بحبها. نعم، يحبها أكثر من أي وقت مضى، وهو متأكد أن حبه لها ازداد أضعافًا منذ ذلك اليوم وحتى الآن.

أخيراً، قالت عشق لزوجها "ياسر" ، العائد من السفر بعد سبع سنوات: "أخيراً يا ياسر، رجعت لينا." كان حبها له يزداد يومًا بعد يوم، ولما تسأله عن حبه لها، كان يرد: "من قال إن البعيد عن العين بعيد عن القلب؟ أنتِ ساكنة قلبي وعيني، يا عشقي."

البارت الرابع

"منذ بضعة أعوام"

بدأ كل شيء صغيرًا بالنسبة له، فتح عينيه متفقدًا الغرفة، ولأول مرة رآها؛ إذ كانت الأيام الماضية عبارة عن ظلام دامس بسبب الرابطة السوداء التي أحكمت على عينيه منذ أيام لا يعرف عددها بعد محاولات عديدة، نجح أخيرًا في فك رباط يديه، فوقف مترنحًا، وأول ما فعله هو التوجه نحو الشباك محاولًا الفرار، لكنه وجد المحاولة بلا جدوى بسبب الأقفال الثقيلة، جلس يفكر، عقله يبحث عن مخرج فجأة، تذكر شيئًا مهمًا: تلك السكينة الصغيرة التي كان قد خبأها قبل أيام.

رغم الحروق التي كانت تعوق حركته في قدميه، تمكن من الزحف نحو السكينة وخبأها مجددًا في ملابسه بعناية كي لا يكتشفها أحد بدأ يضرب الباب بكل قوته، ممسكًا بذرات الأمل التي لا تزال عالقة في صدره فجأة، فتح الباب ودخل عليه الآخر، يراه وقد أصبح حرًا.

قال الآخر بنبرة مستهزئة:

- مش ناوي تجيبها لبر؟ تفتكر يعني هتنجح بالهبل ده؟

ثم ركله بقوة للخلف، ليعيد ربطه من جديد توالت الركلات على معدته، حتى انفجرت الدماء من فمه، لكنه لم يستسلم ببطء، أخرج السكينة الصغيرة، محاولًا أن يغرسها في يد الآخر.

بصوت حاقد، ممتلئ بقوة لم يعرفها من قبل، قال:

-أنا هخرج من هنا.. حتى لو على جثتك.

كان الألم يعصف به، لكنه بقي مصممًا على الخروج من تلك الغرفة المظلمة الآخر لم يهدأ، بل وجه له صفعة قوية أسقطته أرضًا، بعد محاولته للنهوض مجددًا، نجح في غرز السكين أسفل معدة الآخر، الذي سقط بدوره أرضًا.

كان يشعر بالارتباك، لا يعرف ما يجب عليه فعله. سحب السكينة من بطن الآخر، وبدأ يفر هاربًا.. ولكن فجأة توقف، وعيناه توسعتا في ذهول. لقد وجدها هناك، آخر شيء توقعه!

رحلة البحث عن النفس تستغرق وقتًا طويلًا، قد تستغرق العمر بأكمله، إنها رحلة تأخذ منك روحك، ونفسك، وكل ما يحيط بك، من علاقات وحتى إيمانك تستنزفك بشكل غير متوقع.

بعد تفكير طويل، قرر "محمد" أن يأخذ هاتفه ليتحدث مع أصدقائه في لحظة تردد، قرر أن يتصل بهم جميعًا في مكالمة جماعية، ليتجنب تكرار حديثه مرارًا.

بدأت المكالمة بعد لحظات قليلة، لكن سرعان ما انطلقت الشتائم من البعض بسبب غيابه المتواصل لمدة أسبوع بينما الآخرون كانوا يسألون عن صحته بقلق.

تحدث" محمد "بنبرة هادئة تعكس إرهاقه الشديد:

-إهدوا شوية علشان أعرف أتكلم.

تحدث "أمير"، بغضب وصوت مرتفع، صرخ:

- إهدا؟! غايب أسبوع كامل وما نعرفش عنك حاجة وتقول إهدا؟ يا أخي إنت بارد ولا إيه؟

صوت "محمد "حمل حزنًا شديدًا، وكأنه يحمل ثقل العالم على كتفيه:

-خلصت؟ طيب، حد فكر إني ببعد علشان ما أأذيش حد؟ حد فكر إني كنت لوحدي علشان خايف أأذيكم؟

عم الصمت الجميع بعد كلماته، وفهموا أن غيابه لم يكن بسبب إهمال، بل لحمايتهم"أمير" بنبرة مهزوزة تعكس قلقه، سأل:

-طيب كنت فين؟

تحدث "أحمد"، محاولًا تهدئته، قائلا:

خد وقتك، وإحنا ها نيجي عندك.

نبس "سيف"، بصوت مليء بالحزن ونبرة بكاء، قال:

- "محمد" اقفل وأنا هاجيلك، مش معقول نسيبك كده.

لكن "محمد "قطع الحديث سريعًا:

- أنا هكون كويس... محدش يجيلي.

أغلق الهاتف بعد حديث طويل لم يكن يتذكره، وكأن عقله قد انفصل عن الواقع لم يكن يعرف ما قيل، ولا ما تحدثوا به كل ما كان يعرفه هو أنه ليس بخير، وأنه بحاجة للنوم الآن. لم يعد قادرًا على التحرك، فسقط في سبات عميق.

كان ينزل السلم بسرعة متعجلة، خطواته تتسارع وكأنما الزمن نفسه يضغط عليه، كانت ملامح وجهه عابسة وعيناه تعكسان قلقًا عميقًا وهو يسرع فقط ليطمئن على صديقه، عند وصوله إلى الأسفل، توقف للحظة ليستجمع أنفاسه، ثم وجه حديثه إلى زوجته بلهجة هادئة ولكنها تحمل في طياتها الحزم، وهو يحمل حقيبته بيد ثابتة:

- "ميرنا" أنا هخرج دلوقتي علشان أطمن على "محمد". لو احتجتي أي حاجة، كلميني.

وقفت "ميرنا" بجانب الباب، وهي ترتدي معطفها وتبدو علامات القلق بادية على وجهها سألت بصوت خافت طغى عليه التعب والقلق، مستشعرة أهمية اللحظة:

- طيب، ممكن أخرج معاك علشان أطمن عليه؟

أجابها "إسلام "بالنفي، مشيرًا بيده إلى الباب وهو يغادر المنزل:

- لا، ابقي هنا، تعالي بالليل، هو دلوقتي أكيد تعبان، والأحسن تسيبيه يرتاح.
أغلق" إسلام" الباب خلفه وركب سيارته بسرعة، وكأن كل ثانية تأخير قد تعني زيادة في القلق.
انطلقت السيارة إلى وجهتها، والضوء الساطع للمدينة يمر سريعاً من جانبيه.
في تلك الأثناء، جلست ميرنا على المقعد وهي تحاول الاتصال" بهاجر" مراراً وتكراراً كانت أنفاسها تتسارع، وقلبها يدق بقوة.
بعد عدة محاولات، ردت هاجر بصوت متسائل وعصبي قليلاً:
- "ميرنا"، إنتِ فين؟ إنتِ عند "سما"؟
أجابت "ميرنا"، وهي تحاول الحفاظ على هدوئها قدر الإمكان، ولكنها لم تستطع إخفاء القلق في صوتها:
- لا، "سما" هترجع بكرة، مش النهاردة، أنا في البيت دلوقتي.
قالت "هاجر" بتردد وخجل:
-طيب، ممكن أتكلم معاكي شوية؟
شعرت" ميرنا" بسعادة غامرة، إذ كانت هذه فرصة نادرة لمشاركة مشاعرها، خاصة وأن "هاجر "كانت دائمًا تحفظ أسرارها لنفسها.أجابت بحماس:
-أيوة، طبعاً يا حبيبتي، إحنا مش صحاب ولا إيه؟
كان سؤال" ميرنا "بمثابة طوق نجاة "لهاجر"، التي رغم صداقتهما التي دامت لأربع سنوات، ظلت غامضة بالنسبة لهم بسبب تحفظها، لم تتحدث إلا عن الأمور العادية، وأبقت كل أسرارها الخاصة مخفية.
سألت "هاجر" مرة أخرى، وهي تحاول أن تعرف أين يمكنهما اللقاء:
- طيب، ممكن نتقابل فين؟
أجابت "ميرنا" بسعادة، وهي تشعر بلهفة اللقاء:
-أيوة، أكيد،هبعتلك لوكيشن تيجي فيهتعالي هنا، في شوية مواضيع عايزة أتكلم فيها معاك.
كان صوت "ميرنا "مليئاً بالحماسة لأنها ستلتقي بهاجر بعد فترة طويلة لم يتحدثوا فيها، ولديها بعض المواضيع التي تحتاج إلى نقاش.

كانوا يجلسون حوله في غرفة تضم سبعة أفراد، والمشهد بدا غريبًا نوعًا ما تخيَّل أن تملك أصدقاء، جميعهم مخلصون كأغصان شجرة باسقة؛ تبدو رقيقة من الخارج، لكن جذورها متعمقة في الأرض، تمسك بها بقوة لا تنفصم.

فجأة، رفع "أمير" صوته عاليًا، ليخيم الصمت على الجميع. لكن بعد دقيقة واحدة فقط، عادوا

إلى حديثهم وكأن شيئًا لم يحدث. اشتعل غضب "أمير" وضرب بيده على المنضدة صارخًا:

- بس بقى! كفاية! إيه، مش بتسكتوا أبدًا؟

سرت موجة من الصمت بينهم، باستثناء "سيف" الذي لم يعر الموقف اهتمامًا، وظل يتحدث عبر هاتفه مع "سما"، دون أن يبالي بما يحدث حوله أو بصديقه الذي كان يتألم في داخله.

ابتسم "سيف" بخفة وهو يهمس:

- يعني بتحبيني بجد؟ مش حاسه إني مأثر في حاجة؟

كانت هذه الكلمات غريبة على "سيف" نفسه: فمنذ أن عرف "سما"، تغيرت حياته بشكل لم يكن يتوقعه الحب الذي غمر قلبه جعله شخصًا آخر.

جاء صوت "سما" من الهاتف برقة واضحة:

- أيوه بحبك، ومش لازم كل شوية تحس إنك مأثر في حاجة متكسفنيش بقى يا سيفو.

ارتسمت على وجوه الجميع ملامح التعجب، فعلق "عز" مستنكرًا:

- سيفو؟ يا عرة المجتمع، سيفو؟

لكن "سيف" لم يلتفت إلى سخريتهم ورد ببساطة:

- سمائي أنت وقمري الوحيد يا فتاة.

تحدث بالفصحى، مما أثار موجة من الضحك بينهم:

- سمائي مين يا عنيا؟

ورغم ذلك، استمر "سيف" في حديثه، مغمرًا بالحب:

- سيبك منهم، هتفضلي القمر الوحيد في سمائي يا سما.

لكن فجأة، ساد الصمت على الطرف الآخر؛ فقد انقطعت المكالمة بسبب ضعف الشبكة خلال رحلة "سما" فوق جبال سيناء.

انتفض "أحمد" وسحب "سيف" من ملابسه قائلاً باستهزاء:

- خلصت الهبل ده يا أوفر؟

رد "سيف" متحديًا، رافعًا حاجبيه:

- "آه، خلصت، يا سنجل يا فاقد الشغف أنت وهو.

ابتسم "عز" بفخر مبررًا:

- سناجل، أنا لا حبيبي، أنا مخطوب بقى!

وأشار إلى خاتمه بفخر؛ إذ تمت خطبته على "زينة" منذ أشهر، والزواج قريب.

تدخل "أمير" متعجبًا:

- إنتوا ناسيين إني متجوز ولا إيه؟

قاطعه "أحمد" ضاحكًا:

- وأنا مش سينجل يا غجر، أنا خاطب "جميلة".

ضج الجميع بالضحك على محاولة "أحمد" تقليد "سيف" في حديثه العاطفي، لكن بطريقة ساخرة.

صرخ "أمير" مجددًا، وقد بدا عليه الامتعاض:

- ما بس بقى يا أهبل، إنت وهو! أنا متجوز" جيداء" من سنتين وما بقولش حاجة عادي يعني!

كانت في صوته نبرة فخر خفية، فـ"جيداء" كانت أميرة قلبه، وقد حارب لأجلها حتى تزوجها.

في تلك اللحظة، نظر "محمد" إليهم بتعجب من تصرفاتهم فقد جاءوا للاطمئنان عليه، لكنهم غرقوا في حديث جانبي قد يقضون ساعات يتجادلون فيه.

تحدث "محمد" بغيظ مكبوت:

- آه، خليكم في قصص الحب دي، وأنا هنا أولع.

ضحك "أمير" ساخرًا:

- هو حد يقدر يمسك؟

لكن "محمد" رد بنبرة غاضبة لم تتناسب مع الموقف:

- استخف بكلامي يا "أمير"، ما كانت ناقصة.

حاول "أمير" تهدئته، مدركًا أن "محمد" لم يكن يقصد الابتعاد إلا لحمايتهم من خطر ربما لم يره الجميع.

ثم تناول "محمد" كوب مشروبه المفضل، مزيجًا من الحليب والشوكولاتة، وقال:

- "طيب، هقولكم اللي حصل من الأول، من يوم ما مشيت، بس محدش يقطعني."

بدأ "محمد" في سرد الأحداث، فيما كان الوقت يمضي سريعا، لكنه شعر بالراحة لوجودهم بجانبه، مهما كانت الظروف.

في منزل "ميرنا"، استقبلت صديقتها استقبالًا حارًا، فهي تراها أكثر أصدقائها قربًا، وأكثرهم حبًا لها تعتبرها ابنتها من شدة اهتمامها بها، فهي ترافقها في كل شيء، تشبهها في الأفكار والرؤى،على النقيض، كانت "هاجر" مختلفة تمامًا؛ تربية قاسية وغير صحيحة جعلتها تفقد الثقة في الآخرين. منذ صغرها، لم تشعر يومًا بالأمان أو الاطمئنان لأي شخص أو أي شيء،كانت دومًا وحيدة في حزنها وسعادتها، لم يسمح لها بإقامة صداقات، فظلت بمفردها في كل حالاتها.

تحدثت "هاجر" بنبرة متوترة ومرتبكة، كما هو حالها دائمًا عند البدء بالكلام، قائلة:

- ميرنا، أنا حاسة إن في حاجة غريبة، حاجة مش مفهومة.

ردت "ميرنا" بفضول، وقد رفعت صوتها متلهفة لمعرفة ما يجول بخاطرها:

- متنطقي، حاسة بإيه يا هاجر؟ كده هتموتيني فضول!

ترددت "هاجر" قليلًا، قلبها يميل إلى أنها تشك بلا دليل، ولكن عقلها كان يصدق كل شعور ينتابها قالت بصوت غير واثق:

- بصي... أنا حاسة إن أنا و"محمد" بنحب بعض... أقصد، هو اللي بيحبني، وأنا مش فاهمة حاجة.

كان شعور فقدان الثقة بالنفس يطاردها، فالأمر لم يكن يتعلق بمحمد فقط؛ بل كانت كل شيء حولها يبدو أكبر من قدرتها على التحمل، وما زاد الأمر سوءًا هو تأثير عائلتها التي جعلتها تشعر دومًا بأن كل شيء ثقيل عليها.

ابتسمت "ميرنا" بروح مرحة حاولت بها طمأنتها، وقالت بنبرة هادئة مشوبة بالسخرية:

- وأنت لسه فاكرة؟ طيب ما كلنا عارفين إن محمد بيحبك! دي مصر كلها عرفت... مصر!؟ مصر إيه دي، ده الخبر وصل سويسرا.

انزعجت "هاجر"، وقد اجتمع الخجل والذعر في ملامح وجهها، فغطت وجهها بيديها قائلة:

- يا نهار أسود! مين اللي عرف؟ أنا اتفضحت خلاص، مستقبلي ضاع... سويسرا إيه دي، أنا حتى مش عارفة حد هناك!

ردت "ميرنا" بابتسامة لطيفة وكأنها تستمتع بالحديث:

- بلاش هبل بقى، كلنا عارفين، أنا، و"سما"، و"جميلة"، و"زينة"، و"جيداء"، و"سليم"، و"إسلام"، و"سمر"... حتى "جيمي" و"جيجي" عارفين!

زاد ارتباك "هاجر"، وأخذت نفسها بتسارع، وهي تحاول كتم أنفاسها:

- يا لهوي! ده مش فاضل غير "عمرو أديب" يتكلم عننا ولا قناة "ناشونال جيوغرافيك .

تنهدت "ميرنا" وقالت بجدية ممزوجة بالفضول:

- طيب قولي لي، بتحبيه بجد ولا إيه؟ القصة دي هتنتهي على إيه بالظبط؟

ترددت "هاجر"، وصارعت أفكارها المتشابكة حول مشاعرها تجاه "محمد" أجابت بصوت غير واثق:

- بصي، مش عارفة، بحس إني بارتاح معاه. بحب أكلمه، هو الوحيد اللي مش بخاف منه، بس مش عارفة ليه بارتاح أو بتكلم معاه.

أغلقت "ميرنا" الحديث بعد أن أدركت أن صديقتها ستحاول دائمًا الهروب من الحديث عن الحب و"محمد"، فهي لم تستوعب هذه المشاعر بعد.

قامت بتغيير الموضوع قائلة:

- طيب، عملتي إيه في موضوع الشقة اللي عايزة تشتريها للأتيليه؟

بدا الأمل يشع في عيني "هاجر" رغم محاولاتها السابقة التي لم تثمر. أجابت بهدوء:

- آه، "محمد" قدر يشوف مكان كويس جنب بيته. جاب بنات شاطرين جدًا بيساعدوني، ونفسي الموضوع يكمل، بجد أنا تعبت من المحاولات.

طمأنتها "ميرنا" بنبرة ملؤها الثقة والطمأنينة:

- لا تخافي، إن شاء الله كل حاجة هتبقى تمام.

في لحظات اللقاء مع الأصدقاء، يتسلل الوقت دون أن تشعر

كيف مضى، لكن يبقى شعور بالراحة والامتنان. فهناك دائما
شخص يعرف كل عيوبك ويقبلها، يحارب معك في معارك

الحياة دون تردد، يجعلك تشعر وكأنك خلقتم معا لتتحدوا.

كانت السيارة مظلمة بسبب عتمة الليل، وزاد المكان هدوءًا نتيجة عدم تحدثهم كانت حلكة الليل لا تقل شيئًا عن حلكة قلبه، الذي بات يمضي الأيام بلا شعور بالوقت ولا حتى إدراك أنه يتنفس تلك الحياة.

قطع الصمت بينهم، راغبًا في إخفاء ضجيج رأسه بحديثه:

- واضح أن صحبتك بتحبك جدًا لو حابة أوصلك هنا تاني أو أبعت حد، بلاش تفضلي في البيت دايمًا.

أجابته "هاجر" بفخر، وربما تلك كانت المرة الأولى التي تتحدث فيها عن صديقاتها بهذه الطريقة:

- أيوة، إحنا صحاب أنا و هي و "سما" سما مجنونة سفر. لكنها طيبة أوي و"جميلة" أكتر حد يعرف يخرجني من حزني، و"جيداء" تعتبر أم لكل أصحابنا، أما "زينة" فهي بتدافع عني في أي خناقة. وأكتر حد دمه خفيف إحنا صحاب من أربع سنين، ودايمًا بيدعموني، بس الموضوع ده سر بينا، متقولش لماما.

تعجب من طلبها وسألها:

- و ليه مش عاوزة ماما تعرف؟

تنهدت وهي تتذكر كلمات والدتها التي علقت في رأسها لسنوات:

- ماما دايمًا كانت شايفة إن الصحاب مضيعة للوقت، وإنهم هيأذوني. نظريات المؤامرة دايمًا معاها. لو عرفت، مش هقدر أستحمل كلامها.

تساءل مجددًا:

- وإنتِ مين عرفك بيهم؟

أجابته بهدوء:

- اتعرفت عليهم عن طريق محمد. ميرنا وجيداء متجوزين من أمير وإسلام، وزينة بنت طنط سمر، مامت محمد. وسما خطيبة سيف.

بدا مستغربًا من حديثها:

- مامت " محمد"؟ إزاي؟ بتقولي حاجات غريبة.

شرحت له الأمر:

"أيوة، طنط" سمر "ربت "محمد"، وهو دايمًا بيقول عليها ماما، فبقيت أقول زي ما هو بيقول.

استمع لكلامها وأجاب:

"الظاهر إني محتاج أعرف حاجات كتير.عمومًا، مش موضوعنا، إيه اللي كنتِ عاوزة تقوليلي؟"

ترددت في البداية، لكنها سرعان ما قررت:

- بصراحة، عاوزاك تقنع ماما تسيبني أنفذ مشروع تصميم الأزياء.

رد عليها مستغربًا:

- وهي مش مقتنعة ليه؟ وإنتِ أصلًا بتعرفي تعملي ده؟ ولا لسه بتفكري تدرسيه؟

أجابت بحماس وفخر:

- طبعًا بعرف! كنت من أشطر الناس في الأكاديمية والورش، وعندي حاجات نفذتها.

تساءل بفخر:

- وإنتِ قدرتي تجمعي بين الدراسة والورشة ازاي؟ الحقيقة، فخور بيكِ جدًا، برافو."

أجابته بهدوء:

-كنت بعرف أوفق بين المذاكرة والورشة، ماما مكنتش بتسمحلي بالخروج، فاستغليت الوقت في الدراسة، "محمد" هو اللي ساعدني أقدم في الورشة، وكنت بحضر أيام وأكمل الباقي أونلاين، "ديدو" ساعدني كتير .

سألها بهدوء، و افكاره تتشبك بشك :

- ومين ديدو ده اللي عمل كل ده؟

ضحكت وهي تري علامات الامتعاض على وجهخ وقالت:

- ديدو هو" محمد"، باباد كان بيناديه كده، وكلنا بنقوله ديدو على سبيل الهزار .

استشاط غضبًا وهو يستمع كلمه أبيه وقال مستنكرًا:

- باباد إزاي يعني؟ وأنا مين؟

أدركت "هاجر" الخطأ الذي وقعت فيه وحاولت تبريره:

- أقصد أنكل" نوح"، والد "هيثم "صاحبه، الله يرحمه محمد قضى وقت طويل معاهم.

عندما عادا إلى المنزل، حاول "عادل" إقناع والدتها بدعم حلمها، لكن محاولاته باءت بالفشل وقفت "سوزي" خلفهم وقالت بغضب:

- بتتحامي في عادل؟ انسي، اللي بتقولي عليه دد مش هيحصل.

لكن "هاجر" ردت لأول مرة بنبرة عالية وهي تتمسك بهذه الحلم الذي نبت بداخلها كطفلها وليس مجرد طموح :

- لا يا ماما، أنا هحقق حلمي المرة دي، ومش بتحامي في حد. ولو ضغطي عليا، هسيب البيت زي محمد ما عمل.

كانت كلماتها بمثابة شرارة أشعلت النار في قلب والدها، فقال بغضب:

-أكيد محمد اللي بيفسدك بالكلام ده. بس انسي، مش هيحصل.

دافعت "هاجر" عن موقفها قائلة:

- لا مش هو هو الوحيد اللي وقف جنبي وحبني، وأنا مش هتنازل عن حلمي.

تركت الغرفة بسرعة، تاركة الجميع في حالة صدمة. وبينما كانت تبكي في غرفتها، أمسكت بهاتفها وأرسلت رسالة إلى محمد: "أنا كمان."

بعد أعوام طويلة من الصراع الداخلي والتجاهل، قرر "محمد" أخيرًا أن يخوض غمار رحلة العلاج النفسي كان يعلم في أعماقه أنه يعاني من اضطرابات نفسية، وأن حالته تتدهور شيئًا فشيئًا لم يعد قادرًا على التحكم في أعصابه، باتت نوبات الغضب تسيطر عليه، وفقد قدرته على البكاء، حتى وإن مر بمواقف تستحق الانهيار، والأكثر إيلامًا كان تلك النوبات الهياجية المفاجئة التي تنتابه بين الحين والآخر.

عند الطبيب النفسي..

منذ تسع سنوات وهو يلتزم بزيارة طبيبه "نبيل"، الذي أصبح أقرب لصديق منه إلى معالج.

تحدث "محمد" بابتسامة مشرقة غير معهودة عليه وهو يدخل الغرفة في عيادة "نبيل:

- أنا جيت.

انتبه له "نبيل" الذي كان يدون بعد الملاحظات وهي يقرأ احدي الكتب في علم النفس، رد "نبيل" بابتسامة دافئة، فهو يري "محمد" حالة فريدة، كيف لشاب يمر بكل تلك الأزمات أن يحتفظ بطاقته المرحة و قدرته على تجاوز كل ذلك

- أهلا يا سيدي خير؟؟

نبس مازحاً وهو يضيف لمسة خفيفة على الأجواء:

- يلا انا جيت اودعك قبل السفر .

تساءل "نبيل" متعجباً، وكأنه يحاول استيعاب الخبر:

- مسافر فين؟؟

أجابه بحماس وسعادة، مجرد ان يطوف في خياله فكرة أنها ستكون معه في هذه الرحلة تضيف على قلبه البهجة الذي نسي كيف تكون :

- مسافر دهب، و "هاجر " هتكون معانا .

- رحلة إيه وهاجر هتيجي إزاي؟

استفسر "نبيل" مستغرباً من تفاصيل القصة.

بدأ يروي كيف بعث برسالة إلى "هاجر" يخبرها فيها عن رحلته إلى دهب، ولم يكن يتوقع موافقتها على السفر معه، لكنها فاجأته بالموافقة.

تحدث "نبيل" بدهشة متعجب، ثم قال بنبرة جدية، و كلماته تسيب الاخير كالاسهم:

- وافقت ازاي!؟، أقولك وماتزعلش، هاجر بتهرب من حاجة معاك .

كان ينظر بفراغ بعد أن زال الحماس من أمامه وراي الحقيقة بعينيها تطوف في كل انحاء عقله .

سأله "نبيل" بجدية:

- "محمد" ، مش ناوي تحاول في موضوع الكتمان؟

رد محمد ببرود واضح وهو ينفي تلك الفكرة من داخله :

- لا.

في تلك اللحظة، فقد "نبيل" هدوءه ورد بعصبية:

- ليه؟ بتعمل كده إزاي؟ ليه مش عايز تبقى طبيعي؟

تفوة بسخرية يملأه الحزن وهو يشعر بالقهر على ما وصل له، تجمدت اطراف جسدد وشعر بقشعريرة تسري في جسدها:

- هستفيد إيه أصلاً؟ إيه الفايدة لو بكيت؟ يمكن بطلت أبكي علشان حتى لو بكيت مش هتلاقي اللي يحضني، زي الصبارة، مهما بكت محدش هيحضنها بسبب شوكها، وأنا اتكتب عليا اعيش كل حاجه لوحدي، و أموت لوحدي غريب .

استعاد ابتسامته المزيفة و وجه المهرج وهو يخفي كل تلك الاحزان و أنقاض الذي مات بداخله منذ سنوات متحدثاً بضحكه مزيفة :

- أنا ماشي، وأنا مبسوط بدل ما امشي مكتئب .

قالها بسرعة، ثم غادر الغرفة، غير راغب في الحديث أكثر عن الموضوع الذي يؤلمه أكثر مما يود الاعتراف به، الذي كان بداخله كان شبح غير مرئي، بقعة من الظلام تخفي كل ما حولها .

في ظلام حالكٍ لا يختلف عن السواد الذي يكتنف روحه، كان يقف بهيئته الشامخة، طوله الفارع وجسده الضخم يضيفان إلى حضوره رهبةً غير مألوفة، عينيه كانتا تحملان ثقلًا لا يمكن تجاهله، وفي إحداهما تلمع دمعة مكتومة، تأبي السقوط، وقف هناك، أمام القبر الذي ضم والدته أولاً، ثم تبعها ثلاثة أطفال لم يبلغ أحدهم السنة الأولى من عمره، ومن بعدهم زوجته التي كانت كل ما تبقى له.

نظر إليهم جميعاً بابتسامة حزينة، وكأنه يودعهم للمرة الأخيرة. ثم استدار ومشى ببطء مبتعداً عن ذلك المكان الذي يحتضن كل ذكرياته المفقودة.

بهدوء فتح باب سيارته، وجلس خلف المقود. عبث بهاتفه قليلاً حتى عثر على الرقم الذي كان يبحث عنه.

- بقولك هبعتلك صورة، تعرفلي كل حاجة عن صاحبها في أسرع وقت.

قالها بنبرة هادئة، كما اعتاد دائمًا أن يتحدث. الطرف الآخر وافق دون تردد، وانتهت المكالمة بنفس الهدوء الذي بدأت به.

ربما تحمل الأقدار ما هو فوق استطعتنا تلقي به على قلوب ميته ليس لديها حياة لأنها فقط تجرب التحليق .

بينما أنت دون عائلة تبحث عن رفيق او صديق يتقاسم معك عناء الطريق، تجد الأقدار تتداخل لتجد من يشبهك، ليس دائما يسري الحال في هذا القدر ولكن أحيانا تكون الحياة حنونه، أظن أحيانا او ربما في بعض الأوقات .

كان "محمد" يتحدث بضيق بعد ان نفذ صبره في اقناع "سمر " التي لا تريد إرسال إبنه شقيقتها معهم في لرحلة :

- يا أمي، وأنا مهاجر؟ ده أنا رايح دهب يعني أربع ساعات من هنا!

قالها محمد بيأس بعدما عجز عن إقناع سمر بسفره.

اجابته بحزم، مصممة على موقفها:

- لا، أنا مش موافقة، لو سافرت زينة مش هتروح معاكم.

استنكر من اسباب رفضها وهو يتساءل بنبرة متعجبة، محاولاً السيطرة على ذاته:

- ليه إن شاء الله؟ خايفة عليها؟

أجابته "سمر" بقلق واضح، وهي تشعر بالخوف لا تستطيع طمأنة نفسها عليهم :

- "مش هسيبها معاكم يا محمد."

- "أمي، ركزي في الكلام، أنا مسافر معاها ومعانا البنات، ركزي ها!؟"

رد "محمد" بغضبٍ مكتوم، وكأنها تشك في نواياه، مما أثار استياءه:

- أمي مفيش اي حاجه من إللي حصلت زمان ها تتكرر .

شعرت بالحزن في نبرته وهم يتذكرون ما حدث منذ زمن، اختتمت حديثها بنبرة مليئة بالحب و الخوف على الاثنين:

- خلاص روحوا، بس طمنوني عليكم على طول .

ابتسمت "زينة" وهي تسرع بحماس تضرب كفها بكفه بسعادة غامرة وهي تصفق، بينما هو غمز بعينه مازحاً يوجه كلامه لزينة، في محاولة لتخفيف الاجواء:

- يالا يا أختي، جهزي شنتطتك.

تجد الحياة أحياناً في وجه من ماتت بأعينهم الحياة، تنسج خيوط الحب في أعينهم تداوي جراح العالم و تنسي قلبها المجروح .

بينما كانت الغرفة مضاءة بإضاءة دافئة، كانت رائحة الطعام تملأ المكان في تناغم مع الجو العائلي الهادئ، "سليم "دخل بخطوات ثابتة لكنه بدا مشغول الذهن، حاملاً طبقًا كبيراً من الأطعمة الخفيفة.ابتسامة خفيفة علت وجهه، لكن عينيه تحملان ترددًا.

– بابا، أنا مسافر.

قالها بنبرة جمعت بين الجد والمزاح، وكأن قلبه يتأرجح بين الحماس والقلق.

رفع" ياسر "رأسه عن الجريدة التي كان يقرأها، ونظر إلى ابنه متفاجئًا، فوقع بصره على الطبق في يده أولاً.:

– مسافر فين؟ وإيه الطبق اللي في إيدك ده!

صوت والده كان خليطًا من الفضول والانزعاج، وكأنّه لم يستوعب بعد ما قاله" سليم".

ابتسم" سليم" ابتسامة خفيفة، محاولاً إخفاء توتره لأنه لم يمر شهر حتى على مجئ والده و سيصبح مظهره بارد امامه وراء الطعام الذي كان يأكله بنهم:

– مسافر دهب مع "محمد" ده طبق snacks علشان ماكلتش كويس النهاردة.

قال الكلمات بصعوبة بسبب فمه الممتلئ، محاولاً التخفيف من الجدية التي أضفتها الجملة

الأولى.

رد "ياسر" ساخرًا وهو يهز رأسه بخفة:

- "محمد" مين؟ وبعدين إيه اللي ماكالش؟! أنتَ قاعد أسبوعين ما عملتش فيهم حاجة غير إنك بتاكل، بتاكل ١٤ مرة في اليوم يا ابني!"

ضحكته كانت حادة ولكنها حملت معها حبًا أبويًا لم يكن يخفيه رغم السخرية.

ثم تدخلت" عشق"، والدة "سليم"، بنبرة هادئة تعكس تفهمها وحرصها على تهدئة الأجواء:

-تخيل، محمد ده ابن عادل صاحبك."

كانت كلماتها تبدو كأنها تجلب الحقيقة بأسلوب ناعم ومحب، خصوصاً وهي لا تطيق "عادل" من الأساس

- عادل؟ إزاي يعني؟

رد ياسر وهو لا يصدق تلك المصادفة نظر إلى "عشق" بتعجب ثم بهدوء استعاد اتزانه:

- على العموم، سافر، بس خد بالك من نفسك. ويارب يا سولي يا حبيبي تطوّل هناك، براحتك بقا شهر، اتنين، براحتك.

ابتسم بخبث وهو يرسل نظرة رومانسية" لعشق"، وكأن تلك الكلمات كانت تحمل معانٍ أخرى، مما جعل "سليم" يشعر بحرج غير متوقع.

- لا يا حبيبي، أنتَ عايزني أخلع وأرجع ألاقيكوا خلفتوا وتدخلوني الجيش!

قالها سليم بخبث، محاولًا قلب الموقف لصالحه، قبل أن يفاجأ بمخدة تقذف نحوه، تصطدم بوجهه بشكل مفاجئ.

- "امشي من وشي يا سافل!"

قالها ياسر بغضب مصطنع، وهو يحاول كتم ضحكته.

- "يلا، ماشي. بس يا بابا، لو رجعت لقيتلي أخ أو أخت، هقتله. اشطا!"

قالها ضاحكًا وهو يركض نحو غرفته قبل أن يواجه أي رد فعل عنيف، تاركًا الغرفة مليئة بالضحكات والكلمات غير المنطوقة التي تعكس الحب والحنان الذي يربط هذه العائلة.

بينما كانت الشمس تغرب، وانعكس ضوءها على النافذة ليغمر المكان بألوان دافئة، جلس "عادل" و"هاجر في "زاوية المنزل ، حيث الأجواء الهادئة، لكن داخلهما كان مضطربًا" عادل" كان يشعر أن هناك شيئًا ما تخفيه عنه، نظراتها القلقة وترددها في الحديث أثارا فضوله.

– كنت عاوزة تقوليلي إيه؟

سألها" عادل "بصوت مليء بالتساؤل، محاولًا إخفاء توتره، لكنه كان متلهفًا لسماع ما كان يشغل تفكيرها.

هاجر رفعت عينيها ببطء نحوه، شعرت بثقل الكلمات على لسانها، لكنها كانت تعلم أن الوقت قد حان للإفصاح عن قرارها:

– كنت.. كنت عاوزة أقولك إني مسافرة."

خرجت الكلمات منها بتردد، وكأنها تخشى رد فعله، فهي لم تخبر أحدًا بهذا القرار سوى "عادل".

بدا على وجهه القليل من المفاجأة، ورفع صوته قليلاً قبل أن يلتقط أنفاسه:

– مسافرة؟ فين ومع مين؟

رغم الاندفاع الأول، حاول" عادل" السيطرة على مشاعره، لم يكن يريد أن يثقل عليها، لكنه في الوقت ذاته كان يشعر بقلق داخلي.

– "مع محمد وأصحابه والبنات."

ردت بتردد، كما لو كانت تنتظر أن يتفهم موقفها، لكنها كانت دائمًا تشعر بعدم الراحة في مثل هذه المحادثات.

"عادل" نظر إليها لفترة قصيرة قبل أن يترك تلك الكلمات تخرج من فمه ببرود غير متوقع:

– أنا كمان مسافر.

قالها وكأنه يريد تغيير مسار الحديث، أو ربما كان يرغب في أن تكون الأمور أسهل مما هي.

"هاجر" تجمدت في مكانها، وأول ما فكرت به أنه سيرحل ويعود وهكذا تضطر هي العودة لمنزله كم أن خطتها في دراسه ما سيحدث مع محمد سينتهي لم تستطع استيعاب ما سمعته للتو:

– مسافر؟ مسافر فين؟

قالتها بدهشة، مشاعرها كانت خليطًا من الحيرة والذهول.

"عادل" حافظ على نبرته العادية، وكأنه لا شيء غير طبيعي يحدث:

– مسافر دهب، عندي اجتماع هناك.

كانت الكلمات تخرج منه بهدوء غير متوقع، كما لو أن السفر كان مجرد تفصيل بسيط.

"هاجر" بدت غير مصدقة، كيف يمكن أن تكون تلك صدفة؟

– دهب! احنا كمان مسافرين دهب.

قالتها بدهشة أكبر، وكأن الكون يلعب بأقدارهم دون أن يشعروا.

"عادل" ابتسم بخفة، ورأى في تلك الصدفة فرصة غير متوقعة.

– خلاص، يبقى هتسافري معايا وتقبليهم هناك.

قالها بنبرة متفكرة، وكأن القرار قد اتخذ في لحظة.

"هاجر "وافقت على الفور، شعرت أن الأمور قد تيسرت بطريقة لم تكن تتوقعها. بعد دقائق من الصمت، طلبت منه أن تذهب لإخبار محمد بما حدث، وكانت تلك الرحلة على وشك أن تأخذ منعطفًا غير متوقع.

في غرفة متوسطة الحجم، يغلفها الظلام؛ بسبب انقطاع الكهرباء، كان ضوء القمر هو المصدر الوحيد للإضاءة، يتسلل من النافذة ليلامس وجه "سيف" الجالس بجانبها. انعكاس ضوء القمر أضفى بريقًا على عينيه الخضراوين، ليكشف عن عمق مشاعره، بينما كان يتحدث إلى "سما" عبر الهاتف، يسعى لقضاء الوقت معها حتى يحين موعد سفرهما ويلتقي بها وجهًا لوجه.

تحدث بصوت هادئ ومفعم بالهيام:

- قوليلي بقا، أنتِ بتحبيني ليه؟

قالها "سيف" وكأن السؤال كان يحمل وراءه كل شوقه وفضوله لمعرفة ما يدور في قلبها.

أجابته "سما" بصوت دافئ:

- علشان معرفش، بس بحب أشوفك كده، وتكون جنبي خصوصًا بعد وفاة بابا. أنت دايمًا كنت سندي، فقربت أكتر مني وكمان بتشاركني كل تفاصيلي.

ابتسم "سيف" وردّ بحب:

- يعني بجد، مش بتحسي إني مقصر في حقك؟

نفت "سما" بحزم وطمأنينة:

- لا، طبعًا.

صمت لثوانٍ، ثم قال "سيف" بحب، وكأنه يشاركها جزءًا من روحه:

- طيب هقولك حاجة كتبتها: ‘عينك بلائي والبتلائي، وأنا المتيم المبتلى، حتى أن نظرت لوجهك،

توهت في جمال وجهك، فسبحان من خلق الجمال وخلقك...

كان يقول كلماته بحب عميق، وابتسامة خفيفة ترتسم على وجهه، تلك الابتسامة التي لا تظهر إلا عندما يحدث "سما"، سماؤه وملاذه. كانا يتبادلان الأحاديث، يملآن بها الفراغ الذي يفصل بينهما، وكأن الوقت لا يريد أن يسمح لهما باللقاء، فكل دقيقة انتظار تبدو وكأنها مئة ألف سنة.

في بيتٍ كان هادئًا وآمنًا، لكنه غارق في الظلام بسبب إطفاء كل المصابيح، جلس هناك يتأمل تفاصيل المكان. هذا البيت الذي عاش فيه أجمل لحظات حياته، حيث تعلّم هو وأخوه "هيثم" الطبخ من والدهما، حيث كان يلعب الشطرنج مع والده، غالبًا ما يكون هو المنتصر، وحيث كان يلعب الكرة مع أخيه. كان هذا البيت ملاذه، هنا كان يقص لوالده أحداث يومه بالتفصيل، وهنا أيضًا عاش لحظات المعاناة حينما كانت تأتيه نوبات التشنج اللعينة في الليل، وهنا حيث ودع والده إلى الأبد في تلك الغرفة التي أخذت روحه إلى الرفيق الأعلى. في هذا المكان، بدأت سعادته، وهنا أيضًا انتهت.

دخل إلى غرفة الذكريات، تلك التي احتوت على صوره القديمة وملابسه التي لم يعد يرتديها. ابتسم بخفة، وكأنه يقدم التحية لذلك الشخص الذي كان عليه في الماضي. لم يكن الشخص الذي يراه في تلك الصور ساذجًا، بل كان صادقًا بقدر خبرته المحدودة في الحياة. أما اليوم، فقد أصبح شخصًا جديدًا، مع المزيد من التجارب، وبعض الأشخاص الجدد الذين مروا في حياته.

بعد لحظات من التأمل، توجه إلى مكتبه وفتح الدرج. هناك، وجد تلك الجوابات القديمة التي كان يبعث بها إلى "عادل"، لم يتمكن عقله من أن يسميه "أبي". كانت تلك الجوابات هي الشيء الوحيد الذي أخذه معه حين هرب من المنزل، نسخ من رسائل لم تصل أبدًا إلى "عادل"، مجرد أوراق منسية تعبر عن مشاعر لم تجد طريقها يومًا.

قطع صوته الداخلي رنين الهاتف. بمجرد أن رأى اسم المتصل على الشاشة، عرف من يكون. جاءه الصوت من الجهة الأخرى:

- نمت؟

ابتسم بمرارة من ذكاء السؤال، ثم رد ساخرًا:

- تفتكري نمت إزاي وأنا برد عليك؟

ضحكت "هاجر" وقالت:

- سؤال غريب فعلًا؟

ثم سألها بصوت هادئ يغير مسار الحديث :

- جهزتي نفسك؟

ردت "هاجر" مطمئنة وهي متحمسه :

- أيوة. جهزت نفسي، وخالو تولى مهمة إقناع بابا وماما، والحمد لله اقتنعوا.

أجابها بنبرة ممتنة، ساخرة وكأنهم فعلوا شيئاً غير عادي بموافقتهم :

- كويس إنهم وافقوا.

ثم قالت "هاجر" بلطف وهي تقتضب حديثها :

- طيب، أنا هقفل علشان نازلة أكلمهم.

انتهت المكالمة، ليعود هو إلى ذكرياته التي لم تتركه. تلك الذكريات التي تشده دائمًا إلى الماضي، وكأن صوته الداخلي يهمس له بأنه لا ينتمي إلى الحاضر، بل إلى تلك اللحظات القديمة. هو مجرد شخص عالق في زمن مضى، مجرد رد فعل لكل ما حدث، وليس أكثر.

مع بداية شروق الشمس وبدء يوم جديد حيث تنطلق الأعمال وتزدحم الشوارع بأدخنة السيارات، كان كل من "محمد" و"عز" يقفان أسفل منزل "سمر" بعد أن ودعوها. ينتظرون "زينة" التي أخبرتهم قبل ساعة أنها في آخر التحضيرات.كانوا قد اتفقوا جميعًا على السفر بسيارة واحدة كبيرة لتتسع لهم.

تحدثت "ميرنا" بغضب:

- بقالنا ساعة مستنيين. مش هنخلص!

رد "إسلام" مازحًا و هو يذكر زوجته بما تفعله به :

- أحسن علشان تحسي بيا وأنا بستناكي.

لتجيبه "ميرنا" بنبرة حزينة ونظرة عاتبة:

- أنا يا إسلام؟ طيب يا عم.

أحس "إسلام" بالحزن في صوتها فقال معتذرًا:

- متزعليش يا حبيبتي، أنا بهزر.

بينما كانت نظرات الحب تدور بين "إسلام" و"ميرنا"، كان كل من "أحمد"، "عز"، "محمد"، و"جميلة" ينظرون إليهم بقرف؛ فبالنسبة لهم تلك المشاعر والتلامسات العاطفية أمر غير مريح.

فجأة، صرخ "عز" بصوت عالٍ:

- مايلا يا أستاذة سندريلا، هنموت هنا!، قال على راي المثل قالوا للهم رايحين نتفسح قلهم وراكم هو انا مكسح .

فُتحت بعض النوافذ من حولهم، ينظر منها الجيران باستغراب أو انزعاج بسبب صوته المرتفع.
تحدثت سيدة في منتصف الخمسينات تُدعى "سعاد":
- رايحين فين يا ولاد؟ إيه اللي مجمعكم كده؟ خناقة ولا إيه؟، أنت جبت المثال ده منين ؟.

أجابها "عز" مازحاً وهو يضع يده بده على رأسه بحرج وهو يتحدث:
ـ قرائتها على ضهر توكتوك .
تحدثت "جميلة" و"جيداء" معًا بإحراج:
- اتفضحنا الحمد لله.
وأخيرًا، وبعد طول انتظار، نزلت "زينة" من المنزل. صرخ "عز" بفرح:
- زغاردي يا منطقة!
وبالفعل، انطلقت الزغاريد من السيدة التي كانت تحدثه، لم تربطهم علاقة قوية لكنها كانت كبيرة في السن و وحيدة؛ لذلك كانت تحب مشاغبتهم في الحي فرحة بخروج "زينة"فقال "محمد" مازحًا وهو يقود السيارة:
- تترد لكم في الأفراح يا جماعة.
وانطلقوا في رحلتهم الطويلة التي على الرغم من امتدادها، لها نهاية على عكس رحلتنا في هذه الحياة، التي قد تستمر طويلاً، وحتى إذا اخترنا كل القرارات الصحيحة، لن نصل أبدًا إلى حالة الرضا الكامل.

كانت الشمس تتسلل عبر النافذة لتغمر الغرفة بنور خافت، بينما جلست "عشق" على الأريكة، عيناها تمتلئان بالحيرة والتعجب لم تستطع أن تفهم العلاقة الغريبة التي تربط زوجها "ياسر" بصديقه "عادل". كيف يمكن لشخص مثل ياسر، بروحه المرحة وطيبة قلبه، أن يحتمل صديقًا مثل "عادل" المعروف بعصبيته وتصرفاته العنيفة؟
– أنا بجد مش عارفة أنتَ بتطيق الراجل ده إزاي!
قالتها "عشق" بصوت يحمل بين طياته دهشة حقيقية، وكأنها تبحث عن تفسير منطقي لهذه الصداقة التي لا تتناسب مع طبيعة زوجها.
ياسر كان جالسًا بجانبها، يبتسم بخفة، وكأنه اعتاد على هذا التساؤل منها.
– بطيقه علشان صاحبي.

قالها بلامبالاة واضحة، وكأن الأمر بسيط للغاية بالنسبة له، دون أن يدخل في تفاصيل العلاقة التي تربطه "بعادل."

لكن عشق لم تكن مستعدة للسكوت، شعرت بأن قلبها يشتعل بالغضب من تلك الشخصية التي تظن أنها جلبت الكثير من المشاكل للناس حولها:

- صاحبك ده دمر حياة إنسانة مالهاش أي ذنب غير إنها حبيته صاحبك ده أناني وميطيقش .

قالت الكلمات وهي تشعر بأن الحقائق التي تقولها ليست بحاجة لتفسير أو تبرير، وكأن الأمور واضحة بما فيه الكفاية.

"ياسر"، الذي لم يكن يريد أن يستمر النقاش في هذا الاتجاه، استدار نحوها، وقرر أن ينهي الحوار بأسلوبه الهادئ:

- "عشق". أنسي الموضوع ده خالص، ويلا بقى علشان تلحق تخرج قبل ما ابنك البارد يجي.

قالها بابتسامة خفيفة، محاولًا تغيير الأجواء، فقد كان يعلم أن هذا النقاش لن يؤدي إلى أي نتيجة، وكان يفضل أن يركز على اللحظات السعيدة مع عائلته.

في سيارة فخمة على الطريق، يعم الصمت بين "عادل" و"هاجر" التي نائمة بجانبه، حتى اخترق الصمت بصوت الهاتف. كان المتصل "ياسر".

قال "عادل" بدهشة:

- أنتَ ليه دايمًا بتتكلم في وقت أكون بفكر في ده؟ أنتَ فصيل يا أخي.

رد "ياسر" باستفزاز:

- بقولك إيه، أنا غلطان إني بكلمك أصلًا، بس "fine" إني بفصلك.

قال "عادل" مستفزًا:

- على فكرة، "سليم" ابني معاكم في الرحلة، شوف الصدف، ابني صاحب ابنك علشان أفضل استفزاك طول العمر.

رد "ياسر" ببرود:

- آه. عرفت والله، حسيت.

تسائل "عادل":

- عرفته إزاي؟

أجابه "ياسر":

- عرفته علشان سمج زيك كده!

بعد أن أنهى كلامه، أغلق "عادل" الهاتف بغضب، مركزًا على الطريق أمامه.

انتهت رحلتهم حيث وصلوا إلى المكان الذي قرروا أن يخيموا فيه، بينما فضلت "هاجر" البقاء في الفندق مع "عادل".

رحلتهم إلى هنا قد انتهت، لكن بقية الرحلة لم تبدأ بعد، فالأحداث ما زالت في بدايتها.

البارت الخامس

"موعد مع الماضي"

> الموت... تلك الأسطورة التي تبقى حية في كل نفس. لا شيء يفنى حقا في هذه الحياة سوى الأجساد التي تزول، أما ما نتركه خلفنا من أثر، فهو الشاهد الأبدي على وجودنا. ينبض في قلوب الآخرين، يستمر كحكاية لا تنتهي في ذاكرة كل ذي فؤاد.

كان "محمد" واقفًا في محرابه، يلفظ تكبيرة الإحرام بصوت خاشع، "الله أكبر". بدأ صلاة الفجر في سكينة تامة وعند الانتهاء، جلس على الأرض يتلو آيات من القرآن بصوت خافت، لكن عقله لم يكن هادئًا؛ تلك الذكرى البعيدة أطلت عليه في تلك اللحظة كان هو وأبوه "نوح" وأخوه "هيثم" في المسجد، انتهوا من الصلاة، ثم بدأ "نوح" يسرد قصة أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" حكى لهم كيف دخل الإسلام، وكيف كانت أول مواجهة بينه وبين القرآن بعد إسلام أخته وزوجها وكيف تمسكت أخته بالمصحف ومنعته من لمسه وهو غير طاهر، مُظهرةً في ذلك إيمانًا قويًا وثباتًا لا يتزعزع، تلك القصة ظلت تتردد في ذهن "محمد" كأنه يسمعها لأول مرة، لكنها هذه المرة حملت في طياتها معنى أعمق، يدعوه للتأمل فيما قد يتركه هو من أثر في حياته.

- إنتِ هتسكتِ على اللي بيحصل ده؟

قالها "مصطفى" بصوت بارد ووجهه خالٍ من التعبير، عينيه تحدقان في "سوزي" كأنه ينتظر منها ردة فعل سريعة"سوزي"، بابتسامة مملوءة بالدهاء:

-ومين قالك إني ها سكت؟ استنى عليا، لسه المشهد ما خلصش.

شعر "مصطفى" بالقلق يزحف إلى قلبه توقف لبرهة ثم نطق بصوت متوتر:

-تفتكري ممكن يقولوا حاجة؟

لم تكترث "سوزي" كثيرا، وابتسمت ببرود:

- لا.

لم يكن "مصطفى" مقتنعًا، فسأل بتساؤل مشوب بالقلق:

-هو "عمر" مش ناوي يرجع بقى؟

أجابت "سوزي" بنبرة واثقة:

- ها يرجع، بس يخلص سفره الأول.

بدأت الشكوك تتزايد في عقل "مصطفى"، فاستطرد بتوتر واضح:

-أنا برضوا خايف، الواد ده مش هيسكت، أنا متأكد إنه هيعمل حاجة.

نظرت إليه "سوزي" نظرة طويلة، حادة وكأنها تقول له دون كلمات: "ألن تصمت؟"

 xxxxxxxxxxxxxxxxx

في غرفة الرياضة المضاءة بنور الصباح، كانت "عشق" تركض بخفة على الآلة الرياضية. تحرك قدميها بسرعة بينما تستمع إلى صوت التنفس المتسارع يدها تعبث بلوحة التحكم بكسل وهي تتحدث إلى صديقتها عبر الهاتف.

- أنتِ فين يا حسناء؟

قالتها "عشق" وهي تحاول مزج سؤالها مع الحركة المتواصلة على الآلة، ملامحها توحي بالاستغراب، من اختفاء صديقتها فجأة.

من الجانب الأخر، كانت "حسناء" التي تبلغ من العمر اثنين وأربعين عاماً بخصلاتها السوداء بلون الليل الحالك و عينيها الحادة التي امتزجت بلون القهوة مشغولة بأوراقها، تطابق الرسومات الخاصة بمشروعها الفني، فتركت قلمها جانبًا وأجابت بلهجة هادئة:

- أنا في دهب، عندي عرض هنا.

توقفت "عشق" للحظة، وقد انكمشت ملامح وجهها عندما تذكرت شيئًا هامًا، كأن فكرة فجائية خطرت لها:

- على العموم، انزلي بسرعة علشان عيد ميلادي الأسبوع الجاي.

ابتسمت "حسناء" ضاحكة، وعلقت بنبرة مازحة:

- طبعًا فاكرة، مش ممكن أنسى.

وبعدها، استمر الحديث بينهما كما هو معتاد، يتنقلان من موضوع إلى آخر، يغوصان في ذكرياتهما وضحكاتهما. فقد مضى على صداقتهما ما يقارب عشرين عامًا، علاقة عميقة ومليئة بالمواقف التي لا تنسى.

في خيمة صغيرة وسط الجبال، بعيدًا عن ضوضاء العالم وصخبه، في مكان معزول حيث لا شيء سوى الصحراء الممتدة وأصوات الرياح الخافتة جلسا معًا، يغطيهما وشاح خفيف يقيهما برودة الليل، وفناجين القهوة الدافئة بين أيديهما، أمامهما لابتوب يعرض فيلمًا هادئًا يملأ الأجواء بصمتٍ عذب، كما تمنيا دومًا منذ أن بدأ رحلتهما معًا.

كان "أمير" يجلس بجوار "جيداء"، امرأة عرفها منذ طفولتهما. لم يكن يتخيل يومًا أن يتزوج من تلك الطفلة الصغيرة التي كان يراها يومًا بعد يوم، تكبر معه وتنمو أحلامهما معًا. أربعة سنوات فقط تفصل بينهما، ولكنهما عاشا حياة كاملة متشابكة منذ الصغر. الآن، وهو بجوارها، يشعر أن هذا الزواج هو كل ما يحتاجه ليكون سعيدًا لبقية عمره.

- أمير، مش هنخرج معاهم بره؟

قالتها "جيداء" التي كانت ملامحها الهادئة بشرتها البيضاء و النمش الذي طغي على ملامح وجهه و خصلتها المائلة للشقراء بنبرة تملؤها التساؤلات. تنظر إليه وكأنها تبحث عن إجابة تختزن مفاجأة.

أجاب "أمير" بابتسامة هادئة، صوته يعكس حبًا صادقًا:

- مش عايز حد معانا، أنا عايزك أنت بس.

ابتسمت "جيداء"، وتسللت بسمتها لتضيء وجهها بالكامل، تلك الابتسامة التي عشقها "أمير" منذ صغرهما نظر إليها بعينيه السوداوين العميقتين، اللتين كانت تُغرم بهما دائمًا، وتبادلا النظرات المليئة بالحب.

- إنتَ هتفضل تحبني لحد إمتى؟

سألت "جيداء"، بسمة مرحة على شفتيها، عيناها تلمعان بفضول طفولي.

أجاب "أمير" بهدوء:

- مش عارف، بس متهيألي حبي ليكي بلا انتهاء، بيتولد كل يوم عمره ما ينتهي.

مرت لحظات وهما يتبادلان النظرات، مشبعين بحب وسعادة، يشكران الله بصمت على وجود كل منهما في حياة الآخر كانت لحظات مثالية، كأن العالم توقف حولهما، حتى قطعت تلك اللحظة دخول "سليم" و"عز" بضجيج مفاجئ، حيث تعثر "سليم" في الخيمة وسقط فوق "عز".

- إنتَ بتعمل إيه يا متخلف؟!

قال "أمير" بغضب مفاجئ، صوته يرتفع بعد أن انقطعت لحظة الهدوء المثالية بفعل أفعالهم الطائشة.

أجاب "سليم" بنبرة ممتزجة بالحزن والغضب:

- أخوك الزفت أكل أكلي، خلص الفراخ يا "أمير"! أنا مقدرش أعيش من غير البانيه بتاعي.

رد "عز" بلامبالاة، وهو يحاول الدفاع عن نفسه:

- والله العظيم كداب، ده أكل أكتر من ١٠ مرات، وزعلان على الساندوتش اللي أكلته!

اكتفى "أمير" بنظرة غاضبة ملؤها الحدة، وقال بصوت صارم:

- اطلعوا بره!

بعض القصص كتبت فقط لتسرد كل هذا الحب كان يحيي بداخل قلبك لانك فقط تحب .

في ڤيلا هادئة ومريحة، في أحد الأحياء السكنية الراقية، كانت الجلسة في الشرفة أشبه بجزيرة من الهدوء وسط بحر الحياة أمام "عشق" و"ياسر" كوبان من الـ"Iced Coffee"، يبردان ببطء تحت أشعة الشمس المتسللة من بين أوراق الشجر رغم مرور السنوات بينهما، لم يطفئ الزمن جذوة الحب الذي ازداد تألقًا مع كل عام مر عليهما، فقد أصبح عشقهما أشد إشراقًا، كنور الفجر الذي يبدد ظلام الليل.

- "ياسر"، هو أنتَ لسه بتحبني؟

قالتها "عشق" بنبرة تجمع بين الحذر والفضول كان سؤالها يعبر عن خوف دفين بأن تكون السنوات الطويلة قد تآمرت على حبهم، فمن يستطيع أن يضمن بقاء الحب بعد عشرين عامًا؟

ابتسم "ياسر" تلك الابتسامة التي اعتادت أن تراها في لحظات الحب العميق، ثم نظر إليها بنظرة مليئة بالعشق. كانت عيناه تتحدث قبل أن ينطق بكلماته:

- أراكِ تزيدين في عيني جمالًا، وأعشق كل يوم منكِ حالًا. تزيدين ملاحة، وأزيد عشقًا لعينيك. فحالي فيك ينتقل انتقالًا. يا عشقي.

كانت تلك الكلمات تغمرها بالدفء، كما اعتادت دائمًا رغم مرور السنين، لم يتغير شيء في حبه لها، بل ظل يُغرقها بمشاعره في كل مرة يتحدث فيها عن عشقها.

ابتسمت "عشق" بخفة وهي ترمش بأهدابها وتقول بمزاح رقيق:

- أنتَ بتثبتني يا "ياسر"؟

رد "ياسر" بضحكة قصيرة، ثم أمسك بيديها بحنان:

- آه، بصراحة، وخلينا نستمتع شوية قبل ما ييجي هادم اللذات... ابنك.

لم يكمل "ياسر" كلماته حتى ارتجف الهاتف في جيبه، وصدر منه رنين يعلن عن مكالمة من "سليم". ابتسم "ياسر" وقال بنبرة ساخرة:

- ده بيجي على السيرة.

وبين ضحكاتهما وذكرياتهما، كانت الحقيقة واحدة لا تتغير: بعض الأشياء لا ينهيها الزمن. حبهم لم يتضاءل، بل ازدهر بعد الزواج واستمر رغم كل التحديات. كل منهما اختار الآخر بعقله، لكن في النهاية كان القلب هو الذي انتصر، وجمع بينهما في رحلة أبدية من السعادة والأمان.

في معرض سيارات ضخم، كانت الأجواء مفعمة بالحيوية بفضل "جمال"، الذي كان يعبث بمقعده ويدور حول نفسه بالكرسي، بينما كانت السيارات مزينة بورود حمراء جميلة.

- وأنتَ بقا رايح تتفسح هناك وسيبني هنا؟

سأل "جمال" بصوت مازح.

رد "إسلام" بضحكة عالية:

- وأنا سيبك في النار يا "جيمي"، في إيه يا بابا؟

بدأ "جمال" حديثه بتأثر مزيف:

- كده يا بني رايح تتفسح وسايب أبوك اللي ضحى بكل حاجة عشانك. ده أنا حرمت نفسي من كل حاجة عشانك.

بدأ يتصنع البكاء، لكن لم يستطع إكمال تلك الفقرة بسبب دخول "جيهان" زوجته، التي صاحت به:

- أنتَ مش هتبطل لعب العيال بتاعك ده؟

أغلق "جمال" الهاتف مستعدًا لحديثها المعتاد، وهما يتبادلان كلمات التكرار بنفس الطريقة. بدأت "جيهان":

-أنتَ مبتكبرش، معندكش دم. بقالي ٢٥ سنة مستحملك، ولا بتكبر ولا بتتغير، ولا حتى بتعقل ابنك كبر واتجوز وعقل، وأنتَ لسه معقلتش. بقالي ١٦ سنة بطلب منك أنك تحضر مرافعاتي، وكل مرة اتخيل أنك جاي ومتجيش،المرة اللي جيت فيها، اتردنا من المحكمة واتحكم على الراجل بالإعدام، يا أخي اعقل بقا!

أنهوا حديثهم معًا، ثم تحدث "جمال" بهيام:

- عارفة إيه اللي متغيرش مع السنين؟

ردت "جيهان" بضجر:

- إيه يا أخويا؟

مال "جمال" على كفها ليقبلها بحب:

- حبي لك يا "جيجي".

نظرت له بحب، لكن وجهها تشنجت حين قالت:

- غور في داهية يا "جمال" يا ابن أبو "جمال". أبو اليوم اللي قبلتك فيه.

تجمد "جمال" من كلامها بعد انصرافها. تساءل في نفسه لماذا تفعل ذلك، فهو يحبها كثيراً، ولكن لماذا تراه غير عقلاني أو أبله؟ هذا ظلم لقلبه. ثم عاد إلى كرسيه يلعب بتلك الكرة في يده، عائدًا إلى أفكاره المتضاربة.

في منزل واسع يريح النظر به، ترتسم عليه لمسات الطابع القديم بأثاث منظم وألوان هادئة، حيث تنتمي المنازل لأصحابها، وهذا المنزل لا يختلف كثيراً؛ إذ تغلفه البساطة رغم فخامته، ويمتلئ بالأناقة التي تنبض بالهدوء والسكينة.

دخلت "زهراء" إلى المنزل وهي تبحث في حقيبتها عن شيء ما، وفي نفس الوقت كانت تتحدث عبر الهاتف:

- يعني وصلت؟

جاءها صوت ابنها "سيف" مثقلًا بالنعاس، وهو يجيب:

- أيوة يا ماما وصلنا.

ابتسمت "زهراء" بشوق وقالت:

- ألف حمد لله على سلامتكم، متنساش تسلملي على أصحابك، بابا بيسلم عليك، Enjoy.

أنهت حديثها بقبلة دافئة أرسلتها عبر الهاتف:

- حاضر يا ماما.

رد "سيف" بابتسامة قبل أن يُنهي المكالمة.

لكن تلك اللحظة الهادئة سرعان ما تبددت عندما لاحظت "زهراء" المشهد الفوضوي في المطبخ عيناها اتسعتا بصدمة، وفمها نطق بكلمات مليئة بالغضب حين رأت زوجها "سالم" جالسًا على الأرض، وحوله المطبخ وكأنه خرج للتو من إعصار.

- أنتَ هببت إيه يا "سالم"؟!

قالتها وهي بالكاد تصدق ما تراه.

رفع "سالم" نظره إليها، وقد شعر بالإحباط بسبب محاولته الفاشلة:

- كنت بحاول أعمل كيك، بس باظ خالص يا "زهراء".

احتدت ملامح "زهراء" وضربت كفها على وجهها وهي تقول بانفعال:

- أنتَ عايز تجنني يا "سالم"؟

بكل برود ولامبالاة، وكأنه لم يسبب تلك الفوضى العارمة، رد "سالم":

- خلاص بقا يا "زهراء"، تعالي نصلح المطبخ.

وبينما بدآ بتنظيف المطبخ معًا، كانت "زهراء" لا تتوقف عن التذمر، وإلقاء بعض الشتائم الصغيرة، بينما لم تتمالك نفسها من البكاء بسبب ما اعتبرته أفعال "سالم" البلهاء. ومع ذلك، ومع انتهاء التنظيف والشعور بالإرهاق الشديد، عندما نظرا إلى بعضهما، لم يستطيعا إلا أن ينفجرا في ضحك هستيري. فمشهد كل منهما بعد ساعات من التنظيف كان مضحكًا لدرجة لا يمكن معها سوى الضحك، رغم كل شيء.

كانت تلك لحظة صغيرة من الفوضى والسعادة التي تملأ حياتهما، على الرغم من عبث "سالم"، إلا أن تلك الفوضى كان لها طعم آخر مع ضحكاتهما في النهاية.

في شركة اتصالات كبيرة وراقية، مشهورة بنظامها الصارم وكفاءة موظفيها، كانت الأجواء مليئة بالالتزام والعمل الجاد. تلك الشهرة التي اكتسبتها الشركة لم تأت من فراغ، بل من جدية العاملين فيها وإصرارهم على النجاح.

في أحد المكاتب، جلس "رائد" على كرسيه، متمسكًا بهاتفه بينما يتحدث إلى بعض العملاء علامات الضجر بادية على وجهه، وبعد دقائق من المكالمة، أغلق الهاتف بملل واستدعى السكرتيرة ليطلب بعض الأوراق.

دخلت السكرتيرة إلى المكتب، صوت كعبها العالي يطرق على الأرضية اللامعة، ثم توقفت أمامه وسألته بنبرة رسمية:

- ممكن أعرف حضرتك أضفت التعديل ده على مشروعي ليه؟

رد "رائد" ببرود ودون اكتراث:

- علشان فعلًا المشروع لازم يتقدم بصيغة تانية.

خرجت السكرتيرة بعد لحظات، لتدخل فجأة "ريهام"، زميلته في العمل، وهي تخلع كعبها العالي وتجري نحوه غاضبة:

- أنتَ بتستهبل يا "رائد"؟ تهزقني قدام الموظفين يا "رائد"؟

بدأ "رائد" بالجري مبتعدًا عنها، محاولًا تفادي ضربتها، بينما استمرت هي في الصراخ:

- وابنك! ابنك اللي يسافر ومايقوليش، بتضحكوا عليا؟!

لاحقته حتى قفزت عليه وهو يحاول الاختباء خلف الباب، لكن سرعان ما وقع الاثنان معًا على الأرض بسبب فتح الباب من الجهة الأخرى، ليبدأ الموظفون الذين شهدوا الموقف بالضحك.

وقف "رائد" على قدميه، ينفض الغبار الوهمي عن ملابسه، وقال بصوت حاد:

- مخصوم لكل اللي ضحكوا نصف شهر علشان تضحكوا براحتكم.

تبادل الموظفون النظرات بدهشة، لكن سرعان ما انطلقوا في موجة أخرى من الضحك ثم، وبنبرة مرحة، انضم "رائد" إلى الضحك معهم قائلًا:

- مخصوملي أنا كمان نصف شهر، يالا ولا تزعلوا.

غمر المكتب جو من المرح والضحك، وكأن الحياة المهنية الجادة قد توقفت قليلًا لإفساح المجال لبعض اللحظات العفوية التي تُخفف من ضغط العمل اليومي.

بدأت الشمس تغيب تدريجيا عن أراضي دهب، مشهد ساحر حين تذوب الألوان الذهبية في الأفق، وتظهر أولى خيوط القمر في السماء كان هذا المنظر هو أحد أسباب حب "محمد" لدهب، تلك الجبال الشاهقة وحفلات الرقص والشواء، وتجارب تسلق الجبال حتى عيون المياه. كل ذلك يجعل قلبه ينبض بحب هذا المكان.

في حفلة رقص في الصحراء، كانت الأجواء مفعمة بالحياة، الكل يرقص غير مكترث بشيء سوى الاستمتاع ملابس العرب التقليدية مع القبعات والأوشحة زادت من سحر المكان، سحر محبب إلى قلوب الحاضرين.

كانت "هاجر" تقف بعيدًا، تراقب الحفلة بحماس، حتى جاء "محمد" من خلفها، متحدثًا بهدوء:

- تعالي هوديكي حتة، اهدى من هنا.

اكتفت بالإيماء له بالموافقة، وسارا معًا نحو الجبال. بعد مسافة طويلة من المشي استقرا في مكان هادئ. بدأ "محمد" الحديث، سائلًا:

- عملتي إيه في موضوع الاتليه؟

ردت "هاجر" بابتسامة ممتنة:

- كلمت خالو في الموضوع وهو قال لماما، وحتى لو ما وافقتش، أنا هشتغل المرة دي حتى لو بدون موافقتها.

لكن "محمد" لم يكن يستمع، فقد كان مسحورًا بعيونها. استعاد تركيزه قائلاً:

- عظيم جدًا، ربنا يوفقك.

نظرت له بابتسامة عريضة، فقالت:

- شكرًا أوي يا "محمد"، أنا بجد ممتنة لكل حاجة بتعملها علشاني.

رد "محمد" وهو ينظر إلى عينيها بعمق:

- عيني إذا نظرت لحُسنِك سبّحتْ، سبحانَ من خلقَ الجمال وجمّلك.

ابتسم في نهاية جملته، مما جعلها تشعر بالارتباك، فتعرقلت في فستانها الزهري وسقطت أرضًا تأمل "محمد" عينيها حتى فاق من شروده، ثم انفجر في الضحك، ممسكًا بمعدته:

- شكلك شبه الكتكوت المبلول.

ردت وهي تضربه على ظهره:

- تصدق أنا غلطانة إني واقفة معاك أصلًا.

ضحك كلاهما معًا، ثم استعادا جديتهما عندما تحدثت "هاجر" بجدية:

- "محمد"، ليه مكلمتش خالو لحد دلوقتي مع إنه بقاله أكتر من شهر في مصر؟

تغيرت ملامح "محمد"، ثم قام من مكانه، قائلًا:

- ببساطة لأني مستحقش إني أبدا له بألف دعاء وهو حتى ما فكرش يقول آمين.زمان كنت محتاجه، يمكن لو كان رجع من خمس سنين بس كان كل حاجة اتغيرت، لكن دلوقتي مستحيل!

علمت "هاجر" بصحة حديثه، لكنها ردت لتبرر الموقف:

- بس هو بيحبك على فكرة.

ضحك "محمد" بسخرية:

- هو أنت مفكراني معرفش إنه راجع علشان عنده شغل؟

تجاهلت حديثه عندما رأت سيدة تقترب، فقالت بفرح:

- بص مين دي؟

رد "محمد" بعدم فهم:

- مين دي؟

لتقول "هاجر" وهي تسحب "محمد" من يده:

- دي "حسناء الفارس" مصممة أزياء مشهورة جدًا، "محمد"، بليز تعال معايا نكلمها.

ذهب "محمد" معها ليقابل "حسناء"، التي كانت على حق، فهي حسناء اسم على مسمى بعد أن بدأ الاثنان بتعريف نفسيهما، تحدثت "حسناء":

- أهلًا بيكم يا حبايبي.

ردت "هاجر" بسؤال:

- هو حضرتك عندك عرض أزياء هنا؟

أجابت "حسناء" بابتسامة مشرقة:

- آه، عندي، بس حبيت أفصل شوية، فجيت هنا أريح نفسي مع إن المكان غريب شوية.

رد "محمد" بفرح:

- كويس أنكم اهتميتوا بموضوع العروض هنا.

قالت "حسناء" بجدية:

- آه فعلًا، المكان هنا جميل جدًا.

بدأ الجميع بتجاذب أطراف الحديث، وكان "محمد" يشعر بشعور غريب من الراحة أثناء حديثه معهم. بعد فترة، استأذن "محمد" ليهاتف أصحابه ليطمئنهم عليه.

بعد انتهائه من الاجتماع، وقف "عادل " بسيارته أمام أحد الجبال، مستمتعًا برؤية القمر في هذا المنظر الرائع. بدأ عقله بتذكر موقف ما...

كانوا يقفون على أحد الجبال، ممسكًا بملابسه خوفًا من أن تقع من حافة الجبل،ضحكات كانت جميلة بحق، وقالت وسط ضحكاتها:

- أنا مش مصدقة إننا اتجوزنا أخيرًا وكمان هيكون لنا ابن! أنا مبسوطة أوي.

رد عليها بسعادة وهو يبتسم :

- ولا أنا مصدق، أوعدك من النهاردة مش هسيبك أبدًا.

سقطت دمعة من عينه عند تذكره لهذه اللحظة، لكنه مسحها بكبرياء بعدها خرج من السيارة ليستنشق الهواء، بينما تحركت خصلات شعره بفعل النسيم استند على سيارته وتحدث في الهاتف:

- ها جيبت ليا المعلومات اللي طلبتها منك؟

رد الشخص من الجهة الأخرى:

- ملقتش أي معلومة عن الولد اللي ضربك... أقصد اللي حاول يضربك.

صاح "عادا " بصوت حاد:

- أنتَ بتستهبل؟ إزاي معرفتش؟

رد الآخر ببرود:

- بس بس، عرفتلك معلومات عن الولد التاني والله.

قال "عادل " بهدوء:

- ابعتلي بقى المعلومات على الواتساب.

بعد إنهاء المكالمة، وقف يسأل نفسه: كيف مضى عشرون عامًا من عمره دون أن يدري؟ كيف أضاع عمره في كسب الأموال، وهو لا يعلم من سيرثها أو حتى سيستفيد بها؟ قرر قرارًا واحدًا: البحث عن حياته، البحث عن كل ما فاته، البحث عن نفسه.

كان يقف في غسق اليل ينظر للسماء، وهو اكثر من احبها لقد رآها في كل مكان وبي كل مشاعر، رآها وكان رفيقة في حزنه واساه و سعادته و خوفه .

- يا أمي والله العظيم كلنا بخير.

قالها "محمد" وهو يقنع "سمر" للمرة المائة بعد المليون بأنهم جميعًا بخير ولم يصبهم أي مكروه.

ردت "سمر" من الجهة الأخرى، قائلة:

- طيب خدوا بالكوا من بعض، واواعا تتخانقوا هناك.

أجاب "محمد" بهدوء وهو يبتسم على خوفها :

- حاضر، مش هتخانق، سلام بقا.

بعد أن أغلق الهاتف، توجه للحديث مع الآخرين.قالت "حسناء" بنبرة لطيفة لكن في طياتها امتزج الحزن :

- مامتك دي، ربنا يخليها لك، واضح أنك مطلع عينها.

أجاب "محمد" بمراوغة مشاغبأ أيها:

-لا والله، أنا مش مطلع عنيها، ده أنا نسمة أصلًا، بس "سمر" بتكبر المواضيع.

ردت "حسناء" ضاحكة بزيف وهي تري امامها ما ينقصها :

-آه، هي الأمهات بس بتخاف بزيادة شوية.

تابع "محمد" وهو يحتمل تلك الغصة في قلبه يعترف بالحقيقة:

- هي "سمر" مش مامتي، أنا مامتي اتوفت من زمان، بس "سمر" أكثر من أمي.

اكتفت "حسناء" بقول:الله يرحمها.

فجأة، جاء بعض الشباب ليقف أحدهم أمام "هاجر". قائلاً بصوت مقزز:

-ماتيجي يا حلوة؟!

ختبأت "هاجر" بسرعة خلف "محمد"، بينما قال أحد الشباب:

-في إيه بس يا نجم، ده أنت طماع أوى، هتأخد اتنين لوحدك.

حاول "محمد" الاحتفاظ بأعصابه، لكن مع فتح السيارة ودخول "هاجر" و"حسناء"، أغلق الباب وصرخ للشاب:

-كنت بتقول إيه بقا يا روح أمك؟

اندلعت الفوضى، وبدأ "محمد" في الدفاع عن نفسه، موجهًا ضربة لأحد الشباب، بينما كانت "هاجر" تحاول فتح السيارة.

اتصلت "حسناء" بالشرطة، فيما اتصلت "هاجر" بعادل، قائلة من بين دموعها:

- الحقنا يا خالو، في ناس بيتخانقوا مع "محمد".

رد "عادل" بفزع:

-أنتم فين؟

أجابت "حسناء "بسرعة وهي لا تعرف المتصل :

- احنا هنروح القسم!

عندما وصلوا لقسم الشرطة، بدأ الضابط الحديث مع "محمد":

- معاك بطاقة؟

أجابه "محمد" وهو يأخذ البطاقات من يد "هاجر" و"حسناء" ليعطيهم للضابط:

-أنا كده قانونًا معليش أي حاجة، ده كان دفاع عن النفس.

رد الضابط:

-احنا اللي هنحدد ده على العموم، إيه اللي كان موقفكم في مكان زي ده؟

أجابت "حسناء" بتبرير:

- حضرتك كنا بنتكلم في شغل، القانون مش بيقاضي الناس على وقوفهم في أي مكان.

قال الضابط بصوت هادئ:

-لا طبعًا، وياريت حضرتك تهدي الأنسة شوية.

كانت "هاجر" تبكي وترتجف، تستعيد ذكرياتها القديمة، خائفة على "محمد" لكن عندما طمأنتها الضابط. هدأت قليلًا.

نطق الضابط بأسمائهم:"محمد عادل الجبالي"، امضي هنا وتقدر تتفضل دلوقتي.

أصابتها صدمة عند سماع اسمه، ولم تفق إلا عندما نطق الضابط باسمها واسم "هاجر". بعد خروجهم من القسم، حاول "محمد" تهدئتها، قائلًا:"هاجر"، محدش هيأذيك، متخفيش صدقيني، محدش يقدر، خلاص كله تمام.

لم يكمل "محمد" حديثه حتى تدخلت "حسناء" بصوتها الذي يحمل نبرة من الجدية:

- "عادل الجبالي" أبوك.

رد "محمد" بصوت حاد مليء بالتوتر:

- لا، ولو سمحت، متنطقيش الاسم ده تاني.

كان "عادل" قد اقترب منهما وسحب "هاجر" داخل حضنه، محاولًا تهدئتها:

- بس متخافيش، اهدى بس.

لكن حديثه توقف فجأة حين سقطت عينه على "حسناء"، فقال بتلعثم، كأن الكلمات تاهت في حلقه:

- "حسناء"!

ردت بسخرية واضحة، وكأنها تسخر من ذكرياتها المؤلمة:

- آه، كنت مفكرني موت ولا إيه يا "عادل" بيه!

استعادت "هاجر" هدوءها بعد لحظة من الذعر، وقالت بهدوء:

- أتتوا تعرفوا بعض!

لتجيب "حسناء" بنبرة مختلطة من الأسى:

- كانت معرفة سوداء بعيد عنك.

ثم، وكأنها تتذكر شيئًا مؤلمًا، تقدمت "حسناء" لتغادر، لكن ما حدث بعدها كان كالصاعقة: سقط "محمد" مغشيًا عليه ، وقلوبهم تنبض بالخوف، محاولة إفاقته، لكنها لم تستطع كل ما حدث هو أن أنفه وفمه بدأ ينزف الدماء بغزارة، وكأنها كانت بداية لعاصفة من الأحداث المأساوية.

البارت السادس

"العودة"

بدا الظلام ينساب بهدوء في غرفة كلاسيكية تحتفظ بعبق ذكريات قديمة، ذكريات محفورة في كل زاوية منها، بدءاً من لون الخشب الباهت، مروراً بأنفاس الغرفة التي ما زالت تتردد بين ثناياها، وصولاً إلى الجدران التي تحمل بصمات أحدهم، ذاك الذي لم يغفر لنفسه أخطاء الماضي.

الغرفة كانت غارقة في صمت مطبق، يغلفها هدوء يعكس أناقتها الكلاسيكية وسط هذا السكون، فتح طفل صغير باب الغرفة بخطوات مترددة، ترتسم على وجهه ملامح خوف طاغ، ينساب في عروقه تقدم بحذر نحو السرير، يمد يده الصغيرة المرتجفة ليلمس جسد الرجل النائم بعمق، الذي لم يشعر بوجوده إلا بعد تلك اللمسات البريئة. استيقظ الأب ببطء، عينيه مثقلتين بالنوم، ورفع الصغير ليضعه بجواره على الفراش.

سأله بنبرة ناعسة، يحاول جاهداً أن يقاوم النعاس الذي كان يغلبه:

- انت ايه اللي مصحيك لحد دلوقتي؟

نظر إليه الطفل بتردد، تتعثر الكلمات في حلقه وهو يقول بخفوت، ورأسه الصغير منحنٍ:

- أنا كنت عاوز أنام معاك... هو ممكن أعيش معاك هنا؟ أنا مش بزعل صحابي ولا بعمل مشاكل في المدرسة، ومش هعمل دوشة هنا.

لم يعط الأب اهتماماً كبيراً لما قاله الطفل، بل رد عليه ببرود وهو يتجنب السؤال الحقيقي:

- طيب، نام دلوقتي علشان عندك سفر الصبح.

رفع الطفل نظره إليه، عينيه تملؤهما رجاء صامت:

- ممكن أفضل هنا؟ مش هعمل مشاكل ولا دوشة، صدقني.

شعر الأب بارتجاف الطفل بين ذراعيه، احتضنه بحنان وهو يحاول تهدئته، لكن عيني الطفل كانت تفيض بالخوف:

- اهدى يا حبيبي... صدقني،ماينفعش. لازم يكون معاك حد زي طنط سوزي تاخد بالك... عندك مدرستك وصحابك، هتسيبهم إزاي؟ حد ضايقك؟

تلعثم الصغير مرة أخرى، يحاول إخفاء سره، ورد بسرعة متخبطة:

- لا، محدش ضايقني... أنا بس عاوز أفضل معاك. هو انت مش بتحبني؟

ابتسم الأب بخفوت، يحاول تخفيف حدة الموقف، لكن الحقيقة كانت ثقيلة:

- طبعاً بحبك... كلنا بنحبك، حتى ماما الله يرحمها كانت بتحبك جداً.

همس الطفل وهو يمسح دموعه الخفيفة:

- خلاص، أبقى هنا معاك ماشي؟

تنهد الأب بحيرة، ضم الصغير إلى صدره قائلاً:

- طيب، ننام دلوقتي... وبكرة نفكر.

استسلم الطفل لتلك الكلمات، غارقا في نومه العميق لأول مرة منذ فترة طويلة، مطمئنا بحضن والده. ولكن كما هي الحال دائما، تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. استيقظ الصغير صباحا على كابوس، وهو يتمسك بأبيه الذي كان على وشك التخلي عنه أمام الجميع، وأمام نفسه، ليعترف له بانه لم يعد مرغوبا به.

»Back«

تذكر "عادل" تلك الذكرى الوحيدة، وهو واقف في منتصف المستشفى، ينتظر خروج الطبيب كان يحتضن "هاجر"، التي تشبثت به بخوف، كما لو أنها طفل وجد عائلته بعد أن فقدها طويلاً.

سأل بصوت هادئ، يحاول فهم الوضع:

- طيب، هو دايماً بيحصل له كده؟

كان يسأل عن حالة ابنه الذي فقد وعيه منذ ساعات، وبدأ ينزف من أنفه دون سبب واضح. ولكن حديث "حسناء" الذي جاء سريعًا فوق رأسه أيقظه من شروده:

- مش مكسوف من نفسك وانت مش عارف حتى ابنك ماله؟

رغم الحنين الجارف الذي شعر به نحوها، تلك الرغبة في عناقها كانت تُغلبه، إلا أنه رد عليها بغضب ونبرة قاسية:

- وانتِ مالك؟! وبعدين إيه اللي موقفك هنا؟ مش اطمنتي عليه؟ اتفضلي، شوفي رايحة فين.

رغم عبثية كلماته ولا مبالاته الظاهرة، كانت تلك الكلمات كافية لتحطيم ما تبقى من قلبها المكسور للمرة الألف. حاولت السيطرة على مشاعرها وهي ترد بغضب مكتوم:

- ملكش دعوة، أنا مستنية أطمن على صاحبتي 'هاجر'، إنت مالك؟!

دلف أصدقاء "محمد " إلى المكان بشكل مفاجئ، مما أربك طاقم المستشفى الذي حاول منعهم كان عددهم كبيرًا، حوالي ثلاثة عشر شخصًا، وهو عدد غير مألوف في مستشفى مليئة بالمرضى والمصابين. اقترب "أحمد" بسرعة من "هاجر"، وعلامات الخوف بادية على وجهه:

- إيه اللي حصل؟ هو كويس ولا في حاجة حصلت؟

اقتربت الفتيات منها، محاولات تهدئتها، ولكن الخوف كان يتملكها بالكامل قطع الطبيب شرود الجميع بصوت رسمي:

- اطمنوا يا جماعة، هو بخير. اللي حصل كان نتيجة ارتفاع الأدرينالين في الجسم، أدى لارتفاع الضغط. هل هو بيعاني من أي مرض نفسي؟

ابتعد "عز" مع الطبيب ليشرح له بعض الأمور التي طلبها منه، بينما هدأ الجو قليلاً، مطمئنين بكلام الطبيب. بعد فترة، دخل الجميع لزيارته. كانت "هاجر" أول من اقترب، وجلست بجواره وهي تبكي:

- إنت كويس صح؟ مفيش حاجة حصلت؟ مش هتمشي، صح؟

شعر بالاختناق نتيجة بكائها ورؤية حالتها المتعبة أمامه أمسك بيديها بلطف، وقال بصوت هادئ:

- أنا كويس خلاص، مفيش حاجة، اهدي، وأنا هبقى تمام.

كان الجميع يتناوب على الاطمئنان عليه، تتردد الكلمات هنا وهناك بلا جدوى، لكن عيناه كانتا مثبتتين عليها، يحاول بكل الطرق تهدئتها، حتى نجح بعد وقت طويل في إسكات دموعها.

في تلك اللحظة، اقتربت "حسناء" بابتسامة هادئة على وجهها، وقالت وهي تنظر إليه:

- ألف حمد لله على سلامتك يا 'محمد'، لما ترجع القاهرة ابقى كلمني.

انصرفت. لكنه لم يستطع منع نفسه من اللحاق بها. أمسك بيدها وقال بهدوء:

- معلش لو كنت كلمتك وحش جوا.

نظرت إليه بملامح ساخرة. قائلة بحدة:

- معلش على إيه بالضبط؟ أنا عمري ما هسامحك يا 'عادل'، ولو سامحتك هيبقى علشان مش عاوزة أشوفك يوم القيامة. روح، يا أخي، ربنا ما يسامحك أبدًا.

تركت المكان وعينها تمتلئ بالدموع، تلك الدموع التي كانت تغسل وجهها الحزين، وكأنها تبكي كل أمواتها في مقابر الذكريات الحية.

في مخزن واسع تغمره الأدخنة، تتصاعد نتيجة إطارات السيارات التي تنطلق مسرعة على الرمال، ناشرة سحبًا كثيفة من الأتربة والدخان، كانت الأجواء مثقلة بالتوتر. الرجال الذين تجمعوا هناك كانوا يرتدون ملابس سوداء، وجوههم غارقة في الظلام، مما زاد من رهبة المكان مع حلول الليل، بدا كل شيء أكثر غموضًا وإثارة للريبة.

قال «مصطفى» بصوت مملوء القلق، وهو يركل الأرض بقدمه بغضب:

- الملفات اللي اتسرقت يوم الحفلة لو اتقدمت، هنروح في ستين داهية.

رد عليه «أنس» بتحد وثقة لا تعكس حقيقته:

- ولا حد هيقدر يعمل حاجة... ادعي بس صاحبك ما يعرف.

انضم «حسن» إلى الحديث، نبرة صوته لم تخفِ القلق الذي يساوره:

- أنا برضو مش مرتاح من الواد ده، حاسس إنه هايبوظ كل حاجة.

تبادلوا النظرات بصمت، وكأن كل منهم يبحث عن طمأنينة ضائعة لكن «أنس» كان أكثرهم جمودًا وقسوة، قال ببرود قاتل وشر يلمع في عينيه:

- أنا اللي هتصرف.

لم يكن الظلام الذي غمر المكان نابعا فقط من الليل، بل كان يعكس سواد قلوبهم التي غشاها الحقد والكراهية. تلك

القلوب التي لم تعد تبصر الحق، فقد أغشاها الطمع والشر

حتى أعمى بصائرهم تماما. كانوا يسيرون نحو الهلاك، غير مبالين بما يخسرونه من قيمهم وإنسانيتهم يبدو أن نهايتهم

قد اقتربت، لكنهم لم يدركوا بعد أن كل خطوة تخطوها

أقدامهم تقربهم من الهاوية.

كانت تقود سيارتها بسرعة جنونية، وكأن الطريق أمامها أصبح ضبابيًا، كل شيء حولها يمر كلمح البصر، حتى رؤيتها أصبحت مشوشة دموعها لم تتوقف، تنهيدة تلو الأخرى، تختنق بالبكاء كلما مرت في ذهنها ذكرى من الماضي معه، أو استرجعت ما مرت به بسببه كانت تبكي بمرارة، قهرًا على كل ما فقدته في سبيل رجل لم يكن يهتم بها أبدًا كلما عادت بذاكرتها لنظراته الحادة عندما تخلى عنها، أو لحظة الفراق التي كانت أصعب من أي شيء آخر، شعرت بحرقة قلبها لكنها، رغم كل تلك الآلام، لم تستطع أن تكرهه ما زالت تحبه رغم كل شيء.

لم تتوقف عن تخيله إلى جانبها، تسأل نفسها كيف كان يمكن لحياتها أن تكون لو أنه لم يتركها، لو استمر معها كانت تفتقد وجوده، تفتقد لحظاتهم المشتركة، لكن قلبها المكسور لم يكن ليسامحه أبدًا لن تغفر له خذلانه لها في أصعب لحظاتها، ولن تغفر له رحيله دون أدنى اعتذار كان صراعًا مريرًا بين الحب والكرامة، بين عقلها الذي يجلدها في كل لحظة وقلبها الذي ما زال مخلصًا لرجل لم يعد موجودًا في حياتها كانت تُعيد إلى ذاكرتها كل لحظة قضتها معه، وكأن عقلها يرفض النسيان.

- "ها تجوزك" قالها وهو يمسك بيدها قبل أن تبتعد.

نظرت إليه بتعجب، تساؤل اختلط بفرحتها:

- إزاي وانت مش اتجوزت وسبتني؟

رفع أكتافه بلا مبالاة، وكأنه يستهين بكل شيء:

- وها تجوزك أنت كمان، يلا المأذون على وصول.

لم تستوعب ما يحدث من حولها، وكأن العالم توقف للحظة فجأة وجدت نفسها متزوجة، دون أن تدرك كيف جرت الأمور بتلك السرعة هل يعقل؟ بعد كل تلك المعاناة، تزوجوا بهذه البساطة؟ قلبها كان يأمرها بأن تصدق، لكن عقلها رفض هذا العبث لم تستفق إلا وهي بين أحضان صديقتها "عشق".
تبكي بحرقة.

- طيب خلاص، اهدي بس، والله لو شوفته الحيوان ده ها قتله! قالتها عشق بقلق وهي تحاول تهدئتها.

لكن "حسناء" لم تتمكن من التوقف عن البكاء، شهقاتها المتقطعة اختلطت مع كلماتها:

- بيقولي معلش! معلش على إيه بالظبط؟ على تخليه عني؟ ولا على موت أبويا بسببه؟ ولا على أسلوبه معي؟ ولا على ابني اللي مات قبل ما أشوفه؟ أو كسره لقلبي وحرماني من الأمومة طول عمري بسبب أخته؟ على إيه؟ على العمر اللي ضاع وأنا لوحدي؟

كانت تصرخ، كل كلمة تخرج منها محملة بسنوات من الألم والحسرة. ثم عادت للبكاء مرة أخرى، بكاءً قهرًا على نفسها، وعلى كل شيء ضاع منها بسببه.

في تلك اللحظة، فتح "ياسر" الباب ودخل بمرحه المعتاد، ممسكًا بباقة من الورود في يد، وفي اليد الأخرى بعض المقرمشات وقف متجمدًا في مكانه عندما رأى "حسناء" تبكي و"عشق" تحاول مواساتها اقترب منهما ببطء، مستغربًا ما يجري، قبل أن تهاجمه عشق بغضب:

- قول لصاحبك يبعد عنها ويسيبها في حالها، بدل ما أنا اللي أقوله! هو معندوش إحساس؟

لم يفهم "ياسر" ما يحدث، فجلس بجانب "حسناء" بلطف، وقال بهدوء محاولاً استيعاب الأمر:

- احكيلي بس إيه اللي حصل؟

بدأت "عشق" تسرد له كل ما قالته لها "حسناء" بصوت يغمره الغضب. وعندما انتهت، قالت وهي لا تزال غاضبة:

- وكمان زعلان إنها بتطمن على ابنه؟ ياريت يغور هو وابنه ونخلص.

ابتسمت "حسناء" قليلاً، وقد هدأت بعض الشيء:

- بعد الشر على الولد... ده الحاجة العدلة الوحيدة اللي جات منه، أنا ما صدقتش إن الولد ده ابنه.

ضحك "ياسر" محاولاً تغيير الجو المشحون قليلاً:

- كان معاهم سليم شوفتي؟ أكيد لحظتي إنه شبهي؟

ضحكت "حسناء" بخفة، وقالت:

- "آه ما شاء الله، ربنا يخليه لكم... بس هو شبه عشق أصلاً.

تذمر "ياسر" وكأنها استفزته بتلك الكلمات، ليبدأ مزاحها مجددًا قائلاً:

- "لأ بقى! الولد شبهي أنا، وبتآمروا عليَ عشان تقولوا غير كده .

قالها بتذمر وهو يبتعد عنهم بعدما أدرك من نظرات زوجته أنها تريد ان تظل مع صديقتها على إنفراد لوقت اطول، كان يعلم مدي الخذي التي تشعر به و يعلم ان صديقه الوحيد هو السبب ولكن في بعض الأحيان يكون جزاءَ منك هو الصديق .

كان يقف في منتصف الحديقة، هيئته الضخمة تبرز تحت ضوء الشمس الخافت، مرتديًا ملابس منزلية خفيفة، ممسكًا بكوب من القهوة رفع بصره نحو السماء، وكأن السحب تذكره بضحكتها، بصوتها العذب، وبتموجات شعرها التي كانت تلاحقها الرياح بخفة كل تفصيل صغير يخصها ما زال محفورًا في ذهنه، وكل ما تبقى من قلبه كان يهمس له بأنه لن يستطيع نسيانها، مهما حاول كان يعلم في أعماقه أنه لم يكن يستحقها يومًا، فقد كانت أرقى منه بكل المقاييس، أكثر جمالاً وحنانًا مما كان يمكن لرجل مثله أن يحتمله.

تذكر تلك الليلة، حينما كانت يداها في يده، وهما ينظران معًا إلى البحر الهادئ كان يشعر بسلام لم يعرفه من قبل، لحظات نادرة كانت تمحو كل ما هو سيئ في حياته. فبادر بالكلام، حب لم يستطع الإفصاح عنه كليًا:

- "البحر حلو النهاردة! بس عارفة... رغم إني طول عمري بحب العوم ومفيش مرة غرقت، إلا في حاجة واحدة غارقتني."

نظرت إليه بعينين لامعتين، وقالت بتساؤل ممزوج بالعشق:

- "إيه هي الحاجة دي؟"

رد عليها بصوت هادئ، وعيونه لا تفارق عينيها:

- "عينك يا حسناء... هي اللي غرقتني. غرقت ابن الجبالي اللي عمره ما حد قدر عليه."

استفاق فجأة من شروده، وكأن الذكريات هزته بعنف، فحاول إخفاء دمعة مكبوتة في عينه. لا يعلم كيف عاد به الزمن إلى تلك اللحظة، لكنها كانت تذكره بشيء واحد: عمره قد ضاع ولن يعود أبدًا، مهما حاول. قلبه ما زال معلقًا بها، وكأن السنين لم تسلب منه شيئًا. على الرغم من كل ما حدث، كانت تلك الذكرى الوحيدة التي تملأه بالسعادة حين يسترجعها.

همس لنفسه، مسترجعًا بيتًا من الشعر كان قد حفظه يومًا ما، وكأنه يحاول أن يوصل لها ما لم يستطع قوله في حياته:

- "اشتقتُ إليك فعلّميني أن لا أشتاق. علّميني كيف أقتلع جذور هواكِ من الأعماق، علّميني كيف تموتُ الدمعةُ في الأحداق، وعلّميني كيف يموتُ الحبّ وتنتحر الأشواق."

بعدما انتهى من كلماته، عاتبه عقله بقسوة. كان هو من فعل كل هذا بها. قلبه كان يتوسل لها أن تسامحه، لكن عقله كان يرفض الفكرة تمامًا. السماح قد يُطلب عند وقوع خطأ عابر، عند تلطخ ملابس أحدهم، لكن ليس عندما يُكسر القلب. لقد أخطأ في حقها بطرق لم يدركها حتى، لم يكن يعرف كيف أو لماذا، لكنه كان يعرف شيئًا واحدًا: لم يكن يقصد أبدًا إيذاءها. ورغم كل ذلك، أدرك أنه مهما قدم من قرابين، لن تكون كافية لغفران ما فعله. أدرك حينها أنها النهاية... وأنها لن تغفر له أبداً.

في قلب الصحراء الشاسعة، وسط الجبال الشاهقة، كان الليل قد أضفى على المكان سحرًا وجاذبية فريدة تراقصت أنوار النجوم فوق الرمال الذهبية، التي بدت كأنها حبات من الذهب الخالص، وكانت رائحة الشواء تعم المكان الجميع كان مستمتعًا بالمناظر الخلابة والأجواء الساحرة، إلا تلك الفتاة التي كانت تجلس بعيدًا، تخفي وجهها بيديها وتبكي بصوت مكتوم، ممسكة بطبق فارغ.

على الجانب الآخر، كان "سليم" يتجول بفخر، ممسكًا بطبقه الثمين الذي انتظره لأكثر من أربع ساعات حتى ينضج اللحم وبينما كان يستعد لتناول الطعام، لمحت عيناه تلك الفتاة وهي تبكي، وبدافع الفضول قرر الاقتراب منها.

جلس بجانبها وبدأ في تناول طعامه، منتظرًا أن تهدأ، لكنها حين رفعت رأسها لتراه، عادت للبكاء بصوت أعلى لم يكن يفهم سبب دموعها، فتحدث بمرح ليخفف من وطأة الموقف، وقال:

- إيه ده! مالك يا أستاذة؟ كفاية عياط، ده إنت زنانة جدًا والله.

نظرت إليه بغضب، وقالت وهي تبكي بحرقة:

- "نت معندكش إحساس؟ لو سمحت سيبني في حالي.

تفاجأ "سليم" بردها، لكنه كان مصممًا على معرفة سبب بكائها، ولو من باب الفضول فأضاف بلهجة هادئة وهو ينظر إليها:

- طيب، ممكن أعرف إيه اللي مزعلك؟ يمكن أقدر أساعدك.

استجمعت أنفاسها لترد بصوت مليء بالقهر:

- بقالي أربع ساعات مستنية الشوي، ولما رحت أكلم ماما على الموبايل، رجعت لقيتهم موزعين كل الأكل! مفيش حتى حتة لحمة فاضلة لي علشان أنا لوحدي يعني؟ والله هبلغ شرطة السياحة، ده حرام!

انهت حديثها بالبكاء من جديد، لكن في الحقيقة لم يكن ما أبكاها فقدان اللحم فقط، بل شعورها بالظلم والخذلان في أمر يبدو صغيرًا.

تردد "سليم" للحظة، هل يتشارك معها طبق اللحم الذي تعب لأجله؟ لكن في النهاية قرر الحل، وقال بتردد:

- بصي، إيه رأيك تتشارك في الطبق بتاعي؟ بدل كل الزن ده.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن تبدأ الفتاة في تناول الطعام معه دون حتى أن تشكره وبينما كانا يأكلان، بدأت مشاعر الغضب والضيق تتلاشى تدريجيًا، وحل محلها شعور غريب بالانسجام كانا يتلذذان بطعم اللحم وكأنهما يخوضان مغامرة غريبة معًا.

سألت الفتاة فجأة، وهي تنظر إليه بتساؤل:

- بالمناسبة، إنت اسمك إيه يا أستاذ؟

أجاب وهو يرفع عينيه إلى السماء التي بدأت تتلبد بالغيوم:

- اسمي سليم... سليم ياسر النجار.

ضحكت بسخرية وقالت:

- "سليم ولا مكسور؟ نجار ولا محار؟"

بدأت تضحك بشكل عفوي وكأنها تستعيد روحها، ثم قالت وهي تضحك أكثر:

- حلوة، صح؟

ابتسم "سليم"، وتساءل هو الآخر عن اسمها. فأجابته بهدوء:

- أنا اسمي جني... جني زهران.

استمر الحديث بينهما بسلاسة، وكأنهما يعرفان بعضهما منذ زمن. تناسيا مرور الوقت واستمتعا بكوب من الشاي الساخن، يتبادلان الأحاديث والنكات، بينما كانت السماء تمطر فوقهما.

بعض الصدف قد تكون في الحقيقة طوق نجاة...

في خيمه وسط الصحراء اضاءه خافته؛بسبب النار المشتعلة بالخارج، و كوبين من القهوة

مكان هادئ ينظران إلى الكتاب سوياً،يمارسون موهبتهما المفضله وهي قارئه روايتهم المفضله «قواعد جارتين» رغم انهم يقرأها للمرة الالف و مائه إلى أنهم في كل مرة يبكون سوياً عند قراءتها لذلك الفصل الذي تقتل فيه البطله حبيبها،

تحدث «سيف»بصوت مختنق ؛بسبب دموعه قائلاً

«هو أنت يا "سما"ممكن تقتلني زى غفران ما قتلت نديم ؟؟»

لتجيب «سما» بصدق حقيقي من قلبها :

«رغم انك مش من النسالي ولا انا من الإشراف ولا قصت حبنا كانت زيهم إلى انك لو فكرت تخوني مثلاً مع اني عرفه انك معملتش كده لكن وقتها ممكن اقتلك،بس على عكس غفران هاتتحر بعدك .«

تنهد "سيف" بعمق ممسكاً بيدها قال بهيام «حتي لو قتلتني هفضل احبك »

إبتسموا سوياً و يتذكروا تلك الصدفه التي جمعتهم حين كان كل منهم ي مسافراً إلى «اليونان» يصادف الحظ أن يكونوا بجانب بعدهم في مقعد الطائره،و من بعدها يغلق عليهم المصعد لساعات و يغشي على سما بسبب خوفها من الاماكن المغلقه يساعدها سيف تفيق .

قال بصوت هادئ ممزوج بين الحب و السعاده""إنْ كان في صُدَفِ الأزمان رائعةٌ فإنَك خيرُ ما جادتْ به الصّدَفُ "

لتبتسم "سما" علي تلك الكلمات، لينظر و سوياً إلى اعين بعدهم بهيام لا يعلمو كيف أن بعد كل تلك العقبات والمشاكل التى وجهتهم هم الآن مع بعضهما وبعد شهر سيكونوا زوجين

سيغلق عليهم باباً واحداً سيتقاسمو كل شيء

قالت هى بحب "هفضل احبك على طول انت و نظرتك دى ".

أنهت كلماتها بمزح من هيئات

ليعودوا معا الى روايتهم المفضله يغرقون فى عالمهم الخاص بهم فقط

هبت الحياة على عائلة لم تخترها، لكنها أرادت اختبارك في فن

التعايش معهم. ورغم كل هذا، لديك دائما القدرة على اختيار عائلتك بنفسك. وهو ما فعله محمد.

- والله يا سمر، أنا بخير، متقلقيش.

كان محمد يهاتف سمر للمرة الألف، ليطمئنها على حاله، مكررًا أنه لا داعي للقلق. وبعد محاولات كثيرة، بدأ أخيرًا يلمح علامات الطمأنينة على صوتها، فتقبلت راحته.

تحدث برفق وهو ينهي المكالمة:

- ماشي يا سمر، حاضر. خلي بالك من نفسك. وأنتِ من أهله. ربنا يخليك ليا يا أمي.

أغلق الهاتف وهو يبتسم بخفة. لقد هدأ قلبها الحنون، الذي لا يكف عن القلق عليه. يحمد الله دائمًا أنها في حياته، فمهما حاول، لن يستطيع نسيان ألم فقد والدته، ولكن وجود سمر في حياته خفف من هذا الجرح، ولو قليلاً. رغم كل شيء، يظل الإحساس بنقص العائلة مستمرًا في داخله.

استعد للنوم، لكن إسلام الذي كان بجانبه تمسك به فجأة، مانعاً إياه من النوم. كانت تلك إشارة أن هذه الليلة لن تكون هادئة أبداً.

- احكي يا محمد

،قال أحمد بهدوء وهو يحدق في عينيه، مشجعًا إياه على التحدث.

بدأ محمد يسرد ما حدث لهم منذ اللحظة التي تركهم فيها، وصولاً إلى عودته.

تحدث أمير بنبرة هادئة، يحاول توجيهه بعيداً عن خطأه:

- مكنش لازم تسرع وتتخانق وانت معاك بنات.

قاطعه سليم الذي كان يستعد لأخذ الوسادة إلى حضنه، ثم بدأ يروي تفاصيل لقائه بتلك الفتاة. بعد أن أنهى حديثه، كانت العيون كلها مثبتة عليه.

تحدث سيف بهدوء وهو يحاول إبعاد عينيه عن سليم:

- يعني هي كانت بتعيط على الأكل اللي خدوه منها؟

تحدث عز بدهشة:

- لا، وحكتلك قصة حياتها كلها! أنها كانت عايشة في روسيا مع أمها، ولسه راجعة من سنة، ودخلت الطب النفسي علشان أمها، وأنها بتحب القطط والشاي! كل ده في أول مقابلة وهي لسه متعرفكش؟

صدم أمير بدوره قائلاً:

- يعني بتقول عجبتك علشان بتحب الأكل زيك؟ دي حاجة مشتركة؟

قاطعه محمد بنبرة جدية، موقفًا الحديث:

- سيبك من كل ده! يعني إنت سبتها تاكل من أكلك؟ بجد؟

تحدث أحمد بتفكير عميق:

- تصدق صح! إزاي تسيبها تاكل معاك يا راجل؟ أنا مرة كان ضغطي واطي وكنت هموت، وانت مردتش تديني حتى حتة جبنة!

رد سليم بنعاس، وكأنه ينطق بكلمات لا إرادية:

- بس بصراحة، حسيت براحة معاها.

لم يكمل سليم حديثه حتى غلبه النوم فجأة. كما اعتاد منذ سنوات طويلة، ينام في أي وقت وبلا هدف. ضحك الجميع، متناسين كل ما كان يثقل كواهلهم. كل منهم نظر إلى الآخر بابتسامة عريضة، سعيدًا بأنهم ما زالوا معًا. ولكن بالرغم من الضحكات، كان هناك غياب واحد يؤلمهم جميعًا: «هيثم»، الذي رحل لكنه ظل باقيًا في قلوبهم.

كانت تخفي وجهها بكفيها، تبكي بشهقات مرتفعة، حين تذكرت تلك الفتاة التي تنمّرت على لون بشرتها. لم تكن تلك المرة الأولى التي تتعرض فيها لمثل هذه التعليقات المؤلمة؛ فقد عاشتها منذ طفولتها مع أصدقائها وأقاربها.

تذكرت بعد خطبتها كيف مازحتها إحدى الفتيات بعبارة قاسية: "كيف لـ 'عز' أن يقوم بخطبتك؟ أنتِ بالطريقة دي لازم تربتيه جنبك علشان يهرب منك."

تلك الضحكة التي صدرت منهم كسرت قلبها، وتحطمت فرحتها بسببها. أمسك بيدها ليهدئ من حالتها، وقال بصوت حنون:

"أنتِ عبيطة صح؟ يا بنت، أنا بحبك كده زي ما أنتِ. في نظري، أنتِ أجمل واحدة في الكون."

ارتفعت شهقاتها مرة أخرى، بينما احتضن كفها بحنان. نظرت إليه بعيون مليئة بالدموع، وقالت:

"كانت تقصد، بالنسبة لها كان هزار، لكن أنا انكسرت."

لم يكن يعرف كيف يتصرف، لكنه قرر أن يستخدم عقله هذه المرة، فسألها:

"إنتِ بتحبيني ليه يا زينة؟"

لم تفهم "زينة" مغزى حديثه، لكنها أجابت بصدق:

"علشان، علشان معرفش، بس بحس معاك بأمان. بحس إني معاك براحتي، بحس كأنك مني."

تحدث معها بسعادة، فهو يشعر أنه قد استطاع إخراجها نسبياً من حزنها:

"يعني مش علشان طويل، ولا علشان شكلي حلو، ولا علشان أي حاجة من دول. كلهم ملهمش قيمة. يعني مثلاً، أغنى رجل في العالم، دفن تحت فلوسه؟ أكيد لا. دفن تحت التراب. أجمل امرأة في العالم عاشت لأنها جميلة، لكن هل ماتت؟ الإجابة لا، ماتت ودفنت. كلنا في النهاية سنندفن تحت التراب: بيض وسمر، تخين ورفيع، طوال وقصار، فقراء وأغنياء. سنموت، لكن ما يبقى هو روحنا. روحك، يا زينة، حلوة، لهذا ستحظين بمكانة خاصة في قلبي."

لم تستوعب كل ما قاله. هل حقاً هذا "عز" يتحدث بجدية لأول مرة؟ لقد تغيّر كثيراً، لكنه لا يزال المحبب لقلبها. لو كانت تستطيع أن تمضي العمر كله تشكر الله، فلن تكفي كلمات الشكر.

"مش قادرة أتكلم. بس في حاجة واحدة هقولها: أنا بحبك أوي، ولو فضلت طول عمري أشكر ربنا عليك، مش هقدر أوصف حبي ليك."

بعد كل المعاناة في الحياة، يرزقك الله بشخص يعوضك عن كل شيء: صديق مخلص، أب حنون، أم تحبك، زوج أو زوجة تفهمك، تتقاسم معك مشاعرك، أحزانك وأفراحك، وتنقل روحك إلى روحهم. هذا هو العوض، أحبائي. أسأل الله أن يذيقكم عوضه قريبا.

في تلك الليلة، كانت السماء صافية، والقمر مضيء، وتلمع النجوم كأنها لآلئ متناثرة. كل شيء كان مثاليا: نسمات الهواء الطلق، وصوت الأشجار الخافت حولهم. لم تكن معتادة على الوقوف مع أحد في هذا الوقت المتأخر، لكن كان من المستحيل ألا تراه.

تبس بشفاه مرتجفة:

"هاجر، أنتِ معايا؟"

أجابته بابتسامة هادئة تزين محياها:

"معاك، أهو، هكون فين؟"

ابتسم ابتسامة عريضة وهو يتحدث بهدوء:

"ياريتك تفضلي معايا على طول."

نظرت إليه بدهشة، قائلة:

"طيب، ما أنا معاك، أهو!؟"

برر حديثه:

"لا، معايا على طول، يعني... 'هاجر'، أنا بحبك."

تجمدت في مكانها من كلماته، وأفلتت يدها من فوق قميصه، قائلةً بضجر وهي تكبح بكاءها:

"وأنا مستحيل أحب حد."

ثم أسرعت إلى الداخل، تمنع نفسها من الانهيار. لم يفهم هو حديثها؛ هل من المعقول أنها لا تحبه؟ لكنه كان يحبها، لم يتمنَّ شيئاً في حياته سوى أن يكون معها، وأن يكمل حياته لأجلها.

فجأة، صدح صوت الهاتف، لتظهر علامات الصدمة على وجهه. لماذا تتصل به "حياة" في هذا الوقت؟ (حياة زوجة نبيل، الطبيبة النفسية لهاجر، منذ أربعة أشهر). أجاب على الهاتف قائلاً:

"في حاجة يا حياة؟ حصل حاجة؟"

أجابته "حياة" بهدوء:

"محمد، كنت هقولك حاجة بخصوص 'هاجر'."

أجابها بحزن:

"قولي، ماهي خربانة خربانة كده كده."

قالت "حياة":

"أنا صنفت حالة هاجر، وعرفت إنها عندها 'فيلوفوبيا' و'جاموفوبيا'، وعندها تروما."

لم يستطع الآخر أن يستمع إلى ما تقوله، فرد بضحكة صاخبة:

"حلو كده، نحط أمراضي على أمراضها، ونروح نتجوز في مصحة. أسهل يعني."

داخل عيادة طبية تتسم بالهدوء والراحة، حيث تتلاشى شوائب العالم الخارجي، تحديدًا في غرفة الطبيب كان "نبيل"، الطبيب، جالسًا على مقعده بينما "محمد" احتل المقعد المقابل بين أيديهما كوبان من القهوة، دافئان كفاية لمقاومة برودة الجو التي انتشرت في أرجاء البلاد، وكأن الشمس قررت اليوم أن تداعب السماء بخجل.

تحدث "نبيل" بصوت هادئ وهو يرتشف من كوبه:

- "حياة" هتكون هنا قريب، تشرح لك كل حاجة رغم أن اللي بيحصل ده نوع من كشف أسرار المرضى، لكن أنت جزء من العلاج، فمسموح ليك تعرف.

حك "محمد" عنقه بانزعاج، مستشعرًا الحيرة التي اجتاحته، ثم همس ببطء:

- يعني أنا بقيت العلاج؟! لسه مالحقتش تعالجني حتى!

في تلك اللحظة، اقتحمت "حياة" الغرفة بعفويتها المعتادة، ملقية حقيبتها على طاولة قريبة، ثم رمت معطفها نحو زوجها بدون أن تنظر إليهم، وهي ممسكة بهاتفها:

- عايزني في إيه دلوقتي؟! عندي شغل، وعيانين مستنين، وبيت محتاج تظبيط، وأكل مخلص، وزوج ظالم اسمه "نبيل" مش عايز يشيل حتى كوباية!

نظر الاثنان إليها بدهشة متبادلة، لكن "نبيل" استعاد هدوءه سريعًا ورد عليها بصوت رزين:

- ممكن تشرحي لـ "محمد" حالة "هاجر" من الأول؟

ارتدت "حياة" نظارتها الطبية، ثم سعلت قليلاً قبل أن تبدأ بالحديث:

- "الفيلوفوبيا"، أو الخوف من العلاقات، هو اللي أصاب "هاجر" هو رهاب بيظهر غالبًا عند المراهقين، لأسباب متعددة، لكن السبب الأساسي في حالتها هو تربيتها كانت تربيتها كلها قائمة على "المقدار": كل شيء بحدود صارمة: الأكل، النوم، وحتى التعامل مع الناس الترهيب المستمر من والدتها بأن "كل الناس وحشة" أدى إلى خوفها من أي علاقة، وأصبح عقلها الباطن مستوعب الفكرة.وبالطبع، طريقة تعامل أهلها مع بعض عززت عندها هذا التصور السلبي عن العلاقات.»

تفوهت "حياة" وهي تُحكم نظرتها نحو "محمد"، محاولة أن تشرح بعمق ما تعانيه "هاجر":

- "الجيموفوبيا" بقى، هو الخوف من الارتباط، مش من الصداقة ولا العلاقات الاجتماعية العادية السبب الرئيسي للحالة دي يرجع لعلاقة أهلها اللي كانت مضطربة وغير سوية، وكمان

حالة التحرش اللي اتعرضت ليها وهي صغيرة مهما حاولت تتجاوز، فاكرها مترسخ في عقلها الباطن، وده اللي عملها تروما. بتتعرض لنوبات هلع واضطراب كل ما تتذكر الموقف، أو حتى لما تحط نفسها في مواقف مشابهة الأعراض المشترك بين"الفيلوفوبيا"و"الجيموفوبيا" كتيرة: زي القلق المستمر، الخوف من الحب، الخوف من تكوين صداقات أو علاقات عاطفية، كبت المشاعر، واستبعاد فكرة الزواج تماماً. حب العزلة والابتعاد عن الناس حتى الأطفال اللي مفروض حبهم طبيعي لأي حد، بالنسبة لها الخوف بيغلب على الحب من الآخر، هي محتاجاك جنبها ولو بتحبها فعلاً، لازم تحارب علشانها.»

كان "محمد" في حالة من الذهول، ينظر لها بعيون تائهة، عاجز عن تصديق أن "هاجر" كانت تعاني كل هذا، حتى عندما كان قريبًا منها؟ كيف عانت بهذا القدر وهو لم يلحظ شيئًا؟

لاحظ "نبيل" حالة الصدمة الواضحة على وجه "محمد"، فحاول أن يُخفف عنه:

- عارف إنك ممكن تكون مش فاهم اللي بيحصل أو حاسس بالذنب، لكن الموضوع مش في إيدك. مكنتش تقدر تعمل حاجة وقتها.

تبادلت الأنظار بينهم بصمت، وكأنهم ينتظرون ما سينطق به "محمد"، رغم أن الأمر بدا ثقيلًا عليه. عقله كان مشوشًا، يحاول التهرب من سماع المزيد، كأن عقله يغلق أبوابه ويحاول كبح مشاعره مرة تلو الأخرى. غرز أظافره في راحة يده، الألم الجسدي بدا غير ذي قيمة أمام الألم الذي يعتصر قلبه.

بدأ "نبيل" حديثه بنبرة متزنة محاولاً ألا يجرح أي شيء بداخله:

- إنت عندك نوع من الكتمان المزمن، بس في مراحله الأولية يعني تقدر تبكي، لكن البكاء ده بيكون نادر، وبدون دموع كتير بسبب كبتك لمشاعرك لفترة طويلة ده أثر على قناتك الدمعية طبعًا لو الموقف مؤثر كفاية، ممكن تبكي، بس في الطبيعي الكبت بيخلي الدموع قليلة أما الوسواس القهري، فهو بحر واسع في أنواع كتيرة من الأمراض اللي بتندرج تحته، زي وسواس التلوث العقلي، اللي بيكون مرتبط بالذكريات والأفكار السلبية اللي بتسيطر عليك وبتعذبك.

أكمل "نبيل" كلامه بنبرة هادئة:

- «عقلك في اللحظات دي بيدي إشارات مع كل ذكرى مؤلمة أو كلمة جارحة، وده اللي بيخليه ينسج قدامك أفكار سلبية بتعيشك في عالم ملوث من جوا مش من بره المخاوف دي ممكن تيجي من كلمات أو أفكار مرتبطة بالعنف أو الجريمة، أو حتى من ذكريات مؤلمة الشعور بالذنب والمسؤولية عن "التلوث" الداخلي ده بيسبب نوبات هلع وتوتر نوبات بتخليك تحس إنك لو دمرت اللي حواليك أو رنبت البيت مثلاً الزحمة اللي جواك هتهدا لكن إهمالك للعلاج سبب خلل في إفراز هرمون الأدرينالين، ومع كل نوبة بيزيد تدفق الدم، وتبدأ تشوف عروقك بارزة، ضربات قلبك بتسارع، العرق بيغمر جسمك، حواسك بتكون في يقظة مفرطة، والتنفس بيكون سريع. بالإضافة، الشعور بالتوتر، اتساع العين، وانخفاض قدرتك على الإحساس بالألم الجسدي.»

لم يعد "محمد" قادرًا على تحمل كل هذا الحديث كان الألم يعتصر قلبه على ما أصابه، وكأن النيران التي كانت تشتعل داخله قد تحولت إلى دموع تحاصر ذاكرته، تدق قلبه بلا رحمة أو شفقة خفق قلبه بعنف، وشعر بأن عينيه تتسعان شيئًا فشيئًا، حتى لم يعد يرى بوضوح كان الألم يتسلل إلى أحشائه، حتى شعر برغبة قوية في التقيؤ. لم يستطع السيطرة على جسده، فاندفع مسرعًا نحو المرحاض.

هرع "نبيل" و"حياة" خلفه، قلقين على حالته لكن "محمد"، وبمجرد أن استعاد وعيه جزئيًا، لم يفكر إلا في شيء واحد: الفرار. خرج مسرعًا من المكان، هاربًا من كل ما يحيطه، وكأن الفرار هو الحل الوحيد للهروب من آلامه المتراكمة.

لا شيء يحدث صدفة في هذه الحياة، فكل شيء يحدث بميعاد وقدر لا مفر منه، كما لا يمكن الهروب من الموت.

في أحد المقاهي الراقية بمنطقة المعادي، جلس "سليم" على أحد المقاعد أمامه شطيرة من البرجر وأطباق مليئة باللحم والمعكرونة، جميعها معدة له فقط. كان يؤمن أن له الحق المطلق في تصرفاته، هو وحده صاحب القرار في حياته.

بينما كان يتناول طعامه بشراهة، تلقى اتصالًا من "عز"، فصاح بصعوبة بسبب امتلاء فمه بالطعام:

يا ابني، خلاص أنا كلمت المكتبة، وهما هايوصلوا لك الروايات اللي طلبتها.

رد "عز" على الجانب الآخر بقلق:

- اوعي يتأخروا، أنا بصعوبة جهزت الغرفة.

لكن "سليم" لم يكن يستمع. فجأة، توقف كل شيء أمام عينيه. وكأن الصدفة قد رحمته، ها هي تقف أمامه، تلك البراءة في عينيها، الثرثرة التي سرقت قلبه. كان دخولها إلى المقهى مفاجئًا بالنسبة له. بعد سفرها، لم يتمكن من الحصول على أي وسيلة للتواصل معها: لا رقم هاتف، ولا عنوان، ولا حتى مكان دراستها أو عملها.

أغلق "سليم" الهاتف في وجه "عز" دون أن يدرك ما كان يقوله، وكأن سحرًا قد سيطر عليه من لحظة رؤيتها.

كانت تجلس على مقعدها وكأنها لا تعي حضوره، تطلب من النادل مجموعة من الأطباق بهدوء، ثم أمسكت هاتفها وتحدثت بصوت مرتفع:

ـ مش راجعة، ومش هاسيب مصر، إيه رأيك بقى؟»

أخذت تسترسل في حديثها:

- يا ماما، أنا مش مسافرة، وسيبيني لوحدي بدل ما أنتحر ويكون ذنبي في رقبتك.

ما أن انتهت من المكالمة، حتى صرخت في النادل بغضب:

ـ فين السلطة؟ إيه الهزار ده؟

راقبها "سليم" بدهشة، ثم اقترب منها مترددًا وهو يقول بخجل:

-أظن حضرتك منستنيش، صح؟

ابتسمت ابتسامة خفيفة وهي ترد:

طبعًا مش ناسية، المرة دي أنا اللي عازماك، اتفضل.

بدأا يتناولان الطعام معاً، غير مكترثين بنظرات الناس من حولهم. فالضحكات الطفولية العالية والصوت المرتفع كانا غير ملائمين لهذا المكان الهادئ.

بعد أن انتهيا من تناول الطعام، بدأ الحديث يتسلل بينهما كأنهما يعرفان بعضهما منذ سنوات. حكت له عن حياتها قائلة:

- أنا وماما كنا عايشين بره مصر من وأنا عندي ٤ سنين، ولما خلصت آخر مرحلة تعليمية هناك، قررت أنزل مصر. دلوقتي بدرس في جامعة القاهرة. بس ماما مصممة إني أرجع هناك، وأنا مش موافقة .

سأله بفضول وهو يحتسي الشاي:

- طيب وباباكِ فين؟

زاغت عيناها وملامحها تبدلت للحزن والغضب، ردت بحدة:

- تصدق أنك فضولي؟ أنا غلطانة إني كلمتك.

أمسك بيدها بسرعة وهو يعتذر، خائفًا من أن تفقده مرة أخرى:

-آسف والله، ما كنتش أقصد... اقعدي، لو سمحتي.

جلست مجددًا، وهي تمسح دموعها المتحجرة، وقالت بصوت مكبوت:

أنا اتعصبت علشان مش بحب أسمع السيرة دي. تعرف الشخص اللي المفروض يكون أبويا؟ باعني لأمي حرفيًا. ما بحبش أفتكر.

شعر "سليم" بالذنب عندما رآها تبكي أمامه، مجرد ذكرى تجعلها بهذا الانهيار؟ أعطاها منديلًا ليخفف عنها قائلاً:

-أنا آسف، بجد. هو الخسران، مش أنتِ.

أومأت برأسها واستعدت للرحيل، لكنه وقف بجانبها وهو يدفع الحساب للنادل:

- قولتي عربيتك في الصيانة، اسمحيلي أوصلك.

في النهاية، الحقيقة تظل كما هي: لا توجد لقاءات عبثية في هذه الحياة. فكل شخص تصادفه هو إما اختبار، أو هدية من السماء.

وتستقر السماء بين ليله وضحاها لتكشف لنا نصيبنا من هذا العالم، وهكذا كانت قد منحتها كل الحب دفعة واحدة وهي تنظر إلى المنزل الذي أعدته هي ومن تحب في وقت قياسي، بكل تفاصيله.

دخلت الغرفة التي لم تكن هي من نظمها، بل تولى هو تصميمها بالكامل، تحديداً تلك الغرفة الواسعة ذات الألوان الهادئة التي طالما تمنتها. في وسط الغرفة، توجد طاولة للقراءة، وفوقها مصباح إضاءة دافئ، والجدران تزينها أرفف للكتب المرصوصة بعناية، محاطة بورود حمراء تنبض بالحياة.

تحدثت بضجر وهي مغمضة العينين:

- هفضل ماشية زي العيال كده كتير؟! أقسم بالله لو اتكسرت على الفرح، لنكد عليك بقيت عمرك.

أجابها بكلمة واحدة وهو يقف أمامها:

-افتحي عينيك .

فتحت عينيها باندهاش، ابتسامة رسمت على شفتيها وهي تنظر إلى الغرفة. اقتربت من الرفوف، تقلب الروايات بين يديها، ثم نظرت إلى تلك الصورة المعلقة على الحائط. كانت صورة لها وهي تبتسم، وفوق أناملها تستقر فراشة صغيرة، وأسفل الصورة كان مكتوباً:

"كأنك سلبت القمر بريقه وخبأته في عينيك."

انفجرت دموعها بالبكاء وهي تلتفت إليه وتقول:

- أنا مستهلش كل ده، شكراً بجد.

اختتمت كلماتها بنحيب خفيف، لكنها كانت سعيدة بطريقة لا توصف.

نظر لها "عز" بهدوء، عينيه مليئة بحب العالم كله:

- أنت فعلاً متستهليش... أنت تستحقي أجمل بكتير، حاجات تليق بقلبك. أنا هفضل محافظ عليك لآخر عمري.

تحدثت بخوف، مشاعرها المتضاربة تجتاحها وكلما اقتربت منه زادت تلك المخاوف:

-انت مش هتزهق مني؟ ممكن تمنعني من شغلي؟ أو تاخد كل وقتي؟ طيب و"سمر"، هاسيبها إزاي؟ أنا تعبانة وخايفة.

تعجب من شكوكها، كيف لا تثق به رغم كل ما فعله لأجلها:

- لا مش هزهق، وهفضل طول عمري أدعمك في أي حاجة بتحبيها، ومحدش هيمنعك عن "سمر"... ممكن متخافيش تاني؟

لم يحتاجوا إلى المزيد من الكلمات، كانت أعينهم وحدها تتحدث، تنسج أفكارًا عن حياة جديدة لا يعلمون عنها شيئًا بعد، لكنهم مستعدون لخوضها معًا.

في إحدى الشركات، تحديداً داخل مكتب المدير، كان يجلس "عادل" بهيئته الغاضبة التي اشتهر بها دائماً. أمسك بلفافة تبغ بين أنامله، واستنشق النيكوتين الذي بدأ يسري في عروقه كأنه يحاول تهدئة أعصابه المتوترة. أمامه جلس صديقه "ياسر" وهو يحتسي قهوته بتلذذ.

فجأة، رمى "عادل" هاتفه بغضب وهو يصيح:

- أنا هتجنن! بتقفل في وشي السكة كده؟!

لم يستطع "ياسر" كبح ضحكته، فضحك بشدة حتى خرجت القهوة من فمه، مما جعله يسعل ويبحث عن ماء بسرعة.

نظر إليه "عادل" بلامبالاة:

- موت بقى، مش هديك مياه، إيه رأيك؟

أجابه "ياسر" بعناد وهو يمسح فمه ويكمل شرب القهوة:

-تصدق؟ أحسن فيك اللي بتعمله "حسناء".

رفع "عادل" حاجبيه بمزاح ولامبالاة زائفة:

- عادي، أصلاً مش مهم. خليها براحتها.

نظر "ياسر" إليه بتفحص، بينما "عادل" كان يحاول الهروب بعينيه بعيداً عنه. ثم تحدث "ياسر" بمزاح وهو يهز رأسه:

-طيب، كنت ناوي أقنع "عشق" تتقابلوا عندنا، بس خلاص بقى.

أجابه "عادل" بسرعة وهو يمسك بيد صديقه:

- قول والله! أقصد... عادي يعني، براحتكم.

قبل أن يكملوا حديثهم، تفاجأ "عادل" بدخول شقيقته "سوزي" وزوجها "مصطفى". اقتربت "سوزي" واحتضنته بهدوء وهي تقول:

- وحشتني، مع إنك مسألتش عني.

وقبل أن يغادر "ياسر"، نظر إلى "عادل" بطرف عينه قائلاً:

- متنساش معادنا ١٠ بليل.

بعد رحيله، تحدث "مصطفى" بغضب وهو ينظر نحو الباب:

-بيتعمّد يخرج أول ما أدخل، وده غير "أمير" كمان... أنا مش مرتاح معاهم.

نظر إليه "عادل" بغضب قائلاً:

- بطل شغل العيال ده، هو خرج علشان عنده شغل في المصنع، لأن حضرتك قاعد في البيت ولا بتنزل ولا بتعمل حاجة، ولولا "أمير" كان المصنع اتخرب من زمان.

حاولت "سوزي" تهدئة الموقف قائلة بهدوء:

- طيب، أنا محتاجاك تشغل "عمر" معاكم مستشار قانوني، طبعاً.

تشنجت ملامح "عادل" وهو ينظر إليها:

«ده طبعاً بالواسطة، صح؟ ابنك فاشل، بيأخذ السنة في سنتين وآخر واحد في دفعته، وأنا أشغله؟!»

تبادلت "سوزي" النظرات مع زوجها قبل أن ترد بهدوء:

- اعتبر إنك بتعمل كده علشاني يا حبيبي.

لم يستطع "عادل" أن يرفض طلبها، فهي شقيقته الوحيدة وأكثر شخص يحبه. أومأ برأسه قائلاً:

- حاضر، حاجة تانية يا حبيبتي؟

قبل أن ترحل، تحدثت بنبرة أكثر جدية:

- بما إنك رجعت بقى، يا حبيبي، شوف تصرف في ابنك وابعده عن بنتي، أو... أخفيه أحسن؟

تنهد "عادل" بضيق، شعر وكأن الجميع يتآمر ضده ولن يتركوه في سلام.

و في حديقة منزل بإحدى الأحياء الراقية، كان "ياسر" و"سليم" يمارسان بعض التمارين الرياضية. بعد أن قص "ياسر" قصة تلك "الجنية"، كانت علاقته مع "سليم" قوية. على الرغم من كثرة أسفاره، كان يحرص على تقوية علاقته معه لأنه ابنه الوحيد، وأيضاً بعد وفاة شقيقه الأكبر، لم يعد لديه أي أصدقاء مقربون.

كانت "حسناء" تجلس مع "عشق" يتفقان على كيفية مواجهة "عادل" وإنهاء تلك المهزلة. بعد فترة قصيرة، دخلت سيارة "عادل" إلى المنزل. ذهب "ياسر" لاستقباله وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، لكن استطاع "عادل" سماع جملة واحدة:

- طبعاً لولا "حسناء" هنا مكنتش جيت.

تحدث "عادل" من بين أسنانه، محاولاً السيطرة على غضبه:

- مش هرد عليك دلوقتي... مراتك لسه مش بطيقني؟

أجاب "ياسر" بلا مبالاة وهو يرفع أكتافه:

-لا، بصراحة بقت بتكرهك أكتر.

في تلك اللحظة، وقعت عينا "عادل" على "سليم". شعر "سليم" بانكماش في ملامحه وقرر أن يتجنب التعامل مع "عادل". فتح هاتفه وكتب في مجموعة الأصدقاء:

"شباب، عندي خبر أوحش من طبيخ أمير، 'عادل الجبالي' هنا. وشكلها هتغمق علينا. ما تقطعوش."

تبادل "ياسر" و"عشق" النظرات وقررا ترك المكان، تاركين "عادل" و"حسناء" بمفردهما.

تحدثت "حسناء" بثبات، محاولة الحفاظ على هدوئها:

- انت عاوز تشوفني ليه بقى؟

تجمد "عادل" في مكانه، لا يعرف ما الذي يدفعه لرؤيتها سوى رغبة عارمة في مواجهتها. تنفس بعمق وتحدث بهدوء:

- كنت عاوز أعتذرلك على كل حاجة حصلت بسببي. أنا آسف على كل حاجة، والشيء الوحيد اللي لسه متأكد منه هو إني بحبك.

تشنجت ملامح "حسناء"، لا تعرف كيف ترد على كلماته. هل حقاً قال إنه ما زال يحبها؟؟

أجابته "حسناء" هذه المرة بنبرة تحد:

- آسف على إيه بالظبط؟ على موت أبويا بسببك وبسبب أبوك؟ ولا على كل اللي عملته في حياتي؟

تحدث "عادل" هذه المرة بنبرة تجمع بين الغضب والحزن المكتوم:

-وأنا؟! أنا زيك تماماً أمي ماتت من غير ما أشوفها، وتجوزت وحدة مبحبهاش وخلفت منها ثلاث أطفال ماتوا كلهم. بنتي اللي ربيتها خمسة شهور ماتت بين إيديا. حتى الطفل اللي خلفته سبتُه ومشيت، ويمكن يكون مش ابني أصلاً.

أكمل حديثه بهدوء وعقلانية لا تتناسب مع كل تلك السنوات التي فرقت بينهما:

- أنا زي ما اعتذرت لك، بطلب منك طلب واحد... أنا لسه بحبك، رغم كل اللي حصل، ورغم السنين دي كلها... لسه بحبك. تتجوزيني؟

صُدمت "حسناء" من طلبه، تجمدت في مكانها لبعض الوقت. لم تعرف كيف ترد عليه، فأخذت نفسًا عميقًا ثم غادرت المكان بأكمله، تاركة "عادل" واقفًا وحده، لينسحب هو الآخر بعدها.

في منزل متواضع، اجتمعوا حول مائدة الطعام كعادتهم القديمة منذ وفاة صديقهم المقرب "هيثم"، أصبح يوم اللقاء بينهم عادة لا تتغير، يقضون فيه الوقت معاً، كأنهم يتمسكون بتلك اللحظات التي تربطهم بذكرى رفيقهم الراحل.

تحدث "سيف" بنبرة ساخرة، والابتسامة لا تفارق شفتيه:

- و تقولي حاسس بحاجه! اتجه بقى لـ "حسناء"، الست الطيبة، الست الحنينة! فعلاً يا "محمد"، ونعمة الإحساس... طلعت طليقة أبوك يا أهبل!

أجاب "محمد" بهدوء غير مكترث، وهو يرتشف من كوب العصير:

- متقولش "أبوك" لو سمحت، وبعيدًا عن إنها لطيفة أوي، بس مش عارف تتجوزه ليه لحد دلوقتي؟

رد "أحمد" بعناد وهو يضربه برفق على كتفه:

- متبقاش غيور يا "محمد"، الراجل كاريزما بجد.

هذه المرة، تحدث "سليم" بنبرة قلقة، وكأن شيئًا يثقله:

- حاسس إن الحوار ده هياخد منحى سوداوي... خصوصاً إنه كلمني وصوته كان وحش جداً، بيقولي "أنا شوفتك قبل كده" وبعدين مشي.

رد "عز" ساخراً، معقبًا على حديثه:

- يا متخلف! قوله شوفتني مع "محمد" في المستشفى، وسيبك من الأفكار اللي بتدور في دماغك.

تجاهلوا حديث "عز"، وبدأ "سيف" بسرد موقف لقائه مع الفتاة الثرثارة التي يُطلقون عليها "جِنى". لم تخلُ الأجواء من المزاح والضحك، خاصة بعد أن انتهى من سرد حكايته.

ثم قال "عز" بهدوء وهو يشير إلى ما هو قادم:

- صح، لازم تكونوا موجودين لما أشتري البدلة... خلاص الفرح قرب.

تبادلت العيون نظرات الفرح والسعادة، شعوراً بالافتخار طغى على وجوههم. كيف لهذا الأحمق الذي كان يلعب الكرة معهم بالأمس أن يصبح الآن رجلاً مسؤولاً على وشك الزواج من

"زينة"، تلك الفتاة اللطيفة التي بالرغم من أنها تكبرهم قليلاً، كانوا يرونها دائمًا كطفلة صغيرة. الزمن يمضي، والذكريات التي تشاركها الأصدقاء تتسع مع كل يوم.

وقبل أن ينهي "سيف" الجلسة، قال مبتسمًا:

- وأنا كمان هحتاجكم كمان كام شهر... لما أقرر أعلن عن فرحي.

تبادلوا النظرات مرة أخرى، ثم بدأوا في إلقاء الوسائد على بعضهم بمزاح وضحكات طفولية، كأن الحزن الذي يسكنهم لم يكن قادرًا على كسر روابطهم أو نزع البهجة التي تجمعهم.

كانت تجلس في غرفتها، تحاول بكل ما أوتيت من قوة أن تنسى كلماته التي اخترقت قلبها في ذلك اليوم. لم تكن تتوقع أن تكون مشاعرها نحوه بهذا العمق. نعم هي تحبه، ولكن الخوف يسيطر عليها؛ تخشى فقدانه، تخشى ألا تتمكن من إسعاده، تخشى أن يظل حبها له أبديًا، بينما تكتفي بمراقبته من بعيد دون أن تسمح له بالاقتراب. أمسكت دفترها الصغير، وبدأت تدون كلماتها التي تعبر عن تلك الحيرة التي لا تفارقها:

"أخاف أن أحبك فأفقدك، فأتألم. وأخاف ألا أحبك فتضيع فرصة الحب، فأندم. فعلمني كيف أحبك بلا ألم، وكيف لا أحبك بلا ندم."

وبينما كانت تغرق في أفكارها، سمعت طرقات خفيفة على الباب. دخل الطفل الصغير "يزن" وهو يركض نحوها، مبتسمًا بلطف، واحتضنها قائلًا:

- جدو عنده ضيوف تحت، وقالي أقولك.

احتضنته بحب وهي تعبث في خصلات شعره الناعمة، وردت بابتسامة دافئة:

- طيب، أنا نازلة حالاً... روح قولهم إني جاية.

بعد أن خرج الطفل من الغرفة، أخذت نفسًا عميقًا وبدأت في ارتداء ملابسها، ولكن قلبها انقبض فجأة، وكأن هناك شعورًا خفيًا يحذرها من شيء ما. ومع ذلك، قررت أن تهبط بسرعة، قبل أن تأتي والدتها وتلقي عليها كلمات قاسية كالسيوف.

كان يقف في محل الزهور، طلب من البائع أن يجمع له باقة من الورود الحمراء والبيضاء معاً.

أخذ بطاقة صغيرة وكتب عليها بخط مميز:

"يا فاتن العينين، كيف أعيتني، وأصبحت أهوى في عيناك ما لم أهوى."

بعدها، حمل الباقة واستقل سيارته، متجها نحوها، عازما على لقائها.في مكان آخر، كانت هي تنزل على الدرج بخفة، ولكن بمجرد أن أبصرتهم، انكمشت ملامحها وباتت شاحبة.

رأت أمامها كابوسها المرعب الذي لطالما تمنَت أن يختفي من حياتها. كان "أنس" يقف هناك، وبرفقته ابنه "قاسم" وأخوه "حسن"، بالإضافة إلى ابنته "رزان".نظرت إليها "سوزي" بنبرة آمرة، قائلة:

- مش هتسلمي على الضيوف؟

لم تستطع التحمل أكثر خرجت مسرعة إلى الحديقة، غير قادرة على التقاط أنفاسها، وكأن الهواء من حولها قد اختنق.

تحدث "أنس" بخبث، قائلاً:

-اطلع وراها يا "قاسم"، شكلها مش حبة وجودنا يمكن تسمعك لوحدك.

ركض "قاسم" خلفها، وبرفقته "رزان". اقتربا منها، ثم نطق "قاسم" بخبث شديد:

- عارفة ليه جيبتني هنا؟ علشان أتجوزك.

تجمدت "هاجر" في مكانها، واجابته بنبرة مرتعشة:

- أنا عمري ما هتجوزك أبداً... انت فاهم؟

تحدثت "رزان" بلهجة مليئة بالخبث والكراهية، وكأنها تستمتع بتعذيبها:

- أوه، طبعًا! مفكرة نفسك هتتجوزي حبيب القلب؟ انسي يا ماما، محدش هيسمح لك حتى لو حاولت، هو أصلاً مش بيحبك، ده بس بيعطف عليك. فاهمة؟

حاولت "هاجر" الهروب منهم، لكنهم لم يتركوها "رزان" أمسك بخصلات شعرها بقسوة، بينما "قاسم" أمسك بيدها بطريقة مقززة، كحيوان بري يهجم على فريسته.

لم يرَ هذا المشهد سوى "محمد"، الذي كان يدخل المنزل حاملًا الباقة التي أحضرها لها لاحظت "رزان" وجوده، فاختبأت بسرعة خلف الجدار، لكن "محمد" رأى كل شيء. في تلك اللحظة، كل حبه لها وكل مشاعره التي دفعته للمجيء إليها اختفت.

ركض نحو "قاسم" وأبعده عنها بعنف، وبدأ بضربه وهو يتحدث بتهكم:

- أهلاً وسهلاً يا "قاسم بيه"! مش تقول يا راجل علشان أرحب بيك؟

وجه إليه ضربة قوية أسقطته على الأرض. هرعت "هاجر" وأمسكت بيد "محمد" محاولة إبعاده عنه، لكنه أبعدها قائلاً بسخرية:

- خايفة عليه؟! ابعدي عني بقى.

خرج الجميع على صوت الشجار المرتفع، وقف "قاسم" مختبئًا خلف "أنس" الذي اقترب من "محمد" محذرًا بنبرة صارمة:

-إنت مش ناوي تلم نفسك يالا؟

رد "محمد" بعناد واستهزاء، ممتزجين بالغضب:

- لم ابنك الأول وبعدين أنا هتلم.

تدخلت "سوزي" بغضب شديد، وهي تصرخ:«إنت إيه اللي جابك هنا يا متوحش؟»،أجابها "محمد" بسخرية لاذعة:

- غلبني الشوق وجابني لعيونك يا روحي.

تعالت الأصوات بين الجميع بشكل غير مفهوم، وصارت الفوضى تعم المكان هي احتضنت الصغير وأبعدته وهي تبكي، بينما "قاسم" حاول أن يوجه لكمة لـ"محمد" وأسقطه أرضًا، لكن "محمد" رد عليه بركلة قوية أطاحت به فجأة، انطلقت طلقة نارية من مسدس "عادل" لتوقف الشجار، وصاح بصوت غاضب يملأه التهديد:

- بس يا غجر! يا شوية حثالة!

لكن المفاجأة كانت حين اندفعت هي إلى أحضان "محمد"، باكية ومتشبثة بملابسه، وكأنها تجد فيه ملاذًا وحماية وسط هذه الفوضى.

تحدث "أنس" بخبث، مدعيًا القلق والبراءة:

-اسأل ابنك! دخلنا ولقيناه بيحاول يقل أدبه مع "هاجر"، ولما "قاسم" حاول يوقفه، ضربه.

ردت "هاجر" بصوت مليء بالانهيار والغضب، وهي تتشبث بـ"محمد" أكثر:

- كذب! "قاسم" و"رزان" هما اللي خرجوا ورايا وضربتني "رزان"، والحيوان ده حاول يلمسني!

فقدت السيطرة على نفسها تمامًا وبدأت تضرب "قاسم" بوحشية، وكأنها تحاول أن تنتقم من كل لحظة ألم عاشتها.احتضنها "عادل" من الخلف، محاولًا تهدئتها، وهو يحميها بحزم:

- بس! خلاص، متعمليش حاجة، كفاية عليه إنه اتبهدل كده. وبما إن أبوكي مقدرش يحافظ عليكي، فأنتِ هتيجي معايا، وحسابكم كله عندي.

نظر "محمد" للجميع بعيون مليئة بالغضب والحزن، لكنه كان يظن أنها خانته رأي ما حدث أمامه، لكنها كانت تحاول الابتعاد، ودموعها لم تتوقف أخذ "عادل" ورحل، لكنه عاد إلى "محمد" وقال له بنبرة قوية:

-يلا قدامي انت كمان.

اقترب "محمد" منه، متحدثًا بتحد وغضب داخل أذنه:

- انت نجحت في مشهد، لكن لسه الفيلم طويل وعهد الله ما هتشوف خير.

لم يكمل "محمد" حديثه، إذ سحبه "عادل" بقوة خارج المكان، بينما كان "محمد" ينظر للجميع بنظرات غضب وحقد، وكأنه يخطط للانتقام؛ وفي الخارج، قال "محمد " لها بغضب:

طبعًا مردتيش عليا علشانه، صح؟ اتفضلي الورد اللي كنت متأخر أجيبهولك.

لكن "عادل " صرخ بغضب وهو يواجهه:

- انت اتجننت؟ بترفع صوتك عليها ليه؟ وإيه الهبل اللي عملته جوا ده؟

ابتسم "محمد " ابتسامة ساخرة وملامح مليئة بالحقد:

- ياه لسه فاكر؟ انت مالكش حق في أي حاجة سامعني؟ ميت بالنسبة لي، سواء بوجودك أو من غيرك.

قذف بيدها باقة الورد المبعثرة على الأرض، ثم رحل وهو يعميه الألم والحزن، وكأن القدر كتب عليه أن يخسر أحبته بلا رجعة.

البارت السابع

"نعم، أغار عليها"

لماذا لا تتم محاسبة الأسود والنمور والذئاب وأسماك القرش، والحيوانات المفترسة بشكل عام، عندما ترتكب جريمة بحق البشر؟ لأنها في الأساس حيوانات، ليس لديها عقل أو مشاعر

أو أحاسيس لا تعي شيئا، لديها عقل ولكنها لا تفقه به شيئا، وهذه طبيعتها على عكس البشر، الذين يدعون انهم مميزون

لقد فضل الله الإنسان على جميع المخلوقات وصوره في أحسن صورة، وأعطاه عقلا يفكر ويحلل ويستنتج به ورغم ذلك، ما زال الإنسان همجيا عنيفا، يقتل وينهب ويسفك الدماء، ويرتكب كل ما هو محرم وشنيع وهو على دراية بذلك.

لو قارنا بين ضحايا الحيوانات المفترسة وضحايا البشر، لكانت مقارنة ظالمة فالعدد الذي يموت ويعاني بسبب البشر يفوق

بكثير ما تسببه الحيوانات المفترسة. البشر أحيانا يظهرون كأشخاص مرضى تخيل أن القلب والمشاعر والأحاسيس التي يمتلكها الإنسان، رغم كل هذا، لا تمنعه من القتل والتدمير

والسعي في الأرض فسادا لولا أننا في ضلال، لما استعاذ الله

بالبشر في القرآن. حقا، لقد لعن الله أفعال البشر الحاقدة والفاسدة إلى يوم القيامة.

في منزل ليس بالكبير، لكنه لطيف بالنسبة لها، حيث الفوضى تعم المكان وصوت الموسيقى الصاخبة يملأ الأجواء، كانت تقف في مطبخها تحضر بعض الأطعمة صدح صوت هاتفها معلنًا عن وصول اتصال تراجعت للخلف تبحث عن الهاتف حتى تذكرت أنها وضعته أعلى خزانة الطعام أمسكت بهاتفها، وفوجئت عندما رأت اسم المتصل: "سليم". ترددت للحظات قبل أن تقرر الرد، وانتهى بها الأمر قائلة:

- إزيك يا "سليم".

أجابها الآخر بنعاس:

- الحمد لله، أخبارك إنت؟

ردت بلطف وهي تعبث بالأطباق:

- الحمد لله، بخير.

سألها وهو يحاول فتح حديث:

- إنت بتعملي حاجة؟

أجابته وهي تقلب الطعام بالمعلقة الخشبية:

- بطبخ. أمال مين هيطبخ لي يعني؟

على الجانب الآخر، بدا على "سليم" الاهتمام حين اكتشف أنها تستطيع الطهي، فسألها بلهفة:

- إنت بتعرفي تطبخي؟

أجابته بفخر:

- طبعًا يا بني، ده أنا بعمل صينية مكرونة بالبشاميل تجنن!

أجابها "سليم" ببساطة:

- الله. أنا كمان بحب المكرونة بالبشاميل والمحشي. بتحبي المحشي؟

أجابته "جنى" وهي تضع الطعام على الطاولة:

- طبعًا بحبه، صح... إنتَ كنت بتكلمني ليه؟

تلعثم "سليم" قليلًا قبل أن يقول بتردد:

- آه، كنت بس عايز أسألك لو ينفع تحضري معايا برنامج، أنا هنزل أعمل مقابلات مع العمال في المصنع عندنا.

تشنجت ملامحها من طلبه، لكنها أخذت نفسًا عميقًا بالتزامن مع قضمة من الطعام، ثم قالت بصعوبة:

- تمام، ماشي، هحاول.

عند سماعه لردها، شعر "سليم" بالارتياح وبدأ يضرب السرير بقدميه وهو يحتضن الوسادة، ثم قال بخجل:

- تمام يا "جنى"، كلميني لما تاخدي القرار.

أنهت المكالمة تزامنًا مع طرقات على الباب. دخل والده إلى الغرفة بملابس رياضية سوداء، وجلس بجانبه على السرير قائلًا بهدوء:

- "سليم"، تخرج معايا؟

تشنجت ملامح "سليم" من الطلب المفاجئ لكنه أجاب بتفهم:

- آه، أكيد، بس ليه؟

حاول "ياسر" أن يتحدث بلطف، لكنه لم يستطع إخفاء قلقه، فسأله مباشرة:

- إنتَ حضرت حفلة الشهر اللي فات؟

في تلك اللحظة، شعر "سليم" بمزيج من الخوف والتوتر، لكنه حاول إخفاء ارتباكه وردّ بتماسك:

- آه، كانت حفلة في النادي مع أصحابي.

نهض "ياسر" غاضبًا وسأله بحدّة:

- "سليم"، إنتَ شوفت "عادل" قبل كده؟

تراجعت دفاعات "سليم" بالكامل عند سماع هذا الاسم، لكنه حاول التماسك، وأجاب بنبرة مخادعة:

- آه، أعرفه، شوفته هنا مرة وشوفته في كذا مناسبة هو في حاجة؟

رغم ارتباك "سليم" الواضح، قرر "ياسر" تصديق ابنه لسببين: أولًا لأنه يثق فيه تمامًا، وثانيًا لأنه لا يرى مصلحة لـ"سليم" في الكذب. هدأ "ياسر" وابتسم قليلًا قائلًا:

- لا، مفيش حاجة، بس كنت بتأكد من حاجة.

حاول "سليم" الخروج من الموقف بسرعة، وطلب بلهجة هادئة:

- طيب، أنا هروح أسجل المقابلات مع "جنى" في المصنع.

ليست النجاة دائما في الخداع عندما تخدع حالك لكي تصدق نجاتك تنتهي السبل بك في الهاوية

كان يقف مهزومًا، فاقدًا للحياة، في لحظات الغروب، حيث تنعكس أشعة الشمس على ذلك القبر أمامه يا لها من لحظة قاسية، كيف يمكن بعد كل تلك السنوات والذكريات أن يتبقى له مجرد حفرة صغيرة يزورها من حين لآخر، حتى تلك التي ظنها طوق نجاته لم تكن كما تخيل.

لم تكن كما تخيل، رآها في أحضان غيره، ذلك الذي كانت تهرب منه لأيام، ذلك الذي أبيه دمّر حياته وحياتها لماذا لم يكن هو كافيًا؟

لماذا لم تعترف يومًا بحبها له؟ ربما لأنها لم تحبه أصلًا، إذن، لماذا أحبها بهذا القدر؟ لماذا تحمّل مسؤوليتها وكأنها ابنته؟ لماذا رآها كأمه الحنون، كأخته اللطيفة، كمصدر قوته وملاذه الآمن؟ لماذا منحته الحياة حبها لتقتله به، لتوجه له صفعة أخرى وتطرحه أرضًا، لتحطم ما تبقى من قلبه؟

بدأ يتراجع للخلف دون توازن، ليسقط أرضًا بدأت يداه وقدماه بالارتجاف، وبدأت أنفاسه تتلاشى وكأن العالم بأسره يثقل صدره، وكأن أوكسجين الأرض لم يعد يكفيه. نظر إلى تلك اللوحة المثبتة فوق القبر، عليها الاسم الذي كان يعرفه جيدًا: "نوح" و"هيثم"، وتمنى لو كان كل هذا كابوسًا مزعجًا يمكن أن يفيق منه الآن. ذلك الوداع الذي فرض عليه منذ البداية، كم هو مؤلم الوداع، فما بالك إن كان للأبد!

لم يكن يبدو كما كان عندما دخل هنا، وكأنه خرج للتو من معركة. تمتم بحديثه، قائلًا بصوت مثقل:

- أنا الغلطان... إزاي تخيلت إنها هتبقى ليا؟

أكمل حديثه بسخرية حزينة، قائلًا بنبرة مكتومة:

- أنا واحد الكل تخلى عني... كنت منتظر إيه؟ منتظرها تحبني مثلًا؟ هفضل مشوه طول حياتي. كان لزمتها إيه حياتي من البداية؟ يعني أول البداية، أمي تخلت عني وماتت، بعدها الكل تخلى عني كأني وباء. إزاي كنت منتظر إنها تحبني؟ في ملاك يحب شيطان؟ يمكن بس بتحس بعطف ناحيتي... إنما مش حب.

بدأت تلك الكلمات تشتعل في داخله مثل النيران، وازداد ارتجاف أطرافه واختناق أنفاسه أكثر فأكثر. خلع سترته الجلدية، ليبقى بالقميص الخفيف المفتوح، وقد زينت حبات الرمال بنطاله تحدث بصعوبة، محاولًا أخذ بعض الأنفاس:

- أنتم كمان تخليتوا عني... سبتوني ليه؟ ليه كلكم نفرتوا مني وبعدتوا؟ ليه دايمًا بفضل لوحدي؟ حتى وأنا وسط العالم كله... معقول ثمانية مليار شخص مش قادرين يخرجوا واحد من عزلته؟!

أنهى آخر كلماته وهو يحاول الوقوف، لكنه فشل. بدأ يسحب نفسه نحو اللوحة المثبتة على القبر، حيث كان يدون بعض الكلمات عندما يأتي لزيارتهم. أمسك قلمه، وكتب: "أنتظركم أن تعودوا غدًا، فإن لم تعودوا، فأيامي كلها غدًا".

أحاط ذلك المبنى المسمى بالقبر بذراعيه، يحتضنه. حاول بعدها التماسك شيئًا فشيئًا حتى وصل إلى سيارته. لم يكن يعلم أين وجهته ولا إلى أي مدى سيطول طريقه، كل ما يعلمه أنه لم يعد قادرًا على القيادة، لكنه حاول مرات متتالية، حتى انتهى به الأمر وهو يبتعد بعيدًا.

في أحد المنازل الضخمة في القاهرة، وتحديدًا في غرفة واسعة مخصصة للرياضة بها بعض الآلات والمعدات الرياضية، يمكنك أيضًا أن ترى تلك الحديقة من خلال الزجاج اللامع. يوجد أيضًا جانب خاص للقهوة في الغرفة، تجد شابًا ورجلًا في متوسط العمر تقريبًا يمارسان بعض التمارين الرياضية، وتستمع إلى أحاديثهما.

تحدث "رائد" بفضول، قائلًا:

- وبعدين، كمل؟

أجابه "أحمد" وهو يعبث بتلك الشاشة أمامه، قائلًا:

- بابا، أنت مش ملاحظ حاجة؟

أجابه "رائد" وهو يحمل بعض الأثقال، قائلًا:

- ملاحظ إيه؟

تحولت نظرات "أحمد" إلى أبيه، ليتحدث بتعجب، قائلًا:

- يعني أنا بحكيلك حاجات تافهة أوي بصراحة، وبرضه أنت بتسمعني حتى الحاجات اللي المفروض أخبيها عنك بلاقي نفسي بحكيها لك. بصراحة، بقيت مستغرب من ده، خصوصًا أنك يعني أبويا، المفروض متكونش عارف المصايب دي كلها عني!

أنهى حديثه بالتزامن مع تلك الابتسامة على وجه "رائد"، ليتحدث إليه بحب، قائلًا:

- أولًا، أنت فاهم حوار الأب ده غلط خالص يعني محتاج شرح ثانيًا بقى، ده عهد أخدته على نفسي من زمان.

تنهد وهو يكمل حديثه، قائلًا:

- وأنا صغير، علاقتي ببابا مكنتش أحسن حاجة يعني مفتكرش إني وهو اتكلمنا في حاجة أبدًا، فبطبع الحياة وقتها اتجهت لناس تانية تسمعني، بس العكس حصل، أذوني جدًا، ودخلت في مكان غلط. لما فوقت وقتها، أخدت عهد إني عمري ما أخلي ابني أو بنتي يحسوا نفس إحساسي. حتى لو ورايا ألف حاجة. هتكلم معاهم وأديهم وقتي وفعلًا. أول ما أنت جيت عملت كده. أنا كنت بحكيلك مشاكلي وأنت عندك كم شهر مثلًا، ودي أكتر حاجة مفرحاني إن مشاكلنا مع بعض.

تحولت نظرات "أحمد" إلى نظرات شكر وامتنان لهذا الرجل، كيف أعطاه هذا الدعم والحب وهو لم يكن يحسب لذلك. دائمًا ما كان ينظر لمشاكل أصدقائه ويقول لو كان لهم أب مثل أبي لما وقعوا في ذلك.

أفاق الاثنان من شرودهما على دخول "ريهام" (والدة أحمد).

تحدثت بمشاغبة، قائلة:

- إيه ده، اتفاق عليه، ولا ناوي تفسده أكتر؟!

أجابها "رائد" بمزاح، قائلًا:

- آه، كنت بحكي له على مراتي.

تشنجت ملامح "ريهام" من قوله لتجيبه:

- تصدق، أنا غلطانة إني أعرفك أصلاً!

ثم خرجت من الغرفة، خرج وراءها "رائد"، بينما أكمل "أحمد" تمريناته، معتادًا على تلك الخلافات بين أبيه وأمه، لكن كان في عقله شيء يخبره بأنه محظوظ بتلك العائلة.

خرج إليهما بعد فترة ووجد أبيه ما زال يشاغب أمه، لكن ملامحها تغيرت للفرح عكس السابق.

تحدث إليهما، قائلًا:

- أنا هروح النادي لـ"جميلة".

أجابته أمه بمزاح، قائلة:

- ده سؤال ولا إجابة ولا إيه حياتك دي؟

أجابه "رائد"، قائلًا:

- أخلع أنت وبراحتك بقى ها، لو حابب تيجي بكرة يكون أحسن.

تشنجت ملامح "أحمد" ليتحدث بضجر، قائلًا:

- أنت بتوزعني ولا بيتهيأ لي؟

أجابه "رائد" بصدق، قائلًا:

- آه، بوزعك، أخلع بقى!

قال آخر كلمته وهو يخرج "أحمد" من باب المنزل، ليلتفت لزوجته، قائلًا:

- مش هتيجي

أجابته "ريهام" بتساؤل، قائلة:

- أجي فين؟

أمسك بيدها، قائلًا:

- هتعرفي لما نروح، ماتش ريال مدريد و اتنين سوبيا .

لم تكن المسافة بعيدة من منزل "أحمد" إلى النادي، لذلك لم يستغرق خمسة عشر دقيقة ليصل إلى "جميلة" سقط نظره عليها، كانت جالسة بين الأطفال تشاكسهم، وشعرها الغجري الصغير المموج زادها لطفًا كان دائمًا يصفها بأنها إحدى أميرات ديزني بسبب ملامحها تلك لم تكن تمتلك تلك البشرة المثالية ولا تلك العينين الرائعتين أيضًا، لم يكن شعرها مثل الحرير، تلك المقاييس الخاطئة التي فرضها العالم للجمال، لكن الجمال هو شيء آخر، هو أن ترى نفسك من الداخل جميلًا.

تحدث وهو يجلس بين الأطفال، قائلًا:

- طيب، ممكن تحضنيني أنا كمان؟

لم يأته الرد منها بل من أبيها الذي ضربه ضربة عنيفة على رأسه.

تحدث وهو يقف بفزع، قائلًا:

- إيه يا "منير"، حركات العيال دي؟ إيدك تقيلة يا عم.

أنهى حديثه بالتزامن مع ضحكات "جميلة" العالية وهي تقف في أحضان أبيها.

أجابه "منير":

- أنت ناسي إني "Box trainer" ولا إيه؟

تحدثت "جميلة" بسعادة، قائلة:

- خلاص بقى يا بابا، هروح أشوفه عاوز إيه، وأرجع لك يا موني يا قمر أنت.

أحاطها أبيها بذراعيه، قائلًا بفخر:

- لو عمل لك حاجة قولي لي، بس، وأنا هموته ها!

كان يعبث بخصلات شعرها المموج وهو هائمًا بها قائلاً:

- هو شعرك ده امواج بتوه فيها ليه؟؟

أجابته "جميلة" بالإيماء وهي تبتعد، بينما أمسك "أحمد" بيديها، قائلًا بحب:

- أغمز لك بعين وتغمز لي بعين، وأدخل حياتك برجلي الاتنين.

كان غزله سوقيًا بعض الشيء، لكنه أعجبها، لتجيبه بمرح، قائلة:

- ما هو أنت دخلت خلاص أصلًا!

أجابها وهو يصفق بكلتا يديه، قائلًا:

- أيوه كده. اتكلمي يا شيخة وأنت شبه "منير" كده!

تحدثت بتهكم:

- وماله بابا بقى؟ ده لولا إنه كان "your coach" وأنت صغير، ما كناش عرفنا بعض.

تذكر هو عندما رآها لأول مرة وهو في التاسعة عشرة من عمره، أي منذ ثلاث سنوات تقريبًا، لكن حبه لم يتغير طوال تلك السنوات.

تحدث لها بحنان:

- عارفة يا "جميلة". أنا أول مرة أحب حد كده مع إني حبيت قبلك واتعرفت على بنات كتير، وأنت مش الأولى، بس أوعدك إنك تفضلي الأولى والأخيرة في قلبي.

أجابته وهي تستعد للرحيل:

- قل لي، لأي عُمق سأظل أغرق في تفاصيلك؟

تركته، ولكن أثر كلمتها ما زال على وجهه، تلك البسمة والفرحة في عينيه. تستطيع أن ترى بسهولة حبه الواضح في كل شيء. هذا هو الحب، عزيزي، أن تغرم بتفاصيل شخص، أن ترى العالم بأكمله في ضحكة واحدة من أحدهم.

في غرفة صغيرة مخصصة للطبخ تابعة لمنزل "جمال الهلالي"، كانت "جيهان" و"ميرنا" تقفان معاً. تحاول "جيهان" بكل جهد أن تعلم "ميرنا" طرق الطهي، لكن لا حياة لمن تنادي؛ فالأخيرة لا تستطيع تنفيذ الوصفات بل تزيدها سوءاً.

تحدثت "ميرنا" بضجر وهي تنزع عنها السترة المخصصة للحماية من الطبخ:

- هو في إيه بجد؟ ولا طبخة راضية تزبط!

ردت "جيهان" وهي تلقي عليها غطاء الوعاء:

- إنتِ إيه؟ مفيش فيكِ رجا! بقالي شهر بحاول أعلمك أي حاجة وأنتِ مفيش فايدة فيكِ.

تحدثت "ميرنا" وهي تحاول تفادي ضربات "جيهان":

- يا "جيجي"، أنا مالي! طب ما أنا مش عارفة أعملك إيه بقى!

في الخارج، تحديدًا في غرفة مكتب "جمال"...

كان "جمال" يعبث في الأوراق بضجر وهو يشاهد على الحاسوب إحدى ألعاب كرة القدم (PlayStation).

كان "إسلام" ينظر إليه هو الآخر بضجر، محاولًا جاهدًا أن يلفت انتباه أبيه. فمنذ صغره وهو يراه غارقًا في عمله أو منشغلًا باللعب واللهو.

تحدث "إسلام" بملل:

- بابا، هو إنت هتفضل تلعب كده؟ طب اسمعني شويه حتى!

رد "جمال" دون أن يرفع عينيه عن اللعبة:

- أنا سامعك أهو... كمل!

تحدث "إسلام" بسخرية:

- طب كنت بقول إيه؟

تفاجأ "جمال" من هذا السؤال، ثم تحدث إليه قائلًا:

- إيه؟! آه، كنت بتقول إن...

لم يستطع إكمال حديثه، فقد كان مشتت الذهن ولم يكن يستمع لإسلام أصلًا. قبل أن يكمل، قاطعه صوت إسلام بغضب:

- عمرك ما سمعتني ولا هتسمعني، هفضل طرف ثالث في حياتك دائمًا.

خرج "إسلام" من الغرفة متجهًا إلى باب المنزل. لا يستطيع أن يتخيل أنه، وبرغم كل تلك السنوات التي مرت عليه وزاد فيها عمره وطوله وجسمه، إلا أنه ما زال كما هو، ما زال ذلك الطفل الذي يطلب اهتمام أبيه دون أن يجده!

في صالة واسعة بعض الشيء، كان ينظر إليها باشتياق بسبب؛ سفرها الدائم ينظر إليها بشوق وحنين، مشتاق لتلك النظرات في عينيها، لذلك الشعر القصير الأسود الذي وقع في غرامه. ولكل تفاصيلها البسيطة: أنفها، تلك القلادة المثبتة في عنقها، وتلك الساعة التي زينت معصمها. كل شيء بها مميز، بلا استثناء.

تحدث "سيف" إليها قائلًا بشوق:

- وحشتيني أوي يا سمائي، مكنتش قادر أبص للسماء من غيرك.

بادلته نظرات الشوق وهي تقول:

- وأنتَ كمان وحشتني، الرحلة كانت ناقصة أنك تكون موجود.

قال بسعادة:

- مش مهم، هنروح كتير سفر.

أخذها يدور بها حول نفسه، قائلًا بسعادة:

- نسافر سيناء ونروح جبل "موسى"، نطلع هناك ونقضي أجمد أسبوع في حياتنا، بعدين نروح اليونان، أول مرة اتقابلنا هناك. نعيد كل حاجة عملناها للمرة التانية، وأفضل بحبك بردو، وتفضلي سمائي.

بادلته تلك النظرات الساحرة المتملئة بالحب. وبرغم من عدم اتفاقهم أحيانًا وخناقاتهم غير المبررة، إلا أنهم ما زالوا يعيشون أجمل قصة حب في حياتهم.

تحدثت بفرحة:

- وبعدها نرجع بيتنا، وننزل الفجر نسكيت في وسط الشارع، وإحنا بنشرب عصير القصب بتاعنا.

بدأت أحلامهم تتجسد أمامهم، كل واحد ينظر لحلمه في عين الآخر. مر الوقت سريعًا، وعاد "سيف" إلى منزله.

في غرفة "سيف"...

كان "سالم" يجلس على مكتب الآخر منتظرًا وصوله. فتح "سيف" باب الغرفة ليتفاجأ بوجود أبيه هنا، فتساءل قائلًا:

- بابا، إنتَ هنا ليه؟

أجابه "سالم" وهو يقوم من مكانه متجهًا نحوه:

- هو حاجة غريبة إني أكون هنا؟!

أجابه "سيف" بهدوء:

- لا، مش غريبة، بس وجودك قلقني.

تحدث "سالم" متسائلًا:

- إنتَ مش ناوي تنزل تتدرب عندي في الشركة؟

تشنجت ملامح "سيف" من حديث أبيه:

- بابا، أنا مش هنزل عند حضرتك، أنا هكون دكتور، مش أي حاجة تانية.

أجابه الآخر بغضب:

- وأنا بقولك تنزل فين؟ ماهو بردو طب!

رد "سيف" بهدوء رغم غضب أبيه:

- بابا، الشركة عندك بتصنع أدوية، وأنا مش بفهم فيها. حضرتك اتخرجت من كلية صيدلة عشان بتحب الكيمياء وعاوز تعمل أدوية تساعد الناس. أنا دخلت طب لأني بحب الأطفال وعاوز أسعدهم، مش عاوز أشوف طفل تعبان أو بيعاني. زي ما أفكارنا مختلفة، دوافعنا كمان مختلفة، وأنا مش لازم أكون زيك.

تغيرت ملامح "سالم" عند ذكر ابنه لمعاناته مع المرض، فـ"سيف" مصاب بالربو منذ صغره. تذكر معاناته مع المرض، وكيف وقف عاجزًا لا يعرف ما يفعله. لم ينطق بكلمة، واكتفى بأخذه بين أحضانه، متناسيًا كل شيء. الأهم الآن أن ابنه بجانبه.

في غرفة نوم واسعة يغمرها الهدوء، كان النقيض تماما يسكن قلب تلك التي تبكي بقهر. تحتضن نفسها بين ذراعيها وكأنها تحاول حماية بقايا مشاعرها التي تحطمت. كانت دموعها تتساقط بلا توقف، تغمرها الذكريات التي تجرحها في كل مرة تعود. كانت تتذكر أن منقذها ومصدر أمانها الوحيد لم يكن يحبها حقا، وكان هذا الفهم يغمرها بألم لا يوصف.

الحب بالنسبة لها لم يكن معروفا منذ البداية؛ كان ينبغي أن تجده بين أهلها، لكن كيف لأمها، التي كانت السبب في كل شيء سيئ حدث لها، أن تكون مصدرا لذلك الحب؟ أمها حرمتها من كل شيء ممتع للأطفال، حتى الطعام، وكثيرا ما كان هو من يأتي لها بالطعام سرا.

تذكرت عندما كانت تمنعها من الحلوى، وكان هو دائما من يشتريها لها. كل شيء جميل في حياتها كان يأتي منه. الآن، لماذا تركها؟ لماذا صدق ما رأته عيناه ولم يصدق قلبه؟ لماذا اعتقد أنها بهذا السوء؟

دخل "عادل" الغرفة بهدوء واحتضنها من الخلف، ربت على ذراعيها برفق وهو يحاول مواساتها، قائلًا بلطف:

- لسه بتعيطي؟ طيب، اهدى طيب.

تحدثت بصوت متهدج بين شهقاتها:

- أنا عمري ما هتجوز "قاسم"، أبدًا! أنا مش عايزة ده. كان بيتنمر عليَ هو و"رزان" زمان، وامبارح ضربني، مستحيل أوافق.

كانت تلك حقيقة جديدة؛ "قاسم" طلب يدها للزواج أمس.

أخذ "عادل" يضمها إليه محاولًا تخفيف ألمها، وقال بصوت مطمئن:

- محدش هيجبرك على أي حاجة. هتفضلي معايا هنا، وهتفتحي مشروعك، ولو مش عايزة تكملي هنا، نسافر سوا.

تشبثت به أكثر، وكأن الأمان كله يتلخص في وجوده، ولم يكن طلبها في تلك اللحظة إلا أن تتحدث إلى "محمد"، تخبره الحقيقة أنها دائماً ما كان العون و النجاة لها انه دائمًا كان الامان

في منزل متوسط، تحديدًا في غرفة "محمد"، اجتمع الأصدقاء كما اعتادوا دائمًا، يشتكون من أحوالهم ويتبادلون الضحكات. صدق من قال: "إن الأصدقاء ملجأ وأوطان".

بعد أن قص كل منهم مشاكله التي واجهها في اليومين الماضيين، توجه "محمد" بكلامه إلى "عز"، الذي تعارك مع أحد أعضاء النادي، قائلًا:

- ركز كده، اللي يشتغل بإيده يأكل عيش، واللي بيشتغل بدماغه يشتري الفرن. يعني أنت كنت ممكن تتهزق بشياكة وتعلم عليه، لكن كده ضربته مخدتش أي حاجة أصلاً.

أجابه "عز" باستفزاز:

- طيب قول لنفسك بقا ما هو أنت أوحش مني في الحوار ده.

تحدث "إسلام" بضجر، قائلًا:

- أحلى حاجة إننا بنحكي همومنا لبعض كده. والله الواحد مش عارف لو مكنش حد فينا مع التاني، كان زمنا ضيعنا.

أجابه "أحمد" بمزاح:

- طيب ما هو إحنا كده كده ضيعين.

تبادلوا النظرات، مدركين أن ما يمرون به هو مجرد ظروف لن تنتهي. لكن مهما كانت تلك العقبات مؤذية، سيظلون قادرين على حلها معًا.

ثم تحدث "سليم" ضاحكًا:

- مش أنا لقيت تصف "سليم" الآخر.

استهزأ "عز" من حديثه، قائلًا:

- ولقيتها إزاي بقا؟

رد "سليم" بهيام وحلم، قائلًا:

- هي دي أول ما شوفتها، قلت هي دي. دي اللي هلاقيها في المطبخ بتعملي المكرونة بالبشاميل اللي بحبها، وولادنا "يوسف" و"سلمي" هتعملهم بطاطس. ولما نخرج ناكل المحشي اللي بنحبه. ده اللي لما أجوع، هتقوم تعمل أكلنا مع بعض.

تبادلوا نظرات الاستنكار، ثم تحدث "سيف" بهدوء:

- في موضوع تاني "سليم" كان عايز يقوله.

نظر "سليم" له بحدة، وتحدث قائلًا:

- أيوة، في زفت حاجة حصلت. "عادل" شكله افتكرنا، وهنروح في داهية بعون الله.

أنهى حديثه في صدمة الجميع. قطع الصمت "إسلام" بتعقل وهدوء، قائلًا:

- الحل الوحيد، "محمد"، لازم تضحي المرة دي. حاول تشغله إنه ينسى موضوعنا، أو حتى لو افتكر، أكيد مش هيأذي ابنه.

تحدث "محمد" باستنكار:

- مش هيأذي ابنه، ابنه مين أنا؟! وبعدين، حتى لو أنا، هو عمل حاجة غير إنه أذاني طول عمري. في الوقت اللي كنت مستني حد ينقذني، هو رماني جوا النار، يبقى متقولش ابنه.

قطع حديثهم صوت هاتف "محمد" الذي صدح معلنًا عن وصول اتصال. عندما شاهد اسم المتصل، تردد للحظة: هل يتحدث إليها أم لا؟ لكن قلبه دفعه إلى اتخاذ القرار.

تحدث إليها، قائلًا:

- إزيك.

لم يأتِ الرد بل جاءه صوت بكائها وشهقاتها. حاول أن يهدئ من أمرها، قائلًا:

- "هاجر"، لو سمحتِ متعيطيش، بلاش تحسسيني إني غلط.

أجابته من بين بكاءها:

- أيواة! لم تصدق إني كده تبقى أنت السبب.

استنكر حديثها:

- أنا؟ أنا شوفتك في حضنه، شوفتك معاه!

تحدثت بصوت مرتفع، غاضبة:

- وأنت صدقت اللي بتقولوا ده؟ صدقت اللي أنت شوفته ده؟ شوفت من وجهة نظرك، لكن الحقيقة إنني للمرة الألف ضعفت. "رزان" ضربتني، وهو حاول، أنت عارف، وشوفت!

أخذ "محمد" نفسًا عميقًا، يشعر بالغليان عندما تذكرت ما فعلوه بها. شعور بالذنب تسرب إليه، كيف له أن يؤذيها أكثر؟

تحدث بهدوء:

- ما هو مش ده اللي مزعلني، أنا غيرت، أيوا كنت عايز أقتله، أنا بغير.

تفاجأت من حديثه، أيعقل أن يغار عليها؟ نعم، يغار!

تحدثت بضحك، محاولة تخفيف حدة الموقف:

- ثانية! أنت بتغير بجد، وحتى لو بتغير، تزعلني وتعمل كدد؟ أنا مش مسمحاك ها.

أجابها بتأنيب ضمير:

- طيب خلاص، أنا أسف. أنا بردوا قلت مش هتسبيني. قلت أكيد. أنا غبي، بس أقولك والله كنت هتجنن. حسيت وكأني بتنفس من النار. حقك على عيني، أنا غلطت، بس صدقيني، أنا مكنتش أقصد. أنا، أنا خوفت تضيعي مني، أنا مليش في الدنيا حاجة غيرك.

حدثته بثقة، لكن وراءها ضعف، قائلة بهدوء:

- "محمد"، أنا موافقة على اللي طلبته مني لما كنا في دهب.

تسأل "محمد" بحيرة:

- هو إيه اللي قولته؟

أجابته ببعض من المكر:

- لما قولتلي إنك بتحبني، "محمد"، تتجوزني؟

كان سؤالها محيرًا لكل أفكاره. أيعقل؟!، تحبه هو موافقه علي ان نكمل درب الهوى معه يكون رفيقاً منصفاً لتلك الرحلة ؟.

تتحول أكثر اللحظات سعادة التي نتمناها إلى أكثرها صدمة،

وأكثرها تفاجؤا وتشتتا. هل حقا تشافت من مرضها بتلك السرعة؟ كيف ومتى؟ مستحيل، كانت منذ ليلة تخبره أنها تخشى وترهب، ولن تتزوج والآن، ماذا حدث؟ واضحة كعين الشمس، هي تخدعه وتتحايل عليه، وهو قلبه غبي وسيكمل.

لا، لا يمكن أن تخدعه. هي تحبه، نعم تحبه، ليس مؤكدا، ولكن هو يحبها، وهذا أهم من كل شيء.

انتهى من هذا الصراع القائم بين قلبه وعقله، وهو يسقط فوق السرير، لا يستوعب ما تبست به. تحدث إليها بتساؤل:

- هاجر، أنتِ قلتي إيه تاني كده؟

أجابته، وهي تتنهد بهدوء وتغمض جفونها:

- بقول إني عارفة إنك بتحبني، ويمكن أنا مش مستعدة لكده، لكن أنا عاوزة منك تطلبني للجواز.

على الجانب الآخر، رمش هو عدة مرات برموشه، لا يصدق أن هذا ليس حلمًا. ربما هي تمزح، ليس ربما، مؤكد، ياليتها تكون تمزح بدلاً من خداعه:

- أنتِ بتهزري، صح؟ أنا ممكن أصدقك دلوقتي.

تحدثت، وهي تجمع كل قوتها، لأول مرة تريد تجربة قرارها. الآن يجب عليها أن تعترف بكل شيء حملته بقلبها:

- أنا بحبك، مش عارفة حاسة بي إيه، بس كل اللي أعرفه إني مليش بيت من غيرك، معنديش وطن أنت طول عمرك أكتر حد بيدافع عني،طول الوقت، أمي نفسها كانت حرماني، أنا عمري ما كنت طفلة، عمري ما لعبت، عمري ما كان عندي فرصة إني أسهر متأخر وآكل أكل ملغبط وأتعب وأشوف أهلي حوالي بس أنا كنت كده معاك، أنت كنت أهلي أنا مش مستعدة أخسرك أنت كمان.

ابتسمت تكمل حديثها، وهي تتذكر مواقفهم معًا:

- فاكر لما كنت بتهربلي الحلويات من ورا ماما، وكانت بتتفاجأ إني وزني زاد أكتر؟

صدرت منه ضحكة خشنة رجولية، وهو يتذكر كل شيء كان لهم معًا:

- أنا مش هسيبك، وعد عمري ما هتخلي عنك، بس أوعي تمشي، أنا معنديش غيرك.

شعرت بنغزة طفيفة في قلبها بعد كلماته، شعور بالرهبة والخوف من المجهول. كيف سيتزوجا؟ ماذا لو أصبح مثل أبيه خائنًا، في كل ليلة يجرح كرامتها بصحبة امرأة غيرها؟ ماذا لو شعر بالملل

منها؟ ماذا لو تغير ولم يطق العيش معها؟ ماذا لو كانت السبب في إيذائه؟ ماذا لو أخذه الله منها؟ ماذا لو كان حبهم غير صادق؟

أجابته بهدوء، وهي تتنفس بعمق، تغرز أظافرها في يدها التي أصبحت تدمي:

- أنا كمان مش هستغنى عنك، بس أنت لازم تيجي تطلبني من خالي. كده كده هو معروف موافقته على بابا عليك مستحيلة.

حك مؤخرة عنقه بضجر، وهو يتنفس بغضب:

- بالرغم من إني مش طايقك، وأكيد هتتخانق، بس لأجلك أعمل أي حاجة. هو إحنا عندنا كام "هيرو"؟

ابتسمت له بهدوء قبل أن تتجمد مكانها بسبب دخول "عادل" المفاجئ، الذي استمع إلى ثرثرة الأخير عليه، فأمسك هو بالهاتف بدلاً منها.

كان يثرثر ببلاهة، لا يعي ما يحدث:

- إنسان سخيف وغلس، لا ومغرور أوي. مش عارف أبويا إزاي ده؟ ده حتى أنا سكر ولذيذ كده، أنا شاكك إنه رجل آلي، روبوت كده، مش تحسيها برده؟

تحدث من الجهة الأخرى بغضب:

- وإيه كمان يا حبيبي، كما ما تتكسفش، ولو إني أعتقد إنك مش بتتكسف أصلاً.

حمحم بحرج، وهو يهذئ من صوته:

- أنا، يا بني؟ أنا قلت حاجة؟ ده أنا طيب هو فين "هاجر"؟ أنت باعتها؟

تشنجت ملامحه وهو يستمع له:

- أنت عارف لو مقفلتش دلوقتي حالاً، أنا هعمل فيك إيه؟

لم يكمل حديثه حتى أغلق الآخر الخط، بينما هو كاد يستشيط غيظاً:

-بيتكلم ليه تاني البني آدم ده؟

حمحمت بهدوء، وهي تلقي بحديثها دفعة واحدة:

- "محمد" عاوز يتقدملي، وأنت اللي هتقبله.

استنكر حديثها، وهو يعقد حاجبيه بصدمه:

- نعم؟ لا، لا مستحيل هو مش ابني بس، لا أنتِ عاوزة تأذي البشرية كلها بولدكم.

تفاجأ بأن الآخر يتصل مرة أخرى، أجابه:

-عارف لو فتحت لسانك تاني هجيب آخرك معاك.

أمسك "عز" بالهاتف من الجهة الأخرى، وهو يتحدث إليه:

- معلش، مين ده اللي مش عجبك؟ إحنا ابننا ما شاء الله طول وعرض وجمال وحلاوة وذكاء وأدب. ده جوهرة، الواحد بس مش بيحب يشكر في أصحابه.

أمسكت "هاجر" بيده، تحاول إقناعه:

- وبما إن محدش من بابا وماما هيوافق، فأنت اللي هتوافق إن شاء الله وأنا هقنع "حسناء" ترجعلك، إيه رأيك؟

تبس بتساؤل، وهو ينظر لها عاقد الحاجبين:

- هو أنا ليه حاسس إنك بتستغليني؟

تنفس بعمق قبل أن يجيبهم بهدوء:

- خلاص، هقبله بكرة علشانك بس.

تفوه الآخر بتعالي، وهو يكبح ضحكاته:

- لا، بكرة عندي مشاغل، خليها يوم تاني.

تحدث بغضب، وهو يجز أسنانه:

قسماً باللي خلق الخلق، لو مكنت هنا بكرة، ما هتتجوزها باقي عمرك.

أغلق الآخر الهاتف بعد أن اتفقا على موعد لتلك المقابلة التي على ما يبدو أنها لن تنتهي بخير.

أشرقت الشمس، معلنة عن بداية يوم جديد، محاولةً إصلاح ما أفسده الليل في الأفئدة كان الجميع نائمين في سبات عميق، كعادتهم بسبب نومهم المتأخر. فجأة، صدح صوت الهاتف ليوقظهم، فانبثقت أنفاس تافهة من الجميع وهم يستيقظون من غفوتهم.

استيقظ "سيف" ليجد أن المتصل هو والده، الذي يبدو أنه اتصل به مرات عديدة دون جدوى تحدث بلهجة مخملية، مغمورًا بنعاسه:

- معلش يا بابا، باين راحت عليا نومة.

رد عليه والده، متنفسًا الصعداء، لكنه بدا متجهمًا:

- يعني أنت كويس؟ بخير!؟ والله أنت إنسان مستفز وبارد، قد إيه قلقني عليك.

نظر "سيف" إلى هاتفه بتعجب، مستنكرًا حديث والده:

- أنت بتطمئن عليا يا بابا ولا بتهزقني!؟

رد "سالم" قبل أن يغلق الخط معه:

- الاتنين المهم، يلا حالاً تكون قدامي، لأن خطيبتك وأهلها جايين.

تنهد "سيف" بعشق ولهفة:

- يعني سمايا جايه!؟ أنا حالًا هكون عندك.

استنكر "سالم" حديثه بشمئزاز:

- سمايا!؟ بص، اقفل يا بني، مش قادر والله، أنا ضغطي عالي لوحدي.

في الخارج، كان "محمد" يقوم بتحضير الطعام، لكنه كان مشغولًا بشيء واحد فقط: كيف يمكن لقلب قد امتنع عن العشق أن يعود ليكون هاويًا ومفتونًا بسحر عينيها. نعم، لقد فتن بحروفها التي تخرج من شفاها كأنها خمر، وعينيها اللتين لهما نفس مفعول السحر، لكنها حلال لم يحرمه الرب. فكيف يعود من تلك الفتنة وهو غاوي!؟

تلاشت أحلام "محمد" عندما تذكر واقعه الأليم، واقع رائع بكل المقاييس، شخص وحيد شارد، عنيد، ليس له في هذه الحياة سبيل سوى عينين سحرتاه وعناقٍ محرم عليه كان طفلًا عدوانيًا لم يكتشف أحد أنه مجروح سوى "نوح"، أبيه، الذي لم تستطع الأقدار أن تجعله أباهُ بحق وعندما تخيل أنه نجي وأصبح له عائلة، كانت تلك العائلة بداية لنهاية أسوأ مما تخيل في أحلامه، كأنه لم يُكتب عليه النجاة أبدًا.

بينما دلف "سليم" إلى المطبخ على أطراف أصابعه، اقترب من "محمد". لكنه تفاجأ برد فعله الذي سحبه بسرعة نحو الأرض، وهو يرفع سكينًا فوقه.

رفع "سليم " يده يحمي نفسه من تلك السكين:

- لا، متموتنيش! سيبني أكمل دوري في الرواية، أرجوك بلاش غشامة.

تركه "محمد " وهو يتمتم بسخط على صديقه الغبي:

- ارحمني يا رب منه، لأنه بالطريقة دي هاتشل قريب.

بعد فترة، أنهى الجميع طعامهم وذهبوا، بينما أخذ "محمد" ملابسه لهذا اليوم، مستعدًا للحظة التي انتظرها طويلًا في حياته، يوم يمكنه ان يهدم كل اسوار قلبه الصلبة يمكنه ان يعيده للحياة من جديد .

بينما هو يهبط من سيارته، يهندم ملابسه بهدوء كعادته، بحث عن نجمته الشاردة بين الصفوف. لكن عينيه وجدتاها سريعًا، كانت تضيء بين الجميع كعادتها. اقترب منها بخطوات هادئة، وهمس بجانبها:

- إيه يا ست الكل، لسه ماخدتيش رأيي؟

ابتسمت وهي تزيح عينيها عنه برفق:

- خبط لزق كده، مش تسلم حتى؟ على العموم، لسه ماخدتش رأيي، أنت مكملتش أسبوعين مكلمني.

عقد حاجبيه مستنكرًا حديثها:

- إحنا لسه هنتعرف على بعض؟ أنتِ تعرفيني من واحد وعشرين سنة قبل ما نطلق، دلوقتي بتفكريني!؟

نظرت إليه بعتاب، متنفسة بعمق:

- ما هو لو كنت فكرت وقتها، مكنش زمان كل ده حصل، ولا إيه!؟

واصلت حديثها بهدوء:

- وبعدين، سيبني كده أحبك من أول وجديد يعني سنة ستتين كده.

نظر لها بتعجب وهو يتحدث بهدوء:

- تحبيني!؟ هو أنتِ كنتِ بطلتي تحبيني؟ أمال إزاي أنا ما بطلتش أحبك كل ده؟

ارتسمت شبح ابتسامة فوق شفتيها بهدوء:

«يعني أنت كنت بتحبني طول الفترة دي؟»

ابتسم وهو يسترجع كل عام أحبها فيه:

- أنا مكنش لي أي ذنب في أي حاجة حصلت.

نبست، مستنكرة من حديثه بغضب:

- ملكش ذنب!؟ أمال مين اللي ليه ذنب؟ أنا استحملتك واستحملت كل حاجة علشانك، وانت استسلمت وتجوزت غيري. ولما كنت هبدأ حياتي مع حد تاني، انت قطعتها وجيت قلبت كل ده وتجوزتني عليها، وهربت وسيبتني تاني قصاد المدفع لمامتك ماتت، أبويا مات، وحياتي اتدمرت، وابني مات، وانت تخليت عني وطلقتني.

شعر بالخزي من أفعاله وكل ما مر به، أجابها وهو يشعر بالندم:

- أنا آسف، انسي كل ده، اعتبري أننا نبدأ من جديد، بس متسبينيش، أنا كنت أدخل بس أنت مش زيي.

ورغم كل ما مروا به، ورغم كل شيء، أبت قلوبهم النسيان، فما زال الحب بداخلهم ينمو بلا إرادة منهم، كأنه مجرد قدر يعيشونه.

أردف فوق حديثه بهدوء متناسيًا ما تحدثوا به:

- تخيلي "هاجر" و"محمد" عاوزين يتجوزوا.

ضحكت بهدوء، تتحدث قائلة:

- والله كنت حاسه، بس عمري ما تخيلت البنت السكر دي تكون بنت أختك الحرباية الحمد لله، طلع مفيش توارث في الجينات عندكم.

صدرت ضحكته خشنه ورجولية وهو ينهض معها:

- متخافيش، محدش بيتورث الجينات عندنا.

نظرت إليه وهي تأخذ نفسًا عميقًا، قاضية على كل ما بداخلها من شكوك:

- أنا موافقة ترجع، على فكرة.

الأقدار تلك التي تكتب علينا، محتومة بنهايات وبدايات معلومة لا يمكن أن تتغير، لكن القلوب ليست بيد بشر، بل بيد مقلب القلوب فقط.

هبط من أعلى درجته النارية، وهو يخلع خوذة السائق من فوق رأسه، دلف إلى المكان مختنقًا لو لم يكن لأجلها، لما جاء إلى هذا المكان أبدًا، إلا على جثته.

تحدثت باسمه، وابتسامة الثغر تضيء وجهها:

- محمد، أرجوك، بلاش تتعصب، وسيب الموضوع يخلص على خير.

اقترب منها، ممسكًا بيديها، ينتظر شيئًا ما وفي تلك اللحظة، حدث ما كان يخشاه؛ تذكر حديث "حياة" عندما أخبرته بأنها ترتجف من أي لمسة، مما يعني أنها لم تتعافَ بعد.

فلاش باك

دلف على عجل إلى مكتب "نبيل"، حيث أذن له بالجلوس قبل أن يتحدث، قال:

- ها، جبتني هنا ليه؟

بتر حديثه عندما صدمته كلمات "حياة":

- أنتوا بتدمروا نفسكم. "محمد"، انت فاهم أن "هاجر" متعافتش وبتعمل دة علشان تهرب من أهله بيك؟ انت نفسك متعافيتش. يعني جوازكم ده ما هو إلا صدمة مواجهة على ورق.

تحدث ببرود، مستسلمًا للألم:

- وأنا عارف، وموافق، أنا عاوز لمرة واحدة بس أحس أني إنسان، وممكن أتحب، حتى لو هي بتتعاق بي زي ما قولتي.

نهاية الفلاش باك

ترك يدها وهو يضيق عينيه بحاجبين معقودين:

- أنت مش عاوزة تقولي لي حاجة صح!؟

أجابته بتردد، تتلاشى نظرها عن عينيه:

- لا، مش عاوزة أقول حاجة.

فلاش باك آخر

تحدثت إلى "حياة" وهي تحاول تنظيم أنفاسها المتقطعة:

- مفيش حل غير "محمد".

عقدت حاجبيها بغضب، تنظر إليها:

- ده خداع كذب إزاي تسمحي لنفسك تدمري حياة حد تاني علشان سعادتك؟

أجابتها بهدوء، ربما ببرود:

- أنا مش بخدع حد هو فعلاً بيحبني، وزي ما أنا محتاجة، هو محتاجني.

نهاية الفلاش باك

كان يجلس بتوتر، بلا راحة، يهز قدميه بلا توقف، يتابع المنزل بأعين باهتة، غير مندهشة بتلك المساحة الواسعة أو الأثاث الفاخر كانت الحديقة كبيرة، ربما كانت ستكون رائعة لو لم يكن هؤلاء الحراس بالخارج، ربما كانت هذه المساحة المليئة بالماء ستكون أجمل لو كان هذا منزله، لو كان لا يزال طفلًا، لو كان هذا والده لكن الآن، لا شيء يغريه في هذا المكان، ولا شيء يعجبه.

أفاق من شروده على حديث شخص يتساءل:

«ويا ترى بقا، انت بتشتغل إيه على فاتحة الصدر اللي انت فيها دي؟»

نظر له بثقة وهو يهندم من ملابسه بزيف غير حقيقي:

- أنا مهندس صوت، وحاليًا عندي مكتب واستوديو صوت Fire shows.

عقد حاجبيه وهو يبتسم بثغر ملتوي ساخرًا:

- يعني كل الثقة دي وانت بتاع صواريخ!؟ ومهندس وبتاع، إيه الثقة دي؟ وبعدين ليه لازم أي مهندس يقول إنه مهندس؟ مهو عندك أنا، اهو مهندس ومقولتش.

نظر له ببلاهة بينما "هاجر" كانت تحاول كبح ضحكاتها عقب حديثه.

حمحم ينهي هذا الحديث بعدما لاحظ ما تفوه به:

- ما علينا يا بتاع الصواريخ، انت، بما أنك متبري مني ولا كاني أبوك، فا حلو أوي لحد كده. فين بقا أهلك اللي هيجوا يطلبوها؟

فتح عينيه على مصراعيهما متفاجئًا من حديثه، وتفوه محاولًا إيجاد حل لهذا المأزق:

- هو أكيد في حل خد بالك، يعني بص لم، أبقى اروح لأهلها، ابقى تعال شوية وأنا هكمل.

نظر له بتحدي، ونهض من مكانه بغضب:

- بقا كده؟؟ طيب، انت مرفوض وغصب عنك هعرف كل حاجة. متنساش إني أبوك، وعنك ما اقتنعتش أصلاً. أبوك بالغصب بقا لو قدرت تغيرها في البطاقة ابقى تعال قولي.

ابتسم بفم ملتوي، ساخرًا من حديثه اللاذع، وهو ينبس من بين شفتيه:

- انت مش أبويا، أنا أبويا اللى يرحمه "نوح الرشيدي"، وبالمناسبة عرفت أغيرها في البطاقة عادي.

عقد حاجبيه مستنكرًا قبل أن يتحدث بغضب متصدم:

- أقسم بالله لو اللي في بالي صح، ليكون آخرك معايا وجب.

ما قطع حديثهم كانت دقات كعب نسائي عالي تلتهم الأرض من أسفله.

كانت صاحبة الحذاء "حسناء" التي استندت فوق كتف "عادل"، وهي تخلع الحذاء الذي أصابها بالدوار:

- ازيكم يا ولاد، مُبارك مقدماً، باركولي بقا "محمد"، مش أنا هبقا مرات أبوك والساحرة الشريرة والحاجات دي؟

قهقه بصوت مرتفع، وهو ينظر لكليهما، متحدثًا بهدوء:

- أحلى مرات أب، والله بعيدًا عن إني معترض في حوار أب دي، بقا أنت الساحرة الشريرة!؟ أمال لو كنت شفت أم أربعة وأربعين اللي كنت عايش عندها، وبعدين أم أنت الساحرة الشريرة، هو إيه؟

صدح صوت ضحكاتها متناغمًا، بينما عبثت بخصلاتها وهي تقول:

- أنا مش قولتلك عندي شرط علشان تتجوز!؟ اهو شرطي إن الولد السكر ده يتجوز البنت العسل دي.

ألقت لها "هاجر" قُبلة في الهواء بينما هو صاح بصوت مرتفع:

- الله أكبر عليك.

جز فوق أسنانه بغضب وضيق، لكنه نطق بما يفسد كل هذا باسم الثغر:

- موافق علشانك.

كانت الأقدار جميعا تعودني إليك، ولولا كلمة واحدة في ثنايا روحي لكنت الآن قدرك .

دلف للمنزل بهدوء، فوجدها تجلس شاردة الذهن، حتى أفاقها هو محمحمًا بصوت منخفض.

تحدث وهو يقترب منها بخطوات هادئة:

- أحم أحم، إيه يا "سما"، قعدة كده ليه؟

نظرت له بتفحص، وعيناها ضيقتان:

- أنا خايفة. طول الوقت قلقة عليك. مش قادرة أطمئن.

شعر بالضيق من الخوف الذي يصيب الجميع لأجله. يا الله، لو لم يكن هذا المرض اللعين قد أصابه، حتى لو لم يصبه، فإن الضيق بداخله هو وليس بداخل المرض.

أمسك بباقة الورود، وضعها أمامها بهدوء، وهو ينبس بصوت مريح:

- متخافيش، طول ما أنت بخير أنا هكون كويس. وبعدين، إحنا مش اتفقنا إن القدر زي ما جمعنا، لو فرقنا مش هنخاف؟ أنا يوم ما شفتك كنت مصاب بالربو برضه. لكن فضلت جنبك. لما شفتك عندك فوبيا من المكان المغلق، أنا كنت مخنوق، لكن كنت خايف علشانك مش علشاني.

ارتسمت ابتسامة فوق شفتيها وهي تحتضن باقة الورود، ثم وضعت يدها بين يديه بهدوء، تشعر بالاطمئنان لوجوده.

ما كان لي سواك، ما كان لي سوا زوج من عينيك الساحرتين،

جعلتني مغرما عاشقا، مسحورا، مطروح العين بعشقك .

ابتسم "أحمد" وهو يستمع لثرثرتها التي لا تتوقف، وحديثها بحماس كأنه طفلته التي قضت يوماً طويلاً بعيداً عنه.

تحدثت وهي تبتسم، تعيد خصلاتها للخلف بعفوية:

- عارف، كنت مبسوطة أوي بقا وأنا بختار بقيت الطلبات لبيتنا.

تفوه بحب وهو ينظر إلى النجوم التي تبتعد عنهم، لكن نورها يتلألأ في عينيه:

- كان حلم بعيد أوي، زي النجوم دي، بس دلوقتي النجوم قربت أوي، بقت في عينيك، يا "جميلة".

رغم آلاف الحروب التي يقودها قلبي إليك، إلا أنه ما زال يقاوم ليجد الأمان بعينيك فقط.

كان يقف ينظر إلى انعكاس الشمس على محياها، يحتسي من شرابهم المفضل، بينما يحمل بيده حقيبة تحتوي على رداء زفافه

البارت الثامن

"لايوجد نهايات"

حيث أننا جميعا مذنبون؛ لأن الجميع عليه اللعنة، جميع من خلق من نسل أدم و حواء عليهم اللعنة لان تنتهي إلى يوم الدين بدأت اللعنة بقتل قابيل لهابيل ولا احد يعرف متى ستنتهي، أذن عليكم اللعنة إلى يوم الدين يا ابناء أدم.

تسللت أشعة الشمس المتعبة من خلف الغيوم الملبدة، ليبدو المشهد في الشارع هادئًا ومريبًا في آن واحد. كان محمد يسير بخطى واثقة، ولكن تملؤها الحذر، حينما لمح نائل يقف على الجانب الآخر. جقلت عيناه، وتجمد مكانه للحظة؛ لم يُخبره أحدٌ بقدومه، ولم يكن من عادتهم الالتقاء في مثل هذه الأماكن العامة. اقترب منه بسرعة، والغضب يشتعل في عينيه، ثم تحدث إليه بحدة:

- إنت إيه اللي جابك هنا؟

تفحص نائل المكان حوله بقلق، كأنما يخشى أن يسمعه أحد، ثم قال بصوت منخفض ومرتجف:

- هناك مصيبة يا أخي، وأن لم نتقابل اليوم سأعود الى بلدي ولن اعود يبدوا ان الموت هناك سيكون اسهل .

أخذ محمد نفسًا عميقًا، حاول كتمان اضطرابه، ثم أخفض رأسه قليلًا، وأمسك بقميص نائل، متحدثًا باللغة العربية الفصحى ليؤكد أهمية ما سيقوله:

- إذن، اذهب إلى المقر، وسنأتي في المساء.

ترك محمد قميص نائل، وصعد إلى الأعلى، حيث جلس بين الجميع محاولاً إخفاء توتره، ثم استأذن للرحيل مع الشباب في تلك اللحظة. قرر أنهم سيعودون غدًا للتحضير لحفل الزفاف، وأخذ على عاتقه إيصال هاجر إلى منزل عادل، دون أن يوضح أسباب قراره المفاجئ، مكتفيًا بنظرة حازمة فهمها الجميع.

في غرفة مغلقة هادئة تعكس هدوء الجالس في منتصفها، وضع الهاتف على المكتب وهو يدون ما يقوله شريف بالجانب الأخر:

_نائل مارت دنوار شاب ايطالي عمرة ٣٠ سنه غير متزوج مهندس الكتروني و مبرمج و هكر اتقبض عليه مرتين و خرج، مارت دنوار ابوه مات من ١٠سنين و بعدها ماتت أمه من ٨سنين مارت كان بيشتغل في"جروب متسيشل" التابع لشركات حسن و انس المصري.

تحدث عادل وهو يحرك رأسه للأمام:

_هايل جدا ايه تاني عندك

تحدث الاخر بتردد:

_اصل خلاص كده هو ده إلي عرافته أن هو إلي. وقف الكاميرات و النظام الامني يوم الحفله،بس كده هراقبه لحد معرف اي حاجه جديدة.

تحدث عادل وهو يجز على أسنانه:

_الرحمه يارب اعمل ايه انا مدعي عليا يعني ولا ايه اقفل يا شريف انت بتحمسني و تسكت.

اغلق الهاتف في وجه الاخر تزامناً مع صدوح صوت ضوضاء من الخارج، وقف من مكانه متحدثاً مع نفسه:

_أنا عارف انها سنين سوده

بالخارج وقف كل من مصطفي المسك بسوزى بينما ياسر يسحب عشق للخلف وعشق تسحب حسناء وهم يصرخان في وجه بعضهم، تحدثت سوزى بنبرة غاضبه:

_اه طبعاً عايزة تخطفي بنتي و اخويا لأ انسي يا ماما.

تحدثت عشق بغضب مدافعة عن حسناء:

_اولعي أنت و اخوكي اصلا.

ضرب ياسر على وجهه لم تفهم هي ذلك إلا عندما وجدت عادل امامها يرفع يده للاعلي قائلاً:

_الله يكرم اصلك والله، امشي انت و مراتك من هنا.

أردف بغضب للمرة الثانية:

_و أنتِ اتكلمي عدل يا سوزى.

أنهى حديثه بالتزامن مع دخول هاجر ممسكة ببعض البلالين بيدها و محمد ممسك بها و على ملامحه الامتعاض.

ذهب مصطفى في أتجاهم وسحب هاجر خلفه و هو يضغط على يدها:

_أنتِ ازاي تسمحي لنفسك تمشي مع الحيوان ده.

امسك بخصلاتها يسحبها لكنه وجد قبضة يد محمد الذي اخرجها من يده التف إليه لكنه وجد قبضة من عادل إلى وجهه

تحدث عادل بغضب:

_و اللي خلق الخلق لو مديت ايدك عليها تاني لتكون بموتك،و أنا إلى هقتلك لو هي عاوزة تتخطب لي ها وافق.

ذهب ياسر برفقة عشق للخارج وهو يشير له بعلامة على أنه يجب أن يرحل أومأ له عادل بالموافقة

تحدثت سوزى بعنجهية وهي تجلس واضعة قدم فوق الأخرى:

_أنا بقا مش ها سمح بان تربيت الشوارع ده يرتبط ببنتي.

وجه لها عادل نظرة غاضبة:

_متنسيش انه ابني ها و اتكلمي كويس.

تحدث محمد للمرة الأولى بعد دخوله:

_اولاً أنا مش متربي في شوارع ثانياً أنا لو متربي في جهنم الحمرة مش هاجي جنب تربيتك يا عسل.

برغم قوة الموقف و الضوضاء في المكان و شد الاعصاب إلى أن حسناء لم تستطيع امساك ضحكتها خصوصاً بعد انهاء حديث محمد وهو يلقي قبلة في الهواء لسوزى صدرت منها ضحكة قوية أدت إلى نظر الجميع إليها:

_معلش مقدرتش امسك نفسي هموت.

صدرت ضحكة عالية من محمد و هاجر معاً

نظر عادل لهم بأنزعاج و هو يقلب عينه بملل.

تحدثت سوزى بسخط إليه:

_بتضحك اضحك على خيبتك الاول.

تحدث مصطفي وهو يتوجه لمحمد:

_انسي انك تتجوزها علي جثتي يا محمد.

نظر له محمد بسخرية وهو يقترب من أذنه:

_يبقا اتقرب من ربنا شويه علشان هتجوزها قريب علي جثتك.

نظر إليها بحنان وهو يقول:

_خدي بالك من نفسك هاجي بكرة ماشي.

خرج من المكان مسرعاً وهو يشير إليها

بلطف وهي تبادله النظرات و بعد أن رحل نظر لها الجميع فقالت وهي تجمع قواها وتبتسم لهم:

_أنا هتجوز محمد و هنكمل مع بعض و ما يهمني اي حاجه تانيه.

أسرعت بالصعود للأعلى بسرعة وهي تتمسك باعصابها لن تنكر أنها غير راضية على ما فعله عادل بأبيها لكن ولاول مرة وجدت أحد يدافع عنها ويقف بجانبها هي لا تكره أبيها لكن تكره ما شعرت به بسببه من خوف و الم و عنف و خذلان تكره أن تكون فاقدة للأمان.

بينما بالأسفل ذهبت حسناء بأتجاه عادل و وضعت يدها على كتفه بغنج و دلال مزيف لكي تشعل الحقد بقلب سوزي:

_وانا كمان هاتجوز عادل و مش هسيبه سواء كان بموفقتك هتجوزه أو غصب عنك هتجوزه.

وقفت سوزى قائلة بنبرة غير راضية وحقد دفين:

_وانا مش هسيبك ابدا تتجوزيه انتو جربتو مرة و فشلتوا لان مفيش اي توافق بينك و بينه ولا يمكن يكون في ابدا.

لم تأتي فرصة لتحدث حسناء؛ بسبب تحدث عادل بغضب وهو يجز على أسنانه:

_أنا محدش يقرر مكاني ،انا هتجوزها أنتِ مش مسؤولة عني و مش من حقك تدخلي و لا تتكلمي معاه بالاسلوب ده.

نظرت له بفخر هي لم تنسي أي شيء مما حدث بسببه ولم تنسي أيضاً حبه، أحياناً يكون حبك لشخص ما رغم كل ما حدث هو الحب الحقيقي هو أن الله القي بهذا الحب بداخلك على كل حال أنت لا يمكنك تغير ما في قلبك.

دخل محمد إلى الاستوديو الخاص بهم، وبالنظر إليه لأول مرة، قد لا تجد فيه أي شيء يميزه: مجرد آلات موسيقية، معدات لتسجيل الصوت، وأجهزة حاسوب حديثة. ولكن المكان يحتفظ بسر خاص، فهناك جدار مميز مليء بالكتب يجذب الانتباه. اقترب محمد بهدوء، سحب كتابًا من الرف، ثم فتح بابًا صغيرًا أسفل الكتاب وأدخل رمزًا رقميًا. فتغير المكان في لحظة، وبدأ الجدار بالتحرك بشكل سريع، كاشفًا عن مساحة مختلفة تمامًا، تحتوي على بعض المقاعد، طاولات للطعام، ثلاجة للمشروبات، تلفاز، والكثير من الشاشات الكبيرة وأجهزة إلكترونية أخرى.

عندما استدار محمد ورأى الوجوه المحيطة، سحب نفسًا من سيجارته قبل أن ينطق:

- خير، إيه المصيبة اللي حصلت؟

نائل استدار بالمقعد ليواجه محمد، قائلاً بقلق:

- في حد عرف إن أنا اللي وقفت كاميرات المراقبة في حفلة حسن المصري.

سادت لحظات من التوتر بين الجميع، تبادلوا خلالها نظرات القلق. فما يفعلونه، على الرغم من أنه قد يكون صحيحًا من حيث الدافع الإنساني، إلا أنه يعتبر خطأ أمام القانون والمجتمع.

بينما إسلام غطى وجهه بيديه الاثنين، متحدثًا بنبرة مشوبة بالرهبة:

- دي مش مصيبة، دي كارثة.

أردف سيف بلهجة هادئة محاولاً طمأنة الجميع:

- إحنا مفيش ولا كاميرا جابتنا، أكيد اللي عرفك ده ماعندهوش أي دليل على كلامه.

سليم وافقه الرأي قائلاً:

- فعلاً مفيش أي دليل يثبت أي حاجة.

أحمد كان يراقب محمد بعناية، ورأى أن يديه ترتجفان بشكل بسيط، محاولاً إخفاء هذا الارتعاش بغرس أظافره في كفه. حاول أحمد التخفيف من التوتر، وتحدث بصوت هادئ يعكس طابع اللحظة المشحونة:

- إحنا ملناش أي صلة بأي حاجة. كل الأوراق بتاعتنا سليمة، واللي معاهم أوراق مزيفة بس تكون الأصل للحقيقة. حتى البوليس مش هيفرق بينهم. غير كده، مين اللي يعرف حسن أو أنس أو مصطفى؟ كلهم ماسكين عليهم حاجات ترميهم في السجن ٨٠ سنة، لو ما تعدموش يعني.

محمد تحدث بعقلانية وثبات:

- أولاً، لازم نختفي شوية عن المقر وأي مكان ممكن يكون مشكوك فيه. وثانيًا، لازم نخلص بسرعة من المستندات اللي حددناها.

عز تساءل بحيرة:

- بس إحنا معانا كل حاجة، إيه اللي ناقص؟

استدار محمد في مقعده قائلاً:

- إحنا محتاجين المركز الأصلي للمعلومات علشان يتحاسبوا على كل نقطة دم من إنسان دمروه.

سليم اندهش وقال:

- بس المركز ده موجود في شركة مجمعة بين شركات "عـادل الجبـالي" و"أنـس وحسـن المصري" و"ياسر النجار".

محمد أجاب بثقة:

- يبقى لازم ندخل الشركة.

بعد أن أنهى كلامه، طاف بنظره عليهم جميعًا، وتحدث بامتنان حقيقي:

- أنا مش قادر أوصف أنا قد إيه ممتن لكل حاجة كنا فيها سوا.

هناك شعور داخلي يخبرك أنك امتلكت الدنيا بمجرد أن وجدت جيشك الخـاص؛ جـيش يحميـك ويدافع عنك. أصدقاء هم موطن حياتك. لم يكذب من قال يومًا: "ما الصديق إلا مـوطن وبيـت وأسرة". وطن لن يخذلك أبدًا، وقلب لا يسع غيرك، وروح تستند عليها وكتـف كحـائط منيـع لا يميل أبدًا. أتمنى أن تكون الصديق الذي لن أندم عليه مهما حييت، وأن أكون لك منزلاً.

نائل استدار في مقعده قائلاً:

- إحنا فترات واجتمعنا على سبب واحد، ولو واحد فينا مشي في ألف غيرها؛ مـافيش حـد قـادر يوقف اللي عملناه. الدائرة مش بتقفل على حد.

ربما كل شيء يزداد تعقيدا، لكن هذا غير مهم طالما أن جيشك إلى جانبك.

دخل إلى الغرفة، تلك الغرفة البسيطة والمريحة التي كان يحتمي وراءها من آلام الحياة ويبتعـد بها عن مخاطر العالم. كان من الأشخاص الذين يقدرون بشدة كل شيء عاشوا معـه، وأنـا أيضًـا؛ فبعض الأشياء التي تحملت معك صعابك رغم كونها جمادات ما زالت بجانبك.

أمسك بهاتفه واتصل بها، فأتاها الرد بسرعة، وهي في طريقها للاتصال به، لكنه سبقها بذلك.

تحدث محمد بنبرة لطيفة:

- وحشتيني أوي بجد الكام ساعة دول.

لم تعرف ما هو الرد المناسب لكلامه أو بمعنى أدق ما هو الإحساس المناسب لكلامه، لكنها قررت إنهاء الجدال برأسها قائلة:

- وانت كمان.

تحدث بفرح:

- بجد وحشتك؟ أنا كنت عايز أتكلم معاكي.

أجابته بهدوء وهي تحاول الاحتفاظ بأعصابها، فشعور ما ينتابها وهي تحدثه، شيء غريب يحدث. هي تمقت وتسخط على جميع العلاقات المرتبطة سواء كانت زوجية أو عاطفية أو حتى بين الأصدقاء، تراها جميعًا علاقات مخادعة. ومثال واضح لذلك أبيها وأمها، دائمين الشجار والمشاكل والخداع، لكن أمام الناس يظهرون كالعلاقة المثالية للزواج الناجح والسعيد، الذي أنتج فتاة وفتى مسؤولين ومؤدبين جدًا، يحبهم الجميع.

لكن في الحقيقة، ما صدر عن هذا الزوجين الفاشلين، ابنٌ وابنةٌ لا يعرفان معنى الحرية أو الحب، مشوهان من الداخل بسبب والديهما.

تحدث محمد بهدوء وعقلانية:

- بصي، أنا غريب شوية، بهتم بالتفاصيل، يعني بحب أوي أركز في كل حاجة. أسلوبي غريب، مبحبش الدوشة ولا المفاجآت اللي فيها العالم كله. عندي استعداد أكمل حياتي بسلام معاكي ومع أصحابي وكام واحد وخلاص. بتعصب بسرعة، بس مش بتعصب غير من اللي بحبهم. وحاجة أهم من كل ده، إن علاقاتي كانت كتير أوي وأنا ندمان عليهم، بس عمري ما حبيت أي واحدة غيرك. من يوم ما قلتها لك وإحنا صغيرين، مغيرتهاش لحد النهارده... بحبك.

لم تستطع إمساك دموعها التي بدأت بالانهيار، تخبرها كم هي أنانية، كم هي مريضة، كم هي تتحول إلى إحدى الشخصيات المريضة في حياتها، تختار راحتها وتعطيه هو القلق والتوتر والخداع. تخدعه وتخدع مشاعره، فهو يحبها بهذه الطريقة. ارتفعت شهقاتها بالدموع، لكنه لم يتحدث، تاركًا لها حرية التعبير عن حزنها.

لكن بمجرد أن انتهى صوتها، تحدث بصوت هادي:

- أنا متكلمتش علشان أسيبك تعبري، لكن عاوز أقولك إن كل دمعة نزلت منك قطعت حتة من قلبي، وده مش مبالغة.

تحدثت وهي تمسح دموعها وتَشْهَق، تحاول تهدئة نفسها:

- أنا كذابة، أنا ضحكت عليك زيهم، اخترت راحتي، اخترت إني أحقق أحلامي وحريتي على حساب أوهامك بالحب.

ابتسم بسمة غريبة ارتسمت على شفتيه، تعني أن كل شيء تخيله كان صحيحًا. اعترفت له، لماذا تخدعه؟ هذا أيضًا يعني أن هناك فرصة أنها تشعر بالحب تجاهه، لكنها لا تعرف هذا الشعور بعد.

- أنا كنت عارف، أنا آسف، بس أنا أصريت إني أعرف من حياتك إيه فيكي علشان أسعدك، ولسه بردو هكمل في مساعدتك حتى لو مش بتحبيني. هفضل أحبك بردو وأساعدك، لو مش عاوزاني أتجوزك أنا موافق، أهم حاجة إنك تكوني مرتاحة.

ارتسمت بسمة خافتة على شفتيها، هكذا يحبها، هكذا أدركت كم بداخله من اللطف كله:

- طيب أنا كمان مش هسيبك، أنا هعلمك تكون معايا وانت تعلمني إيه هو الحب... اتفقنا؟

صدرت منه كلمة واحدة:

- اتفقنا.

تحدثت بصوت هادي:

- إحنا لازم نحدد معاد علشان تقابل دكتور حياة، أنا مش عايزة أكون بخدعك.

أجابها بهدوء مماثل لها وهو يسحب خصلاته للوراء:

- حاضر، هنروح، بس لسه ما جاوبتينيش، إيه اللي ممكن تكوني اتشدّيتي ليا علشانه؟ بما إنك قولتي إنك مشدودة ليا حتى لو مش فاهمة بتحبيني ولا لا.

تحدثت وهي تنظر للفراغ أمامها:

- أنا فعلاً بحبك، بس خايفة، خايفة يكون اللي حاساه مش حب، خايفة مقدرش أسعدك، خايفة تكرهني أو تمل مني، خايفة نسيب بعض، خايفة من كل حاجة.

أجابها بطمأنينة:

- وأنا أوعدك قدام ربنا إني عمري ما هسمح لك ولا هحسسك بخوف غير لو انتهيت من الحياة. ساعتها ممكن تخافي.

أردفت بسرعة وخوف:

- متقولش كده، بعد الشر عنك.

ابتسم وأكمل حديثه:

- خايفة عليا؟ بس ما قولتيش بتحبيني ليه؟

أجابته بمكر كي تتهرب من سؤاله:

- طيب متقول انت.

تحدث بهدوء:

- أنا بشوف إن الحب ده مش لسبب، لأنه لو لسبب بينتهي، يعني الحب لسبب ده إعجاب مثلاً. لو بحبك لكونك جميلة، افترضنا إنك -بعد الشر- فقدتي جمالك لأي سبب، أنا هبطل أحبك؟ لو بحبك لكونك ذكية، ممكن أكتشف إنك العكس. أي شيء فاني لا يمكن تحب بسببه. الحب ده زي الإيمان، بيتزرع في قلبك حتى لو انت مش فاهم إيه هو الشعور ده... هتحب بدون علم

حدثت هي بانبهار مما قاله، فقد كان حديثه أعمق مما تخيلته يومًا. حاولت السيطرة على نبضات قلبها التي بدأت تزداد، قائلة:

- اللي بيشدني ليك فوضويتك، كونك مجموعة من الأشياء المتناقضة في بعضها. دايمًا بتشدني لاكتشاف شخص جديد، مختلف في كل مرة. ذكي وبيشغل دماغه، بس دايمًا بيتشد للعنف. طيب جداً وعصبي في نفس الوقت. شعرك مع دقنك شيء غريب، لكن بطريقة ساحرة. كل حاجة فيك، حتى اليوم اللي صرحتني فيه إنك هتشيل التاتو، حسيت إنك بتفقد جزء من هويتك الفوضوية، بس ده مدمش، لأني اكتشفت إنك دايمًا بتكتسب حاجات جديدة، مش بتفقد.

رفع حاجبيه وتحدث بمزاح يحاول به تخفيف حدة الحديث، بينما ابتسم ابتسامة صغيرة تتخللها الذكريات المؤلمة:

- بس خدي بالك، أنا منظم جداً، بس مبينش عليا. التاتو ده... أنا منكرش إني كنت عارف إنه حرام، بس كنت تايه، وبدعي ربنا إنه يغفرلي. لما قررت أشيله، كنت حاسس إن قلبي بيثقل كل يوم، ومش قادر أتنفس بحرية. وفعلاً شلته رغم إن ده كان صعب، لأنه كان واخد مساحة ضهري كله، وكل حتة كانت بتحكي قصة من حياتي. أنا مش هنكر إن مش مثالي، وممكن مكونش الشخص الصح ليكي، لكن أوعدك إني هبذل عمري كله علشان تكوني مبسوطة، وعلشان ما تحسيش بأي ندم أو ألم بسببي.

أجابته وهي تحاول كتمان انفعالها، والابتسامة ترتسم على وجهها بلطف ورقة:

- أنا مش محتاجة شخص بيدّعي المثالية، لأن مفيش حد مثالي في كل حاجة. كلنا لينا أخطاء وعيوب، بس الأهم إننا نحاول نصلحها أو على الأقل نتوقف عن تكرارها. اللي يهمني فيك إنك صادق، ومش بتخبي حقيقتك عني، وده أهم من كل حاجة تانية.

أخذتهم الأحاديث في كل شيء بلطف، وكأن العالم توقف عن الدوران للحظات، فقط ليكونوا معا. كان يراها الآن بوضوح لم يسبق له من قبل. يقسم في قلبه أنه لو خلق ألف مرة بألف قصة، لكان يحبها في الألف مرة وفي الألف قصة. الحب في نظره، ليس خيارا، بل قوة غير مرئية تلقي بقلبك في مكان ما، بدون وعي أو منطق. وجد نفسه محبا، ووجد قلبه متعلقا بها، بكل ما فيها من مخاوف وأحلام مترددة.

ألقي بجسده على الفراش، منهكًا وتعبًا، بينما كانت الغرفة هادئة ومريحة. الإضاءة منخفضة، وفي زاوية الغرفة مكتب صغير ونافذة تُطل على الخارج، وفراش كبير بجانبه طاولة صغيرة. لم يكن يدري كيف سيتغير كل شيء بعد عدة أيام، وكيف سيترك غرفته وبيته وأمه، لكن لم تكن لديه مشكلة في ذلك، ما دام هناك زينا، ستكون الأيام بخير.

دخلت أمه إلى الغرفة بحنان ولطف، قائلة برقة:

- انت جيت؟

قهقه عز بصوت رجولي:

- لا، لسه على القهوة، هاجي بعدين.

تبدلت ملامح وجهها الهادئة إلى غضب، وعبرت عن استيائها قائلة:

- تصدق إنك ابن عاق.

انتهت من كلامها في نفس اللحظة التي ألقت فيها بحذائها المنزلي في وجهه. ارتفعت نبضاته، وتحدث بغضب:

- أنت أم، وأنت مش بتعمليه كويس! احضنيني يا أمي، احضني ابنك.

نظرت إليه ملاك والدته بسخرية، وتظاهرت بالجدية:

- ممثل شاطر والله، بس هتوحشني يا عاق.

وكحال معظم أمهاتنا، بدأت بفقرة البكاء السعيد في المناسبات المفرحة، وعز لم يستطع إلا أن يبتسم لها، محاولًا استيعاب مشاعر الوداع.

أخذها في أحضانه، يشعر بأنه يريد أن يحتفظ بهذا العناق إلى يوم زفافه:

- خلاص بقا يا ملاك، بلاش نكد. بقولك، مش ناوية تحبيني زي أمير؟

رفعت أنظارها له بحنان، وعينيها تشعان بالمحبة:

- أنا بحبكم زي بعض، أصلاً انتو الاتنين ولادي.

نظر لها بخبث ممزوج بالعفوية:

- طيب لو أنا اتجوزت وجيتلك أنا وأمير، هتعملي لمين فينا الأكل اللي بيحبوه؟

أجابته بهدوء، مع ابتسامة ماكرة:

- هعمل يوم ليك ويوم ليه.

تسأل مرة أخرى بفضول:

- ويوم مين يومه الأول؟

أجابته بهدوء، ولكن صوته احتوى على بعض السخرية:

- أمير الأول، علشان هو الكبير.

تشنجت ملامحه باستنكار، وهو يضحك في نفسه:

- اتفضلي يا ماما، سيبيني أنا، أهونلي.

ضربته ضربة خفيفة على ذراعه، بينما ابتسمت وهي ترد:

- أحسن نوم الظالمين عبادة.

بعد خروجها، أمسك بهاتفه وتصل بـزينا، يفكر في كيف ستكون حياتهم معًا بعد الـزواج. يالـه من بيت رائع وزوجة رائعة، ستكون حياتهم هادئة ولطيفة، لكنه انقطع عن أفكاره حـين سـمع صراخها:

- انت بتتصل تسمعني سكوتك ولا إيه؟

تشنجت ملامح وجهه، وهو يتناسى كل ما سمعه:

- تصدقي أنا غلطان إني كلمتك.

استمعت له بغضب:

- سيبك أنت، متخيل إننا هنعيش مع بعض؟

أجابها بغباء، محاولًا استيعاب ما يحدث:

- تخيلي إه؟

تحدثت زينا بسعادة، وكأنها نسيت كل شيء:

- الفستان تحفة بجد! هاجر عملته تحفة، كل حاجة جنان. أنا مش مصدقة نفسي، هبعتلك صورة.

انتظر ظهور الصورة على شاشة هاتفه، وفور أن أرسلت له بعد عدة ثوان، كانت الصورة بسيطة، لكنها سحرت عينيه بتفاصيلها. تلك العينان المكحلة مع شعرها الأسود وفستانها الأبيض المزخرف ببعض الورود البيضاء. فستان بسيط لكنه كان ينم عن ذوق رفيع، وجمالها طغى على كل ذلك.

تحدث بهدوء، محاولًا إلقاء تلك القصيدة بطريقة صحيحة:

- فِي بَحرِ عَينَاكِ هَامَت كُل اشوَاقِي يَا رَبة الحُسنِ هَل تنوِينَ إغرَاقِي؟.. مَا كُنت أؤمِن بِلعيون وَ فِعلها حَتى دَهَمتني بِلهوى عَينَاك.. عيناكِ بَحر تَاهَت بِه سُفُني وَ تَزعزعت نَبضاتُ قَلبِي وَ أنفاسي. أنا الذي لا يَهزني بَرق ولا رَعد، أأعين متلالاه تهزم ثباتي؟

ابتسمت بخفة غير مصدقة أنه تغير بتلك الطريقة، كيف لعز الوقح الذي عرفته منذ خمس سنوات أن يصبح زوجها بعد أيام، وأيضًا أصبح رومانسيًا.

تحدثَت بفرحة:

- أنا ها قفل بقا، كلها كام يوم، وقولك دخله أنام، مش هقفل.

أغلقت المكالمة، لكنه ما زال يمسك بالهاتف، لا يعرف ماذا يحدث. كيف تغير كل شيء بهذه الطريقة؟ سيتزوج من زينا، تلك الفتاة الكئيبة كما كان يلقبها، ستصبح زوجته، ومن الممكن أن تكون أمًا لأولاده. لا، هذا غريب حقًا. لكن على أي حال، هو لن يقدر على العيش دونها.

كان المنزل لطيفا، تتزين حديقته ببعض الورود، كما كانوا دائما يتمنون. يقف هو بجانبها، يصنعان كعكة الشوكولاتة المفضلة لديهما. تجلس هي أعلى طاولات المطبخ، بينما يقف هو أمام الفرن، يتحرك بحماس.

تقلب بيدها الخليط، وتنظر إليه بفرح، متمنية أن تدوم كل أيامهما هكذا، مليئة بالسعادة والألوان.

تحدث وهو يأخذ من يدها قالب الكعكة، نظرته مليئة بالإعجاب:

- عارفة يا ميرنا، أنا لو تمنيتك بالتفاصيل، مكنتش لقيتك.

أجابته بابتسامة تضيء وجهها:

- في حاجات لازم تجيلنا صدفه علشان نلاقيها.

احتضن يديها برفق وهو يصافحها، يشعر بالسعادة تغمره:

- وأنا اتمنيتك، وأنا بفكر، ليه ما نسافرش معًا؟

بادلته حديثه بابتسامة دافئة، عينيها تتلألأ:

- خلاص، نسافر مع عز وزينة.

رفعها أعلى الطاولة برفق، بينما أغلق باب الفرن بقدمه، وهما يضحكان معًا.

أمسكت هي ببعض الأطباق، تضعها بعناية أعلى الطاولة المستديرة، ثم قامت بفتح إحدى الأغاني. أمسكت بيده، وبدأ يرقصان معًا، مرددين كلمات الأغنية بفرح ونشوة:

"حبيت جميل ياريتني ظاله، حبيت جميل ياريتني ظله يا عيني،
آه يا حلو و يا مخليني يلي بنار الهجر كويني."

كانت لحظة سحرية، حيث اجتمع الفرح والحنان في تلك الراقصة العفوية، وكأن العالم كله قد اختفى من حولهم.

في شرفة منزلهم اللطيفة، جلسوا سويًا، وهو يقرأ لها إحدى الروايات، يمسك بيدها برفق. قال بنبرة لطيفة هادئة:

- إيكادولي.

نظرت له بحب، تسحب الكتاب من يده برفق:

- وأنا كمان إيكادولي يا أمير.

ضمها بذراعه إلى حضنه، بينما يحتسي قهوته، ورفع أحد الوسائد ليضعها أسفل قدميها، كي ترتفع بعيدًا عن قدميه.

تحدثت بهدوء، وكأنها تتأهب لفتح قلبها:

- أمير أنا عايزة أقولك حاجة مخبيها بقالي يومين.

نظر لها بتساؤل، وقد بدأ يشعر بقلقها:

- حاجة إيه؟

تحدثت بتردد، كأن الكلمات تتردد في صدرها:

- أنا كنت شاكه من يوم ما عرفت موضوع الخطة بتاعت محمد. إن عمك ياسر يكون مشارك مع حسن أو أنس في حاجة. وده اللي تأكدت منه. مورطينه في صفقات كتير، وأكدت إنه مش مادي. إحنا لازم ناخد الورق ده.

تحدث إليها بريبة، عينيه تشعان بالحذر:

- تفتكري محمد أصلاً هيفكر إننا ننقذه؟ إحنا لازم ما نعرفهمش الموضوع ده علشان ما نعملش مشاكل مع سليم أو محمد.

أيدته برأيها، وهي تعلم في أعماقها أن القادم لن يكون خيرا أبدا، بل سيزداد الأمر سوءا. جميعهم يعلمون أن ما يفعلونه خطأ، فحرقهم لبعض مخازن شركات حسن وأنس وتسريبهم لمعلومات وصفقات

لهما، هذا يحاسب عليه القانون، لكنها كانت تدرك أيضا أن هذا هو الصواب، في عالم مليء بالظلم والخيانات.

في ظلام الليل، كان الجو مشحونًا بالترقب والتوتر. تجمعت حول طاولة صغيرة في منزل أنس المصري، مجموعة من الأصدقاء الذين يسعون إلى تحقيق مكاسب غير مشروعة. كانت الأضواء الخافتة تتراقص على وجوههم، مما أضفى جوًا من الغموض على ما يُدبر خلف الأبواب المغلقة.

أمسك أنس بأحد المستندات بيده، ووجهه يعبِّر عن مزيج من الجدية والدهاء. قال بصوت حازم:

_ وبكده نبقا خلصنا آخر عملية.

أجابه حسن بسخرية، وهو يرفع حاجبيه في استهزاء: _ على أساس إن في عملية واحدة نجحت من ساعة ما بدأنا في الصفقة الزفت دي.

تدخل مصطفي وهو يحتسي من كأس النبيذ، محاولًا أن يبقي الأمور تحت السيطرة:

_ مش ده المهم دلوقتي. المهم إزاي هنعرف مين اللي بيفشل عملياتنا أصلاً.

نظر إليه أنس بمكر، وكأن فكرة جهنمية تختمر في رأسه:

_ هنعرف، بس لما هعرف مش هسيب حتة في جسمها سليمة. قسماً لأسويها عبرة لمن يعتبر.

وفي الخارج، كان الليل يزداد سوادًا بينما جلست رزان وقاسم، يتبادلان نظرات متوترة. ضجت كؤوسهما معًا، وكان الصمت هو القاسم المشترك بين الفوضى التي تملأ المكان.

تحدث قاسم بلعثمة بسبب احتسائه للخمر بكثرة:

_ أنا تسيبني وتروح للحيوان ده؟

أجابته رزان بضحكة صاخبة، وكأنها تتحدى الواقع: _ ما هو سابني أنا وراح للجبانة دي، غبي يسبني أنا ويروح لدي.

ألقى قاسم بكأسه على الأرض، متفجرًا غيظًا، ثم أمسك بشعرها بقوة:

_ اوعي تقولي عنها نص كلمة، أنتِ فاهمة؟

على ضوء الشموع المرفوعة، خرج الثلاثة من الغرفة مع ارتفاع أصواتهم، كأنهم يتنافسون في التعبير عن غضبهم. ضم حسن رزان إلى أحضانه، محاولًا تهدئة الموقف:

_ في إيه يا قاسم، انت اتجننت؟

أجابه قاسم بسخرية:

_ والله اسأل بنتك اللي بتجري ورا واحد مش شايفها.

تحدث مصطفي بهدوء، محاولًا تهدئة الأمور:

_ اهدى بس يا قاسم، بلاش جنان.

لكن قاسم دفعه للوراء بغضب، وكأن الانفجار أصبح حتميًا:

_ انت اللي بتقولي اهدي، لما تعرف تجيب بنتك الأول وتجوّزها لي، ابقى اتكلم.

أمسك أنس بغضب من تصرفات ابنه، مستشعرًا أن الأمور قد تخرج عن السيطرة:

_ قاسم، متدخلش. أنا ها تصرف. أنا هعرف أخلي الحيوان دد يبعد عنها.

وبينما كان الليل يزداد ظلمة، تلاشت الضحكات، ليحل مكانها شبح الشك والريبة. الكل يدرك أنهم يعيشون في دوامة من الأفعال الخاطئة، حيث لا شيء يمكن أن يُصلح ما تم تدميره. في عالمهم المليء بالمؤامرات والشر، يبدو أن العواقب لن تتأخر في الظهور، وأن الشر لن يمر دون أن يدفعوا ثمنه.

دخل عمر إلى المنزل وهو يستند على ذراع زوجته، خطواته غير متوازنة بسبب الإفراط في شرب الكحول. كانت نظراته ضبابية وكلماته تتلعثم في فمه. دفع ابنه يزن بعيداً عنه، مستنكراً: _ ابعد عني يا ابني أنت.

تسبب دفعه القاسي في سقوط يزن على الأرض، مما زاد من حدة الموقف.

فجأة، ظهرت والدته سوزي من الغرفة، غاضبة:

_ انت اتجننت يا عمر! اطلع فوق حالاً.

أجابت هيام، زوجته، محاولة الدفاع عنه:

_ في إيه يا طنط؟ إحنا كل ما نروح في مكان نتبسط تقبلينا كده.

لكن سوزي لم ترد، بل أخذت بيد زوجها وسحبته بعيداً، عازمة على إنهاء هذا المشهد المؤلم. بينما جلس يزن على الأرض، دموعه تنهمر بغزارة، معبراً عن حزنه العميق.

أمسكت سوزي بيد يزن، ضمته إلى أحضانها بحب وحنان:

_ اطلع نام بقى، معاد نومك فات من نص ساعة.

رد يزن ببراءة ودموع:

_ حاضر، أنا عاوز طنط هاجر تاني. انتوا مش بتحبوني، هي بس اللي بتحبني.

كانت كلماته مثل خنجر، تخترق قلب والدته وهي تشعر بالعجز أمام صراعه. صعد يزن إلى أعلى الدرج، يبكي وحيدا، لا يعرف لماذا يعامله والده بهذه القسوة. مشاعر الفقد والحنان كانت تسيطر عليه، وهو طفل لا يزال يحتاج إلى الأمان والمحبة، لكنه يشعر بأن العالم من حوله مليء بالبرد والجفاء.

لماذا لم تتساءلوا يوما عن عقاب المنتحر؟ نعم، فالمنتحر لا يقدم على إنهاء حياته بلا سبب هناك دائما عامل أساسي، ربما أب أو أم، أخ أو أخت، حبيبة أو صديق، كلها عوامل قد تدفع الإنسان إلى الانتحار تسعة وتسعون سببا يدفعنا إلى حافة النهاية، لكن هناك سببا واحدا يمنعنا من الوقوع فيها: جهنم ومع ذلك، هل إن متم موتا طبيعيا ستدخلون الجنة؟ لا أعلم، لكن عليكم التفكير في هذا الأمر قبل رحيلكم.

فتح نائل باب المنزل بحذر، لتفاجئه رائحة كريهة قاتلة دخلوا واحدًا تلو الآخر، وبمجرد أن وطئت أقدامهم الداخل، تملكتهم قشعريرة من تلك الرائحة الفظيعة. ومن الحشرات القذرة التي تملأ المكان كان الجو في المنزل خانقًا، حرارة لا تُحتمل جعلت العرق يتصبب من أجسادهم.

توجه" محمد" نحو غرفة بدت وكأنها غرفة المهملات أو شيء من هذا القبيل وجد العديد من المدافئ الكهربائية تعمل، لم يستطع تحمل الحرارة الخانقة. أحس بمعدته تتقلص، والعرق ينساب بغزارة، وعيناه ترتجفان من شدة الإحساس بالاختناق أمسك بأعصابه وبدأ بخلع الأسلاك من المقابس الكهربائية، وصاح بصوت مرتفع يسمعه أصدقاؤه:

- تعالوا هنا، اقفلوا أي مدفأة تشوفوها، وأي حد يدخل يقفل الغاز!"

بدأوا بتنفيذ تعليماته، بينما كان أحمد يتجول في أرجاء البيت، لا يرى شيئًا مميزًا سوى الحشرات والروائح الكريهة.

تحدث" نائل" من المطبخ بصوت عالٍ وهو يخرج:

- فيه تسريب غاز، وكل المدافئ قفلناها.

أجابه "محمد" وصوته مزيج من القشعريرة والحزن:

- أنا لقيت حاجة هنا... لازم تشوفوها.

دخلوا إلى الغرفة التي بدت عادية نوعًا ما، حيث كان هناك تلفاز لا يزال يعمل، ويبدو أنه لم يُطفأ منذ أيام النوافذ كانت مغلقة، والشمس تنعكس على الزجاج، مما جعل الجو خانقًا في وسط الغرفة كان هناك مقعد أبيض، لكن زينته الدماء بطريقة منفرة: دماء تغطي المقعد، والذباب والخنافس تنهش فيه بشكل مقزز. جسد امرأة في أواخر الثلاثينات ملقى بجانبه، ملامحها لا تزال يمكن تمييزها، لكن الرصاصة التي اخترقت منتصف رأسها شوهتها، فخرجت الدماء في كل مكان بدا جسد المرأة في حالة تحلل منذ عدة أيام، وساعد في ذلك حرارة الجو الخانقة في المنزل من الواضح أن القاتل محترف، فقد أشعل المدافئ وأغلق النوافذ ليعجّل من تحلل الجسد.

خرجوا من الغرفة بملامح شاحبة، وقد غاصت رؤوسهم في أحزانها. لم يستطيعوا تحليل الأمر بشكل جيد، ما الذي أدى إلى قتل تلك المسكينة؟! أمسك سليم برأسه وهو يتخيل بشاعة الموقف.

تحدث محمد بحزن مألوف، وهو يقف أعلى درجات السلم:

- أكيد فيه حد تاني عايش هنا... أنا هاشوف فوق.

وافقوه الرأي، وبدأوا بالصعود للبحث في الطابق العلوي، والذي كان يتكون من ثلاث غرف. توزعوا على مجموعات: "إسلام "أمسك بسلاحه ودخل مع "نائل"إلى الغرفة الأولى، فوجدها فارغة، تحتوي على بعض الأثاث ومكتبة صغيرة، مما جعلها تبدو مخصصة للعمل أو الدراسة.

بينما دخل" سليم "وسيف" الغرفة الثانية، التي كانت واسعة بعض الشيء، وبها سريران وخزانة للملابس، وبعض أدوات التجميل الموضوعة على الكومود.

أما" محمد" و"أحمد" فتوجها إلى الغرفة الأخيرة. بدت وكأنها غرفة أطفال، حيث كانت هناك ألعاب ملقاة على الأرض، وعلى الطاولة صورة لصبي مبتسم بجاذبية. لكن كلما اقترب" محمد" نحو الداخل، شعر بانقباض في قلبه بسبب الرائحة الكريهة، وأيضًا الشك الذي بدأ يسيطر على عقله، وبدا أنها الحقيقة.

فتح محمد الباب، ليجد أمامه منظرًا شنيعًا. شعر بالقشعريرة تسري في جسده، وتصلب مكانه من هول المشهد. رغم أنه رأى العديد من الموتى، وأكثر من ذلك الدماء، إلا أن هذا المشهد جعل قلبه يتوقف للحظة.

أما أحمد، رغم أنه أشد صلابة من أن يشعر بالغثيان، فقد سمع صوت تجشؤ يخرج من داخله. ومحمد نفسه شعر بتقلص شديد في معدته، لكنه نجح في كتمان شعوره بالغثيان.

عندما تخيل نائل أن ما سيراه خلف الغرفة سيكون سيئًا، كان مخطئًا، فما رأوه بعد أن فتح إسلام الباب كان كابوسًا بكل معنى الكلمة.

صبي في أوائل مراحل المراهقة، يظهر من جسده أنه في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره، مستلق على السرير. كان يرتدي قميصًا أسود فضفاضًا وسروالًا قصيرًا أبيض، كلاهما ملطخ بالدماء، مثل السرير الذي تلطخ بالدماء أيضًا. كان يرتدي جوارب سوداء، وقد غرز مطاط الجوارب في لحم ساقيه المنتفختين.

لاحظ "سليم" أن الغرفة ليست كبيرة، لكنها كانت منظمة بعناية. السرير كان مغطى بملاءات بيضاء، وبجانبه طاولة وضعت عليها صورة بإطار خشبي، يظهر فيها الصبي مع رجل يبدو أنه والده. النوافذ كانت مغلقة، لكن الستائر البيضاء تطايرت قليلًا بسبب الهواء الذي تسلل من مكان ما.

ولكن أكثر ما لفت انتباهه كانت تلك الكلمات المكتوبة على الحائط بأحرف عريضة:

- لقد سبقتكم، احذروا أن تبتلعكم الدائرة.

الكلمات كانت تحمل رسالة مبهمة، وتبعث شعورًا بالرعب والإنذار.

أمسك "سيف" بيده وسحب الأقمشة لتغطية جسد الصبي، ثم خرجوا جميعًا من الغرفة لكن "عز "بقي متجمدًا في مكانه، غير قادر على الخروج أو حتى الوقوف. كانت كل الأفكار تتزاحم في ذهنه؛ كيف يمكن لصبي صغير أن يستحق الموت بهذه الطريقة؟ ماذا فعل ليستحق مثل هذا المصير البشع؟ لا شيء سوى أن والدته اختارت له أبًا مليئًا بالصفات السيئة، شخص يعمل مع مجموعة أشد سوءًا منه. لقد قتلوه، والآن من المؤكد أنهم قتلوا زوجته وابنه أيضًا. يا لها من لعنة، لعنة حلت على البشرية بأكملها.

قال محمد وهو لا يزال في حالة صدمة:

- أنا لازم أكلم" حسام"

رد" إسلام "وهو يهمّ بالخروج من المنزل:

- أنا مش هقدر أقعد هنا أكتر من كده.

خرج بسرعة، ولم يحاول أحد أن يوقفه "محمد" أشار للباقين بأن يتركوه يذهب. فهذا هو الأفضل في هذه اللحظة.

بعد ساعات، دخلت الشرطة إلى المكان اقترب "حسام" من "محمد"، ووضع يده على كتفه قائلاً بصوت منخفض:

- طلع بطاقتك، وقول إنك جاتلك مكالمة لشغل الشبكة هنا.

فهم "محمد" الأمر سريعًا، وبدأ يُعرف رجال الشرطة على أماكن الجثث، وأوضح لهم كيف أغلقوا المدافن وتفاصيل المشهد.

تحدث أحد أفراد الشرطة بنبرة رسمية:

- ممكن أعرف سبب تواجدكم هنا؟

أجابه محمد بنبرة مماثلة في الجدية:

- حضرتك أنا محمد نوح الرشيدي، طالب في كلية الهندسة، وبطبيعة شغلي حد طلب إني أضبط الشبكة هنا. لما جيت، فضلت واقف قدام البيت، ولما ما لقيناش حد اضطرينا ندخل بمساعدة الأستاذ رامز.

وأشار إلى نائل معرفًا إياه برامز.

قال نائل بتعريف مختلق:

- أنا رامز منير، ساكن جديد هنا، وطلبت حد لخدمة الاتصالات، وجاء الأستاذ محمد وزميله" أحمد."

نظر الضابط إليه بتصديق، وزاد من مصداقية القصة تأكيد "حسام" له أن محمد على معرفة به، بالإضافة لوجود "سيف"، الذي علم الضابط أنه طالب طب، وأنه جاء بطلب من "محمد "في محاولة لإنقاذ" عز" الذي ادعى أنه كان يختنق بسبب الحرارة والغاز.

تحدث حسام بلطف:

- طيب، تقدروا تمشوا دلوقتي، ولو احتجناكم أكيد هتحضروا.

وافقوا على الفور، وخرجوا إلى الخارج بأنفاس متضايقة وإرهاق. فالمشهد الذي رأوه لم يكن سهلا. لكن ما أخفوه عن الشرطة كانت تلك الكلمات التي كتبت على الحائط، والتي محاها محمد حتى لا يثير الشكوك. وتعاهد أمام الله بأن حق الصبي ووالدته لن يضيع هدرا.

أنهت "هاجر" ارتداء ملابسها، وهي ترتدي آخر قطعة، سترة بيضاء طويلة تصل إلى أسفل ركبتيها، وتحتها تيشيرت أسود وبنطال أبيض بسيط. تركت شعرها منسدلًا على كتفيها، لم يكن ذلك الشعر الحريري الطويل كبطلات الروايات، بل كان متموجًا بخفة يصل إلى منتصف ظهرها.

زينت معصمها بساعة ذكية لطيفة، وتألقت عيناها باللون الزيتوني المائل للأخضر. خرجت من الغرفة بهدوء، لتجد عادل يرتدي بدلته السوداء وربطة عنقه.

قالت بلطف:

- خالو، أنا هخرج دلوقتي.

بادلها نظرة هادئة وقال:

- أنتِ بتخرجي كل يوم، أنا مش ممانع، بس خايف عليكي.

شعرت بغصة في حلقها، تلك الكلمة "خائف" لم تسمعها من أبيها أو أمها يومًا، كل ما كانت تسمعه هو المنع من الخروج إلا في تجمعاتهم المزيفة. تحدثت بهدوء، تخفي فيه حزنًا بسبب تذكرها لتلك المواقف المؤلمة:

- متخفش عليا، هكون مع محمد.

أنهت حديثها تزامنًا مع دخول محمد بسرعة، وهو يلتف حوله بطريقة طفولية غير لائقة مع وجهه الملتحي وطوله الفارع، وقال مبتسمًا:

- أنا جيت، جبتلك مكس الفراولة معايا.

أنهى حديثه بنظرة سريعة لعادل، متفاجئًا بوجوده، فلقد أخبرته هاجر أنه ذهب إلى العمل.

اقترب عادل منها واحتضنها بلطف:

- خلاص امشي، بس متتاخريش علشان عاوزك تقابلي حسناء معايا.

قالت بارتباك:

- آه... ما هي أصلًا هتكون معانا.

نظرت لمحمد بملامح غبية، فوجدته يضرب وجهه براحة يده كعلامة على أنها قد أخطأت.

سأل عادل بتساؤل متجهم:

- حسناء هتيجي معاكم ليه؟

نظرت هاجر لمحمد بملامح غبية وهمست:

- أنا عكيت، صح؟

أومأ برأسه علامة نعم.

تحدث عادل بصوت مرتفع قليلًا:

- ما تنطقوا ولا هتزهقوني؟

رد محمد، وهو يدخل في الحديث بغضب مخفي وراء رغبة في إغاظة عادل:

- ولا حاجة، حسناء صاحبتنا، وأنا قولتلها تحضر معانا، وهي وافقت، أقولها لا يعني؟ وعلى حد علمي، هي لسه مش مراتك، لما تتجوزها بقى زعق.

نظر عادل إليه بغضب، وقال وهو يضرب الأرض بقدمه: "ماشي، بس والله لو عرفت إنكم رحتوا أماكن من اللي بتروحها أنت والغجر اللي تعرفهم، زي المرة اللى فاتت تصرفي مش هيعجبك.

لم يرد محمد على حديثه، بل فتح ذراعيه لهاجر وشبك يده في يدها، ووضع العصير في فمها وتحدث بلهجة طفولية متصنعة:

- باي باي يا عمو.

وألقى إليه قبلة في الهواء.

نظر عادل في آثارهم بغضب، ثم سحب شعره للخلف قائلًا بضيق:

-أنا غلطان إني رجعت... يخرب بيت اختياراقي.

كيف يمكن ان تتغير من بين لحظة وسط الموت الى وسط الحياة وأنت الموت ذاته اجتمع بك الموت و النجاة و الحياة .

في غرفة واسعة غير مرتبة على الإطلاق، جلس جسد عارٍ ملفوف ببعض الأقمشة، ينظر بعينين ملتهبتين بالغضب، وهو يحتسي النبيذ من كأسه. تحدث بصوت يملؤه الحقد:

- أنا تسيبني أنا وتختاره؟ طيب، وحياة أمي، لموته قبل ما يمسها.

جلس" أنس" بجانبه، يسحب نفسًا من سيجارته، وعلى وجهه علامات الكراهية المستترة:

- مش أنت اللي هتموته.

نظر إليه "قاسم" بشك وتردد:

- أمال مين اللي هيعمل ده؟

انفجرت ضحكات أنس، وكأنها تحمل سخرية الدنيا بأسرها:

- كان عندي أمنية من زمان... إن عادل هو اللي يقتله، وأتمنى أشوفها تتحقق.

تجمد قاسم للحظة، غير مصدق:"

- بس ده أبوه! إنت بتفكر في إيه؟

رد أنس ببرود، وعيناه تلمعان بمكر:

- كل خير... إن شاء الله.

الصمت خيّم على الغرفة للحظة، بينما شعر قاسم بالاستغراب والريبة. كيف يمكن أن يكون هذا الكره دفينًا بين المقربين هكذا؟ أنس، الذي يُفترض أنه صديق، يخطط لأبشع خيانة. كم من المؤلم أن يكرهك أحدهم لهذا الحد، بينما كان يُفترض أن يكون أقرب الناس إليك.

دخلت" ميرنا "مع جيهان إلى المركز الرياضي الخاص بإسلام، وكانت عيناها تتلألأ بالسعادة عند رؤية حبيبها لكن فرحتها سرعان ما تلاشت عندما رأته يمسك بقطعة حديدية، ويرفع يده لفتاة اشتعلت نيران الغيرة في قلبها، فمهما كانت ثقتها في من تحب، لم تستطع تجاهل شعورها بالألم لرؤيته مع امرأة أخرى.

تحدثت جيهان بصوت خفيض، يملؤه الاستياء:

- شوفتي، أروح أقتله، طالع لابوه عيلة رخمة.

ابتسمت ميرنا بمرارة، متجهة نحو إسلام:

- إيه، يكابتن، هو الحديد تقيل كده؟

ترك إسلام يد الفتاة، ونظر إلى ميرنا بلطف:

- لا، مش تقيل. أنا بس كنت بعلمها.

غادرت "ميرنا "المكان بغضب، وهي تعبس بحقيبتها بشدة. تبعها إسلام سريعًا، فتحدثت جيهان بغضب:

- عيل رخم زي أبوك، والله! ارفعي عليه قضية طلاق، وجوزيها سيد سيدك.

تحدث إسلام بتعب، محاولة تفهم تصرفات والدته الغريبة تجاه الرجال:

- ماما، هو مينفعش تقتنعي إن أنا ابنك مش هي؟

خاطبها بلطف:

- أنتِ بتغيري يا ميمو؟

أزاحت يده عنها بغضب: "ابعد عني يا إسلام."

رد بلطف:

- على فكرة، أنا كنت بسند إيدها علشان المدربة مش موجودة لكن عمري ما أفكر في أي ست غيرك.

نظرت له بمكر:

- والله طيب، على العموم عادي، أنا مش بغير.

أجابها بضحكة متغزلاً بحب:

- اطمئني، ستظل عيني تعشقك إلى أن تغمض للأبد.

نظرت له بدموع:

- بس أنا غيرت بقا، مش بحب أشوفك مع حد غيري.

ارتسمت بسمة على وجهه، وهو يمسك بيدها، ويضع قبلة على يدها:

- وأنا عمري ما هشوف أي بنت غيرك، أنا اخترتك وعمري ما هسيبك أبدا.

أخذها ورحل بالسيارة، متجاهلًا أمر جيهان في الداخل. بينما كانت جيهان تتصل بجمال ليأتي ويصحبها إلى البيت.

ثم أمسكت بالفتاة التي كانت تقف مع إسلام: - قولتيلي بقا، شعرك ده ولا أكستنشن؟

وسحبت شعر الفتاة بيدها وهي تردد:

-خاينة، بتخوني أخواتك من نسلك مع الرجالة، يا هبلة! دول أعداءنا يا غبية!

لم تكمل حديثها، إذ سحب جمالها من الخلف، محاولًا إبعادها عن الفتاة:

- أبوس إيدك، البنت هتموت.

لم يستطع تهدئتها، لذلك حملها بذراعيه، معتذرًا للجميع عن تصرفاتها.

في منتصف الطريق، حيث لا تشعر بالراحة أبدًا، كانت فيلا "عادل" بعيدة كل البعد عن منطقة سمر. كان "محمد" يحاول أن يضع تركيزه في الطريق، لكنه يفشل في كل مرة، حيث يركز على تلك النجوم المضيئة في عينيها، وذلك الشعر اللطيف الذي يتطاير حول جسدها، والأهم من كل تلك التفاصيل، ذلك الكتاب الذي بيدها لا يعلم لماذا يشعر بالراحة عندما يشاهدها تفعل أي شيء يشغل وقتها.

"لا أعلم لماذا لا أستطيع التركيز في الكتاب أو حتى في الطريق، والأماكن الغريبة. غريب أنني أضع تركيزي في تفاصيله وفوضويته التي تشتتني. عينه الواسعة ذات اللون الفضي كانت تتذكر أن بعض الفتيان في المدرسة كانوا يتنمرون عليه، لكنني كنت أراه دائما مميزا. شعرة أيضا يتطاير بفعل الهواء، أعجبني فوضويتم. أتذكر تلك الجملة التي كنت أصفه بها في السابق: "لطالما كنت أنا المنظمة، لكني أشعر أنني وقعت في فوضويته."

دونت "هاجر" كلمتها في الكتاب وهي تغلقه.

تحدثت بلطف:

- "محمد" ، أنا آسفة على أني طلبت منك الخطوبة.

أجابها وهو يضع عينه في عينها:

- أولاً، لو أنت مركزة، أنا اعترفت لك أني بحبك الأول. ثانياً، أنا مقرر إننا هنعمل خطوبة مدة كويسة بعدها كتب الكتاب والجواز. لو حسيتي أنه مفيش أمل، منعلنش الجواز، وهتفضلي اكتر حد ممكن اضحي بعمري علشانه ، وهفضل دعمك. لو حسيتي بواحد في المئة أمل، هنتجوز، وأوعدك هنحارب لحد ما توصل للبر، وإلى أنت هتطلبيه، هحققه.

نظرت له بطرف عينيها بخجل، متسائلة كيف يكون بهذا اللطف. لا تعرف كيف تصف كم هو لطيف، وشعرت بشيء ما في قلبها:

- محمد، هو إزاي بيتوصف الحب؟"

عقد حاجبيه مفكرًا:

- بصي، هو المفروض يعني بتحسوا بالأمان، وبعدها بتحسوا أن الحياة ممكن تنتهي لـو الحـب ده وقف. حاجات كده.

ابتسمت بلطف تخفي بداخله الألم لن تستطيع الكذب أجابت بفتور :

- مش قادرة اوصف اي احساس، بس متاكدة أن لو الشعور ده كان شيء كان ها يكون انت .

نظرة حنان ارتسمت في عينيه وهو ينظر إليها، قلبه يرقص من الفرح بالـداخل، لا يهـم أنهـا لم تعترف بالحب يكفي أنه معه في لحظة واحدة، كان يمكنـه احتضـانها أو الـرقص في الشـارع، بـل وكان بإمكانه أن يطلق العنان لصوته ويقول في منتصف الشارع: "أحبك" حتى يسمعه الجميع.

تحدث هو بوصف وهو يحاول ان يظهر لها كم يحبها :

-أنا مثلاً بحس إني مليش حد غيرك، نفسي أفضل جنبك حتى لو من بعيد طول العمر، أنا لو انت مش موجودة هكون خسران كل حاجه .

رغم عدم وصفك للحب، ورغم أنك لن تعرف أبدا ما هو الشعور المثالي، ورغم أنك لا تحب تلك العلاقات، إلا أن الحب

ظُل متمسكا بك للأبد. لو طلبت روحي، لن أترك حبي أبدا.

تتردد مشاعر الحب والفرح في كل مكان، والسعادة تتراقص في الأجواء بعد حب طويل، ستبدأ رحلاتهم معًا إلى حياتهم الخاصة. في بعض الأحيان، قد يتسلل الشك إلى النفس، لتسأل: هل هذا هو الشخص الصحيح؟ هل ستكون حياتكم مثالية؟ ولكن شعورًا عميقًا يجذبك للاستمرار معه إلى الأبد.

كانت" زينة" تتأمل الفساتين التي أرسلتها "هاجر" مع "ميرنا"، بينما كان "سيف" و"سما "يقفان بجوارها، يحملان كوبين من الشاي ويتبادلان الحديث بهدوء.

تحدث "سيف" بحب:

- شكلك حلو أوي، هو أنتِ دائمًا جميلة، بس النهارده طلعتي مختلفة.

نظرت "زينة"لعينيه بخجل:

- وأنت كمان.

صاحت" سمر" من الداخل بتهكم :

- كفاية محن، الله يستركم!

دخلت "جميلة" إلى المطبخ، فوجدت "أحمد "مستندًا على الخزانة، ينتظر القهوة بملل، يقلب بالمعلقة وهو يدندن:

-الصبر جميل... بس أنا زهقت، مكنش كوبايه قهوة هتخلصني.

ضحكت على هيئته، وهي تضع الأكواب في مكانها.

تحدثت بمشاغبة:

-والله، ووقعت يا "أحمد "يا طويل."

حرك يده في الهواء وهو يتحدث بمغزي اخر قائلاً:

- وقعت من بدري يا جميلتي.

صفقت له بيدها، ثم وضعت يدها في فمها بصوت صفير:

- الله يا أبو سوسو، إيه الحلوة دي!

تحدثت سمر وهي تستند على الثلاجة:

- عظمة على عظمة يا بني، بس البعيدة مش "جميلة" .

احتضنت جميلة سمر بحب وهي تشعر بالحنان التي تمدهم به :

- ربنا يديمك لينا يا "سمر"، وتجمعينا دائمًا.

صدح صوت الخبطات على الباب، ففتح عز الباب ليجد كل من "جني وسليم" و"أمير وجيداء" و"محمد وهاجر."

تحدث محمد وهو يحاول الدخول بتذمر أولاً:

- وسع يا أخي، بقى عاوز أدخل.

دخل الجميع، فرحبت بهم سمر بحفاوة وابتسامة وأحضان، وعلى وجهه وشاح السعادة يرسم نفسه

تحدث محمد وهو يشاهد عناق سمر لهاجر الذي كان قوي :

- براحة يا سمر، دي بسكوتة ممكن تتكسر!

ألقت زينة الوسادة منزعجة منه :

- بس يا أوفر.

بينما نظرت جميلة لجني بتساؤل:

- أنا شوفتك فين قبل كده؟"

تحدثت جنى وهي تتذكر بهدوء :

- أنا كمان شوفتك.

لكن هاجر تجمدت في مكانها وكانت اسرع منهم تذكراً حيث قالت :

- رحلة دهب، صح؟

تذكرت حين رأوها لأول مرة في رحلتهم الأخيرة، حين ذهبوا

للتسوق. ورغم أنها لم تكن تعرف المدينة جيدا، قررت مساعدتهم في شراء الملابس وزيارة الأماكن العامة، وحتى

أعادتهم إلى منازلهم .

صدح صوت الجرس مرة أخرى، ففتح محمد الباب ليجد حسناء أمامه، دفعته بعيدًا وهي تقول:

- وسع، وانت شبه الحيطة كده، زي ابوك .

كانت ملامح محمد تحمل براءة الطفولة مزيفة وهو يشاكسها :

- طيب، اخرجي برة بقى.

قاطعتها سمر وهي تحتضن حسناء تنقذ الموقف : - بس يا أهبل."

ألقت حسناء السلام على الجميع بمرح، ومنذ أن تراها، يمكنك تمييز بشاشتها ولطفها، تتعامل مع الجميع وكأنها تعرفهم منذ زمن لا تضع اي فروق

صدحت أنغام الموسيقى، وبدأ الجميع بالرقص والغناء، يدورون حول بعضهم بضحك.

وقفت هاجر مع محمد في إحدى الزوايا: "

- أنا فرحانة أوي، دي أول مرة أفرح كده، ومبسوطة إني شفت جني بعد كل الوقت ده.

تحدث وهو يمسك بكوب عصير ويعطيه لها: "يارب أقدر أسعدك دائمًا."

أمسك عز بيد زينا، وبدأ يرقص معها على أنغام إحدى الأغاني: "ببقى معاك سنيور يا وساعات ديناصور ...

بس عادي اتس اوكي، فتحوا لي ورق التاروت يا، قلولي انا الكود يا، حست اني كروديا انا كروديا ولا ايه؟؟، بيشكوا يقولوا قاسينا احنا على الله بنرميها، مفيش بشر تمشينا بيبي انا هاركليز وانت زينة .

بعد انتهاء الحفلة اللطيفة، أخذ محمد هاجر وحسناء ليعود بهم، وطالت أحاديثهم، لكن كان هناك شيء واحد مقلق؛ تلك السيارة التي تطارده. لم يكمل تفكيره حتى توقفت السيارة أمامه. فزعت هاجر وحسناء من الموقف، وأمسكت حسناء بذراع محمد تمنعه من النزول، لكنه خلع يده منها ونزل من السيارة.وجد قاسم أمامه، فتحدث إليه قائلاً:

- والله وحشتني يا صحبي.

رد محمد بنفي مستهزا منه :

- أنا عمري ما كنت صحبك ولا هتبقى صحبي.

نظر له قاسم بسخرية وهو يبتسم :

- كلامك صح، مبصحبش عيال.

أمسك محمد بقميصه ووجه له لكمة في وجهه، بينما كان قاسم بجسمه المتواضع كل ما فعله هو الدفاع عن نفسه.

أغمضت هاجر عينيها وهي ترتعش، لكن ما بث الأمان بداخلها هو إمساك حسناء بيدها وهي تخبرها أن عادل قادم إليهم، لأنهم بالقرب من منزله.

خرج "انس" من السيارة وأمسك بكتف محمد، قائلاً: - أنا تخيلت أنك بعد ما شفت إحنا ممكن نعمل إيه فيك هتبعد، بس شكلك غبي.

أجاب محمد بسخرية وهو يعلم الجاني الحقيقي: -إنك تحرق دم حد من غير ما تقل أدبك عليه دي موهبة فطرية صعب حد ينافسني فيها، فمتعودش تتذاكي عليّ.

اشتعلت النيران في قلب "قاسم"، مشبعًا بالكراهية والحقد. قال:

- أنا مش هسيبك تكون معاه، ها قتلك أو ها اقتلها.

عند سماعه لتلك الكلمات، تخلي محمد عن برودته وأمسك بقاسم، انهال عليه باللكمات، و "أنس" يحاول إبعاده من الخلف لكن بلا فائدة.

تراجع "انس" إلى الوراء عندما شاهد السيارات الخاصة بعادل تأتي من بعيد، فتوقفت روايتهم.

نزل عادل من السيارة بسرعة، يزيح محمد عن قاسم، وصاح به بغضب:

- كفاية بقى، أنت بتعمل إيه؟"

سحب محمد نفسًا عميقًا وهو يقول:

- محدش يلمسني، قسمًا بديني ها قتله."

اقترب عادل من قاسم وتحدث بغضب بين أسنانه: - لو ما ختفتش من هنا، أنا اللي ها قتلك بإيدي ولو رفعت إيدك عليه مرة تانية أو اتعرضت له، هزعل أبوك عليك."

ابتسم قاسم بسخرية وهو يحرك الشك بداخله: -وأنت بقى افتكرت إنه ابنك دلوقتي؟ على العموم، لو عرفت حقيقته، احتمال تقتله.

ضحك عادل بسخرية وهو ينظر لقاسم بغضب:

- إذن محدش بيقتل ابنه، ولا إيه؟

تحدث قاسم بخبث:

- مش يمكن مش ابنك، ومش يمكن لو عرفت مين اللي كان هيقتلك في الحفلة، تغير رأيك."

عمت لحظة من الصمت المكان، ويبدو أن القادم أسوأ. ومهما كان الأسوأ، خذها مني نصيحة، عزيزي: مهم اختلت الأمور، إياك أن تقع في دائرة الخطأ، فهذه الدائرة، حتى وإن خرجت منها، ستخرج منك.

البارت التاسع

"ليس ابني"

توقف الزمان للحظات لا يعلم عددها ولا كم استغرقت. لم

يتخيل يوما أن يفضح أمره بهذه السرعة. كان يتصور أن الوقت سيكون كافيا لتدارك الموقف أو على الأقل لتمهيد ما سيحدث. لكن الان... لم تمنحه الحياة تلك الفرصة.

أفاق من شروده على نظرات الجميع التي تحاصره. نظرات "هاجر" كانت خائفة وتائهة، كأنها ترغب في الهروب به بعيدًا من هذا المكان.

أما "حسناء". فكانت نظرتها حزينة، لكنه لم يستطع تحديد إن كان حزنها من أجله أم بسبب الموقف نفسه. كان الود في عينيها يشبه ملاذًا آمنًا، وكأنه طفل يختبئ من أفعاله في أحضان والدته. فلم يشأ أن يُشيح بنظره عنها.

نظرات "قاسم" كانت شامتة، قاسية، وكأنه يستلذ برؤيته في هذا الموقف. و"أنس" الذي شهد المشهد وكأن التاريخ يُعيد نفسه أمامه بأشخاص مختلفين—في البداية قتل الابن أبيه، فهل يمكن أن يقتل الأب ابنه؟

أما ما لم يستطع فهمه، فكان نظرة "عادل". مزيج غريب من الغضب، الحزن، وربما الخذلان أو العتاب.

بعد فترة، لم يكن يستطيع تحديد ما إذا كانت دقائق، ساعات، أو حتى أيام، وربما سنوات، شعر وكأنه أصبح عجوزًا في هذه اللحظة، ولم يعد الطفل الذي يتمنى عفو أبيه. تحولت مشاعره تجاه هذا الأب إلى كره عميق، وغُلف قلبه بعدائية قاسية. تعلم من الحياة ألا يثق بأحد، حتى أبيه.

بدأ عقله يُعاتبه في تلك اللحظة: "هل ظننت أن الماضي سينتهي دون حساب؟ كيف تتصور ذلك؟ ألم تُقدم على فعل ما لا يجرؤ حتى الشيطان على فعله؟ الآن جاء من سيُعيد الأمور إلى نصابها."

تحدث "عادل" بغضب، وهو يقف في مكانه عاجزًا عن التفكير:

- سؤال واحد، كلام "قاسم" صح؟ أنت عملت كده؟

ضحكة غريبة انبعثت منه، لم يكن يعلم إن كانت سخرية أم حزناً. لكنها جاءت رغماً عنه، ضحكة تُمزق قلبه وتُغطي صوت تحطم مشاعره. هل هو حقًا غاضب؟ هل يحاسبه لأنه كاد يقتله؟ وكيف لا، وهو لم يكن يعلم أنه أباه؟ وما ذنبه سوى أنه نسي ملامحه منذ خمس عشرة سنة.

تحدث بألم، وكأن الجنون استحوذ على قلبه:

- آه، أنا. تخيلت إني هدافع عن نفسي وأقول لك مش أنا؟ لا، أنا... أنا يا "عادل". أنا اللي ضربتك على دماغك، عارف ليه؟ لأني لما عيني جت في عينك معرفتْكش. وعملت أكتر من كده، ولو كنت أعرف إنك "عادل" كنت قتلتك. أنا عملت الأسوأ، ألف مرة، أنا بكرهك.

رغم كل شيء كان من المفترض أن يحدث الآن، اختلفت الأقدار. الأب الذي كان من المفترض أن يشعر بالذنب ويحتضن ابنه في حنان، أصبح جلادًا وقاضيًا. تحدث بكل ما يملك من قوة، متناسيًا كل معنى للأبوة، وقد اختفى من قلبه الحنان. لم يعترف به كابن، بل لم يعد يرى فيه أي شيء.

تحدث "عادل" بقسوة، وهو يزيح قناع الزيف عن الحقيقة:

- اسمع بقى، لو فاكر إن كلامك ده حركني، تبقى بتحلم. لو بتكرهني زي ما بتقول، أنا بكرهك أكتر بكتير. ولو كنت هتموتني، أنا كنت هموتك وانت لسه طفل. أنا عمري ما اعترفت إنك ابني. انت غلطة، اللي بيربطني بيك مجرد اسمك في البطاقة وبس. انسَ إنك تطلب مني مشاعر، ولا تفكر تعاتبني، انت ولا حاجة بالنسبة لي، مجرد غلطة... يعني حتى موتك مش هيأذيني .

كان متأكدًا أنه لو حدث هذا المشهد لن يبالي، فهو لا يعترف به كأب ولا ينتظر منه حبًا أو كراهية. لكنه شعر بطعنة قوية في قلبه، وكأنه يقف عاريًا في وسط الصحراء، والجميع يراه لقيطًا بلا عائلة. شعر بمدى احتقاره وكونه غير مرئي.

رمقه بنظرة قوية لن ينساها، وهو يقترب منه، محاولًا ألا ينزلق خلف مشاعره، متحاميا في وشاح القوة. تحدث بقسوة:

- أنا طول عمري بسأل نفسي: أنا ليه مليش أهل؟ وليه انت موجود زي اللي مش موجود؟ كنت بعاتب نفسي. دلوقتي بس عرفت إنك ميت. انت هتحس إحساسي في يوم... هتموت لوحدك، ومش هتلاقي حد جنبك، حتى أنا مش هحضر جنازتك لو لقيت حد يعملها. انت مش أبويا.

نبس بآخر حديثه وهو يرحل، يجري ساحبًا خلفه خيباته وآلامه، يأكل الأرض من تحت قدميه، شعر بقشعريرة تسري في جسده، وقلبه يخفق بشدة، أنفاسه تتلاشى، وسخونة جسده تحرقه. عيناه تتسعان ويداه ترتجفان بعنف، وجسده يرتعش. وضع يده على أذنه، محاولًا إسكات الأصوات التي تعصف برأسه، تزعجه وتمنعه من التواصل مع العالم. كان يتعرق بشدة، وكأنه يغرق في خوفه.

لم يهدأ إلا بعد أن تقيأ من نافذة السيارة، ثم غرس القلم في يده، هدأت رجفة يداه وعيناه استعادت بريقها مرة أخرى.

أفاقت "هاجر "من شرودها، بينما الجميع لا يزال في مكانه لم يتحرك، منذ حديثه أصبح كل شيء مؤلمًا ومرهقًا، وغريبًا انتبهت الى الحقيقة التي تظهر وتتسرب من الماضي لكي تلوث الحاضر.

تحدثت هاجر محاولة تهدئة الموقف، وهي تتفاهم الوضع :

- "محمد "مش قصده أكيد... فيه حاجة غلط.

جاء ردّه "عادل"بغضب شديد وهو يضغط على أسنانه بعنف محبط من كل ما حدث:

- انسي أن الكائن ده موجود، وتنسي جوزك منه.

ردت هاجر بذهول كانت تتوقع ان قلبه يمكن ان يلين يحن الى ابنه قائلة:

- إنت كمان؟ إنت زيك زيهم! كلكم بلاستيك، كلكم زي بعض... أنا كنت فاكرة إنك مختلف، كنت فاكرة إنك ها تخاف عليه، إنت مش فاهم حاجة... مش عارف هم عملوا إيه، مش عارف محمد تعب قد إيه.

صاح عادل بصوت مرتفع غاضب وهو يحاول منعها من استعطافه يقتل كل حنين بداخله :

- لا، عارف! عارف إنه بلطجي وحاول يقتلني، وعارفش عمل إيه تاني... أنا لا يمكن أحس يوم إنه ابني، ومش ها اسمح لك تتجوزيه.

تحدثت" هاجر" بغضب وهي تصرخ، تشعر بالخذلان: - إنت مش عارفه، "محمد" مش زي ما إنت متصور، محمد أنقذني، محمد هو أكثر حد اهتم بي، محمد حبني... أنا مش ممكن أسيبه، مش ممكن.

لم تكمل حديثها، إذ خارت قواها وسقطت أرضًا مغشيًا عليها. فقدت السيطرة والتحكم في اتذاتها من كثرة الانفعال

تحدثت حسناء بخوف وهي تهبط بجانب جسدها وكأنها ابنته وهي تحتضنهل بخوف:

- اتصل بدكتور بسرعة!

أجابها عادل وهو يحمل هاجر بين يديه للاعلي قائلا بخوف:

- حالًا هاتصل بيه، بس هطلعها الأول.

بعد وقت طويل، وقف "عادل" بجوار "حسناء"،ينظران إلى هاجر بقلق، ملامحها الشاحبة، وجهها المتعب، رجفة يديها، كل شيء يؤكد أنها ليست بخير.

دخلت "سوزي" من الباب، تتجه نحوهم بسرعة وتوجه حديثها "لعادل"بغضب وهي تلقي اللوم عليه:

- أكيد كله بسبب ابنك، هو اللي عمل كده.

اقتربت من "هاجر" وأمسكت بيدها وهي تحاول تحسين الوضع خصوصاً أنها تريدها معها قائلة:

- لازم تفوقي، وأنا أوعدك بكره تروح النادي، بس لازم تظبطي شكلك الأول، هعرفك على أصحابي.

نظرت لها "هاجر "بملامح مخذولة، غير مستوعبة لما تسمعه، لماذا تستيقظ؟ لماذا لم تنته حياتها هنا؟نبست بغضب :

- كل اللي همّك هو شكلي، كل اللي همّك أصحابك والنادي... أنا مش هروح النادي، ومش هشوف أصحابك، ومش هبطل أمثل دور البنت السعيدة مع العيلة المثالية، هبطل أكون بلاستيك زيكم.

أنهت كلماتها، ولكن لم تكتمل اللحظة إلا بصفعة قوية من والدها، الذي لم يكن بيده شيء طوال السنوات الماضية الا قوته الوهمية التي يخفي بها ضعفه ويسيطر بها على من هم اقل منه قوة

ظهرت ملامح الغضب على وجه" عادل" الذي اثبت له ان هناك من هو اشد منه قوة، وجه لكمة قوية "مصطفى" وهو يصيح بصوت مرتفع :

- إنت تمد إيدك عليها؟ لو مديت إيدك عليها تاني، هادفنك، فاهمني؟

رد "مصطفى "بغضب وهو يشعر بالاهانه القي على غيره اللوم مثل كل مرة

- إنت تيجي تكلمني أنا؟ روح شوف ابنك الصايع اللي دمر حياتنا كلنا، روح شوفه قاعد وسط المجرمين والحرامية، الفاشل ده اللي ضيع بنتي."

تحدثت هاجر بدموع وهي تتذكر ماضيها وهذا اليوم المؤلم:

- وإنتو؟ إنتو مدمرتوش حياته؟ ما مكنش في الشارع بسببكم؟ مدمرتوش حياتي وحياته؟ إنتو إيه؟ إنتو مش بتحسوا؟"

شعرت بغصة غريبة في حلقها، وقلبها يئن فجأة، لا تعلم لماذا تشعر بالحزن لأجله، من المفترض أن تشعر بهذا تجاه عادل، وليس ابنه، لكن هناك شيء غريب يلاحقها، تشعر بالفرح في فرحه وتحزن لأجله الآن، شعور غريب.

صاحت سوزي بغضب، "إنتِ أكيد اتجننتِ! أكيد دماغك اتدمرت!"

لم ترد عليها هاجر، بل سارعت بالخروج من الغرفة، ومن المنزل بأكمله، وهي تذهب الى منزل حسناء.

في منزل ياسر النجار، وتحديدًا في غرفة سليم، كان سليم يقف أمام الشرفة، مستمتعًا بنسمات الصباح الهادئة، وبصوتها أيضًا. منذ أن تعرف عليها قبل خمسة أشهر، أصبح مأسورًا بصوت ضحكاتها، بتفاصيل كل شيء فيها.

تحدث وهو يسحب المقعد أمامه، وقال بصوت ناعم:

- وبعدين، حسيتي إنك مبسوطة؟"

جاء صوتها على الجانب الآخر، رقيقًا ومليئًا بالدفء:

- آه، أوي بجد. انبسطت جدًا، زي ما بيسط وأنا معاك.

ابتسم بسعادة واستمع لحديثها قبل أن يرد قائلاً:

- أنتِ بتنبسطي معايا بجد؟

أجابته جنى بضحكة صافية:

- آه، بحس بفرحة معاك. أنا أصلاً مليش حد هنا أعرفه غيرك... شكلي هكون معاكم على طول.

تحدث سليم بهدوء، نبرة تخالف طبيعته المليئة بالطاقة:

- وأنا كمان بحس براحة غريبة ليكِ، بحس إني ممكن أفضل أتكلم معاكِ طول اليوم من غير ما أزهق.

أجابته هي بنفس الهدوء:

- أنا مبسوطة إني عرفتك، وعندي إحساس إن صدفتنا دي وراها حاجات كتير."

ابتسم وقال بإيجاز:

- وأنا كمان.

في بعض الأحيان، تأتيك الصدف بأجمل ما يمكن للحياة أن تقدمه، قد تكون صدفة عمل، أو صداقة، أو حب. أشياء تلتقي بها صدفة، تصبح قدرك الذي لا يمكن الاستغناء عنه.

بعد محادثات طويلة، خرج سليم من الغرفة، ونزل إلى الطابق السفلي حيث وجد ياسر، والده، يستعد للذهاب إلى العمل، بينما كانت عشق، والدته، جالسة تتابع هاتفها بتركيز.

اقترب سليم من والده، واستند على كتفه قائلاً:

- بقولك يا بابا، احتمال كبير مش هاجي بليل.

رفع ياسر حاجبيه مستغرباً، وقال وهو يفكر:

- ليه؟ إنت ناوي تهاجر ولا إيه؟

ضحك سليم بصوت عالٍ، وقال بمرح:

- لا يا بابا، هنبات عند محمد علشان نودّع عز.

تحدث ياسر وهو يضع بعض الأوراق في حقيبته بتعجب مستنكراً:

- ليه هو ها يموت ولا إيه؟

ضحك سليم بشدة، وأجابه بين ضحكاته:

- آه، حاجة زي كده، هيتجوز.

ابتسم ياسر بموافقة، وقال بهدوء:

- ماشي، بس خد بالك من نفسك.

اقترب سليم من والدته عشق، وطبع قبلة على رأسها بحنان، قائلاً وهو يتغزل بها:

- هتوحشيني يا أمي.

ابتسمت عشق بحب، وقالت وهي تنظر إليه:

- وأنت كمان هتوحشني يا حبيبي.

نظرت عشق إليه وهو يبتعد، وامتلأ قلبها بالفرحة، تدعو الله في سرها أن يحفظه لها وأن يدوم عليهما الحب والسعادة..

دخل إلى المنزل، وقد بدا وكأنه خارج للتو من معركة قاسية. هيئته المتعبة والخالية من أي ملامح للحياة جعلت أي شخص يراه يجزم بذلك. عيناه كانتا حمراء بشدة رغم أنه لم يبك، والهالات السوداء تحيط بهما، وشفتيه مجروحتان، ووجهه أصفر باهت. شعره كان ملتصقًا بوجهه، ويداه ترتجفان، وقدماه بالكاد تحمله جلس على الأرض، عاجزًا عن الوقوف.

خرجت "سمر "من الغرفة، فوجدته على هذا الحال. اقتربت منه، وأخذته بحضنها وهي تبكي بحزن على حاله. تحدثت بصوت مرتعش وخائف عليه:

- إيه اللي حصل؟ جرالك إيه يا حبيبي؟ كفاية تعب بقى!

أبعد نفسه من حضنها بصعوبة، ونطق بثقل متقطع:

- أنا تائه... تعبان... مش قادر أقاوم... تعبت من كل حاجة... الدنيا كلها ضدي، حتى الحضن ده ضدي، لأني مش ابنك... أنا مش حلالك، مليش أهل، أنا ولا حاجة... أنا مستحقش حبك، مستحقش صحابي، مستحقش أبوي اللي مات وسبني، مستحقش هيثم اللي كان دايمًا بيشدني للطريق الصح... وأنا في كل مرة كنت بوقع. أنا مستحقش أعيش.

كانت كلماته تخرج متزامنة مع احتضان سمر له مرة أخرى، تضمه بقوة وكأنها تحاول إعادة روحه إليه، وقالت ببكاء مليء بالخوف عليه:

- إنت ابني، وأنا أمك، إنت كل حاجة... إنت تستحق أحسن منا كلنا. علشان خاطري، كفاية تعب نفسك.

نظر إليها بحزن، وصوته يتهدج:

- عارفة إنه عرف إني أنا اللي ضربته في الحفلة؟ بيقول إني مش ابنه وإنه بيكرهني!

صرخ بصوت مرتفع:

- طب وأنا أقول إيه؟ أعمل إيه؟ هو يعرف إيه عن الخذلان اللي عشته؟ يعرف إيه عن التعب والخوف اللي تسللوا جوايا؟ عن طفولة ما عشتهاش؟ عن كل مرة كنت بعيط فيها؟ يعرف إيه؟

احتضنته بقوة، تتمنى لو كانت أمه حقًا، لكنها في الحقيقة هي أمه، لأنها من شعرت به وشاركت معه حزنه وفرحه، وهي من تستحق أن تكون أمّه.

خرج من حضنها مسرعًا إلى غرفته، أشعل الموسيقى بصوت مرتفع، يحاول أن يعلو الصوت على الضجيج داخل رأسه، كان يدور حول نفسه وهو يمسك برأسه، يحاول السيطرة على تلك المعركة القائمة داخله، يحاول، لكن دون جدوى، وكأنه كُتب عليه أن يموت ببطء.

كان صوت المغني في الخلفية يعلو بألم، يغني بكلمات تعبّر عن حالته:

"لأقعدن على الطريق وأشتكي، وأقول مظلوم، وانت ظلمتني."

جلس هو الآخر على الطريق، وكأن الطريق نفسه يشكو من جروحه. ولكن من سيسمع شكواه؟ من يعلم أنه المظلوم، وهم الذين ظلموه؟

استمر المغني بنبرة ملؤها الوجع، بصوت يكسر القلوب:

"ولأدعون عليك في غسق الدجى، يبليك ربي مثل ما أبليتني."

جلست بجانبه وهي تحتسي من مشروبهم المفضل "عصير القصب"، تبتسم بحب وهي تنظر إلى عينيه، تلك العينين اللتين تشعر وكأن بإمكانها العيش فيهما لسنوات.

تحدث هو بنبرة حزينة، وكأن هناك همًا يعصر قلبه:

- سمائي، أنتِ عارفة أنا بحبك إزاي، طبعًا.

أجابته بابتسامة مليئة بالسعادة والدفء:

- طبعًا، وإنت تقدر تحب حد غيري؟

أخذ نفسًا عميقًا وأجابها، وصوته مشوب بالحزن:

- "سما"، أنا خايف، خايف مقدرش أسعدك. أنا مش طبيعي، أنت عارفة مشكلتي مع الربو، وعارفة إن لو مقدرتش أتنفس بالبخاخة، ممكن أموت، أنا خايف عليكي.

سقطت دموعها وهي تستمع لحديثه، وبحزن عميق قالت:

- لا يا سيف، إنت جنبي، مش هتسبني أنا بحبك بكل ما فيك. ربنا مش هيبعدك عني، ربنا حنين أوي يا سيف، وإحنا هنكمل مع بعض.

مسح دموعها برفق، وأجاب بصوت متردد لكنه صادق:

- أنا عارف والله، بس لازم تكوني عارفة. عمري ما اعترضت على مرضي ولا على أي حاجة ربنا قدّرها لي، لكن نظرة الشفقة في عيون المدرسين زمان في المدرسة، ومنعي من اللعب مع الولاد، كانت بتكسرني. نظرة خوف أمي عليا ووجودها دائمًا جنبي... مش هنكر إني بحب ده، لكن كنت بحس بخوفها وبتعب. خوف بابا عليا وقلقه على أقل الأسباب... دئماً حاسس إنهم خايفين بسببي، ومش عايزك تحسي زيهم."

أمسكت بيده وهي تبكي، ووجهها مملوء بالتأثر:

- كل ده حاسه لوحدك، كل ده يا سيف؟! إحنا كلنا بنحبك، وكلنا جنبك. سيف، إنت حياتي، وأنا مش هكمل من غيرك، اعتبرني نفسك، اعتبرني هواك."

ابتسم ابتسامة حزينة، ثم أزال خصلة شعرها للخلف بحنان وقال:

- يا أكسجين الروح، يا موهجة عمري، أنا لا أستطيع التنفس ولا التحليق بدونك، سمائي."

وفي بعض الأحيان، يخلق الله من شخص ما الروح التي تواسيك، وتكفيك ليوم يبعثون دفء وهدوء، لا تجد مثلهما في أي مكان آخر.

تختلف الأماكن، تختلف الأزمان، يختلف العمر، يختلف كل شيء.
لكن نظرتك لمن تحب لا تتغير؛ لغة العيون بينك وبينه تبقى
كما هي. عيناه وطن وحياة، وكل شيء ينتهي ليبدأ فيهما.

في منزل أحمد، كان يستند بجوار سيارته معها، يمسك برشاش الماء ويسقي بعض الورود المحيطة بالحديقة الصغيرة.

نظر إليها وهو يبتسم، بعيونٍ مليئة بالأمل والتطلع للمستقبل:

- هانت يا جميلتي." عز" و"زينة" خلاص هيتجوزوا، وبعدها أنا وأنتِ مع "سيف" و"سما".

جلست على مقدمة السيارة، وعيناها تلمعان من الذكريات، قائلة بنبرة متأثرة:

- تعرف، أنا لسه مش مصدقة إن السنين عدت بالسرعة دي. معقول "عز" و"زينة"، أصحابنا الصغيرين، ها يتجوزوا دلوقتي؟ وإحنا كمان؟! إمتى كبرنا، وازاي بعد كل المشاكل دي لسه مع بعض؟

ابتسم وهو يمسك بيدها، وكأن اللمسة تؤكد لها كل شيء:

- عمرنا عدى، ولو بعد عمرنا كله، هنفضل مع بعض إن شاء الله.وإنتِ مراتي يا جميلتي، للأبد.

نظرت إليه بحب ودفء، تتوه في تلك اللحظة الحلوة:

- أنا هفضل أحبك طول عمري، لو ربنا قدرني.

اقترب منها ونظر إليها بنظرة تحمل كل مشاعره الصادقة:

- إن كان لي وطن، فوجهك موطني، وإن كان لي دار، فحبك داري. من ذا الذي يحاسبني عليكِ وأنتِ لي هبة السماء ونعمة الأقدار.

هبطت من على السيارة، تقف أمامه بنظرة مليئة بالإعجاب والدفء:

- إزاي انت لطيف كده يا أحمد؟

ضحك ضحكة خفيفة، ثم أجاب وهو يمزح مشاكسأ لها :

- خلقة ربنا بقى، كل البنات بتقولي كده .

في مكتب أمير بإحدى الشركات، كان قابعًا بين الأوراق، ينظر إلى كل شيء بعملية شديدة، فهو محترف في مجاله. لكن قطع تفكيره في العمل ذكرياته عن يوم زواج أخيه، هذا المشاغب الصغير، بعد يومين فقط. رغم أن فارق العمر بينهما ليس بالكثير، إذ يبلغ ٥ سنوات فقط، إلا أنه شعر وكأن عز ابنه. فقد توفي والدهم عندما كان أمير في الثالثة عشرة من عمره، وكان عز في الثامنة. وقتها، تولى أمير أمر كل شيء من أجله، فأصبح أباه، وأخاه، وصديقه، وكل شيء له.

هل كبر ليصل إلى هذه الدرجة؟ هل أصبح عجوزًا؟ لا يهم. الأهم أن الأيام مضت بسرعة، ولكن الحمد لله أنه معه زوجته، ومن حبها يملأ قلبه. ومعه والدته وإخوته. فسليم هو الآخر أخوه وابنه. حتى لو فقد العالم، فإن روايتهم كفيلة بأن تصنع له عالمًا آخر.

دخلت فاتنة قلبه، نور فؤاده، قائلة بعفويتها المعتادة والمهلكة لقلبه:

- بتفكر في مين غيري يا ميرو؟

أجابها وهو يحاول التمسك بنفسه لكي يكمل عمله دون ان يقصر فيه :

- أستاذة "جيداء"، إحنا في مكان شغل، إيه ميرو دي؟"

عقدت حاجبيها بملل، وقالت:

- طيب يا مستر أمير، جهزت الورق اللي هقدمه لمستر ياسر؟

تبدلت ملامحه وهو يتجه نحوها، قائلاً بعشق:

- وحشتيني، كنت بفكر فينا.

سألته بتفكير وهي تقترب منه :

- فينا اللي هو مين؟

أجابها بحديث آخر وهو يفكر فيما يمر حوله :

ـ عز ها يتجوز، هو أنا كبرت يا جيداء؟

صدرت منها ضحكة عفوية:

- كبرت! مالك يا أمير، إنت هتقلّبها دراما ليه؟

تناسى حديثه عندما استمع لضحكاتها، وقال:

- أنتِ إزاي جميلة كده؟

أجابته بمشاغبة:

"معرفش والله، أنا كده جميلة."

أخذت الأوراق وهي تخرج من الغرفة، تاركةً إياه ينظر في أثرها بحب.

بعض الأحلام تكون مخيفة، نسميها كوابيس، وبعضها وردية ولطيفة، لكن أحلامه تختلف. تلك الكوابيس التي لا تتركه منذ

أن كان طفلا، هو مازال هناك، ما زال واقعا في هذا اليوم. تلك الليلة التي لم ينساها، تلك الليلة التي كبر فيها فوق عمره عمرا، ونضج بها من شدة الأذى.

ما زال المشهد يتكرر أمامه، نظر إليه بنظرة خوف وبدأ يتراجع إلى الخلف، لكن بلا فائدة. كأنه بين دائرة مغلقة، دائرة مظلمة، دائرة متوحشة مليئة بالخوف والوحوش. كأنه مجبر على العيش في دائرة الخطأ. كيف له أن يحارب وهو خائف من الخوف، الذي يخيفه في أبسط تفاصيل يومه؟ شعور لا يفهمه أحد إلا من مر بتجربته المؤلمة. تفاصيل حياته تتسرب إليها هذا الشعور، يجبره على الانسحاب، يجبره على الانعزال، يجبره على أن يجلس وحده مع أفكاره المخيفة، يدمر يومه، وفي يوم ما سيدمر حياته.

استفاق من كابوسه المزعج مرتجفًا، فوجدهم جميعًا بجانبه.

أمسك أحمد بيده، وهو يتحدث بهدوء قائلًا:

- أنت كويس؟ أنت بخير؟ متخفش، إحنا هنا.

لم يستطع كبح رغبته في عناق صديقه، ضمّه إليه وهو يبكي على حال صديقه. بالأمس كان سعيدًا ويضحك معهم، والآن محطم بسبب بعض الذكريات. آه لو يعلمون كيف تدمر تلك الكلمات، آه لو يعلموا ماذا يفعلون بقلوبنا، ببعض الكلمات التي لا قيمة لها، لكنها تأكل من روحك وحياتك، كلمات مهلكة.

تحدث محمد وهو يبعده عنه:

- أنا تمام، متقلقوش، بس إحنا كده بنتكشف وموت تسنيم وابنها زي ما كان بسبب جوزها ها يفضل في رقبتنا ولازم ناخد حقهم.

أجابه إسلام بالموافقة قائلًا:

- أنا عندي اقتراح يبعد عنا الشبهات ويشيل كل الأذى عنّا.

انتبه له الجميع منتظرين حديثه، وتحدث قائلًا:

- بعد فرح زينا وعز، نروح الشركة وناخد الـ The original of all documents من الكمبيوتر، وبكده محدش ها يفكر فينا أصلاً.

أومأ له محمد بالموافقة قائلًا:

- عظيم، هو ده اللي ها يتنفذ، بس عز ميعرفش علشان ميفكرش فينا ويقرر يرفض.

وافقوه الرأي، وهو أومأ لهم بالموافقة.

خرج من الغرفة، فحص هاتفه ليطمئن عليها. اتصل بها، لكن لا رد، بدا القلق يتسلل إلى أعماقه. لكن ما هدأه هو صدى صوت حسناء من الجانب الآخر، قائلة:

- ألو، يا محمد، انت كويس؟

أجابها بهدوء:

- أه، الحمد لله. هاجر كويسة؟

أجابته بهدوء:

- أه، هي بس أغمي عليها إمبارح وجات عندي.

لم يطيل في حديثه، قائلًا:

- ابعتيلي العنوان، أنا جاي.

رغم أن المسافة لم تكن بعيدة، لكن في كل لحظة تمر كانت تمر عليه كالسنة، إلى أن وصل لمنزل حسناء.

ألقى السلام عليها، ووجد هاجر تقترب منه، تمسكت بملابسه وهي تبكي:

- أنا آسفة، حقك عليا. أنا محدش فيهم هيحس بيك زيي. أنا فاهمك، لو كلهم والعالم كله رفضك، أنا متأكدة أنك غيرهم.

تحدث وهو يمسح دموعها:

- أنا مش زعلان، مكنتش متوقع أقل من كده، عادي يعني. المهم تجهزي بكرة عندنا فرح.

وأشار لحسناء قائلًا بهدوء:

- وأنتِ كمان ها.

سألته هاجر وهي تبتعد عنه:

- انت مش زعلان؟

كلمة واحدة قتل بها كل ما في قلبه:

- لا، مش ها زعل وانتِ جمبي .

قلبه كذبه في تلك اللحظة، أخذ يقطع به، ينهره على هذا الكتمان. المخيف في الأمر أن كل شيء له صوت انكسار. عادةً القلوب لا تسمع لها صوت، لكنها تتحطم بالداخل.

تحدثت حسناء بهدوء:

- أنا وأنتم أصحاب، أي نعم في فارق سن، بس أنا طول عمري كنت بتمنى يكون عندي شلة زيكم كده. ها تقبلوني معاكم؟

أجابها محمد بإبتسامة وهو يغمز له بطرف عينيه مستهزأً:

- تنوري، يا مرات بابي .

ابتسمت هاجر وهي تتحدث تنظر لهيئتها التي باتت مرهقة :

- أظن شكلي وحش أوي صح؟؟، وشي مرهق و تعبان .

أجابها بحب وهو يتفقد ملامحها بنظرة هادئة :

- أنت جميلة بملامحك التعبانه، جميلة حتى بهالاتك السوداء جميلة، أنتِ جميلة بعيوبك قبل عيونك.

نظرت له بحب، لا تعرف كيف لديه القدرة على سحرها. كيف هو لطيف هكذا، ولماذا تقع كل مرة في عينيه، مع أنها ليست مرتها الأولى. أهذا هو الحب حقًا؟ هذا ما يصفونه؟ من الممكن ذلك.

ابتسمت حسناء بغباء وهي تضرب على كتف محمد:

- طيب اعملولي اعتبار، حتى بتثبتها قدامي كده.

ضحكوا في لحظة واحدة، لحظة يمكنها أن تزيح عن قلبك وجعًا كان سيقتلك به لو لم تصدر تلك الضحكة.

جاء الليل سريعاً و أكمل ما لم يستطع النهار اكماله اجتمع به العتاب و الخذلان والخوف من الدرب المجهول الخوف من الليل .

في منزل عادل، كان يجلس أمامه ياسر، الذي يستمع لحديثه بانتباه. كان حديث ياسر يتسم بالعتاب:

- ملكش حق في أي كلمة قولتها بصراحة، أنت متعرفش الحقيقة كاملة.

أجاب عادل بغضب، مشيرا بإصبعه نحو ياسر:

- حقيقة إيه وزفت إيه! أنا سمعته هو اللي ضربني في الحفلة. يعني هو اللي حرق المخزن يومها ده مجرم!

لكن ياسر رد عليه بهدوء، وكأن الجمرات تتقد في قلبه:

- لا، حتى ولو ما سمعتش كلام هاجر عن اللي حصل، عادل، أنا مش مرتاح لاختك ولا لجوزها ولا لأخوه، ولا لانس الزفت ده.

ضحك عادل بسخرية، وهو يضيف:

- وضيف ليهم محمد.

أخذ ياسر حقيبته، وقد بدأ شعوره بالإحباط يتصاعد، فقال:

- أنا هامشي بدل ما اتشل من برودك.

خرج ياسر من المنزل في تلك اللحظة، متزامنًا مع دخول حسناء، التي ألقت السلام ورحلت سريعًا.

تحدثت حسناء بغضب، عازمة على تغيير الوضع:

- انت مش ها تبطل السلبيّة والظلم اللي فيك ده.

فرد عادل بنفس اللهجة الغاضبة وهو ينهض من مكانه :

- انت شايفه إنّي أنا اللي غلطان؟

إجابتها كانت قاطعة وهي تلحقه في خطواته وهو يبتعد عنها يخفي وجهه :

- آه، طبعًا، انت اللي غلطان ده ابنك! انت حتى ماسمعتش من هاجر، مشوفتش هم عملوا إيه؟ كنت تسأل، حتى لو في حاجة كبيرة، أنت متأكد إنها حاجات أنت مش عارفها.

أجابها بعصبية، وقد ارتفعت نبرة صوته وهو يشعر بحقيقته تنكشف وجرح كرامته يعود :

- و مش عاوز أعرفها! مش عاوز أعرف حاجة!

تشنجت ملامحها بستنكار وهي تذكره بكونه إبنه:

- ليه؟ هو مش ده ابنك؟ مش لازم تعرف إيه اللي جرى؟

اجابها بغضب شديد وصوت مرتفع وهو يكشف عن جرحه الذي دفنه بداخله طوال تلك السنوات :

-آه. يا حسناء، مش ابني! محمد ميبقاش ابني. ارتحتي خلاص؟

صدمتها كلماته، ولم تعرف كيف تعبر عن مشاعرها في تلك اللحظة. بينما هو أكمل حديثه بشكل أسرع وهو يشعر بكرامته تقع ارضاً وأن زوجته السابقة خانته وطعنت شرفه:

- أنا وعلياء مينفعش نخلف طفل سليم، لأنه قريب مات منّا طفلين بسبب عيوب خلقية. ده اتولد سليم، مفيش فيه أي حاجة، وأنا وهي ماينفعش نخلف طفل سليم، يبقى مش ابني.

ابتلع عادل كلماته، لكن ما زالت تتردد في ذهنه كالرنين، وكأنها توحي ببداية كارثة جديدة.

دعني أخبرك، يا عزيزي، أننا على وشك البداية. على وشك دخول دائرة الخطأ."

البارت العاشر

"حفل زفاف"

أبشع جريمة يمكن أن يقدمها الإنسان لنفسه هي الكتمان. كتمان مشاعرك، إحساسك، بكاؤك، سعادتك، أي شيء تكتمه بداخلك. تلك المشاعر والمواقف التي تبقيها مكبوتة في داخلك هي مواقف لا يعلم أحد عنها شيئا، وربما أنت نفسك لم تعد تتذكرها، ولكن آثارها تظل ساكنة في داخلك، متشبثة بك حتى النهاية، تقتل كل شيء جميل فيك.

ستجد آثارها في نومك المتقطع، في أنفاسك الضيقة، في غضبك. ستجدها في تلك الدوائر السوداء تحت عينيك، وفي جسدك الذي لم يعد يحتملك، وفي عينيك اللتين تصرخان من الألم المكتوم. كل شيء فيك منهك، نعم، لقد جنيت على نفسك عندما اخترت الكتمان.

أخرج كل ما في داخلك، الطفل الصغير الذي لا يزال يقبع في أعماقك، المواقف الصعبة، البكاء... أخرج كل شيء لتستطيع أن تكون بخير. أخرج نفسك من هنا.

لم أعد أتحمل المزيد. أريد الهروب من كل شيء حولي. أشعر بثقل العالم على صدري، حتى أنفاسي تخرج بصعوبة وكأن صخرة ضخمة وضعت على صدري. لا أستطيع القيام بأي شيء، أفكاري تطاردني، رأسي يؤلمني، وفشلت كل محاولاتي للهروب من حقيقة أنني فقدت نفسي.

لن تنجو سالما...

من الصعب أن تتظاهر بالقوة والسعادة أمام الجميع، وعندما تنظر إلى المرآة، لا تستطيع الصمود.

هذا كان حاله الآن، جالسًا أمام المرآة يتفقد ملامحه، لا يستطيع التعرف على نفسه. من هو؟ كيف كذب تلك الكذبة وصدقها إلى هذا الحد؟ هل هو "محمد عادل يزيد الجبالي" أم هو "محمد نوح الرشيدي"؟ من هو؟ أهو محمد الطفل الصغير الهارب، أم الشاب المخادع الذي يكرهه الكثيرون؟ وهو أيضًا يكره نفسه. يسأل دائمًا: لماذا هو بالذات الذي حدث له كل هذا؟

أخرج دفتره الصغير ودوّن تلك الكلمات: "لو أتتك الفرصة للهرب، فاهرب. اهرب من أي شيء، من ماضيك، مستقبلك، حاضرك، حتى أيامك. اهرب من البشر. لو استطعت الهروب من نفسك، اهرب."

أغلق الدفتر وألقى بجسده إلى الخلف، مستنشقًا دخان سيجارته، يسحبه إلى أعماق رئتيه ثم يخرجه مرة أخرى.

أفاق من شروده على دخول "سليم" المفاجئ.

في الخارج، كان "سليم" يتابع ما يدور حوله. "زينة" والفتيات كن يستعدن للذهاب إلى الفندق الذي سيقام فيه حفل الزفاف، ومعهن بعض الحقائب.

أما "جنى" فكانت تحاول الاتصال بـ"هاجر"، لكن لم تكن هناك أي استجابة. وقف "سليم" بجانبها وتحدث بثقة وهو ينظر إليها قائلاً:

- أنا هعرف أجيبها.

أجابته بقلق وهي تشعر بالتوتر:

- إزاي؟ هي قالت مش هتحضر.

تركها ورحل إلى غرفة "محمد". كان يمشي بحذر، على أطراف أصابعه، كي لا يُصدر صوتًا.

داخل الغرفة، شاهد "محمد" الواقف في منتصفها، فقرر هو أيضًا أن يفزعه.

فتح الباب ببطء كي لا يصدر صوتًا، وهو يمسك بأحد الألعاب النارية المسماة "صاروخ"، في محاولة منه لإخراجه من حالته الحزينة بشكل مضحك.

لكن "محمد" فاجأه بإمساكه ورميه خارج الغرفة بعدما اكتشف فعلته. صاح بصوت مرتفع وهو يخرج معه تاركًا اللعبة النارية خلفه:

- اجري يا "سليم"!

ارتطم جسد "سليم" بالأرض الصلبة، مما جعله يتألم بشدة، ويشعر بالغضب من صديقه ومن فعلته تلك، فوجه له سؤالاً آخر:

- هي "هاجر" مش هتحضر الفرح؟

أجابه "محمد" وهو يتركه ويرحل، متحدثًا بتفكير عميق، لا يعلم الجواب الصحيح ولا يعلم إن كانت ستأتي أم لا، لكنه أجاب بحماس يخفي خوفه:

ـ هتحضر، أنا هكلمها.

جاء صوت "زينة" وهي تخرج من الغرفة، معها حقائب الملابس، وصديقاتها "سما" و"جميلة" بجانبها يحملن الحقائب. تحدثت بعتاب وهي تشعر بالحزن، وقد خيم الإحباط على وجهها:

- إزاي مش هتيجي يا "هاجر"؟ هتسيبيني في يوم زي ده؟ لو محضرتيش مش هلبس الفستان اللي انتي عملتيه.

جاء صوت "هاجر" من الجهة الأخرى وهي تشعر بالخوف والحزن يغمر نبرة صوتها الهادئة:

ـ لو قدرت أكون موجودة، هاجي.

تَبَسّت "جميلة" وهي تحاول استعطاف "هاجر"، وبشكل خفي تخبرها أن وجودها يمثل سعادتهم:

ـ هتقدري يا "هاجر" علشان إحنا مش هنكون مبسوطين غير بيكي.

أغلقت "هاجر" المكالمة وهي تخبرهم أنها ستأتي لو سمحت الظروف بذلك، لكنها كانت تشعر بأن كل شيء حولها غير ثابت، ينهار ببطء.

في تلك الأثناء، كان "محمد" يستمع إلى صوتها، ويشعر وكأن الحياة تعود إليه تدريجيًا. شعر بأنه يجب عليه أن يكمل الرحلة من أجلها، من أجل حبها، ولأجل عينيها.

أفاق من شروده على صوت "زينة"، التي كانت تُنَبّهِهم ألا يتأخروا على موعدهم:

- محدش يتأخر، وخصوصًا "عز"، أوعي يتأخر.

سخر منها "محمد" وهو يبتسم ببرود، قائلاً بسخرية:

- في حد يتأخر على فرحه برضو؟

ابتسمت وهي تتركه وتقول بضحكة سعيدة:

- ده "عز" يعملها عادي جدًا.

تركتهم وهي تذهب مع صديقاتها إلى السيارة التي جهزها لهم "أمير" لتأخذهم إلى الفندق الذي سيقام فيه الزفاف.

ما زالت تقف تحت تأثير الصدمة بعدما استمعت إلى حديثه. قررت أن ترحل، ولكن عادت مرة أخرى تفكر معه في حل لهذا المأزق الذي وضعت فيه.

كانت تقف مقابلة له، تنظر إلى الفراغ حولها وهي تتساءل: كيف ليس ابنها؟ هل يكذب ليتهرب من مسؤولية الأبوة؟ لا، ليس هو من يجرح كرامته أو شرفه لأي سبب مهما كان. لقد أخبرهم الطبيب من قبل أن صلة القرابة بينه وبين "علياء" تشكل خطرًا على الأطفال. لو تزوج هو من أخرى، سينجب طفلًا معاق، ولو تزوجت هي من غيره، سيحدث نفس الشيء. ولكن يبقى اللغز غامضًا: لماذا احتفظ به حتى الآن؟ ولماذا يشبهه بهذه الطريقة، بلون عينيه الرمادي غير المعتاد؟ حتى تصرفاتهما متشابهة. هل يمكن أن يكون احتفظ به فقط من أجل كرامته؟

جاء شيء فجأة إلى عقلها، وهي تنظر له بتساؤل:

- وليه ميكونش مش ابنها هي؟

نظر لها باستنكار وهو يعقد حاجبيه، متعجبًا:

- أومال ابن مين يعني؟

لم تجد إجابة لحديثه، وأصبح كل شيء معقدًا أمامها. لكنها تساءلت مرة أخرى، وهي تحدق به:

- معرفش، بس ليه معملتش تحليل نسب لحد النهاردة؟

تبس بجحود وأنانية طاغية، يحاول الحفاظ على ما تبقى من كرامته:

- مش فارقة معايا، وبعدين كنت هقول للناس إيه، مراتي غفلتني ولبست عيل مش ابني؟

جحظت عينيها بصدمة، وهي تنظر له بتعجب. هل تملكت منه الأنانية لهذا الحد، الذي يجعله يحرم ابنًا من أبيه الحقيقة وأبًا من ابنه، فقط ليحافظ على مظهره أمام الناس؟

نظرت له بغضب، وهي تقترب منه قائلة بقسوة تقصد بها أن تجرحه:

- أنت متستحقش يكون ابنك أصلاً يا "عادل". فين أيام كدبك؟ مش كان نفسك تخلف دلوقتي؟ بسهولة كده، مش همك تعرف ده ابنك أو لا؟

كادت أن تذهب وتتركه، لكنه تمسك بمعصمها وهو يجيبها بألم قبل أن ترحل:

- كنت عاوز أخلف منك إنت، كنت عاوزة يكون ابنك.

نظرت له بحزن، وهي تتذكر طفلهم الصغير الذي مات لحظة ولادته. كيف عانت وتعبت في فترة حمله ولم تستطع حتى احتضانه. انهمرت دموعها، وهي لا تستطيع السيطرة على مشاعرها المضطربة، شعرت بالقهر وهي تتركه وترحل.

أسرع يقف أمامها، وهو يمسك يدها يمنعها من الرحيل قائلاً بتساؤل، وهو ينظر لها:

- كنت عاوزه يكون ابنك إنت صح؟

شعرت بالقهر وهي تستمع لحديثه، وتحدثت بقسوة وهي تأخذ يدها من يده:

- آه، كنت أتمنا علشان إنت متستهلش وعرضك مرفوض. أنا مستحيل أرجع لك تاني.

كانت تقصد كل جملة تفوهت بها، تسعى إلى إحراق قلبه وجعله يشعر بالهزيمة. رغم أن الأحمق القابع في منتصف صدرها، بين قفصها الصدري، يجعلها تحن له.

بينما هو نطق بتحد، وهي ترحل قائلاً:

- أنا خسرتك مرة، والخسارة التانية هتكون بموتي.

لكن عقلها حدثها، وهي ترحل من مكانها، حديث داخلي لم يستطع سماعه، لكن يمكنك قراءته على ملامحها: "أما الآن؟ لن ألتفت إليك مجدداً ولو لمرة واحدة! لن أعود إليك ولو بكت السماء دماء، لن أعطيك كل تلك المشاعر التي حطمتها، لن أعطيك تلك الفرص التي قتلتها. لن أحارب لأجلك، لن أراقبك مرة أخرى، لن أوصيك، لن أنظر إلى عينيك. تركتني وأنا في شدة الاحتياج إليك. إذا لم تجدني وأنت في شدة احتياجك، أخذتني إلى ذلك العالم الذي كنت أحدثك عنه يوماً ما، وكأنك تتلاعب بمشاعري، وكنت تنتظر أن أدخل إلى ذلك العالم المخيف، العالم الذي كنت أتحصن بك منه. تركتني فيه وحدي، والآن بعد أن خرجت تريد أن تقنعني به مرة أخرى؟ كنت

أريد أن أهديك الأمان الذي لم تشعر به يومًا. لماذا هديتني أنت الرهب والحزن؟ أتعلم، استحق ذلك لأني وثقت بك."

خرجت بخطوات واسعة تضرب الأرض من تحتها، بينما استمعت لحديثه وهو يقف خلفها.

رحلت من أمامه بخطوات ثابتة. نظر في أسرها بحب، سحب أنفاسه بهدوء وهو ينظر للفراغ، يحدث نفسه: كيف استطاعت أن تجعلني أحبها بهذه الطريقة؟ لا، هي لم تستطع، هو من وقع بها، فهي وبدون دراية منها أوقعته في عشقها بتلك العيون وطريقتها الخاطفة وأحاديثها اللطيفة. كل شيء من تفاصيلها يجعله مغرمًا بها، غير قادر على أن يحب أي امرأة أخرى. وحتى وإن لم تكن من نصيبه هذه المرة، سيعاقب نفسه بأن يكون بجانبها وهو بمفرده.

جلست بجانب النافذة تطالع السماء بحزن، رغم مرور السنوات ورغم أن ما حدث لم يكن حديثًا، إلا أن تلك التفاصيل من تلك الليلة لم تبرح ذاكرتها. صرخاتها، استنجادها، وتوسلها لهم كي يتركوها وشأنها، كل شيء يرفض أن يغيب عنها، يقتلها في كل لحظة مائة مرة. كأنما يخبرها أن هذا لن يختفي أبدًا، وأنها ستظل تبغضهم جميعًا، وستظل مشاعرها نحوه غامضة، لا تدري أهو يحبها أم هي من تحبه أم أنهما كلاهما يجهلان معنى الحب، وتلك مشاعر عادية لا أكثر.

أفاقت من شرودها على صوت رنين هاتفها، اتصال من ذلك الصغير المحبب لقلبها، ابن شقيقها "يزن". رغم صغر سنه، إلا أنه شغل مساحة الأخ والابن معًا في قلبها.

أجابت بابتسامة على شفتيها، تكبح دموعها وهي تقول:

- وحشتني أوي يا "يزن".

بينما كان يقف "محمد" خلف "يزن"، سحب منه الهاتف بمرح، وقال لها بمشاكسة:

- يعني "يزن" بس اللي بيوحشك؟ ما ينفعش أنا خالص؟

ابتسمت ابتسامة تلقائية، وشعرت بأن القلق الذي كان يسكنها بدأ يتلاشى ببطء، ليحل مكانه الأمان والسعادة. استفسرت منه وهي تبتسم، قائلة:

- أنت مش هتبطل حركات الأطفال دي؟ هو "يزن" معاك إزاي؟

أجابها "محمد" بهدوء، وهو يشرح ما قام به، وفي طيات حديثه كان واضحًا أن ما فعله كان من أجلها، ولإسعاد الصغير أيضًا:

- ولا حاجة، روحت المدرسة واستأذنت من "رحاب" علشان أخده، أصل النهارده يوم الرؤية بتاعتها. وجيت أنا وهو الفندق علشان نجهز.

شعرت بالسعادة لأنه يفكر بها وبإسعادهم. وبرغم أنها تعلم جيدًا أن فعلته لن تمر بسلام إن علمت والدته. قررت أن تذهب إليهم، لا من أجلهم فقط. بل من أجل سعادتها هي أيضًا، رغم جهلها بمشاعرها.

- أنا كمان هكون جاهزة مع "حسناء" علشان نلحق تحضر.

ابتسم "محمد" مع انتهاء حديثها، بينما كان يفتح باب الغرفة، ليدخل منها "أمير" و"عز" و"إسلام". دخلوا بفرح، والابتسامات تزين وجوههم، لكن سرعان ما امحت الابتسامات عند سماع صوت "سليم" من الداخل، قائلاً بصوت ممتعض:

- هو مفيش أكل في الليلة دي؟!

وبمجرد انتهاء كلامه، التصقت بإحدى وسادات الغرفة التي ألقاها عليه "أحمد"، وهو يزمجر بغضب:

- ارحم أمي العيانة! إنت مش بتبطل أكل ولا إيه؟!

أجابه "سليم" باستفزاز، وهو يمشط شعره بيديه:

- لا وملكش دعوة، مش باكل من تلاجة بيتكم.

نظر إليهم "أمير" نظرة تحمل معنى "اتهيتما؟"، فبادله "عز" النظرات، بينما كان يتابعهم بفرح وسعادة طغت على ملامحه بطريقة لطيفة:

- أنا مبسوط أوي إنكم معايا.

اقترب الجميع منه بنظرات مليئة بالفخر والسعادة من أجله، شعورهم كان مزيجًا من الحب، الامتنان، والفخر. لكن ما طغى على تلك المشاعر هو الشكر لله، لأنه أدام صداقتهم وقرب قلوبهم لهذا الحد.

وقف أمام المرآة يتفقد إطلالته النهائية بعناية، حيث ارتدى قميصًا أسود كلاسيكيًا ومعه حلة سوداء أنيقة، بينما اختار بنطالاً أبيض ليمنحه تباينًا جذابًا. أنهى مظهره بوضع ساعة عصرية تتناسب مع أسلوبه الأنيق. بجانبه، كانت عشق تستعد في صمت، ترتدي فستانًا طويلًا بلون الأحمر القاني، يتلألأ مع قلادة من الألماس تُضفي بريقًا خاصًا، وساعة فضية وحذاء بكعب عالٍ باللون الأسود، أضافت جميعها لمسة من السحر والأنوثة على حضورها.

اقترب منها بعد أن انتهى من تجهيز نفسه، وغمز بعينه قائلاً بمشاكسة بينما يشير نحو الفرح:

- سيبك من الفرح، كده كده إنتِ أحلى من العروسة، خلينا نقعد هنا أحسن.

ابتسمت عشق ابتسامة طفيفة وهي تبعد يده بلطف، ثم نظرت إليه بحزم قائلة:

- بطل حركاتك دي، يلا علشان نلحق الفرح.

وضع يدها في يده بحنان، وأخذ حقيبتها قبل أن يخرجا معًا من المنزل، متجهين نحو الفندق الذي سيقام فيه حفل الزفاف، حيث كان الجو يحمل نسمات ليلة واعدة بالأضواء والموسيقى والأحاديث الدافئة.

نظرت المجموعة إليه بعيون مندهشة، لم يتوقعوا هذا التحول في شكله. كان وسيمًا إلى حد لم يعتادوا عليه، فهم لم يروا من قبل سوى الصديق الفوضوي، المشاكس، الذي يملأ المكان بحركاته الغير متوقعة ومواقفه المضحكة. لكن الآن، وقف أمامهم بهيبة تامة، يرتدي حلة سوداء رسمية، تحتها قميص أبيض نظيف، مع بنطال أسود متناسق، مظهره يوحي بجدية لم يعتادوا عليها.

كان من الصعب على أي منهم تخيل أن يرونه بهذا الشكل، كأنه يستعد لفتح صفحة جديدة من حياته، مليئة بالمسؤوليات، والتحديات، وأيضًا بالكثير من الحب والأمل في النجاح، إن أذن الله لهم بذلك.

احتضنه أمير بفرحة غامرة، يربت على ظهره بحب، ليعبر عن سعادته الكبيرة لأجله. ولم يلبث سليم أن دخل بينهما مازحًا ليشاركهم تلك اللحظة الدافئة بحضن جماعي ضاحك.

قطع محمد هذا الجو بروح من الجدية غير المألوفة لديه وهو يقول:

- أنا فخور بيك جدًا، وفخور بـ 'زينة' زيك تمامًا. أنت أخويا وصاحبي، بس لو حصلت أي مشكلة - لا قدر الله - أنا اللي هقف جنبك، وخد بالك منها.

ابتسم عز، وبدت عينه ممتلئة بالفخر بوجودهم جميعًا في حياته، وضع يده على كتف محمد قائلاً بثقة:

- وأنا عمري ما هخذلها فيا أبدًا.

وفجأة، ارتفع صوت الموسيقى التي أشعلها أحمد، وانطلقت الألحان تضج بالفرح والبهجة، واندمجوا في الرقص بسعادة غامرة، حتى لحظة خروجهم من الغرفة، متوجهين إلى بداية جديدة، حيث ينتظرهم الحفل والاحتفال بتلك البداية التي سيحفرونها في ذاكرة كل منهم.

في الغرفة الثانية، كان الجميع قد أنهى استعداداته، وكل الأنظار كانت متجهة نحو زينة، تحمل في أعينهم بريق الفرح والفخر. هرعت هاجر نحوها لتضع اللمسات الأخيرة على الفستان، فقد كان الفستان مصممًا خصيصًا "لزينة"، من صنع يدي "هاجر" كان فستانًا أبيض بسيطًا، مزينًا بقطع من الورود الصغيرة بتوزيع هادئ، وتوج رأسها بطرحة خفيفة تحمل نفس الزهور المرسومة. جمالها كان طاغيًا، ومكياجها البسيط أضاف لمسة من الرقة جعلت مظهرها طبيعيًا وجذابًا دون تكلف.

أطلقت "سمر "زغرودة مدوية، وتبعها الفتيات بالصياح والتصفيق والتهاني المليئة بالحماس. احتضنتهم زينة بحب قائلة:

ـ أنا مبسوطة أوي بيكم، ربنا يديمكم ليا."

تحدثت هاجر بفرح وهي تضمها:

- وأنا كمان فرحانة بيكي جدًا، مبارك يا روحي.

في تلك اللحظة، دخل الشباب الغرفة بفرح، ليصدح صوت بكاء سمر فجأة وهي تحتضن محمد قائلة بدموع:

- كده هتتجوزوا وتسيبوني؟ يعني ينفع؟! خلاص، أنا مش زعلانة، ربنا يوفقكم.

اقتربت منها زينة وهي تدمع وضمتها قائلة:

- لا، أنا مش هسيبك أصلاً، الغوا الجوازة دي بقى.

تدخل عز بهدوء محاولاً تهدئتها قائلاً:

- هو إحنا هنروح فين؟ إحنا هنبقى معاكي برضو زي العادي، وإحنا لنا خرابة نتجمع فيها إلا عندك.

تغيرت ملامح وجه سمر وكأنها تستنكر كلامه، لكنها ضحكت أخيرًا وهي تحتضنهم جميعًا:

- مع إن كلامك سم، بس ربنا يسعدكم يا حبايبي ويديمكم لبعض.

ارتفع صوت الزغاريد من حولهم، والابتسامات تملأ الوجوه والسعادة تتدفق من قلوبهم.

بعد قليل، وقف الجميع يستمع لحديث المأذون الذي كان يُنهي آخر كلماته، بينما وضع المنديل على يد أمير وعز، إذ كان أمير وكيلاً لزينة. صدح صوت المأذون قائلاً: "بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير، إن شاء الله."

انطلقت الزغاريد مرة أخرى، والجميع يلتقط صورًا لتوثيق هذه اللحظة اللطيفة، مهنئين صديقهم وأختهم بفرحة كبيرة، شاكرين الله على جمعهم في كل تلك الأوقات الجميلة.

بدأ الجميع في الرقص على وقع الموسيقى التي ملأت المكان فرحًا، وكان من بينهم ذلك الشاب الذي وقف يراقب كل تفاصيلها بعينيه. كانت زينة بين الفتيات، ترتدي فستانًا يشبه فساتين سما وجنى وميرنا، لكن في نظره لم يكن أحد منهن يضاهيها.

اقترب منها مبتسمًا، وكان في عينيه ما يعكس كل مشاعره تجاهها كان يختلف عن الآخرين بمظهره، فلم يرتد بدلة رسمية كبقية الحضور، بل ارتدى قميصًا أسود يصل إلى منتصف ذراعيه، مع بنطال وحذاء بنفس اللون، وشعره الفوضوي أضاف لمسة من الجاذبية إلى مظهره.

تحدث "محمد" بغزل ممزوج بالحب قائلاً:

- جيت لك هارب من أذى الدنيا، فهل تقبلي تكوني دنيتي وكل ما فيها؟

نظرت"هاجر" إليه متفاجئة، لم تفهم قصده من كلماته، وظهر على وجهها الاستغراب لكن سرعان ما اختفت دهشتها عندما أخرج علبة صغيرة من جيبه، علبة حمراء مخملية، مزينة باسمها.

أمسك بيدها، وأخرج الخاتم من العلبة. ثم جذبها بلطف إلى منصة الرقص، ووقف أمامها قائلاً ماهو مدون على العلبة من صنع الصائغ :

- تسمحي لي أقول أحبك؟ وأشتت الكلمات عشان أجمعك، وأقول فيك رقيق أبيات الغزل، عشان أرضيك بقصائد ما سمعتها.

صفق الجميع حوله بفرح وسعادة، بينما كانت "هاجر" تشعر بالتشوش، لا تعرف ماذا حدث: امتزج الفرح بالدهشة وعدم التصديق، وكل شيء بدا غير واضح بالنسبة لها.

أخذها بعيدًا عن الحشد، ممسكًا بيدها ليهدئ من توترها، ثم قال بلطف:

- عملت كده عشان مش هنفضل واقفين مكانا، لازم ناخد خطوة. وبعدين أنا عارف إن ده الصح...

قبل أن يُكمل حديثه، اقترب منهم "أمير" وبدت عليه ملامح الغضب، قائلاً بصوت غاضب:

- إنت إيه اللي عملته ده يا بني آدم؟ إنت مجنون؟

أجابه محمد باستفزاز واضح:

- عملت إيه؟ خطبتها، أظن دي مناسبة سعيدة جدًا، ولا إيه؟

وجّه "أمير" كلامه هذه المرة إلى "هاجر"بهدوء يتاكد انه لن يحدث اي مشكلة بسببها :

- إنت موافقة على ده؟

تنهدت بعمق، لم تكن متأكدة إن كان هذا هو القرار الصائب، لكنها قررت التجربة هذه المرة:

- آه، موافقة.

اكتفى "امير" بربت على يدها قائلاً:

- خلاص، يبقى أنا هحاول أقنع باباكي ومامتك، مع "محمد" يمكن متحصلش مشكلة .

تحدثت هي بثبات واضح في نبرتها:

- ولا مقتنعوش، أنا لازم أخد الخطوة دي حتى لو موافقوش.

رحل محمد بخطوات ثابتة بعد أن ألقى نظراته عليهما، لم يكن يعلم إن كان يجب عليه أن يساعدهم في هذا القرار أم لا، خصوصاً ان خوفه على "محمد" جعله يخشي عليه من أفعاله .

تحدثت "زينة" بهدوء بينما كانا يرقصان على أنغام الموسيقى وهي تضع رأسها فوق كتف زوجها التي لم تكن تستوعب أنه اصبح زوجها من الاساس:

- أنا متوترة، حاسة إن الناس كلها بتبص علينا، ينفع نمشي؟

أجابها"عز" بنفس هدوئها وهو ينظر بداخل عينيها يشعر بانه لا يستوعب ما يحدث حوله:

- فعلاً، كل الناس بيبصوا علينا، لو عاوزة نمشي، ممكن نمشي، عادي، على الأقل نستريح قبل السفر.

تحدثت بسعادة وهي تُهندم فستانها الأبيض:

- خلاص، يلا بينا، أنا فعلاً زهقت.

في الخارج، خلعت حذاءها ذو الكعب العالي، وجلست على الأرض بطريقة مريحة، وهي تمسك بطبق الطعام بيدها، تحاول أن تستمتع بلحظة من الهدوء بعد تلك الأجواء الصاخبة.

تحدثت بصعوبة بسبب الطعام في فمها:

- " سليم" أنت زعلان؟

حرك رأسها بمعنى النفي، وتحدث قائلاً:

- لا، مش زعلان، بس أنا لم أكون عاوز أقول حاجة، ومش بعرف، بفضل عامل كده.

أجابته "چنى" وهي تلتفت إليه وتترك الطبق من يدها:

- مالك يا سليم؟ اتكلم، أنا بسمع كويس، خد بالك.

أجابها سليم بهدوء وهو ينظر بدخل عينيها كان يشعر بالتوتر والقلق ولكن عندما ثبت عينيه على عينيها شعر بالطمأنينة تسري في جسده:

- أنا عمري ما فكرت في الحب أبداً، بس فجأة لقيت بنت منكوشة كده، كانها اتخلقت بالملي علشاني كل حاجة فيها مبهرة، بس أنا أعرفها من أربع شهور بس، خايف أكون بتسرع، بس... بس أنا بحبها، وبحب وقتي وانا معاها كل حاجه جميها حلوة اوي .

تبدلت ملامحها باستنكار، وشعرت بالتعجب وهي تقول:

- مين البنت دي؟، و ليه معترفتش ليها ؟؟

أجابها بثبات، محاولاً استحضار مشاعره:

- انا بحبك بكامل قواية القلبية بحبك وكل حاجه حواليا حلوة علشان بحبك .

ظهرت معالم الخجل على وجهه، امتزج القلق و التعجب مع خجلها كان قلبها يمتلئ بالمشاعر لكنها حركت رأسها بالإيماء قائلة:

- موافقة، انا كمان حاسه نحيتك بحاجه .

تحدث بمزاح وهو يشعر بأنه امتلك الدنيا بما فيها، وهو يمسك بطبق الطعام في يده: - هنكلم ماما، بس يلا نعمل الـ Us بتاعنا.

كانت ضحكاتهم تملأ المكان من حولهم بالسعادة والفرح النابع من قلوبهم، وكان الله اختارك ليخلق لك شخص بائس آخر لتضعوا في قلوب بعضكم السرور.

بينما كان "أمير" ممسكًا بيد جيداء ويرقصان معًا بسعادة، من قلوبهما غير مبالين بنظرات أي من حولهم.

تحدث بحب وسعادة:

- أنا فرحان بيهم أوي، هم الاتنين يستحقوا الفرحة دي بعد كل اللي حصل. شكلك حلو أوي، خايف أحبك تاني.

ابتسمت هي بهدوء قائلة:

- أنت كمان شكلك تحفة بجد.

لم يستمع لما قالته بسبب تركيزه مع عينيها، تلك العينين التي أوقعته في حبها، وفي كل مرة يراهما، يقع ثانية.

تحدث بجدية، وقد ظهرت في حديثه:

- أنا عارف إني مش زوج مثالي، وإني بتعصب كتير، وممكن أكون بضيقك وأني مشغول في بعض الأوقات، بس عمر حبك ما هيقل في قلبي للحظة واحدة.

نظرت له بحب، والدموع تتجمع في مقلتيها، لكنها تحدثت بهدوء وحب نابع من قلبها:

- وأنا فخورة بيك ومقدرة كل حاجة صعبة عليك إحنا اتفقنا إننا هنتحمل بعض، وده اللي بيحصل متخافش، أنا مقدرة ومش زعلانه.

أكملوا رقصتهم بحب وسعادة تغمرهما في كل لحظة، رغم كل ما حدث وما زال يحدث من الأقدار، إن كان خيراً أو شراً، هم سيتحملون وسيبقون معًا إلى الأبد.

جلست هي على الكرسي المقابل له، تدندن مع الألحان وتميل بخفة، لكنها شعرت بنظراته إليها. كانت نظرات خاطفة، مثل نظراته تمامًا، تجمع بين الحب والفرح والغيرة في آن واحد.

تحدث "سيف" بهدوء، محاولاً أن يكون طبيعيًا وهو يشعر بالغيرة من كل الأعين التي تراها :

- ممكن تبطلي رقص شوية؟ أحسن كدد هقوم أولع في الفرح كله.

أجابته سما باستنكار، وهي تنظر إليه بعبوس:

- وأنت بقى شايفني برقص على الاستيدج ولا رقاصة؟ على فكرة، أنا بدندن مع الأغاني بس.

شعر بحزنها منه برغم من غيرته من افعاله المبالغ بها، فقرر تخفيف الأمر:

- وإني أغار من ذاك الذي يراك، بينما عيني منك تحرم أن تنال أعينهم منك تصيبها. تصيبي منك مقسم أن كانوا هم أقرب لك مني، فليس سواي بك متيم.

ظهرت ابتسامتها، وهي تقول:

- أنت بتثبتني صح؟

أجابها ضاحكًا وهو يشعر بأن ما بينهم من غضب بدأ بالتلاشي:

- آه. بثبتك يا سمائي، بس دد ما يمنعش إني غيران.

ضحكوا معا، وهم ينظرون لنظرات الناس من حولهم، حيث كانوا يقسمون بأن هذه تتنمر على فستان العروسة، بينما ذلك الرجل يسخط بدلة العريس، والفتيات هناك يتمنين لو كانهن مكانها. وكل منهم لديه رأيه في القمامة. فأذان القلبان قررا أن يكملوا حياتهما سويا.

وقفوا ينظرون إليهم بحب، صديقهم وصديقتهم. بعد محاولاتهم ومشاكلهم، وكل شيء سيكونون معًا، ولن يتركوا بعضهم جميعها كلمات ولكن الظروف هي من تاكده المحاولات و مشاكل الحياة هي القصة الوحيدة الحقيقة في الحب .

كانت تلك نظرة جميلة لهم، تشعر بالفرح والراحة لصديقتها التي لم تتخلَ عنها أبدًا، وكانت نعمة الصديقة والأخت لها، وكانت كل شيء في وقت لم تكن تمتلك فيه الأخرى شيئًا.

تحدث أحمد، وهو يقف بجانبها، يطالع وجهها يشعر بالسعادة كلما يشعر أنه يقترب منها ومن وجوده بجانبها:

- هانت يا جميلتي، كلها كام شهر بس وتبقى هنا مع بعض."

أجابته بصدق وسعادة وهي تتمنا ان تكتمل تلك القصة بالنهاية التي ترضيهم:

- إن شاء الله، بس أنا مش عاوزة فرح.

تحدث بتساؤل قائلاً وهو يعقد حاجبيه:

- ليه بس؟

أجابته بابتسامة وهدوء وهي تتخيل لحظات سعادتهم :

- يعني مش حابة حد يشاركنا ده غير اللي وقفوا معانا فعلاً، يعني ممكن يكون على البحر كده نحتفل إحنا و أصحابنا، وباباك ومامتك، وبابا وماما، وسمر و جيجي وجيمي بس.

ابتسم هو إثر تخيله لهذا:

- ياه، أنا بجد متحمس لده أوي. ادعي بس إنهاردة يكمل على خير ونخلص.

أجابته بقلق طغى عليها:

- يارب يا أحمد، نخلص من الكابوس ده ويتحطوا في مكانهم المناسب. أنا بجد بكره الأشخاص دول من كل قلبي.

أجابها بمزاح ومرح:

- وأنا بحبك من كل قلبي يا جميلتي."

تحدثت ضاحكة، وعليها علامات الخجل:

- وأنا كمان يا صغنن.

ضحكوا معًا بسعادة وهم يلتقطون بعض الصور للذكرى.

انتهى الزفاف سريعًا، ورغبت "زينة" و"عز" في أن يرتاحا في غرفتهما قبل السفر، أفضل من الرقص هنا والجميع ينظر إليهما. وهم الآن يجلسون في السيارة: "محمد" و"نائل" (نواة هو مجرد اسم حركي كانت تناديه به والدته)، و"سليم" و"أحمد" و"سيف" في الخلف.

تحدث محمد بجدية رسمية رغم ان القلق كان ينهش في قلبه:

- احنا هندخل أنا وأحمد الأول، ولما نخلص من الحرس، هنكلمكم. إسلام حاليًا بيتابع كل حاجة من المقر علشان يبلغنا بالجديد، وبعد ما نديلكم الإشارة، يدخلوا سليم ونائل. اتفقنا؟

صدح صوتهم في نفس واحد: "اتفقنا."

خرج محمد وأحمد من السيارة، وذهبا سريعًا لمقدمة الشركة. وقف محمد خلف الحارس، وفجأة ضربه في مؤخرة رأسه، فأوقعه أرضًا بينما وجد أحمد أحد الحراس يأتي من خلفه، ويلهبه، فأنقض عليه محمد، متصديًا له باللكمات بمهارة عالية تعلمها منذ صغره.

وبالفعل انتهوا من الحراس الذين كانوا ثلاثه فقط على البوابة، فأمسك محمد بهاتفه وهم يدلفون إلى المكتب، واتصل بسليم ليخبره أن الوضع آمن، ويمكنهم الدخول الآن.

دلف سليم بحذر، وفي خلفه نائل، يوجهون أسلحتهم أمامهم، مستعدين لأي خطر يواجههم. أمسك أحمد بالفلاشة في يده، ووضعها في الحاسوب، وبدأ إدخال كل المعلومات الخاصة بتلك العمليات المشبوهة التي يقوم بها كل من "أنس" و"حسن" و"مصطفى."

لكنه تفاجأ بوجود بعض الصفقات باسم والد سليم وباسم عادل الجبالي أيضًا، وما لفت انتباهه هو أن الصفقات مدونة بدافع آخر، مما يعني أن هؤلاء الشياطين قد أوقعوا "ياسر" و"عادل" في صفقاتهم المشبوهة.

أخذ الفلاشة وخرجوا معًا من هذا المكتب اللعين، ليجدوا سليم ونائل في انتظارهم بعدما أخذا كل ما يمكنهما من معلومات. خرجوا سريعًا من الشركة بعد ان عطلوا جميع الكاميرات التي صورتهم، لكنهم وجدوا بعض الحراس الذين كانوا في الخلف يطلقون عليهم النيران تبادلوا معهم إطلاق النار وهم يدلفون إلى السيارة.

تحدث محمد وهو يتبادل إطلاق النار:

- ادخلوا العربية بسرعة، أهم حاجة مفيش ولا كاميرا تجيبنا.

بينما وقف احد الحراس على سطح المبني وهو يحاول ان يصوب "أحمد" من الاعلي مخدوع بمظهره من الخلف الذي تشبه مع جسد "محمد"

تزامن انتهاء حديثه مع صدوح صوت نائل الذي وقعت عينيه على الحارس الواقف فوق سطح المبني وهو يرمي بأحمد للخلف قائلاً:

- حاسب يا أحمد!

لم يكمل حديثه بسبب وقوعه أرضًا، إثر استقرار رصاصة في موضع ما بين ذراعه وقلبه.

أنهى محمد على جميع الحراس بضغطه واحده من الريموت في يده الذي كان موصل باحد القنابل في مكان معين انتظر ان يجمعهم به ، وبعدها تفجرت الشركة بالكامل، والنيران تأكل كل شيء انعكست النيران في عينيه، وكأنها تحاكي النيران في قلبه اقترب من نائل، الذي كان ملقى على الأرض، وعينيه مليئتين بالدموع:

- نائل، فوق يا نائل، احنا لازم نكمل المشوار سوا. أنت مش هتمشي، صح؟

احتضنه إلى قلبه بينما بدأ الآخر أنفه وفمه في إخراج الدماء، وهو يتحدث بصعوبة:

- أنا جيبت حق أبويا خلاص، وجبت حقي أنا قلت لك الدائرة مش بتنتهي، وبتكمل مهما خرج منها.

تحدث أحمد بصياح والحزن يتسرب لداخله كلما يتوقع انه اخر مرة يراه بها:

- لا، لا، أنت هتقوم وهنكمل مع بعض. قوم يا نائل متسبناش.

رفع ذراعيه ضامًا إياهما إليه، وهو يعرف أن تلك هي اللحظة الأخيرة التي يمكنه أن يراهم بها بينما كانت نظرة محمد الأخيرة عميقة، وكأن عينيه تحفظ ملامح وجهه لأسابيع طويلة، وكأنه يعلم أن اللقاء مرة أخرى سيكون مستحيلاً.

صدح صوته في آخر أنفاسه:

- أنا ممتن لكل لحظة كنت فيها سوا اوعوا تفرقكم أي حاجة. لازم تكملوا. سامح يا محمد، ربك سامحنا مرة واتنين وألف، سامح أنت كمان. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله. وداعًا."

تزامن انتهاء حديثه مع بكائهم وهم يحتضنونه جثة هامدة. بينما الآخر وقع في دوامته مرة أخرى، لا يصدق أنه لم يره مرة أخرى، وأن تلك الملامح التي حفرت في عقله لن تكون معه مرة أخرى.

لماذا وداعا وليس إلى لقاء؟ ألن نلتقي أبدا بعد الآن يا صديقي، ألن نلتقي وإن عدنا غرباء؟ تبقى كالوهم الذي عشته سنوات عدة، وتختفي مني فجأة بدون إنذار، ترحل وتطرق روحك بداخلنا، تذهب مودعا ويداك لا تلوح لنا، لن تعود أبدا. لقد حملتك بين أضلعي، لا تخرج، لا تتركني الآن، الأمر صعب علي وعلى قلبي.

البارت الحادي عشر

"مابعد الفراق"

في تلك الليلة التي رحل فيها رفيق دربي، شعرت بثقل السؤال الذي لم يفارقني: كيف يمكن للإنسان أن يستند على جثة

هامدة؟ ما الذي يجعل الفراق موجعا إلى هذا الحد؟ ولماذا نقول "وداعا" بدلا من "إلى اللقاء"؟ ألا نلتقي أبدا بعد الآن، يا صديقي؟ ألا يعود الزمن ويجمعنا ولو كغرباء؟ كنت كالوهم الذي رافقني لسنوات عديدة، ثم اختفيت فجأة، بلا إنذار.

ترحل، وتترك روحك معلقة داخلنا، تمضي مودعا، ولا حتى يديك تلوح لنا. ألا تعود أبدا؟ حملتك بين ضلوعي، لا تخرج، لا تتركني الآن، الامر اكبر من احتمالي... واثقل على قلبي.

ولمن يظن أن الموت هو الموحش، وأنه القاتل الحقيقي، الموت قد لا عليكم أن تعوا أن الفراق هو الموحش فعلا. يكون نهاية، ولكن الفراق؟ الفراق يقتلنا ونحن أحياء. إنه الغصة التي تعتصر صدرك كلما رأيت أحدا يشبه الراحل، أو سمعت اسما يماثل اسمه، أو حتى تذكرت أحد تفضيلاته. الفراق ليس فقط فراق الجسد أو الموت، بل هو فراق الروح عن روحك. والموت؟ قد لا يكون بتوقف النبض فقط. الانتظار موت، والملل موت، والفراق... هو الموت الأعظم.

"محمد" أمسك بجثة نائل، الجثة التي كانت يوماً رفيقه وصاحبه، يحركها برفق وهو يقبل جبينه المرتجف. ضمّه إليه وكأنه آخر ما تبقى من الأمل في هذا العالم، وهمس بصوت خافت، وكأن قوته كلها قد غادرته:

- يلا، قوم معايا يا أحمد، قوله إننا هنروح، قوله إن كل حاجة تمام... نائل، متسبنيش بالله عليك، ورحمة أمك يا نائل، هنكمل سوا، صح؟ مش هتموت وتسيبني كده... فاكر؟ فاكر كنا بنغني ونقول إيه؟

صوت "محمد" اختنق بالبكاء، ويداه ارتجفتا وهو يستعيد الذكريات؛ حينما كانا أطفالاً يستمعان خلسةً للشعر من جارهم المهووس بالإنشاد. تردد في ذاكرته بيت الشعر الذي لطالما سمعه:

"ولكنني لما وجدتك راحلا

بكيت دما حتى بللت به الثرى

مسحت بأطراف البنان مدامعي

فصار خضاباً في اليدين كما ترى"

احتضن "محمد" نائل بشدة، كأنهما لا ينفصلان أبداً، وصرخ في من حوله أن يتركوهم وحدهم كان الألم يفوق قدرته على التعبير، والخوف يجتاحه، لكنه حتى حقه في البكاء لم يستطع أخذه. شهقاته كانت مليئة بالألم، لكن الدموع أبت أن تنهمر. كيف له أن يتخيل حياته الآن؟ بلا روح، بلا رفيق؟ جسد فارغ لن يعانقه مرة أخرى، ولن يشارك معه شيئاً من أحاديثهما. كيف ينسى هذا الألم؟

حاول "أحمد" تهدئته، لكن "محمد" لم يهدأ، حتى غُشي عليه في مكانه أراد أن يحمل جسد نائل الذي خلا من الروح، لكنه لم يعد يملك القوة للوقوف، فسقط بجانبه، منهاراً، غير قادر على السيطرة على اتزانه، كما سقط قلبه من قبل.

كانت الغرفة واسعة ومنظمة بعناية، تملؤها لمسات من البهجة، إذ زُينت ببعض الورود والبالونات الملونة التي حملت أول حرف من اسمي الزوجين. كان هذا هو الحلم الذي طالما راودهما، الحلم الذي تمنياه طويلاً، وقد تحقق أخيراً. الآن، بوسعهما أن يقولا للعالم بأسره: هي زوجته، وهي روحه إلى الأبد.

في الشرفة، جلسا معاً، يتبادلان النظرات بابتسامات حالمة، وعيونهما تتأمل السماء بنشوة السعادة، بعد أن بدّلا ملابسهما الرسمية بأخرى مريحة. كل شيء كان بسيطاً وجميلاً، لكن الإحساس الذي يملأ قلبيهما جعل اللحظة تبدو وكأنها قطعة من الجنة.

تحدث الزوج بنبرة يغلب عليها الفرح والحب، وكأن الكلمات تنساب من قلبه مباشرة:

- عارفة، أنا اتمنيت اليوم ده من سنين، ودلوقتي مش مصدق إنه بيتحقق أخيراً.

أمسكت بيده، وعينيها تلمعان بنفس المشاعر، فأجابت بحب يملأ صوتها:

- وأنا كمان... اتمنيت نفس اليوم اللي يجمعنا سوا، وها إحنا مع بعض.

ثم تحدث مرة أخرى، هذه المرة بصوت يغلبه الهيام والشوق، وكأن كل حرف يحمل وزناً أكبر من الكلمات نفسها:

- بحبك نيابة عن كل من رأوكِ ومضوا... لو كان الكون كله بيدي، ليس لي إلا يداك موطني.

نظرت له بحب عميق، محاولة أن تجمع مشاعرها في كلمات تليق بما تشعر به نحوه

كتب فوق الحائط بالورود

"فإنك قد سكنت روحي، ومن يسكن الروح، فهو أغلى من كل شيء."

بينما كانت الليلة تمتلئ بسعادة تغمرهما، لم يكن بإمكانهما هذه تجاهل تلك الفكرة التي تتسلل أحيانا إلى الذهن في مثل اللحظات: أن هناك دوما من يعيش في النقيض. ففي كل ليلة، تتقاسم الأرواح الحزن والفراق والحب والسعادة، الجفاء والخذلان. الليل يحمل في طياته الكثير، وأثقلها هي ليالي ما بعد الفراق.

في أحد أقسام الشرطة، كانت الأجواء مشحونة بالتوتر منذ الإبلاغ عن جريمة قتل سيدة وابنها في ظروف غامضة حتى تلك اللحظة، لم تكن هناك أدلة واضحة تكشف هوية القاتل أو تفاصيل الجريمة. كل ما كان لديهم مجرد إشارات غامضة وتحقيقات لم تكتمل بعد، والبحث لا يزال جارياً.

وقف حسام أمام اللواء، بعد أن ألقى التحية العسكرية بتقدير، وقال:

- حضرتك، كل حاجة عادية لدرجة غريبة، ومفيش أي دليل قوي إنهم هم اللي قتلوهم، غير كلام "محمد" .

كان اللواء رجلاً في منتصف الخمسينيات من عمره، يتميز بمظهره الجاد وملامحه الصارمة التي تعكس خبرته وحكمته الطويلة في العمل. بدا وكأن مظهره وحده يفرض الهيبة والاحترام. تحدث بصوت هادئ ولكنه مشحون باليقين:

- و"محمد" مش عيل، ودي مش أول مرة يتورطوا في حاجة زي كده. أنا متأكد إنهم ورا الجريمة دي، خصوصاً بعد ما خلصوا على جوزها، كان لازم يخلصوا من باقي العيلة عشان يأمنوا نفسهم.

"حسام"، وقد بدت عليه الحيرة، رد وهو يحاول التركيز على أي تفصيلة قد تفيده في التحقيق:

- والله، أنا فعلاً في حيرة. بس واضح إن القاتل محترف قدر يدخل ويخرج من غير ما حد يلاحظه، وكمان حكاية المدافن والنار دي حركة ذكية منه."

أخذ اللواء شهيقاً عميقاً، وكأنه يحاول استيعاب حجم التوتر المحيط بالقضية. ثم قال بنبرة أكثر تركيزاً:

- على العموم، كلها كام يوم ونخلص من الضوضاء دي، ونحطهم في مكانهم الطبيعي.

أومأ حسام برأسه إشارة على تفهمه، واستأذن للانصراف. حمل حقيبته وغادر المكتب بخطوات ثابتة، متوجهاً نحو الخارج، وكل ما في عقله هو السعي لإيجاد الإجابة التي ستكشف الحقيقة المخبأة في هذه الجريمة الغامضة.

لم يعلم أحد منهم كم مر من الوقت أو كيف وصلوا إلى هنا. كأن الزمان قد فقد معناه في هذه اللحظات الغامضة. كل شيء بات ضبابيا أمام أعينهم. والمكان حولهم يعج بالضياع الأعصاب التي صمدت لتأتي بهم إلى هذا الموضع كانت على وشك الانهيار، وكل شيء بدا مضللا ومحيرا.

أمسك "أحمد "بهاتفه، يطلب أمير بيد مرتجفة. بعد انتظار قصير، جاء الرد على الطرف الآخر بصوت أمير المتعب والمنزعج:

- إيه يا أحمد، لازم تقلقني يعني؟

تحدث أحمد بصوت مرتعش، ونبرته تحمل مزيجًا من البكاء واليأس:

- نائل مات يا أمير... نائل مات.

قفز أمير من مكانه، وقد أصابه الذهول الذي جعله يعجز عن الاستيعاب للحظة:

- نائل؟ إزاي؟ إيه اللي حصل؟ إنتوا فين دلوقتي؟

نظر أحمد حوله بحزن، مشهد أصدقائه متباين بين الموت والجنون أحدهم جثة هامدة، والآخر يبكي بعيدًا، بينما الثالث لا يزال يحتضن الجثة بقبضة لا تريد أن تتركها. أجاب بصوت مختنق:

- إحنا في المكتب ، مش عارفين إزاي وصلنا هنا، بس كل حاجة تدمرت. محمد ولع في الشركة كلها، وكل حاجة راحت. هات سيف وتعالى بسرعة.

أغلق المكالمة، ثم ألقى جسده المتعب بجانب أصدقائه، وكأنه لم يعد يحتمل أي شيء آخر. الشعور بالضعف تسلل إلى كيانه ببطء، شعور لم يعرفه من قبل حتى تلك اللحظة.

محمد، الذي بدا كمن يرفض استيعاب الحقيقة، تحدث بصوت واهن، وكأنه يحاور خيالًا لا يمكن أن يجيب:

- ليه مش بيرد عليا؟ نائل، زعلت لما قولتلك متظهرش قدام الناس؟ طيب أنا مكنش قصدي، فوق بقى، بلاش تعمل كده.

حاول أحمد، ببطء، أن يجر جسده المثقل بالتعب والوجع ليبعد محمد عن الجثة، واحتضنه بقوة وهو يربت على ظهره، يحاول تهدئته بصوت خافت:

- محمد، كفاية، ارجوك. ابعد عنه بقى.

لكن محمد، رغم جسده المتهالك والصدمة التي سيطرت عليه، كان لديه قوة خفية في لحظة الغضب تلك. لكم أحمد بقوة لم يتوقعها، أسقطته أرضًا. ثم صرخ وهو يحاول التحرر من حضن أحمد:

- نائل مامتش! مش ميت! أنا مش هسيبه تاني. مش هستحمل كل ده تاني. انت عارف أنا استحملت إيه عشان اللحظة دي متجيش ويسبني؟!

تركه أحمد، بعدما استنزفت منه اللحظة كل طاقته. هرول نحو سليم، الذي كان أكثرهم توازنًا، يحتضنه بقوة وكأنه يحاول أن يجد في هذا الحضن آخر بقايا القوة التي تُبقيه على قيد الحياة. الغريب في كل هذا هو تكرار هذا النمط في حياتهم، تلك اللحظات التي تظللها السعادة، قبل أن تتحول سريعًا إلى حزن عميق وخيبات متتالية لا تترك لهم فرصة للفرح.

لم يعلم كيف ارتدى ملابسه أو كيف خرج من المنزل، ها هو الآن يجلس في السيارة، وسيف بجانبه، صامتًا منذ أن جلس، كأنه لا يصدق ما سمعه. لا يعرف كيف حدث كل هذا، وما زال على أمل أن الأمور ستكون على ما يرام عندما يصل.

ولكن، تحطمت آمالهم تمامًا عندما وصلوا"سليم" الذي لا يكف عن الضحك بهستيريا، و"أحمد" الذي لم يره يبكي من قبل وها هي جثته، جثة "نائل"، مسجاة أمامهم هل انتهى كل شيء؟ لم يعد قادرًا على الوقوف في تلك اللحظة. خانته قدماه، ولم يعد جسده يقوى على حمله دقائق أخرى حتى أنفاسه أصبحت متقطعة وصعبة، فأسرع يخرج زجاجة الدواء من حقيبته التي لم تفارقه منذ طفولته ليتمكن من التنفس.

كان "أمير "أكثرهم صمودًا، تحدث بعد أن جاء من الخارج:

- أنا كلمت حسام، ولازم يتدفن بكرة قبل ما حد يحقق في الموضوع."

لكن، لم يستمع أحد لكلماته الجميع كان غارقًا في ذكريات مؤلمة ستلازمهم لسنوات، وربما مدى الحياة أدركوا في تلك اللحظة أن الإنسان لا يعي أهمية اللحظات إلا عندما تصبح ذكريات.

جاء الصباح سريعًا، على الرغم من أنهم تمنوا ألا يأتي أبدًا وقفوا أمام المقابر، وضعوا جثة "نائل" بجانب "هيثم" وأبيه "نوح"، بناء على إصرار "محمد".لا شيء أصعب من أن تغلق بيديك بابًا تمنيت لو يبقى مفتوحًا للأبد وها هو الآن، يتمنى لو أغلق باب العالم وخرجوا هم منه الباب الذي يغلق في كل مرة، وهو يدفن فيه قطعة من قلبه كم هو مؤلم الوداع. فكيف إذا كان للأبد؟

لم يتحمل أحد منهم البقاء هناك لدقيقة أخرى خرجوا جميعًا، وما زالوا لا يعلمون ماذا حدث وكيف انتهى الأمر.

"محمد" وقف يتأمل القبر بحزن وضعف لم يشعر به من قبل شعور بالغربة اجتاحه مرة أخرى، الغربة التي كرهها طوال حياته وضع الورقة بمنظر مكسور مكسور:

"إلى اللقاء يا أعز العابرين في عمري إلى اللقاء يا صديقي وقلبي، إلى اللقاء يا أجمل لحظاتي وأعظم أمنياتي إلى اللقاء يا نفسي... إلى اللقاء، لو كان لنا لقاء آخر."

تحدث مرة أخرى وكأنه يحاور روحه: "والله يعز عليا أن نتنهي هكذا بعد كل هذه السنين، لكني أعدك أني سألقاك كل يوم في الذكريات."

خرج مسرعًا من المقبرة، لكن الشعور بثقل العالم بداخله لم يتركه. كان يشعر وكأنه فقد كل شيء، مرة أخرى، للمرة التي لا يعلم عددها.

بينما كان غارقًا في تلك الأفكار، فكر "سيف" في احتمالية أن يكون هو أيضًا في تلك الحفرة قريبًا، سواء بعد أيام، لحظات، أو سنوات،منذ ولادته، كان مهددًا بالموت في أي لحظة،الربو اللعين الذي سيطر على أنفاسه كان يذكره دومًا بأن الحياة قد تتوقف فجأة.

كان يقود السيارة، لكن بداخله صراع عميق. تركهم نائل هذه المرة، ولكن في المرة القادمة، من قد يفقد؟ هل سيفقد "عز" ، أخيه الصغير وابنه الذي رباه؟ أم سيفقد أصدقائه الذين يعتبرهم أبناء له، رغم فارق السن البسيط؟ لا يمكنه تحمل فكرة فقدان أي منهم.

وصل سليم إلى المنزل، وحزن عميق يرتسم على وجهه اصطدم بوالده ياسر وهو يدخل، فسقط أرضًا. أسرع والده لرفعه، وأسنده إلى أقرب مقعد.

"سليم، مالك؟ في إيه حصل حاجة؟"

أجابه سليم بصوت ثقيل، وكأن العالم يضغط على صدره:

- واحد صاحبي مات.

احتضنه والده بشدة، وقال بصوت مشفق:

- الله يرحمه، يا رب بس اللي بتعمله ده غلط، ادعيله، كلنا مهما عيشنا هنمشي في الآخر.

أجابه سليم وهو يمسك بيد والده:

- أنا عارف، بس هو ما سبلناش فرصة نكتفي منه قبل ما يمشي أنا مش مصدق إننا مش هسمع صوته تاني، الفراق هو اللي وحش، مش الموت، الموت من عند ربنا، ودايما خير، لكن الفراق... الفراق وحش أوي، بياكل فينا مع كل ذكرى.

كان والده يفهم تمامًا ما يشعر به، لأنه شعر بنفس الألم عندما فقد أخاه، لكنه حاول تهدئته:

- أنا فاهمك، بس لازم تعرف إن حتى الفراق ممكن يكون خير مش عارفين كان ممكن يحصل إيه لو ما فارقناش.

حاول سليم الوقوف بصعوبة، وقال:

- أنا مش هقدر أنسى؟؟

ولا يبقى في الذاكرة سوى ما نريد نسيانه، وكأن عقلنا يجبرنا على الهلاك في كل مرة.ترك والده وصعد إلى غرفته، تلك الغرفة التي شهدت حزنه وألمه لسنوات طويلة.

كانت الأجواء مشحونة بالحزن، والذكريات تطاردهم كظل ثقيل عجزت الكلمات عن التعبير عما يجول في صدورهم، وكل ما استطاعوا فعله هو تبادل تلك المشاعر المؤلمة.

تحدثت "جميلة" بحزن وهي تحاول السيطرة على دموعها :

- كل اللي عايشينه دلوقتي هو نتيجة الشر الموجود في عالمهم مش عارفين حجم الألم اللي تسببوا فيه لناس كتير .

"بس إحنا مش هنخليهم يكسرونا" رد عليها بصوت متهدج، وكأن حديثه كان بمثابة محاولته للتمسك بالأمل: لازم نستمر. لازم نكون أقوى لو فقدنا الأمل، هم كسبوا، لو قدروا يخلونا نستسلم، يبقى هم انتصروا.

تأملت عينيه، ورأت فيهما شغفًا لحياة جديدة، رغم كل الألم:

- إحنا عارفين إنه صعب، بس لازم نقاوم. كل لحظة بتعدي، لازم تكون فرصة لنبني ذكريات جديدة، ونعمل حاجات تخلينا نتذكره بفرح بدل ما نحزن.

هز رأسه بتردد، لكنه أضاف:

- أحيانًا بحس إن كل حاجة حوالينا ضبابية. الدنيا بقت صعبة، وفقدان عز كان صدمة. مش قادر أتخيل كيف هنتجاوز كل ده."

شعرت بحزن عميق في قلبها، لكنها حاولت أن تزرع الأمل في كلماته:

- يمكن الزمن ياخد وقت، لكن إحنا مع بعض. ولازم نرجع نضحك ونستمتع بالحياة تاني، عشان هو يستحق.

لحظات من الصمت تخللت حديثهم، ولكنها كانت لحظات مليئة بالمعاني. وفي داخلهم، كان هناك أمل خافت ينمو، رغم كل ما حدث.

وتبقى ساعات ما قبل النوم أسوأ وقت يقضيه الإنسان

بمفرده، حيث تجد نفسك وحيدا مع أحلامك المتبقية، وحطامك، وتفكيرك، وأخطائك. كل منكم يقاتل الآخر، وينتهي

الأمر بك قتيلا. تتصارع في داخلك أفكار متناقضة، وتشعر وكأنك في ساحة معركة لا مفر منها. كانت تلك لحظتها

وهي تقلب في خاتم الخطبة الذي أعطاها إياه محمد. تتأمل فيه وكأنه مفتاح لغز حياتها. تطرح على نفسها تساؤلات: هل

ما فعلته صحيحا؟ هل ستظلمه؟ هل ستكون أنانية؟ هل ما تشعر به هو الحب، أم أنه مجرد انعكاس لمشاعره تجاهها؟

انتهى تفكيرها عندما صدح صوت طرق الباب، وظهر يزن الصغير من الباب، مبتسمًا ببراءة كطفل يخرج من عتمة أحلامه إلى نور الواقع.

تحدثت وهي تحتضنه بحب:

- إنت مين جابك هنا؟

أجاب الصغير بلطف ونبرة طفولية:

- بابا ومراته هما تحت مع عمو.

تبدلت ملامحها عندما علمت بقدومهم يبدو أن والدتها أخبرته بالأمر، وهو الآخر سيحاول إبعادها. تحدثت مرة أخرى وهي تتمسك بيده:

- خلاص، يالا ننزلهم تحت.

هبطت من على السلم بثبات، محاولة أن تصمد في مواجهة ما قد يحدث ألقت عليهم السلام بفتور، فرغم أنها لم ترَ أخاها منذ عدة أيام، إلا أن العلاقة بينهم لم تكن قوية إلى درجة الاشتياق. كان الصمت يعبر عن الفجوة التي تخللت بين قلوبهم.

تحدث أخوها بنبرة حاول جعلها ثابتة:

- أنت اتخطبتي من ورانا ولا إيه؟

أجابته بابتسامة باردة وهي تنظر للخاتم بيدها، كأنها تحاول تبرير موقفها:

- آه، أنا ومحمد اتخطبنا إمبارح.

تحدثت زوجة شقيقها ماهي بعنجهية، وهي تحاول إظهار تفوقها:

- "محمد"، إنتِ متأكدة من قرارك ده؟

أجابت هاجر بثبات وسخرية، وكأنها تلقي بحجر في مياه هادئة:

- آه جداً. محمد ناجح وذكي وطموح، والأهم من ده إنه بيحبني. أظن إنك إنتِ كمان كنتِ متأكدة لما اتجوزتي عمر، ولا إيه؟

تبدلت ملامح الأخرى بغضب، وكأنها تلقت صفعة:

-آه، كنت متأكدة، عمر ابن ناس وذكي ومن عائلة وجميل. إيه اللي يخليكي مش متأكدة؟ أكيد مش زي محمد.

لم يأتِ الرد من هاجر، بل كان الرد هذه المرة من عادل، الذي تدخل في حديثهما وكأنها مباراة يتمنى أن يحسمها لصالحه:

- وماله محمد، مش فاهم. أظن إنك مش من حقك تتكلمي عنه. ولو بتتكلمي عن عائلة محمد، هم من نفس العائلة ونفس المستوى، والأهم إنك مش إنتِ اللي هتتجوزيه.

تحدثت هاجر بنبرة تبدو ساخرة، وكأنها تحدت الجميع:

- أنا ملاحظة إنك قلتي كل حاجة معادة شخصية عمر، اللي هو الأساس. يعني إنتِ مش هترتبطي بأهله ولا بعائلته ولا بحد غيره.

خرج عادل من الغرفة، سامحاً لهم بالتحدث على راحتهم. تقدم عمر من مكانه، جالساً بجانبها، قائلاً بنبرة هادئة لكنها مفعمة بالقلق:

- إنتِ واعية للي إنتِ بتعمليه؟ كويس، محمد ملقتيش غير "محمد".

أجابت بثبات، مدافعة عن الآخر في غيبته:

-آه، "محمد" لأنه هو الوحيد اللي حبني محمد كان أخويا وأبويا وأمي في وقت كلكم مكنتش جنبي فيه، وبعدين محمد ده هو أهم شخص في حياتي، غير إنكم مش هتشوفوه بعينيكم أبداً.

أجابها عمر ببرود، كأنه يقاوم المد العاطفي:

- مش هو بس اللي بيحبك، قاسم كمان بيحبك، وأظن إن ماما وبابا موافقين عليه، وكمان متربي وابن ناس.

أجابت بغضب بسبب ذكره لاسم قاسم، وكأن جرحًا قديمًا قد انفتح:

- أولاً، رفض ماما وبابا مش هيفرق معايا، لأنهم عمرهم ما وافقوا على أي حاجة ترضيني. ثانياً، لو قاسم ده إنت شايفه ابن ناس، فأنا كمان محمد ابن ناس، ولا نسيت إنه ابن خالنا. غير كده، أنا مليش دعوة بكونه ابن مين. أنا بحبه هو، مش الناس، ومش هاسمح لحد يبعدني عنه. أنا مش هكون زيك، خليك إنت ابنهم المطيع إنما أنا، للأسف، هبطل أكون كده.

تحدثت ماهي بطريقة موسية لها، وكأنها ترسم صورة قاتمة لمستقبلها:

- أنتِ أصلاً مش هتلحقي توفقي أو لا. كده كده رأيك مش هيهم في الآخر. إحنا مش هندمر مصلحتنا علشان خاطر عيونك إنتِ وابن...

بترت حديثها عندما رأت عادل يستند على الحائط، وينظر إليها بغضب، وكأن عينيه تحملان طوفانًا من الغضب:

-كملي، ابن إيه؟ كملي!

أجابت بتوتر، وكأن الكلمات تتعثر في لسانها:

- أنا معرفش، أنا بقولها إن قاسم متمسك بيها، ومش كده يا عمر؟

أومأ له عمر بتوتر هو الآخر، مشدودًا بين ولاءه لأخته وولاءه لأسرته. حتى تحدث عادل بغضب، لكنه أخفاه بحذر:

- شوف بقى، وروح قول لامك. لو هي اختارته فعلاً، أنا هكون معاها وفي صفها. وغير كده، أنا كمان عارف مصلحتها، وهي قادرة تحدد ده. وأي كلمة تانية تتقال عنه، أنا مش هسمح بي

كان يدافع عنها بهدوء مزيف لا تعتري اعصابه اي غضب لم يستطيع إلى الآن ان يشعر بأنه يجب ان يحبه .

جلس بالقرب من نفسه، يتذكر كل ما عليه أن يتذكره، لكن ذاكرته تأبى أن تنسى نسيانه، وكأنها محكومة بأن تطارده الذكريات للأبد اقترب من موضع "سمر"، محاولاً الصمود أمامها لتهدأ، فهما على هذا الحال منذ ستة أيام مر الوقت سريعًا، ومع ذلك، لا يزال غير قادر على فهم ما حدث. تحدث بهدوء وهو يمسك بكفها:

- كفاية بقى يا أمي، سيبيني أحاول أهدي.

أجابته، وهي تبكي:

- أنا خايفة عليك، علشان خطري، كفاية لحد هنا.

رد عليها بسخرية ألهبت غصته في حلقه:

- وهم مستكفوش ليه؟ لم قتلو أبوه وأمه اللي ماتت بحسرتها، ولم أتشرد؟ مستكفوش ليه؟ لم عذبوني ودمروا حياتي وأنا طفل لسه معملتش أي حاجة؟ أنا مش ناسي المصحة اللي دخلوني فيها بالكدب، مش ناسي جلسات الكهرباء اللي دخلوني فيها، وأنا مش محتاجها. مش هانسى نومي في عز البرد من غير أكل ولا شرب ولا لبس لعدة أيام. مش هانسى الحروق اللي في جسمي، مش هانسى ولا هسيبهم.

هي بالفعل تعلم أن حديثه صحيح، لكن خوفها يغلبها. تخشى أن يصيبه مكروه، عانقته بشدة، لكنه أزاح نفسه كان يريد ان يقول لا تعانقيني، فالارتجاف في روحي هذه المرة يكاد يفتك بي.

خرجت من الغرفة عندما صمت، وعرفت أنه يحتاج إلى أن يكون بمفرده الآن.

أمسك بدفتره، وهو يمسح دموعه، وكتب:

"هذه المرة الألم في روحي وعقلي وجسدي، الألم في أيامي، في كل شيء حولي، ما عدا قلبي. يبدو أنه قد أهلكني. لم أعرف أن الشوق مؤلم لهذا الحد. اشتقت لكم

حتى عروقي تؤلمني. عيناي ترفض أن ترى شيئا من بعدكم. أحاول الاحتفاظ بكل ملامحكم في عيني كي لا أنساها، لكنها محفورة في قلبي وروحي."

منذ أيام، وهو غارق في دوامة من المشاعر، لا يعرف كيف سيتخطى الأمر هذه المرة. لقد كان الأمر شاقًا، يتطلب عشر قلوب لتحمل هذا، لكنه بقلب واحد تحمل كل ذلك.

تحدث لنفسه بحزن: "هنكمل، أنا لازم أكمل، هجيب حقه وحقي. لازم هو هيكون مبسوط، هيكون مرتاح. بس انتوا وحشتوني أوي، أنا تعبت من غيركم."

في داخله، تتأرجح مشاعر كثيرة من الخيبات التي تهزمه. كيف يصف الإنسان هزائمه دون أن يبكي؟ كيف يصف أنه قُتل، خُذل، وتم استبداله بالآلاف دون أن ينهار؟

تحدث مرة أخرى، وهو يحتضن نفسه، والبكاء يختنق في صوته: "أنا اتهزمت تاني، مش هقدر على كل ده لوحدي. أنا تعبت."

واستمر في الكتابة، كأنه يتحدث إلى روحهم، في محاولة يائسة للعثور على السلام في قلبه الجريح، بينما كانت الذكريات تعيد نفسها في دوائر لا تنتهي.

ما زال في تلك الغرفة منذ أيام، يحدق في العتمة المبهوتة نحو الفراغ لا شيء يمضي، تمضي الأيام وتمضي اللحظات، ويمر العمر وأنا هنا عالق في ذكرياتي وخيبات أملي.

دلف "رائد"، ولده، إلى الغرفة، وفي عينيه حزن يعكس ما في قلبه من مشاعر تجاه ابنه، وصديق روحه، وأخيه جلس بجانبه، وهو يربت عليه بحنان وهدوء.

تحدث بهدوء وهو يربت على ظهره بحنان:

- عارف، أنا حسيت نفس الإحساس ده زمان، لما مات أبويا. كان في مشاكل بينا، ولما رجعت لقيته مات قعدت بعدها سنة كاملة مش عارف إيه اللي حصل، مش متخيل أنه مات وأنا مشفتهوش، إننا متنقشناش. انت كمان مش هتعرف تتخطى، بس العالم هيجبرك إنك تتقدم، حتى لو هو لسه جواك. صدقني، لازم تقوم وتحاول تاني وتالت ومليون، وهو لسه جواك.

احتضنه وهو يبكي، يعرف أنه سيأتي يوم ويتبدل حاله. ويعود لحياته مرة أخرى. لكن الأمر مهلك بشدة. كيف من الممكن أن ينسى ملامحه أو كلماته؟ سيظل هناك مكان فارغ لم يملئه أحد، كفراغ يهدد كل ذكرياته، وكأن الزمن يقف أمامه في صمت مميت، يراقب انهيار روحه دون أن يقدر على التدخل.

استفاقت على طرقات متتالية على الباب ذهبت لتفتح دون أن تنتبه لما ترتديه، كانت ترتدي بيجامة سوداء لطيفة مطبوع عليها الكرتون المفضل لها، تلك الإسفنج المدعوة سبونج بوب، بالرغم من بساطة مظهرها، إلا أنه قد لا يلائم شخصًا في أوائل عقده الرابع، رغم أنه قد يكون مقبولًا لمن هم أصغر سنًا.

فتحت الباب لتتفاجأ بوجوده أمامه دفعها إلى الداخل وتبعه رجل آخر لم تكن تعرف هويته.

تحدثت بصوت مرتفع وغاضب:

- إنت إيه اللي جابك؟ ومين ده؟

أجابها ببرود ومرح:

- جاي علشان نتجوز ومين ده؟ ده المأذون اللي هايجوزنا.

ردت حسناء بذهول:

- نعم؟ مين هيتجوز؟

نظر لها المأذون مستغربًا، لكنّه سرعان ما سبقها بالحديث:

- مستغربة؟ لسه صاحية؟ اكتب الكتاب بقا.

سألها المأذون:

- موافقة يا أستاذة؟

لم ترد، وما زالت تنظر إليهم باستغراب.

أجاب بدلًا منها:

- السكوت علامة الرضا. موافقة يلا بقا.

وبعد لحظات، قال المأذون: "بارك الله لكم وبارك عليكم وجمع بينكم في خير."

ذهب المأذون بعدما أتمّ المهمة، بينما ظلت هي تنظر في الفراغ، غير مدركة تمامًا لما حدث.

اقترب منها وقال:

إنت كده مش مستوعبة، أكيد من تأثير الصدمة من حلاوتي يعني.

أخيرًا تحدثت:

- إيه اللي حصل؟ إيه اللي إنت هببته ده؟

أجابها ببرود وهو يعانقها بشوق دام لعشرون عام:

- ولا حاجة. اتجوزتك.

ثم ألقى رأسه عليها واحتضنها قائلًا: "أريحيني على صدرك، لأني متعب مثلك. دعي اسمي وعنواني، وماذا كنت. سنين العمر تخنقها دروب الصمت. جئت إليك لا أدري لماذا جئت. خلف الباب أمطار تطاردني، شتاء قاتم الأنفاس يخنقني، وأقدام بلون الليل تسحقني. ليس لدي أحباب، ولا بيت يؤويني من الطوفان. جئت إليك تحملني رياح الشك للإيمان. فهل أرتاح بعض الوقت في عينيك، أم أمضي مع الأحزان؟"

ظلّت هي صامتة، غير قادرة على استيعاب ما جرى، وهي تحاول أن تفهم وقع تلك اللحظة الغريبة على حياتها.

البارت الثاني عشر

"ربما نُخطئ"

مرّ أكثر من شهر ونصف، وما زال الوضع على حاله. الشمس تشرق، لكن الليل لا يغرب عنهم
الحياة تستمر، ولكن الحزن يظل واقفاً، ثابتاً في مكانه. كما لو كان حلقة مفرغة من الألم لا نهاية
لها، وكأنها خُلقت لتدوم أبد الدهر لا شيء يشبه ألم الفراق؛ فحين يُنتزع جزء من روحك دون
إرادتك، وتظل تصارع أمواج الحزن، متأملاً أن تنقذك، لكنها تأبى إلا أن تبقيك فريسةً سهلة، كل
ذنبك أنك وُلدت في زمان لا يخصك، ومكان لا يتسع لك. الرب لا يخطئ، وحاشاه أن ينسى،
وعدالة السماء قائمة، لكن لماذا وُجدت هنا، إن لم يكن موعدك قد حان بعد؟

عاد الزوجان "عز" و"زينة" من السفر، وطوال الفترة الماضية لم يُصارحهم أحد بالحقيقة؛ الجميع ظلوا يُخفون عنهم الخبر حتى يعودوا. لكن الحزن الذي خيَم على "عز" كان أكبر من أن يُخفى، وكأن السعادة التي كتبت له انتهت، ليعود ويستكمل مسيرة الأحزان فور علمه بوفاة صديقه. أما "محمد"، الذي حاول التعافي بشتى الطرق لكي يقف بجانب أصدقائه كعادته، فقد وجد نفسه، رغم أحزانه الكبيرة التي تفوق أحزانهم، مضطراً أن يكون الحائط الذي يستندون عليه. ليس هذا وقت الانهيار أبداً، فقد مر بما هو أسوأ بكثير، ومع ذلك، لم ينهار جدار القوة الذي صنعته أحزانه. كانت تلك الأحزان تصقل قلبه بالصبر، وبرغم القهر الذي يكمن في داخله، كان أقوى من الليل الحالك وأدهى من الأيام التي تحاول إطفاء بهجته.

الآن، يجلس بالقرب من نفسه، محاصراً بذكرياته التي لا تنفك تطارده الغرفة كانت هادئة، بألوانها الهادئة، وأثاثها البسيط الذي لم يكن إلا انعكاساً لآماله السرير البني الكبير والأنوار الخافتة، تلك الغرفة التي جهزها لزواجه. كان يتصور أن كل شيء سيكون على ما يرام بعد الزواج لكن، أول ما واجهه كان وفاة صديقه، وكأن الحياة تُعلّمه أن الأحزان لن تنتهي لمجرد أنه فاز في صراع طويل وأخذ حبه رغماً عن الحياة.

ملامحه كانت متعبة ومرهقة، عيناه متنفختان من كثرة البكاء، ووجهه شاحب من قلة الطعام. كل شيء فيه بدا وكأنه قد انطفأ. أمسك بهاتفه وفتح الأيقونة الخاصة بالصور، فظهرت صورة تجمعه مع "نائل" و"محمد" قرّب الهاتف من وجهه محاولاً إقناع نفسه أن هذا هو آخر ما سيراه، وأن كل تلك اللحظات التي تخيّل أنه سيعيشها معه قد تبخرت في الهواء. قرّب الصورة أكثر وقال بصوت متهدج من كثرة البكاء:

- آسف... آسف لأني مالحقتش أحضنك آخر مرة كنت فاكر إني هشوفك زي كل مرة، آسف على كل حاجة كنت ناوي أعملهالك وما عملتهاش، آسف إني ما قلتلكش إني بحبك كده، آسف على كل حاجة وحشة حصلتلك يا صاحبي.

لكن كلماته توقفت عند الغصة التي اعترضت حلقه، ومسح دموعه بقوة محاولاً الصمود في تلك اللحظة، دخلت "زينة" الغرفة بخطوات هادئة وثابتة، اقتربت وجلست بجانبه، ووضعت يديها على وجهه بحنان، متفهمة أنه يجاهد الألم والدموع تحدثت:

- أنا أول مرة أعرف يعني إيه الموت كان لما أبويا وأمي ماتوا. كنت صغيرة وما فهمتش ولما فهمت، فضلت سنين بحاول أعديها، لكن لسه بيوحشوني كل يوم. صوتهم، حضنهم، ضحكتهم، كل حاجة. بس ده أمر ربنا، وإحنا ما نقدرش نعترض.

أمسك بيدها، لثمها بحب واعتذار عن كل ما مرت به دفن رأسه في حضنها، يحاول الهروب من العالم والاستراحة في حضنها:

- بس أنا كان نفسي أودعهأشوفه مرة أخيرة، صعب قوي عليّ، صعب وأنا في عز السعادة والأمان يتسرق مني كل حاجة.

احتضنته بشدة، وهي تتمسك به كأنها تحاول تهدئته، تعلم أن الأمر مرير ولا تستطيع فعل شيء لتخفيف ألمه وضع رأسه في حجرها، وبدأت تمسد فوق ظهره وخصلات شعره، وكأنها تهدهده كما تهدهد الأم طفلها حتى يهدأ وينام.

ثم مالت عليه برفق وقالت:

- طيب... تقوم نصلي ركعتين قيام الليل وندعيله. كده تبقى ودعته أحسن وداع. الدعاء هو اللي هيوصله.

وما الذي يريده الإنسان أكثر من حضن آمن؟
حضن يجد فيه الراحة، حتى في قلب الأحزان.

كانت الشمس تشرق كل يوم كعادتها، تحاول أن تمحو آثار الألم من وجوه العابرين في هذه الحياة، لكنها تفشل في إخفاء الحقائق التي تتكشّف خلف نورها الطاغي. لم يعد الهواء نقياً كما كان، فقد بات مشبعاً بنفاق البشر وأحزانهم التي تراكمت على مر الأيام. وفي هذا العصر اجتمع كل ما هو خبيث وظالم، حتى صار الإنسان أكثر قسوة، ولا أعتقد أن جيلاً أسوأ من هذا قد مر على الأرض.

أما "سيف"، الذي خرج أخيراً من عزلته بعد أيام من الغياب، لم يكن متأثراً كحال الآخرين. بالنسبة له، كان "نائل" شخصاً اختار أن يأخذ حقه بيديه، ولم ينتظر عدالة السماء. لم يكن صديقاً له حقاً، والموت بالنسبة لـ"سيف" لم يكن أكثر من حادث عابر، فهو نفسه قد وقف على حافته أكثر من مرة ولم يأته.

تحدّث وهو ينظر إلى "سما" التي كانت شاردة في أفكارها:

- تفتكري "محمد" ها يقدر يتخطى؟

أخذت نفساً عميقاً قبل أن ترد بتردد:

- أعتقد آه، "محمد" مرَ بتجارب كتير أصعب من كده.

ثم سألت بنبرة غير واضحة وهي تحاول كبح دموعها التي بدأت تتجمع في عينيها:

- وأنت مش حزين عليه؟

أجابها بصدق وهو يمسح تلك الدموع التي تجمعت في عينيه الخاويتين من أي شعور:

- كنت عارف إن ده هيحصل، النهاية دي كانت واضحة من الأول. هو دخل السكة دي غصب عنه، لكن كان يقدر يخرج منها بإيده، وهو مخرجش. على أي حال، الله يرحمه العشرة بينا كانت موجودة، وده طبيعي إني أحزن عليه.

حاولت تغيير الموضوع بمرح وهي تبتعد عنه مازحة:

- مش ها تكتبلي علاج بما إنك طبيب وكده؟

ابتسم بخفة، حك مؤخرة عنقه وقال بنبرة غزل:

- في الحقيقة، أنا مش مؤمن بالأدوية المضادة... لكن لو الدواء كان جميل زي عينيك، موافق.

ابتسمت له بسعادة، محاولة أن تسرق لحظة هادئة من وسط الألم والواقع المرير، وكأن كل حلمها هو لحظات صغيرة من الفرح، قبل أن تتلاشى مع أحلامهم المتبقية.

كان جالساً في عتمة الليل، يتأمل القمر وكأنه يبحث عن الطمأنينة، يحاول أن يتأكد أن الحياة لم تسلب شيئاً من جمالها بعد ما حدث. لم يكن "سيف" قريباً بما يكفي من "نائل" ليحزن كما حزن "محمد"، الذي قضى معه تسع سنوات، أو "عز" الذي كان صديقاً مقرباً له دائماً لكنه شعر بالحزن لأجل "نائل"، لأنه رحل دون أن ينال حقوقه البسيطة في هذه الحياة مات بلا عائلة، ودفن دون عزاء. كان "سيف" يشعر بالحزن لأن الموت أصبح جزءاً منهم، يتربص بهم في أي لحظة، يمكنه أن يأخذ واحداً منهم.

ربما السماء لم تتغير، والمساء والشمس كما هما، ولكن شيئاً ما تحطم بداخلهم قلوبهم أصابها تغيير، مثل الخريف الذي يسقط الأوراق بلا رحمة. الموت، الخوف، الأمل، والحياة، كل شيء تلاشى. أصبحت الحياة باهتة، والهواء منذ تلك الليلة تحول إلى شيء ثقيل لا يُحتمل، حتى الزمن بدا وكأنه كهل يتسكع قبل أن يرحل بعيداً.

في تلك الأثناء، قرر "سليم " أن يُغير مسار حياته الطائشة كان قد اتخذ قرارات حاسمة، وأراد أن يسلك طريقاً جديداً لاحظ دخول والده المفاجئ، لكن وجوده كان يحتاجه في تلك اللحظة. فقد كانا يقضيان وقتاً أطول معاً في الأيام الماضية.

جلس والده بجانبه، وسأله بقلق:

- عامل إيه النهاردة؟ أحسن؟

ابتسم "سليم" ابتسامة عريضة لم يرسمها منذ فترة طويلة، وأجاب بثقة:

- أنا قررت أخطب أتجوز، أي حاجة المهم سيبوني أشوف حياتي.

شعر والده بصدمة، وكأن الحياة أخذته في دورة سريعة مرّت في لحظة واحدة هل حقاً أصبح ابنه شاباً كبيراً يريد تكوين عائلة؟ الحياة تمر بسرعة مذهلة، والعمر لا يمنحنا فرصاً كافية للسعادة.

ابتسم "ياسر" بفخر، وسأله بحب وفضول:

- طيب، هي مين؟ أعرفها؟ اسمها إيه؟

أجابه "سليم" بسعادة وهو يستحضر صورتها في ذهنه:

- "جني"، أعتقد أنت تعرفها.

توقف والده لحظة ليتأكد من أن ابنه واثق في قراره، خاصة في هذه الظروف الصعبة:

- متأكد إنك بتحبها؟ يعني ليه بتحبها؟

لم يكن "سليم" يعرف السبب بالضبط، لكنه أجاب بما جاء في خاطره فوراً، وكأنه كان يشعر بقلبه يحلق:

- معرفش، بحبها ليه هي الوحيدة اللي بصحى من النوم علشانها، وده عمره ما حصل قبل كده، ولما بصحى مش بتعصب، بالعكس، ببقى مبسوط لما بشوفها. أعتقد دي أسباب كافية.

ضحك والده بخفة، وكأنه يسمع أسباباً غريبة للحب لأول مرة:

- دي أغرب أسباب للحب سمعتها، لكن تمام.

ابتسم "سليم " بحب وهو يرى أن والده تقبل فكرته، ثم تركهم ليخرج مع "جنى". وعلى الرغم من أنه لم يكن عاشقاً حتى الآن بشكل كامل، إلا أنه كان متأكداً من أنه يحبها. بالنسبة له، كانت "جنى" حلمه الذي تحقق.

في صباح اليوم التالي، كانت الشمس لطيفة ترسل أشعتها الذهبية بهدوء، تضيء المكان بأكمله وكأنها تحمل وعداً جديداً لبعض النفوس، بينما نفوس أخرى لا تلتفت إلى هذا الوعد. فالإشراق الحقيقي لا ينبع من الخارج، بل من عمق الروح، وإن لم يكن داخلك مشتعلاً، فلن تراه حولك.

كانت هاجر جالسة في انتظار محمد في أحد الأماكن العامة، ويدها تتردد فوق هاتفها مترددة بين أن تتصل به أو تنتظره قليلاً. لحظة ترددت، رأت هيئته الخاطفة تظهر أمامها. عيناه الرماديتان، المشوبة بحمرة الإرهاق، تخترق روحها بعمق. كانت تلك النظرة، المحملة بأيام وليال من السهر والتعب، تلخص قصته معها. لحيته الخفيفة البنية وقميصه الأسود وبنطاله المتناسق معه زادته هيبة غامضة. جلس أمامها، متهالكاً، لكنها لم تستطع مقاومة شرودها فيه لأول مرة هكذا. شعرت وكأنها تُسحب إلى عالمه، حيث الصخب والهدوء يتصارعان بلا رحمة.

تحدث بصوت هادئ، ملؤه تعب السنين، وهو يقف: -"هاجر" المكان هنا مليان ضوضاء. يلا نروح بعيد عنهم.

أومأت برأسها موافقة، ومشت بجانبه وهي تتابع خطواته الثقيلة وهو يبحث عن مكان هادئ. لكنه، ربما، لم يكن يدرك أن الهدوء الذي يبحث عنه لن يجده، لأن الصخب في داخله كان قد استوطنه بلا رجعة.

جلسا معًا في ركن شبه معزول. لم ينطق أي منهما بكلمة. صمت مطبق خيم بينهما، وكأن كلاً منهما يحاول أن يقرأ ما في داخل الآخر. لكنها كانت تراقبه، تدرس ملامحه التي تبدو أكثر جدية من أي وقت مضى. تساءلت، بصوت قلبها، لماذا هو؟ لماذا محمد؟ لماذا تعلق قلبها به بكل هذا العمق؟

أجابها قلبها بصوت واثق:

- لأنه أول من شعرت معه بمعنى الحب. لأنه كان العوض عن كل شيء فقدته. لأنه حين أتحدث معه، تتلاشى همومي كأنها لم تكن. لأنه بصوته فقط، قلبي يغمره السعادة. هو ملاذي الآمن، الذي يحتويني في أضعف لحظاتي. هو من يتحمل تقلباتي، غيرتي وجنوني، صدقي وبكائي. هو أول من سكن الروح والفؤاد، وأول من جعلني أدرك معنى الحياة البسيط."

رفعت عينيها، مترددة، لتنظر إليه مجددًا. وجدت نفس الانبهار في نظراته، وكأنها المرأة الوحيدة في العالم.

أما هو، فقد غمره شعور غريب. كان سعيدًا، ولكنه لم يستطع تحديد السبب. لم يكن حبًا لملامحها أو لأفكارها، بل لشخصها كاملاً. قلبه أجاب سريعًا: "لم أحبها لأنني بحاجة إلى الحب. هي أكثر من ذلك. تعرف كل عيوبي، ومع ذلك لم تكرهني أبدًا. كنت أذهب إليها محملًا بالأحزان، أعود طفلاً. وقد زالت عني همومي. هي كانت مرآتي، وفي ملامحها كنت أرى نفسي."

قطعت هي الصمت أخيرًا، قائلة وهي تخبره:

- تعرف؟ خالو اتجوز.

لم يدهشه حديثها؛ فقد كان يتوقع أي شيء منها. أجاب بنبرة ساخرة:

-مُبارك ليها، وربنا يعينها على اللي اتجوزته.

لكن عندما تطلعت إلى عينيه، شعرت أن هناك شيئًا غير معتاد. سألته بقلق:

- "محمد" ، في حاجة حصلت صح؟ بقالك شهر مش بتتكلم ولا موجود زي الأول.

تنهد ببطء، وقال بصوت خافت يحمل في طياته ألماً دفيناً:

- نائل مات.

في تلك اللحظة، لم يستطع كبح دموعه ومع ذلك لم يبكي لم تقع من عينيه دمعه واحده كان يختنق و يشهق لكنه لا يبكي كانت مشاعره المتراكمة أخيرًا تتسرب من عينيه بحزن ولكن لم تنجح في البكاء حاول أن يأخذ نفسًا عميقًا، لكنه شعر بأن الهواء لا يصل إلى رئتيه.

ملامح هاجر امتلأت بالحزن وهي ترى ضعفه المكشوف لأول مرة همست له:

-وطبعاً مقولتليش لي؟ محمد، انت عاوز تعيط؟

وفي لحظة استسلام، بكى. بكى ذلك الذي حاول سنوات أن يخفي ضعفه. بكى كأن كل دموع العالم تجمعت في عينيه.

مسح دموعه بقسوة، وأخذ نفسًا عميقًا وقال بصوت متهدج:

- أنا مش بعرف أعبّر، مش عاوز أتعبك معايا.

أمسكت بيده، وربتت عليها برفق:

- أوعدني إنك متحزنش لوحدك تاني. مش عدل نضحك سوا وتبكي لوحدك وإذا ظنيت إنك ولا حاجة في الدنيا دي، افتكر إنك كل حاجة في قلبي، وأحبك. حتى لو ما كنتش عارفة يعني إيه حب.

نظر إليها بعينيه المرهقتين، وقال بهدوء:

- مش أول مرة حد يسبني، بس نائل كان حاجة تانية.

تنهدت وهي تمسك بيده بقوة أكبر:

- ربنا يرحمه ويغفر له وأنا هفضل جنبك دىماً، أنا هنا .

لكنها فجأة، وبجرأة غير متوقعة، قالت:

- محمد، انت تيجي بكرة تتقدم لي.

تحدث مستغربًا بسخرية:

- ده سؤال ولا أمر علشان مش مترجم؟"

أجابته بهدوء، وهي تحاول إخفاء خذلانها الذي تسلل إلى نبرتها:

- بكرة ماما هتعزم 'أنس وحسن' وقاسم، هتعزمهم كلهم وأنا عاوزاك تيجي علشان تقنع ماما ولا إنت شايف إن فيه حل تاني أحسن؟

سألها "محمد" بفضول:

- وإيه هو الحل التاني؟

تنفست بعمق وهي تتذكر حديث والدها الذي جعلها تشعر وكأنها بضاعة تُباع لمن يملك مصلحتها:

- بابا عاوز يدخل في شغل مع خالو، أنا سمعته وهو بيقول لماما، ولما حكيت لخالو قال لي إنه ها يوافق لو بابا وافق على جوازنا فالحل إنك تتكلم مع خالو وهو ها يقنعهم وأكيد كده أسهل.

تحدث محمد بهدوء، لكن عينيه كانت تعكس غضبًا مكتومًا وهو يجز على أسنانه:

- لو ده الحل الوحيد، ها وافق، الغاية تبرر الوسيلة.

وقفت من مكانها بسرعة وهي تقول:

- خلاص، يبقى تروح معايا دلوقتي لخالو.

أمسك بيدها وهو يقوم قائلاً بنبرة عميقة، ملأها إصرار:

- علشانك أقبل أعتذر لعزرائيل بنفسه، لكن مش هقابل 'عادل'.

ابتسمت من أثر كلماته التي تجعلها تسقط في عشق صوته كل مرة، كأن سحر حديثه يسلبها إرادتها في كل موقف. كانت تعلم أن كلاً منهما لا يفهم معنى الزواج تمامًا، ولا يعرفان حقًا ماذا ينتظرهما. لكن ما كانا متأكدين منه هو أن هذا القرار، رغم عدم وضوح معالمه، هو الطريق الوحيد الذي يراهما ناجيان فيه من قيود العائلة والضغط الاجتماعي.

الحب لا يُختار، ولا يُخطط له. يأتي في وقته المقدر تمامًا، كأنه جزء من نسيج الحياة نفسه. حين يولد الحب، يولد معه القدر. وكما نولد، نحب، ونموت.

في حديقة المنزل، كان يجتمعان معًا، كل منهما مشغول بشيء يخصه. كانت "حسناء" تعقد خصلاتها البنية للخلف على هيئة كعكة، وتمسك بقلم في يدها ترسم صورة لفستان أحمر لامع بجانبيها، كانت هناك طاولة صغيرة عليها كتاب وبعض الأوراق وكوب من القهوة بينما كان "عادل" يجلس كعادته بهدوء، يتابع عمله من المنزل، ممسكًا بجهازه اللوحي، ويرتشف من كوب القهوة الخاص به.

فجأة، زُعِر عندما شعر بشيء ثقيل يُلقى عليه. التفت بسرعة ليجد "حسناء" تقف مكانها، غاضبة، تتابعه بنظرة حادة. شعر وكأن قلبه قد توقف عندما رآها، ولم يكن أمامه سوى السؤال:

- إيه شغل العيال دد في إيه؟

أجابته بغضب مماثل:

- إيه يعني؟ أنت متجوزني من غير فرح في المرتين اللي اتجوزنا فيهم! لا، وقاعد تشتغل وتسيبني، ده إيه القرف ده؟

هدأ نفسه وهو يقترب منها قائلاً بلطف:

- معلش يا حبيبتي، إن شاء الله بس أخلص من الشغل ده، و ها افضل معاك تمام.

ابتسمت بلطف ثم أضافت:

- خلاص، هو الاهتمام مش بيطلب، بس أنت حلوف وكده، فقول لي كلام حلو.

تلاشت ابتسامته، وهو ينظر لها محاولاً ابتكار حيلة ليرضيها:

- طيب، أنا أفعال بس مفيش كلام، بس هحاول كل شيء في وقته حلو، إلا عيونك، في كل يوم حلوة.

ابتسمت بخجل، قائلة:

- بس العين مش بتسرق، بدليل أنك سبتني.

أجابها ببساطة وهو يلف خصلاتها على أصابعه:

-مين قال إن العين مش بتسرق القلب؟ أنا من يوم ما شفت عيونك، وأنا مسروق.

بتر حديثه عندما رأى وجهين ينظران إليه، أحدهما ينظر بحب والآخر ظهر على ملامحه الاشمئزاز نظر لهم بنظرة ثاقبة، وهم يقتربون.

تحدثت "هاجر" بخجل:

- "محمد " كان جي يقول حاجة ويعتذر لك.

نظر "محمد" إليها باستغراب، ممسكًا بمشروبه في يده، قائلاً:

- أنا والله العظيم ما حصل وقلت هعتذر! ده أنتِ اللي جيباني.

ركلته "هاجر" في معدته بقوة، فتأوه وهو يمسك معدته بألم، وتحدث وهو يفرد نفسه بتعب:

- إيه الغباء ده؟ أنتِ مطلعتيش بسكوته خالص!

تحدث إليه "عادل" باقتضاب، بعيدًا عنهم:

- اتفضل، خلصنا، عاوز إيه؟

أجاب "محمد" بنفس الطريقة ممتعضاً:

- ولا حاجة هتيجي بكرة علشان أخطب 'هاجر' ولا أخطفها وأتجوزها ونولع في بعض؟

نظر "عادل" إليها بصدمه، يحرك رأسه بعدم فهم، بينما "هاجر" ضربت وجهه بسبب غبائه.

لكن "حسناء" ضحكت بصخب وهي تضرب يدها بيده:

- لا، حلوة، حلوة! أعرف واحد عملها قبلك، بعدين مش تباركلي بقيت مرات أبوك خلاص؟ بس لا تخاف، مش ها اعذبك ولا أخلف عيل يقرف.

أجابها "محمد" بسخرية:

- مش عارف أقولك مُبارك ولا ربنا يعينك على ما ابتلاكِ الحقيقة.

تحدث "عادل" مقاطعًا له:

- خلصت هبل؟ أنا هروح، بس مش علشانك، ده علشان 'هاجر' بس.

لم يرد "محمد" على حديثه، بل أكمل حديثه مع "حسناء":

- بس إحنا ها نبقى أصحاب جامدين على فكرة آه، صح، هتيجي بكرة؟"

أجابته بسخرية:

- لا طبعًا، أنا اتجمع مع العقارب دول سوري يا 'هاجر'، بس هما عقارب فعلاً.

نظر له "عادل" بغيظ من حديثها:

- بطلي كلام معاه، و ملقيش دعوة بيهم.

نظر له "محمد" بخبث واقترب منه وهو يضع في يده علبة العصير الخاصة به:

- اشرب يا عمو، هادي أعصابك ها.

ابتعد عنهم وهو يصيح "لهاجر" ثم أردف "لحسناء"

- هكلمك ها، سلام يا حب .

نظر الآخر في أثاره بغضب من أفعاله، وهو ينظر "لحسناء" بغضب، ثم تركهم ورحل من المكان بأكمله.

في تلك اللحظة، تجمعت المشاعر في حديقة المنزل، وامتزجت الضحكات والاعتراضات، وارتسمت على الوجوه تعبيرات متناقضة، كأن الحياة تتجلى في تلك اللحظات العابرة.

أحب الهدوء، وتلك الأضواء الخافتة، وتلك الزاوية الخاصة بي، وذاك الخيال الذي يأخذني بعيدًا عن واقعي المؤلم. في تلك الزاوية، كانت الأضواء تتراقص ببطء، مما أضفى لمسة سحرية على المكان، وكأنها تحكي قصة أشباح ذكرياتي.

جسد هامد وذهن تتوارد بداخله أفكار عديدة، هذا ما كان هو عليه الآن أسوأ شعور قد تشعر به على الإطلاق هو عدم معرفة إذا ما كان عليك الانتظار أو الاستسلام كل تلك المشاعر كانت تتراكم بداخله كغيمة مظلمة، تظلل حياته بلا رحمة. لا يعرف كيف سيتخطى فكرة أن يموت شخصٌ بين يديه، والأصعب أن يكون الشخص هو صديقه "أحمد"، الذي لطالما كان حساسًا وشاعريًا. الآن، هو في حالة من الندم والخوف والافتقاد واللوم والفراق. كل شيء بداخله مبعثر وغير مرتب، كغرفة لم تُنظف منذ زمن طويل.

أفاق من شروده على صوت الهاتف يصدح بجانبه. أمسك به فوجد المتصل "جميلة". فتح المكالمة في أمل منه أن يتعافى بعد حديثها. تمنى أن تكون كلماتها كالمسكنات التي تريح روحه المتعبة.

تحدثت بهدوء قائلة :

- عامل إيه؟، احسن النهاردة ؟؟

أجابها بهدوء مقتضب:

- الحمد لله، كويس.

تحدثت "جميلة" بهدوء وحنان :

- أنا عارفة إنك تعبان ومنطفئ، بس بأكد لك أني معك، في انطفائك قبل توهجك، وفي حزنك قبل فرحك، معك في آلامك قبل راحتك. أنا معك لم يبتعد الكل عنك، اتأكد أني ها فضل معك.

ابتسم إثر حديثها الذي ربت على روحه بالأمان والطمأنينة.:

- كيف لا أحبك وأنا أملك عيونًا لا ترى غيرك؟ وعقلًا لا يفكر إلا بك، وروحًا لا تحيا بدونك. كيف لا أعشقك؟ وأنت من خصصها الله لي، نبض لقلبي. كيف أبقى على قيد الحياة بدون نبضي؟

تحدثت بخجل من حديثه:

- ما أنت تمام، أهو، وبتقول كلام حلو.

أجابها "أحمد" بحب وهو يبتسم:

- أنا بكون تمام معاكِ أنتِ بس .

تحدثت بلطف وهي تعرض عليه ان تخرجه من حزنه:

- طيب، ما تيجي ننزل "We skate" في الشارع؟

أجابها بحماس وهو يشعر بشغف اتجه شيء بعدما انقطع شغفه منذ الكثير:

- موافق طبعًا، أنا هنزل.

بعد أقل من ساعة، كانا يرتديان الأحذية الخاصة بتلك اللعبة "skating"، يمسكان بأيديهما وكأنهما يجسدان أملًا مشتركًا، يسمحان للهواء البارد أن يسحبهم معه في نية للتحليق خارج الحياة. ابتسمت هي وضحكت بصخب، نظر إلى عينيها وقال بصوت مرتفع، بسبب ضوضاء الشارع، «ضحكتها، طب أوصف إزاي؟ كأنها مجموعة أطفال يرقدون في اتجاهي، ويدي لا تتسع لاحتضانهم جميعًا.»

هذا الاهتمام الذي نجده في لحظات الضعف أجمل بكثير من ألف لحظة حب ومن كلمات "أحبك" ألف مرة. كان كالنور في عتمة حياته، كالعشب الأخضر الذي ينبت في قلب صحراء جافة.

نحن لا نكبر، طفولتنا لا تنتهي، بل تختبئ بالداخل. وحين نجد شخصًا واحدًا نأمن له، نعود صغارًا، نعود أطفالًا بلا أرواح مشوهة من جديد. في تلك اللحظة، شعر وكأن الزمن قد توقف، وأنهم في عالم خاص بهم، بعيدًا عن كل الآلام.

في صباح اليوم التالي، كانت الأجواء غير هادئة بالمرة الشمس كانت ساطعة بشكل كبير، ومع ذلك، كانت الرياح المحملة بالأتربة تعصف بالشوارع بشكل قوي. مما أدى إلى موجة من الحرارة أثرت على الجميع بشكل عام. كان الناس يتفادون الخروج، وفي قلوبهم شعورٌ بالضيق.

دلف "عادل" إلى مكتبه بخطوات ثابتة وسريعة، وهيئته الحادة وجديته أكسبته حضوراً لا يُنسى، مما جعل الموظفين ينظرون إليه بريبة. دخل مكتبه الواسع، الذي كان يضم مكتباً كبيراً مغطى بالأوراق والدفاتر، وطاولة اجتماعات بجانبها ركن خاص لتحضير القهوة، وحائط زجاجي يطل على الحديقة الخاصة بالشركة، مما أضفى جواً من العزلة رغم الانفتاح.

جلس على مكتبه بزيه الأنيق؛ كان يرتدي بدلة سوداء وقميصًا أسود خفيفًا، وبنطالًا من الجينز الأسود. خلع سترته وبدأ في متابعة الأوراق أمامه. وفجأة، صدح صوته المرتفع بغضب:

- أنتِ يا أستاذة "مريم"، إزاي الورق ده يتوافق عليه من غير إذني؟

أجابت السكرتيرة بتلعثم، وهي تحاول ضبط حجابها بخوف:

- والله أنا معرفش، ده "مستر مصطفى" هو اللي وافق عليه، أنا معرفش حاجة والله.

هدأ من صوته وتحدث بنبرة أكثر هدوءاً:

- خلاص، اهدي أنتِ ها تعيطي ولا إيه؟ أنا هتصرف مع "مستر مصطفى".

تحدثت الفتاة "مريم" بخوف، وهي تمسح دموعها:

- أنا مش بحب حد يزعق لي، بس شوية،أنا آسفة عن إذنك.

خرجت بسرعة من أمامه، تحاول تعديل حجابها الذي انفتح حين شعرت بالضيق من صوته المرتفع ونظراته الحادة.

دخل "ياسر" بصحبة "أمير". ورغم هيئتهما الثابتة والمصممة بعناية، كانت نظراتهما هادئة وابتساماتهما تزين وجوههما البشوشة. دلف "ياسر" لمكتب "عادل" فوجد "جيداء" تقف بجانب "مريم" السكرتيرة تحتضنها، تحاول تهدئة حالتها المتوترة.

تساءل "ياسر" وهو ينظر لحالة الفتاة:

- في إيه، مالها "مريم" يا جيداء؟

أجابت "جيداء" بغضب وصوت مرتفع:

- "مستر عادل" زعقلها، وأصلاً هي معملتش حاجة، و"مستر مصطفى" هو اللي وافق على الورق، إذن دي مشاكل بينهم، مش من حقه يزعق لها.

قبل أن تكمل حديثها، خرج "عادل" على صوتهم المرتفع، وهو يسحب خصلاته إلى الوراء بغضب. صدح صوته المرتفع مجددًا:

- مين بيعلّي صوته كده؟ وبعدين أنا مش قولت لك اتفضلي، اطلعي، واعتذرت لك؟

ردت عليه "جيداء" بغضب:

- بس مش من حق حضرتك تزعق لها، ولا تتكلم معاها بأسلوب مش لطيف.

أجابها "عادل" بهدوء وسخرية:

- وأنت بقا ها تقوليلي إيه اللي من حقي وإيه لا؟ على العموم، آسف يا "مريم"، واتفضلي على شغلك، وأنت يا أستاذة، مش أمي علشان تعذّلي عليا.

تجهمت ملامح "جيداء" من أسلوبه، فخرجت من المكان بخطوات سريعة، متبعة "أمير" الذي تابعها بغضب.

بينما دخل "ياسر" و"عادل" إلى المكتب، يراقبان بعضهما في غضب من تصرفاته الغاضبة دومًا. تحدث "ياسر" بلوم:

- ينفع اللي أنت بتعمله ده؟

أجاب "عادل" بهدوء واستفزاز:

- أه، ينفع، انا مش غلط .

اغتاظ "ياسر" من أفعاله وحديثه:

- أنت هتشيلني كده؟ مش كفاية عليا "سليم"، لا، ربنا يبتليني بصاحب متخلف وابن أهبل، اللهم لا اعتراض.

تحدث "عادل" بغضب:

- أنا متخلف؟ ماشي، والأهبل التاني ماله؟

أجاب "ياسر" وهو يلتف بالمقعد:

- ولا حاجة، عاوزني أروح أخطب معاه؟

تشنجت ملامح "عادل" بتعجب:

- هو ده موسم التزواج ولا إيه؟ كله خلاص ها يتجوز؟

تساءل "ياسر" وهو يرتشف من قهوته:

- مين تاني ها يتجوز غيرك، لأنك أصلاً اتجوزت من غير ما تعزمني حتى؟

أجاب "عادل" بلا مبالاة:

- أصلاً معملتش فرح، وانت عارف الموضوع "محمد" و"هاجر" هما اللي هيتجوزه، والنهاردة المفروض يروح يتقدم لها، وهو أصلاً خطبها مع حاله يعني منتهي العبث الحقيقية.

اردف مكملًا حديثه:

- هو "محمد" كويس ولا لأ؟ بصراحة، أنا نفسي مش مستريح له.

تشنجت ملامح "ياسر":

- نعم، أنت بتسألني على ابنك؟ لا، ثانية، وانت اللي مش مستريح له، وهم إيه النظام المفروض هما اللي يستريحوا له؟

أجاب "عادل" بتساؤل:

- ابني؟ تصدق، أنا نفسي مش مصدقها، ده أنا حتى مسلمتش عليه في أي مرة قبلته، كل مرة بخناقة.

نظر له "ياسر" بنظرة تعني "ومن يصنع تلك المشاكل"، فبعض الآخر ابتعد بنظره عنه وأكمل عمله بهدوء.

بينما "أمير" كان يقف في مكتبه بغضب، ينظر إليها: - أنتِ اللي غلطانة، بتعلي صوتك ليه وتتكلمي معاه، أنتِ عارفة إنه قليل الذوق.

أجابته بغضب وهي تنظر له بعدم فهم :

- أنا اللي غلطانة؟ بجد يعني، مش هو اللي عصبي وقليل الذوق، على العموم، شكرًا يا "أمير"، عن إذنك.

أمسك بيدها، يمنعها من الخروج، فسحبت يدها منه وهي تنظر إليه منتظرة حديثه:

- أنا آسف، مقصودش والله، حقك على عيني .

ابتسمت بسعادة بعدم شعرت انه ارضي قلبها وتركت يده وهي تبتسم:

- أنا كمان غلطانة، متزعلش مني.

نظر له بحب:

- حبيبتي، أنتِ مبتغلطيش أصلاً.

ضحكوا سوياً، وهم ينظرون إلى بعضهم بحب وتفاهم، ربما في تلك اللحظات التي يظهر غضبنا فيها، نكون في حاجة إلى تفاهم أكثر من أن نكون محتاجين للحب. ماذا لو أخبرتك أن الحديث معك شيئٌ يشبه الاحتضان، ألف غيمة، أو تأمل سماء مليئة بالنجوم؟

في حي الهرم، كانت الشوارع تضج بالصخب المعتاد؛ الحي المعروف بصياح البائعين، وضحكات الأطفال، وكل ما هو مألوف في الشوارع المصرية. في منزل متوسط الحال، كانت "سمر" تجلس بهدوء، حتى دخل محمد بملامح فوضوية كعادته، قميصه الأسود مفتوح الأزرار وأكمامه مثنية حتى قبل المرفقين، وبنطال جينز أسود، بينما خصلات شعره البنية الناعمة تتدلى بعشوائية.

احتضن "سمر" بحنان، مرحباً بالجميع بابتسامة دافئة. جلس بجانبها، ثم لفت انتباهه "سيف" الذي كانت ملامحه غارقة في الحزن. فمال نحو سمر متسائلاً بمزاح:

- مالك يا سيف؟ ناوي تنتحر ولا إيه؟

"أحمد" لم ينتظر الإجابة، فشرح بنبرة ساخرة:

- لا يا عم، هو متخانق مع مامته، زعلانة منه عشان حاجة صغيرة ونكدت عليه.

"سيف" تحدث بصوت هادئ، وحزن ظاهر:

- كان نفسي أبهرها بحاجة، بس دايماً تشوف كل حاجة كبيرة بالنسبالي تافهة بالنسبة لها.

"محمد" حاول تخفيف الأجواء بحكمة زائفة، وهو يقدم كوب شاي لـ"سيف":

- القاعدة رقم ٣٠ من كتاب "خليك فرفوش" للكاتب العظيم، اللي هو أنا يعني: متحاولش تبهر حد، انت مش بهارات! انت قرفة اقرفهم كلهم لأنهم يستاهلوا.

ضحكت "زينة" و"سمر" على وقع كلماته، بينما اكتفى "أحمد" بنظرة مشككة، مستغرباً من منطقه الغريب.

قاطعت "سمر" الحديث وهي تتساءل بقلق:

- وانت هتقابلهم عادي كده يا محمد؟

"أحمد" رد بمشاكسة:

- ده هما اللي يخافوا يقابلوه، مش العكس!

قبل أن يتمكن أحدهم من الرد، قطع "سليم" الحديث بفرحة غامرة:

- يا جماعة، أنا هروح أخطب الأسبوع الجاي!

صمتت الغرفة لوهلة، الجميع نظر إليه بذهول، غير مصدقين.

"أحمد" ضحك وهو يضربه على كتفه:

- يعني تقولنا قبلها بأسبوع زي الغرباء ولا كأننا أصحاب!

رد "سليم" بضجر وهو يبعده عنه:

- يا بني أنا نفسي لسه عارف النهارده لما مامتها وافقت.

"زينا" لم تستطع أن تمنع فضولها، فسألته:

- وانت بتحبها؟

"سليم" رد بهدوء وهو يحدق في الفراغ، بابتسامة حب صافية:

- أيوه، بحبها أوي.

"سيف" تساءل بإعجاب، بعد أن لاحظ تغير ملامحه:

- وبتحبها ليه؟

رد "سليم" بخفة ومرح:

- ربنا خلقها جميلة وتتحب، أعارض ليه؟

في تلك اللحظة، رن هاتف "سليم"، فأمسك به وخرج إلى الشرفة ليرد على المكالمة التي كانت من "جني".

تحدثت بمزاح:

- إزيك ايه لسه عايش؟

أجابها بغرور:

- أحسن منك، عايش الحمد لله.

ردت بلطف:

- الحمد لله دي‍ما يارب.

بهدوء جمع أفكاره، ثم قال:

- أنا بحبك بكل معنى عرفته عن الحب، وكل ما اكتشفت معانٍ جديدة زاد حبي ليك أكتر.

لم ترد مباشرة على حديثه، بل غيرت الموضوع بسؤال عفوي:

- انت بتنام كتير ليه؟ كل ما أكلمك ألاقيك نايم!

ابتسم وأجاب بلطف:

- بقيتي حلمي، عشان كده بنام كتير.

لم يأتِها رد، فقط أغلق الهاتف فجأة، فنظر إليه مستغرباً، متسائلاً بينه وبين نفسه عمّا قاله ليغضبها.

تحدث مع نفسه بهدوء:

- هو أنا بحبها ليه؟

جاءه الرد من قلبه سريعاً، متذكراً لحظاته معها وكأنها تمر أمام عينيه:

"هي طيبة زي رذاذ المطر، لا تؤذي حد... مزاجية زي الأطفال، تفرح فتعيط، وتحزن فتعيط... عفوية زي السلام... عاقلة زي الأمهات... تقدر تغرقك وتنجيك في نفس الوقت... لطيفة زي الورد، ودافية زي النار في برد ديسمبر... عندها القدرة تخليك تحلف إن ربنا ما خلق إناث غيرها."

في المطبخ، كان "عز" يقف منشغلاً بتحضير كوب من القهوة، وإلى جانبه "سمر" التي تحدثت إليه بنبرة حب وامتنان:

- ربنا يحفظكم يا حبيبي، لما دخلتوا عليّ انت و"زينا" النهارده ما صدقت. خد بالك منها يا "عز" وحافظ عليها، دي وصيتي ليك لو موت، افتكر كلامي

"عز" استدار نحوها بسرعة، وهو يرد بقلق:

- بعد الشر عليك، ليه بس بتقولي كده؟ على العموم، "زينا" في عيني وقلبي، متخافيش.

"سمر" أجابته بهدوء، لكن في صوتها بدا الإعياء واضحاً:

- أنا حاسة إني هأودع خلاص، شكلي عجزت.

في تلك اللحظة، تدخل "محمد" بابتسامة خفيفة قائلاً:

- بعد الشر عليك يا "سمر"، إيه الكلام ده؟ ده اللي كبر في الزمالك بيعلبوا اسكيت .

"سمر" ردت عليه بدهشة:

- إيه اللي إنت بتقوله ده؟ على العموم، خدوا بالكم من بعض، أنا مش هعيش لكم كتير. وانت يا جزمة، حاول تنسى زي ما نسيت تجيبلي الشوكولاتة.

ضحك "محمد" بشقاوة، وهي ألقت عليه إحدى الأحذية في محاولة لإصابته، لكنه هرب منها ببراعة، دون أن يصطدم بشيء.

بينما كان الجميع يضحك، دخلت "زينا" إلى المطبخ، وهي تمسك بأداة تجميل "كونسيلر" لتخفي إحدى الحبوب في وجهها. اقتربت من "عز" وسألته بقلق:

- في حاجة باينة في وشي ولا إيه؟

"عز" رد عليها بهدوء:

- كل ده ملوش لازمة أصلاً، مش فاهم بتعمليه ليه.

نظرت إليه بحزن وشيء من الخذلان، وقالت:

- أصل لسه مقابلة واحدة كانت صاحبتي في المدرسة، وقالتلي شكلك اتغير، ووشك كذا وكذا فزعلت.

وهو يسكب القهوة في الكوب، أجابها بحنان:

- آثار الحبوب في وشك شيء طبيعي، الهالات السوداء شيء طبيعي، لون بشرتك الداكن اللي بيسعدني شيء طبيعي، وزنك لو زاد أو نقص طالما مش بيدرك شيء طبيعي، شعرك خفيف أو كثيف، طولك أو قصرك... كل ده طبيعي. الحاجة الوحيدة الغير طبيعية هي إنك تسمحي لحد وقح يقلل منك، وده هو الغلط.

ابتسمت بخجل، وقالت:

- بتثبتني ماشي، بس لما تحس إن في حاجة غلط قولي.

اقترب منها، ووضع قبلة على رأسها وهو يقول بحب صادق:

- أنا بحب كل نسخك: الفتاة اللي كنتِها، الفتاة اللي عايزة تبقيها، الفتاة اللي فشلتي تكونيها، والفتاة اللي أنت عليها دلوقتي.

الروح هي الأجمل، لكن حب الروح للروح هو الأجمل.

في المعمل الطبي، كانت "حسناء" تقف بقلق وهي تمسك بيد صديقتها "عشق"، تحاول أن تلتقط أنفاسها المترنحة. نظرت "حسناء" إلى "عشق" التي بدت أكثر هدوءًا وتحكمًا في مشاعرها، في انتظار وصول الطبيب. بعد لحظات، دخل الطبيب وتحدث بلهجة رسمية:

- حضرتك محتاجة تطابقي الحمض النووي للشخص اللي شرب العصير ده مع صاحب الشعرة دي، صح؟

"حسناء" اكتفت بالإيماء برأسها دون أي كلمة، ولكن "عشق" قطعت الصمت وقالت بسرعة:

- وكمان مع صاحب العينة دي.

تفاجأت "حسناء". ونظرت لصديقتها بصدمة وهي لا تصدق ما تسمع، عينها كانت متسعة، وكأنها تحاول استيعاب ما يحدث، خرج الطبيب من الغرفة، لتفجر "حسناء" صدمتها بالكلمات:

- أنا قلتلك بلاش! ده مجرد خيال في دماغك، وأنا مش مستعدة لأي صدمة تانية.

"عشق" تقدمت نحوها ببطء واحتضنتها بحنان، محاولة تهدئتها:

- أنا حاسة إن في حاجة مش طبيعية. يمكن يكون ابنك، ولو مش ابنه يبقى تمام، لكن لو طلع ابنه يبقى أكيد من واحدة تانية، مش منها، لأنهم عمرهم ما هيخلفوا طفل سليم.

"حسناء" بدأت تبكي وهي تحتضن "عشق" بشدة، وكأنها تبحث عن دعم لا ينضب. خرجتا من المعمل بسرعة، وعشق قادتهما إلى سيارتها، حيث جلستا بصمت، تحملان قلقًا أثقل من الكلمات.

في ليلة هادئة تحمل في طياتها الكثير من الترقب والقلق، كانت "هاجر" تقف في شرفة منزلها، متأملة السماء المتلبدة بالغيوم، وكأنها تبحث عن إجابة بين النجوم. الهواء البارد لامس وجهها، لكن حرارة المشاعر داخلها كانت تشتعل. كانت تعرف أن اليوم ليس كسائر الأيام، فالتوتر يتسلل إلى قلبها كلما فكرت في المواجهة القادمة. صوت ضجيج السيارات من الأسفل جعلها تلتفت، لترى لحظة وصول "محمد" و"عادل"، ومعهم عائلة "حسن" و"أنس". هذا اللقاء، الذي كانت تخشاه، قد بدأ.

في الأسفل، كان الجميع يجلس في تجمعات مألوفة، لكنها كانت بالنسبة لها كالمحكمة التي تنتظر إصدار الحكم. نظرات الحقد والخبث تتناثر من حولها، مما جعل قلبها ينقبض.

همس " أنس " إلى ابنه "قاسم" محاولًا تهدئته:

- اهدى كده علشان الليلة تعدي.

لكن "قاسم" لم يستطع كبح مشاعر الغضب والحقد التي طغت على وجهه. مشاعر متناقضة بين الغضب والغيرة كانت تجتاحه كلما فكر في "هاجر" وارتباطها بـ"محمد".

في تلك اللحظة، قاطع "مصطفى" الحديث المترقب عندما التفت إلى "عمر":

- روح نزل هاجر، شكلنا قدام الناس وهي مش معابرهم فوق كده.

"عمر" كان يشعر بالثقل وهو يصعد الدرج، كما لو أن كل خطوة كانت تزيد من حمله. عند دخوله الغرفة، وجد "هاجر" جالسة مع "يزن"، الذي ركض نحو والده بسعادة بريئة:

- بابا، ممكن نلعب مع بعض زي ما 'ديدو' بيلعب معايا؟

لكن غضب "عمر" كان أكبر من أن يتعامل مع براءة طفله، فرد عليه بحدة:

- أولاً، متتكلمش مع 'ديدو' تاني ولا تلعب معاه. ثانيًا، روح أوضتك دلوقتي.

"يزن" خرج من الغرفة بخوف وحزن، يدوس على الأرض بقدميه الصغيرتين، تاركًا خلفه جوًا من التوتر. ثم التفت "عمر" إلى "هاجر" بعينين مليئتين بالتحذير:

- انزلي معايا تحت، بابا بيقولك.

"هاجر" كانت تعلم أن المواجهة آتية لا محالة، لكنها لم تجب عليه. بدلًا من ذلك، نظرت إليه نظرة غاضبة، قبل أن تنهض بشموخ، متوجهة إلى السلم. على الرغم من خوفها الداخلي من

المقابلة، كانت متأكدة من أن "محمد" لن يتركها وحدها في هذه المعركة، فكانت تمشي بثقة تعلم جيدًا أنها تستحق أكثر مما يعرضونه عليها.

في الأسفل، كانت "هاجر" تُحاط بنظرات مختلفة. "قاسم" نظر إليها بإعجاب دفين، بينما "أنس" لم يستطع إخفاء نظراته الشهوانية القذرة، التي لطالما شعرت بها منذ البداية. لكن هذه المرة، لم تكن "هاجر" الفتاة الخائفة والمترقبة، بل كانت امرأة قوية، ترتدي فستانًا أسود طويلًا، وشعرها البني المتدلي على كتفيها يزيد من روعتها. كانت نظراتها ثاقبة وثابتة، تقرأ ما في قلوبهم، وكأنها مستعدة للرد على أي هجوم.

الجلسة كانت مليئة بالتوتر حتى قطعت "رزان" الصمت بمكر:

- أنا سمعت إن 'محمد ' خطبك، الكلام ده صح؟

"هاجر" رفعت رأسها بثقة، لأول مرة ترد بهذه القوة:

- حاجة متخصكيش، وبصراحة، آه، اتخطبت لمحمد، وتقريبًا مش هنعزمك على فرحنا.

الغضب اشتعل في عيني "رزان"، وردت بفظاظة:

- وهو هيبصلك أنت؟ ده أكيد بيشفق عليكي.

قبل أن تتمكن "هاجر" من الرد، دخل "محمد" الغرفة برفقة "عادل". كان دخوله كالعاصفة، هدوء مظهره لم يعكس الحزم الذي يحمله في داخله. كان يرتدي قميصًا أسود مع سترة سوداء بدون أكمام، مما أضفى عليه جاذبية ورهبة في آن واحد. دون أن يلتفت إلى الآخرين، توجه مباشرة إلى "رزان":

- آه، كلامها صح. وخطبتها. وإنتِ والعائلة الكريمة مش معزومين.

نظرات "محمد" كانت حادة، و"عادل" بجانبه كان يضربه بخفة على ذراعه، محاولًا تهدئته دون أن يراه أحد. جلس "محمد" بجوار "هاجر"، وقلبه مليء بالرغبة في حمايتها من الجميع.

بدأ "مصطفى" الحديث بإحراج:

- منورين يا جماعة.

"محمد" رد عليه بنبرة تحمل السخرية:

- بنورك يا حمايا.

ثم تدخلت "سوزي" بسخرية:

- حمايا؟ مين ده؟

رد عليها "محمد" باستفزاز، محاولًا إظهار تميزه:

- هو أنا مقولتلقيش؟ معلش، مش إنتي بقيتي حماتي، وهو حمايا، علشان أنا هتجوز بنتك AŞkım، 'حبي'، هتبقى karım، زوجتي .

تعمد "محمد" استخدام اللغة التركية، لأنه يعلم أن "سوزي" كانت تمنعه من تعلمها في صغره، لكنه تعلمها ليظهر لها تحديه.

تحدث "أنس " بنبرة باردة وساخرة:

- معلش يا محمد، ده كلام كبار، و'هاجر' مخطوبة 'لقاسم' من أربع شهور، واتفقت مع 'مصطفى' على كده. مش كده يا هجورة؟

لكن "هاجر" كانت قد بلغت نقطة اللاعودة. رفعت رأسها بغضب وأجابت بوضوح:

- أولًا، متقوليش يا هجورة، لأنها كلمة محمد، وثانيًا، لا، أنا مخطوبة لمحمد.

ابتسمت في نهاية حديثها، واستمتعت برؤية الحقد يتلاشى على وجه "حسن".

"محمد" همس لها بابتسامة مليئة بالحنان:

- برافو عليك يا aŞkım, sevgili ".

"هاجر" ردت بابتسامة خجولة، ولكن بعينين مليئتين بالفرح:

- فرحانة فيهم أوي.

"عادل" تدخل بهدوء قائلًا:

- طبعًا زي ما سمعتم، و'هاجر' موافقة. وأكيد 'سوزي' مش هتلاقي أحسن من محمد، ده ابنك مش كده؟

"سوزي" لم تتمالك نفسها، لكن قبل أن تتمكن من الرد، كان "محمد" مستعدًا. تحدث بحدة:

- لو عندك شرط قولي.

"سوزي" نظرت إليه باستفزاز:

- ابنتي مش هتعيش معاك إلا لو قطعت علاقتك بالست اللي بتقول إنها أمك وبالناس اللي انت كنت بتعرفهم.

رد "محمد" بثبات:

- شرطك مرفوض، لو 'هاجر' طلبت ده، يبقى ليها القرار.

في النهاية، نهض "محمد" وأمسك بيد "هاجر" بقوة، وكأنهما يعلنان انتصارهما أمام الجميع:

- يلا بينا يا aŞkım، عندنا تجهيزات كتير نفرح بيها.

خرج الاثنان من المنزل، تاركين خلفهم الماضي بكل حقده،

بينما كانت أيديهما متشابكة، استعدادا لحياة جديدة مليئة بالتحديات، لكنهما على استعداد لمواجهتها سويا.

البارت الثالث عشر

"اختلاط مشاعر"

في مساء حالك تخلله هدوء غير مألوف، كانت الأضواء الخافتة تتراقص على الجدران، بينما همّ "سليم" و"ياسر" و"عشق" بالدخول إلى منزل "جني". كان "سليم" في غاية الوسامة، إذ ارتدى بدلة سوداء مع بنطالٍ من خامة الجينز، وقميصٍ أبيض، مما أضفى عليه طابعًا من الأناقة والجاذبية. زينت لحيته المنظمة و شعره المنقسم على جانبي وجهه ملامحه، فبدى كأنه يخرج من لوحة فنية.

بينما كانت "جني" تتأملهم من داخل الغرفة، عكست عينيها اللامعتين فرحة عارمة، لكن والدتها "كاميليا" كانت تعبر عن عدم الرضا بمظهرها الجامد الذي لا ينم عن مشاعر إيجابية. بدت وكأنها قد أخذت على عاتقها مسؤولية تأمين ابنتها من خيبات الأمل المحتملة.

دلف "ياسر" بهدوء، وابتسم لهم والدة "جنى"، مما جعل الأجواء أكثر توترًا، كأنما ينتظر الجميع الانفجار الوشيك.

تحدث "ياسر" بهدوء موجهًا حديثه لـ"سليم":

- ما تنطق، قولها.

ردّ "سليم" همسًا، كأنه يخشى أن يزعج هدوء الليل:

- مش عارف، طب قول انت.

استجمع "ياسر" شجاعته، وتحدث بفصاحة وهدوء:

- إحنا النهاردة جايين نطلب القرب من حضرتك.

أنهى حديثه بابتسامة هادئة، موزعًا نظراته حولهم كأنه يسعى لكسب ثقتهم.

لكن رد "كاميليا" جاء ببرود وغباء وهي تنظر تجاه "جنى":

- القرب في مين؟

تحدث "سليم" همسًا في أذن "جنى":

- كنت ها تجنن وأعرف عدم الاستيعاب عندك بسبب مين، بس الحمد لله عرفت.

ضحكت بصوت مرتفع، مما جعل الأنظار تتوجه نحوها، فأخفت ابتسامتها بيدها، كأنها تشعر بالخجل.

حرك "ياسر" رأسه بعدم رضا، وتحدث مرة أخرى:

- إحنا طالبين إيد "جنى " لابني، للأسف "سليم".

تنهدت والدة "جنى" وهي تنظر إليه، وكأن هموم الدنيا كلها تجمعها:

- الحقيقة أني عرفت من "جنى " الطريقة اللي اتعرفتوا بيها وكواليس العلاقة اللي مكنتش غير لمدة شهرين، ومش شايفة إنكم كده صح. كنتوا محتاجين وقت أطول.

تحدث "سليم" بهدوء، مستعيدًا توازنه:

- أنا فاهم حضرتك تقصدي إيه، بس لأن "جني" غالية أوي عندي، أنا محبيتش نكون مع بعض غير في إطار رسمي.

ردت "كاميليا" بهدوء، وهي تنظر إلى ابنتها بحزن:

- وأنا الحقيقة اتشرفت بمعرفتكم، بس أنا مش موافقة لأني مقدرش أحكم على بنتي تعيش نفس تجربتي لمرة تانية.

تبدلت ملامح "جنى " كليًا وهي تنهض من مكانها، تنطلق بعيدًا، وتمسح دموعها التي تجمعت في عينيها كأنها تعبر عن وجع عميق.

بينما احتلت ملامح الخذلان وجه "سليم"، فخرج مسرعًا من المنزل، كأن الألم يثقل كاهله.

تحدث "ياسر" بنفس الهدوء وهو ينهض من مكانه:

- اتشرفنا بمعرفة حضرتك، وأتمنى تعيدي النظر في كلامك، لأن لو هم فضلوا على حبهم، أنا مستعد أتحارب عشان تشوفيهم مع بعض.

أنهى حديثه وخرج مع "عشق" للخارج، وصعدوا إلى السيارة. كادت "عشق" أن تتحدث، لكنه أوقفها برفق، ربط على يدها كي تصمت الآن.

بينما في المنزل، خرجت "چنى " وعيناها حمراء من أثر البكاء، ومساحيق التجميل تذوب على وجهها عندما اختلطت بدموعها. وقفت تنظر إلى والدتها بثبات، وكأنها تحاول أن تقاوم هذه المعركة الداخلية.

تحدثت والدتها بنبرة هادئة وهي تمسك يدها:

- أنا مش عاوزكي تعيدي تجربتي تاني، أنتِ مش هتقدري تعيشي- زيي. أنا اتسرعت زمان ودخلت في علاقة أنا متأكدة إنها هتفشل، علاقة كلها شهرين وأربع شهور جواز، بعدهم لقيت نفسي لوحدي، مفيش حد معايا غير طفلة عمرها أيام، هربت بيكي وعملت كل حاجة علشان تكوني سعيدة.

أجابت "چنى " وهي تضع يدها على أذنها تمنع نفسها من السمع:

- كفاية، مش عاوزة أسمع، مش عاوزة.

لم تستمع "كاميليا" لها، بل أمسكتها من ذراعيها ودارت بها، متحدثة ببكاء:

- مش هتقدري تربي طفلة لوحدك، مش هتقدري تتجاهلي كلام الناس، مش هتقدري تسمحي لنفسك مش هتقدري تنامي مطمئنة، محدش يستهالك، كلهم زي بعض، كلهم زي بعض، سمعاني؟

ابتعدت "چنى " عنها، وهي تلقي باللوحات المعلقة أرضًا، وتقذف المقاعد بقدمها حتى وقعت أرضًا، تسحب خصلاتها البنية للوراء بقوة، وهي تصرخ:

- مش كلهم زي "عماد زهران"! أنا مش أنتِ وهو مش هو، إحنا مختلفين. أنا بحبه، هو الوحيد اللي ربنا خالاني أطمئن وأنا معاه. مش أنت قولتيلي الطمأنينة أعلى مكانة من الحب، فلا تقترب حين تحب، ولكن اقترب حين تطمئن. أنا اطمأننت معاه، أعمل إيه؟ أعمل إيه؟

ضربت الأرض بقدميها، وما زالت تحتضن نفسها، تبكي على كل شيء حدث لها، وكل لحظة لم تشعر فيها أنها بخير أو أنها في أمان. هذا الأمان الذي لم تجده أبدا، مهما ابتعدت عن الناس، مهما اختبأت وراء غرفتها في سكينة، تظل غير آمنة، وكأنها ولدت هاربة، وستظل هكذا حتى الموت.

في سيارة "محمد"، كانت الأجواء هادئة جداً، حيث جلس كل منهما يحدق في الفراغ، غارقين في أفكارهم كان محمد يناقش نفسه حول قراره وماذا سيفعل في الأيام القادمة.

أخذ "محمد" ينظر إلى السماء، وقت الغروب، فكان المشهد مثاليًا لحالته. تمامًا كما يختفي نور الشمس تدريجياً ليحل الظلام مكانه، شعر أن النور بداخله يتلاشى ببطء، ليغمره سواد الليل.

وفي حديثه الداخلي، تساءل: "هل يمكن أنني لم أكن السند الذي تحتاجه؟ ربما لم تحبني من الأساس أو ربما يمكن ان تمل مني! كيف سنعيش معاً؟"

كانت الفتاة، التي تحولت إلى جبر يُخفف من حزنه، كأنها قادرة على امتصاص حزنه وتحويله إلى فرح خالص. تمتلك جمالًا روحيًا يجعل أعمدة الإنارة في الطرقات تتوارى خلف خطواتها. لم تختلط بأحد إلا وتركت فيه أثرًا جميلًا لا يُنسى. بسيطة في التعامل، معقدة في الفهم، شديدة الخجل ولكن سريعة الغضب، تفرح بأبسط الأشياء، وإذا رضيت، انطلقت مشاعرها. إذا أحبت، أعطت، وإذا أعطت، تجملت: فما الحاجة لي بالعالمين بعدها؟

بينما كانت تنظر إلى عينيه، شعرت أن الأمان كله كان في وجوده. قالت في نفسها:

"أحببته بروحي، وقلبي، وعيني. أحببته بكل ما أملك، حتى أن غيابه يعني غياب كل شيء. أحببته بصدق حتى أيقنت أنه العالم الذي يسكن بداخلي. أضيع فيه وإليه أحببته وكأن قلبي لم ينبض قبل لقائنا. في بداية الكلام ونهايته، أحبك."

تحدثت بهدوء وهي ما زالت تنظر إلى عينيه:

- طيب، وبعدين هنعمل إيه؟

أجابها بسؤال آخر:

- "هاجر" إنتِ بتحبيني؟ ومش عايز أسمع مش عارفة أوصف، قولي اللي بتحسيه وأنا هفهم أنا زيك، معنديش إحساس أصلاً.

مطت شفتيها، شبكت يديها، وأخذت نفسًا عميقًا قبل أن تقول:

- زي ما قولتلك. أنا مش فاهمة إحساس الحب ده، بس بحس بحاجة أجم. بحس إني مش خايفة منك ولا خايفة وأنا معاك، بحس إني ممكن أتكلم معاك من غير ما أتحرج. بحس بالأمان بحس بحب، يمكن.

تنفست بهدوء مرة أخرى، وأردفت:

- بحبك بس مش عارفة أقولها بشكل يوصف اللي جوايا لكن بجد، أنا بحبك جدًا نفسي نكون مع بعض، بس أنا خايفة من الزواج نفسه، فاهمني؟

لم يُجبها على الفور، بل كان يستمع إليها بصمت، حتى أن كلمة "أحبك" ترددت في ذهنه وكأنها سحر غمر قلبه. رأى في عينيها أشعة الشمس الغاربة وهي تنطق بحبها. فلم يعد يرى شيئًا في العالم سواها.

تحدث "محمد" بهدوء وهو ينظر إليها:

- أنا مش هاطلب منك أي حاجة تخوفك بصي، أنا نفسي مش جاهز للي بتقوليه مش هاخد أي خطوة غير لما تيجي تقوليلي إنك موافقة وواثقة فيا حتى لو اليوم ده ما جاش، كفاية إنّي أصحى كل يوم وأشوف عيونك.

تبدلت ملامحها للخجل ونظرت إلى الأرض، ثم سألته بجدية:

- طيب، ها نعيش فين؟ عندك في الشقة؟

ابتسم، وكأن الفكرة أن يعيشا معًا بعثت فيه السعادة، وأجاب:

- لا، عندي ليكي مفاجأة، تعالي نروح نشوفها.

قاد السيارة باتجاه المنزل الذي خصصه لها، وهو المنزل الذي كان يعمل عليه طوال أربع سنوات، ليجعله جاهزًا لزواجهما.

لم يكن الطريق طويلاً؛ فقط ربع ساعة حتى وصلا إلى المنزل.

وقفت "هاجر" أمام المنزل تتفحصه وهي متأكدة أنها رأته من قبل. كان المنزل بحديقة صغيرة تحوي بعض الأشجار والنباتات، وفي وسطها طاولة صغيرة يتوسطها مقعدان، وأعلى الطاولة علبة زجاجية تحتوي على أربع ورود حمراء. بالقرب من الطاولة كان باب المنزل، من خشب أسود مزخرف.

أمسك بيدها وقادها للداخل، وأخرج مفتاحاً خاصاً من جيبه. فتح الباب، ووقفت "هاجر" تتأمل المكان بابتسامة هادئة، مدهوشة من دقته. كان هو يتابع ابتسامتها، وقد شعر بالرضا.

تحدثت وهي تستدير نحوه:

- أنا حاسة إني شوفت البيت ده قبل كده، بيفكرني بحاجة؟؟

ابتسم لها وأجاب بهدوء:

ها افكرك فاكرة لما قولتيلي زمان إن بيتكم مش عاجبك؟ ووصفت لي البيت اللي نفسك فيه؟ الكلام ده كان من خمس سنين، ومن ساعتها وأنا بشتغل عليه علشان أجهزه لك زي ما وصفتي.

نظرت إليه بحب وامتنان، غير مصدقة أن أحدهم قد يتذكر حديثًا عابرًا منذ خمس سنوات ويهتم بتنفيذه بهذه الدقة.

- أنا مش عارفة أقولك إيه، بجد أنت أجمل حاجة حصلتلي.

تفقدت المكان بعينيها عند دخولك، تلاحظ ركنين: الركن الأول يحوي مدفأة نارية صغيرة بجانبها مكتبة بها بعض الكتب، وطاولة قهوة صغيرة مع كرسيين. الركن الآخر يحوي ثلاث مقاعد جلدية باللون الأسود وأريكتين متطابقتين. الجدران كانت مطلية بألوان هادئة مع لمسات من الألوان الزاهية.

صعدا إلى الطابق العلوي، لكنها لاحظت توقف "محمد" عند بداية الدرج. فتساءلت:

-إنت مش طالع؟

أجابها بهدوء:

- لا، علشان تكوني على راحتك، وبعدين دي غرف نوم، مينفعش أطلع معاكي.

ابتسمت له وأومأت برأسها موافقة، ثم صعدت وحدها لتتفقد الطابق العلوي. كانت الدرجات مغطاة بسجادة زرقاء ناعمة.

وعند طريق العودة بينما السيارة تشق طريقها نحو الأفق البعيد، كان "محمد" يوجه نظراته نحو الطريق، بينما "هاجر" استندت برأسها على زجاج النافذة. كانت الأفكار تتدافع في عقولهم، والأحاديث تترك صداها في القلوب. في تلك اللحظة، شعرا بأنهما على مشارف بداية جديدة، مليئة بالتحديات والمجهول، ولكنها أيضاً مليئة بالحب والأمل.

تحدث "محمد" بهدوء وهو يحاول كسر الصمت مرة أخرى:

- عارفة يا هاجر؟ كل مرة بشوفك فيها بحس إن الحياة بتديني فرصة تانية، كأننا بنتخلق من جديد، مش مهم إيه اللي حصل قبل كده، المهم إن إحنا سوا.

نظرت إليه بابتسامة دافئة وقالت:

- وأنا معاك يا محمد. مفيش حاجة تقدر تهزني، حاسين ببعض وكأن الدنيا كلها اتجمعت حوالينا.

ومع تلك الكلمات، التفت "محمد" نحوها وابتسم بتلك الابتسامة التي كانت دائماً ما تطمئن قلبها، وكأن كل شيء سيكون بخير، مهما كانت التحديات.

أكملوا رحلتهم، بينما الأفق كان يستقبل شمس جديدة، تحمل في طياتها وعوداً بأيام أجمل، وأحلاماً سيتشاركونها معاً.

وفي تلك اللحظة، لم يكن هناك شيء يعكر صفو هذا السلام الداخلي الذي ملأ قلوبهم، فكانت تلك الرحلة هي البداية الحقيقية لحياة لم يخططوا لها، لكنها أصبحت محور عالمهم.

في صباح اليوم التالي، كانت الأجواء هادئة، والشمس تشرق برفق من بين الغيوم، كأنها تبعث برسالة تفاؤل ليوم جديد. الهواء العليل يمر برفق على الأشجار، يحرك أوراقها كأنها

ترقص فرحا. هبطت "جنى " من غرفتها على مهل، ووجهها لا يزال يحمل آثار الليلة الماضية، تلك الليلة التي قضتها بين القلق والتفكير.

ولكن صباحها كان مختلفا. كانت في أعماقها تعلم أن هذا اليوم سيكون نقطة تحول.

وصلت إلى الصالة لتجد والدتها تصلي في خشوع، فانتظرت بصمت. شعرت وهي تنظر إلى والدتها أن قلبها بدأ يهدأ، وكأن الصلاة التي تؤديها والدتها تمدها ببعض من السلام الذي كانت بحاجة إليه. عندما انتهت والدتها واعتدلت في جلستها، تقدمت "جني" نحوها بخطوات هادئة وغير معتادة.

سألت بصوت خافت، وكأنها تحاول أن تختبر مدى استعداد والدتها لسماع أي شيء منها بعد ما حدث في الليلة الماضية :

- أنا خارجه، محتاجة حاجة؟

رفعت والدتها نظرها إليها بابتسامة صغيرة، ووضعت يديها على ذراعيها بحنان:

- أنا آسفة على اللي حصل امبارح... أنا موافقة، واتصلت بسليم وقلت له شروطي، وهو الحقيقة كان في منتهى الذوق ووافق وفرح جداً.

في تلك اللحظة، شعرت "جني " وكأن الشمس التي رأتها من نافذة غرفتها قد دخلت قلبها. ملامحها أشرقت، والابتسامة التي كانت مفقودة منذ أيام عادت لتزين وجهها. احتضنت والدتها بقوة، كما لو كانت تخشى أن يتبدد هذا الفرح سريعًا

سألتها بنبرة مليئة بالفضول والسعادة:

- وشروطك كانت إيه؟

ردت والدتها بهدوء وحزم:

- الخطوبة تكون لمدة ثلاث سنين، يعني بعد ما تتخرجوا إنتي وهو، وتتعرفوا على بعض أكتر في إطار رسمي، بدون أي حاجة خارجة. أكيد فاهمة قصدي.

"جنى " لم تستطع إخفاء فرحتها، فأمسكت بيد والدتها وبدأت تدور بها حول نفسها بحماس، وكأنها طفلة صغيرة تلقت هدية لطالما حلمت بها:-

- هما كتير ثلاث سنين، بس المهم يكون معايا! وأصلاً مش هنكملهم ونتجوز. خلاص، حضري-لي فطار، إنتي عارفة إني لما بفرح بجوع!

والدتها نظرت إليها بابتسامة ممزوجة بعتاب ساخر:

- آه، وخلصتي على التلاجة كلها امبارح لما زعلتي. لأنك لما بتزعلي بتجوعي. سؤال واحد، الأكل ده بيروح فين؟ يعني الناس تاكل يبان عليها وتزيد في الوزن، لكن إنتي ثابتة ليه يا ماما؟

ضحكت "جني" وهي ترد ببرود مزيف:

- خلاص، أنا هروح أفطر مع سولي. باي يا "كمي" يا جامدة.

خرجت من المنزل مسرعة، والابتسامة لا تفارق وجهها. والدتها وقفت تتابعها من النافذة، تتأملها وهي تختفي في الشارع، داعية في سرها أن يدوم فرح ابنتها ويحمي قلبها النقي من تقلبات الأيام.

بينما استيقظت "هاجر" في منزل "عادل"، كانت ملامحها متأثرة بإرهاق النوم: شعرها غير مرتب وعينيها نصف مغلقتين بنعاس، ووجهها هادئ على غير عادته. كانت ترتدي بيجامة سوداء قطنية، أول ما صنعت بيدها، وقد حملت على صدرها عبارة كتبت بخط "محمد"، وتقلتها هي إلى قماش الملابس: "من أين أعبر يا كل اتجاهاتي؟ وما انهزمت بجيش جاء معتدياً حتى انهزمت بعينيك البريئتين."

هبطت إلى الأسفل بعد أن بدلت ملابسها بأخرى أكثر ملاءمة للخروج. ارتدت فستاناً طويلاً أبيض قطنياً، عليه زهور سوداء صغيرة، بأكمام طويلة، وحذاءً رياضياً أبيض. تركت شعرها منسدلاً خلفها دون أن تضع مساحيق التجميل كعادتها.

ألقت السلام على "حسناء" و"عادل"، وجلست بجوار "حسناء" التي لاحظت شيئاً مختلفاً فيها، فقالت لها بلطف:

- مالك؟ شكلك متغير النهاردة؟

أيدها "عادل"، وهو يجمع أوراق عمله داخل حقيبته الجلدية، قائلاً:

- قولتلها كده برضو، قالت مفيش.

أجابتهما "حسناء" بابتسامة خفيفة:

- أنا تمام، مفيش حاجة. أنتِ خارجة فين؟

ردت "هاجر" بارتياح:

- هنروح أنا و"محمد" مع أصحابنا تزور "سمر".

هزت "حسناء" رأسها موافقة، وقالت:

- تمام يا روحي، ابقي سلميلي على البنات وعلى "محمد". أنا هروح النادي مع "عشق".

أومأ "عادل" برأسه علامة الموافقة، ثم خرج معها إلى السيارة. وعندما استقرت في مقعدها، لاحظ "عادل" أنها لا تزال تبدو قلقة، فسألها بصوت يحمل بعض القلق:

- أنتِ فيكي حاجة، مالك متغيرة؟

أجابت "حسناء" بتردد:

- لا، مفيش، أنا تمام. متخفش.

أمسك بيدها بحنان وربت عليها مطمئناً، في محاولة لتهدئتها. لكن عقل "هاجر" كان مشغولاً بأمور أخرى. جلست في السيارة خلف السائق، تحدق في الطريق بشرود: الأيام الماضية أثقلت قلبها بالاضطراب، وكانت تشعر بأنها تحتاج إلى حديث صريح مع الطبيبة "حياة" التي اعتادت أن تستشيرها في أوقاتها العصيبة.

دخلت العيادة بخطوات ثابتة، وطلبت من السكرتيرة أن تُبلغ "حياة" بقدومها. بعد لحظات قليلة، أتاها الإذن بالدخول. استقبلتها "حياة" بحرارة، فلم تلتقيا منذ شهرين أو أكثر. بدأت "هاجر" تسرد ما بداخلها، وبعد أن انتهت، تنفست بعمق، منتظرة نصيحة "حياة".

قالت "حياة" بهدوء، محاولة أن تكون عقلانية في حديثها:

- أنتِ بتقولي إنك خايفة على "محمد"، وده طبيعي. أكيد هتحاربوا كتير، وده العادي. بالنسبة لأهلك، "محمد" نفسه مطلبش منك أي حاجة تجاههم. أنا اللي طلبت منك تحاولي تحتويه. مش معقول بعد كل ده وأنتِ مش بتقدمي حاجة، مع إن هو تنازل عن كل حاجة.

نظرت "هاجر" إليها بهدوء، وهي تشعر بالتشتت، لكنها قررت المحاولة، فقالت:

- طيب، أنا هحاول أكيد. بس أنا خايفة عليه بجد... أنا بحبه. أعتقد ده هو الحب، مش كده؟ يعني مش أنت حاسة بنفس اللي أنا بقوله؟ يبقى ده هو الحب.

تنهدت، وأكملت حديثها بصوت خافت:

- أنا زعلانة على نفسي أوي، وزعلانة عليه. تخيلي إحساسك وأنت مش عارفة تفهمي إحساسك ولا تحسي زي الناس العادية. السبب ماما وبابا. مش فاكرة إنهم حضنوني مرة، ولا حتى قالولي بحبك. اللي تعلمته منهم هو القسوة.

غصت الكلمات في حلقها وبدأت الدموع تتساقط على خديها رغماً عنها، مسحتها بسرعة وهي تحاول الحفاظ على رباطة جأشها. "حياة" مدت يدها نحو "هاجر" بلطف، محاولة تهدئتها، لكنها شعرت أن "هاجر" بحاجة لبعض الوقت وحدها.

استأذنت "هاجر" وخرجت من العيادة، وهي ما زالت تشعر بثقل قلبها، متوجهة لموعدها التالي.

بينما كان "محمد" يستعد للخروج، وقف أمام المرآة يتفحص مظهره بعناية، وكأن كل تفصيلة في إطلالته تحكي عن شخصيته المتحفزة لمواجهة العالم. ارتدى تيشيرتًا أسود طويل الأكمام برقبة مرتفعة، يتناسق مع بنطال جينز أسود وحذاء رياضي أبيض. نظر لنفسه برضا، وكأن هذه الإطلالة كانت بمثابة درع يحجب خلفه صراعاته الداخلية.

دق الباب فجأة، فأفاق من أفكاره وتوجه لفتحه. كانت "رزان" تقف أمامه، ترتدي فستانًا أسود قصيراً وجاكيت طويلًا يصل إلى قدميها، يتماشى مع حذائها ذو الكعب العالي. دخلت دون أن تنبس بكلمة، لكن وجهها الشاحب وعيناها المتوسلتان كانتا تتحدثان بصوت أعلى من أي كلمات.

نظرات "محمد" كانت ممتلئة بالسخط، تفيض بالغضب المكتوم الذي لم يعد يطيق حبسه. سألها بلهجة مقتضبة، وكأن وجودها في المكان نفسه يثير فيه كراهية لا تحتمل:

– إيه اللي جابك هنا؟

فعت "رزان" عينيها إليه، نبرتها ضعيفة وهي تمسك بيده وكأنها تستجدي أي ذرة شفقة، أي بصيص أمل يعيد الأمور كما كانت:

- ليه؟ ليه حبيتها هي وأنا لأ؟ أنا عملت كل حاجة علشانك، هي ما عملتش حاجة. لو علشان أهلي وبابا، نبقى متعادلين. بابا بوّظ حياتك، أبوها كان أسوأ منه. ليه هي؟ ليه مش أنا؟

انفجر بكاؤها، لكنه لم يحرك شيئًا في قلب "محمد". كانت دموعها بالنسبة له فارغة من المعنى، مجرد جزء من تمثيلية اعتادها. احتقرت عيناه دموعها، وانطلقت كلماته ببرود قاتل:

- علشان بحبها. علشان عمرها ما أذت حد، ما كرهتش حد. علشان هي أنقى منك بكتير. بحبها... ومش بحبك.

ارتعدت "رزان" وكأن كلماته جرح مفتوح يزيد من عمقه. لكنها استعادت قوتها فجأة، وكأن الألم منحها شجاعة لم تكن تمتلكها. صاحت بحدة وكأنها تهدد، وكلماتها تشي بأن لديها من الأسرار ما قد يهدمه:

- يبقى عليا وعلى أعدائي! ههدم المعبد على اللي فيه. أبوك هيعرف كل حاجة، وصدقني مش هيعديها. هو مش بالسذاجة اللي انت متصورها، وهيتردد تانية قبل ما يقتلك؟ ده مش باقيلك أصلا.

"محمد" لم يبد أي تأثر بكلماتها، بل كان يتعامل مع الموقف ببرود قاتل وهو يقلب تفاحة بين يديه بتأنٍ، كما لو كان كل تهديداتها مجرد هراء. أجابها بلهجة ساخرة وهو يتلذذ بتفاحته:

- وماله، عرفيه. هو أنا هخاف؟ وبعدين، هو أنا عملت إيه؟ تفضلي، كلي تفاحة.

لم تستطع "رزان" كبح غضبها بعد هذه السخرية، ارتفع صوتها بمزيج من الغضب والحزن، نبرتها كانت ترتجف كأنها تسحب من قلبها آخر ما تبقى لها من كرامة:

- عملت إيه؟! قول إيه ما عملتش! أنا هعرفه كل حاجة. التزوير اللي عملته، إنك انت و"نوح" غيرتوا اسمك في البطاقة لحد شغلك مع "نائل" في المخدرات وكل المصايب اللي عملتها!

لم تكد تكمل حديثها حتى ألقى "محمد" الزجاجة بقوة على الأرض، فتحطمت بصوت مدوٍ، وقفزت "رزان" بفزع. اقترب منها فجأة، وصوته فحيح مسموم وهو يهمس في أذنها بنبرة حادة:

- أنا مش هلمسك، لكن لو الكلام ده اتعاد تاني مش هيطلع عليكي صبح فاهمة؟

ثم التفت عنها ببرود كامل، وكأن ما حدث لم يكن أكثر من تبادل كلمات عابرة. أكمل بلهجة ساخرة وهو يفتح الباب بإشارة لطردها:

– عن إذنك بقى. أنا عندي معاد مع خطيبتي. اطلعي برة، وسلامي على أبوكِ قوليله: تعيش وتاخد غيرها يا تونو.

قبل أن تخرج، دخل "قاسم" بخطوات ثابتة، نظراته ممتلئة بالكراهية والعداء. مشاعر متناقضة كانت تتصاعد بين الثلاثة، كل منهم يحمل في قلبه نارًا لا تهدأ.

"محمد" استند للحائط ببرود، نظر إلى "قاسم" بازدراء واضح، وقال بسخرية:

– مش مرحب بيك أبدًا، الحقيقة.

رد "قاسم" بنفس البرود:

– ما أنا عارف مقابلة إيه اللي انت خرجلها دي؟"

ابتسم "محمد" بسخرية واستهزاء:

– وانت مال أهلك؟

تحدث "قاسم" بحدة، كأنه يضع خطوطًا حمراء لا تقبل النقاش:

– لو فاكر إنك هتاخدها مني، انسى! أنا ما بستغناش عن اللي عاوزه أبدًا. اتعودت اللي أعوزه يجيلي.

نظر له "محمد" بسخرية لاذعة وهو يرد بلهجة متحدية:

– مش دي لو على موتي يا ابن انس ، مش هتكون ليك. ده نصيبي وانت مش هتاخده.

اقترب "قاسم" بنظرات مليئة بالحقد والشر، وعرض عليه صفقة فاسدة:

– طيب.نتفق. أخلصك من "مصطفى وعمر وسوزان وعادل"، وفوقهم تاخد "رزان"، وأنا آخدها. إيه رأيك؟

لم يستطع "محمد" كبح غضبه عندما سمع اسمه يتردد على لسان "قاسم". كان الغضب يتصاعد في داخله، لكنه تحكم في نفسه، وأجابه بحدة:

– عند أمك الكلام ده. لو فكرت تأذيها أو غيرها، هتندم إنك عرفتني.

ابتسم "قاسم" بسخرية قاصدًا إهانته بشكل واضح:

– آه خوفت عليه! ما هو أبوك برضه، بس الحقيقة مش طايقك. محدش بيحبك، ندمان إنه خلفك أصلاً.

كان كلام "قاسم" كخنجر في قلب "محمد"، لكن لم يسمح له برؤية هذا الألم. تجاهل تمامًا الجرح الذي فتحه حديثه، ورد ببرود قاتل:

– ولا يهمني اللي قولته. يعني حد في الدنيا طايقك؟ آسف، باستثناء أبوك وأمك!

رد "قاسم" بهدوء غير متوقع:

– انت أكتر إنسان بارد في الدنيا دي. حد غيرك كان زمانه مات من كل ده. لكن انت.

ابتسم "محمد" بسخرية عميقة، وقال بجملة أخيرة:

–سبحان الله لك وجه يستحق التراب فيه، لكن من حجمه التراب لا يُمليه.

نظر "قاسم" بعدم فهم، وقال بتعجب:

– إيه اللي انت بتقوله ده؟ إيه فيلم "فجر الإسلام" اللي انت عايش فيه؟

تجاهله "محمد" وهو ينظر إلى ساعته، ثم قال بلهجة ساخرة:

– هز كتافك دي واطلع برة.

احتار "قاسم" للحظة ثم قال بعدم فهم:

– إيه؟ بتقول إيه؟

أجابه "محمد" بتهكم:

– بالظبط، Your mother في العش ولا طارت. اطلع برة.

غادر الاثنان، وكل واحد يحمل في قلبه المزيد من الحقد والكراهية لتلك الزيجة التي زادت من الصراعات بينهم.

سحب "محمد" الباب خلفه بقوة، وخرج متجهًا نحو حي المعز، حيث ينتظره شيء آخر أكثر تعقيدًا.

كان المنزل يعج بالحياة والنشاط، كل فرد فيه منغمس في عالمه الخاص. "أحمد وجميلة" انشغلا بلعبة إلكترونية تتسم بالقتال والمصارعة. بينما "سيف وسما" كانا مستغرقين في قراءة رواية، يعلقان على كل تطور في الأحداث. في زاوية أخرى، "سليم وجنى" جلسا بجانب "سمر"، يتابعون برنامج طبخ، ويدونون المقادير اللازمة لتحضير وصفة. أما "أمير وجيداء"، فقد اختارا الجلوس بهدوء، يتحدثان على انفراد، بعيدًا عن الفوضى التي تعم المكان. في المطبخ، كان "زينا وعز" يعدان القهوة.

وسط هذا الجو، فتح "محمد" باب المنزل، وأخذ يبحث بعينيه عن "هاجر". عندما وجدها، أشارت له بأنها هناك. ارتفع صوته فجأة، مخاطبًا الجميع، «إيه كفاية سكوت ثانية!»

سادت لحظة من الهدوء قبل أن تعود الفوضى من جديد، مما دفعه لأن يضرب الباب بيده ويصيح: -بس كفاية، اخرسوا!

سكت الجميع للحظات، إلا أن "أمير" علق بغضب:

- جرى إيه يا هبل، بتصوت ليه؟

لكن "محمد" تجاهله وتوجه مباشرة نحو "سمر"، يصافحها بحب وتعلو السعادة عينيه. سألها بقلق:

- عاملة إيه؟ مالك شكلك متغير!

ردت "سمر" برتباك وهي تصلح حجابها:

- لا يا حبيبي، أنا بخير مفيش حاجة.

تدخل "سليم" ليكسر التوتر قائلاً:

- أنا خلصت كتابة المقادير للوصفة، بيقولوا إنها موجودة في كل بيت، فا هقولك واللي ناقص تشتريه.

أومأت "سمر" بالموافقة، فتحدث سليم مبتسماً:

-ربع كوب جبنة برميجان إيه ده سحر ولا إيه؟ ما علينا، نصف كوب كريمة خفق، قليل من الجبنة الشيدر، مشروم، باستا، ودجاج مشوي مقطع.

ضحكت "سمر" بتعجب:

- دي مقادير ولا الأدوية اللي هناخدها بعد الأكل؟

ضحك الجميع معًا، فيما نظرت "سمر" إليهم بحب وفخر، تمسك بيد "محمد" برفق. فجأة، أخرج "محمد" من حقيبته لعبة ورقية وقال:

- دي لعبة، كل واحد يسأل التاني سؤال، واللي هيجاوب على كل الأسئلة من غير ما يبدل سؤال بحكم، هو اللي كسبان.

بدأ الجميع في الانتباه، فقال "أمير":

- نبدأ بالكبير، "سمر"، اسحبي ورقة.

سحبت "سمر" ورقة، وكان السؤال موجهًا إلى "محمد":

- إيه أكتر حاجة بتخاف تروح منك؟

أجاب "محمد" بهدوء وهو ينظر لهم:

- انتوا كلكوا، معنديش غيركم

ضربه "أحمد" بخفة قائلاً:

- ماشي يا حنين.

توالت الأسئلة، وجاء الدور على "عز" بسؤال محرج حول علاقاته السابقة، فأجاب بمراوغة مضحكة أثارت الضحك. واستمرت اللعبة، وكلما أجاب أحدهم زاد الجو دفئًا وحبًا.

انتهى اليوم والكل شعر بأنهم قد أخذوا جرعة قوية من الحياة، جرعة كانت في جلسة حميمية تجعلهم قادرين على مواجهة الصعاب معًا.

في صباح اليوم التالي، كانت "حسناء" تقف بجوار "عشق"، وهما ينتظران بقلق قدوم الطبيب الذي سيخبرهما بنتائج التحاليل. القلق كان يتملك "حسناء" بشكل واضح، فبدأت تهمس لـ"عشق" بصوت متهدج:

- أنا خايفة أكون اتعلقت بوهم لو مش ابني، هقول لعادل إزاي؟ هفضل عايشة بذنبه طول العمر لو معرفتش الحقيقة وهفضل عايشة بذنب محمد لو دمرت حياته، وذنب أمه لو شوهت سمعتها بعد موتها. ولو طلع ابني، هعيش إزاي وأنا اتحرمت منه كل السنين دي؟ أكيد لا مستحيل.

ربتت "عشق" على يدها برفق، محاولة تهدئتها:

- متخفيش، كل حاجة وليها حل. نسمع الدكتور أولًا.

لم يمضِ وقت طويل حتى جاء الطبيب وجلس أمامهما. لم تنتظر "حسناء" طويلاً حتى سألت بقلق واضح:

- طمني إيه النتيجة؟

أجاب الطبيب بهدوء، محاولًا الحفاظ على الجو المهني:

- التطابق بين العينة الأولى، اللي هي "محمد"، والعينة التانية "عادل"، هو تطابق من النوع الأول... يعني هو والده.

أخذت "حسناء" نفسًا عميقًا، محاولة تهدئة قلبها المتسارع، ثم سألت بصوت خافت وهي تبتلع غصتها:

- وعينتي أنا؟ أكيد مش متطابقة، صح؟

ابتسم الطبيب مطمئنًا وقال بسرعة:

- لا، طبعًا متطابقة برضو من الدرجة الأولى، يعني نفس الـDNA، ونفس فصيلة الدم كمان.

سألت "عشق" بتعجب:

- يعني إيه؟

أجابها الطبيب بهدوء:

- يعني حضرتك والدته، و"عادل" والده مفيش مشكلة في النسب.

لم تستطع "حسناء" سماع أي شيء بعد ذلك. كل ما دار في ذهنها هو حقيقة أن ابنها الذي حُرمت منه طوال ٢٢ عامًا كان بالفعل ابنها الحقيقي. كيف يعقل هذا؟ كيف حُرمت من حضنه طيلة هذه السنين؟ وقفت فجأة، سحبت حقيبتها، وخرجت مسرعة نحو السيارة، وكانت "عشق" تلحق بها.

عندما وصلتا إلى السيارة، سألتها "عشق" وهي تحاول الحفاظ على هدوئها:

- اهدي، هتعملي إيه دلوقتي؟

أجابت "حسناء" بصوت يملؤه الفرح المختلط بالصدمة:

- هروح لابني. هاخده في حضني. بعد كده اللي جاي كله هيكون سواد على "سوزي" وعلى "عادل" لو كان يعرف الحقيقة.

نظرت "عشق" إليها بقلق، وسألت:

- طيب أنت عارفة هو فين دلوقتي؟

أجابت "حسناء" وهي لا تكاد تصدق ما تسمعه من نفسها:

- عند "سمر". قال إنه هيروحلها علشان كانت تعبانة.

شعرت "حسناء" وكأن السماء بأكملها لا تكفي لتطير بها. لقد عادت إليها قطعة من قلبها بعدما كانت تظن أنها فقدتها للأبد. بعد أن تأكدت أنها لن تقدر على الإنجاب مرة أخرى، وبعد أن فقدت طفلها الوحيد، ها هو يعود إليها، ليس طفلًا بل رجلًا شابًا، كانت تحلم يومًا أن تكون والدته، والآن تحقق الحلم الذي تحول يومًا إلى رماد.

صدح صوت هاتف "محمد" الذي كان في ثبات عميق، حتى أفاقة رنين الهاتف المزعج. كانت الغرفة مظلمة، وكأن الظلام قد استقر فيها بشكل دائم. فتح الهاتف، ودُهش من توقيت الاتصال، وتحدث بنعاس:

- إيه يا زينة ، مينفعش أنام شوية، الوقت بدري أوي.

جاءه صوت زينا من الجهة الأخرى، مليئًا بالقلق والاضطراب:

- الحقني يا محمد، "سمر" تعبانة أوي، تعالى بسرعة. أنا مش عارفة أعمل إيه!

أغلق الهاتف في وجهه، وسحب قميصًا أبيض ارتداه في عجلة، وكأنه يشعر بخفقان قلبه يتسارع مع كل لحظة تمر. أخذ هاتفه ومفاتيحه، ثم انطلق مسرعًا إلى السيارة. كانت السيارة تسرع في شوارع المدينة، وكل ما يدور في خاطره هو رؤيتها الآن، وكأن عشر دقائق مرت عليه كعمر نوح. كانت أفكاره تتسابق مع السيارة، يتخيل كيف ستبدو وجهها المرهق، وكيف يمكنه مساعدتها.

عندما وصل إلى المنزل، صعد الدرج بخطوات سريعة، وفتح الباب ودخل الغرفة. وجدها نائمة على الفراش، وملامح الإرهاق والتعب بادية على وجهها، كأن المرض قد استنزف كل قوتها. كانت الغرفة هادئة، لكن صدى أنفاسها الضعيفة كان كفيلًا بإحداث جرح عميق في قلبه. اقترب منها بحذر، وقلبه ينبض بشدة، وكأنه يُنبهه بالخطر الذي يحيط بهم:

- إيه يا أمي، بتخوفيني عليكي ليه؟

أجابته بصوت ضعيف، يكتنفه التعب، وهي تنظر إليه بعيون متعبة:

- اسمع إلي هقوله، لأن اللي باقي مش كتير أنا من كام شهر عرفت أني عندي كانسر، وكان في مرحلة متأخرة أوي ومع ذلك حضرت الجلسات واستحملت، والله بس خلاص، ده مكتوبي وقدري، ومحدش بيهرب من قدره.

قطعها "محمد" الذي احمرت عينا من دموعها التي بدأت تتمرد عليه وتنسكب تدريجيًا:

- متقوليش كده، لا يا أمي، لا! أنتِ مش ها تسيبيني، لا!، ها تفوقي وها تكملي الجلسات .

ربتت على خصلاته وضمت زينة إلى صدرها، كانت عاطفتها الأمومية تفيض حبًا وخوفًا:

- أجمل حاجة أمي منك، متسيبوش بعض، بيتكم هنا تتجمعوا سوا، أوعي الانتقام يعمي عينك يا محمد خد بالك من هاجر، علشان بتحبك بجد أنا مش هخاف عليك، لأنك راجل يعتمد عليه، يا نور عيني، أوعوا تنسوني، خد بالك من زينة يا عز.

صرخ محمد بعنف، وهو يرتمي في أحضانها، وكأن الألم يشتعل في قلبه:

- لا، يارب، لا حرام ، لا، متسبنيش، أنا كدة هبقى يتيم بجد، لا متسبنيش، لا، علشان خاطري عندك، لا.

ضمته بقوة، كأنها تريد أن تعطيه من قوتها:

- أنا هفضل جمبك ومعاكوا كلكوا يا نور عيني والحاجة الحلوة في أيامي، خد بالك منهم وقولهم إن ربنا عوضني بيكن ، مش واحد ولا اتنين .

أنهت كلامها بتزامن مع توقف أنفاسها وسكون جسدها، لترفع روحها إلى الذي خلقها. كان الصمت كئيبًا، وكأن المكان قد سلبت منه الألوان. تركت كلماتها أثرًا عميقًا في قلوبهم، وصدى دعواتها يملأ الأجواء.

ابتعدت زينة عنها، وهي تختبئ بعز، وكانت مشاعرها متضاربة:

لا، لا، أنا بحلم، لا، لا يا أمي، لا، أنا بحلم، يارب، تفوق، لا، محمد، هي عايشة، صح؟، اتصلوا بالاسعاف اتنوا واقفين جمبي ليه يلا بسرعة .

تحدث ببكاء وهو يحتضنها، كأن العالم قد انتهى كأن يعلم ان انفاسها و انفاس الحياة انقطعت عنه :

- أمي، قومي يا أمي، قومي! وأوعدك مش هزعلك ومش هتاخر ولا هقطع في الصلاة، قومي، وهبطل دخان، قومي، متسبنيش حرام عليكي، قومي يا سمر، علشاني، أنت محضرتيش فرحي، مين هيشيل عيالي، طيب مين هينيمني ويطمئني تاني، قومي يا أمي، أنا مليش غيرك، قومي بالله عليكي، قومي!

حرك جسدها بقوة مما جعل عز يسحبه بعيدًا عنها، وهو يحاول التخلص منه:

- سبني، لا يا أمي، سبني! يا عز، هي هتفوق، يا أمي.

صدح صوت بكاءه، وهو يصرخ بصوت مرتفع، ويخفي نفسه في أحضانها:

- أمي، لا، يا أمي، يا أمـــــي، فوقي يا سمر .

تحدثت "حسناء"، التي كانت تقف في ذهول، حتى سمعت بكاءه، فاقتربت منه تحتضنه بقوة، وهي تخفي وجهه بداخلها:

- أنا أمك يا حبيبي، أنا أمك يا محمد، أنا أمك.

البارت الرابع عشر

" المصائب لا تأتي فرادي "

تهلكنا الأماني والأحلام. فنحتمي في خيالنا من واقعنا السيئ
هناك شيء عالق في منتصف روحي. لا يكفيني البكاء ولا
أستطيع التحدث. العالم بأسره يقبع على روحي. لا أستطيع
حتى التنفس.

مرَّ أكثر من أسبوع، لم يمر منهم هو، ما زال عالقًا في تلك الليلة، في ذلك اليوم الذي وضع فيه آخر قطعة بقلبه في الرمال. لا يصدق أنها رحلت، لا يصدق أنها كانت مريضة، كانت تتألم دون أن تخبره. لماذا تركتها بمفردها؟ ولماذا الآن؟ لماذا يعود لنقطة البداية في كل مرة وهو على وشك الوصول إلى حافة النهاية؟ أهو مكتوب عليه أن يعيش دائمًا في المنتصف، أم أنه ما زال عالقًا في كابوسه المرعب؟

كان نائمًا بملامح متعبة على قدمي "حسناء". كانت ملامحه مرهقة بشدة، شعره مشعث على وجهه وعيناه منتفختان من أثر البكاء الذي حبس سنين في عينيه وشفتاه حمراوتان بشدة من كثرة التوتر كل شيء فيه كان متعبًا وهو نائم، بينما "حسناء" كانت تبكي بصمت، تحتضنه وتربت على رأسه بين لحظة وأخرى، لا تعرف كيف عاش كل تلك المعاناة بمفرده. لقد توقف عقلها، وانتهت نبضات قلبها عندما وجدته يصرخ بشدة، كان صوته يتقطع وهو يراها تدفن أمامه، وقع في حالة من الهستيريا، غير مصدق ما حدث من الأساس، بينما قلبها كان يعتصر عليه. أول لقاء مع ولدها يكون في هذا الموقف.

بينما في أحلامه، كان يرى نفسه طفلًا صغيرًا مقيد اليدين والقدمين، وعلى عينيه وشاح يمنعه من النور. كان هناك صوت قدمين تتمشى بجانبه وصوت صنبور مزعج يقطر منه قطرات ماء تجعله يشعر بأنه يختنق، يريد أن يفك أثره ويفتك بكل شيء حوله.

دخل "مصطفى" بأقدام ثابتة، وهو يقترب من أذن "محمد"، تحدث بهمس:

- عارف لو حاولت تهرب مش ها تقدر. خروجك من هنا على موتك أو موتي.

تحدث "محمد" بصوت مختنق ومحشرج:

- ها أخرج وهيبقى على موتك. لو فاكر إنكم تقدروا تقللوا مني أو من كرامتي، تبقى بتحلم. اللي بتعملوه يعني إن ثلاثة من المفترض أنهم رجال خايفين مني، وده لو يدل على شيء يدل على إنكم متقدرشوا على حاجة.

وجد ضربة قوية تقع على رأسه وهو لا يقوى على المقاومة، تحدث الآخر بغضب:

- محدش هيصدقك. الكل عرف إنك مجنون وبتاع مصحات. فوق لنفسك يا ابن "عادل".

انتفض من مكانه وهو ما زال نائمًا، مما جعلها تحتضنه بهدوء، وهي تعلم أنه رأى أحد كوابيسه. فهو لم ينم منذ أكثر من خمسة أيام، مما جعله يهذي ويرى أشياء غير موجودة، لذلك أجبره الطبيب على أخذ جرعة كبيرة من المنوم لكي ينام ولو لساعة.

أكمل هذا الكابوس، فوجد نفسه في غرفة أبيه القديمة. "نوح" ممدد على سريره بتعب، و"هيثم" صديقه بجانبه، و"محمد" يقف يبكي في زاوية بعيدة ويداه ترتجفان كلما حاول الاقتراب من والده. نعم، برغم من أن "نوح" ليس والده. لكنه قام بتربيته أكثر من ست سنوات، ومن قبلها كان يهتم لأمره أيضًا.

اقترب ببطء، لكن قدميه ارتجفتا ولم تساعداه؛ فسقط بالقرب من السرير، وهو يمسك بيد "نوح"، لا يعرف لماذا يخبره قلبه أنها النهاية. يحاول بشتى الطرق أن يحتفظ بملامحه في عينيه، يحفرها في قلبه. لا يود أن ينسى تلك الملامح.

تحدث بخوف، وهو يتمسك بيده يسال سؤال قاطع يتمني ان لا تكون اجابته كما يعرفها :

- أنت مش ها تمشي، صح؟ ها تفضل معايا، صح يا "هيثم"؟ قول له.

لم يأته الرد من "هيثم"، الذي أخفى وجهه في أحضان والده، وأخذ يبكي بصمت، بينما الآخر كان يحتضنهما في عناق. علم أنها سيكون العناق الأخير.

تحدث "نوح" بهدوء متعب:

- أنا عارف إن حاجة وحشة أوي لم حد بتحبه يسيبك ويمشي ، عارف كمان إنك هتتعب، بس الدنيا مش بتقف على حد. أنتم هتكملوا وهتعيشوا، وفي يوم هتزوروني، وأنتم كل واحد فيكم بقى أب. "محمد"، أنا عارف إنك قوي، ومريت بحاجات صعبة، بس مهما حصل، بلاش قلبك يقسى حتى لو كل الأبواب اتقفلت. لو باباك رجع، متحاولش تبعده. حارب يا "محمد"، علشان مهما حصل، مش هتنكر كونه أبوك.

تحشرج صوته، وأردف مرة أخرى:

- خدوا بالكم من بعض، وماتخافوش من حاجة، ربنا معاكم دايمًا.

لم يتحدث مرة أخرى، وتوقفت أنفاسه، مما جعل "هيثم" يخرج من أحضان والده، وهو يبتعد للوراء ويتحدث بالشهادة، وهو يمسح دموعه ويحاول أن يهدئ من نفسه. كان قويًا بالقدر الكافي الذي جعله يرضى بقضاء الله.

بينما "محمد" يخرج من أحضان والده، كانت الدموع تنهمر من عينيه بشدة، وصوته المتحشرج يخرج بضعف:

- بابا، قوم! لا لا، أنت مش هتمشي وتسيبني، أنا مليش حد تاني مش عايز غيرك. أنا بحبك انت محدش هيكون مكانك هو سابني وأنا من دمه. لكن أنت مسبتنيش، وفضلت معايا "هيثم"، قول له يقوم. أنا مش هزعله تاني، والله هتغير. لا هو مش هيمشي، لا!

أخذ "محمد" يحرك جسده، محاولاً إيقاظ والده. لكن لم يتغير أي شيء. في لحظة يأس، ألقى بكل ما حوله أرضًا، وهو في حالة من عدم التصديق أنه يتركه الآن ويرحل. لكنه توقف، وخرت قواه، ووقع أرضًا غير قادر على النطق، وصوته لا يخرج من حنجرته.

استفاق مرة أخرى ليجد نفسه بجانب "هيثم"، الذي كان جثة هامدة على سرير المشفى، فقد أصيب بإعياء منذ أيام. لكن الحقيقة كانت أنه تعرض لنوبة قلبية. كان "محمد" بجانبه عندما توقفت أجهزة النبض عن العمل، وأصدر جهاز التنفس صفيراً عالياً، دلالة على توقف نبضات القلب. في تلك اللحظة، توقف قلب "محمد" هو الآخر عن العمل، وهو يحتضنه، بينما الطبيب يحاول أن يبعده عنه. ولكنه تمسك به وكأنه آخر قشة لنجاته من الغرق، صاح وهو يبعد الطبيب عنه:

- انتوا بتعملوا إيه؟ "هيثم" هيقوم دلوقتي معايا، هنروح سوا. هو بس زعلان مني شويه. أنا هصالحه.

احتضنه "أمير" وهو يسحبه بعيداً، بينما صدح صوت "محمد" بالصراخ:

- سيبني يا أمير، أنا هصالحه. "هيثم"، قوم يلا. أنا مش هزعلك، والله قوم بالله عليك، مش بابا وصاك إنك متسبنيش. بتسبني ليه دلوقتي؟ متسبنيش، حرام عليك.

استمرت كوابيسه بمشهد موت "نائل" و"سمر". فاصرخ وهو يقوم من نومه بفزع: «أمي، لا.»

احتضنته "حسناء" بلهفة، وهو يكمل بكاءه في أحضانها، مشددًا من عناقها، وصوتها مكتومٌ بأنينٍ مؤلم لما فعلته به الأيام. كلما فكر بماذا حدث له، ازدادت صعوبة ما فعلته الدنيا به.

تحدثت "حسناء" ببكاء وهي تضمه بقوة:

- بس يا حبيبي، أنا جنبك، مش هسيبك، أنا معاك، متخافش.

صاح بصوت مكتوم متحشرج:

- هتمشي، هتسبيني، كلكم هتسبوني. أنا فشلت في كل حاجة. أنا ما عملتش كدة غير لما لقيتكم مش معايا. حتى عائلتي اللي بنيتها لنفسي ماتوا وسبوني.

ضمته أكثر بقوة، وهي تبكي على حال ابنها التي لم تعرفه يومًا. كانت في كل يوم تتمنى لو كان لها ابن، أو على الأقل تستطيع أن تنجب. وعندما وجدت ابنها شابًا بالغًا وسيمًا، تراه يبكي أمامها، مما يعصر قلبها.

تحدثت بهدوء، وهي تنظر في عينيه وتقبل جبهته:

- أنا مش هسيبك خالص، أنا هسيب الدنيا كلها علشانك أنا مليش غيرك أنا عشت كل أيامي من غيرك في تعب وحزن، وكان قلبي ينبض بلا هدف، جسمي كان من غير روح، من غيرك.

تحدث بهدوء، وهو يحاول أن ينظم أنفاسه:

- إنتِ عرفتي إزاي أنا ابنك؟ إزاي؟

تحدثت بهدوء، وهي تنهض من جانبه:

- ها عملك حاجة تشربها علشان أنت تعبان. بعدها ها احكيلك.»

أمسك بيدها وهي تبتعد:

- لا، أنا هاجي معاكِ، متمشيش.

دخلت للمطبخ بتعب، وهي تتنفس بهدوء، وتسحب خصلاتها للوراء بعنف، وتسمح لدموعها بالتحرر أخيرًا، وهي تصنع له مشروبًا ساخنًا يحتسيه، وتمسك بفوطة نظيفة وتبللها بالماء الساخن.

ذهبت إلى غرفته، وجدته يمسك بهاتفه وينظر لصورة مع "سمر" وهو ينظر بهدوء، ويحاول أن يخلص نفسه من هذا الشعور الذي يجعله غير مصدق لكل هذا.

اقتربت منه، وأمسكت بتلك الفوطة الساخنة، وقربتها من عنقه، وأخذت تمسح بها على عنقه لتساعده على تهدئة حشرجة صوته، حتى يتحدث براحة.

تحدثت، وهي تضمه بقوة مرة أخرى:

أنت مش هتسبني، صح؟

أجابها بهدوء، وهو يتحدث بثقل:

- مش ها اسيبك أنا عشت عمري كله أمنا أنا كنت يتيم طول الوقت، حتى "سمر"، ربنا عوضني بيها، بس سابتني لوحدي أنا كنت بخاف أحتضنها، حتى لا تتحاسب عن دهزكنت بخاف ربنا يغضب منها بسببي.

واستمعت دقات الباب، فخرجت تفتحه، وجدت "هاجر" و"عادل". دلفت "هاجر" بخطوات سريعة وهي تقترب من غرفته، بينما أمسك "عادل" بذراع "حسناء" بعنف، وهو يقول:

- إنتِ بتسوقي فيها إزاي، تسيبي البيت وتيجي هنا؟ ده مش ابنك.

تحدثت بصوت مرتفع، وهي تتخلى أخيرًا عن هدوئها:

- "محمد" ابني، اللي إنت وأختك حرمتوني منه. متعملش نفسك مش عارف.

اتصدم من حديثها، فأجاب بتردد:

- إزاي يعني؟ أنا مش فاهم حاجة.

دلفت إلى الغرفة وتركت "عادل" في مكانه، وجدت "هاجر" تجلس بجانبه وتبكي هي الأخرى بصوت مرتفع، وهو يحاول أن يهدئها.

تحدث "محمد" بهدوء، وهو يقول بمرح مزيف:

- يعني أنا اللي هفضل اوسي فيك ، على فكرة، أنا اللي تعبان، مش إنت.

تحدقت ببكاء، وهي تمسح دموعها:

- أنا مش قادرة أصدق إنها سبتنا خلاص إنت كمان كنت تعبان أوي، أنا خوفت عليك.

تحدث بحزن عن كل شيء يحدث له:

- مش هي بس اللي سابتني، أنا اتعودت متخفيش..

تحدث "عادل" بجمود: «البقاء لله.»

أجابه "محمد" باقتضاب: «ونعمة بالله.» قالها بحزن على تلك الكلمة التي يقولها في كل مرة يفقد فيها ما هو أغلى من قلبه.

تحدقت "حسناء" بهدوء:

- بالنسبة لكلامك اللي قلته برة، فحابّة أقولك، آه "محمد" ابني، وشكرًا، لأنه بسبب كلامك الغبي ده، هو اللي خلاني أفكر أعمل DNA وأعرف إن "محمد" ابني.

فقد "عادل" أعصابه، مما جعله يتحدث بصوت مرتفع:

- أنا بقولك مش فاهم حاجة،إيه اللي حصل؟

أجابته بهدوء، وهي لا تصدق عدم معرفته بالأمر: -

اللي أعرفه إنك بعد ما قلتلي إنك شاكك إن "محمد" مش ابنك، أنا بغبائي قلت أطمّنك وأعرف الحقيقة، "عشق" فكرت وقالتلي لو هو ابنه، يبقى ابنك، ولأني عارفة إنكم يطلع منكم أي حاجة، عملت كدة، وطلعت نتيجة التحليل مرتين إنه ابني وابنك.

تبدلت ملامحهم وهم يستمعون لحديثها، الصدمة أصابتهم، وكل منهم يفكر كيف حدث هذا. بينما "هاجر" كانت تبكي تلك المرة، وهي تعلم أن الأمر لم يخرج إلا من والدتها.

و"عادل" الذي تركهم، أسرع للخارج متوجهًا إلى "سوزي"، وهو يعلم أن الحل في تلك العقدة سيكون مع أخته.

في قسم الشرطة، كانت الأجواء مزدحمة كالعادة، حيث يتنقل الضباط بين الملفات والمراجعات، بينما يقف "حسام" أمام اللواء "سعيد" في موقف يعكس التوتر الذي يسود المكان.

قال اللواء سعيد وهو يضع الأوراق على المكتب، ملامحه تحمل جدية الموقف:

- كل الأدلة بتثبت إن مفيش أعداء غير "أنس وحسن"، لكن مفيش أي شبهات ضدهم. لذلك، لازم ننتظر لاقرب فرصة. لو قبضنا عليهم بالتهم اللي عندنا، مش هقدر توصل لباقي القضايا.

تحدث "حسام" وهو يأخذ الأوراق، ونظرة الإصرار تتجلى في عينيه:

- أوعدك إن اليوم ده هيكون قريب أوي، نهايتهم قربت.

تركه وخرج من المكتب، بينما تتزاحم الأفكار في رأسه. كان يشغل تفكيره كيف يمكنه كشف جرائمهم، وكل ما يمتلكه هو شكوك وقضايا غير مكتملة. كان يعلم أن تلك التهم يمكن أن تجعلهم يقضون بقية أعمارهم في السجن، لكن الأمر يحتاج إلى خطوات محسوبة بعناية.

في تلك اللحظة، تذكر "حسام" كل ما عاناه من أجل تحقيق العدالة. كان يحس بالضغط يتزايد عليه، لكن عزيمته كانت قوية، فقرر أن لا يستسلم حتى يحقق ما يسعى إليه.

دلف إلى المنزل، وعينيه مشوشتان لا ترى شيئًا سوى رغبته القوية في معرفة الحقيقة. كانت مشاعره متضاربة، لا يستطيع تصديق أن هذه هي الحقيقة. كيف يمكن أن يكون هذا حقيقيًا؟ كان يعلم أنه لن يتحمل اكتشاف كل هذا.

صاح بصوت مرتفع غاضبًا، مناديًا باسمها:

- سوزي، أنتِ يا سوزي.

هبطت هي مسرعة إلى الأسفل بتوتر، بسبب صياحه الذي جعلها تتخيل أسوأ الأفكار الممكنة. وقف "مصطفى" أمامه، يتقل عليه النعاس بسبب أنه كان غارقًا في نوم عميق:

- إيه يا "عادل"، قول صباح الخير الأول.

رمقه الآخر باستياء:

- صباح الزفت على دماغك ودماغها، ارتحت كده؟

تحدثت "سوزي" بثبات مزيف:

- في إيه، إيه اللي حصل لكل ده؟

تحدث بجمود، وهو يسحب أنفاسه بهدوء:

- "محمد" ابن مين؟

أجابته بغباء يخفي فيه الخوف الذي أصابها، شعرت أن جميع خططها تنكشف وأن القادم أسوأ للجميع:

- ابنك هيكون ابن مين يعني؟

أجاب بصوت مرتفع، لأن شعوره بالخداع كان يتزايد:

- إحنا هنلف وندور على بعض "محمد" ابني من "حسناء". صح؟

ارتجفت يدها وتبدلت ملامحها وهي تنظر في عينيه، التي تعكس الغضب والشر فهي أكثر واحدة تعلم أن غضبه ليس هيناً؛ لذلك قررت الإنكار:

- إيه اللي أنت بتقوله ده؟ لا طبعًا، ده كدب.

استعاد بروده بسرعة، وجلس أمامها على المقعد، يشعل سيجارته من النيكوتين ليفرغ به طاقته، ونظر لها نظرة متفحصة:

- أنا مش بسالك ولا بتأكد منك، أنا عرفت كل حاجة بسالك ده حصل إزاي وأنت هتجاوبي برضاكي أو غصب عنك.

جلست بملامح متوترة، وهي تبتلع الغصة في حلقها، وتحك يدها ببعضها. سحبت أنفاسها وقالت:

- أنا هحكيلك كل حاجة.

تحدثت بتوتر:

- آه، "محمد" ابنك من "حسناء"، لكن بابا الله يرحمه أجبرني أقول كده علشان أنت تسيب "حسناء" وما تتمسكش بيها.

أخرج الدخان من فمه وهو يتابع حديثها:

- كملي، مش مستغرب أن أبوكي يعمل كده، بس ليه شككتيني إنه مش ابني وإن "علياء" خانتني؟ طيب ليه لما أبوكي مات مقولتليش ليه عملتي كده؟

كانت نبرته غاضبة، وعيناه تتراقص بداخلهما الشر والغضب مما يراه ويسمعه.

أكملت بخوف، وهي تتمسك بأعذار لكي لا تغضبه:

- أنا كنت خايفة عليك "حسناء" دي مش بتحبك، بتستغلك كذابة، هي بتحاول تكرهك فيا كل اللي جواها حقد و غل من يوم ما مات ابوها هي وحشة جدًا، كانت هتأذيك.

أجابها بغضب، وهو يقف أمامها:

- وابني كمان كان هيأذيني كلهم وحشين، أنت بس اللي طيبة وبتحبيني أنت مريضة، بس صدقيني، ده مش هيعدي بالساهل.

تركها، وهي تفكر في كيف لو انكشفت كل خططها وكل ما فعلته. جلست بهدوء، تخفي وجهها بيدها، تفكر في كيفية الخروج من هذا الموقف.

بينما كانت حديقة منزل "عز" و"زينا" تعكس هدوءاً عابراً، جلست "زينا" على المقعد بملامح متعبة ومرهقة بشدة، من أثر البكاء والنوم المتقطع. كانت تمسك بالمصحف بيدها، تتلو آيات من القرآن، والدموع تزين عينيها بشكل مؤلم. تذكرت أنها لم يعد لها في هذه الحياة أي شيء، فبعد وفاة ولديها، كانت "سمر" هي الأب والأم وكل شيء بالنسبة لها. والآن، هي بلا أم أو أب أو سند في هذه الحياة، بلا وطن تحتمي بداخله من أعباء الحياة. لم يعد لديها سوى زوجها.

أغلقت المصحف بيدها واختتمته بالدعاء لـ"سمر"، ودموعها ما زالت تنهمر على وجهها.

وقف "عز" بجانبها، يربت على يدها بحنان، ثم أخذها في أحضانه، يمسح على خصلاتها برفق. تحدث بهدوء:

- أنا معاك، متخافيش. وبعدين، إحنا كلنا هنموت. الحياة مش بتقف على حد، إحنا هنقبلها قريب كلنا.

أجابت بشهقات، وهي تتحدث بصعوبة:

- أنا خايفة إنك كمان تسبني. أنا خلاص، ما بقاش لي حد. أوعدني إنك مش هتسيبني.

أمسك بيدها وضعها على قلبه، وهو ينظر في عينيها:

- طول ما قلبي بينبض ولسه فيا حياة، عمري ما هسيبك أو أتخلى عنك. ادعيلها بالرحمة والمغفرة، إن شاء الله.

تحدثت ببكاء، وهي تضمه أكثر وبقوة، وكأنها وجدت ملاذها ومركب نجاتها الوحيدة:

- أكيد إن شاء الله، ربنا هيرحمها، ويصبرني على فراقها. أنا مليش بعدها.

ظلوا معًا، وهي في أحضانه، يحاول أن يجعلها تهدأ. ولكن كلما تذكرت أن هذا كان آخر لقاء، وأن حديثهم سينتهي وضحكاتهم ستتلاشى، وأن آمالهم وحياتهم ستختفي، كلما شعرت بأن العمر يذهب ويتركها ويرحل. فما أسوأ من أن تفقد الحياة.

بعد خمسة أيام انقضت في تعافي "زينا"، التي ظلت خمسة عشر يومًا لا تخرج من المنزل، تشعر أن الخارج ليس فيه شيء. لقد توقفت الحياة عندها، لكنها اليوم قررت الخروج بملابسها البيضاء. كانت قد قررت ألا ترتدي الأسود بعد الحداد، لأنها تعلم كم كانت "سمر" تبغض ذلك اللون، وكانت دائمًا تجبر "محمد" على ألا يرتديه عند زيارتها. كانت تشعر أن هذا اللون هو سبب حزنها، فقد لبسته هي على أحبائها في رحيل أمها وأختها وزوجها وزوج أختها. لذلك كان لهذا اللون عدواً لدوداً بالنسبة لها.

خرجت تمسك بيد "عز"، الذي أخذها في نزهة مع والدتها "ملاك"، التي كانت تقف تنتظرهم في منزلها بزي منزلي باللون الرمادي، تمسك بكوب من القهوة تحتسي منه وهي تنتظر قدوم "عز وزينا".

دلفوا معًا بهدوء إلى المنزل، الذي كان هادئًا بذوقه الأساسي. الجدران وكل شيء به كان خاليًا من الضوضاء، وكان يتمتع بالهدوء.

اقترب "عز" من والدته وضمّها، وهي تمسح خصلات شعرها برفق. بعد ذلك، أخذت "زينا" تضمها بحنان، وهي تبتسم لها:

- أنا عارفة أنتِ حاسة بإيه، كويس وفاهمة إن الشعور ده وحش. بس إحنا قدام القدر ما فيش قدامنا حل. ينسلم ونرضى بيه، أو نعافر ونرفضه، ويضيع عمرنا، وبرضه مش هانغيره.

أردفت تكمل حديثها:

- أنا هنا مامتك، وعارفة إن كتير مش بيقتنعوا إن أم جوزها تكون أمهم، بس أنا كان نفسي يكون عندي بنت، ومنفعش، حتى لما تخيلت إن "سليم" ابن أختي يكون بنت، صدمني. فبرضاكي أو لا، أنتِ بنتي وهتبرئي من الواد ده.

ابتسمت "زينا" في إثر حديثها، وهي تضمها أكثر، وتشكرها على موقفها معها وأنها تبادلها نفس الشعور.

بينما "عز" كان فخورًا بعائلته الصغيرة هذه، ويتمنى أن يحفظهم الله معًا دائمًا.

كان "محمد" واقفًا أمام المرآة بعد أن استعاد جزءًا من صحته، لكنه كان يشعر وكأن روحه غائبة. كان ينظر إلى نفسه، فلا يرى شيئًا، إلا سؤالًا واحدًا يتردد في خاطره: "من أنت؟" نعم، من أنت؟ أنت لست الشخص الذي عرفته يومًا. لقد تغيرت، من طفل صغير إلى عجوز أكل الشيب منه. تمتلك الكثير من الشخصيات: أنت هذا الطفل الذي توفت أمه، وتركتك والدك. أنت "محمد عادل الجبالي"، أم أنك هذا المراهق الذي صنع لنفسه عائلة من خياله، والذي ادعى أنه "محمد نوح الرشيدي"، واختار له أبا وأما وأختًا ليعيش معهم، لكنه فقدهم أيضًا. كيف حدث لك كل هذا؟ لماذا تجعلك الحياة دائمًا الخاسر؟

بتعد "محمد" عن المرآة، وعيونه ترمق وجهه في نظرة خاطفة. كانت عيناه بلون رمادي كالعادة، شعره متمرد على رأسه. يرتدي قميصًا أسود وبنطالًا رماديًا وحذاءً رياضيًا.

خرج من الغرفة، لينظر تجاه "هاجر" و"حسناء" اللتين لم تتركاه طوال تلك الأيام، بجانب أصدقائه الذين كانوا يأتون له كل يوم، ويغادرون في المساء. اقترب منهن وهو يتنفس الصعداء، فقد أدرك أن حديثه سيكون طويلًا جدًا. جلس بجانب "حسناء" وسابقها في الحديث قائلاً:

- أنا دلوقتي بقيت كويس، أنا متعود وعارف أمشي حياتي إزاي، بس دلوقتي أنتِ اللي لازم تقوليلي كل حاجة.

ردت "حسناء" بهدوء، وهي تتذكر كل شيء لتقصه عليه:

- أنا و"عادل" كنا نعرف بعض وإحنا في سن صغير. كان عندي ١٧ سنة وهو ٢٠. معرفتنا كانت ضيقة أوي؛ بسبب إنه كان شخص مش متكلم ومتزمت أوي ده غير إن أبوه كان تقريبًا كبير المكان اللي كنا عايشين فيه.

أكملت وهي تخفف من الضغط على نفسها وهي تنظر له :

- المهم، هو كان هيتجوزني، وبعدها حصلت مشاكل، وأبوه أجبره يتجوز "علياء"، اللي كانت بنت شريكه في الشغل وبعد سنة، هي ولدت، والطفل مات، وعرف إنه أي أطفال هيخلفوهم مش هيكونوا طبيعيين. لما أنا كنت هتخطب بعدها بسنة ونص، فجأة طلب مني أرجع له. جه واتجوزني في يوم واحد، وخبينا عن الكل، لكن لما حملت في .

سحبت أنفاسها بهدوء، وأردفت:

- أمه توفت، وأبوه عرف إنه اتجوزني، منعه من إنه يحضر العزاء بتاع أمه، ودفنها من غير ما يخليه يشوفها. وبعدها بعت ناس خطفوني، وحبسوني عنده، وأبوي مات، ومنعوني أخرج أشوفه. كان عنده أمل إنه لم تتولد، ياخدك ويتركه ويتركني، بس أنا ولدت في السابع، وحظي إن "علياء" كمان ولدت معايا. تقريبًا كده أنت اتبدلت وقتها، وهو طلقني وساب البلد كلها.

بترت حديثها عندما وجدته يضحك بصخب وصوت مرتفع وهو يبتعد للوراء، وهو يتوجع بصمت:

- هو أنا مكتوب عليا أعيش في أفلام؟ من الآخر، أنتِ متأكدة إني ابنك، ولا في الآخر هيطلع ابنك عايش في مكان تاني، وأنا جي من ملجأ.

بادلت "هاجر" الضحك وهي تنظر لحالته تلك، فقالت "حسناء" وهي تحتضنه:

- لا، أنا خلاص، لزقتلك أمك غصب عنك.

احتضنه بشوق، كأنه أخيرًا استطاع أن يجد جزءًا يرمم قلبه الذي تحطم بالكامل.

بعد مدة، كانت "هاجر" تجلس بجانبه، وقالت:

- طيب بما إننا هنتجوز، وأكيد هتحصل مشاكل كتير أوي الفترة الجاية، فأنت لازم تمسك أعصابك. يعني لو حسيت بتوتر، اتنفس بهدوء، أو لو حسيت إنك هتخانق، سقف أو خبط في أي حاجة حواليك.

وافقها بهدوء، وهو يحتسي من مشروبه، لكن قطع صفوتهم صوت الباب. ذهب لفتح الباب، فوجد "قاسم" واقفًا يستند على الحائط، ويرتدي نظارته الشمسية، وهو يدلف للمنزل:

- البقاء لله، من الواضح إنك بتجيب أجل أي حد تعرفه. احرص على نفسك، يا هاجر، وأنت يا طنط، مش طلعتي مامتك برضو؟

رمقته "هاجر" بغضب، بينما نهضت "حسناء" من مكانها، ورفعت أكمام قميصها، وتحدثت بتساؤل:

- أنت أكيد ابن "أنس" و"نبيلة"، صح؟

أجابها ببرود وهو يومئ:

- آه، أنا "قاسم أنس الجبالي". أنا معروف أوي كده؟

ردت ببرود وهي تتجاهله :

- لا، مش حوار معروف، بس سبحان الله نفس سماجة أبوك، وتقل دم نبيلة أمك. ماهي جينات بقى.

نظر لها "محمد" بفرح، وهي غمزت له بانتصار.

تحدث "محمد" ببرود، وهو يقلب عينيه:

- جاي ليه يا قاسم، وحشتك ولا ملقتش حاجة تعملها؟

أجابه الآخر باستفزاز:

- لا، جاي افكرك و أقولك إنك لو شوفت عمودك الفقري، هتقدر تتجوزها، وإن عمرها ما هتكون ليك يا مجنون تربية المصحات والشوارع.

نظر "محمد" إلى "هاجر" و"حسناء" وهو يرفع أكمامه وينظر إلى الآخر بغضب:

ولقد قتلتك بالهجاء فلم تمُت، إن الكلاب لطويلة الأعمار، لذلك نجرب طريقة تانية.

أمسك بقميص الآخر، وضربه في وجهه. فرد "قاسم" بلكمة، فدار به "محمد" وألقاه أرضًا، وجلس فوقه وهو يلكمه، تبادلا اللكمات، و"حسناء" تحاول إبعادهما، لكنها لا تستطيع.

وقف "محمد" وركله بين ركبتيه، بينما "قاسم" سحب قدمي "محمد"، فوقع أرضًا.

بينما كان "عادل" واقفًا أمام الباب يتابع ما يدور، لكنه تدخل عندما وجدهم مستمرين في تسديد الضربات لبعضهم. صاح بهم:

- بس أنتم الاتنين بدل ما قتلكم!

لم يستمع له، فأخرج سلاحه وضرب طلقة في الأرض لكي يتوقف. فتوقف "قاسم"، لكن "محمد" ظل ينظر لـ"هاجر" وهو يبتسم:

- هو اللي أجبرني أضربه، وأنتِ شوفتي. ومع ذلك، اهو يا روحي!

انتهت حديثه وهو يصفق، والجميع ينظر له بغباء، حتى أطلق صوت صفير بفمه، وهو ينظر لذهولهم.

البارت الخامس عشر

"ائتِ بالنجوم، إن استطعت"

تمنيت أن أعانقك حتى يتوحد نبض قلبينا. أراك الآن قريبا جدا،
في أحضاني، وأنا في حضنك أعانقك بقوة، خوفا من ألا
أستطيع رؤيتك بهذا القرب مرة أخرى. رغم معرفتي بأنني لن
أقترب منك الآن، فأنت في أحلامي، وسأستيقظ بعد قليل.

كم تمنيت أن أبقى هنا، عالقا في حضنك، نعانق بعضنا حتى الموت في ذكريات لا تنتهي.

جلس يحتسي قهوته في الصباح، متأملًا تلك الكلمات. لقد مرّ وقت طويل على رحيل "سمر"، شهران ونصف، أو بشكل أدق خمسة وسبعون يومًا، أو ألف وثمانمائة ساعة. كل دقيقة، كل لحظة مرت وكأنها دهر بالنسبة له، رغم محاولاته التعايش، خاصة بوجود "حسناء" التي لم تتركه للحظة. حاولت بكل الطرق أن تكون له كالأم، وكم تمنّى لو كانت معه في طفولته. لقد كانت دائمًا بجواره، ويقسم أنه لو كانت معه من البداية لما حدث له كل هذا.

ولكن، أي عزيز يُنسى؟ رغم كل هذا، لم ينسَ "سمر" ولو للحظة. هناك ذكريات لا تُمحى مهما حييت، وهو لم ينسَ حتى الآن موت "نوح" ولا "هيثم" ولا "نائل". ذكريات محفورة في قلبه، لكن يا ليتها كانت ذكريات سعيدة.

وقف وألقى سترته الخفيفة على كتفيه، وقد زادته وسامة. الحق يُقال، كان وسيمًا ببنطاله الأسود المصنوع من الجينز، وتيشيرت ذو ياقة "هاي كول" باللون الأسود، وفوقه سترة سوداء بدون أكمام. كان يرتدي حذاءً رياضيًا أبيض.

خرج من غرفته بهدوء وخطوات ثابتة. وجد "حسناء" تقف على آلة الرياضة، تتمشى باتسجام عليها. انعقد حاجباه وهو يتذكر كيف تتحول هذه المرأة بهذه السرعة، حقًا إنها غريبة.

"فلاش باك" - قبل شهرين ونصف:

كان "محمد" جالسًا بتعب على الأريكة بجواره "هاجر"، يشاهدان مباراة حماسية بين "عادل" و"حسناء".

وقفت "حسناء" متخصرة، تتحدث بغضب واستياء من "عادل":

- إنت كمان عاوز تطلع نفسك مش غلطان؟! ده انت بجح أوي بصراحة، إنت وأختك السبب في كل ده، ولو فاكر إني هسيب ابني يبقى بتحلم.

رد "عادل" ببروده المعتاد:

- أقسم لك بالله ما كنت أعرف، وفي كل الأحوال هو معاكي، وده ميمنعش إنك مراتي على فكرة.

ضحكت ضحكة ساخرة وهي تعقد حاجبيها:

- معايا؟ بعد إيه؟ نص عمري ضاع وأنا لوحدي، طيب لو كنت تعرف ليه سبتني؟ ليه كل ده؟

تحدث "عادل" بغضب وهو يسحب شعره للخلف ويتنفس بعنف:

- وَ ديني ورحمة أمي ما كنت أعرف! والله ما كنت أعرف، أحلف لك على إيه تاني؟

قاطعهم "محمد" ببرود:

- الحلفان بغير الله شرك، اثبت إنت على وَ ديني والله، غير كده إنت مش ناقص ذنوب أصلاً.

التفت الجميع إليه ببلاهة، بينما نظر له "عادل" بنظرة تعني "أهذا وقته؟"

أكملت "حسناء" حديثها بحزن وخذلان، للمرة الثالثة من نفس الشخص:

- طلقني يا عادل.

أجابها وهو يمسك يدها بهدوء:

- أطلقك! بالساهل يعني؟ ربنا جمعنا تاني، وإنت دلوقتي بتسيبيني؟ طيب إيه المانع تفضلي معايا؟ على فكرة أنا مش جوز أمك علشان تقولي لي ابني، ده ابننا.

أجابته ودموعها تنهمر على وجنتيها، وعيناها محمرتان من كثرة البكاء في الأيام الماضية:

- ماينفعش! ربنا جمعنا علشان أشوف ابني، كان بيعوضني، ومع ذلك احنا منعرفش حكمة ربنا فين، بس خلاص يا عادل، ماينفعش.

أجابها بنفس الهدوء، وهو يحاول إصلاح الأمور، رغم النيران المشتعلة داخله:

- طيب، إنتِ إيه اللي يرضيكي؟

أجابته بهدوء وهي تمسح دموعها:

- نجوم السماء أقرب لك مني، لو مسكتها تبقى قابلني.

نظر إليها بحيرة، وهو يرى دموعها تنهمر بقوة رغم تمسكها بقوتها. اقترب ليضمها، لكنها دفعته بعيدًا.

خرج من المنزل مسرعًا، تاركًا خلفه تلك التي تتمسك به كل مرة ليخذلها.

أما هي، فاختبأت في أحضان "محمد"، ذلك الشاب الذي عاد إليها، شابًا وسيما.

العودة إلى الحاضر:

التفتت "حسناء" إليه قائلة:

- فطرت؟ ولا أحضر لك فطار؟

أجابها "محمد" وهو يضع بعض الأوراق في حقيبة ظهره:

- لا، أنا عادةً مش بفطر، هاخد قهوة في الطريق. احتمال أتأخر النهاردة.

أجابته بهدوء، وهي تنظر إليه بحب:

- ماشي يا حبيبي، أنا كمان هخلص شغل متأخر شوية، وهكون مع "عشق". لو احتجت حاجة، كلمني.

احتضنته بحب، وهو يُقبّل رأسها بلطف:

- لا إله إلا الله. خدي بالك من نفسك.

أجابته بابتسامة:

- محمد رسول الله.

خرج بسرعة متوجهًا إلى سيارته، لكنه أغلق عينيه سريعًا بسبب أشعة الشمس التي سطعت في عينيه فجأة، مسببة له ضبابًا.

بعد وقت قليل، هبط من سيارته في مكان يشبه المخزن المهجور. وقف يتفحص المكان بعينيه ليتأكد من وجوده.

اقترب منه "حسام"، وقال:

- البقاء لله، معلش جات متأخرة، بس انت عارف.

أجابه "محمد" بهدوء وهو يستند بذراعيه على السيارة:

- ونعم بالله، ولا يهمك. طمني، قدرتوا تثبتوا إنهم السبب في الجريمة دي؟

أجابه "حسام" بأسف، وهو ينظر للأسفل:

- للأسف لا، بس مفيش مجرم مهما كان محترف، مفيش وراه دليل. وإن شاء الله قريب هتكونوا في مكانكم الطبيعي، بس الصبر شوية.

أومأ "محمد" برأسه بهدوء، وسلمه شريحة بيانات:

- دي شريحة فيها كل تعاملات الشركة من خمس سنين لحد دلوقتي، هتحتاجوها.

أخذها "حسام" وقلبها بين أصابعه:

- أنا مش عارف أشكرك إزاي على المساعدات دي، بس رد جمايلك هيكون قريب، لما تشوفهم في السجن.

صافحه "محمد" بهدوء، ثم صعد إلى سيارته مجددًا، وهو يفكر في خطة محكمة للإيقاع بهم، وإنهاء هذه الأسطورة التي ترسمت في عقله منذ زمن.

في الوقت نفسه، كان "حسام" يتحدث مع اللواء "سعيد" ليخبره بالجديد، مشيرًا إلى أنهم أوشكوا على القبض على المجرمين.

في الغرفة، كان "سليم" ينحني للأمام، ممسكًا بمنشفة يمسح بها الأرضية وهو يدندن بصوت سيء للغاية. غنى بحماس:

-"يا اللي نسيت الغرام

ارجع هنا وقولي

مين ذاك على الخصام

ده أنت اللي فاضلي."

وقف فجأة، معتدلًا بجسده، ورفع هاتفه ليرى صورة لـ "جني". بدأ يرقص بطريقة بهلوانية، يتمايل وكأنه مومياء، ليكمل الغناء بصوته الرديء:

-"أول ما عرفت إنك

عاوزني جيت قوم

مقدرش أستغنى عنك

يا معلمني الغرام."

تابع وهو يراقص الهاتف بين يديه بحركات مضحكة، إلى أن سقط على الأرض بسبب المياة التي لم يجففها جيدًا. في تلك اللحظة، كان "ياسر" يراقب ما يفعله، فاغرًا فاه ببلاهة.

ثم سمع صوت "جني" من الجهة الأخرى تكمل الغناء بصوت ليس أفضل حالاً من صوت "سليم":

-"وهقولك بردو عيني

يا اللي في بعدك نسيني

تولني هتلاقيني

سجادة بين إيديك."

سقط "سليم" على الأرض مجددًا بعد حركاته البهلوانية، ليقترب والده "ياسر" منه وهو يحاول كتم ضحكته، ثم قال بلهجة ساخرة:

-أنا السبب والله، كان يوم مش مطلعله شمس يوم ما فكرت أخلفك.

رد عليه "سليم" ببرود، مقلدًا صوت العجائز:

-قومني يا بني، مش قادر أقوم بالله عليك.

ضربه "ياسر" على يده بخفة، فسقط مرة أخرى ضاحكًا:

-يا سلحفاة! أنت عجوز كده إزاي؟ مش بتعمل حاجة في حياتك إلا تأكل وتنام، حيوان الكسلان بجد.

ضحكات "جني" جاءت من الجهة الأخرى، فتحدث "ياسر" إليها، ضاحكًا:

- عجبك الهبل دة؟ عادي، ما أنتم أهبل من بعض. ربنا يشفي والله.

خرج من الغرفة وهو يتمتم بملل، متحدثًا إلى نفسه، إلى أن قطعت حديثه "عشق" التي جاءت غاضبة:

- عارف لو كلمت اللي اسمه 'عادل' تاني هيكون آخر شيء بينا.

سألها بتعجب:

- إيه اللي حصل تاني؟

أجابته وهي تنظر إليه بحنق:

- يعني ما تعرفش اللي حصل؟

رد بهدوء، وهو يبتسم لها بلطف:

- أعرف، وأعرف إنك زعلانة على صحبتك. بس أنا لازم أكون جنبه، يا 'عشقي'، ده صاحبي.

ثم وضع قبلة على رأسها وغادر المنزل، تاركًا إياها تغلي من غضبها، وهي تتحدث إلى نفسها.

وقف "سيف" في مكانه، ويداه ترتجفان، بينما كانت عيناه تتلألأ بالدموع التي يحاول جاهداً أن يحبسها. أنفاسه كانت تتقطع بصعوبة، منتظراً قدومها.

وحين ظهرت من بعيد، شعر كما لو أنه يراها لأول مرة. تماماً ككل مرة. كانت عيناها الواسعتان السوداوان وابتسامتها الساحرة تضفي على وجهها الهادئ جمالًا فريدًا، وتجعله يغرم بها مجددًا في كل لقاء.

جلست بجانبه ونظرت إليه بتعجب، فقد لاحظت أن "سيف" لم يكن هو نفسه الشخص الذي اعتادت رؤيته بابتسامته العريضة التي كانت تشق وجهه عادةً.

- سيف، مالك؟ في إيه؟

سألت بصوت قلق.

أجابها وهو ما زال ينظر إلى وجهها، محاولًا جمع كلماته:

- مفيش، بس موضوع 'سمر' لسه تعبني... ملحقتش أستوعب موت 'نائل'.

حاولت تهدئته، بملامح هادئة وكلمات دافئة:

- الله يرحمهم كلهم، يا حبيبي. إنت عامل إيه؟

أجابها بهدوء، محاولًا الحفاظ على رباطة جأشه بينما يحك يديه ببعضهما:

- أنا تمام الحمد لله، بس، مش ملاحظة إن 'نائل' مات فجأة كده؟ بدون سبب؟ و'سمر' كمان... كل حاجة بتحصل فجأة. تعبنا إزاي؟ 'سما'، هو أنا ممكن أموت زيهم؟ أقصد... أنا مهدد بالموت في أي لحظة لو زادت عليا نوبة الربو.

نظرت إليه بصدمة وهي تحدق في عينيه، محاولة فهم ما يقوله:

- يعني إيه؟ بعد الشر عليك، يا حبيبي، الأعمار بيد الله، محدش غيره يعرفها.

أجابها والدموع تغمر عينيه، مترددة كأنها حبات لؤلؤ على وشك السقوط:

- بس أنا فعلاً ممكن أموت في أي لحظة. يعني نفترض إننا اتجوزنا أو خلفنا ابن أو بنت. ذنبهم إيه لو موت؟

سقطت دموعها وهي تستمع لحديثه، تدرك تمامًا أن ما سيقوله بعد ذلك سيكون الأصعب. تحدث بصوت متردد ويده ترتعش، في وجهه احمرار واضح، لكنه مضطر أن ينطق بما يمزق قلبه:

- سما إحنا لازم نسيب بعض بقول كده وأنا بتقطع، بس أنا خايف عليك. إنت مش هتقدري تستحملي. عمري ما هكون لحد غيرك، وعمري ما هقول 'بحبك' لحد تاني لحد نهاية عمري.

قال كلماته وسحب مفاتيح سيارته من على الطاولة، وترك المكان مسرعًا. ذهب بعيدًا وهو يشعر بأن قلبه يكاد ينفجر من الوجع الذي لا يحتمله. جلس داخل السيارة، سامحًا لدموعه أن تتدفق بحرية، وضرب المقود بقوة بينما تحدث لنفسه:

- ليه؟ يعني كل الأكسجين ده مش مكفيني؟ هافضل مخنوق بقيت عمري؟ ليه؟

لكنه لم يكمل حديثه، وبدأ يلهث بصعوبة. محاولات الشهيق باءت بالفشل، وضيق التنفس الناتج عن نوبة الربو اللعينة تسيطر عليه. أمسك بالزجاجة التي تحتوي على بخاخة الدواء، ووضعها في فمه محاولًا أن يتنفس.

وفي الوقت نفسه، جلست "سما" في مكانها، والدموع تنهمر من عينيها بغزارة. شهيقها المتقطع كان يعبر عن الألم الذي تشعر به. لم تستطع استيعاب ما حدث. كان من المفترض أن تبقى معه إلى الأبد، فلماذا تركها بهذه السهولة؟ التضحية التي يقوم بها دائمًا من أجل سعادة الآخرين لا تعني شيئًا إذا كانت هي ستبقى تعيسة بدونه. كيف ستعيش أيامها من دونه؟ من دون رفيق دربها، الشخص الذي كانت تجد الأمان في عينيه.

كانت تتساءل مع نفسها: أي ذنب ارتكبته لتعاقب بهذا الفراق؟

ألم يعدها يوما بأنه لن يتركها أبدا؟ ألم يقل لها يوما:

- "أنت الحبيب وأنت الخليل، وليس سواك ببالي خطر، فإن زرت هز فؤادي السرور، وإن غبت أوضى بروحي الضجر".

فلماذا يتركها الآن؟ لماذا يترك هذا الحبيب خليله ويعود كل

منهما بمفرده ليسابق الأيام، كما قال لها يوما:

-"ثم تأتي المدن بيننا، ولن نلتقي أبدا، حتى المصادفة لن تجمعنا، وربما يموت أحدنا والآخر لا يعرف".

وقف "أحمد" على الجانب الآخر من الطريق، يتأمل كل شيء حوله بعينين تعكسان عمقًا خفيًا، تمزج بين الوسامة والشراسة في آن واحد. عيناه البنيتان كانتا تبرقان بشيء من الغموض، لحيته المتناسقة بلونها البني الداكن وخصلات شعره التي تتمايل بخفة في نسيم النهار أضفت على مظهره جاذبية آسرة. كان يرتدي "تي شيرت" أبيض بنصف أكمام يظهر جزءًا من عضلاته المتناسقة، وبنطالًا أسود ضيقًا، مما جعله يبدو مزيجًا متقنًا بين البساطة والقوة، هادئًا من الخارج، لكنه مثل البحر، يخفي في داخله عمقًا من المشاعر.

بجانبه كانت "جميلة"، بشخصيتها الطفولية التي لا تعرف كيف تكتم فرحتها، تثرثر بمرح عن شجارها الأخير مع صديقاتها، وكيف تمكنت من الرد عليهن. حديثها كان يتدفق بلا توقف، كمن يحاول الهروب من صخب الحياة عبر الكلمات. كانت ترتدي "تي شيرت" أبيض عليه رسمة مرحة لشخصيات كارتونية من "شركة المرعبين المتحدة"، وأسفل الرسمة كان مكتوبًا باللون الأسود "مارد وشوشني". فوق التي شيرت، ارتدت قميصًا أبيض بأكمام طويلة تركته مفتوحًا بشكل غير متعمد، وبنطال جينز أسود أضاف لمسة من العفوية على مظهرها. كانت خصلات شعرها البنية تلتف حول وجهها، مما جعلها تبدو كطفلة رغم براءتها الممزوجة بجاذبية غير واعية.

بينما كانت تثرثر وتشرح تفاصيل الشجار، كان "أحمد" غارقًا في تأمل تفاصيل وجهها. توقف الزمن بالنسبة له كلما نظر إلى عينيها الملونتين اللتين تشعان بالحيوية. كان يراقب خصلات شعرها وهي تتمايل، وملامح وجهها التي تحمل شيئًا طفوليًا لكنه يحمل أيضًا نضجًا خفيًا. شعر بأن كل كلمة تخرج منها تتلاشى في الهواء، كأن حديثها يهمس لعقله لكن قلبه كان مستغرقًا تمامًا في هيئتها.

فجأة، قطع صمته، وكسر تيار أفكاره قائلًا بنبرة مفعمة بالعاطفة وهو يحدق في عينيها مباشرة:

- بياضك الطيف، وشعرك البني، وعيونك الملونة، كلها كارثة لقلبي، هل يمكنك أن تكتفي عن سرقة قلبي في كل مرة أنظر فيها إليك؟

توقفت "جميلة" عن الحديث فجأة، وقد خجلت من قوة كلماته. شعرت بأن وجنتيها تشتعلان بالحرارة، وشيء ما بداخلها ارتجف. نظرت بعيدًا للحظة، تحاول إخفاء ارتباكها، ثم أعادت خصلات شعرها إلى الخلف بلطف وهي تقول بخجل واضح:

- أنت بتثبتني وأنا بتكلم؟؟، طيب أقول إيه دلوقتي؟

ابتسم "أحمد"، بتلك الابتسامة التي دائمًا ما تجعل قلبها يخفق. رفع كتفيه بحركة لطيفة وقال:

- متقوليش حاجة، أنا مش بقول الكلام ده عشان أسمع رد، هو بس بيطلع لوحده لما أشوفك.

شعرت "جميلة" بسعادة غامرة، كأن تلك الكلمات كانت موسيقى تطبطب على قلبها المتعب. تنفست بعمق وهي تشعر بشيء من الطمأنينة يلامس روحها وقالت بصوت مفعم بالرضا:

- كلامك حلو لدرجة تطبطب على القلب.

نظر إليها "أحمد" بعمق، كأن عينيه تحملان وعدًا خفيًا، وقال بنبرة هادئة ملؤها الحب والتصميم:

- إيه رأيك نكسر الحزن ده؟ ونخلي جوازنا الشهر الجاي... يعني بعد ٢٠ يوم؟

لم تتوقع "جميلة" تلك الجملة، شعرت بقلبها يقفز من مكانه. نظرت إليه بدهشة ممزوجة بفرحة غامرة، وكأنها لم تصدق ما سمعته. بعد لحظة من الصمت، ارتسمت على وجهها ابتسامة واسعة، وقالت وهي تنظر في عينيه:

- موافقة يلا نروح نقول لبابا، ونبلغ العيال بالليل.

لم يكن في تلك اللحظة أي شيء يعادل حماسهما، شعرا بأن كل حواجز الحياة قد ذابت أمامهما، وأن طريقهما المشترك

بات واضحا كالشمس. سارا معا نحو والدها، قلوبهما تخفق بشدة، وكأنهما على وشك أن يفتحا بابا جديدا نحو حياة مليئة بالحب والمغامرة.

كانت "زينة " تشعر بثقل الهواء من حولها وهي تقف أسفل تلك الشجرة الضخمة، تنتظر صديقتها التي تأخرت عن موعدها. راقبت بتأمل الأشخاص الذين كانوا يجرون التمارين الرياضية حولها، وكأن العالم بأسره يدور في وتيرة مختلفة عن وتيرة أفكارها. كانت شمس الأصيل تلقي بظلها الطويل على الأرض، وتسللت بين أوراق الشجرة الواسعة بعض أشعة الشمس، تلامس وجهها الحائر.

من بعيد، لمحت تلك الفتاة التي بدت كشبح يتقدم نحوهـا، وعـلى الفـور كانـت نظرتهـا الأولى كافية لتكشف عن شخصية الفتاة قبل أن تتحـدث. متوسـطة الطـول، مظهرهـا الجـريء أوحـى ببرودة مفرطة، كانت ترتدي "هوت شورت" ضيق يكشـف عـن تفاصـيل سـاقيها، و"تي شـيرت" أسود ضيق التصق بجسدها وكأنها تتحدى الجميع أن يقترب منها. تركت شعرها البني مسـدولًا للخلف، وكأنه تيار من الماء يتمايـل مـع كـل خطـوة تخطوهـا. توقفـت أمـام "زينـا"، وعيناهـا المتعالية تجول في جسدها من أعلى لأسفل بلا حياء، قبل أن تفتح شفتيها ببرود:

- أنتِ بقا مرات "عز"؟

نظرت إليها "زينة " نظرة مماثلة، برد مغلف ببرودها الخاص، وأعـادت خصـلات شـعرها خلـف أذنها قبل أن تقول:

- آه، أنا مرات "عز"، واسمي "زينة ".

وفي تلك اللحظة، انضمت فتاة أخرى بجانـب الفتـاة الأولى، تـدعى "سـالي". كانـت مختلفـة في مظهرها تمامًا، ترتدي فسـتانًا أسود طويلًا فضفاضًا، وحجابًا أبيض قطنيًا، ملائمًا تمامًا للون بشرتها الهادئ. توقفت "سالي" بجانب صديقتها وقالت بنبرة مليئة بالدهشة، وكأنها اكتشفت سرًا:

- معقولة؟ هي دي؟

شعرت "زينا" بغضب مكتوم يتسلل إلى قلبها، لكن وجهها بقي هادئًا وهي ترد بنبرة أكثر حدة:

- إيه اللي غريب في الموضوع؟

أضافت "سهيلة"، التي كانت تـستند على "سالي" بتعالٍ واضح:

- "أصل يعني متخيلناش إنك كده تخيلنا حاجة تانية خالص، يعني بعـد مـا يسـبني عـلى الاقـل يشوف وحده اجمل منى او مستوايا زي زوق "عز" العادي.

كان لكلمات "سهيلة" وقع السهام في قلب "زينة"، لكنها تمالكت نفسـها وأخـذت نفسًـا عميقًـا، قبل أن ترد بنفس البرود الذي بدأت به:

- والله، مكنش جه وقت نعزمكم، ولو كان جه، "عز" مكنش هيعزمكم برده.

ردت "سهيلة" بغرور واضح، وهي تجلس متقاطعة الساقين:

- إن شاء الله، يعزمنا على فرحته التانية، لأني مش شايفة إنكو هتكملوا مع بعض كتير.

في تلك اللحظة، انفجر الغضب المكتوم في "زينة ". تقدمت بخطوات سريعة نحو "سالي"، وأمسكت بشعرها بقوة، تهزها بعنف وهي تقول:

- جرى إيه يا بنت، فاكرة نفسك من عيال الزمالك؟ لأ، فوقي، مش انا يا حبيبتي اللى تقوليها كده .

اجتمع الناس حولهم في مشهد فوضوي، بينهم "ميرنا" و"عز" الذي حاول التفريق بين الفتيات بلا فائدة. بعد محاولات عديدة، تمكن "عز" من إبعاد "زينة "، ووضعها خلفه كدرع يحميها. كان الغضب يتأجج في عينيه، يضغط على أسنانه وهو يحدق في "سهيلة" قائلاً:

- إزاي تمدي إيدك على مراتي؟

نظرت إليه "سهيلة" بنظرة تحد وغرور، قبل أن تقول بنبرة مشحونة:

- مراتك؟ مش عارفة إزاي عجبك المقشفه دي!، لم تسيبني مفكر نفسك هتغظني بدي ؟؟

لم يحتمل "عز" تلك الإهانة، فأمسك بيدها بقوة وقال بغضب متفجر:

- المقشفه دي تبقا أمك! نسيتي نفسك ولا إيه؟

ازدادت حدة المشهد عندما تدخلت "سالي" بنبرة حاقدة، قالت:

- إنت اخترت البتاعه دي؟ طيب، أنا هعرف أوريها قيمتها.

رد عليها "عز" ببرود وقح:

- اللي ليه تمن مهما كان غالي، بيكون رخيص لأنه بيتباع. إنما مراتي أغلى من إنها تتحط في مقارنة مع أمثالك.

بعد ذلك، خرجت "سهيلة" من المكان، غارقة في كراهيتها، بينما كان "عز" يغلي من الغضب، فأمسك بيد "زينة" وسحبها بعيدًا عن الحشد. أمام السيارة، كان لا يزال غارقًا في غضبه، يمرر يده على شعره ويحاول السيطرة على مشاعره.

- إنت قولتي أنا هقابل البنات وهرجع، وافقت، بس إيه اللي جابك تتعاملي مع الأشكال دي؟ أنا محذرك مليون مرة ملكيش علاقة بيهم.

نظرت إليه "زينة " ببرود، لكن بداخلها كان الغضب يغلي كالبركان:

- طبعًا، مش عاوزني أتكلم معاهم علشان ما يحكوش فضايحك، صح؟ ليه بقى كلامهم مش ممكن يكون صح؟

أجابها "عز" بانفجار غضب مكبوت:

- وأتجوزتك ليه بقى؟ بلعب؟ أنا لو بلعب مكنتش هتجوزك! كنت طلقتك تاني أو حتى جوزتك عرفي. كفاية شغل الحوارى اللي طلع جوا.

لم تحتمل "زينة " المزيد من الإهانات، فصعدت مشاعرها إلى قمتها، وصفعته بقوة، لتجعله يرتد إلى الخلف. بنبرة مكسورة وغضب متراكم، قالت:

- طلقني، وابعتلي ورقتي على الحوارى اللي أنا جايه منها. على فكرة، الناس هناك أنضف منك ومن اللي تعرفهم.

حاول "عز" الإمساك بها، لكنه تراجع حين رأى دموعها التي كانت تمسحها بعنف. كانت يداها ترتجف، وكأنها لا تصدق ما حدث في لحظة واحدة.

في العيادة الطبية كانت"هاجر" تقف منتظرة موعدها الطبي ولكن كان قلبها ينبض داخل قفصها الصدري بقوة وهي تتذكر كل الذكريات التي تتراقص داخل عقلها بصخب كل شي يكاد يفتك بقلبها الصغير يكاد يخرج من موضعه.

انتبهت للمساعدة وهي تصيح باسمها تعلن عن موعد دخولها فنهضت من مكانها بثقل وهي تمسك بحقيبتها السوداء المماثلة لتنورتها السوداء و بلوزتها البيضاء و خصلاتها البنيه المتروكه للهواء يطيرها في كل مكان .

دلفت الغرفه بهدوء و صافحت "حياة" ثم جلست على هذا المقعد المائل "الشازلونج" و القت بحقيبتها جانباً.

تحدثت "حياة " بهدوء وهي تمسك بدفترها تدون ما تقوله "هاجر" :

- أنتِ متاكدة انك جاهزة للخطوة دي ؟»

اجابتها "هاجر " بشرود و معالم الحزن واضحه في نبرته و في وجهه :

- مش هفضل أنكر باقي عمري لازم ارتاح يمكن لو اتكلمت ارتاح.

اومئت "هاجر" لها وهي تعيد نظراتها للثبات و بدأت بالقول :

- كان عمري ١٢ سنه في أول مرة... كان "انس " عندنا في البيت وانا كنت لوحدي في اوضتي و فجأة دخل عليا و كان بيبين انو بيلعب معايا بس بعد شويه بدأ ......

اخذت نفس عميق وهي تغرز اظافرها في كفها و الالام واضح على وجهها و اردفت تكمل حديثها:

- بدأ يلمسني بشكل مقرف تحرش في أماكن خاصه

بعدها أنا بعدت عنه و من وقتها مقربش مني

بس بعد ٣ سنين كنت مع بابا في المزرعه

و هو قرب مني تاني المرة دي فضلت احاول

اهرب منه لكن وصلت للحيط وقتها بدأ يتحرش

بي و انا كنت مش قادرة اتحرك كنت مشلوله

لكني بعدت عنه بسرعه وجريت.

صمتت وهي تنظر بيدها التى تسيل دماء ؛ بسبب انغراز اظافرها لمده طويله و دموعها تنهمر بحرقه وقهر فوق وجنتيها.

تحدثت "حياة" بهدوء وهي تمسح يد 'هاجر" من اثر الدماء :

- و باباكِ عامل ايه أنتِ عرفتيه ؟

ابتسمت"هاجر" بسخرية و ألم وهي تمسح دموعها :

- اه قولتله يومها ضربني بالقلم و قالي بكل قسوة:

ان ده محصلش واني كذبه مع أنه كان عارف ان ده حصل ولم اصريت على كلامي خلع حزامه الجلدي و ضربني و هددني أن لو حد عرف هيحصل اكتر من كدة

اكملت "حياة" حديثها وهي تحتضن كف "هاجر " بكلتا يديها :

- و من وقتها بقا جات الجيموفوبيا ولا حصل شيء تاني .

اجابتها"هاجر" وهي تعيد خصلاتها وراء اذنها:

- لا اعتقد ان الموضوع اطور وقتها بعدها كنت بخاف جدا و فضلت اكتر من ٥ شهور بخاف اخرج، كنت بلبس هدوم كتير فوق بعض لدرجه ان جالي حساسية في الجلد بسبب الحرارة الزيادة

لكن بعدها كنت في اوضتي و سمعت صوت برة خرجت و شوفت، شوفت بابا كان بيعتدي

على بنت المساعدة بتاعت ماما استخبيت لم شوفته بيرمي "محمد" من على السلم خوفت .

لم تكمل حديثه و قفزت من على المقعد تتجه للمرحاض مسرعه و بدا صوت تقيوها يعلوا و جسمها يرتجف أكثر و أكثر و جسدها يهمد حتى جلست في ارضيه المرحاض و "حياة" بجانبها تحتضنها و تربت على خصلات شعرها بهدوء.

كانت "جيداء" تقف في منتصف منزلها، تتجول بضجر وهي تنظر للطعام الذي أعدته لزوجها منذ ساعتين، ولكنه لم يصل حتى الآن. الشموع التي أشعلتها بدأت تذوب من طول الانتظار، حتى اللابتوب الذي وضعت عليه أحد الأفلام بدأ شحنه ينفد، كما نفدت طاقتها تماماً. فأطفأت الشموع واللابتوب وجلست تنتظر قدوم "أمير" بملل.

بعد ساعة أخرى، فتح باب المنزل بهدوء، ووجهه مرهق تتجلى عليه علامات التعب. أوقفه صوتها الغاضب:

- بدري يا أمير؟ ما كنت بات برة أحسن.

أجابها بهدوء، وهو يلقي بحقيبته على الأريكة بتعب:

- معلش يا حبيبتي، الشغل كان كتير أوي والوقت سرقني، حقك عليا.

نظرت إليه والدموع تملأ عينيها:

- آه، الشغل تاني! كل شويه الشغل،ماينفعش ننزل مصيف، الشغل! ماينفعش أحضر الحفلة، الشغل! ماينفعش نروح في أي حتة!

أجابها بقتضاب، وقد بدأت الضغوطات تسيطر عليه:

- أنتِ عاوزة إيه دلوقتي؟

ردت وهي تمسح دموعها:

- معرفش، انا حته معنديش اهل اقولك وصلني ليهم .

تحدث بنبرة مكتومة:

- لا، أنا اللي هأمشي دلوقتي.

ابتسمت بسخرية، وتحدثت بصوت مكتوم:

- ده بدل ما تصالحني ولا حتى تقول لي حاجة! طالما وصلت لكده، يبقى طلقني يا أمير.

تركها وخرج بسرعة، مغلقاً الباب بعنف، وعيناه تفيض بالدموع. خرج متجهاً إلى منزل والدته، وحيدًا محملًا بحزن يعصر قلبه.

وقف "أمير" بالسيارة أمام منزل والدته، عيناه متعبتان وجسده منهك، يعلم جيداً ما ينتظره داخل المنزل. لم يكن هناك خيار آخر، بعد أن توترت الأمور مع "جيداء"، كان عليه أن يعود إلى ملاذه الأول، غرفته القديمة التي لم يتغير شيء فيها منذ شبابه.

بهدوء، فتح الباب محاولاً التسلل بخفة، وكأنه لص يحاول الهروب من أنظار العالم، لكن العالم الذي أراد تجنبه كان ينتظره خلف الباب. تحرك على أطراف أصابعه، متجنباً حتى صوت أنفاسه، لكن في غمرة حذره، اصطدم بطاولة صغيرة. الفازة التي كانت تستقر عليها تحطمت على الأرض، محدثة صوتاً صدح في أرجاء المنزل كأنها ناقوس إعلان عن وصوله.

رفع "أمير" رأسه ببطء، ليجد نفسه أمام نظرات والدته "ملاك"، تقف عند نهاية الدرج ووراءها "عز"، ينظرون إليه بتعجب شديد، وكأنهما شاهدا للتو مشهداً من فيلم كوميدي. بملامح محطمة وابتسامة خجلة، لوّح لهم بيده محاولاً حفظ ماء وجهه:

- مساء الخير.

ونهض ببطء، وجمع شتات نفسه، وهو يعدل من ملابسه التي تعلقت بها آثار الفوضى. حاول استعادة كرامته التي اندثرت مع الفازة المهشمة، ثم قال محاولاً أن يبدو خفيف الظل رغم ثقل الموقف:

- كنت قاصد أوقع علشان تصحوا ماما، الحقيني! "جيداء" عاوزة تطلق.

لكن لم يكن هناك وقت لتفسير أكثر، لأن حذاء والدته المنزلي كان في الهواء باتجاهه. حاول الهروب من المواجهة، لكن الحذاء أصاب وجهه في النهاية، لينفجر "عز" ضاحكاً من المشهد. كانت والدتهم تركض خلفه وهي تصيح:

- طلق! طلق إيه؟! ودي آخرتها؟!

بعد لحظات من الفوضى، جلس "أمير" بجانب "عز"، بعد أن انتهى العراك السريع، وروى لهم ما حدث مع "جيداء". والدتهم لم تكن أقل انفعالاً، لكن بغضب محب ينضح من عينيها، قالت:

- انتوا هتجننوني، صح؟ دي البنت والله عندها حق. انتوا تشيلوا بلد! والله يا عيني عليهم.

رد "عز" بضجر، وهو يرفع حاجبيه استنكاراً:

- هو إحنا ولادك ولا هم؟ في إيه في السيستم عندك؟

قذفت والدته الوسادة نحوه، ضاربة إياه برفق على رأسه:

- لا، علشان كده ها سعدكم. اهي حسنة ليا في الدنيا، يا عين أمكم عليكم!

تربع "أمير" في مكانه، وهو يحاول مازحاً تخفيف التوتر:

- قولي يا خبيرة، إيه الحل؟

أخذت والدتهم نفساً عميقاً، ثم تحدثت وكأنها معلمة تُلقي درساً في العلاقات الزوجية:

- بصوا، البنت عموماً كائن لطيف جداً، مش زيكم، المعاملة معاها بسيطة لو كنتوا بتفهموا. يعني، موقف زي اللي حصل مع "أمير" النهارده، لو كنت اتصلت بيها وأنت في الشغل وقلت إنك هتتأخر، كانت هتستناك ومش هتزعل. ولو نسيت، كنت تقولها حقك عليا وتكسبها بكلمتين حلوين. أما بالنسبة لـ"عز"، كنت صح لما وقفت جنبها، بس يا بني الكلام محتاج طريقة أرقى، مش قسوة.

استدار "عز" نحو "أمير" بغباء:

- إحنا اتهزقنا، صح؟

أجابه "أمير" بابتسامة خفيفة، وهو يهز رأسه:

- واضح كده.

بعد أن انتهت الجلسة العائلية، وقفت "ملاك" أمام الشرفة، تحمل هاتفها وتنظر إلى الخارج بتأمل، ثم اتصلت بـ"جيداء" و"زينة ". قالت بهدوء، وهي تبتسم بثقة:

- كل حاجة تمام، بكرة هيعتذروا لكم. زي ما اتفقنا، اتقلوا عليهم شوية، وبعدين اهدوا. انتوا عارفين إنهم متخلفين شوية، وده ناتج من جواز القرايب... الله يرحمه "مؤمن" كان قريب، بس القلب طيب وده الأهم.

ضجت الضحكات من الطرف الآخر، فيما ابتسمت "ملاك" بانتصار. كانت راضية عن خطتها الصغيرة لحل الأزمات العائلية، متمنية أن تكون تلك الحادثة الأخيرة في سلسلة مغامرات أبنائها الطائشة.

جلس "عادل" في مكتبه وهو يتنقل بين الأوراق التي أمامه، يقلبها بنظرات هادئة وكأنه يحاول فهم كل حرفٍ مكتوب. بعد لحظات رفع رأسه عن الأوراق تماماً، ليلتفت إلى "ياسر" الذي كان يراقبه بصمت منذ ما يزيد عن الساعة، دون أن يتفوه بكلمة.

ابتسم "عادل" بعبث، وألقى بالأوراق جانباً، قائلاً بنبرة مزاح:

- إيه؟ معجب بيا للدرجة دي ولا اتحولت؟

نظر له "ياسر" من بين أسنانه، وكأن الغضب يتسلل عبر كلماته:

- لأ بفكر ازاي اقتلك ومحدش يعرف.

ضحك "عادل" ببراءة، مشيراً نحو نفسه بيده بطريقة طفولية:

- أنا؟ تقتلني أنا؟ أخص عليك يا "سو"، تقتل صاحبك؟

تفجر "ياسر" بغضب، وهو ينظر إليه بملامح متجهمة، قائلاً باستياء واضح:

- لو قلت سو دي تاني مش ها يحصل كويس، ثانياً خالي عندك دم يا بارد! ملحقتش تتجوز ٣ شهور على بعض وخلتها تطلب الطلاق، ده أنا المفروض آخد جائزة نوبل إني متحملك كل السنين دي.

أدار "عادل" الكرسي حول نفسه، واضعاً يده تحت ذقنه وكأنه يفكر بعمق:

- هي قالت هترجعلي لو جبتلها نجوم السما، أجيب النجوم ازاي؟

ثم فجأة قفز بفكرة جديدة وكأنه اكتشف الحل المثالي:

- بس لقتها! برافو عليك يا "عادل"، والله عبقري يا نفسي!

خرج من المكتب وهو يتحدث مع نفسه، يمشي بخطوات ثابتة وكأنه في مهمة خاصة، يمدح نفسه بجدية كمن يصف عبقرياً خارقاً، تاركاً "ياسر" خلفه في حالة من الحيرة والتعجب. "ياسر" جلس متسمراً في مكانه، يكاد يجن من تصرفات صديقه الغريبة التي تظهر في كل مرة يكون فيها عادل غاضباً أو متحمساً أو حتى عبقرياً، وكأن مجموعة من الشخصيات المختلفة تتجمع داخل جسد واحد.

ظل "ياسر" ينظر خلف صديقه المتباعد في الأفق، وهو يتساءل بصمت: "إزاي ده صاحبي؟ وإزاي تحملته السنين دي كلها؟"

وقفت "ميرنا" تضع هاتفها على المنضدة أمامها، يتدفق منه فيديو لوصفات طبخ، وهي تتابع الخطوات بحرص شديد، خوفًا من أن تخطئ في أي تفصيل. كانت تضع قطع المعكرونة المغمورة في صوص البشاميل في الأطباق، وابتسامتها تزين وجهها بفخر، فقد كانت النتائج مرضية على ما يبدو.

على الجانب الآخر، جلس "إسلام" يأكل بصمت من الطبق الموضوع أمامه. ورغم أن الطعام كان شهيًا، إلا أن عقله كان بعيدًا، شاردًا بسبب الخلاف الأخير مع زوجته. مرت خمسة أيام منذ أن وقفت أمامه في صالة الرياضة، تغضب وتتحدث بحدة حتى انتهى بها الأمر بتوجيه الإهانات له أمام العاملين. ورغم مرور الأيام، لم يتبادلوا أي اعتذارات أو كلمات.

قطع شروده صوت "ميرنا" الهادئ:

- إسلام، أنا آسفة معرفتش أعتذر لك طول الفترة اللي فاتت، بس قولت أعملك المكرونة اللي بتحبها، يا "سوما".

توقف عن تناول الطعام فجأة، وهو ينظر إليها بانزعاج ظاهر:

- سوما تاني؟ طيب، مش هكمل أكل بقى يا "ميرنا".

وقفت أمامه مباشرة، تمنعه من التحرك وهي تضحك بنبرة طفولية:

- خلاص بقى، الله! إيه رأيك في المكرونة؟

ابتسم لها بابتسامة هادئة، ثم أمسك بيدها وقبلها بحب:

- جميلة أوي يا حبيبتي، تسلم إيدك. الغريب بقى إنك زي ما هي المكرونة مسكرة، إيدك اللي لمستها كأنها حولت الملح لسكر.

تحدثت وهي تلامس وجنتيه برقة، وكأنها طفلة تداعب محبوبها:

- يلا بقى يا حبى خلص أكلك، علشان النهاردة هنروح نقعد مع العيال شويه.

أكملت حديثها بابتسامة قبل أن تعود إلى الطاولة لتكمل تناول طعامها، بينما نظر إليها "إسلام" بامتنان.

وقف "عادل" أمام "حسن" و"أنس" و"قاسم" و"مصطفى"، ينظر إليهم بنظرات فارغة، وكأن عقله في غياب تام. صوته كان مشحونًا بالحدة وهو يقول:

- وبعدين ابنك يروح يتهجم عليهم، صح كدة؟ طيب، في حالة أن عقلك وزك تروح هناك تاني أو تقرب من "هاجر"، صدقني هزعلك وأزعل أبوك وأمك عليك.

تململ "عمر" بخوف وهو يراقب اقتراب "عادل"، وكأن حبلًا رفيعًا يربطه بالأرض قد ينقطع في أي لحظة:

- أنا معملتش حاجة، أنا أصلاً مشوفتش "محمد" من ٥ شهور، ومشوفتش "هاجر" من شهرين.

أجابه "عادل" بقرف، وكان وجهه يعكس الاستياء الشديد:

- مش مكسوف على دمك وانت مشوفتش أختك من شهرين يا بارد؟

كانت كلمات "عادل" كالسياط، تُخلف أثرًا عميقًا في نفس "عمر"، الذي بدا كأنه يتآكل تحت ضغط الذنب.

بينما استغل "حسن" الفرصة ليتحدث بلين، محاولًا تخفيف حدة التوتر:

- والله يا "عادل"، أنا "محمد" بعتبره ابني، رغم إني مخلفتوش، بس هو خد جنب مننا كلنا عارف، والله كان نفسي يتجوز "رزان"، بس هو بقي .

تحدث "أنس" ببرود، متظاهراً بنبرة الود، بينما كانت عيونه تحمل سخرية خفية:

- احنا ننسي مشاكل الولاد، بقا كدة كده، دول إخوات، هم مع بعض، أهم حاجة الشغل.

في تلك الأثناء، دلف "محمد" و"هاجر" معًا، حيث أجبرته على القدوم معها لتطمئن على "عادل". لكن "محمد" انتبه لحديثهم، فتحدث وهو ينظر إليهم بسخرية:

- يخربيت طيبتك، بجد هدمع من طيبتك يا أخي.

تحدث "حسن" بلطف، كأنه يحاول أن يهدئ الأمور:

- كدة يا "محمد"، ماشي يا حبيبي، ربنا يهديك يا ابني.

نظرت "هاجر" بعينيها المتوترتين إلى "محمد"، في حين رد الأخير ببرود:

- حبك برص يا سونا.

بينما احمر وجه "أنس" بغضب وبرزت عروقه:

- شايف ابنك بيعمل إيه؟ انت هتقفله ولا هيكمل قلة أدب؟

أجابت "هاجر" بابتسامة هادئة، لكن عيونها تحمل معنى أعمق:

- لا، هيكمل قلة أدب عادي، كدة كده احنا كنا جايين نطمن عليك يا خالو.

اقترب "عادل" منهم وهو يهمس بغضب، صوته كصوت الرعد:

- احترم نفسك علشان ما ننشرش غسيلنا الوحش قدام الناس.

تحدث "قاسم" ببرود، كأنه يتجاهل كل التوتر:

- احنا مش ناس يا عمي، والله احنا اتعودنا على قلة أدب "محمد"، عادي.

ابتسم "محمد" ببرود، مستندًا على كتف "عادل":

- رد عليه يا عمو، ما احنا في حضانة هنا. وبعدين، انت تاني يا بن "أنس"، انت مش بتحرم يا بني. والله أنا إيدي وجعاني، مش هقدر أضرب فيك.

حافظ "قاسم" على برودة أعصابه، لكنه لم يستطع إخفاء ازدرائه:

- ماشي، مقبولة منك علشان انت حبيبنا، بس ليك يوم إن شاء الله قريب.

بينما ابتسم "محمد" وهو ينظر لهم ببرود، وكأن الكلمات تخرج منه كالسكاكين:

- قومٌ إذا مَسّ الحذاء وجوههم شكى الحذاء بأي ذنب أهنتني. تقريبًا كانوا بيتكلموا عليكم.

خرجوا من المكان بعد حديثه، وقد تحدثوا عن هذا الوضع في كل مرة يتقابلون، يهزمهم بالقول والفعل، حتى حديثه يجعلهم يستشيطون غضبًا.

وقف "عادل" ينظر إليهم بغضب، وهو يجز فوق أسنانه، كأنما يستعد لمعركة:

- انت مفيش تربية خالص، زيرو دم يا بني آدم، إيه البرود ده جيبه منين؟

أجاب "محمد" بابتسامة باردة مستقرّة على وجهه، وهو لا يبالي:

- جينات بقا يا بش مهندس.

نظر له "عادل" بغضب، ممسكًا بتلابيب قميصه، وكأن الغضب يشتعل فيه:

- أولاً، بطل قلة أدب، انت بس اللي بارد. ثانيًا، لو قلت بش مهندس تاني، هجيبك من دقنك ده.

ضحكت "هاجر"، لكنهم نظروا إليها، فاختفت ابتسامتها بغباء.

تحدث "محمد" وهو ينظر لـ"عادل":

- أقولك إيه، أصل أنا كلمة بابا دي تقيلة، وبصراحة متنفعكش، أقول إيه يا بوب ، أحسن، ولا خلينا في بش مهندس؟

نظر له "عادل" وهو يراجع نفسه، وكأن أسئلة كثيرة تدور في رأسه:

- خلاص، متتقمصش كده "بوب"، ولا زفت، مش فاهم، أنا طالع من فيلم كارتون. آسف لو كلمتك وحش.

نظر له "محمد" بحزن، برغم بروده، كأن عواطفه مكبوتة تحت طبقات من الثلج حدث نفسه لكي لا يلين وسيظل آسفك باردًا، حتى أن غمسته في نار حارقة لن يكفيني بقدر ما احترقت.

بينما "هاجر" ظلت صامتة، تتابع ما يحدث، لكن في قلبها وجع ما زال بداخلها لا يخرج، كان كأنها تعيش لحظة انكسار.

تحدث "عادل" ببرود، وكأن كلماتهم كانت ضبابًا كثيفًا يمنع الرؤية:

- أنا مش فاهم بصراحة، انت بتكلم كدة في إيه، على فكرة، أنا مكنتش سايبك في الشارع ولا كنت ببيع أعضاءك مثلاً.

ابتسم "محمد" بسخرية، وكأن السخرية هي الدرع الذي يحميه:

- لا والله ده انت مبهر فعلاً .

لم يهتم لحديثه، وواصل:

- أنا مش بحاسب في ده، في حاجات كتير لازم تتعرف قبل ما أتكلم. بس نصيحة، بطل تقل أدبك قدام الناس، اهدا شوية.

أجاب "محمد" وهو يبتعد للخارج:

- كنت زمان لما حد يفهمني غلط، أفضل أفهمه الصح وأبرر موقفي. لكن دلوقتي، اللي ياخد عني فكرة غلط، ياخد مني التانية هدية.

تحدث "عادل" بنفس البرود:

- طيب، إيه اللي بينك وبينهم، ليه كل ده؟ أنا مش فاهم؟. أصل مش منطقي كل ده يكون علشان "هاجر" .

أجاب "محمد" بسخرية:

- ابقي اسالهم انت بقا .

نظر له "عادل" بغضب، يدير وجهه ويزفر بقوة، كأنه يتحدى العالم بأسره:

- أنا مش فاهمك، انت إزاي بالبرودة دي؟

تحدث "محمد" ولأول مرة بصدق، كأن الكلمات تخرج من عمق قلبه لنفسه ولم يفصح بها :

" جوايا كلمة، ويمكن تجرحك، بس مش أكبر من جرحي. ياريتك غريب، يا ريتني ما عرفتك. ياريتك موت."

بينما أمامه اكتفي بالصمت رغم حديثه الداخلي المتواصل الا انه لم ينطق بحرف .

خرج "محمد" مبتعدًا للخارج، يتنفس بوجع، يصعد إلى السيارة، حيث صعدت "هاجر" بجانبه، تربت على كفه بحنان.

تحدثت "هاجر" تنهي صمته، صوتها كنسيم خفيف:

- مقلتليش بقا، انت كملت الاستوديو بتاعك؟

أجابها بحماس، متناسيًا كل شيء:

- أه، خلصت كل حاجة، إحنا جبنا حاجات جديدة وكل حاجة جاهزة. أنا بصراحة فرحت أوي، كان نفسي "سمر" و"نائل" يشوفوه، بس "حسناء" قالتلي إنهم أكيد بيحسوا بيك، صح يا "هاجر"؟ كلهم هيحسوا، أنا متأكد. حتى زمان لما كنت بقعد لوحدي أكلم "نوح"، وهو مش موجود، كنت بحس إنني بطمئن وبهدا.

نظرت له وهو يتحدث بحماس طفولي لم تغير الحياة رغم كل العناء الذي اصابه لكنها مازال بحماس هذا الطفل الصغير الذي كان يقف يقص عليها تفاصيل يومه و يدورها بلطف.

اجابته بهدوء :

- اه طبعا هم هيفرحوا بيك اوي أنا كمان فخورة بيك اوي .

ابتسم وهو ينظر للطريق امامه :

- طيب احكيلي بقا عملتي ايه عند "حياة"؟

ابتلعت الغصه في حلقها وهي تتنفس بهدوء و بدأت تقص عليه ما حدث وهي تنظر لاهدابة الكثيفه وهو يرمش بها لمرات متتاليه.

لم أخبره بعد لكنني احب لحظاته العشوائية حين يتحدث

بحماس عن أشياء يحبها، لم أخبره أيضا انني لا أمل حديثه بامكاني أن انصت له اليوم ، و غدا والى الأبد .

كانت الشمس تودع السماء، تاركة وراءها شعاعًا ذهبيًا يغمر المكان بهدوء، وكأن الكون يهمس بلطف لآخر لحظات اليوم. في إحدى الزوايا، جلس "سليم" بجانب "إسلام"، بينما كانت عينيه تتجولان بتأمل نحو "جنى ". لم يكن الأمر مجرد نظرات عابرة، بل كانت نظرات مشبعة بالاهتمام، وكأن روحه تتبع تفاصيلها دون أن يدري. ابتسم حين رأى حديثها العفوي، فكل حركة منها كانت تحمل شيئاً من الجاذبية التي لا يستطيع تجاهلها.

طريقتها في الكلام كانت مزيجاً من البساطة والسحر، لا تخرج منها كلمة إلا وهي تحمل في طياتها معنى أعمق. كأنما كل نبرة صوت منها تعبر عن شعور يتجاوز المعاني العادية. لو قالت "وردة"، لشم الجميع عبيرها العطر من مكانهم، فكيف يكون الحال إن قالت "أحبك"؟

في لحظة، اقتربت منه "جني" وهمست له بنبرة خافتة، وهي تمزح:

- سليم، إنت متنحلي كده ليه يا بني؟ في إيه؟

انتبه "سليم" فجأة، وكأن عالمه الصغير اهتز من حوله. فرد عليها بارتباك:

- ها؟ لا، أبداً تعالي، عاوز أقولك حاجة.

ابتعدا قليلاً عن المكان، وهو يقلب في صفحات الكتاب أمامه، ثم قال لها بصوت ملؤه التردد:

- جنى ، بصراحة أنا بحبك.

هناك كلمات وُجدت لتقال مرة واحدة، لشخص واحد، وبعدها تفقد قيمتها إن قيلت لأي شخص آخر. كانت تلك الجملة واحدة من هذه الكلمات، ولحظة النطق بها كانت لحظة فارقة.

ابتسمت "جنى " بخجل، قبل أن تجيب وهي تلمع عيناها ببريق خاص:

- أنا كمان يعني، عارفة أصلاً إنك بتحبني.

نظرت في عينيه بتمعن، عيناه العسليتان لم تكونا عاديتين، بل كانتا كفنجان قهوة أدمنته. شعره لم يكن مجرد خصلات، بل كل خصلة تحمل في طياتها قصة خاصة. حتى شفتاه لم تكونا عاديتين؛ كانتا أشبه بزهرتين تبحثان عن ملجأ، وقد وجدتا مكانهما المناسب في ملامحه. بالنسبة لها، "سليم" لم يكن شخصاً عادياً، بل كان الكون مختزلاً في جسد رجل.

أما هو، فكان يختلس النظرات إليها بحب، يعرفها بعفويتها وجمال ضحكتها التي كانت تسيطر على قلبه. كانت ضحكتها طفولية نقية، وكأنها لوحة فنية تعكس البراءة والنقاء في أبهى صورها. كان الكمال يبدو وكأنه قد وُجد خصيصاً لها.

قطع "سليم" الصمت، وكأن كلماته تتسرب من قلبه دون حواجز:

- ده كل الناس بتموت موتة طبيعية، إلا أنا يموت بعيونك.

لكنه لم يستطع إكمال جملته عندما ألقت "حسناء" وسادة باتجاهه وهي تضحك على حديثهما.

"ريهام"، يشاكسها بمرحه المعتاد، بينما وجهها يحمر من الغضب بسبب تصرفاته الطفولية.

بعد أن ارتفعت الضحكات خفيفة من الأجواء، استعاد "سليم" انتباهه للحوار، محاولاً أن يبقى جادًا رغم العفوية التي غمرت المكان.

وقف "سيف" و"أحمد" و"إسلام" على جانبيه بعد أن أمضوا الليل معه، يحاولون إقناعه بعدم التخلي عن "سما". كانوا قد بذلوا جهدًا كبيرًا حتى أقنعوا والدها بالموافقة على إرسالها للقاء بهم اليوم. الجو كان مشحونًا بالمشاعر المختلطة، بين توتر الموقف والرغبة في الإصلاح، كان كل واحد منهم يحمل عبئًا مختلفًا على كتفيه.

وقف "سليم" أمام "سما"، التي كانت تخفي وجهها عنه، غارقة في دموعها. عيناه كانتا تترقرقان بالدموع أيضًا، بينما حاول أن يستجمع قوته ليخاطبها، وكأن كلمات الرحيل كانت تقتل شيئًا داخله:

- امشي يا "سما"، كفاية عليا أوي كده.

رد "سيف" بنبرة مليئة بالندم، ووجهه ينحني نحو الأرض بحزن:

- أنا آسف يا "سمائي"... خوفت عليكي، والله، كنت خايف بس سامحيني.

رفعت "سما" يدها لتجفف دموعها وهي تجيبه بهدوء ممزوج بالألم:

- لا يا "سيف"، انت تخليت عني... أنا مش قادرة أتحمل.

فجأة، وبدون مقدمات، وضع "سالم"، والد "سيف"، يده على كتفيهما، وهو يحاول كسر التوتر بالمزاح:

- احنا هنرجع للنكد تاني يا ولاد؟! ماهو بيعتذر اهو زي الكتكوت المبلول، أعمل إيه بقا!

ابتسم بخفة وأكمل، محاولاً أن يجعل الأمور أخف وقعًا:

- يا بنتي، إحنا بنديك جوهرة. "سيف" ده جوهرة والله! شوفتي؟ مؤدب، محترم، ومربينه عشر مرات. وكمان دكتور! يعني في حالة أي مريض في العيلة، هتستفادي منه. ومني أنا كمان هصرف لكم العلاج... يعني مش ناقصك حاجة.

ابتسمت "سما" وهي تمسح دموعها بهدوء، متأثرة بالكلمات الساخرة التي أطلقها "سالم"، لكن مشاعرها كانت لا تزال متضاربة. في تلك اللحظة، تجاهل "سيف" كل شيء حوله، وأغمض عينيه للحظة، ثم تحدث بحب حقيقي:

- أنتي عارفة؟ لو فتحت صيدلية، هحطك على رف مع أدوية القلب.

ضحكت بخفة رغم ألمها، وأجابت بنبرة رقيقة:

- يا من بحبك قد دنوت من الفنا... يكاد يقتلني اشتياقي ولهفتي... لكل شيء نهاية، وأنا أرى في عينيك نهايتي.

قطع "سالم" الجو المشحون مجددًا بنبرة مضحكة وهو يقول ببلاهة:

- إيه ده؟ أنا واقف هنا بعمل إيه؟ لا سجنل عندكم ولا إيه؟

ابتعد عنهم وهو يضحك، تاركًا الثنائي ليتبادلوا المشاعر بصدق. وقف بجانب "ريهام"، يشاكسها بمرحه المعتاد، بينما وجهها يحمر من الغضب بسبب تصرفاته الطفولية.

بعد أن هدأت الأجواء قليلاً واستعاد الجميع توازنهم العاطفي، رحل "سالم" ليقف بجانب "ريهام"، محاولاً إشعال ضحكاتها بمداعباته المعتادة، بينما كانت هي تحمر خجلاً وغضباً.

التوتر كان لا يزال يعم المكان، لكنه الآن كان أكثر دفئاً بين الأشخاص المتبقين. وقف "عز" أمام "زينة"، تلك اللحظة كانت مليئة بالتردد والحيرة، لكنه أمسك بيدها برفق وقبلها بحنان، ثم قال بصوت خفيض وهادئ:

- أنا آسف يا "زينة "، حقك عليّ. الناس كلها بنور عيوني، بس لما سمعتهم بيتكلموا عنك، ما قدرتش أتحمل قلت الكلام من عصبيتي. بس والله ما هعمل كده تاني، ورحمة أبويا.

ردت عليه "زينا" بصوت خافت، عيناها المنتفختان من الدموع تعكس ألمها:

- وأنا كمان كنت مضغوطة وتعبانة لما لقيتك بتتخلى عني، حسيت إن الدنيا وقفت. حتى "سمر" سابتني، وكنت خايفة وانت ما قدرتش موقفي.

في لحظة من التفاهم الصامت، ضمها "عز" إليه، وشعرت أنها وجدت أخيرًا ملاذًا آمنًا وسط اضطراب حياتها. تعلقتْ في عناقه وكأنها تمسك بآخر خيط يربطها بالأمان والراحة.

ابتسم "عز" بخفة وهو يحتضنها بقوة، ثم قال بمرح وهو مازال يمسك بها:

- سماح بقى؟ ده أنتِ ادتيني قلم سمع النادي كله، عارفة؟ لو حد تاني كنت سويته بالبلاط.

ضحكت بخفة، وداعبت خصلات شعره بتودد، بينما هو يواصل كلامه بحب وحنان:

- أنا هنا جنبك... هبقى الضماد لكل جراحك، ولو اضطرني الأمر، هحط وجعك في قلبي بدلاً عنك. هاجبر قلبك حتى لو قلبي بيتوه من الألم. أنا هكون الحضن اللي يسعك ويسع همومك، ارمي كل اللي بيوجعك على صدري، وسيبي لي شعورك. انتِ في أمان... بس خليك معايا.

في الجانب الآخر من المكان، كان "أمير" يحاول بجدية شديدة أن يحظى بانتباه "جيداء"، التي لم تعره أي اهتمام. ظل يتحدث ويثرثر بجانبها بلا توقف حتى اضطر أن يصرخ بشكل فكاهي:

- على فكرة بقى، أنا غلطان وحقك عليا، ومش هعمل كده تاني! بس اسمعيني بقى، لو محكتلكيش على يومي، هقفل أعيط هنا.

نظرت إليه "جيداء" بعبوس، وأجابت بنبرة ساخرة:

- خلاص يا "أمير"، هسمعك يا بابا حاضر، ارغي يا أخويا، متخليش في نفسك حاجة.

ابتسم "أمير" ببلاهة وهو يبدأ في قص كل ما حدث في يومه، بينما "جيداء" تستمع إليه بابتسامة صغيرة ترتسم على شفتيها.

في هذه اللحظة، فتحت "حسناء" هاتفها لتجد إشعاراً من تطبيق الواتساب. كان هناك رسالة من "عادل"، قرأتها بهدوء، وكان محتواها:

«عودي إليّ، فإنني أقبلت نحوك نادماً. أشكو إليكِ مدامعي كشكوى الغريق إلى الغريق. أتراكِ تعودين يا حبيبتي أم آه من يدينا الطريق؟!»

ابتسمت "حسناء" بخفة وهي تقرأ الرسالة، ولكنها فزعت فجأة عندما شعرت بيد توضع على كتفها. استدارت لتجد "عادل" يقف خلفها، ويمسك بخصلات شعرها بحنان. كان يحمل بيده نجوم معدنية صغيرة مزينة ببعض اللؤلؤ، وعلقها على شعرها برفق، ثم قال وهو يبتسم:

- أنتِ قلتي عايزة نجوم السما، بس بصراحة مش هقدر أجيبها، دي أفورة وجو هنود اوي لكن إيه رأيك في النجوم دي؟ ولو مش نجوم السما، على الأقل أنا كريتف وعملتها لك.

ضحكت بخفة وهي تنظر إليه، بينما هو ضمها إلى صدره بحنان، وقبل رأسها. اقترب منها أكثر وهو يهمس بهدوء:

- إيه اللي عملتيه فيا؟ .

في مكان آخر، وقف "محمد" وهو يستشيط غضبًا، عيناه كانتا تقدح شرراً، وكأن بؤبؤيه على وشك الخروج من مكانهما. لم يعرف هل يغار على والدته، أم يشعر بالغيرة من زوجها، الذي هو في الوقت نفسه والده. كانت لحظات مختلطة، مشاعر متداخلة. كيف يمكن أن يشعر بذلك؟ إذا نظرت إليهم من قريب، ستجد أن "حسناء" تبدو كفتاة شابة في الثلاثينات، بينما "محمد" يبدو في أواخر العشرينات. كيف للعمر ألا يكون قد أخذ مجراه معها؟! ما زالت تحتفظ بتلك الملامح الهادئة والبسيطة، عيناها بنية، ووجهها يميل للون المخملي... حقًا، لا تبدو كمن هي في عامها الأول من العقد الرابع، مما يؤكد أنها تزوجت في سن مبكرة. ولكن هل كان ذلك تهورًا أم قرارًا حكيمًا؟

اقتربت "هاجر" من "محمد"، ولاحظت توتره وشروده، ثم سألته بهدوء:

- إنت بتبص كده ليه، "محمد"؟ إنت كويس؟

رد عليها بنبرة مضطربة وهو ينظر بعيدًا:

- آه، كويس عادي، هي هتمشي كده؟

ابتسمت "هاجر" وهي تعلم جيدًا أنه يغار، إذ بدت غيرته واضحة في عينيه وعروق رقبته التي برزت وأذنيه التي احمرت:

- آه، بس "حسناء" مش هتمشي كده وخلصت... دي مامتك، أكيد هتخرجوا سوا وهتزورو بعض.

أنهت حديثها وهي تنظر إليه بحنان، بينما عيونه تلتقط التفاصيل الدقيقة في عينيها. لا شيء كان يهمه أكثر من تلك العيون. نظر إليها بعشق، وقال بصوت يفيض بالرقة:

- أعطيني كما تشاء من الخرائط، فكل الطرق تؤدي إلى عينيها. وما عيناها إلا متاهة ضعت فيها من النظرة الأولى... يا ذات العيون الخضراء، أصبحت أسيرك، لا أرى غيرك، ولا يملأ قلبي إلا حبك.

ابتسمت "هاجر" بخجل وهي تزيح عينيها عنه بهدوء، لكن فجأة، لاحظت شيئًا بعيدًا، وزادت نبضات قلبها... ارتبكت بشدة، وشعرت بالخوف.

البارت السادس عشر

"كيد النساء.. ام اعينهم"

عاهدتني بالصدق، ثم جفوتني، وسرقتني من واقعي،
وكأنني لا شيء. ضممتني إلى صدرك،
ورميتني بعيدا عنك
ثم قتلتني بهدوء دون أن أشعر. جعلتني ليلا طويلا، كم
أسهرتني، يا من كنت ساعيا لدربي، كيف تركتني هكذا؟ رميت
اعذارك، لعلك تختفي بين ظلال الأكاذيب، وركضت خلف
عواذلي، هجرتني كأنك لم تكن، وسألتني بالله أن أصدقك، ثم
كسرتني مرة أخرى، وعدتني أنك ستعود، وتركتني مع ألم
الانتظار، لتعود بعد النيران، تتوسل أن تكون بقربي، وكأنني لم
أحترق بالفعل.

وقفت متصنمة في مكانها، وكأن قدميها تجذرتا في الأرض، عندما رأته ينظر إليهم بنظرات حقد وكراهية متقدة. لم تشعر بنفسها إلا وهي تختبئ خلف جسده، كأنما وجدت في حضوره حاميها، بينما عيناها تراقبان حركاته الخافتة. في تلك اللحظة، لم يكن بإمكانها إلا أن تلتقط أنفاسها المتسارعة، مدركة حجم الخطر الذي يحيط بهم. الآخر، الذي كان يقف إلى جانبها، لاحظ أيضًا نظرات "قاسم" التي كانت مشتعلة بالغضب، وكأن النار التهمت كل حبال الصبر داخله.

اقترب "محمد" بخطوات ثقيلة ومشحونة بالغضب المكتوم، حتى وقف أمامه، بؤبؤا عينيه حمراوان من شدة الغضب، وكأنهما توهجتا بلهيب لا يهدأ.

- خير يا 'قاسم'، الشوق جابك تيجي تزورني؟ ولا أكون وحشتك؟" قالها محمد بسخرية، محاولًا إخفاء انفعالاته المتفجرة.

ابتسم "قاسم" ببرود واستفزاز، وكأنه لا يبالي بالاحتقان الذي يحيط بالمكان، مسح وجهه بيده بلا اكتراث:

- من جهة وحشتني، فإنت وحشني دايمًا يا غالي، بس الحقيقة أني جاي لعمو 'عادل'. كنت هجيبله الأوراق الخاصة بالصفقة الجديدة، عندنا اجتماع مهم.

تخطاه "قاسم" بهدوء، لكن محمد لم يتحمل تلك اللامبالاة ورفع يده لاعتراض طريقه، صارخًا بغضب:

- شغلك ده برا بيتي، يا روحي وجودك هنا مش مستنينه بالمرّة.

ابتسم "قاسم" مرة أخرى، لكنه كان هذه المرة أكثر استفزازًا، متابعًا نظراته الحادة تجاه "عادل"، الذي كان يقترب ببطء، وكأنه يراقب الوضع بحذر من بعيد. "عادل" صافح "قاسم" بحرارة، في حين وقفت العيون حولهما متجمدة من الصدمة والغيظ.

"محمد" بقي في مكانه، يتابع ما يحدث بحقد دفين، نظراته كانت أشبه بسكاكين تلمع في الضوء، لو كانت تلك النظرات تملك قدرة الإيذاء، لأحرقت الجميع، ولتركتهم رمادًا.

تحدث "محمد" مجددًا، بنبرة مزجت بين البرود والغضب المتأجج:

- طيب، ولا ليك أهلاً ولا سهلاً، حضرتك بكل هدوء اتفضل معاه، لأن بصراحة مش بداخل الأشكال دي عندي. والحقيقة محدش مرحب بيك هنا .

"قاسم"، الذي بدأت ملامحه تغلي، أمسك بتلابيب قميص محمد الأسود، وصاح به:

- أنا اللي بأشكال يا كائن! متنساش نفسك يا 'محمد'، احنا دفنينه سوا.

نظره "محمد" ببرود، غير متأثر، فيما كان أصدقاؤه يتجمعون خلفه بحذر وكأنهم يشكلون جدارًا من الحماية. تلك الابتسامة الساخرة ارتسمت على شفتي "محمد"، بينما قال بهدوء مستفز:

- اعرض عن الجاهل السفيه، فكل ما قاله فهو فيه. ما ضر بحر الفرات يوماً أن خاض بعض الكلاب فيه.

بعد أن ألقى كلماته الأخيرة، ابتعد "محمد" عنهم ببطء، متوجهًا إلى "هاجر"، التي كانت تتابع الموقف من بعيد، ترتجف بعض الشيء لكنها تشعر بنوع من الطمأنينة عندما تقابلت عيناه بعينيها. تلك الابتسامة التي ظهرت على شفتيه جعلت قلبها يهدأ، وكأنما وجدت الأمان مجددًا.

"حسناء" التي كانت تراقب ما يجري، شعرت بالغيرة والغضب الشديد، كانت تفرك يديها ببعضهما وهي تراقب "هاجر"، في حين لم تستطع كبت المشاعر المضطربة التي اجتاحت قلبها.

مع مرور بعض الوقت، وبعدما هدأت الأجواء، دلف "عادل" بهدوء إلى المكان، ممسكًا بيد "هاجر"، وقال بنبرة هادئة لكنه حازمة:

- يلا نروح، إحنا اتأخرنا أوي.

لكن "هاجر" ابتسمت بهدوء، وهي تضم رأس ابنها لعناقها الدافئ:

- لا، أنا هفضل مع ابني كام يوم كده، أصله وحشني أوي صح يا 'محمد'؟" ثم همست بهدوء، غير مسموعة: "خلي 'قاسم' ينفعك بقا.

"محمد" الذي شعر أخيرًا أن الكرة في ملعبه، ضمها بقوة أكبر، قائلًا ببرود:

- آه، فعلًا حنان الآم طلع حلو أوي. خليكي معايا كام يوم.

بينما كانت "هاجر" تحاول كبت ضحكاتها وهي تراقب تصرفات "محمد" الطفولية، رغم مظهره الجاد بملابسه السوداء ولحيته الطلقة.

"عادل"، الذي كان يراقب الموقف، تحدث بنفس البرود:

- خلاص، يبقا يجي معانا أو أنا أفضل معاكم.

"محمد" ابتعد بسرعة، وكأنه شعر بارتباك من ذلك الاقتراح، وألقى المشروب الذي كان في يده بتوتر، محاولًا تدارك الموقف:

- لا، مفيش داعي لكل ده،أنا هبقا أجي أزورك ممكن ترجعي معاه عادي.

ابتسم "عادل" بانتصار عندما أدرك أن خطته نجحت في استعادتها معه. وبعد قليل، انتهى الموقف وغادر الجميع، تاركين "محمد" وحيدًا مجددًا، غارقًا في أفكاره المشوشة.

في صباح رمادي، زينت الشمس السماء لكنها لم تكن صافية كعادتها. كانت الغيوم ثقيلة، وكأنها على وشك أن تسكب مطراً في أي لحظة. وقف سليم أمام منزلها، ينتظرها، وعيناه معلقتان في السماء كما لو أنه يراها لأول مرة. تأمل الأفق، ولكن حين ظهرت هي على الدرج، تحول انتباهه إليها. كانت تنزل بخطوات مليئة بالنشاط المعتاد، وشعرها الغجري المتماوج ينساب بحرية. ارتدت تي شيرت أبيض به بعض الرسومات، وبنطالاً أسود وسترة خفيفة بيضاء، تماماً كما اعتادت على البساطة التي زادت من سحرها.

اقتربت منه، وهي تتابع مظهره المميز: شعره المتروك للهواء، عينيه البنيتين، بنيته الرياضية، وحتى ملابسه التي تتناسب تماماً مع شخصيته. كان يرتدي بنطال جينز أزرق وسترة سوداء بدون أكمام. لم تستطع أن تتجاهل العروق البارزة في ذراعيه، والتي بدا لها وكأنها قصائد يمكن لمسها.

قال وهو يفتح لها باب السيارة:

- شكلك حلو أوي النهاردة كالعادي، بس النهاردة في حاجة جديدة.

ابتسمت بنعومة وهي ترد بنبرة هادئة:

- آه فعلاً قصيت جزء من شعري.

ابتسم بدوره وهو ينظر للطريق، لكنه في كل مرة يلتقط نظرته العسلية كانت تشتت ذهنه، وكأنه يتوه عن المكان والزمان. حاولت كسر الصمت بارتباك، مستديرة لتتقابل عيونهما:

- بص أنا بصراحة مش بحب الكلام الحلو كل شوية، بيخليني أتوتر، والنهاردة بالذات مش محتاجة اتوتر.

ضحك برقة وأجاب بنبرة هادئة:

- يُحكى أن السحر قديمًا كان يأتي على هيئة عيون عسلية. قوليلي أي اقتباس يليق بعيونك الساحرة.

أبعدت نظرها عنه، وهي تشتمه داخلياً على طريقته التي تجعلها تتلعثم. لماذا يصر هذا الشخص على جعلها تفقد هدوءها بهذا الشكل؟

بعد دقائق قليلة، جلسا معًا في كافيه يحمل طرازًا قديمًا ومزينًا بصور وعبارات تعود لزمن آخر. تحدثت بارتباك وهي تفتح صندوق الذكريات المؤلمة:

- بص يا سليم، أنا بحب كل حاجة تكون على المكشوف. حبيت تكون صريحين من البداية ماما شغالة في شركة كبيرة برا، رئيسة قسم وكمان ليها أسهم بابا، أو الشخص المفروض يكون بابا، كان زميلها هناك. حبوا بعض واتجوزوا، لكن لما عرف إنها حامل، رفض الفكرة تمامًا وأصر إنها تنزل الحمل. لما رفضت، طلقوها شفته مرتين بس في حياتي، مرة وأنا أربع سنين، والمرة التانية وأنا ١١. مش حابة ندخل في الموضوع ده.

كانت تحاول أن تبقي الدموع داخل عينيها، لكن تمردت دمعة هاربة. أمسك سليم بيدها فورًا، لكنها سحبتها بسرعة، قائلة بهدوء:

- أنا مش بحب اللمسات دي، بعد إذنك.

رد بحنان وهو يشعر بان قلبه موجوع لاجلها:

ـ أنا مقصدتش، كانت مجرد رد فعل لما شفتك بتعيطي. أنا آسف.

أومأت برأسها بهدوء، بينما تمسح آثار الكحل الممزوج بالدموع. شرد للحظة وهو يتذكر اقتباسًا كان قد قرأه، فقال بحماس:

- معلش، بس لازم أقول... أعينها مثل حُسن بغداد عن المطر، حتى عند الحزن جميلة.

ابتسمت رغم دموعها وقالت:

- لو عايز تثبتلي إنك لطيف بجد، اعزمني على الأكل بدل الكلام ده. ماكلتش كويس قبل ما أخرج.

استدعى النادل، وجلسا يطلبان الطعام. طلبت هي باستمتاع:

- أنا هاخد استيك لحم، شوربة خضار، بيتزا لحمة، طبق سلطة، بطاطس محمرة، وعصير برتقال.

نظر النادل بدهشة لطلباتها، وكأنها تطلب طعامًا يكفي عائلة كاملة. لكن الدهشة تحولت لابتسامة عندما قال سليم:

- إيه ده؟! ده أنتِ عاملة دايت من ورايا! أنا هاخد زيها، بس زود طاجن مكرونة بالبشاميل.

رحل النادل بعلامات الدهشة، وكأنه لا يصدق أن هذين الشخصين فقط هما من طلبا كل هذه الأطعمة.

كانت "حسناء" تجلس في مكتبها، تتابع بتركيز المشاريع المقدمة من العاملين معها. لطالما كانت معروفة بتفتحها للنقاش وقبول الأفكار الجديدة، حيث تحرص دائماً على منح الفرصة لبعض التصميمات المميزة لتصبح جزءاً من عرض الأزياء القادم.

في تلك اللحظة، دلفت "عشق" إلى المكتب. عيناها كانتا تشتعلان بالغضب الذي لم تحاول إخفاءه، كانت خطواتها سريعة ومندفعة، تشبه عاصفة صغيرة تقترب بسرعة. تقدمت نحو "حسناء" بخطوات واثقة، لكن شرر الغضب كان يسبقها.

"حسناء"، التي كانت تتابع تصرفات صديقتها من زاوية عينها، اختبأت بسرعة أسفل المكتب عندما رأت حقيبة "عشق" تطير في الهواء باتجاهها. كان الموقف يشي بحدوث عاصفة من الجدال.

"عشق"، بصوت غاضب ومشحون، قالت:

- اطلعي يا "حسناء" بالذوق علشان منفرجش الناس علينا!

ببطء وحذر، خرجت "حسناء" من تحت المكتب، تضع الحقيبة أمام وجهها كدرع يحميها، محاولة كسر التوتر بابتسامة صغيرة وهي تقول:

- بلاش خناق نتكلم بالذوق أحسن يا صديقتي الحبيبة.

ثم أتبعت كلامها بتقبيل الهواء، محاولة تخفيف حدة الموقف.

لكن "عشق" لم تكن في مزاج يسمح بالمزاح، فردت بغضب وهي تعقد ذراعيها:

- رجعتيله تاني!؟ أنتِ مش بتحرمي خالص؟

حاولت "حسناء" تهدئتها، متجنبة المواجهة المباشرة، فأجابت بهدوء:

- إحنا بنحاول ومينفعش أبعد دلوقتي، انتِ عارفة أنا مش مستعدة لأي فقدان تاني، لو فقدته دلوقتي ممكن أتحطم، أنا مش قادرة أتحمل فراغ جديد في حياتي.

ترددت كلمات "حسناء" في الجو كأنها اعتراف محزن، بينما كان وجه "عشق" يعبِّر عن عدم التصديق:

- والله! ما سمعتيش عن "اعتزل ما يؤذيك" ولا إيه؟

ابتسمت "حسناء" بابتسامة ضعيفة وقالت:

- ماذا إن كان اعتزال ما يؤذيك يؤذيك أيضاً؟ وقتها التمسك بالضرر قد يكون أقل إيلاماً من الفراق.

لم تستطع "عشق" كتم غضبها أكثر، فألقت بالحقيبة مرة أخرى على "حسناء"، صائحة:

- حبك ده جنان! ده حد يتحب؟! أعوذ بالله منك ومن اختياراتك!

في تلك اللحظة، رن هاتف "حسناء"، قطعت المكالمة الجو المشحون بينهما. نظرت "حسناء" إلى الشاشة وهي تحاول كبح ضحكتها، ثم أجابت بهدوء، بينما "عشق" كانت تجلس بجانبها، متسللة إلى حوارها.

من الجانب الآخر، جاء صوته دافئاً:

- وحشتيني أوي على فكرة.

أجابت "حسناء" بصوت ناعم، حافل بالعاطفة:

- وأنت كمان، وحشتيني.

همست "عشق" بجانبها بسخرية:

- اسأليه ليه فضل يحبك كل ده؟

لم تستطع "حسناء" كتم ضحكتها، لكنها تقلبت السؤال بتردد. جاء الرد من الجهة الأخرى بصوت شعري عميق:

- لَنْ تستطيعَ سنينُ البُعْدِ تَمْنَعُنا، إنَّ القُلوبَ بِرَغْمِ البُعدِ تَتَّصِلُ. لا القَلبُ يَنسَى حَبيباً كانَ يَعْشَقُهُ، ولا النُّجومُ عَنِ الأفْلاكِ تَنْفَصِلُ.

ضحكت "حسناء" وهي تصفق بمرح:

- الله أكبر عليك يا جدع! نصرتني لأول مرة! خد بوسة كبيرة ونجمة.

على الجانب الآخر، جاء الرد متحيراً وممتعضاً:

- بوسة إيه ونجمة إيه؟ أنتِ اتجننتي؟

أجابت "حسناء" بضحكة مكتومة، وهي تنظر إلى "عشق" التي كانت تحملق فيها بدهشة:

- لا كمل كمل، سمعاك!

لكن الطرف الآخر بدا وقد فقد صبره:

- خلاص يا "حسناء"، خدي بالك من نفسك، هعدي عليكي نروح سوا.

أغلقت الهاتف وهي تنظر له بملامح محيرة، ثم همست:

- شكله زعل!؟، أنتِ باردة.

خرجت "عشق" من المكتب، تسبها بكل الشتائم التي تعرفها، متمنية الهلاك لها ولـ"عادل"، اللعين الذي لا يكف عن تدمير قلب صديقتها.

كان الجحيم يتسع للجميع، لم يكن هناك داعٍ للتنافس الشرس على من يكون الأسوأ. جلست "سوزي" تنصت إلى حديثهم، لكن عقلها كان في مكان آخر. كانت تتساءل: ماذا لو علم "عادل" بكل هذا؟ ما هي ردة فعله حينها؟ الإجابة واضحة في ذهنها: الهلاك لهم جميعاً. فهي تعرفه جيداً. تعرف أن غضبه لا يأتي بسهولة، ولكن عندما يحدث، فإنه يعني النهاية.

صوتها ارتفع فجأة وهي تقطع أفكارها المظلمة، مخاطبة المجموعة بغضب ظاهر:

- انتوا لحد هنا وكفاية! بقالكم سنين مش قادرين تخلصوا منه، لو "عادل" عرف بأي حاجة من اللي انتوا عملتوه ده، صدقوني، نهايتنا هتكون أوحش بكتير مما تتخيلوا.

رد عليها "أنس" ببرود، وهو يسحب نفسًا طويلًا من سيجارته، ينفث الدخان بهدوء قائل:

- المفروض تكوني أكتر واحدة مش خايفة فينا... ده أخوكي يعني.

ردت عليه "سوزي" وهي تضغط على أسنانها بغيظ مكبوت:

- علشان هو أخويا بقول كده! أنا عارفة كويس هو ممكن يعمل إيه لما يغضب.

في تلك اللحظة، لم يستطع "عمر" الجالس منذ فترة مكتفيًا بالمشاهدة أن يلتزم الصمت أكثر. رفع رأسه وقال بصوت منخفض، لكنه حمل ثقل التعب والتمرد:

- ماما، أنا همشي من هنا. اعتبروني برة خططكم دي، أنا مش هأذي حد ماذنبش. عارف كرهكم ليا وكل حاجة، بس أنا محصلش بيني وبينه حاجة.

تدخل "حسن" بنبرة ساخرة، وهو ينظر إلى "عمر" باستخفاف:

- كان ناقص علينا استاذ "عمر" كمان! اسمع كلام ماما وبابا يا عمور.

ثم تدخل "قاسم" وهو يستند على كتف "عمر"، وكأنه يحاول تهدئته. لكن خلف هدوئه كان يكمن شيء آخر:

- عمر، مصلحتنا واحدة، صح؟ إنت عاوز أختك تتجوز ده؟

توقف "عمر" لحظة، ثم أخذ هاتفه وهو يستعد للرحيل:

- لو هتكون مبسوطة، آه هوافق. كفاية اللي حصل معايا.

خرج وهو يحاول أن يمنع دموعه من الانهيار. كلما تذكر زوجته الراحلة، شعرت روحه بالاختناق. كانت حبيبته الوحيدة، المرأة التي عاش معها أجمل أيام حياته. تذكر تلك اللحظات السعيدة، عندما كانت تحمل طفلهما الأول في أحشائها، قبل أن تتحول حياته إلى كابوس.

أجبرته والدته على الطلاق منها، وأخذت طفله منها وزوجته بأخرى، رغماً عنه. لم يكن في يديه حيلة. كانت تلك الأيام أسوأ أيام حياته. لم ينسَ كيف وقف عاجزاً أمام والدته، مكتوف الأيدي، وهو يرى حياته تتفكك.

أمسك هاتفه وأخرج صورة قديمة لهما معاً. وضع إصبعه على وجهه في الصورة، وكأن محاولة اللمس قد تعيد الزمن إلى الوراء. شهقاته تعالت كلما تذكرها، وهو يبكي كطفلٍ ضائع تُرك في منتصف الطريق دون أن يلتفت أحد لإنقاذه.

كانت "هاجر" تقف أمام الفستان الذي صنعته، تشعر بالفخر، بينما سعادة غامرة تملأ قلبها وهي تتأمل التفاصيل بعين مبدعة. الفستان كان أسود طويلًا، بأكمام ممتدة، وفتحة صغيرة في أعلى الصدر، وفي منطقة الخصر نقوش ذهبية تضفي عليه لمسة فريدة.

قاطع تلك اللحظة صوت خطوات من خلفها، التفتت لترى "رزان" تقف بيدين متخصرتين، وعلى وجهها ابتسامة ساخرة:

- بجد، وهاقول رأيي بكل صدق، وحش أوي، فكري في حاجة تانية، دي مش موهبتك. ليه بتحبي تاخدي الحاجات اللي مش ملكك؟

ابتلعت "هاجر" الغصة التي في حلقها وتنهدت بعمق، محاولة أن تحافظ على هدوئها:

- أكيد مش همني رأيك ده في البداية يعني.

"رزان" واصلت كلامها بتحد:

- "محمد" مش ليكي، وصدقيني، أنتِ بتدخلي حرب خسرانة.

هاجر استنكرت بحدة:

- اومال ليكي؟ أنا مش هدخل في حرب مع حد لأن الموقف محسوم. أنا خطيبته، وبعد كام شهر هبقى مراته. إنما أنتِ؟ أنتِ حتى مش حبيبته ولا حاجة في حياتنا.

تقدمت خطوة نحو "رزان"، التي تراجعت بشكل لا إرادي لتصطدم بجسد "محمد". وقفت خلفه وكأنها تحتمي به.

كان الغضب يتصاعد في عيني "محمد"، صدره يعلو ويهبط بعنف وكأنه على وشك الانفجار:

- تعرفي إنك أغبى إنسانة في الدنيا؟ تفتكري بخيالك المريض إن حد عاقل هايسيب دي ويبص ليكي أنتِ؟ "رزان"، أنا بحذرك للمرة الأخيرة، لو قربتي من اللي يخصني هتزعليني مني جامد.

الدموع بدأت تتساقط على وجنتي "رزان" وهي تشهق:

- ليه؟ أنا وحشة في إيه؟ أنا بحبك أكتر منها، حرام عليك تفضلها عليا؟

أجابها ببرود:

- آه، بفضلها عليك. أنتِ مش وحشة، لكن أنا مش بحبك. وحشة لنفسك، حلوة لنفسك، إنما ليه أكون ليكي؟

صرخت بغضب وهي تنظر له بتحد:

- وحياتك عندي، مش هسيبها. والله لحرق قلبك عليها زي ما حرقت قلبي.

فجأة، تلقت صفعة قوية على وجهها، التفتت لترى "حسناء" واقفة بشعرها المنسدل وهي تضع يدها على رأس "رزان" قائلة بثبات:

- قسماً بالله لو قربتي منهم تاني، أنا اللي هقفلك في وشك.

سحبتها "حسناء" من خصلات شعرها ودفعتها خارج الغرفة، ثم أغلقت الباب خلفها. عادت "حسناء" وهي تبتسم لـ"محمد"، ثم التفتت إلى الفستان وقالت بنبرة إعجاب:

- إيه الفستان الحلو ده!

احتضنت "هاجر" بقوة وهي تبكي بهدوء، بينما "حسناء" تربت على كتفها بحنان، وتبادل "محمد" و"حسناء" النظرات المليئة بالامتنان والسعادة.

"حسناء" نظرت لـ"هاجر" وقالت بابتسامة هادئة:

- ما تسكتيش تاني، لو حد حاول يأذيكي، إديله على دماغه، وكلميني أكمل عليه.

نظرت لها "هاجر" بامتنان، وعيناها تلمعان بالشكر:

- أنا بجد مش عارفة أشكرك إزاي. بحبك أوي، وفعلاً فخورة إنك صاحبتي.

"محمد" رفع حاجبه بسخرية:

- يعني هي شكراً وفخورة بيها وكل ده، وأنا مليش لزمة؟ شكراً يا هاجر، أنا غلطان إني واقف هنا.

نظرت له "هاجر" بابتسامة حب:

- شكراً، بس متعودتش أقولك لأنك دايماً بتحميني. متزعلش مني.

ابتسم "محمد" ونظر لها بحب:

- مش زعلان منك. أنا عمري ما بزعل منك. ولو حد حاول يقرب منك، أنا هفديكي بروحي.

ابتسمت له "هاجر"، بينما قلبها يرقص بين ضلوعها. تساءلت في نفسها: "متى سأتوقف عن حلمي بك؟"

جلست "حسناء" على المقعد المقابل له، تتأمل ملامحه المنهكة، وتمسح خصلات شعره بيدها بلطف، ثم وضعت قبلة دافئة على جبينه. كانت تشعر بالقلق العميق الذي يغلف روحه.

تحدثت بهدوء، تنظر في عينيه العميقتين كأنها تحاول أن تفهم ما خلف تلك النظرات المتعبة:

- "محمد"، هو ليه علاقتك بـ"عادل" كده؟

رفع عينيه نحوها، وابتسم بمرارة ساخرة:

- تفتكري ليه؟ مثلاً لأنه سابني؟ أو لأني عشت يتيم من الجهتين بسببه؟ حاجات تافهة، صح؟

لم تجد الوقت للرد، حيث دخل "عادل" فجأة إلى الغرفة، وضع قدمه على المقعد بجانبه، ثم قال ببرود شديد:

- ها، كمل، سامعك أشجيني.

تحولت ملامح "محمد" بسرعة إلى غضب دفين، كان يمسك بداخله طوال تلك السنوات:

- الكلام لو كان ليه لازمة مكنش هيبقى ببلاش.

تبادلوا النظرات، وكأن تلك اللحظة تحمل في طياتها ثقل السنوات الطويلة التي مضت دون أي اتصال حقيقي. شعرت "حسناء" بالتوتر الشديد في الهواء، وكأن كل شيء على وشك الانفجار.

تحدث "عادل" بثبات، غير مبالٍ بالشرخ الذي أحدثه في قلب ابنه:

- أكتر حاجة بتعجبني فيك إنك فاهم انت كنت عاوزني أعملك إيه؟

ابتسم "محمد" بسخرية، وكأن الكلام الذي يقوله يخرج معه جزء من روحه:

- لا، مكنتش عاوزك تعمل حاجة، كنت عاوزك تعمل أب بس. لكن للأسف بص لنفسك، انت ولا حاجة مجرد روبوت بيشتغل وبس، ولا عندك أي إحساس، ولا أي شعور.

توقف لوهلة، وكأنه يحاول جمع شتات أفكاره، ثم أكمل بنبرة مريرة:

- انت رحلت! وما قلتيش لي الخطة البديلة. كنت طفل، محتاجك تعلمتني إزاي أعيش من غير وطن ولا عائلة ولا حتى إنت! ما علمتنيش إزاي أمشي في الحياة وأنا خفيف زي الغيم. دلوقتي أنا بخفي حزني، بس لسه بيبان في صوتي، ووشي، وارتجاف صوابعي. يكفيك كده؟

لم يتمكن "عادل" من الاستماع أكثر، تنهد بعمق ثم غادر الغرفة بسرعة، دون أن يترك مجالاً لأي كلام آخر. كان "محمد" يراقب رحيله وهو يضبط أنفاسه بصعوبة.

احتضنته "حسناء" مرة أخرى بحنان، وكأنها تحاول تخفيف بعض من ذلك الألم الذي يعيشه. دموعها تنهمر بصمت، كانت تعلم أن هناك شيئاً أكثر عمقاً من مجرد خلاف بين أب وابنه.

بعد لحظات، خرجت من الغرفة بهدوء، تاركة "محمد" وحده مع أفكاره.

استلقى "محمد" على الأريكة بتعب، وأغمض عينيه. صوت الهاتف رن بجانبه، فتح عينيه بسرعة ورأى اسم المتصل. رفع الهاتف ورد بلهفة:

- انت كويس؟

أجابه المتصل بهدوء:

- أنا كويس، خد بالك من نفسك، "محمد"، في كمين بيتدبرلك.

جلس "محمد" مستقيماً على الأريكة، يحاول التركيز في كلام المتصل:

- إيه تاني؟ هو مفيش غيري؟

أجاب الشخص من الطرف الآخر:

- أول ما تروح الاستوديو، شيل الكنبة، وشوف إيه تحتها وخد بالك المرة الجاية، يا غبي.

ضحك "محمد" ضحكة رجولية عالية، ثم قال بمزاح:

- وانت خليك بعيد عن الموضوع بدل ما أخلع عينك!

أغلق الهاتف، وأسند رأسه على الأريكة مرة أخرى، لكنه هذه المرة كان يبتسم.

كان "إسلام" واقفًا في ساحة اللعب، ممسكًا بمضرب التنس بإحكام، وعينيه متعلقتان بالكرة التي ارتدت في الهواء. والده "جمال"، الذي كان محترفًا في اللعبة، أطلق ضحكة خفيفة بعد أن حسم النتيجة لصالحه كالعادة. ببرود قال:

- مش هتعرف تغلبني أبدًا يا إسلام.

لكن إسلام، بوجهه الغاضب الذي لم يستطع إخفاء خيبة أمله، ألقى بالمضرب أرضًا. لم يكن يعرف لماذا يخسر في كل مرة، لكنه كان واثقًا أن هناك شيئًا ما لا يسير كما ينبغي. على الجانب الآخر، كان والده "جمال" يرقص بحركات عشوائية ويغني بمرح، كعادته عندما يفوز:

- أنا الملك، محدش يقدر عليا!

تقدمت "جيهان" من بعيد وهي تحمل وسادة وتلقيها باتجاه "جمال"، قائلة:

- كفاية بقى يا جمال، حرام عليك! سيب الولد في حاله.

"جمال" توقف فجأة، نظر إليها بنظرة مازحة وألقى الوسادة باتجاهها مجددًا. الجميع انفجر ضاحكًا، لكن "إسلام" لم يشاركهم الضحك. جلس على الأرض بجانب "ميرنا"، التي كانت تمسك وسادة أخرى وتلوّح بها:

- بس بقى يا جيمي، بلاش دلع.

نظر إليها "إسلام" بابتسامة بسيطة، ثم قال وهو يمد قدمه أمامه:

- ماما، ما تيجي تساعدي ابنك حبيبك في حاجة بسيطة؟

نظرت إليه "جيهان" بشيء من الاستغراب وهي تقول بنبرة تمزج بين الجدية والمزاح:

- إيه الخدمة اللي عايزها بقى؟

اقترب منها أكثر وأمسك بيدها متوسلًا، وهو يقول:

- ممكن تساعديني في موضوع "أحمد" وقضية العربية؟ محتاجين نحل الموضوع ده بسرعة.

نظرت إليه بشغب وهي تتراجع قليلًا، ثم رفعت زي المحاماة الخاص بها بتفاخر، وقالت:

- مش هسيب العدالة تأخذ مجراها إلا لما نحمي "أحمد".

"ميرنا" قطبت جبينها وقالت باستنكار:

- إيه الكلام ده؟ "أحمد" هو اللي عمل الحادثة أصلًا.

لكن "جيهان" لم تهتم وواصلت بحماس مصطنع:

- مش مهم، هننقذه وخلاص.

وفي لمح البصر، كانوا جميعًا في طريقهم إلى قسم الشرطة.

بعد وقت قصير، وصلوا إلى قسم الشرطة، ودخلوا بسرعة إلى الداخل. كان "سيف" واقفًا يستند على "محمد"، وعلى وجوههم جميعًا نظرات توتر واضحة. تقدموا بخطوات ثابتة نحو مكتب الضابط، حيث كان "أحمد" يجلس على أريكة جانبية بجانب الضابط "حسام"، الذي كان يتحدث معه بمرح، وبين يديهما سندوتشات جبنة بيضاء وطماطم.

قال "حسام" بنبرة ودودة وهو يأخذ قضمة من الساندويتش:

- أهم حاجة، ماتنساش تعزمني في فرحك لما تخرج يا أحمد. أنا من زمان ما حضرتش أفراح.

ضحك "أحمد" وهو يرد مازحًا:

- إن شاء الله يا باشا، بس نخلص من الحبس ده الأول.

لكن حديثهم قُطع فجأة عندما دخل "محمد" و"إسلام" ومعهم "جيهان"، التي كانت ترتدي زي المحاماة الأسود، وتبدو جادة بشكل غير مألوف. التفت الجميع نحوهم، ووقف "أحمد" بدهشة، بينما "حسام" ابتسم بارتباك وهو ينظر إليهم.

تقدمت "جيهان" بخطوات ثابتة نحو "حسام"، وقالت بصوت هادئ لكن حازم:

- المتهم بريء حتى تثبت إدانته، وموكلي "أحمد" بريء.

صفق "إسلام" بحماس واضح وهو يقول بفخر طفولي:

- اللهم صلِّ على النبي، والله زي فريد الديب!

ابتسمت "جيهان" بتواضع مزيف وأومأت برأسها. بينما "حسام" كان يراقب الموقف وهو يأخذ قضمة أخرى من الساندويتش، يبدو عليه الارتباك.

في تلك اللحظة، دخل والد "أحمد"، "رائد"، ووالدته "ريهام"، بقلق واضح على وجوههم. ركضت "ريهام" نحو ابنها، وأمسكت بذراعيه وهي تقول بطريقة درامية:

- ابني يا حبيبي! يوم في السجن زي سنة، بس أنا وبابا مش هنسناك!

ابتسم "حسام" بلا وعي وصفق بخفة، بينما "محمد" قال ساخرًا:

- الله عليكي دراما كوين والله.

قطع "حسام" المرح بتنهيدة عميقة، ثم قال بجديّة:

- طيب، كفاية ضحك يا جماعة. اللي مُصرّ على القضية مش راضي يتنازل. حد عنده أي فكرة إزاي نحل الموضوع ده؟

ابتسم "محمد" بثقة، ثم عبث بلحيته قبل أن يقول:

- سيب الموضوع عليّ، هتصرف.

وبعد لحظات قليلة، دخل الرجل الذي كان يتحدثون عنه. كان سمينًا، ضخم البنية، وعيناه تشعان غضبًا. نظر الجميع نحوه، وارتسمت على وجه "حسام" نظرة خوف غير متوقعة وهو يقول بارتعاش:

- أعوذ بالله من الخبث والخبائث، الراجل ده شكله أخطر من المجرمين اللي عندي.

نظر "محمد" نحو الرجل بثبات، ثم توجه إليه مباشرة:

- بص يا باشا، مش عايزين مشاكل. أكيد مش هترضى إن صاحبي ياخد كام سنة سجن عشان حادثة عربية. قولينا طلباتك.

الرجُل، الذي كان ينظر إلى "أحمد" بغضب، قال بصوت أجش:

- أخوك ده كسرلي نص الميكروباص، حقي لازم أخده، علشان كده لجأت للقانون.

ابتسم "محمد" بهدوء وردّ عليه:

"تمام، بس بلاش نكبر الموضوع. تاخد كام ونحل القصة؟"

فكر الرجل للحظة ثم قال بتردد:

- ربع مليون جنيه كويس.

ضحك "محمد" بخفة، ثم قال بسخرية:

- عشرة آلاف جنيه، ومافيش داعي للكلام الكتير.

بعد تفكير قصير، أومأ الرجل برأسه موافقًا:

- على بركة الله.

مرت دقائق قليلة وانتهت الصفقة بسلاسة. خرجوا من القسم بسلام، وركب "أحمد" و"محمد" و"سيف" و"إسلام" سيارة "محمد".

بينما كانوا في طريقهم، تحدث "إسلام" وهو يضرب كتف "أحمد" بخفة:

- كفارة يا صاحبي.

لكن "أحمد" ردّ عليه بغضب:

- كفارة إيه؟ أنا كنت قاعد خمس ساعات في القسم!

ضحك الجميع، وفي لحظات كانوا قد وصلوا إلى الاستوديو، حيث وجدوا "عز" و"سليم" جالسين بانتظارهم.

بعد فترة ليست بالقصيرة، وصلوا إلى الاستوديو، حيث وجدوا "عز" و"سليم" جالسين بانتظارهم. كانت الأجواء مشحونة بالتوتر، كما لو كانت لحظات فاصلة على وشك أن تتكشف.

تقدم "محمد" بخطوات ثابتة، وعيناه تتأملان المكان بعناية. ثم أخرج "عز" حقيبة سوداء من تحت الطاولة، وفتحها ببطء. بينما كانت هي تتكشف، أخرج منها سلاحًا ناريًا أسود وقطعًا بنية اللون من المخدر "حشيش".

ابتسم "محمد" بابتسامة هادئة، تتخللها خفة لم يشعر بها إلا هو، بينما نظر إلى "عز" وعيناه تلمعان:

- شوفت بقا، مش قولتلك؟

أجاب "عز" وهو يجلس يعبث في خصلاته بضجر، وكأن العالم كله على عاتقه:

- ها تعمل إيه؟

رد الآخر وهو يسحب الحقيبة من يده بعزم، كأنه يضع كل آماله في هذه اللحظة:

- كل خير إن شاء الله.

وقفت "جني" أمام الثلاجة، تتأمل بعض الأصناف من الطعام التي تعدُّها برضا واضح. كانت تراقب هيئتها، وفي عينيها بريق يعكس شعورًا بالإنجاز. فجأة، دلفت "زينا" بجانبها، تحمل كوبًا فارغًا كأنه يحمل معها عبء الانتظار.

بمرح، تناولت من الطبق قائلة:

- بت يا "جنى"، تفتكري البت "هاجر" هتيجي؟

أجابت "جنى " بهدوء، وهي تتربع على حافة الطاولة، كأنها تجلس على عرش من الأفكار:

- هتيجي، لا تخافي، كل شيء تحت السيطرة.

بينما كانت "ميرنا" تستمع من الخارج، تفوح منها رائحة الأمل، قالت:

- أحسن حاجة فيك ثقتك، والله!

أعلن صوت رنين جرس المنزل عن وصول "هاجر"، التي دخلت بسرعة، كأنها تحمل طاقة إيجابية. صافحتهم بابتسامة واسعة، ثم خلعت معطفها الأسود الطويل وكأنها تتخلص من هموم اليوم، ليظهر فستانها الأبيض ذو الأكمام، المزخرف بورود حمراء صغيرة، كأنه يعبّر عن أمل جديد.

جلست على المقعد أمامهم، والحماس يتأجج في صوتها:

- هنعمل إيه؟

أجابت "سما"، التي جلست على حافة الأريكة، وهي تعبر عن ضياع الأفكار:

- والله، أنا مش لاقية حاجة كريتف نعملها.

دخلت "جني" في أجواء النقاش بمرح وهي تفتح اللابتوب:

- نتفرج على فيلم؟

نظرت "جيداء" إليها بملل وكأنها تبحث عن شيء ينقذها من روتين:

- لا، طيب أقولك حاجة: تيجي نعمل بارتي؟

رفضت "جميلة" الفكرة وقطعتها بصرامة:

- نقرأ رواية. أنا معايا روايات جامدة.

تحدثت "هاجر" بحماس لإعادة الأمور إلى نصابها:

- تفتكروا، إحنا هتفضلوا أصحاب دايمًا؟

أجابتها "زينا" ببراءة، وهي تضرب على يدها بخفة:

- آه طبعًا! أنتِ ناوية تسيبينا ولا إيه؟

بينما اقتربت "جميلة" منها بحنان، قالت بصوت خافت، لكنها عميقة:

- بصي، في كل الأصحاب أو أي علاقة، بيحكمها القلب. يعني مش علاقة عمل، بيكون فيها خلافات وأزمات كتير. لكن الصحاب اللي بجد هم اللي يقدروا يمروا بكل دة ويتخطوه سوا.

نظرت "هاجر" إليهن بامتنان، كأنها تبحث عن طمأنينة في عيونهن، تريد أن تسمع أنهن سيظلن معًا، رغم كل شيء. رفعت يديها وانضمت إليهن في عناق جماعي لطيف، كأنهم كانوا يعيدون بناء الروابط التي توحدهم.

فتحت "جنى " الجهاز اللوحي (اللابتوب) وأشعلت فيلمًا سينمائيًا غير عربي، لتتسلل الابتسامات إلى وجوههم، وتبدأ لحظات من السعادة.

صاحت "زينا" وهي تزيل قدم "جميلة" من فوقها، وضحكت بخفة:

- أنتِ بتنامي إزاي؟ ابعدي رجلك دي عني!

تحدثت "جميلة" بنعاس وهي تفرك عينيها، محاولة استعادة تركيزها:

- إيه بقى؟ سيبيني أنام، الله!

ابتعدت "هاجر" عنهم بملل وضجر، كأنها تبحث عن مساحة خاصة بها:

- ابعدوا كلكم عني!

تضاربت ضحكاتهم، و"جيداء" تلقي الوسادة عليهم، وصوتهم يرتفع بالضحكات التي تحطم جدران الضيق. ورغم آلامهم ومشاكلهم وكل ما مروا به من صعوبات، ما زالوا يؤمنون أن

هناك أياما سعيدة تنتظرهم في الأفق، كأنهم يحملون في قلوبهم شعلة من الأمل لا تنطفئ.

حل المساء، وعمَّ الصمت المكان. كانت الأغنية القديمة لـ "عبد الحليم حافظ" تصدح من هاتف "حسناء". صوته الرخيم كان يصدح بشجن، قائلاً:

"برغم جميع السوابق، وبرغم الحزن الساكن فينا ليل نهار، وبرغم الريح وبرغم المطر والإعصار، الحب سيبقى يا ولدي أحلى الأقدار. بحياتك يا ولدي امرأة عيناها سبحان المعبود، فمها مرسوم كالعنقود، ضحكتها أنغام وورود، والشعر الغجري المجنون يسافر في كل الدنيا. قد تغدو امرأة يا ولدي يهوها القلب، هي الدنيا."

خرج "عادل" من مكتبها، منزعجًا من هذا الصوت، لكنه عندما أبصرها، توقف يتأمل وجهها. قطع غزله صوت الأغنية قائلاً:

- لكن سماءك ممطرة، وطريقك مسدود، مسدود. فحبيبة قلبك يا ولدي نائمة في القصر المرصود. من حاول فك ضفائرها يا ولدي مفقود، مفقود، مفقود يا ولدي.

تحدث بهمس وهو يستمع للكلمات:

- يخربيت النحس، يعني لسه هابقى رومانسي. يقول مسدود مسدود! بيصحى من الموت يقرفني. أنا طيب والله، فيروز أحسن.

استمعت له "حسناء" بذهول من حديثه غير المفهوم. سألت:

- فيه إيه بتقول إيه أنت؟

لم يجبها، بل نظر إلى الفراغ يحدث نفسه. كان يشعر بشوق وحنين لها رغم كبريائه، متشربًا بالحياد واللامبالاة. أتوق بشكل تام لكل نظرة وهمسة منك.

اقتربت منه، واضعة يدها على خصلاته بمشاغبة. سألت:

- فيه إيه ومتقولش مفيش؟

تحدث وهو يقترب منها:

- لست مخلوق نار ولا جليد، إنما خُلقت من طين، وبلمسة منك يزداد الطين بله.

ابتسمت في أثر حديثه، تنظر إلى عينيه، تلك التي لم يتغير سحرها منذ سنوات، ولا زال سحرها مستمراً.

تنهد بعمق وهو ينظر إلى عينيها. قرأ في عينيها كلمات لم تُقال، فقال:

"يا ضعيف الجفون، أضعفت قلبا، كان قبل الهوى قويا مليا.

لا تحارب بناظريك فؤادي، فضعيفان يغلبان قويا."

ابتسمت في أثر حديثه، لكنها ابتعدت عنه قليلاً، نظرت داخل عينيه بحب، ثم تحدثت بحادة مرة أخرى:

- قولي بقى، بتعمل ابني كده ليه ها؟

انتفض عندما رأى ملامحها الحادة، وكأنها تحولت:

- ابنك! هو إيه أحداث النعمة دي؟ وبعدين، هو لم يكن في مصيبة؟ بتقولي ابنك، وانت لم يكون تمام تقولين ابني ده البرود ده؟

أجابته بثقة، رافعة خصلاتها بدراما مزيفة:

- ده لأن أفعال الصح وراثها مني، لكن الحاجات الغلط دي جينات منك ومن أهلك، مش ذنبي يا بابا.

ضرب كفه بالأخرى وهو يبتعد عنها، لكنها كانت لا تزال تثرثر بالكلمات، مسرعة في مشيها وراءه.

كانت السماء زرقاء ليلًا، لكنها لم تكن صافية بالمرة. الغيوم الملبدة بالأمطار اتخذت مكانًا من السماء، تزينها برفقة النجوم المضيئة الظاهرة، بتلك الزينة والجمال. وعلى الأرض، كانت أجواء القاهرة مزدحمة كالعادة: أبواق السيارات وزحام الشوارع مليئة بالناس، كل منهم يحمل قصة. قصة تكمل قصة، وفي النهاية، جميع تلك القصص تخصنا.

كان يقود سيارته بهدوء، كعادته، تلك العادة التي اقتبسها عن والده، وهي: الهدوء والمكر. يجعلك في كل مرة تقسم أنه شخص آخر، مجموعة أشخاص مكتملة ببعضها.

وقف بسيارته، مظهره هادئ رغم بنية جسده الضخمة وطوله الفارع، وعيناه الحادتان، إلا أنه كان هادئًا.

تحرك خطوات قليلة للأمام، واضعًا الأوراق في يد الآخر، وهو يقول:

- دي الأوراق بتاعت الصفقة، وعليها إمداداتهم.

إبتسم الآخر بسعادة وانتصار، وهو ينظر له بحيرة:

- وأنت عملتها إزاي دي؟ أنا قلت بعد رجوع "عادل" الموضوع هيكون صعب.

أجابه ببرود، وهو يقلب عينيه بضجر مستنكرًا حديثه:

- مش شغلك، ده شغلي. أنا أظن اتفقنا كان كده، صح؟

تحدث "أنس" بهدوء عندما أغلق الآخر أبواب الحديث:

- تمام، كلامك صح.

أجابه الآخر بتساؤل، وهو يضع يده في سترته، ضاغطًا على الزر:

- أنا اللي محيرني، كنت بتعمل ده إزاي؟ هما بجد كانوا شغالين معاك؟

أجابه الآخر ضاحكًا، وهو ينظر بعيدًا:

- لا طبعًا، "ياسر" عمره ما كان هيوافق و"عادل" نفس الشيء، حتى لو كان فكر، كان هيمنعه "ياسر". لذلك كنت أفضل إني أعمل ده من بعيد. يعني ورقة تدخل جوا مجموعة ورق، هما هيمضوا عليها، أو تزوير إمضاء، حتى ممكن أغير العقد كل مرة. كان لها أسلوبها وطريقتها.

ابتسم الآخر بانتصار، وهو يبتعد عنه، مشيرًا له بالمصافحة.

فتحدث "أنس" وهو يصعد إلى سيارته:

- مع السلامة يا "أمير"، خد بالك من نفسك.

بينما "أمير" ابتسم في طريقه، وهو ينظر إلى الطريق أمامه:

- معلش بقى، بس مهما كان، انتوا مهمين عندي، مفيش حد أغلى عليا من روحي.

مع انتهاء حديثه، انطلق "أمير" بسيارته في اتجاه الشوارع المزدحمة، بينما كانت الأفكار تتراقص في عقله كالأوراق المتساقطة في يوم خريفي. شعور بالإنجاز تسلل إلى قلبه.

لكنه كان مصحوبا بشيء من القلق. علم أن ما فعله ليس سوى بداية لمشوار طويل قد يحمل في طياته الكثير من المخاطر.

في منزل "أنس"، وقف في مكتبه، يتراقص في داخله شعور الانتصار بانتظار مكالمة من ضابط الشرطة الذي سيقوم بالقبض على "محمد". كانت نظراته تعكس سعادة مشوبة بشماتة واضحة في الآخر.

اقترب ابنه "قاسم" منه بهدوء، وكأن ما يجول في ذهنه من تساؤلات لم يجد له مفرًا:

- بابا، هو أنت ليه عمرك ما حكيت لي عني وأنا صغير؟ مقلتليش كنت فرحان يوم ولادتي؟

ارتبكت ملامح "أنس"، لكنه حاول إخفاء ارتباكه في نبرته السعيدة:

- أه طبعًا، كنت فرحان جدًا، كان أسعد يوم في حياتي.

تحدث "قاسم" بشك، وهو يمسح وجهه بيديه وكأنه يحاول استيعاب الأمر:

- طيب، ليه ما اتجوزتش تاني على ماما علشان تخلف، خصوصًا أن علاقتكم مش أحسن حاجة يعني؟

غَيَّر "أنس" مجرى الحديث وهو ينظر للخارج بارتباك، وكأنه يهرب من مواجهة ما:

- ده وقته يعني يا "قاسم"، خلينا في اللي إحنا فيه.

صدح رنين الهاتف معلنًا عن استقباله لمكالمة، فأمسك بالهاتف بسرعة، والابتسامة تعلو وجهه. «ها، اتقبض عليه؟» لكن الرد من الجهة الأخرى كان مفاجئًا له، فتلاشت ابتسامته وحلت محلها ملامح الغضب:

- إزاي متقبضش عليه؟ إزاي ملقتوش حاجة؟

لم يكمل حديثه حتى سمع صوت "محمد" يأتي من الخارج، كان الصوت مشوشًا، لكنه كان يأتي بشكل مؤكد. وعندما خرج، وجده يجلس على المقعد، يضع قدمه فوق الأخرى، ونظرات البرود ترتسم على وجهه. ابتسم له قائلاً:

- شايف، مش راضيين يدخلوني. ينفع كدة برضه؟ ده إحنا أصحاب يا راجل، ولا مش أصحاب؟ ده أنت في مقام عمي، يرضيك؟

تحدث "قاسم" بصوت مرتفع وهو يقترب من الآخر بغضب، وكأن المشهد خرج عن السيطرة:

- إنت إيه اللي جابك هنا يا بني آدم؟

أجاب "محمد" ببرود، وهو يشير للحقيبة في يده:

- ده جزائي علشان جيت أرجع حاجتكم، وأنا اللي قولت هتفرحوا إني جيت وتعزموني على الغداء. خسارة عليكم ياخي. على العموم، الشنطة دي بتاعتكم، وأنا مقبلش المال الحرام أبدًا، فرجعتها علشان تعرفوا إني متربي.

وضع الحقيبة في يده، ثم بعث لهم قبلة في الهواء ببرود، وخرج تاركًا إياهم يموتون من الغيظ، بينما كان هو يبتسم بسعادة على هيئتهم تلك.

كان "سيف" واقفًا ممسكًا بكوب من الشاي بالنعناع، ينظر إلى السماء، بينما يمسك بهاتفه ويُدندن مع صوت الأغنية المنبعثة من غرفة والده. كان يدندن بصوت عذب، يتناغم مع أنغام الموسيقى:

- الليل وسماه ونجومه وقمره، قمرة سهروا، وانت وأنا يا حبيبي، أنا يا حياتي... أه، أه، أه، كلنا كلنا في الحب سوا...

تسربت النغمات من بين شفتيه، كأنها تنسج له أحلامًا في تلك اللحظة السعيدة. استمر:

- والهوى، أه منه الهوى، سهرنا، الهوى ويسقينا الهنا... ويقول بالهنا يا حبيبي يا حبيبي، يالا نعيش في عيون الليل، ونقول للشمس تعالي تعالي بعد سنه، مش قبل سنه... دي ليلة حب حلوة، بالف ليلة وليلة، بكل العمر... هو العمر إيه غير ليلة.

أنهى دندنة الأغنية، ثم بدأ يتحدث إلى "سما" بهدوء وغزل:

- كلامها حلو أوي، أعتقد دي أجمل أغنية سمعتها.

أجابته "سما" من الجهة الأخرى، بنبرة مرحة:

- اختلفنا الوحيد في حبك لأم كلثوم، وأنا لفيروز، لما قالت "نحنا والقمر جيران".

ابتسم في أثر حديثها، واستمر في غزله باللغة العربية كما اعتاد دائمًا:

- منذ التقينا، وقلبي كله عجبٌ، عن أي فعلٍ جزاني الله لقياه؟

ابتسمت في حديثه وهي تنظر للهاتف بيدها، وكأن الكلمات تُشعل في قلبها شعورًا خاصًا:

- بما أنك دايمًا بتكسفني كده، إن كان لي وطن، فوجهك موطني. وإن كان لي دار، فحبك داري. من ذا يحاسبني عليك، وأنت لي هبة السماء ونعمة الأقدار؟

أغلقت الهاتف، بينما ظل هو مبتسمًا في أثر حديثها، وألقى بجسده على الفراش، متذكرًا ذلك الاقتباس الذي قرأه قبل معرفته بها، ولم يعلم معناه إلا الآن.

يقولون إن العقل عاقل، لكن حتى ذلك عقلي اللعين كان يريدك بشدة، كأنني فقدت عقلي وقلبي وثابتي في مرة واحدة.

صدح صوت أم كلثوم مرة أخرى، قائلة بصوتها الأعذب وكلماتها الرقيقة والراقية:

«تعالى، تعالى بعد سنه مش قبل سنه...»

وقف "محمد" وهو ينظف البيت من الفوضى التي أصابته في الليلة الماضية، حين قضى- هو وأصدقاؤه ليلة صاخبة. وقعت في يده صورة تجمعه مع "نوح" و"هيثم"، حيث كان "نوح" يتوسطهما. انهمرت دمعة من عينه، لكنه مسحها بعنف، لا يعلم أهذا هو الاشتياق أم أن عقله يحذره من الاندفاع نحو الذكريات. تردد في عقله صوت داخلي ينبهه:

- ليسوا بعائلتك. أنت تتوهم. لم يكن أخيك، ولم يكن أبوك، ولم تكن تلك السيدة بوالدتك. كل ما تشعر به هو حنين لهم، لكن إن استمررت على هذا ستحاصر نفسك بالجنون، ولن تعود أبدًا.

نظر "محمد" إلى نفسه في انعكاس المرآة، وصدح الصوت في عقله:

- من أنا؟ من أكون؟ ليس هذا مكاني. أنا في المكان الخطأ. لم تكن الدار داري، ولا الزمان زماني. أنا نسخة من كثيرين، أنا قطع من ورق قديم من حرب مات كل من فيها. أنا نصف الدفء والحنان، ونصف الكراهية والخذلان. أنا النجوم في السماء، والمياه تحت الأرض. أنا كلهم في شخص واحد، أنا لست لي، أنا لم أعد أنا.

تذكّر تلك الكلمات التي قرأها قبل سنوات، فتردد صداها في عقله:

مَتى يَستَريحُ القَلبُ إِمّا مُجاوِرٌ	***	حَزينٌ وَإِمّا نازِحٌ يَتَذَكَّرُ
يَقولونَ كَم تَجري مَدامِعُ عَينِهِ	***	لَها الدَهرَ دَمعٌ واكِفٌ يَتَحَدَّرُ
وَلَيسَ الَّذي يَجري مِنَ العَينِ ماؤُها	***	وَلَكِنَّها نَفسٌ تَذوبُ وَتَقطُرُ

فجأة، صدح صوت الهاتف، فابتسم تلقائيًا عندما رأى اسمها يزين الشاشة. أجاب مبتسمًا، ناسيًا كل شيء:

-عاملة إيه، وحشتيني؟

أجابت بهدوء، وهي تستمع لكلماته:

- الحمد لله بخير، وإنت؟ بالمناسبة، أنا هخرج مع البنات النهاردة، عشان متقلقش.

أجابها بنبرة محبة:

- أنا بخير، استمتعي معاهم بس خدي بالك من الشمس. تعامد الشمس على القمر هيكون جميل.

ابتسمت تلقائيًا لغزله:

- بجد مش فاهمة بتحضر الكلام ده إمتى؟

أجابها بهدوء وهو يشرح الأمر:

- مش بحضر بحاجه، بس لما بكلمك، الكلام بيطلع لوحده، مش فاهم إزاي.

أجابته بتفكير:

- ما فهمتش؟ إنت هتخرج النهاردة؟

ثم أضافت في همس يكاد لا يُسمع:

- يحدّثني الحبيبُ حديث ودٍ... فأبتسمُ ثم أطلبُ أن يعيدا... ليس صعوبةً في الفهم لكن... أحبُ حديثه حبًا شديدا.

كلماتها تراقصت في أذنه، وكم أحببت تلك النبرة الهادئة التي

تتحدث بها، كأنها تسكب في قلبه طمأنينة وحنانا. كيف يمكنني أن أخبرك أنني أحبك بطريقة غريبة، تتجلى فيها كل

مشاعري، كما لو كنت أحلق في السماء كلما استمعت لك؟

تناست وجوده معها على الهاتف، وبدأت تفكر في سبب عدم قدرتها على التعبير عن حبها القابع في قلبها، ذلك الحب الغريب الذي يجعلها تحلق كلما سمعته. هل تساءلت يومًا إذا كنت شخصًا عشوائيًا رآه أحدهم، وإلى ذلك الوقت لم يستطع نسيانه؟ هو كان هذا الشخص.

تحدث من الجهة الأخرى:

- إيه، هو كلامي كان حلو للدرجة دي ولا إيه؟ رحتي فين؟

أجابت بهدوء وهي تنزع تلك الأفكار من خيالها:

- لا، ولا حاجة، انت خد بالك من نفسك كويس.

استمر في الحديث، وهو يعلم أنها الآن تنظر للهاتف بسعادة بسبب حديثه، مغازلًا إياها:

- غازلتُها فازدادَ شعْري رِقة، وتوجهت كل القصائد نحوها. عربية زان القصيد بذكرها، فكانت وزنُ البيوتِ ونَحْوُها.

أغلقت الهاتف، فابتسم ببلهاء وهو يكمل تنظيفه، متذكرًا كلماتها. أكانت تقصد أن تجعله يقع في هذا الحب الذي ظل يبتعد عنه؟ تنهد بعمق، وهمس:

«تُراهُ يدري بأنَّ القلبَ مَسكنهُ،	***	ولستُ أبصرُ بالعينينِ إلا هو!
القلبُ يسأل عيني حينَ أذكرهُ:	***	يا عينُ قولي متى بالله نلقاهُ؟
يا عين قولي لنا: هل بات يذكرنا؟	***	وهل ستخبر عن أحزانه الآهْ!
إن كان غاب لأنَّ الحزن يسكنهُ،	***	يا ليتني الحزن كي أحظى بسكناهُ.»

كانت السماء زرقاء ليلاً، لكنها لم تكن صافية بالمرة. الغيوم الملبدة بالأمطار اتخذت مكانًا من السماء، تزينها برفقة النجوم المضيئة الظاهرة، بتلك الزينة والجمال. وعلى الأرض، كانت أجواء القاهرة مزدحمة كالعادة؛ أبواق السيارات وزحام الشوارع مليئة بالناس، كل منهم يحمل قصة. قصة تكمل قصة، وفي النهاية، جميع تلك القصص تخصنا.

كان يقود سيارته بهدوء، كعادته، تلك العادة التي اقتبسها عن والده، وهي: الهدوء والمكر. يجعلك في كل مرة تقسم أنه شخص آخر، مجموعة أشخاص مكتملة ببعضها.

وقف بسيارته، مظهره هادئ رغم بنية جسده الضخمة وطوله الفارع، وعيناه الحادتان، إلا أنه كان هادئًا.

تحرك خطوات قليلة للأمام، واضعًا الأوراق في يد الآخر، وهو يقول:

- دي الأوراق بتاعت الصفقة، وعليها إمداداتهم.

ابتسم الآخر بسعادة وانتصار، وهو ينظر له بحيرة:

- وأنت عملتها إزاي دي؟ أنا قلت بعد رجوع "عادل" الموضوع هيكون صعب.

أجابه ببرود، وهو يقلب عينيه بضجر مستنكرًا حديثه:

- مش شغلك، ده شغلي. أنا أظن اتفقنا كان كده، صح؟

تحدث "أنس" بهدوء عندما أغلق الآخر أبواب الحديث:

- تمام، كلامك صح.

أجابه الآخر بتساؤل، وهو يضع يده في سترته، ضاغطًا على الزر:

- أنا اللي محيرني، كنت بتعمل ده إزاي؟ هما بجد كانوا شغالين معاك؟

أجابه الآخر ضاحكًا، وهو ينظر بعيدًا:

- لا طبعًا، "ياسر" عمره ما كان ها يوافق و"عادل" نفس الشيء. حتى لو كان فكر، كان ها يمنعه "ياسر". لذلك كنت أفضل إني أعمل ده من بعيد. يعني ورقة تدخل جوا مجموعة ورق، هما هيمضوا عليها، أو تزوير إمضاء. حتى ممكن أغير العقد كل مرة. كان لها أسلوبها وطريقتها.

ابتسم الآخر بانتصار، وهو يبتعد عنه، مشيرًا له بالمصافحة.

فتحدث "أنس" وهو يصعد إلى سيارته:

- مع السلامة يا "أمير"، خد بالك من نفسك.

بينما "أمير" ابتسم في طريقه، وهو ينظر إلى الطريق أمامه:

- معلش بقى، بس مهما كان، انتوا مهمين عندي، مفيش حد أغلى عليا من روحي.

مع انتهاء حديثه، انطلق "أمير" بسيارته في اتجاه الشوارع المزدحمة. بينما كانت الأفكار تتراقص في عقله كالأوراق المتساقطة في يوم خريفي. شعور بالإنجاز تسلل إلى قلبه، لكنه كان مصحوباً بشيء من القلق. علم أن ما فعله ليس سوى بداية لمشوار طويل قد يحمل في طياته الكثير من المخاطر.

البارت السابع عشر

"كما تدين.. تدان"

منذ أعوام وأنا أعيش في دوامة من التساؤلات: متى تستقر حياتي؟ متى ينتهي هذا البؤس الذي يلتف حولي كعنكبوت؟

في أي يوم سأستطيع اتخاذ قرار يعبر عن إرادتي، وليس بضغط الظروف القاسية؟ ألا يكفي الحزن الذي تأصل في أعماقي؟ ألم

تكتف الأقدار من سلب حياتي في لحظة عابرة؟ هل سأنجو يوما. أم كتب علي أن أظل أحارب حتى آخر أنفاسي؟

فلاش باك.

طفل صغير، أو ربما مراهق، في غرفة تكتنفها الظلمات، لا يُضيء منها سوى شعاع نحيف من الشمس تمرد على الظلام، متسربًا عبر نافذة مقفلة بعنف، ليُضفي بصيصًا من النور على المكان. كان هذا الطفل نائمًا على فراش ممزق، يبدو كما لو خرج لتوه من معركة ضارية هُزم فيها هو وجيشه الصغير. عينيه المنتفختين، المحاطتين بهالات حمراء، وجهه الشاحب، وشفتاه اللتان تلوّنتا بالزرقة، وآثار الحروق التي شوهت قدميه وظهره، كل ذلك يُعبر عن صراعه المستمر مع الألم.

انتفض فجأة، كأنما استفاق من كابوس مرعب، عندما سمع صوت خطوات تقترب منه بصرامة. أمامه ظهر جسد رجل، في أوائل عقده الثالث، بملامح جامدة وعيون تتلألأ بشيء من الخبث، وفي يده سلك كهربائي موصول بجهاز غريب. تملكه الرعب، فتراجع إلى الوراء، لكنه اصطدم بالحائط، كأنه أحكم عليه بالأسر. تحدث بصوت مرتجف متقطع، عاقدًا العزم على الهروب بنظراته التي تتنقل في كل الاتجاهات:

- كفاية، أنا مش قادر على كل ده، علشان خاطري، أنت عارف أني مش مجنون، ومينفعش أخد جلسات كهرباء. اخرجني من هنا، ارجوك.

لكن الرجل لم يُعره أي اهتمام. بل رفع السلك بعيدًا، مثبتًا إياه على جسد الطفل، وبدأ جهاز الكهرباء في العمل، تاركًا الطفل يرتجف بشدة، وبؤبؤا عينيه يكادان يخرجان من محجريهما من شدة الرعب.

<باك>

هبط من سيارته إلى هذا المكان المهجور، نظرًا إلى البوابة الكبيرة ذات اللون الأسود، بينما فتح هاتفه ليتفقد نفسه في المرآة الصغيرة للشاشة. قال بفخر وتفاخر:

- أقسم بالله ما عارف بيتخطوا جمال إزاي، الله أكبر عليا، خايف أحسدني.

نظر إلى ملابسه الرمادية الغريبة، سترة خفيفة جدًا من اللون الرمادي ذو الأكمام، وياقة تصل إلى رقبته (هاف كول)، وبنطال أسود من خامة الجينز، وخصلاته المبعثرة تصفح الهواء وكأنها تتحدى الفوضى.

دلف إلى المخزن الكبير، المظلم، المحاط بأوراق عازلة للصوت، في تناقض صارخ مع جسده الضخم الذي ملأ المكان. أغلق الباب بإحكام، مشعلًا المصابيح، فظهرت معالم المكان. كان المخزن واسعًا يضم سيارات قديمة وبقايا مهملات، وأسلاك كهربائية تتدلى من كل زاوية، وآلات غامضة تشي بحكايات غير مروية.

اقترب من الرجل المقيد بقيود حديدية، يبدو كمن يلفظ أنفاسه الأخيرة. عينيه احمرتا من الألم، وأنفه مغطى بآثار الدماء، وفمه المفتوح يعكس الصراع الذي يخوضه جسده الهزيل ووجهه الشاحب.

سحب نفسًا عميقًا من لفافة التبغ بين إصبعه، ثم ألقاها أرضًا، لتموت تحت قدميه وهو يدوس عليها ببرود، كأنها يعبر عن ازدرائه لحياة فقدت معانيها.

تحدث الرجل المقيد بتعب وإنهاك:

- إلي أنت بتعمله ده آخرته وحشة جدًا، قولي بس أنت مين؟

ابتسم الآخر ببرود، متلاعبًا بعينيه بملل وكأنه يجسد اللامبالاة، قائلاً:

- كمان مش عارفني؟ أخص عليك يا راجل، والله زعلتني. كان فيه أغنية كده، مش فاكر اسمها، كانت إيه يا ترى؟ فكر معايا.

نظر إليه الآخر بصدمة، وكأن صاعقة من الرعب قد أصابته، مغمورًا بشعور أن من أمامه قد فقد عقله، بل ربما أصابته الجنون.

أخذ الرجل الأول يدندن بصوت مرتفع، لكن نغمة صوته لطيفة وكأنها تُخفي ورائها غموضًا كئيبًا، وهو يدور حول نفسه ببرود لا يوصف:

- لو حتى قلبي تاه... لو حتى يصرخ آه... طول ما بينا حياة... قلبي رافض يسمعك... قلبي رافض يسمعك... سيدي يا سيدي... يا سيدي يا سيدي، توبت يا سيدي...

صرخ الآخر بجنون، كأنه يُحاول أن يخترق جدران هذا الجنون المحيط به، عله يُسمع أحدًا وينجو من هذا المختال عقليًا الذي اقترب منه بخطوات مريبة، ممسكًا بخصلاته وسحبه بعنف، دافعًا إياه إلى الحائط.

ردّد صوته، مُقلدًا الآخر بصراخ مُتعمد وكأنما يُحاول استثارة تعاطف العالم:

- اصرخ براحتك لو حابيني، اصرخ معاك، معنديش مشاكل خالص.

رفع صوته قائلًا:

- يا ناس، الحقوني! في واحد مجنون خاطفني وعاوز يقتلني! الحقونا!

ابتسم الآخر وهو يُنهي حديثه بابتسامة سخرية، مُلتفتًا إلى الرجل الذي ما زال ينظر إليه بخوف واضح وهو يصرخ.

تحدث بثقة مُطلقة وهو يشعل سيجارته الثانية، كأنه يستمتع بهذا العذاب:

- شوفت أنا طيب إزاي، بصرخ معاك وأساعدك، أي خدمة؟ اصرخ براحتك، كدد كده المخزن كله عوازل صوتية، يعني مستحيل صوتك يظهر برة.

ارتعب الآخر من حديثه، فرفع صوته بخوف شديد:

- أنت أكيد مجنون، أكيد مش طبيعي! حرام عليك، أنا عندي ولاد نفسي أربيهم، أنت عاوز إيه مني؟!

ضحك الآخر بقهقهات هستيرية، ودموعه تتراقص في عينيه لكنه يمنعها من الهبوط:

- حرام عليا! وأنت مكنش حرام عليك، يا دكتور يا محترم، لم تزور في تقريرك وتتهم عيل صغير بالجنون؟ مكنش حرام لما حبستني في مصحة وأنت عارف أني سليم؟ مكنش حرام لما كنت تدخلني جلسات كهرباء وأنت عارف أني مش مفروض أخدها؟! أي حرام تقصده؟ خطفك ليا؟ ولا تزويرك ولا كدبك ولا تعذيبك ليا؟ أي حرام يا دكتور؟!

أنهى حديثه، وهو يمسح دموعه التي هبطت بشكل متمرد، غير قادرة على تحمل الوزن الثقيل الذي يثقل قلبه.

بينما نظر الآخر إلى الأرض بخوف، متذكرًا ما فعله به، ظل يحاسب نفسه، لكن بعد فوات الأوان، وندم متأخر لا ينفع.

تحدث الآخر مرة أخرى، وهو يرفع سترته ليكشف عن ظهره المشوه بالكامل من الحروق والجروح:

- شايف! بص هنا، شايف أنا جرالي إيه؟ عارف أنا عشت إزاي؟ متعرفش أكيد دلوقتي! خايف على ولادك، لكن ولاد الناس العيل الصغير اللي بهدلته، لا، ولا يهمك، ملوش لازمة صح؟ أنا دلوقتي ممكن أجيب ولادك هنا وأموتهم قدام عينيك، ولا أسيبهم هنا كام يوم؟ بس متخفش، مش هعمل كده، لأني مش زيك بأذي أطفال، لكن انت، أنا مش هرحمك.

بالمناسبة، أنا اللي خطفت "سامح" المساعد بتاعك، الله يرحمه، كان طيب أوي ووطي، ميتخيرش عنك كده.

أمسك بأسلاك الكهرباء المعلقة، مُقربًا إياها من جسد الآخر، الذي ابتعد بخوف شديد، يحاول الفرار بين يديه، يتأسف له ويعتذر، لكن الآن، بعدما يتذكر خطأه، يستيقظ ضميره، لكن الأمور قد انتهت.

ارتجف جسد الآخر عندما بدأت الكهرباء تتدفق إلى جسده، حتى صدح صوت صراخه بتعب وإرهاق، كصوت دق الطبول في ساحة معركة.

وقف الآخر يدندن وهو يطفئ تلك الأسلاك، مُعبرًا عن انتصاره: "وتصرخ مهما تصرخ، ولا حد هيسمعك، مفيش مركب هتقدر ترجعك تاني."

سقط الآخر منهكًا، فاقترب منه وهو يُخفض جسده ليكون في مستواه، مُتحكمًا في كل لحظة: "

- محمد نوح الرشيدي، أو محمد عادل الجبالي، أو ديدو، كلهم شخص واحد بس، الأهم، متنساش الاسم ده: محمد الجبالي، أنا الكابوس اللي مش هيسيب أحلامك، أنا الشيطان اللي عملتوه، وعلى رأي المثل: اللي حضر العفريت يسرفه."

لم يقدر على الحديث، لكنه انصت لصوت الآخر الذي قال:

- عارف، أنا مش ندمان على اللي بعمله، حتى لو قتلتك، مش هندم، كل ساقي سيسقى مما سقى، ولا يظلم ربك أحدا.

ابتسم الآخر بتعب وسخرية:

- من قهر سيقهر، ومن ضر سيضر، ومن ظلم سيظلم، ومن عاب ابتلى، فإن الله يمهل ولا يهمل، ولا يظلم ربك أحدا.

ثم خرج الآخر مغشياً عليه، بينما كانت الأصوات تتداخل في عقله: صراخ، ضربات، صياح، ضحكات، كل شيء، بدأت أنفاسه تتسارع، وبدت قطرات العرق تتساقط من جبينه كالأمطار، وبدت معدته تُصدر صوت تجشؤ.

بدأ يتقيأ بتعب، وأنفاسه كادت تتوقف مع سقوطه أرضًا، لكنه تحمل على نفسه وقف، يحاول الوصول إلى سيارته، يمسح دموعه بقوة كأنما يُحاول اقتلاع ما تبقى من ألمه.

دلف إلى السيارة، وهو يشعر بأنه ولأول مرة يعرف طريقه بوضوح. بعد قليل من الوقت، توقف أمام "نبيل"، الذي نظر إليه وهو يسانده حتى المقعد، يدرك تمامًا مقدار تعبه الآن. تحدث "نبيل" بتساؤل:

- عملت اللي في دماغك برضه مش كده؟!

أجابه الآخر بإيماءة تعني نعم:

- آه، وأرجوك بقا متحسبنيش، لأني على آخري.

أجاب "نبيل" بهدوء، وهو يربت على يده، عارفًا أنه ليس بخير:

- خلاص يا محمد، مالك في إيه؟!

تنفس بصعوبة، مُغمضًا عينيه من الإرهاق:

- تعبان أوي تعبان آه، ليتني لم أنكث عهدي، وبقيت لوحدي، وعشت لوحدي، ومُت لوحدي.

استنكر "نبيل" حديثه وهو يرتشف من قهوته:

- والله؟! وكنت هتعيش إزاي لوحدك؟!

أجابه "محمد" بتعب، وهو يمسك برأسه:

- والله مش عارف، بس نفسي أختفي. أنا مُتعب، أحتاج أن أتوقف عن الشعور بأنني مُستيقظ أثناء نومي. تعرف لما تلتفت أحيانًا لتُلقي نظرة على ماضيك فتكتشف أنك خرجت حيًا من مذبحة.

نظر له "نبيل" بفهم، يعرف تمامًا ما يجول في خاطر الآخر، وكيف عاش من معاناة وتعب في حياته التي لم تكن طويلة، لكنه أنهك منها بما يكفي:

- والله. أنا مش عارف أنت عملت تخلط كده وخلاص، بس صحيح، لما مامتك جات اتحسنت، ولا حاسس بإيه؟

أجابه "محمد" وهو يتنهد بعمق:

- مش عارف، بس لأول مرة أحس إني مش متضايق لما حد يحضني. بالعكس، بحس براحة، بحس أني مآمن لها أوي.

بادر "نبيل" بسؤال آخر: "وهاجر وعلاقتك بـ عادل؟"

أخذ "محمد" نفسًا عميقًا، وهو ينظر للفراغ، مفكرًا في إجابة واضحة لمشاعره:

- بحبها، وبحبها أوي. نفسي أقدر أكون معاها، دايمًا بحس أني بنسى كل حاجة وهي موجودة. بنسى نفسي واسمي، وكل اللي شفته في حياتي. عادل؟ مش عارف بس مش هسامح أبدًا. مش حاسس أني مهم ليه، في حاجات كتير اتبنت بينا، مستحيل ترجع تاني.

أنهى كلامه وهو يقف ويفترق عنه، مرسلًا له قبلات في الهواء:

- سلام يا نبيل، هتوحشني يا جدع. عندي مواعيد، لكن هجيلك تاني، لا تخاف، هجننك كده كده.

خرج من المكتب، تاركًا الآخر ينظر في أثره بتعجب. لا يعرف خطواته، لكنه يعرف أنه جيد في تصرفاته إلى حد ما. لحظة، ليس جيدًا ولا شيء، لكنه سيدبر أمره.

كانت "هاجر " في غرفة نومها، تضع لمساتها الأخيرة على مظهرها اليومي، ولأول مرة منذ زمن، شعرت برضا عميق عن هيئتها. سحبت خصلات شعرها البني الداكن خلف أذنها، تتأمل في المرآة وجهها الذي اكتسى بلمسات بسيطة من المكياج، قبل أن ترتدي قلادتها الصغيرة التي تزين عنقها برقة. ارتدت التنورة السوداء الواسعة التي تتراقص حول ركبتيها مع كل حركة، وقميصها الأبيض الذي يبرز أناقتها، وحذاءها الرياضي المريح الذي يمنحها القدرة على السير بخطوات واثقة.

خرجت من غرفتها، تحمل حقيبتها الثقيلة فوق ظهرها، وهبطت درجات السلم بسرعاتها المعتادة، لكنها اليوم كانت محملة بطاقة متجددة. هذا اليوم كان مميزاً للغاية، يوم تقديم أول تصميم لها داخل شركة كبيرة متخصصة في عالم الأزياء. لكن سرعان ما تلاشت ابتسامتها عندما رأت والدها ووالدتها يجلسان في الأسفل.

ألقت عليهم السلام على مضض، صوتها خافت:

- صباح الخير.

نظرت والدتها إليها بنظرة فاحصة، تتنفس بعمق كأنما تستعد لمواجهة:

- وإيه النشاط والحيوية اللي على الصبح دي!؟ وإيه اللي لابسته ده؟ هو البيه اتحكم في لبسك من دلوقتي!؟

ضغطت "هاجر " بأظافرها في كف يدها، وكأنها تحاول كبح الدموع التي كادت تنفجر:

- لو حضرتك مهتمة بحياتي، كنتِ عرفتِ إن النهاردة هقدم المشروع بتاعي. و"محمد" ملوش علاقة بلبسي، لأن ده ذوقي أنا.

صفقت والدتها بتلك الأيادي المتعالية، وهي تقف ممسكة بخصلاتها بحزم:

- برافو... برافو عليك. خلاص، طلعتي منها، وطلعت أنا الأم الشريرة الوحشة؟! على العموم، بكرة ترجعي نادمة، بس وقتها مش هتلاقيني. اهو أهم مثال: فين البيه اللي جاي يهتم بيكي ويشجعك؟ ماجاش يعني؟!

قبل أن تخرج "هاجر " من الموقف، جاء صوت "محمد" يصدح بجانبها، وكان حضوره مثل النسيم العليل في صيف خانق:

- حماتي العزيزة، وحمايا العزيز، أخباركم إيه؟ جاهزة يا "هيرو" لبداية النجاح؟

ابتسمت بفخر حين وجدته يقف بجانبها، مبتسمًا، كما لو كان يمثل لها درعًا يحميها من سهام والدتها.

بينما نظر "مصطفى" إليها بكراهية وحقد دفين في قلبه، جاحظ العينين:

- وحياة أمك ما هتتجوزها، واعرف إن ده آخرك عندي. ولو فاكر إن أبوك هيهددني، تبقى بتحلم. أنا ممكن أهدم المعبد عليا وعليك.

ابتسم "محمد" ببرود، كأنما لم يسمع التهديد، ثم نظر إليهما بعينين مشعتين بالثقة:

- كده بردو بتهددني!؟ يا راجل، ده أنا كنت ناوي أول بيبي نسميه على اسمك والله، وقلت لـ "هاجر" نسميه "أبو قميصه" نسبة لكونك قماص وكده.

تدور في عقل "هيرو" أفكار متضاربة، في خضم التوتر والمشاعر المتناقضة، لكن وسط هذا الزحام، كان وجود "محمد" يجلب لها نوعًا من الأمان. كانت تعرف أن الحياة تخبئ لها تحديات أكبر، لكن شعور الفخر الذي عاشته في تلك اللحظة، بجانب شريك حياتها، كان يشعل في قلبها شغفًا يدفعها للمضي قدمًا، رغم كل شيء.

- أنت قليل الأدب ومتربتش، وبنتي أنا هعرف أبعدها عنك ازاي! مش بنتي بس، لا، كلهم، أخويا وحتى أمك، أنا هعرف أنقذهم منكم!

صرخت "سوزي" بغضب، صوتها يتردد في أرجاء الغرفة، كالصاعقة التي تهز جدران قلب "محمد".

فرد ذراعه أمامه، بينما وضعت "هاجر " مرفقها داخل ذراعه، وكأنما تعلن عن تحد جديد. ثم خرج وهو يرفع صوته، متسلحًا بعزيمة لا تقهر:

- والله، أعلى ما في خيلك اركبيه. لكن اعملي حسابك أن اللي يخصني هزعلك لو قربتي منه، وأولهم أمي وخطبتي. حطيهم في دماغك الكلمتين دول.

لوح لهم بيده، يبعث لهم قبلات في الهواء:

- يا باي يا ولاد، خدوا بالكم من بعض. متنساش دواء الضغط علشان عارف أني عليتها عندك.

صعدت "هيرو" إلى السيارة بجانبه، تراقب تنفسه المتقطع وعينيه اللتين تبحثان عن نقطة ضوء في الطريق المظلم. كان واضحًا أنه يحاول تهدئة نفسه كي لا ينفجر غضبًا.

نظرت إليه باستفسار:

- إيه "هيرو" دي بقى؟ طيب "هجورة" فهمتها. لكن "هيرو"!؟

ابتسم وهو يقود السيارة نحو وجهته، تتراقص أفكاره في خياله:

- بص، "هجورة" دي دلع. لم تكوني رقيقة كده. هتكوني مميزة. لكن "هيرو"، دي وقتها لما تكوني محملة بمسؤوليات كبيرة. عايزة تكوني "هيرو" بطل خارق.

ابتسمت وهي تستمع لمدحه، يتحسس قلبها ويحرك مشاعر الثقة التي سلبتها والدتها. شعرت أن هذا الرجل، الذي يقود السيارة ويجعلها تبتسم، هو من أعاد لها القوة التي كانت مفقودة.

لاحظ بسمتها، فقال بشرود وهو ينظر إليها، كأنما يكتشف كنزًا ثمينًا:

- يوجعني أنك لا تستطيعين رؤية بريق عينيك حين تضحكين. إنه مشهد عظيم.

هبطا سويًا أمام الشركة، وهي لا تفارق يده. كانت تشعر أنها قوية، وأنه حتى لو لم يتم قبول فكرتها، ستحارب من أجل حلمها. والأكثر من ذلك، أنه معها فارسها الذي سيظل يدعمها دائمًا.

دلفت إلى المكتب وهي تلوح له بسعادة، فبادلها ابتسامة عريضة، ممسكًا بوجنتيها، قائلاً بمرح:

- أشطر كتكوته! متأكد أنك هتكسري العالم، بالتوفيق يا "هيرو" حياتي.

ابتسمت بثقة وهي تسحب نفسها إلى الداخل، ثم وجدت سيدة في منتصف عقدها الرابع، ملامحها بشوشة ولينة، تنظر إليها بترقب.

تحدثت "هاجر" بثقة، وقدمت ملفها بكل حماس:

- ده البروجيكت اللي اشتغلت عليه. في الفترة الأخيرة، لاحظت أن معظم البراندات والأزياء العالمية بتحط طابع خاص عن حضارتها وديانتها وثقافتها على الملابس. وده مش موجود عندنا.

فكرت لو إحنا كمان عملنا كده، ينقسم العرض الكولكشن لثلاث مجموعات: مجموعة حضارية مستوحاة من ملابس الحضارات عندنا، زي الحضارة الفرعونية، وكمان فترات الستينات والسبعينات، ولحد الألفينات، وجزء تاني خاص بالثقافة المصرية والدينية، لبس خاص بالمحجبات والمحتشمات.

أنهت حديثها، وكانت تنظر لوجه السيدة التي ارتخت ملامحها، تنظر للأوراق بجدية:

- هايل! عظيم، الفكرة عجبتني أوي الحقيقة.

أجابت "هاجر" بسعادة غامرة:

- بجد!؟ مبسوطة أوي إنها عجبت حضرتك.

سألتها السيدة باستفسار:

- مين المهندس اللي نفذ عروض الصوت؟ دي الحقيقة مدروسة جدًا وهتزيد طابع مميز للعرض.

تحدثت "هاجر" بفخر واعتزاز، تتذكر ذكاء "محمد" الذي أثر عليها:

- هم فريق كامل، لكن اللي صمموه "محمد الجبالي" و"أحمد المهدي".

أجابت السيدة بإيماءة:

- تمام جدًا، هنتواصل معاكِ ونحدد كل شيء. بالتوفيق ليكِ.

خرجت "هاجر" وتظاهرت بأنها حزينة دراميًا:

- يلا بينا يا "محمد".

نظر لها بمشاغبة، فهو يعلم ما تخفيه:

- مش عليا يا "هجورة". مبروك يا أشطر كتكوته.

ابتسمت بسعادة، ممتنة لكل ما فعله لها:

- أنا مش عارفة أشكرك إزاي على كل حاجة حلوة عملتها علشاني. بجد، أنا محظوظة بيك.

فتح لها باب السيارة وهو يقول بغزل:

- تلك العيونُ قصائد، لو تُرجمت لن يبقى عند القائلين كلام.

نظرت للطريق أمامها، لكنها تساءلت بقلق، يتراقص في قلبها:

- "محمد"!؟ أنا خايفة أوي. حاسة إن في حاجات كتير ضدنا. كل حاجة تقريبًا مش في صالحنا.

أمسك "محمد" يد "هاجر" برفق، نظراته تحمل صدقًا يتجاوز الكلمات:

- طول ما إيدك مسكة في إيدي، عمري ما هخلي عنك، حتى لو ضحيت بحياتي كلها، بدنيتي، بكل حاجة، مقابل يوم واحد أعيشه معاكِ في أمان.

لمعت الدموع في عينيها وهي تستمع لحديثه، كأنما يُعيد إليها روح الأمل:

- طيب، إنت هتعمل إيه؟!

استمر في قيادة السيارة، وعينيه تركزان على الطريق، كأنه ينقل جزءًا من أحلامهما إلى الواقع:

- ولا حاجة، هخلص باقي الحاجات في البيت. وطبعًا، لازم تكوني موجودة. الفرح هيكون بعد العرض بتاعك، وبعدها أي شيء مش هيهمني. أهم حاجة إنت و"حسناء" وأصحابي، وبس. دي الحاجة الوحيدة اللي مش هسمح لحد يضرها.

بعد قليل، وصلوا أمام منزل "إسلام وميرنا"، الذي كان يعج بالصخب. موسيقى مرتفعة وضحكات وصراخ يتداخل مع شجارات تملأ المكان.

عندما دخلوا معًا، صادفتهم أصوات الترحيب والتهليل:

- أهلاً وسهلاً!

تحدث "محمد" وهو يلقي بجسده وسط "أحمد" و"إسلام" بمشاغبة:

- قاعدين من غيري كده؟! ولا تسألوا روحت فين؟ صحيح الأصحاب في إجازة.

وفجأة، صرخ صوت شجار "سليم" و"عز"، وتطايرت الوسائد في الهواء، حتى استقرت إحداها على وجه "محمد". تراجع للخلف بحركة تلقائية، معبراً عن استيائه:

- شكرًا، والله، واضح أنكم مبسوطين بي أوي؟!

أجاب "عز" وهو يمسك بتلابيب قميص "سليم" بعنف:

- لو مكنتش مموته النهاردة، كلب البحر ده، أبقى نائم في أمان الله، أصحى على الأستاذ بيرشني بخرطوم المياة كله، ولا، وكمان أكل كل أكلي؟!

نظروا إلى هيئته، وقد كانوا غافلين عنها، ولم يقدروا على كتم ضحكاتهم التي انطلقت بشدة، وهو ينظر لهم بغضب.

ضرب "محمد" كفه بكف "هاجر"، وهو يضحك بصخب:

- شكله شبه الكتكوت المبلول.

نظر الآخر إلى "سليم"، الذي فرّ من أمامه، بينما هو يلحق به متوعدًا إياه بالقتل إذا أمسكه، لكنه توقف فجأة عند اصطدامه بسيارة قادمة نحوه.

وقع "سليم" على الأرض، فاجتمعوا حوله بقلق. بينما كانت "زينة " تضع ملامح درامية متقنة:

- "عز"، يا حبيبي، قوم! لا يا "عز"، متموتش دلوقتي، وعيالنا؟ هما أه، لسه مجوش، بس أكيد هيجوا!

بينما اقترب "سليم" منه، يهز جسده بعنف، مانعًا ضحكاته من الانطلاق حتى لا يفسد المشهد الدرامي:

- قوم! قوم يا "عز"، قوم بالله عليك. هسيبلك سندوتشات الباتيه، والله.

تحدث "عز" وهو يفتح إحدى عينيه ببطء:

- والمكرونة بالبشاميل؟

- أه، وكفتة كمان.

وقف "عز" بنشاط، وهو ينظر إلى "سليم":

- إذا كان كده، ماشي.

هزت "حسناء" رأسها وهي تخرج من السيارة، مدهوشة:

- في إيه؟؟ انتوا اتجننتوا؟ ولا أنا ربنا بينتقم مني ولا إيه؟!

وقف "محمد" بجانبها، ووضع يده على كتفها بابتسامة مطمئنة:

- لا. ده عرض مسرحي بسيط كده، ولا يهمك.

احتضنت "حسناء" "محمد" بهدوء ومرح:

- تمام، أنا فكرت نفسي ضربته بالعربية، بس خلاص، فين "هاجر"؟

أشارت "هاجر" لها بمرح، واحتضنتها وهي تدور بها بسعادة:

- أنا هنا، أنا فرحانة ومبسوطة، وعاوزة أحضنك بقى!

احتضنتها "حسناء"، تشاركها سعادتها، وبدأت الفتيات يجتمعن حولها يهنئنها، بينما انهالت عبارات التهاني من كل جانب، كأنها تحلق حولهن طيور الفرح.

بعد فترة، اجتمعت الفتيات في غرفة "ميرنا"، يشاركن ذكرياتهن وما حدث لهن في الأيام الماضية. كانت القناعات الخاصة بالعناية بالبشرة تُوضع على وجوههن، بينما يحتسين المشروبات الغازية بشغف.

تحدثت "جميلة" بهدوء، وهي تستند برأسها على كتف "جني":

- عارفين، أنا طول عمري بعيش في سفر. عمري ما كان لي مكان محدد، بابا دايمًا بيسافر. وده أثر عليا، بقيت حاسة دايمًا إني غريبة... برة غريبة، وفي بلدي غريبة.

احتضنتها "جنى " بهدوء، تربت على ظهرها بحنان:

- حاسه بيكي، لأني جربت. بس إنتِ مش غريبة هنا، إحنا أصحابك. معاكِ في بلدك ومع أهلك يعني مش غريبة.

بينما "حسناء" كانت تراقبهم بتمعن، تتذكر غربتها الخاصة، حيث لا يوجد فيها ابن أو زوج أو أخت أو أب أو أم، وحتى الأصدقاء كانوا بعيدين. نظرت بجانبها، ووجدت "عشق" تربت على يدها، تعبيراً عن دعمها.

تحدثت "هاجر" بعد أن أخذت نفسًا عميقًا:

- تفتكروا ممكن تكون الدنيا هتتصلح معانا؟ يعني الشغل، أنا اتقدمت قوي و"محمد" معايا، وده بكتير أوي. هل ممكن تكون لعبتنا وقفت خلاص؟

ابتسمت "عشق" وهي تستمع إليها، كأنها تتذكر تجاربها الخاصة:

- مش عاوزة أحبطك، بس لأ. الدنيا طول ما إحنا عايشين فيها جديدة، وكل بداية فيها أحداث، سواء بداية شغلك أو جوازك أو أي شيء.

واصلت "سما" الحديث، وقد استندت برأسها للخلف، كأنما تفكر بصوت عالٍ:

- بس لازم نفكر إنه مهما حصل، نتعلم من الولاد، متسيبش بعض أبدًا. لو حد وقع مننا، نرفعه، ودائمًا تكون إيدنا بتسند بعض حتى لو زعلانين ومتخانقين. مهما حصل، منخليش الزعل يفرق بينا ولو ساعة.

تضامن الفتيات واحتضن بعضهن البعض، لكن "زينا" أخرجت تنهيدة ضجر، وأبعدت "جني" عنها:

- يا بنتي، إنتِ تقيلة، الله الله.

قهقهت "جني" وهي تضرب يدها بيد "جيداء":

- بتقول لي أنا تقيلة، وهي الولد لما فكر يشيلها في فرحهم، عموده الفقري انكسر!

ضحك الجميع على حديثها، بينما أشعلت "جيداء" الموسيقى على أنغام صاخبة، وبدأوا يرقصون وهم يحتسون المشروبات الغازية، كأنما يعبّرون عن كل المشاعر التي حملوها طيلة سنوات.

أمسكت "جني" بيد "هاجر"، تديرها حول نفسها، وتردد خلف الأغنية:

"كلام عينه في الغرام أحلى من الأغاني... من كلمتين من سلام، ببقى شخص تاني. لم يغيب قلبي أنا وياه، يغيب... تفديه حياتي، وعمري كله مش قليل... يليل يا ليلي، يا ليل يا ليلى، من غرامه ومن هواه، حبيب سنيني بينه وبيني".

كان رقصهم بمثابة تفريغ لكل مشاعرهم ومعاناتهم التي استمرت لسنوات. لم يكن لديهم فكرة عن كيفية النهاية أو المدة التي ستستمر، ولكن الحقيقة أن أمانيهم كانت أن يبقوا معًا دائمًا.

في الأسفل، كان الشباب مشغولين بتحضير الشواء. "عز" يقف بجانب الفحم، بينما "أمير" يلوح به في الهواء.

ألقى "إسلام" الوسادة على "سليم"، الذي كان جالسًا وقد وضع قدمه على المقعد:

- انت يا ابن آدم، نزل رجلك من فوق الكرسي! انت عارف أنا دافع كام؟؟

ضربه "جمال" بخفة بالوسادة، وهو ينظر إليه بمرح:

- عامل الواد كويس يا بارد! انت دد "سولي"، صديقي الصدوق.

قفز "سليم" بجانبه، محتضنًا إياه بمشاغبة:

- إنت اللي بقيت لي يا "جيمي". والله، الحب الحب، الشوق السوق!

تحدث "محمد" وهو ينظر إلى الفراغ، يسحب أنفاسًا من لفافة التبغ الواقعة بين أصابعه:

- هو أنا ليه حاسس إن الهدوء دد بعده خازوق؟!

أجابه "سيف" ببرود، مستنكرًا حديثه:

- ولا انت عندك تراست إيشوز؟ أقسم بالله، مستخسر فين استراحة محارب؟

تحدث "أمير" الذي كان يتابعهم ببرود:

- هو لو أنا حكيتلكم حاجة دلوقتي، توعدوني محدش هيغضب؟

أومأ له الجميع بصمت، تبادلت النظرات المستعجلة، والاستنكار واضح على وجوههم.

أخذ نفسًا عميقًا، وسحب شعره للخلف، وجلس بهدوء:

- أنا لما اشتغلت في الشركة، كنت أكتر واحد بيفتش في كل حاجة. علشان يعني شغل بابا الله يرحمه. المهم، إني اكتشفت إن في صفقات وحشة وشغل شمال معمولين عندنا، ولكن أرباحهم مش داخلة حساباتنا، وبيكون موجود فيهم أسماء "عادل الجبالي" وعمي "ياسر". المهم، إني عرفت إن الموضوع له علاقة بـ"أنس" و"حسن"، واللي سهلوا الإمضات "مصطفى" طبعًا. فقمت بعمل لعبة، قولتلهم إني كشفتهم، وبعدين إني هساعدهم لحد ما جمعت تسجيلات لهم، بإزاي هم حطوا الإمضات دي.

نظر له "محمد" بغضب، وهو يسحب أنفاسه:

- "أمير"، قولي إنك مقولتشي أي حاجة عنّا؟

خفض رأسه للأسفل، نظرًا للفراغ:

- كان لازم أقول أي حاجة بسيطة علشان يكسبوا ثقتي، لكن أنا حوارت، ومتخفش.

بينما "عز" نظر له بغضب ومعاتبة:

- وأنا طبعًا معرفتش كل ده ليه؟ علشان أنا مليش لازمة؟

تم قطع حديثهم عندما اجتمعت الفتيات حولهم، ينظرن لهم باستنكار. تحدثت "زينة" باستنكار:

- في إيه؟

أجابها "محمد" وهو يبدل ملامح وجهه:

- مفيش يا زنزونة، يلا بقى ناكل؟

ابتسموا له، وبدأوا في تناول الطعام، بينما ساد الصمت بينهم ما عدا أصوات الفتيات، اللاتي كن يتمتمون كل حين.

بعد فترة، عاد الجميع إلى منازلهم، وكل واحد يحمل مشاعر مختلفة ومختلطة. وقف "محمد" أمام منزل "هاجر"، يودعها بسعادة، بينما استمع إلى حديثها طوال الطريق، يشاغبها ويتظاهر بأنه لا يهتم، لكنه كان يلتهم تفاصيلها بنظراته.

تحدثت "حسناء" التي كانت تجلس بجانبه، تتابع حديثهم بسعادة:

- أنا هروح معاك النهاردة لو معندكش مانع؟

ابتسم "محمد" وأجاب بهدوء:

- أكيد معنديش مانع، بس يعني و"عادل"؟ أنا مش عاوز أعملك مشاكل.

ابتسمت له وهي تشير بيدها بأن كل شيء على ما يرام:

- لا متخفش، أنا مظبطه كل حاجة.

بعد فترة، كان يجلس في منزله بعد أن بدل ملابسه إلى ملابس بيتية مريحة: سترة بلا أكمام وسروال أسود مماثل. جلست "حسناء" بالقرب منه. تتأمل وجهه الذي حرمت منه لسنوات.

اقترب منها بهدوء، يشعر بأنه يحتاج إلى هذه اللحظة بشدة، لذا قرر أن يبوح بما يجول في قلبه:

- ممكن أطلب منك طلب؟

أومأت له برأسها، وهي تمسد فوق خصلاته المصففة بعشوائية.

تحدث بتلعثم وهو يتنهد بعمق:

- ممكن تحضنيني؟

نظرت له باستغراب، ثم اقتربت منه وضمته إليها بهدوء، وهي ما زالت تمسد فوق خصلاته. لكن صوت شهقاته بدأ يرتفع، ورغم ذلك كانت بلا دموع:

- إنت كويس في إيه يا حبيبي؟ مالك؟

سألت بقلق، وهي ترى ابنها كأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة.

بدأ يرتجف بين يديها، فاحتضنته بقوة أكثر، تقربه من موضع قلبها، تخاف عليه ولا تعلم ما تعرض له من أذى، ولا ما أوصله إلى هذه الحالة.

تحدثت وهي تحتضن رأسه، تمسد فوق خصلاته بحنان:

- مالك يا حبيبي، احكي لي، أنا ماما، صح؟ أكيد مش هتلاقي أحسن مني تحكي له.

هدأت شهقاته وانتظمت أنفاسه بصعوبة وهو يتمسك بيدها:

- أنا تعبت أوي وبقيت مش قادر خلاص. بحاول والله أكون مستحمل، بس أنا استحملت كتير أوي وتعبت. خايف. حاسس إن وجودك ده مش هيدوم. حاسس إنكم هتسبوني. حاسس إني هموت لوحدي، وانتوا هتسبوني. أوعديني متسبينيش.

احتضنته بشدة أكثر تلك المرة، ودموعها تنهمر فوق وجنتيها، حزنًا على ابنها الذي أخذت منه الحياة أكثر مما أعطته، وهو ما زال في شبابه:

- لا يا حبيبي، إحنا كلنا جمبك، ومحدش هيسيبك. أوعدك، لآخر نفس هفضل جمبك ومعاك، متخفش.

ابتسم بإنكسار وهو يقبل وجنتها بحب:

- أنا لأول مرة مبقاش حاسس بذنب وأنا في حضن حد. أنا مبسوط أوي إنك معايا. خليك جنبي، بلاش تسيبيني بعد ما اتعودت على وجودك. عارفة، للمرة الأولى في حياتي، أنا حقًا لا أعلم ماذا يعنيه هذا الشعور. هذا الهدوء وتلك الطمأنينة والدفء... لا أثق بهم أبدًا. يبدو أنني اعتدت على الخوف!

ابتسمت وهي ترى تلك الابتسامة ترتسم فوق شفتيه، وظلت بجانبه حتى نومه، محتضنة جسده حتى نامت هي الأخرى.

بعد فترة، استيقظ من نومه على صوت الأذان، فتركه نائمًا بعمق، ووقف أمام مدونته الصغيرة، ينظر إلى تلك الصورة التي جمعت بينه وبين "هيثم" و"نوح".

بجانبها، كانت صورة لـ"سمر". أمسك بالورقة ودوّن:

"إنها ٣:٠٠ فجرا. أود إخباركم بأنني لم أنس يوما عشنا سويا. كل يوم، أحفر ملامحكم داخل عيوني كي لا تنسيني الأيام.

ولكني لم أنس أنكم كنتم عائلتي ووطني وكل شيء أمتلكه. من الصعب نسيان كلمة واحدة منكم، ساعدتني بنفسي إلى حين أعود إليكم."

ابتسم وهو يلمس وجوههم بأصابعه بشوق، يتمنى لو يحتضنهم لمرة أخيرة.

وقف يفرد سجادة الصلاة، يرفع يديه جانب رأسه قائلاً بخشوع، وهو يبدأ في الصلاة، معلنًا وقوفه أمام الله في تلك اللحظة: «الله أكبر».

هبت دموعه في تلك اللحظة وهو يقرأ سورة من القرآن قريبة إلى قلبه بشدة. بعد الفاتحة، قرأ سورة النصر.

ثم ركع، استقام، سجد، وأعاد ذلك مرة أخرى. في نهاية صلاته، نظر إلى يمينه وقال: ««السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، ثم أعادها مرة ثانية.

استدار "محمد" فوجد "هاجر" تنظر إليه بسعادة، قائلة:

- ربنا يبارك لك وتنتظم في الصلاة.

ابتسم وهو يجلس بجانبها:

- أه، ادعي لي إن شاء الله ألتزم. عارفة، كنت دائمًا بصلي مع بابا، أقصد "نوح".

ابتسمت وهي تقول بفضول:

- أنا نفسي أعرف بقى مين "نوح" وأيه قصتك دي؟

ابتسم وبدأ يتحدث، متذكرًا كل ما مر به من لحظات سعيدة أو حزينة:

- "نوح" كان أبو "هيثم". أنا و"هيثم" كنا أصحاب في المدرسة. هو كان أكبر مني بثلاث سنين، لكن كنا قريبين أوي من بعض. حد ألجأ له غير "نوح"، لأنه كان أقرب حد ليا، كنت بعتبر أن دي حياتي. فضلت على كده أربع سنين، كانت أحسن سنين في حياتي،

لكن كل ده انتهى بموت "نوح". وقتها كانت أكبر كسرة في حياتي. رجعت تاني من غير أهل ولا بيت؛ لأن "هيثم" أخده جدته من أمه يعيش معاها. بعدها، أنا اشتغلت في كل حاجة رغم أني كنت صغير، لحد ما قابلت "سمر". كنت دائمًا معوضني عن كل حاجة... لكنهم كلهم مشوا: "نوح"، و"هيثم"، حتى "سمر" و"نائل".

هربت منه دموعه مرة ثانية. لكنه مسحها بقوة، ثم سقط في حضنها، ليجد أمانه وملاذه مرة أخرى. لم يشعر منذ سنوات عديدة بأنه ينام بدون خوف، أو على الأقل بدون أن تضطر عينيه إلى أن تراقب أي خطر قريب.

جلس "عز" بتوتر وغضب، يهز قدميه بشكل متكرر وكأن كل حركة تعكس انفعالاته الداخلية. كان يسحب أنفاسه العميقة من لفافة التبغ التي لاقت حتفها بجانب الأخريات في المطفأة، وكأن دخانها يجسد كل ما يعتمل في صدره من مشاعر متضاربة.

ألقى نظرة سريعة على أخيه الذي جلس بجانبه، وقد كان ينظر بعيدًا عنه، رافضًا حتى التقاء عيونهما. شعور بالخذلان انتابه، حيث كانت الأجواء بينهما تشبه العاصفة التي تلوح في الأفق.

تحدث "أمير"، وابتسامة خفيفة تلاعبت بشفتيه وهو يضع يده فوق كتف "عز" بمشاغبة:

- أنت زعلان مني صح؟ طيب حقك عليا. ما أنا كنت هقولك إيه؟ افرض فعلاً كانت الصفقات دي بتاعت بابا الله يرحمه وعمك. كنت أنت هتعمل إيه؟ استحملت بالعافية والله، والقلق كان هيموتني.

لكن "عز" نظر له بعينين مليئتين بالعتاب والحزن، وكأن تلك النظرة تحكي قصة وجع طويلة:

- ولو، ليه متعرفنيش؟ ليه متشاركش معايا؟ أنت مش أخويا؟ إحنا مش اتفقنا من زمان إننا ما نخفيش حاجة عن بعض؟

كانت الكلمات تخرج منه وكأنها صرخات من أعماق قلبه، تعبر عن شعور عميق بالخذلان، وكأن جدار الثقة بينهما بدأ في الانهيار.

احتضنه "أمير" بحب، ملامح وجهه تعكس أسفه العميق، وهو يعلم أن أخيه يتأثر بشدة بكلمات الموقف :

- أنا آسف، عز، ما كانش قصدي أخبي عليك. أنا بس... أنا كنت خايف. خايف من اللي ممكن أكتشفه، وخايف من ردة فعلك. كنا دايمًا مع بعض، وفكرة إننا نفقد بعض كانت صعبة جدًا.

لم يحرر "عز" نفسه من احتضان "أمير" بل زاد من قوة احتضانه، وكأن في تلك اللحظة، كانا يبتعدان عن كل هموم العالم. كان هناك تآلف عميق يجمعهما، يجعلهما يتغلبان على الشكوك والخيبات.

قال "عز" بصوت خافت:

- إحنا مع بعض، دايمًا. مهما حصل، لا يمكن نفترق. هنتخطى كل شيء سوا. أنت أخويا، واللي بينا أكبر من أي مشكلة.

تسارعت أنفاسهما، ولكن في تلك اللحظة، شعر كلاهما بقدرة على مواجهة التحديات معًا، وكأنهما أقوى مما كانا عليه قبل قليل.

في مكتب "عادل"، الذي كان يرتدي قميصه الأبيض وهيئته الرسمية، احتسى قهوته الصباحية ببطء، مستمتعًا بلحظات الهدوء قبل بدء يوم عمله. لكنه لم يكن يتوقع ما سيحدث بعد قليل. دلفت السكرتيرة برأسها المتحفظ، وهي تخبره بوجود "شريف" بالخارج، فطلب منها أن تدعوه للدخول.

تقدم "شريف" بخطوات واثقة، رغم أنه كان في عقده الخامس، لكنه ما زال محتفظًا ببعض من ملامح الشباب. جلس بعد أن أذن له "عادل"، وبدأ حديثه بحماس ملحوظ:

- أنا جبت شوية معلومات عن الولد اللي ضربك في الحفلة.

تنهد "عادل" بعمق، متذكرًا حديثه مع "قاسم" الذي اتهم "محمد" بهذا الفعل، واعتراف الأخير بذلك. كان في صراعه الداخلي بين الشك واليقين، ولم يكن متحمسًا لسماع المزيد:

- عرفته خلاص، مبقاش ليها لازمة.

استنكر "شريف" من حديثه، وعيناه تُعبران عن دهشة شديدة:

- عرفته!! ازاي؟ طيب، مقلتش ليه؟ وبعدين، الولد ده مستحيل يكون ظهر لك فجأة كده، ده واضح إنه وراه كتير.

تحولت ملامح "عادل" إلى الاستغراب والقلق وهو يرفع أحد حاجبيه:

- مين ده؟ انت بتلخبطني ليه؟

أجاب "شريف" بهدوء، وهو يخرج مجموعة من الأوراق من حقيبته:

- "محمد نوح الرشيد"، عنده ٢٢ سنة، مهندس معلومات وتكنولوجيا، بجانب إنه درس صوتيات. أبوه مات من ٥ سنين، وأخوه من ٣ سنين، وأمه متوفية من وقت ما كان عنده ٧ سنين. ملوش أهل ولا حتى حد بيخاف عليه، ما عدا صحابه، واللي عندي شك كبير إنهم بيشتغلوا معاه. جريء أوي ودماغه شغالة ديما، بس بيختفي ويظهر كده، ومظنش إننا هنعرف نجيبه.

بينما كان "عادل" يستمع له بذهول، كان الغضب يشتعل في صدره. كلما تذكر حديث "محمد" عن "نوح" وعن أنه قرر إلغاء اسمه من بطاقته، زاد يقينه من صحة ما يقوله "شريف". لكنه شعر بعبء ثقيل يجثم على صدره:

- إزاي أنت متأكد إن المعلومات دي صحيحة؟

انتبه "شريف" لتغير ملامح "عادل" وغضبه المتصاعد:

آيوه يا "عادل"، وبعدين أنت اتعصبت ليه؟ تقدر تتأكد من كلامي من الورق ده، أو حتى أوديك الأماكن اللي جمعت منها المعلومات آه، في كمان دكتور نفسي ساعات بيتردد عليه، وأظن إنه دخل مصحة قبل كده، لأن الراجل اللي كان بيشتغل معاه حكالي عن الحوار ده.

توسعت عينا "عادل" بذهول وهو يستمع لحديثه:

- لا، مستحيل! أنت متأكد؟؟ اللي أنت بتتكلم عنه ده أنا كنت لقيته، وعرفت إنه ابني اللي عمل كده، لكن إزاي اللي أنت بتقوله ده؟ إزاي؟

في تلك اللحظة، دلف "ياسر" إلى المكتب على صوت حديثهم المرتفع:

- في إيه؟؟

قص "شريف" عليه ما حدث، ليفاجأ بذهول "ياسر" أيضًا. ولكن قاطعهم "عادل" وهو يتجه نحو "شريف"، قائلًا بعزم: «لازم توصلني لهذا الطبيب النفسي. مش هضيع الفرصة. لازم أعرف كل شيء عن "محمد".»

نظرت "حسناء " إليه وهو نائم بعمق، وملامحه المتعبة واضحة بشدة على وجهه. مسحت برفق على خصلاته. لكن فجأة ارتفعت الوسادة نحو وجهها بسرعة غريبة، فاستعادها وهو يعتذر لها بارتباك.

تحدث بصوت مُتعب وهو لا يزال في آثار النوم:

- أنا آسف، معلش، مفكرتش إنك أنتِ.

هدأت من فزعها وهي تربت على يده بحنان:

- خلاص، محصلش حاجة يا حبيبي، انت خايف من إيه كده؟

تنفس بعمق، وكأنما يحاول أن يتخلص من كوابيسه. ثم نهض من مكانه :

- اتعودت بقى على القلق ده، معلش.

خرج إلى الخارج ليَفيق من نومه ويبدل ملابسه، بينما استمعت لصوتها من خارج الغرفة تقول:

- أنا هروح الشغل دلوقتي، مش محتاجة حاجة؟

أجابها وهو يقفل أزرار قميصه الأسود، محاولاً أن يبدو هادئًا:

- لا، خدي بالك من نفسك. أنتِ هتيجي تاني بالليل؟

احتضنته مودعةً إياه، تربت فوق ظهره برفق:

- للأسف لا، بس هاشوفك بكرة.

لوح لها بوداع، وخرج هو الآخر من غرفته يكمل باقي ملابسه، لكنه استمع لصوت دقات الباب، معلنًا عن وجود شخص بالخارج.

فتح الباب بهدوء، لكن البرود عاد لملامحه عندما رآها :

- أهلا، إيه اللي جابك؟

دلفت ببرود، تتفحص المنزل بعينيها بامتعاض :

- هو ده بقى البيت اللي هاتعيش بنتي فيه؟

ابتسم ببرود وهو يقف أمام كوب قهوته، يحتسي منه دون اهتمام :

- لا، بيتها محدش يشوفه غيرها. ما يهمكيش أنتِ يا "سوزي".

ضحكت بسخرية وهي تقترب منه :

- طيب، بص بقى، "هاجر" تنسها وتطلعه من دماغك خالص، وكذلك "عادل". انسَ أن لك أب زي ما نسيت من زمان.

تحدث بغضب وقاحة وهو يقترب منها، متجاهلًا سخريتها :

- الكلام ده عندها عند أمك، مش هنا. "هاجر" دي روحي، هي الحاجة الوحيدة اللي مصبراني عليك، ومنعاني من كل حاجة. لو فكرتِ للحظة وحدة تقربي من أي حد أو أي حاجة تخصني، هتندمي على الباقي من عمرك.

أجابت بغضب، مُبتعدة عنه :

- اوعى تفكر إنها بتحبك! لا، هي بتهرب مننا بيك، مش أكتر، لكن حب لا أعتقد تكون بتشفق عليك.

تسلل القلق إلى قلبه عقب كلماتها، لكنه تذكر نظرات "هاجر" وكلماتها، كل شيء؛ أيعقل أن يكون هذا خداعًا؟ لا، من المستحيل، هذا هو الحب، نعم، هو يحبها :

- مش هسيبك تاخديها مني زي فرحتي وعُمري اللي سرقتيه. انسي، خلاص، أنا أمي اللي منعتيني منها معايا، و"هاجر" معايا. ولو على موتي، مش هفرط فيهم أبدًا.

تحدثت بغضب، مُذكِّرة إياه بماضيه :

-يبقى عاوز ترجع للمصحات اللي اتربيت فيها؟ أو وحشك الشارع يا تربية الشوارع؟ انت نسيت إنك مجنون؟

لم يشعر بنفسه، سوى ويده تمسك برقبتها بعنف، وهو يتحدث بفحيح أرعبها، وكأنه ليس الشخص الذي كان يتحدث معها منذ دقائق :

- المصحات دي اللي أنت والكلاب اللي معاكي رمتوني فيها! قسماً بالله، واللي خلقني، لو عيدتي في الكلام ده تاني، هبعت روحك للي خلقها! مش كفاية كل اللي عملتيه فيها؟ مش مكفيكي؟

تركها، وهي تتنفس بصعوبة، تسعل بشدة من آثار اختناقها على يديه. نظرت إليه بعيون مليئة بالخوف، متسائلة عما حدث لشخص كان يُعتبر آمنًا، لكن الآن أصبح كابوسًا حيًا.

خرجت "سوزي" من المنزل، وبداخلها يتوقد شعور الانتقام. تحدثت بكلمات مفعمة بالشر، قائلة:

- صدقني، هترجع لوحدك تاني. نهايتك قربت أوي. جوا مع المجانين اللي يشبهوك.

بينما كان "محمد" يأخذ أنفاسه بصعوبة، تذكّر حديثها، وبدأت ذكرياته المظلمة تتلاعب بعقله. صور الاغتصاب، والسقوط، والاصطدام، والضربات، والنيران، والكهرباء، كلها هاجمت ذاكرته كأشباح مروعة.

لم يشعر بنفسه سوى وأنفاسه ترتفع، وعيناه تزوغان، فهرع نحو المرحاض، يتقيأ بكل قوة. أنفاسه بدأت تنقطع، حتى سقط أرضًا، يحتضن نفسه ويضم قدميه إلى رأسه، واضعًا يديه فوق أذنه، عسى أن يهدأ ذلك الصوت البشع أو يخرج من عقله، لكن لا فائدة.

مرّ وقت طويل، لا يعلم كم مر، ربما دقائق أو ساعات أو سنوات أو ثوانٍ أو قرون. الوقت بالنسبة له توقف. لكن أخيرًا، تماسك ونهض بصعوبة، يتكئ على نفسه حتى صعد سيارته. أمسك بهاتفه، أراد سماع صوتها ليهدأ ذلك الاضطراب بداخله.

انتظر دقائق حتى صدر صوتها كعادته، هادئًا ومريحًا:

- صباح الخير، أنت كويس؟

أجابها بصوت غير مرتب، لا يعلم من أين جاء:

- متسبنيش، أنا عارف إنني شخص فاشل في فتح المواضيع، إضافة إلى مزاجي المتقلب، ونسياني السريع، وغضبي المستمر من العالم، لكنني لست سيئًا! كيف أكون سيئًا وأنا أحبك؟

استنكرت حديثه، قائلة:

- "محمد"، انت كويس!؟ أنا مش هسيبك أكيد. اطمن، طول ما إحنا جنب بعض وإيدك ماسكة في إيدي، هنكمل سوا. إلا لو ربنا أمر ببعدنا، وقتها هكون راضية، كفاية إني كنت معاك.

تحدث بتردد، يحاول تهدئة نفسه:

- أنا بحبك أوي، أنا مش هسيبك أبدًا.

أجابته بهدوء، مبتسمة:

- ولا أنا هسيبك. نتقابل النهاردة؟

أجابها بنعم، ثم أقفلا المكالمة. تلك المكالمة أعادت له الروح، ولو لدقائق.

وقف أمام عمارة سكنية في حي راقٍ، وهبط من سيارته. انتظر أن يفتح أحدهم الباب، وبعد وقت، وجد الطفل الصغير يفتح له. بدا أنه في السابعة من عمره.

ابتسم فور رؤيته للطفل، وركع قليلاً ليتحدث إليه.

- ماما جوا يا حبيبي؟

أجابه الطفل بنعم، ودلفوا معًا إلى الداخل. هناك، وجد طفلة صغيرة أخرى، بشرتها صفية، وهي تبتسم لتظهر ملامحها الجميلة. عيناها الواسعتان السواد، ووجهها المستدير المخملي، وخصلاتها البنية. وتلك الابتسامة الساحرة.

- نعم، مين حضرتك؟

قالتها امرأة تبدو في أواخر عقدها الثالث. تسأل عن هوية هذا الوافد إلى منزلها.

أجابها بهدوء، ملتفتًا لها ليظهر ملامحه:

- معقولة نستيني؟

ابتسمت بسعادة وهي ترى وجهه، متذكرة ذلك الطفل الصغير الذي أنقذته يومًا :

- هو أنت؟! يا ، ده أنا قولت مش هاشوفك تاني.

أجابها وهو يجلس، يحمل الصغيرة بين ذراعيه:

- وأنا قولت لك، طول ما الروح موجودة، هنتلاقى. وكان لازم أرد لك جميلك.

شبح ابتسامة ارتسم على شفتيها وهي تتذكر:

- شفت ولادي دول، خلفت "مهيمن" بعد ما أنت مشيت بسنة واحدة، لكن.

أجابها وهو يعبث بخصلات الصغيرة:

- لكن طبعًا "يحيى" فضل في حياتك. تفتكري يستاهل يكون أبوهم؟

انتفضت عقب حديثه، ممسكةً بيده :

- لا، أرجوك، أنا هربتك زمان من المصحة، عشان عارفة إن جوزي ظالم ومفتري، عارفة إن "يحيى" جبان وبتاع مصلحته. لكن دلوقتي بقى أبوهم. عارف إنك تتحرم من أهلك، إحساس عامل إزاي؟ يرضيك ولادي دول يجربوه؟

وقف الصغير أمامه، قائلًا بهدوء:

- عمو، أنت تعرف بابا فين؟ أرجوك، لو تعرف، خليه يرجع، وإحنا مش ها نخليه يزعل، ولا هنعمل شقاوة.

ابتسم له، يفكر، هل يستحق هذا الوغد أن يكون أبًا؟ هل يستحق من اتهمه بالجنون ودمر حياته أن يكون أبًا؟ لكن، هل تستحق تلك المرأة التي أنقذت حياته أن تكون أرملة له، وأن تعيش حياتها كلها في شقاء؟ هل يستحق هذا الطفل أن يعيش ما عاشه هو؟ لا، والف لا، حتى وإن كان انتقامه يعميه، لم يسمح لنفسه أن يعيد ماضيه مرة أخرى.

تحدث للطفل بهدوء:

- حاضر، هو ها يرجع قريب، متخفش.

أخرج بعض الأموال من محفظته، وهو يعطيها للأخيرة، "منال"، التي لم توافق على ذلك

- أنا مش محتاجة فلوس، بس محتاجاك توعدني إنك مش هتؤذي "يحيى"، على الأقل علشان ولادك.

ابتسم لها وهو يضع الأموال على الطاولة

- رغم كل اللي حصل بسببه، إلا إن جميلك في هروبي من المصحة فضلت شايله السنين دي كلها. أوعدك إنه ها يرجع قريب.

لوح لهم وهو يخرج من المنزل، هابطًا الدرجات بنشاط للأسفل.

صعد إلى سيارته مرة أخرى، وسار في الطريق، يتذكر عندما رأته "منال" في المصحة وطلب منها أن تخرجه، بعد أن قصّ عليها قصته. عندها، قالت له إنها لم تنجب أطفالًا حتى الآن، وربما لم يرزقها الله، لكنها لن تتركه. وبالفعل، سهلت له طريق الخروج والهروب.

بعد مدة، هبط "محمد" من السيارة في منتصف مخزن مقفل. وجد "قاسم" يبتسم له وهو يقترب منه. صدّه "محمد" وهو يضرب كتفه، قائلًا:

- ماشي يا "قاسم" الكلب، أنا تشتمني كده؟ إيه، اندمجت أوي بروح خالتك؟

ضربه "قاسم" بخفة وهو يجلس فوق سيارته :

- كان لازم اضبط الموضوع، إيه، كنت عاوزه يكشفني ولا إيه؟

تنهد "محمد" وهو ينظر له :

- لحد إمتى يا "قاسم"؟ هنفضل كده طول عمرنا، إمتى هنخلص من كل ده؟

ابتسم "قاسم" بسخرية :

- ولو خلصنا، هنعمل إيه؟ تفتكر لو أبوك عرف كل اللي انت بتعمله وكل اللي حصل لك هيسامحك؟ لا طبعًا. هتبان إنك أنت الظالم في روايتهم وإنك شخص وحش. وأنا لو القبض على "أنس"، هعمل إيه؟ تعرف إني بدأت أحاول أنسى إنه مش أبويا، قولت ليه يا "محمد"؟ كنت قاصد تعذبني؟

استنكر "محمد" حديثه وهو ينظر له ببرود :

- أنا؟ ها عذابك ليه هستفاد إيه؟ عاوز تنسى إن ده اللي قتل أبوك وأمك وخطفك، وانت لسه مكملتش خمس ست شهور؟ عاوز تنسى أهلك اللي ماتوا وتحرم منهم ولا تنسى إنك بقيت مجرم زيك زيه؟

أجابه "قاسم" بغضب، وهو يمسك بتلابيب قميصه الأسود ويهزها بعنف :

- أمال عاوزني أعمل إيه؟ مين دول؟ ما هو أبويا كان مجرم زيه، إيه الجديد؟ ناس معرفهمش، حتى لو أهلي. لكن "أنس" و"نبيلة" ربوني، لو كان عندهم ابن، مكنوش هيحبوا أكتر مني.

ابتسم "محمد" بسخرية من حديثه :

- بيحبوك علشان مش بيخلفوا، علشان ملهمش غيرك. لكن لو كانوا بيخلفوا، كان زمانك مقتول. محصل أبوك وأمك. فوق لنفسك يا "قاسم". فوق قبل ما تلاقي نفسك مجرم، ولو إنك خلاص اتدبست، بس نحلها يا "قاسم"، هتتحل.

نظر له "قاسم" بتعب، ودموعه تهبط على وجنتيه بحزن. وألقى بنفسه داخل أحضان "محمد"، الذي اشمأز قليلاً، لكنه تنفس وضمّه بهدوء، فهو يقدر حالته. فمن كان يتصور أن كل هذا الحب الذي يظهره "أنس" تجاه "قاسم" الذي، قبل أن تعرف حتى، ستخمن أنه ابنه، ما هو إلا لا شيء. ليس ابنه ولا من دمه. تلك الحقيقة التي استمع إليها "محمد" في إحدى المشاجرات بين "حسن" و"أنس"، لتظل عالقة في رأسه حتى جاء وقتها، وذكرها لـ"قاسم"، الذي لم يقتنع بالأمر في البداية. لكنه عندما زاد شكه، لجأ لعمل تحليل من وراء "أنس". لتفجعه الحقيقة أنه ليس أباه ولا يمت له بصلة. ومن وقتها وهو يساعد "محمد" على الانتقام.

هبط "عادل" من سيارته بسرعة، ولم ينتظر حتى المصعد، بل صعد السلم على قدميه باندفاع، حتى وقف أمام عيادة "نبيل". دخل الغرفة مسرعًا، لكن السكرتيرة أبعدته بيدها، قائلة:

- ميصحش كده يا أستاذ، لازم تاخد معاد الأول... يا أستاذ، أنا بتكلم!

لم يعر حديثها أي اهتمام، بل فتح باب الغرفة ودلف داخلها، ثم أغلق الباب خلفه بقوة. صدح صوت "نبيل" قائلاً بتساؤل:

- حضرتك مين ودخلت كده إزاي؟

أجابه "عادل" بغضب، وهو يخلع معطف بدلته ويلقيه أرضًا:

- أنا "عادل الجبالي"، وقدامك عشر دقائق تقولي تعرف إيه عن "محمد"، ومين "محمد نوح الرشيد"، انطق!

نظر "نبيل" إليه بعدم تصديق، وهو يلعن "محمد" بكل الطرق في داخله.

البارت الثامن عشر

"هبوط أنفاس"

وقف "نبيل" متوتراً أمام نظرات "عادل" الثاقبة، غير متأكد مما يجب أن يقوله أو يفعله وفي لحظة استسلام سريعة، قرر أن الإنكار هو الخيار الأمثل الآن:

- محمد؟ مين؟ أنا ما عنديش مريض بالاسم ده!

تقدم "عادل" نحوه بخطوات بطيئة تملؤها الصرامة، حتى أمسك بتلابيب قميصه بقوة، ونظراته مشتعلة بالغضب:

- انت هتستعبط؟ قدامك عشر دقايق تقولي إيه اللي تعرفه، ولأ شطبك من النقابة هيكون على إيدي، وبرضه هعرف اللي عاوز أعرفه!

شعر "نبيل" بالاختناق من توتره، وفي ذهنه لعن "محمد" الذي يبدو أنه لن يتوقف عن جره نحو المشكلات. تنهد وأجاب بتردد:

- صدقني، أنا معرفش حد اسمه محمد نوح... لكن آه، فعلاً بعالج هنا واحد اسمه محمد الجبالي.

لمعت عينا "عادل" وهو يجلس على مقعد قريب، واضعاً قدماً فوق الأخرى، مشيراً بيده في صمت لنبيل بلهجة آمرة بأن يواصل الحديث. ولكن "نبيل" أغلق باب النقاش بسرعة، محاولاً التظاهر بالهدوء:

- دي أسرار مريض، وما ينفعش أطلعها برة.

وفجأة، فتح الباب بعنف، ودخلت "هاجر" إلى الغرفة بتصرف غير متوقع أبداً، وعلامات الارتباك البالغ على وجهها. توقفت لبرهة، متجمدة في مكانها، وكأنها لا تصدق ما ترى.

ثم تحدثت بارتباك واضح، وكأنها تحاول التغطية على شيء ما:

- إيه ده!؟ أنا... إيه اللي جابني هنا؟ هو ده مش مركز التجميل!؟

حاولت الخروج بسرعة، ولكن يد "عادل" اعترضت طريقها قبل أن تغادر، وصاح بها بصوت لا يقبل المراوغة:

- إيه اللي جابك هنا يا هاجر؟ أقسم بالله لو كذبتي .

أمام تهديده الصريح، نظرت له "هاجر" بخوف واضح واعترفت بتلعثم شديد، محاولة تبرير وجودها:

- أنا هاعترف لك بصراحةأنا كنت جاية لدكتورة حياة، بتعالجني هنا، ومحمد هو اللي جابني.

ألقى "عادل" نظرة دهشة على "نبيل"، وأشار نحو "هاجر" بابتسامة ساخرة.

- دي اعترفت قبل ما أزعق حتى، إيه الصدق ده يا بنتي؟ ربنا يبارك فيكي.

بينما كانت "هاجر" تنظر نحو "نبيل" بعينين متسائلتين، مستغربة:

- هو أنا عكيت ولا بيتهيأ لي؟!

ضرب "نبيل" كفه على وجهه بضيق، وتمتم بصوت يائس:

- ياريتني كنت سمعت كلام أمي ودخلت حقوق، منك لله يا محمد.

تلاشى ضجيج الغرفة للحظات، وكلٌ منهم غارق في أفكاره، وكأن الحقيقية التي كانوا يهربون منها بطرقهم المختلفة قد تجسدت أخيراً أمامهم. بدا "عادل" وهو يعقد حاجبيه، يحدق في "نبيل" و"هاجر" بحذر وترقب، كمن يوشك على كشف سر كبير لكنه ينتظر الكلمة الأخيرة ليكتمل المشهد.

تسللت نظرات "نبيل" بين الحاضرين، حاملاً داخله ثقل الأسرار التي اضطر لتحملها، وشعوراً متنامياً بأن الأمور بدأت تخرج عن سيطرته. في تلك اللحظة، شعر "عادل" بأن الصورة بدأت تتضح، لكنها لا تجلب طمأنينة، بل زادت من شعوره بالقلق؛ وكأن شيئاً أعمق وأشد خطورة من كل الظنون ما زال يختبئ خلف كلماتهم المترددة.

وفي هذا السكون المشحون، بدا أن القلق والصمت قد حملا في طياتهما بداية شيء أكبر، شيء قد يكون قريباً من الانفجار، لكنه بلا مفرّ – عليهم مواجهته قريباً، مهما كانت العواقب.

بينما كان "محمد" يجلس مع أصدقائه في تلك الزاوية الهادئة من المقهى، كان يحاول عبثًا نسيان الأفكار المظلمة التي تلتهم عقله. كان الصداع يزداد وطأة، وكأن جدران رأسه تضغط عليه بلا رحمة، غير راضٍ عن حاله أو عن كل ما حدث له مؤخرًا.

أخذ "عز" ينشر الفرح من حوله بحديثه المرح وهو يضع أكواب المشروبات على الطاولة:

- الجواز طلع لطيف أوي يا ولاد! بجد والله، حاسس إني مهم كدد وليا أهمية!

أجابه "سليم" مستنكرًا:

- وأنت من إمتى كان ليك أهمية يا "عز"؟

ضحك الجميع على كلماته، وكأن "سليم" أعادهم إلى واقعهم.

"أمير" لم يستطع أن يمسك نفسه من الضحك، وضرب كفه بكف "إسلام":

- بتعجبني صراحة، "سليم"! بجد، كان نفسي أقوله كده.

تحدث "سيف" بهدوء وهو ينظر إلى أصدقائه:

- إن شاء الله هحدد ميعاد الفرح.

صدحت أصوات التهليل والمباركات، وملأت الضحكات المكان. كان "سيف" يقف بينهم بفخر، وكأنه يحمل أحلامهم جميعًا على كتفيه.

احتضنه "أحمد" بحب وفخر:

- مبارك يا عم، عقبال ما تبقى بابا بدل ما تذلنا بأنك دكتور، ذلنا بأنك أب!

بينما "محمد" غارق في بحر أفكاره، كان القلق يتسلل إلى قلبه رويدًا رويدًا، يسأله: ماذا لو كان هو في هذه الحالة؟ هل سيكون فخورًا بتكوين عائلة؟ هل سيكون أبًا ناجحًا؟ هل لديه القدرة على بناء أسرة؟ تلك الأفكار كانت تهاجمه بلا هوادة، رغم محاولاته المستمرة لطردها.

فجأة، انتبه إلى ضجيج أصدقائه، وفي البداية اعتقد أنهم يلهون كعادتهم، لكن سرعان ما وجد "أحمد" يضرب على كتفه بقلق:

- "محمد"، الحق "سيف"! هات البخاخة من هناك!

عندما صدحت تلك الكلمات، شعر بأن قلبه قد توقف عن النبض. نظر حوله بقلق، واقترب من صديقه الذي سقط أرضًا، بينما الجميع يحاولون فتح النوافذ لجمع بعض الهواء له.

عندما اقترب منه، وضع الزجاجة داخل فمه وضغط على فتحاتها بقلق. لكن ما إن رأى "سيف" يضع يده على كتفه، حتى هدأت أعصابه. كان يهدئه، وكأنه يقول له: "لا تخف."

تحدث "سيف" بتعب، محاولًا إظهار ابتسامة:

- متخافوش، والله أنا كويس، بس أنتم عارفين لما بفرح زيادة أو بتوتر، مش بكون تمام.

كان عقله يلعن هذا المرض اللعين، الذي يجعله مهددا في حياته. الجميع لا يعلم ما يشعر به، ولا كيف أن شعور القلق يطوقه كلما تذكر أنه لا يستطيع أن يشعر بالسعادة مثلهم.

- أنت كويس طيب؟!، اطلب لك دكتور ؟

سأل "أحمد"، ممسكًا بخصلات شعر صديقه.

أجابه "سيف" بتعب يحاول إخفاءه:

- أنا تمام، ملوش لزوم، بس أنا خايف. عارف نفسي أموت بعدكم خايف من فكرة أني أموت قبلكم، يمكن ياذيكم حد من غيري. خايف إنكم تبكوا عليّ، وقتها بجد هاحترق في قبري.

كان "إسلام" يضمه بحب، يحاول تهدئة حالته:

- اوعي تقول كده تاني، أوعي! انت هتفضل معانا يا عم، انت دكتور يعني هتفضل تذلنا لحد ما نموت، متخافش.

بينما "سليم" أزاح دموعه بقوة وهو يحتضن الأخير بقوة:

- متقولش كده تاني، إحنا هنفضل مع بعض، فاهم يا "سيف"؟ وبعدين، يلا علشان نجهز للفرح ده. كده فوق يا عم.

ابتسم "سيف" وهو يجمع قواه، واستعاد عزيمته وإصراره على الحياة مرة أخرى؛ لوجود أصدقاء يدعمونه دائمًا:

- تعرفوا أنه رغم كل اللي مرنا بيه، ورغم كل اللي بنعمله، إلا أني فخور بأنكم أصحابي.

احتضنهم جميعًا في عناق جماعي. كان "محمد" يبتعد عن العناق، لشعوره بالغثيان. لكنه شاركهم العناق من بعيد، مستشعرًا قيمة اللحظات التي تجمعهم، رغم كل ما يجري.

جلست "هاجر" بتوتر بجانب "عادل" في السيارة، تخفي وجهها بيدها، وتفكر في كيفية الخروج من تلك الورطة. لكن فجأة، تساءلت: لماذا لا تخبره بالحقيقة؟ يجب أن يعلم، حتى وإن كانت الرواية غير مكتملة. كان هناك جزء خاص بـ"محمد"، لكن ربما يمكنها الاكتفاء بذكر النصف فقط.

سحبت يدها بخوف عندما وجدت يده تضع فوق يدها، لكنها لمست نظراته الهادئة وهو يضمها إليه. تحدثت بصوت مرتجف:

- أنا بتعالج من ٦ شهور بس، والموضوع مكنش محتاج إن.. إن حد يعرف.

أجابها وهو يركز على الطريق، لكن أفكاره كانت تتشتت:

- حد زي مين؟ مامتك مثلاً؟ بصي يا "هاجر"، أنا مش بجبرك ولا ممكن أزعلك، لكن أنا هاعرف الحقيقة كده كده.

فجأة، ساد صمت ثقيل بينهما، استمر حتى وصولهما إلى منزلها. زاد توترها مع اقترابهما من المنزل، وعندما دلفت أمامه، وجدت "حسناء" في انتظارها. أسرعت نحوها تحتضنها.

احتضنتها "حسناء"، وملامح الاستنكار تملأ وجهها:

- فيه إيه يا "هاجر"، مالك؟ فيه إيه متنطقوش؟ "محمد" حصل له حاجة؟

هربت الدماء من وجه "هاجر" عندما بدأ القلق بالتسلل إليها، لكنها شعرت ببعض الاطمئنان عندما طمأنها "عادل" بهدوء:

- محدش حصل له حاجة، متخفيش.

هدأت "هاجر" بعد برهة، ثم بدأت بسرد حديثها بهدوء:

- أنا مش عاوزة ماما تعرف. لو عرفت هتمنعني أروح، غير كده مش عاوزاها تسمعني كلام مش عاوزة أسمعه. مش عاوزة أكرها أكتر.

انتهت من حديثها وهي تخفي وجهها في حضن "حسناء"، التي مسحت على خصلاتها بحنان، تحتضنها وتساعدها على تهدئة بكاءها. بينما كان "عادل" يشعر بالقلق يتدفق إلى عقله، تخيل أسوأ السيناريوهات وهو يستمع لحديثها. تذكر موقف "محمد" منه ومن أخته، وأصبح يتساءل: هل من الممكن أن تكون كل هذه الكراهية بلا سبب؟

أمسك بيد "هاجر" بحنان، يربت على يديها، متحدثًا بهدوء:

- اهدي طيب، مش هتعرف حاجة، وحتى لو عرفت، محدش يقدر يعملك حاجة. متخفيش، أنا موجود.

استجمعت "هاجر" كل قواها وبدأت تسرد عليه ما حدث لها منذ صغرها على يد والدها و"قاسم" و"أنس"، مختصرة جزء "محمد" من كل هذا. بدأت ملامح "عادل" بالانكماش، وبدأ الغضب يظهر في عينيه، ووجهه بدأ يحمر:

- إزاي كل ده حصل؟ إزاي؟

بينما "حسناء" كانت تستمع لحديثه، ودموعها تنهمر على وجنتيها بصمت تام، لكن قلبها كان يخفق بشدة من الألم. على الرغم من معرفتهم لبعضهم البعض لفترة قصيرة، إلا أن قلبها كان يتفتت على حديث "هاجر". كيف تكون والدتها، التي تدعي أنها والدتها، لم تشعر بها؟ أي أم تلك التي يمكن أن تتجاهل معاناة ابنتها؟

تحدثت "هاجر" بهدوء، وابتسامة ساخرة تزين وجهها الهادئ:

- بس بلاش تعرف. أنا مش عاوزة ماما تعرف، علشان أصلاً مش هتحس.

لكن حديثها انقطع عندما دلف "محمد" من الباب بسرعة، يحدق بها بقلق. اقترب منها بخوف، قائلاً:

- فيه حاجة؟ حد عمل لك حاجة؟ أنتِ كويسة صح؟

أومأت له برأسها بهدوء:

- مفيش حاجة، متقلقش، أنا كويسة.

بينما كان "عادل" يتحدث بسخرية، ينظر إلى "محمد" بغضب:

- محصلش ليها حاجة، متخفش، مش بتاكل بني آدمين.

لم يهتم "محمد" لحديثه، وصافح "حسناء"، التي كانت تجلس محتضنة "هاجر". قال لها مبتسمًا وهو يحتضن رأسها:

- متخفيش، أنا كويس. متقلقيش عليا، أنا بتخاف مني مش عليا.

أطلق "عادل" تنهيدة من الاستنكار وهو ينهض من مكانه، متحدثًا بحنق:

- طيب، أسيبكم أنا في الجو العائلي ده. صحيح، طالما أمك ومش بتخبي عنها حاجة، ما تقولها على دكتورك النفسي يا راجل!

انكمشت ملامح "محمد" وهو يمسح وجهه بعنف:

- حاجة متخصش حد، وبعدين أنا هحكيلها كل حاجة. متخفش.

سحبه "عادل" من ملابسه، مشعلًا الغضب في عينيه:

- كل حاجة اللي هي إيه ها؟ هو سؤال واحد اللي يهمني: أنت "محمد نوح الرشيد" ولا لأ؟ وصدقني كدبك مش هيفيدك. كل اللي عرفته ده صح؟ يعني أنت مزور أوراق تانية باسم تاني؟ أنت اللي كنت في الحفلة متنطق؟

ابتعد "محمد" وسحب نفسه بعيدًا، يتساءل في نفسه: هل يعترف الآن، ولماذا يعترف، ولمن؟

- أنا معرفش أنت بتتكلم عن إيه؟ وشيء مخصكش، كوني بتعالج عادي يعني.

تحدثت "حسناء" باستفسار، غير مدركة لما يتحدثون عنه:

- فيه إيه، متفهموني بتتكلموا عن إيه؟

أجابها "عادل" بسخرية، ينظر نحو "محمد" بغضب:

- ابنك اعتراف لم اتخنقنا إنه هو اللي كان في الحفلة وهو اللي ضربني، و"شريف" جاب لي الورق ده اللي بيقول إن الأستاذ مزور باسم تاني ورئيس عصابة، ما شاء الله، افخري بيه بقى.

نظرت "حسناء" للأوراق في يدها، وكانت صادمة لها:

- الكلام ده صح؟ رد عليا يا "محمد"؟

شعر بتأنيب الضمير، لا يعلم ما عليه قوله، لكن تنهد وهو يمسك بيدها:

- "حسناء"، أنا ما طلبتش أعرف منك أي حاجة حصلت زمان، كل اللي عاوزك تعرفيه إن حياتنا مع بعض، وأنا ابنك، كانت من يوم ما عرفت انك امي هنكر إني زمان ممكن أكون غلطت، بس أنا مش ملاك. بلاش تسأليني عن أي حاجة، أرجوكي. أنا هتكلم لما أكون تمام.

لم تعرف "حسناء" ما عليها فعله الآن، لكنها أومأت له بهدوء، تربت على كتفه.

بينما هو وزع نظراته بينهم وخرج مبتعدًا، يتنفس الهواء بصعوبة، يحاول تنظيم أنفاسه.

خرجت خلفه "هاجر"، اقتربت منه بهدوء، ممسكة بيده، لكنه فوجئ بسحب يده بعيدًا عنها، وهو ينظر لها ببرود:

- قولتي له إيه بالظبط؟ للدرجة دي الغباء، مش قادرة تحكي يعني؟

نظرت له، والدموع تنهمر على وجهها، تستمع لحديثه القاسي:

- محكتلوش حاجة عنك، وبعدين مش ذنبي إنك عملت كل ده. تقدر تقولي، يا إني غبية بقى، أنت إيه؟ أقولك أنا؟ أنت معقد وغبي جدًا كمان. مفكرتش وأنت بتعمل كل ده هتستفيد إيه؟ أنت مجرم، وزيك زيهم يا "محمد"، زيك زي بابا.

نظر إليها بغضب، وسحب شعره للخلف بعنف، أنفاسه تتسارع: «أنا غلطان. عارفة إيه مشكلتك؟ هتفضلي تقارني أي حد بأبوك. مش معني إنه شخص زبالة تبقى كلنا زيه.»

تزامن حديثه مع صفعة مدوية تهبط على وجهه، جعلته يتراجع للخلف، بسبب عدم استعداده لتلك الصفعة.

تحدثت بأنفاس متقطعة، والغضب واضح في عينيها:

- أي كلمة منك تانية عن أهلي هتلاقي نفس الرد. ومن النهاردة تبعد عني، أنت فاهم؟ مش عاوزة أشوفك تاني، أنا بكرهك يا "محمد"، بكرهك وعمري ما حبيتك أبدًا.

كان حديثها كالنار التي تقطع قلبه، وقف ثابتًا ينظر إلى الفراغ أمامه، وأنفاسه كادت أن تخرج من بين قفصه الصدري. كانت عيناه تكادان تخرجان من مكانهما، وشعور الغثيان يتسلل إليه بهدوء.

سقط على الأرض، خارت قواه وهو يحاول التنفس، لكن الدماء خرجت من أنفه وفمه، وهو يحاول كتمها، ويرجع رأسه للخلف.

بعد مدة متوسطة لا يعرف حجمها، بدأ بالنهوض رويدًا رويدًا، وعيناه تمتلئ بالدموع وهو يقود السيارة بشرود، متجهًا إلى منزله بتعب، وكل هزائم الحياة تقبع على قلبه.

هبطوا سوياً ودلفوا إلى محل المجوهرات، حيث وقعت عليهم التهاني والمباركات من العاملين وبعض العملاء. ابتسم الاثنان مرحبين بالمباركات.

نظر "سليم" إلى الصندوق الصغير الذي يحمله بيده، والذي يحتوي على طقم من المجوهرات الألماسية: قلادة صغيرة، وخاتم، وأقراط. كانت هيئتهم جميلة ولطيفة، لكن "جني" التي أمسكته بين يديها بإعجاب، قطعت إعجابها قائلة:

- بص، هما حلوين أوي، لكن سعرهم أكيد غالي. وأنا فاهمة إنهم هدية وكده، لكن أنا اتفقت معاك إن أي حاجة في جوازنا تكون من فلوسنا. لذلك، أنا هاخد طقم فضة علشان بحب الفضة أوي، وفلوس الطقم ده هنضيفها لبيتنا.

ابتسم "سليم" في إثر حديثها، وعندما استمع لتلك الكلمة منها "بيتنا"، أحس بشعور جميل. هل حقاً سيسكنان في منزل واحد، يتشارك فيه الهواء؟ ياله من حلم جميل! قال:

- اللي أنت شايفاه، اختاري اللي يعجبك.

أمسكت "جني" بطقم لطيف من الفضة، يحتوي على أقراط فضية بداخلها وردة حمراء صغيرة، وخاتم فضي على هيئة فراشة من الخارج. كان للخاتم الآخر سمك، وداخل حفرت عبارة باللغة العربية: "من فرط حبي لها أشعر أن قلباً واحداً لا يكفي، آه لو لي قلبين: قلباً لحبها والآخر لعينيها."

ابتسمت بسعادة غامرة وهي تقرأ تلك العبارة، مشاعرها تتراقص حولها مثل الفراشات.

خرجوا من المكان وهي ما زالت ممسكة بالخاتم، تبتسم كلما قرأت عبارته، بسعادة تتطاير حولها كما الفراشات.

دلف "سليم" إلى المنزل، يدور حول نفسه برقص، يدندن بصوت مرتفع ببلاها. بينما هبط "ياسر"، ينظر إلى ابنه الذي يبدو أنه قد أصابه الجنون. ضرب كفه بكفه الآخر، يتمتم بامتعاض:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، صبرني يا رب على ما ابتليتني.

نظر له "سليم" ببلادة، مشيراً إلى نفسه:

- أنا يا بابا ابتلاء!؟ أخص عليك، يا بوب، ابنك حبيبك ابتلاء؟

قذفه "ياسر" بالوسادة في وجهه، وهو يسبه ببرود:

- أنت ابتلاءت الدنيا كلها يا حبيبي.

دار "سليم" حول نفسه بسعادة، ممسكاً بذراع والده:

- أنا مبسوط أوي والله! بقولك، أنا هسافر بعد فرح "سيف"، ها؟

تركه "ياسر" وهو يصعد للأعلى:

- ربنا يهديك يا ابني، ويصبرني على ما بلاني.

ابتسم "سليم" وهو يتذكر يومه بسعادة، يشعر بأن معاناته ستنتهي أخيراً، ومن يعلم ما الذي سيكون قادماً.

بينما كانت الفتيات يجلسن في منزل "سما"، استقبلتهن بسعادة وبدأت تروي لهن تفاصيل زفافها. وضعت "سما" الوسادة فوق قدمها، ويدها فوقهم، قائلة:

- ياه على الإحساس! بصوا، أنا متوترة أوي بصراحة، متلغبطة وحاسة إني خايفة. في حاجات بتقلقني. يعني "سيف" اللي كنت بشوفه صدفة في الشارع أو النادي، هقبله صدفة في الشقة بين المطبخ والحمام؟ وبعد كده، إزاي هبقى ماما وأخلف؟ طيب إزاي هبني شخصيتهم؟ لا لا، أنا مش هتجوز.

أجابت "جني"، التي تركت الهاتف من يدها واحتضنتها:

- لا و حيات خالتك مفيش فيها تراجع! أنا هتخطب يوم فرحك، يبقى برضاكي غصب عنك هتتجوزي.

تحدثت "جميلة" بقلق، وهي تفكر في حياتها المستقبلية:

- أنا كمان بدأت أرجع عن فكرة الجواز. ده "أحمد" لسه بيتفرج على كرتون. وبعدين، بصراحة، أنا خايفة.

أمسكت "زينا" بأيديهن، تتحدث بتمتمة:

- أنا أقولكم، أنا جربت، وبقولكم الجواز ده حاجة زي الزفت. ورغي كتير، ووشك في وشه ليل ونهار. والأسوأ بقى لو بيتكلم كتير، زي "عز"، كده هيفضل يرغي اليوم كله.

سحبتهم وهموا بالنهوض حتى وجدوا "جيداء" و"ميرنا" ينظران إليهن بغضب. أجابتهم "ميرنا" وهي تقترب منهما بهدوء:

- عارفة لو فكرتوا في الهبل ده، بصي، هو مفيش حاجة في الدنيا أو علاقة فيها كل حاجة مظبوطة. الجواز زي أي علاقة، فيها حاجات حلوة وحاجات وحشة. يعني هتستقري، هيكون لك ونس، وتكوني عائلة، وتربي أولاد، وتكوني أم ناجحة قبل أي شيء. وبردو في أضرار، بس كل ده بينتهي لو للحظة وحدة كنتي مبسوطة مع اللي بتحبيه.

بدأت ملامح الرضا تظهر على وجوههن وهم يستمعون لحديثها، محقّة في كل كلمة نطقت بها. فكل المشاعر الإنسانية مبنية على الحب أو الكراهية.

بعد مدة قصيرة، دخلت "هاجر" المنزل، والدموع تزين وجنتيها وعينيها. عندما اقتربت من "ميرنا"، رمت بجسدها داخل أحضان الأخيرة، وهي تبكي، وصوت شهقاتها يعلو أكثر.

تحدثت "ميرنا" بقلق، تمسد خصلاتها بحنان وطمأنينة:

- في إيه بس مالك؟ اهدي يا حبيبتي بس.

بينما "جني" اقتربت، تربت على ظهرها بحنان، تحاول أن تسقيها بعض الماء:

- خلاص، بس اهدي، فهمينا إيه اللي حصل؟

تحدثت من بين شهقاتها، وهي تمسح دموعها:

- أنا غبية أوي، غبية إني صدقته، أنا غبية.

استنكرت ملامح "زينة " من حديثها:

- مين ده اللي صدقته؟ هو مين؟

أخذت تحاول التنفس بهدوء، لكن صدرها كان يعلو ويهبط بعنف، معلناً عن الضيق بداخله:

- "محمد". أنا استحملت كلامه عن بابا في الأول، بس مع أول مشكلة، عيرني بيه وقال لي أنت غبية.

تحدثت "سما" بانصات، وهي تمسك يديها:

- لا، أنتِ تقولي لي إيه اللي حصل من الأول كده، معلش؟

هدأت أنفاسها وبدأت تروي لهن كل ما حدث. كانت عيونهن تتحول في كل لحظة من نظرات الشفقة للحزن للغضب والاستنكار أحياناً.

بعد أن قصت عليهن كل شيء، تحدثت "زينة" بتعجب، وهي تقترب منها بغضب:

- لحظة، هو أنتِ زعلانة؟

أجابت الأخيرة بإيماءة بنعم، وهي تمسح دموعها:

- أه طبعاً، أنتِ مسمعتيش إيه عمله؟

نظرت "ميرنا" إليها بعتاب، لكنها تحدثت بهدوء:

- أنتِ غلطانة، كنتي المفروض تقدري اللي هو حاسس بيه. وبعدين، ما هو أنتِ عارفة إنه لما بيتعصب، بيكون مش في وعيه.

بينما تساءلت "جيداء" باستنكار من حديثها:

- "هاجر"، أنتِ مش بتحبيه بجد؟

ابتسمت بحزن وسخرية على تلك الأقدار:

- أنا عمري ما آمنت لحد ولا ارتحت مع حد قد ما أنا بحبه بجد.

تحدثت "سما" بهدوء، وهي تنظر إليها:

- بس أنتِ فهمتيه إنك مش بتحبيه؟ هو بيحبك بجد، ميستحقش كل ده منك.

جففت دموعها، وهي تنظر للفراغ أمامها:

- ما خلاص، لسه ها فكر بيحبني ولا لا؟ كل حاجة انتهت خلاص.

ضمتها "ميرنا"، وهي تربت على ظهرها بحنان، تنظر لحال صديقتها الحزينة، لا تعرف كيف ستحل هذا الموقف.

أجواء المساء كانت غائمة، حيث غطت السحب السماء وحجبت نور القمر، وكأن السماء على وشك البكاء. الظلام كان يحتل المكان من حوله، وهو بمفرده، بلا أنيس ينير وحشة ليله ولا جليس يهدئ ثورته، كما كان في كل أوقاته.

عيناه الحمراوان، والعروق الزرقاء البارزة في جسده، وشفتيه المتورمتان، ووجهه الشاحب بسبب عدم تناوله للطعام، كلها كانت دلائل على التعب. الأكواب الفارغة من القهوة، والمطفأة التي تحمل الكثير من أعقاب لفافات التبغ، كانت دليلًا على حالته السيئة حتى بدأت المطفأة تمتلئ وتنخفض إلى الطاولة.

سحب خصلاته للخلف بشدة، محاولًا النهوض من مكانه. مسح وجهه بعنف عندما وجد زوجًا من المرايا أمامه، ورآى نفسه ظاهرًا فيهن بكامل هيئته. اقترب من المرايا، لمست يده وجهه ودموعه تهبط من عينه بصمت، ثم بدأ في النظر لجسده.

خلع سترته وكشف عن ظهره، والتفت ليظهر حروقه في المرآة. كانت الحروق والجروح تملأ ظهره بالكامل. هبطت دموعه مرة أخرى وهو يحدث نفسه بصوت خفيض: «أنا مستهلش كل ده، أنا مش وحش كده. لا، أنا كويس، أنا بتحقق على إيه، على حبها؟»

لكن ضحكة صاخبة صدرت منه وهو ينظر لوجهه في المرآة، قائلاً بحدة وصوت مرتفع:

- تستاهل يتعيط!؟ قولت مئة مليون مرة، محدش ها يحبك. بتعمل فينا كده ليه؟

عادت نبرته للهدوء مرة أخرى، وضع يديه فوق أذنه عندما استمع لأصوات الضجيج التي امتلأت بداخله، أصوات طبول وتحطيم، وصنبور مياه يسقط منه قطرات. قال:

- كفاية، كفاية بقا، اخرجوا من دماغي. أنا تعبت، أنا مستهلش كل ده، أنا تعبت.

قالها وهو يمسح دموعه بعنف، ويلقي بكل ما هو أمامه في تلك المرآة، يخفي بها صورته التي عكستها:

- أنا بكرهك، بتكرهني، عمرها ما حبتني، ليه؟ ليه؟

ظل يحطم كل شيء أمامه حتى بدأ جسده بالخمول ووقع أرضًا. كانت تلك الأصوات لا تفارق خياله. سحب جسده على الأرض واقترب من دفتره الذي يدون فيه مشاعره، عله يخرج ما بقلبه.

شعر بآلام في معدته، أمسك بها بيده وهو ينظر للظلام أمامه في معدته ألم، يذكره دائمًا بكل ما مر به وكتمه داخل قلبه الآن يدفع الثمن من صحته.

أمسك بالقلم ودوّن العبارة التي جاءت بخاطره: "دموعي تتسابق كمياه شلال على وجنتي. لقد رأيت الأرض تحتضنك وكتمت شهقاتي. أرهقت برحيلك وأعلنت انهزامي. صرت أنتظر بفارغ الصبر فقدان روحي، لعلي بالذي داوى جروحي ألتقي."

كتبها وهو ينظر لتلك الصورة التي وقعت أرضًا، اقترب منها وضمها إلى قلبه وهو يتحدث من بين شهقاته:

- محدش حس بيا، محدش بيحبني زي ما كنت بتقولي كلهم هزموني وأنا تعبت، هفضل أحارب لامته؟

مثل كل ليلة، ذهب للفراش، وقلبه مليء بالصخب، وكأنه عاد من معركة، وقلبه دفن للتو! متعب من مراسم حفر صدره. قاوم نفسه وذهب لفراشه بثقل، وارتمى بداخله وهو ينظر للسقف .

لم يعلم كم مر من الوقت وهو نائم، لكنه استفاق على ألم شديد في يده اليسرى. فتح عينيه ببطء، وحاول رفع يده من فوق الفراش، لكنه شعر بثقل كبير بها. نظر إلى يده فوجدها شاحبة اللون، مزينة باللون الأزرق، والألم يكاد يفتك به.

رفع رأسه ونهض ليقف، فشعر بأنفاسه تتسارع، وشعر بالضيق. اقترب يمسك بهاتفه بيده الأخرى، لكنه شعر بالغثيان، فذهب للمرحاض مسرعًا وأخذ يتجشأ كل ما في جسده بتعب. حتى استمع إلى صوت الهاتف من الجهة الأخرى، وصوت "أحمد" يصيح بخوف:

- في إيه، مالك يا محمد؟ إيه اللي بيحصل عندك؟

تحدث بثقل وتعب، وجسده يرتجف بشدة:

- أنا بموت يا أحمد، الحقني بموت.

أغلق الخط بينما وجد الدماء تسيل من فمه. خرج من المرحاض بثقل، وسقط أرضًا، يتنهّد مرة أخرى، حتى وصل إلى الأسفل أمام صورة عائلته وصورة "هاجر". تحدث بتعب، وجسده يرتجف:

- أخيراً ها ارجع لكم كنت بحبك أوي، بس أنت كسرتيني زيهم ربنا يسامحك، متحسيش بالي حسيت به أبداً.

سمع صوت فتح الباب فتخيل أنه "أحمد"، لكنه وجد "حسناء" تتحدث بمرح:

- أنا جيت يا محمد. هتكسفني بقا ولا نفطر سوا؟

توقفت مكانها عندما وجدته يقترب منها، وملابسه مملوءة بالدماء، وأنفه وفمه ينزفان بشدة.

اقتربت منه بخوف، مسرعة بقلق:

- في إيه، مالك؟ في إيه؟؟

وجدته يضع يده على فمها، ثم ألقي بجسده في حضنها، متحدثًا بتعب:

- متسأليش، وبلاش تعيطي، يرضيكي، آخر مرة أشوفك فيها تبقي بتعيطي؟

ضمته بقوة، وهي تحيط وجهه بيدها، وتمسح دموعه بخوف:

- لا، متقوليش كده، أنت هتبقى كويس، والله. لا يا حبيبي، متقولش كده، لا.

ابتسم لها بتعب، وقبَل يدها:

- أنا طول عمري كنت بتمنى يكون لي أم، وكان لي أحسن أم. أنا بحبك أوي يا ماما، بس أنا عارف أن خلاص جسمي بيبرد. حاسس بروحي وهي بتخرج. خدي بالك من نفسك، وقولي لهم إني كنت بحبهم أوي.

تحدثت بهستيرية، ودموعها تنهمر بشدة:

- لا يا حبيبي، افتح عينيك، بص لي يا محمد، لا، متسبنيش دلوقتي، لا علشان خاطري، لا!

استمعت لصوت سيارة الإسعاف التي اقتربت من المنزل، وبداخلها "سيف" و"أحمد" اللذان اقتربا سريعًا من موضعه، يحتضنونه بشدة. رجال الإسعاف أخذوه من بين يديهم، يحاربون الوقت لينقذوه.

بعد أن ارتدت ملابسها، أمسكَت بالهاتف لتتصل بـ"زينة" لكي تأتي معها لزيارة "محمد" وتنهي خلافها معه. ظلت تعيد الاتصال مرة تلو الأخرى، لكن لا جدوى. شعرت بشيء مقلق وقررت الاتصال بـ"عز"، الذي أجابها بسرعة، يصلها صوته الغاضب الحاد:

- عاوزة إيه دلوقتي؟

نظرت للهاتف بتعجب وهي تتحدث مرة أخرى بهدوء:

- كنت بكلم زينة علشان تيجي معايا لمحمد.

سخر من حديثها بمرارة، وهو يقود سيارته متجهًا للمستشفى الذي أعطاه "أحمد" عنوانها:

- محمد! بالذمة عندك دم؟ "محمد" في المستشفى بين الحياة والموت بسببك. ادعي ربنا يشفيه، لأن ورحمة أبويا لو جرى له حاجة، مش هيكفيني روحك أنتِ واللي خلفك.

أغلق الهاتف قبل أن تستمع لصوتها الذي جاء مشوشًا بسبب بكائها.

هاتفت "ميرنا" بسرعة، وقصت عليها ما حدث، وأخبرتها "ميرنا" بالعنوان. أسرعت للخارج، ودموعها تنهمر على وجنتيها بحرقه وقهر على حبيب روحها، الذي لا تعلم ما حاله الآن. كأنها تشعر بآلامه الآن، أنفاسها لا تريد الخروج، وكان قلبها يخبرها أن تتوقف عن هذه الحياة. لكن كانت مُصممة على حياتها لكي تراه للمرة الأخيرة، فاندفعت في القيادة لتصل.

بعد مدة، دلفت للداخل بسرعة، فوجدتهم يقفون في منتصف المستشفى، ينتظرون الطبيب.

اقتربت من "حسناء" التي كانت تجلس على الأرض، ودموعها تنهمر على وجنتيها بشدة، وشهقاتها مرتفعة بجانبها "عشق" التي كانت تربت على يدها بحنان وتحتضنها.

تحدثت "هاجر" وهي تنظر لهم بغضب:

- في إيه، "محمد" في إيه؟ ردوا عليا؟

اقترب منها "أحمد" بنظرات حادة وغضب على صديقه، الذي حياته بين موته بسببها:

- في إنك إنسانة مريضة وزبالة زيهم. في إنك السبب في كل اللي هو فيه دلوقتي. في إنك لو ما خرجتيش، وريني إيه هيحصل، هارجعك جثة لأمك.

وجد من يقف أمامه يمنعه عن إكمال حديثه، ولم يكن سوى "عادل" الذي تحدث بغضب وهو يبعده عنها:

- احترم نفسك يا أحمد، انت اتجننت؟

أجابه "أحمد" بوقاحة وهو ينظر له بسخرية:

- لا والله؟ ده إيه الطيبة والحنية دي يا راجل؟ اطلع برة انت كمان. هو إيه، تقتلوا القتيل وتمشوا في جنازته ولا إيه؟

قطع حديثهم صوت الطبيب الذي تحدث بحدة:

- مينفعش كدة احنا مش في الشارع، دي مستشفى.

اقتربت منه "حسناء" بقلق، وهي تنظر له قائلة بتعب:

- ماله يا دكتور؟ هيبقى كويس، صح؟ أبوس إيدك، تلحقه. أنا ملحقتش أفرح بي، اعمل حاجة، خرجه تاني.

احتضنها "عادل" من الخلف، وهو يربت على ظهرها بهدوء وحنان:

- اهدئي، هيبقى تمام والله. متخفيش.

تحدث الطبيب بهدوء ورسمية:

- للأسف، دي جلطة، و هنضطر نلجأ لتدخل جراحي لذوبان الجلطة، بس في مشكلة.

بادر "عادل" بالسؤال سريعًا:

- مشكلة إيه يا دكتور؟

أجاب الطبيب وهو ينظر لهم بحزن:

- ممكن الجلطة تثبت في اليد ويفقد القدرة على إنه يحركها، وده بنسبة ٥٥%، ونسبة رجوعها لوضعها الطبيعي ٤٥%. لكن حتى لو تعالجت بعلاج طبيعي بعد العملية، برضه مش هتكون زي الأول. لكن العملية إن شاء الله سهلة، هنحتاج حد يمضي على الأوراق الخاصة بالعملية.

تبادلوا النظرات، بينما "حسناء" التي فقدت قوتها على الوقوف، خارت قواها ووقعت أرضًا بتعب، وهي تخفي وجهها بكلتا يديها، وتبكي بقهر على ابنها.

و"أحمد" الذي جلس أرضًا، وضم رأسه إلى قدميه، محتضنًا نفسه ببكاء، وبجانبه "جميلة" التي تربت على كتفه.

بدأت العملية بعد مدة، والكل جالس يبكي، والصمت يعم المكان.

"هاجر" التي فقدت الوعي بعد حديث الطبيب، ظل "عادل" جالسًا بجانبها حتى أفاقتها. أما "حسناء"، فكانت ما زالت تبكي في أحضان "عشق" بتعب وحزن.

و"أحمد" الذي جلس مستندًا رأسه على كتف والده، وهو يبكي بصمت، و"جميلة" تجلس بجانبه وتبكي هي الأخرى.

في الزاوية، كان "إسلام" واقفًا يقرأ القرآن الكريم ودموعه تهبط بهدوء. بينما "عز" كان يجلس محتضنًا "زينة "، التي انهارت من كثرة البكاء، وهو الأخير يخفي بكاءه ويظهر صموده كأخيه "أمير"، الذي كان يطمئن الجميع بأن كل شيء على ما يرام.

"سيف" كان مستندًا على "سليم"، وكل منهم في مكان آخر، والظلام يحيط بهم ودموعهم تنهمر بتمرد.

تحدث "عادل" بهدوء وهو ينظر لـ"ياسر":

- هيعيش، صح؟ أصلاً مينفعش،ازاي طيب أنا أنا ملحقتش أعرفه. أنا غلطان إني سيبته.

ربت "ياسر" على يديه وهو ينظر له بأسف:

- الأعمار بيد الله، إن شاء الله هيقوم.

ظل الوقت يمر عليهم كالسنين، لا أحد يعلم متى سينتهي هذا الانتظار، وكيف ستكون النتيجة. لكن قلوبهم، التي لا تكاد

تستريح، تبكي وتعتصر الآلام على صديقهم. كأن القدر كتب عليهم أن يعيشوا معلقين بين الأشياء، لا يرضون بما يحدث،

ولا يحدث ما يرضيهم.

خرج الطبيب من الغرفة، فأسرع الجميع نحوه ينتظرون إجابته، بحياتهم جميعًا.

تحدث الطبيب بهدوء:

- العملية نجحت، لكن كما قلت، لازم يفضل هنا تحت الملاحظة. الدم اللي فقده مكنش قليل، هنسيبه تحت الملاحظة في العناية. ادعوله ربنا يقومه بالسلامة، وهونوا على أنفسكم، الأعمار بيد الله، وإحنا منعرفش هل حالته هتستقر ولا لأ.

فور انتهاء حديثه، صدرت صرخة من "سما" التي كانت تمسك بجسد "سيف" وهو فاقد للوعي، ومن الجهة الأخرى، وقعت "حسناء" أرضًا مغشيًا عليها.

أفاق "سيف" بعد مدة والجميع يقف حوله. تحدث بتعب:

- "محمد" كويس، صح؟

أومأ له والده وهو يربت على يده بهدوء، لكن عينيه كانتا تعرفان أنهم لا يعلمون شيئًا عن حالته.

شعر بآلام يسري في جسده وهو يفتح عينيه بهدوء. وجد الأجهزة متصلة بجسده وابتسم بهدوء وهو يحدث نفسه:

- هو في إيه؟ أنا بسبع أرواح ولا إيه؟

ابتسم على حديثه وهو يتذكر ما حدث له. حاول النهوض لكنه شعر بتعب وثقل في يده اليسرى، فتنهد بألم شديد وهو يطلب الطبيب ويضغط فوق الجرس.

دلف الطبيب بسرعة وهو يبتسم له قائلاً بهدوء: «الحمد لله على سلامتك.» أجاب "محمد" بتعب وهو يحاول الصمود:

- الله يسلمك، بس دراعي ده مش حاسس بيه، لكن كتفي بيوجعني أوي.

ابتسم له الطبيب بهدوء:

- كل ده هنعرفه، بس مش دلوقتي.

لم يكد يكمل حديثه حتى وجد الباب يفتح ويدلف منه الجميع.

نظرت له "حسناء" والدموع تنهمر على وجنتيها بصمت تام:

- أنا آسفة، أنا بحبك أوي أوي. متسبنيش تاني، علشان خاطري متزعلش مني.

نظر لعينها الحمراء المتورمة، ورجفة يديها التي أمسك بها، وهو يقول:

- بتحبيني بجد؟ صدقيني، مش هتفرق معايا لو بتكدبي، غير إنّي هكرهك.

تحدثت وهي تمسك بيدها:

- بحبك

أجابها بغزل وهدوء، وهو ينظر في عينيها: «فكيف يحزن قلب أنت ساكنة؟ وكيف يجرع نبض أنت نجواه؟ وكيف تبكي عيون أنت روايتها! وفي عينيك كل الهم انساه!»

وجد جسد "حسناء" الذي ضمه بشوق وحنان:

- أنت كويس، صح؟ انت بخير يا حبيبي؟

أومأ لها وهو يحتضنها بيده اليمنى:

- الحمد لله، أنا كويس، متقلقيش عليا.

تحدث وهو يمسك بيد "هاجر" عندما لاحظ وجود "مصطفى وسوزي":

- لو لسه على كلامك يا "هاجر"، يبقى فرحنا بعد أسبوعين مع "سيف وأحمد". موافقة ولا رجعتي في كلامك؟

أومأت له بهدوء وهي تمسك بيده.

بينما كانت نظرات الجميع تتبدل حولهم، ينظرون إليه بسعادة، وآخرين بحمد أنه أفاق، ونظرات أخرى كارهة وحاقدة.

البارت التاسع عشر

" أسطورة أكتوبر"

تقول الأسطورة إن أكتوبر هو شهر الوقوع في الحب، فلماذا لا أقع إلا في المصائب؟

بعد مرور يومين من دخول "محمد" إلى المستشفى، كان يجلس بغرفته يستمع لحديث الطبيب الذي تنهد بهدوء وهو يشرح له الأمر بنبرة هادئة:

- قبل ما أقولك الحالة، لازم تعرف اللي حصل تكونت جلطة في الذراع الأيسر وللأسف مقدرتش تلاحظ الأعراض زي تغيّر اللون أو التورم، لما جيت المستشفى، كانت الجلطة وصلت إلى الرئة اليسرى وده اللي خلانا نتدخل جراحياً الفترة الجاية ذراعك مش هيكون زي الأول وهتحتاج علاج طبيعي.

لم يكن الحديث يؤثر به سلباً، بل كان يستمع بوجع. كان يتخيل أنه سينهار، لكن برودة أعصابه التي اكتسبها من الأيام ولحظات الخذلان جعلته بلا مشاعر. سأل بصوت خافت:

- هو سؤال واحدأنا هافضل مش بحرك دراعي يعني؟ بمعنى أدق دراعي ضاع كده؟

رد الطبيب بنفس الهدوء وهو يمسك بذراعه:

- دي جلطة مش شلل، متخلطش بين الموضوعين أنا قولتلك إن ده بأمر الله، وبنفسيتك وعلاجك وانتظامك مقدرش أحدد لك، لكن ها تابع معاك كل التحركات والإذابات اللي هتحصل.

تنهد الطبيب وهو يشرح له الأمر مرة أخرى:

- بص، دراعك مش هيوقف، لكن هيحصل تنميل بسيط في دراعك، وها يوقف شوية وده بيتغير من شخص للتاني

نظر محمد لذراعه بعتاب ومسح فوقه بهدوء:

- حد عرف الموضوع ده غيري؟

أجابه الطبيب وهو يدون حالته في الدفتر:

- آه، اعتقد والدك علشان كان لازم ناخد موافقة من حد من أهلك، كلهم عارفين على الأغلب.

خرج الطبيب بعد أن شكره "محمد" بهدوء، نظر إلى يده مرة أخرى وتحدث كأنه يحدث إنساناً:

- حتى إنتِ بتخونيني؟! إخص عليكي ده إحنا عشرة ٢٣ سنة. ماشي، وحيات أمك بس تتعالجي، وها طلع عين أهلك، ها اشتغل بدراعي الشمال بس.

لم يكمل حديثه حتى وجد "أحمد" يدخل من الباب كعادته منذ دخوله للمستشفى، يأتي إليه كل يوم ليطمئن على صديقه.

قال أحمد بمرح وهو يقترب منه ليصافحه بسعادة:

- وحشتني يا جدع والله.

ابتسم محمد على حديثه لكنه وجد نفسه يتساءل بشيء آخر:

- "أحمد"، هو أنا بارد؟؟، بس بأمانة؟

تملك أحمد نفسه ولم يعرف بماذا يجيبه، فقال:

- ليه بتقول كده يا عم؟ ماهو احنا اتعودنا على برودك.

ضحك محمد بصخب على حديثه، لا يعلم إن كان هذا شيئاً يحزن أم لا:

يعني أنا بارد؟ أصلاً الدكتور لسه قايللي إن دراعي ها يوقف عن الحركة شوية لو ما مشيتش على العلاج. كده ممكن يقف خالص، وأنا ما زعلتش.

مسح أحمد على خصلات محمد بهدوء وهو يبتسم قائلاً:

- لا يا حبيبي، مش حوار برود، بس انت اتعودت .

ابتسم محمد بهدوء على كلمات صديقه الذي يقف دائماً بجانبه ويدعمه ولا يتخلى عنه:

- عارف، أنا بحبكم كلكم بجد. إحساس إني ما ليش حد غيركم أصلاً. بس إنت بجد عمري ما هقدر أرد أي حاجة انت عملتها، انت مش صاحبي بس، انت أخويا، وابني، وأوقات بحس إنك أبويا. ربنا يديمك ليا يا صاحبي.

لم يجد أحمد أي كلمة تعبر عن شعوره سوى احتضان محمد. تلك الرسالة التي يوصلها الجسد للجسد بكل معاني الحب

والطمأنينة والمواساة التي يريدها. قال بعد أن ابتعد قليلا
دخل "سيف" بصحبة "عز" و"سليم"، وهم يتحدثون بثرثرة كعادتهم.

قال سيف بهدوء وهو ينظر لصديقه:

- حمدالله على سلامتك يا عم، قلقتنا عليك.

بدل سليم الحديث وهو يجلس بجانبه:

- بصراحة، ما كنتش أعرف إنك مهم كده، يا عم ده أنا اليوم ده أكلت ٦ مرات، بس تخيل؟

نظر له محمد باستهجان:

- ٦ مرات بس؟! لا ده أنا أثرت فيك أوي.

ثم قال لهم:

- طالب منكم طلب بقى، أنا مش طايق المستشفى دي بصراحة، وبعدين أنا تمام وها تابع مع الدكتور فمالهاش لزمة المستشفى.

قال عز باستهجان وهو ينظر له بغباء:

- انت عبيط يا "محمد"؟ يا بني انت وراك حاجة؟ خليك هنا.

ألقى محمد الوسادة في وجهه:

- هي فسحة دي؟ مستشفى هفضل أعمل إيه هنا؟ وبعدين في حوار برة لازم أغيره بنفسي لما أخرج.

دخل "إسلام" قاطعاً حديثهم:

- متخفش، الدكتور عملك إذن خروج، تقدر تخرج عادي.

ابتسم له "محمد" قائلاً بمشاغبة:

- تسلم والله، بتحل حاجات من غير ما تعرفها.

صافحه "إسلام" وهو يجلس بجانبه:

- حبيبي والله، دد أقل ما عندي.

قال سيف بمشاغبة وهو ينظر لهم بنظرة متفحصة:

- انتوا خلاص كلكم هتعملوا أفراحكم؟ وأنا ماليش دعوة يعني؟ أستاذ "محمد" ربط على كتب كتاب، و"أحمد" فرح، و"سليم" خطوبة، محدش هيعمل سبوع معانا؟

صدح صوت ضحكاتهم يملأ المكان، رغم وجودهم في المستشفى، إلا أن حديثهم لم يهدأ وظلوا يضحكون ويمرحون معاً فقد استمر حديثهم وضحكهم، وكأنهم في مكان بعيد عن الألم والمرض.

بعد مرور بعض الوقت، خرج الجميع لتجهيز الأوراق اللازمة لإخراجه من المستشفى.

قطع الصمت صوت طرقات على الباب، فُتح بعدها ودخلت "رزان" بخطوات ثابتة، وما إن رأت حالته حتى أسرعت إليه لتحتضنه، لكنه دفعها بعيداً عنه بعنف، لتجد نفسها تبتعد غاضبة.

تشبثت بالمقعد بجانبها كي لا تقع، وابتسمت بحزن دفين قائلة:

- على العموم، كنت جايه أطمن عليك بس.

أجابها باقتضاب وهو يعدل جلسته:

- شكراً يا رزان على سؤالك.

نظرت إليه بتساؤل وحزن يلمع في عينيها، وسألته:

- ليه ما بتحبنيش؟ أنا بحبك، ليه ما تحبنيش؟

رد بغضب وهو يمسك يدها بقوة:

- اقفلي على الحوار ده، لا بحبك ولا هحبك. إنت معندكيش كرامة؟

انهارت دموعها على وجنتيها، وارتفعت شهقاتها وهي تنظر إليه وقلبها يئن تحت وطأة كلماته، قالت بصوت مرتجف:

- بحبك، وده مالوش علاقة بكرامتي أنا مش وحشة والله، بطلت حاجات كتير علشانك لو على باباه، زي ما ابوها عمل فيك . أبويا وأمي عملوا أنا هقاطعهم مش هكلمهم تاني، بس إنت تكون معايا.

شعر بغصة في صدره وهو يراقب توسع بؤبؤي عينيها من الألم. أدرك حينها أنه ربما أخطأ في حق تلك التي أحبته بصدق. قال بهدوء يشوبه الأسى:

- مش بإيدي، الحب في القلب، يمكن في حد تاني بيحبك، وإنتِ بتحبيني، يمكن فيكي كل حاجة صح، بس أنا بحبها هي مفيش حد بيتحكم في قلبه، يا "رزان".

ابتسمت وهي تنظر إلى الفراغ أمامها قائلة:

- مكنش نفسي كل ده يحصلربنا يقومك بالسلامة حتى لو مش معاك، برضه مش ضدك، يا "محمد" يمكن في يوم تحبني، يمكن تشوفني كويسة، بس أوعدك إنك هترجعلي تاني.

خرجت مسرعة من الغرفة، وتركته يراقب رحيلها باستغراب واندهاش، مستنكراً حديثها وكل ما فعلته منذ البداية. أمسك بدفتر كان بجانبه وبدأ يدوّن، محاولاً تفريغ ما في قلبه من مشاعر مكبوتة:

"أرغب في ترك كل شيء، بداية من اسمي، وهويتي، ويومي، وأحلامي، ثم أمضي بلا وجهة نحو مكان أجهل معالمه، رغبة عارمة في محو وجودي واختفاء ذكرياتي من هذا المكان."

ترك القلم من يده ونهض من مكانه، ناظراً إلى المرآة أمامه. بدا وجهه وقد استعاد لونه تدريجياً، وبدأت عيناه تعودان إلى حالتهما الطبيعية. كل شيء بدا وكأنه عاد لطبيعته، ما عدا هذا الذي يقبع في صدره؛ فقد شعر أن قلبه، لو كان يستطيع التحرر من قفصه الصدري، لخرج من مكانه من شدة الألم والحزن. أمسك بيده اليسرى وراح يمسدها، ثم رفعها إلى الطاولة، فرأى كوباً من الماء، فقرر أن يختبر يده بمحاولة الإمساك به. أمسك بالكوب وقربه منه، لكنه شعر بارتجاف شديد في يده، فحاول تثبيتها بذراعه اليمنى، إلا أن الارتجاف استمر.

وضع الكوب أمامه واحتسى منه، لكن يده عادت للاهتزاز فسقط الكوب وتهشم، وتناثرت قطع الزجاج الصغيرة أمام عينيه. حدق فيه بتعب ومسح وجهه بعنف، ثم جلس على الكرسي غارقاً في التفكير؛ هل أصابته لعنة حقاً؟ لا بد أن يتعافى في أسرع وقت. فهو لا يحتمل أن يفقد يده هذه المرة.

قطع شروده صوت طرقات على الباب، ودخلت "هاجر" بابتسامة مشرقة تزين وجهها، على عكس الأيام الماضية. كانت ترتدي كنزة بيضاء وفوقها قميص أسود، وسروالاً أسود من القماش.

اقتربت منه وجلست على المقعد أمامه، وابتسمت بهدوء وهي تسأله:

- إنت كويس النهاردة؟ الدكتور بيقول إنك ما كنتش مستجيب لأي تدخل لما كانوا في العملية.

أجابها بتعب وهو يمرر أصابعه في خصلات شعره:

- كويس الحمد لله، تفتكري كنت هستقبل العلاج ليه؟ ما كانش عندي أي هدف أقوم عشانه، حتى إنت ما كانش ليا أي سبب للبقاء، عينيك في النظرة الأخيرة كانت خالية مني.

تلاشت الابتسامة عن شفتيها ونظرت إلى النافذة وقالت:

- أنا مكنتش قصدي ولا كلمة كنت بموت كل مرة بفكر إننا مش هنبقى مع بعض أصلاً يومها كنت جاية ليك، لكن "ميرنا" قالت لي إنك هنا "محمد"، أنا بحس بالأمان معاك وده معناه إني بحبك.

قطع شرودها حديث "محمد"، الذي تنحنح بلطف ونظر إليها بهدوء قائلاً:

- تيجي نهرب؟

ردت وهي تضم حاجبيها باستنكار وتقرب المسافة بينهما:

- نهرب فين؟

أجابها برفع كتفيه بتلقائية:

- معرفش، نهرب إلى ظهر غيمة؛ إلى عمق المحيط، أو حتى إلى صفحة منسية في كتاب قديم. نهرب إلى الخيال، حيث يسعنا كل شيء هناك.

ابتسمت وهي تستمع لحديثه وشعرت بقلبها ينبض بفرح وعينيها تتلألآن، ثم قالت:

- بس الهرب أوقات مش بيكون حل.

ابتسم وهو يفكر:

- يمكن، بس حتى لو اتعافيت هنا وكل ده اتحل، تفتكري هكمل هنا؟ في يوم هارجع سالم من كل اللي أذاني، بس عمري ما هرجع طبيعي، ولا هرجع زي ما كنت.

أجابته بمشاغبة وهي تتناول قطعة فاكهة من أمامها:

- مش مهم نهرب سواء عادي تبني هنا حياتنا لوحدنا بعيد عن الدنيا دي كلها، كأننا عايشين لوحدنا.

وبينما كانوا يتحدثون، سمعوا طرقات الباب ودخلت "حسناء" بابتسامة مرحة، وجلست بجانب "محمد" قائلة:

- وحشتني والله، يا صاحبي!

ردت "هاجر" باستنكار:

- صاحبك؟!

ابتسمت "حسناء" ببرود وضمت كتف "محمد" نحوها:

- أيوه صاحبي، إحنا أصحاب. أصلاً، يرضيكي الأخ ده يبقى ابني؟ ده أطول مني!

ضحك "محمد" وصفق بيده على يدها بصخب:

- بصراحة، أنا مش مقتنع. المفروض الأم تبقى ست كبيرة كده. لكن إنت أصغر مني!

تغزته "حسناء" بخفة وهي تنظر إليه بنظرة مشاغبة:

- يعني إيه بقى؟ أمك غصب عنك، احترم نفسك شوية.

سألت "هاجر" بفضول وهي تستمع:

- صحيح، إنتِ خلفتي "محمد" وإنتِ عندك كام سنة؟

تنهدت "حسناء" وهي تسحب خصلات شعرها خلف أذنها بهدوء:

- والله يا بنتي، أنا اتجوزت صغيرة أوي، وده كان بسبب غباوتي الصراحة، خلفت الكائن ده وأنا في آخر شهر من الثامن عشر.

تحدث "محمد" بدهشة واستغراب:

- إيه؟ ١٨!! لا، كده أوفر الحقيقة. يعني، ده أسلوب؟ تسرعي في جوازك منه وهو يتكلم صوت يوصل آخر القاهرة!

أطلقوا العنان لضحكاتهم، ولكن قاطعهم دخول "عادل" المفاجئ.

تقدم "عادل" نحوه بحدة وهو يقول:

- إيه؟ المستشفى بقت تضحك، ولا إيه؟ مين بقى اللي عايز يخرج؟

أشار "محمد" إلى نفسه بابتسامة باردة وقال:

- أنا اللي عاوز أخرج، وجاهز خلاص.

أنهى كلماته ونهض من مكانه، حينها اقترب "عادل" ليساعده، لكن "محمد" سحب يده بسرعة وقال بجفاء:

- شكراً، أنا بعرف أتحرك كويس. ليه كلكم بتتعاملوا معايا كأني مش بعرف أمشي؟ دي مش رجلي يا جماعة، دي دراعي والله.

تراجع "عادل" ونظر إليه ببرود:

- تصدق إني غلطان إني حاولت أساعدك أصلاً؟ أبو شكلك مورثتش مني غير طول اللسان!

ضحك "ياسر" الذي كان واقفاً بجانب أصدقاء "محمد" وقال:

- أهم حاجة إنك اعترفت إنه وارث منك طول اللسان.

ردت "حسناء" وهي تصعد إلى السيارة:

- أكيد مش مني، أنا كيوت. إنما الراجل ده فعلاً لسانه طويل.

نغزتها "هاجر" في كتفها بمشاغبة:

- اهدي شوية، ما هو هيموتنا كلنا في الطريق.

بعد قليل، كان "محمد" يجلس في المقعد المجاور للسائق، حيث كان "عادل" يقود السيارة.

همس "عادل" لنفسه بتمتمة قائلاً:

- أجيب آخرك بس لحد ما تفوق، وأنا هعرف كل حاجة صبرك عليا، يا محمد.

ابتسم "محمد" ببرود وهو يحدق في الطريق أمامه:

- هو إنت ناوي تفضل تفتش ورايا كده؟ بلاش، علشان ما تلاقيش نفسك واحد من أخطائي .

ابتسم "عادل" بنفس الاستفزاز الذي يبدو متوارثاً في العائلة:

- ماشي، هشوف نفسي فيهم حلو، ولا الصورة مش واضحة.

تدخلت "حسناء" بفضول وهي تميل بجسدها ناحيتهما:

- بتقولوا إيه يا آخر صبري؟

أجابها "عادل" باقتضاب وهو يعتدل في جلسته:

- ملكيش دعوة، ارجعي ورا، إحنا مش في بلكونة!

نظرت له بغضب وعادت لمقعدها:

- كدد كده هعرف من ابني الحبيب، اخرج منها إنت.

في هذه اللحظة، استدار "محمد" برأسه نحو "هاجر" وقال مستفسراً:

- هو إنتِ رجلك مكنتش وجعاكي امبارح؟

أجابته "هاجر" بدهشة:

- لا، مكنتش وجعاني ليه بتسأل؟

رد بهدوء محاولاً أن يكون رومانسي:

- أصلك رايحة جاية في خيالي من امبارح، فقلت أسأل تكوني تعبتي.

نظرت له بغضب واستفهمت بجدية:

- مش فاهمة، وبعدين إنت بتقول لغز!

تدخلت "حسناء" ضاحكة، وهي تشرح:

- يقصد إنك كنتي في خياله، يعني بيقولك رجلك ما وجعتكيش من المشي في خياله بس، هو فعلاً أوفر!

وصلوا أخيراً إلى الوجهة، حيث أصر "محمد" على العودة إلى منزله، رافضاً البقاء في منزل "عادل" كما كانت تنوي "حسناء".

بعد قليل، كان "محمد" يحتسي قهوته وهو يستعد للخروج. نظر إلى الكوب في يده وقال مع نفسه:

- إحنا متفقناش تبقى زيهم لازم أطلعه، بس إيه يضمن إنه ما يبلغش عني؟

ابتسم بمكر، وفجأة تطرقت إلى ذهنه فكرة، فتوجه إلى جهازه اللوحي، وضغط بعض الأزرار ثم بدأ في تشغيل مجموعة من الفيديوهات للطبيب "يحيى"، وهو يوقع على أوراق مزورة للمرضى ويتلقى مبالغ مالية مقابلها، كما ظهرت مقاطع له مع بعض المريضات في أوضاع مشبوهة.

جلس "محمد" في سيارته متأملاً تلك الفيديوهات التي تكشف جرائم "يحيى". كان يرغب بشدة في إنهاء حياته، لكنه أدرك أن قتل شخص مثله لن يتركه مذنبًا أمام الله فحسب، بل سيحمله أعباء أثقل.

بدأ يقود سيارته ببطء مستخدمًا يده اليمنى فقط، وسخر من حاله بصوت منخفض:

- مش اعتراض والله الحمد لله، بس كده بقيت قطع غيار خالص يعني. كنت زمان فرس وأديني اتكسحت... كله من عيون الناس، بس برضو والله قمر، خمس عليا الله أكبر.

وصل إلى المخزن المهجور ووقف أمامه للحظات، ثم فتح الباب ليجد "يحيى" نائمًا بعمق على كرسي خشبي متهالك. سخر منه بابتسامة باردة:

- يعني أنا ماليش لازمة؟ خاطفك وبصرف عليك وعامل فيها الجوكر، وأنت نايم؟ ده إيه البرود ده؟

استيقظ "يحيى" مرعوبًا، ونظر إلى "محمد" بنظرات متعبة، ثم تحدث بصوت ضعيف:

- جيت تقتلني؟ موتني وخلص بقى أحسنلك.

اقترب "محمد" منه ببطء، قائلاً ببرود:

- لا مش هقتلك مفيش فايدة أصلاً، وتفتكر إني هاخليني مذنب عشانك؟ يا راجل، لو هقتل حد لازم يكون ليه قيمة.

تنهد "محمد" بعمق وأضاف:

- أنا هسيبك تمشي، لكن لو فكرت تبلغ عني عارف هاعمل إيه؟

قال "يحيى" بلهفة:

- أي حاجة، أي حاجة بس سيبني أمشي من هنا، أوعدك مش هبلغ عنك بشرفي.

ضحك "محمد" بسخرية:

- شرفك؟ خلينا نصدقك! شايف الفيديوهات دي؟ دي فديوهات بتثبت إنك مزور تقارير، مرتشي، وبتعتدي على مرضاك. كله هيتقدم للبوليس وهيتنشر على النت كمان.

تلعثم "يحيى" بخوف:

- ده كده ضياع أنت بتضيعني!

ثم أخرج بعض الأوراق من حقيبته وألقاها أمام "يحيى":

- دي شيكات بـ٥ مليون دولار. هتمضي عليهم، وبعد كده تقدر تمشي. لكن أي حركة غلط وأنا هوديك ورا الشمس.

بعد تردد، أمسك "يحيى" بالعصا على الأرض وحاول مهاجمة "محمد". ولكن الأخير كان أسرع، فالتف خلفه وقبض على عنقه بغضب، قائلاً من بين أسنانه:

- لو فاكر إنك تقدر تضحك عليّ، تبقى بتحلم. أنا بسيبك علشان ولادك. لكن أنت اللي جبت دا لنفسك.

ألقى به "محمد" على الأرض، واستدار ليتصل بصديقه "حسام".

فتح "حسام" المكالمة بعد لحظات، قائلاً:

- حمد لله على سلامتك يا وحش.

رد "محمد" بابتسامة باردة:

- الله يسلمك. فاكر دكتور "يحيى" بتاع القضية بتاعتك؟ معايا كل اللي يثبته فديوهات وتسجيلات. تيجي تاخده ولا أبعتلك إياه؟

أجابه "حسام" بهدوء:

- سيبه وأنا جاي. بس ياريت تتهدى شوية.

أغلق "محمد" الهاتف ونظر إلى "يحيى" قائلًا بمرارة:

- رغم إني كان نفسي أرجعك لأولادك، لكن مفيش حد هيقدر يعيش وأنت أبوه. حتى ولادك ملهمش ذنب في اللي عملته.

ترك "محمد" المكان وخرج بخطوات ثابتة، متجهًا إلى سيارته، متأملًا اليد التي سببت له أول مشاكلها الآن، ومعها شعور غامض بالرضا والمرارة في نفس الوقت.

صعد "محمد" إلى سيارته مجددًا وقادها بهدوء نحو منزل "يحيى". بعد قليل، وصل إلى المنزل، وطرق الباب بخطوات ثابتة. فتح الباب على يده الصغيرة التي كانت تقف أمامه. حملها بذراعه اليمنى بلطف وهو يسألها بمشاغبة:

- فين ماما يا دودو؟

أجابته، وهي تشير بإصبعها الصغير إلى شفتيها المجروحة:

- ماما جوة، وانت مين اللي ضربك زي ماما كده؟

عقد حاجبيه بتعجب وقال:

- ماما هي اللي ضربتك؟ مش فاهم الحقيقة؟

همست له بخوف:

- لأ، ده بابا هو اللي بيضرب ماما ويخليها تعيط زي ما إنت متعور كده.

شعر "محمد" بلهيب يحترق داخله، فهذه الصغيرة تتحدث عن شجارات والدها ووالدتها كأنها أمور عادية.

استفسرت زوجة يحيي بحيرة:

- ويحيى فين؟ مجاش معاك ليه؟

أجابها ببرود، وهو يضعها على الأرض:

-في مكانه الطبيعي في السجن.»

صدمة اعتلت وجهها وهي تحدق فيه، وكأن بؤبؤي عينيها سيفران من مكانهما:

- سجنته!؟ إنت اتجننت؟ ليه كده بس؟ حرام عليك!

لم يستطع "محمد" كتم غضبه، ألقى بزجاجة كانت في يده على الأرض، متحطمة إلى شظايا صغيرة، وارتفع صدره وهبط بانفعال شديد، قائلاً بصوت متهدج:

- ومش حرام لما كان يرجع بعد كل اللي عمله؟ مش حرام لما يضربك قدام ولادك ويعقدهم؟ مش حرام إنه يخونك ويخون العهد اللي أقسم عليه؟ مش حرام إن ولادك كانوا يعيشوا معاه أكتر من كده ويدمرهم؟

بدأت دموعها تنهمر، وأجابت بصوت مخنوق:

- عارفة والله عارفة، بس أعمل إيه؟ أعيش إزاي؟ ولادي هحميهم إزاي؟ لو الموضوع اتعرف، أول واحد هيفكر في إيذائنا هو "أنس". أعمل إيه؟

أخرج "محمد" بعض الأوراق من حقيبته وقال:

- دي تذاكر سفر، والطيارة هتقوم بعد ساعة إنتِ ملكيش حد هنا اهربي، ابعدي بولادك، ارجوكي ما تخليهمش يعيشوا حياة زي حياتي هاجي أزورك كل ما تقدري، وأي حاجة تحتاجيها، أنا مش هسيبك لوحدك.

نظرت له بتردد، ثم تنهدت بعمق وتوجهت إلى داخل المنزل لتحضر حاجيات أطفالها. بعد قليل، انتهت من تجهيز الحقائب، و"محمد" يراقبها بصمت.

سألته وهي تضع الحقيبة في سيارته:

- دراعك في إيه؟ حصل له حاجة؟

ابتسم بهدوء وقال:

- ولا حاجة، جاتلي جلطة من كام يوم أثرت عليه شوية، بس الحمد لله. إن شاء الله يتحسن.

نظرت له بحزن وقالت:

- إن شاء الله. أنا واثقة إنك هتعدي من كل ده.

اكتفى بابتسامة صغيرة، ثم قاد السيارة في صمت.

عند وصولهم إلى المطار، قام بوضع الحقائب في الخزينة، ثم أخرج ورقة وهاتفًا من حقيبته، وقال لها:

- دي ورقة فيها عنوان البيت اللي قدرت أشتريه ليكِ هناك، مش كبير، بس أحسن من هنا. وده موبايل، فيه شريحة عليها رقمي، ورقم ضابط هيقدر يساعدك هناك تلاقي شغل أو أي حاجة تحتاجيها. أتمنى ما تشوفوش حاجة وحشة. خدي بالك من نفسك ومن الولاد.

انهمرت دموعها وهي تودعه بهدوء:

- خد بالك انت كمان من نفسك، ووعدني تحافظ على حياتك. مش هنسى أبدًا اللي عملته معايا. أشوف وشك بخير.

انحنى "محمد" ليصافح الطفلين بحب، ثم قبلهما برفق، وقال لها:

- أوعدك، هحاول أحافظ على نفسي.

لوّح لهم وهم يبتعدون باتجاه الطائرة، تاركينه وحيدًا عند البوابة. خرج من المطار، يمسح دمعة سالت من عينيه بهدوء، مستعيدًا صلابته وهو يغادر المكان.

دلف "سليم" إلى المطبخ بهدوء، حيث وقفت "جني" بجانب "ميرنا" تعدّ الطعام. اقترب منها وحاول أن يلفت انتباهها بحمحمته، لكنها استدارت بغتةً لتنهال عليه بضربة خفيفة:

- يخرب بيتك! حرام عليك، اتفزعت!

ضحك معتذرًا وهو يقضم من شطيرة أمامه:

- معلش، حقك عليا.

نظرت إليه مبتسمة، ثم علّقت بتهكم:

- والله، هسامحك عشان انت أهبل بس.

رفع حاجبيه متفاجئًا:

- أهبل؟! شكرًا يا أستاذة "جني".

بينما كا يحاول استيعاب ما تقوله، صحت به فجأةً وكأنها تعيده من شروده:

- إنت يا بني رحت فين؟ بقولك إيه بتسرحلي كده ليه؟ أنا بصراحة مش بحب النحنحة دي، ده غير إنها حرام!

أخذ نفسًا عميقًا ثم قال بابتسامة، وكأنه يستدعي بعض الشاعرية:

- لما شوفتك، حسيت إنك مش غريبة عني أبدًا. كأننا تقابلنا في زمن آخر… يمكن في العصور الوسطى، أو في عصور ما قبل التاريخ؟ بصراحة، بحس إنك زي أمي!

حدقت فيه باستنكار وابتعدت ضاحكة:

- أمك!؟ الله يسامحك بجد.

بينما أخذ "سليم" قضمته التالية، تمتم بتهكم:

- مالها دي؟! هو أنا مش بعاكسها دلوقتي؟

في مكان آخر، كانت "جميلة" تحدّق في الورود أمامها بشرود، بينما اقترب منها "أحمد" وهو يحمل ورقة يسجل عليها تفاصيل حفل الزفاف. بادرها مبتسمًا:

- جميلة.. سرحانه في إيه؟

التفتت إليه مبتسمة وقالت:

- ولا حاجة، بفكر في تفاصيل حياتنا الجاية.

اقترب منها أكثر، وكأنه يحاول أن يطمئنها من قلق خفيّ يتسلل لقلبها:

- أنا مش عايزك تخافي من حاجة. لما الواحد يرتبط، لازم يكون مطمّن للإنسان اللي معاه، لو فكرت إنك هتعيشي في قلق من الخيانة أو الزعل، يبقى مش بتحبيني أنا لما قررت نتجوز، كنت عاوزك تكوني جنبي بدون شروط عاوزك تكوني واحدة من الناس اللي بشوفهم كل يوم، واحدة من اللي بحضنهم ويحضنوني، لو حد قال لي إننا مش هنكون مع بعض، كنت هعافر الدنيا كلها علشان بس تبقي معايا.

ابتسمت بخجل من كلامه العميق وقالت بمشاغبة:

- مش بحبك من فراغ، خد بالك!

جلس "أحمد" على الأرض واستعاد أول مرة تحدث فيها معها، بينما كان يبتسم لها بعشق:

- فاكرة أول مرة اتكلمنا لما أنقذتك من الغرق؟

نظرت إليه بشغف وقالت:

- لأني أحب الغرق، وكانت عينيك أول بحر أغوص فيه..

تركها تبتعد بابتسامة ساحرة، ونظر إليها قائلاً بهمس لنفسه:

- جميلتي الجميلة.

على الطرف الآخر، كان "إسلام" يؤدي بعض التمارين الرياضية عندما نظر إلى والده "جمال" وقال بمزاح:

- قول يا "جيمي"، إيه إحساسك وانت شايفني بكون أسرة وزي القمر كده؟

نظر إليه "جمال" بملل وهو يعبث بهاتفه:

- ولا طايقك ولا طايق الأسرة، أنا مش فاهم خلفتك إزاي أصلاً. كنت فاكر هتفضل عيل نلعب مع بعض، لكنك طلعت حلوف!

رمقه "إسلام" باندهاش، وقال وهو على وشك الانفجار:

- أنا حلوف!؟ مش المفروض تبقى فخور بيا وتقول إنك مطمن عليا قبل ما تموت؟؟

اتسعت عينا "جمال" برعب وقال بعصبية:

- موت!؟ يعني عاوزني أموت!! أكيد جايبني هنا علشان تقتلني، وبعدين لما تقع أمك تعرف، تخلص عليها هي كمان، وتدفنا هنا وتروح تقول إننا اختفينا، وتاخد الفلوس وتصرفها انت ومراتك وتبقى مدمن وبعدين مراتك تحمل، تضربها وتسقط، وتفضل تندم وتبلغ البوليس وتخلص على نفسك! صح؟

انفجر الجميع بالضحك من خيال "جمال" الذي انساب بلا حدود، بينما كان "إسلام" يصفق ساخراً، لا يدري من أين جاء كل هذا السيناريو إلى عقل والده.

دلفت "هاجر" إلى الغرفة وهي تحمل صينية فوقها أكواب من المشروبات الغازية، وقالت بنبرة مفعمة بالإعجاب:

- انت عبقري!؟ بجد تنفع مؤلف عظيم.

بينما وضع "محمد" صينية أخرى عليها بعض الشطائر السريعة قائلاً بابتسامة:

- معاكِ "جمال" للإخراج والتأليف، أراهنك لو اشتغل هينافس "مدحت العدل".

ضحكت "سما" وهي تجلس بجانب "حسناء" و"عشق" قائلة بمرح:

- اخرجوا من الجلسة دي! دي جلسة سرية للنساء. قولي لي يا خبيرة، بما إني داخلة على جواز، إزاي أكون زوجة مسيطرة!؟

ابتسمت "حسناء" وهي تقلب قلماً بين يديها قائلة:

- والله يا بنتي كان نفسي أفيدك، بس أنا متجوزة واحد ما يقدر عليه غير اللي خلقه، ربنا يهده أو يهدي، أيهم أقرب.

تعالت ضحكات الفتيات، بينما كان "محمد" يراقبهن بسخرية قائلاً:

- كان لطيف، دلوقتي بقى محدش يقدر عليه غير ربنا!؟

اقترب "أمير" من "محمد" وسحبه بعيداً وهو يصرخ لبقية الشباب:

- يلا يا جماعة، سيبوهم يتفقوا علينا براحتهم.

لوحت له "جيداء" مازحة:

- تسلم يا "أمير" يا زوجي الحبيب.

أما "سيف" فألقى نظرة عميقة على "سما" قبل أن يرحل قائلاً بغزل:

سمائي عيناكِ داري ودار السلام، وأنت البداية ومسك الختام.

ابتسمت "سما" وأرسلت له قبلة في الهواء:

- حبيبي والله، أنت مسك الختام كله. بس بوس إيدك، كفاية كلام، نشيلتنا ذنوب الدنيا كلها!

بعد أن غادر الشباب، اقتربت "زينة" منهن قائلة:

- إن شاء الله، عندنا فرح قريب، وبدل الفرح ثلاثة. لسه قدامنا أربع شهور، بس هنبدأ نجهز من دلوقتي.

ابتسمت "عشق" بسعادة قائلة بمرح:

- ونجهز إزاي؟ أيام زمان، كنا بنحتفل ونغني ونرقص كل يوم لحد الفرح.

ضحكت "جنى" بمرح وهي تقف بجانبها قائلة:

- حلو، أنا عاوزه من ده. أصلاً بحب الرقص والهيصة، أعشق المرح يا جماعة!

دفعتها "عشق" بملل قائلة:

- اعملي حسابك يا بنتي، بعد أربع شهور هبقى حماتك، ولو هتخدي ابني فلازم تحسني معاملتك معايا، عشان مظهري وسط الحموات ما يبقاش وحش!

نظرت إليها "جني" بدهشة وهي تنهض من مكانها قائلة بتهكم:

-حماتي!؟ يا "عشق" إنتِ أصغر مني وبعدين حماتي إزاي، وأنتِ و"ياسر" عليكم رومانسي بتفقع مرارتي!؟

ضحكت "حسناء" على الحديث قائلة بمرح:

- والله كلامها صح، الكلام ده مش بينا يا "هجورة". إحنا أصحاب، هبيع "محمد" عادي في الخناقات وهفضل معاكي.

ابتسمت "هاجر" وضربت كفها بكف "حسناء":

- اتفقنا، بس حرام "محمد" طيب. أنا هتصرف معاه، هقوله لازم تتعامل معايا بشكل أحسن!

أمسكت "جميلة" بالقلم وبدأت تدون المطلوب للاحتفال:

- أنا هاكتب بقا كل اللي هنعوزه هنا علشان نشتري ونجهز وكده. الفرح لازم يكون أحلى من كل الأفراح، وبالمرة نعمل مفاجآت للجميع.

تحدثت "سما" بقلق ونبرة حزينة:

- أوعدوني، حتى بعد جوازنا أو ارتباطنا بشغل، نفضل مع بعض!؟

احتضنتها "زينة" من الخلف بهدوء، وهي تمسد خصلاتها السوداء:

- لا متخفيش، إحنا هنفضل معاكي دايمًا ربنا أذن بوجودنا سوا، ومش هنسيبك. حتى لو جوزتي وعيالك يتجوزوا، هتبقي تيته واحنا معاكي.

بينما عند الشباب، كان "أمير" يتحدث بهدوء وعقلانية كعادته، وهو ينظر لـ"محمد":

-أنا عارف إنك لسه متعافيش من كل اللي حصل زمان، وفوقه كل اللي بيحصل دلوقتي، بس واثق إنك أقوى من كل ده. إن شاء الله هتنتظم على العلاج وترجع أحسن من الأول. أوعدني إنك هتابع مع الدكتور؟

أومأ "محمد" برأسه ببطء، وقد غلبت عليه مشاعر الحزن والقلق:

- أوعدك، هحاول انتظم، هحاول ألتزم بالعهد اللي كان بينا.

تحدث "سيف" بهدوء، وهو يتأمل الوجوه حوله:

- بقولك إيه، حوار "قاسم" ده مش داخل دماغي الولد ده بحارة عايمة ومش هيرسى على بر إحنا لازم نكون حذرين.

نظر "أحمد" لـ"سيف" بثبات، معبرًا عن قلقه:

- قلت لـ"محمد" قبل كده مليون مرة، الأستاذ ده من ساعة ما عرف إنه مش ابن "أنس" وهو سايق فيها. أنت مامن لـ"قاسم" ده إزاي؟ كفاية إنه تربى على يد "أنس".

تحدث "أمير" بهدوء وهو يحتسي من كوب القهوة أمامه:

- بس أنا حاسس إن الولد دد هيفوق لينا ومش هيمشي وراء "أنس". يبدو من بدايتها إنه نبهك من حوار السلاح والمخدرات اللي حطوه في الاستوديو.

ابتسم "محمد" بسخرية، وهو يسحب لفافة التبغ بين أصابعه ببرود:

- متنبهرش بالبدايات، أنا عارف إن "قاسم" بتاع حوارات وقليل الأصل، ولا فرق معاه إن "قاسم" قتل أهله وكل ده. هو ليه حق يحب "أنس" ويعتبره أبوه، لكن هيتفق معانا لأ، وهيستعيد توازنه في النهاية.

تحدث "سليم" بوضوح وهو ينظر له بستنكار:

- وأنت عارف كل ده، ليه بتهوّدوا؟ أنت غبي بصراحة، ميتين غبائك!

رد "محمد" وهو يلقي الوسادة في وجه "سليم":

- ما هو يا غبي كانت ورقة كسبانة وجربتها. لو بدأت في العداء معاه، هبقى أنا الغلطان. خليك ماشي وراء المراكب السايرة لحد ما تجيب آخرها، وأنا بحري ملوش آخر.

نظر له "عز" بتفاهم وهو يستلقي بارتياح:

- كلامه صح. الولد ده بقى من ضمنهم خلاص. وبعدين حوار جوازك ده هيقومهم أكتر، خصوصًا أهلها.

تفاهم "إسلام" مع حديثهم وهو يستمع بهدوء:

- أهم حاجة دلوقتي إن الورق اللي بأسماء شركات أبوك "ياسر" وأبوه "عادل" تتسحب منهم. احنا لازم تأمن نفسنا. مش معنى إن ورانا "حسام" والحكومة يبقى لا. متنسوش إن احنا كلنا، بما فيهم "حسام"، شغالين كده من غير أي إثباتات. يعني، ولا أنت ضابط ولا وكيل نيابة ولا حتى قاضي.

نهض "محمد" من مكانه وهو يأخذ هاتفه:

- بقولك، أنا ها طير أوصل "هاجر" واروح لـ"نبيل"، وبعدين نتكلم.

ألقي عليهم التحية وهو يخرج من الغرفة، فيما تبقى باقي الشباب في صمت متأملين، كل منهم حمل همومه وأحلامه، لكنهم متفقون على شيء واحد: الصداقة ستظل دائمًا هي الحصن الذي يحميهم من جميع المصاعب.

هبط "محمد" من المنزل والتقى بـ"هاجر" التي تحدثت بهدوء مستفسرة:

- هي "حسناء" مشيت؟

أومأت له برأسها بتؤدة، وتنهدت وهي تسير بجانبه:

- أه، عندها شغل وحاجات، مشيت إنت إيدك أخبارها إيه؟

ابتسم وهو يفتح لها باب السيارة:

- تمام الحمد لله، أنا مش مشلول يعني الحوار بس تنميل وكده لما أمسك في حاجة أو أشد أعصابي .

تحدثت "هاجر" بثقل وهي تقترب من المقعد:

- محمد، هو أنا السبب في اللي حصل لك؟

نظر لها بهدوء، عارفًا القلق الذي يتسرب إلى داخلها، فدهمها بسؤال أربك مشاعرها:

- لا، أنت عمرك ما كنتي أذية لأي حد. "هاجر"، أنتِ بتحبيني، صح؟

أجابته بهدوء وسرعة، لأول مرة تعترف بحبه هكذا:

- إنت مش حد أنا بحبه أو بحلم أكون معاه، إنت ابني وأخويا وأبويا، وكل حاجة. أنا حاسة إني مسؤولة منك، إنت ابني الصغير.

نظر لها بغباء مستنكر من حديثها:

- ابنك الصغير!؟ طيب يا ماما، نروح علشان ورنا حضانة.

تعالت قهقهاتها وهي تخفي وجهها بيدها من كثرة الضحك.

تحدث بتأمل وهو ينظر في عينيها بشرود:

- ربنا يقدرني وأبسطك طول عمري، ولحد آخر نفس فيا. ما كانت إلا ملاكًا لا شبيه لها، وتدعي إنها كالناس إنسانة!

انتهى حديثهم بالتزامن مع وصولهم لمنزلها.

صدح صوت "مصطفى" من الجهة الأخرى:

- أهلا! كان ممكن تباتي برا أحسن.

نظر "محمد" لساعته في معصمه:

- صاصا الساعه ٥ العصر، انتوا بتناموا بدري أوي كده؟!

أجابه الأخير بستنكار، وهو في نفاذ صبر:

صاصا؟! يارب صبرني! يارب، هيشلني! ياخي حسبي الله ونعم الوكيل فيك، ياريتني موتك وارتحت من غباءك.

ابتسم "محمد" ببرود وهو يهبط من السيارة:

- مقبولة منك يا حمايا يا حبيبي، عارف لو كنت موتني كان زمانك زعلان. كنت هتلاقي زيي بالله عليك. وبعدين مش خايف أروح أقول لبابي على كلامك ده؟

خرج "عمر" من الجهة الأخرى جانب والده:

- بابا، أنا عاوز أخرج أنا ويزن. إيه ده، هاجر ومحمد، وحشتوني والله؟

نظر له والده بستنكار، وهو يسحب خصلاته للخلف بعنف:

- أنا عملت إيه في حياتي يا رب علشان يحصل لي كل ده؟

صدح ضحكات "محمد" وهو يصعد لسيارته:

- قول معملتش إيه يا صاصا، ده انت الشيطان يقولك يا عمو.

تركهم ورحل متوجهًا لمنزله، منهكًا بعد هذا اليوم المتعب.

قطع شروده رنين الهاتف بجانبه. نظر للشاشة فأتاه اسم "أبو غضب":

- أعوذ بالله! عادل ده ليه كده؟

تحدث للجهة الأخرى:

- إيه في مصيبة تانية؟

أجابه الأخير ببرود:

-لا يا ابتلاءي، مفيش مصائب، أمك عزماكم بكرا. فقولت أحذرك علشان اليوم يعدي على خير.

استنكر "محمد" من حديثه:

- ابتلاء، أنا ابتلاء، يا اب على ما تفرج، ياخي أنا غلطان إني رديت عليك.

صاح الأخير من الجهة الأخرى:

- قسم بالله لو كنت كاتم وقافل الموبايل دلوقتي، كنت هخلص عليك برصاصة في دماغك تجيب أجلك. ده أنت بلا تربية. والمصحف.

أغلق الهاتف بسرعة وهو ينظر في أثره ببلاهاء:

- يارب الصبر! إيه الأب العره ده، أنا ناقص قرف.

هبط من سيارته فوجد منزله مضاءً بالأضواء من الداخل. ارتسمت على شفتيه شبح ابتسامة فور دخوله، وجد "قاسم" يجلس فوق الأريكة بأريحية.

تحدث بقرف وهو يلقي بقدم الأخير من فوق المنددة:

- زريب، إلى خلفك، نزل رجلك بدل ما توحشك.

تحدث الأخير باقتضاب وهو يعدل من جلسته:

- أنا مش لعب، مش هبيع أبويا. ودلوقتي حالاً ها تقولي. إنت عرفت منين إني مش ابنه؟

ابتسم "محمد" وهو يجلس بجانبه يحتسي من مشروبه:

- تعرف الكام يوم اللي عدوا؟ شفت عجائب الدنيا كلها، أول مرة أشوف صرصار بيتكلم.

أردف مكملًا حديثه:

- ومع ذلك هقولك، عارف إنك زبالة ومش هتسيبه، مع إنه قتل أهلك، بس انت معندكش دم ولا شرف، فما مستغرب.

بدأ يقص عليه ما حدث، عائدًا للماضي.

كان يقف بعيدًا عنهم مختبئًا بالجدار، يختلس السمع لحديثهم.

تحدث "حسن" بمكر:

- وبعدين مين اللي ها يروح يستلم الشحنة؟ إحنا لازم تجيب حد جديد ومش معروف. "أنس" متودي الولد "قاسم"!؟

تحدث الأخير بغضب وهو ينهض من مكانه:

- بتقول مين!؟ ابني! عاوزني أودي ابني للموت؟ باديا متودوا أي حد. ابعت "محمد"، وحتى لو مات نبقى ارتحنا من أهله.

أجابه "حسن" بشماتة، وهو ينظر له بغيظ:

- ابنك! إحنا ها تصيع على بعض، أنت مبتخلفش وضاحك على مراتك، ومفهمها إن العيب منها. ده ابن "رائف" اللي أنت قتلته هو ومراته، واخدت ابنهم.

قذفه الأخير بالكوب الزجاجي أمامه:

- ابني غصب عنك وعن اللي يتشدد ليك. والولد اللي جوا ده هو اللي هيروح، مات في ستين داهية، عاش يبقى ربنا مش راضي لي الرحمة.

أفاق "محمد" من ذكره، وهو ينهي حديثه بينما الأخير كان ينظر لحديثه بصدمة.

تحدث "محمد" بتجاهل وهو يلقي بنظراته للأخير:

- لا، ده أبويا إنت قلت على "نوح" أبوك، مع إنك معيشش معاه إلا ٥ سنين. أنا عشت معاه عمري كله إنت كداب، أنا "قاسم انس الجبالى"، برضاك أو بغصبك.

نظر له الأخير بستنكار، وهو يبتسم بسخرية، ويضم حاجبيه بامتعاض:

- أبوك أه؟! إلي علمك الكدب والإجرام وقتل الناس، أبوك، إنت أحقر بني آدم عرفته في حياتي إنت حتى الحيوانات فيها دماغ عنك.

هرب الأخير من حديثه، بينما "محمد" أمسك بالوراق أمامه، وهو ينظر لتاريخ اليوم: ٢٠٢٣/١٠/١٠. ابتسم بسخرية لهذا الشهر، وهو يدون في دفتره:

«مازالت مشتت يا أكتوبر، كما عهدتك منذ زمن. تائه مثلي، تائهون معا بالمنتصف بين شتاء ماطر وصيف مشمس! وكأنك تشبه قلبي، الذي طالما لقيته تائه بين حزن وسعادة بلهاء.

رمادي بين خير وشر. لم أتلبس لون ملاك أبيض، ولم أكن أسود كقلب شيطان. مازالت رمادي تلك السعادة تأتي للحظات، وكأن لم يعصف به الحزن حد الألم، ولم تغمره السعادة حد الاكتفاء. إنه ببساطة مثلي، نختار دائما منتصف الأشياء ونتوه بها.»

نظر للتلفاز أمامه الذي كان يعرض آخر الأخبار عن الأحوال في بلده وبلادنا فلسطين، وتذكر موته هناك من قبل. نعم، فـ"محمد نوح الرشيد" الذي يعيش باسمها الآن توفي وهو في الثامنة من عمره في القدس على يد الاحتلال الإسرائيلي. شعر بآلام شديدة في قلبه، يعقبها آلام في يده.

«آه يا فلسطين، آه يا وطني، وآه لكل العالم! سلام على قلوبكم حتى تهدأ. سلام على قلوبكم حتى تطمئن، سلام على فلسطين وعلى القدس حتى تسعد. السلام لأرض السلام».

أنهى نظره لنشرات الأخبار التي لا تنتهي، ونهض من مكانه، لكنه تصنم عقب صدور دقات الباب.

ابتسم وهو يتجه للباب:

- مصيبة إيه التانية دي؟ أكيد مصيبة، مستحيل تكون هدية مثلًا.

فتح الباب ليتفاجأ باثنين من ضباط الشرطة أمامه. تحدث الضابط:

إنت "محمد نوح الرشيد"؟ معانا أمر باستدعائك للنيابة، إنت متهم في جريمة قتل.

ابتسم بغباء وهو ينظر لهما، ثم أغلق الباب:

- أنا جاي معاكم والله، وحشتوني.

وبينما استدار ليعود إلى الداخل، غزت مشاعر القلق عقله. تساءل عن الأسباب التي قد تكون وراء هذا الاستدعاء. هل يتعلق الأمر بالماضي، تلك الذكريات المظلمة التي كانت تطارده باستمرار؟ أم أن هناك شيئا جديدا قد حدث؟

البارت العشرون

" ماذا لو عاد معتذراً؟ "

أخطر ما يمكن أن يخلقه المجتمع هو شخص ليس لديه ما يخسره، والأسوأ من ذلك، شخص علمته الأيام ولم يجد مأوى.

فإذا اجتمع الاثنان في شخص واحد، بات صعبا على أي شيء أن يحطمه، وهكذا بدأت أسطورته.

توقف في مكانه وهو يهبط من عربة الشرطة، محدقًا في المكان بلا مبالاة اكتسبها من مرارة الأيام.

قطع عليه الشرود صوت الضابط "لؤي"، الذي بدا عليه البرود وغموض الملامح.

"لؤي البغدادي"، ضابط شرطة في منتصف عقده الثالث، طويل القامة، عريض الجسد نتيجة لعمله المرهق. له عينان سوداوين قاتمتان وشفاه بارزة بلون داكن، يكتسي شعره ولحيته بالسواد، ويتميز ببشرة قمحية. شخصية صارمة، عنيدة، لا يحب التفاهم، وجدية تُشعر من حوله بالسيطرة.

- إزيك يا "محمد"، مش "محمد" برضه؟

حدق به "محمد" ببرود، متفحصًا شخصيته التي بدت له حادة وغير متفهمة:

- "محمد" أيوة أقدر أعرف أنا هنا ليه؟

جلس "لؤي" وهو يحتسي مشروبه ببرود:

- أكيد مش جايبينك عشان نتملا من حلاوتك. تقدر تقولي تعرف إيه عن "الأستاذة عايدة" وابنها "معتز" اللي تم الإبلاغ عن جريمة قتلهم من شهرين؟

أجابه "محمد" بثبات وهو ينظر إلى عينيه ببرود:

- والله زي ما قلت لحضرتك قبل كده، أنا مهندس معلومات وصوتيات، وكنت بعمل تركيب لشبكات ومشاريع هناك، ولما دخلت البيت بلغت عن الجريمة، ومافيش أي صلة بيني وبين مدام "عايدة"، الله يرحمها.

ابتسم "لؤي" بسخرية، زافراً بقوة مخرجاً دخان سيجارته التي قضت نحبها بجوار شقيقتها في المطفأة:

- ماشي، هعمل مصدقك، بس انت وراك حوار، وصدقني هجيب آخره.

بادله "محمد" بسؤال ببرود وهو يتكئ على المكتب أمامه:

- هو اسم حضرتك إيه؟

صدح صوت "حسام" بجانب "الأمين محمود"، الذي كان يحمل حامل الأكواب المليء بساندويتشات الجبنة والطماطم:

- اسمه "لؤي" يا "محمد"، اسمه.

انطلقت ضحكات "محمد" رغم محاولته كبحها:

- أنا آسف والله، بس أساميكم متنفعش لشرطة مدرسية حتى يعني "لؤي" و "حسام"، طيب مفيش حد تاني؟

أجابه "حسام" وهو يجلس على المكتب ويضع ساندويتش بيد "محمد":

- اللواء بتاعنا القديم كان اسمه "تامر"، والمفاجأة أبوه كان اسمه "حسني".

رد "محمد" بابتسامة ساخرة على حديثه:

- نجم الجيل معقولة ده؟ بقولك خلي الباشا يدور كويس في قضيته ومش كل شوية تزعجوني.

تحدث "حسام" بجدية وهو يضع الساندويتش في يد "الأمين محمود":

- اتفضل يا "محمود"، خليهم تأكلهم مع الشاي بلبن "لؤي باشا"، أتمنى من حضرتك متتهمش الناس البريئة بالكذب وتجيبهم كل شوية هنا، وخصوصاً صديقي "محمد".

رد "لؤي" باستهجان وفظاظة:

- صاحبك! طيب مع إني شاكك فيكم انتوا الاتنين، وأوعدك يا حضرة الضابط إن نهايتك هتكون على إيدي.

تجاهل كلاهما حديثه، وخرجوا معًا بهدوء، حتى استدار "محمد" متوجهًا بكلامه إلى "لؤي" بفظاظة ووقاحة:

- مع عدم احترامي، ما اتشرفت بلقائك ولا كانت فرصة سعيدة. وأتمنى إني مشوفش وش حضرتك تاني. ها، فرصة حزينة.

في الخارج، تبادلوا النظرات المستعجبة مما حدث. كانت نظراتهم مشتتة، ورغم صمودهم في اللحظة السابقة، اهتزت مشاعرهم بخوف؛ فالكشف عن أمرهم سيضع كلاً منهما في مسألة قانونية. فهما يعملان معًا منذ عامين، فريق "محمد" بجانب "حسام". تذكر "محمد" لقاءهما الأول، عندما دخل إلى مكتب "حسام" لأول مرة.

‹فلاش باك›

كان يجلس في أحد النوادي الليلية، في حالة مزرية؛ عيناه المتعبتان محمرتان، تتراقصان في كل اتجاه بسبب سكره الشديد. احتسى الكثير من الخمر، وجسده الهزيل أضفى عليه مظهرًا مرهقًا ومتهالكًا، يكاد بؤبؤ عينيه يخرج من محجره من شدة تحديقه في المكان.

كان يسترجع كل شيء مر به: سعادته عندما قُبِل في كلية الشرطة، تلك المهنة التي كانت حلمه وحلم والده وأسرته البسيطة. كان والده موظفًا حكوميًا في مصلحة الكهرباء، ووالدته ربة منزل يشهد لها الجميع في الحي بطيبة قلبها. أما شقيقته الصغرى "تليد"، فقد كانت زهرة المنزل والحي بأكمله. رغم بساطتهم وظروفهم المتوسطة، كانت عائلته تنعم بالسعادة، لكن كل شيء تبدل في يوم واحد.

كان ذلك عندما عمل على أول قضية له، تتعلق بعصابة تتاجر بالآثار. بفضل شجاعته، أمسك بزعيم العصابة، لكن القدر لم يكن رحيمًا. فقد هدده زعيم العصابة بأن يُلحق الأذى بأسرته إن لم يتراجع عن القضية، لكنه لم يتراجع. وفي يوم النطق بالحكم، كان ذلك اليوم بداية الجحيم؛ قُتل والده وسط الشارع، واختطفت شقيقته التي كانت تبلغ ثمانية عشر عامًا، واشتعلت النيران في منزلهم، فماتت والدته في اليوم ذاته.

في لحظة واحدة، فقد دفء أسرته وعطفها، ودّع والديه إلى مثواهما الأخير، وبعد شهر بلغه خبر وفاة شقيقته المختطفة. من يومها، تغيّر الضابط المجتهد الذي كان مليئًا بالحيوية إلى شاب تائه، يتسكع بين الحانات، مع الراقصات والخمر وفتيات الليل. لقد غيّرت تلك اللحظة حياته من كل جوانبها، ودمرتها.

ولكن، في إحدى تلك الليالي المظلمة، التقى "محمد". أفاق من شروده على صوت سحب "محمد" للكرسي، حيث جلس بجواره، يقلب سيجارته بين أصابعه، ويتمتم: «يا ليل، هبني من سكونك ساعة، فلقد مللت ضجيج قلب مثقل.»

ابتسم له "حسام" وهو يحدق بعينيه المتورمتين من البكاء :

- ياه، لسه في حد بيتكلم بالفصحى؟ عارف، أبويا كان بيحب يتكلم بيها.

اختل توازنه وهو ينهض، لكنه وجد يد "محمد" تسانده ليجلسه على أقرب كرسي. تحدث "حسام" بتلعثم من أثر السكر:

- عارف أبويا؟ متعرفهوش، بس هو مات، آه وامي كمان ماتت قدامي وهي بتتحرق، عارف "تليد"؟ كانت زي القمر، قتلوها، كسروا قلبي ليه مقتلونيش أنا؟ ليه أعيش وأتعذب كده أنا ضابط، بس أنا ضعت.

ثم واصل حديثه بصوت يكاد يقطع حباله الصوتية من شدة الصراخ:

- كلكم زبالة، كلكم أوسخ من بعض أنا السبب، أنا اللي ضيعتهم، أنا هقتلكم كلكم، أنا اتجننت أنا ضعيف وغبي، كان لازم أخاف عليهم، كان لازم أموت معاهم أنا مكاني مش هنا.

ظل يصرخ ويتعثر، حتى انتهى به الأمر بأن يبيت في منزل "محمد". في اليوم التالي، لم يتركه "محمد"، واستمر على هذا الحال معه لأسبوع، داعمًا ومؤنسًا بعد أن تخلى عنه جميع أصدقائه، وحتى خطيبته التي تركته عند معرفتها بما حدث.

كان "محمد" هو الدعم الذي احتاجه، الغريب الذي وجد لديه الأمان، على الرغم من أن "محمد" لم يشعر بالأمان في حياته قط. وهكذا، بعد شهرين، سافر "حسام" إلى بيت الله الحرام ليقوم بعمرة ويطلب المغفرة من الله، متمنيًا أن يتوب الله عليه ويغفر له زلاته. وعندما عاد، أصبح هو و"محمد" صديقين، وبدأت رحلتهما في الانتقام ممن ألحق الأذى بهم. كان "محمد" يتعقبهم ويوقع بهم، و"حسام" يتولى القبض عليهم ووضعهم في المكان الذي يستحقونه.

‹باك›

ابتسم "حسام" مسترجعًا تلك الذكريات، بينما كان "محمد" يحدق به بغضب واضح لرؤيته مبتسمًا.

صرخ "محمد" وهو يضرب بيده على الطاولة، مما جعل "حسام" يرتد للخلف ويسقط فوق الكرسي:

- انت يا بني آدم، أنا بقولك بنروح في داهية، وانت بتضحك؟!

رد "حسام" بتهكم وهو يسحب ساندويتش من يد "محمود":

- في إيه يا عم؟ هو هيهددنا ولا إيه؟ متخفش، انت معاك حضرة الضابط "حسام"، يعني الداخلية يا بني.

كان "محمد" يرمقهم بغضب من تصرفاتهم غير المسؤولة، فتدخل "محمود" وهو يمد يده بساندويتش آخر:

- امسك يا بشمهندس، كل حاجة هتتحل، بس كل الأول ولا يهمك.

ابتسم له "محمد" بامتنان:

- عارف يا "محمود"، انت الوحيد اللي مخليني أحس إني لسه مهندس. ده أنا نفسي قربت أنسى.

أشار له "حسام" بالشكر بإيماءة، بينما "محمد" سحب الساندويتش من يده وهو يغادر:

- حسبي الله ونعم الوكيل فيكم. كان يوم أسود يوم ما عرفتكوا.

غادر القسم، وأخذ سيارة أجرة إلى منزل "نوح". كم اشتاق إلى ذلك المنزل! اشتاق لكل زاوية وكل قطعة أثاث، لجدرانه التي

تحمل ذكرياتهم. لقد أصر على شراء تلك الشقة من عائلة "هيثم" بعد وفاته، فكان أول من تقدم لشرائها، كأنه يشتري ذكرياته.

وضع المفتاح في القفل، ينتظر فتح الباب. وبالفعل، لحظات وفتح الباب أمامه، كاشفًا عن منزله. ظهرت راحة نفسية على وجهه عند رؤيته للمنزل، وذكريات بدأت تحلق أمامه. تلك الصور التي عادت لتبث الحياة من جديد، "نوح" يقف هنا، يعلمهم الصلاة، ويمارس معهم الرياضة، ويطهو لهم الطعام، وهناك "هيثم"، كالعادة، منغمس في قراءة رواياته. سحره الخاص كان في القراءة. كل جزء من الجدران، كل شبر، حتى الهواء في المنزل، مشبع بذكرياته.

ابتسم وهو ينظر إلى شيء ما أمامه، وكأنه وجد ضالته. صورة لمراهق يبدو لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، يرتدي سترة بيضاء، وابتسامته الصافية تزين وجهه الهادئ؛ بشرته السمراء بجانب عينيه البنيتين، وخصلات شعره البنية المتدلية على وجهه تجعله يبدو كالملاك. وضع يده على الصورة، وأصابعه تحيط بملامحه بحنان.

"اطمئن، لقد حملت اسمك، وأحتفظت بك دائما في دعائي. ابتسم، فلم أنسك يوما في سجودي. يكفي أنك منحتني فرصة العيش بشخصيتك، حتى وإن لم نلتق، فأنا أعرفك من قصص الجميع عنك. يبدو أنك كنت ستكون شخصا أفضل مني بكثير، لكن لا تقلق، سأحاول الحفاظ على اسمك.»

نعم، كما توقعتم، هذا هو "محمد نوح الرشيد"، ذلك المراهق الذي انتهت حياته في ليلة واحدة على يد احتلال غاشم، بلا رحمة. والدته "سهيلة"، فلسطينية الجنسية، تزوجت من "نوح"، المراسل الصحفي المصري، وأنجبا "محمد" بعد عام من زواجهما، وبعد عامين أنجبا طفلهما الثاني "هيثم". لكن خبر استشهاد عائلة "سهيلة" كان كالصاعقة التي سقطت على رؤوسهم. اختلت موازين أسرتهم عندما رفض "نوح" العودة إلى فلسطين، خوفًا على حياة زوجته وأطفاله، لكن "سهيلة" والقدر كان لهما رأي آخر. فرت "سهيلة" بابنها الأكبر "محمد" إلى فلسطين، في محاولة لإقناع زوجها بالعودة معها، لكن ما حدث كان استشهاد "سهيلة" و"محمد" هناك على يد الاحتلال.

زفر بقوة، مخرجًا أنفاسه بصعوبة، وهو ينظر إلى غرفته القديمة. دخل إلى الغرفة بهدوء، ناظرًا إلى فراشها الذي ما زال نظيفًا منذ آخر مرة قام بتنظيفه. استند على ذراعه الأيمن وألقى بجسده على الفراش. سمع صوت اصطدام الخشب بالأرض من قوة ارتطامه.

نظر للفراش ببلادة، ثم نهض بانزعاج:

- إيه الرخامة دي؟ قطعت جو ذكرياتي يا جدع!

ارتد للخلف فجأة، بسبب صوت صراخ مدوٍ من الخارج. خرج بسرعة يلتهم الأرض تحت قدميه. فتح الباب ووجد طفلة صغيرة جالسة، تضم ركبتيها إلى صدرها بخوف، وتحتضن نفسها بشدة، ويدها تغطي أذنيها، تتمتم بكلمات غير مفهومة، ودموعها تنهمر بخوف.

اقترب منها بهدوء، واستند بيده ليجلس بجانبها. وضع يده فوق كتف الصغيرة، فارتدت للخلف برعب، لكنه بادر بلمسها برفق:

- متخافيش، في إيه بس؟

قطع حديثهما دخول شاب بملامح حزينة ومتعبة من باب البناية. اقترب من الصغيرة بهدوء، وضمّها بحنان، ثم نظر إلى محمد باستغراب، مستنكرًا وجوده:

- محمد إنت؟ إزاي هنا؟

ابتسم محمد وهو يدخل الشقة برفقة الشاب، ناظرًا إلى الطفلة:

- كنت جاي أشوف البيت، إنت فين يا عم عبدالله، وفين "غفران" أختك؟

ارتسم شبح ابتسامة على شفتي عبدالله الذي نظر إلى الصغيرة بحزن وحنان، بينما يمسح على خصلات شعرها السوداء:

- غفران استشهدت هي وجوزها "يعقوب" من شهرين ودي بنتهم "دنانير".

اتسعت عينا محمد بتحديق، غير مستوعب أن رفيقة دربه، الفتاة الحنونة التي كانت تعاملهم بروح الأمومة رغم فارق السن الصغير، قد رحلت.

أما عبدالله، فانهارت الدموع من عينيه الخضراوين، وبدت ملامحه الهزيلة كأنها لا تحتمل عبء الحياة بعد فقدان شقيقته الكبرى، التي كانت بمثابة أمه. فكان رحيلها القشة التي قسمت ظهر البعير.

بدأت الصغيرة التي كانت جالسة في حضن عبدالله تتحدث، وهي تمسح دموعها وتدفع خصلاتها إلى الخلف:

- هو ده مين؟ هو من الناس اللي قتلوا بابا وماما؟

ضمها عبدالله بشدة، ودموعه تختلط بخصلاتها السوداء:

- لا يا حبيبتي، متخافيش، ده صاحبي وجارنا، مش وحش، متخافيش.

تحدثت الصغيرة بخوف وهي تقترب من محمد، تتفحص ملامحه بيدها الصغيرة:

- إنت مش زي اللي قتلوا بابا وماما، دول قتلوا أصحابي كمان.

ارتسم شبح ابتسامة على وجه محمد وهو يضمها برفق، يمسح على خصلاتها:

- لا، متخافيش مين اللي قتلوهم؟

مسحت دموعها بهدوء ونظرت إليه:

- بابا وماما كانوا بينقلوا الأخبار في بلدنا، فلسطين. بابا وجدتي من هناك. هي حلوة أوي، بس فيها ناس وحشين ومش بيحبوها. بابا كان دايمًا يقول عليهم.

فكرت في المصطلح الذي كان يستخدمه والدها حتى تذكرت، وابتسمت ابتسامة مليئة بالدموع:

- الاحتلال، بابا كان بيقول احتلال مسكوا أصحابي عشان أهلهم كانوا بيدافعوا عن حقهم، وبعدين، فجأة لقيت مدرستي مش موجودة، الأرض كلها تهدت، وميس تسنيم راحت السما، ووتين وكل أصحابي.

ضمها محمد بقوة، كأنه يريد أن يحميها من العالم القاسي الذي يسلبها براءتها. أما عبدالله فكان يقف جانبه، يحاول أن يخفي دموعه، لكن كيف يمكنه كتم حزن يختنق به؟

تابعت الصغيرة، تمسح دموعها من على وجهها الذي احمر من أثر البكاء، وقالت:

- بس القصف كان مستمر، بابا كان دايمًا يقول إن صاحب الحق لا يخاف، لكنهم راحوا لربنا بعيد وسابوني لوحدي.

ارتفعت شهقاتها وهي تخفي وجهها بيديها. ضمها محمد بقوة، وكأنه يحاول إخفاءها عن هذا العالم الموحش الذي يعذبها، ثم قال بلطف وهو يمسح دموعها:

- عارفة إنك قوية جدًا؟ بابا وماما عند ربنا، يعني في أحسن مكان في الدنيا. أنا عارف إنهم وحشينك، لكن حتى لو مش هتشوفيهم، هما شايفينك. وأكيد زعلانين عشانك إنتي وعبدالله بتعيطوا.

في تلك اللحظة، اقترب عبدالله، ودفن وجهه في حضن محمد، يمنع نفسه من تذكر فقدان شقيقته. ثم قال:

- انا مش هسيب "دنانير" أبدًا، دي بنتي وأختي. عمري ما هتخلى عنك يا حبيبتي، إنت عوضي عن أمي اللي شفتها سنة واحدة بس، وعوض عن أختي اللي استشهدت من غير ما أودعها.

أغمض محمد عينيه بشدة، محاولا استيعاب هذا الكم من المعاناة التي يعيشها هو وأصدقاؤه. يا الله، حتى عبدالله، هذا الشاب الخجول المتفوق، الذي فقد والدته بعد ولادته بعامين، ثم والده وهو في الرابعة عشرة، فتكفلت شقيقته بتربيته

ورعايته حتى فقدها أيضا.

بعد مرور بعض الوقت، كانت الصغيرة نائمة بسلام في غرفتها، تحتضن نفسها بهدوء.

أما "محمد"، فجلس مع "عبدالله" يحكي له كل ما مر به خلال الفترة الماضية، محاولًا تهدئته بكل الطرق. أخذ نفسًا عميقًا، ثم نظر إليه بهدوء:

- عارف إن اللي حصل صعب عليك، وعارف إنه شبه مستحيل تتخطى كل ده. لكن عارف كمان إن البنت دي مالهاش حد غيرك في الدنيا، وعارف إنك قوي ولازم تكمل علشانك وعلشانها. الحياة مرات كتير بتكون مُرة، الفراق مُر، والحروب مُرة، والموت مُر، والشوق مُر، والنوم مُر، وحتى حياتك لما تكون بعيد عن اللي بتحبهم مُرة. كل حاجة تسرق الإنسان من نفسه ومن الأيام ومن اللي بيحبهم، بتمسي مُرة.

خفض "عبدالله" رأسه، محاولًا مسح دموعه بقوة:

مش قادر دي بنتي وأختي وأمي، مش كانت مجرد أخت، دي كانت دنيتي كلها يا "محمد" لكن هحاول أكون قوي علشان بنتها، علشان ده قدري المكتوب، وعلشان لازم أعيش اللي متقدرلي. بس انت ما تبعدش تاني، وضروري نتقابل قريب.

صافحه "محمد" بابتسامة حانية، ووعده بلقاء قريب. عاد صديق الطفولة الذي كان يمده بالدعم والقوة، وعاد معه شعور الأمان الذي كان يحتمي به عبدالله في أشد أوقاته ضعفًا.

بينما كانت "هاجر" تدلف إلى المنزل بجانب الطفل الصغير "يزن"، كان يبتسم ببراءة وسعادة وهو يحمل حقيبة مليئة بالألعاب، مظهره كزهرة يانعة تعكس جمال الطفولة. ولكن سرعان ما اختفت الابتسامة من وجهه عندما سمعا أصوات الصراخ والهتافات المتصاعدة من داخل المنزل.

خفضت "هاجر" رأسها نحو الصغير وأمسكت بيده بحنان، محاولة تهدئته بينما هو يتراجع للخلف من شدة الصوت. قالت له بصوت دافئ وهادئ:

- بص يا "يزن"، يا حبيبي، اطلع فوق في أوضتك وما تخرجش غير لما أجي آخذك معايا علشان نقابل "محمد" تمام؟

أومأ الطفل برأسه بلطف، وركض سريعًا إلى غرفته. أما هي، فتنهدت بعمق وتوجهت نحو الداخل وهي تعلم جيدًا ما ينتظرها من مواجهات.

في الداخل، كان "مصطفى" واقفًا بغضب شديد وهو يحدق في "سوزان" بنظرات لاذعة، غير مكترث بتواجد "هاجر" التي تتابع المشهد بقلب منفطر. تحدث "مصطفى" بصوت غاضب:

- مين اللي وصل الأمور لكده؟ مش انت ؟ طمعك وغيرة قلبك اللي خلوا ابنك يضيع، وبنتك اللي راحت تحتمي بابن "عادل" بدل ما تلاقي الأمان عندك. عمرك ما فكرتي تهتمي بيهم بجد ولا تحبيهم زي ما يستحقوا لو كنتي بس فكرتي في ولادك مرة، مكنش كل ده حصل.

ردت "سوزي" بسخرية وهي تتخصر وتضع يدها على خصرها، رافعةً حاجبها باستهزاء:

- يا سلام على الأب المثالي! مش حاسس بالخجل من نفسك؟! أنا اللي بقى غلطانة دلوقتي، وانت؟! فاكر كام مرة خونتني؟ كترهم منعك من العد؟ انت أب أناني وطماع، أسوأ حاجة حصلت في حياتنا بنتك دي اللي شافت المرار على إيديك، ومش عاوزها تدور على الأمان في مكان تاني؟ طبيعي تشوفني الوحشة، بس انت أسوأ من كده بكتير.

قطع صوت صياح ابنتهم الحديث، حيث تدخلت بصوت مرتجف محاولة إيقاف الشجار:

- كفاية بقى، حرام عليكم! كفاية اللي عملتوه فيا وفي أخويا، سيبوا الطفل ده يعيش بسلام، ميعديش حياتنا تاني أرجوك يا "عمر"، خد "يزن" وامشي من هنا، بلاش تخلينا نعيش نفس الجحيم اللي عشناه. أرجوك.

تجاهل "مصطفى" نداءها، وظل يتحدث ببرود، متناسياً مشاعر ابنته المنكسرة:

- شفتوا إيه بقى؟ كل ده بسبب الشاب التافه اللي عايزة تتجوزيه، صح؟ محدش يقدر يستحمل أمك ولا أخوكي الفاشل اللي عمره ما عدى سنة من غير مشاكل. محدش يقدر يستحمل بنت جبانة وغبية زيك. مفيش حد شاف اللي أنا شفته.

أغمضت ابنته عينيها وهي تمسح دموعها التي حاولت كتمانها، تحدثت بسخرية تخفي بها جرحها العميق:

- كل ده أي حد يستحمله لو كان أب حقيقي. بس انت مش كده. عمري ما تمنيتك تكون أب، أنا أعطيتك فرص كتير، كنت أتمنى أحس إن ليَا أب بجد، كان نفسي تحس بيا وتفهمني.

قُطع حديثها بصفعة قوية على وجهها، ألقتها أرضاً وأجبرتها على الإمساك بخدها المحترق من الألم.

اقترب "مصطفى" منها بملامح قاسية، ممسكًا بحزامه الجلدي، وقال بفحيح:

- شكلك محتاجة تتربِي، وأنا غلطت لما سيبتك كده.

أمسك بذراعها بقوة، وسحبها بوحشية، بينما هي تحاول الفكاك منه، ممسكة بخصلات شعرها التي اجتذبتها ألمه حتى شعرت وكأن رأسها سينفصل عن جسدها. ثم ألقاها بلا رحمة على درجات السلم، تاركًا إياها غارقة في ألمها ودموعها.

نظرت له بكراهية حزن، لا تعلم لماذا كان صوت تحطم قلبها يعلو بتلك الطريقة. أخذت نفسًا عميقًا وهي تصعد الدرجات ببطء، تتأرجح يمينًا ويسارًا بتعب. الألم الذي يبدأ من العائلة لا ينتهي، والمجروح من عائلته لا يشفي، لا يشفي أبدًا. يظل مجروحًا، محطمًا، موجوعًا، وكارهًا للحياة طول العمر. تلك الهزائم التي تبدأ منذ الصغر من أهم وأقرب الناس إليك لا تشفي أبدًا.

دلفت إلى غرفتها وهي تغلق الباب خلفها بهدوء، ثم وقعت على الأرض، تضم ركبتيها إلى صدرها، تحتضن نفسها بهدوء، وفجأة بكت عيناها، قائلة لنفسها بصوت خافت:

- لا، مش هعيط. أنا قوية لا، أنا مش هسمعهم، لا.

تعود إلى المنزل، المكان الذي يُفترض أن يستريح فيه المرء، ولكنها لا ترتاح. فهي تمتلك عائلة مليئة بالضجيج، عائلة يكسوها الحزن، عائلة تهوى الصراخ والمشاكل. ليسوا سيئين أبدًا، بل إنهم رائعون جدًا في كونهم بلا رحمة، في خلق ذكريات سيئة بداخلها. لا هدوء داخل رأسها، ضجيج لا يتركها، أناس يصرخون، أطفال يطلبون النجدة، وطبول تدق في قلبها. تدخل إلى غرفتها، تلقي تلك الصخور من فوق قلبها، تتشظى أمامها، تبكي فوق حطام قلبها.

يأتي أمامها شريط الذكريات السيئة. تتذكر كم مرة بكت هنا، كم مشكلة كانت تحدث في غرفتها، حيث كانت غرفتها موقع حدوث مشاكلها. هذا المنزل هو مصدر الضجيج بداخلها، وتلك العائلة هي أسباب تعاستها.

بدلت ملابسها بأخرى مريحة، ثم ألقت بجسدها فوق الفراش وهي تحتضن نفسها، تنتظر النوم، لكن أين النوم؟ لماذا لم يأتِ؟ تبخر النوم أيضًا. قديمًا، كان النوم سهلاً، يأتي موعد النوم، يتثاقل الليل، ثم تنطفئ الأنوار، ومن بعدها ترقد في هدوء تامة. أما الآن، كلما أطفأت الأنوار لكي تنام، أوقدت شموع التفكير حتى الصباح. كما كل ليلة، تبدأ الحفلة في رأسها عند موعد النوم، وكأنه كتب عليها ألا تنام أبدًا.

وكما يقولون، كل حروب العالم تهدأ في الليل،
ما عدا حروبنا مع أنفاسنا، تشتعل في عتمة الليل.

أمسكت بهاتفها، لا تعرف بمن تتصل الآن. الوقت متأخر، وهي لا تريد أن تقلق أحدًا. يا إلهي، ماذا تفعل؟ تشعر كأن العالم بأسره فوق رئتيها، لا تستطيع التنفس. انقطع تفكيرها حين صدح صوت الهاتف معلنًا عن اتصال من "محمد". ابتسمت بسعادة وهي تفتح الهاتف.

استمعت لصوته من الجهة الأخرى:

- أنتِ صاحيه ولا أنا أزعجتك؟

أجابته بهدوء وهي تبتسم:

- لا، كنت مش عارفة أكلم مين أصلاً.

تحدث بستفسار وهو يحمحم:

- ممكن أعرف ليه؟

زفرت وهي ترجع خصلاتها المتمردة للخلف، وبدأت بقص كل ما حدث من والدها لها. كانت تتنهد كل فترة من حديثها، وهي تشعر بالدموع تسري فوق وجهها.

تحدث مطمئنًا لها بهدوء:

- هانت يا حبيبتي هانت، أنتِ كويسة دلوقتي صح؟ عارفة، لولا إنه أبوكي كنت قطعت ايدي، أنتِ بتعيطي صح؟

كان حديثها محقًا. نعم، كانت تبكي قهرًا مما يحدث بها، لكنها مسحت دموعها وابتسمت بضحكة خفيفة:

- لا، مش بعيط، اهو، مش هعيط.

أجابها بغزل وحب امتزجوا مع صوت طمأنينة:

- اضحكي واثبتي أن عتمة قلبي نورها أنتِ.

ابتسمت وهي تشعر بالسعادة تتسلل بداخلها. تداعب قلبها بفرح يتراقص في داخلها. يا الله، كم هو جميل أن يكون لديك منقذ يخفف عنك أعباءك. جاء في ذهنه سؤال: كيف تعرف أنك وقعت في الحب؟ السؤال محير، لكن عندما تهتم فجأة لكلمات الأغاني، تعجبك الموسيقى، وتدور حول نفسك بسعادة، تبدأ بمعرفة تفاصيل يومك الذي سرق الفؤاد بلا اكتراث ليومك.

عندما تكون ملامحه كجرائد الأخبار التي يقرأها والدك، وعندما

تظل مبتسما لا شعوريا أمام المرايا في الشارع، وعندما تنتظر قيام الليل لكي تنجيه الله عنه، وعندما تصبح كل المدن جميلة

والحي مبهرا، والناس جميعهم من حولك مفضلين، وعندما لا تشعر ببرد المطر ولا تهتم بحرارة الصيف، وعندما تصبح كلماته

هي المفضلة، ويكون اسمه كطنين في أذنك، وعندما لا تخاف وأنت بجانبه كأنك في كهف بين الجبال، هكذا تأكد أنك تحبه.

ابتسمت لا شعوريًا وهي تستمع لحديثه اللطيف المتغزل:

- أنا مش عارفة بجد أنا إزاي كنت ممكن أعيش من غيرك؟

أردفت مكملة حديثها وهي تنظر للفراغ بحب، ابتسامتها ترتفع فوق شفتيها لا تراه مجرد شخص جوا أيامها تراه معجزة جنة الخالق فوق الأرض النجمة التي تحدق بها طوال عمرها لا تخاف تراه الحياة وضعت بقلبه حياة عوضته عن الأحياة التي كانت بها .

ابتسم وهو يعبث بتلك الكرة الصفراء التي سلمها له الطبيب كي تساعده على التدريبات. وضعها فوق يدها اليسرى المصابة وبدأ بتحريكها ببطء حول يده:

- أليس المُنادي باللغة العربية منصوبًا؟ فمالي كلما أناديك لا أفكر إلا في ضمك؟ أهذا كذب اللغة العربية؟

نفخت أوداجها بطفولية وهي تهبط بجسدها للأسفل في الفراش:

- ممكن تبطل تحرجني بجد؟ بحس بإحراج كده.

صدح صوت ضحكاتهم وهم يتبادلون أطراف الحديث بحب وصدق. لا يعلمون ما هو الحب وكيف سيكونون زوجين، لكنهم يعرفون أن وجودهم معًا في منزل واحد سيكون أمانًا لكليهما. لا توجد علاقة تسير على ما يرام دائمًا، ولكن بوسع شخصين أن يتشاركا مظلة واحدة وينجوا من العاصفة معًا.

في الصباح، تسللت الشمس إلى حياة العالم بأكمله، تضيء عتمة الليل الذي كان طويلا. لا تعرف هل تلك الغيوم تتراقص فرحا في يد آية اليوم أم تتراقص فوق أحزاننا؟

فتحت "زينا" النافذة المغلقة لتترك مجالًا للشمس تتسلل إلى غرفتهم، تعطيهم الحياة. دلفت إلى المرحاض وكعادتها، قامت بالوضوء لتؤدي فرضها ومن بعدها تقرأ وردها اليومي من القرآن.

وجدت يدها تحاوطها بحنان، وابتسمت له بينما تحدث بداخل أذنها بهدوء:

"علمت بأني مغرم، فتبسمت خجلا، كان فؤادها يتكلم، تلك التي بلغت جمالا فائقا لكنها عن حسنها لا تعلم."

نظرت له بامتنان لما فعله لأجلها، كل يوم يفعل جديدًا ليخرجها من دوامة عملها ومشاكلها النفسية. تحدثت بعدم ثقة وهي تلمس وجهه، تنظر إلى المرآة:

- "عز"، انت حاسس أن شكلي اتغير شوية، صح؟ حاسة تخنت شوية؟

قلب عينيه يمينًا ويسارًا يمل من شكوكها اليومية:

- حبيبتي، مفيش حاجة اتغيرت من امبارح لليوم، لسه زي القمر يا زينة بنت حواء كلهم.

تحدثت بحزن وهي تتراجع للخلف:

- بس بحس أن الناس كلها بتبص عليا في الشغل، وفي أي حتة بحس أن في حاجة مش طبيعية.

ابتسم وهو يمسك بيدها، يديرها حول نفسها:

- ولا يهمك منهم، مين دول أصلاً؟ عيونك الواسعة دي سحرتني، وشعرك اللي بيطير مع عفويتك، لون عيونك، أسلوبك، طريقتك، كلك على بعضك معجزة ربنا بعتها لي تخفف عن همي. أنت معجزة يا "زينة .

أردف مكملًا حديثه وهو يحتضن ذراعيها:

- عارفة، أنا عرفت كتير قوي وشوفت كتير، لكن قلبي يرفضهم ويقبل بك أنت، كأنك ذلك النجم الساطع في الفضاء أو ذلك القمر في السماء، أو كأنك الكون من بين كل تلك المجرات.

احتضنته بحب ودموعها تنهمر فوق كتفيه، دموع لكنها دموع عوض عما فاتها من حياتها. كل يوم تشعر أنها امتلكت إنجازًا بوجود زوجها بجانبها.

كانت "حسناء" تقف في منتصف حديقة منزلها، تنتظر قدوم الباقين. للأسف الشديد، قرر "عادل" بشكل مفاجئ أن يجمع العائلة، بمعنى أدق، دعا ألد أعدائها: "سوزان، مصطفى، أنس، زوجته نبيلة، حسن، وزوجته شيماء". يا لها من يوم صعب! كيف ستتحمل تلك الكائنات؟ لكنها مضطرة لفعل ذلك.

ارتدت للخلف بذهول، حين أمسك "عادل" بكتفها. تحدث بهدوء:

- صباح الخير يا حبيبتي.

أجابته بهدوء وهي تستنشق الهواء الطلق في الصباح:

ـ صباح النور، بس على الله يمشي اليوم كويس.

ابتسم بتفهم وهو يحتسي من فنجان القهوة الخاص به:

- متخافيش، محدش يقدر يتعدى حدوده هنا، دي مقابلة سلمية جدًا.

إجابتها كانت مستنكرة من حديثه، وهي تضم حجبتيها باستغراب:

- حدود!! هو كله بقى ليه حدود؟ اتغيرت أنت أوي.

أجابها بهدوء، وهو يمسك بيدها ويضمها بحنان:

- كل واحد له حدود، أنتِ الوحيدة المسموح لها بتجاوز حدودها معي، مفيش ما بينا حدود أصلاً.

ابتسمت بهدوء، وهي تقترب منه بلطف وتضع يدها فوق كتفه بدلال:

- أنت كلامك بقى حلو كده إمتى؟

كاد أن يتحدث لكن قاطع حديثه دخول مفاجئ لـ"محمد"، مما جعلها ترتد إلى خلفه، تحتمي من نظرات الآخرين.

تحدث "محمد" بمرح، وهو ينظر لهما بترقب:

- أنا جيت في وقت غير مناسب؟ كنت جاي أشوف "هاجر" بس شكلها مجتش. "حسناء"، ممكن أفطر معاك؟

أجابته بسعادة وهي تخرج من خلفه، تقترب من الأخير وتحتضن وجهه بكفيها:

- طبعًا يا حبيبي، وحشتني أوي أوي يا روح ماما.

زفر "عادل" بقوة، وهو يسحب أقدامه أمامهم:

- وإنتِ بتفطريه بقى، ابقي عرفيه إنه لازم يخبط على الباب قبل ما يدخل لأنه كبر وكده.

رمقه الأخير ببرود، وهو يقلب عينيه بملل:

- بعد كده هبقى أعمل ليكم زفة قبل ما أدخل. مارضي كده يا عمنا.

أجابها باستنكار، وهو يشير إلى نفسه:

- عمنا!! يارب متشيلش على إيده يارب.

هبط درجات السلم على عجل لكنه تراجع خطوة، يفكر في ماذا يحدث بحياته. لقد عاد، وماذا بعد؟ لا شيء. تأكد من كونه ابنها وتزوج من محبوبة عمره. فماذا الآن؟ يجب أن يحاول ترميم ما تبقى من حطام عائلته ليبدأ من جديد. يجب أن يعرف ماذا حدث في غيابه.

تراجع للخلف منتظرًا خروج "محمد"، الذي خرج بالفعل بعد لحظة، أوقفه بقوله:

- أنا لو مهتم أعرف إيه اللي حصل في غيابي، يبقى علشان خايف عليك. تعال نبدأ من جديد، نحاول لو لمرة، وأنا لأول مرة بعتذر لك.

استنكر من حديثه، وهو يضم حاجبيه بذهول، وابتسم ابتسامة خالية من الروح، اجتمعت بها كل مشاعر الخذلان والقهر. كان

من الممكن أن يكون اعتذاره على هيئة عناق، أو مثلا يفكر في ماذا حدث له، لكن اعتذر، وعن ماذا يعتذر؟

معتذرا؟ معتذر عن ماذا!؟ تشفي جروح القلب وعلته بالاعتذار، وإن شفيت، فماذا عن الندوب!؟ ماذا عن حطام قلبه!؟ هل سيتوقف نزيف روحه بكلمة!؟ تسامحه عيونه على ليالي ذبلت فيها من كثرة البكاء والسهر؟ هل سترجع له الأيام التي احتاج فيها سند؟ هل سايعيده طفلاً محتاج الى أب؟! عقله ينسى أيام التفكير المفرط والتعب والحرمان من النوم التي أنهكته الليالي والأيام!؟

تحدث وهو ينظر له بجفاء :

- أول ما أسمع "آسف"، هأنسى كل ده!؟ أنا عمري ما اتعلمت الكره، وروحي عمرها ما أرهقت إلا بسببك أنت، ولا أب، ولا صديق، ولا غيره. أنت غريب، وإكرام الغريب أني أتحمله وأنا متحملك. فلو جيت تسأل هاعمل ايه لو رجعت بتعتذر فالأمر للأسف ليس له مكان ولا وجود، ولو جاء بثقل الأرض ندماً.

أردف مكملًا حديثه بنفس مشاعر الخذلان، لكن بابتسامة تحاول إخفاء ذلك:

- أنا كمان بعتذر لك، إنت مش عارف أنا عشت إزاي، ولا إيه اللي حصل لي بس، أجل اعتذارك، لم تعرف إيه اللي جرى لي ومن مين وقتها هسمع اعتذارك، بس مش هديلك أي حاجة غير لما أحس إنك بتبادلني ده أنا آسف يا بشمهندس إني لحد اللحظة دي مقدرتش أقولك يا بابا.

اختفى من أمامه مبتعدًا، تاركًا الآخر يفكر في كل شيء سيئ من الممكن أنه حدث. كيف يتخطى هذا الولد كل ما حدث له من الأساس؟ ماذا حدث له؟

صدح صوت "يزن" الصغير بجانبه:

- هاجر! هي فين طنط "حسناء"؟ يا طنط "محمد" مجاش؟

أتت الإجابة من "محمد"، الذي حمله من تلابيب قميصه، يحلق به في الهواء:

- أه، "يزن"، يا حبيبي، وحشتني يا عمنا.

تحدث "يزن" بطفولية، بهدوء، يخبره بإنجازاته الصغيرة التي لا يهتم بها سوا "محمد" و"هاجر" ووالدتها، التي تشاهدها كل شهر مرة لمدة قصيرة:

- عارف، حفظت سورة من القرآن وسمعتها لهاجر.

ابتسم "محمد"، وهو يضعه بجانبه، يعبث بخصلاته، وقرر أن يروي ما حدث أمس لـ"هاجر"، بداية من ذهابه لمنزله القديم ولقاءه بـ"عبدالله" والصغيرة "دنانير". قصّ كل شيء ما عدا ذهابه لقسم الشرطة.

تحدث الصغير "يزن"، وهو يستند برأسه على يد "هاجر":

- بس أنا لما قرأت قرآن، لقيت إن ربنا ذكر في المصحف إن في ناس اسمهم بني إسرائيل يعني مش وحشين!

ابتسم "محمد" وهو يستمع، بينما كانت أفكاره تتأرجح بين الماضي المؤلم وأمل المستقبل.

أجابه "محمد" بهدوء، وهو يحاول تبسيط الأمر:

- بص، المصحف أو القرآن ده وحي أما بقا بني إسرائيل، البداية كانت مع سيدنا إبراهيم، اتولد في العراق ورحل لفلسطين بعدين لمصر، وبعدها لشبه الجزيرة العربية، اللي هي السعودية حالياً وُلد فيها ابنه إسماعيل، طبعًا انت عارف قصته، سيدنا إسحاق بقى ابن سيدنا إبراهيم، وابن سيدنا إسحاق هو سيدنا يعقوب، وده كان ليه اسم وهو "إسرائيل" ومعنى إن ربنا لما ذكر إسرائيل في القرآن كان يقصد سيدنا يعقوب مش الصهاينة، سيدنا يعقوب فضل عايش في فلسطين مع أولاده اللي هما بني إسرائيل، يعني بني إسرائيل هم أولاد سيدنا يعقوب، فلسطين هي الوجهة الثانية للمسلمين بعد البيت الحرام، المسجد الأقصى، اللي هو من أعظم شعائر ديننا، وفي نفس الوقت مهم جدًا للمسيحيين، ليه؟ لأن سيدنا عيسى اتولد هناك في حي بيت لحم.

أخذ زفيرًا وأردف مكملًا حديثه بلين وود:

- في شخص صحفي مشهور جدًا اقترح على اليهود ليه ميكونش لنا دولة؟ وفعلًا عرض عليهم أربع دول ممكن يعيشوا فيها، موزمبيق، أوغندا، الأرجنتين، وفلسطين، وفعلًا بعث حد من الحركة الصهيونية لفلسطين، وطبعًا لأن البلد جميلة، عجبهم، لكن المشكلة إن البلد دي ليها شعبها، وكمان إجمالي اليهود في فلسطين في الوقت ده كان أقل من ٣ في المئة المهم بدأت الهجرة من اليهود إلى فلسطين تكتر، وده بمساعدة إنجلترا اللي كانت عاوزة تخلص منهم لأنهم بيعملوا مشاكل. مخطط الإسرائيليين كان واضحًا أنهم يبينوا دولة، وهنا وقف كل الفلسطينيين قدامهم. ولما زادت المشاكل، تدخلت إنجلترا وقالت نقسمها، جزء لليهود، وجزء للفلسطينيين، وجزء القدس هاخده إحنا في إنجلترا، وطبعًا فلسطين ما وافقتش، وظل الصراع لحد ما تدخلت الولايات المتحدة وقالوا نفس الكلام مع اختلاف أن القدس تكون ملك للعالم كله. وهنا برده فلسطين احتاجت، ومعجبهاش الكلام إزاي يقسموا بلادهم كده؟

تحدث الصغير بحب وهو ينظر له بإعجاب، يمسد فوق ذراعه المصابة:

- إنت تعرف حاجات كتير أوي بجد، فرحان إنك قولتلي كده، ممكن تكمل علشان أعرف أصحابي؟

ابتسم له "محمد" وهو يضغط فوق ذراعه اليسرى، التي تحسنت حالتها بشكل ملحوظ بعد زيارته للطبيب مرتين:

- في سنة النكبة بقى، اللي هي ١٩٤٨، هنا تكلم اليهود وقالوا إنهم هيأسسوا دولة اسمها إسرائيل على أراضٍ فلسطينية هجّروا أهلها وحرقوا القرى وكل دمار تتخيله حصل. وظلت فلسطين كده لحد النهاردة بسبب الاحتلال الإسرائيلي. وبالمناسبة، أكيد تعرف إنهم احتلوا سيناء في مصر، وإحنا طردناهم. المرة الجاية إن شاء الله هحكيلك قصة سيدنا يوسف.

تزامن حديثه مع دخول "سوزي" بجانبها "مصطفى"، و"أنس"، و"حسن"، وفي الخلف "نبيلة" و"شيماء"، يتوسطهم "قاسم" و"رزان".

تحدثت "سوزي"، وهي تمد يدها لـ"حسناء":

- عاملة إيه؟

اقتضبت حديثها مما دفع الأخيرة للرد بوقاحة وبرود: - أحسن منك.

جلست "هاجر" بجانب "محمد"، يتوسطهما "يزن" الصغير. تمتمت بحنق وهي تقترب من أذنه:

- أرجوك، اليوم ده يمشي على خير.

أومأ له بهدوء، وهو يتابع تصافحات الجميع وحديثهم، الذي يتبين لك أنه ودي جدًا، بينما هو في الحقيقة مليء بالغل والحقد الدفين منهم.

تحدث "قاسم" وهو يجلس بجانب والده، يراقب حركة الأخير:

- أه، صح يا محمد، انتوا هتتجوزوا إمتى؟

أضافت "نبيلة"، والدتها بكراهية وهي تنظر لهم بحنق:

- جواز!؟ غريبة أوي، انت متخيل أن أول علاقة ممكن تنجح ويكون فيها جواز؟ كلها شهر ولا شهرين وتخلص..

تبادل "محمد" النظرات مع "هاجر"، التي ظهرت في عينيها ملامح الخوف والقلق. أمسك بيدها بحنان وهو يتابع:

- مش شرط والله اللي حضرتك بتقوليه، في حاجات مينفعش تضيع من إيدك. وبعدين، اللي بيوعد بحاجة لازم يوفي بيها، ولا إيه يا "أنس". مش كلام رجال برضو؟

تحدث "حسن" ليبدل معهم الموضوع من أساسه، محاولًا تفادي هذا النقاش:

- أه، فعلًا الجواز بقى مش مضمون، خصوصًا من الأهل، في حقد كده وغل وطبقية.

ابتسم "محمد" ببرود وهو يقلب عينيه بملل:

- في ناس كده معندهمش كرات بيضة وكرات حمراء في دمهم، بيمشي حمض الحسيدوليك والحقيروليك وخبيثوكسيد السمدوليك. عارفهم انت صح؟

أجابه "مصطفى" بحنق وهو ينهض من مكانه:

- انت بتغلط، خد بالك، ها، واحترم كلامك.

ابتسم الأخير ببرود وهو يحتسي من كوب القهوة الخاص به:

- لو غلط في حقك، عندك خيارين، جيب عليهم طماطم واعملك سلطة، اتسالي فيها عقبال ما تتفاجأ بيا.

كان حديثهم مليئًا بالكراهية وتبادل الغضب، حتى قاطعت ذلك "رزان" التي أمسك بيد "قاسم" وهما يجلسان بجانب "ماهي" و"عمر":

- باركولي يا جماعة، أنا و"قاسم" اتربطنا.

تحدث "محمد" متصنعًا الغباء:

- اتربطوا إزاي يعني؟ مين اللي ربطكم كده؟ أصل مفيش علاقة اسمها كده.

ابتسمت "هاجر" وهي تخفي ضحكاتها عنهم، متصنعة الجدية:

- ارتبطوا غير اتربطوا، تفرق يا محمد.

كادوا أن يكملوا حديثهم، لكن قاطع كل هذا دخول مفاجئ من سيدة تبدو أنها في أواخر عقدها الرابع، تحمل في عينيها كما من الكراهية والانتقام.

تحدثت بغضب وهي تبعد يد الحراس عنها:

- إيه قاعدين وبتضحكوا وكل الهنا ده وتسيتوه؟! نسيتوا حق بنتي، بنتي اللي ابنكم قتلها! ما تقول يا "محمد" بيه، قتلت بنتي إزاي ما تنطق وتتكلّم قدامهم، ولا خايف؟!

كانت الصدمة على وجه "محمد" الذي نهض من مكانه، ينظر إليها بصدمه، بينما كانت بجانبه "هاجر" التي أخفت وجهها بتعب، لا تستطيع تذكر كل ما حدث في تلك الليلة.

بينما كانت ترتسم معالم الشماتة والخبث في وجه الآخرين، بدأت همساتهم تتزايد. كان هناك شعور بالتوتر في الأجواء، كأن كل من في الغرفة يتربص بتفاصيل اللحظة، ينتظرون رد فعل "محمد" الذي بدا متجمدًا للحظة، كأنه لا يصدق ما تسمعه أذنه.

تجمدت الكلمات على لسانه، وكل ما استطاع فعله هو التحديق في عيني "سوزي "، محاولًا استيعاب ما تعنيه تلك الكلمات.

البارت الحادي و العشرون

"طبيب نفسي"

تصنم مكانه من هول الموقف الذي وقع به.

هل سيلحقه الماضي طوال حياته، أم أنها لعبة القدر؟

تحدثت "هاجر" بغضب، تحاول تكذيب الواقع المرير الذي تواجهه:

- إيه اللي بتقوليه ده؟ اتفضلي اخرجي برا!

تحدث "مصطفى" مقاطعًا لهم، وقد انطلقت شرارة الغضب من عينيه:

- ما تسيبيها تكمل في إيه يا مدام؟

تحدثت امرأة، وجهها أبيض مستدير، تبدو عليها السمنة، وكأنها تحمل عبء العالم:

- بنتي اللي جت اشتغلت عند حضرتك في البيت وهي عيلة صغيرة، وابنكم قتلها بعد ما اعتدى عليها.

أجاب "محمد" بتشوش، وهو يتذكر تفاصيل تلك الليلة المشؤومة، كأنها تتجلى أمامه بوضوح:

- تقصدين بنتك اللي بعتيها وهي عيلة لـ"مصطفى" بيه، اللي هو اعتدى عليها وقتلها؟ ولا انتوا مطبخينها سوا؟

قاطعته "سوزي" بغضب وهي تدفعه للخلف، كأنها تحاول صد موجة العار:

- إيه الكلام العبيط اللي بتقوله ده؟ متخليني ساكتة أحسن وبلاش أتكلم!

تحدث "عادل" بفحيح، عينيه تراقبان الوضع بذهول:

- ليه ما تتكلمي؟ سمعيني، ماهو أنا آخر من يعلم.

أشار برأسه للمرأة الواقفة تتابع الأمر ببرود، وكأنها لا تشعر بوطأة الذكرى، وكأنها تنسى حياة شاب وموت ابنتها:

- والله يا باشا، أنا ما بكذب أبدًا، ده أنا حفظت كتاب الله وواحدة رجلي والقبر، أنا جاتلي الهانم من كام سنة مع مكتب التوظيف، واخدوا مني بنتي "وردة" تشتغل عندهم والبت جتلي بعد خمس شهور حالتها تصعب على الكافر، وشوية وعرفت إنها حامل. رجعت بيها للهانم، والبت قالت إن "محمد" بيه هو اللي عمل كده. بعدها البت اتخطفت ورجعت جثة، هي واللي في بطنها.

صاحت "هاجر" بغضب وهي تستمع لحديث الأخيرة، وكأن قلبها يتمزق:

- كاذبة، والله كاذبة! الكلام ده من سبع سنين يعني مستحيل "محمد" كان يقدر يعمل حاجة من اللي أنتِ بتقوليها دي!

تحدثت "حسناء" بهدوء، محاولّة ضبط أنفاسها المتسارعة، وكأنها تتحدث في ظلام خيم على المكان:

- أنتِ متأكدة من اللي بتقوليه ده يا حاجة، ولا مش فاكرة؟

تحدث "أنس" بتأكيد، نظراته مشحونة بالشماتة والغضب:

- أكيد كلامها صح، في حاجات كتير أنتوا متعرفوهاش.

تحدث "عادل" موجهاً حديثه لـ"سماح" والدة "وردة":

- اتفضلي دلوقتي أنتِ، لأن وجودك ملوش مجال.

أشار برأسه للحارس كي يعطيها بعض الأموال، وكأنها تعويض تافه لما فقدته.

أدار رأسه للأخير باستنكار، مستنكرًا حديثه.

«إيه بقا اللي معرفهوش؟ متنطقوا اتخرستوا ليه؟»

تحدث "مصطفى" متصنعًا المواساة بهدوء، لكن صوته كان يحمل عبءً ثقيلًا:

- الحوار مش جديد، "محمد" من فترة، تحديدًا لما كمل ١٣ سنة تقريبًا، بدأ يتهيأ له حاجات ما بتحصلش، والموضوع تطور لسلوك عدواني. بعدها اضطررنا إننا نعرضه على دكتور نفسي، وأكد إن عنده حالة تشبه الشيزوفرينيا، ودخل المصحة بعد الحادثة بتاعت "وردة"، لكنه هرب وراح عاش مع صاحبه وأبو صاحبه.

كانت الكلمات تهبط على مسمعه كالصعقات الكهربائية. كل هذا حدث بدون علمه، وكأن خيوط الحقيقة قد انقطعت. قاطع شروده حديث "محمد" الذي بدا هادئًا جدًا وباردًا، لكن ما لم يستطع تفسيره هو نبرة الخذلان والغصة التي انسابت في حلقه:

- خلصت؟ كملت كذبك؟ طيب أنا أحسن منك ومش هحكي أي حاجة علشان حقي، أنت عارف هخدوا منكم إزاي، لأني مش منتظر حد يدافع عني أو يصدق حاجة.

كاد أن يتحرك، لكن أوقفه "عادل" الذي أمسك بيده المصابة، مما جعل الألم يتدفق داخله كالسهم:

- أنت عملت كده فعلاً؟ انطق، عملت كده؟

ابتلع غصة في حلقه. كانت آخر محاولة فاشلة من قلبه كي يحن إليه، شعور الخذلان الذي أصابه للمرة التي لا يعلم عددها:

- لو أنت مصدق، صدق. لو مش مصدق، جرب تدور على الحقيقة ولو لمرة واحدة.

قال آخر كلماته تزامنًا مع ركضه خارج المنزل، وكأن قلبه يدفعه نحو الحرية. نعم، ركض حقًا، كان يركض بكل ما أوتي من قوة، غير متأثر بـ"هاجر" التي كانت تركض خلفه. كان يلتهم الأرضية تحت قدمه بسرعة حتى يصل إلى أي مكان خارج هذا المنزل، أو ربما ليهرب من تلك الذكريات. لا يعرف، لكن شيء ما يصيبه بالغثيان كلما يتذكر ماذا حدث في تلك الليلة، كما لو كانت الكوابيس تلاحقه في كل خطوة.

وقف بعد ركض طويل، بالكاد يستطيع التقاط أنفاسه. كان بؤبؤا عينيه يتسعان بشكل كبير، وقلبه ينبض بخفقات تُسمع من بعيد. جلس على الأرض وهو يغمض عينيه، محاولاً إخراج تلك الذكريات المرعبة من خياله، ولكن لا فائدة. اغتصاب، قتل، اصطدام، صفعة، دماء، هروب. كل تلك المشاهد كانت تتجلى أمامه كما لو كانت تحدث للتو.

فجأة، وبدون أي سابق إنذار، شعر بيد تداعب ذراعه، كأنها تُحاول تهدئته. تلك اللمسة أثارت شيئًا ما بداخله، لكن سرعان ما انهارت تلك المشاعر وتهوت إلى الأرض. لم يستطع السيطرة على شعور الغثيان الذي اجتاحه، حتى تقيأ بكل ما أوتي من قوة، وكأن تلك الآلام لا تُفارق جسده حتى لثانية واحدة.

أفرغ همومه من داخله، وشفتاه ترتجفان، يتحدث بصعوبة بسبب حشرجة صوته:

- أنا معملتش كده، أنت مصدقاني صح؟

ابتسمت وهي تضع يدها فوق يده، عينيها تعكسان الثقة:

- مصدقك والله.

أثرت كلماتها فيه كأثر الدواء على جسد مجروح، فابتسم محاولا النهوض. في عمق قلبه، لم يكن يبحث عن الحب، بل عن الاطمئنان. كان يريد شخصا يشعر معه بالطمأنينة، شخصا يمكنه أن يستند إليه ويجد فيه ملاذا من آلام الحياة.

بعد قليل، وصلا أمام منزله، فأمسكت بهاتفها المحمول لتتصل بـ"عادل"، بعد أن أخبرت "محمد" أنها لا تطيق المبيت في منزلهم، لذا ستقضي الليلة في منزل "عادل".

دخل منزله منهكًا، وكأن كل أحمال الحياة قد تقاطعت على كاهله. ألقت بجسده للخلف بهدوء، ويتساءل في نفسه: لماذا تلك اليد الحمقاء؟ أهذا هو الوقت المناسب للإعياء؟

مسحت فوق ذراعه بهدوء، وهو يفردها للأمام ثم يرجعها للخلف. أغمض جفنيه لدقائق، تذكر موقف "عادل"، أو ربما موقف أبيه، لأنه في تلك اللحظة شعر أن شيئًا ما بداخله يُشبه أبيه، وبالتأكيد سيدافع عنه حتى وإن لم يكن لديه أدنى فكرة عما حدث. كان موقفه مخزيًا، لقد خذله، وهذا ما زاد من شعوره بالخذلان. زفر بقوة وهو يمسك بقلمه، يدون بعض الكلمات كمحاولة لإفراغ طاقته.

"تكسرنا العائلة أكثر مما تفعل الحكومة والسجون والمخابرات، أكثر مما يفعل بنا العمر وزوار الليل والناس أجمعين."

أغمض عينيه محاولًا الهروب من تلك الحياة. كان منزله دائمًا هو ملاذه، قوقعته التي يلجأ إليها، يحتمي بها من البشر، ومن ذكرياته المشؤومة، ومن حياة محبطة تجبره على النضال. لكن حتى تلك القوقعة لم تعد تحميه.

نهض متوجهًا بهدوء نحو المرحاض. وبعد أن اغتسل، أمسك بفراش الصلاة ووضعه أمامه. رفع يده بجانب رأسه، ناطقًا بهدوء، "الله أكبر"، وعند تلك الكلمة، شعر وكأنه أخيرًا تمسك بقشة تنقذه من الغرق في همومه.

قرأ الفاتحة ثم سورة صغيرة من القرآن، وانحنى للأمام، ناطقًا بهدوء، "سبحان ربي العظيم". ثم نهض مرة أخرى، وهو يقول، "سمع الله لمن حمده". ثم سجد لله، قائلاً بانسيابية تامة، "سبحان ربي الأعلى". أعاد تلك العملية أكثر من مرة، وعند انتهاء الصلاة، التف برأسه لليمين، "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"، ثم لليسار، وكرر نفس العبارة.

وكل ما تذكره في تلك اللحظة هو عائلته، أو من أطلق عليهم عائلته. تذكر "نوح"، وتساءل: ماذا كان سيحدث لو كان والده الشرعي هو "نوح"؟ كان سيكون أبًا مدهشًا كما كان، لكن هل ستعطيه الحياة ما يتمنى؟ بالتأكيد لا.

أمسك بالصورة الوحيدة التي جمعت بينه وبين "نوح" و"هيثم" و"نائل"، وفي طرفها الأيسر وقفت "سمر" مبتسمة كعادتها، وكأنها تحدثه بعيونها حديثًا لا ينتهي، حديثًا مليئًا بالحب والطمأنينة. طال تأمله في الصورة، ثمّ رفع قلمه ودون فوقها بخط مرتعش:

"أتمنى أن نلتقي مجددا؛ لأحتضنكم طويلا، حتى أشعر أنني غصت في أعماقكم. حينها، سيهدأ ذهني وترتاح نبضات قلبي.

سأغفو وأرمي كل شيء خلفي. أريد أن نتحدث طويلا، لأخبركم كم اشتقت إليكم، وكم افتقدت حديثنا وملامحكم.

اشتقت إليكم شوقا لا أستطيع وصفه ولا عده. الأيام قاسية في غيابكم، وكم انتظرت لقاؤكم!"

أحسّ بثقل في قلبه، فالليلة ليست مجرد ليلة كئيبة بل امتداد لسلسلة طويلة من الليالي المرهقة التي حمل فيها همومه بصمت، ورحل دون أن يشعر به أحد. كل ليلة كان ينتظر سؤالًا، سؤالًا واحدًا فقط: "مالك يا أخي؟" لكن لا أحد يسأل، لا أحد يلاحظ. يبدو أنه قد أتقن خداع الجميع بملامح اللامبالاة التي يضعها قناعًا فوق وجهه.

نظر إلى المنزل بعينين فارغتين، كأن شيئًا فيه قد كُسر، ثم حسم أمره. سيذهب إلى "نبيل"، ليس بحثًا عن إجابات أو حلول، بل رغبة في رفيق يؤنسه ويبدد وحشة أيامه.

وقفت أمام المرآة تحدق في انعكاسها بشرود، تتساءل: "وماذا بعد كل هذا؟ هل ستوضى الحياة عني؟ أم سأظل أعيش هكذا؟" قطع شرودها دخول "سوزي" وهي متكئة على الباب، تنظر لها بتشفي واضح:

- إيه؟ كنتي متوقعة إن حقيقتها مش هتتكشف؟

قالت سوزي بنبرة لاذعة:

ارتسمت بسمة ساخرة على شفتي "هاجر" وهي تخلع سترتها العلوية ببرود:

- قصدك حقيقتكم إنتوا صح؟ ماما، متحاوليش ترسمي إنك مش إنت اللي جبتي الست دي هنا.

تحدتها "سوزي" بنبرة متعالية ولامبالية:

- أيوه أنا يا هاجر، وهعمل كل اللي في وسعي علشان كل اللي بنيته ميتحطمش وعلشانك.

نظرت لها "هاجر" بسخرية مشوبة باستفهام:

علشاني!؟ من إمتى وإنت بتعملي حاجة علشان حد أصلاً؟ متحاوليش تكسري اللي خلاص انكسر! أنا مش هنسى يا ماما كل حاجة اتحرمت منها، مش بس حنانك وحبك اللي عمري ما شوفته، ولا حضنك ولا طبطبتك، لا حتى ضحك ولعب الأطفال اللي اتحرمت منه بسببك، ده حتى الأكل حرمتيني منه، الحلويات اللي كانت سم بالنسبة ليكي علشان بنتك متبقاش مش على المقاس، عمرها ما كانت سم عارفة إيه اللي كان السم بجد؟ كلامك، منظرتك، تمثيلك قسوتك هي السم الحقيقي يا، يا أمي.

ضحكت سوزي بسخرية، وصفقت ببرود:

- والله اتأثرت وهعيط! إنت مصدقة نفسك؟ طيب أنا كمان استحملت اللي محدش يقدر عليه، استحملت خيانة أبوكي وإهماله، استحملت أخوكي الفاشل ومصايبه، استحملت طفلة زيك غبية وساذجة وعندها فرط حركة، أنا طول عمري مكتومة، عمري ما لقيت حد أفضفض له، حتى أخويا.

لم تستطع "هاجر" كبح دموعها أكثر، بدأت دموعها تنهمر بصمت دون شهقات. قالت بنبرة مختنقة:

- إنت على فكرة مش مصدقة نفسك كان بإيدك حلول لكل ده واحد خاين، ليه تسيبيه يأذيكي ويأذينا؟ ليه مطلقتيش ليه؟ ها؟ ولا علشان الفلوس اللي كنتي بتخديهم منه كل مرة تعرفي إنه خانك؟ إنت حتى خيانته دفعتيه تمنها! وابنك، مفكرتيش إنه مش محتاج غير وجودك، حضنك اللي عمري ما حسيت به. ماما، أنا مفتكرش إنك حضنتيني قبل كده. وأخوكي؟ ده نفس الشخص اللي بتهدي حياته دلوقتي، ولو كنتي بتحبيه بجد مكنتيش دمرتي حياته وحياة ابنه.

أخذت نفسًا عميقًا وقالت بلهجة حازمة:

- كفاية تمثيل! اتفضلي، سيبيني أنام علشان اليوم يعدي لحد ما ربنا يفرجها عليا وأسيب البيت ده.

خرجت "سوزي" دون أي رد، بينما "هاجر" لم تستطع الصمود أكثر؛ تركت لشهقاتها المجال لتعلو، جسدها خانها فسقطت على الأرض تضرب بقدميها، واضعةً يدها على فمها لتكتم صوتها.

العائلة بإمكانها أن تحول القصر إلى قبو، وأن تجعل الوسادة شوكة؛ بإمكانها أن تصنع إنسانا أو جثة متنقلة.

أمسكت بهاتفها، تحاول كتمان شهقاتها بموسيقاها المفضلة. ضغطت على زر التشغيل، وأخذت الأغنية تصدح، معبرةً عن حالها بصوت أعمق مما تستطيع هي نفسها التعبير:

متاخده من الايام و خايفه اشوفه صدفه اجري عليه والا اخاف مبقتش عارفه

ظلمته ولا ظلمني انا مبقتش شايفه غير ان البعد كان اريح كتير من القرب

هو الحاجات الحلوه ميت مليون وجع كان طابعه قاسي لكنه برضو كان جدع

في حضنه قولت كلام معرفش اقوله تاني متلخبطه والف حاجه مخوفاني

اروحله ولا اسيبه ولا افضل مكاني مخدتاش منه يا قلبي الا وجع القلب

هو الحاجات الحلوه ميت مليون وجع كان طابعه قاسي لكنه برضو كان جدع

اغلقت الاغنيه واغلقت عينها التى باتت حمراء ؛ بسبب بكائه المتواصل لمده طويلة و اظافرها التي جرحت يدها من كثره الضغط فوقهما.

دخل إلى العيادة بهيئة مبعثرة تشبه اضطراب مشاعره. دق الباب بخفة، ثم دلف إلى الغرفة بهدوء غير عابئ بنظرات "نبيل" التي كانت تحمل خليطًا من التساؤل والقلق على حاله. تقدم نحوه "نبيل" بخوف، وقال:

- إيه يا أخي؟ مالك؟

رد بصوت مرتعش، وكأن كلماته تأبى أن تسعفه:

- انطفيت مش لاقي كلمة أعمق منها علشان أشرح اللي حاسس بيه عمري ما حسيت بانطفاء روحي بالطريقة دي.

قص عليه ما حدث من بداية يومه حتى لحظته هذه، لكن كلماته كانت مبعثرة، تتخللها شهقات وضحكات غير موضعها، كأنما تحاول مقاومة ألم مدفون.

ابتسم بسمة حزينة بنبرة متحشرجة، وسأله:

- قولي يا 'نبيل' لو كنت مكاني كنت هتعمل إيه؟ لا، استنى لو كنت أب، كنت هتعمل زي ما عمل هو؟ طيب هو أنا فِي إيه غلط؟ بقالي ١٥ سنة بحاسب نفسي إن أكيد فِي حاجة غلط خلته يسيبني يمكن كنت زنان شوية ولا كنت شقي بس أنا كنت خايف الأيام تخلص وماعرفش أحفظ ملامحه جوايا أنا تعبت.

لم يجد نبيل ردًا سوى احتضان عميق، عبر فيه عن كل مشاعره، ربت على كتفه ومسح على شعره بحنان، وقال:

- لا، انت مفيكش حاجة غلط. يمكن هو اللي ماكنش قد المسؤولية، أو مقدرش بصراحة، كل اللي بتعمله ده ملوش لزوم إنت عامل زي واحد سكران بيضرب في ميت، لا الأول داري ولا التاني حاسس بيه.

خرج من عناقه ببطء، محاولًا تهدئة أنفاسه المتلاحقة، وقال:

- معرفش عندي كام روح بتغيّر كل لحظة، دايمًا حاسس إني غريب ما أظنش إني قبلت نفسي أو لاقيتها أصلاً. أنا معرفنيش، وكل ده بسببه.

أردف، وكأنما يلقي بكل ما في داخله:

- هو أنا مش من حقي أتعب؟ مش من حقي حد يحس بيا؟

أعطاه نبيل كوب ماء بهدوء وقال:

- لا، طبعًا من حقك بس حاول تبعد عن اللي تعبك. أقولك ركّز مع مامتك، مع أصحابك، مع 'هاجر'.

ابتسم بمرارة ساخرة، وقال:

-، يبقى أبعد عن نفسي لو هبعد عن اللي بيتعبني! هبعد عن الكل أنا تعبان وأنا معاهم، تعبان وأنا بحاول ما أذيش حد بدون قصد، وتعبان وأنا خايف أحكي لأمي على اللي حصل علشان مش عاوز أخوفها. تعبان وأنا بحاول 'هاجر' تشوفني كويس. أنا تعبان من كل حاجة.

قال بصوت وادع:

- هتصل بـ'أحمد' ييجي يبات معايا النهارده، حاسس إني محتاج أنام.

نظر إليه نبيل باستغراب وسأله:

- مش بتقول عندك أرق؟ هتنام إزاي؟!

ابتسم بسخرية حزينة، وهو يغلق الباب خلفه:

- الأرق كذبة مفيش حد بيلاقي الأمان وحضن دافي وما ينامش الأرق هو الخوف والخايف ما بيعيش.

تركه ورحل، كما اعتاد أن يأتي ويذهب كقطعة من الزئبق، لا أحد يستطيع الإمساك به أو الوصول إلى ما بداخله.

وقفت تنظر إليه ودموعها تسيل بهدوء فوق وجنتيها، كل دمعة وكأنها تسأله بعتابٍ صامت "لماذا؟" شعرت أن نظراته تحمل خذلانًا وجفاءً، حتى تساءلت بينها وبين نفسها: هل هذا حقًا من أحبته يومًا؟ أين اختفى قلبه الطيب؟ أين رحلت حنيته؟ كيف صار هكذا باردًا، قاسيًا كالحجر؟ أم تراه كان هكذا دومًا ولم تدرك الحقيقة إلا الآن؟

تحدثت بصوتٍ هادئ لا يعكس مرارة مشاعرها ولا حرارة دموعها:

- مكنتش عاوز تعترف بيه علشان شاكك إنه مش ابنك؟ مكنتش حابه علشان خايف؟ طيب... وإيه حجتك دلوقتي؟ ليه صدقت اللي قالوه؟ ليه ما دافعتش عنه؟ ليه وقفت؟

أجابها ببرود وهو يقترب منها خطوة:

- علشان مش حاسس بيه علشان مرتبتوش،علشان هو ممكن يعمل كده عادي.

نظرت إليه بحزن وهي تبتعد قليلاً، قائلة:

- ودي غلطته هو؟ ولا غلطتك إنت؟ غلطتك إنك مكنتش مسئول ولا كنت جنب ابنك.

زفر بعمق وسحب يده على خصلاته إلى الخلف، وكأنه يحاول دفع عبء ثقيل عنه، ثم قال:

- خلاص نخلف تجرب تاني صدقيني، المرة دي هكون أب كويس.

اندفعت نحوه فجأة، وصفعت صدره بيديها تهزه بعنف وهي تصرخ:

- نخلف؟ هي لعبة وتجرب فيها مرة تانية؟! إنت مش هتتغير؟ عايز تخلف من مين؟ مني؟ بعد إيه؟ بعد ما أختك والدكتور الحقير اللي كان معاها عملوا لي عملية استئصال رحم وأنا مغيبة ومش واعية؟ فاهم اللي أنا بقولك عليه؟

بدت عليه علامات الاستفهام، فسألها، وهو يمسك بيدها كمن يحاول استيعاب الحقيقة:

- يعني إيه؟ أنا مش فاهم حاجة؟!

انفجرت غضبها، وارتفع صوتها حتى اقترب من الصراخ:

- يعني أختك مكفهاش إنها حرمتني من ابني! لأ، استغلت حالتي وأنا مغيبة عن الوعي، واتفقت مع الدكتور يعمل لي عملية استئصال رحم! فاهم بقى ليه مش ممكن أسيب ابني؟

فاهم إنه ما عنديش فرصة تانية يكون عندي ولاد؟ ولو عندي، برضو عمري ما هسيب ابني! ولو حد فكر يقرب منه، والله هكله بسناني! وأنت كمان بتيجي وتخيرني بينك وبينه؟ لا، بلا شك هختاره هو.

لم يلتقط من حديثها سوى كلماتها الأخيرة، فكررها بذهول:

- تختاريه هو؟! إنتِ واعية للي بتقوليه؟

نظرت إليه بثبات وهي ترفع حقيبتها، ثم قالت ببرود:

- أيوه، هختاره هو، الزوج ممكن يتعوض، لكن ابني. لا يا 'عادل'. مش هقولك 'ابننا' علشان ما تزعلش ولا حاجة.

خرجت من أمامه بخطى سريعة، بينما هو يركض خلفها محاولًا اللحاق بها، لكنها سبقته إلى سيارتها. جلست داخل السيارة ودموعها تنهمر، تغطي عينيها حتى باتت لا ترى شيئًا بوضوح. لا تعرف القرار الصائب في هذه اللحظة، لكنها على يقين من شيء واحد... لن تتخلى عن ابنها، مهما حدث.

عندما دخل "محمد" منزله، أحس بتعبٍ يثقل خطواته، وكأن كل هموم العالم استقرت على كتفيه. وقبل أن يتمكن من تمالك نفسه، رأى "أحمد" يقترب منه، فاتحاً ذراعيه لاستقباله. احتضنه "أحمد" بقوة، في صمت مشبع بالفهم، وربت على ظهره برفق. كانت لمسات أحمد تخترق صمت الغرفة، وتهدئ نبضات قلبه المتسارعة، وكأنها كلمات مواساة غير منطوقة. عناق يغني عن آلاف الكلمات.

تبادل الصديقان نظرات مختنقة بالألم، ثم ابتعد "محمد" قليلاً وسحب أنفاسه بتأنٍ، وربت على يد "أحمد" قائلاً:

- أنا آسف لو قلقتك، بس مافيش غيركم ألجأ له ساعات بتخيل لو ما كنتوش موجودين في حياتي، كنت هعيش ازاي؟ وأنا في عز تعبي كنت بحتمي بيكم.

أحمد ابتسم بهدوء وهو يمسد على ذراع "محمد" بحنان، قائلاً:

- إحنا مالناش غير بعض يا محمد. اللي مالوش في الدنيا إلا صاحبه، دايماً حايلقيه جنب منه أنا وانت مش مجرد أصحاب، إحنا إخوات.

نهض "أحمد" بعد لحظة، وأخبره بأنه سيذهب لتحضير مشروب ساخن. "محمد" بقي في مكانه، حدق في السقف للحظات طويلة، وكأنما كان يحاول أن يجد فيه ملاذًا أو إجابة. كان السقف أمامه بارداً وثقيلاً، لكنه تخيل لو بإمكانه اختراقه، والتحليق بعيداً إلى سماء لا حدود لها، سماء تخفف من هذا الثقل المتراكم في روحه.

التفت جانباً إلى دفتره، أخذ قلمه وبدأ يخط كلمات تنبض بألمه: "الليالي والليالي ساهراً متأملاً ما في السماء... وأنا حزين، أرسم صور الأحبة في خيالي. أسروا قلبي وعيوني، وروحي معهم، أما جسدي هنا، كالسجين."

أغلق الدفتر، وأطلق زفرة عميقة بينما كان يسحب خصلات شعره للخلف، محاولاً تهدئة ارتجاف صدره. لكن حتى دفء يديه لم يكن كافياً لطمأنة روحه المرتعشة. كان يعرف أنه في حاجة إلى حضن آخر، إلى شخص يشعره بالأمان.

دقّ جرس الباب، فنهض متثاقلاً ليفتحه، ولم يتوقع أن يجدها هناك أمامه، "حسناء"، التي ما إن رأته حتى اندفعت نحوه واحتضنته، ممررة أصابعها برفق بين خصلات شعره، كما لو كانت تطمئنه بصمت.

لكنه لم يكن وحده معها؛ عينا "محمد" التفتت إلى ظل شخص آخر عند الباب. كان "عادل" يقف هناك، ويبدو أن غضبه قد اشتعل. اقترب وأمسك بمرفق "حسناء"، قائلاً بحدة:

- إيه شغل العيال ده؟ بلاش جنان، يا حسناء. يلا من هنا.

أزاحت "حسناء" يده بقوة، ووقفت بشموخ أمامه وقالت بحزم:

- لا، مش همشي. لو عندك حاجة، قولها. أنا هافضل هنا مع ابني، واللي عندك اعمله."

حاول "عادل" تهدئة الأمر، وقال بلهجة مترددة:

- يعني أنت شايفة إن ده الحل؟ وبعدين، هو أنا قلت حاجة؟ ما انتي كنت شايفة اللي بيحصل، وما فكرتيش حتى تقوليلي أي حاجة!

لكن "محمد" لم يكن يستمع لكلماته؛ كان ذهنه قد تشتت تماماً مع رائحة عطر "عادل "، التي عادت به إلى ذلك اليوم المشؤوم حين كان مجرد طفل صغير في المطار، يتمسك بوالده، قبل أن تسرقه يد غريبة بعيداً، ويختفي كل شيء كان يعرفه في لحظة.

بينما كان "محمد" يقف على عتبة الماضي الذي فتحته رائحة عطره، كان "عادل" يحاول أن يسيطر على الموقف، لكن ملامحه كانت مضطربة. دفع "عادل" "محمد" بعيدًا محاولًا أن يُبقيه بعيدًا عن "حسناء" وفي تلك اللحظة عاد به الزمان لنفس الموقف عندما دفعه عنه في الماضي، وقال:

- يا حبيبي، روح بس معاهم، والله هاخدك تاني متخفش.

تمسَّك الطفل بذراع والده، ودموعه تملأ وجهه الصغير. قال بصوت مخنوق من بين شهقاته:

- لا تسيبني تاني، علشان خاطري، خليني معاك مش هعمل شقاوة ولا حاجة.

لكن قبضة والده ارتخت بينما جاء "مصطفى" وسحب الطفل بعنف، و"محمد" يمسك بملابس أبيه كآخر خيط يربطه به. وآخر ما اختزنته ذاكرته في تلك اللحظة كان رائحة العطر، رائحة ستبقى معه لأعوام طويلة.

عاد "محمد" للحاضر، متسمرًا أمام "حسناء" وهو يسترجع تلك الذكريات بوجع. تمتم بارتباك، وكأنه يكلّم نفسه:

- لسه مغيرتش البرفيوم بتاعك لحد النهاردة؟

نظرت إليه "حسناء" باستغراب ورفعت حاجبيها متسائلة:

- وانت عرفت منين؟

ابتسم "محمد" بمرارة، وأشاح بنظره بعيدًا عنها:

- أصلها كانت آخر حاجة شفتها منك يوم ما سبتني فاكر؟ فاكر يوم ما بعدتيني عنك؟ أكيد نسيتي، بس أنا عمري ما نسيت.

ثم أردف بصوت متهدّج، وكلماته تنبض بالألم:

- رديني إليك أو رجّعني لنفسي اللي مالقتهاش من يوم ما فارقتني. متسيبنيش في النص، تايه مش ناقصني ضياع.

تابع حديثه بألم متزايد:

- بس عارفة؟ أنا مش ندمان، لأن في يوم هينتهي كل شيء، هتخلص الطرق والأغاني، والليل هيخلص، وهينمحي صدى الأسماء، وحتى رائحة المكان هتتلاشى، لكن إنتِ هتفضلي، هتفضلي وحدك مهما كان.

تدخلت "حسناء" بصوت هادئ، ناظرة إلى "عادل":

- امشي يا عادل، كفاية بقى.

تردّد "عادل" لوهلة، وكأنه يقاوم دافعًا للانسحاب، لكنه قال بنبرة ثابتة:

- أنا هامشي، بس هرجع تاني. كسبت كل حروبي، والمرة دي مش هسيب الحرب. هاجي تاني، وأموت وأنا وسط عيلتي.

خرج "عادل" أخيرًا، تاركًا خلفه كيان "محمد" كعاصفة عاتية فقدت قوتها فجأة. كانت كل كلمات العالم عاجزة عن وصف مشاعره. ثمانية وعشرون حرفًا لن تكفي للتعبير عمّا يشعر به. كان يحسّ بفقدان شغفه بالحياة، يحلق بلا أرض يعود إليها، ضائعًا، وروحه تطلب أن تتكلم، أن تصرخ... لكن شيئًا ثقيلًا يحجب روحه عن الحياة.

اقتربت "حسناء" وربتت على كتفه بحنان، حاولت أن تقوده بهدوء إلى الأريكة ليستريح، لكن جسده كان ثقيلًا وضعيفًا، وبدت عاجزة عن حمله وحدها. صاحت بأعلى صوتها تنادي على "أحمد" طالبةً مساعدته.

"أحمد" أسرع إليه، وأرقد "محمد" على الأريكة، ثم أحضر منشفة دافئة وبدأ يمسد بها على يده بعناية. بينما "حسناء" كانت تخلع أزرار قميصه ليتنفس براحة أكبر.

لكنها شهقت عندما رأت جسده، فصُدمت من تلك الحروق العميقة التي وشمت ظهره، والخدوش البسيطة التي غطت يده.

تلعثمت وهي تسأل "أحمد" غير مصدقة:

- إيه ده يا أحمد؟ مين اللي عمل كده في محمد؟ اتكلم!

ارتبك "أحمد" من سؤالها، وقال:

- ده زمان كان في حادثة، أوضة اتحرقت، ومحمد حاول يطفّيها، بس خد شوية حروق.

احمرت عيناها بالغضب، صاحت به:

- أحمد، ما تستعبطش! دي مش مجرد حروق من نار، دي حروق متعمدة، حروق بالإيد، يعني كانت بتختار أماكنها!

شعر "أحمد" بالارتباك، لكنه حاول أن يشرح بصوت خافت:

- هحكيلك كل حاجة، بس لو محمد أو حد عرف، هتخسري محمد للأبد. أوعديني ما تقولي لحد.

أومأت "حسناء" بالموافقة، ولكن بداخلها كانت مشاعرها تتلاطم بين الغضب والحزن والخوف.

أخذ "أحمد" نفسًا عميقًا، وبدأ في سرد القصة بصوت يحمل الكثير من الألم:

- من زمان، علاقة محمد بـ'سوزي' و'مصطفى' كانت وحشة قوي. في يوم، شاف مصطفى وهو بيغتصب 'وردة'، بنت صغيرة كانت بتشتغل عندهم. مصطفى طول عمره بتاع ستات وحقير. لما عرف إن محمد شافه، ضربه وخطفه، حبسه في مخزن وساعتها محمد سمع 'أنس' و'حسن' وهما بيتفقوا على صفقة مخدرات كبيرة. ما كانش عندهم حل غير إنهم يبعدوا محمد عن حياتهم. بس محمد هرب، ولما الناس لقتوه قالوا عليه مجنون، قالوا إنه عنده انفصام في الشخصية، وإنه بيتخيل حاجات مش حقيقية.

تنهد "أحمد" بعمق، وعيناه تلمعان بالدموع وهو يتخيل المعاناة التي عاشها صديقه بصمت. أما "حسناء"، فكانت تبكي بصمت، تحتضن رأس "محمد" بين يديها، تهمس في نفسها وهي تدرك حجم الألم الذي عاشه...

تنهّد "أحمد" وأكمل حديثه بصوت خافت يحمل حزنًا طغى على قلبه:

- اتعرّض هناك لكل شيء وحش ممكن تتخيله، منهم جلسات الكهرباء، اللي أثّرت عليه وعلى ضغط دمه اللي بقى يرتفع وينخفض فجأة، هي السبب في معظم الحاجات اللي بيعاني منها.

صمت "أحمد" بعد أن شعر بتحرك "محمد"، مشيراً إلى بدء استيقاظه. رفعت "حسناء" القميص وأعادته إلى مكانه بهدوء، حتى لا يكتشف أنها شاهدت تلك الحروق والجروح التي تزيّن جسده.

فتح "محمد" عينيه بصعوبة، ورفع يده ليزيل بقايا دموع عالقة على رموش "حسناء". همس لها بصوت مُرهق:

- كفاية عياط بقى.

ربتت على شعره بحنان وأجابته:

- أنت كويس، صح؟

ابتسم ابتسامة حزينة، تنفس ببطء قبل أن يقول:

- لا، أنا مش بخير. في ضيقة في صدري، دموع معلّقة على أطراف عيني، وقلبي بيوجعني وعقلي بيدور في ميادين فاضية. أنا مش بخير.

احتضنته بقوة، بينما تابع حديثه بنبرة مثقلة بالتعب:

- كنت بغمض عيني، أحاول أرتاح، بس كانت كل الذكريات بترجعلي. كنت بحس إن نفسي بيطلع من ثقب إبرة، مش بتألم. كنت ببلع الجمر. حبست الكلام جوا صدري لحد ما اتعفّن، لحد ما اتصاحبت على الصمت ونسيت الكلام. كنت بختنق، حسيت إن الدنيا كلها اتحشرت في حلقي.

أحاطت "حسناء" وجهه بيديها وهمست:

- لا يا حبيبي، متخفش أنا جنبك. كل حاجة هتبقى كويسة.

نهض بجسده المثقل وهو يضمها بحنان:

- أنا هبقى كويس، إن شاء الله. أنا بس كنت محتاج حد يحضني، حد يشوف كل الدمع المتراكم في روحي، حد يفهم الشتائم اللي بتعافر عشان تخرج من لساني. كنت محتاج أرمي تعبي على كتف حد يقولي إنه معايا... بس ده مكنش بيحصل.

ابتعد "محمد" عنها ببطء، تنفّس بعمق وهو يغادر نحو غرفته. جلس أمام المرآة، خلع سترته بهدوء، وبدأ يلمس جسده برفق. كانت يده تؤلمه بشدة، وملامحه المنهكة تأسر المرآة، وكأنها باتت غريبة عليه. كان يلامس وجهه وكأن ملامحه لم تعد هي، أو ربما اشتاق لما كان عليه سابقًا؛ لعينيه، وابتسامته... يعلم أن الشوق لن يعيد شيئًا، لكنه الشيء الوحيد الذي يملكه كي لا يشفق على نفسه.

تذكر فجأة "هاجر"، التي يعلم أنها ستكون قلقة عليه. أمسك بهاتفه وقرر أن يهاتفها، وبعد لحظات من الانتظار أجابته بقلق:

- أنت كويس؟ طمنّي عليك!

أجابها بابتسامة متعبة وهو يغمض عينيه:

- قبل ما أسمع صوتك؟ ولا بعد؟ حالياً الحمد لله، وفي العادي الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه.

أجابته بابتسامة ارتسمت على شفتيها:

- ربنا يديم حمدك، يا رب.

تنهد بعمق، وقال:

- صوتك يا بنتي كأنه أذان لمن صاموا وما تسحَروش.

كانت تلك اللحظات القليلة هي التي تمثل الحياة بالنسبة لهما، فالعمر ليس في الأرقام المضافة إلى بطاقة الهوية، بل في اللحظات السعيدة التي يحظى بها المرء.

كانت "جيداء" تقف تضع يديها على خصرها أمام "أمير" الذي كان غاضبًا بشدة من حديثها وتصرفاتها طوال اليوم. قال لها بحدة:

- جيداء، قولتلك مليون مرة بلاش تتعاملي مع الراجل ده، وأنتِ اللي بتبدأي.

أجابته بتحد واضح:

- هتعمل إيه يا أمير؟ هتضربني يعني؟ وبعدين ده شغل، وكان محتاج مساعدة مني.

تنفس بعمق وقد فاض به الكيل:

- لا مش هضربك، لكن همنعك تروحي الشغل بسرعة وهو لو محتاج مساعدة، ليه ما طلبش من حد غيرك؟ ولا هو إنتِ بس اللي شغالة؟

شهقت بصوت مرتفع وقالت بحدة:

- تمنعني كمان يا أمير؟ لا، ده إنت زودتها أوي.

تركها واتجه إلى غرفة النوم، قائلاً:

- أنا هنام يا جيداء، وأنتِ راجعي نفسك.

غادر وهو يعلم أنها ستفكر مليًا في كلامه؛ فربما يكون ذلك الحل الأمثل لإنهاء خلافاتهما.

جلست "جيداء" تفكر في كلامه، نعم، هذا الرجل يُعرف عنه سمعته السيئة وتصرفاته غير المستقيمة. بدأت تسأل نفسها إن كانت مخطئة؟ وجدت صوتها الداخلي يخبرها أنها تمادت في الحديث معه وتنست أنه رجل غريب وسيئ السمعة، وأن حديثهما اتخذ منحنى آخر.

تسللت إلى غرفة "أمير" بهدوء، وارتمت بجسدها بجواره، محاولة كبح دموعها، وسرعان ما استغرقت في نوم عميق.

بعد وقت، شعرت بيده تمسد على شعرها، وصوته الرخيم يناديها بلطف:

"يا مَن لا أطيق الحياة بدونها، ولا أطيق أن أراها في عين غيري، يا مَن امتلكت قلبي، استيقظي كما أيقظتِ قلبي للحياة. ينادي في الجنة: اسكن أنتَ وزوجك الجنة."

ارتسمت بسمة على شفتيها، لكنها أخفتها بسرعة وهي تتوجه إلى المرحاض لتتوضأ استعدادًا للصلاة.

نادى "أمير" بتنهيدة ضجر وهو يرى محاولتها إخفاء ابتسامتها:

- كده بتمحي بسمتك يا كل ابتسامتي؟! ما اعتدتُ أن ألقاكِ إلا ضاحكة. قولي لي، كيف لا يتدفق السرور في قلبي عند لقياك؟

في الداخل، كانت "جيداء" تخفي ضحكاتها بصعوبة، خاصةً أنها لم تعتد على هذا الكلام المعسول من "أمير".

أجابته مبتسمة:

- صلي يا أمير، صلي يا بابا، ربنا يهديك.

خرجت بعد أن ارتدت ملابس الصلاة، ووقفت بجانبه لأداء الصلاة. وبعد أن انتهيا، وضع "أمير" ذراعه حول كتفيها وقبَّل رأسها بلطف:

- دعيتِ لي ولا لأ؟

ابتسمت بخجل وقالت:

- دعيت لك يا أمير، إنت لسه زعلان مني؟

ربت على يدها برفق وأجابها:

- لا، بس مشكلتي معاكِ إنك نسيتي إننا هنقيِّم بعض للطريق المستقيم، مش العكس.

تنهدت بضجر طفولي وهي تفرك يديها:

- أنا عملت إيه غلط؟ فاهمني.

رد عليها بهدوء بعد أن ترك صوته المرتفع:

- ده راجل غريب، يعني مينفعش تقفي معاه، وبدون سبب كمان. مفيش أي آداب ولا غض بصر، ولا كلام في سياق الشغل أو العلم.

شعرت بالخزي من نفسها، وكيف نسيت الوعد الذي قطعاه في يوم زواجهما، بأن العمر قصير ولا يكفيهما معًا، وأن الجنة ستكون ملاذهما الأبدي.

قالت بهدوء ودموعها تنهمر:

- حاسّة إني غلطت، يا أمير تفتكر ربنا هيسامحني؟ أنا بصلي وختمت القرآن معاك.

ربت على جبينها بحنان وقال:

- بلاش تقولي كده. كل عبادة منفصلة. يعني الصلاة حاجة، والقرآن حاجة، والاختلاط حاجة تانية. كل حاجة هتحاسبي عليها لوحدها أنتِ مش محجبة، هل ده ليه علاقة إنك ختمتي القرآن أو بتصلي؟ كل حاجة بحسابها.

أعجبها حديثه، ووجدت في نفسها فخرًا بأنه زوجها وداعمها الدائم. همست له بابتسامة:

- طيب، أنا هنام، بس عايزة أقولك إني بحبك أوي أوي، وهفضل معاك طول عمري.

قبّل يدها برفق واحتضنها بتمني صادق أن يحفظها له دائمًا.

فالحياة لا تسير دائما على ما يرام، ولكن بإمكان شخصين أن يتشاركا مظلة واحدة وينجوا معا من العاصفة.

أشرقت الشمس تمحو ظلام الليل ووحشته، وتعلن عن يوم جديد قد يكون أسعد يوم للبعض، وأسوأ يوم لآخرين. يوم يولد فيه الآلاف، ويفارق فيه الحياة الآلاف، من الأطفال والكبار على حد سواء، يوم يحتفل فيه الكثيرون، وفيه تنتهي قصص حب البعض الآخر.

وقف "سليم" أمام منزل "جنى" التي أخبرته بأنها تود مقابلته لأمر هام.

نزلت "چني" من على الدرج بهدوء، كما عكس مظهرها الهادئ. كانت ترتدي فستانًا أسود مزينًا بزهور صغيرة حمراء، وشعرها مربوط كذيل حصان، وبدون أي مساحيق تجميل، مما أضفى عليها مزيدًا من الطبيعة والجمال.

ابتسم لها "سليم" وقال:

- صباح الخير، إيه بقى الموضوع المهم اللي حابة تكلميني فيه؟

حمحمت بهدوء وهي تفرك أصابعها ببعضها:

- سليم، بصراحة في حاجة خبّيتها عليك بس أنا ارتحت لك كأخويا كده وقلت أقولك.

رفع حاجبه مستغربًا وارتسم الذهول على وجهه:

- بعيدًا عن موضوع أخوكي ده، وأنا خطيبك أصلاً، إيه هي الحاجة دي؟

أخذت نفسًا عميقًا وهي تضغط على يديها، وقالت:

- بصراحة، أنا بتعالج عند دكتور نفسي.

تلاشت ابتسامته واتسعت عيناه دهشة:

"إزاي؟ أقصد ليه؟

أغلقت عينيها بتوتر وهي تفرك يديها:

عندي متلازمة القلق المزمن، حصلتلي مشاكل وأنا صغيرة، زي ما قلتلك، أهلي منفصلين، وأبويا ماكنش موجود من يوم ما عرف إن ماما حامل فيا. بعدين رجع، وطلب ياخدني من ماما، لكن هي رفضت، فخطفني ويومها، واحد من اللي كانوا معاه حاول يتحرش بيا.

وجدت يده تمسك بأصابعها القلقة، وقال بهدوء:

- مش عاوز أسمع أكتر لو ده بيريحك، أنا فهمت كل حاجة. كل شيء كان واضح: خوفك من الصوت العالي، ومن قرب الناس، ولبسك طبقات كتير، وجسمك اللي دايمًا بتحميه بإيديك. أنا آسف على كل اللي حصل. آسف إن الدنيا ما كانتش في صفك، وأنا مش موجود. بس بوعدك إن عمري كله ليكي، وإنّي مستعد أضحّي علشان ما تخافيش تاني. ده مش كلام إنشا؛ حياتي ماكانش ليها معنى من غيرك، وأنا مستعد أحارب علشان تبقي معايا.

ابتسمت رغم دموعها التي انهمرت بهدوء على وجنتيها:

- عندي سؤال ووعد هتقدر تحبني وأنا مشتتة؟ هتقدر تحبني لما أبهت وأطفي؟ هتحسسني بالأمان لو لجأت ليك بعد ما أهرب من كل الناس؟ هتقدر تكون سند ليا ولأولادنا في المستقبل؟ هتقدر تتحمل المشاكل اللي ممكن تحصل؟ لو تقدر، أوعدني.

ابتسم، وترك أصابعها، ومدّ يده بمنديل لتجفيف دموعها:

- أوعدك، لو ربنا كتبلي عمر، هيكون كله ليكي، وده وعد قدام ربنا.

مسحت دموعها وابتسمت بهدوء:

- طيب، هحاول أشرح لك نفسي علشان تتفاهم. أنا مش شخصية مثالية، ولا عايزاك تشوفني كده. أنا حد بسيط بحب طبيعتي، بحب الكلام الحلو، لكن مش بحب النفاق. مش بحب الزحمة، والبيت بيكفيني. الهدايا الغالية ما بتعنيش لي، بقدّر ما يهمني معناها. بسامح بسرعة لأني بخاف من البعد.

أجابها وهو ينظر إلى الطريق أمامه:

- على فكرة، فينا حاجات مشتركة إحنا هنتحرك فين دلوقتي؟

ابتسمت برؤية ابتسامته:

- هنروح لدكتورة "حياة"، علشان تعرّفك أكتر على حالتي، تمام؟

حكّ مؤخرة عنقه وهو يفكر:

- هي حياة دي جوزها دكتور، واسمه نبيل، صح؟

رفعت حاجبيها بدهشة:

- أيوة، فعلاً. عرفت منين؟

ابتسم بتذكره صديقه الآخر الذي يذهب لنفس الطبيب:

- لا، ولا حاجة، كمّلي اللي كنت بتقولي.

أجابت وهي تنظر للطريق:

- كنت بقول إن ليها وجهة نظر في العلاقات، إنها بتشوف إننا مش محتاجين الحب بقد ما محتاجين إحساس بالثقة نوع من الثقة اللي مهما مرت علاقتنا بمنعطفات قوية تبعدنا، أكون واثقة إنك هترجع، وأعرف إن اللي بينّا أكبر من كده.

نظر لها بابتسامة مطمئنة ارتسمت على وجهه:

- طيب، أوثقي فيا، وأنا هبهرك والله، أنا مبهر أصلًا.

علت ضحكاتها بعد أن فشلت في السيطرة على نفسها، وشاركها هو الضحك، بينما بداخله يؤمن أن رحلتهما قد بدأت للتو، وأنه سيصبح يومًا الفائز بقلبها وعائلتهما.

بينما كانت حسناء جالسةً على الأريكة، وعلى غير المتوقع، لم تكن تبكي، بل كانت تفكر في كيفية ترميم ما تبقى لها من ذكريات والدها وزوجها. رغم ما حدث، ما زالت تشفق عليه؛ فهي تعرف ما مر به من أشياء سيئة، وتعلم أنه رغم القوة المرسومة على وجهه، فإنه من الداخل هشّ، يحتاج أن يعيش حياة طبيعية كبقية البشر. قطع شرودها طرقات على الباب. نهضت وذهبت لتفتح الباب، لتجد هاجر تقف أمامها بهدوء، كعادتها.

هبط محمد الدرجات بسرعة، ثم قال مازحاً:

- نوّرتي يا هجورة، عاملة إيه ؟

أجابته بهدوء وهي تجلس بجوار حسناء:

- الحمد لله، أنت كويس، صح؟

كان في نبرة حديثها رجاءٌ كي تطمئن عليه، فابتسم لها بهدوء وأجاب:

- بخير، الحمد لله، لا اليأس يثنيني، ولا الأحزان تكسرني؛ فجراحي عنيدة، تلتئم حتى بلسع النار.

غمزت له حسناء بمزاح، وقالت:

- لغة عربية فصيحة، حلو أوي! أطمن عليك.

ردّ عليها "محمد بثقة تسللت إليه فجأة:

- طبعاً اطمني محدش يقدر عليا .

نظرت إليه هاجر بدهشة، وقالت:

- واضح إننا دخلين على أيام زي الفل، بس بلاش غرور. بلاش تنسى إن بيقولوا إنه من كل واحد بيتخلق أربعين شبيه!

ابتسم وهو ينهض، وأخذها إلى الخارج ليذهبوا إلى العيادة الطبية عند حياة:

- ده مش غرور، ده ثقة بالنفس. بعدين، هيهات أن يأتي الزمان بمثلي، إن الزمان بمثلي لبخيل؛ مفيش مني نسخ، أنا الأصل.

تنحنحت حسناء خلفه وقالت بسخرية:

- ترجسية ليفل الوحش، يا محمد!

صعد محمد إلى السيارة بعد أن فتح الباب لها، ونظراته ملينة بكلمات لم يُدرك إن كانت امتناناً لوجودها إلى جانبه، أم فخراً بها. كان يريد أن يخفيها داخل قلبه من قسوة الحياة، حيث لا يمكن أن تشارك في هذه المعركة؛ يجب أن تكون في أمان.

تساءل بلهجة استفسارية:

- مامتك عملت إيه امبارح، صح؟

إبتسمت إبتسامة داكنة مليئة بالحزن وقالت:

- ولا حاجة، كالعادة عارف، أنا اتولدت في بيت لا يناسبني، ومع عائلة لم أنتمي إليها يوماً؛ اتولدت في بيت محكم ضلوعي، في سطور لا تصفني، في بحر لا يُطفق ناري.

أجابها بهدوء، متفهماً ما قالته؛ فهو يعلم جيداً ما يمكن أن تفعله تلك العائلة:

- يبقى صدقيني لما أقول إني ممكن أنسى اللي حصل، لكن أعجز عن نسيان اللي حسيت بيه.

أردف "محمد" مبتسماً:

- مش أنا حلمت بـ هيثم ونائل وسمر امبارح؟ كان حلم حلو أوي.

قص عليها الحلم الذي رأى فيه أرواحهم تتلاقي. كان يراهم في منزلهم القديم؛ سمر جالسة وتضع رأسه في حضنها، تعبث بخصلات شعره كما اعتاد منها، بينما نائل منغمس في حاسوبه ويتحدث إليه. كان هيثم بجانب والده نوح. نهض محمد في الحلم ونظر إليهم بفرحة، ثم اقترب نوح واحتضنه بشدة، وهو يربِت على ظهره بحنان. كان في غاية السعادة حتى استيقظ على كابوس الواقع.

ابتسم محمد بتأثر وهو يتذكر:

- اللي يقتلني فعلاً إني ما عنديش فرصة أشوفهم مرة تانية، أسمع صوتهم أو نصيحتهم. مفيش حاجة مألوفة بعد رحيلهم، لا حاجة كما كانت ولن تكون. نفسي أشوفهم مرة واحدة بس، أعيد فيها ترتيب كل حاجة جمبهم.

قالت له بحزن:

- ربنا يرحمهم يا رب. عارف ده معناه إيه؟»

سألها متعجباً:

- معناه إيه؟

أجابته محاولة إدخال السعادة إلى قلبه:

- ده معناه إنهم شايفينك وحاسين بيك، علشان كده شوفتهم.

ابتسم بسعادة بدت على وجهه وقال:

- بجد يعني شايفني!؟ عارفة، أنا مبسوط أوي، بس ليه مقدرش أكلمهم؟ أنا دايماً بكلمهم وبكتب لهم كل حاجة ما ببكيش، بترجم دموعي لحروف وأدوّن اللي بشعر بيه.

توقفوا أمام عيادة حياة ونبيل، فقال لها محمد:

- أوعدك، طول ما أنتي معايا مش هتحسي بأي حاجة وحشة تاني.

وفي اللحظة نفسها، توقفت سيارة سليم وچنى نظرت هاجر إليهما باستغراب، لكن قطعت الموقف جنى بقولها:

- أيوة، اللي في بالك صح. أنا كمان طالعة للدكتورة، وأظن إننا اللي فتحنا لهم العيادة النفسية دي.

انفجر محمد وسليم في الضحك، وأردف محمد مازحاً:

- شكراً يا أختي، الله يكرمك. اتفضلي بقى.

بعد قليل، جلست جنى أمام سليم، وبينهما حياة التي بدأت تتحدث بشكل عملي وهادئ:

- بص يا "سليم"، چنى أصرت إنك تعرف كل حاجة، بصراحة مش فاهمة رغبتها، لكن هشرح لك الموضوع ببساطة. هي عندها ذكريات مرت فيها بضغط كبير، وده السبب في إنها تعاني من قلق مزمن.

أكملت حياة شرحها بهدوء:

- من أعراض القلق أو آثاره الجانبية: الشعور بالقلق أو التوتر، صعوبة التركيز أو النوم، الدوخة أو خفقان القلب، الشعور بالخطر الوشيك أو التشاؤم، زيادة معدل ضربات القلب والتنفس (فرط التهوية)، التعرق، الارتجاف، الشعور بالضعف أو التعب، ومشكلات في الجهاز الهضمي، وغيرها. غالباً، بتحس إن فيه دافع إنها تتخلص من كل حاجة بتسبب لها القلق.

تحدث سليم بهدوء محاولاً استيعاب ما يحدث والتأقلم مع الوضع:

- طيب، هو في علاج للحالة دي ولا لأ؟

أجابته حياة بابتسامة عريضة:

- أه، طبعاً، في علاج. لكن العلاج بيتطلب وقت، ويتابع فيه الطبيب الحالة، كمان مهم جداً تبعدها عن أي مواقف تزيد قلقها، وتكون جنب حد بيثق فيها وبيفهم وضعها.

أجابها سليم بهدوء، وهو يحتسي من كوب الماء أمامه:

- طيب، أنا هكون جنبها دايماً. المهم اكتبي لي كل الحاجات اللي المفروض نمشي عليها.

كانت جنى في حالة قلق، لم تستوعب تماماً أنه الآن يعرف كل شيء، وهي التي اختارت أن تبوح له. لكن هناك جزءاً في قلبها شعر بالارتياح لأنه تقبَل الأمر بهدوء، وبفهم كبير. تحدثت له بهدوء قائلة:

- للأسف، أنا من الناس اللي ذاكرتهم قوية في المواقف السيئة. مهما تغير الوضع، بفضل فاكرة، ومش بقدر أقاوم. كل كلمة اتقالت بتعيد نفسها قدامي كل شوية… شريط بيعيد نفسه، وأنا مش بقدر أوقفه.

أكملت جنى حديثها بهدوء، وكل كلمة تنطق بها كانت تمنحها شعوراً متزايداً بالراحة:

- أنا بعاني من التعمق. عمره ما كان فيه موقف في حياتي عدى كده وخلاص. للأسف، كل موقف بيعيش معايا؛ فاكرة نبرة الصوت، نظرة العين، كل حاجة بأدق تفاصيلها بصورة مُرهقة.

ارتسمت ابتسامة هادئة على شفتي سليم، شعر بأن له دوراً مهماً في حياتها، وأنه مسؤول عن دعمها، وسعيداً بثقتها به وبأنها اختارت أن تصارحه بكل شيء.

قال لها مطمئناً:

- اطمني، مفيش حاجة هتحصل تاني وأنا معاكي. متنسيش من أول لحظة شوفتك فيها وأنا بطمنك، ده أنا حتى اديتك من أكلي!

انطلقت ضحكاتهما معاً بمرح، بينما كانت حياة تنظر لهما بدهشة وابتسامة هادئة ترتسم على وجهها، مستمتعة بتلك اللحظات الدافئة التي تجمع بينهما.

بعد مرور بعض الوقت، جلست هاجر بجانب محمد ينتظران قدوم حياة. طال الانتظار قليلاً، مما دفع هاجر لقطع الصمت بسؤال حاولت من خلاله إبعاد التوتر بينهما، قائلة وهي تبتسم:

- انت متأكد إن اللي بتعمله ده صح؟

رفع كتفيه بلا مبالاة وهو يحرك قدمه، وأجاب:

- والله ما أعرف، بس يعني هو في حاجة صح في اللي بيحصل ده؟

ابتسمت من ردوده التي تخفف من وطأة الموقف:

- صح، مفيش حاجة صح.

رد وهو يضع يده على الطاولة ويحرك إصبعه، ملاحظاً للمرة الأولى منذ خروجه من المستشفى أنه يستطيع تحريكه بسهولة وبدون ألم:

- بص إيدي بقت تتحرك كويس، فجأة كده، صح؟»

لمعت عيناها بسعادة غامرة؛ منذ زمن لم تشعر بهذه السعادة، فقد كانت تلوم نفسها على ما حدث له. سألته بتردد:

- مبروك، الحمد لله محمد، أنا السبب في اللي حصل لك؟ ساعات بحس إن كلام رزان وماهي صح وإن أنا السبب في اللي حصل لك من زمان ودلوقتي.

زفر بعمق ومسح وجهه بهدوء، ثم قال:

- لو أنت السبب في حاجة، فهي إنك السبب إني بعافر. لأول مرة بحس بالأمان مع حد، وسند بأقدر أستند عليه وأنا مطمئن. أنا مستعد أتعافى... بس معاكي. خلينا نحاول نكون سوا، يمكن نعرف نبقى في أمان.

ثم أكمل حديثه بنبرة هادئة:

- مفيش حد معصوم من الغلط. عاوزك تتقبلي ده. أنا كمان كسرت قلب حد، وارتكبت ذنب أبكاه ليالي. أنا كمان كنت سيء بما يكفي في يوم من الأيام. كلنا مذنبين.

ولأول مرة، شعرت هاجر بشعور خفيف كالتحليق، كأن أجنحتها تمتد لتملأ المكان، وأخذت تهمس بابتسامة:

- أنا مش قادرة أوصف لك قد إيه أنا مبسوطه بجد شكراً، إنك هنا معايا. عارف، يمكن خطأي إن ولا مرة سقطت على كتف أب أو حضن أم. دايماً كنت بسقط على نفسي، أغرق بداخلي، وأحس بضيق أضلعي بيخنقني. لكن دلوقتي حاسة إن في حد في ضهري.

اقترب منها ببطء، محافظاً على مسافة بينهما، وتحدث بصوت خافت، قائلاً:

- أحبُك.. في زَمانِ الخوفِ والغُربة

أحبُك رَغمَ أحزاني

ورَغمَ ظروفنا الصعبة

وإنْ أصبحتُ لا أهلٌ ولا أحباب

أراكِ الأهلَ والأحبابَ والصُحبة

ولا أدري لماذا يا مُنَى قلبي

إذا ما الخوفُ حاصَرَني

لِصَدرِكِ دائمًا أجري... أحِسُّ بِأُلفةٍ نَحوَك»

ابتسمت بعمق، مشاعر الحب تتألق في عينيها، ورغم بقاء القلق في قلبها، شعرت بالطمأنينة بوجوده بجانبها.

كان عادل جالساً في وسط الحديقة، منهمكاً في فحص بعض أعماله، لكن ذهنه كان شاردًا في أفكاره. وبدون وعي، أخذ يكتب على الورق بخط جميل ودقيق:

«لا أعلم كيف مضى العمر، ولكنني على حين غفلة، وجدتني أصارع وحشة أيامي وحدي. قلَّ عدد أصدقائي، وأصبحت لا أتحدث كثيراً. يبدو أنني كبرت ولم أكن أعلم.

تطاردني يومياً الأحلام التي لم أحققها، والأشخاص الذين لا أستطيع تجاوزهم، والأماكن التي لا يمكن نسيانها، والأفكار التي تغلي في عقلي ولا تهدأ حتى نفسي، نفسي القديمة تطاردني أيضاً.»

استفاق من شروده فجأة، ونظر لما كتبه. ارتسمت علامات الصدمة على وجهه، وهمس مبتسماً بسخرية: «منك لله يا حسناء، حتى وأنت مش موجودة مأخرة شغلي... بس وحشتيني بردو.»

جلس يسأل نفسه ي عوضاً يمكنه ان يداوي جرح فرقها هذه المرة اي شيء في هذا الكون يمكنه ان ينسي ما مر به .

دلفت "هاجر" إلى المنزل، تشعُ سعادةً، تدور حول نفسها لتحرر مشاعر القلق والتوتر العالقة بداخلها، وتتذكر حديثها، فتزداد ابتسامتها كلما عادت بها الذكريات. لكنها تفاجأت بوجود "أنس" و"قاسم" جالسين مع والدها.

ابتسم "أنس" بشماتة سعادة، وقال:

- طبعاً بعد اللي حصل في الحفلة، والفضيحة اللي أستاذ "محمد" عملها، أكيد مش راضية عن الجوازة دي، صح؟

تبعه "قاسم" بهدوء، موجهاً حديثه لها:

- لحد دلوقتي مفيش جواز ولا شيء رسمي بينكم، خلينا نتفق على معاد للخطوبة، والجواز يبقى وقت ما تحبي. ها إيه رأيك؟

أجابها والدها "مصطفى" بابتسامة زائفة، واضعاً يده فوق كتفها قائلاً:

- أكيد موافقة، مش بيقولوا السكوت علامة الرضا، صح؟

لكن قطع الصمت صوت من الخارج، صوت "محمد" وهو يلقي بلفافة تبغه أرضاً قائلاً ببرود:

- السكوت مش علامة الرضا ولا حاجة، السكوت معناه إن الكلام خسارة فيك.

اتسعت أعينهم دهشةً لرؤيته، بينما هو ابتسم ببرود، ووقف واثقاً في مواجهتهم.

يبدو أنهم نسوا من هو "ديدو"، لكنهم سيتذكرون الآن.

البارت الثاني و العشرون

"العرق دساس"

اطمئن ستخرج من قوقعتك و تغادر تلك البقعة المظلمة التي ظننت أنها مثواك الاخير
سيدخل النور إلى قلبك و تتسلل الحياة إلى جذورك مرة أخري ، ستعود ثمار الشغف إلى اشجارك و ستغذو صحرائك خضراء مزهرة أنها ليست إلا فترة كثرت ام طالت يزورك فيها الخريف حتى تتجدد و تنتعش و تخرج اجمل ما بداخلك .

جحدت أعينهم رؤيته بينهم، بينما كان يتحرك ببرود وثبات، ثم استقر بجانب "هاجر"، ليكون سندًا منيعًا لها. كانت تنظر إليه بامتنان لوجوده الدائم بجانبها.

تحدثت "رزان" بكراهية، وهي تتفحص "هاجر" من أعلى رأسها حتى قدميها بقرف، وقالت:

- أنا مش فاهمة، عجبك فيها إيه لكل ده؟ ما كفاك أذى منها؟

أجابها بابتسامة غريبة ظهرت على شفتيه، وهو يمسك بيد "هاجر" ببرود:

- قوليلي يا "رزان"، أنتِ مجربتيش تأكلي المكياج؟

نظرت إليه بغباء، ظانةً أنه يسخر منها، وقالت:

- ليه، هو أنت شايفني عبيطة؟

رد عليها بجدية، وهو يستند بيده على كتف "أنس" ببرود:

- لا أبدًا، بس يمكن يحلي جواكِ شوية، ولو إني أشك.

حاولت "هاجر" كتم ضحكتها، لكنها فشلت، فضرب كفه بكفها بمرح، بينما كانوا ينظرون إليهما باتزعاج.

تحدث "مصطفى" بنبرة قوية، وهو يمسك بمعصم ابنته ليبعدها عنه:

- اسمع يا بني، ابعد عننا أحسن لك، صدقني محدش باقي عليك.

باداله نظرة حادة، ثم تحدث بوقاحة، قاصدًا إيصال رسالته:

- وجود الرأس فوق الجسم دي حقيقة علمية ثابتة، لكن حكاية إن جوه عقل، دي فيها نقاش. وفي حالتك، جوه دماغك جزمة مش عقل. وما العقل إلا زينة، سبحان من خلقك بدونها.

أمسك "قاسم" بتلابيب قميص "رزان" بغضب، وقال:

- بقولك إيه، أنت مش بمزاجك، يلا، لا ده غصب عنك.

لكن صفعة قوية اصطدمت بوجهه بعد حديثه، مما جعله يرتد للخلف. فقالت له:

- وحسن ظنك بالأفعى مكابرة. فالطبع يغلبها، والعرق دساس! بعد الظن إثم، فكرتك راجل، بس أقول إيه.

وقف أمام "أنس" ونظر إليه بنظرات قوية وحادة، تعلن عن أن غضبها قد ثار، ثم قالت:

قسماً بالله خلقني، لو ما كنت جايب نهايتكم على إيدي، يبقى ما استحقش أعيش. خطيبتي لو حد قرب منها أو من حد يخصني، وحياة أمك، هكون ملابس أمك أسود عليك. يا حليتها.

تحدثت "سوزي" بسخرية، وهي تنظر إليه ببرودها المعتاد:

- عمرك ما هاتتغير، غبي.

أجابها ببرود، وهو يمسك بيد "هاجر" ويقفها بجانبه:

- كل القوانين متغيرة، إلا أنا، دستور ثابت.

واصل حديثه بنفس البرود:

- بالنسبة لـ "هيرو"، هتروح تقعد مع أمي ومتخفوش، أنا راجل مش زي بعض الناس، هاقعد في بيت تاني.

ثم أكمل حديثه قبل أن يذهب، وأمسك برأس "قاسم":

- مُتأسف على العلامة دي.

رد عليه الأخير قائلاً:

- مش هاتستنى حاجة غير كده من واحد زيك، ولا إيه؟!

ابتسم له قبل أن يعطيه كلماته الوقحة:

- وبائع الأحذية لما يشوفك ماراً يفقد متجره. باي يا أبو قسم، باي يا حمايا، تصحبكم السلامة.

صعد إلى سيارته بهدوء، وكانه لا يشعر بحرقة داخلية في كل مرة يرى فيها وجوههم. ولكن، مع مرور الأيام، اكتسب هذه العادة، واحتفظ ببرود تام يظهر على وجهه وملامحه. لكن تلك البرودة كانت نتيجة لنيران مشتعلة بداخله.

بينما كانت هي لا تعرف مشاعرها في تلك اللحظة، ولأول مرة تشعر بالسعادة لوجود أحد يدافع عنها ويعطيها الدعم.
ولكن، شعور آخر كان يخبرها بأن تكون حذرة، وأن لا تتبع قلبها.
تائهة بين هذين الشعورين، ولم تعرف ماذا تفعل سوى الانتظار.

تحدثت بهدوء وهي تنظر إلى هدوئه:

- هتروح فين؟ آه، صح، انت رجعت ليه؟

استفاق من شروده على أنغام صوتها، ولأول مرة يستمع لصوت أجمل من نغمات الشتاء والبحر. علم في تلك اللحظة أنه قد أغرم بها. فقال:

- هنروح عندي البيت، متخافيش، هنام النهاردة في الاستوديو عندي شغل. كنت راجع عايز أقولك نحدد معاد ننزل نختار باقي التجهيزات والشبكة.

رمشت بعينيها بتفاجؤ، ومن حديثه شعرت بسعادة، لكن بعض القلق كان يراودها. خافت من أن الوقت قد انتهى وأن الجدول الزمني سيبدأ:

- إيه، بسرعة كده؟ طيب ما نأجل شويه؟

تنهد بضيق من شكها الدائم وخوفها المستمر من كل ما يخصها:

- تأجل تاني؟ طيب ما تلغي أحسن. "هاجر"، أنا موافق على كل شروطك من البداية، وبعدين أنا مش مستعجل. أنا أصلاً بعمل كده علشانك أنتِ، وأكيد أنتِ شايفة اللي بيحصل.

حاولت أن تبث الطمأنينة داخلها وهي تسحب نفسًا عميقًا إلى أعماق رئتيها، وربتت فوق يدها وكأنها تواسي نفسها:

- ماشي يا "محمد"، أنا موافقة.

شعر بالخجل من حديثها، وأدرك أنه ربما يكون قد أغضبها:

- أنا عاوزك تبقي مبسوطة. الحاجات دي مش بتتكرر تاني أو يمكن تتكرر مع حد تاني؟

استنكرت حديثه وهي تدير رأسها للجهة الأخرى:

- والله، طيب براحتك.

أجابها بتوضيح بهدوء:

- مقصديش حاجة، والله. أقصد إن مافيش حد يعرف نصيبه فين، يعني ممكن تتجوز وأموت، أو نطلق يعني يكون نصيبك في مكان تاني، فاهمة؟

برقت عيناها وأصبح بؤبؤا عينيها لا يتحركان من أثر كلماته:

- إنت مش بتعرف تضبط كلامك أبدًا؟

ابتسم ببرود متناسيًا حديثها، وأجاب بهدوء:

- مش بعرف أكون على طبيعتي غير معاكي، ودة شيء في حد ذاته معجزة.

ارتسمت بسمة خفيفة على شفتيها بهدوء.

- إحنا هنعمل إيه في كم المشاكل دي؟

صدحت ضحكاته عندما وجدها تجمعه في حديثها بنون الجماعة:

- بعيدًا عن كل ده، كلمة "إحنا" حلوة أوي. بصي، أعتقد إن الإنسان لما يقع في حب الشخص المناسب، ساعتها ممكن يسامح من آذاه وأحرق قلبه، لأنه في اللحظة دي هيسأل نفسه: ما حاجتي للعالم؟ عالمي هنا بين ذراعيك، وأنتِ معايا يبقى مش ناقصني حاجة.

صدر صوت احتكاك السيارة بالأرض بسبب وقوفه المفاجئ أمام منزله، بينما هي كانت مازالت شاردة في حديثها، تسأل نفسها: "هل هذا حب حقًا؟"

تحبه؟ تشعر بسكينة غريبة وهي بجانبه، لقد عوضها الله بذلك الذي سيرمم حطام قلبها. تعلم أن الأيام القادمة لن تكون خالية من المشاكل، لكنها تعرف أنه بجانبها، بجانب رجل مسؤول سيحارب معها الحياة بمن فيها ليكون جديرًا بها.

أفاقت من شرودها على لكزة منه في كتفها:

-"هاجر"، أنتِ عايشة؟!

ضمّت حاجبيها باستغراب من حديثه:

- عايشة؟! آه، عايشة يا "محمد".

فتح لها باب السيارة وتقدم خطوة للخلف ليتيح لها النزول بعيدًا عنه، ثم سار بجانبها إلى الداخل وهو يلتهم تفاصيلها بعينيه، تلك التفاصيل التي لا تهم أي أحد سواه، يديها التي ترتجف من أثر الموقف، تنهيداتها التي تعلن أن هناك الكثير من الدموع المكبوتة بداخلها، وحتى عينيها اللتين كانتا تحملان حديثًا طويلًا لن يفسره سواه.

بالداخل كانت "حسناء" تجلس مشتتة، تعبث بهاتفها، والذكريات تعصف بعقلها، كلماته لفتاته، مواقفهم معًا، أيامهم سويًا، كل شيء... لكنها أيضًا لم تتحمل قليلًا بسببه، لا بل تحملت كل شيء من أجله ومن أجل أن تحافظ على حياتهم. هذا الذي سرق قلبه وجعلها تتمنى أن تكون بجانبه حتى موتهم، لكن الحياة لم تسمح لهم بذلك؛ ففي كل مرة يجتمعان، تفرقهم كما تفرق الشمس عن القمر، لا يلتقيان إلا في أوقات الخسوف.

أفاقت على صوت هاتفها يعلن أن هناك رسالة قد وصلت. ضغطت على خانة المحادثات، ثم ظهرت الرسالة التي جعلتها تحدق بتعجب من كلماتها. كانت من "عادل"، ومحتواها:

- قلبي إليك من الأشواق يحترق، ودمع عيني من الأعماق يندفق، الشوق يحرقني والدمع يغرقني، فهل رأيت غريقًا وهو يحترق؟!

نظرت للرسالة بمشاعر متضاربة، بين الاشتياق والسخرية، لكنها قررت أن تتخذ مسارًا آخر وأجابته برسالة أخرى:

- لن أعود، وحتى إن قتلك الاشتياق، ولو انطبقت السماوات على الأرض، يا عزيزي.

بينما هو كان يجلس ينتظر رسالتها بهدوء، حتى قرأ محتواها. برقت عيناها وأصبح بؤبؤا عينيها لا يتحركان من مفاجأته بكلماتها، لكنه تدارك الأمر بابتسامة وقال:

- عزيزتي، لا تتخيلي أن بغيابك تسقط السماوات أو تنفطر الأرض. لن تتوقف الحياة بغيابك، ولن تغيب الشمس ولا ينطفئ القمر. كل شيء سيكون على ما يرام، لكنني أنا من سيحدث لي كل هذا.

قرأت الرسالة مرة ثانية لتتأكد أنه هو من بعثها. لم تتخيل أنه يقول هذا. حقًا عار عليه أن يجلس أمامها بالأيام ولا ينطق بحرف، والآن أصبح شاعر البادية؟!

ضغطت على رسالته وأجابته بتسجيل صوتي وهي تضحك بدلال طاغي:

- من إمتى الكلام ده؟! ما كان من الأول يا بن الحلال!

ابتسم في أثر سماعه لصوتها، الذي جعله مفتونًا بها منذ اللحظة الأولى. ثم بعث لها برسالة صوتية أخرى:

- أنا على وعدي، ما بحبش غيرك، لو الكون كله يحبني.

هل تستطيع أن تقاوم حديثه المعسول، اشتياقها وحنينها له، أم تعطيه فرصة أخرى؟ أخذت تفكر وهي تتحرك بملل على الأريكة، تقول لنفسها بتمتمة:

- فرصة كمان مش هايحصل حاجة، إيه نعم هو بارد ودمه يلطش، بس بحبه بقى... يلا تعتبرها صدقة.

استمعت إلى دقات الباب، ونهضت من مكانها بثقل بسبب جلوسها لفترة طويلة. فتحت الباب فوجدتهما يقفان أمامها، لكن على غير عادتهما. فسألت باستفسار:

- مالك يا "هاجر"؟ في إيه؟

لم تقوِ الأخيرة على الصمود مرة أخرى. حضنتها حضنًا ضعيفًا، وبكت. كم حزن مرّ عليها ولم تشتكِ، ما بعمرها حتى على الجدار اتكأت، ضحكت منذ يومها، واليوم حان بكاءها.

ضمتها بحنان وهي تحملها إلى الداخل، والأخيرة تولت إغلاق الباب. ربتت فوق ظهرها بحنان وهي تمسد خصلاتها:

- اهدئي، طيب، فهميني إيه اللي حصل؟

تحدثت من بين شهقاتها، لا تستطيع أن تلتقط أنفاسها، وكأنها تغوص لتتمكن من الحديث:

- بابا وماما، كانوا جايبين "قاسم" تاني. أنا مش عارفة هما بيعملوا كده ليه.

بينما كان "عادل" يدلف، الذي كان ينتظرها بالخارج في سيارته، ولكن تأخر ردها. لذلك قرر أن يدخل ليستمع إلى حديثهما. دخل بسرعة ليرى ما يحدث.

كان "محمد" يتحدث بطريقته المشاغبة المعتادة، عندما قال لهما بابتسامة ساخرة:

- أيوه، زي ما بيقول المثل اتصالحت المقشة مع البلاعة، والاتنين بقوا جماعة .

لم يكد ينهي كلماته حتى باغته صوت "عادل" من خلفه، مشمئزاً:

- إيه الحكمة المقرفة دي؟!

رفع "محمد" حاجبيه مستهزئاً، ومصمص شفتيه بعشوائية بنبرة شعبية اعتاد المزاح بها:

- و انا في حد زيي في الحكمة دي؟ ده أنا معجم نحوي فصيح!

ألقى "عادل" نظرة خاطفة حادة عليه، ثم تركه واتجه إلى مكان جلوسه بجوار "حسناء"، التي كانت تجلس بينهما "هاجر" في المنتصف. ربتت "حسناء" بحنان على كتف " هاجر " ومسحت دموعها، ثم قبّلت جبينها بلطف وهمست:

- كفاية بُكاء بقى، مش بحب أشوفك بتعيطي كده.

في تلك اللحظة، نظر إليها " محمد " بغضبٍ خفي، متأملاً وجهها الذي أراد أن يكون الوحيد الذي يشاركه أحزانها وأفراحها، ويكون حاميًا لبسمتها نهض بهدوء، ومدّ يده لها وقال بنبرة حانية:

- يلا، ادخلي اغسلي وشك جوّا.

تسللت الابتسامة إلى وجه " هاجر " وهي تمسح دموعها، متخلية عن حساسيتها المفرطة. تقدمت بخطواتها بجانبه، وعيناها تشكرانه بصمت:

- شكرًا إنك دايمًا جنبي.

تأمل وجهها بابتسامة عميقة وتغزّل بها بجدية، تاركاً مسافة قصيرة بينهما:

- البدر وجهك، وضفائرك كلما انسدلت صارت كليلٍ ساحر، وابتسامتك منحوتة بقدرة خالق. تفاحة الإغواء أنت، لو لم أعرفك كنتُ أقسمت أنك زينة الليل وميراث الفراعنة.

اتسعت عيناها بدهشة من كلماته ونظرت إليه باستغراب، مستفسرة بمرح:

- إنت إزاي بتطلع الكلام ده لكل موقف؟ وبتعرف الكلام ده منين؟

ابتسم وهو يستند بذراعه إلى الحائط، متذكراً شغفه الدائم بالمعرفة:

- أنا بحب القراءة، خصوصًا الشعر، وكتبت شوية خواطر بسيطة على قدي، وتعلمت شوية حاجات على الهامش.

ابتسمت، وهي تسير بجانبه، تفكر كم هي محظوظة بوجوده، وكم ستفتخر به كأب وشريك:

- ما شاء الله، أنا فخورة بيك. إنت متعلم حاجات كتير أوي.

تابعت حديثها بهدوء، بنبرة تحاول إخفاء مشاعرها:

- على فكرة، أنا كده هحتاج منك شعر كل يوم. أوعي تقول لحد غيري، مفهوم؟

ابتسم بحب، متأملاً عينيها بنظرة تجمع بين الامتنان والعشق:

- ما عادش غيرك يهمني رضاها، إنت بتغنيني عن الكل.

ثم اقترب منه " محمد " بغضب ساخر، وقال بحدة متصنَعة وهو يراد بجانب والدته :

- كده كتير، يا راجل، مالك واخد راحتك أوي كده؟

رد عليه " عادل " ببرود، واضعاً قدمه فوق الأخرى:

- إنت بتعرف تستقبل الضيوف في بيت الرعب بتاعك؟

شهق " محمد " بصوت مرتفع، وعيناه تلمعان:

- بيت رعب! شايفه ؟!

أومأ " عادل " برأسه قائلاً بنبرة مستفزة:

- بالمناسبة، "حسناء" هتيجي معايا.

قاطعتهم "حسناء" بلهجة صدمة:

- إيه ده! مين قال؟ لا يا حبيبي، أنا قلت هفكر.

نظر إليها "عادل" بنظرات متوسلة مزيفة:

- إنت بقى سهلة عليك كده؟ طيب، مش يمكن حد يخطفني منك؟

ضحكت بمرح وهي تلاعب خصلات شعرها:

- حبيب قلبي، أبقى قابلني لو حد استحملك ساعة. مفيش حد غيري وطايقك غيري أنا و"ياسر". ومعرفش إزاي لسه مستحملينك!

ضحك الجميع بينما هو ينظر لها بتحد:

- على فكرة، إنتي محظوظة إنك في حياتي، راجل فاهمك ومتفاهم.

نهض مرتبًا ملابسه، ثم همس:

- على العموم، لازم أمشي عشان أنام. هكلمك، هتوحشيني.

لكنه، قبل أن يقبّل جبينها، وجد يد " محمد" تتدخل فاصلاً بينهما .

انتبه "عادل" لوجود يد " محمد " الذي لم يترك مسافة بينه وبين "حسناء"، فصاح بغضب:

- إيه القرف ده! إنت بني آدم سمج، واحد ومراته. إنت مال اهلك مالك ومالهم؟

أجابه "عادل" ببرود، وهو يجلس بجانب والدته، واضعًا يده على كتفها ورأسه على الكتف الآخر:

- هو فعلاً مال أهلي، دي أمي .

ابتسم " عادل " بسخرية، وهو يضغط على أسنانه:

- ومراتي، على فكرة! كان يوم أسود يوم ما فكرت أخلفك، كان ممكن أطور هوايتي أو أربي حيوان أليف، كان طلع أجدع منك.

ابتسم " محمد " بسخرية مخفية خلف ضحكته:

- لا حوش، حوش، ربيت أوّي يا عم! روح نام أحسن.

شعر " عادل " بألم داخلي رغم سخريته، وتأثر من كلماته فقال بجدية:

- ماشي، والله لأفضي لك نفسي عشان تبطل تعايرني. بس الأول أجيب آخرك.

ابتسم " محمد " بثقة، وحرك رقبته بتحد:

- قلت لك، مليش آخر.

تركه " عادل" وغادر، لكن قبل أن يبتعد كثيراً، وضع يده تحت ذقن " هاجر " بلطف، وعبث بخصلات شعرها قائلاً:

- خدي بالك من نفسك يا جميلة.

عانقها بلطف وقبل جبينها بحنان، ثم التفت إلى " محمد " قائلاً بتحد ظهر في نبرته:

- هجيب آخرك، بس الصبر.

تنهد " محمد " وهو يسحب شعره للخلف وقال متأملاً:

- الراجل ده شكله كده والله أعلم هيودينا في داهية.

ضحكت "حسناء" بصوت عالٍ، ثم ضمتهما بمشاغبة:

- والله إنتوا عيلة مجانين.

اعتدل "محمد" في جلسته وسألها:

- ها مطمنة كده؟

هزت " هاجر " رأسها بهدوء، لكنها كانت مترددة في الإجابة، وكأنها لا تعرف ما تشعر به بالفعل:

- طول ما أنت موجود مطمنه .

نظر إليها بتفاهم، وأخذ نفسًا عميقًا من لفافة تبغه، ثم قال بجدية:

- وأنا عايش بس علشانك .

تساءلت " هاجر " وهي ترفع رأسها عن هاتفها، قائلة بنبرة فضول:

- "محمد"، بعيدًا عن كل اللي حصل إيه اللي موقفك عن إنك تسامح باباك ؟؟

أغمض عينيه وأجابها بصوت هادي:

- علشان مينفعش خلاص في جدار كبير منعنا .

صمتت " هاجر " تفكر به. شخص مثله، رغم كل ما مر به،

استطاع أن يبقى قويا، صلبا، لكنه أيضا لطيف ومحب لمن حوله. قلبه مليء بالتناقضات، لكنه ناضج، وقوي رغم

هشاشته. هي فقط لا تريد أن تتعلق به كثيرا، فقد خذلها الآخرون من قبل. لكن هذا الشخص، رغم كل شيء، هو

الوحيد الذي شعرت بأنها تريد أن تحمل قلقه وجراحه معه،

وتهديه ضحكة كما أهدى لها الاطمئنان.

أخذوا يتحدثون في مواضيع مختلفة، بينما كانت "حسناء" تُحضّر لهم بعض الوجبات السريعة والمشروبات الساخنة، ثم جلسوا جميعًا يشاهدون فيلمًا ليليًا لطيفًا.

الحب الحقيقي ليس مجرد كلمات، بل هو أن تسعى لتلوين حياة من أحببت بعدما جعلها العالم شاحبة. هذا فقط ما يُسمى حبًا.

كانت "رزان" تجلس في منتصف فراشها، تبكي بحرقة على حبٍ تمنته بصدق، لكنه ضاع منها كالدخان، تاركًا خلفه فراغًا عميقًا. ظلت تحب هذا الشخص طوال السنوات الماضية، لكنّه لم يلتفت لمشاعرها، ولم يكن يرى ما كانت تحمله له من حب وأمنيات. تساءلت بمرارة: لماذا لم يخترها هي؟ ما الذي وجدته فيه الأخرى ولم تجده هي؟ أمواج من الأفكار اجتاحت عقلها بلا رحمة، تمزق قلبها وتزيد من ألمها.

فجأة، انفتح باب غرفتها، ودخلت والدتها، تلك التي زرعت الكراهية في قلبها تجاه والدها وتجاه كل من تحب. تحدثت بنبرة مفعمة بالسخرية والاحتقار لمشاعرها:

- أنت لسه بتعيطي؟ ضعيفة وفاشلة زي أبوكي. بدل ما تفكري في حد أحسن، أو تحاولي تخليه يرجع لك، قاعدة بتعيطي. يا خيبتك يا بنتي!

ارتفعت شهقات "رزان"، وأخفت وجهها في وسادتها، غير قادرة على التحمل والصبر. كان الجزء الأخير من قلبها يتحطم تحت وطأة كلمات والدتها. صرخت بألم:

- كفاية بقا، حرام عليك. أعمل إيه تاني؟ أروح أطلب منه يتجوزني رغم كل اللي حصل من أبويا وأعماله السودا؟ أروح أقول له أنا بحبك ومحدش هيستحملني في الدنيا دي غيرك؟ حتى أهلي مش مستحمليني!

كانت تلك اللحظة هي اللحظة التي تخلت فيها "رزان" عن كل قناع من القوة، وسمحت لنفسها بالانهيار كالشمعة التي تذوب في ركن الغرفة.

نهضت من فراشها بتعب، واستندت على الأثاث وهي تمسح دموعها وآثار الكحل السائل تحت عينيها:

- أنا هاروح له، يا ماما، لازم أروح له.

ولكن قبل أن تخطو خطوة، أمسكت والدتها بمرفقها بقوة، وشدت خصلات شعرها بعنف:

- بترخصي نفسك أكتر من كده؟ عاوزة إيه تاني يا "رزان"؟ اللي خططنا له هيحصل، وهتتجوزي "قاسم". فاهمة ولا لأ؟ وعاجلاً أم آجلاً، الواد ده مش هيبقى له وجود على وش الأرض، سامعة؟ ولو فكرتي تقفي ضدي، والله لأخليكي تحصليه.

تركتها ورحلت، بعدما حطمت ما تبقى من قلبها، تاركةً إياها كدمية ممزقة بلا روح. تمسك نفسها بصعوبة، وتتحدى مشاعرها. ضمت "رزان" نفسها وراحت تشد خصلات شعرها بعنف، تبكي بقهر، وتردد بصوت خافت كأنها تهدئ نفسها:

- متعيطيش، أنتِ "رزان الجبالي"، أنتِ قوية. مش هيشوف غيرك ولا هيحب غيرك.

بعد وقت قصير، كانت "رزان" تهبط من سيارتها أمام مكتبه، تمتلئ بمشاعر الكراهية، والتساؤلات، والغضب. كانت على وشك الدخول، مدفوعة برغبة جامحة للانتقام، لتعذيب قلب أحبته يوما، ولكنه حطمها بلا رحمة.

دخل "محمد" إلى منزله الذي يضم أيضًا "الاستوديو" الخاص به، المكان الذي كان يحلم بتصميمه بكل تفاصيله. كان يجلس إلى طاولة المكتب، يستند بيده ورأسه منحنٍ، وبين يديه كتاب جديد اشتراه مؤخرًا بعنوان "جلسات نفسية."

لكن بينما كان يتأمل صفحات الكتاب، شعر بظل يحجب الضوء من فوقه. رفع رأسه ليجد "أنس" واقفًا أمامه، متكئًا ببرود، وسحب كرسيًا ليجلس مقابل "محمد"، قائلاً بابتسامة باردة:

- تصدق وحشتني والله؟

رد "محمد" بنبرة حادة تخفي غضبه المكبوت:

- وحشتك عقربة، انت إيه اللي بيجري في عروقك؟ ميّة ساقعة ولا كوكاكولا؟

ابتسم "أنس" ببرود متعمدًا إغضابه، وبدأ يعبث بأشياء "محمد" ببرود:

- إزاي وصلت للبجاحة دي؟ جايبها منين؟

تنفس "محمد" بعمق ومسح وجهه بتعب وهو يردُ ساخراً:

- الوقاحة بتبان في طريقتي لما باكشف خبثك. لكن غير كده، أنا أطهر منك.

ردَ "أنس" بخبث وعينيه تراقبان "محمد" ليفهم ردة فعله:

- بص يا محمد، خلينا نكشف ورقنا. عندي مستندات لصفقات مضيت عليها بتوديك للإعدام، وفوقها شاحنات كلها مسجلة باسمك، ده غير الفيديوهات والأوراق اللي تثبت إنك مريض بالشيزوفرينيا. تفتكر مين الكسبان؟

ابتسم "محمد" ساخراً، وضحك ضحكة صاخبة أثارت غضب "أنس". ثم رد وهو يهدئ من ضحكته ويعدل جلسته:

- أنا مش هكشف أوراقي، بس لو فكرت تهددني تبقى غلطان. اللي ماسكه عليك أعظم بكتير، وإن شاء الله على إيدي هلبسك الأساور، وبعدها هشوفك بتتمرجح عند عشماوي.

ضرب "أنس" الطاولة بعنف وصرخ غاضباً:

- وانت موتك على إيدي، متفكرش إن أبوك هيحميك مني! الأحسن لك تعدل طريقتك معي.

لم ينكر "محمد" أن كلامه أثار في نفسه ألمًا قديمًا؛ فهو يعلم أنه إن أصابه مكروه، لن يحزن عليه أحد، حتى والده الذي لم يهتم به يومًا. لكن تلك النقطة المؤلمة دفعت "محمد" للثبات. استعاد ثقته ونظر لـ"أنس" قائلاً بثبات:

- واحد زيي ميموتش بسبب خيانة ولا خوف. أنا شوفت اللي محدش شافه، ميموتنيش إلا أنا وبسببي فقط. ميقبض الروح إلا اللي خلقها.

ثم أشار ل"أنس" ببرود ليخرج:

فضلاً ، اخرج المقابلة انتهت، ولا تنسى تاخد الباب معاك.

بمجرد أن غادر "أنس"، جلس "محمد" منهكًا، واضعًا يده على رأسه بتعب. كان يشعر أن أيامه أصبحت ثقيلة ومتعبة، وكأنه عاش مئة حياة من قبل. الضجيج في رأسه كان لا يهدأ، وكأن حروب العالم تدور في داخله.

استفاق من شروده على صوت دقات خفيفة بالخارج. تقدم ببطء نحو الباب، ليجد "رزان" تقف هناك، تتابعه بعينيها بإعجاب وتدخل دون استئذان، قائلة بابتسامة خفيفة:

- مش هتقول لي اتفضلي يا "رزان"؟

ردّ ببرود وهو يجلس مجددًا:

- ما هو إنتِ اتفضلتي خلاص.

لم تستطع السيطرة على دموعها في تلك اللحظة؛ غصة مؤلمة تكونت في حلقها. قالت بصوت متحشرج:

- محمد، متصدمنيش فيك أكتر من كده. أنا بحبك، مش عاوزة أسيبك، علشان خاطري.

أخذ نفسًا عميقًا وأرجع رأسه للخلف، متسائلًا في نفسه: أحقاً هذا وقتها؟ لماذا تأتي إليه تلك الأمور في وقت واحد؟ لو كانت قد جاءت صباحًا، ربما كان لديه بعض الطاقة للتعامل معها. قال لها بهدوء:

- تاني يا "رزان"؟ إنتِ مش بتزهقي؟ يا بنتي أنا عمري وعدتك بحاجة؟ ولا جيت جنبك؟

أكمل حديثه بنفس بروده المعتاد:

- وبعدين، بلاش كل شوية "صدمتني". طيب ابقي ركزوا في عيوبي من الأول عشان مش كل شوية تيجوا بالدراما دي. أنا مش ناقص، مش صاعقة كهربائية.

تساقطت دموعها بصمت، دموع مؤلمة تنبع من القهر والألم:

- علشان حبيتك، كنت بشوفك قدامي، بحلم باليوم اللي تكون فيه معايا. كنت بشوفك بتدافع عن "هاجر" وعن نفسك، كنت بحلم تكون ليا. حتى الحلم مفيش تصيب فيه؟

شعر "محمد" بالتعاطف تجاهها؛ فقد كانت فتاة طيبة، لكنها ليست الشخص الذي دق قلبه لأجله:

- رزان، إنتِ مش وحشة، ومفيش فيكي حاجة غلط، لكني مش بحبك. أعمل إيه؟ ربنا يكرمك بحد أحسن مني.

دفعته بيديها في صدره بعنف وهي تلعن أحلامها وتنفجر باكية، بينما هو ظل صامتًا كعادته، صامتًا في كل شيء، منتصرًا أم مهزومًا، قلقًا أم مستقرًا، دائمًا ما يواجه مشاعره بالصمت.

نهضت من مكانها بعنف، تسحب خصلاتها للخلف بقوة، لا تريد تصديق الواقع. لم تكن تُريد الإيمان بأنه ليس لها، بل كانت ترغب في تغيير الواقع لصالحها. لو فكرت مرة واحدة بأن تتركه وتتعافى من حبها السام، لكانت الآن في مكان آخر مع شخص آخر

- وأنا قسمًا بربي، ما هسيبكم تعيشوا يوم واحد مع بعض، اعتبرني اللي تعتبره، بس هترجعلي، وحياة أمي لترجعلي.

أمسك بمرفقها بعنف، وهو يسحبها للخارج. كان يجز فوق أسنانه من مجرد حديثها عن إمكانية أن تؤذيها أو تفرق بينهما، مما جعله يشبه الوحش الذي لا يعرف ماذا يفعل:

- واللي خلقني وخلقك، لو قربتي منها، يكون أجلك على إيدي، سمعاني؟

دفعها للخارج بعنف وأغلق الباب خلفها بغضب، مما جعلها ترتد للخلف بسبب قوة دفع الباب. نهضت بسرعة، تمسح التراب عن ملابسها وتمحي دموعها التي اختلطت بمساحيق التجميل. كانت تشعر بالهواء الطلق وسقوط الأمطار الغزيرة في تلك الليلة، وكأنها عارية وسط الصحراء. برودة الجو لم تكن تعادل برودة قلبها الآن.

اصطدمت بجسد نحيل، مما جعلها ترتد للخلف. صاحت به من بين دموعها:

- مش تفتح، يا أعمى؟ أنت نقصاك إيه؟

أجاب ببرود، مقلدًا طريقتها التي أصبحت غريبة عليه:

- هفتح، حاضر المرة الجاية هابقى أسقف قبل ما أمشي في الشارع. ولا أركب زمارة، أحسن.

ابتسمت ببرود في إثر حديثه، وسخرت منه:

- خفيف والله، ما أعتقدش إننا هنتقابل تاني، يا كائن.

شمشم بأنفه بطريقة مريبة، مما جعلها تتراجع للخلف. نظر إليها بنظرة سريعة، متفحصًا مظهرها:

- إنتِ بتبيعي نعناع؟ ميباتش عليك خالص والله، بس أقولك النعناع ريحته تحفة.

برقت عيناها بدهشة، وأخذت نفسًا عميقًا. من أين جاء لها هذا الأخرق؟ أكانت بحاجة لأن تصاب بالشلل في عمر مبكر هكذا!؟

- نعناع إيه، يا جاهل؟ ده 'بادي اسبلاش'، يا متخلف، برائحة النعناع! وبعدين، وسع كده، سيبني أمشي، أنا لسه متخزوقة أصلاً.

تركته يرحل، بينما كان ينظر إليها بإعجاب واندهاش. كانت تلك الفتاة غريبة تمامًا، ملابسها لا تتناسب مع برودة الجو، وشعرها المشعث من المطر، وحذاؤها ذو الكعب العالي. صاح بصوت عالٍ، لكي تستمع له:

- ها، نتقابل تاني يا نعنوعه؟ ها نتقابل؟

وقف "سليم" ينظر إلى السماء وهو يستند على سيارته، يتابع السماء التي تغيرت منذ الأمس. كيف لتلك التي كانت تمطر البارحة أن تكون بهذا الصفاء اليوم؟ شيء غريب حقًا. لكن رائحة المطر كانت تجعله سعيدًا بتلك الأجواء.

استفاق من شروده عندما وقفت أمامه، فتفاجأ بعسليتها تتحول إلى لون القهوة أمام الشمس. شيء مذهل. تمتلك عيونًا تذهب العقل حقًا.

تحدث إليها بهيام وغزل وهو يفتح لها باب سيارته:

"إني رأيت من العيون عجائب، وأراكِ أعجب ما رأيت عيونًا. ما كنتُ أحسب أن طرفًا ناعسًا قد يورث العقل السليم جنونًا."

نظرت"جنى" إليه بتعجب، تشير إلى نفسها بستفسار:

- الكلام ده ليًا أنا بجد؟

أومأ لها بهدوء وهو يقدم لها وردة حمراء قطفها من أحد الأشجار أثناء قدومه إليها:

- أيوة، ليكي. مكنتش أعرف أن عيونك بتتغير كده. احكي لي عنك، أنا مش عاوزك تقلقي أبدًا. احكي لي كل حاجة.

كانت تلك لحظة سلام باليد، لكن الأعمق كان السلام الذي يتنقل عبر العيون، هكذا كان سلمها له.

نظرت إليه باستغراب، وهي تضع الوردة أمامها و تفرك أصابعها بتوتر. أخذت نفسًا عميقًا وبدأت بسرد تفاصيل يومها، وتفضيلاتها، وأشياء من هذا القبيل.

بعد أن أنهت حديثها، انتظرته أن يتحدث. ثم تكلم بهدوء وهو ينظر إليها بتفاهم:

- لا تخبريني عن أحلامك ولا أهدافك، ولا عن ما يثير اهتمامك، ولا حتى عن لونك المفضل، ولا عن الأغاني اللي بتحبيها. لا تتحدثي عن أي شيء جميل. حدثيني عن مساوئك، وكل ما يكرهه الناس فيك. أريد أن أبدأ من هناك، حيث ينتهي الجميع. سأبدأ أنا.

ابتسمت بهدوء، وعقدت حاجبيها بتعجب:

- تبدأ من النهاية إزاي بقى؟

خرج من سيارته وهو يفتح لها الباب:

- مش بيقولوا بداية كل قصة نهايتها فراق؟ أنا هعمل العكس. هبدأ من الفراق، وبعدها نتجمع للأبد لو أراد ربنا.

مذهل أن يكون هناك شخص يحاول بث الطمأنينة إليك.
شخص يعي مقدار مخاوفك، فقرر أن يرمم تلك الشروخ في قلبك و يضمد جروحك.

دلفت إلى غرفته بهدوء وأغلقت الباب خلفها. نظرت إلى

الجدران التي أصبحت مميزة جدا بالنسبة لها. ابتسمت وهي
تتابع بعينيها الجدران. كان هناك صورة كبيرة مرسومة على

الحائط لشخص، لكنه كان شفافا، بداخله ترى أحياء وسيارات
تتحرك. كانت الصورة غريبة بعض الشيء، لكنها عندما اقتربت.

ابتسمت بعدما فهمت معنى تلك الرسمة. ثم وجدت طاولة

صغيرة موضوعة فوقها أوراق بها كلمات وأشعار وقصائد بدت

لها قديمة جدا، وبعض الكتب والروايات.

بينما كانت تمسك بلوحة مرسوم فيها يدان يتفرقان، يد من الواضح أنها لشخص صغير، واليد الأخرى لرجل، وفي أعلى الصورة رسم لعناق، ومدون أسفل اللوحة:

"في لحظة لقيتك يا حبيبي زي دوامة هوا ... رميت الورد، طفيت الشمع يا حبيبي

والغنوة الحلوة ملاها الدمع يا حبيبي ... وفي عز الأمان ضاع مني الأمان

وأتاريني ماسك الهوا في إيديه ... وآه من الهوى يا حبيبي".

عقدت حاجبيها وهي تنظر للجدار الآخر الذي كان مطبوعًا عليه صورة لأشخاص، لكنهم شفافون جدًا. خطواتهم مرسومة بعناية ودقة، وشخص بدون ملامح، لكنه غريب المظهر بملابس غير متناسقة، يحمل بيده سلاحًا وفي اليد الأخرى زهرة حمراء. ومدون أسفل الجدار:

"نعم سرى طيف من أهوى فأرقني ... والحب يعترض اللذات بالألم

لولا الهوى لم تُرق دمعة على طلل ... ولا أرقت لذكر البان والعلم

يا ساكنِي بقلبي لا أعدمت لكم ... معنى لطيفًا سرى معناه ضمن دمي

فيا رفارف روحي في معارجها ... بذكركم كم يداوي بالهوى سقمي".

وجدت ورقة مدونًا عليها بعض الحروف مكونة جملة بخط مميز:

"سأسعى لترميم قلبك دائمًا حتى وإن كلفني الأمر أن أرَمّمه ببقايا قلبي."

أمسكت بالقلم ودوّنت أسفل الجملة، بخط مهزوز لا يماثل الخط أعلاه:

"وإني أدين لأولئك الذين جبروا بخاطري يوما، قاصدين أو حتى بمحض الصدفة، ضماد الروح لا يُنسى."

لم تعلم لماذا هو بكل هذا التعقيد. شخص غريب ومميز. ابتسمت وهي تجلس فوق الفراش، لكنها شعرت بغصة غريبة تجتاح حلقها. أمسك رأسها صوت بداخله، مشاهد لوالدها وهو يعنفها ويغلق الباب، يتركها تبكي لأوقات طويلة بمفردها. مشهد آخر لصفعتها من والدتها وهي تسبها لأنها زادت بعض الجرامات في وزنها. كلمات تصدح في أذنها، وهي تجهش بالبكاء. كانت ترتجف بالفعل من أثر تلك الذكريات التي تعصف بعقلها. مئات الأسئلة بداخلها لا تجد لها أي تفسير.

استمعت لصوت صرير بسبب فتح الباب من الخارج. دلفت "حسناء" بهدوء، وهي ترفع ذراعيها في اعتراف صريح لضمها. اقتربت منها، بينما الأخيرة احتمت في حضنها.

وما زالت شهقاتها ترتفع، بينما كانت الأخيرة تمسد فوق خصلاتها بهدوء. تحدثت بصوت هادئ وهي تمسح الدموع من أسفل عينيها:

- أنا مش هسالك ليه بتعيطي، كل اللي عاوزة أقولهولك إن مفيش حاجة تستاهل كل دد. ممكن كلامي يكون غريب، بس أنا أحسن واحدة تنصحك بكده. أنا فضلت في حزني ده أكتر من ٢٠ سنة، بشتغل وأقفل على حزني لكن السنة اللي قررت فيها أفوض أمري لربنا وأعيش، ربنا رد لي ابني وحياتي .

أردفت مكملة حديثها بهدوء، وهي ما زالت تحتضنها:

- تفتكري دي صدفة؟! لا ده أمر ربنا أنتِ مفيش في إيدك حاجة. استمتعي بنعم ربنا عليك، متفكريش في اللي ضاع منك.

هدأت شهقاتها ومسحت دموعها، ثم تحدثت بحزن لا يزال يملأ قلبها:

بس أنا تعبانه بجد، مش قادرة ليه كل ده؟ أنا كل ما أفكر إني ما عنديش فرصة أعوض كل الحاجات اللي حرمتني منها وكل المشاعر دي، بحس إني بتخنق.

ابتسمت بتفاهم لمشاعرها:

- أومال لو زيي، تخيلي إن عمري ما هاجرب حوار إني أربي ابني بقى، وأجمل مراحل عمره ضاعت وأنا مش معاه. بس لسه، اللي جاي كتير يا حبيبتي، صدقيني. وكمان بقى، إحنا أصحاب. لو لقيتك بتعيطي لوحدك بعد كده، هخصمك حلو كده؟

احتضنتها بمرح وهي تبتسم بهدوء:

- خلاص بقى، ها بقى أنكد عليك معايا.

ضمتها بحب وهي تحاول تخفيف آلامها عنها. تعلم مقدار ما تشعر به، وكما يقولون، لا يوجد من يشعر بمشاعرك سواك من مر بها.

كان يجلس في مكتب مديره ينتظر حضوره، بينما كانت الآلاف من الأفكار تعصف بعقله. كان يحرك قدميه بغضب.

دلف رجل يبدو أنه في أواخر عقده الخامس، له أنف مدبب وعيون شاحبة وسوداء، بجسد غير مرتب وقامة قصيرة. جلس في المقعد أمام الطاولة، وضع يده أمامه بشكل رسمي:

- نعم يا دكتور، في حاجة؟

تحدث "سيف" بغضب، حاول كبحه بشتى الطرق:

-يا دكتور، اللي بيحصل ده مهزلة! بنت صغيرة داخلة تعمل عملية "الواز". إزاي تدخل العمليات ويقولوا إنها داخلة لعملية تانية وتموت؟ وتاخد منه فص من الكبد؟ تقدر تقول لي رايح فين؟

عقد الطبيب حاجبيه بغضب، وهو يضرب مكتبه بشدة:

- إنت بتتهمنا بإيه يا دكتور؟! أظن إن وجودك هنا مقتصر على تدريبك، ياريت تفتكر ده.

صاح "سيف" بغضب شديد، وصل إلى درجة الانفجار:

- لا، أنا قبل ما أكون دكتور، أنا إنسان، ومش راضي عن اللي بيحصل، ومش هسيب حق البنت دي يعدي كده.

في هذه اللحظة، دلف رجل يبدو في منتصف عقده الثالث، ضخم البنية، مخملي البشرة، بعيون خضراء وقامة طويلة، وشعر أسود فحمي. تحدث ببرود واستهزاء واضح في نبرته:

- إيه يا دكتور "إسماعيل"، هو الدكتور مش عاجبك شغلنا ولا إيه؟ أنصحك يا دكتور تمشي بمبدأ معين: "أنا لا أرى، لا أسمع، لا أتكلم".

ابتسم "سيف" بسخرية، يرمقهم بغيظ:

- لو إنت فاكر إني لم أسكت خايف، تبقى مبتفهمش. وعلى رأي أخويا، لما قال "سكت المؤدب من أدبه"، فظن قليل الأدب إنه هيخرسني.

خرج "سيف" بينما ظلوا يحدقون فيه بكراهية وغيظ.
وبدأت المكائد تتشكل في عقولهم لإيقاف هذا الذي بدأ بتحديهم.

كانت تجلس أمام جهازها اللوحي، تدون بعض الأعمال الخاصة بها. فهي تعمل كمدير مالي للاستوديو الخاص بزوجها وأصدقائه. ابتسامتها لم تفارق وجهها وهي بجانب زوجها الذي كان غارقًا في نوم عميق لم تره منذ أيام، لأنه كان ساهرًا بجانبها طوال الأيام الماضية ليراقب حرارتها المرتفعة.

تململ في نومه بثقل، وفتح عينيه بهدوء. فوجد عينيها أمامه كما هي: فاتنة، حتى وإن لم تكن كذلك في عين غيره. هي فاتنته فقط. ضحكاتها، عينيها، كل شيء فيها فاتن، قلبها. ولأنها خفيفة السمار، فإن ملامحها تضج بالفتنة.

- صباح الخير يا زينة بنت الكرة الأرضية والمجارة والمجارات المجاورة.

صدحت ضحكتها بدلال، وهي تعبث بخصلاته، تشعر بسعادة غامرة عندما يدللها بكلماته المعسولة:

- ده صباح الفل على عيونك يا روحي! إيه الروقان ده على الصبح؟!

ابتسم وهو ينهض من مكانه، يتربع فوق الفراش:

- أهو الأيام اللي فاتت دي الحمد لله، يعني مكنتش تمام أوي، فبحاول أخفف عن نفسي.

ثم أكمل حديثه بهدوء، معبرًا عن حب مرادف:

- أنتِ يا زينة، حبك في قلبي عليه حنية زي حب الأقرع للكوفية.

عقدت حاجبيها باستغراب من حديثه، وتمردت على فكاهته الغريبة وهي تتمتم بالاستغفار:

- إيه ده؟! الكلام ده إيه؟!

ثم تحدثت وهي تخرج من الغرفة:

- بص يا عز، انسي حوار الغزل ده خالص لو حابب علاقتنا تكمل.

حدق بها بغضب، وألقى الوسادة بجانبه ثم مسرعًا ذهب إليها ليحملها بين ذراعيه، ويدور بها، ويلقيها فوق الفراش.

ثم تركها وهو ينظر إليها بضجر طفولي:

- أنا غلطان أصلًا إني بحاول أكون رومانسي معاك!

ابتسمت في أثره بإعجاب، وقد شعرت بالسعادة لوجوده معها. ما أجمل أن تجد روحك الثانية.

كان يقف يتأمل نجوم الليل التي بدأت بالظهور. كان المنظر رائعا، صوت من يحب والنجوم في السماء، والليلة ممطرة. رغم غضبه الشديد وإرهاقه طوال اليوم. لم يفوت حديث الليل مع رفيقته، روحه وسمائها. سرد لها كل ما حدث طوال اليوم. وهو يستمع لحديثها بانتباه. كم يحب سماع نصائحها وحديثها بشكل عام.

تحدثت بعد تهيدة طويلة منها، مطمئنة بوجودها بجانبه:

- إن لم تسعك الأرض يومًا، فتذكر أن لكِ منزلًا آخر هنا في قلبي وفي أعماقي.

ابتسم في إثر حديثها، الذي كان كضماد لروحه التي تقوى بها. مصدر قوتها الوحيد هو ابتساماتها:

- والله ما سريتُ بظُلمة إلا رأيتك في النجوم سمائي، والله ما هتف الفؤاد مناجيًا إلا واسمك جاء بين دعائي.

تحدث وهو ينظر إلى السماء، يتخيل ماذا لو كانت هي بجانبه:

- ماذا لو كنا في ظلمة الليل، جالسين نتأمل النجوم معًا، وأخبرتك أن عينيك أجمل منهم؟ لو أخبرتك أن هناك الكثير حولي، لكني لا أريد غيرك، يا كل كلي.

ابتسمت في الجهة الأخرى، وهي تفكر في وجوده معها، لكن القلق بدأ يتسلل إلى داخلها، هذا الشعور الذي يجعلها تضع مئات الاحتمالات السيئة:

- أوعدني أنك مش هتتغير أبدًا عليّ

تحدث وهو يضع يده فوق صدرها، الذي شعر بخفقانه السريع، لكنه لم يهتم لكونه قد تأقلم على هذا الشعور:

- وعدًا، لآخر نفس في عمري هافضل أحبك.

وعدا بالبقاء، وكم من وعود أخذت للبقاء ولم تدم.
وعدا سيكون للزمان لوجودنا معا.

أمسك "محمد" بقلمه محاولًا إيجاد كلمات تصف ما يشعر به، لكن لا شيء يصف اشتياقه. كتب الكلمات بجانب بعضها بثقل وهو يسحب أنفاس سيجارته الأخيرة قبل أن يلقيها أرضًا ويدعسها لتسقط جنبًا إلى جنب مع أمثالها الذين لقوا حتفهم قبل لحظات.

"أتذكرك عند كل عمود إنارة منطفئ، لأنك علمتني أن الرؤية لا تختفي في الظلام، وأن الضوء منا وفينا. ولأن الأشياء الكاملة ليست موجودة أصلاً، فهي مرئية حتى وإن لم تكن مضيئة. ولأنني ألاحظك حتى من بعيد، كما علمتني."

اشتياق بقلبه وحزن يلازمه ولا يفارقه أبدًا. مرعبة هي فكرة الفقد للأبد؛ أن تبقى كل تلك المشاعر بداخلك لشخص لن يعود، وأن تظل محملاً بذكريات عديدة لشخص لن تراه مرة أخرى.

أخرجه من شروده "عبدالله" الذي جلس بجانبه يسرد عليه قصة تلك الفتاة التي التقاها وهو في طريقه إلى هنا. تلك الفتاة التي لقبها بذات رائحة النعناع.

صدحت ضحكة "محمد" وهو يسفق بيديه:

- يارب، أنا مجنون ولا إيه؟ حتى وأنا متضايق بضحك! معرفش ده صبر ولا أنا مريض نفسي؟!

اقترب منه "عبدالله" بترقب وهو يقول له:

- بما أنك خبير علاقات وكده، يلا بقى، نصيحة أجيب البنت دي إزاي؟

اعتدل في جلسته وهو يتنهد، شرحه له بأسلوب تعليمي:

- الست تحتاج شوية حنان، شوية دلال، شوية عواطف. أما الراجل يحتاج رقم دلال، رقم حنان، رقم عواطف.

نظر له بغضب وهو يبتعد عنه:

- انت عبيط يا "محمد"!

ألقى "محمد" الوسادة في وجهه وهو يلقي بجسده للخلف:

- يعني وحدة مش عارف اسمها، ولا ساكنة فين، ولا رقم تليفونها، ولا بتشتغل إيه، ولا مين أهلها، وعاوزني أديك نصايح معاها؟! انت اهبل يا بني.

دلف "أحمد" مع باقي الشباب، وألقى لـ"محمد" نظرة فهمها الجميع. بينما تحدث "حسام"، الذي انضم لهم تلك الليلة، وهو يتكئ على كتف "سيف" الذي سرد له قصة المستشفى وما حدث للفتاة الصغيرة:

- والله زمان يا رجالة.

وضع "محمد" يده على الزر الأحمر أسفل طاولة التسجيل؛ مما أدى إلى تغيير الحائط بالكامل، حيث استدار ليظهر حائط آخر أسود، ومطبوع فوق جدرانه عبارات باللونين الأحمر والرمادي، وعبارة مكتوبة في منتصف الحائط:

"إياك أن تقع في دائرة الخطأ. أنت تظن خروجك من الدائرة.

لكن الدائرة لا تخرج أحدا."

بينما كان "عبدالله" ينظر للمشهد بفم مفتوح، لا يفهم ما يحدث، تحدث بدهشة:

- إنتوا دجالين؟! أقسم بالله كنت حاسس إنكم دجالين. يا لهوي عليا! يا لهوي عليا وعلى سنيني السوداء!

تحدث "أمير" على مضض، بحنق وهو يتابع هذا المشهد الهزلي:

- بس يا بابا، بس يا حبيبي! أولًا: سب الدهر حرام يا أهبل. ثانيًا: دجالين إيه يا متخلف؟! انت مدينا فرصة نتكلم ولا نشرح؟

نظر له "عبدالله" بنفس الاستغراب وهو يمسك بـ"أحمد":

- هو أنا اتخبطت ولا مش فاهم حاجة؟! وبعدين دهر مين اللي شتمته؟!

نكزه "أمير" في كتفه وهو يبتعد عنه:

- انت يا راجل بطل غباء! الدهر اللي هو الزمن، وسبه حرام. ثانيًا أنا بهزقك!

ابتسم "عبدالله" بغباء ظنًا منه أنه يمدحه، لكنه استوعب الموقف فوضع يده فوق صدره:

- تسلم يا أبو رحاب.

أمسك "حسام" بتلابيب قميص "عبدالله" وألقى به أرضًا بغضب:

- يا أخي ارحم من غباء أهلك شوية! يا ستير يا رب، أعوذ بالله من غباءك.

أمسك "عبدالله" برأسه من الألم بسبب اصطدامه بالأرض وبدأ في الولولة، قائلاً بعض الكلمات الغريبة:

- "محمد"، ممكن تفهمني في إيه؟ علشان حاسس شكلي غبي.

تنهد "أحمد" بضيق من غباء الأخير:

- حاسس؟ يعني مش متأكد؟! ده المقر بتاعنا. بص، إحنا بنساعد "حسام" و"محمد" في أن الأول يقبض على المتهم، والتاني في انتقامه. فهمت؟

مسح "عبدالله" وجهه وهو ينظر لهم بتعجب:

- يعني بتجمعوا قضايا في الخفاء؟ مش معنى إني قلتلكم إني شايف فساد قدام عينيكوا، تخدوني كوبري للوصول لرقبة " انس الجبالي"؟

تحدث "محمد" وهو يشعر بأن أحمال العالم فوق صدره، الضيق يجتاحه من كل مكان وكأنه داخل قوقعة:

- أنا مش بجبرك على حاجة، بس مش هاسمح إنهم يعملوا "محمد" جديد من تاني. مش هاسمح إن واحد زي "حسام" تضيع عائلته كلها علشان قال الحق.

مسح "سليم" ذراعه بهدوء، وهو يمسك بكف يده الباردة بشكل غير عادي، كحال عينيه المزينتين بالحمرة:

- كفاية يا ابني، بقى انت غاوي تتعب نفسك؟!

ابتسم "محمد" بخزي من حاله وحياته التي أصبحت غير مملوكة له. كل مراحله انقضت بقطور غريب وكأنها حياة شخص آخر تركها له ليعاني بمفرده:

- لازم أفتكر. في حد بينسى حياته؟ ده مش يوم ولا اتنين يا صاحبي.

بينما كان "عز" يتذكر تلك الذكرى التي لم تغرب عن باله عندما أتى إليه "محمد" هاربًا من خاطفيه الذين اختطفوه أكثر من ثمانية أشهر، ظن خلالها أنه لن يعود للحياة مرة أخرى.

زفر "أمير" بضيق، يعلم أن هذا الحديث وتلك الذكريات لم تكن هينة بالنسبة له، بل فتكت بقلبه وهو يتحدث:

- كفاية عليك كده يا "محمد". وانت يا بني، آخرك إيه؟

تحدث "محمد" بعد تفكير عميق حسم به كل حساباته:

- موافق، بس تفهموني اللي بتعملوه ده قانوني ولا هنروح في داهية؟ إيه نظمكم؟

ابتسم "حسام" بثقة مزيفة وهو يتكئ فوق كتف "عبدالله":

- ثق فينا، هنروح في داهية إن شاء الله.

أجاب "أمير" بابتسامة بلهاء وهو يبتعد عنهم:

- أنا قولت كده بردو والله.

تحدث وهو يقترب من موضع "محمد":

- "محمد"، طيب، إحنا مش هناذي حد؟ أقصد، يعني يمكن يتغيروا؟!

عقد "محمد" حاجبيه بسخرية وهو يبتسم:

- يتغيروا؟! آه لو كانوا هيتغيروا كانوا اتغيروا من زمان. وعلى رأي اللي قالها: لو السمك بقى مربي، عمر الشمال ما هيتربى.

جحدت أعينهم وهم يرون شخصًا يدخل أمامهم بشموخ، مرتديًا سترة رسمية، وهو يبتسم بمكر:

- كنت بتجيب في سيرتي يا تلميذي النجيب، صح؟ سبقتك وجيت.

كل الذكريات عصفت بداخله الآن. لماذا الآن؟ ولماذا حكم عليه أن يظل في تلك الدائرة؟

ارتفع شعور داخلي بالضغط، كأن قلبه بدأ ينبض بسرعة أكبر، مزيج من الفوضى والشكوك، كأن كل خطوة تتبعها خطوة أخرى تؤدي إلى نفس الدائرة التي لا فكاك منها.

نظرت أعينهم إلى الرجل الذي دخل، لكنه لم يكن فقط أي شخص. كان شخصًا يمثل جزءاً من الماضي، وهو الماضي الذي أراد الجميع نسيانه. شعروا بنظراته المشبعة بالخبث، فكل شيء في تلك اللحظة كان محاطًا بتساؤلات غير مجابة. هل كانوا حقًا قادرين على الهروب من هذا الهاجس الذي يلاحقهم؟ أم أن الفخ قد وُضع بإحكام بحيث لا مفر؟

أخذ "محمد" نفسا عميقا. وهو يشعر أن هذا اللقاء قد يحمل في طياته قرارا مصيريا. ولكن، هل سيكون قادرا على اتخاذه؟ في تلك اللحظة. تساءل، هل هو فعلا مستعد للاحتفاظ بذكريات الماضي أم أنه يجب عليه أن يخطو للأمام بغض النظر عن العواقب؟

البارت الثالث و العشرون

"محاولة إنتحار"

يأتيك الماضي أحيانا ليذكرك بأن ذنبك لن يغتفر أبدا. أتظن أن الحياة ستمنحك فرصة أخرى لتعيش سعيدا؟ لحظة، هل تعلم أصلا ما هي السعادة؟ أكاد أجزم أنك لم تعرفها يوما. أنت تدرك أن الحياة لن تعطيك فرصة أخرى؛ لست وحدك في هذه الدنيا لتأخذ فرصتك. اعترف، عزيزي، أنك تمنيت أن يحدث هذا. لكنني أريد أن أطمئنك: تلك الفرصة لن تأتي مهما فعلت.

تجمّدت عيناها، ولم يتحرك بؤبؤاهما من هول الصدمة. أحكم عليه بعدم النجاة إلى هذا الحد؟ صراع داخلي، وما أدراك ما هذا الصراع! صراع بين نفسه ونفسه، يحارب ذاته، وهو المتهم في كلا الحالين. لا سبيل للنجاة مهما كان، فالصراع الداخلي مهلك، وتلك الأحاديث التي تدور داخل النفوس بلا إجابة متعبة، وهو لم يقدر على تحملها.

أدرك أخيرًا أن ما يراه أمامه حقيقة، وكم تمنى لو كان داخل أحد كوابيسه الآن ليصحو منها من جديد. ارتجفت يده المستندة إلى الطاولة، وضغط بكل ما أوتي من قوة على الكوب الذي في يده حتى تهشم. جميع من في الغرفة سمعوا صوت تحطم الكوب، لكن لا أحد سمع تحطم آخر جزء متبق من قلبه، ولا أحد سمع صوت بكائه المكتوم، ولا أحد لاحظ ارتجاف يده.

اقترب منه "أحمد" بخوف، وهو يرى الدماء تتدفق من كفه كأنها كانت تنتظر هذا الانفجار. حاول إمساك يده ليضمّدها، لكنه لم يتلقَّ سوى دفعة قوية جعلته يرتد إلى الخلف.

لم تُهمّه الجروح في يده من الأساس؛ لم يكن يشعر بالألم، كان يشعر فقط أن كل شيء قد انتهى.

اقترب منه بنظرات ثابتة لم تختفِ منها ملامح الغضب والكراهية. كانت كل كلمة تخرج منه أشبه بطعنات الخناجر، فقال بفحيح:

- مش كنا قفلنا السيرة وقفلنا الدفاتر؟ إيه اللي جابك يا "عدنان"؟

التفت إليه الأخير ببرود قاتل، ظهر في ابتسامته الخفيفة وهو ينظر إلى اللوحة المعلّقة أعلى الحائط:

- تحفة اللوحة دي يا " حارس"، مين اللي جابها؟

ابتسم بسخرية وهو يضيّق عينيه مقترباً من جسد الآخر:

- أمك، أمك هي اللي جابتها تعرفها؟

ظل صامتًا رغم كل تلك المعارك التي تدور بداخله. لا أحد يفهم معنى أن يواجه الصدمات بصمت تام؛ فهذا الصمت بركان داخلي يتألم ويحترق، ولكنه لا يستطيع أن ينطق، حتى لا يحرق الجميع معه.

ابتسم بسخرية وهو يقترب من اللوحة:

- لوحة جميلة، لوجهين يخرج منهما كل شرور الأرض مجتمعة بهذه الطريقة. أتساءل، ماذا قد يحدث لو اجتمعوا؟مقبولة منك يا روحي، بس ما تنساش اللي بينّا غالي، والمرة دي هدفنا واحد روح واحدة يا " حارس "، روح "أنس الجبالي" .

هناك أيام تعود فيها إلى الوراء، تتكرر مرة بعد أخرى، لا تنتهي أبدا، تتكرر بشكل مهلك مع كل رائحة مشابهة، مع كل حديث مشابه، تعود إلى تلك اللحظة مرة أخرى. وهذا هو شعوره: الطلب نفسه يتكرر ولكن بأسلوب مختلف، والماضي يعود

بطريقة مهلكة. مهلا... هل ما زالوا يظنون أن أخذ الروح وسفك الدماء بهذه البساطة؟

لم يصرخ، بل تنهد بصمت، رغم أن كل شيء حوله كان يدعوه للصراخ. صراعات داخلية لا تنتهي، يشعر وكأن الكون اجتمع لقتله الآن. أخذ نفسًا عميقًا، كأنما سحب هواء العالم بأسره إلى رئتيه:

- دي عند طنط هناك، خلاص توبنا إلى الله، شوف حد غيري، أنا عاوز أكشف الحقيقة، مش بأخد أرواح حد.

وفي تلك الأثناء، كانت عيون أخرى تراقب كل ما يجري. نعم، لقد تذكر كل شيء، ومن يستطيع نسيان من دمر حياته، وقتل أهله، وحرمه من كل ما تمناه؟

اقترب "حسام" من مكانهم بعنف، وكأن الأرض تلتهمه من تحت قدميه، غير مصدق أن من قتل أحلامه وأهله يقف أمامه بكل هذه السهولة. أمسك بياقة ملابسه بعنف ودفعه نحو الحائط:

- ورحمة أمي وديني ما هتخرج من هنا حي!

ضحكة ساخرة ارتسمت على شفتيه ببرود، وهو يمسح الوهمي من الغبار عن ملابسه:

- حضرة الظابط المجتهد، معقولة! ده إنتوا اجتمعتوا بقى؟ صحيح، البقاء لله متأخرة شوية.

أمسك "محمد" بحركة "حسام" من الخلف محاولاً منعه، بينما الجميع يتابع ما يحدث دون فهم:

- سبني يا محمد! سيبني، ال*** ده مش هيخرج من هنا حي!

قالها "حسام" بقهر يحتل ملامحه؛ فاض به الكيل، والانتقام أعمى عينيه. أما الآخر، فابتسم، وأخذ يهندم ملابسه ويشير إليهم بإصبعه:

- هاجي تاني يا "حارس" متنساش تراقب الساعة، تيك تك توك .

ألقى " محمد " عليه نظرة قاتلة، لو كان للنظرات شعاع لأحرقه:

- الحارس مات، ومش راجع يا عدنان! انسى اللي قدامك النار اللي هتحرقكم كلكم.

أفلت "حسام" منه بعد أن خرج "عدنان"، تاركًا وراءه نظرات الغضب والحزن وعدم الفهم:

- ليه ما سِبْتنيش يا غبي؟ تعرفه منين؟ اتكلم!

قالها "حسام" وهو يدفع "محمد" بعيدًا. أما "محمد"، فكان كجثة هامدة، لا يبالي بشيء، وكأنه توقف عند بداية الموقف. موقف واحد جعل منه شيخًا يحمل خمسين عامًا على كتفيه، رغم أن عمره لم يتجاوز الثلاثين بعد.

أمسك بزجاجة أمامه، وألقاها على الآخر بغضب شديد لم يعد يستطيع تحمله:

- اتكلم، يا أخي اتكلم، حرام عليك!

تفادي " محمد " الزجاجة بجسده، فانخفض حتى تهشمت على الحائط، ثم اعتدل وهو يسحب خصلاته للخلف بعنف، يحاول التقاط أنفاسه بصعوبة شديدة، يشعر بحرارة تسري في جسده وكأنه يحترق، أصوات مشتتة من الضوضاء تتردد في رأسه دون أن يفهم منها حرفًا، جسده يرتخي، ونبرة صوته بدأت تختنق، حتى أنه تلعثم في حديثه:

- كفاية اسكت، مش عاوز أسمع ولا كلمة يا حسام، كفاية.

رحل مسرعًا، الأرض تلتهمه من تحت قدميه، لا يقدر على سماع كلمة أخرى أو حتى الوقوف لدقيقة.

قاد سيارته بعيدًا، يلتقط أنفاسه بصعوبة شديدة، يضع يده على عنقه محاولاً التقاط أنفاسه أو حتى الشهق، ويده التي تؤلمه بشدة كأن جسده يخونه في أصعب أوقاته.

توقف بسيارته أمام المقابر، المكان الأول الذي قرر الهرب إليه بعد ما حدث.

دلف بتشوش، والآلام تنهش جسده، وصداع رأسه لا يتوقف، ضوضاء العالم وحروبه تجتاح عقله، وجرح يده من الكوب ما زال ينزف، ويده عادت تؤلمه بعد أن كانت شُفيت قليلاً.

أرخى جسده بهدوء مستسلمًا لإنهاكه، زفر بعمق محاولاً التحدث، لكن حنجرته منعته، فلم يكن قادرًا على الكلام، اشتدت رغبته في البكاء حتى خنقت حنجرته، وكأنه يريد أن يبكي عن كل آلامه دفعة واحدة، حتى يجف دمعه ولا يبكي مرة أخرى.

تحدث بتلعثم وهو يحاول استعادة صوته، فحمحم بخشونة:

- وحشتوني تعبت، مش قادر خلاص ما بقيتش عارف أنا مين.

حمحم مرة أخرى، ونظم أنفاسه بصعوبة بالغة، وكأن أحمال العالم جميعها فوق عنقه، اقترب من اللوحة التي كُتب عليها اسم "نائل"، ولمسها بهدوء، شعور الحنين يطارده من كل مكان:

- من يوم وفاتك، كان تاريخ وفاة آخر جزء في قلبي... لسه فاكر الرجفة اللي هزتني لما شفتك ميت بين إيديا، عزائي فيك هيظل عمري كله حتى نلتقي.

احتضن القبر بذراعيه، وكأنه يريد أن ينضم إليهم الآن، يريد ونيسًا يبدد وحشة أيامه. أمسك بقلم كان موضوعًا منذ أشهر، حين تركه عن آخر ما كتبه لهم. في كل مرة كان يدوّن فوق تلك الصخرة بجانب القبر كل حدث جديد أو تاريخ مميز، ولم تكن صخرة بالمعنى الحرفي، بل لوحة من الرخام يسهل الكتابة عليها.

"ليتني قريب منك الآن، ليتني بين ذراعيك، أخبرك كيف أن كل شيء صار صعبا. ليتني أستطيع أن أبكي وأجدك تمسح دموعي، ليتك تربت علي بيديك وتخبرني أن كل شيء سيكون على ما يرام، وأنك ستكون بجانبي دوما، تواسيني بقبلاتك وكلماتك... ليتك هنا."

كان ينظر إلى القبر بنظرة خاوية، وكأنه هو من دُفن في هذا القبر. نعم، لم يضعوا جسده في القبر، لكنهم وضعوا صلابته، قوته، وآماله في الحياة؛ وضعوا كل شيء فيه، إلا جسده.

قاوم نفسه واتكأ على الأرض محاولاً الوقوف. بعد عدة محاولات باءت بالفشل، نجح أخيراً في الوقوف، ملقيًا نظرة وداع أخيرة على القبر، وكأنه يودع جزءاً منه هناك.

نعم، تمكّن منه اليأس؛ فاض به الكيل، وجميع الأبواب أغلقت في وجهه، حتى سبل النجاة باتت مغلقة.

صعد إلى سيارته منهكاً، أمسك بهاتفه، فتظهر أمامه صورة له مع "حسناء" وبجانبها "هاجر". لحظة، كيف ستتحمل تلك المرأة صدمة موت ابنها؟ وكيف ستعيش محبوبته من بعده؟ من المؤكد أنها ستفقد الأمل وتستسلم للأمر الواقع. بسرعة، ضغط لإبعاد الصورة من أمامه، لتظهر أخرى تجمعه بأصدقائه في آخر لقاء سعيد لهم قبل وفاة "نائل"، في زفاف "عز" و"زينة".

ابتسم وهو يراهم أمامه بسعادة، لكن سرعان ما تلاشت الابتسامة حين تذكّر موقف "حسام" معه، وكيف سيبغضه عندما يكتشف الحقيقة.

ضغط على أيقونة الرسائل النصية، ودلف إلى محادثتهم الجماعية. وجد رسائل كثيرة، مليئة بالقلق عليه وتساؤلات عن مكانه وأشياء مشابهة.

أخذ نفساً عميقاً، ثم أخرجه، وكأنما أخرج معه أثقال العالم التي كانت تُثقل أنفاسه. كتب رده على رسالة من "سيف" كان يلومه فيها على هروبه المستمر، قائلاً إنه كان يجب عليه أن يشرح لهم الأمر:

"عن ماذا كنت أخبركم؟ هل عن حزني؟ أم عن شتات عقلي؟ أنا غارق في عمق الألم. هل كان يجب أن أتألم إلى هذا الحد؟ لا أحد يعلم كم هي مؤلمة فكرة أن صمتي سيستمر لأعوام أخرى. في الحقيقة، فقدت شغفي في هذا العالم، فقدت الأمل في العودة إلى الحياة، فقدت قدرتي على الحديث عن نفسي. لم يتبقَ سوى جسدي، جسد هامد يملأه فراغ يمكن للهواء أن يعبر من خلاله، وعقل مشتت لا يعرف ماذا يفعل أو كيف يتحدث، فقط جسد يسير على هذه الأرض دون وجهة محددة. ولأنني فقدت كل شيء، لم تعد الحياة تهمني. إن متُّ الآن، فلن يحدث شيء بعد مماتي، وإن أكملت حياتي، فلن يتغير شيء. سأختار الموت بدلاً من العيش وسط هذا الألم والشتات؛ الموت أفضل بكثيرٍ من أن أتألم كل يوم ويزداد ألمي. سأكون قريباً تحت الثرى... وسلامٌ على شخصٍ كان يخشى الخوف والألم، حتى أصبح الألم ينبض في قلبه.

كانت رسالته طويلة بما يكفي لتوديع أصدقائه. أراد أن يترك لهم مشاعره كاملة، كي يتذكروا كم عانى قبل أن يتخذ هذا القرار.

وضع الهاتف بجانبه بعد أن تأكد من وصول الرسالة، لكنه لم يستطع ترك كلمة واحدة لوالدته أو لـ"هاجر". لم يكن قادراً على تحطيم قلوبهم أكثر من ذلك. يعلم أن تركهم بلا تفسير سيجعلهم يطرحون آلاف الأسئلة، لكن لا حيلة بيده.

ضغط على مقود السيارة دون أن ينظر للطريق، وقرر أن يمنح نفسه مكافأة أخيرة. أخرج سيجارة ووضعها بين شفتيه، مستمتعاً بآخر أنفاسه. الحقيقة أن لا علاقة أوفى من علاقة المدخن بسيجارته؛ هي تحترق لأجله، وهو يموت بسببها.

ضغط زر تشغيل المذياع داخل سيارته، كان يريد أن يغلق كل دفاتره بابتسامة، تلك السعادة التي لم يفهم معناها يوماً.

أفلت يده من عجلة القيادة وأغمض عينيه، فتح جميع نوافذ السيارة ورفع يده كأنه يستعد للتحليق، كأن الهواء يعبر من خلال جسده.

ارتفع صوت المذياع بتلاوة القارئ "مشاري العفاسي"، الذي اعتاد سماعه منذ صغره في منزل "نوح"، وتلا الآية بخشوع لم يعهده من قبل:

"وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون".

بعد أن كان كل ما يراه ضبابياً، بدأت تظهر أمامه مشاهد مقتطفة من حياته؛ وجد نفسه في اليوم الذي كان يحتضن فيه "نائل" قبل وفاته، لكنه كان يستمع لصوت "سمر" في وداعها، ثم مر أمامه مشهد من يوم تجهيزات زفاف صديقهم، وهو يرقص ويحمل "سيف" معه، واستمع إلى ضحكاتهم. جاء إليه مشهد آخر، حيث كان في حضن والدته يوم أصابته الجلطة الدماغية، وآخر ما سمعه كان صوت "هاجر" وهي تقول: "اوعدني أنك مش هتسبني".

استفاق من كل تلك الذكريات على صوت المذياع مجدداً بنفس الخشوع، قائلاً:

"ونحن أقرب إليه من حبل الوريد."

وجد السيارة تسير في اتجاه عمود الإنارة بسرعة كبيرة وهو على كوبري. أمسك بعجلة القيادة مرة أخرى محاولاً السيطرة على السيارة، لكن الوقت كان قد فات؛ إذ وجد نفسه يصطدم بعمود الإنارة. ارتد جسده للأمام، ليصطدم بعجلة القيادة والزجاج الأمامي.

حاول فتح باب السيارة لكن بلا جدوى؛ يبدو أن السيارة قد دخلت في وضع أمني بسبب الاصطدام. شعر بالإرهاق من كثرة المحاولات، وجرح يده النازف منذ الصباح، إلى جانب الألم بذراعه، وصدمة الحادث، كل هذا جعله يفقد الأمل في المحاولة.

تمتم بشفتين متعبتين وضحكة ساخرة:

- عاوز أنتحر و عامل فيها سبع أرواح، ودلوقتي بقا بحارب علشان أعيش!؟

فجأة، وجد باب السيارة يُفتح من الخارج، لكنه بسبب الضربة التي تلقاها في مقدمة رأسه لم يستطع الرؤية بوضوح، ولم يشعر بشيء سوى أن أحداً حمله خارج السيارة.

شعر أنه في حضن أحدهم، وأدرك أنه يعرف هذا الشخص، نعم، إنه صديقه "أحمد". تحدث بصوت متعب وهو يحاول جاهداً فتح جفونه:

- لو موت، اعرف إني مكفرتش، ووالله ما كنت هنتحر، والله رجعت في كلامي، النية اتغيرت، والله، مش الأعمال بالنيات؟ حقك عليا، والله مفيش في العمر حاجة غالية غيركم.

لم يقدر على المقاومة لحظة أخرى، حتى فقد وعيه بين يدي صديقه.

في مقر شركة "المهدي"، كان الموظفون جالسين حول طاولة الاجتماع، ينتظرون قدوم رئيس مجلس إدارة الشركة، "رائد المهدي". دخل إلى القاعة بشموخ مرتديًا قميصًا أبيض وسترة رسمية بلا أكمام مع بنطال من الجينز، وجلس في المقعد الأوسط للطاولة، وأخرج أوراقه بجدية ليبدأ العمل.

تحدث بجديَة، محمحمًا بصوت خشن:

- النهاردة الاجتماع مخصص لآرائكم واقتراحاتكم. أنا بحب جدًا أسمع للرأي الديمقراطي.

تحدث أحد الموظفين الشباب:

- بعد إذنك، يا مستر رائد، ممكن أعرف ليه مشروعي مرفوض؟

أجابه رائد بوجه مستاء، متذكرًا فكرة مشروعه:

- عشان كده. مين في الدنيا يعمل لعبة أطفال بالشكل ده؟ دي مش لعبة أطفال، دي لعبة جدود، مملة لدرجة إني شخصيا مليت منها.

فتح حقيبته وأخرج منها علبة بسكويت، لكنه تفاجأ وتساءل بصوت عال:

- "منال"، يا هانم، فين الشاي بلبن بتاعي؟ مش بعرف أفطر من غيره.

حاول الجميع كبت ضحكاتهم كي لا يخصم عليهم من مرتباتهم، التي تقلصت كثيرا بسبب خصوماته المستمرة. وبينما كان يتكلم، داست "ريهام" على قدمه من تحت الطاولة. فتوّه بحركة ألم وقال:

- كده يا "ريهام"، ماشي.

ردّت عليه بتذمر وصوت منخفض كي لا يسمعها الآخرون:

- أنت عايز تجنني؟ إيه الهبل ده يا "رائد"؟

ردّ عليها بمزاح:

- شكلك قمر النهاردة، إيه الحلوة دي؟

ابتسمت بخجل وظهرت الحمرة على وجنتيها وهي تعيد خصلات شعرها خلف أذنها:

- بلاش تكسفني، يا "رائد".

وضع يده أسفل وجهه وغمز لها بطريقة شقية، لا تتناسب مع مظهره الرسمي، وقال مازحُا:

- حبيبي يا مدلع، حبك عندي مولع. نفسي أخدك ونخلع ونسيب الشغل يولع.

كانت ضحكات الموظفين مكتومة، حتى قطعت "منال" الهدوء بضربة قوية على الطاولة. قائلة بغضب وهي تقترب منهما:

- أنتوا ورانا شغل! لموا نفسكم بدل ما أسيب الشغل يولع على دماغكم، ولو سمعت كلمة من حد هطلع عينه، فاهمين؟

تراجع الجميع بخوف، إذ كانوا يعلمون أن غضب "منال" ليس بالأمر السهل. فرغم مظهرها الهادئ ولباسها المحتشم، كانت شخصية قوية بشكل يثير الرهبة.

تراجع "رائد" للخلف محاولًا تهدئتها:

- حاضر يا "منال"، حاضر. اهدي بس.

أما "ريهام" فنظرت لهم بغضب، وقالت:

- بقولكم إيه، فضوا الاجتماع أحسن بدل ما نفضل قاعدين كده.

شهقت "منال" وضربت صدرها بطريقة شعبية وأمسكت "ريهام" من ملابسها، قائلة بغضب:

- مين سمحلك تنهي الاجتماع؟ لو سمعت صوتك تاني هخلي ليلتك سودا، سامعة؟

انكمشت "ريهام" وابتسمت اعتذارًا لتجنب إثارة غضبها أكثر.

أنهى "رائد" الاجتماع قائلاً:

- طيب، واضح إننا ناس همج، ولا في ديمقراطية ولا بطيخ. كل اللي في الاجتماع مخصوم منهم ١٠ أيام، بما فيهم أنا، ما عدا "منال" طبعًا.

خرج الجميع وهم يتمتمون باعتراض، وبعضهم لا يهتم لأنه يعلم تقلب مزاج مديرهم.

استند "رائد" على المكتب وبدأ يتظاهر بالتعب:

- الواحد تعب من كتر الشغل والاجتماعات. بفكر أعتزل.

نظرت إليه "منال" بسخرية وقالت:

- اتنيل، ده انت تافه.

برقت عيناه من الصدمة، وقال:

- اطلعي برا، يا "منال"، قبل ما أرتكب جناية.

خرجت "منال" بهدوء غير مبالية، بينما تنهد هو بحب ونظر لزوجته نظرة مفعمة بالود. فالحب الحقيقي، كما يراه، يتجسد عبر الأيام والمواقف.

ابتسم وقال مازحًا:

- أقولك شعر أنا كاتبه؟

نظرت إليه بريبة:

- قول، هو أنت فاضي؟

حك حلقه بجدية وقرأ:

- حبك في قلبي زي الكوسة، وإن كان حبيبك جنبك، قوله هات بوسة.

ضحكت هي على كلماته السخيفة، لكنها لم تنكر أنه كان يحاول بجهد.

في المستشفى، كان "أحمد" و"سليم" يقفان بجوار غرفة الطبيب بانتظار خروجه للاطمئنان على حالة صديقهما.

بينما جلس "عز" و"أمير" جنبا إلى جنب يحاولان ربط الأحداث معا لمعرفة من تسبب بكل هذه الفوضى في ذلك اليوم.
أما "حسام" فقد جلس على الأرض، يحتضن ركبتيه ويداه فوق رأسه، تدور في ذهنه ملايين الأفكار، متسائلا عما إذا كان هو السبب في ما حصل وكيف سيكون الحال لو أصاب صديقه مكروه.

"سيف" كان يقف بجوار "إسلام"، مستندًا على كتفه، محاولاً الحفاظ على هدوء زائف، بينما نيران القلق تشتعل بداخله على صديقه، وعلى سمعة المستشفى التي يتدرب فيها. الجميع كانوا يغرقون في أفكارهم حتى خرج الطبيب بهدوء، لكنه سرعان ما تراجع للوراء بسبب تجمعهم المفاجئ حوله، كل واحد منهم يلقي عليه سؤالًا.

ردّ الطبيب بإيجاز، محاولًا طمأنتهم:

- هو بخير الحمد لله، ويمكنه الخروج معكم، إذ لم تكن إصاباته سوى كدمات بسيطة، وقد توقف النزيف دون الحاجة لأي تدخل.

تنفس الجميع الصعداء، متمتمين بحمد الله على سلامة صديقهم، وكانوا ممتنين لأن النهاية جاءت بسلام.

دخلوا الغرفة حيث "محمد" كان مستلقيًا، ينظر إلى سقف الغرفة بتعب، أنفاسه متسارعة وصدره يعلو ويهبط من أثر ما مرّ به، مدركًا أنه أمام معركة لن تنتهي بسهولة. اقترب منه "أحمد" ومرّر يده بحنان على جبينه، بينما "سليم" أمسك بكفه وضغط عليه، وكأنما يتحقق من وجوده وسلامته، أما "إسلام" فكان يربّت على صدره، والجميع يحيطونه بالسعادة، لكن بعيدًا عنهم كان يقف "حسام" يتابع المشهد بقلق، مثل طفل ينتظر التوبيخ.

رفع "محمد" رأسه قليلاً وقال مخاطبًا "حسام":

- ممكن يا حضرة الظابط تيجي تطمن عليا زي الناس؟ ولا البعيد معندهوش دم؟

ابتسم "حسام" ابتسامة جانبية وتقدم منه بخطوات ثابتة، وقال ممازحًا:

- حمد الله على السلامة يا خفيف .

ثم جلس بجواره واحتضنه برفق، كأنه يعتذر عن كل سوء فهم بينهما.

في تلك اللحظة، مسح "عز" دموعًا متصنعة وهو يستند على كتف "سيف"، مقلدًا مشهدًا دراميًا قائلاً بصوت متشحط:

- الدمعة هتفر من عيني! ترابط أسري بجد! ربنا يديمكم لبعض يا عيال!

ضجَ الجميع بالضحك على أسلوبه المرح، ليغير "سيف" مسار الحديث بهدوء، وهو يمد "محمد" بكوب من العصير، قائلاً:

- إن شاء الله، هتخرج معانا النهاردة بس أتمنى لو اللي حصل ده ميتكررش تاني، عارف أنا حسيت بإيه خلال الساعات دي؟

ردّ "محمد" بنبرة آسفة:

- حقك عليا، تعبتكم معايا وبهدلت حياتكم، لكن والله ما فكرت في حد زي ما فكرت فيكم.

كان الأصدقاء يستمعون له بإنصات، وعلامات التفاهم تملأ وجوههم. ثم تابع "محمد" الحديث موجهًا كلماته إلى "حسام"، موضحًا ما حدث بينه وبين "عدنان"، وقال:

- أنا ماليش علاقة بـ"عدنان" غير إن "حسن" و"أنس" سلّموني شحنة. "عدنان" غدر بيهم وخطفني مع البضاعة والفلوس. قضيت معاه تمان شهور، وتعلّمت منه حاجات كتير، بس ده كل اللي جمعني بيه.

أومأ "حسام" برأسه، مطمئنًا "محمد" بكلمات بسيطة:

- خلاص، مصدقك، متشغلش بالك بالكلام ده دلوقتي.

ثم نهض "محمد" من مكانه، مستعدًا للمغادرة، وتساءل:

- صح، هو "عبدالله" فين؟

أجابه "أمير" وهو يغلق باب الغرفة:

- مش عارف، مشي بعد اللي حصل، سيبك منه، هيظهر لوحده.

ورغم كل الصعاب والمواقف، بقي الأصدقاء سندا لبعضهم، كل واحد منهم يمثل جدارا منيعا للآخر، لا يسقط ما دامت صداقتهم قوية

بعد ليل طويل وحالك، حيث امتدت الظلمة حتى أعمت القلوب وأعادت الذكريات من الماضي، مرت لحظات ثقيلة من الخوف والحنين. وأخيراً، رحل الليل، تاركاً خلفه قلوباً مشتاقة وأخرى تحاول التظاهر بعدم الاكتراث. ظهرت الشمس مجدداً، وكأنها تحاول محو آثار الليلة الماضية. تُرى، ألا يشعر الحبيب بالحنين؟ ألا يحين وقت ليله في بلاده أيضاً؟

خرجت من عملها وهي تشعر بالسخط، فما كانت تطيق هذا العمل، لكنها لم تجد بديلاً يشغلها عن أفكارها وذكرياتها وأمها، سوى هذا الروتين اليومي. مسحت وجهها بهدوء وأعادت خصلات شعرها خلف أذنها، لكن سرعان ما تفاجأت بإطارات سيارتها مثقوبة تماماً.

- يادي الحظ! أنا عارفة إن وشي نحس! هاروح إزاي دلوقتي؟

قالت "رزان" ذلك بضجر، ووضعت حقيبتها وأوراق العمل على سقف السيارة قبل أن ترفع أكمامها وتتوجه إلى حقيبة السيارة، علها تجد إطاراً بديلاً.

ما إن همّت بفتح الحقيبة حتى شعرت بيد تمنعها. كان أمامها شاب يحمل بعض أوراق النعناع، مبتسماً بتواضع. نظرت إليه بدهشة، وتساءلت بصوت مرتفع:

- إنت تاني؟ إنت عرفت عنوان شغلي منين؟ أكيد جاي تخطفني، مش كده؟ أنا عارفة إن 'شاهندة' هي اللي طلبت منك تخطفني علشان حرقت شعرها! بس والله مكنتش قصدي!

لم يفهم الشاب كلامها تماماً، لكنه ضحك وقال:

- إيه، كفاية رغي! أنا جاي أساعدك، وبعدين إزاي اسمك 'رزان' وأنت كده؟

نظرت إليه ببرود، ثم قالت:

- وماله اسمي بقى يا بتاع؟

ابتسم وقال بتعريف:

- اسمي 'عبدالله'، مهندس ميكانيكا، عندي ٢٦ سنة، أعزب، ماليش أي علاقات، وبحب النعناع.

تابع حديثه بلا مبالاة:

- رزان معناه الرزانة والحكمة، وده مش متواجد تماماً، يا نعنّاعة.

احمر وجهها من الغضب واقتربت منه بجرأة وقالت:

- نعناع؟! أنا نعناع يا تافه يا متحرش يا حيوان؟

اقتربت منه سيدة كانت تمر بالشارع وبدأت تضربه بحقيبتها الكبيرة:

- آه يا واطي! شايفاك وانت بتتحرش بيها! فين الأمان؟ فين الضمير؟

نظر إليها الشاب بصدمة وحاول الدفاع عن نفسه، لكن ما إن فتح فمه حتى قاطعه رجل آخر قائلاً:

- يا قليل الأدب! مش كفاية إنك بتتحرش بيها، كمان بترد على ست قد أمك؟!

شعر بالإحراج الشديد، وحاول إيقاف الحوار العشوائي قائلاً:

- أولاً أمي متوفية، وثانياً، الست دي كذابة.

كانت "رزان" تحاول كبت ضحكاتها بصعوبة، لكنها لم تستطع عندما وضع "عبدالله " يده على فمها وهمس:

- اسكتي، أرجوك، مش عايز آكل علقة!

عضت على كفه بمرح، بينما التفت نحو المارة قائلاً بطريقة درامية:

- أنت طالق! والله ما سامحك أبداً على الكلام ده!، كل ده علشان عاوزه تخرجي طيب و بنتنا اللي في البيت مش حرام ؟؟

بعد انتهاء الموقف، أسرع الشاب بسحبها إلى السيارة، وما إن استقرا داخلها حتى انفجرا ضاحكين. قالت وهي تحاول السيطرة على ضحكتها:

- إنت طلقتني وإحنا مش متجوزين أصلاً، وبعدين بنت مين اللي في البيت؟!

هدأ ضحكه وقال بابتسامة حنونة:

- دي بنت أختي، الله يرحمها.

شعرت بالخجل وأجابت بحرج:

- آسفة، الله يرحمها.

ابتسم وقال برفق:

- ولا يهمك. أنا أسف على اللي حصل، ولو تسمحي لي، أعزمك على حاجة تحبي بيها الموقف.

بابتسامة واسعة، قالت:

- موافقة! هتعزمني على إيه؟

أجاب بابتسامة: "ليمون بالنعناع، طول عمري بحبه، وأظن إنه هيليق علينا، يا نعناعة.

كان يبدوا لها شخص قريب جدا من اللحظة الأول لم يكن غريبا عنها كان مألوف وكأنه منها .

وقفت "حسناء" أمام غرفة "هاجر" تطرق الباب بلطف حتى أذنت لها الأخيرة بالدخول. كانت تعلم أنها لم تغمض جفنًا منذ أمس بسبب غياب "محمد" المفاجئ. نعم، هو دائم الغياب، لكنه ليس إلى هذا الحد.

جلست بقربها، وقد حاولت أن تبدو هادئة رغم قلقها. أرادت بث الطمأنينة في نفس "هاجر"، ورغم فارق السن بينهما، كانت صداقتهما قد نمت لتصبح عميقة. خلال هذه الفترة، تقربت "حسناء" منها ومن الفتيات، وأصبحت جزءًا لا يتجزأ من يومهن.

ربتت على يدها برفق وقالت:

- متخافيش، ده ابني، وأنا عارفاه. أكيد موبايله فصل أو راح أي حتة .

ابتسمت "هاجر" بهدوء، لكنها لم تستطع منع ضحكة خفيفة حين أدركت أن "حسناء" لا تعرف "محمد" إلا منذ بضعة أشهر، في حين أنها تعرفه لسنوات طويلة.

نظرت "حسناء" إليها بغضب مصطنع وضربتها بالوسادة، وقالت:

- بتضحكي على إيه؟ والله أنا غلطانة إني بكلمك!

أمسكت "هاجر" بيدها قبل أن تترك المكان وهي تنهي ضحكاتها، قائلة:

- خلاص والله! بس افتكرت إنك لسه عارفاه من كام شهر. يعني أنا أعرفه أكتر، صح؟

لم يمهلهما القدر لمواصلة الحديث، إذ سمعوا صوت طرقات عنيفة على الباب في الطابق الأسفل. نزلوا بفزع لفتح الباب، فتولت "حسناء" الوقوف أمامه، وأشارت لـ"هاجر" بالبقاء خلفها.

فتحت الباب لتجد "سوزي" برفقة "مصطفى"، وقد بدا الغضب واضحًا على ملامحهما.

قالت "حسناء" بهدوء تحاول إخفاء سخطها:

- اتفضلوا، مش هنتكلم على الباب»

تقدمت "سوزي" بتعجرف وهي تتفحص المكان بعينيها:

- هو ده بقى البيت اللي البيه عاوزك تتجوزي فيه؟

تنهدت "هاجر" بتعب، وشعور القلق عاد ليغزو قلبها مجددًا. قالت متوسلة:

- ماما، أرجوكي، مش عاوزين خناق. ده مش البيت!

لكن قبل أن تكمل، سحب "مصطفى" معصمها بعنف وجذبها نحوه غاضبًا، هامسًا بتوعد:

- اسمعي يا "هاجر"، لو خايفة على نفسك وعليه، امشي معايا وسيبه. أنتِ اللي تقولي له إنك رافضة .

شعرت بآخر جزء من قلبها يتحطم، كانت تظن أنهم جاءوا لمصالحتها. تحدثت بصعوبة، تحاول التخلص من قبضته:

- لا، مش هيحصل أبدًا انسي!

همّت "سوزي" بجرّها من شعرها، لكن "حسناء" تدخلت سريعًا، دفعتها بعيدًا وحمت "هاجر" خلفها قائلة بتهديد:

- قسمًا بالله، لو رفعتِ إيدك عليها تاني مش هسمح لك أبدًا.

ارتسمت ضحكة ساخرة على وجه "سوزي" واقتربت من "حسناء"، همست بسخرية:

- عاجلًا أم آجلًا، أنتِ وابنك هتخرجوا من حياة أخويا .

ابتسمت "حسناء" ببرود واقتربت من أذنها، همست:

- ده عند أمك، وعند الخائن اللي وراكِ ده. اللي يمس ابني هوريه اللي عمره ما شافه.

فجأة، رفع "مصطفى" يده محاولًا ضرب "حسناء"، لكن قبضة قوية أوقفته وصفعته، دفعته إلى الخلف. كان "عادل" هو من تدخل، ووجهه يفيض بالغضب، تحدث بصوت حازم :

- لو رفعت إيدك عليها مرة تانية، هترجعلك مقطوعة. برا دلوقتي، من غير مطرود.

انسحب "مصطفى" مسرعًا، لكن "سوزي" بدأت تبكي بدموع زائفة، محاولة التأثير عليه:

- أنت مش فاهم! هي اللي بعدت بنتي عني.

قاطعها بوضع يده على فمها علامة على أنه لا يريد سماع المزيد، وأشار نحو الخارج كي تخرج. وبالفعل غادرت، بعد أن ألقت عليهم نظرات حارقة.

أما "هاجر"، فوقفت مذهولة، عيناها تائهتان، والخذلان يعصف بها. شعرت أنها عارية في وسط الصحراء بلا ملاذ. تذكرت طفولتها، وسبّ والدتها وتعنيف أبيها لها، وبدأت الدموع تنهمر على خديها. أسرعت للأعلى، هاربة من كل شيء.

صعدوا خلفها بقلق، وتحدثت "حسناء" وهي تطرق بابها:

- "هاجر"، أرجوكِ. افتحي الباب، طمنيني عليك علشان خاطري.

علت شهقات "هاجر" بصوت مكتوم، ثم همست:

- سيبوني لوحدي، أرجوكم .

أمسك "عادل" بيد "حسناء" بلطف وقال:

- هتكون بخير، سيبيها تهدأ .

هبطوا للأسفل، واختارت "حسناء" الصمت، لكنها شعرت بيده تعانقها ويده تمسد على شعرها بحنان.

قالت بهدوء، وهي تربت على ظهره:

- أنا هاعتبر اللي حصل كأنه محصلش .

ابتسم لها بامتنان، وغمره شعور بالراحة.

أما "هاجر"، فكانت بالأعلى، تحتضن نفسها بين ذراعيها، ودموعها تسيل بلا توقف. أمسكت بهاتفها، وضغطت على زر الموسيقى محاولة الهروب من هذا الواقع.

الإنجاب في حد ذاته لا يعد إنجازا، فأغلب الكائنات تستطيع الإنجاب. الإنجاز الحقيقي فعلا هو أن توفر لمن أنجبت حياة كريمة، يكرمها أبوين متحابين وأسرة هادئة، وتشعره بالأمان.

في الخارج، نزل من سيارته بعد أن أصرّ على الاطمئنان على والدتها، وعلى حبيبته أيضاً. شعور الحنين والشوق لها لم يسمح له بإغماض عينيه قبل الاطمئنان عليها، والأغرب أنه اشتاق لوالدته أيضاً، خاصة حضنها. نعم، عندما علم لأول مرة أنها والدته، تخيل أن الأمر سيكون صعباً للتعود أو القبول، لكنه لم يستطع مقاومة شعوره بالحاجة إليها.

اتكأ على الباب قبل أن يفتحه بمفتاحها الخاص، واضعاً يده على جبينه بوهن. رآه وهو يحتضن والدتها، فتنحنح بخشونة بينما ثبتت نظراته عليهما، مما جعلها تتراجع للخلف بخجل.

ثم أسرعت بخطواتها السريعة نحوه عندما لاحظت الكدمات والضمادة حول رأسه، قائلة بقلق:

- مالك يا حبيبي؟ إيه اللي عمل فيك كده؟

أجابها بهدوء، واضعاً رأسه على كتفها:

- ولا حاجة، حادثة بسيطة وبقيت تمام.

عقدت حاجبيها باستغراب وهي تقوده نحو الأريكة ليحصل على قسط من الراحة، وقالت:

- حادثة إزاي يعني؟ إيه اللي حصل؟

تنهد بعمق محاولاً أن يختلق أي شيء يخرجه من هذا المأزق، وقال:

- عادي، حادثة بسيطة وأنا سايق، اتلغبطت شويه وعملت حادثة إنتِ إيه صوت المزيكا ده؟ وإيه اللي حصل هنا؟"

كان يقصد وجود "عادل" هنا، وبينما هي همّت بالإجابة، قاطعها الأخير قائلاً وهو ينهض بهدوء:

- وأنتِ بتشرحي له اللي حصل، خلي بالك تقولي له إنه مينفعش يدخل كده من غير ما يخبط... هما اخترعوا الباب ليه؟

عقد حاجبيه ونظر له بحدة، ثم قال:

- ده الطبيعي، داخل بيتي هخبط ليه؟

أردف بهدوء يحمل في طياته التساؤل:

- هاجر فين؟ وإيه اللي حصل؟

بدأت تسرد له ما حدث منذ الصباح، وكيف كانت قلقة بشأنه وحاولت التواصل معه أكثر من مرة.

نهض من مكانه بعنف وصعد الدرج على عجل، متمنياً لو يختفي المصعد ويصل إلى غرفتها في ثوانٍ. طرق الباب بهدوء، مستمعاً لشهقاتها من الداخل، ولمّا لم ترد، طرقه مرة أخرى بقلق، بينما تصوّر عقله أسوأ السيناريوهات.

قال بهدوء يحمل في طياته الكثير من المشاعر:

- هاجر، افتحي. أنا هنا طيِّب، اطمئني عليَّ حتى.

لم تمضِ دقيقة حتى فتحت الباب، لكنها كانت أشبه بقرون بالنسبة له. وجدها أمامه بشحوب وجهها، والدموع متجمدة في عينيها، ويدها ترتجف وهي ترى الكدمات على وجهه وضمادة رأسه، وعينيه التائهتين.

لم يستطع كلاهما الانتظار أكثر. اقترب منها بهدوء، حاوط وجهها بيديه، ومسح الدموع المعلقة بأهدابها الكثيفة، بينما احتضنته بتشبث، وكأنه طوق نجاتها الأخير. انخفض بجسده ليضع رأسه على كتفها، لكنه شعر بارتخاء جسدها بين يديه، فانحنى معها، ولم يتركها حتى وهي تندس في عنقه.

تحدثت بهدوء وهي توبخه بنبرة معاتبة:

- أنا كنت محتاجالك كنت فين؟

تنهد بعمق وهو يمسد على خصلاتها، يشعر بتمزق قلبه لرؤيتها هكذا. كيف كاد ينهي حياته بهذا الغباء بينما هي هنا، تحتاج إليه؟ يشعر بالنقص من دونها، ويشتاق إليها رغم محيطه بالناس. هو الذي يعاملها كأنها كنز وحيد في هذا العالم، ويحبها كل يوم كالبدايات.

أخذ يتأملها بعينين تائهتين، وقال:

- حصلت شوية مشاكل إنتِ، إيه اللي حصل؟

تنفست بعمق وابتعدت عنه بخجل، تذكرت ما حصل مع والديها. بدأت تسرد ما حدث، وهو يمسك بيديها ويربت عليهما.

نظر إليها بعينين تائهتين لا يعرف كيف يخفف عنها. لكن، عندما سألته عما حدث له، قرر الإفصاح، وتحدث بغصَّة:

- أنا عاوز أبكي أبكي من الحياة اللي أعيشها، أبكي على الوقت اللي أهدرتُه، وعلى الفراغ والكآبة اللي ملوا حياتي. أبكي على شكلي اللي بقى باهت، وعلى روحي اللي انطفأت قبل ميعادها.

شعر بكل كلمة نطق بها. لماذا حياته هكذا؟ في كل مرة كان يحاول إصلاح هذا الخراب، ينتهي به الأمر ليصبح هو ذاته الخراب. ألم تُوجد نهايات أو بدايات جديدة؟

أكمل بمرارة:

- عارفة، وقتها حسيت إن البكاء مش كفاية، والحديث مش كفاية، والنوم مش كفاية. وقتها عرفت إزاي الإنسان ما يسعه أي شيء كل مرة كنت أتنازل عن حاجة بحبها، كنت أفقد جزء من قلبي، والآن يبدو قلبي صغيراً جداً لا يكفي للتمسك بشيء.

عقدت حاجبيها بنبرة مرحة، محاولة إنهاء هذا الجو الحزين:

- حتى أنا؟ نسيتني؟ أخص عليك!

ضحك ممازحاً:

- واحد ممكن ينسى همه، ينسى ورد شمه، بس مستحيل ينسى حبيب طلع عين امه .

نكزته في معدته بقوة، وقالت ساخرة:

- حرام عليك، ليه بتبوّظ في الآخر؟

أمسك بيدها وأجبرها على النهوض، واتجه نحو طاولته المليئة بالأوراق، وقال وهو يعطيها قلماً:

- عارفة إن الكتابة بتحسن المزاج وتطلع الطاقة المكبوتة؟ يلا، اكتبي.

أمسكت بالورقة وكتبت بخط عريض:

- أنا لا أنسى من جعلني أضيء في عتمتي، أو أضحك رغم شحوب وجهي... حتى لو فرقتنا الأيام والأماكن، فالقلوب شواهد لا تنسى يداً امتدت حين كادت تسقط.

ابتسم بفخر مما كتبته، وأضاف بأسفلها:

- امرأة تحمل في عينيها دجلة والفرات، ولا تريدني أن أغرق!

ابتسمت له بخجل، ثم تابع هو بدوره يكتب بضع كلمات على ورقة أخرى، ليبدو وكأنه يكتب شعراً:

ابتسمت له بفخر، بينما هو شعر بسعادة طفل حصل على درجاته كاملة وينتظر مديح والدته.

أمسك بيدها بحنان بعد أن استمع لكلمات الأغنية تتردد في الأجواء، ممزوجة بلحن مليء بالشجن والهدوء. شعر أن الكلمات غير مألوفة له لكنها لامست روحه بلطف، تخاطب قلبه وكأنها تروي حكاية خاصة بينهما.

نظرت إليه بابتسامة دافئة، وأحست بعمق نظرته التي تحمل مزيجاً من الشوق والعتاب، وكأن كلماته تحاكي ما في الأغنية. أمسك بيدها بقوة أكبر، وكأنما يعلن أنه لن يسمح للزمن أن يفصلهما، وأنه يملك كل الكلمات الصادقة التي عجز عنها منذ زمن

«خبيني من بين البشر ضميني شوق   زي المطر وريني مين غيرك يحلالي

كل الكلام مليان عتاب حتى السلام   حاضن غياب فكراني ولا الزمان قساكي.»

بينما كانت جميلة مستلقية على سريرها بوهن، جسدها ضعيف وعينيها زائغتان، شفتيها شاحبتان تزينهما بقع زرقاء عكست شحوب وجهها وأنفها المتورم. أمسكت هاتفها بيد مرتجفة، وأخذت تتأمل صورها مع حبيبها وأصدقائها وعائلتها، تحاول التمسك بتلك الذكريات الجميلة، لكن السم الذي يسري في عروقها لم يمنحها الأمل بل مزّق جسدها ببطء وبدون رحمة.

لقد تعافت من هذا الإدمان لفترة، ولكن قبل أيام فقط عادت إليه عندما قدمت لها إحدى صديقاتها تلك المادة القاتلة في المركز الرياضي. أمسكت بورقة تحتوي على مسحوق أبيض، وضعت إصبعها على فتحة فمها واستنشقت منه، وكأنها

تبحث عن حياة لم تعد تشعر بها. عادت لهذا السم الذي أسرها منذ كانت في السابعة عشرة، حين أهملها أهلها وجذبتها الصحبة السيئة. وبرغم أنها نجحت في التعافي قبل عام، إلا

أنها وجدت نفسها مجددا أسيرة للإدمان، وكأن دائرة الألم لم تكسر بعد.

البارت الرابع و العشرون

"خرافة ديسمبر"

جلست بجسد هامد بعد أن استنشقت ذلك السم الذي بدأ يتغلغل بين ثنايا جسدها بهدوء قاتل. دموعها لم تتوقف عن

الانهمار، ولكن هل هذا البكاء سيطهر روحها من الذنوب؟ أبدا، حتى لو اغتسلت من دجلة والفرات.

دلف أبيها إلى الغرفة بهدوء، يستمع إلى شهقاتها المرتفعة. لكن سرعان ما تبدّل هدووه عندما رأى المخدر بين يديها. اقترب منها، ممسكًا بفكها برفق، ليجعل وجهها في مستوى نظره. شعر بالعبرات التي تنهمر على وجنتيها بصمت موجع.

ما إن شعرت بوجوده حتى ارتمت بين ذراعيه، تحيط خصره بيديها كأنّه طوق نجاتها الأخير. علت شهقاتها وهي تتمسك بثيابه بقوة، وكأنها تريد أن تختبئ داخله. أما هو، فربّت على ظهرها بحنان، يتمتم بكلمات مواسية.

همس بعتاب وهو يمسح دموعها العالقة بأهدابها بأصابعه:

- ليه كده يا "جميلة"؟ ليه يا حبيبتي؟!

شعرت وكأن هواء العالم قد اختفى فجأة. تمتمت بصوت متحشرج:

- مقدرتش، والله ما قدرت أنا مش مبسوطة وأنا كده. هما السبب، أنا وثقت فيهم، انت مقولتليش إن الناس وحشة كده، خلوني مدمنة، وبعدها سبوني خسرت مستقبلي وكل حاجة،أنا مسافرتش علشان فرح "زينة" هما اللي اكتشفوا إني مدمنة وطردوني، وكانوا هيبلغوا عني أنا مش قادرة حتى بعد ما بطلت، لسه عاوزة أشرب. مش قادرة أتحكم في نفسي.

ضمّها إلى صدره مجددًا، يمرّر يده على شعرها بحنان أبوي عميق. لم يصدق أن صغيرته حدث لها كل هذا. بأي ذنب شعرت فراشته الصغيرة بكل هذا الألم؟

بعد لحظات، ابتعدت عنه بهدوء وقالت بصوت واهن:

- بابا، أنا قررت. وعاوزاك تساعدني في القرار ده.

كشفت له عن قرارها، ورغم اعتراضه الشديد وصياحه، استقر في النهاية على مساعدتها، فقط ليجنبها المزيد من الألم.

بعد لحظات، هبطت ترتدي ملابس أنيقة: تنورة سوداء واسعة، وقميصًا أبيض. وضعت بعض مساحيق التجميل لتخفي آثار الإرهاق تحت عينيها.

عندما دخل "أحمد"، كان يحمل باقة من الورود الحمراء مغلفة بأوراق سوداء. ابتسمت له، لكنه اعتذر عن غيابه الأيام الماضية، قائلاً بلطف:

- معلش يا "جميلتي"، حصلت مشاكل كتير. تعالى احكيلك.

حاول الإمساك بيدها، لكنها سحبتها بتوتر، ونظراتها خالية من المشاعر لأول مرة. بنبرة باردة، قالت:

-أحمد، أنا مش موافقة على جوازنا.

ابتسم، ظنًا منه أنها غاضبة، وأعاد الخاتم إلى يدها بحنان:

- أنا آسف، حقك عليا. خلاص بقى، مش للدرجة دي يا "جميلة".

لكنها هزّت رأسها بقوة، وقالت بصوت صارم:

- أحمد، أنا بتكلم جد أنا فعلاً بنهي خطوبتنا.

شعر وكأن أحدهم ألقى عليه ماءً مثلجًا. سألها بدهشة:

- في حد تاني يا "جميلة"، صح؟

واجهته بالحقيقة بصوت مرتعش:

- آه، في. كان قبلك. أنا آسفة.

تجمّدت نظراته، ولم يستطع استيعاب كلامها. الكلمات خرجت كطعنة:

- آسفة؟ على إيه؟ لا. متتأسفيش بس اعرفي إنك عمرك ما هتلقيني تاني، قوليلي إنك بتكذبي.

انهمرت دموعها، وقالت بمرارة:

- كنت بحبه أكتر من أي حد، لكنه خاني وسبني في نص الطريق، لما جيت إنت، حسيت إن كل حاجة اتغيرت. لكن دلوقتي.. مش قادرة أكمل.

تنهد بعمق، محاولًا طرد شعوره بالخذلان. قال بنبرة هادئة مليئة بالألم:

- إنتِ صح. هو أحق بيكِ علشان يكمل عليكِ. وأنا أنا الغلطان إني حبيتك. في يوم هتيجي حد تعرف إني مش زي أي حد. ربنا يوفقك ويسامحك يا "جميلة".

تحرك بخطوات ثقيلة خارجًا، يجرّ معه أوزار العالم كله. أما هي، فقد انهارت على الأرض، تمسك بالورود التي ألقاها وداس عليها. احتضنتها تبكي بشدة، وكأن قلبها يُعتصر بيد قاسية.

الفراق أحيانا يترك أحدهم يرحل بالأسئلة والآخر بالإجابات.
لكن في حالتهما، رحل كلاهما محملا بأسئلة بلا إجابات.

كان يجلس في غرفته، يتابع شروق الشمس وهو ينهي أخيرًا عمله. طوال حياته كان يعمل بلا انقطاع، وكأنه لم يعرف شيئًا غير العمل وسيلة للعيش وكسب المال.

أمسك بدفتره وابتسم بهدوء، وكأنه يمنح نفسه مكافأة صغيرة بالكتابة. تذكر ذلك العناق اللطيف الذي منحته له والدته "حسناء". لأول مرة شعر بدفء مختلف، تمنَى لو أن هذا العناق يدوم للأبد بتلك الطريقة.

ثم أخذ يسترجع ذكريات عائلته القديمة، تلك العائلة التي لم يجد لها اسمًا غير "عائلته". كان يؤمن أن العائلة ليست بالضرورة من أنجبوك، بل هي من يحتفظ بذكرياتك.

كتب بخط عريض وواضح في دفتره:

"عزيزي الغائب، لقد انتظرتك كل الأشهر، وانتظرت ديسمبر أيضًا، ولكنك لن تعود. بالمناسبة، ديسمبر يشبهك كثيرًا؛ شديد البرودة كقلبك.

عزيزي الأحب إلى قلبي، يقولون إن في ديسمبر تنتهي الأحلام. حلمي الوحيد كان عودتك للحياة، وإن كان هذا مستحيلًا. إذن، سينتهي الأمل بانتهاء ديسمبر. ليس لأنني نسيتك، فلا أنسى. لكن ربما عليّ التخلي عن أكبر نقاط ضعفي."

كانت الكلمات موجهة لتلك الصورة القديمة التي تجمع والده "نوح"، وأخيه "هيثم"، وفي زاوية أخرى "نائل" و"سمر". شعر للمرة الأولى أنه يستحق بداية جديدة، بداية مع حبيبته، ووالدتها وأصدقائه. سيبقى متمسكًا بذكرياتهم، لكنه قرر أن يواجه الواقع بدلًا من الهروب منه.

أغلق دفتره بعد أن كتب:

"الشوق يحملنا إلى أيامنا، يا من تحن إليكم الأحداق. غبتم وما غاب الحنين، نلامسكم في ذاكرتنا، ألا نشتاق؟"

وقف أمام المرآة يتابع تحسن حالته. مرّر يده على ذراعه، حرّكه، فوجد الألم قد تلاشى. ابتسم وحمد الله لأنه لم يحتج إلى عملية جراحية أخرى، وأن العلاج الطبيعي وحده كان كافيًا.

رغم الرضا الذي شعر به، إلا أن ابتسامته سرعان ما تلاشت عندما رأى الهالات السوداء تحت عينيه، تلك التي فضحت معاركه السرية، وأظهرت كم خانته عيناه رغم محاولته التظاهر بالصلابة.

جلس عندما داهمه الصداع، لكنه لم يكن صداعًا عاديًا. كانت الكلمات تتراكم في رأسه حتى تكدست وتعفنت. استرجع تلك الليلة التي فقد فيها "نائل". كان يعلم أنه فقد كل شيء حينها. لن ينسى تلك الليلة التي قضى فيها ساعات كجثة هامدة، يتجرّع ألم الفقد.

على الجانب الآخر، كانت "هاجر" تستعد للعودة إلى عملها بعد انقطاع طويل. بدت نشيطة ومتفائلة، بابتسامة واسعة تعلو وجهها.

في الليلة السابقة، عقدت عهدًا مع الله وهي تصلي، أن تبدأ حياتها من جديد. اختارت قميصًا أبيض وكنزة سوداء بلا أكمام، وتنورة سوداء، وربطت شعرها على هيئة ذيل حصان، مكتفية بوضع أحمر شفاه بسيط.

لكنها اليوم بدت أكثر غموضًا من المعتاد. كانت تائهة، عاجزة عن الكلام، تتوق لعناق، لكنها كانت تهرب للنوم. وبينما تطفئ هاتفها وتراقب انعكاس صورتها في المرآة، وجدت أمامها امرأة قوية، عنيدة، صلبة، اكتسبت تلك الصفات من معاركها.

أمسكت هاتفها وكتبت رسالة له:

"شكرا لأنك معي. لأنك تحول تعثراتي إلى ضحكات، وتجعلني أتجاوز تعب الأيام. عندما تسقط كل الأيادي، تبقى يدك هي

الوحيدة التي تمسك بي. شكرا لأنك ترفعني كل مرة ظننت فيها أنني انتهيت."

قرأ رسالتها بابتسامة واسعة، وشعر بالفخر. هل يراه حقًا بهذه الطريقة؟ ردّ عليها قائلاً:

"أحبك عشرا، ثمانية لك، واحدة لضحكتك، والأخرى لصوتك.
أما عيناك، فعجز الكلام عن وصفهما."

استمرا في الحديث طويلًا حتى وصلت إلى عملها، حيث استقبلها الفتيات بحب وابتسامات. نظرت حولها إلى المكان، الجدران البيضاء المزينة برسومات الفراشات والورود، والأرفف الزجاجية التي تحمل باقات ملونة، وشعرت بالدفء. أخبرها الفتيات أن "محمد" هو من تابع العمل أثناء غيابها، فلم تستطع إلا أن تشعر بالامتنان لذلك الشخص الذي ملأ قلبها حبًا وتفكيرًا.

كان يجلس في غرفته منذ أيام لا يدري عددها، كل ما يعرفه أنه قضى تلك الأيام في صراع داخلي لا ينتهي. فجر الأمس كان يبكي، واليوم أيضاً، بكاء الخائف والمخذول. خذلته الحياة ومن فيها، رغم أنه فعل كل ما بوسعه وما ليس في وسعه، ولم يربح شيئاً. شعر بدموعه تبلل بشرته السمراء ولحيته التي نبتت خلال الأيام الماضية. بكاءه كان بسبب مرارة الوقت من دونها. الليلة الماضية كان يبكي لأنه فقدها، أما قبل قليل فانهار من البكاء شوقاً إليها.

فُتح باب غرفته فجأة، ودخل أبوه وأصدقاؤه. تبدلت ملامحهم فور أن رأوا حالته، إلا أن "محمد" قطع المسافة إليه سريعاً، واحتضنه وهو يربت على ظهره بكلمات مشجعة. اقترب "رائد" بخطوات ثابتة، فرفع الأخير رأسه نحوه وقال بصوت مكسور:

- بابا هو أنا كنت أستحق منها كده؟

جلس الأب بجانبه، يمسد على شعره بحنو، محاولاً تهدئته رغم إدراكه أن الألم الذي يمزق روحه لا علاج له:

- أكيد في حاجة غلط. كل حاجة هتبقى تمام، بس بلاش تعمل في نفسك كده علشاني.

ابتسم الولد ابتسامة باهتة رغم كل الأوجاع داخله، وربت على يد أبيه كأنه يشكره على وجوده. بينما بقية الأصدقاء وقفوا في صمت، مشفقين على صديقهم الذي لم يرونه بهذه الحالة من قبل. حاولوا جميعاً التخفيف عنه، لكن دون جدوى.

"محمد" كان في صراع مع رأسه الذي بدا ككتلة جليد وصدره المشتعل، وعليه أن يحافظ على التوازن. اقترب منه وقال:

- اجمد كده يا بني، والله العظيم هتتحل يا صاحبي.

اتجه "إسلام" نحوه وهو يحمل شطيرة، وضعها في فمه قسراً، مما جعله يضحك بصوت خافت. تتابعت الضحكات حين قفز "سليم" بجانبه محتضناً الوسادة كأنه يستعد للنوم. انفجرت الضحكات مجدداً عندما صاح به بسخط:

- يلا يا جهلة! إنتو تعرفوا النوم ده إيه؟ أنا في هواه متيم، ومالي غيره عشيقاً!

انفجروا بالضحك، بينما هو يتابعهم بنظرة ساخطة. جلس بعدها وقال بصوت خافت:

- فتنتني بوعودها، وخدعتني براءتها. الشيء الوحيد الصادق فيها كان جمالها.

قاطعهم "عز" بمرح وهو يقول:

- أشغلكم أغاني؟

صرخ "سيف" وهو يرمي وسادة نحو عز:

- لعنة الله عليك!

دون أن يكترث، صدح صوت أغنية حزينة في الغرفة:

: «حبيبي يا انا — يا اغلى من عينيّا

نسيت مين انا ؟؟ — انا الحب اللي كان

اللي نسيته اوام — من قبل الآوان

نسيت اسمي كمان !! — نسيت يا سلام

على غدر الإنسان

تبادلوا نظرات ساخطة، مما جعل "محمد" ينتزع الهاتف ليغلق الأغنية ويقول:

- انسي كل الهبل ده.

تعالت الضحكات من جديد، وواصلوا الحديث بمرح حتى عمّت أجواء الغرفة روح من الدعابة. جلس "محمد" بجانبه، يعرض عليه بعض الأعمال التي أنجزوها في غيابه، محاولاً بث الأمل فيه، لكنه أفسد اللحظة بمزحة:

- بكرة يجي لك أحسن من اللي راح، بس يروح هو كمان. محدش يفضل قدام وش البومة ده!

حدّق الجميع فيه بنظرات غاضبة، بينما كان يتراجع للخلف بخفة، محاولاً الفرار. أمسك به "أحمد" وألقى عليه الوسادة، وتبعها بلكمة خفيفة وسط موجة من الضحك.

قضوا يومهم بجانبه، يحاولون التخفيف من ألمه، وبين الحين والآخر تتعالى ضحكاتهم، تملأ المكان، تذكره بأنه ليس وحيدا.

كان ينتظر قدومها، وكأنه لا يصدق أنهم وصلوا إلى هذا الحد من القرب. مرّ شهران على علاقتهما، ورغم ذلك، لم يخوضا أي تفاصيل عن حياتيهما الشخصية. ما يربطهما كان أقرب إلى صداقة قوية، ولكن أحدهما ربما كان يحمل في قلبه مشاعر أعمق.

جاءت من بعيد، بجمالها الفاتن الذي ازداد سحرًا منذ أن قررت الابتعاد عن المبالغة في استخدام مستحضرات التجميل. تغيّرت كليًا، وكأن شخصيتها الحقيقية ظهرت حينما أصغت لحديث "محمد". ورغم أنه لم يحبها أو يبادلها ذات المشاعر، لن تنكر فضله الذي جعلها تتغيّر إلى هذا الحد.

تقدّمت نحوه بابتسامة عريضة كشفت عن أسنانها المتناسقة، وسحبت مقعدًا لتجلس أمامه. حاول أن يخفي ما في عينيه من كلمات ونظرات، لكنه في تلك اللحظة صدّق المقولة: "إن العيون إذا هوت تتكلم".

عقدت حاجبيها بدهشة وقالت:

- بتبص لي كده ليه؟!

ابتسم وهو يرتشف من قهوته، بينما كانت مشاعره تتصارع داخله، عاجزًا عن السيطرة عليها، ثم قال:

- من أول ابتسامة شفتها على وشك، همس قلبي: "إحنا على وشك الغرق في عينيها"، بس أنا ما سمعتش وغرقت.

ابتسمت بخجل، ثم همست وهي تفرك أصابعها:

- يعني إيه؟ اشرح كويس طيب.

نظر إليها محاولًا أن يضبط أنفاسه بينما الآلاف من الاحتمالات تدور في رأسه، وقال:

- أنا بحبك من غير ما أعرف مين أهلك أو تفاصيل حياتك. بحبك يا نعناعة وبحب روحك.

انهمرت دمعة على خدها دون أن تشعر، ورأسها يغرق في بحر من الأسئلة. الشخص الصحيح دائمًا يأتي في الوقت الخطأ. تحدثت بتلعثم:

- أنا كمان مش هنكر إني ارتحت ليك وحبيتك بس أنا مش عارفة بحبك ولا لا بس انت ما تعرفش حاجة.

أجابها بهدوء رغم المعارك المشتعلة داخله:

- أنا جاهز أسمع كل حاجة منك لو حابة تحكي.

تنفست بعمق وهي تحاول أن تنظم أنفاسها، ثم قالت بصوت متهدج:

- أنا "رزان حسن الجبالي" بس كل اللي حصل في حياتي مالوش علاقة باسمي. عارف لما تعيش طول عمرك بتتعاقب على أفعال أهلك؟ أنا عشت أسوأ طفولة ممكن تتخيلها. خلافات يومية بين اهلي كرهتني فيهم هما الاتنين. أمي؟ عمرها ما كانت طبيعية. تتخيل أم تسيب بنتها اللي عندها ٧ سنين لوحدها يومين في البيت؟ كانت بتتنمر على بشرتي وتحط لي ميكياج من وأنا طفلة. حتى الشخص الوحيد اللي حبيته دمروا حياته ضاعت، انا عارفه ان "محمد" عمره ما حبني بس انا حبيته .

كان كلامها كأنه عاصفة اجتاحت كيانه. شعر وكأنه يبتلع دوامة في بحر غاضب الأخذ بالثار القديم الذي اهدر عمره صمت للحظة، ثم قال:

- عارفة أنا مين؟ أكيد مش هتعرفيني، لكن أنا واحد من ضحايا عائلتك أنا "عبدالله نادر السباعي" عائلتي اتدمرت بسبب أبوكي أبوكي كان سبب طمع عمي في والدي لحد ما قتله، وبعدها قتل عمي أنا ما قدرتش أتجوز البنت اللي بحبها بنت عمي اللي انتحرت قدامي أمي ماتت قدامي لأننا ما كانش معانا فلوس لعلاجها، كل ده بسبب عائلتك، ورغم كل ده، لسه بحبك.

تجمّدت في مكانها، غير قادرة على التنفس، كانت تعلم ان تاريخ عائلتها يجعلهم يفعلون هذا بدون تردد قالت بصوت مبحوح:

- بتحب فيا إيه؟ ما كله انتهى.

أجابها بصراحة وحين إذ نسي كل شيء عائلته واسمه وثاره لا يهم ان كانت الدنيا خراب ان كانت معه :

- هقولك سر أنا ما بنامش إلا وأنا بفكر فيك، وما بصحاش إلا وإنت أول حد بييجي في بالي، بحبك يا رزان، أنا مستعد أبدأ من جديد بشرط تكوني مستعدة تخلّي عن حياتك القديمة عشان حياتنا.

أمسك بيدها وهو ينظر إلى عينيها بنظرة تحمل مزيجًا من الحب والإصرار، وقال بصوت هادئ ولكنه مليء بالعاطفة:

- بحبك يا "رزان"، ومش هقدر أبعد عنك، هنسا كل اللي حصل بسبب أهلك بس قوليلي، مستعدة تسيبي حياتك القديمة عشان تبدأ من جديد؟ على فكرة،

يا نعناعة.

كانت تلك اللحظة أشبه بمفترق طرق في حياتها. كل قرار قد يتخذ اتجاهًا مختلفًا، وكل خيار يحمل معه خسارة مؤلمة. شعرت أنها محاصرة بين قلبها وعقلها، بين الماضي والمستقبل، وبين حبها له والشعور بالذنب الذي لا يغادرها.

نظر إليها مرة أخيرة، وكأن الوقت قد توقف، ثم مد يده ليزيل دمعة عالقة على خدها، وابتسم وهو يتغزل بها بكلمات تخترق أعماقها:

- والشمس في طرف عينيها مكبلة والليل في شعرها الممدود مسجون.

كانت كلماته كالسحر، تلامس جروحها بلطف وتمنحها شعورا مؤقتا بالخفة، كأنها تعلقت بين السماء والأرض، غير قادرة على الهبوط أو التحليق بعيدا.

يقولون إن الذين عرفوا الحياة جيدا أحبوا الشتاء، فالشتاء يشبهنا: سماؤه تغطيها الغيوم، مثلما تغطينا أوجاعنا. الشتاء مثلنا، رمادي.

الشوارع مبللة بالأمطار، والسماء غير صافية، الرياح تجبرك على التحليق رغما عنك، والمشاعر المتبعثرة تدفعك إلى تذكر ما لا تريد أن تتذكره. هكذا هو حال ديسمبر، حيث يضيء قمره حلكة الليل، كما يضيء أرواحنا رغم سوادها.

دخل بخطواته الواثقة وهيبته الخاطفة، خصلاته المبعثرة ولحيته النابتة أعطت مظهرًا متمردًا، أما عيناه الرماديتان، فكانتا كالسحر، تمسحان من حوله كل شيء، رغم ذلك، لم يكن مجيئه يحمل أي متعة له، لكنه لم يجد مفرًا من طلب "حسناء"، التي ألحت عليه أن يوصل بعض الأوراق التي نسيها والده في منزلها الليلة الماضية. كان يبدو وكأن أحمال العالم قد أثقلت كتفيه وهو يمضي قدمًا.

قاطع طريقه أحدهم،الذي تبين له انه "أنس"، وهو يصيح باستهزاء واضعًا يده أمامه ليعترضه:

- خير إن شاء الله؟ هي زريبة من غير بواب؟ ولا مال اللي خلفوك دخلت كده براحتك؟

رفع رأسه ونظر إليه بثبات، ثم جاء رده السريع، كعادته، لا يعرف الصمت أمام الاستفزاز:

- وأنت البواب بقى؟ الزريبة دي اللي انت جي منها، وبالمناسبة، دي شركة الى خلفني حرفيًا.

لم يسكت "حسن"، بل قفز إلى الجدال قائلًا:

- جاءك بواء، انت ما عندكش دم يا بني؟

- لا، ما عنديش، اتبرعت بي للي خلفتك.

قالها "محمد" ببرود، مبتسمًا ابتسامة جانبية، وكأنه يستمتع بإثارة غضبهم.

اعترض طريقه مرة أخرى "قاسم"، وهو يدفعه بخفة، قائلًا بنبرة مستهزئة:

- رايح فين يا بيبي؟

دفعه "محمد" بعيدًا وهو يضع يديه في جيوبه قائلًا:

- بعدين في الليلة الزفت دي؟ عاوز أدخل بالذوق بدل ما نفضح قلة أدبنا قدام الناس.

"أنس"، الذي كان يدخن سيجارة، رد بسخرية وهو ينفث دخانها:

- هتعمل إيه؟

اقترب "محمد" منه، وهمس بصوت منخفض ولكنه حاد:

- اللي يشوفك وانت بتهددني يفتكرك فارس في ساحته، ما يعرفش إنك حتى الشراب شاحته.

رد عليه " انس " بابتسامة جانبية مليئة بالسخرية:

- وانت بتبصلي ومعجب بيا ولا ايه ؟؟

ضحك الآخر ساخرًا:

ـ لا تظن كل من فكر فيك معجب بيك، يمكن مسروق شبشبه وشاكك فيك.

تحرك بخطوات واثقة نحو مكتب والده، يزفر بضيق. لكنه ما إن اقترب من الباب حتى اعترضته السكرتيرة، تلك التي يبدو أنها جعلت يومه أكثر تعقيدًا.

تحدث بغضب، وهو يمرر أصابعه في خصلات شعره المبعثرة:

- في إيه تاني؟ أنا داخل أقابل الخديوي " اسماعيل   ولا إيه؟

قالت السكرتيرة بنبرة عملية هادئة:

- ممنوع يا أفندم، لازم يكون عندك ميعاد.

رمق "محمد" مرافقيه بنظرة باردة، حيث كان الاستهزاء والشماتة يملأ وجوههم. تركهم جميعًا، وتجاهل اعتراض السكرتيرة، قائلاً بثبات:

- أنتِ مش موافقة، وأنا مترتبش، يبقا ادخل، بسيطة أهي.

تركهم وهو يمسك بمقبض الباب، وفتحه دفعة واحدة دون أن يطرقه، مما تسبب في فزع الأخير، الذي صاح به غاضبًا وهو يلقي بمقص الأوراق باتجاهه، كاد أن يصيبه لولا أن ابتعد بسرعة:

- إنت تاني يا بني؟ ارحم اللي خلفوني! خبط على الزفت قبل ما تدخل! أعمل إيه يعني؟ أشيل الأبواب خالص!؟

رد عليه ببرود وهو يقترب ويضع الأوراق على المكتب:

- ياريت والله، أصلها بتخنقني قوي.

قاطعهم صوت طرق الباب قبل أن يفتح على مصراعيه، ودخل "أنس" بصوت مرتفع، يضرب بيده على المكتب:

- شايف قلة الأدب! داخل فضحنا قدام الناس! وبعدين إيه اللي جاب ده هنا؟

كان يتحدث بازدراء شديد وهو يشير إلى "محمد"، بينما كان يتابع "عادل" الذي لم يتحمل هذا الاستفزاز فثار غاضبًا، وضرب بيده بعنف على الطاولة ونهض من مكانه:

- وإنت مال أهلك؟ جاي ليه؟ هو جاي ليك يا بني آدم؟ وبعدين لما تبقى الشركة شركة اللي خلفك، إبقى اتكلم! أنت مجرد شريك بحصة، ووجودك هو اللي مالوش لزمة، خصوصًا إن ملكش حق في الإدارة أما هو، فأنا مستعد من بكرا أجيبه يقعد هنا مدير مكاني، عندك مانع يا "أنس"؟

كانت حدقتا "أنس" تشتعلان غضبًا، بينما جلس "محمد" على كرسيه بسعادة غريبة تسللت إلى روحه دون أن يدري السبب. شعور بالفخر اجتاحه وهو يستمع لهذا الكلام المدافع عنه، فاختار ألا يرد، مكتفيًا بالتلاعب بالأوراق بين أصابعه.

كادوا أن يغادروا الغرفة، وقد بدا الخزي والغضب واضحًا على وجوههم، ولكن ما زادهم استفزازًا هو تعليق "محمد"، الذي قال ببرود وهو يغمز باتجاه "أنس" رافعًا حاجبه:

- إنكل أنس، ممكن تجيب لي عصير برتقال؟ جعان شويتين!

كبح "محمد" ضحكاته بصعوبة وهو يشاهد معالم الغيظ والكره تكسو وجوههم، بينما رفع عينيه عنهم كي لا يفقد السيطرة على نفسه ويدخل في نوبة ضحك أخرى.

غادروا الغرفة، ولم يزدهم ذلك سوى كراهية وغضب إضافي. من الواضح أن هذه الحرب لن تنتهي قريبًا.

نهض "محمد" بهدوء، ووضع الأوراق على الطاولة، ثم تحدث بنبرة هادئة تحمل بعض الامتنان:

- يلا، جيت عملت لك مشاكل وهامشي آه، صح، شكرًا على الكلمتين اللي قلتهم لهم دول.

ابتسم الآخر بخفة، وعقد حاجبيه قليلاً وهو يرد بابتسامة خفيفة:

- شكرًا على إيه؟ أنا ما قلتش غير الحقيقة، حتى لو إنت مش معترف بيها وهيجي يوم وتعرف كل اللي حصل وقتها. أوعدك إنك هتصدق ده.

شعر "محمد" بوخزة في قلبه وغصة في حلقه، فتنهد بعمق وابتسم بخزي قبل أن يرد بنبرة تحمل ألمًا دفينًا:

-لو عرفت الحقيقة، مش هتعرف تبص في وشي.

قالها ورحل، تاركًا خلفه كمًا هائلًا من الأسئلة تدور في عقل الآخر، الذي مسح وجهه بعنف وهو يتنفس الصعداء.

بعد لحظات، دخل "رمزي"، رجل في متوسط العقد الرابع، يبدو عليه أثر الإفراط في تناول الممنوعات والتدخين. تحدث بنبرة عملية محترمة:

- خير إن شاء الله، يا "عادل بيه"؟

استدار "عادل" بمقعده وأجابه بهدوء:

- عاوزك ترجع لي الورق ده، يا "رمزي". وابقى فكّرني أراجع مع المحاسبين الإداريين ميزانية المشروع الجديد.

ابتسم "رمزي" بخفة، ولكن خلف تلك الابتسامة كان يخفي خيانة. فقد كان يعمل لصالح "أنس"، الذي استأجره لمراقبه " عادل ". وبرغم أن الأخير هو من قدم له يد المساعدة في الماضي، إلا أن الخونة عادة ما يعضون اليد التي تطعمهم، ثم يلعقون الحذاء الذي يركلهم.

ما لم يعلمه "رمزي"، ولا "أنس"، أن " عادل " كان مدركا لكل هذه الألاعيب، يدبر لهم مكائد من خلف الستار. كان يعطيهم معلومات كاذبة ليوقعهم في شراك خططه. الحرب لم تكن كما يظنون؛ فقد بدأت للتو، لكنه كان الطرف الذي يديرها بهدوء شديد.

بينما هبط الأخير من سيارته بهدوء، وقد استقر أمام المبنى الذي يضم العيادة النفسية الخاصة بـ"نبيل"، صعد بخطوات بطيئة إلى الدرجات، وعلى وجهه ملامح الضيق واضحة.

دلف إلى غرفة "نبيل" بهدوء، وجلس أمامه دون أن يتفوه الأخير بكلمة. قال هو بصوت منخفض ومشحون بمشاعر قاتلة:

ــ أنا خايف.

كلمة واحدة اختصرت كل ما يشعر به.

تجاهل "نبيل" تلك الكلمة وأردف بسؤال وهو يجلس على المقعد المجاور:

ــ قولي، إنت كويس؟ حاسس بإيه؟

تنهد بعمق، ونظر إلى الفراغ محاولاً أن يشرح ما يشعر به:

ــ كل حاجة كويسه، معادة إني بتمنى أقدر أبكي بعد منتصف الليل ولو قليلًا، دموع تكفي لغسل روحي بالكامل.

تأمله "نبيل" مليًا. شخص لطيف، ناجح، شجاع، ولكنه غارق في اكتئاب مزمن. لا ينام حتى شروق الشمس، ولا يتوقف عقله عن التفكير في نهايات العالم... أو نهايته.

كتب "نبيل" ملاحظاته بسرعة على دفتره قبل أن يطرح سؤاله التالي بهدوء:

ــ تفتكر إيه اللي محتاجه في حياتك؟

حاول جمع شتات أفكاره سريعًا وردّ:

ــ معرفش، بس نفسي أرتاح.

أراد فقط أن يتعافى، أن تنتهي الجروح العميقة التي تركتها الأيام داخله، أن ينسى الماضي، ويضيء قلبه من جديد.

بدأ بسرد الأحداث التي مرت عليه في الأيام الماضية، خاصة مقابلته مع "عادل" قبل ساعات، وأحداث الشهرين الأخيرين المتعبة. تحدث بتشتت وهو يحاول وصف ما يختلجه:

ــ على الرغم إني كل ليلة برمي نفسي على السرير من غير أي مجهود، إلا إني غارق وسط الذكريات والمعارك بين قلبي وعقلي، صمتي الخارجي بيغطي ضجيج داخلي بيبتلعني.

تنهد "نبيل"، محاولًا استيعاب هذا السيل من المشاعر، ثم سأله:

ــ تفتكر إمتى اتغيرت؟ أو إيه السبب اللي حاسس إنه ضيعك؟

زفر بعمق، وأعاد خصلات شعره للخلف وهو يقول:

ــ فاكر إني نمت يوم زعلان، صحيت لقيت نفسي حد تاني معرفوش. أوقات الظروف بتجبرك تبقى شخص مش عاوزه.

كان "نبيل" مستغرقًا في تأمله، يشعل سيجارة بهدوء قبل أن يقول:

ــ وأنت فاكر إنك كده ما انتحرتش؟ قتل الإحساس، والمشاعر، والرحمة، والتفكير، وتجاهل الضمير، ده برضه نوع من الانتحار.

نهض الآخر بقلق، واضعًا يده فوق رأسه، قبل أن يجيب بحدة:

ــ كنت أعمل إيه؟ كنت يائس، ومع ذلك بحاول أقاوم، أقاوم مرارة الفقد، أقاوم الوحدة رغم وجود ناس حوالّي، أقاوم طيبتي اللي بقت نقطة ضعفي، أقاوم ضحكتي اللي بقت كذبة.

رد "نبيل" بهدوء، وكأنه يتحدث بعقلانية تُجبرك على الإنصات:

ــ عاوز أقولك حاجة: مفيش شكل ثابت للإنسان. إحنا بنتغير باستمرار، المواقف، والكلمات، والأيام بتشكلنا، إحنا مجرد ردود أفعال للحياة، وعلشان كده مش لازم تبرر تغيّرك لأي حد. ومع ذلك، أنا لسه عند وعدي، ومعاك للآخر.

رفع حاجبيه مستغربًا، ثم سأل:

ــ إيه علاج الوسواس الفكري؟ ومتقوليش بعدين.

إصراره هذه المرة جعل "نبيل" يرد بالحقيقة التي يعرف أنها لن تعجبه:

ــ محمد، إنت عارف إني معالج نفسي، يعني اختصاصي علاج نفسي بدون أدوية. العلاج الوحيد لحالتك هو المواجهة. لازم تواجه كل الكلام اللي شايفه بيشوش عقلك. لازم تواجه مخاوفك الحقيقية، وتسمع كل اللي بتهرب منه.

ضحك بسخرية، وهمس بصوت منخفض:

ــ مفروض إن حالتي تتحسن بعد ما أخرج من عندك. بس والله بخرج شايل هموم الدنيا.

تركه يطلق ضحكاته ويكيل العبارات الساخرة، بينما "نبيل" ظل في مكانه، مدركًا أن الجرح أكبر مما يبدو.

بينما كانت "هاجر" تجلس على المقعد الطبي، تتحدث إلى "حياة" التي استمعت إليها بهدوء. تحدثت "هاجر" بحماس، تشرح التغيرات التي طرأت على شخصيتها وكأنها طفلة تروي لوالدتها شعورًا جديدًا لأول مرة. قالت بفرح:

ــ بقيت قوية. أقدر أغادر الأماكن لو حسيت إنها مش مناسبة لي، كمان بطلّعت من حياتي الناس اللي فكرتهم أصدقائي لما اكتشفت إن صداقتهم بتؤذيني بقالي فترة مش برد على التليفون لما أكون حزينة، اتعلمت أقول 'لا' وأهرب بقلبي من أي محاولة خذلان ورتبت كل حاجة، ولأول مرة حطيت نفسي في مقدمة اهتمامي.

فكرت "حياة" للحظة، ثم سألت بتساؤل:

ــ تفتكري إيه سبب التغيير ده؟

لمعت عيون "هاجر"، وزادت ابتسامتها مع أخذ نفس عميق، وأجابت:

ــ "لما شفت نفسي بعين "محمد"، وعرفت قد إيه في حد شايفني جميلة وقوية، عرفت إني أستاهل كل ده. ساعات بنحتاج حد يذكرنا إننا كويسين، حد يورينا إن في جزء بينور جوانا.

ابتسمت "حياة" بشعور من النصر، وهي ترى "هاجر" تشرح هذا:

ــ هاجر، امسكي أعصابك، أحب أقولك إن أول جزء من العلاج انتهى.أنتِ مش خايفة من الحب، أنتِ بتحبي بجد.

قفزت "هاجر" من مكانها، تحتضن "حياة" بحب، وهي تصيح بسعادة:

ــ "هايل! بجد أنا مبسوطة، بس إيه الجزء الناقص؟

تنهدت "حياة" بهدوء وهي تعود إلى مكانها، تدوّن آخر نتائجها:

ــ "بصي، أنتِ اتخطيتِ جزء الحب، المتبقي جزء الزواج نفسه. التجربة نفسها، على صعيد آخر، شخصيتك اتغيرت، ودة اللي هيساعدنا في علاج التروما، ولو ربنا كرم، هتقدري تقوميها.

لم تشعر "هاجر" بهذه السعادة من قبل، بينما تودع "حياة" بعد أن قدمت لها النصائح. شكرتها "حياة" بنظرات متبادلة بينهما.

في تلك اللحظة، شعر " محمد" بنور يشرق في قلبه وهو يراها تخرج من الغرفة المقابلة له. اتجه إليها بخطوات مسرعة، ابتسم ابتسامة واسعة كما يفعل دائمًا عندما يراها، ولكن هذه المرة شعرت "هاجر" بشيء مختلف في قلبها عندما رأته.

ابتسمت "هاجر" قبل أن تنطق بكلمة، ولكنها توقفت، حين سمعت كلماته التي تفيض بالهيام:

ــ هل تدركين معنى أنك تضحكين؟ أن تميل شفتيك نحو الشمال فتبعثرين بها كل الاتجاهات، أن تكشفين عن لؤلؤة أسنانك فينفتح لي كل همومي.

تحدثت "هاجر" وهي تتابع الأمطار الغزيرة التي غطت السماء والأرض، ورائحة المطر التي تعبق في كل مكان، مع شعور غريب من الأمان بجانبه قالت:

ــ مبسوطة أوي بجد. حاسة بتغيير غريب في شخصيتي، شكراً إنك كنت بتابع شغلي وأنا مش موجودة، شكراً على كل حاجة بتعملها عشاني.

مدت يديها نحو الأمطار، مبتسمة بلطف بينما تهبط إحدى قطرات المطر على وجهها. اقترب منها وهو يضع يده أمامها، فقال:

ــ مدت يديها للأمطار وابتسمت، وكأنها تحمل الغيث في يديها، يا قطعة الطهر. الغيث مبتهج، والأمنيات على كفيك تكتمل.

همست "هاجر" بهدوء، مبتعدة عن وجهه بينما شعرت بحرارة كلماتها التي أثرت في جسدها:

ــ كلامك حلو لدرجة إنه غريني، أنا متغيرتش إلا لما عرفت إن في حد بيحبني.

نظرت في عينيه، أخذت نفسًا عميقًا، ثم أغمضت جفونها، وضغطت على أنامله، وكلمة واحدة كانت على شفتيها، لكنها كانت مكبلة بشيء ما، ثم قالت أخيرًا:

ــ أنا بحبك، بحبك وبحس براحة في وجودك، ومش بزهق منك، كل كلمة بتقولها بتكون حلوة، ومش عارفة السبب، بس مش عايزة تبعد أبدًا، وعد متبعدش.

نظر إليها، وكلماته أخيرًا خرجت من بين شفتيه، وكأنها وعد:

ــ وعد، لآخر نفس في عمري مش هبعد إلا لو كان البعد مكتوب لنا.

طوال الطريق لم يتحدث أحد منهم، إذ أصرت " جني" على الاحتفال بخطبتها في مكان لقائهم الأول. نعم، مر أكثر من شهرين على انتهاء علاقة "أحمد" و"جميلة"، واليوم سيكون التجمع الأول بينهم في خطبة "سليم"، التي ستُقام في أراضي دهب.

في صباح اليوم التالي، كانت الفتيات يستعدون لحفل الخطبة، التي اتفق الطرفان على أن تكون بسيطة ومقتصرة على الأصدقاء والعائلة فقط.

جلست "هاجر" بجوار "جميلة"، التي بدت كأن الحزن نقش ملامحها، وانعكس على جسدها الهزيل وارتجاف يدها. كانت قد اتخذت قرارًا حاسمًا بالتوقف عن تعاطي ذلك المخدر اللعين. شعرت بيد "هاجر" وهي تمسد فوق يدها بحنان. ما إن التقت عيناهما، حتى ارتمت "جميلة" في عنقها، تشدد من احتضانها، كأنها تبحث عن ملاذ من الألم.

تحدثت "هاجر" بهدوء، وهي تمسح دموع "جميلة" التي انهمرت بغزارة على وجنتيها:

- ممكن تحكيلي كل حاجة، أنا سامعاك .

كلماتها كانت بمثابة يد تنشل "جميلة" من الغرق. بدأت الأخيرة تسرد كل شيء، وسط صمت تام من الجميع الذين تجمعوا حولها كأنهم شهود على اعترافاتها المؤلمة:

- كان عندي ١٧ سنة، عمري ما كان عندي أصحاب، ولا أخوات، ولا حتى قرايب لما لقيتهم، اتعلقت بيهم جدًا، وأي حاجة يقولولي أعملها كنت بنفذها علشان ما أخسرهمش، واحدة واحدة، شدوني لحفلات عمري ما حضرت زيها، بعدين للشرب، وبعدها للكوكايين، سنة واحدة بس من الإدمان، وبعدها لما رفضت أنفذ طلباتهم، بعدوا عني ومنعوا عني المخدرات، وقتها دخلت المصحة، على فكرة، وجع انسحاب المخدرات من جسمي كان أهون بكتير من تأنيب الضمير وإحساس إني غبية، غبية علشان صدقتهم.

كانت دموعها تنهمر كالشلال على وجنتيها تقدمت "حسناء" لتحتضنها بحنان، تربت على ظهرها، وتهمس لها بكلمات مواساة دافئة.

نظرت إليها "سما" بوجه عابس، وهي تمد لها منديلاً لتجفف دموعها:

- طيب، وإيه اللي رجعك تاني للكوكايين؟

تنفست "جميلة" بعمق، تحاول استجماع شتات نفسها، ومسحت دموعها، ثم قالت:

واحدة منهم رجعت كلمتني من كام شهر، نزلنا مع بعض وشربت، وبعدها كنت لوحدي، وجبت من عند بنت فيهم بس خلاص، أنا مش هضيع أكتر من اللي ضاع النادي والرياضة اللي بحبهم هيرجعوني، و"أحمد"أنا سيبته، بس لازم أحاول أخليه يسامحني، هبدأ تاني، هنزل أشتغل في مكتب ماما.

اقتربت منها "زينة"، وضعت يديها على كتفيها، وعانقتها وهي تقول بصوت دافئ:

- انتِ عارفة إننا إخواتك، صح؟ وإحنا هنفضل جنبك دايمًا، مهما حصل،عمرنا ما هنتخلى عنك.

عانقت "جميلة" الجميع بشهقات تعالت كأنها تسلّم روحها لبكاء طال انتظاره. شعرت بدفء أحاط بها، لكنها لم تستطع تجاهل تلك النظرات التائهة التي تراقبهم من بعيد. " جنى"، التي شعرت بالقلق يتسلل إلى روح صديقتها الأخرى، كانت أسرعهم إليها عندما نهضت بعنف، وقالت بصوت مرتجف:

- أنا مش هتخطب، أنا هامشي حالًا!.

غادرت كمن يهرب من شبح يطارده تبعتها "جيداء"، ودلفت خلفها إلى الغرفة الملحقة، أغلقت الباب بسرعة واحتضنتها لتثبّتها، بينما الأخيرة تنهار على الأرض، تفقد القدرة على الوقوف، كانت أنفاسها تتلاحق، وعيناها مفتوحتين على مصراعيهما كأنهما تتابعان مشهدًا مرعبًا.

تحدثت "جيداء" بحنان، تحتضن وجهها بين يديها، محاولة طمأنتها:

- متخافيش يا حبيبتي، مفيش حاجة وحشة هتحصل صدقيني، كلنا معاكِ .

لكن كلماتها لم تصل. ارتجافها وشهقاتها منعوها من الحديث، وكأنها تخوض معركة مع أشباحها.

تحدثت بتلعثم متقطع، شهقاتها ودموعها تعرقل الكلمات التي تحاول الهروب من شفتيها:

- أنا خايفة قلبي بيقولي لو كملت، هتكسر أوي، أنا خايفة.

اقتربت "جيداء" أكثر، تحاوط وجهها بكلتا يديها، تحاول أن تمنحها بعض الطمأنينة،لكن قبل أن تُكمل حديثها، فتح الباب على مصراعيه،دخل " سليم"، وهبط على ركبتيه بجوارها،أشار لـ"جيداء" بالخروج، فامتثلت بهدوء، تربت على يد صديقتها قبل أن تغادر، تاركة المجال له ليكمل المهمة.

تحدث " سليم " بنبرة هادئة بينما يراقب يدها المرتجفة بعينين حانيتين، مد يده ليمسد فوق يدها، ثم احتضنها بيده كأنما يحاول أن ينقل إليها طمأنينة روحه:

- بصيلي أنا هنا، دايمًا جمبك، أنا معاكِ في أحلامك السيئة، في الوقت اللي مش بتقدري تتكلمي فيه، ولما تحسي إن روحك تقيلة، مهما كان اللي بنمر بيه، أنا هنا، معاك.

رفعت عينيها نحوه، نظرتها شاردة، مملوءة بالخوف والارتباك. انهمرت كلماتها بصعوبة بين شهقاتها:

- وأنا خايفة، مش قادرة أوصفلك أنا حاسة بإيه، إنت مش هتفهم أنا متوترة، مش قادرة أفرح، أنا مش خايفة تحب حد غيري، أنا خايفة تصدق إن حد غيري ممكن يحبك أكتر مني .

ترك يدها للحظة، مد يده ليمسد فوق خصلات شعرها، يتنهد بعمق، كأن قلبه يتمزق لأجلها. بنبرة هادئة ومليئة بالعاطفة، قال:

- لما أقول بحبك، مش قصدي أرمي كلام غزل على مسمعك كل شوية، قصدي إن الشعور ده متجسد جوايا، إني فاهمك أكتر من نفسي، إني بحب أتكلم معاكي حتى عن صمتي، وعايز أعيش معاكي أكتر من وحدتي، أنا بديكي أحسن ما عندي، لأني عارف قد إيه عانيتي، وعارف إنك تستحقي كل الحب إنت الحياة بالنسبة لي.

هدأت شهقاتها تدريجيًا، أعادت خصلات شعرها الملتصقة بجبينها بفعل دموعها إلى الخلف، وتمسحت بيدها الباردة على وجهها المبلل، وقالت بصوت ضعيف:

- خايفة مقدرش أكون معاك، خايفة أفضل خايفة طول عمري خايفة تسبني، أو مكتوب لنا ما نكملش .

ابتسم " سليم " برفق، مد يده بكوب عصير وقدمه لها. ارتشفت منه ببطء، كأنها تستعيد قوتها تدريجيًا. ثم قال بابتسامة خفيفة:

- هفضل مغرم بيكي بكل تقلباتك، ساحبك بكل لغات العالم، يمكن مش أكون قريب دايمًا، بس إنت في أعمق نقطة في قلبي، أقرب مني لنفسي.

نظرت إليه مستغربة، ثم عقدت حاجبيها بابتسامة مليئة بالدهشة:

- إيه الكلام ده؟ معقول تكون بقيت مثقف مثلًا؟ ولا كلامك بقى كله غزل؟!

ضحك بخفة، يتأمل وجهها الذي بدأ يستعيد هدوءه، وقال ممازحًا:

- لا مثقف ولا حاجة، ده أنا من كتر ما بحبك الكلام طلع لوحده!

بعد قليل

كانت "هاجر" تنهي آخر لمساتها على فستان " جنى"، التي كانت تنظر لنفسها في المرآة بسعادة، وبجانبها والدتها تطالعها بنظرات حب. كان فستانها بسيطًا للغاية بلون تبيذي أنيق، مع حزام على الخصر مزين بالورود والخرز، مما أضاف إلى جمالها الطبيعي. تركت خصلاتها تنسدل فوق ظهرها بانسيابية، تضفي عليها لمسة ساحرة.

في الجانب الآخر، كانت "جيداء" تحاول جاهدة إغلاق سحاب فستان "ميرنا"، التي تأخرت بسبب ضيق الفستان عليها بعد اكتسابها بعض الكيلوغرامات. تنهدت "جيداء" وقالت بصعوبة:

- استحالة يقفل، انسي يا أمي .

شهقت "ميرنا"، دفعتها للخلف وهي تصيح بغضب مزيف:

- قصدك إني تخنت يا "جيداء"؟! والله أنا غلطانة إني قولتلك إني حامل .

فور سماعها تلك الكلمة، توجهت الأنظار نحوها. ومع اقترابهن منها، تراجعت للخلف وهي ترفع يديها مستسلمة:

- براحة يا بنات! هتموتوني، الله يخرب بيت معرفتك السودة يا "جيداء" .

تقدمت "سما" نحوها واحتضنتها بحماس وهي تقول:

- مُبارك يا أحلى مامي في الدنيا!

بينما قفزت "جميلة" باتجاهها، صارخة:

- وسعوا! أحلى مامي صغيرة! لو بنت تسميها "جميلة"، ولو ولد تسميه "جميل"... تمام؟!

ابتسمت "هاجر"، مسحت على خصلات "ميرنا" وقبلتها على جبينها، قائلة برقة:

- يا روحي ألف مُبارك، إن شاء الله تجيبلنا أحلى بنت أو ولد في الدنيا .

تقدمت الباقيات، "زينة" و"جيداء" و"جنى"، يهنئنها بحب وسعادة، قبل أن ينتهين جميعًا من ارتداء ملابسهن استعدادًا للنزول للأسفل.

في وقت لاحق

بعد أن انتهى الجميع من المصافحة وتلقي التهاني، كان " سليم " يجلس بجوار " جنى "، مع ترك مسافة صغيرة بينهما. أخرج طبقًا دائريًا من الفضة مزينًا بالورود الحمراء، وقد كُتبت بداخله كلمات بخط أنيق. تناولت "جميلة" الطبق بيدين مرتعشتين، وبدأت بقراءة ما كُتب:

- سأحبك وكأنك أمانة وضعت في عنقي، وكأن أمك قد استودعتك في قلبي ومضت مطمئنة، وكأن الكون كله قد أوصاني عليك. فإن أصابك ضيق، قلبي لأجلك يضيق، وإن بكيت، فاعتبريني عينًا أخرى تبكي معك .

امتلأت عيناها بالدموع، لكنها حاولت كبحها بابتسامة امتنان. شعرت بغرابة ألفة هذه اللحظة، ولم تجد كلمات شكر توافيه حقه.

على بُعد خطوات

كانت "زينة" تقف في زاوية بعيدة، تراقب نظرات أحدهم الموجهة نحوها. نظراته بدت وكأنه مسحور، لا يستطيع تحويل عينيه عنها. كانت ترتدي فستانًا واسعًا من الساتان الأسود، مزينًا بورود مطرزة عند الخصر، وزادت مفاجأته ذلك الوشاح الأسود الذي يغطي شعرها. لم يكن يعلم أنها ارتدت الحجاب، فقد أتت بدونه سابقًا. كانت عيناها البنية تشبه الأرض، لكنها لم تكن تنبت زهورًا، بل كانت تنبت حبًا.

احتضنها " عز " بذراعه بلطف، ومال نحوها ليقبل وجنتيها برفق. قال بنبرة تحمل خليطًا من الدهشة والفرح:

- أنت اتحجبتي امتى يا "زينة"؟ أنا مش مصدق إن الحلوة دي كلها لوحدي. "زينة" أنا خايف أشيل عيني من عليك يطلع حلم .

اتسعت ابتسامتها، وعيناها تتلألآن بالحب، ثم ردت بهدوء:

- النهارده الصبح، "جيداء" قالت لي إنها اتحجبت، وفضلت أسمع كلامها وأنا بفكر. تعرف بقالي سبع سنين نفسي أتحجب، لكن كل مرة بتردد، لحد ما لقيتني بقولها: مش هخرج من الأوضة غير بالطرحة. وده اللي حصل .

ابتسم بحنان، أمسك يدها وأدارها برفق مع الأنغام الهادئة التي تصدح في المكان. كانت الموسيقى تنبعث من منتصف الجبل، تضفي على اللحظة سحرًا خاصًا. ومع كلمات الأغنية:

"جيت تكتب الألف وقع القلم معدول

ما كنت خالص يا صاحبي

إيه وقعك مع دول؟

وأنا اللي ببيع ياسمين، يا ترى مين هيضم الورد؟"

نظر " عز" إلى "زينة"، وتمايل معها على الإيقاع، قبل أن يردد بصوت مرتفع يملؤه الشغف:

"يا بت عيب اتعصبي، ضحكته رخت أعصابي

عمر العجوز ما يعود صبي

دد أنا اللي ببيع ياسمين، يا ترى مين هيضم الورد؟"

ضحكت "زينة" بصوت مرتفع نسبيًا، تدور معه وكأن العالم اختفى من حولهما.

على جانب آخر

وقفت "حسناء" بعيدًا، تتابع المشهد بصمت. بينما انسحبت "عشق" نحو "كاميليا"، والدة "جنى"، عند سماع ندائها. فجأة، شعرت بحضن دافئ من الخلف، وصوت مألوف يهمس في أذنها، مرددًا كلمات الأغنية:

"يا حبيبي جيت أنا — ليه في الدنيا ديه

إلا عشان أحبك — عشان يدوب عمري

من جرح غدرك بدري — شمعة ورا شمعة

وتعيش انت لفرحك."

شعرت "حسناء" بالحنين، بينما استسلمت للحظة دون أن تنظر خلفها، وكأنها تعرف مسبقًا من يحتضنها.

في مكان قريب

وقفت "جميلة" بجوار "أحمد"، تنظر إليه بنظرات حزينة وهي تنطق بصوت مبحوح:

- "أحمد"، أنا بحبك، أصعب شعور إني أكون مجبورة أبعد عن الشخص اللي بحبه من كل قلبي .

ابتسم بسخرية خفيفة، لكن نظراته حملت ألمًا دفينًا. أجاب بنبرة باردة تخفي شتات مشاعره:

- أنا عملت كل اللي عليا، بجد حبيتك حب محبتهوش لنفسي، وكنت صادق معاكِ في كل كلمة. جيت على نفسي كتير علشانك، لكن خلاص، كل ده مبقاش ليه لزمة .

استدار مبتعدا، يحاول الهروب قبل أن يسمع كلماتها، أو يرى الدموع التي تجمدت في عينيها، تركها وحيدة، تصارع مشاعرها في صمت.

جلسوا جميعًا في غرفتهم الجامعية بعد يوم طويل من الإرهاق، كل منهم منغمس في عالمه الخاص. "أحمد" لم يكن قادرًا على النوم، استدار إلى "سليم" النائم بجانبه، وهتف بصوت منخفض:

- "سليم"، انت نمت؟ أنا عاوز أصحي .

فتح "سليم" عينيه نصف إغماضة، ورد بنفاد صبر وهو يضربه بالوسادة:

- شايف القمر؟ شايف الليل؟ شايف النجوم؟ طيب ليه ما تخمد وتنام؟

ضحك "محمد" من فراشه، ونهض ليجر "أحمد" معه للخارج، بينما يتبعهم الآخرون بفضول. توجهوا إلى الشاطئ، حيث كان البحر يموج تحت ضوء القمر. جلس الجميع على الرمال، يراقبون "محمد"، الذي وقف قبالة الأمواج، عيناه تسبحان في عتمة البحر وكأنها مرآة لمشاعره المكبوتة.

نهض "أحمد" فجأة، وسحب "محمد" من مكانه باتجاه الماء. هتف بحماس:

- يلا يا "محمد"! فاكر زمان لما كنا بنعوم سوا؟ يلا نعوم هنا!

استجاب "محمد" لدعوته، وهبطا معًا في المياه الباردة، غير مبالين بالليل الحالك. القمر كان ينير سطح البحر، وكأنه شاهد على ذكرياتهم. كان الآخرون يراقبونهم من بعيد بدهشة، غير مدركين سر تلك الطاقة التي فجرت لحظتهم العفوية.

بعد فترة، خرج "محمد" من الماء مبتسمًا، يعدل خصلاته المبتلة للخلف، وينادي بصوت ملؤه الانتصار:

- كسبتك يا "أحمد"، كالعادة!

لكن الصمت كان جوابه الوحيد. التفت "محمد" حوله، يبحث عن صديقه، معتقدًا أن الأمر مجرد خدعة سخيفة من خدعه المعتادة. إلا أن القلق بدأ يتسرب إلى قلبه. ألقى نفسه في الماء مرة أخرى، يغوص في العمق، حتى رأى جسد "أحمد" العائم بلا حراك.

صاح مذعورًا، وسرعان ما أسرع الجميع لمساعدته في إخراج "أحمد" إلى الشاطئ. حمل "محمد" جسده الهامد بين ذراعيه، وبدأ يهزه بلطف، يضرب وجنتيه، وصوته مليء بالشهقات الممزوجة بالرعب:

"أحمد"، رد عليا، انت ساكت ليه؟ بطل هزارك الرخم، خلاص يا عم، انت اللي كسبتني! مش هعوم تاني، رد عليا بالله عليك قوم، "أحمد" انت مش هتسبني صح؟؟بالله عليك، ماتسيبنيش!

كان "محمد" يحتضن جسد "أحمد" بقوة، دموعه تجري على وجنتيه، وصوته يرتجف من الألم. أما "أحمد"، فقد كان في عالم آخر. شريط حياته يمر أمام عينيه بسرعة، إلا أن المشهد الوحيد الذي توقف عنده كان وجه " جميلة". كان آخر ما يراه قبل أن تغلق جفونه ببطء، ربما للأبد.

البارت الخامس و العشرون

"حقائق عارية"

إياك أن تظن أن الصامدين لا يشعرون. فهو أمامك يتآكل من داخله، وما زال صامدا. تعصف به الأفكار، وما زال صامدا. تحترق ثنايا روحه، وللعجب... ما زال صامداً

أمام غرفة العناية المركزة، حيث ساد الصمت الثقيل بعد وصول الجميع إلى المستشفى، لم يبق سوى "محمد" و"سيف" و"سليم" و"أمير ."اندفعت "ريهام"، والدة "أحمد"، إلى الداخل كعاصفة. كانت تركض تلتهم المسافات حتى وصلت إلى "محمد"، الأقرب لها. أمسكته من كتفيه بقوة، تهزه بغضب وحزن شديد، وصرخت:

ــ حصل إيه؟! نزلته في الوقت ده ليه؟! انت اللي نزلته! طول عمرك بتحب تعوم بليل، كنت موت لوحدك يا أخي! منزله معاك ليه؟! مستحيل يكون انتحار، مستحيل!

كانت كلماتها مشوشة في ذهن "محمد"، وكأنها تصل من بعيد. في تلك اللحظة، كان يصارع مخاوفه القديمة التي لم تبرحه يوماً. مشاهد متقطعة من ماضيه تومض أمام عينيه؛ البرد الذي كان يشعر به حينها، الضربات التي تركت ندوباً على جسده، تيار الكهرباء الذي كان يسري في بدنه عندما كان صغيراً... كل شيء عاد ليطارده من جديد.

دفع "محمد" يديها عنه بعنف وصاح بصوت كاد أن يمزق حنجرته من قوته:

ــ ياريتني كنت أنا اللي موت! ياريتني غرقت بداله! هو اللي نزل، كان بيهزر والله، أحمد ما انتحرش! كان فرحان! والله ما سيبتهوش، هو اللي بعد عني! أنا مش السبب، أنا السبب! كنت أغرق مكانه! ليه دايماً ربنا بينجيني أنا ويسيبني أتعذب ويخدهم مني؟! كان خد روحي أنا لكن سبني أتعذب!

قطع حديثه عناق "رائد"، الذي جاء يربت على ظهره بحنان وكأنما يريد أن يحمل عنه بعضاً من ألمه. كان يعلم كم كان "أحمد" يحب "محمد"، وكم كان يرى فيه أخاً ورفيقاً لروحه.

همس "رائد" بهدوء، وهو يبتعد قليلاً:

ــ هيقوم وهيكون بخير، أنا واثق إن ربنا مش هيحرق قلبنا عليه. ارتاح وأوعي في يوم تعترض على قدر ربنا ده قدر، ومهما حاولت، مش هتهرب منه.

في زاوية أخرى، كان "سيف" يجلس بعيداً، محاولاً استعادة أنفاسه بعد استخدامه "البخاخة". عندما شعر ببعض التحسن، اقترب من "محمد" و"سليم"، حيث كان الأول يحاول طمأنة الثاني،

رغم أنه لم يكن يعلم إن كان يطمئن "سليم" أم يطمئن روحه الممزقة. وضع "سيف" يده على كتف "محمد" برفق وقال:

ـــ إن شاء الله هيقوم وهيكون بخير. متخفش، أحمد قوي ومش هيسيبنا.

لكنه لم يكمل جملته، إذ وجد "محمد" يدفعه بعيداً بقوة وهو يصرخ بغضب:

ـــ إنت متقربليش خالص! ليه مسبتنيش معاه؟! ليه بعدتني عن حضنه؟! ليه أخرتني قبل ما أدخل أدور عليه؟! كنت سيبته في حضني أكتر! لو حصله حاجة، مش هسامحك على اللي باقي من عمري!

تراجع "سيف"، وبدت كلماته كصفعة على وجهه. شعر بالصدمة، لكنه قاوم الانهيار وهو يرد بصوت حاد:

ـــ إنت أهبل؟! سامع نفسك بتقول إيه؟! كنت أسيبك ترمي نفسك وسط الموج في الضلمة؟! ولا أسيبك حاضنه لحد ما يموت وأنت معاه؟!

أمسك به "أمير" بقوة، محاولاً تهدئته بكل الطرق الممكنة، فيما استسلم "محمد" لموضعه. كان عقله يموج بالتفكير، تتآكله الحيرة، وتمزقه الأسئلة، لكن بشكل صامت لا يشعر به أحد. بدا وكأن سوء الحظ والحزن الدائم أصبحا جزءاً لا يتجزأ منه، وكأن أحدهم دعا عليه دعوة سوء، وفي تلك اللحظة قال الجميع: آمين.

في الخارج، اندفعت "جميلة" مسرعة نحوهم كانت تهرول حافية القدمين تقريباً بسبب؛ ارتدائها الحذاء بشكل غير صحيح كادت أن تقع، لكنها استقامت مرة أخرى، عينيها تحملان كل أسئلة الدنيا عندما التقت عيناها بعيني "محمد"، بدت نظراتها تائهة وغير مستقرة لاحظت " جميلة"، التي كانت تحدق في غرفة العناية المركزة فجأة، اقتحمت " جميلة " الغرفة على الرغم من اعتراض الأطباء وصراخهم.

عندما رأت جسد ابنها ممدداً، موصولاً بكل تلك الأسلاك، انهارت "جميلة "ألقت رأسها على صدره، حيث موضع قلبه، وبدأت دموعها تنهمر بلا توقف. كانت عاجزة أمام رغبتها في البكاء، وكأن دموعها بحاجة إلى سبب واحد فقط لتنهال، لكنها وجدت أسباباً كثيرة. صوتها كان مرتجفاً وهي تتشبث بجسده، كأنها تحاول سرقة لحظة إضافية لرؤيته مرة أخرى.

همست بصوت متهدج وهي تحدق في وجهه المغلق بعينيها الغارقتين بالدموع:

ـــ أنا آسفة أحمد، أنا بحبك، أنا جميلتك اللي مكنتش هتحارب من غيرك أرجوك، متسبنيش لوحدي أنا عمري ما هحب حد تاني، عمري ما هحس بالدفا ده مع حد غيرك،عمري ما هتمنى أكون جوا حد غيرك. أنا معرفتش يعني إيه حب غير معاك.

في الخارج، وقف "رائد" يراقب المشهد من خلف الزجاج،كانت الحسرة تملأ ملامحه. لو كان يعلم أن هذا هو العناق الأخير، لو كان يدرك أن هذه هي المرة الأخيرة التي سيراه فيها، لما تركه أبداً، لكان احتضنه أكثر، لكان بقي معه وقتاً أطول. أربعة وعشرون عاماً لم تكن كافية ليشبع من والده.

لحظات قليلة، ووصلت السيارة الأخيرة التي كانت تحمل "عز، زينة، جيداء، سما، جنى ، إسلام، وميرنا". كانت " جني" أول من نزل من السيارة، هرعت نحوه بخطوات مسرعة، وأمسكت بكف "سليم " محاولة بث الطمأنينة فيه. لم يقل شيئاً، لكنه ابتسم لها بهدوء، كأنما يكتفي بالصمت وتنهيدة طويلة.

على الجانب الآخر، توجه "عز" نحو أخيه و"سيف"، تاركاً "زينة" تجلس بوهن على أحد المقاعد. كانت تنظر إليهم بصمت، مشاعرها غارقة في دوامة من الألم. الرجل الذي يرقد داخل الغرفة ليس غريباً عنها؛ إنه أخوها. عاشت معه لحظات سعيدة وأخرى حزينة. ساعدته في تجاوز بعض مواده الدراسية، رافقته في كثير من تفاصيل حياتها. كيف يمكنها أن تتخطى فكرة أن يصبح مجرد ذكرى؟

أما "محمد". فقد كان أشبه بملح جرح مفتوح، الأخ والصديق وربما الأب، رغم أنها تكبره بسنوات. إلا أنه كان السند الذي يقويها، لم يكن مجرد شخص في حياتها، بل كان قطعة من قلب والدتها، الشخص الذي تتحدث عنه العائلة بحب.

تذكرت فجأة "سمر". كانت دموعها تتلألأ في عينيها عندما تتذكر فقدها القديم. يمر وقت طويل على رحيل شخص تحبه، حتى يظن الجميع أنك تجاوزت حزنك، لكن لا أحد يفهم تلك الغصة التي تعود إليك عندما تواجه شيئاً مشابهاً. اللحظة التي تشعر فيها بأن كل ما حولك حلم غير قابل للتصديق.

على الجانب الآخر، أمسك "محمد" بزجاجة العقاقير المهدئة، التي كانت بحوزته في السيارة، من حسن حظه أنها كانت قريبة، لكنه أخذ منها كمية كبيرة دفعة واحدةوزورغم ذلك، لم تعد تلك الحبوب تجدي نفعاً هذه المرة، الصداع لم يكن في رأسه، بل في قلبه، الرجفة لم تكن في يديه، بل في روحه، تتسلل إلى ثنايا قلبه أما الدموع التي لم تنهمر من عينيه، فقد كانت تغرق روحه من الداخل، تبلل مشاعره التي فقدت نبضها.

في زاوية أخرى، كانت "ميرنا" تمسك بموضع معدتها، القلق يسيطر عليها.حملها الذي لم يكن مستقراً منذ البداية زاد سوءاً بعد كل تلك التحركات العنيفة لم تستطع أن تنبس بكلمة، إلا واحدة خرجت من بين شفتيها بصوت خافت:

ــ إسلام أنا حامل.

عقد "إسلام" حاجبيه بدهشة، ووجه "رائد" نظراته نحوها أيضاً. قال بصوت يعكس صدمته:

ــ حامل إزاي يعني؟ أنت حاسّة بحاجة؟

كانت كلماته محملة بالاستنكار، يلعن في داخله لماذا لم تخبره بذلك مسبقاً؟ أمسك بيدها بتحفظ، وسار معها ببطء نحو غرفة الطبيب، عازماً على الاطمئنان على حالتها وحالة الجنين.

في الخارج، جلست "سما" بجانب "سيف"، الذي خانته دموعه مرة أخرى. كان يشعر وكأنه يقاوم العالم بأسره، لكنه في الحقيقة لم يكن يقاوم إلا تعبه من هذا العالم، هشاشة قلبه، وضياع عقله. عينيه كانتا ممتلئتين بالحزن، تتحدثان أكثر مما تفعل كلماته.

لم يمض وقت طويل حتى وصلت السيارة الأخرى. كانت مزدحمة بالركاب، لكن بالنسبة للجالس بين أروقة المستشفى، لم يكن أحدهم يهمه بقدر "حسناء". ما إن رآها حتى وجد نفسه يسرع نحوها، يرتمي في حضنها، متعثراً بخطواته لولا أنها أمسكت به وأبقت جسده بين ذراعيها، ثم أجلسته على مقعد قريب.

حين يعجز الإنسان عن البكاء، عن الصراخ، عن البوح، يصبح الصمت عدوا يحرق روحه. كانت "حسناء" تدرك ذلك، ورغم احتضانه لم يقلقها إلا هدووه الزائد عن الحد كان يفترض أن يثور، أن يصرخ، أن يطلق العنان لكل هذا الخراب الذي بداخله. لكنه اختار الصمت وهذا الصمت كان أثقل من أي كلمات.

كان "محمد" متعباً، كل ندبة ظن أنها شُفيت منذ زمن عادت الآن لتنبض من جديد، توقظ جروحاً اعتقد أنها اندملت تحدث أخيراً، لكن صوته كان مبحوحاً، طاقته مستنزفة، عيناه محمرتان من الداخل والخارج، ويداه ترتجفان كل ذلك لاحظته "هاجر"، التي جلست بجانبه بصمت، أمسكت بيده وراحت تربت عليها بهدوء، كأنها تحاول أن تنقل إليه شيئاً من السكينة التي فقدها.

في الداخل، كانت "جميلة" ما زالت شاردة الذهن، غارقة في دموعها على حبيبها وقطعة من روحها التي ترقد أمامها أين ضحكاته؟ هل فقدتها أم جرفتها أمواج القدر؟ أين نظراته؟ ولماذا لا ينطق؟ وضعت رأسها فوق صدره مجدداً، مستمعة إلى تأنٍّ خفيف يصدر منه ارتسمت ابتسامة مشرقة على وجهها وهي تربت على ذراعه، حتى صدر عنه تأوّه آخر تبعه سعال شديد، ثم فتح عينيه وصاح متذمراً بصوت مبحوح:

ــ إيه يا بنتي! بتضربيني ولا إيه؟

ضحكت بسعادة وهي تحتضنه، وكأنها لا تصدق أنه عاد إلى الحياة مرة أخرى. شعرت بالفراشات تطير حولها، وبشعور لا يمكن وصفه سوى بأنها تود أن تكون داخله، أن تذوب فيه. قالت وهي تنظر إليه بعيون مليئة بالدموع والفرح:

ــ إنت عايش ما موتتش، صح؟

عقد حاجبيه مسترجعاً ذكرياته الأخيرة، أول ما تبادر إلى ذهنه كان "محمد"، وتأكد أنه الآن على وشك الجنون إن لم يكن قد فقد عقله بالفعل. أجابها بصوت متعب بين أنفاس متقطعة:

ــ أنا كويس، بس إيه اللي جابك هنا؟ مش إحنا كنا متخاصمين وسيبنا بعض؟ وبعدين أصحى، إيه ده؟ إنتِ لمستيني؟ ده تحرش على فكرة!

شهقت بصدمة من حديثه، ثم دفعته بيديها بغضب :ــ انا غلطانة إني جيت أطمن عليك!

رفع حاجبه باستغراب ساخر:

ــ تطمني عليا؟ إيه الكلام ده؟ وبعدين، إن شاء الله أخرج من هنا وهتجوز، ومراتي مش هترضى بالوضع ده.

فتحت عينيها على مصراعيهما، مثبتة بصرها عليه بحدة :ــ تتجوز؟ نعم! لا طبعاً، أنا أزورك في قبرك كل خميس ولا أشوفك مع واحدة تانية عريس!

تجدد الألم داخله، فاستعاد لحظات ما حدث بينهما في الأيام الماضية، سألها بهدوء، وصوته يعكس الخيبة:

ليه عملت كده؟

كانت كلماته كسكين تقطع أوتار قلبها، لم تجد رداً سوى البكاء. خفضت رأسها لتخفي دموعها التي انهمرت بغزارة، ثم استنشقت بعمق وبدأت تسرد له ما حدث منذ أكثر من أربع سنوات.

استمع إليها بصمت، عينيه مثبتتان على عينيها. كانت حدقتاه تضطرمان بغضب مكبوت. أمسك بكفها، وقال بصوت هادئ يحاول السيطرة على شتات أفكاره:

ــ اللي حصل مكنش سهل، أنا مش مصدق إنك خبيت عليا، وأنا كنت مستعد أحارب معاكِ الدنيا بس مكنتش مستعد أحاربك إنتِ إنتِ كل جنودي، عمري كله أنا جنبك، يا جميلة، وعْمري ما هتخلى عنك.

ارتسمت ابتسامة باهتة على وجهها، ثم غطت وجهها بيديها بينما كان هو يمسد خصلاتها بحنان. تحدثت بصوت منخفض:

ــ يعني مسامحني بجد؟ وهتفضل معايا؟

هز رأسه بإيماءة تعني "نعم"، وابتسم وهو يشاغب خصلاتها المموجة.

تحدثت بضجر وهي تعقد ذراعيها أمام صدرها :ــ لا، إنت كده مش مسامحني اهتم بيا شوية!

صاح بها بغضب مصطنع :ــ يا بنتي، إحنا لسه متصلحين، تقولين اهتم بيا! أنا كنت يموت، يا مدمنه إنتِ!

شهقت مستنكرة، وقالت وهي تضربه بخفة :ــ أنا مدمنة؟ أنا ببطل على فكرة!

اعتدل في جلسته، وسحب أنفاسه بعمق، ثم قال بنبرة عاشقة :ــ لو في حد مدمن، فهو أنا مدمن عيونك، وضحكتك، ومدمنك إنتِ.

ابتسمت بخجل، وأمسك بيدها بهدوء، ثم قال مازحاً :ــ خلاص بقى يا جميلتي، ده حتى كلهم ing.إلا إنتِed

ضحكت بصوت عالٍ وضربت كفها بكفه، قائلة :ــ يا مساء الجرامر بقى!

كانت هذه اللحظات مليئة بالدفء، لكنها لم تدم طويلاً. فجأة، دخل "محمد"، و"ريهام"، و"رائد" إلى الغرفة. كان أول من اقترب منه "محمد"، الذي احتضنه بشدة، وعيناه مغرورقتان بالدموع، متشبعتان برؤيته، بينما كان "أحمد" يربت على ظهره بحنان، مدركاً حجم القلق الذي عاشه الأخير.

بعد ذلك، اقتربت والدته منه، واحتضنته بشوق وهي تحمد الله على سلامته. ضمها إليه بقوة، ممتناً لحبها وقلقها عليه.

تحدث "رائد" بهدوء، مبتسماً بقلق واضح :ــ حمد الله على السلامة بس ليه تنزل البحر بالليل وإنت عارف إنه مش مستقر؟

ابتسم "أحمد" وهو يستعيد شريط الأحداث:

ــ والله، كنت بهزر أصلاً، بس لقيت الموج سحبني كنت شايف محمد وهو بيدوّر عليا، بس ما عرفتش أوصل له.

نظرت "ريهام" إلى "محمد" بحرج وخجل. شعرت بالخزي من نفسها لما قالته عنه سابقاً. أدركت أنه كان الوحيد الذي تحمل الألم في صمت، وضحَى بحياته بين الأمواج لينقذ "أحمد."

اقترب "رائد" من "أحمد"، يحتضنه بهدوء محاولاً كبح تلك الأفكار المظلمة التي التهمت عقله، خوفاً من فقدان ابنه. الآن، وقد عاد إليه، كان المشهد كأن الولد وجد طريقه للمنزل بعد أن ضاع.

أما "أحمد"، فاندفع نحوه كما يهرع الطفل إلى والديه طلباً للأمان. أتى كالهارب من حربه، من أوجاعه، ومن أرق لياليه. كان يبحث بين ذراعي والده عن ملاذ، يعرف الطريق إليه كما يعرف الناس درب العودة إلى البيت.

خرج "محمد" من الغرفة، يطمئن الجميع على حالته. جلس بعيداً، متجنباً الحديث مع أحد، يشعر أنه لن يحتمل أي كلمة أخرى. تنفس بعمق، محاولاً تهدئة عاصفة مشاعره، لكنه ظل غارقاً في صراعه الداخلي.

لم تمر دقائق حتى فاجأته "ريهام" بالجلوس بجانبه. نظرت إليه باستغراب، متأملة ذلك الثبات الظاهري الذي يحيط به حتى في أصعب لحظاته. لكنها أدركت في أعماقها أنه يواجه صراعات مريرة بينه وبين نفسه، يصارع همومه وأحزانه وأوجاعه ليحافظ على هذا التماسك.

ربتت على ذراعه بهدوء وابتسمت بخجل، ثم قالت بصوت خافت يحمل الأسف:

ـــ "يا محمد، أنا متأكدة إنك عارف أعصابي كانت بايظة آسفة يا حبيبي، إنت عارف إن كلكم عندي زي أحمد بالظبط.

نظر إليها بصمت، ثم ربت على يدها بلطف، وكأنه يطمئنها أنه يتفهم. لكنها شعرت بارتخاء جسده المفاجئ، ورأت ملامحه تتغير. قطرت حبات من العرق على جبينه، وخصلات شعره التصقت به. يداه بدأت ترتجف، وصوته خفت كأنه يوشك على فقدان الوعي.

"حسناء" التي كانت تراقب من بعيد، هرعت إليه على الفور. لاحظت أن أنفاسه تزداد ثقلاً، ويداه ترتفعان بشكل لا إرادي نحو أزرار قميصه، محاولاً فتحها لتخفيف الضغط عن صدره. أسرعت "حسناء" بمساعدته، بينما انطلقت "هاجر" لطلب الطبيب.

لم يمر وقت طويل حتى وصل الطبيب، وأخذ "محمد" إلى غرفة الفحص.

بعد دقائق قليلة، عاد وعيه، واستقرت حالته. وقف الطبيب بينهم، يحاول طمأنتهم:

ـــ "ما تقلقوش، ده شيء طبيعي، كانت مجرد أزمة ضغط بسبب الإرهاق أو نسيان تناول العلاج، حالته مستقرة وهيقدر يخرج معاكم قريب.

بينما كان الجميع يتنفس الصعداء، كان "عادل" الوحيد الذي أصيب بالصدمة. عقد حاجبيه بدهشة، وسأل الطبيب باستغراب:

ـــ ضغط؟ إزاي يعني؟

ابتسم الطبيب وهو يتفحص الأوراق :ـــ مش ضغط معتاد ده اضطراب في ضغط الدم، وبيحتاج أدوية منتظمة لتنظيمه.

رغم محاولات الطبيب لطمأنته، لم يشعر "عادل" بالراحة. الأسئلة التي لا تجد لها إجابات بدأت تتزاحم في ذهنه. كان يريد أن يفهم كيف حدث هذا، ولماذا لم يخبره أحد.

هل الإجابات ستكون على قدر آلامه؟ أم ستفتح أبوابا لمزيد من الحيرة والأسئلة؟ لم يعرف إن كان عليه أن يسأل، أم أن ينتظر...

عاد الليل مرة أخرى، يفرض ظلامه وحلكته على الأجواء. أسدل ستار النهار، وبدأ في سرد الحكايات التي لم نستطع مواجهتها في وضح النهار. الليل دائمًا القاضي الذي يحكم علينا بصمت، يتهمنا بما لا نستطيع إنكاره. ورغم نور القمر الذي يضيء لنا عتمته ويدافع عنا، إلا أن الليل يظل مخيفًا لمن ليس له جليس.

دلفت "هاجر" إلى المنزل بهدوء، متثاقلة من الإنهاك الذي استنزفها الأيام الماضية. لكنها كانت تعلم في أعماقها أن عودتها هنا ليست أفضل حالًا. كانت الزيارة قصيرة، فقط لتطمئن على "يزن"، صديقها الصغير، قبل أن تجمع أغراضها وتنتقل إلى الشقة التي استأجرها "محمد" لها لتأخذ حريتها كاملة قبل زواجهما.

لكنها فوجئت بوجود والدتها "سوزي". وقفت الأخيرة بمجرد أن أبصرتها، تحمل جهازها اللوحي الذي يظهر إعلانًا عن افتتاح دار الأزياء الخاصة بـ"هاجر". كان واضحًا أن الحديث لن يمر بسلام.

تحدثت "سوزي" ببرود وهي تقترب منها :ـــ وإيه كمان كنت ناوية تخبي عننا؟

مطت "هاجر" شفتيها ببرود وتجنبت النظر إليها :ـــ ومن إمتى كان بيهمكم حاجة تخصني؟

في تلك اللحظة، خرج "مصطفى" و"عمر" من إحدى الغرف، ومعهما "يزن" الذي بدا منزعجًا من وجود "هيام" (أو "ماهي" كما يناديها)، زوجة أبيه. انطلق "يزن" نحو "هاجر" بسرعة، وارتمى في حضنها كأنه وجد ملاذه. هبطت بجذعها العلوي لتعانقه بشوق كبير، تقبله قبلاً متعددة على وجهه الصغير.

حملته بين ذراعيها وتقدمت به بضع خطوات، لكن صوت والدها الغاضب أوقفها. ضغط بيده على ذراعها، لكنها سحبت يدها بسرعة قائلة بنبرة ثابتة :ـــ لو سمحت، ارفع إيدك يا بابا.

تحدث بغضب مكتوم، وكأنه يوبخها :ـــ إنت ما عندكيش إحساس؟ أعمل فيك إيه تاني؟ هناك تتحامي ورا عادل وابنه، هو أحسن مني؟ ولا محمد أحسن من أخوكي؟

كانت الكلمات كالسكاكين، لكنها لم تشعر إلا بالقهر. لطالما تمنت أن تكون عائلتها مصدر أمان، لكنها أدركت منذ زمن أنهم مجرد اسم فارغ من المعنى. لم تكن تطلب منهم حبًا زائدًا، فقط أن تشعر بوجود قلوبهم معها.

قالت بصوت متحشرج حاولت إخفاء ألمه :ـــ كنت هرجع معاكم علشان إيه؟ علشان تكسروا أحلامي تاني؟ علشان تمنعوني من كل حاجة بحبها؟ علشان تجوزوني قاسم؟ إنتوا عيشتوني يتيمة وإنتوا موجودين، عيشتوني محرومة وأنا بملك كل حاجة، لا عرفت تكون أب تحميني وتحبني، ولا إنتِ عرفتي تكوني أم تسنديني، حتى إنت يا عمر، حاولت كتير أقرب منك، وانت منعتني حتى من إني أحبكم.

على عكس المتوقع، كان "مصطفى" ينظر إليها بخواء. مشاعر الغيرة والحقد ملأت صدره تجاه "عادل"، الذي يبدو أنه يحصد الحب حتى في غيابه. كيف يمكن أن يحبها الجميع، بينما هو، رغم كل محاولاته، يشعر دائمًا بأنه الطرف الخاسر؟

تحدث "مصطفى" بصوت متردد وكأنه يحاول الدفاع عن نفسه :ـــ وأنا ما حميتكش في إيه؟

ابتسمت ابتسامة جانبية ساخرة، وقالت :ـــ عارف كويس تحب أفكرك؟ إنت سبتني مع مين وكان هيحصل إيه؟

وقف "عمر" على جانب الغرفة، نظراته خاوية، وكأن كلماته قد سُرقت. يشعر بالذنب الذي لا يستطيع إصلاحه، فقد خسر كل شيء. خسر حب أخته واحترامها، وخسر زوجته السابقة، وحتى الآن يبدو أنه يفقد حب ابنه "يزن".

قال بصوت خافت محاولاً إنهاء المشهد :ـــ هاجر، ممكن كفاية اطلعي أوضتك.

عدلت "هاجر" من طريقة حملها للصغير وهي تبتعد عنهم بخطوات ثابتة. توقفت عند أعلى درجات السلم، والتفتت إليهم ببرود قائلة :ـــ أنا جيت بس أطمن على يزن، وآخد حاجتي. أجَّرت شقة جنب الأتيليه وهعيش فيها.

صمتت الغرفة للحظات، وتوجهت الأنظار نحوها. كسر "عمر" الصمت بصوت هادئ قائلاً :ـــ خدي يزن معاكي، وأنا هبقى أجي أطمن عليه.

لكن نظرات "ماهي" اشتعلت غضباً، وقطعت كلماته بنبرة حادة وهي ترمقه بنظرات حارقة :ـــ وأنت ليه مش عاوزه معايا؟ أنا اللي أقرر على فكرة!

انفجر "عمر" غاضباً، وصاح بصوت مرتفع ممزوج بالملل والاشمئزاز :ـــ ده ابني وأنا اللي أقول! وإياكي ترفعي صوتك عليّا.

لم تهتم "هاجر" بمناقشاتهم. تركتهم يتصارعون في دائرة لا تعنيها، ونزلت من هذه النار المشتعلة بينهم وكأنها تنجو من حريق هائل.

صعدت إلى غرفتها بهدوء، وضعت الصغير بحنان على السرير، وقبلت جبينه برفق. وقفت أمام المرآة، تتأمل وجهها الذي بدا مرهقاً، لكنها صامدة.

جلست على الأرض، مستندة إلى السرير، وتركت دموعها تنهمر بحرقة على وجنتيها. وفي داخلها، كان الصمت يصرخ بألف كلمة، وألف حكاية لم تستطع البوح بها.

"أصعب ما قد يمر به الإنسان هو أن يبتلع حادثة كاملة ويصمت .كانت تعرف هذا الشعور جيداً. لو أنهم رأوا يوماً كيف ترتجف خوفاً من أن تُعيدها الأقدار إلى تلك الدوامة مرة أخرى، لربما قضوا حياتهم بأكملها يحاولون طمأنتها... لكنها لم تطلب الطمأنينة يوماً. فقد تعلمت أن تنجو بنفسها فقط.

نظرت بعينيها التائهتين، كما لو كانت ترى العالم لأول مرة، تماماً كالمولود الجديد عندما يبدأ عينيه في رؤية النور. كان هذا النور ممزوجاً بالخوف والحنين إلى شيء لم تعرفه يوماً.

لكن في مكان آخر، بعيداً عن غرفتها، كان هناك من يفكر بها. شخصٌ ينشغل ذهنه بما تحمله من ألم وصمت، وكأنه يشعر بخوفها الممتد عبر المسافات.

في كل شتاء، يوجعك فرح الغائب، وتبدأ في المشي تحت المطر، وأنت واحدٌ في اثنين، أنت ومن كنتَ معه في شتاء الماضي.

كان يقف تحت المطر بينما جميع من في الشارع يختبئون بعيداً وكأن السماء تمطر نيراناً. لكنه خرج من سيارته، خلع سترته الجلدية، وكان ينتظر أن يشعر بقطرات المطر تسقط على جسده. ابتسم بعدما داعبته قطرات المطر، بينما كانت الرياح تعصف بجسده إلى الوراء.

فكر في نفسه: متى حدث كل هذا؟ كيف أصبح في الرابعة والعشرين من عمره؟ أين ذهبت سنواته؟

نظر إلى طفل صغير ممسكاً بيد والده، يسيران معاً تحت المطر. ابتسم لهما، ولكن نظراته وتحول ابتسامته إلى حزن. لطالما تمنا أن يكون هو مكان هذا الطفل، لكنه تساءل: "لماذا لا؟"

أخرج هاتفه ليقرر الاتصال بها. بعد ثوانٍ، جاء الرد، وعرف من صوتها بعد تحيته أنها ليست بخير. تحدث بهدوء، محاولاً أن يطمئنها كما يفعل كل يوم:

احكيلي، إيه اللي مزعلك؟

نظرت هي إلى الهاتف، متفاجئة، كيف عرف بذلك؟ لكنها لم تهتم، فقد كانت تعلم أنه لا يوجد جواب محدد، وأنها بحاجة فعلاً للتحدث.

أنا مستحقش أكون مبسوطة؟ مستحقش يحبوني؟

كانت كلماتها تخرج بصوت ضعيف، وحاولت أن تسيطر على دموعها، كلما تذكرت ما يحدث لها.

أجابها بكل صدق، يعلم أن الكلمات وحدها قد لا تكفي. كان كل كلمة ينطق بها تعبيراً عن مشاعره في تلك اللحظة، وكان يتمنى أن يسمع كلمات كهذه من أحدهم.

تستحقي، تستحقي حد يحبك من غير قيود. لحد آخر لحظة في عمري هحاول أخليك تنسي الإحساس ده، مش بس علشان بحبك، لكن علشان أنتِ تستحقي ده، ولأنني كمان كنت محتاج ده.

كان يقصد بكلامه الضوء الذي أعادت إشعاله هي في حياته. يحدث أحياناً أن يأتي شخصٌ ويضيء بقعة مظلمة من قلبك، كنت قد نسيتها تماماً، ثم يعود أحدهم ليجعلها تتوهج من جديد، كما فعلت هي.

نظرت إلى الهاتف بعدم تصديق. لم تكن قد اعتادت على هذا. كيف لم يناقشها كما كانت تفعل والدتها؟ كيف لم يوبخها على شعورها بالضعف؟ مهلاً. أهذا هو شعور الحنان الذي كانوا يتحدثون عنه؟ نعم، هي تعتقد ذلك. شعرت وكأنه بجانبها، يضمد جرحها الآن.

كل الكلام اللي ممكن أقوله مش هيكفي، اللي أنا حاساه محمد، أنا بجد من غيرك مكنتش هبقى كده. أنا بحترمك وبحب وجودك، وبحب كل حاجة بتعملها علشاني.

أغلقت الهاتف، وجلسَت بهدوء على الأرض، مخفية وجهها بين يديها. شعرت بشعور غريب، لكنه جميل. شعور مشتت، لكنه كان يعيد ترتيب أفكارها. كانت تعتقد أن هذا كله هو مجرد اهتمام، لكن ما تراه بعينيه ليس سوى حب. كان هو أول من يسأل إذا كانت متألمة، وأول من ينتشلها من ألمها.

وفي تلك اللحظة، ابتسم هو، وتنهد بعمق. شعر أن هذا "القتيل" القابع في صدره بدأ يرقص الآن ويعود إلى الحياة، وأن تلك الغابات السوداء تحت عينيه قد أنبتت، والورود بدأت تزدهر في قلبه.

كان الطريق المختصر إلى عيادة الطبيب النفسي. صعد الدرجات بهدوء، فهو ليس من هواة ركوب المصاعد. يشعر أن صعوده الدرجات يمنحه متعة أكبر، بالإضافة إلى أنه أكثر صحة.

دخل الغرفة بهدوء، وجلس دون أن يُبالي بنظرات الطبيب المتعجبة. عجباً، لماذا دخل هكذا بكل هذه الاريحية وكأنه دخل منزله؟

تحدث الطبيب بصوت ممل، وهو يضع الأوراق جانباً:

خير يا محمد؟ خير يا حبيبي؟

أجابه محمد ببلاهة، وهو ينظر إليه مشاكساً:

وأنا، بيجي من وراي غير الخير؟

تنفس "محمد" الصعداء بهدوء، ثم وضع يده جانباً وقال :هو يعني أقصد، تفتكر لو يعني حد عرف، لا أقصد "عادل"، يعني لو عرف كل اللي حصل، تفتكر هيعمل إيه؟

كان حديثه متلعثماً، وكأن الكلمات تخرج بلا ترتيب، أو ربما كان يحاول إخفاء شيء.

ابتسم نبيل ابتسامة لا أحد يعلم حقيقتها، فحديث محمد كان يدل على أنه ربما يفكر في إعادة حياته، لكنه لا يريد أن يعترف بذلك.

ابتسم الطبيب وقال بهدوء:

تقصد إيه يعني؟ ومن إمتى بتفكر في "عادل"؟

انتبه محمد لحديثه، وعدل جلسته بعد أن شعر بأن الطبيب يقصد أن يذكره بهذا:

لا يعني مش "عادل" تحديداً، "حسناء" مثلاً. لا، بص، أنا باخد رأيك لو هو عرف، لأني شاكك إنه بيدور ورايا، تفتكر رد فعله هيكون إيه؟

كان يريد أن تكون إجابته في صالحه، لكن كيف له أن يخدعه وهو يعلم أن هذا هو آخر أملها؟

أجاب" نبيل "بتفكير عميق:

بص يا محمد، العيب مش فيك أنت زي ما أنت متخيل، أنت من زمان فاكر إن الغلط فيك، الحقيقة العيب في إنك بالنسبة لي زي المرايا عمرك شُفت حد بيحب مرايته؟

تنهد محمد بضيق. كان يعلم أن هذه هي الإجابة المنتظرة، لكنه كان يحاول كثيراً. رغم إدراكه أن الماضي وكل شيء رحل لا يمكن أن يعود، لكنه كان يرى أن المحاولة هي الطريق الوحيد لإبقاء الشغف بداخله.

سأله بهدوء، وكلمات مقتضبة:

يعني إيه؟

أجابه الطبيب بتوضيح، بينما كانت نظراته هادئة رغم أن حديثه لم يكن يعكس ذلك:

بص، أنت بالنسبة له زي المرايا اللي بتظهر كل حاجة هو عاوز يخفيها، كل ما يبص فيك، هيفتكر إنه كان شخص أناني ومقدرش يكون أب لو بص فيك، هيفتكر حقيقة أخته اللي كانت أكتر حد أمان ليه وحبه، هيفتكر إنه في أي لحظة لو عرف الحقيقة هيفقد مراته اللي كان بيخسرها مدة طويلة، هو ممكن يحبك، وممكن يكون بيدور وراك، لكن خوفه من الخسارة هيمنعه.

بادر الطبيب بسؤاله بعد أن شعر أن محمد بدأ يستجيب له:

محمد، طالما أنت شايف إن الحقيقة صعبة قوي كده، ليه مش توجّه نفسك بيها وتحكيها مرة واحدة؟

كان أثر حديثه كأثر النيران التي اشتعلت في قلبه في لحظة واحدة. تذكر كل شيء شعرت آلامه تنتشر في جسده، وكان أنين الذكريات يعصف به بينما كانت أنفاسه تتسارع، تهبط وتعلو بسرعة. أخذ نفسًا عميقًا وأغمض عينيه وهو يحاول السيطرة على نفسه، ثم بدأ بسرد كل شيء:

كان عندي ١١ سنة وقتها، شوفت "مصطفى" وهو يعتدي على "ورد" اللي كانت مساعدة في البيت، حاولت أبعده عنها، ماقدرتش،كان متخيل ان مفيش حد غيرنا في البيت ، لكن اللي مكنش يعرفه إن "هاجر" كانت موجودة وقتها، رمني من على السلم غمي عليّ وفقت في مخزن واسع وكبير، هددني وضربني وجاب "ورد" هناك، كنت هخدها وأهرب، لكن قتلها، هربت للبيت وقلت كل اللي حصل لـ"سوزي". اتهمتني إني كذاب وأمنت على كلامه، دخلوني المصحة، فضلت هناك سنتين شوفت فيهم أصعب حاجات ممكن أتخيلها كام واحد مات قدامي؟ ولا شوفت "يحيى" الدكتور بيغتصب كام واحدة قدامي؟ ده غير جلسات الكهرباء اللي كان بيحطني فيها وأنا معنديش أي حاجة، و مراته هربتني بعدها، وقتها ما لقيتش مكان أروح له. لقيتني "سمر" ووصلتني لـ "نوح" اللي كان الشخص الوحيد اللي أعرف بيته.

تابع وهو يحاول ألا ينهار مرة أخرى:

بعدها خطفوني لما رحت أسبوع لـ"عادل" رجعوني المخزن تاني، لكن يومها شفت "أنس" وهو بيتحرش بـ "هاجر"، هاجمت عليه وضربته بعدها رموني كبش فداء في صفقتهم مع "عدنان"، خطفني مع البضاعة، فضلت معاه هو وعصابته في تركيا، هو كان فاكر إنه هياخدني ليه، وأنا جريته، بصراحة كان أكتر واحد عاملني كويس، لكني هربت والباقي إنت عارفه.

رغم أن حديثه قد يبدو عاديًا للوهلة الأولى، إلا أنك لن ترى عينيه التي كان يغمضها بقوة، ولا حتى أظافره التي كانت تضغط على كفه الذي بدأت قطرات الدم تخرج منه. كان "نبيل" يحاول أن يفيق، لكنه كان يغرق في كل آلامه، يراها الآن أمامه. لم يكن يستمع لنداء "تبيل"، ولا يشعر بما يفعله. هو الآن ليس هنا، بل في ذكرياته التي لم يعرف كيف يخرج منها حتى الآن.

استفاق بعد فترة، وهو ينظر للمكان بإرهاق، وكأنما كان يقود معركة بمفرده ضد جيش كامل. نظر إلى خصلات شعره التي التصقت بجبينه بسبب العرق، وكف يده التي بدأت تنزف. علم بأنه سرد كل شيء من خلال نظرات "نبيل"، الذي كان ينظر إليه بعينين مليئتين بالكثير من المعاني. ثم بدأ بتنظيف جرحه، وقال بهدوء وفخر:

أنا فخور بيك ممكن بيان ليك غريب، لكن إن حد يتحمل كل ده ويعفر ويكمل ويساعد ناس تانية على تخطيه، يبقى مش حد عادي.

تابع بنبرة حزينة حاول أن يخفيها بابتسامته:

أنت عارف إني معنديش ولاد وربنا ماذنش يكون لي ولد، لكن لو كان الولاد بالاختيار، كنت هختارك. بجد أنا فخور بيك.

شعر بسعادة غامرة لأول مرة، لأنه رأى أحدهم يراه بتلك النظرة. بادله الابتسامة، ثم ربت على كتفه قبل أن يسأله الأخير بتساؤل:

بس إنت عرفت "تائل" منين؟ وكمان إيه اللي جاب "عبدالله"؟

أجابه بهدوء، وهو يستعد للخروج بعد أن لاحظ أنه تأخر على موعده مع صديقه "أحمد":

ربنا دايمًا كان بيجمع نهايتهم حواليا، "تائل" قابلته لما كنت مع "عدنان"، وحكى لي، وبعدها بمدة قابلته هنا "عبدالله" اتعرفت عليه لأنه كان جار "هيثم" و"عمو نوح."

عقدت حاجبيها مستنكرة من كلمته:

عمو "نوح"!؟ من إمتى وإنت بتقول عمو؟

كانت إجابته مقتضبة وهو ينظر إليها بهدوء، على وشك الخروج:

علشان مينفعش أتمسك بحاجة مش ليا، مينفعش أطمع في حاجة مش مكتوب لي.

خرج من الجلسة وهو يشعر بتحسن بالغ بعد أن واجه الحقيقة لمرة واحدة. كان مدركًا أنه حارب نصف الحقيقة. الإدراك يشبه النوم، لا تدري متى جاء، لكنك تصحو متسائلًا كيف غبت عن وعيك.

شعر بالسعادة لمشاعره التي أصبحت هادئة. فليس بالضرورة أن يبكي الإنسان ليعلم الناس أنه يتألم. ربما يخدعك ويظن الجميع أنه لا يوجد أكثر سعادة منه، بينما هو يختبئ خلف ابتسامة وضحكة جنونية.

في مكان آخر، كانت "رزان" تجلس في غرفتها، تنظر إلى الأمطار والرياح التي تعصف بالخارج. كانت الرياح تمثلها تمامًا، كمشاعرها الآن. لا تعلم ماذا ستفعل. يا الله، هي حقًا تشعر بالحب تجاهه، لكن كيف لها أن تنسى الأخير؟ لماذا دائمًا يكون حبها بتلك الصعوبة؟ وبينما كانت غارقة في دوامة من الأسئلة، دخلت المساعدة وأخبرتها بأن هناك شخصًا جلب لها شيئًا.

هبطت الدرجات حتى وصلت إلى حيث أخبرتها المساعدة، فوجدت مندوب الشحن قد ترك لها علبة كارتونية كبيرة مغلقة. وعندما فتحتها، اكتشفت أن بها ٣٩ سلة صغيرة مزروعة بنباتات النعناع، وداخل العلبة ورقة مغلقة كتب عليها" :يقولون إن الله يخلق من الشبه أربعين، ومن بين أربعينك لا أريد سواك. ما تراه الآن هم أشباهك التسعة والأربعون. لن أشبهك بالورد حتى لا أعطي الفراشات حق تقبيلك".

ابتسمت وهي تخرج الورقة الأخرى لتقرأ ما بها، فوجدت مكتوبًا" :كنت أظن أن ابتسامة الموناليزا هي الأجمل، قبل أن أرى ابتسامتك".

كانت تشعر بالتشتت، وهي تنظر إلى ما بداخل العلبة. ترى فيه حبه، لكنها لا تعلم كيف ستتظاهر بالنجاة. كيف لها أن تنسى حبها القديم لأجل آخر؟ ربما كانوا على حق في وضعهم للحب في الكتب والقصائد. ربما لا يمكن للحب أن يعيش في مكان آخر.

كانت "حسناء" تجلس على الأريكة، مرهقة، بعد يوم طويل قضته في العمل، بالإضافة إلى مساعدتها لـ "هاجر" في الانتقال إلى مسكنها الجديد. كانت غافلة عن" عادل "الذي كان يراقبها من بعيد نظراته كانت هادئة، لكنه كان يشعر بشيء آخر بداخله، هل شعرت يومًا أن لا شيء قادر على أن يجعلك تشعر بالفرح أو السعادة؟ مجرد شعور بأن لا شيء مهم، وأنك زاهد في كل شيء؟ كان هو هكذا، زاهد في متاع الحياة، وفجأة ظهرت هي، لتغير كل شيء، وتعيد الحياة إليه.

تذكر كيف كانت "حسناء" في الماضي، وكيف كانت تلك الفتاة الصغيرة التي غيرت حياته. أصبح اسمها الآن "سيدة حسناء". طاغية الحسن، عيونها مثل البحر تعكس كل معاني الحب. كانت عيونها تتحدث أكثر من كلماتها، وليس هذا بغزل، بل لأن اسمها كان يعكس جمالها.

تحدث بهدوء، لكن قلبه كان يحمل في طياته خوفًا لم يشعر به منذ سنوات. لأول مرة يخاف، يخاف من أن تكشف أمامه أسرار عشرين عامًا كانت ضحيتهما. خاف من خسارتها، خاف أكثر من فقدانها.

"اترافقيني؟ وقلبي على قلق، ودربي غامض، ومشواري طويل".

عقدت حاجبيها بتساؤل، وهي تبحلق فيه بهدوء:

من إمتى الكلام ده؟!

تنهد وهو ينظر إليها بنظرات هادئة رغم أن عينيه كانت تحمل عشقًا:

ولا حاجة، بس حسيت إني محتاج أكون معاكي، لا شيء مهم لو كنتِ في حضني، العالم كله ممكن يحترق، الحروب تندلع، الشمس تسقط، وحتى لو اختفى القمر، لا يهم، لأنك في حضني.

ابتسمت بمشاكسة، كعادتها، وهي تبتعد عنه:

ده إيه الحضن ده؟ هيعمل كوارث! لا بلاش منه.

ضحك بصوت عالٍ، ثم بدأ يسرد لها يومه بالكامل، حتى وصل إلى نقطة أنه قابل "أنس"، الذي طلب منه توظيف "قاسم" نائبًا في العمل. كان "أنس" يعتقد أن "قاسم" هو البطل الذي سينقذ الموقف.

ابتسمت "حسناء" بابتسامة جانبية ساخرة:

قال على رأي المثل: خنفسة شافت ولادها على الحيط قالت ده لولي وملضوم في خيط.

عقد حاجبيه مستنكرًا من حديثها:

أموت وأعرف إنتِ وابنك جبتوا الكلام ده منين؟

ثم تطرقت هي إلى موضوع آخر، محاولة أن تبين له أنه لا يمكنه الهروب من المسؤوليات:

بمناسبة ابني أو ابننا، يعني، اللي يشوفك وأنتَ مشغول في المستشفى عليه، ميشوفش إنك لحد دلوقتي مش سالت عنه؟

أجاب بهدوء، لكنه من داخله كان يشعر بشيء من الألم على مواقفه السابقة، وعلى أنه لا يستطيع الهروب من هذا الحديث:

مش عارف، ومش قادر، أنا مجربتش أكون أب إحنا الاتنين غريبين عن بعض، مش هنكر إني حاولت أقرب، لكن برده مش عارف أعمل إيه، حتى مش قادر أفتكر حاجة أبويا عملها معايا عشان أقدر أعملها معاه، كنت عايش مع مريض نفسي، شخص كان بيضربني ويرجع يحضني عشان ميأثرش على علاقتنا شخص مسيطر وكل اللى حواليه لازم يكونوا زيه.، تفتكري بقى أنا هقدر أعمل مع "محمد" إيه؟

كانت "حسناء" محقة إلى حد بعيد في كلامها. هو لا يعرف شيئًا عن الأبوة. لكن في نفس الوقت كان يعلم أنه يحتاج إلى مساعدة. رغم ذلك، كان يعتقد أن كل ما يقوله هو مجرد محاولة لتسكين ضميره.

دلف إلى المكان، ينظر إليهم بنظرات تاقبة، كانت سعادتهم تملأ الأركان. فقد حدد صديقهم "أحمد" موعد عقد قرانه غدًا، وقرروا الاحتفال بمناسبة هذا الحدث، لكنهم لم يعلموا بعد ما سيحدث بعد ذلك.

جلس بجانب "محمد"، يوجه إليه نظرات مليئة بالغل والحقد. كان يشعر بالغيرة منه، لأنه أحبها هو، ولكن ما ذنبه؟ هو لا يحبها، ولا يعلم بحبها له.

تحدث "عبدالله" بهدوء ، لكن كلماته كانت تحمل في طياتها الكثير من المشاعر المتناقضة:

مش كنت عاوز تعرف مين البنت اللي حكتلك عنها؟ البنت دي اسمها 'رزان'، وأنا مش هكمل في لعبتكم السخيفة دي.

توجهت الأنظار نحوها بعد أن كانت منشغلة عنه، وكما يقولون: "لا يوجد فرق بين لون الملح ولون السكر، كلاهما نفس اللون، لكن ستعرف الفرق بعد التجربة." هكذا كان الحال مع البشر، وهكذا كان هو أيضًا.

سأل "حسام" مستفسرًا، وهو يحدق فيه بدهشة:

رزان بنت 'حسن'، اللي كان السبب في موت أبوك وعمك، وانتحار حبيبتك، وتدمير حياتك؟

أجابه بحقد، وهو يرمقه بنظرات حارقة:

أيوه، ولا هو حلال لـ 'محمد' وحرام عليا؟ مقولتش الكلام ده ليه؟ هو ليه، هو بيحب 'هاجر' بنت 'مصطفى.'

قاطعه "محمد"، وهو يدفعه بعيدًا بغضب:

علشان 'هاجر' مش زي 'رزان'. حبك مش زي حبي. حبك ما يستحقش و 'رزان' مش بتحبك، لو كانت بتحبك، ما كنتش هتكون بتحبني وبتحاول تدمر علاقتي مع 'هاجر.'

دفعه بعيدًا بقوة، ثم ابتعد عنه وهو يسدد له نظرات مليئة بالكراهية.

لا، حبك زي حبك، ولا أنت أحسن مني؟؟، و 'رزان' مش بتحبك وبعدين، مش ذنبنا ولا ذنب أي حد إن أبوك اتخلى عنك، وعائلتك كانت وسخة مش ذنبنا يا عم، اللي حصل لك. اتضف أنت بس من جواك.

كان ينظر له بدهشة، غير مصدق لما يسمعه. حاول التمسك بحصونه القوية بداخله، لكن الحقيقة كانت أن جسوره وحصونه تنهار. حاول أن يستند على نفسه، لكنه انهار. تشبث بروحها، لكنه شعر أنها فارغة. فاستمر في التظاهر بالثبات.

كان بداخله شخص يريد ألا يجرح بكلمة، وآخر يريد أن يتحدث ويلعن كل شيء دون أن يثنيه ضميره. وكان هناك من يرغب في الهروب من هذه المحادثة بأسرع وقت ممكن، وفي النهاية، كان الجميع هو نفسه.

أن تنظر لأحد باشمئزاز مفرط بعد أن كنت مندهشًا، هو الاحتقار الذي كان مرسومًا على وجوه الجميع. وكان أولهم "عز" الذي اقترب منه، دفعه بقوة، ثم لكمه:

وأنت مال أهلك أصلاً؟ متجمعش، أنت بس اللي واطي!

بينما كان "محمد" يتحدث بثبات، يقترب منهم ويجز على أسنانه بهدوء:

كل ذنبك إني اعتبرتك صحبي، وفضحت نفسي قدامك، أنا آسف إني فكرتك صحبي، وآسف لنفسي إني فضحتها قدام حد زيك.

وقف "أحمد" أمامه، يشير إليه بيده للخروج:

اطلع بره، علشان أنت حد واطي، وتسيت حق أمك وأبوك وعمك وخطيبتك وعيلتك اللي اتدمرت. أنت واطي يا 'عبدالله' أنت زبالة يا حبيبي، وابقى فكرني لما يعملوا عيد للزبالة، نبقى نحتفل بيك.

خرج من أمامهم، تاركًا صدمة على وجه "محمد"، الذي وجد نفسه في عناق من "حسام"، الذي كان يربت على ظهره بهدوء، قائلاً بحماس:

إحنا عندنا فرح، وأنا آخر فرح حضرته كان من ٨ سنين. هل تردوني منه؟ ممكن نحتفل، ولا أنكد عليكم؟ أنا ضابط على فكرة، وأقدر أنكد عليكم.

على الرغم من قلقهم وصدماتهم، صدرت ضحكاتهم. قضوا وقتهم في تجهيزات ورقص واستمتاع، بينما كان هو يفكر في كيفية مقاومة كل تلك الجهات وحده. كان يفتقد تفاهته المفرطة، ويحقد على الأيام التي أصابته بهذه الجدية.

في مكان آخر، كانت "جميلة" محاطة بصديقاتها، منشغلات بمساعدتها بدأت "جيداء" بتطبيق مسك الفحم الأسود لها وللباقي من الفتيات. بينما كانت "هاجر" تنهي آخر لمساتها على الرداء الأزرق الذي سترتديه في عقد قرانها، و" جنى " كانت تشرف على ترتيب الديكورات التي صممها "أحمد" رغم أنه سيكون عقد قران عائلي.

بعد فترة، جلسوا جميعًا منهكين بسبب مجهودهم طوال اليوم.

تحدثت "جميلة" بحب وهي تنظر إليهم:

ديما كنت بقول إني لوحدي، وكنت خايفة من يوم زي ده، إني ملقيش حد جمبي. لكن لما شوفتوكم النهاردة، اتأكدت إنّي حتى لو فشلت في كل حاجة، ما فشلتش إنّي يكون عندي أصحاب.

اقتربوا جميعًا منها، ضموها بسعادة، وأشعلوا الموسيقى، بينما أخذوا بعض الصور التذكارية لتلك اللحظة المهمة.

في صباح اليوم التالي، كان الجميع جاهزًا للحفل أمام المأذون الذي وضع يد "أحمد" في يد والد "جميلة"، "منير"، قبل أن يقول بصوت مسموع، ثم عمت الزغاريد والمباركات" :بارك الله لكم، وبارك عليكما، وجمع بينكما في خير. زوج مبارك إن شاء الله".

أول ما فعله بعد إنهاء العقد كان عناقًا طويلًا معها، وكأنه يعوض تلك السنوات التي لم يكن يعرفها فيها. يعوض كل أحلامه هنا. كان هذا مثالًا صحيحًا بأن الروح إذا التقت بمن يشبهها، ترممت وتعافت واكتملت.

على الجانب الآخر، كانت "هاجر" تراقبهم بسعادة، قبل أن تجد من يقف بجانبها، وكعادته، يغرقها في كلماته المعسولة. تحدث بهدوء بجانب أذنها:

جاء الجمال إلى مطاف عينيكِ، ورمى الحسن نجوماً وارتحل. من أي نجم نسجت عينيكِ، ومن أي زهرة ارتسمت شفاكِ، لكي تسرق قلباً كان من العشق مختبئًا، وعن الحب كان قد رحل؟

ابتسمت له، وهي تعيد خصلاتها للخلف بهدوء، ثم تحدثت بحب، ربما امتنان أكثر من الحب، كم كانت تود أن تكون جزءًا منه، تشعر بأنه شيء كما البحر، لا تستطيع أن تعرف ما بداخله:

أنا عمري ما هقدر أوصف كل اللي حساه منك، بس أنا بجد مبسوطة بوجودك. وفخورة إن عندي حد ألجأ له في أوقات الصعوبة، وعارفة إنه مش هيخذلني.

كم هو رائع أن نمنح الآخرين سلامًا لا نملكه نحن أنفسنا بداخلنا، ولكن قادرين على حمله لهم. إنها معجزة الأيدي الفارغة.

على جانب آخر، كان كل من " جنى " و"سليم" يجلسان ينميان موهبتهما المفضلة: الطهي. شيء غريب إذا رأيته من بعيد، لكن لا أحد سواهما يشعر بما يشعران.

ابتسمت بخجل وسعادة، وقد امتزجت مشاعرها معًا، معلنة استيلاء الأخير على قلبها. أزاحت عينيها عنه بينما هو ابتسم وقال بهدوء:

وتلمع النجوم كبريق عينيك، كجمال بسمتك، التي تختتم أوصاف الجمال.

تحدثت بهدوء، وهي تمحو ابتسامتها. أخذت نفسًا عميقًا قبل أن تنطق، وهي تنظر إليه:

والآن، بينما أنا جالسة بجانبك وأتكلم معك، أشعر بالخوف من التفكير في مستقبلنا، لأنني خائفة أن أكون وحيدة بدونك مرة أخرى.

نظر إليها بابتسامة، وهو يمسك بيدها ويقودها نحو حيث يجلس الباقون:

مش هتخافي طالما أنا بتنفس، لاني خلاص مفيش حاجة هتخليك لوحدك، أنا لزقت فيكي زي العيل اللي كان تايه من أمه.

ابتسمت له وهي تذهب معه إلى جانب الباقين الذين كانوا يرقصون ويأخذون الصور التذكارية.

كان "عز" يقف، واضعًا يده على صدره، ولا يتحدث. حتى هي لاحظت ذلك، فبادرت بالسؤال:

في إيه يا 'عز'؟ مالك مش مظبوط كده؟

أجاب بغضب، وهو يمسك بيدها بهدوء كي لا تبتعد عنه:

في أنك مبقيتش تفكري فيا في أي قرار بتعمليه، من إمتى وإحنا بنخبي على بعض؟! أنت حتى مبقيتش بتحكيلي يومك زي ما اتعودنا، تقدري تقوليلي ليه مقلتيش لي إنك هتتحجبي؟! طيب، 'جيداء' كانت متفقة مع 'أمير' واخدوا الخطوة سوا، أنت بقى مقلتيش ليه؟.!

نظرت له بنزعاج، وهي تحاول تبرير موقفها:

إنت مضايق إني اتحجبت؟! وبعدين قلتلك إنه كان قرار مفاجئ، ولو أنا مش بحكيلك يومي، فده لأني مش لاقية وقت، وخايفة أزعجك.

أمسك بيدها، ضمها إلى مكان قلبه، وقال بهدوء:

لا، مش متضايق، بالعكس فرحان قوي إنك أخدتي الخطوة دي لو في حاجة ممكن تكون ضيقتني، هتكون إنك بتعتبريني مش قادر أتحمل تفاصيلك، أنا لو أخدت فوق عمري عمرين، هفضل أسمعك، لسبب بسيط، إني عمري ما اهتميت بتفاصيل حد قدك، ولا هاهتم، إنت ملجئي، ومخزن أسراري، وأنا هفضل ملجأك".

أخذ الليل طويلا بين سعادتهم، التي تمنوا أن تدوم طويلا ولا تنتهي أبدا. ما أجمل أن تشعر أنك في مكان آمن، بين من تحب، تحت ضوء الليل والقمر.

في مكان آخر، كان انس " جالسًا، ممددًا فوق الأريكة يعبث بأوراقه بهدوء وهو يحتسي قهوته الغامقة، كحال عينيه من كثرة تناول الممنوعات التي أنهى تناولها منذ دقائق. صدح صوت هاتفه فجأة، فامسك به، وعندما نظر إلى الشاشة، كانت رسالة نصية جعلت عينيه تتفتح على مصراعيها. بؤبؤا عينيه كادا أن يخرجا من مكانهما. كانت محتويات الرسالة تكشف أسراره العارية:

"تفتكر لو مراتك عرفت إن "قاسم" ابنك؟ مش خطفه زي ما مفهمه، لا و كمان لو عرفت إنك بعد الحادثة مش بتخلف، و انك وهمتها طول عمرها انه عقيمة، هتعمل إيه لو عرفت إن "قاسم" ده ابنك من اختها اللي اغتصابها و خطفتها، و سيبتها تموت بعد ولادتها؟ هتتصدم صح؟ مش هتكون أكبر من صدمة "عادل" لو عرف اللي عملته في ابنه؟ ولا أكبر من صدمة "حسن" لو عرف إنك بتخونه مع مراته و بتلبسه في التعاقد مع كل صفقاتك القذرة؟ طيب تفتكر "سوزي" ممكن تعمل إيه لو عرفت إنك كنت خاطف بنتها و اتحرشت بيها؟ تخيل كل ده ولسه مصايبك كبيرة. باي باي يا "أنوس"."

في تلك اللحظة، وقف " انس " في مكانه، خائفًا تائهًا؛ لأن كل شيء من حوله بدأ يتلاشى. صدمته كانت تلاحقه في كل مكان. من علم بكل هذا من الأساس؟ يبدو أن الحقيقة العارية والقذرة بدأت تظهر مرة أخرى، فا حتى لو نسجت من خيوط الاستشراف والأموال ثيابًا ترتديها لتخفي حقيقتك، فإن الدنيا ستظهر حقيقتك وتعيدك عاريًا مرة أخرى.

البارت السادس و العشرون

"نسل محرم"

هل شعرت يوما بأن العالم من حولك ينهار؟ أن كل ما كنت تخفيه بعناية قد انكشف أمام الجميع؟ أن أسرارك القاتمة أصبحت مشاعة للملأ؟ هذا ما شعر به وهو يحدق في شاشة الهاتف، يتنقل بين التحديق فيها والدعاء أن يكون هذا مجرد كابوس مزعج سيصحو منه قريبا. لكنه لم يستيقظ، بل خارت قواه وسقط على الأرض، ليس فقط بسبب كمية الخمر التي تناولها، بل أيضا بسبب الصدمة التي ضربت رأسه كالصاعقة.

مرت لحظات ثقيلة، تلاحقت فيها الذكريات كطعنات سريعة. كل شيء عاد إلى البداية...

في تلك الليلة الملعونة، عاد إلى المنزل مترنحاً بعد أن غادر الحانة، مثقلاً بالخمر. كانت "نسمة"، شقيقة زوجته، طريحة الفراش، منهكة من المرض والمهدئات التي جعلتها غائبة عن الوعي. لكن بدلاً من أن يتحلى بالإنسانية، انقض عليها كوحش كاسر، مغتصباً عذريتها ومدمراً شرفها. كانت تقاوم رغم ضعفها، لكن غياب زوجته "نبيلة" عن المنزل ساعده في تنفيذ جريمته.

عندما أفاقت "نسمة"، ملأ رأسها بالكذب، متهماً السائق بالاعتداء عليها. ولتكتمل فصول الجريمة، اختفى السائق في ظروف غامضة. لكن عدالة السماء لم تغفل. بعد فترة وجيزة من فعلته الشنعاء، تعرض لحادث تسبب في إصابته بالعقم التام.

بدلاً من أن يتخلص من "نسمة" والجنين الذي تحمله، لجأ إلى حيلة جديدة. اختطفها، وعند ولادتها قتلها بدم بارد، ثم أخذ الطفل، مدعياً لزوجته "نبيلة" أنها عقيمة، وأنه تبنّى الطفل ليملأ فراغ حياتهما.

لكن الآن، بعد سنوات من الجريمة، عادت الحقيقة تطارده كظل ثقيل. صاح بصوت جهوري، مستدعياً الحارس:

- اسمع، خد الرسالة دي، وجبلي صاحب الرقم ده من تحت الأرض! بأي طريقة! لو فشلت، روحك هتقابل اللي خلقها قريب. فاهم؟

أو

مأ الحارس برأسه وهرب لتنفيذ الأمر، بينما ظل هو غارقا في أفكاره. من الذي عرف قصته؟ هل يكون السائق؟ لكنه قتله. "نسمة"؟ لقد تخلص منها...

وزوجته "نبيلة" لم تشك في شيء.

لكنه لم يدرك أن عدالة السماء قد قررت أخيرا كشف حقيقته. الهروب لم يعد خيارا.

النوم، تلك اللحظات التي يُفترض أن يمنحك فيها عقلك راحة من صخب الحياة ومن ذكرياتك الموجعة وحنينك القاتل، قد تتحول إلى ألدّ أعدائك إذا استولى عقلك عليها وسلبك سكينتها.

كان نائماً، أو بالأحرى في حالة بين النوم واليقظة. جسده مستلق، لكن عقله لم يعرف الراحة. لقطات من الماضي تدور في رأسه كدوامة لا تنتهي...

باك.

صورة لطفل صغير، لم يتجاوز السابعة، يقف على بعد مسافة قصيرة، بينما بجواره مراهق في الثالثة عشرة، يقف بجانب والدهما. تشابههم كان صارخاً: خصلات شعر سوداء فاحمة، عيون عميقة بسوادها، وقوامهم الطويل المتين.

في الخلفية، كان المشهد مليئاً بالعمال الذين يتحركون بنشاط ودقة في خط إنتاج مصمم بعناية، بإشراف المهندس الماهر "مؤمن النجار". بدا كل شيء يسير على ما يرام، إلى أن ظهرت سيارة قادمة من بعيد.

رجل ملثم يخرج من السيارة، يحمل سلاحاً في يده، وبدون سابق إنذار، ضغط زراً لتشتعل النيران في المكان. هرع "مؤمن" لينقذ ابنيه وسط اللهب المتصاعد، يمسك بهما ويحاول الابتعاد عن الخطر. لكن فجأة، انطلقت رصاصة استقرت في منتصف صدره.

المراهق احتضن أخاه الصغير وفرّ به مبتعداً، تاركاً والده خلفه. كانت دموعه تنهمر بغزارة، يحاول إخفاء وجه أخيه الصغير كي لا يرى المشهد المروع. لكنه هو لم يستطع منع نفسه من رؤية كل شيء. اختبأ الصغيران خلف الجدار، يشاهدان الرجل الملثم يطلق المزيد من الرصاصات على والدهم.

شعر الطفل الأكبر بثقل المسؤولية، يحمل في قلبه شعوراً قاتلاً بالذنب لأنه لم يحاول إنقاذ والده، واكتفى بالاختباء.

فلاش باك

كان يتمتم بكلمات مبهمة، مختلطاً بين الحلم والواقع. جسده يتململ، يصرخ بصوت خافت، يتلوى تحت وطأة المشاهد التي تتكرر في عقله. يسمع صوت زوجته تناديه، يشعر بيدها تهزه برفق لتوقظه. لكنه عاجز عن التمييز: أهذا كابوس أم واقع؟

بدت حالته وكأنه نائم، لكن قلبه لم ينم. فجأة، استيقظ في منتصف الليل، أنفاسه متلاحقة، عينيه زائغتان، قلبه مثقل بالخوف. بدا وكأنه خرج لتوه من معركة طاحنة، وحده أمام جيوش لا تنتهي.

صاح بصوت مرتفع وهو ينهض فجأة من موضعه، كلمة واحدة خرجت من شفتيه:

- بابا!

أخذ يزفر بقوة، يحاول التقاط أنفاسه التي بدت وكأنها تختفي. مسح وجهه بيديه بقسوة، بينما شعر بلمسة زوجته التي احتضنته بحنان، يدها تلتف حول خصره ورأسها تستقر فوق صدره. ضمّها بقوة، كأنه يبحث عن الأمان في حضنها.

كانت تعرف كم يعاني، وتدرك أن الألم الذي يطوق قلبه يفوق احتماله.

ترك "أمير" العنان لدموعه وشهقاته، يبوح بما يعصف داخله:

- أنا السبب يا "جيداء"، أنا السبب! كان المفروض أنا اللي أخد الرصاصة مكانه، أنا اللي هربت وسيبته، مقدرتش أساعده يمكن لو كنت لحقتُه من أول طلقة، كان عاش..

شدّت "جيداء" رأسه إلى صدرها، تمسد على ظهره بحنان، فيما انحدرت دموعها بهدوء فوق وجنتيها، تحاول أن تخفيها، لكنها لم تستطع إخفاء وجع قلبها على حبيبها. "أمير" كان فارس أحلامها الذي دعَت الله أن يجمعها به طوال أربع سنوات، ولكنه الآن مختلف، أحزانه أثقلته، حتى صار غريباً رغم قوته التي عهدتها فيه.

همست بصوت هادئ وهي تمسح دموعها:

- يا حبيبي، انت مالكش ذنب والله، ده قدر إنت كنت هتغير الأقدار يعني يا "أمير"؟ وبعدين، فكّر لو كنت عملت كده، الرصاصة كانت ممكن تيجي في "عز"، أخوك! إنت أنقذته، مالكش ذنب.

أغمض عينيه، وتمنى لو أن كابوسه يعود، لعله يرى وجه أبيه مرة أخرى. لو كان يعلم أن الأحلام هي مكان اللقاء الوحيد، لأغمض عينيه طوال الليل. لو كان يدرك أن لحظاته مع أبيه ستصبح ذكرى، لاحتضنه بقوة لا تُفلت. لكنّه لم يكن يعلم، ففقده.

كانت "جيداء" تحاول مواساته، تمسح دموعها العالقة على أهدابها البنية الكثيفة، وتقول برفق:

- انسَ يا "أمير"، النسيان نعمة كبيرة أوي.

لكن، كيف له أن ينسى؟ الذكريات محفورة في قلبه، والشوق ينهشه. ماضٍ ثقيل يطارده، وحنين يحرقه، بينما ينتظره الغرق في بحر الألم.

رد عليها باندفاع مستنكر:

- أنسى؟ إزاي أنسى يا "جيداء"؟ أنا مش هنسى غير لما أجيب حقه.

عقدت حاجبيها بتعجب، وقالت باستفهام:

- تجيب حقه؟ من مين؟ إنت تعرف مين اللي عمل كده؟

أراد أن يصرخ ويبوح بكل شيء، أن يخبرها بالسر الذي كتمه طويلا حتى كاد ينهش روحه. لكنه تراجع. بحجم الألم الذي عاناه سيكون الانتقام، وبحجم انتقامه ستكون نهايتهم. هذه القصة التي بدأت بإنسان ستنتهي بوحش لا يرحم.

أجابها بهدوء وهو يحتضنها، يخفض جسده على الفراش:

- لا، بس هعرف. متشغليش بالك، أنت.

احتضنته بحنان، تمسد خصلات شعره وهي تهمس بابتسامة:

- لو مشغلتش نفسي بيك، هشغلها بمين يا "ميرو"؟ ده انت الحب برضه.

قهقه بخفة، مداعباً وجنتيها بنظرة تحمل مزيجاً من الألم والامتنان. كان ينظر إليها كأنها ملاذه الوحيد، مسحوراً بسواد عينيها، بحمرة وجنتيها، وحتى تلك الحفرة التي تظهر حين تبتسم. رغم كل شيء، كان وجهه يحمل ملامح الاطمئنان وسط معركة حياته.

وبعد لحظات، نامت "جيداء" سريعاً كعادتها، بينما ظل هو مستيقظاً، غارقاً في أفكاره. تساءل بصمت: هل انتهى كل شيء؟ هل لم يتبقَّ سوى أثر الذكرى؟

تلاشت اللحظات السعيدة، حلت محلها جروح لن تندمل،
وذكريات كانت سكينا يغوص في قلبه كل ليلة.

في منزل صغير ومنظم بعناية، كان "حسام" يقف في وسط الغرفة، محاطًا ببعض الأوراق الخاصة بالقضية التي يعمل عليها. أمضى ساعات طويلة في قراءتها حتى شعر بالتعب والإرهاق، وزاد الأمر سوءاً شعور الجوع الذي بدأ يزحف ببطء إلى معدته.

تمتم لنفسه متذمراً:

- إيه الجوع المفاجئ ده؟ نفسي في بامية ده وحم ولا إيه!

بتثاقل، توجه إلى المطبخ. وقف يتأمل الأواني والمكونات، محاولًا استرجاع وصفة والدته لطهي البامية. لكن بمجرد أن تذكر والدته، خفق قلبه بقوة، وتسللت مشاعر الخوف والحزن إلى صدره. قرر الهروب من هذه الأفكار، وخرج من شقته بحثًا عن المساعدة من أحد الجيران.

توقف أمام الشقة المقابلة، وطرق الباب بتردد. لم يلبث طويلًا حتى فتحت الباب امرأة ذات بشرة قمحية، طويلة القامة، بوجه مستدير وعينين زيتونيتين يحيطهما أهداب كثيفة. تساقطت بعض خصلات شعرها البني من تحت حجابها الأسود.

نظرت إليه باستغراب، وعقدت حاجبيها وهي تسأله:

- نعم؟ مين حضرتك؟

رد بابتسامة خفيفة وهو يمد يده لمصافحتها:

- أنا النقيب "حسام"، أهلاً بحضرتك.

لكنها لم ترد المصافحة، واكتفت بالإشارة بيدها من بعيد، وقالت بابتسامة ساخرة:

- اتفضل محتاج حاجة؟ ولا حضرتك جاي تقبض عليا بترينج سبونج بوب؟

شعر بالإحراج الشديد، خاصة عندما لاحظت ملابسه المنزلية المطبوع عليها شخصيات كرتونية للأطفال. حاول تغطية الرسومات بيده وهو يقول بخجل:

- لا لا، مش جاي أقبض على حضرتك، أنا جاركم الجديد و يعني...

قاطعت تلعثمه وهي تبتسم بلطف:

- اتفضل، قول محتاج إيه، متتكسفش.

تنفس الصعداء وابتسم بارتياح:

- الحقيقة، كنت عايز أطبخ بامية، متستغربيش، بس المطاعم قفلت، والباقة خلصت، ومش عارف الوصفة، فاستأذنك تقوليلي المكونات.

نظرت إليه بدهشة، محاولة كتم ضحكتها، بدا هذا الجار الجديد غريب الأطوار، لكنها قررت مساعدته قائلة:

- طيب، ممكن أعملها لحضرتك وأبعتها لك أحسن.

لوح بيده نافيًا:

- لا والله، مش معقول، شوفي الطريقة وأنا هعملها بنفسي.

في تلك اللحظة، خرج طفل صغير من الغرفة المجاورة وهو يفرك عينيه بنعاس. اقترب الطفل منه ونظر إليه بتمعن قبل أن يقول:

- إنت عمو صاحب "محمد"، صح؟

ابتسم "حسام" بخفة وحمل الطفل بين ذراعيه، قائلاً وهو يلثم جبهته بحنان:

- أيوة، أنا صاحب "محمد". وإنت   "يزن".

نظرت "رحاب"، المرأة التي فتحت الباب، إليهما بدهشة وقالت:

- إنتوا تعرفوا بعض؟!

أومأ الاثنان برؤوسهما في وقت واحد، مما زاد من استغرابها. وبعد لحظة من التردد، قررت "رحاب" أن تخاطر قليلاً وتذهب معه إلى شقته لتساعده في الطهي.

بعد مرور فترة قصيرة، كان "حسام" يقطع لها ثمرة بصل بينما هي تنشغل ببعض الأعمال الأخرى.

تحدث بهدوء متسائلًا بفضول:

ـ قولي لي، إنتِ تعرفي "محمد" منين؟

أجابته ببساطة ودون النظر إليه:

ـ كنا زمايل في كباريه واحد.

تفوهت بصوت متفاجئ وصادم:

ـ إيه؟ نعم؟!

سارع بوضع يده على فمه كأنه يلعن نفسه، ثم قال مرتبكًا:

ـ إيه اللي أنا قولته ده؟! أقصد كنت بقبض على مجرمين وهو كان بيساعدني.

تفهمت الأمر بهدوء، لكنها حاولت كبح ضحكاتها على هذا الشخص الغريب الذي أربكها بحضوره وشخصيته غير المتوقعة.

ثم سأله بنفس النبرة:

ـ وأنت تعرف "محمد" منين؟

أجابته "رحاب" بينما كانت تهندم حجابها:

ـ أنا طليقة "عمر"، ابن عمته، و"يزن" ابني.

وقف مصدومًا، تتردد في ذهنه الأسئلة: طليقة مين؟! لكنه أخفى دهشته وسألها:

ـ وحضرتك يا مدام "رحاب" بتشتغلي إيه؟

ردت بهدوء وهي تضع اللمسات الأخيرة على طبق الطعام:

ـ عندي محل تحت البيت هنا، بشتغل في الطباعة والتصوير والورد، وبرتب حفلات كبيرة جدًا، أصلاً ده المجال الوحيد اللي بحبه وبفهم فيه.

شعر بالفخر بها، ولم ينكر أنه منذ البداية يشعر براحة غريبة تجاهها. أما هي، فكانت تنظر للصورة المعلقة على الحائط لفتاة جميلة ذات ابتسامة ساحرة وعينين زرقاوين تلمعان بالهدوء.

سألت بفضول:

ـ دي بنتك ولا مراتك؟

نظر إلى الصورة وابتسم ابتسامة حزينة، ثم قال بخفوت:

ـ دي أختي "تليد"، الله يرحمها.

شعرت بالخجل لأنها أعادت فتح جرح بدا واضحًا على ملامحه، فقالت معتذرة:

ـ أنا آسفة والله، حقك عليًا. الله يرحمها ويصبرك ويصبر أهلك.

أجابها بهدوء وهو يأخذ نفسًا عميقًا بدا وكأنه ثقيل:

ـ الله يرحمهم هم كمان ويصبرني أنا.

قالت دون قصد وبغباء:

ـ يعني مفيش حد عايش أعزيه؟

ثم استدركت بسرعة محاولة تصحيح عبارتها:

ـ والله مقصدش ، أنا دبش كده على طول. حقك عليا.

ابتسم بخفة وهو ينفي برأسه:

ـ لا ولا يهمك، عادي.

قبل أن تنهي اللقاء وتستعد للمغادرة، دلف "عمر" فجأة من الباب. لم تتوقع رؤيته، لكنه وقف ينظر إليها وكأنه أمسك بها في جريمة مشهودة. صاح بصوت غاضب:

ـ هو ده بقى اللي أنا! أنا اللي بتاع ستات ووحش؟! لا ما شاء الله، اتعلمتي مني! وياترى الأستاذ يعرف إنك مخلفة مثلًا؟

منذ اللحظة الأولى، انسحب "حسام" بهدوء، ثم أخذ "يزن" ووضع على أذنيه سماعة موسيقية، وصعد به إلى شقة "رحاب"، طالبًا منه ألا يغادرها.

أما "رحاب"، فردت بصفعة قوية رن صداها في أنحاء المنزل:

ـ إنت سافل وواطي وقليل الأدب!

نظر "عمر" إلى "حسام" بعينين غاضبتين، لكن الأخير ابتسم ببرود وقال:

ـ شكلك بقى وحش بجد! لو حلفتلك إنها كانت بتعملي "بامية" هتصدق؟!

حاول "عمر" تهدئة الأمور، وبدت نبرته تحمل رجاءً صادقًا. في الأيام الماضية، أدرك حجم خطئه وقرر أن يصلح ما أفسده. قال:

ـ سامحيني أنا موافق أطلق "هيام" ونرجع لبعض. نسافر ونبعد بابننا من هنا.

قهقهت "رحاب" بحرقة، صوت ضحكاتها الممزوج بالقهر تردد صداه في المكان، بينما تلمع الدموع في عينيها الخضراوتين قالت بصوت متهدج:

ـ آسف وأسامحك؟! لما أمك جت وفضحتني قدام الشارع كله، وخليتني أهرب وأسيب أمي، اللي أهل أبويا قهروها لحد ما ماتت! آسفك يفيدني بإيه؟ لما ما قلتش إنّي اتجوزتك لأنّي امنت بواحد زيك؟ لما كنت بسمع كل يوم كلام يحرق الدم! آسفك يفيدني بإيه؟ لما ابني اتحرم مني ٣ سنين؟ يفيدني بإيه لما تاخدوا مني ابني بعد ولادتي وأترمي في الشارع؟! يفيدني بإيه؟! روح يا "عمر"، الله ما يسمحك على وجع قلبي وقهرتي دي!

نظر إليها "عمر"، عاجزًا عن الرد، بينما كانت كلماتها تسقط كالسكاكين على قلبه. لم يجد ما يقوله؛ بكاؤها كان يأخذ معها جزءًا من روحه، وما زالت هي نبض قلبه ومهجة فؤاده. تنهد وقال بصوت مرتجف:

ـ أنتِ مش مقدرة موقفي! ماهي دي أمي، يعني كنت أعمل إيه؟ أنا واحد ما كنتش لسه خلصت الجامعة، لا شغل ولا حاجة، كنت فاشل في دراستي ومعنديش أي حاجة أقدمها، أسيبهم وأجي معاكِ أنا وأنتِ وابننا نقعد في الشارع؟!

تنهدت "رحاب" بقوة، كأنها تحمل أحمال العالم فوق صدرها. هذا الحب اللعين سرق منها كل شيء، والآن هي منحت الباقي كنوع من التضحية، ولم يبق لها شيء.

نظرت إليه بعينين مليئتين بالخذلان وتحدثت بصوت هادئ لكنه قاسٍ:

ـ لا والله! كتر خيرك! إنت ابن أمك يا "عمر"، وأنا سيبتك ليها. يرضيك الجيش يطلع أحسن مني؟!

رغم قوة كلماتها، كان يحاول كبح ضحكاته على تهكمها. شعر بالفخر بها، لكنها لم تمنحه سوى الحقيقة الصادمة.

صاح "عمر" بصوت مرتفع، محاولًا الهجوم دفاعًا عن نفسه:

ـ آه، وده علشان الأستاذ الجديد طبعًا؟! على الأقل أنا اتجوزت، إنما أنتِ مين ده يا هانم؟!

تجمع حشد من سكان البناية، يراقبون المشهد كأنهم يشاهدون مسرحية مجانية. تدخل "حسام" بغضب مكتوم، وصفع "عمر" بقوة، ممسكًا بياقة قميصه ودافعه للخارج. كانت "رحاب" تقف شامخة رغم نظرات الجميع التي جعلتها تشعر وكأنها عارية أمامهم.

تقدم العجوز "صبحي"، مالك البناية، نحوها وقال بصوت يحمل تهديدًا مقنعًا:

ـ ما كنت وافقت على جوازي يا بنت الناس بدل الحرام ده! مقدمكيش حل غير تبيعي بيتك والمحلك وتغوري من هنا! أنا غلطان إني فكرت أستر عليكي!

قبل أن يكمل كلامه، تلقى صفعة قوية من "حسام"، الذي بدا وكأنه وصل إلى حد الانفجار. صاح بهم بصوت غاضب:

ـ إيـــه يا عالم يا ظالمة؟! إنتو إيه؟ مش بني آدمين؟ تتجوز مين يا عرة الرجالة؟! يا راجل اختشي على دمك! وانتو إيه؟ خلصتوا فرجة؟ قيمتوا الموضوع؟! انتو عارفين قذف المحصنات ده عقابه إيه؟ الراجل اللي لسه خارج ده كان طليقها وبيتخانق علشان هو عديم الدم! وقسماً بالله لو سمعت أي كلمة على الست دي تاني، هعملكم محضر سب وقذف وهامرمط أهاليكم بالمحاكم! وبالمناسبة... معاكم النقيب "حسام وهبي".

تفرق الحشد بسرعة، كلٌ منهم عاد إلى حياته، تاركين خلفهم "رحاب" المنهارة، التي سقطت أرضًا وهي تبكي بحرقة. كانت شهقاتها تتصاعد تدريجيًا، لكنها شددت على حجابها واحتضنت ثيابها بقوة، كأنها تحاول حماية نفسها.

جلس "حسام" بجانبها، يحاول تهدئتها معتذرًا عن كل ما حدث بسببه. لكنها كانت تبحث بعينيها عن ابنها. تحدثت بفزع:

ـ "يزن" فين؟! ابني فين؟!

أجابها بهدوء، محاولًا بث الطمأنينة في قلبها:

ـ رجعته البيت عندك لما باباه جيه. حطيتله السماعة بتاعتي علشان ما يسمعش الخناقة.

تنهدت بعمق، وضعت يدها فوق صدرها كأنها تحاول تهدئة قلبها، ثم نهضت وتوجهت إلى شقتها. عندما فتحت الباب، ظهر "يزن" واقفًا. ضمته بقوة، وانهارت في البكاء بين ذراعيه. أما الصغير، فرغم صغر سنه، كان يضمها بحنان ويمسد على رأسها وظهرها، يهمس لها بكلمات مواساة، وكأنه يمنحها القوة التي فقدتها.

تحدث "حسام" بنبرة متواضعة، مشوبًا بالخجل من الموقف الذي تسبب فيه:

ـ لو سمحتي، متعيطيش ممكن؟ اللي يقولك كلمة، ردي عليهم بعشرة. دول عالم فاجرة، ولازم تعرفي تتعاملي معاهم. ولو ما عرفتيش، كلميني. مش كل راجل غريب يبقى عدو. والله كواحد عاش اللي انتي بتعيشيه، عارف إحساسك. وكل ضابط شغلته إنه يحقق العدل. آسف مرة تانية.

أومأت له بهدوء، تمسح عبراتها وتستجمع هدوءها شيئًا فشيئًا. نظر إليها وابتسم، ثم ألقى نظرة مطمئنة على الصغير قبل أن يغلق الباب بعدما تأكد أنها في أمان داخل منزلها.

يأتيك موقف واحد، ليعيد إليك كل ذكرياتك السيئة،

كأنما ينزع الغبار عن جراح الماضي، ليكشفها أمامك من جديد.

في صباح هادئ، حيث الشمس أخيرًا أشرقت بدلالها، تتسرب أشعتها لتضيء ما تبقى من بقاع الأرض التي كان الليل قد طمسها.

داخل المطبخ، كانت " جنى " واقفة وسط الغرفة، تضيف اللمسات الأخيرة على طعامها وفي الخارج، كانت "هاجر" منهمكة في إعادة ترتيب المنزل بعد السهرة التي قضوها بالأمس، أما "جميلة". فقد كانت نائمة في إحدى الغرف بعد صراع طويل مع والدتها لإقناعها بالبقاء مع "هاجر" حتى موعد زفافها رغم أن زواجها من "أحمد" تم بشكل غير رسمي، إلا أن الانتقال إلى منزلهما كان مشروطًا بإتمام تصميمات المنزل.

انضمت " جنى " إلى المنزل لتكون بجانب "جميلة" خلال رحلة تعافيها، بينما قررت "هاجر" الاستقلال عن والديها، ونجحت في تحقيق ذلك، مما انعكس إيجابيًا على تصميماتها ودراستها الجامعية.

خرجت "جميلة" من غرفتها بتعب واضح، وما إن لاحظتها "جنى" حتى ألقت عليها وسادة مازحة:

ـ إيه يا بنتي، هتعمليلي فيها "نيللي كريم" في سقوط حر ولا إيه؟ هتبقي دراما كوين وشمامة كمان؟

تدخلت "هاجر" وهي تساعد "جميلة" على الجلوس لتناول الطعام:

ـ اهدي شوية يا " جنى "، سيبي البنت في حالها! وبعدين أنا عندي فستان لازم أخلصه، العرض قرب، بعد يومين بس وأنتِ عاملة دوشة!

ردت " جني " بإيماءات درامية، ممسكة يد "جميلة" وكأنها تلقي مشهدًا أمام جمهور:

ــ أنا اللي مزعجة؟ أنا ضحيت بسريري علشانك! مش هسامحك أبدًا يا "هاجر"! حسبي الله ونعم الوكيل!

انفجرت الاثنتان ضاحكتين وصفقتا لها، بينما "جميلة" علّقت مازحة:

ــ الله يا فنانة، بجد نجمة!

قاطع تلك اللحظة السعيدة طرقات الباب. فتحت "هاجر" لتجد "عمر" يقف أمامها، وعيناه مليئتان بالدموع. دون أي كلمة، احتضنها بشدة، دافنًا وجهه في عنقها، وكأنه وجد ملاذه. أغلقت الباب وهي تحتضنه بدورها، تشعر لأول مرة بالأمان الحقيقي.

ابتعد قليلًا وهو يمسح دموعه، ثم تنفس بعمق وكأن ثقل العالم على صدره:

ــ وحشتيني قوي، ما تتخليش عني إنتِ كمان.

أخذت يده وجلست بجانبه على الأريكة، ووضعت رأسها على كتفه، بينما بدأ يسرد كل ما مر به منذ لقائه بـ"رحاب" وحتى الآن.

انهار "عمر" بالبكاء مجددًا وهو ينظر إلى "هاجر" وكأن العالم بأسره قد تخلى عنه، ثم قال بصوت متحشرج:

ــ فكرت امبارح أروح فين، ملقتش مكان، فكرت أروح البار زي ما كنت بعمل على طول، بس مقدرتش، لما رجعت البيت لقيت ماما وبابا بيتخانقوا تاني، حاولت أتكلم مع "ماهي"، بس مقدرتش، أنا اكتشفت إن معنديش بيت ولا حتى دراسة أكملها، أنا فاشل في كل حاجة، قعدت طول الليل هنا تحت البيت جوا العربية لحد ما نمت، ولما صحيت طلعتلك.

احتضنته "هاجر" بقوة، تشعر بثقل الألم الذي يعيشه شقيقها، وتساءلت في قلبها: لماذا يجب أن يحدث لهم هذا؟ لماذا يبدو العالم قاسيًا هكذا؟

قالت بصوت دافئ ومليء بالحب:

ــ أنت مش فاشل أبدًا يا "عمر"كل اللي حصل إنك وقعت كام مرة، وده طبيعي، بس مش نهاية الطريق ابدأ من جديد، افتح مكتب، أو اشتغل في شركة. فاكر إن عندك ابن؟ ودي أجمل مسؤولية ممكن تتحملها. صدقني، أنا في ضهرك، وعمري ما هسيبك.

قبل أن يتمكن "عمر" من الرد، قاطعتهما طرقات جديدة على الباب. نهضت " جنى" لتفتح، لتجد أمامها "سليم" يحمل حقيبة طعام، و"أحمد" يحمل باقة ورود، و"محمد" ينوء تحت ثقل العديد من الحقائب.

وقف "محمد" وهو يتمتم بسخط:

ـ يعني شايل الكياس دي كلها، وواقفيني قدام الباب كده؟ اتقي الله يا شيخة! ده أنا إيدي مجلوطة قدامك.

تغزته " جنى" بالوسادة، ثم قالت له بتحدي وسخرية:

ـ ياخي انت بارد، كله كلام كلام كده!

أما "أحمد"، فتخطى الجميع واقترب من "جميلة"، وما إن وقفا وجهًا لوجه حتى سحبها برفق إلى حضنه، ممسكًا بها بحنان ومسحت كفّاه على ظهرها في محاولة لتهدئتها. وقفت " جنى" تنظر إليهما بدهشة، بينما بجانبها "سليم"، الذي بدأ يفرغ حقائب الطعام بحماس وهو يسرد مغامرات يومه لـ"جني".

في تلك اللحظة، وقف "محمد" أمام "عمر"، الذي كان يرمقه بنظرات تحمل ترجيًا وندمًا عميقًا، متمنيًا لو أن الوقت يعيد نفسه ليصحح خطأه.

ابتسم "محمد" بخفة، ثم فتح ذراعيه ليحتضن "عمر"، وكأنه يمنحه الصفح دون كلمات. بعد أن عرف من "حسام" كل ما حدث، رأى الدموع المتحجرة في عيني "عمر"، وقرر أن يمنحه العفو الذي يحتاجه.

تمتم "عمر" بصوت مكسور:

ـ انا آسف إني كنت زي الشيطان الأخرس، واقف ومش عارف أساعدك، آسف إني كنت بتفرج بس.

رد "محمد" بإيجاز ووضوح، وكأن كلماته تحمل كل الحكمة التي يحتاجها الموقف:

ـ ولا يهمك يا "عمر" اللي حصل حصل، مش هنقدر نغيره. ولو افترضنا إننا نقدر نغيره، هنضيع عمرنا في المحاولة.

في مكان آخر من الغرفة، كان "أحمد" لا يزال يحتضن "جميلة"، التي انسابت دموعها بصمت. في ذلك العناق، شعر كلاهما وكأنهما يولدان من جديد، وكأن الحياة تمنحهما فرصة أخرى ليبدآ من الصفر. يمكن سماع تبضات الحب الصامتة بينهما، وكأنها عزف لحن خفي، يحمل أجنحة الفراشات لتطير بهما إلى فضاء الحب.

أخرج "أحمد" "جميلة" من عناقه برفق، ثم طبع قبلة حانية على جبينها. ووضع باقة الورود بجانبها قائلاً بابتسامة دافئة:

ـ الورود دي لأحلى وردة في حياتي كلها.

أسندت رأسها على كتفه الأيسر، تستمع لدقات قلبه التي بدت وكأنها ترقص فرحًا بقربها. همست بخفوت، وكأنها تخشى أن تزعج هدوء اللحظة:

ـ شكرًا لأنك دايمًا جنبي، من غير ما أطلب، شكرًا لأنك أكتر حد فاهمني وحاسس بيا، أنا بحبك أوي، ومش عارفة كنت إزاي ممكن أعيش من غيرك.

ضمتها إليه بحنان، وكأنها أصبحت جزءًا من قلبه الآن، زوجته التي طالما حلم بأن يحمل عنها كل آلامها. كان يرى السعادة دومًا في إسعاد من يحب، وابتساماتهم كانت اختصارًا لمعنى حياته.

بعد تناول الطعام، جلس "محمد" بجانب "هاجر"، التي كانت تحاول إنهاء آخر رسوماتها، لكن الخوف بدأ يتسلل إلى قلبها. شعرت وكأنها ستخفق هذه المرة، وكأن العالم يترقب سقوطها. كيف ستنظر والدتها إليها؟ ماذا ستقول عنها إذا أخفقت؟ كانت الأسئلة تدور داخلها كدوامة، لكنها وجدت نفسها تنجذب إلى صوت "محمد"، الذي كان يسرد يومه بحماس يشبه حماس طفل يحكي لوالدته عن يومه الأول في المدرسة.

نظرت إليه بابتسامة دافئة وقالت:

ـ تعرف بحب إن أكتر شخص ساكت وغامض في حياتي، هو نفسه أكتر شخص ترثار ومتحمس معايا أنا بس، وجودك أمان بالنسبة لي.

ابتسم "محمد" وتنهد بخفة، ثم قال وهو ينظر إليها بعينين تحملان مزيجًا من الامتنان والراحة:

ـ لأنك الوحيد اللي تفهميني، لا حد غيرك يقدر حماسي، ولا حد غيرك يقدر يشاركني أوجاعي أو أفراحي لما تعجبني قصيدة أو أغنية، مفيش حد غيرك يفهم إحساسي بيها ببساطة، مفيش حد جوا قلبي غيرك.

تنفست "هاجر" بعمق، محاولة أن تجمع شتات كلماتها قبل أن تبوح بمخاوفها:

ـ أنا خايفة أوي يا "محمد".خايفة أفشل منظري قدام ماما مش قادرة أسمع كلامها ده تاني.خايفة أفشل كمان عشان "سما" حددت فرحها بعد العرض على طول لو فشلت، هكون السبب إن فرحها يبوظ مرتين مرة لما اتخانقنا، وانت دخلت المستشفى، ومرة لو العرض ما نجحش.

أمسك "محمد" بكفها بحنان، مثبتًا عينيه على عينيها، وكأن رماديتيه تحاول أن تبث الطمأنينة في قلبها المضطرب. قال بهدوء:

ـ مش هقولك إنك أشطر حد في الدنيا، ولا هقولك إن لازم تنجحي، كل اللي عايزه منك إنك تحلمي لنفسك. مش لأي حد تاني، الفشل مش عيب، بالعكس. لو دي أول مرة تخفقي فيها، يبقى ده جزء من نجاحك اللي جاي أنا واثق فيك، عارف إنك قادرة إنتِ "هيرو" يا "هاجر"، ودايمًا هتفضلي بطلة في نظري.

أردف بابتسامة مليئة بالثقة:

ـ أنا فخور بيكي سواء عملتي صح أو غلط وأنا معاكي نصلح الغلط ونكمّل عاوزك دايمًا رافعة راسك، وأنا هفضل جنبك دايمًا أسندك.

شعرت "هاجر" بالفخر وهي تسمع كلماته. شكرت الله في سرها على وجوده بجانبها. همست بحنان:

ـ ربنا يديمك ليا مش عارفة إزاي دايمًا بتهدي كل الخناقات اللي جوايا أنا ممتنة ليك طول عمري. بالمناسبة عرفت إنك اللي قدمت طلب إقامة المزيكا وتنظيم العرض، ومعاك "رحاب". و"زينة" هي اللي قالتلي.

ضحك "محمد" بخفة وهو يضع يدها أسفل ذقنه:

ـ أنا هفضل جنبك لحد ما تخلصي الفستان ده. يعني لو تسمحيلي، هقعد هنا على الكرسي ده، مش هتحرك. وممكن نسيب "عمر" جنبك كنوع من أنواع الحماية.

ضحكت قبل أن تنهض لفتح الباب الذي دق من خلفها. دخلت "حسناء"، وهي تبتسم، وصافحتهم بحرارة. تبادلوا الحديث طويلًا، وسط دفء وجودهم معًا، وكأن كل شيء يصبح أفضل بوجودهم.

على الجانب الآخر، جلست " جنى" في الشرفة، تستند إلى الكرسي وتنظر إلى السماء بهدوء. إلى جوارها كان "سليم" يحتسي كوبًا من الشاي الساخن. تحرك نحوها بخطوات واثقة وجلس أمامها، ثم سألها بفضول:

ـ ها يا "جوكر"، عملتِ إيه مع الدكتورة؟

رفعت حاجبيها بدهشة من وصفه لها، واستنكرت كلامه بضحكة خفيفة:

ـ "جوكر" يا "سليم"؟! وأنا كمان بقيت كلاون؟ ماشي يا "سليم". اتكل على الله.

ابتسم لها بهدوء وهو يتأمل ملامحها وقال بنبرة يغلبها الإعجاب:

ـ مش الجوكر ده اللي جواه الخير والشر؟ أنتِ بالنسبة لي زي الجوكر، جواكِ كل حاجة جواكِ أنا.

تجنبت نظراته بابتسامة خجولة وهي ترد بصوت خافت:

ـ والله كلامك ده بيخليني مش عارفة أرد تعرف يا "سليم"، أنا خايفة بجد. خايفة ييجي يوم وأنسى تحصل مشكلة معقولة وقتها وأنسى كل ده؟! أنسى كلامك وإنك دايمًا جنبي؟ معقول أنسى إني بحبك؟

نظر إليها بثبات وابتسامة طمأنينة تعلو وجهه:

ـ متخافيش وأنا موجود.أصلاً مش هيحصل الموقف اللي يخليكِ تنسيني،أنا هفضل جمبك دايمًا.

في تلك اللحظة، شعور الانسجام الذي جمعهما كان أقرب ما يكون إلى تناغم الأرواح. كانت روحهما كأنها قطعة واحدة، كأن الكون كله قد توقف ليحفظ هذه اللحظة في ذاكرته الأبدية.

في غرفة الرسم، وأخيرًا، أنهت "هاجر" رسمتها بعد ساعات طويلة من العمل. التفتت إلى "محمد" بحماس لتريه الرسم، لكنها وجدته غارقًا في النوم، مستلقيًا بجانبها. لم تستطع منع ابتسامتها عندما تذكرت حديثه ذات يوم: أنه لا يستطيع النوم إلا عندما يشعر بالأمان بجانب من يحب.

بعد لحظات، استيقظ "محمد" ببطء، نظر إلى الرسمة أمامه بذهول. كان الفستان في غاية الجمال: تصميم أسود طويل ذو أكمام واسعة مفتوحة، مزين بلآلئ لامعة تبعث البريق في كل تفاصيله. بقي يتأمله دون أن ينطق، وكأن الكلمات خانته.

قطع صمته صوت "هاجر" وهي تسأله:

ـ عجبك؟ وأنتِ يا "حسناء"، إيه رأيك؟

نظرت "حسناء" للرسمة بتركيز وقالت بحماس:

ـ ايه الحلاوة دي يا بت يا "هجورة"! أنتِ طلّعتي جامدة تشاركيني؟

أجابتها "هاجر" بتمثيل التفكير وبنبرة متكبرة مصطنعة:

ـ أفكر بس، معتقدش هوافق.

انفجرت الضحكات بين الجميع على ردها، بينما كان "محمد" يتأملها بصمت، يشعر وكأنه يتمنى لو يستطيع أن يخرج قلبها ويمزجه مع قلبه، ليكونا كيانًا واحدًا للأبد.

انقضى الليل بينهم في لحظات من السعادة والضحكات التي ملأت الأرجاء. بعد أن انتهى اليوم، عاد الجميع إلى منازلهم. "عمر"، الذي دخل المنزل وهو شخص مختلف تمامًا عما كان عليه عندما غادر في الصباح، و"أحمد"، الذي اطمأن على حال "جميلة" قبل أن يعود هو الآخر إلى منزله.

أما "محمد"، فأصر على أن يوصل "حسناء" إلى منزلها بنفسه، لكنه لم يرافقها إلى الداخل، بل اكتفى بالاطمئنان عليها قبل أن يغادر بابتسامة مطمئنة.

في صباح اليوم التالي، بدت الشمس كأنها تعيد الحياة إلى كل شيء، تخفي وراء أشعتها حلكة الليل وقسوته. ربما كانت الشمس مرهماً لبعض الجروح، ودواءً للقلوب المتعبة.

وقفت "رزان" أمام المرآة، تتفحص مظهرها الجديد الذي يعكس قرارها بترك كل ما يمت بصلة لحبيبها خلفها. في محاولتها لنسيانه. قصت شعرها الطويل. ذلك الشعر الذي طالما أحبته لأنها تعلم أنه يفضله طويلًا. لكنه الآن يحب أخرى بشعر متوسط الطول. أدركت أنه لم يكن يحب الشعر بل كان يحبها فقط حين كانت جزءًا من حياته.

غيرت شكل حاجبيها، بل وغيرت ذوقها الموسيقي الذي كانت قد تبنته لمجرد أنه يفضله، استبدلت الشاي بدموع الفراق، وحتى قلبها نفيته من بين أضلاعها، تاركة مكانه فراغًا، لأنها تعلم أن حتى لو استبدلت قلبها بحجر، سيظل هذا الحجر يلين له ويهوى قربه.

التفتت للصورة التي تجمعهما في عيد ميلادها قبل أعوام كانت التفاصيل تنادي روحها، تنتشلها من محاولات النسيان، حاولت ألا تنظر، أن تهرب، أن تتقدم خطوة للأمام لكن قلبها كان يعيدها عشر خطوات للخلف. كان هو فخها اللطيف، ووجعها الأحب.

جلست على السرير، وفتحت هاتفها لتظهر محادثتهما. ترددت في حذفها، تخشى أن تندم لاحقًا. قبل أن تخفي أثرها للأبد، قررت قراءتها للمرة الأخيرة كل كلمة، كل حرف، كانت تشعر به وكأنه نابض بالحياة ضحكاتها على تعليقاته، كلماته التي أغدقها بها يومًا، وأخيرًا القسوة التي أنهت الحديث بينهما.

بضغطة واحدة حذفت الرسائل، لكنها لم تكن مجرد ضغطة، بل كانت وجعًا عميقًا اجتاح روحها. انفجرت في البكاء حتى شعرت بأنفاسها تختنق. حاولت إخفاء شهقاتها، لكنها لم تعد قادرة على كتم أي شيء، لم تكتف بذلك، بل بدأت في التخلص من صورهما معًا، رغم أنها حفرت تلك الصور في قلبها مسبقًا. قبل أن تمزقها، قبلتها بحب، وكأنها تودعها للأبد.

لكن، كيف ستستمر بدونه؟

كان أخًا وصديقًا وحبيبًا، احتوى حياتها بكل تفاصيلها. رغم كل شيء، أقسمت أنها ستتجاوزه، وستجعله يندم على تركها لن تسمح لأي شخص أن يسعد باهتمامه بدلاً منها تمنت لو يدرك أنها لم تكن له مجرد خطة بديلة، أو ممر جانبي، بل كانت طوق النجاة، كانت كل الطرق التي عرفها، وكانت محطة الوصول التي تجاهلها.

بعد نوبة طويلة من البكاء، استجمعت شتات نفسها وخرجت من غرفتها. وقفت أمام والديها ببرود، وكأن شيئًا لم يكن، وقالت بصوت ثابت:

ـ متقدملي عريس "عبدالله نادر السباعي"، دكتور صيدلي، وأظن حضرتك عارفه. وبالمناسبة، أنا موافقة وهتجوزه. أتمنى تعرفوا تبقوا عيلة محترمة لمدة ساعتين لحد ما يمشي بس.

ثم غادرت الغرفة، تاركة خلفها عاصفة.

نهض "حسن"، والدها، غاضبًا كالإعصار، يسترجع في لحظات كل ذكرياته مع تلك العائلة التي لم يكن يتخيل أن الأمر سيصل إلى هذا. أما "شيماء"، والدتها، فقد اتسعت عيناها بدهشة لم تستطع إخفاءها.

في غرفتها، أمسكت "رزان" هاتفها، وكتبت رسالة إلى "عبدالله":

ـ أنا موافقة على جوازنا يا "عبدالله"، حتى لو لفترة خطوبة.

أنهت رسالتها وألقت الهاتف جانبا،

وعيناها تضج بالجحيم الذي التهب داخلها.

في غرفة واسعة، ورغم اتساعها، بدت جدرانها وكأنها تطبق على قلب الرجل الجالس في وسطها. كان قد تخلى عن سترته وعن مقعده، واكتفى بالجلوس أرضًا، ممسكًا بلفافة تبغ. تحاصره ذكرياته السيئة، فيما الذكريات السعيدة تُسحق أمامها واحدة تلو الأخرى. أما واقعه، فهو أسوأ من أن يُحتمل؛ عالمٌ كئيب لا يدري كيف يهرب منه.

أدار وجهه نحو المرآة، وتأمل صورته. شعور بالخوف اجتاحه... خوف من أفكاره، التي باتت مرعبة. صوَر أفكاره ترسم في ذهنه مشاهد مروعة، ونظرته الخالية من الحياة مع وجهه الجامد وأفكاره الوحشية لا تهدأ، حتى يكاد رأسه ينفجر. كل شيء حوله كان هادئًا، حد اللعنة، إلا عقله الذي لم يكف عن الصخب.

أغمض عينيه، وأطلق زفيرًا ثقيلاً مع دخان سيجارته. ظهرت أمامه ذكرى سيئة، تَنسج خيوطها كأنها حيّة. شاب في منتصف عقده الثاني مُلقى أرضًا، ملابسه ممزقة، عيناه متفختان، وأنفه ينزف، فيما دموعه لا تتوقف عن الانهمار.

توسل بصوت منكسر لرجل يقف أمامه بوجه صارم:

- سيبني أشوفها مرة واحدة. أرجوك يا بابا، أوعدك أمشي بعدها، هطلق "حسناء"، هعمل أي حاجة بس أشوف أمي.

لكن الرجل، بلا أي تعاطف، انخفض بجسده، جعل ثقله على ركبتيه، وقال بنبرة قاسية:

- دلوقتي بس افتكرت إن أمك تستحق إنك تسمع الكلام؟ كان فين عقلك لما كذبت عليّ واتجوزت من ورا مراتك؟ على العموم، خلاص، أمك اتدفنت، وانسى إنك تشوفها. الميت ميصحاش، ومراتك هتفضل عندي، تولد بس، وبعدها أولع فيكوا انت وهي سوا.

تجمّدت ملامح الشاب، وتحولت كليًا. عينيه اللتين كانتا تشعان بالحياة انطفأتا، وأصبح شخصًا آخر. تلك اللحظة كانت فاصلة في حياته، اللحظة التي لا يعود بعدها الإنسان كما كان. مهما حاول النجاة، يظل داخله شعور بالغربة والخوف من التغيير.

بعد صمت طويل، جمع قواه بصعوبة وقال:

- قسماً بالله، من اللحظة دي اللي بيني وبينك مش دم. دم أمي اللي ضاع بسببك هو اللي بينا، يا "يزيد جبالي". افتكر كويس اللحظة دي، علشان أنا مش هنساها اللي فات كوم، واللي جاي كوم تاني.

ذكريات طفولته تدفقت أمامه: مشاهد متكررة للعنف، سواء عليه أو على والدته، من هذا الرجل الذي لم يعرف الرحمة. محاولاته لمنع دموعه من السقوط فشلت، فخرجت رغمًا عنه.

نهض من مكانه وفتح درج مكتبه، استخرج مجموعة أوراق. توقفت عيناه على إحداها، شهادة وفاة والدته... تلك الورقة التي أنهت كل ما بقي حيًا في قلبه. كيف يقنع قلبه أن السبب مجرد ورقة؟ كيف يُقنعه أنه لا يغرق، وأن هذه الورقة هي خيط نجاته؟ كيف يُقنعه أنه لا يزال حيًا؟

أفاق من دوّامته على دخول "ياسر"، الذي جلس أمامه قائلاً بهدوء:

- إيه يا "عادل"، مالك سرحان كده؟

تنهد "عادل" بضيق، مستندًا على مكتبه:

- مش سرحان بس قول لي، أنا المفروض أعمل إيه بعد حوار "محمد" ده؟

عقد "ياسر" حاجبيه بدهشة:

- إنت بتسألني أنا؟ معقول بتفكر في "محمد" كده من غير خناق؟ على العموم، المفروض تحاول تقرب منه، أو تفتش ورا الدكتور و ورا أختك، لأنها المفتاح.

أغمض "عادل" عينيه بتعب، وقال:

- شايفني حجر مثلاً؟ أنا بعمل كده علشان "حسناء"، علشان "هاجر"، علشاني أنا مش عايز أفضل متشتت.

كانت نبرته مشبعة بالأنانية، لكنها مكتسبة. قسوته تعلمها من أبيه؛ ألمٌ جعله نسخة مشوهة من ذلك الظالم.

نهض "ياسر"، وقال مستهزئًا:

- علشانك، بردوا ! بقالي ١٥ سنة بقول لك محدش بيكسب كل حاجة، اللي بيحاول، بيخسر كل حاجة على العموم، أنا هدور في الموضوع، وإنت حاول تبقى أب، حتى لو تمثيل، حاول تهدي ابنك يا بني.

خرج، تاركًا "عادل" في صمته المعتاد. تحوّل الصمت إلى تنهيدة تفتت أضلعه، وما إن يهدأ حتى تشتعل النيران في قلبه. ينتهي كل شيء بصوت يتحول إلى رماد.

في إحدى المستشفيات الخاصة، كان "سيف" يستعد للمغادرة بعد انتهاء فترة تدريبه، لكنه توقف فجأة عندما رأى زميله في العمل "إسماعيل" يتحدث مع ضابط شرطة تعرف عليه من قبل، "لؤي البغدادي". فضوله دفعه للاختباء خلف الجدار القريب، ليستمع خلسة إلى ما يدور بينهما.

كان الحوار بينهما متوترًا، بدأ الضابط قائلاً بنبرة صارمة:

ـ بقولك إيه، أنا مش هاسد وراكم تاني في أي ورق. حاول متلفتش النظر لشغلكم.

رد "إسماعيل" بخفوت، والغضب يتسرب من صوته:

ـ يعني إيه يا "لؤي"؟! ماهو انت عارف إن كله من الزفت الجديد اللي اسمه "سيف"، ودكتور "حمزة" بيحاول يخلص منه.

ازداد الضابط غضبًا واحتدت نبرته وهو يرد:

ـ لا والله! وهو ناس بتتاجر في أعضاء بني آدمين مش قادرين على عيل؟ لا، كدد كتير عليا!

تسارعت أنفاس "سيف"، وارتفع صوت شهقته قبل أن يضع يده على فمه سريعًا ليمنع نفسه من إصدار أي صوت إضافي. تراجع بخطوات مرتبكة مبتعدًا عن المكان، وهو في حالة من الصدمة.

كانت شكوكه في محلها. هذه المستشفى ليست سوى واجهة لعملية تجارة أعضاء بشرية.

لم يكن يدري ما الذي يجب عليه فعله. بين الخوف والغضب، كانت الأفكار تتصارع في ذهنه. لكنه كان متأكدًا من شيء واحد: أنه على وشك مواجهة كارثة جديدة قد تغيِّر حياته للأبد.

في أحد المكاتب الراقية، وقفت "شيماء"، والدة "رزان"، تدق الأرض بكعبها العالي بنفاد صبر، نظرات شريرة تشتعل في عينيها. اقتربت من "أنس"، الذي كان مستلقيًا على الأريكة في وضعية استرخاء مبالغ فيها، وأمسكت بكتفيه وبدأت تمسدها بعصبية، قائلة بنبرة مشحونة:

- أنا هتجنن يا "أنس"، البنت عاوزة تتجوز "عبدالله"! فاهم ده معناه إيه؟

أجابها "أنس" ببرود وكأن الأمر لا يعنيه، محاولًا أن يبدو هادئًا:

- ليها صرفه يا "شيماء"، بنتك ما بتدورش غير على المصايب، وتيجي تقولي: اتجوزه.

ابتعدت عنه قليلًا وجلست أمامه بطريقة وُصفت بالجرأة، ووضعت يدها على صدره وهي تفكر بصوت عالٍ:

- طيب، الحل في إيدينا، فارق سنتين بين "رزان" و"قاسم" مش كتير، حتى لو هي أكبر شوية، إيه رأيك نخلص من كل ده ونزوجهم لبعض؟

كأنما لدغته أفعى، انتفض "أنس" من مكانه فجأة، واندفع نحوها بغضب عارم. أمسك بعنقها وضغط عليه بقوة، وصرخ بنبرة مشوبة بالجنون:

- إنتِ اتجننتي؟! عايزانا نجوز إخوات لبعض؟!

وفي زاوية أخرى بعيدة، كان هناك شخص يتابع المشهد على شاشة هاتفه، إبتسامة خبيثة ترتسم على وجهه. رفع الهاتف ليصور ما يجري، وعلق بلغة تركية بطلاقة، وبنبرة ساخرة:

"Kameraya gülümse yakışıklı"

"ابتسم للكاميرا أيها الوسيم".

البارت السابع و العشرون

"إنحراف"

بعض الحقائق قد تكون صادمة نوعا ما، وأخرى قد تكون قاتلة، مستحيلة، مستحيل لك أن تتوقع أن تصدر هذه الأفعال عن بشر، عن إنسان يحمل بداخل قلبه إنسانية لكن في الحقيقة، كانت الحسبة بسيطة: خلق الله الملائكة بعقل لكن دون شهوات، وخلق الحيوانات بشهوات لكن دون عقل، ثم كرم الإنسان، فخلق له عقلا وشهوات ليتمكن من تحديد مصيره. لكن الإنسان في النهاية تخلى عن إنسانيته، ثم عن أخلاقه، حتى سيطرت عليه شهواته، وترك عقله وراءه.

ترك عنقها من بين يديه بعد أن كانت على وشك أن تلفظ أنفاسها الأخيرة شهقت، تحاول أن تستنشق أكبر كمية من الهواء لتعود إلى الحياة مرة أخرى، بينما هو كان يسحب خصلاتها السوداء إلى الوراء بقوة، يحطم كل شيء يقف أمامها. استفاقت من تلك الحالة على حديثه المستهزئ بها، وقد استعادت جزءاً من قوتها:

- لا. وأنت أمام مسجد؟ يعني حرام تتجوز اتنين أخوات لبعض؟ بس مش حرام تتعدى على أخت مراتك وهي مش حلال عليك؟ ولا حرام تغوي مرات أخوك؟! لا، أصيل قوي أنت، برضو أحرجتني بأخلاقك الواطية دي!

سحبها من خصلاتها وهو يلفها حول أصابعه، وتمتم في أذنها بغضب وفحيح:

- طيب، ما أنتِ خونتي جوزك معايا، خونتي أخوي. ومردتيش تخلفي منه وملبسته بنت مش بنته، ولا أنتِ ملاك وأنا الشيطان أنا شرير، الرواية دي صح؟!

تخلت عن صمودها هذا، وهي تبتعد عنه قائلة بألم وحزن يعتصر قلبها منذ زمن بعيد:

- ومين اللي عمل كده؟ مين اللي عشمني بالجواز وضحك عليا؟ وبعدين لبسني لأخوه وضحك عليا وعليه يا أخي، ده أنت بجح بجد!

استهزاء من حديثها، وهو يرمي كلامها عرض الحائط، ويقهقه ببرود:

- أيوة، أنا اللي ضحكت على أخويا، أنا خليت أخويا يربي بنتي على إنها بنته، وأقولك الأسوأ، العيال دي ولاد حرام، أنا كنت بشوف بنتي قدامي، وما كنت قادر أقرّب منها، فضلت على دماغ عمي لحد ما خلتني أحرم ابنه من الورث وأرميه برا لا، ومش كده وبس، أنا لوحدي اللي أعرف مين اللي قتل "يزيد الجبالي" وعاش ابنه بالذنب لحد دلوقتي.

صمت للحظة ثم أكمل وهو يبتسم ابتسامة شيطانية، يبرر لنفسه أفعاله النكراء:

- تفتكري نهايتها على كده؟ لا، ده أنا خليته يسيب ابنه، ويطلق مراته، ويهاجر بعدها لعبت بدماغ أخته، وذليت ابنه الصغير، خطفته وخليته يتاجر في المخدرات، جننته وهددته بكل ده، وحرمته من أمه عارفة بقى أنا إيه؟ أنا تاجر مخدرات وسلاح، وشغال مع مافيا. فاتح بيوت دعارة. أنا تاجر أعضاء. عارفة إيه أعضاء البني آدمين؟ أنا وسخ بني آدم هتشوفيه.

أكمل وهو يخفض صوته، بينما يبتسم ببرود قاتل وكأنما شيطان أو ربما مريض عقلي:

"بس عارفة أنا عملت كده ليه؟ علشان مش ذنبي أخويا كان غبي، لما فكر فيك وهو عارف إنك ليا، فأنا عقبته بيك، أنا مضربتكيش على إيدك، أنتِ اللي جيتي برضاك "نسمة" كمان مكنش ذنبي، ذنب أختها مراتي اللي سبتها قدامي، حتى عمي بردو مكنش ذنبي أنا نصحته، بس هو اللي كان بيكره ابنه، حتى "سوزي" مكنش ذنبي، هي اللي طماعة، وعاوزة أخوها ليها لوحدها "محمد" نفسه هو اللي عمل كده في نفسه كان ممكن يهرب، كان ممكن يقول لابوه، بس هو اللي غبي، أنا مش بجبر حد على حاجة، أنتم اللي وحشين عارفة، أمي كانت إيه؟ رقاصة، وأبويا اتجوزها وأمن ليها، وبعدين هي كانت بتخونه، وأنا كنت عارف، في اليوم ده، بس اتأكدت إنه مينفعش تثق في حد الزبالة زبالة حتى لو نضفتها، أنا مش شيطان زي ما بتقولي، أنا الوسواس اللي كانوا بيستعيذوا منه، أنا الشر اللي كانوا بيمنعوه أنا النار نفسها يا "شيمو"."

كانت ملامح الصدمة واضحة على وجهها، عينيها كانت مفتوحة على آخرها، بؤبؤاها لا يتحركان من شدة الصدمة. كيف يبرر كل هذا بتلك البساطة؟!

قاطع أفكارها وهو يستلقي على الأريكة قائلاً بهدوء وهو يغمض عينيه:

- شيمو حبيبتي، معاد نومي جه. أطلبيلي اللبن بتاعي قبل ما تمشي.

كانت متجمدة في مكانها، بينما هو كان غير مبالي بها وبأفعالها. ترك لجسدها العنان. بينما هو يلتقي النوم بكل أريحية.

أياك وأن تثق في أحد. فبداخل كل جنة قد يكون هناك جحيم يمكن للبشر أن يفعلوا ما لا يستطيع إبليس فعله.

في الصباح. حيث بعد انتظار عودة الشمس مرة أخرى لتغسل دنس الليل عن قلوب البشر، كان يجلس بين تلك الصحائف والكتب التي يعشقها حد الجنون. إنها إحدى تلك اللحظات التي يتعجب فيها كثيراً عندما يعلم أن بعض الناس ينتهون من الكتب بعد مدة طويلة، بينما هو ينهيها في ساعات فقط.

قبل أن ينهض لفتح الباب، الذي فور فتحه اندفع منه باقي الشباب بازدحام. جلسوا بعد فترة قليلة، وكان أكثرهم تشتتاً هو "سيف" الذي بادر بالحديث قائلاً بتركيز:

- "حسام"، أنت تعرف "لؤي البغدادي" صح؟

عقد "حسام" حاجبيه بتعجب وهو ينظر إليه باستفسار:

- آه، ضابط معانا في القسم، لسه منقول، وكان مركز قوي في حوار "محمد"، بس بتسأل ليه؟

أجاب "محمد" تلك المرة بدلاً من الأخير:

- أصل إحنا، المشاكل اللي عملها معانا عقد، ده واحد رايح يدرب في مستشفى عادي زي أي دكتور، إنما إزاي تمشي كده أبداً؟ والله ما تحصل! طلعت مستشفى وراها تجارة أعضاء، والضابط بتاعك ده ليه علاقة بيهم.

صدر صوت ضحكات من "أحمد" الذي ضرب كفُّه بكف "عز" قائلاً من بين ضحكاته:

- المشاكل هي اللي بتجري ورانا حرفياً! بجد إيه الهم ده؟

أخرج "سليم" جهاز "اللابتوب" من حقيبة ظهره وبدأ بعرض بعض المعلومات أمامه وهو يقول شارحاً:

- بعد ما "سيف" عرفني بالموضوع، دورت ورا ثلاث أسماء: "حمزة الوايلي"، "إسماعيل الشاعر"، "لؤي البغدادي"وبعد وقت طويل، اكتشفت إن الرابط اللي بين كل الناس دي شخص واحد اسمه "أنوار الصياد"، حامل جنسيتين: مصرية وبريطانية، بيشتغل في الطب، وبرضه بعد بحث اكتشفت إنه مش دكتور ولا أي حاجة، وكل الشهادات بتاعته مزورة، هو رئيس مجلس الإدارة بتاع المستشفى دي. ولكن اكتشفت أن الراجل ده نشاطه مش مقتصر على تجارة الأعضاء بس، وفيه وراه حد أقوى. وبعد ما شوفت ورقة، كان "عدنان أوغلو" أو "Adnanoğlu Mart". ولكن بشكل ما، ماعرفتوش الراجل ده. بايع عدنان لـ "أنس"، اللي أصلاً ملبس كل حاجة لأخوه "حسن".

كان الجميع في حالة مفاجأة، لكن على العكس كان "محمد" أكثرهم بروداً. كان يمتلك بروداً وعدم مفاجأة وكأنه اعتاد على ذلك.

تحدثت "أمير" بعد أن تنهدت شعوراً بالسوء والقلق:

- الموضوع بيوسع منكم قوي، وخايف منعرفش نلمه وبعدين. حوار سكوت "عدنان" ده مقلقني قوي.

أجابها "محمد" ببرود قائلاً وهو يأخذ آخر أنفاسه من لفافة التبغ التي لاقت حتفها الآن بعد أن خرجت من بين شفتيه:

- الموضوع كبير لوحده يا "أمير". الناس دول مش بس قتلوا أهل "حسام" ودمروا حياته، أو حتى دمروني وأذوني ولا قتلوا أي حد تاني. لا! الناس دول دمروا مليون إنسان، ألف عيلة. دول حرفياً عملوا كل حاجة تجردهم حتى من كونهم أرواحاً، وحرام قتلهم.

انتظر "حسام" انتهاء حديثه ثم عقب قائلاً بهدوء لا ينطبق تماماً مع تلك النيران المشتعلة داخل قلبه:

- وبعدين، إحنا ولا هنقتل ولا هنظلم. آه، ممكن يكون شغلاً غير قانوني، ولكن الغاية تبرر الوسيلة، وده قانون.

تحدثت "أمير" وهي تنهض مستعدة للخروج:

- أستأذنكم أنا بقى أروح الشغل وأقابل تلاتي أشرار المدينة اللي هناك.

استنكر "سليم" من حديثه قائلاً:

- مين تلاتي أشرار المدينة دول؟

أجابه "أمير" وهو يرتدي معطفه الشتوي:

- "أنس" وأخوه المرافق "حسن"، و"مصطفى" الملقب بـ "صاصا".

أردف "محمد" وهو يشير إليه بأصابعه:

- معلش، ضيف الرابع "عادل"، صاحب الاسم غير المتطابق خالص يعني.

ألقي "أحمد" الوسادة في وجهه وهو يستنكر من حديثه:

- يا أخي، الراجل لحد اللحظة دي مفيش عليه حاجة خالص. إن بعد الظن إثم.

ألقى له نظرات متهاونة بحديثها بعد رحيل صديقهم و"عز" الذي قرر الذهاب معه.

أما "سيف"، فقد نهض هو الأخر، وهو ينظر إلى "محمد" بتحذير قائلاً:

- الفرح بكرة يا "محمد". عارف لو تعمل كارثة من كوارثك؟ بص، هقتلك بجد، أنت المرة اللي فاتت دراعك جاتله جلطة، ويوم الخطوبة اكتشفنا إن عندك ضغط، ويوم قراءة الفاتحة عملت حادثة فا اهمد كدة في مكان لحد ما اتجوز بس.

أومأ له بينما الجميع كان يضحك بقهقهة على حديثه. أردف "سليم" من بين ضحكاته:

- شوف الواطي، عاوز ميحصلش حاجة لحد الفرح، وبعدها نولع إحنا عادي.

تركهم الأخر وهو يتمتم بسخط على حديثهم، بينما "أحمد". الذي لاحظ هدوء الأخير وتفكيرها، جلس بجانبه ثم قال لها بهدوء:

- مالك يا بني، أنت كل شوية تسرح كده؟

أجابه وهو يتنهد محاولاً أخذ أنفاسه لمرة واحدة بدون تلك الأثقال فوق قلبه:

- هو لما تشتاق لحد ولا يوحشك المفروض تعمل إيه؟ يعني لو الشخص دد عايش فممكن تكون في فرصة واحدة من المليون إنك تقبله أو ترجعوالكن لو عارف إنه ميت، يعني مستحيل خلاص تقبله أبداً؟؟، كان في حاجة شوفتها وافتكرت إن "نائل" بيحبها، فا من غير قصد دخلت أبعتهاله وأنا ناسي وفجأة افتكرت قعدت أدور في الكلام اللي بينا، وأسمع صوته تاني أنت عارف، أنا ساعات كنت بكلم الرقم بتاع "هيثم" رغم إني عارف إنه مش موجود وإن فات ثلاث سنين، بس كنت بفضل أكلمه في الموبايل، وبعدها أسمع أي صوت لي من اللي مسجلهم كانه رد.

توقف عن حديثه بعد أن شعر بالثقل فوق قلبه، ثم أكمل:

«أنا بقيت بسجل كل حاجة: صور، مكالمات، فيديوهات علشان خايف في يوم اشتاق لحد تاني يعني عمي "نوح"، مثلاً، لما بفتكره أو بشتاق له بزعل، آه، لكن "نائل"، بحس بذنب ليه هو مش أنا أنا ملك الموت كان جمبي أربع مرات: مرة يوم عمي "نوح"، ومرة "هيثم"، ومرة "نائل"، ومرة "سمر". في كل مرة قبض أرواحهم وسبني أنا أتعذب بدلهم. طيب، أنت عارف يا "أحمد" أنا حسيت بايه يوم ما أنت غرقت؟ أنا كنت مرعوب، بتمنى أختفي، أنسى أي حاجة، خايفه تضيع مني. كنت هعمل إيه وقتها؟»

الحقيقة أنه ينهار يومياً، ولكن بصمت، وينهض مرة أخرى. يرمم أرواح من حوله ويعيد بناء حياتهم، دون أن يدري أحد بما يجري بداخله. وهذه ميزته: يتقن دائماً الثبات.

بينما احتضنها كل من "أحمد" و"سليم"، وهم يمسدان على ظهرها بهدوء. مجرد تخيلهم لبشاعة ما يشعر به كان كافياً جداً لهم.

بينما كان الجالس بالجانب الأخير، "حسام"، يخفي دموعه ولكنه لم يستطع. وهو يتذكر شقيقته تلك الجميلة بضحكاتها وعينيها التي كانت تأخذ جمالها من لون القهوة. ابتسم في بكائها، ثم تنهد وامسح دموعها.

بينما "أحمد" تحدث وهو يحاول تهدئتهم بحديثه:

- ده قدر، ولا بإيدينا ولا بإيدكم. وبعدين، لو كانوا فضلوا، هيعيشوا سنة، اتنين، عشرين، ومصيرهم للموت. كلنا كده. هناك، بقى، هنفضل مع كل اللي بنحبهم لسنين من غير عدد. أنا عارف إن إحساس الشوق وحش ويمكن مترتحش منه، بس ده الواقع .

ويبدوا انه محمل بالفقدان كلما اقترب أكثر ضاع منه أكثر،

تحول الى شخصا باهت لا يعرفه الى احد غيره لا يعلمه .
فالموت ماهو الا مجرد اسطورة ربما يدفن جسدك و يختفي
تحت الثري ربما ترتفع روحك و تذهب لخالقها ولكن ذكرياتك

تلك الورود التي لمستها و مررت من جنبها تشممت عبيرها
مازالت هنا احاديثك لن تختفي سيرتك كل شيء لا يتغير لذلك

الموت مجرد اسطورة .

هناك فرق بسيط مثل طرف الخيط بين الباطل والحق،

ذلك الفرق هو ما يعيدك للحياة مرة أخرى، كما أعادها.

بينما كان يجلس في غرفتها، غارقًا في أفكاره، تساءل عن السبب الذي أوصله إلى هذه الحالة. استيقظت اليوم بقلب خائف ومرتجف، وكأن كل ثباته قد انهار. كان يكافح للبقاء بخير رغم أن كل شيء حوله كان يوحي بالعكس كانت روحها معتمة، يغرقها الليل بالذكريات وأفكاره المضطربة. منذ طفولته، كان قلبه وعقله يضجان بالكثير من الكلام، لكنه لم يجرؤ يومًا على البوح الخوف من الملاحظة ومن التوبيخ كان يثقل عليه. ذلك التوبيخ الذي لا يطرق عينيه لتسيل دموعه، بل يصيب قلبه مباشرة.

كل ما أراده الآن هو العودة للنوم، عله يهرب من كل شيء، أو على الأقل يهرب من نفسه.

هبط إلى الأسفل، ودلف إلى غرفة المعيشة. جلس أمام والده ووالدته، تنفس بعمق، ثم قال بهدوء:

- أنا همشي من البيت لفترة،ويزن هيكون معايا فكرت كتير في الخطوة دي، وكان لازم أنفذها.

قهقهت "ماهي" ساخرة من حديثه، وقالت:

- لا والله؟ ويا ترى هتعيشنا فين؟ واخدت قرار؟ معقول يا عمر اخدت قرار؟!

ابتسم لها ببرود يعكس برودها، رغم أن في داخله كان يشعر بالحزن العميق على ما آل إليه الحال. كم يندم حين يقارن بين "ماهي" و"رحاب."

- لا ماهو أنت أصلاً مش هتيجي معانا، لأني هطلقك النهاردة.

اندهشت من كلماته، والصدمة ارتسمت على وجهها.

- إنت اتجننت يا عمر؟ أكيد اتجننت!

قال ببرود مستهزئًا:

- اتجننت؟ لا، أنا عقلت، يا ماهي.

وقف وتوجه نحو الباب، مكملاً حديثه بجمود:

- أنا قولت كلامي خلاص.

لكن صفعة قوية أعادته خطوات إلى الوراء. كانت الصفعة من "مصطفى" الذي بدا عليه أنه فقد أعصابه تمامًا.

تدخلت "سوزي" بصرامة، وقالت:

- ويا ترى مين صاحب الفكرة العبقرية دي؟ وهتروح تعيش فين؟

رد عمر بنبرة حازمة:

- أنا صاحب الفكرة، وأجرت شقة في نفس المكان اللي هاجر عايشة فيه وبالمناسبة، ده قراري ومش هرجع فيه ومفتكرش إني كنت مهم ليكم أصلاً.

أنهى كلامه، وخرج من المنزل دون أن يأخذ حتى حقيبة ملابسه.

"سوزي" كانت في حالة صدمة أضعفتها، فأسندت جسدها على المقعد. أما "مصطفى" فأطلق ضحكات غيظ، ثم قال بحدة:

- اتبسطي كده! البسي، أهو محمد اللي قولتي محدش بموته سحب منك عيالك الاتنين. قوليلي بقى، استفدنا إيه؟ ولا حاجة! مع إننا كنا ممكن تاخد كل اللي عاوزينه من أخوكي عن طريق محمد... بس لأ! ازاي متخربيش كل حاجة؟ ازاي يهون عليكي تشوفي حد مبسوط أصلاً؟!

كانت هي تمسك برأسها، تعيد خصلاتها إلى الخلف بقوة، والنار تسري في جسدها.

"كنت خايفة على أخويا كنت خايفة ياخدوه مني أنا عارفة إنه هيأذيه خوفت عليه، إزاي يجي حد يشاركني فيه؟ أنا بس اللي لي الحق فيه أنا بس! لكن ولادي هرجعهم، وعادل وحسناء هينتهوا على إيدي أما محمد، ده أنا مش هسيبه إلا لما أشوف الكل بيبعد عنه. هخليه هو بنفسه اللي يموت نفسه من القهر. محدش هيقف جنبه أبدًا.

قال مصطفى بنفاد صبر وهو يشيح بيده:

"يا شيخة اتنيلي! كل شوية تعمليلي فيها الكتعة والساحرة الشريرة، وفي الآخر؟ بيحرق دمك وهو اللي بيضيعك."

تركها وغادر الغرفة، يشعر بالضيق من حديثها، بينما هي كانت غارقة في مشاعرها السوداوية، غير مدركة حجم خسارتها. لم تكن تشعر بشيء... فقط كانت بلا ضمير.

كان يجلس بمفرده كالعادة، غارقًا في أفكاره، يشعر أن حياته قد سُلبت منه. تذكر طفولته المشوهة وكل الآلام التي سكَنت قلبه وجسده. ألقى نظرة على يده، على ذلك الحرق الطويل الذي يمتد عبر ذراعه. مرّت السنوات، لكنه لم يتغير، وكأن الزمن قد تجمّد عنده.

تنهد بعمق، وذهبت أفكاره إلى والدته. كانت هي الشيء الوحيد الذي أبقاه حيًا. لكنه تذكر فجأة أنه لم يرها قبل موتها، لم يودعها كما يستحق أن يودعها.

دلفت "حسناء" إلى الغرفة. شعرت بحزنه. وقفت خلفه واحتضنت رأسه، تمسّد خصلاته بهدوء، وكأنها تحاول طمأنته. لكن اللحظة لم تطل، فقد قطعها صوت الفوضى في الخارج، ليهرعا معًا لاستكشاف ما يجري.

في الخارج، كانت "سوزي" تقف، تذرف دموع التماسيح ببراعة، ثم ألقت بنفسها في عناق "عادل"، متظاهرة بالحزن:

- أنا خسرت ولادي الاتنين، ابنك ومراتك أخدوهم مني، زي ما هيخدوك أرجوك، اقنعهم يرجعوا.

ربت على خصلاتها ولثم جبينها، متسائلًا بقلق:

- إيه اللي حصل؟ فاهميني؟

بدأت تسرد ما حدث، لكنها أضافت بعض الاتهامات إلى "محمد"، محملة إياه المسؤولية. بعد انتهائها، ذهب "عادل" لجلب الماء.

حينها، ابتسمت "سوزي" بخبث، ونظرت إلى "حسناء" قائلة بغضب مكبوت:

- لو كنت فاكرة إنك ممكن تكسبيني أو تاخدي مني ولادي وأخويا، تبقي بتحلمي انسي مهما عملتي.

ردت "حسناء" بهدوء، نظراتها تحمل مزيجًا من الشفقة والاحتقار:

- أنا مش بحاول أكسبك ولا آخد منك حاجة، ده بس في دماغك الغيرة عمياكي، بس ليكي حق، أنا حسناء كل الحُسن حسني، وكل دلال غانية دلالي فكم حسناء تحسدني؟ فاعقوا وارجو أن تصيروا كمثل حالي، وليس حالي فقط في دلالي، بل حالي في حبي وحناني.

كانت الكلمات مقتبسة من أحد الكتب التي قرأتها، لكنها استندت إليها فقط لإثارة غيرة "سوزي".

في تلك اللحظة، دخل "عمر" وبرفقته "محمد". وما إن أبصرتهم "سوزي"، حتى بدأ الحزن المصطنع يطل من ملامحها:

- أهلا! اجتمعتم خلاص؟ بعدت ولادي عني يا محمد؟ عملت اللي في دماغك؟ ليه؟ ليه بس كدد؟ ده أنا كنت بعتبرك زيهم! ليه مصر تبوظ كل حاجة؟

أشار "محمد" إلى نفسه باستغراب مستنكرًا:

- أنا؟! وأنا عملتلك حاجة أصلًا؟ ده إيه جر الشكل ده!

تحدث "عمر"، بعدما لمح "عادل" قادمًا حاملاً كوب الماء:

- ماما، محدش بعدتي، ده قراري أنا وبعدين، هو إنتِ كنتِ مهتمة بوجودي أصلاً؟ سيبيني أجرب يمكن أعوض الفشل اللي عايش فيه، يمكن أشرفك بدل ما دايمًا شايفاني فاشل وما بشرفش، وأنتِ من إمتى اعتبرتي محمد زي ابنك؟ انجحي الأول إنك تكوني أم لينا إحنا، قبل ما تدوري على حد تاني.

نظرت "سوزي" إليه ثم تبادلت النظرات مع الجميع، قبل أن تغادر الغرفة بسرعة، متصنعة البكاء. كانت تعرف أن أي كلمة أخرى قد تكشف الكثير مما تحاول إخفاءه.

تقدم "عمر" نحو "عادل" وقال بثبات:

- ممكن متسألنيش عن أي حاجة من اللي حصلت؟ أنا بس كنت جاي أطلب منك أشتغل معاك، يا خالو.

عقد "عادل" حاجبيه، مستنكرًا:

- ماشي، مش هسألك عن حاجة، بس لو قولت خالو دي تاني، هقتلك بجد أنا كنت صغير لما إنت اتولدت أصلاً، كنت ١٧ سنة فمش ناقصة عصبية ثانياً، شغل إيه اللي جاي تدور عليه؟ إنت كنت بتاخد حقوق في ٨ سنين.

عقب "محمد" مازحًا وهو يرتشف الماء:

- ده لو كان دخل طب كان أسهل له.

انفجرت "حسناء" ضاحكة، بينما حاول "عادل" جاهدًا كتم ضحكاته.

تمتم "عمر" بغضب وهو ينظر إلى "محمد" باشمئزاز:

- دمك يلطش بجد، سم يا أخي.

رد "محمد" بابتسامة ساخرة:

- إذا شتمت أحداً، فليكن صوتك واضحاً. فمن المخجل أن تكون وقحًا وجبانًا في نفس الوقت، يا عموري.

تدخلت "حسناء"، تربت على ذراع "محمد":

-عيب يا محمد،ده أكبر منك احترموا بعض.

تحدث "عمر" ساخرًا:

- يحترمني؟ والله حضرتك طيبة، محمد آخر مرة احترم حد فيها كانت أيام مدير المدرسة في الابتدائي وبعدين ياريت ياخد باله إني أكبر منه بـ١٢ سنة.

قال "محمد" وهو يغادر، يشعل سيجارة:

- والله، الاحترام للمحترم مش للكبير، عمرك ده حطه على كيكة عيد ميلادك.

في الخارج، وقف يتأمل السماء بعد المطر، بينما احتضنته والدته من الخلف. استدار نحوها، ثم مال بجسده ليستقر على موضع قلبها. شدد من ضمته وكأنه يفرغ اشتياقه لعناق طال غيابه، اشتياقه لأمان افتقده بغيابها.

همس بصوت هادئ وهي تمسد خصلات شعره:

- أنا بحبك قوي، وبحترمك جداً، طول عمري كنت بتمني حضن واحد بس بمعجزة، وها هي المعجزة اتحققت، ياريتك كنت معايا من زمان يمكن ما كنتش وصلت للحال ده، أوعديني صورتي ما تتغيرش في عينيك مهما حصل، واعرفي دايماً إن كل قرار أخذته ما كانش باختياري، دايماً كان إجبار مش اختيار. ابنك تعب قوي يا أمي.

شدّت على احتضانه أكثر، وكأنها تريد أن تخبئه داخلها. "أمي" تلك الكلمة التي نطقها لأول مرة، كم تمنت أن تسمعها. تساءلت بداخلها كم عانى من غيابها، وكم كانت حياته لتختلف لو كانت بقربه.

قالت بصوت يغلب عليه الحنان وهي تلثم جبينه:

-ما تخافش يا حبيبي، كله هيبقى تمام، أي حاجة حصلت، عمري ما هلومك عليها أبداً، أنا جمبك على أي حال أنا أمك، وعمري ما هسيبك.

لأو مرة منذ سنوات، شعر بالطمأنينة تسري في عروقه. كان هذا الإحساس بالأمان الذي طال انتظاره.

بعد لحظات، خرج "عمر" بهدوء وصافح "عادل" بلطف بعد أن وعده بإلحاقه بوظيفة عندما رأى إرادته في العمل بجدية.

وفي المطبخ، كانت "حسناء" تعد مشروباً ساخناً لهم. تركته قليلاً ينتظرها، لكنه تفاجأ بذهاب "عادل" إلى العمل، مما جعله يشعر ببعض الارتباك.

تحدث "عادل" متسائلاً عن حال ذراعه:

- إنت ليه بطّلت تروح للدكتور؟ مش قصدي الدكتور اللي حجزتلك عنده ومروحتش، أنا بتكلم على الدكتور التاني.

عقد "محمد" حاجبيه مستنكراً:

- وإنت عرفت منين إني مش بروح ؟

رد "عادل" بهدوء:

- روحت وعرفت مكان الدكتور وسيبت لهم رقمي علشان يطمنوني.

شعر "محمد" بارتباك غريب. إحساس أن هناك من يهتم لأمره كان جديداً عليه. لقد اعتاد الشعور بالوحدة، وحتى لو بدا صلباً كالصخر، كان يشتاق لأن يشعر بالحماية.

قال "محمد" بعد أن ارتشف نفساً من لفافة التبغ التي بين شفتيه:

- شكراً إنك مهتم بس أكيد عرفت إنه بعد ما خلصت العلاج الطبيعي، فاضل خطوة واحدة: جلسة كهرباء، علشان يتأكدوا إذا كان حصلت سكتة دماغية وقتها أو لأ. والحقيقة مش هقدر أعمل الجلسة دي.

تجاهل "عادل" كلامه وأكمل:

- محمد، انت مش محتاج تشكرني إني اهتميت بيك. إنت ابني بطبيعة الحال. أنا وإنت لازم نريح اللي حوالينا، سواء 'هاجر' أو 'حسناء'. لازم نحاول نلاقي حل وسط.

ابتسم "محمد" بسخرية جانبية، وقال:

- إنت تعرفني؟ أنا مين؟

عقد "عادل" حاجبيه مستفسراً:

- إيه السؤال الغريب ده؟ أكيد أعرفك إنت ابني، محمد.

ضحك "محمد" بمرارة:

مش دي الإجابة إنت تظن حقاً إنك تعرفني؟ إنت لا تعرف إلا اسمي ما تعرفش أغنيتي المفضلة، ولا أسباب سهري، ولا حبي لفترة الليل ما تعرفش موعد نومي، ولا اللي يسعدني أو يزعلني ما تعرفش أنا بعمل إيه لما أغضب، ولا تعرف سبب قلقي الدائم. ما تعرفش حتى كم جرح في إيدي إنت ما تعرفش تاريخ نجاحي إنت ما تعرفني.

قاطعه "عادل" بثبات حاول إظهاره، وقال:

- محمد، الموضوع مش كده. ما تكبّرش الأمور. أنا مش بأحاول أعرفك عن قرب دلوقتي، لكن كل اللي بأدور عليه هو حل وسط يريح اللي حوالينا، سواء 'حسناء' أو 'سوزي' أو حتى 'هاجر'.

قاطعه قائلاً بثبات حاول إظهاره رغم أنه كان على وشك الانفجار:

- محمد، الموضوع مش كده ما تكبّرش الأمور، أنا مش باتكلم غير بشكل مؤقت علشان تريح اللي حوالينا. أنا مش عارف أرتاح من يوم ما جيت، وبادور على حل وسط يرضي الكل، سواء 'حسناء' أو 'سوزي' أو حتى 'هاجر'.

نظر إليه محمد بتيه وكأن العالم يتداعى من حوله. شعر بغصّة تملأ قلبه، كأن آخر قطعة دفء داخله تتحطم، يملأها برد قاتل. الكلمات التي يسمعها تجرده من أمانه. تنهد دون قصد، فشعر برائحة الاحتراق تتصاعد من داخله. أراد بشدة أن يبكي أن يتشبث به الآن ويُلقي عليه كل همومه، لكن عقله المتمرد جعله يلتزم الصمت. كان يخوض حرباً داخلية، هو طرفاها... فكيف له أن ينجو؟

قال بصوت يحمل كسرته:

- يعني إنت محتاج ترضيهم وأنا لا؟ عايز ترتاح وتريّحهم على حسابي؟ أنا كمان كنت محتاجك وقتها!

هذه المرة، سمع عادل كلماته بشكل مختلف، شكل جعله يشعر بالاشمئزاز من نفسه. أيمكن أن يكون قد أساء إلى هذا الحد؟ أي أب يكون بهذا السوء؟ قال بصوت خافت:

أنا فعلاً غلطان، بس والله لو كنت مكاني كنت أكيد هتتردد. محمد، أنا في عشرين سنة من عمرك معرفش عنهم حاجة. طيب... احكيلي ليه كل حاجة متلخبطة؟ ليه بتتهربوا من الأسئلة؟ إيه اللي حصل؟

تفاجأ محمد من هدوء رد فعل عادل، لكن السؤال أربكه. كان بحاجة ماسة للحديث، وكأن الهواء الذي يتنفسه يخنقه. قال بصوت يحمل ثقل المعاناة:

كل اللي أقدر أقوله إني مش هقدم خطوة كمان ليك. أنا عشت أسوأ الحاجات اللي ممكن تتخيلها. عملت حاجات بقرف من نفسي لما أفتكرها. كل اللي عاوزك تعرفه إنه مكنش بإرادتي. ولا هقدر أحكيلك.

كلما تحدث، زادت الأفكار السيئة داخل عقل عادل. لم يستطع منع نفسه من نسج خيوط مهلكة حول ما قد يكون حدث لمحمد. قال بعزيمة حاول التمسك بها:

يبقى هاعرف، مهما كان الثمن. هاعرف إيه اللي حصل. وقتها بس هقدر أقف قدامك من غير ما تحسسني إني أناني أو وحش. أنا مقدرتش أكون جمبك كل السنين اللي فاتت، لكن دلوقتي ولا هتراجع، ولا هاسمح إن الفرصة تضيع مني.

صمت محمد للحظة، وكأن كلام عادل أثار بداخله عواصف لا تهدأ. أغمض جفونه بقوة، وتحدث بهدوء يحمل رجاءً خفياً:

- ياريت، ياريت وقتها أنا أو إنت نقدر نقف قدام بعض. أنا كل اللي مريحني ومخليني أتعامل معاك عادي إنك متعرفش أي حاجة. لكن لو عرفت... مش هقدر أبص في عينك. هشوف فيها شفقة أنا مش عاوزها. وهشوف فيها نظرة الظلم اللي انت كنت السبب فيه.

أنهى كلماته، ثم أمسك بحقيبة يده وهو ينهض بهدوء قائلاً:

- أنا لازم أمشي. بلّغ 'حسناء' إني هشوفها بكرة، واعتذر لها عني.

تركه ورحل، لكن الكثير من الأفكار ظلت عالقة في ذهن عادل. كيف انتهى الأمر بهما غريبين لا يتفاهمان؟ كيف تحولت أحلامه بتكوين أسرة سعيدة إلى كابوس؟ حتى حلمه الوحيد، أن يجد في ابنه ما عجز عن تحقيقه، بات مشوهاً بلا معنى.

أما محمد، فقد كان يسير في الطريق دون وجهة محددة. كل شيء حوله يبدو وكأنه يتحداه. استرجع حديث عادل، وتمنى للحظة أن ينهار في حضن والدته، أن يخبرهما بكل شيء، أن يشرح لهما كيف عانى وكيف تمزقت روحه. لكن كعادته... انتصر كبرياؤه مجدداً.

كانت جالسة على عشب الحديقة، تمرر أناملها الرقيقة فوق الأعشاب، بينما تدون آخر ما تبقى من عملها. شعرت بخطواته تقترب منها بهدوء، وعينيه تلتهم تفاصيلها بشغف. اقترب منها بسرعة، ثم احتضنها بقوة، خافضاً رأسه حتى لامس قدميها، محيطاً خصرها بذراعيه كأنما يهرب من العالم بأسره إليها.

كانت هي ملاذه الوحيد، والشخص الوحيد الذي يشعر معه بالراحة.

بدأت تلامس خصلات شعره الفحمية بأناملها، تهمس له بعذوبة:

- مالك يا حبيبي؟

رفع رأسه إليها ونظر في عينيها بعمق. كان يهيم بها عشقاً، فكل ما هو أسود يثيره كليلها وشعرها، وكل ما هو بني يجذبه كالقهوة وعينيها. أجابها بهدوء:

- افتكرت يوم حادثة بابا، وتعبت تاني نفسي أفتكر، يا زينة نفسي.

سألته بهدوء محاولة فهم الأمر:

- يعني ليه مش بتفتكر؟ أقصد وقتها كنت كبير، كان عندك ١٣ سنة، مش صغير.

أغمض عينيه بقوة وكأنه يحاول طرد ذكريات مؤلمة، ثم شدها إليه، يتنهد بصعوبة قبل أن يقول:

- بعد الحادثة، دخلت المستشفى وجالي انهيار عصبي. لما فوقت مكنتش فاكر أي حاجة ولحد دلوقتي مش فاكر غير إني كنت مع 'أمير' أخويا وبابا لكن تفاصيل الحادثة؟ مفيش. اللي فاكره بس إن لولا أمير كان زماني ميت. هو اللي أنقذني وهو دلوقتي اللي بينقذني.

مسّدت على ظهره بحنان، ثم قبّلته قبلة دافئة على جبينه، قائلة:

- أنا كمان حصلي كده بعد موت بابا وماما بس أنا مكنش عندي 'أمير' أخ زيك.

سحبها إليه أكثر، يضمها كمن يبحث عن مأمن في عالم مليء بالخوف. كان مخبأه الوحيد يبدأ من يديها، ويمتد إلى صدرها، وينتهي بين ذراعيها. تمنّى لو يستطيع الاحتفاظ بها إلى الأبد، يمحو معاناتها، ويبدّلها بحب لا ينتهي.

نظرت إليه نظرة مليئة بالحديث والحب، وقالت بصوت يحمل تفاهماً عميقاً:

- طول عمري كنت واثقة إن ربنا هيعوضني بحد زيك بعد كل اللي حصلي. كنت بسأل نفسي: ليه مفيش حد بيشوفني حلوة؟ ليه حتى اللي بيشوفني يقول 'جمال الروح'؟ لحد ما أنت جيت... والدنيا كلها اتغيرت. كنت وحدة مفيش عندها صاحب، ولا أب، ولا أم، ولا أخ، ولا عيلة. لكن دلوقتي عندي إنسان يتجسد فيه الكل... أنت. أخويا، وصاحبي، وأبويا، ومخزن أسراري كلها. كلمة 'بحبك' بقت قليلة... أنا بفهمك، وبحبك، وبحترمك، وحاسة إنك جزء مني.

ابتسم، ورفع يدها إلى شفتيه يقبّلها، ثم ضمها إليه مجدداً قائلاً بحب غلب كلماته:

- أنا مش بحبك وبس، أنا مستعد ميكونش عندي غيرك. بتمنى محدش يراكِ بالطريقة اللي بشوفك بيها،محدش يلتفت لابتسامتك ولا لصوتك اللي بيعالجني. بتمنى الكل يشوفك عادية، بس أنا أشوفك نجاتي. أشوفك فراشتي اللي بحبها. أنا بتمنا أنسى عمري كله... وما انساش اللحظة اللي بعيشها معاكِ. أنا مش بحبك... أنا مغرم بيك يا زينة، يا زينة بنات حواء كلهم.

في تلك اللحظة، بدأت السماء تمطر. نظرت هي إلى الأعلى بسعادة الأطفال، بحيوية وعفوية نادرة لا يمتلكها غيرها. أما هو، فقد احتضنها بقوة، محيطاً جسدها ليحميها من المطر. كان البرد يلسعه، لكنه لم يشعر به... كلما نظر إلى ابتسامتها وإلى ذراعيها الملتفّتين حوله، شعر بدفء يغمره.

انتشلها بين ذراعيه، يستمع إلى ضحكاتها التي أشعلت حماسه، ثم قبّلها تحت المطر. كان يتبلل بالأمطار.. وبالمشاعر السعيدة التي غمرت قلبه.

جلست تُحدّق في مياه النيل التي تتدفق كأنها مشاعرها الآن. الخوف يتغلغل في أعماق روحها وبين ثنايا قلبها، بينما شعور الحب يثير حيرة غريبة: مزيج بين الأمان والخوف، بين الغرام والكراهية.

أزعجتها أصوات المارة من حولها وتأخر "عبد الله" عن موعدهما، فأمسكت بهاتفها، وعيناها التائهتان يملؤهما القلق. قلّبت بين الصور، تلك التي كانت ترسم فيها ابتسامة مزيفة. توقفت عند صورة تجمعها بوالدها "حسن". ورغم كل المعوقات التي حالت بينهما في الفهم المتبادل، لم تستطع إنكار حب هذا الرجل لها ولا حنانه الذي غمرها به دومًا. فلولاه، لكانت انتهت منذ زمن بعيد.

ظهر وجه الحبيب الذي سرق قلبها ولم يعده بعد. احتفظت بصورة له في هاتفها، وكانت تلجأ إليها كلما غلبها الخوف. ما إن وجدتها بين فوضى الصور حتى هدأ قلبها، وتحولت ملامحها من شخص خائف إلى شخص يفيض بالطمأنينة، وكأنها تود أن تقبّل كل تفاصيل وجهه.

جلس "عبد الله" أخيرًا أمامها بابتسامته المعهودة التي تخترق أعماق قلبها. تحدث بهدوء وحب، وملامحه الهادئة ازدانت بابتسامته:

- اتأخرت عليكِ معلش، بس تخيلي أبوكي طلع مش صعب أوي زي ما كنت متوقع.

تبسمت شفتيها بابتسامة خفيفة كشفت عن صف أسنانها اللؤلؤية:

- إنت مسامح يا "عبد الله"؟ إزاي بعد كل اللي حكيت عن أهلك وكل اللي حصل لك بسببهم بتتعامل عادي كده؟!

تنهد بهدوء، وملامحه بدت مترددة وغير راضية:

بصي يا "رزان"، أنا مش هفضل عمري كله أعيش في الانتقام وأدور عليه. أنا دلوقتي مسئول عن "دنانير" بنت أختي، أنا مسئول عن حياتها إنها متعيشش اللي أنا عشته، أنا عاوز أعيش يا "رزان". وبعدين، كل اللي أذاني كان عمك "أنس"، مش أبوكي. بالعكس، أنا حاسس إن أبوكي مظلوم.

ثم أكمل وهو يمسك يدها، يربت عليها بأنامله برفق. كانت ملامحه هادئة لدرجة تخترق القلب:

عارفةمن أول ما اتكلمنا وأنا بحاول أخفي مشاعري. حاولت، وحاولت، لكن في لحظة فشلت. مقدرتش أتقبل فكرة إني مش بحبك. أنا فعلاً بحبك يا "رزان".

كانت عيناها تائهتين في عينيه، كأنهما تبحثان عن إجابة لكل هذا التردد. تلعن قلبها كيف لم تتأكد من حبها رغم كل هذا.

- أنا كمان يا "عبد الله" بحبك أوي بس مش عارفة أعبر وخايفة.

قاطع حديثهما "قاسم"، الذي كانت عيناه تشعلان غضبًا، وملامحه صارمة. أمسك بيدها وسحبها خلفه، ثم قبض على ملابس "عبد الله" الذي قابله ببرود.

تحدث بغضب وهو يلكمه في وجهه:

- الأحلام بتتحقق وإنت نايم، يا "عبد الله"، لكن مستحيل تشوفها في الواقع. خاف على نفسك وعلى بنت أختك، يا عم روميو.

نظر إليه "عبد الله" بغضب مكتوم، وقال بينما يمسح الدم عن وجهه:

- مش هتقدر تأذي حد "دنانير" و"رزان" مش ملكك وهتجوز "رزان"، وانسى إني أتنازل عنها.

سحبها "قاسم" خلفه وترك المكان بينما بقي "عبد الله" واقفًا يلتقط أنفاسه.

في السيارة، جلست بجانبه والغضب يسيطر عليه. فجأة، صرخ فيها، ولكم كتفها وصدرها برفق:

- إنتِ إيه يا شيخة؟! مش بني آدمين إحنا؟ ليه بتعملي كده؟ ليه يا "قاسم"؟! أنا اللي كنت دايمًا جنبك وسندتك، ليه؟!

دموعها انهمرت بغزارة وهي تضع رأسها بين يديها، لكنه سحبها إلى عناق دافئ، يضمها بحنان:

- علشان إنتِ أكتر حد أنا بخاف عليه، إنتِ مش بنت عمي ولا صاحبتي بس، إنتِ أختي وأكتر حد بخاف عليه. "عبد الله" هيأذيكي زي "محمد". دماغهم في الانتقام، لكن مفيش حد فيهم قلبه عليكي.

هدأت شهقاتها وهي تبتعد عنه، لتقول بحزن لا يزال عالقًا في صوتها:

- أنا بحبك يا "قاسم"، وعارفة إنك أخويا، لكن مستحيل أسيب "عبد الله".

ابتسم بهدوء وهو يمسد شعرها:

- تخيلي؟ أنا النهارده بس عرفت إننا إخوات في الرضاعة، ماماتك قالت لبابا لما عرفت بموضوع "عبد الله". بس محدش قالنا، تخيلي؟!

ضحكت بخفة وقالت:

- بجد؟ كنت دايمًا حاسة إن في حاجة بتربطنا يعني حتى لو بالدم، إحنا إخوات فعلاً.

ظل الحديث يدور بينهما بخفة، يحاول كل منهما إقناع الآخر برأيه، مستمتعين بلحظات السعادة النادرة التي سرقت منهم دائما. لكن ما كان ينتظرهم خلف الكواليس... كان أسوأ بكثير.

جلس في زاوية الغرفة ينهي آخر ما تبقى من عمله، لكن صرخات حادة ترددت في أذنه. وضع يده فوق أذنيه، يحاول تهدئة نفسه، واستسلم لتنهد عميق. تذكر تلك الليلة الصراخ الذي مزق السكون واستقر داخله منذ ذلك الحين، كصخب لا يهدأ. ليلاً، يعود ذلك الصوت ليعصف بأفكاره.

خرج من غرفته بحثًا عن لحظة هدوء. التقطت أذنه دندنة عذبة قادمة من الطابق السفلي، صوتها الرقيق كان كالموسيقى ينساب إلى قلبه المثقل. وقف عند زاوية الدرج ينظر إليها، زوجته التي اعتادت أن تمزج العمل بتنظيم المنزل. كانت تغني بانسجام مع ألحان هاتفها:

"قابلت كتير

فرشوا لي عشاني الأرض حرير

وشفت كتير وماشفتش زي حبيبي أمير..."

اقترب منها بخفة، وضع يديه حول خصرها، واحدة تضمها والأخرى تساعدها فيما تفعل. التفتت نحوه، وابتسامة دافئة ترتسم على شفتيها. عيناها تقابلتا بنظرة ملؤها الألفة. أكملت الغناء وهي تنظر في عينيه:

"في البعد عاشقاه، في القرب عاشقاه   زي العسل على قلبي هواه..."

جلسا معًا في زاويتهما الخاصة، تلك الزاوية التي جمعت أحاديثهما منذ زواجهما قبل عامين. كانت دائمًا شاهدًا على مشاورتهم ومناقشاتهم. واصل كلاهما الغناء مع الألحان، ينسجمان وكأنهما في عالم آخر:

"وكبرنا والهوى كبر ولا حد في الدنيا قدر   يفرقنا ولو ليلة..."

ابتسمت له وهي ترتب خصلات شعرها المتناثرة. كلما ابتسمت، شعر وكأن وردة تنبت في صدره. كان يعشق ضحكتها، والأجمل منها تلك الحقول التي تزهر بداخله حين تضحك.

أمسك يدها برفق، وشبك أنامله بأناملها الرقيقة. كانت ملامحه لأول مرة في اليوم هادئة مطمئنة وهو يقول:

- احكيلي يومك، يا روحي، عاوز أسمعك، مش عاوز أنام ولا أفضل ساكت بس عاوز أسمع صوتك.

نظرت إليه بتعجب، ثم ابتسمت بصفاء وهي تمسد شعره قائلة:

- ليه يا حبيبي؟ على العموم، حاضر.

بدأت تسرد له يومها بحماس طفولي، بينما هو يستمع بتركيز وسعادة. كانت ابتسامته تعكس فرحًا حقيقيًا كأنه يشاهد إنجازات طفلته المدللة. لكن فجأة، تلاشت الابتسامة حين قالت بحزن:

- "أمير" أنت مش هتسيبني يوم بسبب موضوع الخلفة، صح؟

نظر إليها بعمق، ثم أجاب بهدوء وهو يضمها بين ذراعيه:

- عمري ما هسيبك أبدًا، دي إرادة ربنا، وأنا مش عاوز حد غيرك. أنت مش بس مراتي أنت بنتي كمان.

تنهدت وهي تُقبل جبينه، ثم أسندت رأسها على صدره قائلة:

- بوعدك أبقى معاك طول عمري، بس أوعدني أنك ما تأذيش نفسك. ولازم نشوف دكتور تاني.

هز رأسه موافقا، ثم رفعها بين ذراعيه، غارقا في ذكرياتهم الجميلة. هي وحدها من أكملت نصفه، وهي حاضره ومستقبله. بعينيها الذهبيتين ووجهها البهي الذي يشبه القمر بين النجوم، كانت كل شيء بالنسبة له.

عند المخاوف، دائما ما يبحث الإنسان عن جدار صلب يستند عليه ليعيده إلى الأمام، وكان هو ذلك الجدار بالنسبة لها، بينما كانت هي الجزء الذي يعيد بناء قلبه المحطم.

جلس بجانبها، ضامًا إياها بذراعه، يربت بلطف على يدها المرتجفة. شعرت بأن ابتسامته المطمئنة قد أنهت كل أوجاع العالم بداخلها.

أسندت جميلة رأسها فوق كتفه الأيسر، حيث ينبض قلبه، وقالت بصوت يحمل مزيجًا من الألم والامتنان:

- عارف كل الوجع اللي كان بيجري في جسمي كل مرة حاولت أبطل فيها؟ كنت بفتكرك. الموضوع مكنش سهل، بس وجودك كان بيهون عليا كل ده.

ضمها إليه بقوة أكبر، يتنفس عبير خصلاتها بهدوء، وقال بصوت يفيض حبًا:

أنا آسف بالنيابة عن كل كلمة زعلتك، عن كل لحظة كنت فيها لوحدك من غيري، عن كل ليلة مكنتش موجود جنبك. أنا آسف عن كل دقيقة وجعتي فيها. نفسي أشيل عنك كل ألم، أمحي كل لحظة تعب عشتيها. أنا بحب حياتي علشانك أنت فيها.

رفعت رأسها لتحدق في وجهه وعينيه العميقتين، مصدر قوتها. احتضنها بحنان، ثم لثم وجنتيها بحب. تمالكت نفسها بصعوبة، ومالت نحو أذنه تهمس بخجل مصطنع:

- أحمد ها بوسك بس متقولش لحد، ماشي؟ أصل أنا من زمان نفسي أعمل كده.

قبلت عنقه بحركة خجولة، إذ لم تصل إلى وجهه. فضحك وهو يحاول كتم مرح طفولي خرج من بين شفتيه:

- بعشق وقاحتك، بجد.

ثم أضاف وهو يقبل وجنتيها من جديد:

- كنت دايمًا أتمنى أعانقك، أشيل عنك أوجاعك ومخاوفك. كنت نفسي أمسح على شعرك وأقولك: أنا هنا، وكل حاجة هتعدي. دلوقتي أنا هنا، وهعمل كل اللي تمنيت أعمله من سنين.

في مكان آخر، كانت هاجر مستلقية على سريرها، تستعد للنوم بعد أن رحل الجميع. أمسكت بهاتفها، مترددة في مراسلة محمد بسبب تأخر الوقت. لكنها ابتسمت بدهشة عندما وجدت رسالة منه في اللحظة نفسها:

- نامت ولا لسه؟

ردت عليه بسرعة وهي تبتسم:

- لا، لسه مش حاسة إني عاوزة أنام.

وصلها رده المختصر:

- احكيلي يومك بقى.

بدأت تسرد تفاصيل يومها كما اعتادوا كل ليلة منذ أكثر من سبعة أشهر. كانت هذه المحادثات جزءاً من يومها، تحمل تفاصيلهم الصغيرة، أفراحهم وأحزانهم، بلا أسرار مخفية أو مساحات غامضة. كانت تُحب هذه العادة، لأنها تشعرها بأنها عادت إلى منزلها الآمن، حيث تجد السكينة والضحكات.

في المقابل، شاركها هو تفاصيل يومه، بما في ذلك لقاءه بعادل وما شعر به حينها. كانت الكلمات تتدفق بينهما دون خوف أو حرج، كما لو أن كلاً منهما صفحة بيضاء للآخر.

شعرت بسعادة غامرة، لا توصف. كان من النادر أن تجد قلبًا تستطيع إيقاظه في الثالثة صباحًا لتشاركه أفكارك دون تردد، أو شخصًا يحتضن طيفك طوال الليل. كان اهتمامه بتفاصيلها الصغيرة يجعلها تبتسم، وكلماته كانت تلامس قلبها بطريقة لم يفعلها أحد قبله.

نظرت إلى رسالة وصلتها منه للتو:

- تعرفي؟ عمري ما خليت حد يوصل للنقطة دي في قلبي. محدش عرف مخاوفي غيرك. كل يوم عاوز أقولك بحبك، كل لحظة محتاج أأكدلك إنك أهم حاجة في حياتي. أنت حياتي كلها.

اجتاحها شعور غريب؛ مزيج من السكينة والحب. لم يكن شخصًا عاديًا بالنسبة لها، بل كان السلام الذي طالما بحثت عنه. هو الذي استطاع أن يغير ما عجز الجميع عن تغييره. هو من سرق قلبها وتوغل إلى أعماق روحها. كانت ابتسامته تعيد الحياة إلى داخلها، وتجعلها تشعر بأن العالم مكان آمن مادام هو فيه.

أرسلت له مقطعًا صوتيًا، همست فيه بصوت مفعم بالحب:

- كل يوم بتزيد في قلبي، عمري ما حبيت حد زيك. أنت كل الناس بالنسبة لي، عملت كل الأدوار في حياتي، من أول الأب، والأخ، والصاحب، لحد الحبيب، والزوج، والأبناء، أنا مش عارفة كنت هعيش إزاي من غيرك.

تواصلت أحاديثهما بعمق أكبر، وتوغلا في تفاصيل يومهما وأحلامهما. مازال القلب ينبض حيًا لأجلها، ومازال هو يكتب لها بلا خوف، ليبقى ونس الروح في الحضور والغياب.

أسدل الصباح ستائر الشمس التي أضاءت الأحياء مجددًا، تقاوم ظلمة الليل في حرب أزلية لا تهدأ. الطيور غردت، والأزهار استعادت الحياة من جديد، تبعث في المكان نفحة من الأمل المتجدد.

كانت رحاب تقف وسط حديقتها، تعيد ترتيب أقفاص الزهور والطيور التي تملأ المكان، متفانية في عملها. أنهت ترتيب بعضها، ثم أشعلت المذياع بأحد الأنغام التراثية، لترافقها الموسيقى في خلوتها.

على الجانب الآخر من الزجاج، كان حسام يتأمل المكان بعينيه الزيتونيتين. استوقفه جمال التفاصيل الصغيرة، وحين وجد باقة ورد لفتت انتباهه، دخل إلى المتجر وتحدث قائلاً:

- لو سمحتِ يا أستاذة رحاب، ممكن أخد البوكيه ده والاتنين اللي هناك؟

ابتسمت له بود وهي تسارع لتجلب ما طلب:

- أكيد! معلش المكان مكركب شوية، العمال لسه هييجوا ياخدوا الحاجات اللي بره للديكور بتاع عرض الأزياء بتاع هاجر.

أجابها بابتسامة هادئة وهو يناولها النقود:

- لا، ولا يهمك. المكان جميل جدًا ما شاء الله، وأعتقد إنه مفيش زيه كتير في مصر.

ردت عليه بسعادة ظاهرة لمدحه لمكانها:

- فعلاً المكان ده غالي جدًا عندي. كمان جواه مكتبة صغيرة بحب لما الولاد يزورونا ويقعدوا يقروا فيها.

تركها بعد أن ألقى التحية، متوجهًا إلى ذلك المكان الذي لم يرغب يومًا في القدوم إليه، ولكنه كُتب عليه أن يعود إليه مرارًا. وقف أمام القبر الذي ضم والدته ووالده وشقيقته.

رغم الصلابة التي حاول أن يتحلى بها، خذلته دموعه. سقط على ركبتيه أمام القبر، ممسكًا رأسه بتعب ووهن. قال بصوت مرتعش، يحاول مسح دموعه التي تساقطت رغمًا عنه:

- وحشتوني مش قادر أبطل أفكر فيكم، نفسي أشوفكم، نفسي أحضنكم، نفسي أتكلم معاكم وأسمع صوتكم. أنا محتاجكم أوي.

بينما كان غارقًا في ألمه، سمع صوت شهقات نسائية قريبة. ذهب خلف الصوت، ليجد امرأة تبكي بجوار أحد القبور. حين اقترب ليتحدث، تفاجأ بأنها رحاب.

كانت تمسح دموعها وهي تقول:

- أنا آسفة شكلي أزعجتك بعياطي.

أجابها بعبث وهو يطلق تعليقًا عفويًا دون تفكير:

- أزعجتيني أنا بس؟ يا شيخة ده الميتين كانوا على وشك يخرجوا من القبور بسبب صوتك!

مطت شفتيها بحرج، وأشاحت بوجهها بعيدًا وهي تعيد ترتيب حجابها الأسود:

- معلش، أصلي افتكرت بابا وأنا عند ماما هنا، فجيت أزورهم هما الاتنين.

رد عليها بهدوء:

- الله يرحمهم هو بابا لسه متوفي قريب؟

هزّت رأسها نافية وهي تنظر للقبر:

- لا، بابا مات وأنا عندي سنة، يعني من حوالي ٢٨ سنة. بس افتكرت إني بقالي كتير معيطش عليه.

كتم ضحكاته بصعوبة، لكن حديثها التالي أربكه تمامًا. سألته بغباء واضح:

- انت كنت جاي هنا ليه؟

رد عليها بتذمر:

- جاي الملاهي! هكون جاي فين يعني؟ جاي أزور أهلي طبعًا.

ابتسمت بتفاهم وأومأت برأسها:

- آه، الله يرحمهم. تعيش وتفتكر. لحظة... أنت جبت الورد بتاعي لأهلك الميتين؟ وجيبتلهم ورد أحمر كمان؟!

أغمض عينيه بإحباط، وأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يجيب:

- يا أستاذة رحاب، أنت ليه متعمدة تضيقيني؟ آه، جبتلهم الورد، وملحقتش حتى أتكلم معاهم بسببك.

نظرت إليه بأسف وقالت وهي تضع يدها أمامها كعلامة اعتذار:

- أنا آسفة... المرة الجاية الورد عليا، إن شاء الله.

همست مكملة حديثها بخوف وهي تخفض رأسها نحوه:

- بس بلاش حوار تتكلم معاهم ده. أحسن هنا في عفاريت، اللهم احفظنا. يلا بينا قبل ما تتلبس!

تنفس بعمق، مرهقًا من عبثها، وأشار لها بالخروج من المكان فورًا قبل أن يفقد وعيه من تصرفاتها.

بينما كانت رزان تدلف إلى المنزل بهدوء، وجدت والدها يسرع نحوها مهرولاً، يضمها بقوة ويمسد على رأسها. شعرت بأنفاسه المتقطعة وارتعاش يديه. رفعت وجهها إليه متسائلة بخوف وهي ترى الشرطة تملأ المكان، وخطواتهم المتسارعة تزيد من توغل الرعب داخلها.

تحدثت بصوت مهتز، بينما الدموع بدأت تتشكل في عينيها، وكأنها تستجدي إجابة تنفي كل مخاوفها:

- بابا في إيه؟ الناس دي هنا ليه؟ قولي إن اللي في دماغي غلط ماما فين؟!

ابتلع والدها غصة تخنق حنجرته، ضامًا إياها بقوة، وكأنه يحاول منعها من الانهيار. انحنى قليلاً وهمس بصوت متهدج يكاد ينهار معه:

- ماتت يا رزان ماما ماتت. أمك اتقتلت.

تجمدت الكلمات في حلقها، شعرت بأن الأرض قد انشقت تحت قدميها. اختفى كل شيء من حولها: أصوات الشرطة، حركاتهم، وحتى العالم كله... لم تعد ترى أو تسمع شيئًا سوى صدى كلماته المؤلمة.

ما يمكن لعقلك أن ينسجه من أسوأ السيناريوهات لمستقبلك.

لن يكون أبدا أكثر قسوة من قدر يلاحقك في لحظات الفراق.

هناك أسرار وخفايا داخل كل شخص، لا يمكن لأحد تخيلها أو الوصول إلى أعماقها. تظل تلك الأسرار قابعة في أركان

مظلمة من الذكريات السيئة، مكبلة بالندوب، محكوم عليها بالبقاء في قلوبنا حتى لحظة موتنا.

كانت حسناء تتحدث بغضب، عيناها ممتلئتان بالعتاب وهي تصرخ:

- إنت أناني ومبتحسش! ده ابنك يا أخي ابنك!

رد عليها عادل بحدة، مستهزئًا بحديثها، وصوته يرتفع مع كل كلمة:

- وأنا قلت إنه ابن أخويا؟! عارف إنه ابني! وعارف إن من حقي، ولو للحظة، أعيش مرتاح!

تقدمت نحوه بخطوات غاضبة، وصوتها يمتلئ بالاشمئزاز:

- مرتاح؟! مرتاح على حسابه؟! إنت بجد بتسمع نفسك؟ عايز تريح نفسك وترضينا على حسابه؟ طيب هو... مين يرضيه؟ إنت بتكرهه يا عادل! عمر ما كان في قلبك حاجة ليه! كل حاجة بتعملها علشانك، علشان نفسك وبس!

فقد أعصابه تمامًا، وغضبه تجاوز حدود السيطرة، حتى نطق بما لم يكن ينوي الإفصاح عنه أبدًا. صرخ بصوت عالٍ:

- أنا أناني؟! أنا بكرهه؟! أنا اللي ضحيت بكل حاجة! أنا اللي قومت علشانا! كنت بحلم يكون ليا عيلة... بحلم تحبوني! ابني ده اللي إنت شايفة إني بكرهه، هو اللي ماشي باسم واحد تاني، علشان ما يبقاش ابني! فاهمة؟ أنا... أنا قتلت أبويا علشانه! قتلت أبويا!

تجمدت حسناء مكانها، عيناها مفتوحتان بصدمة لم تستطع استيعابها. كل حرف خرج من فمه كان أشد وقعًا من ضربات متتالية على قلبها. أما هو، فقد شعر وكأن الكلمات التي أطلقها لتوه قد ارتدت إليه، تمزق روحه وتكشفها أمامه.

لكن الماضي لا يتركنا أبدًا، فهو دائمًا يزحف إلينا، يسحب معه أثقاله وأكاذيبه، ليزيح الستار عن حقائق حاولنا دفنها.

إنها أجزاءمن الماضي... تعود فقط لتكشف العراء الكامل لحقيقتنا.

البارت الثامن و العشرون

"لم ينتهي الماضي"

بعض الأسرار عند كشفها يموت القلب عاريا
تلك الحقائق التي كنت تخفيها حتى عن نفسك،

في تلك البقعة المظلمة داخل قلبك، عادت إلى النور مرة أخرى.

كانت تنتظر أي رد منه، أن يصحح ما قاله، أن يخبرها بأنها مخطئة في الحديث، لكن صمته جعلها تائهة، لا تفهم ما يحدث. اقتربت منه وصاحت بوجهه، بخوف غلفه الغضب، وهي تدير وجهه إليها:

ـ إيه سكت ليه؟! أنت بتهزر، صح؟ رد عليا!

أنت قتلت أبوك؟! قتلته إزاي؟ لا، لا، أكيد بتحاول ترضيني! أكيد بتقول أي كلام علشان لا قتلته؟! إزاي؟ رد عليا حصل إيه؟!

كان كل ما يشعر به الآن هو الألم، ذاك الألم الذي لم يلمسه منذ سنوات. شعر به الآن بوضوح كالسيف، وكأن الزمن أزاح الغبار عن جرحه القديم. وفي تلك اللحظة، خالجته فكرة واحدة:

"كيف لعدم الشعور بالألم أن يكون مؤلما إلى هذا الحد؟"

لا، لم يكن هناك ندم داخله. ولا حتى ذرة. بل فقط فراغ قاتل. تحدّث بصوتٍ هادئ قاتم، وكأن كلماته توابيت تُشيع نفسها إلى مثواها الأخير:

ـ آه، قتلته، قتلته زي ما قتلني مليون مرة.تعرفي إيه أنتِ عن طفل صغير يتحرم من أمه اللي عايشة معاه في نفس البيت؟ مش مسموح ليك تعيط؟ علشان أنت راجل، حتى أصحاب ما ينفعش يكون ليك، لأن أبوك هو اللي عارف الصح؟! أبوك اللي من حقه يضربك عادي، من حقه يحرمك من حب عمرك ويجوزك واحدة تانية، من حقه يحسّسك إنك فاشل ومالكش أي قيمة.أنا اتحرمت حتى من إني أشوف أمي قبل ما تتدفن.قتلته ما حسّتش بأي حاجة وأنا بقتله. وأنا بقتله كنت بشوف كل لحظة تعبت فيها بسببه. ما كنتش بشوفه.

سحبت يدها من يده بخوف، وابتعدت، تصيح بغضب وصدمة:

ـ عادي كده بتقول قتلتُه عادي!؟ انت مين؟! رد عليا!

أنت مش عادل اللي حبيته من عشرين سنة!

مش الراجل اللي تمنّيت أكون معاه وآمنت بيه. لا، مستحيل تكون أنت... انت مين؟!

بينما كانت ملامح الصدمة تكسو وجهها، أكمل هو حديثه بنفس البرود الذي كان يكسو قلبه. قلبه الذي تحوّل إلى قطعة جليد، تماماً كما شعرت بكفه البارد حين كان متشابكاً مع يدها.

أجابها بصوتٍ جهوري، وهو يحطم كلماتها عرض الحائط:

ـ أنا مين؟! أنا نفسي ماعرفش أنا مين.

مستغربة ليه إني قتلته؟ طيب تعرفي أنا قتلته ليه؟

بعد ما اتطلقنا جه عندي البيت وأخد محمد مني.

بدأ يسرد لها ما حدث، بينما عقلها يعيد نسج الذكريات كأنها شريط حي يتحرك أمامها، واقع ينبعث من رماد الماضي.

كان يجلس شارداً أمام هذا الصغير الذي كان يشبهه إلى حدٍّ كبير؛ زوج من العينين الرماديتين وتلك الخصلات البنية المبعثرة حتى قسمات الوجه وتفاحة آدم البارزة كانت تُشبهه. لكنه كان يتمنى أن يشبهه في كل شيء، عدا شخصيته وماضيه.

قرب يده المرتجفة إلى وجه الصغير، يتفحص ملامحه بأنامله. أغمض عينيه وهو يحمله، بينما كان الصغير صامتًا جدًا، ينظر إلى العالم بانبهار. شعر بقشعريرة تسري في جسده حين وضع الصغير كفه فوق وجهه، وكأنه يستكشف هذا الوجه الكبير. فجأةً، انكسر الصمت بصوت تحطم قادم من الخارج.

ترك الصغير الذي بدأ بالبكاء وهرع للخارج. ما إن خطا أولى خطواته، حتى وجد رجلاً ضخم الجسد يقيد حركته. نظر إلى الأقدام التي ظهرت في مرمى رؤيته وهو ملقى على الأرض. لم يكن بحاجة إلى وقت طويل ليتعرف على تلك الأرجل، فرفع رأسه ليرى أكثر الملامح التي بغضها في حياته. لم يشعر بشيء سوى صفعة قوية ارتطمت بوجهه.

تحدث الآخر بقسوة وصوت غليظ، كغلظة قلبه:

- فاكر نفسك هتهرب مني؟! كل مرة بتثبتلي إنك غبي. غبي يا "عادل".

لم يشعر عادل بكلماته إلا بكلمة واحدة خرجت من بين شفتيه، تحمل كل آلام قلبه، سؤال واحد:

- ليه؟ ليه محبتنيش؟ ليه دايمًا شايفني غبي وفاشل؟ ليه ربيتني كده؟ ليه؟!

جثا على ركبتيه، خاضعًا بحمل جسده بالكامل، ليرد الآخر ببرود وهو يعلل قسوته:

- علشان انت غبي، بتفكرني بعمك اللي راح اتجوز رقاصة، أنا اتربيت كده، وأبوي اتربى كده، وجدودنا كلهم اتربوا، لكن انت وعمك ورثتوا الغباء والطيش، ابن عمك ده طلع أحسن منك، سابك وجالي وابنك اللي جوا ده برضه هيسيبك ويشوف حد غيرك، وأنا مش هستنى لما يطلع زيك، هاخده منك، وعلى الله يعوضني عن الخيبة اللي شفتها فيك.

رفع عادل رأسه بحزم، وهو يتحدث بتحدٍ، ونبرة ملؤها الغضب:

- سيب ابني، مش هتاخده، مش هسمحلك قسمًا بالله لو خدته، لقتلك. والله لقتلك يا "يزيد".

قهقه يزيد بسخرية وأشار إلى حراسه:

- سكّتوه.

تقدم الحراس وبدأوا في توجيه اللكمات إلى عادل بشكل عشوائي ووحشي.

بعد مرور عشرة أشهر...

دلف عادل إلى المنزل الذي مقته بشدة، رغم أنه أمضى فيه طفولته وشبابه. كان المنزل يحمل له كل مشاعر البغض والكراهية، لكنه عاد إليه الآن كشخص آخر، تخلى عن أحلامه وقلبه، وأصبح شيئًا ممسوخًا.

دخل ومعه بعض الرجال الذين أنهوا حياة أربعة من الحراس في الخارج، صاح بصوت جهوري، محمل بالغضب:

- يا "يزيد"، انزل! ولا خايف؟!

جاءه الرد سريعًا، من أكثر الأصوات التي يبغضها:

- إيه اللي جابك يا "عادل"؟! هواك جابك تيجي تضرب وتمشي؟!

رد عادل ببرود:

- لا، الحقيقة معنديش وقت أضيعه، أنا جاي أخد ابني وأمشي بهدوء تام.

قهقه يزيد بسخرية وهو يحمل الطفل بين يديه:

- على جثتي الكلام ده، بطل عبط واختفي من وشي بدل ما أزعلك تاني.

رفع عادل السلاح في وجهه بلا تردد، وتحدث بكراهية وغضب:

- قولتلك ، هقتلك لو خدته، لو خايف على روحك، سيب الواد.

رفع يزيد سلاحه بدوره، وقال بتهكم:

- مش هتقدر، اضغط على الزناد، خليك راجل مرة واحدة، لكن بردوا مش هتقدر، علشان انت غبي وضعيف.

ترددت كلمات يزيد في مسامع عادل،

مستحضرة ذكريات مؤلمة:

كان صغيراً، يجلس بعد أن أعطى والده شهادة درجاته، ليجد الأخير يوبخه قائلًا:

- وفرحان أوي يا فاشل! عمرك ما هتعرف تفلح.

حاول الدفاع عن نفسه قائلًا:

- أنا مش فاشل درجاتي أعلى من كل اللي في الفصل.

قاطعه والده بصفعة قوية، تلاها لكمات متتالية، وانتهت بحبسه في غرفة مظلمة ليومين.

عاد عادل من ذكرياته إلى واقعه، ونظر إلى يزيد. تقدم نحوه بخطوات ثابتة وهو يقول:

- اعمل حاجة واحدة تخليني أفتكرك بالخير، سيبني أخد ابني وأمشي.

رد يزيد بإطلاق النار على يد عادل، فأصاب ذراعه الأيسر. سقطت الدماء على الأرض بينما كان الرضيع يبكي بصراخ عالٍ. لم يتردد عادل للحظة، ضغط على الزناد، فأصاب يزيد برصاصة قاتلة.

اقترب عادل من يزيد الذي كان يحتضر، وأمسك طفله. تحدث برجاء:

- قولي إنك حبتني ولو لمرة واحدة، لو قلتها، هسيبلك محمد وهعمل اللي انت عاوزه.

نظر إليه يزيد بضعف، وكانت كلماته الأخيرة:

- عمري ما حبيتك. انت غلطة الشاطر اللي بمليون.

"عودة"

ما إن أنهى حديثه، حتى ألقى بجسده داخل حضنها، كأنه يبحث عن مأوى يقيه برد الذكريات. لم تجد حلاً سوى أن تضمه إليها بقوة، حتى شعرت وكأن ضلعها يكاد يتحطم تحت وطأة ألمه.

لكنه لم يبكِ، لم يصرخ، بل ظل صامتًا، أشبه بالموتى. رفع رأسه من حضنها أخيراً، وتحدث بصوت متحشرج، يحمل وجعًا ما زال حيًا داخله رغم مرور السنين:

- مكنتش نفسي أعمل كده، مكنتش نفسي أبقى قاتل.

ربتت على ظهره بيدها المرتجفة، كأنها تحاول تهدئته. لم تكن تعرف ما عليها فعله، لكنها شعرت بالعطف عليه، وربما بالحب، رغم كل خطاياه. همست له بصوت منخفض:

- بس محمد مالوش ذنب، انت معملتش كده علشانه.

تنهد بعمق، وكأن هذا الزفير كان محاولة يائسة لمحو الذكريات من صدره، ليملأه بهواء جديد. أجابها بعد لحظة صمت:

- أنا كنت بنقذه... كنت بحاول أحمي آخر حاجة ليا، بس معرفتش،أنا مش عارف أحبه ومش عايز،آخر مرة حبيت حد قتلته.

ارتسمت على وجهها ملامح الدهشة، مختلطة بالإنكار. شعرت وكأنها لا تفهمه، أو ربما كانت تتظاهر بعدم الفهم، لتقنع نفسها بأن هذا كله مجرد كابوس. ردت عليه بحدة:

- ده ابنك! مش عارف تحبه إزاي؟!، دي مش فكرة إنك مش عارف انت مش عايز تحبه، انت مش بتحب غير نفسك يا عادل!

ابتسم بهدوء غريب، لكن كلماته جاءت كالسهام، حادة وقاسية:

- أيوة مش بحبه مستغربة ليه؟ آه، هو ابني ومش بحبه. طيب ما أنا كنت ابنه ومحبتنيش؟!

آه، بحب نفسي ومستعد أعمل أي حاجة علشان أحب نفسي، لأني أصلاً ما لقيتش حد يحبني، كمان مستخسرة إني أحبني؟!

ابتسمت هي الأخرى، بسخرية مُرة، وهمست بصوت جانبي كأنها تسخر من منطقه:

- آه، قول إنك بتحاول تقنع نفسك إن أي أب عادي ممكن ما يحبش ابنه، بس هو مش عادي، إنتو بس عيلة زبالة!، وبعدين يا حكيم عصرك، عارف معني كرهك لمحمد هيبقى إيه؟،إنه هو كمان هيكرهك زي ما انت كرهت أبوك.

أجابها بهدوء، وكأن كلماتها لم تزعجه إطلاقًا، بل ربما عززت قناعاته:

- طيب ما هو أصلاً بيكرهني وأنا عارف إنه يكرهني،

وصدقيني أنا مبسوط!عارفة ليه؟ لأن محدش حبني وسلم من الأذى،أنا عاوزه يكرهني يمكن ينجو،

أنا زي اللعنة، مفيش حد بحبه بيسلم، ولا حتى اللي بيحبني.

قال كلماته الأخيرة بثقل يشبه الجبال التي انهارت فوق صدره. لم يكن بارعًا في إظهار حزنه، لكنه كان كافيًا ليخترق صمتها. ثم استدار فجأة، كأنه يهرب، لكنه لم يكن يهرب منها… كان يحاول الهرب من ذكرياته، من جحيمه الداخلي الذي لم يتركه يومًا.

وقف خارج المكان، وسط الهواء البارد، يحاول أن يمحو هذا الدنس العالق بقلبه. لكنه أدرك الحقيقة المُرة:

هو الآن غريب، غريبٌ مجددًا، لا سبيل له إلى وطنه.

ولا طاقة له على استيطان غيره.

عاد غريبًا، أو ربما مخذولًا. لم يكن الدار داره، ولا المكان مكانه.

لم ينتمِ إلى هنا يومًا.

كان كاذبًا… يبتسم طوال اليوم، ويحاول ترميم الحطام بداخله.

لكنه الآن يكتب… يكتب لتلك الذكرى التي كانت السبب الوحيد لبقائه حيًا.

كانت هذه الذكرى هي التي علمته كيف يروض كلماته، كيف ينسجها مجددًا، لكنها أيضًا… هي التي علمته معنى الفقد الذي لا يُشفى منه أبدًا."

أحيانا تجد نفسك تائها بين الأشياء، تكاد تصاب بالجنون وأنت تصارع اللاشيء. ولو كان شيئا، لكنت قد هزمته.
لكنه اللاشيء، الماضي الذي لا ينتهي، يلحقك في كل مكان وكأنه قدر أو دائرة تعيد نفسها، مشكل متتال يبدو وكأنه دائرة الخطأ.

دلف بهدوء يتناقض تمامًا مع مظهره المبعثر.

كانت خصلاته البنية الكثيفة مقسومة إلى جزأين، تنسدل على جبينه، وتلك اللحية البنية النامية تزيد من ملامحه خشونة. عيناه الرماديتان، اللتان نادرًا ما تجد مثلهما في الشرق، كانت تحمل هالة غامضة، بينما يرتدي قميصًا رماديًا تحت سترة سوداء وسروالًا من الجينز الأسود.

من النظرة الأولى، قد تظن أنه شخص عنيف وجاد، ولكن دعني ألقي بوجهة نظرك تلك عرض الحائط. فأنت، وأنا، لو ظللنا سنوات نحاول فهم تلك الشخصية، لن ننجح.

جلس منتظرًا قدوم ذلك الذي طلب مقابلته، ولم يكن سوى "يحيى"، ذلك الطبيب اللعين مجددًا.

بادر "يحيى" بالحديث، غاضبًا ومنفعلًا:

- يا روح ما بعدك روح! أنا جبتك هنا علشان حل من اتنين: يا ترجعلي مراتي وتخرجني من هنا، يا اللي هعمله مش هيعجبك.

رد عليه ببرود ووقاحة، دون أن يعقب على حديثه:

- عند الست الولادة الكلام ده عند ماما؟ أخرجك ليه وهو حد قالك إني حاوي ولا ده سجن اللي خلفوني؟!

تركه وبدأ بالخروج، لكنه توقف في مكانه كالصنم عندما سمع حديث الآخر، الذي بدا جادًا رغم نبرته الساخرة وملامحه الممتعضة:

ـ وتفتكر بقى لو سمعت كلام "عدنان" ووفقته وفضحتك، وبلغت عنك إنك منتحل شخصية وبتلفق قضايا؟! لا، ومش كده وبس، ده أنت مطلوب القبض عليك في تركيا، وهربان من السفارة، وبتشتغل مع أكبر مافيا في إسطنبول. إيه اللي هيحصل؟!

عاد للخلف بخطوات مهزوزة، ولم يشعر بنفسه إلا وهو ممسك بعنق الأخير، يضغط عليه بقوة حتى كاد يختنق.

همس، دون وعي، والغضب يجتاحه بالكامل:

- مش هتقدر تعمل حاجة! محدش هيقدر يأذيني تاني، سامع؟!

ترك عنقه، بينما الآخر يلهث محاولًا التقاط أنفاسه. شعر للحظة بكمية العذاب الذي وضع فيه هذا المسكين خلال الجلسات الكهربائية والموت المكتوم الذي عاشه.

تحدث الآخر بهدوء، محاولًا التحكم في أعصابه:

- فيه حل واحد: تقتل "أنس". أنت باقي عليه ليه؟ لو مات، هتاخد حقك، و"عدنان" هيخلصك من كل الورق اللي معاهم ضدك. صدقني، معندكش حل تاني، وهي مش أول مرة تقتل فيها.

ردّ الأخير، محاولًا السيطرة على أعصابه بكل الطرق، يشعر بالدنس والإثم وكأن حقيقته العارية باتت مكشوفة للجميع:

- علشان مش أول مرة أقتل فيها، عمري ما قتلت برضاي! كنت مغصوب، قتلت علشان كان هيقبضوا عليّ، علشان السلاح كان على دماغي، يا قاتل يا مقتول، حتى المرض اللي خنقته، مكنش قصدي، أنا بس كنت بحسسه باللي كنت بحسه أنا مش هقتل تاني! سمعني؟ مش هقتل!

لم يستطع سماع كلمة أخرى. رأى الضباب يتلاشى أمامه، وتبدأ مشاهد من ماضيه تظهر مجددًا، ينسجها عقله كأنها حقيقة.

لم يكن يشعر بالوقت أو المكان، كان تائهًا، لا يدري كيف تسير حياته، أو ما الثمن الذي يدفعه، وما الذنب الذي ارتكبه ليحدث له كل هذا.

أفاق على صوت "حسام" الذي نكزه بخفة على ذراعه، متسائلًا بصوت قلق:

- إيه اللي حصل يا بني؟ أنت كويس؟!

أجابه، محاولًا استنشاق الهواء، يشعر بالاختناق وكأن رائحة الدخان المنبعث من قلبه المحترق تغمره:

- مصيبة تانية كالعادة. "عدنان" وصل لـ"يحيى" وبيهددني.

بدأ بسرد ما حدث بالكامل، بينما بدا الخوف واضحًا على وجه "حسام"، الذي ربَت على يده بهدوء، وكأنه يشعر بما يجول في خاطره.

استكمل حديثه بصوت هادئ؛ كان يقتل قلبه ببطء:

- الظاهر إني مهما حاولت أستر اللي عملته، مكتوبلي أتفضح يا "حسام".

جاء الرد من "محمود"، أمين الشرطة الذي كان يحمل صينية طعام، متمتمًا بنبرة مطمئنة:

- هتتحل يا بشمهندس، إن شاء الله، قول يا رب.

رفع حاجبيه بتعجب، وأجابه:

- يا رب يا "محمود"! هو أنا ملاحظ إن الموقف ده حصل قبل كده عشر، عشرين مرة مثلًا؟ أجي أحكي مشاكلي، وإنت تكون ماسك الصينية دي وبتقول نفس الكلام! ده "ديجافو"، صح؟

نظر إليه "محمود" و"حسام" بعدم فهم، بينما تمتم بهدوء، يسحب شطيرة من الصينية:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، أنا أستاهل ألف جزمة علشان بلجأ ليكم. يا رب، احفظ البرج اللي فاضل من عقلي!

وجد أمامه، دون أي سابق إنذار، "لؤي"، الذي نظر إليه نظرات ذات خبث، تعكس حديثه المتلاعب:

- إنت على طول هنا كده؟!

أجابه ببرود، وهو يرفع كتفيه بلا مبالاة:

- آه، بحب الفيو بتاع القسم عندكم.

تركه، بينما التفت الآخر إليه مستهزئًا، قائلاً بتوعد:

- إن شاء الله على إيدي، هعملك إقامة كاملة عندنا في القسم.

قهقه بسخرية وهو يلتفت إليه مجددًا:

- خليها وعد لو وعد، أوعدك أنا كمان بأحلى "٢٥" سنة في أبو زعبل.

مرت مدة لم تكن طويلة، ولكنها كانت كافية ليسترجع خلالها ذكريات سنواته الثلاثة والعشرين. صعد إلى عيادة "نبيل"، ذلك الملجأ الذي يلجأ إليه كلما شعر بأن كل شيء قد انتهى. لم يكن يأتي لأنه يحتاج للعلاج أو الدواء، بل لأنه يريد أن يستشعر وجود "نوح" بجانبه. نعم، كل تلك التفاصيل التي علمها له، كان يشعر بها في وقتها .

دلف وجلس دون أي استئذان، بينما كان "نبيل" يضع يده أسفل فكه، يراقب هذا الذي جلس بلا مبالاة. صاح به بصوت جهوري، وهو يضرب المنضدة بكلتا يديه:

- إنت يا بني آدم يا بارد! داخل كده هي إيه؟ وكالة من غير بواب؟!

قهقه الأخير وهو يرتشف من كوب الماء بهدوء:

- وإنت بقى البواب يا "نبيل"؟

لكن حديثه لم يكتمل، إذ غرز "نبيل" أسنانه في كف يده، يعضها بقوة. حاول دفعه بعيدًا وهو يضرب يده ليبعدها عنه، قائلاً بسخرية:

- يا عضاض! يا بارد! ده أنا كنت جاي أحكيلك على أساس دكتور، طلعت إنت اللي محتاج دكتور بيطري!

بعد محاولات مستميتة من "نبيل"، الذي ظل يلح بفضول لمعرفة ما جاء بشأنه، بدأ "محمد" يسرد ما حدث. كان صامتًا، تغشاه هدوء مميت، هدوء تغزو فيه الأفكار عقله حتى تقتله بالكامل. الصمت... من يعرف ما هو الصمت؟

"الصمت هو توغل الأفكار إلى عقلك، حتى تقضي عليها

تماما. ثم، في نهاية المطاف، بعد أن يتلاشى العقل، يموت

المرء محملا بالكلام الذي لم يبح به. مليئا بالأحاديث التي
قتلت روحه، تطفو الذكريات والأسرار كجثة منسية ظهرت للتو.

تشيع جنازتها لكنها مليئة بالقصص التي لم تخرج للنور. وبعدما

زالت، أصبحت مجرد نسيج من القصص التي ستدفن معه في
القبر جثتين!"
قبره. يموت ثقيلا، ولا أدري كيف سيتحمل

تحدث "نبيل" بنبرة متسائلة، وهو يحدق في هذا الجسد الذي بات بلا روح:

- قتل؟ قتلت إزاي يا "محمد"؟

ارتجفت يد "محمد"، وظهرت دموع متحجرة تلمع داخل عينيه، أبت أن تسقط على وجهه اليابس. كان صامدًا رغم ما يعصف به داخليًا. اعتاد على تلك الحرائق في جوفه، اعتاد أن العواصف والبرودة بالخارج تتحول إلى فيض من الجليد داخل قلبه. قال بصوت مبحوح:

- كانت أول مرة لما كنت في المصحة، كان في ممرض بيكمم وشي لما تبدأ جلسات الكهرباء عشان صوتي ما يطلعش، مرة كنت مش في وعيي، خنقته بالمخدة، كان شارب مخدرات وما كانش في وعيه ومات،أما المرة التانية لما اتخطفت عند "عدنان"، حط السلاح على راسي وقال لي: يا تقتل يا تموت ضرب طلقة جنب ودني خوفت دوست على الزناد ومات.

ابتلع غصة مريرة، شعر بوخز الحزن في قلبه وهو يكمل بصعوبة:

- عارف؟ كل ما أفكر إن كل حاجة عدت، ترجع، كل ما أفكر إني عشت ده كله بخاف، بخاف أدفع جريمة الماضي اللي قتلت الحاضر ودمرت المستقبل، عمرك حسيت إنك تعبت؟ من المقاومة، من القلق، من الحسرة والإحباط؟ تعبت من الحياة كلها؟ أنا حسيت.

كان "نبيل" ينصت إليه، والصمت يغلف الغرفة بثقل. ثم قال، وعلامات الصدمة ترتسم على وجهه:

- قتل؟ قتلت يا "محمد"؟ أنا كل ما بحاول أفهمك بتود آخر حاجة كنت أتخيلها إنك تقتل، أو إن الماضي اللي خايف منه يكون بالبشاعة دي.

أغمض "محمد" عينيه ببطء، كأنه يتمنى أن تكون هذه المرة الأخيرة التي يغلقهما فيها. كانت الذكريات تطارده كلما أغمض عينيه. أسوأ ابتلاء هو أن تكون مدمنًا للتفاصيل، شخصًا لا يمكنه أن يمحو ذكرياته، فتعيش متعبًا ومنطفئًا.

قال بهدوء، مستجمعًا بعضًا من قوته:

- كل اللي فات كان غصب عني، لكن خلاص، مش هسمح إن أي حاجة تانية تحصل بالغصب مش هستحمل عذاب تاني، لو جبت حقي وحق "نائل" مش هيكون بروح حد. أنا لما عملت كل ده ما كانش ليا حد أخاف على شكلي قدامه لكن دلوقتي، عندي أسباب للحياة. لأول مرة، مش مستهون بروحي. نفسي أعيش، نفسي أفضل مع أمي،أنا ملحقتش أشبع منها.

شعر بيد تمسك يده. كانت يد "نبيل"، الذي نظر إليه بابتسامة هادئة قبل أن يسحبه من عنقه ويحتضنه، وهو يربت على ظهره بحنان، قائلاً بحب وفخر:

- ساعات مش بنكون محتاجين حلول، ولا دفاع. بنحتاج حد يسمعنا، يهاودنا، يحضنا. أنت مش محتاج علاج، ولا جلسات، ولا تخاف من الوسواس القهري. إنت محتاج تحس إنك ليك أهمية. مهما كان اللي فات صعب ومؤلم، إنت بإيدك تصلح اللي جاي. حتى لو معرفتش... يكفي شرف المحاولة. متخفش من الوسواس، ولا من كلمة ترجعلك الماضي. خاف بس من نفسك... لأنها أقوى من كل ده.

شعر "محمد" بالامتنان، وهو يرى تلك النظرات في عيني "نبيل". كانت نظرات مشابهة لتلك التي افتقدها في "نوح"، وفي "سمر" بدعائها الدائم. لأول مرة، شعر بشيء يربت على قلبه، يذيب الجليد داخله، ويبدله بعذوبة.

خرج "محمد" عاقدًا العزم على أن يكون بخير، على أن يحارب مهما كانت النتيجة، حتى وإن انكشفت حقيقته، حتى وإن مات أو قُتل. لم يعد ذلك مهمًا بالنسبة له. الأهم أنه قاوم، أنه عاش لحظات سعيدة وسط بحر من الأحزان.

نظر إلى ساعته، فأدرك أن الوقت قد أزف،

وأن عليه التحرك الآن دون تأخير.

شعور الاختفاء كان يطاردها، رغبة عارمة في أن تتلاشى كما يتلاشى السراب، أن تختفي عن العالم بما فيه من ألم.

تساءلت في صمت:

كيف؟ متى حدث هذا؟ كيف أصبحت يتيمة؟

ذكريات السعادة مع والدتها، تلك الأحلام الصغيرة التي كانت تتمنى تحقيقها معها، كلها تبددت في لحظة قاسية. والآن، هنا هي، محطمة، بلا أم، بلا أمان.

فجأة، شعرت بذراعين تضمانها بقوة. ذلك العناق كان بمثابة طوق نجاة لها، لكن شهقاتها ارتفعت أكثر، وانهمرت دموعها بغزارة، تبلل وجنتيها المتصلبتين. أدركت من هو الشخص الذي يحتضنها، فانفجرت بالكلام وهي تبكي:

- ماما ماتت يا "عبدالله"، ماتت!، مش هشوفها تاني أنا ملحقتش أقولها إني بحبها ماتت من غير ما تحضني، من غير ما تعتذر لي إنها مكنتش جمبي، ماتت من غير ما تحكيلي حواديت، من غير ما تقولي إنها فخورة بيا، ماتت وأنا مش عارفة يعني إيه أم!

"عبدالله" أبعدها برفق عن حضنه، يمسح دموعها بأطراف أصابعه، ونظر إليها بحزن وهو يشعر بوجعها الذي ذكره بفقد والدته أيضًا. قال بهدوء، وكأنه يحاول طمأنتها:

- أنا جنبك يا "رزان"، صدقيني، هي في مكان أحسن والله.

لثم يديها بخفة ليهدئها، لكن صوته لم يكن كافيًا لطمأنتها. جاء من خلفهم "حسن"، وكان متماسكًا بالكاد، لكنه عندما رأى حالتها المتدهورة، شعر بوجع مضاعف. اقترب منها وضمتها يده بحنان أبوي وهي تهتف بغضب هستيري بعد سماع كلمات "عبدالله":

- مش في مكان أحسن يا "عبدالله"، متستحقش المكان ده! أنا عارفة هي عملت إيه! كنت عايزة أقولها بس إني سامحتها، بس دلوقتي سابتني لحيرتي وخوفي اللي مش هيخلص.

في تلك اللحظة، دخل "محمد" ومعه "هاجر"، التي قررت أن تترك خلافها مع "رزان" جانبًا وتساندها في هذا الوقت العصيب.

لكن المشهد لم يكن خاليًا من التوتر، إذ وقف "قاسم" أمامهم، يتحدث بغضب ويحدق في "محمد" بنظرات كراهية:

- إنت إيه اللي جابك هنا؟! اخرج بره يا "محمد"، وإلا وعزة الله هخليك تحصلها!

لم يبال "محمد" بحديثه، وتجاهله تمامًا، لكن "أنس" ظهر أمامه حاجزًا طريقه، وتحدث بحدة تحمل كراهية واضحة:

- إنت مش سامع ولا جاي تعمل بطل هنا؟ إنت لا منا ولا مرحب بيك هنا!

قبل أن ينطق "محمد"، أجابه "حسن" بغضب واضح، وهو يقف بينه وبينهم:

- إنتوا إيه؟! مفيش إحساس عندكم؟ أنا مرحب بيه هنا، ومش من حقكم تمنعوه!

لكن "قاسم" لم يسكت، واقترب بصوت أعلى، يقول بحزم:

- لأ يا عمي، أنا ليا حق. "رزان" دي أختي! قول يا بابا، "رزان" وأنا أخوات في الرضاعة!

نظر "حسن" لهم باندهاش وعقد حاجبيه، يتساءل:

- إيه الكلام ده؟ أخوات إيه؟! إيه اللي ابنك بيقوله ده؟!

وسط هذه الفوضى، قال "محمد" ببرود وهدوء، دون أن يتأثر:

- البقاء لله. أنا عرفت من الضابط اللي ماسك القضية إن تقرير الطب الشرعي بيقول إنها كانت تحت تأثير مخدر، وفي حد خنقها.

رد "حسن" بحزن عميق، يحاول كبح دموعه:

- حياتك الباقية والله أنا مش فاهم إيه اللي حصل. أنا رجعت البيت لقيتها لابسة كأنها خارجة، لكن مش بتتنفس. خدتها المستشفى، لكن.

صرخت "رزان" بغضب عندما رأت "هاجر":

- جاية ليه؟ جاية تشمتي فيا؟ جاية تعرفيني إني خلاص بقيت بلا أم وأخدت "عبدالله" مني؟ لأ، ده حلم!

حاول "عبدالله" تهدئتها، يحتضنها من الخلف، لكنها أفلتت منه فجأة وألقت بنفسها في حضن "محمد". تفاجأ بفعلتها، لكنه لم يعلق، فقد رأى حالتها التي أثارت شفقته العميقة عليها.

شعرت "رزان" بالحزن يتناثر منها كأنها تفيض بما في داخلها، الكلمات تكاد تخنقها، والدموع تحجب رؤيتها، لكنها قررت أخيرًا أن تتحدث بما يكتمه قلبها:

- سبتني يا "محمد"، حتى هي سبتني، أنت وعدتني من زمان أنك مش هتتخلى عني، بس هي ما وعدتنيش، محضنتنيش، ما قالتليش إنها بتحبني، أنا لسه ما قلتلهاش إني كنت بوظ هدومها علشان ما تخرجش، علشان تبقى معايا. كنت بعمل نفسي تعبانة علشان تفضل جمبي.

ثم جاء "عبدالله"، لأول مرة يشعر بتلك الغيرة القاتلة التي تختلط مع الكراهية، فكانت هذه اللحظة نقطة تحول بالنسبة له، وفي غياب الوعي الكامل بما يجري حوله، قال بحدة:

- امشي يا "محمد"، وجودك ملوش لزوم، اطلع من حياتها. ما أنت ناوي تدمر حياة كل اللي تعرفهم زي ما حصل معاك؟

تفاجأ الجميع من حديثها، حتى "أنس" الذي كان يعلم علاقتهما، ارتسمت على شفتيه ابتسامة شامتة.

أجاب "محمد" بعد أن ضغط على أعصابه وذكره الألم القديم:

- لا يا "عبدالله"، أنا جيت علشان وعدتها، وعد الحر دين، جيت علشان ده واجب، والراجل ده مرة انقذني وأنا مش ناسيها لكن لو بتفكر من اللي قلبه أسود وخاين، متتخيلش إن كل الناس معدنها زيك.

وقبل أن يرد "عبدالله" بكلمة، تدخل "حسن" بحسم، مشيرًا إلى سلامه مع "محمد"، وقال بهدوء:

- تسلم يا "محمد"، ما جايينلكش في حاجة وحشة، شكرًا على تعبك.

بينما كان "محمد" يترك المكان، كانت "رزان" تتابعه بعينين مليئتين بالأسى، تتمنى لو كانت هي بجانبه الآن بدلاً من كل هذه الفوضى.

بعد مغادرتهما، صعدوا إلى السيارة، وبدأت "هاجر" تتحدث بنبرة تملؤها الحيرة:

مش قادرة أفهمك إنت غريب، ليه رغم كل اللي حصل، مصمم تحس بيها؟ ليه تيجي هنا؟ مش فاهمة، بس حاسة إني مبسوطة إنك مش زيهم.

أجابها "محمد" بنبرة هادئة، كأنه يحاول فهم نفسه أولًا قبل أن يُفهم الآخرين:

- ولا أنا فاهمني، أنا محتاج حد يدخل جوايا، يفهمني، بعدين يخرج ويترجملي الخراب اللي جوا.

شعرت "هاجر" بشيء ما مختلف في ملامحه، وكانت تتساءل في داخلها إن كان هناك شيء غير مرئي يثقل عليه. نظرت إليه بتعجب، وقالت بهدوء:

- مالك؟ فيك حاجة متغيرة!؟

أجابها وهو يتنهد بقلق واضح، وكأن الخوف يسكنه أكثر من أي وقت مضى:

- هو أنتِ ممكن تسيبيني؟ أنا لأول مرة خايف، خايف في يوم تكرهيني أو تعرفي حاجة تغير حبك. خايف "حسناء" تسيبني. في حاجات خايف تعرفوها.

لكن "هاجر" كانت على يقين بأن ما حدث لا يهم، لأنها رأت في "محمد" شيئًا أكبر من الأخطاء، أكبر من الحزن. وبصدق، تحدثت:

- بص، أنا مش عاوزة أعرف حاجة، ولا هيتغير أي حاجة لو عرفت، أنا اتعلقت بيك بحبك، معرفش ليه، بس بحس إني مبسوطة جنبك. عاوزة وجودك... وأنت مستحيل تكون وحش، ولو حصل، أكيد مكنتش برضاك. أنا جمبك.

كلماتها كانت كالعطر في قلبه، لكن "محمد" شعر بشيء آخر، كان خوفه قد تحول إلى جليد. شعر بالعجز، وبالضياع، كمن يواجه فقدانها. لكنه قال بحزم وثقة:

- مهما حصل، أنا هفضل أحبك. لو في حاجة علشانها بقاوم وأعيش، هتكون أنتِ.

ذكريات الماضي لا تنتهي...

الحب الأول، الصديق الأول، حتى الخطأ الأول لا ينتهي.

كان جالسًا في هذا المكان الذي كان الأقرب إلى قلبه، هذا المكان الذي شهد على أجمل أيام حياته، والذي ارتبط بكل تفاصيل حبه الأول والأخير. كانت الأجواء هادئة، وسكون الليل يملأ المكان، بينما كانت البرد القارس يلف الأرجاء. وبينما هو يستمع إلى تلك الأنغام التي تداعب أذنه، كانت ذكرياته تلح عليه، لا سيما تلك الذكريات التي كانت لا تزال تحتل قلبه وعقله.

صدحت الموسيقى بنغماتها الحزينة، وكأن الكلمات تلامس قلبه بكل ما فيه:

"وقفت ساعة الكون بتبكي في بعدها

حتى الهوا مبقاش يغازل السما

مين كان سبب!؟، وقفت دموعي في

وقتها ساعت الوداع حتى أنا مبقتش

أنا مين كان سبب!؟"

تذكر آخر مشهد له مع حبيبتها الأولى، تلك التي سرقت قلبه وعقله معًا، والتي كانت ملامحها لا تفارق ذهنه.

كانت عيناها تائهتين، غارقتين في الحزن، بينما كانت كلماتها تطفو من بين شفتيها:

- "حسام"، أنا مش قادرة أكمل معاك، في إيه؟ الشغل، ومش بتروح، كل أصحابنا مبقتش بتقابلهم. كل ده ليه!؟ أهلك ماتوا... ما كلنا بنموت! ليه موقف حياتك؟ تقدر تقولي وجودهم أو عدمهم مزودلك إيه؟

لم تكن الكلمات تسعفه، وكان في حالة من الصدمة العاطفية. ربما كان الصمت هو رده الوحيد، لكنه خرج بابتسامة جانبية ساخرة، محاولة لتغطية الحزن الذي يعتصر قلبه.

قال، في محاولة لإخفاء مشاعره:

- إيه اللي اتغير؟! أنا ضيعت فاهم! أهلي ماتوا بسببي، أنت مستوعبة؟! أمي... أنا مش ها شوفها تاني. هانتظر دعوات مين دلوقتي؟ طيب، مين هروح أحكيله كل مشاكلي؟ "تليد" طول عمرها كان نفسها تبقى محامية. أنا لسه مشوفتهاش محامية. أنت مش حاسة بيا ليه؟

لم تلق بالًا لحديثه، واستهزأت بما قاله، وتحولت عيناها إلى نظرة صارمة.

قالت بحسم:

- حسام، أنا عاوزة أطلق. مش هستحملك أكتر من كده. كل اللي حوالينا كانوا صح، إحنا مينفعش نكمل. إحنا مش زي بعض. بابا عاوز يجوزني "عامر" ابن شريكه، وأنا موافقة. ارجوك متخليناش ندخل في مشاكل ومحاكم.

أصابه الذهول من حديثها، أمسك بيدها قائلًا برجاء، وهو خائف من فقدانها:

- نبض، أنتِ بتقولي إيه؟ أنتِ نبضي. مقدرش أعيش من غيرك. متسبينيش، وأنا أوعدك هتغير. خلاص، ارجوك متمشيش زيهم.

لكنها تركته دون أن تبالي بكلماته، كأنها لم تهتم بما قاله من الأساس.

عاد "حسام" بذاكرته، يستمع إلى ما تبقى من الأغنية التي كانت تعزف في خلفية ذهنه وكأنها تعيد تجسيد كل ما مر به.

"وقفت بكل ما فيها تنهي المسألة مشيت وروحي عندها، أنا كنت إيه من

قبلها، والحبر دايب على الورق صورنا لم حرقتها غريبة قلبي اللى اتحرق!؟"

تذكر يوم زفافها على غيره، وهو يقف من بعيد، عينها في عينيه، لكنه كان يرى أنه أخطأ. لأول مرة يشعر بأنها كانت قد اختارت الطريق الصحيح.

أبت دموعه أن تنهمر، فقد تجمدت في عينيه، لكنه كان في صراع داخلي.

كان يشعر بألم فظيع، وكأن الحياة قد انتهت بالنسبة له، وأنه كان على وشك خسارة كل شيء.

عندما استمع إلى آخر كلمات الأغنية، خرجت منه كلمات تائهة، وكان قلبه يملؤه الندم:

"عينك رصاص وغريبة، لم قتلني كان مسموح بعيوني شوفت

لكن مخوفتش وقتها من الموت فضلت متعلق بحضن الوقت لم يفوت

كان الوداع يشبه فراق الروح."

تذكر لحظات الوداع الأخيرة معها، عندما كانت تقف أمامه في المستشفى بعد محاولته الانتحار، وهو لا يستطيع أن يصدق أنه وصل إلى هذه اللحظة.

قالت بصرامة، وهي تبتعد عنه:

- انساني يا "حسام"، ابعد عني يا أخي، أنا اللي اتحمست، أنا حبيت إن في حد مهتم بيا، بينفذ طلباتي، بيحبني. لكن أنا لم اندمجت، لم شوفت أهلك، وشوفت حياتك، مبقتش عاوزة أكمل. سيب نفسك للأيام، وانت هتنسا.

عاد بذاكرته إلى الواقع، وهو ينهض وينظر إلى ظل القمر الذي ظهر فوق مياه النيل، بينما اكملت الأغنية:

"بتقول عشان تنساك هتسبني للأيام ويهون عليا أنساك وتسيب في نفسي وداع

باين في عينك إني مش صعبان عليك أكيد طب ودعيني قبل ما تمشي ولو بحضن

أخيراً أنا كنت عارف من البداية إنك محبتينيش وفضلت متعلق بحلم بعيد موصلنيش."

استمع إلى الأنغام القادمة من مكان قريب منه، لكنها كانت مألوفة بالنسبة له. قطب جبينه وهو يتبع الصوت.

كانت فتاة بشعر أسود غجري وعينين زرقاوين بصفاء النيل. أغمض عيناه ليخفي تلك العبرات المتحجرة في حدقات عينيه.

نظرت إلى المياه، ودموعها تنهمر، تتذكر كل الحب الذي ضحت به.

قالت بحماس، محاولة منعه من الغناء:

- بس بقا يا بني، هتفضحنا.

ابتسم بسعادة وهو يضمها إليه قائلاً بحب:

- مش عاوز أسيب مكان في البلد مش شاهد على حبنا، وفي ذكرياتنا.

ثم لثم وجنتيها، وهو يحملها، يستمع لضحكاتها التي كانت تعيد قلبه للحياة.

لكنها عادت إلى الواقع، ودموعها تسيل، ترتجف من البرد والخوف، ومن الذكريات: "كل الشوارع فكرا هزرنا وضحكنا

كل الحكاوي والأغاني تضمنا

أنت وأنا والليل بنسكن في السكوت

ما مهما تنادي مفيش سبيل تاني لرجوع."

التقت عيناها بعينيه. لكنها لم تجد نفسها بداخله. لم تشعر بذلك النبض في عينيه.

اقتربت منه، ألقت بنفسها في أحضانه، لكنها لم تشعر إلا بدفعه القوي، الذي جعلها ترتد للخلف.

تحدث بهدوء، يحاول تملك قلبها الذي يجبرها على ضمه:

- نبض. اللي أنت بتعمليه ده ميصحش، وأظن حضرتك عارفة، يا مدام.

تحدثت بتياه وهي تقترب منه، تحاول البحث عن نفسها بداخله:

- عامر طلقني، وسرق كل فلوسي. بابا مات. كل حاجة ضاعت مني يا حسام. متضيعش أنت كمان علشاني.

سحب أنفاسه بقوة، وهو ينهي هذا النقاش، يدوس على قلبها ويلعن تلك الرغبة العارمة في احتضانها:

- أنا آسف، مش أنت قولتيلي أنسا. أنا نسيت، وعلى العموم، أنا كنت عارف إن ده ها يحصل، علشان كده سيبت البيت، وسيبت المفتاح عند البواب. وعرفت إنك رجعتي.

ثم تركها ورحل. كانت كل الصدف قد اتفقت حتى في أذيته. تساءلت: لماذا أحبها؟ لماذا كانت أمنيته الوحيدة؟ ولماذا الآن لا يريد العودة؟ لماذا انتهت تلك اللمعة في عينيه؟

السعادة هي ذلك الشعور الذي يتملك قلبك عند البدايات. السعادة هي تلك المعه في عينيك. هذا الشعور بالأمان لمجرد النظر إلى وقتك ومكانك. السعادة هي تلك المعاناة التي يجب أن تجتزها لتعود إلى نقطة الوصول.

وقف "سيف" ينظر إلى المرآة لأول مرة بسعادة، بينما شعر بالانزعاج من الصوت الشاذ الذي يتدلى من خلفه.

كان "سليم" يدندن بنشاز ببلاهة، لا يابه بأي أحد من حوله:

"كلام عينيه في الغرام أحلى من الأغاني

من كلمتين من سلام بيقى حد تاني

لم يغيب قلبي أنا وياه يغيب."

قطع دندنته وهو يتلقى دفعة من "سيف"، الذي فاض به الكيل.

بينما مدحه "عز" بزيف وهو يصفق له:

- والله يا بني، صوتك يرد الروح.

نبس من خلفهم "أحمد" وهو يرتدي قميصه:

- أه، هو يرد الروح بس للي خلقها أكيد،ده في حالة "سليم"، بيخت الأطراش،والله مش بيسمع القرف ده، صحيح، كل ابتلاءات ربنا نعمة.

تحدث "محمد" بهدوء، وهو يضمهم جميعًا بذراعيه:

- تعقل شويه، علشان إحنا داخلين على نقلة حضارية.

نظر لهم "سيف" بامتنان وحب لوجودهم:

- عارفين يا غجر، رغم إنّي مخالفكم على طول الخط، وإنكم صيع وفشل، وأنا بعتبركم أتفه بني آدمين أعرفهم. لكن، أنا للأسف بحبكم أوي. أنا دايمًا كنت بفكر في يوم زي ده، هعمل إيه؟

أنا ما عنديش خوات ولا أصحاب غيركم، ولا أعرف حد غيركم. الحقيقة، هو بصراحة. أنا متخيلتش ولولا لدقيقة إني هحبكم كده. أنا ممتن ليكم أوي، أنا بجد بحبكم.

اقتربوا منه، يعانقونه بحب. تلك الصداقة التي نشأت بينهم كانت مختلفة تمامًا عن أي شعور آخر، كانت جزءا من القلب.

بينما "إسلام" تحدث بمقت، ساخطًا على أفعالهم:

- ياريت فعلاً تعقلوا المفروض أن خلاص بقى، في ناس حواليكم تخافوا عليهم ولا إيه؟ يا "محمد". في مصيبة تانية ناوي عليها؟

نظر له بتفهم وهو يستفسر من حديثه:

- يعني إيه؟ في إيه يا "إسلام"؟ مالك؟

نبس بغضب وهو ينهض له:

- في إيه؟! متشوف إنت بتعمل إيه، "محمد". أنا برا عنكم، ها، أنا عندي بنت ولا ولد، لسه ما شفتهمش الدنيا، وخايف عليهم، إنت بقى مش خايف على نفسك؟ ولا ما عندكش حد يخاف عليك؟ مش مشكلتي، إنما الهبل اللي بيحصل وتهديدنا كل شوية لوجود "عدنان" ولا "أنس" ولا البوليس ولا أي زفت، أنا مش هتحمله. كفاية كده أوي.

كان في أثر صدمة من حديثه، لكنه حاول عدم الغضب، رغم شعوره بالاختناق والحزن الممتزج بالغضب:

- فعلاً أنا السبب في كل حاجة، وأوعدك مش هيحصل ده تاني، وهيكون بعيد عنك، حاضر يا صحبي.

تركهم ورحل إلى النافذة، يحاول سحب أكبر كمية من الهواء إلى داخله، يشعر بالهتزاز من داخله. تذكر هذا الحديث الذي دار بينه وبين "عدنان" منذ سنوات.

تساءل بفضول وهو يري تلك العلامة المدونة فوق الجدران وكل إنش بالمكان:

- هو يعني إيه دائرة الخطأ اللي مكتوب في كل مكان ومرسومة هنا؟

أجابه "عدنان" بلغة عربية جيدة رغم جنسيته التركية، إلى أنه حامل لعدة جنسيات ومتقن للكثير من اللغات:

- بص، المثلث مثلاً ليه ثلاث زوايا؟ يعني ليه ثلاث مخارج تقدر تخرج منها. المربع ليه أربعة، وهكذا! لكن الدائرة مستحيل تخرج منها. مجرد خطأ واحد، بتبدأ دائرة لا تنتهي من الأخطاء. فهمت بقى ليه محدش بيخرج من الدائرة؟

أفاق من ذكرياته على "أحمد" الذي حركه بهدوء قائلاً بحب وهو يربت فوق كتفه:

- إنت زعلت من كلام الواد الأهبل ده؟

رده كان الصمت وهو يأخذ نفسًا عميقًا، مغمضًا عينيه بضيق.

احتضنه الأخير برفق، وهو يمسد فوق ظهره بهدوء:

- عارف يا "محمد"، أنا من وأنا صغير عمري ما كنت بعرف أحوش ولا أكسب أي حاجة، لا فلوس ولا مصروف ولا حتى لعب. لكن اكتشفت إني كنت بحوش صح. أنا أكبر تحويشة في حياتي، أنتم أكبر مكسب، أنت بالتحديد. أنت بتعرفني أكتر مني، فهمني دايمًا، كأنك أنا. أنت مش صحبي ولا حتى أخويا، أنت جزء من شخصيتي. أنت النديم اللي كانوا بيحكوا عنه زمان.

ابتسم في أثر حديثه، كان مفعول حديثه كمفعول الفراشة، ابتسم وهو يحتضنه بسعادة لأول مرة يشعر كم لحياته من فائدة.

قاطع تلك اللحظة "أمير" الذي جلب لهم آخر التجهيزات من ملابس وأشياء أخرى.

بعد أن أتم الجميع ملابسهم، ذهب "محمد" إلى هذا الصندوق المزين بخطوط الفضة، مخرجًا منه بعض الخواتم والقلادات الفضية، التي تولّى هو كتابة بعض الكلمات في منتصفها.

شعر بيد تلتف حول عنقه من الخلف، وفجأة دار هو بجزعه بقوة، فارتطم الأخير بالأرض وهو يتأوه بآلام قائلاً:

- ياخي يخرب بيت اللي يهزر معاك. إيه الرخامة دي بجد؟

نبس بها "سليم" قبل أن يعتدل بآلامه وينظر إلى ما يعبث به الأخير. تفوه مرة أخرى باستفسار وهو يمسك بالخواتم:

- "محمد"، هو إيه ده؟ ها؟ جاوبني بصراحة، أنت هتهرب مجوهرات النهاردة ولا إيه؟

أجابه الأخير بملل وهو يأخذ نفسًا عميقًا، ساخطًا على "سليم" الذي لا يفعل شيئًا سوى مفاقمته:

فاكر لما قولتلكم كل واحد يحاول يعصر دماغه ويكتب كلمتين حلوين؟ أهو، أنا أخدت الكلام ده وحفرته على الدبل، مع إنكم متستاهلوش والله المجهود اللي عملته، بس يلا.

احتضنه الأخير بقوة من الخلف، متعلقًا به وبكتفيه، كان رغم أن جسده غير نحيل، لكنه كان أكثرهم خفة:

- جامد أقسم بالله، أنت طلعت مبدع. هو في العادي أنا مش هقول كده، بس مش "أحمد" بس اللي بيحبك، أنا كمان على فكرة. إحنا ملناش غير بعض أصلًا.

تفهم الأمر وهو يربت فوق كتفه بهدوء، بينما وزع عليهم تلك الخواتم التي طبعها قبل أن يستعدوا للهبوط.

بينما كانت "جميلة" تحاول جاهدة ارتداء الفستان، بدا وكأنه يرفض الانصياع لها، على الرغم من حجمه الكبير.

رفعت "هاجر" حاجبيها بدهشة، وهي تنظر إلى الفستان المصمم أمامها، وسألت باستغراب:

ـ إيه اللي جاب الفستان ده هنا؟!

ردت عليها "زينة" وهي تنهي ارتداء آخر قطع ملابسها:

ـ ده بتاعك، "حسناء" هي اللي جبته..

تأملت "هاجر" الفستان بارتباك قبل أن تهمس وهي تمسك به:

ـ طيب، أنا أصلاً جايبة فستان تاني، ألبس انهي فيهم؟!

همست "جيداء" وهي تعدل قلادتها بجانب "زينة":

ـ البنت دي بقت غبية أوي ولا أنا بيتهيألي؟!

ردت عليها "زينة" بابتسامة جانبية:

ـ لا، هي غبية فعلاً.

قاطعتهم "جميلة" من الخلف قائلة بحماسة:

ـ البسي ده يا "هاجر"، أحلى بكتير بجد.

في هذه الأثناء، عادت "سما" من غرفة مصففة الشعر وهي تهتف بتوتر:

ـ انتوا سيبوني لوحدي؟ عارفين إني مش هعرف أتصرف! دي تصرفات دي؟ ده أنا العروسة يا شوية أنذال!

ضحكت "ميرنا" و"جيداء" قبل أن تساعداها في ارتداء الفستان، بينما كان الجميع ينهي تجهيزاته استعدادًا للنزول. قبل أن يغادروا، أوقفتهم "ميرنا" مُصرّة على التقاط بعض الصور التذكارية.

تعالت الزغاريد في الخارج، وتصاعد التصفيق بحماس. عندما شعرت "هاجر" بيد تجذبها من ذراعها. التفتت لتجد "حسناء" تهمس لها بابتسامة:

ـ شكل الفستان ده أحلى بكتير.

ابتسمت "هاجر" بخجل، بينما كان "سيف" يجلس بجانب المأذون، وخلفه "سالم"، والده، الذي كانت السعادة واضحة في عينيه. على الجانب الآخر، كانت "زهراء" تربت على يد "سما"، التي امتزجت مشاعر التوتر بسعادتها.

أنهى المأذون الإجراءات القانونية قائلاً:

ـ «بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير.»

لكن قبل أن يغادر، أوقفه "عمر" و"محمد". نظر الجميع بدهشة عندما مدّ "محمد" يده نحو "هاجر"، قائلاً بهدوء وهو يُبرز بطاقة هويته:

ـ عقد كمان، وروح انت بقى.

ساد الصمت للحظة، بينما تبادل الحاضرون نظرات الاستغراب. عادت "حسناء" و"زينة" إلى جانب "محمد"، اللتين كانتا شريكتين في هذه المفاجأة.

حاول "عادل" التدخل، لكن "حسناء" أمسكته من ذراعه وهمست برجاء:

ـ "عادل"، أرجوك، متعملش حاجة تعقد الدنيا أكتر. مرة واحدة بس، سيب كل حاجة تمشي بهدوء.

تنهد "عادل" بعد لحظة تردد، وأومأ بالموافقة. صدح صوت المأذون مرة أخرى:

ـ «بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير إن شاء الله.»

تعالت التصفيقات من جديد، وراح الحاضرون يصافحون العروسين. أما "محمد"، فلم يكن يشعر بأي شيء سوى وجودها، هي فقط.

ضمها "عمر" بحب، وهو يربت على ظهرها ويطبع قبلة على وجنتها، قائلاً:

ـ ده أسعد يوم في حياتي بجد، أنا بحبك أوي، وعمري ما تخيلت إني هكون فرحان كده. أوعدك إني هفضل جمبك دايمًا يا روحي.

ابتسمت له وضمته بدورها بحب، قبل أن تنسحب معه بهدوء.

على الجانب الآخر، كانت "سما" تقف بجوار "سيف"، الذي أحاط خصرها بحنان، ينظر إليها نظرة تحمل أعمق معاني الحب.

وضعت رأسها على كتفه وهمست بخفوت:

ـ وعد، هتفضل معايا دايمًا؟

أجابها بهدوء:

ـ وعد .

ثم أخرج لها خاتمًا يحمل كلمات محفورة:

«هل سنلتقي؟ هل سألمس يديك؟ وأحتضنك وأصطحبك بجولة برفقة قلبي؟ ليخبرك كيف يتوق إليك... كيف يشتاق لرؤيتك بجانبي. هل سنجتمع تحت سقف واحد ويكون الزمان

منصفا؟ أتوه في عينيك، أنسى نفسي والزمان. في تلك اللحظة، أعدك أنك حبيبتي، ورفيقة عمري، وكل نساء العالم،

حتى يفنى عمري وأنا بين يديك.»

على بُعد قليل، كان "أحمد" و"جميلة" يجلسان فوق الأعشاب غير مبالين بشيء. خلعت "جميلة" حذاءها الذهبي ذو الكعب العالي وألقته بضجر:

ـ كان عندها حق سندريلا تقلعه وترميه! إيه الهم دهرجلي اتكسرت!

قهقه "أحمد" على حديثها، وأشعل لفافة تبغ، مستنشقًا بعمق كأنما يحلم. قطعت شروده وهي تسحبها من بين شفتيه وتستنشقها قائلة:

ـ مع إني بحبها بالفراولة،بس ماشي.

عقد حاجبيه مستفسرًا:

ــ مش اتفقنا مفيش سجائر؟!

وضعت رأسها على صدره وأجابت بنبرة مرحة:

ــ ماشي، بس مشوار الألف ميل يبدأ بخطوة. بالمناسبة، وريني الخاتم كده.

أمسكت بالخاتم وقرأت النقش بحماس:

"سأبقى معك، وبك، ولك، وإليك. سأكون روحا لا تفارقك، ولن أتخلى عنك يوما. فقد أخبرتك أنني أحببت حياتي لأجلك."

ابتسمت له بحب واحتضنته، ثم نهضا معًا لرقصة هادئة.

في مكان قريب، كانت "كاميليا"، والدة "جنى"، تسخط على أفعال "سليم" بشدة، بينما أجابتها "جنى" وهي تتأمله بابتسامة:

ــ والله العظيم، أنتِ ظلمتيه، أنا حاسة إنه العوض بجد.

أشارت "كاميليا" إلى "سليم" باستنكار:

ــ ده العوض؟! ده عليه العوض ومنه العوض والله!

اقترب "سليم" بابتسامة وقدم لها خاتمًا يحمل نقشًا:

«وكيف لا أحبك؟ في حديثك تُكتب قصائد، وفي تفاصيلك تُنحت تماثيل، وفي ضحكتك يُعزف لحن، وفي اسمك تُرسم لوحات، وفي رائحتك يُصنع عطر، وفي حنانك راحة، وفي تأملك خشوع. أما في قلبي... فأنتِ عشقًا لا ينتهي.»

كانت تقرأ الكلمات بسعادة، بينما كان "سليم" يتأمل عينيها التي تحمل لون قهوة العالم، ومنذ أن رآها وهو لا يعرف طعم النوم.

على جانب آخر، وقف "إسلام" بجوار "ميرنا"، يحتضنها بذراعه. نظرت إليه وسألته بهدوء:

ــ مالك؟ أنت متخانق مع "محمد"، صح؟

أومأ برأسه وأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يجيب:

ـ أيوة، وعلى فكرة أنا مش غلطان، من يوم ما عرفت إنك حامل وأنا خايف ومتوتر، مش هعرض نفسي للخطر تاني علشانه.

أمسكت بيده وهمست برفق:

ـ هو اللي عامله صح؟ "محمد" مش بيسمح إنك تعرّض حياتك للخطر. بص، مش معنى إن هيكون عندك ابن أو بنت تبقى كل الأهمية ليهم، لأنك كده هتبقى أناني. "محمد" كان جنبك في كل حاجة، هو اللي كان بيصلحنا على بعض، هو اللي كان بيحل مشاكل كتير... أكيد هتصفوا تاني.

أومأ برأسه بهدوء، وكأنه يفكر في كلماتها.

في تلك اللحظات، كان "عز" يلتقط الكثير من الصور لـ" زينة ". متأملًا ابتسامتها التي ملأت قلبه بالفرح.

بعد أن انتهت من التصوير، سألته:

ـ حلو الفستان ولا مش مظبوط؟! أنا حاسة إن لفة الحجاب دي مش لايقة عليا!

ضمها بذراعه وربت على يدها مطمئنًا:

ـ كل حاجة حلوة ومظبوطة، لأنك إنتِ اللي لابساها. كل شيء تلمسيه بيبقى جميل، حتى أنا دايمًا بحس إنك كتير عليا، إنتِ جميلة وبريئة، ومختلفة عن أي حد. عاوز أقولك إني بحبك، كل حاجة فيك جميلة.

أدمعت عيناها وهي تحتضنه بقوة، قبل أن يقدم لها خاتمًا فضيًا، وقال بابتسامة خجولة:

ـ الحاجة الوحيدة اللي كتبتها بالعربي، مع إني مش بحبه حبيته علشانك.

قرأت النقش بداخله بابتسامة سعيدة:

« ومن أين أبدأ الثناء؟ وأنت لا شبيه لك في الأرض ولا في السماء. من يراك فهو من الذنب براء. أيّ حسن هو حسنك يا من فاق جمالك كل بنات حواء؟»

في بعض الأحيان، تحتاج إلى عناق طويل يخرج كل الأحزان من الداخل.

بينما كانت "رحاب" تلتقط الكثير من الصور لصغيرها الذي انطلق مسرعاً نحو "حسام"، حمله الأخير بين ذراعيه، يدور به بهدوء وهو يبتسم له.

تحدث الصغير ببراءة، ناظراً إلى الورود المتناثرة وحركات الرقص المبهجة التي تملأ المكان:

ـ هو ليه انت كمان معندكش عروسة زيهم؟

ابتسم حسام ورفع كتفيه بلا مبالاة:

ـ أمر الله بقا، لسه ملقتهاش.

عقد الصغير حاجبيه متسائلاً:

ـ بس أنا وماما امبارح شفناك وانت حاضن عروسة زيهم، ماما قالت عنك زنديق ووغد، هو يعني إيه زنديق؟

ارتبك حسام، مسح على جبينه وابتسم بخفوت:

ـ لا، دي مش عروسة، دي كانت مراتي.

ثم التفت إلى "رحاب"، قائلاً بنبرة ساخرة:

ـ بالمناسبة، يا مدام رحاب، يعني إيه زنديق؟

شعرت رحاب بالإحراج، فحاولت تحويل الحديث:

ـ ما شاء الله! انت كنت متجوز؟ أنا خوفت أسألك تقول الله يرحمها هي كمان عموماً، زنديق دي مدح خد بالك يعني!

ابتسم لها بهدوء، ولكن شيئاً غريباً نغز قلبه، وكأنه يحمل عبئاً دفيناً لم يجرؤ على الإفصاح عنه.

بعيداً عن هذا المشهد، كانت "أمير" يراقب "رحاب" التي وقفت شاردة تنظر للجميع بعيون زائغة. اقترب منها، وضمها من الخلف برفق، طابعاً قبلة هادئة على جبينها:

ـ مالك يا حبيبتي؟

سألها بنبرة مليئة بالاهتمام.

أجابته بلا تردد، وكأنها كانت تنتظر السؤال لتُخرج ما بداخلها:

ـ أنا خايفة، في أوقات الفرح دي بالذات، بخاف أوينفسي أوقف الزمن عند اللحظة دي، خايفة من أي تغيير جديد.

نظر إليها بحب يغمره اليقين:

ـ معندناش سيطرة على الزمن. ده مش بإيدنا. لكن نقدر نصنع ذكريات حلوة، زي دي مثلاً.

ثم أشار إلى خاتمها، قائلاً:

ـ عارفة الجملة اللي في الخاتم؟ كتبتها من سنتين عشانك.

تفحصت الكلمات المكتوبة بعينيها، وهي تقرأ بصوت خافت:

ـ "لو كانت تعلم أنني في كل ليلة ما انتظرت الشمس لتغرب، إنما كنت أنتظر الليل بلهفة كي تقمرين يا قمري."

عادا للرقص، بينما على الجانب الآخر كانت "هاجر" تنظر بحيرة لما يجري من حولها. اقترب منها " محمد "، وقال بنبرة هادئة لأول مرة:

ـ عارف إني كان لازم أقولك الأول، لكن كنت عاوز أفاجئك. مكنتش عاوزك تعترضي.

توقف قليلاً، ثم تابع بصوت يحمل بعض الانكسار:

ـ فاكرة اليوم اللي حضنتيني فيه؟ من وقتها كنت نفسي أتجوزك عشان سبب واحد.

قبل أن ترد، فتح ذراعيه واحتضنها بشدة، وكأنه يفرغ كل ما في داخله. تسربت دمعة من عينيه وهو يرى خلفها صورة باهتة لـ"سمر" تبتسم له برضا قبل أن تختفي، تاركة محمد غارقاً في دوامة مشاعره.

أخرج نفسه من داخله ببطء، وابتسم بهدوء وهو يقول:

ـ أنا النهارده بس قدرت أسامح الدنيا. خلاص، ملهاش ذنب في أي حاجة. طلع فيها جميل وطيب، عكس ما كنت حاسس.

على ساحة الرقص، كان الجميع في حماس شديد، يتمايلون على أنغام الحب وكأن الليل أطفأ أنوار الكون ليسلط ضوء القمر عليهم وحدهم، ليظهروا كأنهم على مسرح العاشقين. أخيراً، كانوا معاً.

رقصا رقصة غريبة، رقصة حب أبدي. كانت أعينهم تتلاقى بشدة القرب وكأنهما يتبادلان قبلات خفية. الكون نفسه بدا وكأنه يتمايل بهدوء، يحاكي حركة خصرها، بينما جنود قلبه انساقوا خلفها بسعادة وحب... وأخيراً، بأمان.

على الجانب الآخر، كانت "حسناء" شاردة، تنظر إلى السماء بنظرات تحمل أعباء الماضي. شعرت بيديه تطوقان خصرها برفق، وهمسه يقترب من أذنيها:

ـ لو قلت لك سامحيني مرة كمان هتوافقي؟ أنا عارف إني أناني، شيطان، وفيّا كل العبر. بس الحاجة الوحيدة اللي مخلية عندي أمل إني أتغير هي أنتِ. من غيرك هفضل شبح أسود باقي العمر.

وضعت يدها فوق يديه الملتفتة حول خصرها برفق، ونظرت إلى عينيه، تلك العينين التي تراها للمرة الأولى كلما التقت به.

أخرج خاتماً من جيبه، وأمسكه بين يديه وكأنه يعرض كنزاً ثميناً صنعه بحب كبير. تحدث بحماس طفل يزيح الستار عن أول إنجاز له:

ـ قعدت ثلاث شهور أعمله علشانك. محستش إن في حاجة هتكون أغلى من حاجة عملتها بايدي عشانك.

كان خاتماً فضياً لامعاً، محفوراً عليه بخط دقيق:

"وما زلت من خوفي عليك أخافني، وأخاف أن يقسو عليك حناني.
عيناك يا قمري، اعتذارات السما عن كل ما عانيتُ أو سأعاني.
لقد أحببتُ العالم لأجلك، وقبلتُ الاعتذار يا أمان العمر."

نظرت إليه، وابتسمت بحب يعانقها للمرة الأولى. شعرت بحاجتها الشديدة لعناقه، فاحتضنت رأسه بين يديها بينما هو ضم جسدها إليه بهدوء، وكأنهما يذوبان في لحظة مليئة بالسكينة.

صدحت الأنغام في الخلفية، وكأن الكلمات كُتبت لهما وحدهما:

"شوقي ما بيكفيني غيرك مهما تقولي، مش رايضلي شيء سواكِ حتى صوتي.
نادا باللي باقي مني جوا روحك، خوفي لتسيبيني في وسط ضلمة وقت خوفي.
حضنك البيت اللي خلاني أزورك، غيبت عني، غبت فيكي زي موتي.
خبيني من بين البشر، ضميني شوق زي المطر، وريني مين غيرك يحلالي."

كانت الأنغام ترافقهما، بينما مشاعر الحب والغفران تصنع منهما قصة جديدة... قصة سلام أبدي.

لأول مرة تشعر أن الوقت بطيء إلى هذا الحد. مر يومان فقط على وفاة والدتها، لكنها تشعر وكأنها عالقة في دوامة لا نهاية لها من الحزن والخوف. كانت تائهة، خائفة، وحسرتها تتجدد في كل لحظة وهي تتذكر ملامحها الأخيرة.

نظرت إلى الهاتف بعيون غارقة في الدموع. تلك الصورة التي شاركها معها منذ لحظات، قلبت كيانها. كانت صورة لها وهو يحتضنها بحب، رأسه مستند على كتفها، ويدها تحيط بخصره كأنهما يحاولان التشبث بلحظة أبدية لا تُنسى.

أسفل الصورة، كتب كلمات أعمق مما تحتمل، وكأنها رسالة حب خالدة، رسالة مليئة بالأسرار التي لم يُفصح عنها يوماً:

"تسألني تلك الفاتنة:

لم أنا؟

كيف ذلك وأنت لم تعترف من قبل بأنك مغرم، والآن أصبحت زوجها؟

لم تسعفني شياطين رأسي كي أجيبها، فهل عليّ أن أخبرها الحقيقة يا ترى؟

هل أخبرها أنني أحبها منذ ما قبل آدم؟

أنني مذ بدأ الخلق وأنا بانتظارها؟

هل أبوح بهذا السر؟

بأنني ركبت مع نوح السفينة، واجتزت الطوفان كي أعيش زمانها، كي أكون قتيلاً لتلك العيون الزيتونية؟

هي لا تعلم أنني مغرم منذ الأزل، فلا تخبروها."

أغلقت الشاشة بسرعة، وكأن الكلمات تحمل ثقلاً لا يمكنها تحمله. أجهشت بالبكاء، صوت أنينها يخترق صمت غرفتها الباردة. حاولت أن تخفي الصورة عن نظرها، لكنها كانت محفورة في قلبها وعقلها.

ما زالت غير قادرة على نسيانه. لا تستطيع أن تنتزع وجوده من داخلها، رغم كل شيء. كان حاضراً في قلبها، في كل نفس تأخذه، وكأن حبها له بات جزءاً لا يتجزأ من كيانها، حتى لو كان الألم هو الثمن.

بينما كان "أنس" في قمة سعادته، ينهي آخر كوب من النبيذ الأحمر، ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وهو يهمس لنفسه بشيء من الغرور:

ـ مفكرين إن حد هيعرف يرجع الماضي تاني؟ بيحلموا.

لكن لحظته الهادئة لم تدم طويلاً. أضاء هاتفه فجأة بإشعار رسالة نصية، فالتقطه بتكاسل، ولكن الكلمات التي قرأها جعلت وجهه يتجمد، وعقله يشتعل.

"فكرت إن لم تقتل شيماء تكون هي اللي بتهددك؟ غبي يا أنس!

تفتكر لما حسن يعرف إنك قتلت مراته، وإنك كنت بتخونه معاها، وإن بنته تبقى بنتك.. هيعمل إيه؟

طيب، سيبك من اللي عملته في محمد. تفتكر لو عادل عرف إنك أنت اللي قتلت أبوه، مش هو هيعمل فيك إيه؟"

أحس وكأن الجملة الأخيرة كانت صفعة أيقظته من وهمه.

"مهما حاولت أن تخفي الحقيقة، ستعود لتحرق حاضرك. فالماضي لا يُدفن."

شعر بأن الغرفة تضيق من حوله، وأن الهواء يكاد ينفد. كيف يمكن لكل هذه الأسرار أن تُكشف؟ وكيف وصل التهديد إلى هذا الحد؟

وضع الكوب جانباً بيد مرتجفة، وهو يحدق في الرسالة، يحاول أن يتخيل من قد يكون وراءها. صوت عقله كان صاخباً، تتداخل فيه الأصوات والصور. ماضيه الذي حاول طمسه بدأ يظهر مجدداً كوحش يطارده في الظلام.

"أنس"، الذي اعتاد أن يتحكم بكل شيء، شعر للمرة الأولى بأن زمام الأمور يفلت من يديه. الماضي، بكل ثقله وأسراره، لم يكن مجرد ظلال بعيدة... كان وحشاً ينتظر اللحظة المناسبة للانقضاض عليه.

البارت التاسع و العشرون

"عاد من الموت"

أحيانا يأتي القدر بكل الإجابات التي كنت تنتظرها.

وأحيانا يعود ماضيك فقط ليظهر حقيقتك.

كان يقف منذ مدة لا يعلم عددها، ينظر إلى الهاتف بأعين مصعوقة زائغة تائهة تحدق في الشاشة. كانت الأسئلة تتجمع في عقله وقلبه، وازدادت نبضاته وهو يتذكر جريمته النكراء الشيطانية.

«فلاش باك»

بعد أن اختبأ خلف الجدار، ينتظر أن يبتعد الجميع، هبط بسرعة مهرولًا، ثم جلس بجانب هذا الذي كان ما زال حيًا رغم تلك الرصاصة التي استقرت بجانبه الأيمن.

تحدث بهدوء وعينيه تلمعان بشرٍ وهو يدور بعينيه في أرجاء المنزل، يبحث عن أي أحد:

- شوفت يا عمي عمل فيك إيه؟ ياما قلتلك إنه مش سهل، وأنت مصدقتنيش طبعًا، ماهو ابنك، بس تعرف بقى؟ أنا كنت عارف.

تحدث "يزيد " بتعب وهو يحاول النهوض:

- أنا، أنا هاعرف قيمة اللي عمله، بس اتصل بالإسعاف، اتصل بالدكتور، اتحرك انت كمان.

رد بهدوء مخيف وهو يقترب منه:

- عمي، أنت قتلت أبويا؟ لا، ده مش سؤال، متتفاجئش دي إجابة، أنا عارف إنك قتلته، زي ما أنا عارف إنك انت اللي فضحت أمي وطردتها من البلد، أنا عارف إنها كانت بتخونه، وإنها تستحق، وعارف إنه كان جبان وغبي، بس على قد كرهي ليهم، بكرهك أنت أضعاف، عارف أنا بقى هاعمل إيه؟ أنا هانهي أسطورة 'يزيد الجبالي'. هاراح الناس من ظلمك، ومفيش دليل واحد ضدي حتى 'عادل'، محدش شافه ومحدش هيشك فيه أبدًا. عمي، Good luck... ولا أقولك؟ Go to hell.

وقبل أن ينطق بأي كلمة، كان قد وضع الوسادة على وجهه وضغط بقوة، يقبض أنفاسه الأخيرة.

العودة إلى الواقع

عاد لواقعه وهو يلتقط أنفاسه بثقل، يلهث بنهيج، ثم تذكر فعلته الأخيرة. "شيماء"... تلك التي قتلها بالخطأ، ظنًا منه أنها هي من ترسل له تلك الرسائل المهددة. ولكن، بالطبع، كان مخطئًا.

كانت تفاصيل جريمته تدور أمام عينيه بهدوء، وهو يدفع بيده كل ما يأتي أمامه.

كانت خطته هادئة وبسيطة. حتى إنها جعلت الأخرى فريسة سهلة له. مجرد اتصال واحد حتى جاءت إليه. انتظر اللحظة المناسبة، ثم انقض عليها، استمتع برؤيتها تلفظ أنفاسها الأخيرة. لم يكن يراها شخصًا، بل يراها حقيقة أفعاله النكراء الشيطانية.

تحدث إلى نفسه بتباع وخوف وهو يحاول أن يلتقط أنفاسه بعد موتها:

- إيه اللي ناقص؟ معملتوش؟ عملت كل حاجة صح، كل حاجة كانت ماشية تمام إيه اللي حصل؟

ثم عاد إلى نبرته القوية الهادئة، وهمس لنفسه بثقة:

- محدش هيقدر عليك اللي أدفنه ما بيقومش تاني واللي يحاول، هادفنه زي الماضي.

في بعض الأحيان، لا يكون الشيطان هو صاحب الوسواس الذي يجتاحنا، بل يكون الشيطان بداخلنا، في ثنايا الروح وبين الأنفاس... يكون نحن.

أحيانا، كل ما نحتاجه هو لحظة راحة، حتى ولو لدقائق، كما كانت تتمنى هي في تلك اللحظة.

كانت "رحاب" تقف على سطح منزلها، تنشر ملابسها وملابس طفلها بعد غسلها لتجف تحت أشعة الشمس. وقفت بهدوء، شاردة في أفكارها، حتى قطع هذا الشرود سؤال صغير من طفلها الذي وقف بجانبها متسائلًا بهدوء:

- ماما، هو أنا جيت إزاي؟

عقدت حاجبيها بدهشة قائلة:

- يعني إيه جيت إزاي؟

أجابها بهدوء وبلاهة طفل:

- يعني أنتِ وبابا جبتوني منين؟

تبسمت بهدوء وهي تحاول إيجاد مخرج لهذا المأزق:

- بص يا 'يزن' يا ابني، أنا المفروض كنت أسأل السؤال ده لأهلي زمان لكن، بابا مات وأنا عندي سنة، وماما مردتش تجاوبني. لذلك، أنا ملقتش أي إجابة وقررت أقولك الحقيقة.. أنت مش ابني، أنا لقيتك قدام محل ألعاب وأنا خارجة.

شهقة خافتة صدرت من فم الصغير، وهو ينظر لوالدته التي أتقنت تقمص تلك الشخصية:

- يعني أنا مش ابنك؟ وانتِ مش ماما؟ يعني إيه انتوا ضحكتوا عليا؟ سرقتوا عمري؟ للدرجة دي يا ماما آسف، أقصد يا اللي كنتِ ماما.

تبع ذلك صوت تصفيق يأتي من الخلف، ثم ظهور "حسام" الذي خرج من خلف أحد الجدران بعد أن أنهى مكالمته:

- هايل والله، انتوا موهبة بجد! العن الله من أيقظها.

نظرت إليه "رحاب" بسخط، فحمحم بحرج وهو يقترب قائلًا:

- أنا بس اتعودت، إحنا بقينا أهل يعني، مش النبي وصّى على سابع جار؟ز

لم يجد ردًا، فاقترب من الصغير قائلًا:

- أنت بقى هتعمل إيه بعد ما عرفت إنها مش مامتك؟

أجاب الصغير بهدوء، وهو يرفع كتفيه بلامبالاة:

- هعمل إيه يعني؟ هسمع كلامها وأي حاجة هي عاوزاها علشان مترجعنيش تاني محل الألعاب، ولا لأهلي.

عقد حسام حاجبيه بتعجب، ينظر له بذهول:

- يعني انت هتفضل معاها علشان مترجعكش لأهلك؟ يا بني إيه الدماغ دي؟

أجابه الطفل وهو ينسحب بهدوء:

- أهو، اتعودت عليها بقى، لسه هادور على أم تانية وتزهقني؟ كفاية، اتعودت على دي.

ذهب من أمامه بينما نظرت "رحاب" لحسام، مشيرة إليه ببلاهة:

- ابني فلذة كبدي.

صاح الصغير من الأسفل:

- أمي حبيبتي!

تمتم حسام وهو ينظر لهما بتعجب:

- لا، ماهو واضح.

عادت "رحاب" لإكمال ما كانت تفعله بهدوء، حتى وقعت عيناها على ورقة بعيدة، مدون عليها بخط رقعة جميل، وكأنها خارجة من إحدى اللوحات:

"فواللّٰه لو عادت والنيران تلتهمها، وعبرات العين تغرقها. واللّٰه لو عادت بقلب ميت وعمر منتهٍ، فواللّٰه لأصدّها بحقد اندلع بقلبي من الرحيل، وأرد هجرها، ولأشعل نيرانها أضعافًا وأحرقها. قولوا لها ألا تعود؛ فعزتي تعادل ظلمها، والحب انطفأ بغيابها."

تساءلت بهدوء:

- هو حضرتك اللي كاتب دي؟

أجابها وهو يخفي الورقة بعيدًا:

- آه، أصل ساعات بحب أكتب.

ابتسمت له بصفاء قبل أن تسأل مجددًا:

- اسمح لي يعني أتكلم معاك كده، بس باين إن طليقتك غلبانة، وصعبت عليّ لما جات امبارح وانت رفضت تقابلها.

تذكر قدومها أسفل منزله ليلة أمس، وتذكر موقفه الرافض، قبل أن يتنفس الصعداء محاولًا الثبات:

- حضرتك مجربتيش اللي أنا جربته. اللي صعبانة عليك دي كانت بتستغلني، وكانت بتبعدني عن أهلي بكل الطرق حتى بعد موتهم، مستحملتنيش وسبتني كنت هنتحر بسببها، وباظت حياتي، ولما اتصلحت، راجعة تاني؟ طيب أسامحها إزاي؟

شعرت بغصة في قلبها وهي تتذكر تفاصيل مشابهة لحياتها. فجأة، وجدت نفسها تستمع له وهو يسرد كل تفاصيل حياته، وكيف انتهت حياة عائلته. كأنه كان ينتظر أن يطلب منه أحد السؤال ليخرج حديثه الذي بدا محترقًا من بين شفتيه.

تحدث بهدوء وهو يمسح الدموع المعلقة بأهدابه:

-معلش، صدعتك. بس بقالي كتير متكلمتش... مفيش حد بعرف أكلمه، إلا الأمين محمود، وللأسف أخد إجازة، فبقالي يومين متكلمتش.

شعرت بثقل حزنه وخذلانه، وكأنها عاشت ذات الإحساس. قررت أن تتخلى عن الجدران الوهمية التي تحيطها، وبدأت تسرد له هي الأخرى حياتها.

تحدثت بهدوء، مسترجعة ذكريات مؤلمة:

- أنا بقى زيك شوية أبويا مات بعد سنة من ولادتي، وماما ربتني وسط أهل بابا. الحقيقة، الناس دول كانوا أكتر حد علمني الكراهية. كبرت في تعب وذل. ولما وصلت الجامعة، كان في عمر... من الدفعة اللي قبلي، بياخد السنة في سنتين. مش عارفة إزاي قربنا من بعض. حسيت إنه جزء مني، بس الحقيقة عمر ما حبيته. كنت طول عمري بتحمل المسؤولية، وشفته جزء منها... حسيت بشعور الأمومة معاه لأنه كان دايمًا محتاج حد يقوده.

صمتت قليلًا، تجمع شتات نفسها، ثم تابعت:

- قابل ماما واتجوزنا، وكل الناس كانوا عارفين، ما عدا أهله. لما عرفوا، خطفوني وأنا حامل. حاولت أهرب، لكن لما ولدت لقيت نفسي في الشارع، وجنبي ورقة طلاقي. ما شفتش ابني بعدها... رجعت لقيت أمي ماتت، وأهلي منعوني أدخل البيت. عمتي وبناتها ضربوني ورموني في الشارع. فضلت أتوه لحد ما وصلت لابن عم أمي. أغمي عليا ودخلت غيبوبة ٣ شهور. لما فوقت، عرفت إن أمي كانت سايبة لي جزء من ميراثها. ابن عمها اشترى لي الشقة دي. بعدها اشتغلت واشتريت المحل اللي تحت، حققت حلمي، ورفضت أشتغل في الجامعة.

ابتسم بهدوء، بينما هي تجنبت النظر إليه. فجأة، التقت أعينهما، وانفجرا في ضحك هستيري، أخرج الدموع المختبئة في أعماق حدقات عيونهما.

بعد لحظات، عندما هدأت قليلاً، وقبل أن تبتعد، قالت له:

- فكر في موضوع طليقتك. أنا مش بقلل من تعبك ولا حزنك منها، بس العمر بيجري. يمكن ترجع المياه لمجاريها.

نظر إليها بابتسامة هادئة، وقال وهو يسحب نفسًا عميقًا:

- حتى لو رجعت المياه لمجاريها، هتفضل مياه مجاري، ليس إلا.

عقدت حاجبيها باشمئزاز وهي تنظر له:

- إيه الكلام المقرف ده؟ بوِّظت المثل يا أستاذ زنديق!

رحلت من أمامه، بينما وقف متعجبًا من حديثها، يهمس لنفسه:

-زنديق؟!

كانت تقف تتابع آخر التجهيزات لبدء معرضها. شعرت بالفخر لكل شيء يحدث حولها. بدا وكأن الأيام بدأت تُنصفها أخيرًا.

فاقت من شرودها على صوت الصغير "يزن"، الذي أسرع إليها بحماس. حملته وبدأت تدور به حول نفسها بحب، وهي تغرقه بالقبلات، وكأنها تعوضه عن كل لحظة افتقدها فيها.

بعد أن انتهت من مصافحة "رحاب"، التي أحضرت العمال لنقل التصميمات التي عملت عليها لأيام، نظرت "هاجر" إلى الورود والأرفف التي ينقلها العمال، ثم قالت بإعجاب:

- الحقيقة شغلك حلو أوي بجد، شكله يجنن. رحاب، أنا بأكد لك إن عمري ما كنت مع ماما وبابا في أي حاجة ضدك، وإني بجد مبسوطة بيك ومعتبرة إنك صاحبتي. ده غير إن إحنا اللي يهمنا دلوقتي مصلحة يزن، يعني متفقين.

أومأت لها "رحاب" بهدوء، متفهمة حديثها. لم تعتبرها يومًا عدوة، بل كانت دائمًا ترى فيها صديقة وشريكة مسؤولية:

- أنا متأكدة من ده، وأنا كمان مبسوطة بيك وجنبك. زي ما عمر أخوكي، أنا كمان أختك.

ابتسمت "هاجر" بامتنان، قبل أن ترى "حسناء" تدخل بصحبة "جنى". وكالعادة، كان دخولهما للمكان مليئًا بالبهجة التي تنعكس على كل شيء حولهما.

بعد فترة قصيرة، ومع انهماك الجميع في العمل، قُطع تركيزهم بصوت صياح يأتي من أسفل.

لم تكن سوى "سوزي"، التي لم تعلم بزواج ابنتها إلا قبل ساعات. صعدت وهي تصرخ بصوت مرتفع، توجه حديثها مباشرة إلى "هاجر":

- بتتجوزي من ورانا يا هاجر؟! وأنتِ يا حسناء، متخيلة إنك كده بتحديها مني؟ لكن لا، وبديني ما هاسيب المهزلة دي تكمل. الولد المجنون ده مش ها يكسب في الآخر! أنا هفضحه... المجنون ده، الفاشل، الصايع الضايع... بتاع العصابات!

تسمرت "هاجر" للحظات، قبل أن تستعيد توازنها. نظرت إلى "سوزي" بعيون ملتهبة، ثم سحبت نفسًا عميقًا وانقضت عليها، تمسك بخصلات شعرها وتصيح بغضب:

- انا ابني فاشل؟! ابني صايع؟! ده أنا هوريكي! أنا ساكتة من بدري!

بدأت في تسديد اللكمات إليها، بينما كانت "رحاب" تقف جانبًا تصيح بحماس:

- أيوة! ما تسيبيهاش، اديها حقها! أنا مكبوتة منها بقالي سنين.

في الوقت نفسه، كانت "هاجر" تحاول التدخل لفض الاشتباك، ولكن دون جدوى. تحدثت بتعب وهي تفصل بينهما بصعوبة:

- مش كده يا ماما! مش معقول يا حسناء، يا جماعة، والله عيب!

وفجأة، دخل " عادل " حاملًا بيده باقة من الورود، والتي سقطت فور رؤيته للمشهد أمامه. حاول التوسط لفض النزاع، لكن ما لبث أن وجد نفسه في وسط المعركة، يتلقى الضربات من الجهتين بلا توقف.

بينما كانت "رحاب" تعلق بسخرية:

- آه، كده تمام... المعرض بدأ فعليًا قبل وقته!

- بـس بـس يا غجر! إيه وقف كيس جوافة ده؟ بقالي ساعة أقول مينفعش، عيب يا ماما كفاية! يا حبيبتي اتهدي، مفيش أي إحساس؟ إيه؟ بتفهموا إيطالي؟ وأنتِ يا تافهة، بتضحكي على إيه؟ والاستاذة الطويلة الهبلة بتشجعيها كأنها في ماتش يا ماما!

تفوه "عادل" بعد أن فاض به الكيل، وهو يحاول هندمة ملابسه التي أصبحت كأنها خرجت من معركة ضارية.

نظرت "سوزي" إلى حالتها، ملابسها ممزقة وكأنها مرت بفاه كلب، وقالت بغضب:

- أنا؟ أنا تضربني الجربوعة دي وتبهدلني؟ طبعًا علشان ابنها المتشرد ده!

شهقت "حسناء" بغضب مرة أخرى وانقضت عليها، إلا أن "عادل" كان حاجزًا بينهما، متلقيًا كل الضربات العشوائية، حتى اضطر إلى حملها بعيدًا عن الأرض.

- أنا جربوعة يا حرباية ملونة؟ أنا ابني متشرد يا صفره؟!

ألقى بها من فوق كتفه بقوة، وصاح منفعلًا:

- ارحموني بقا! من ساعة ما دخلت وأنا بتضرب، ومفيش كلمة بتتسمع. وبعدين ابنك وابنك! ماهو ابني معاها! ده إيه الهم ده؟!

تحدثت "هاجر" بهدوء، تحاول إنهاء الشجار:

- ماما، لو سمحتِ. أنا أخدت قراري، وكفاية لحد كده.

لكن الحديث لم ينته، بل تحول إلى مسار آخر أكثر حدة. انتهى بتحطم مجموعة من الزجاجات، قبل أن يتمكن "عادل" من حمل "حسناء" إلى المنزل عنوة.

بعد دقائق قليلة، لم يجدوا فرصة للراحة. بغياب العاملات، اضطروا جميعًا لإنهاء الأعمال المتبقية بأنفسهم.

وفي وسط هذا الجو المرهق، اتجهت أنظارهم إلى تلك التي تقدمت نحوهم، بخطى واثقة رغم التوتر الذي يعتريها. كل منهم رأى "رزان" من زاوية مختلفة.

تقدمت "هاجر" نحوها بابتسامة تعكس ثقتها التامة، تعلم أن أي محاولة من "رزان" ستكون بلا جدوى:

- أهلا يا رزان، خير؟

أجابت "رزان" بصوت مهتز ونظرات زائغة. لأول مرة ترى في عيني "هاجر" تلك القوة والثقة التي لم تعرفها من قبل. يا للعجب، كيف اكتسبتهما في الوقت الذي فقدتهما هي؟ بدا أن الحب له تأثيرات ساحرة:

- أنا عاوزة أقابل محمد. خطوبتي قربت، لكن لازم أشوفه.

صمتت لحظة، لكن صوت السخرية لم يتأخر، إذ قاطعتها "جنى" بضحكة خفيفة وقالت:

- هو معندكيش من الأحمر اللي عندنا ولا إيه؟

"هاجر" لم تتركها تنتظر كثيراً، وقالت بثقة:

- أنا موافقة. هاتكلمي محمد.

كانت تلك الكلمات كالسيف، خرجت من شفتي "هاجر" لترن في عقل "رزان".

هل كان هذا اختبارا؟ هل ما زال "محمد" يحبها؟

بينما كانت "رحاب" تودع صغيرها "يزن"، الذي حان موعد لقائه بوالده، لم تستطع منع نفسها من الشعور ببعض الراحة الممزوجة بالقلق. بعد معركة قانونية طويلة، حصلت أخيرًا على حق حضانة ابنها، ولكن بشرط أن يراه والده في أوقات محددة.

وقف "عمر" أمامها وكأنه طفل مذنب، يحاول تبرير أفعاله:

- رحاب، أنتِ عارفة إني لسه بحبك. أنا اتغيرت والله! اتغيرت ٣٦٠ درجة، مش هتتخيلي.

رفعت حاجبها بسخرية وهي تعيد ضبط حجابها:

- احنا كنا أدبي، صح؟ بس إنت دخلت علمي في ثانوي؟ ٣٦٠ درجة يعني رجعت لنفس النقطة يا عبقري!

تفوه بدهشة، وكأنها ألقت عليه صاعقة:

- احلفي!؟ ده أنا بجهز الكلام ده من امبارح!

تركته ورحلت وهي تتمتم في نفسها بسخط. تعرف جيدا أنه لا أمل في تغييره. قد يعمل، قد يتحسن، لكنه لن يصبح أبدا مستقلا أو ناضجا كفاية.

كانت الشمس تتسلل خلف الغيوم بعد ليلة ممطرة مصحوبة بالرياح.

وقف مبتسمًا وهي تصافحه، لكنها شدت يده إليها وهو يحتضنها بداخله يخفيها. كان عناقها باردًا، لم تحتضن حتى يده، بينما هو كان يمسد بأنامله خصلاتها، وبيدها الأخرى كان يحتضن ظهرها.

سحبت نفسها من داخله، بينما هو انتبه لتلك العينين اللتين تتابعانه بحسرة من بعيد. اقتربت منهما، بينما انسحبت الأخيرة من أمامه، رغم تمسكه بيدها إلا أنها سحبت يدها بعيدًا عنه.

التقت عينيها بعينيه، كانت تحتضن جميع ملامحه بعينيها، وكان هو لا يعطي أي نظرة لها.

شعرت بالخوف يسري بهدوء يحمل في طياته البكاء،أحببته، وتلك هي الحقيقة الوحيدة في تلك القصة. لا ذنب لزليخة، هو فقط من كان يوسف، كما لا ذنب له اليوم، هو فقط الذنب لقلبها العاشق.

اتجوزتها؟ بجد قدرت تعمل كده؟ طيب كان إيه اللي أنا حسيته؟!

تنفس بهدوء وهو ينظر لها بفراغ:

- هلخص عليك حاجات كتير.أنا حبيتك، الإجابة أه، كنتِ أختي وصحبتي بس يا 'رزان'، أختي اللي بخاف عليها أحميها، لكن حاجة تانية لا.

كانت لا تريد سماع كلماته، لا تريد نسيانه، لا تريد. كانت في كل مرة تشعر فيها بأنها نسيت، تعيد قراءة رسائلهم القديمة، فتجد نفسها بلا شعور تشعر بالسعادة لكلماته الأثرية، وحينها تتأكد بأنها أضغاث نسيان ليس إلا:

- بس أنا حبيتك، أنا شوفتك أهم حد. أنا مش عارفة أشوف غيرك بحبه، وبفتكرك مش قادرة.

تبست بها بهدوء قبل أن تتحول إلى هيستريا وهي تضربه بكلتا يديها، بينما هو ظل صامتًا متحملًا ما تفعله.

- أنا بلعن كل صدفة جمعتني بيك، ملعون كل شعور حسيت ليك، ملعون كل قلب وقع في حبك وأولهم قلبي.

أمسك بيدها متحدثًا بهدوء وهو يحاول السيطرة على أعصابه:

- متخلينيش أتخلى عن الجزء اللي بحترمك وبحبك فيه. خليك أختي، واتمنالك الخير مع 'عبدالله'.

أردف مكملًا حديثها بنفس الهدوء:

- أنتِ محبتنيش، أنتِ شفتيني جنبك لما مكنش في حد، كان احتياج وانتهاء. لكن الحب حاجة تانية، هيجي من غير سبب، ده بيكون سبب وجودي. اللي حسيته عمره ما كان حب، لا، مش موافقة. مش من حقها،أنت حقي أنا، نصيبي أنا. حضنك ده مش حقها، كلامك مش ليها، أنا بس اللي أستحقه.

تفوهت بتلك الكلمات وهي تبكي ولا تشعر بأي شيء إلا الحقد والكراهية.

أتت الأخيرة من بعيد، حاولت أن تمسكها، تود خنقها، قتلها، تود التخلص منها بكل حقد. لكنها وقف مانعًا لها وهو يخفي الأخيرة خلفه.

ابتعدت وهي تتأكد أنه ليس لها مكان هنا. شعرت بحقد وكراهية، خوف وقلق، جميع المشاعر المبعثرة بداخلها.

- ها، همشي. بس حتى لو أنت مش ليا، مش هتكون ليها. مش هاسيبها تاخدك أبدًا، وهاحبه وهاجوزه، وها تيجي تتمناني ومش هافكر فيك.

مرت دقائق، ربما ساعات، لا تعرف كم مضى من الوقت، لكنه ظل واقفًا يحدق بها وبهذا الموقف الذي وضعته فيه.

شعر بأعصابه تكاد تتمزق، مشاعره التي انتُقضت تمامًا وهو ينظر لها:

- هو أنا لعبة!؟، تعالي يا 'محمد' عاوزة أشوفك، بعدها تسيبيني قدامها. مفكرتيش فيا، في مشاعري!؟ ليه؟ هو أنتِ شايفاني إزاي؟ أنا مش فاهم.

شعرت بنغزة في قلبها، لأول مرة ترى هذا الوجه منه. هل يمكن أن يكون لا يحبها؟ ضمن وجودها كل ما كان يتمناه هو الزواج منها، والآن سيكون كأبيها، هل سيغضب عليها، ربما ينفعل فيضربها أيضًا!؟

بكت وشعرت بعبراتها الساخنة تتجمع داخل مقلتيها كحبات الرمال الساخنة. ارتجفت وهي تبتعد عنه بخوف.

بينما هو، شعر بخوفها، فأمسك بها محتضنًا إياها. أخفى وجهه في عنقها وهو يشعر بالخوف الذي يسري داخلها.

تحدثت بهدوء، بات صوتها غير مسموع، متحشرجًا وتائهًا:

- أنا مكنتش أقصد، أنا بس كنت عاوزة أعرف هتعمل إيه. كنت خايفة، إنت ممكن تسيبني؟ ممكن تكون زي بابا؟ ممكن متحبنيش؟ هتكرهني؟ هتحس بالملل مني؟ أنا تعبت من التفكير.

ضمها ولم تسعفه الكلمات، حتى نظرت له. سألته، وفي عينيها لمعان يضاهي كل نجوم الكون:

- هتفضل تحبني؟

فأجاب وكأنه عالم للغيب، كأنه يريد أن يحمل كل ما بها بدلاً عنها:

- إلى آخر يوم لروحي داخل هذا الجسد، إلى آخر نفس أتنفسه، لآخر ضوء هتشوفه عيني، لأولى سكرات الموت، لآخر ذرة تراب هيرموها على قبري، لحد ما يتبعثر ما في القبور، إلى أن نلتقي عند الصراط، لحد ما نقف عند الواحد الأحد... هتكوني أول ذنوبي وسابقى أحبك.

نظرت له، تشعر بالغربة. هل حقًا لا ترى أنه يحبها؟ هل هي لا تعلم أنها حين تتحدث، يردد قلبه آمين وكأنها تتلو صلوات أديان الأرض كلها؟

تحدثت بهدوء، وما زالت تشعر بالارتجاف:

- بحبك لان، عمرك ما كنت شخص عادي. إنت كنت نجاحي الأول، وضحكتي الوحيدة، وأماني وأمني وأماني. طمنتني في عز خوفي من العالم، لأنك كنت الوحيد اللي شافني كاملة رغم عيوبي، وده يكفي إني أحبك حتى لو مش فاهمة معنى الحب.

في كل مرة كانت تنطق أحبك، كان يلتئم جرح من جروحه، وتزول ندبة من ندباته:

- إنتِ عارفة إن معنديش أي مانع أقضي يوم كامل وأنا بشوف ابتساماتِك وضحكاتِك، بس علشان أشوف سِنّ السنجاب في مقدمة أسنانِك.

آخر كلماته كانت هادئة وهو يقول:

- لو الوعد بيطمنك... إني محدش ياخد حبك أبدًا. إنك هتفضلي روحي طول العمر، أوعي تسيبيني... أنا معنديش غيرك؟!

عاد إلى المنزل الذي يحمل بين جدرانه كل لحظاته السعيدة. ذلك المنزل الذي قضى فيه سنوات تمنى لو كان عمره بأكمله بين أركانه.

نظر إلى المنزل بعينٍ متفحصة. لا يزال مهجورًا، لكن الشرفات ما زالت تحتفظ بروح. ما زال يراهم يبتسمون من هناك. كيف له أن يقنع نفسه بأن المنزل مهجور، والستائر ثابتة لا تتحرك؟ قلبه لا يستطيع منع نفسه من سماع أصواتهم.

خلع معطفه وبدأ بترتيب المنزل. رتب كل شيء: الغرف، الملابس، الكتب القديمة، الأرفف التي تحمل ذكرياته، أكواب القهوة... كل شيء كان يحن إليه أعاده إلى مكانه. انتهت الفوضى، وكل شيء عاد إلى موقعه الصحيح. أما هو، فلم يكن يومًا في موقعه الصحيح؛ جاء بزمنٍ غير زمانه، ووطنٍ غير وطنه، وقلبٍ غير قلبه. كانت تلك طريقته: ينظم الأشياء، لكنه يعجز عن تنظيم فوضى رأسه.

ارتفعت الموسيقى بعد أن طلب إحدى الأغنيات. تلك الأغنية حملت في نغماتها نظرات كل من رحلوا، ضحكاتهم، وأحاديثهم. في كل مرة يستمع إليها، كانوا وكأنهم أمامه:

"كان يا ما كان، كان يا ما كان... الحب ملأ بيتنا ومدفينا الحنان. زارنا الزمان، سرق منا فرحتنا والراحة والأمان."

اشتاق إليهم، لكن ليس الاشتياق المعتاد، بل اشتاق للقاء حقيقي، لعناق حار، لنظرات أعينهم، لملمس أيديهم، لمشاهدة ضحكاتهم، لرائحتهم، لذلك الحب العائلي الذي لم يجده إلا بينهم.

شعر برجفة تسري في جسده وهو يتذكر آخر لحظة في حياة "نوح"، حين ارتفعت روحه إلى الرفيق الأعلى. يتذكر ذلك اليوم جيدًا. ورغم ألمه وحزنه العميق، لم تذرف عيناه دمعة. كان هادئًا وصامدًا في مكانه. ربما لم يصرخ حينها، لكن الصراخ تجمع في عقله منذ ذلك الحين، وفي كل ليلة يبدأ عقله بعزف صرخات لجسد يقتل كل يوم.

ثم جاء مقطع آخر من الأغنية، يحمل كل أحزان العالم في صوته الدافئ لكنه نافذ كمفعول السوط:

"حبيبي كان هنا، مالي الدنيا عليا بالحب والهنا. حبيبي يا أنا، يا أغلى من عينيا... نسيت مين أنا؟!"

تذكر "هيثم"، الذي كان يجلس بجانبه يومها، يحاول تخفيف أوجاعه، يواسي قلبه المجروح. وتذكر أيضًا وجود "نائل". انهار إلى الأرض وهو يحاول التنفس بصعوبة شديدة. وما أن أفاق حتى سمع طرقات على باب المنزل. نهض ليرى من الطارق، وفتح الباب بنظرة صدمة، غير مستوعب ما يراه.

تحدث "عادل" وهو يقف بتردد:

- هتقول لي أدخل ولا أرجع؟

لم يجبه، لكنه ترك له المجال للدخول. وبالفعل، دلف "عادل" دون اهتمام بالنظر إلى المنزل. كان باردًا في تعابيره، لم يتعلق بالمنازل يومًا، يراها مجرد حجارة لا أكثر.

بادر بالسؤال وهو يعقد حاجبيه:

- عرفت المكان هنا إزاي؟

أجاب "عادل" بهدوء، بينما كانت عيناه تستقر على صورة تجمع صاحب المنزل بـ"نوح" و"هيثم". لم يأخذ وقتًا ليعرف هوية الشخص الذي أمامه؛ علم منذ اللحظة الأولى. وفي عقله لم يتردد سوى سؤال واحد: "ماذا فعل هذا الرجل أكثر مني؟"

قال:

- الحقيقة، "حسناء" كانت بتكلمك وموبايلك كان مقفول. خدت منها العنوان وجيت.

أردف مكملًا حديثه بهدوء، كأكهل ينهي عقده التاسع:

- عاوز أتكلم معاك في موضوع.

حرك رأسه إيماءً بصمت، تاركًا له المجال للحديث، فاسترسل الآخر بهدوء:

- أنا تعبان. حياتي من يوم ما نزلت مصر مش مظبوطة. حرب بين "حسناء"، "سوزي"، وبينك. علشان كدد فكرت... أنت يهمك سعادة "حسناء" زيي، وأنا يهمني سعادة "هاجر" زيك. أيا كان اللي حصل بينك وبين "سوزي"، حاول تنساه. بص، أنا مش بعرف ألف وأدور. اعتبر نفسك ممثل بتأدي دور وهتاخد قصاده المقابل اللي تطلبه.

في تلك اللحظة، شعر بشيء ما لا يفهمه. ربما كان يتمنى أن يكون هذا حلمًا. هل هذا ما يستحقه؟ هل هذا هو والده الذي تخيله يومًا منقذه؟

كان الأمر مخيفًا. كيف للقلوب أن لا تصدر صوتًا حين تتحطم؟ كيف لتلك العبرات المتحجرة أن لا تصرخ، تستنجد بأي شخص لينقذها؟ تحدث بريبة، مشوبًا بتعجب وخوف من المجهول:

- إنت بتتكلم جد؟ إنت معتبرني كده؟ يعني بعد كل ده، جاي تقولي كده؟

تفوه الآخر بصوت مرتفع وهو ينهض فجأة من مكانه:

- هو إيه اللي عملتهولك؟ إنت ليه بتحسسني إني عملت حاجة؟

نظر إليه بعينين خاويتين. وفي تلك اللحظة، استمع إلى صوت تهشم قلبه. شعر أن العالم بأكمله يتكئ على صدره، وهذا أسوأ ما أحس به. أجاب بهدوء مناقض تمامًا للبركان الذي يشتعل داخله:

- عملت إيه؟ إنت سبتني وأنا عيل مكملتش سنة. لما اتمسكت فيك، وثقت فيك، كنت حضنك، كنت في عز أماني... وانت سبتني، رميتني ليهم. أنا ما استحقش... مش اعتراض، بس ما استحقش أصحى كل يوم الفجر وأنا مش قادر أتنفس، نفسي أعيط ومش قادر. ما استحقش أحس اللي أنا حاسه ده، ما استحقش تعمل معايا كده.

استنكر الآخر حديثه، ونظر إليه بغضب:

- هو أنا كنت رميتك في الشارع؟ أنا كنت سايبك عند أختي، كنت سايبك في بيتي.

صاح، وأحباله الصوتية كادت أن تتمزق. كان ينظر إليه بكراهية مشتعلة. أحقًا كان يسمي هذا وداعًا؟ بل كان عزاءً، كان إبادة لكل سكان قلبه، طعنةً قوية تركت ندبة لم يمحها الزمان.

- إنت سبتني في الشارع فعلاً. الشارع كان أهون عليّ. أنا شفت الموت. أنا اترميت في الشارع، أنا دفنت صاحبي وأنا مش عارف هو مين... مات بسبب كتمانه. كان بيبتسم كتير ويكتم حزنه في نفس الوقت. من يومها، وأنا عارف إن نهايتي زيه بالضبط.

أردف مكملاً حديثه بنفس الغضب:

-أنا شفت أسوأ حاجات ممكن تتخيلها. شفت كام واحد مات قدامي. أنا اتحرقت واتشوهت. أنا كرهتك قد ما كنت مش مستني غيرك. إنت وأختك حرمتوني من أمي، وإنت حرمتني من أبويا. حرمتوني من إني أكون عيل. مفيش حاجة سليمة جوايا علشان تأذوها.

شعر بدمعة تتسلل على وجهه. لأول مرة، لم يستطع كبحها. لم تكن قطرة ماء تسقط من عينيه فحسب، بل حملت ثقلًا بنصف جسده.

- أنا كمان مكنتش كويس. كل أحلامي كانت يكون عندي عيلة وأهل. حاولت، وانت في يوم لما اتولدت، مش ابن "حسناء"، دمرت حلمي.

شعر بالغثيان من شدة الحزن، وكاد أن يتقيأ روحه وهو ينظر إليه. لم يستوعب كيف يجعله المخطئ، وكيف يمكن أن يكون بتلك الأنانية؟

- ياخي عنك ما فرحت! أنا مش مولود علشان أحققلك أحلامك علشان تكون سعيد. إنت عارف... أنا اتمنيت في يوم لما مات "نوح" لو كنت موت إنت. أنا حقيقي مش قادر أفهمك، إنت بتكرهني ليه؟ أنا قعدت ثلاث سنين بعد ما سبتني أفكر... عملت إيه؟ كنت عيل زنان؟ مش مؤدب؟ يمكن كنت وحش؟ إنت خلتني أكره نفسي. إنت خلتني أشحت الحنية من الناس وهي مش بتاعتي.

لطالما آمن أن تلك الجهة المعتمة في قلب الإنسان ليست سيئة بالضرورة، بل معطلة. لم تُمنح فرصة للظهور في النور أو لم يوجه أحد الضوء نحوها. لكن في تلك اللحظة، تخلى عن كل معتقداته. ما يقف أمامه ليس إنسانًا من الأساس.

تحدث الآخر بهدوء رغم الحزن الذي اجتاح كيانه:

- طيب، احكيلي. إيه اللي حصل؟ عملوا فيك إيه؟ فاهمني، أنا هصدقك.

وضع يده فوق يده، لكن الأخير انتفض كأن النار قد لمسته، وسحب يده بزعر:

- مش هتصدقني. لو كنت عارف إنك هتصدقني، كنت قولت من زمان. وبعدين، لو إنت بجد عاوز تثبت إنك بتحاول، دور إنت. اعرف إيه اللي حصل بنفسك.

كانت نظراته متأرجحة بين التعجب، الحزن، الغضب، وربما رغبة خفية في الاحتضان.

- ها، هاعرف يا "محمد"، وساعتها مش هيكون لك حجة. لكن تعرف؟ إحنا زي القطارين، ماينفعش نتقابل على سكة واحدة. لو حصل، هنموت... ونموت اللي حوالينا.

ابتسم الآخر بخزي، وهو يرى الأمل في عينيه. لكنه شعر بالراحة رغم معرفته بأن هذا الأمل محكوم عليه بالموت. تحدث بسخرية خفية:

- متفتكرش إنها بالسهولة دي. إنت بتدور على الحقيقة علشان تزبط حياتك وتحس بالسعادة. لكن الحقيقة، إن يوم ما تعرفها هيبقى بداية النهاية، مش أكتر.

اجتاحه الخوف، لكنه وعده بأنه سيبحث عن الحقيقة. عقب ذلك، تحدث إلى "ياسر" وسرد له كل ما حدث.

أجابه "ياسر" عبر الهاتف:

- لو عاوز تعرف الحقيقة، يبقى البداية أكيد من عند "سوزي"، أختك. بعدها "هاجر"، والست اللي قالت إن "محمد" قتل بنتها. آخر جهة... "نبيل"، الدكتور.

كان "ياسر" محقًا، فالبداية من هناك فعلًا... أو ربما النهاية!؟

في تلك الأثناء، كان "محمد" يجلس، ينظر إلى كل زاوية في المنزل، كأنه يبحث عن ذكرياته. لم يكن يعلم: هل كانوا حقًا في كل مكان، أم أنهم فقط في عينيه؟

نظر في الفراغ بشعور بالدوار. ما كان يثقله أكبر بكثير. أراد أن يعرف: لماذا هو هكذا؟ لماذا كان يعطيه أسبابًا كافية للبقاء والصراع من أجله، وفي الوقت ذاته أسبابًا للنفور منه؟

وهكذا، بتلك المراوحة، تستمر الأيام بينهما بلا نهاية واضحة.

ليلة واحدة فقط يمكن أن تغيِّر الإنسان. تُبدِّل أفكاره، شخصيته، وتجعله يستغني عن الكثير من مشاعره، يكبر فوق عمره بأعوام.

هذا ما حدث له تحديدًا. كان جسده مرتخيًا أمام الطبيب الذي عجز عن علاجه طوال خمسة أعوام.

تحدث الطبيب مخاطبًا "عز"، الذي كان ينظر إلى الفراغ بانتباه:

- بص يا "عز"، بعد كل اللي حكيته، فيه سبب واحد لكل ده. عندك فقدان ذاكرة للحظات معينة... زي لحظات الصدمات النفسية والحزن الشديد. للأسف، أنا مضطر ألجأ للتنويم المغناطيسي بعد ما فشلنا في كل المحاولات اللي فاتت.

أومأ له دون أن يتكلم، بينما أكمل الطبيب حديثه بطريقة عملية، خالية من أي تعاطف أو شفقة:

- غمّض عينيك. هابدأ العد التنازلي من عشرة لواحد. استرخي وافتكر أبسط الحاجات اللي تعرفها.

أغمض "عز" عينيه، وبدأ الطبيب العدّ:

- عشرة، تسعة، ثمانية، سبعة، ستة، خمسة، أربعة، ثلاثة، اثنين، واحد.

في تلك اللحظة، بدأ عقله ينسج المشاهد بهدوء. كان يرى الأحداث وكأنه داخل فيلم، بلا قدرة على التدخل أو تغيير مجريات الأمور. المشهد الذي ظهر أمامه كان كالتالي:

وقف بجانبه فتاة في منتصف عقدها الثاني، تبدو أكبر منه بعدة أعوام. كانت تهزه بعنف، تصرخ بهيستيريا:

- افتكر يا "عز"! إنت السبب... إنت اللي ضربته، إنت اللي خليته يموت! انت السبب في كل اللي حصل! انطق يا "أمير"، قوله الحقيقة! قوله إنه قتله، إنه لازم يتعالج! قوله!

في تلك اللحظة، نظر "عز" إلى أخيه بدهشة. تساءل: هل هو في حلم، أم أن هذا هو الواقع؟ وإن كان الواقع، لماذا لم يواجهه أخوه بالحقيقة من قبل؟

استمرت الفتاة تصرخ بهيستيريا، تذكّر أخاه الذي قُتل على يد حبيبها:

- إنت قتلته يا "عز"! لما رفض يجوزني ليك، ضربته، فضلت تضربه لحد ما وقع. وقع على الترابيزة... مات بسببك. لو ماكنتش موجود، ماكنش مات. كفاية وهم! افتكر... افتكر أبوك مات إزاي! افتكر قتلت "مازن" إزاي!

عند تلك اللحظة، اسودت عيناه، وكأنه فقد الوعي. فجأة، وجد نفسه يمسك بها ويصيح بغضب:

- كفاية! ماقتلتوش! أنا ماقتلتوش! "مازن" صاحبي... مستحيل أقتله! أنا مش عاوز أفتكر حاجة... ابعدي عني يا "سلمي"! ابعدي بعيد!

دفعها بقوة، لتسقط أرضًا. لكنها لم تستسلم. أمسكت السكين بجانبها، وتحركت نحوه بغضب. في تلك اللحظة، كان يبكي، يحتضنها، ويتمتم برجاء:

- سامحيني يا "سلمي". أنا بحبك... والله هتعالج. أنا هافتكر، "سلمي".

لكن قبل أن يُكمل، غرزت السكين في معدته بلا رحمة، بينما انتشر الدم على وجهها.

كان يشاهد هذا المشهد من بعيد بخوف، وعند تلك اللحظة، بدأت الرؤية تتشوش أكثر. رأى "أمير" ملقى بجانبه، غارقًا في دمائه، وإلى جواره "سلمي" جثة هامدة، والسكين الملطخة بالدماء ما زالت في يدها.

شهقة قوية صدرت منه، وكأنه غريق يصارع الموت، قبل أن يستيقظ أمام الطبيب. كانت رؤيته مشوشة تمامًا، وأصوات الصراخ والضحك تعصف داخل رأسه، يدور به بشكل مؤلم.

تمنى لو لم يوقظوه من حلمه. ربما وجد في الحلم لقاءً لا سبيل له في الواقع. ربما وجد حقيقة تلاشت من العالم الحقيقي.

تحدث الطبيب بهدوء، وهو يعطيه كوب ماء:

- افتكرت حاجة؟

نظر أمامه بيأس، وقال بصوت خافت:

- مفتكرتش أي حاجة.

أشعل الطبيب سيجارة وهو يقول ببرود:

- أكيد افتكرت بس اللي افتكرته عقلك مقدرش يستحمله، فمسحه تاني.

نهض "عز" بهدوء، وخرج دون أن ينطق بحرف واحد. ترك الطبيب خلفه، بينما شياطين الأرض والجحيم تتراقص داخله، معلنة حربًا لا طرف فيها إلا هو.

دلف "أمير" إلى غرفة الطبيب الذي كان ينتظره بهدوء. بعد لحظات من الصمت، بدأ الطبيب يسرد له كل ما حدث خلال جلسة التنويم المغناطيسي.

تنفس "أمير" الصعداء، وشعر براحة غريبة تغمره. قال بهدوء:

- أنا عاوز أخويا يخف، لكن مش عاوزه يفتكر. أظن قصدي واضح... مش عاوز الحالة تتكرر، ومش عاوزه يفتكر أي حاجة.

أومأ الطبيب بتفهم، دون أن ينبس بكلمة. أدرك تمامًا ما يعنيه "أمير". هناك بعض الذكريات التي لا يجب استعادتها، لأن استرجاعها قد يكون بمثابة حُكم بالإعدام على الروح.

خرج "أمير" من العيادة، وكأن حملاً ثقيلاً قد أزيح عن كاهله. شعر بالارتياح، على الأقل في الوقت الحالي. فقد أدرك أن هناك حقائق قد تكون نهاية لكل شيء، حقائق لا يجب أن ترى النور أبدًا.

في الليلة الأولى بعد الفراق، جلست على زاوية الغرفة، تحدّق في فراشها الخالي وكأنها تبحث عن طيفه. لم تبك، بل ظلت ساعة كاملة تكبت دموعها، تحارب ضعفها. لكن حين نهضت، لم تتحمل الأرض ثقل خطاها، فسقطت على ركبتيها وأجهشت بالبكاء، تضرب الأرض بيديها وكأنها تعاتبها على صمتها.

أمسكت هاتفها، تتصفح رسائلهما، تتوق لإشارة، كلمة، أي شيء يدل على أنه يفتقدها. لكن لم تجد شيئًا. لم يعتذر، لم يرسل شيئًا.

نهضت مجددًا واتجهت إلى الحمام، فتحت المياه على جسدها، لعلّها تغسل حزنها. لكنها شعرت وكأن الماء يشاركها بكاءها. تحت وطأة الذكريات، شعرت وكأنها تتلاشى، وكأن قلبها أصبح مكشوفًا، عاريًا، يرتجف بين الواقع والخيال.

تساءلت في داخلها: هل يمكن أن تستمر الحياة بدونه؟ تذكرت البداية حين كان منقذها من قسوة الزمن، وكيف انتهت الحكاية حين رأى حقيقتها وتركها لغيرها. بين البداية والفراق، حملت قصصًا لا يمكن للزمن أن يمحوها.

جلست مجددًا، وضعت رأسها بين يديها، تحاول ترتيب أفكارها المبعثرة. فجأة، شعرت بلمسة والدها الحانية، حين شبك أصابعه في خصلات شعرها واحتضن رأسها برفق. قال لها بصوت مليء بالحب والحنان:- أنتِ عارفة إنك أغلى حاجة عندي؟ عارفة إني مليش غيرك؟ أنا طول حياتي بحميكي، ممكن متأذيش نفسك؟

انهارت أمام كلماته، وارتفع بكاؤها إلى نحيب وعويل. تشبثت بملابسه كأنه آخر ملاذ لها. بصوت متقطع، قالت:

- مش قادرة أنساه، مش عارفة أكرهه. بحبه هو كان كل حاجة لي. كان بينقذني من أي حاجة، هو اللي كان بيهربني من ماما. كان أجمل حد عرفته.

حاول والدها تهدئتها، فقال بصوت هادئ:

- متنسيش ومتكرهيهوش، مش لازم تكرهيه عشان تخرجيه من قلبك كحبيب. في علاقات أرقى وأعظم من الحب. الذكريات حلوة، لكن ماينفعش تعيشي في حب من طرف واحد.

لكن كلماته لم تجد صدى في قلبها. حقد داخلي بدأ يتسلل إلى نفسها:

- بابا، لو سمحت كلم لي عبدالله.

رغم عدم فهمه، نفذ طلبها. لم يمر وقت طويل حتى حضر عبدالله، ودخل عليها بنظراته المعتادة، مليئة بالحب وربما بالهوس:

- وحشتيني أوي يا نعنعتي، أنتِ كويسة، صح؟

لم تُعر حديثه اهتمامًا، سحبت نفسًا عميقًا وأغمضت عينيها كأنها تتهيأ لتفجير قنبلة داخلية. بصوت ثابت، رغم الانهيار الذي يعتمل داخلها، قالت:

- ادخل واطلبني من بابا، يا عبدالله. أنا مش هنتظر أكتر من كده.

وقف مذهولًا للحظات قبل أن تنفرج أساريره. شعور السعادة غمره كطوفان، تنفسه متسارع وكأنه يركض نحو حلم تحقق أخيرًا. أمسك بيديها بحماس:

- أنا فرحان، بجد مبسوط. بص، خطوبتنا في أي وقت. أنا، أنا هكلم عمي حالًا!

تركها ليبلغ والدها، وكأن حياته تبدأ من تلك اللحظة. أما هي، فما إن أدار ظهره، حتى انهارت مجددًا. دموعها سالت بحرارة، وانهار جسدها على الأرض كأنها تُسلم أخيرًا للحقيقة الموجعة. حاولت منع نفسها من البكاء، لكن لا جدوى.

كانت تعرف في أعماقها أن الشوق، إن لم يُعيد من فقدته في الليلة الأولى بعد الفراق، فلن يعيده الزمن أبدًا.

في بعض الأحيان، يكون سبب عذابك أنك أحببت من لم يقدر حبك في وقته. وحين يعود الحب متأخرا، تكون اللعنة قد اكتملت. هي أحبت ولم تنل، أما هو، فقد أحبها الآن، ولكن هل ما زال حبها حيا كما كان؟

ضحايا الحب... هذا ما أصبحا عليه.

دلفت بإرهاق إلى المنزل بعد يوم عمل شاق تراكمت فيه المسؤوليات. ورغم التعب الذي يثقل كاهلها، شعرت بفخر يعتريها؛ فكل خطوة تخطوها تقربها من تحقيق حلمها.

ألقت نظرة متفحصة على تلك الجالسة بهدوء في الزاوية، علامات الحزن مرتسمة على وجهها. وضعت حقيبتها وتطقت بهدوء:

- جنى، مالك؟ ليه ما نزلتيش الجامعة؟

لم تجب "جنى"، بل هرعت إليها، تختبئ في حضنها، ودموعها تنهمر كشلال يشق طريقه على وجنتيها.

ربتت على كتفها، تمسد خصلات شعرها، وهمست بصوت مطمئن وهي تضمها:

- احكيلي، قولي كل اللي حصل، أنا هنا جنبك.

امتزجت كلمات "جنى" ببكائها حتى تحولت إلى عويل:

- لأ، انتِ مش موجودة! مفيش حد أصلاً موجود! "جميلة" سابتني واتجوزت، و"سما" كمان بقت زيها، من يومها ما بتكلمنيش. حتى انتِ، انشغلتي بشغلك ونسيتيني... بعد ما تعودت على الونس، على وجودكم، على إني مش لوحدي. انتِ عارفة إني بخاف. بخاف أكون لوحدي... وحتى انتِ هتسيبيني.

انفجرت بالبكاء، وتشبثت بملابسها كطفلة تائهة وجدت والدتها أخيراً في بحر من الخوف.

احتضنتها بقوة، وهي تهمس بين دموعها:

- أسفة، حقك عليا. والله ما انشغلت عنك. انتِ مش لوحدك، أنا هنا، ومش هسيبك. أوعدك، طول ما أنا موجودة مش هتكوني لوحدك أبداً.

بعد فترة من الحديث المتبادل، هدأ الجو بينهما. عادت الأمور إلى طبيعتها، واستأنفتا حديثهما المعتاد عن يومهما وتفاصيل حياتهما الصغيرة.

بدأت "جنى" تحكي عن "سليم"، الرجل الذي لم تتخيل يوماً أن يكون بهذا الحنان. أتى بحب لم تتوقعه. أدفأ قلبها وملأ حياتها بالضوء. كان وجوده بمثابة معجزة، أكبر من كل أمنياتها، وأشد حناناً عليها من ذاتها.

قضوا الليل بتلك الطريقة، يتبادلون الحديث وكأنهم يعيدون بناء أجزاء من أنفسهم المحطمة. أثبتت أحاديثهم أن الشفاء أحياناً يكمن في الأصدقاء، حتى لو كانوا هم أنفسهم مثقلين بحطام أرواحهم، منهزمين أمام أفكارهم، أو باتوا كالرماد.

نتعافى بوجودهم، بصحبتهم، حتى لو جلسنا في صمت. نتعافى بذكراهم في غيابهم، وبإحساس أن هناك من يتقبلنا كما نحن، دون شروط أو مقابل. نتعافى عندما نعلم أن هناك عناقاً دافئاً ينتظرنا في نهاية الطريق.

في أحد الشوارع الخاوية، على زاوية رصيف متآكل، وفي ساعة متأخرة من الليل، حيث الظلام يتصارع مع الصقيع، كانت تقف كظل باكٍ، تنتظر لقاءً طالما تمنت أن يلتقي فيهما نظرهما.

أحكمت معطفها حول جسدها الهزيل، محاولة التصدي للبرد القارس الذي ينهشها. كانت ترتجف، ليس فقط من البرد، ولكن من خوفها الذي يتسلل في كل لحظة انتظار.

في المقابل، كان هو يسير بخطى مثقلة بعد انتهاء عمله، رافضاً استراحة عرضها عليه مديره. لم يكن خوف المدير من إنهاكه يهمه بقدر خوفه من مواجهة شبح الوحدة الذي يترقب عودته كل ليلة. بعد منتصف الليل، يصبح غريباً؛ لا أصدقاء، لا أحباب، ولا حتى أعداء. كانت الوحدة رفيقه الدائم، تهمس له بهدوء قاتل، تغمره في ظلام لم يعد يهرب منه بل صار يسكن فيه.

حينما تلاقت أعينهما، كانت نظراته باردة، خالية من أي تعبير. أما هي، فنظرتها كانت مشحونة بالرجاء، وربما كانت زائفة. كانت تتوهم دائماً أنها تملك زمام الأمور، لكن لم تكن يوماً مستعدة للعودة إليه باكية، طالبة الغفران.

نطقت بصوت متحشرج، أمسكت يده وهي تحاول إيقافه قبل أن يبتعد:

- علشان خاطري، يا "حسام"، متسبنيش. اسمعني طيب.

لكن كلمتها لم تصل، فقد نفض يدها بقوة، ونظر إليها بعينين جافتين من الشفقة. تحدث بنبرة قاسية:

- معدش ينفع، مبقاش ليك خاطر عندي من الأساس، أنت قتلتي آخر اللي فضل من قلبي، حتى لو واحدة تانية قدرت ترممه، مش هيكون من حقك ترجعيله.

كانت كلماته كصفعة، لكنها لم تستسلم. رفعت صوتها، محاولة اللحاق به، محاولة إيقاف انهيار كل شيء:

- محدش من حقه يكون معاك غيري! "حسام"، أنا مراتك، أنا اللي وقفتي جمبك، أنا اللي عرفتها كل حاجة عن ولادك! أنا اللي استاهل أكون معاك.

توقف، وأدار وجهه نحوها، بنظرة تعج بالغرابة، وكأنها أصبحت شخصاً لا يعرفه، أو ربما لم يعرفها يوماً. قال بسخرية مريرة:

- لا، مش من حقك،أنت اللي قتلتي حبي الأول، أنت اللي أسقطت ابني، أنت اللي بعدتي أهلي عني لحد ما خسرتهم، خليتيني وحيد، خايف حتى من قرب الناس. مش هرجع أبداً، يا "نبض". مش هرجع أبداً.

ثم استدار ومضى مسرعاً. كان يجري، يحاول الهروب من الأصوات التي تمزق داخله، لعلها تسقط منه، أو تضيع في زحام الطريق. لكنه يعرف جيداً، لا فائدة. كان يشعر بأنه ترك قلبه في مكان مهجور، مليء بالوجع. ومنذ ذلك الحين، يبحث عن طريق للعودة إلى نفسه، دون جدوى

بينما كان يجلس برفقة زوجته التي أصبحت أخيراً شريكة حياته، شعور بالدفء اجتاحه، وكأن العالم الخارجي لم يعد له وجود. كانا قريبين جسداً وروحاً، لكنه تمنى لو اقتربت أكثر، أن تذوب المسافات بينهما حتى يتنفسا نفس الزفير، شعور بالترابط الروحي الذي يصعب وصفه.

وضعت يدها على رأسه بلطف، نظراتها تنطق حباً صادقاً:

- إيه رأيك نفك العزلة دي وننزل تتمشى سوا؟

أومأ برأسه بهدوء، واحتواها بذراعيه. أخذ نفساً عميقاً، محاولاً ترتيب كلماته:

- جميلة، هو مهما حصل، مش هتسيبيني، صح؟ أنا، في وقت من حياتي، كنت تحت ضغط رهيب. عملت حاجات كتير غصب عني، والله كان غصب عني، كنت مهدد.

توقف فجأة، وكأن الكلمات خانته، أو ربما الخوف من استدعاء أشباح الماضي كتم صوته. ماضٍ كان يتمنى لو يُدفن للأبد، بعيداً عن عينيها وعن قلبه.

ابتسمت له بهدوء، وضمت رأسه إلى صدرها، وكأنها تطمئنه أن كل شيء سيكون بخير. همست بحنان عميق:

- مش عاوزة أعرف، كل اللي يهمني إنك معايا دلوقتي، يا أحمد. الماضي انتهى، نسيته أنا، وانساه انت كمان. اعتبر إننا بنبدأ من جديد. بس أوعى تنساني، ماشي؟

تأملها لوهلة، ثم ابتسم وهو يستحضر بيت شعر لم يكن يعرفه من قبل، وكأنه وجد صوته في لحظة حب خالصة:

«يا ساكن القلب، لا تبرح نواحيه	فأنت من نبضه، بالقرب تحييه
لو صار عندك شك أنني بغدٍ أتسالى	قل لي، أينسى الوردَ ساقيه؟»

أحاطهما الصمت بعدها، لكنه كان صمتاً مريحاً، صمتاً مليئاً بالوعود التي لا تحتاج إلى كلمات.

في الحياة، الذكريات قد تصبح أعداء إذا سمحنا لها بالسيطرة.

لذا، أحيانا، يكون أفضل قرار هو دفن الماضي والمضي قدما، لنعيش بسلام .

أشرقت الشمس معلنة انتصارها في معركتها الأزلية مع الليل، لتبسط ضوءها على العالم، مانحة كل إنسان لحظاته الخاصة بطريقتها الفريدة.

كان "سيف" جالساً في غرفة المعيشة، يشاهد مسلسله المفضل بينما يجهز ملابسه استعداداً للخروج إلى عمله. لكن نظرات زوجته "سما" كانت تخترق هدوءه، مشحونة بالغضب. التفتت إليه قائلة:

«بردو هتنزل وتسيبني يا "سيف"؟»

ابتسم بهدوء، واقترب منها ليحتضنها ويطبع قبلة دافئة على جبينها:

- والله يا حبيبتي، أنا لازم أنزل، أنتِ عارفة حال البنت "دهب" هناك. أنا خايف عليها جداً، المستشفى دي مش أمان.

أومأت برأسها متفهمة، وعادت لوضع اللمسات الأخيرة من مكياجها أمام المرآة. التقط "سيف" المشهد بحب، يتأملها باستغراب خفيف قبل أن يقترب ويحتضنها من الخلف، عاكساً صورتيهما في المرآة.

همس لها برقة:

- عارفة إن شكلك من غير ميكاب أحلى بكتير؟ ساعات ببص لوشك كده وأتأمله، سبحان اللي خلقه. أنا فاهم إن الميكب بيغير الشكل وكل البنات بتحبه، بس صدقيني، أنتِ طبيعية أجمل.

نظرت إليه بعينين ممتنتين، وابتسامة شكر ترتسم على وجهها. في تلك اللحظة، شعرت بأنها محظوظة بحب رجل كهذا، يحبها بكل تفاصيلها.

قالت بحب صادق:

- أنا عمري ما هقدر أشكرك على كل اللحظات الحلوة دي، ولا على وجودك جنبي.

ابتسم، مشبعاً بحبها، وعينيه تغزلان ملامحها بحنان:

- مش مهم تشكريني. أنا مش عايز شكر. أنا بس عايز أشوفك مبسوطة. أنتِ الحياة، وكل مودتي. أنتِ المحبة اللي لو غابت، تصحى نجومي، ولو سهرت ليالي، أنتِ الحلم اللي برتاح في حضنه.

ضحكت بخجل وهي تودعه. بعد أن خرج، عادت إلى المرآة، وبيدها بدأت تمسح بقايا المكياج عن وجهها. للحظة، توقفت وتأملت ملامحها بعين مختلفة.

لأول مرة، رأت جمالاً لم تكن تلاحظه من قبل. لأول مرة، شعرت بأن عينيها، شفتيها، وكل تفصيل صغير في وجهها يستحق الحب. فهمت حينها كيف يمكن للحب أن يعيد تشكيل صورتنا عن أنفسنا، وكيف يصبح كل شيء جميلاً في عيون من يحبنا بصدق.

كان يمسك بهاتفه، يراقبها من خلال الكاميرا، يلتقط كل لحظة، وكل ابتسامة ترتسم على وجهها. كل صورة كانت تحمل في طياتها جزءًا من سعادته بها، وهي بجانبه.

أما هي، فكانت تشعر بالدفء والطمأنينة وهو قريب منها. اقتربت منه لتلقي نظرة على الصور، لكن ابتسامتها بدأت تتلاشى تدريجيًا. بدا وكأن كل كلمة قاسية سمعتها في حياتها عادت تصدح في أذنيها.

بصوت مهزوز، قالت وهي تبتعد بعينيها:

- مش حلوين صح؟ مفيش فيهم فلتر، والشمس كمان عكسه على وشي امسحهم يا "عز".

أمسك بيديها بلطف، وأعاد النظر إلى الصور، لكن هذه المرة من منظوره، لا من منظورها. بابتسامة مفعمة بالحب والتفاهم، قال:

- أنا شايف بنت جميلة، عندها عينين لونهم زي القهوة، وابتسامة زي السكر، وسنان شبه اللؤلؤ. بالفلتر أو من غيره، بالمكياج أو من غيره، تحت الشمس أو تحت القمر، أنتِ اللي حلوة، وجمالك طاغي على كل ده.

كلماته كانت صادقة، نابضة من قلب يعشق كل تفاصيلها. لكن الكلمات وحدها لم تكن كافية. دون أن تنطق بشيء، احتضنته بقوة، ولفّت ذراعيها حول رقبته. لم تهتم بنظرات المارة أو بأي شيء آخر، وكأن العالم بأسره توقف عند تلك اللحظة.

كان هذا الحب من نوع خاص، حب خالص، متجرد من كل حسابات أو شروط.

بصوت متقطع، لكنه يحمل كل ما في قلبه من إخلاص، قال:

- اوعديني، مهما عرفتي عني، مش هتسيبيني. أنا خايف، خايف من كل حاجة، من نسياني، إلا أنت. عارف إنه حتى لو عقلي نساكي، قلبي مش هينسا. عيني اللي اتحفرتي جواها مش هتقدر تنساكي، يا "زينة بنات الأرض كلها".

هناك حب، وهناك عشق، وهناك غرام . لكن هناك أيضا نوع آخر، نادر، لا يفهمه إلا الفلاسفة، ولا يؤمن به إلا من تاهوا يوما ووجدوا أرواحهم في شخص آخر .

دلف إلى الغرفة بعنف، يدفع الباب وكأنه يحاول طرد كل مخاوفه معه. عيناه تشعان بالغضب والخوف، يرفض أن تعيد الحياة لعبتها القاسية معه مرة أخرى.

كان الطبيب "إسماعيل" جالسًا، ينظر إليه ببرود مستفز، وكأنه لا يعبأ بالعاصفة التي اقتحمت غرفته.

صرخ "سيف" بغضب، صوته يكسر الصمت:

- "دهب" فين؟! البنت دي من الحالات اللي بتابعها. إزاي تسمح لنفسك تاخدها بدون ما تقول لي؟!

ابتسم "إسماعيل" بسخرية، ورد ببرود قائل:

- كيفي كده النهاردة، يا دكتور.

توهج الغضب في عيني "سيف"، لكن رده جاء مشبعًا بالسخرية الممزوجة بالتهديد:

- ده على افتراض إننا قاعدين نحشش هنا! كيفك إيه وزفت إيه؟ قسمًا بالله لو البنت حصلها حاجة، مش هسيبك تعيش ثواني بعدها.

لم يكن "إسماعيل" سوى صورة من البرود المتجسد، يحدّق في "سيف" بابتسامة استهزاء، وكأنه لا يرى أمامه خطرًا حقيقيًا. قال بسماجة:

- على العموم، البنت أبوها أخدها، وهترجع كمان يومين.

رغم أن "سيف" تنفس الصعداء، إلا أن نظراته لم تهدأ. اقترب منه، وجهه صار وجه التحذير ذاته، وقال بفحيح يقطر غضبًا:

- ماشي. بس خلي بالك، كل اللي قولته دلوقتي ممكن أنفذه عادي جدًا. خاف مني، يا دكتور. أنا مش زي اللي اتعاملت معاهم قبل كده. خاف مني.

ضحك "إسماعيل" بسخرية زادت من استفزاز الموقف، وقال بفم ملتوي وبنبرة استهزاء مبالغ فيها:

- يامي يامي، خاف يا عيد! ماشي يا دكتور، هخاف، حاضر.

غادر "سيف" الغرفة، لكنه ترك وراءه صمتًا ثقيلًا. لم يكن "إسماعيل" يدرك أنه تعامل مع نوع مختلف من الرجال. "سيف" لم يكن من أولئك الذين يصرخون كثيرًا أو يظهرون غضبهم بسهولة. حديثه دائمًا مختصر، أفعاله هي التي تتحدث.

كان على "إسماعيل" أن يدرك حقيقة واحدة: أن في الوجوه الأكثر هدوءًا، قد يختبئ أخطر الشياطين، تلك التي لا تُظهر نفسها إلا حين يحين الوقت لتدمير كل من يستهين بها.

داخل المنزل، حيث اجتمعوا كعادتهم بعد أحاديث طويلة وسرد كل ما جرى في الأيام الماضية، كان التوتر ملموسًا في الأجواء. بعد أن انتهى "سيف" من الحديث، بادر هو بالكلام، قائلاً بحزم:

-إحنا لازم نتحرك في موضوع المستشفى ده، أنا هبلغ "حسام".

لكن "إسلام" رد عليه بغضب معتاد في الآونة الأخيرة، غضب كان واضحًا في نبرته المتصاعدة:

- ما تقولش إحنا، اسمها أنا محدش موافق على الهبل ده، وأنا برا اللعبة دي، أنا عندي بيتي ومراتي وابني ولا بنتي اللي جايين، عندي أهل أخاف عليهم مش زيك، مليش حد يخاف عليا ولا أخاف عليه وبعدين، مستشفى إيه؟ إحنا مالنا بكل ده؟ دي مشكلتك مع "أنس"، حلها بقا. ولو متحلتش، أنا ماليش دعوة، لا خطفني ولا عمل لي حاجة.

صمت للحظة وكأن صدى صوته يتردد في الغرفة، قبل أن يتداخل بقية الحضور في محاولة للتشويش على حديثه القاسي.

أما هو، فقد جلس في هدوء مخيف، يتظاهر وكأن شيئًا مما يحدث لا يعنيه، لكن الحقيقة كانت عكس ذلك تمامًا. كلماته التي سمعها كالسكاكين، كانت تنغرس عميقًا في روحه. ظل هادئًا، أطولهم صمتًا، وأبعدهم عن المشاركة. في تلك اللحظة، بدا غريبًا حتى عن جسده، وكأنه لم يعد ينتمي لهذا المكان أو لهؤلاء الناس.

بعد برهة من الصمت المشوب بالاستياء، رفع عينيه إلى "إسلام"، وتحدث بنبرة هادئة على غير عادته، لكن نظراته كانت مليئة بالاشمئزاز والخذلان:

- حاضر يا "إسلام". أنت براها من دلوقتي، بس أنت صح، أنا يمكن مليش حد يخاف عليا زي ما قلت، لكن عندي اللي أخاف عليه، عندي أنتوا، يا صحابي، ولا نسيت إن فعلاً مليش غيركم؟ على العموم، زي ما قلت، دي مشكلتي.

ترك كلماته تتردد في الغرفة، قبل أن يصمت مجددًا، تاركًا الجميع غارقين في ثقل المعاني التي لم تُقال، وفي أصداء العلاقة التي بدأت تتصدع شيئًا فشيئًا.

في الحقيقة، قد لا يزعجنا القول، لكن ما يولمنا هو القائل. وقد لا يؤثر الفعل، لكن الفاعل قد يصدمنا بأفعاله.

لم يتحمل " محمد " الحديث، فتركه وهرب بعيدًا، ليعطي نفسه قسطًا شحيحًا من الهدوء. لكن الصمت لم يكن له، حتى ولو لثانية، وسط هذا الصراع المستمر بداخله، هذا الصراخ الذي يشق روحه.

شعر بيد تربت على كتفه، فتلقاه في حضنها الدافئ. لم ينطق بكلمة واحدة، ولكن لولا يداه اللتان تمسحان عن قلبه هذه التراكمات من الألم، لما كان له وجود. ربما كان قد أصبح مدينة مندثرة منذ عصور. لولا وجود صديق مثله، لكان قد اعتقد أن العالم قد انتهى منذ زمن طويل.

تحدث "أحمد" بأسف وتهدئة، محاولاً مواساته:

- حقك عليا، أنت عارف أنه كده. طيب، حاسس بإيه دلوقتي؟

وقف أمام السؤال لساعات طويلة، ربما سنوات.

لا يعلم ما الجواب المناسب. هل يخبره أنه يشعر بداخله كما لو كان يحترق؟ أم أنه يشعر بجليد؟

هل شعرت يوما أنك منهك من كل شيء حتى من رفرفة رموشك؟ حتى إغلاق عينيك أصبح مؤلما؟ هو شعر بكل ذلك.

قبل أن يغرق في بحر من التفكير، رنّ هاتفه معلنًا عن مكالمة. كان الرقم غير مسجل، فاستهل المحادثة بتساؤل:

- مين معايا؟

جاء الرد من الطرف الآخر بصوت مألوف:

- معقولة مش عارفني؟ أخص عليك.

أجابه بسخرية، وقد فاض به الكيل:

- لا والله، يا هضبة، متعرفتش على أحبالك الصوتية؟ هتقول لي أنت مين؟ ولا أعمل من أحبالك الصوتية أحبال غسيل؟

من الطرف الآخر جاء صوت ضحكات مألوفة:

- طيب، افتح الباب، علشان جيالك مفاجأة من العالم الآخر. سلام يا "ديدو".

أيقن "سيف" أن المتحدث يعرفه، فخرجوا معًا إلى الباب مهرولين. هناك، أمامهم، كان آخر شخص يتوقعون رؤيته في هذه اللحظة.

قال "سليم"، قبل أن يسقط مغشيًا عليه من الصدمة:

- "أدريان"، أنت عايش ولا ده عفريتك؟ ده قام من الموت!

ثم أغشي عليه، تاركًا الجميع في صدمة. "سيف" تحرك للأمام، لا يعلم أنه يسير نحو هلاكه. لم يعد يرتعش، ولا يهتم إذا كانت السماء ستمطر ألمًا أو قسوة.

البارت الثلاثون

"أسطورة موت"

عندما تظن أن الحقيقة قد اختفت وتلاشت، وأن ماضيك المليء بحلكة الليل قد انتهى، دعني أخبرك أنك مخطئ.

الحقيقة ستعود، حتى وإن مرت آلاف السنين.

بعد فترة، كانت الصدمة تسيطر على الجميع. عاد "سيف"، الذي كان دائمًا متماسكًا، ليفيق صديقه من الإغماء.

أفاق "سليم"، ثم نظر حوله، فوجد أن ما كان يظنه حلمًا ليس سوى حقيقة أمام عينيه. فتح عينيه على مصراعيها بفزع:

-انت "أدريان"، إزاي؟!

نهض الآخر وهو يتمتم بسخط، غاضبًا:

- تبًا لك أيها اللعين، ما بك يا أبله؟

صرخ "سليم" بفزع، ثم سقط مغشيًا عليه مجددًا. نظر الجميع إليه، ثم تفرقوا ونظروا بعيدًا، متجاهلينه.

تحدث "محمد" بوجه مليء بالصدمة، وكأن ملامحه لوحة في أحد المتاحف:

- إزاي انت عايش؟ أنا متأكد أني دفنتك بيديه، إزاي؟

نظر إليه "سليم" بنفس الصدمة، واقترب منه بعنف، والدموع تتراكم في عينيه:

- من اللي مات؟ نطق، اللعين! ماذا حدث لأخي؟ أين "أدريان"؟ تكلم وإلا قتلتك!

لكن "محمد" لم يكن في حال يسمح له بالصمود. بدأت قواه تتراجع، فاسترجع تفاصيل تلك القلادة، وبدأت الذكريات تتجمع في ذهنه، تقض مضجعه وكأنها معركة في عقله:

- مات "أدريان"، مات اتحرق قدامي، أخوك مات علشان ينقذني، و"نائل"مات كلهم ماتوا، أنا بس اللي بتعذب.

انقض "سليم" عليه، مسددًا له اللكمات بكل قوته، بينما كان الآخرون يحاولون بكل الطرق أن يبعدوه عن صديقه المستسلم، الذي فقد قدرته على المقاومة:

- انت قتلت أخي، قتلت صديقك وماذا عن ابن عمي؟ هل قتلت "نائل" أيضًا؟ لماذا؟! لماذا؟! أخي وثق فيك، و"نائل" أيضًا وثق فيك، أنا ليس لي سواهم، ارجوك، أخبرني أنك تكذب! أخبرني، أخي "محمد".

كان "أحمد" يحاول بشدة أن يبعده عن صديقه حتى نجح في ذلك، وأبعده عنه، ثم احتضن جسده المستسلم، الذي كان يستنشق أنفاسه بصعوبة وكأنه يحارب الأمواج.

تفوه "أحمد" بهدوء وهو يحمله بعيدًا، محاولًا إيقاظه من الصدمة:

- أنت كويس؟ صح؟ مش ذنبك في كل ده، تسمعني؟

بينما كان "محمد" في مكان آخر، كانت الذكريات تتقاذفه بلا رحمة، كسوط على جسد عارٍ، كان يحاول استنشاق أنفاسه، ولكنها كانت تنهال عليه مرة أخرى.

تحدث، والغضب يشتعل في عينيه كالنار:

- أنا "أصلان باريش"، الأخ التوأم لـ"أدريان". أنت قتلت أخي وابن عمي، وأنا لن أترك حقهم أبدًا.

أمسك به "سيف"، الذي بدأ يفقد صبره، ودفعه بقوة، عكس تمامًا شخصيته المتزنة المعتادة:

- إنت بتتهدد مين؟ هو إيه ذنبه؟ وبعدين كنت فين في كل ده؟

كانت قدماه لا تقويان على الوقوف، لكنه استجمع قواه وتوجه إليه، بينما كان الآخرون يحاولون منعه. كان يصيح والبكاء يملأ وجهه، والدموع تمحو ملامحه:

- قل لي كيف قتلوا أخي؟ قل لي لماذا أخذوا مني كل شيء! كان صديقك، كيف تركته؟ كان يقول "أخي محمد"، كان يقول إنه مش هيتخلى عني أبدًا! كان يحبك، كان يثق فيك! ما ذنب "نائل"؟ كان شخص عادي، لماذا قتلت عائلتي؟ عمي وزوجته وابنة عمي، و"نائل"؟! ألم يكن كافيًا أنني فقدت أخي وعائلتي؟ كان "نائل" أقربهم إليك، لماذا تركته؟

كانت الكلمات كالأحجار الثقيلة على قلبه الذي تمزق إلى ألف قطعة. ابتعد "محمد" عنهم، وملامحه جامدة وكأنه بلا مشاعر. حاول أن يأخذ نفسًا واحدًا، لكن حتى الحياة تآمرت عليه، فشهق قبل أن يسقط أرضًا. لم يعد يستطيع كبح الصرخة التي انفجرت منه، صرخة ترجمت كل شيء مرّ به منذ أول لحظة.

شعر بـ"عز" يحتضنه من الخلف، وهو يربت على قلبه بهدوء، وتمتم في أذنه:

- أنت ماعملتش حاجة، مش ذنبك يا "محمد". علشان خاطري، اهدي، علشان "هاجر"، علشان ماماتك، علشان إحنا كلنا واحد. لو ضاعت منا، مش هنكمل.

وبعد لحظات، حدث شيء آخر لا يمكن أن يتصوره عقل. قهقه بصوت مرتفع بينما نهض من على الأرض، ودلف إلى الداخل، عائدًا إليهم مرة أخرى. أمسك بـ"أصلان"، الذي كان لا يزال يبكي:

- إنت جاي تسأل عن أخوك بعد ما مات؟ جاي تحسبني، وأنا مسألتش ليه في الشارع؟! فكرت فيّا وهو مرمي في الشارع وإحنا مخطوفين؟! عائلتك دول عيلتي؟! أكيد تقصد "عادل"، أبويا اللي رماني وكأني ابن حرام؟ ولا تقصد أخته، اللي ودّتني للنار وقالت عليا مجنون؟ ولا "أنس"، اللي حاول يقتلني مرتين؟ مين إنت أصلاً؟ مين تعرف إيه؟ "أدريان" أخويا، أنا مش أخوك! "نائل" كان مستعد يفديني بروحه علشان أخويا. لو مفكر إنهم ماتوا، وأنا اللي نجيت، عيد التفكير، لأنهم هما اللي نجوا.

ورغم أن المشهد أعاد نفسه في عقله، في اللحظة التي كان يجب أن يلين فيها ويتنفس ولو لدقيقة. عاد المشهد ليزيد قسوة في قلبه، حتى على نفسه.

بكى أحمد رغماً عنه، وهو يرى صديقه أمامه يتعذب، وكأن العالم يتغذى على عذابه:

- كفاية علشان خاطري، علشاني أنا. أنا مليش غيرك. أنت مش وعدت نائل إنك مش هتميل؟

كان دائما يشعر أنه لا ينتمي لهذا العالم.

كان يودع الكثير من نفسه في ليلة واحدة.

والآن يتخلص من العاصفة.

تفوه بغضب، وبين طياته الحزن، وهو يبتعد عن الجميع:

- ابعدوا عني، ابعد عني أنت كمان أنا باذيكم، أنا السبب في كل حاجة وحشة حصلت. أنا السبب. ياريتني ما كنت جيت، ليه اتولدت؟ ليه؟ وهم مش عاوزني؟ انتوا ليه عاوزني أصلاً؟ ده أنا أهلي اللى من دمي مش عاوزني. انتوا إيه؟

سارع أمير بالرد، متقدماً ليطوقه بعناق، قائلاً بهدوء:

- إحنا أهلك. أنت، برغم كل اللى فيك، جزء مننا. أنت عارف إن لو ربنا رزقني بطفل، كنت عاوزة زيك. أنت أخويا. إحنا عيلتك.

تسلل الأخير، يسحب أحمال العالم في خطواته، ودموعه منهمرة على وجهه، وهو يرى الحقيقة أمامه. هو الآن بلا عائلة، بلا أب، بلا أم، بلا أخ، بلا وطن، وأيضًا بلا روح.

قال عز وهو يسحبه من يده:

- أصلاً لو تائل وأدريان مش موجودين قدامك، هما جوه كل روح هنا. ادخل.

أين الواقع وقد تخلى عنا الخيال؟

وأين العائلة والمقابر في القلوب؟ وأين الأحباب إذا كانوا قد رحلوا؟

لديك في هذه الحياة فرصتان: إما أن تكون أنت، أو تكون مجموعة من الدوافع والأسباب. وهو اختار أن يكون هو، وهو فقط.

كان "عمر" بعد عمل طويل، أخيرًا يأخذ قسطًا من الراحة، لكن عينيه كانت مثبّتة على شخص آخر، حتى لحظة هذا الذي يجلس أمامه.

سأل "عادل" بحاجبين معقودين، وهو ينظر له قائلاً باستياء:

- بتبصلي كده ليه يا "عمر"؟

أجاب "عمر" بصدق، وهو ينظر له وكأنه مندهش:

- بصراحة مش مصدق. يعني الصورة اللي رسمتها عنك في خيالي إنك أناني، ومش ممكن تساعد حد، لكن الأيام اللي فاتت دي عكستها. يعني فضلت مركز معايا وساعدتني في إني أبدأ من جديد، وكمان "هاجر" اللي بقيت جنبها في كل خطوة. سؤال واحد بس اللي طرحته في دماغي: إشمعنا "محمد" مكنش ليا حق في كل اللي أنت بتعمله ده، برغم إنه ابنك؟

رجفة سرت في جسد "عادل" وهو يستمع لحديثه. للمرة الأولى في عمره، ليس لديه إجابة. لماذا شعر الجميع بحب ابنه؟ وكان السؤال الذي طرحه على نفسه منذ سنوات: لماذا شعر الجميع بحب والدها؟ أما الآن، فهو يسأل نفسه:

- معرفش. أنا يمكن حاولت معاكم، بس "محمد" أصلاً مش سايبلي فرصة أعمل ده، ولو سابلي فرصة، مش هعرف أعمل حاجة مع حد معرفوش.

تنهد "عمر" بهدوء، وهو يخرج كل شيء بداخله بدون تردد. تفوّه بهدوء، مكشفًا حقيقتهم جميعًا العارية:

- تعرف إنني دائمًا بشوف نفسي أب فاشل؟ بحاول بكل الطرق، لكن اكتشفت إني كنت المفروض أحس بابني أكتر من المحاولات. "محمد" هو كان سبب في كل ده. هو اللي قال لي يوم ما كنت لوحدي، "رحاب" طلّقت وأنا خسران كل حاجة، قال لي: لو خسرت الكل، اكسب ابنك. قال لي متخلهوش يطلع زيي. بس اللي هو ميعرفهوش إني أتمنى يطلع زيي، مش زيي، أنا خايف أبقى زيك في يوم.

نظرة مليئة بالحديث خرجت من عينيه وهو ينظر: هل حقًّا هو الآن مثال الأب الفاشل بالنسبة للجميع؟

تفوه بصدمه، حاول كبحها وهو يرى أمامه كيف انتهى به الأمر الآن:

- أنا محاولتش. أنت عندك حق، بس أنا مش عاوز أدخل في حاجة أخرج منها خسران، وشايف إني معملتش حاجة تستاهل كل ده من الأصل.

أومأ له "عادل" بالنفي، وهو يحاول أن يصلح جزءًا مما دمرته عائلته:

- لا، "محمد" حصل له كتير بسببنا. أنت متخيل إنك سبت لماما على أساس إنها تكون بتراعيه؟ لكن دي مش حقيقة. هي معرفتش تكون أم لينا أصلاً، مش ليه هو. أنا كل اللي أعرفه إنه اختفى من البيت وقت ما كان صغير، قبل ما نسافر ليك حتى. بعدها، ماما رجعته وكانت بتعمله كويس، بس منعته عننا وقفلته عليه. بعدين سافر مع باباه، وماما رجعته، وهو لا.

أضاف مكملًا حديثه بنفس الهدوء:

- لكن فجأة رجع، ومشفناهش. عاش مع صاحبه وباباه، وبعدها مع "سمر"، وفي كل مرة كنت بشوف واحد مختلف. أنت شوفت كم الأذى اللي أنا اتعرضتله منهم وهم أهلي؟ فتخيل أي حاجة ليه هو، وهو مش ابنهم.

وكأنه نظف غبار الخداع من فوق رأسه، كشف له ما كان يخفيه عن نفسه، خائفا من الخسارة، ولا يعلم أن تلك الرحلة لن يفوز بها بكل شيء.

قديما كانت أشعة الشمس تضيء السماء وتطغى بضوءها على كل الأنفس، أما الآن فتفعل الشمس نفس الشيء كل

يوم، لكن هناك نفسا واحدة لا تصيبها الشمس.

دلف بهدوء كان أشبه بجثة متحركة، لو نجح التشبيه لكِبَرٍ فوق عمره أعمارًا مضاعفة في ساعات قليلة.

تحدث "نبيل" بتعجب من حالتها تلك:

- إيه ده؟ مالك في إيه؟

أجابه بهدوء وهو يحاول سحب أنفاسه بقوة، كان يلهث ولا يجد نسمة هواء رقيقة واحدة تستسلم له:

- مفيش حاجة بتنتهي، أنا عمري كله هيضيع وأنا بحاول أصلح حاجات عملتها بالغصب.

اقترب منه، نظر في عينيه الزائغتين وأطرافه الباردة، وتلك العروق التي قسمت جبهته من المنتصف. تأكد أنه في نوبة على وشك الحدوث. بعد مدة، أعطاه رشفات من الماء ثم ظهر تحشرج في صوته الذي أصبح معدومًا تمامًا، لذلك وضع منشفة مبللة بماء ساخن فوق عنقه، وحاول أن يصلح ما فعله به الحزن، لكن بلا فائدة، فحزنها كان بالداخل تلك المرة.

تفوه بهدوء، بينما كانت الكلمات تخرج من فمه تشبه التوابيت تشيع لمثواها الأخير:

- "أصلان" رجع، بيحاسبني على موت أخوه.

عقد ما بين حاجبيه باستنكار، لم يتفاهم حديثه المبهم:

- مين "أصلان"؟!

أخفض رأسه للخلف وأخذ نفسًا طويلًا أخرج به كل الرماد بداخله، قبل أن يبدأ بسرد المشهد الذي عاشه:

- "أدريان" كان عند "عدنان" لما خطفني. أهله كانوا بيملكوا بيت هنا في مصر، اللي وصل له "أنس" وعرف أن تحتها آثار، وحاول يتواصل معاهم عشان يشتريه. وموفقوش لأنهم عارفين هو عاوز إيه. قتلهم كلهم بدم بارد، لكن ما كانش عامل حسابه أن "أدريان" شاف كل ده، واتنقل هو وأخوه "أصلان" عند أخت والدتهم، لكن لما عرفوا أنه هو قرر ينتقم، رموه في الشارع وسبوا أخوه.

في الحقيقة، لم يكن المشهد يروق له ولا يعجبه، لكن على أي حال هو جزء من تلك القصة، لذلك استجمع قوته قائلاً بهدوء في طياته خذلان وحزن العالم أجمع:

- بعدها شافني عند "عدنان"، أنا و"نائل" يبقى ابن عمه. كان بيقنعني إني مش مخطوف، لكن اليوم اللي قررنا نهرب كان معانا رغم اعتراضه لحد ما، حرق المكان اللي كنا جواه. أنقذني ودخل هو جواه، لحد دلوقتي معرفش السبب اللي دخله. كل اللي أعرفه أنه أنقذني، "٣" سنين شوفناه فيهم كل حاجة وحشة ممكن تتخيلها، وبرغم كده كانوا ترميم لروحي من كل الجحيم ده.

أنهى حديثه وهو يبتسم بهدوء، يشعر بشيء ما، شيء مجهول بالذنب، يقسم أنه لو كان قماشًا لقطعه من قميصه لمزقها، لو كان كوبًا لكسره، لو كان شيطانًا لحرقه، لكنه شعوره، فكيف سيتغلب عليه؟!

مازال في أثر الصدمة حتى نبس بهدوء: «كل ما أفكر أن الموضوع وصل لحد جزء معين وإني قدرت أشخص حالتك، تفاجئني بجزء أكبر. إنت عشت كل ده إزاي؟»

شعر بغصة تجتاح قلبه، سؤال عالق في نفسه: كيف عاش كل هذا؟ كيف وهو لم يبدأ في عقده الثالث حتى عاش ألف عام إلى الآن؟ ثم الآن هو يقف في منتصف الحياة عاجزًا حتى عن وصف ما بداخله. يكاد يجزم بأنه لو أصابته ذبابة الآن، سيقع أرضًا ويصرخ لأتفه الأسباب.

تحدث بهدوء يشعر بالخوف الشديد. ما زال قائمًا بداخله كل شعور مر به:

- معرفش، بس خايف طول عمري، بخاف أكون خايف، لحد ما اكتشفت إني بخاف من الخوف، وده أكبر من الخوف ذاته. خايف من اللي جاي، خايف لو عرفوا حقيقتي يسبوني. أنا خايف أكون في حلم من أحلامي. خايف ميكونش عندي أم زي "حسناء". أنا بحبها بجد، أنا طول عمري كان نفسي يبقى عندي أم، كان نفسي في حضن واحد بس. كان نفسي إيدها تلمس شعري وأنا نايم.

أردف مكملًا حديثه وهو يتذكر ما تفعله لأجله، فيبتسم مع كل جملة:

- خايف أصحى ألاقي "هاجر" مش مراتي. عارف أنا محظوظ بيها، ربنا جمع رزقي كله فيها لوحدها. جميلة أوي، بحب حماسها أوي. بحب لما أحس إني بحميها، حنينة أوي. أنا بحب حنانها، آه، أنا مديون لعينيها. بعمري كله، كل مرة بشوف عينها بيتعاد عمري من جديد. أنا خايف أخسرها. أفوق ألاقي معنديش "أحمد" صحبي اللي ممكن يعمل أي حاجة علشاني.

ميكونش في "سليم" اللي بيحلّي أي حاجة بضحتكه. ميكونش في "سيف" اللي مفيش في حنيته عليا. ميكونش في "عز" اللي يحميني بروحه. ميكونش في "أمير" اللي بيحل أي مشكلة بيصلح حاجات معملهاش. ميكونش في "إسلام" اللي رغم خناقاته، أكتر واحد بيخاف عليا. خايف العمر يضيع ويسبوني، خايف ينتهي بي العمر لوحدي.

كان يستمع إليه بحب، وتلك النظرة بشفقة كانت تسيطر عليه وهو يستمع له:

- لازم توجه الخوف ده. لأن مفيش فائدة من خوفك.

كان يتمنى لو يستطيع أن ينتزع شيئًا من روحه، يخرجه من أعماق قلبه ليسرد ما حدث. لم تكن الكلمات تخرج بسهولة من فمه؛ الألم كان يثقلها. أراد أن يتقيأ كل ما في قلبه دفعة واحدة، ولم يكن بوسعه فعل ذلك إلا بهذه الطريقة:

- ياريت أقدر أعمل كده، بس كل اللي أقدر عليه هو إني أحارب لآخر نفس، علشان ماحدش منهم يضيع مني.

لم يبق طويلًا. خرج من المكان. لكن إبتسامة هادئة رسمت نفسها فوق شفتيه وهو يتأملها. كان الضوء وكأنه أسقط فقط على عينيها، وسط الأطياف المحيطة بها.

غادرت، والإبتسامة لا تزال تسيطر على ملامحها. كأن كل جزء في داخلها يحتفي بحضوره:

- في حاجة في شكلك. مالك؟

اقترب منها بابتسامة، ولمس جبهتها بلطف:

- قبل ما أشوفك. كنت بانتهي، دلوقتي أخدت حياة جديدة كأني باتولد من الأول.

كان مدينا لعينيها بالكثير، مدينا لها بليالي السهر وبكل الشوق. ضحكتها كانت النغمة التي يعيش عليها، وكل نظرة منها كانت كأنها تنبض بالحياة.

خرج الاثنان معًا. كانت تمسك بيده، ورغم الفارق الواضح بينهما، كان هو غارقًا في عينيها، يتمنى لو يستطيع الاحتفاظ بكل تفاصيلها في قلبه.

فتح باب السيارة لها، ولم يترك يدها، كأنه يخشى أن تتلاشى أمامه:

- اتكلمي، عاوز أسمعك. مش عاوز ولا لحظة تضيع مننا. عاوز أحفظك في أبعد نقطة ممكن يوصلها إنسان، علشان لو أخدوكي من قلبي، أموت قبل ما أشوف اللحظة دي.

نظرة واحدة منها كانت كطوق نجاة له، لكنها شعرت أن كل الكلمات لا تكفي لتعبر عن حبها:

- ياريت لو كنت في حياتي من أولها، لأول مرة أفهم ليه ماكنش قبلك حاجة تستاهل الحب.

أسند رأسه على كتفها، وهي حملته كأنه وسادة، لم تشتكِ يومًا من ثقل أحزانه.

رفع رأسه ببطء، وأمسك بيديها، وعيناه تتأملان مجرات مصغرة داخل عينيها:

- أنا مديونلك بكل مرة رجعت فيها للحياة بسبب نظرة واحدة منك. في كل مرة بشوفك، بحس إن العمر يستاهل إنه يتعاش.

وجودها كان كالعثور على بركة ماء في صحراء قاحلة. لكنه لم يستطع منع الأسئلة من التسلل إلى عقله: كيف يمكن للكحل الأسود أن يجعل السماء تضيء تحت عينيها؟ ولماذا تجسد الحب بكل معانيه فيها؟

قاطع شرودهما صوت فتح باب السيارة. كانت "سوزي" تمسك بيدها، تحاول إخراجها، لكن الأخيرة أفلتت يدها سريعًا:

- أنا مش هسيب المهزلة دي تكمل يا هاجر. مش هسيبك تضيعي مني، أنا أمك، يمكن أكون كنت قاسية، بس أوعدك إن كل ده هيتصلح، بس ماتكمليش اللي بتعمليه.

لكن من لامست الحرية روحه، لن يعود إلى سجنه، ولو كان من ذهب.

أبعدت يديها بعنف، لم تعد تحتمل لمسة أخرى منها، لقد فاض بها الكيل:

- أنت بتتكلمي بجد؟ نزلي إيدك! أنا مش عبيطة، أنا مش هنسا كل حاجة عملتيها ضدي،مش هنسا كل لحظة اتحرمت منها بسببك، مش هنسا الكلمة اللي علمت فيا منك، ولا إنك سبيتيني مع واحد اتحرش بيا، ولا إنك مصدقتنيش.

تلك الكلمات كانت كالسكاكين، تُلقى بلا هوادة. شعرت بحركة باردة قطعت وجنتيها، خط الدموع الباردة الذي عرفته كـ"الدمعة المتوفاة". ذلك السباق الحار إلى البرودة القاتلة.

حاولت الأم احتواءها بعينين تغمرهما الدموع، محاولةً احتضانها:

- صدقيني، هحاول أصلح كل حاجة، أنتوا الاتنين ولادي، ومقدرش أعيش من غيركم.

لكن الكلمات لم تجد صدى في قلبها. كان الاعتذار متأخرًا، فاقدًا لكل قيمته. بعدما انتهت أهميته. قلبها كان مجبرًا على العناق، لكنها لم تشعر به، لم يكن سوى واجب جسدي خالٍ من أي شعور حقيقي.

انقلب الحال عندما أطلقت الأم كلماتها كالسياط:

- لو مرجعتيش، أنا هعمل أي حاجة ترجعك، حتى لو وصلت إني أحبسك. هعملها! أنا مش هخسرك، فاهمة؟

تبدل الشعور في لحظة، وكأنها ليست ابنتها. شعرت بالغربة، كأنها شخص آخر، شيء ينتمي إلى عالم بعيد، وكأن الحب الذي ربطهما ذات يوم لم يكن سوى وهم.

لم تدرك الدموع التي كانت تسابق الزمن على وجهها، حتى شعرت بيده تحتضنها من خلف ظهرها. صوته كان غاضبًا، لكنه ثابت وواضح:

- واللي خلقني وخلقك، واللي خلق عينيها بتداوي الجريح، واللي حرم الخمر وحلل كلامها لو فكرتي تمسيها، لشيلك من على الأرض، وده مش تهديد، ده وعد.

لم تنتظر الأم ردًا. كان يعرف أنه قال ما يكفي. أمسك بيدها، وقادها بهدوء نحو السيارة. انطلقت السيارة سريعًا، وهي ما زالت تمسك بيده، واضعة رأسها على كتفه. كان الأمر أشبه بنهاية العالم، أو ربما بداية جديدة.

نظر إلى الشامة التي تزين وجهها، تلك الشامة التي رأى فيها ثقبًا أسود يسقط من السماء. تساءل بهمس: من أي مجرات سرقت هذه العلامة؟

رفع أنامله، يمسح بقايا الدموع عن وجهها، ثم ضمها إليه، وكأنها جزء لا يتجزأ منه. كان حضنه كالطوق حولها، أحيانًا كعقد يزين عنقها، وأحيانًا كسوار يحيط بمعصمها، أو كحزام يلف خصرها. كان خوفه يحيط بها من كل جانب، وكأنه يحميها من عالم بأكمله.

بينما كانت حسناء تستعد لأجواء رمضان التي طغت ببهجتها في المكان بأكمله، وقفت على سلم خشبي لتعليق الزينة، بينما رحاب تمسك بأطراف الخيط من الأسفل، تتابعها بعناية.

قالت حسناء بهدوء، وهي تحكم عقدة الخيط بيديها:

- قوليلي بقى، طليقته دي قالتلك إيه؟

أجابتها رحاب وهي ترفع هاتفها، وتريها صورة نبض التي وجدتها في هاتف حسام:

- هي دي، قالتلي إنها شافتنا سوا، وإنها مش هتسيبه، وإنّي أبعد عنه، وكل الكلام ده.

تفحصت حسناء الصورة بنظرة ساخرة، ثم رفعت عينيها بعيدًا وقالت بتهكم:

- هي دي؟ ذوقه يقرف بصراحة، أقسم بالله باين عليها حرباية، شبه "سوزي" اللي ما تتسماش .

أضافت وهي تستمر في تفحص الصورة:

_صحيح، أنا مش دارسة علم الزواحف، بس بعرف الحرباية من أول نظرة، ودي حرباية بلا شك.

ابتسمت رحاب، لكنها فجأة صرخت وهي ترى يزن يهرول نحوها، ليصطدم بالسلم ويسقطه. تمسكت حسناء بزاوية الحائط، جسدها يترنح في الهواء.

صاحت برعب:

- الحقيني يا رحاب! الله يخربيت اليوم اللي قلتلك تعالي ساعديني فيه.

رحاب، بغباء ظاهر، نظرت إليها بخوف وقالت:

- ألحقك إزاي طيب؟ قوليلي أعمل إيه؟

في تلك اللحظة، فتح عادل الباب ودخل مستعجلًا بعد أن سمع الضوضاء. رأى حسناء متشبثة بالحائط، فنادت عليه بغضب:

- إ نت بتتفرج علياا؟! حد ينزلني، هتجبولي الضغط من غبائكم!

أمسك عادل بالسلم، رفعه نحوها، وساعدها على الهبوط بأمان. لكن بمجرد أن لمست قدماها الأرض، هرولت خلف رحاب التي انفجرت في نوبة من الضحك.

بعد فترة، عادت رحاب إلى منزلها لتجد "حسام" واقفًا أمام الباب، الغضب واضح على ملامحه:

- إنتوا كنتوا فين؟ ازاي متقوليش إنكم هتخرجوا؟

عقدت حاجبيها بغضب وقالت بصوت مرتفع:

- وإنت مالك يا زنديق يا حشري؟!

شعر بالإحراج، وتحدث بغضب:

- أنا غلطان أصلاً إني بسأل وبعدين، إنت مين عشان تكلمني كده؟

دلفت إلى المنزل مع ابنها، تاركة إياه وحيدًا، شاردًا فيما حدث. لاحقًا، شعرت بالذنب، لكنها تجاهلت الأمر. صعدت إلى سطح المنزل، حيث الهواء كان أكثر نقاءَ، لتجد عادل جالسًا على الأرض، وحوله بقايا سجائر.

اقتربت منه بحذر، لكنه بادر بالاقتراب منها، خطواته هادئة. وقبل أن ينطق بكلمة...

تحدثت بصوت هادي، خافت، متناغم مع الليل:

- أنا آسفة، حقك عليّ لو اتعصبت.

رأت الدموع المتحجرة في عينيه، وكأنها حبات رمل ساخنة، فبرر موقفه قائلاً:

- أنا قلقت لما رجعت وملقتش حد. اتعودت على وجودكم ،وفعلاً كويس إن حضرتك فوقتيني قبل ما أتعود أكتر وأرجع غريب.

أسرعت بالكلام قبل أن يضيف شيئًا:

- طليقتك نبض قابلتني، وقالت إنها شافتنا مع بعض. هددتني تقول كلام مش حقيقي علينا، والله يا حسام مش قادرة على تعب ومشاكل تاني،ومش هأنكر، كنت مبسوطة بوجودك، أول مرة أحس إن عندي أخ، حد أقدر أحكيله حتى عن حاجات تافهة.

شعر بالأسف حين أدرك خطة "نبض" التي أوقعت بها تلك المسكينة، فقال:

- حقك عليّ، أنا آسف على كل المشاكل دي. أوعدك، مش هتحصل حاجة تاني.

حين لاحظ العبرات في عينيها، حاول تخفيف الجو بالمشاغبة:

- مش هتقوليلي بردو يعني إيه زنديق؟

ابتسمت، وصدح صوت ضحكاتهما في ظلمة الليل. كانت نظراتها تلك أشبه بالسحر عليه—نظرة لامعة، جميلة، هادئة. كأنها تحمل في طياتها دفء العناق أو خفة أجنحة الفراشات.

تلك النظرات أحيانا تكون بمثابة فرصة عابرة؛ تظهر فجأة،

وفي لمح البصر، تطفئ بريقها. لكنها تترك أثرا دائما، كلوحة ترسمها العيون.

لا يتغير حالها، الأيام تمر كالشهور، والشهور كأنها سنوات. لا فائدة، ما دامت لم تنس ولم تشف حتى اليوم.

شعرت بمن يجلس بجانبها، يلامس يديها برفق، ونظراته تحمل الكثير.

تحدث بهدوء وحب، كأنه يحمل قلبها فوق كتفيه، دون أن يكل أو يمل:

- لسه تعبانه؟ إيه يا تعنوعه؟ أنت عجزتي يا رزان.

ابتسمت له وهي تشيح بوجهها عنه، شعور الذنب ينخر في قلبها كخنجر بطيء:

- لا، أنا كويسة، بس لسه مش مستعدة لأي حاجة، مش قادرة.

أخذ نفسا عميقًا، محاولًا تهدئة الغضب الذي يشتعل داخله:

- علشان لسه في بالك، صح؟ بس مينفعش!

مينفعش تشوفيني زي إنسان عادي أنت قدري، ولازم تفهمي ده أنت شاركتيني كل حاجة، حتى عيد ميلادي اللي بيجي كل أربع سنين، حتى لوني المفضل، لكن الحاجة الوحيدة اللي معرفتهاش هي المانع اللي منعك تعزليني من أفكارك، تجرأي، المانع صغير، خوفك أكبر منه،حبيني زي ما بتحبي النعناع، زي المطر، زي أختك حتى حبيني بجرأة.

رغم دموعها التي انهمرت، علت ضحكاتها فجأة. لكن خوفها ظل يسيطر عليها. كيف تشرح له؟ هل تخبره أنها تقف في المنتصف؟ قلبها موزع بينه وبين ذكريات مؤلمة؟ إذا اختارت أحدهما، ستخسر الآخر.

بصوت مبحوح، مقطّع، قالت وهي تبكي:

- أنا بحبك بحبك أوي، بس خايفة، لسه منسيتوش بشوف صورته. بشتاق له لما أسمع أغنية سمعناها مع بعض. لو حد قال كلمة كان بيقولها، بحس بيه. كنت سايبة معاه روحي كلها، وصعب أسترجعها بالسرعة دي.

لكن الحقيقة المؤلمة ظلت قائمة؛ لم ينتهِ الأمر بوداع كانت تتمناه، لم ينتهِ بمصافحة أو عناق طويل يمحي الذكريات.

أمسك بيدها، وجه أنظاره إلى عينيها وكأنه يحتضنها بكامل كيانه:

- وأنا مش هسيبك غير لما صورتي تبقى جوة عينيك، أنا بصدق عينيك يا رزان، فاهمة؟

ويلا بقى، أنا ودنانير بنت أختي مستنيين تعنوعه تيجي تنور البيت.

ابتسمت له بسعادة غامرة، وهي ترى ابتسامته تمحي دموعها. قال لها بحنان:

"آه يا حبيبتي وحبيبة المطر، كيف كان العمر بدونك؟ هل كل هذا بسبب الغياب؟

ها أنا قد عدت ولن أرحل إلا عندما تكشف سماء عينيك."

في داخله، كان يحمل حب العالم كله لأجلها. وكأن الكون قسّم مشاعره على البشر، لكنه وهبها كل ما تبقى منه. تلك الابتسامة التي امتلكت قلبه لن ينساها، ولن يتخلى عنها.

الساعة الخامسة فجراً وعشر دقائق. أضافت لحياته دقائق أخرى من الأرق. عيونه تطارد النوم في أزقة الغرفة، منهك من أصوات التفكير التي تطن في رأسه. بات يحفظ أماكن شبكات العنكبوت على السقف. شعر بثقل يجثم على صدره، وباجتياح رغبة عارمة في البكاء، لكن لا دموع في جوفه الفارغ. الألم يزداد، وتغمره ذكريات متضاربة. هل سيحمل الغد خيراً؟ أم أنه مجرد امتداد للكآبة؟

تحول إلى كائن متشائم، كئيب، ممسوخ من ذاته.

نهض من سريره، محاولاً استنشاق هواء بات شحيحًا تحت وطأة الاختناق. عادت إليه ذكرى تلك الليلة المشؤومة. بعدها، شعر أنه خسر كل شيء، حتى نفسه. بدأ عقله يذوي، وقلبه يُبتر من جذوره. باتت روحه منطفئة، والحزن استولى على كل شيء. ملامحه اكتست باللوم والأسى.

تذكر "سلمى"، حبيبته الأولى، التي كانت كل أسباب النجاة في حياته. تعارفا بعد وفاة والده، وكانت له أختًا، صديقةً، وحبيبة. بذلت جهدها لتعيده للحياة، ونجحت. ازدهر حبهما، وذهب لطلب يدها، باحثًا عن حياة جديدة، عن نجاة. لكن الإجابة جاءت بالرفض. صديقه، شقيقها، وقف حاجزًا بينهما: "لن أعطي أختي لشخص يفقد أعصابه وذاكرته."

آخر ما يتذكره قبل أن يفيق هو دماء صديقه على يديه. قتل "مازن" دون شعور. وحين حاول المحاولة مرة أخرى، انتهى الأمر بحرب كان ضحاياها "سلمى" وأحلامه وحبه ونفسه.

حياته كانت وهمًا جميلاً، أشبه بفخ الثعلب المختبئ بين الأشجار، منتظرًا فريسته.

شعر بيد تلمس كتفه بلطف. رفع عينيه إليها، ومال برأسه نحو صدرها، وكأنه يترك كل أحمال العالم هناك.

بصوت مرتعش ومكسور، قال:

- ماما أنا قتلت "سلمى"؟ ممكن أقتل "زينة"؟ ممكن تضيع مني زي اللي قبلها؟

شعرت الأم بجرح ينهش قلبها، لكنها قاومت دموعها وقالت بحنان:

- لا يا حبيبي، مش هيحصل انت هتتعالج، ومش هتأذي حد. اللي حصل كان غصب عنك "عز"، علشان خاطري، متتعبش نفسك أكتر من كده.

استطرد بصوت منهك، مستشعرًا دفء أناملها وهي تلامس خصلات شعره:

- أنا مقدرتش أتخطى، بابا متي وأنا كنت بحبه أوي. ما ودعتهوش حتى، إزاي نسيت؟ أنا عمري ما كنت أقتل "مازن"، صحبي، وسلمى إزاي؟!

احتضنته بشدة وكأنها تحاول أن تحفظه داخل أضلاعها، متمنية لو توقف العالم للحظات، لو أن كل هذا لم يحدث.

مسحت دموعه برفق وهمست:

- صدقني، مش هيحصل هتعرف الحقيقة وهترتاح، كل حاجة هتبقى تمام، مش هاسمح إنك تضيع مني، انت وأخوك أغلى حاجة عندي عملت علشانكم كل حاجة، أكتر مما تتخيل.

كانت كلماتها تنبض بغموض عميق، مستندة إلى ما عايشته من مآسٍ لا يمكن تصورها.

بعد فترة، تركها وغرق في النوم، بينما ظلت هي جالسة، ممسكة بصورة زوجها، الرجل الذي لم يكن يومًا حبيبها، لكنه كان سببًا في معاناتها. دفعت ثمن حبها له أضعافًا من مشاعرها وأمانها.

تحدثت للصورة بصوت متهدج، ودموعها تنساب بلا توقف، نحيبها يحمل حزناً يثقل قلبها:

- كل اللي حصل دة بسببك ليه محبتنيش؟ ليه مقدرتش تكون رجل كويس؟ ليه رغم كل حبي ليك، تقابله بالقسوة والكراهية؟ ليه عملت في ولدنا كده؟ ليه خلتني أوصل لمرحلة أذي ابني بإيدي؟

وراء كل وجه حكايات لا تنتهي، تبدأ من أعماق القلب.

من أولى خطوات البدايات، تتأهب لحظات النهاية لمواجهة الأخطار والانحناءات القاسية في طريق الحياة.

كان الحب بعيدا عن منزلنا، فكيف أغوانا العاشقون؟

كان العشق محرما حتى جاء الحبيب، وعاد الحنين يتجدد في قلب الحبيبة.

حمحم بخفوت، وعيناه تفيض حبًا:

- كل سنة وأنت طيبة يا جني.

نظرت إليه بهدوء، بينما مدّ يده إليها بصندوق صغير بداخله فانوس وبعض الزينة الرمضانية. لكن ما لفت نظرها كان تلك العبارة المدونة:

"حاولت أن أتخطى ابتسامتك. فأعادني خيط البرق الذي يمر كشريان في وجنتيك حين تبتسمين، فأعود دائمًا لنقطة البداية."

ابتسمت بشكر، وصوتها مغلف بحذر رغم محاولتها إظهار الحيوية:

-شكرًا جدًا، وانت طيب.

لكن كلماته التالية جاءت مثقلة بالحزن:

- فيه حاجة، جنى؟ بقالك كام يوم متغيرة ومش بتتكلمي معايا زي الأول.

كان يتمنى لو أنها أقرب إليه، تشاركه أدق تفاصيل حياتها؛ أن توقظه في منتصف الليل منزعجة من كابوس، أو تخبره عن شيء بسيط كقص شعرها أو صبغ أظافرها. حتى أتفه الأمور كانت بالنسبة له حياة كاملة معها. تمنّى أن تشاركه البكاء، فحتى أحزانها كانت ستصبح له أسمى مشاعر.

نطقت فجأة، وكأنها تسارع في إخراج الكلمات، مخلوطة ببكاء مكتوم:

- أنا خايفة، مش قادرة أتغلب على خوفي، خايفة تمشي، مش هقدر أشوفك بتمشي زي غيرك.

استشعر وجعها، أمسك بيدها، وقال بصوت مطمئن:

- مش قولنا مش هتخافي؟ أنا بحبك. يمكن عمري ما قلتها صريحة، لكن بحبك وعمري ما هسيبك. القدر جمعنا، ومحدش هيقدر يفرقنا.

رغم محاولتها تخطي كل شيء، كان من الصعب عليها شرح كيف أن خذلان والدها أرهقها، وأفقدها الثقة في كل من حولها.

أجابته بأعين زائغة، وصوت متلعثم من كثرة البكاء:

- مش هتتخلى عني، صح؟ أنا كمان بحبك، أنت عوضت كل الأدوار في حياتي بقيت أخويا، وأبوي، وابني، وصاحبي. أنت كل حاجة خايفة أخسرها.

ابتسم بهدوء، وقال مازحًا:

-أنا أصلاً مش هسيبك أنا لزقت! مفيش بركة في حياتي غيرك.

ضحكت رغم دموعها، وقالت بمزاح مستنكر:

- ملكش بركة؟ وأنا جدتك يا سليم؟

ابتسم، وأخذ يُريها الهدايا التي أحضرها لها، لكن كلما نظر في عينيها، رأى عالمًا من الجمال والحب يذهب بعقله. حديثها، حتى لو كان عاديًا، يسكره كأنه خمر، فيستغفر كل مرة يراها.

صدحت الموسيقى من هاتفه، واقترب منها يدندن:

"الحب بيان في عيوني وإيديا، تقول خبوني من شوقها للمس إيديك... والدنيا تبقى أنا وأنت، ولا بسأل ليه أو إمتى طول ما أنا في حضن عينيك."

عقد حاجبيه، وقال بمزاح مشاغب:

- إيه؟ مفيش أي إحساس؟ أجيب ميادة وأغني في ودانك؟

نظرت له "هاجر" مستنكرة وهي ترتشف من كوبها:

- مش فاهمة حبك في أغاني البنت دي! بتحبها أكتر مني ولا إيه؟

رد بابتسامة هادئة، وهو يقترب بخطوات واثقة:

- بصي يا هيرو، في خناقة كبيرة حصلت بين بليغ حمدي ووردة، مراته اتنين بس استفادوا منها: ميادة الحناوي، وأنا فلا تقارنيهم بي.

كان وجوده بجانبها دائمًا مطمئنًا، حتى لو فصلت بينهما مسافات أو صمت أو غربة. مجرد إحساسها بوجوده كان كفيلًا بأن يُصلح علاقتها بالعالم، تمامًا كما شعرت الآن، وهو يجلس بجانبها، حديثه يفيض بروح الشفاء.

على الجانب الآخر، كان أحمد واقفًا يُزيِّن حديقة المنزل بزينة رمضان، بينما زوجته تساعده من الأسفل. فجأة، قطعت الصمت وتحدثت بصوت مباغت:

- أحمد، مش ملاحظ شكلي اتغير؟ من يوم ما بدأت أوقف أعراض الانسحاب، حسيت إن ده أخد مني كتير أوي.

تساؤلات كثيرة كانت تجول في خاطرها. هل سيظل يحبها رغم ما طرأ على ملامحها من تعب؟ رغم شرودها المتكرر، وصمتها الطويل، واختفائها المفاجئ؟ هل سيظل يراها جميلة حتى لو اعترفت له بأنها أحيانًا لا تستطيع حتى أن تحب نفسها؟

أحمد، بعد أن أنهى تعليق الزينة، هبط من على السلم الخشبي واقترب منها. أمسك بيديها وقبلَها بحب، ثم احتضنها تحت ذراعه وهو يقول بنبرة صادقة:

- والله لو بقيتي كركوبة عجوزة، لو بقيتي الكتعة حتى ، هتفضلي جميلتي يا جميلة، مفيش حد في جمالك في عيني، ومين غيري هيشوف جميلة بعيني؟

أصبح حبها محفورًا في روحه، لا يفرق بين القلب والروح حين يتأملها. كان يراها في كل الوجود، وفي كل الأماكن، وكأنها تقول له: أنا هنا. وبالرغم من تعرج الطرق، كان الأمان ينبع من قربها. الحب اشتعل كالشعلة التي جاءت لترمم بقايا قلبها المتفجر بالخذلان. وتالله إن المحب لا يبتعد.

في تلك اللحظة، في غرفة المعيشة، كان سيف يجلس يتابع التلفاز، وإلى جانبه الصغير يزن، الذي تحتضنه والدته، رحاب، بحنان غامر.

كانت الحياة بالنسبة لهم ما فيلم سينمائي

مر بهم بداخله كل شيء و ما يخفي اعظم بكثير .

كان يشعر أن العالم قد انتهى بالنسبة له. كيف يمكن لحقيقته أن تنكشف الآن؟ هل خديعته قد أزيحت عن الجميع؟ وهل مكائده باتت مكشوفة؟

تحدث قاسم، الذي كان يجلس بجانب والدته، التي كانت غارقة في شرودها:

- إنت هتعمل إيه يا بابا في الموضوع اللي شاغلك ده؟

نظر له والد قاسم بأعين مليئة بالمكر والكراهية، وقد كان الغضب مشحونًا في كلماته:

- هخلص كل حاجة، اللعبة دي لازم تخلص، لازم.

لم يفهم قاسم تمامًا ما يقصده والده، فسأله مرة أخرى، وهو يحدق فيه باستفهام:

- لعبة إيه؟ إنت في دماغك إيه يا بابا؟ أنا عمري ما فهمتك.

تحرك الأب من مكانه قليلاً، وقال بهدوء:

- ولا هتفهمني، يا حبيب بابا. أنا عارف إنني غلطت حياتي كلها لما خليت محمد يعيش، لكن بخلاف ذلك، أنا عمري ما غلطت. علشان كده، مش هتفهمني.

ثم سأل قاسم، وهو يحاول استيعاب كلامه:

- إنت ليه كارهه كده؟ مع إنه ما عملش حاجة ليك.

ابتسم الأب ابتسامة ساخرة، وقال بكراهية وحقد نابعين من أعماقه:

- علشان أنا عمري ما كرهت محمد. بالعكس، أنا بشوفني فيه، لكن هو عكسي. هو دايمًا خايف على اللي حواليه، أنا ما خفتش ولا هخاف على حد. كرهي كله كان لعادل. طول عمري مستني اللحظة اللي أخسره فيها. مفيش خسارة أكبر من اللي خسرتها بسبب خيانته: ابنه، أخته، مراته. ومش هسكت.

نظر قاسم له لأول مرة بخوف، لكنه فوجئ به يقترب منه، ويضع يده على كتفه بحنان. قال له بهدوء:

- خوفت؟ إنت بالذات مش هتخاف بالعكس، أنا هقويك عشان محدش يقدر عليك.

ثم، وهو يضع آخر ورقة على الخريطة التي بها صور لأشخاص، قال بهدوء:

- محمد. للأسف لازم يموت..أكبر حاجة هتكسر عدنان هي محمد، وكمان ممكن تكسر عادل للأسف. رحلته لازم تنتهي هنا.

قاسم نهض مصعوقًا من حديثه، وقال:

- نقتل محمد؟ لا يا بابا، لا. مهما كان ما يستحقش ده. صدقني، في ألف حل غير القتل. عدنان مين؟

ابتسم الأب ثم ضحك قائلًا وهو يبتعد عنه:

- هتعرف عدنان قريب. متخفش.

خلف كل قصة كاملة، هناك حروف ناقصة. تلتف جميع الموازين حول هذه القصة المدفونة بداخله. إذا خرجت للنور، سينتهي كل شيء من دون أي انتباه.

جلس الاثنان محاطين به من الجانبين، وهو يحاول الفرار منهم بلا فائدة.

قال أحمد، وهو يقترب من أذنه:

- يا بابا، دد أنا ابنك. يا راجل مستعجل. ممكن خدمة واحدة بس؟

اقترب الآخر، مستندًا على كتفه:

- يا راجل، وأنا صاحب ابنك، يعني زي ابنك بالظبط. عاوز تكسفنا؟ أخص عليك يا رائد.

نظر إليهم بغضب، وهو يمسك بياقة قميصهم من الخلف:

- انتوا عاوزينني اهكر لكم شركة كبيرة زي دي؟ والله انتوا عاوزين تسجنوني؟

قال، وهو يتحرك خلفه ليلحقه بسرعة:

- نسجنك إيه يا بابا؟ عاوزني أتشرّد؟ دي حاجات تافهة.

تلفظ، وهو يجلس بغضب:

- هتحكوا لي كل حاجة. هساعدكم. لكن لو ما تكلمتوش، مفيش حاجة تخصني.

جلس أمامه وبدأ في سرد كل شيء بدأوه. كانت ملامح الصدمة تظهر عليه مع كل كلمة تخرج من فم الآخر. استمر الحديث لفترة طويلة، حتى انتهى.

قال، وما زالت الصدمة تجتاحه، لا يعرف ماذا يجب أن يقول الآن. كيف لم ينتبه أحد لكل هذه المعاناة؟

- هساعدك، ومش هسيبك. مش مصدق إن مفيش حد شاف كل ده. إزاي؟

كانت إجابته مختصرة، كما هي عادته، مليئة بالوجع الداخلي:

- وأنا واثق فيك. صدقني، مفيش حد هيقدر يئذيكم. أنا مخطط لكل حاجة.

قال بهدوء، وهو يشاهد خروجه:

- مفيش حد هيقدر يئذيكم. أنا اللي هقف، مش أنتم.

اكتملت الدائرة، ومع ذلك لم تكتمل الكلمات.

لم يتم اكتشاف الحقيقة بعد. ستنتهي الرحلة، ولكن مع أشخاص جدد، غير الذين بدأوا بها.

في المنزل، كان الجميع متجمعين، لكن مشاعرهم كانت متباينة وأفكارهم متضاربة. وكأن العالم جمع كل مشاعرهم و وضعها داخلهم.

قال سيف بهدوء وهو يروي لهم ما مر به في الأيام الماضية من أمور مزعجة:

- المهم أني لازم أهرب "دهب" من المستشفى. البنت دي غلبانة وملهاش حد، دي طفلة صغيرة. ازاي يفكروا في كده؟

أجابه حسام وهو ينهي آخر نفس من لفافة التبغ بيده:

- يعملوا كده عادي. الناس دي ما عندهمش قلب.

تحدث أصلان، الذي لم ينبس بكلمة منذ بداية الجلسة:

- ولكن لماذا لم تبلغ الشرطة بهذا؟ أعلم أنك طبيب ولديك الحق في فعل ذلك، ولكن أن تفعل هذا مع وجود إثباتاتك.

أجابه أحمد وهو يحاول شرح الأمر بهدوء:

- لكن الموضوع صعب، وفي نفس الوقت، حسام هيقوم بكل تحرياته.

قال أصلان بتساؤل في طياته المكر:

- أخي محمد، عندي طلب. هل يمكن أن توصلني لمنزل أبي هنا في مصر؟

قال سليم مازحًا، كما هي عادته، محاولًا تخفيف الأجواء بعد أن اعتاد الجميع على مزاحه المستمر رغم كل شيء:

- انت لو تبطل تتكلم بالدبلجة دي، ربنا هيفرجها علينا.

أجابه أصلان، معتذرًا وهو ينظر له:

- آسف أخي، ولكن أنا لا أتحدث إلا التركية، دي لغتي، لذلك اضطررت لتعلم العربية الفصحى.

تساءل محمد والشك يأكله من الداخل، وهو ينظر له بتفحص:

- بتسأل ليه على البيت؟ على العموم، هو في نزلة السمان هنا. أصلان، انت متأكد إنك مش عارف مكان البيت؟

تلعثم أصلان في حديثه وهو يجيبه بهدوء، محاولًا السيطرة على أعصابه:

- أعلم المكان، أخي. لكن الطرق في مصر اختلفت عن السابق، لذلك كنت أتمنى لو أوصلتني إليه.

أومأ له محمد بينما كان الشك ينهش قلبه. شعر أن أصلان يغادر بعد حديثه، مما جعل عقله يشتت وبدأ الشك يتسرب بداخله.

تحدث "امير" بتساؤل بعدما لحظ حالته :

- شكك في ايه المرة دي ؟؟

أجابه وهو ينسحب هو الأخير بنفس الطريقه المريبة :

- "أصلان"كان هو الوحيد اللي جه مصر وعارف مكان البيت، اللى ميعرفش البيت هو ؟؟،انا ازاي مفكرتش فيها إزاي ؟.

تركهم ورحل بينما علامات التساؤل و الحيرة كانت تملئهم وهم لا يتفهموا ما يحدث لهم بتلك السرعه .

بينما على الجانب الآخر كان يمسك بهاتفه متحدث بصوت منخفض يشبه الهمس إلى حد ما :

- لماذا جعلتني افعل هذا ؟؟، انا لست قادراً على أن اتماسك، اكثر من هذا اقسم لك اقتلهم،جميعاً دون أن يرف لي جفن ؟؟

أجابه من الجهه الاخرى بغضب:

- اقسم أن انك لو مسست،خصله واحده منه لقتلك ستكمل ما بدأنا بدون حديث، اتفهم ذلك؟

تحدث بمكر وهو يعرف نقطه ضعف الاخير :

- قل انك خائف على ابنك من الاذي ؟؟

أجابه بغضب و صوت مرتفع قائلاً ما يستحيل أن يقال في تلك المرة :

- لو مسست من "محمد"طرف ستكون نهايتك .

ربما في البدايات تتخيل أن الواقع هو أسوأ حال ولكن عندما تعرف الحقيقة و تبدأ الخطوط في الوضوح لك ستعرف أن ما كنت عليه كان خير لك من النهاية .

البارت الحادي والثلاثون

"سفينة النهاية"

تبدأ مشاعرك بالحياة، تحاول كشف كل أسرارها بحماس كبير،

ثم تكتشف أن كل حماسك كان فخا نصب لك لتبدأ اللعنة

وأنت بكامل قواك العقلية، تخرج من تلك اللعنة فاقدا قواك من كل الجهات، وكأنك صارعت أحد الوحوش في ملحمة

بطولية.

توقف "اصلان" عند حديثه وهو يتمتم بمكر:

ـ ويًا ترى لسه مصدق إن محمد هيرجعلك ابنك؟ أنا مش هستنى إجابة، أنا الإجابة يا عدنان لو كنت نسيت أنا جاي ليه، أفكّرك. أنا راجع أدمر البلد دي باللي فيها، وأولهم محمد لو فكّر يعوّج معايا. سلام، يا Ağa عدنان.

لم ينتظر أي إجابة منه. أغلق الهاتف منهيًا تلك القصة العابثة. بينما كانت ابتسامة حزينة ترتسم على وجهه، نظر إلى تجمعهم، وتدفقت العبرات المتحجرة في حدقتيه وهو يسترجع ما مر به في حياته.

كيف لأعوام معدودة أن تمر كألف عام؟ كيف أصبح عدوه صديقه، وصديقه عدوه؟ وكيف ما زال حيًا بعد كل هذه الآلام؟

تفاجأ بوجود الآخر الذي بادره بالسؤال سريعًا:

ـ أصلان، انت ليه عاوز ترجع بيتكم؟ مع إنك ما سألتنيش عن البيت اللي كان أدريان اشتراه هنا؟

نظر إليه أصلان، محركًا أهدابه ثم مسح وجهه بسرعة وهو يضع يده على كتفه، قائلاً:

ـ المعذرة، أخي، ما زلت مشوشًا بشدة. لكن تساءلت فقط عن منزل عائلتي. أفتقدهم كثيرًا كما تعلم؛ لذلك أرجوك أن توصلني إليه في أقرب وقت.

قطع حديثهما "سليم" الذي جاء بهدوء بصاحبه إلى الداخل. أما هو، فظل شاردًا لا يعلم ما حاله الآن. ليس سعيدًا، لكنه أيضًا ليس حزينًا. ربما قُتل الإنسان الذي بداخله، أم أن مشاعره لاقت حتفها؟ هل مرارة الأيام قتلته؟

ربما هي انتكاسة مؤقتة، لكنه لا يجد إجابة مقنعة. تمر الأيام، وهو يسأل نفسه مرارًا وتكرارًا: لماذا هو؟ لماذا يقع في متاهة أفكاره؟ يحاول جاهدًا إصلاح الماضي أو نسيانه. يتمنى لو أن تلك الندوب تُشفى، أو أن كل ما مر به يكون مجرد حلم. ولكن أي حلم هذا الذي يتكرر بلا رحمة؟

ظن أنه مع مرور الوقت سينسى، وستنتهي آلامه، وسيصبح الأمر عاديًا. لكنه أساء الظن، إذ ازداد الأمر سوءًا. تمر أيامه ببطء شديد، وكأنه طفل تائه ينتظر أن تعثر عليه والدته، أو أن يمسك بيده أحدٌ يرشده إلى الطريق الصحيح. انتهت مشاعره، ولم يعد هناك شيء بداخله.

تحدث "سيف"، مقاطعًا الصمت الذي عم المكان، تاركًا الحديث الذي أصبح كالرماد:

ـ محمد، أنا بقول لو تتقابل برا أحسن. يكون أفضل ولا إيه؟

فهم محمد من حديثه أنه لا يثق بالرجل الذي يقف بينهم، فوافقه على مقابلة في الصباح. ثم ذهب الجميع، تاركينه وحيدًا مرة أخرى.

جلس وحيدًا، يتخيل أنه يعيش عامًا كاملاً من الأفراح، لا يزوره الحزن فيه. ربما يوم واحد يكفي. لا يجب أن يكون طماعًا. ساعة واحدة بدون حنين إلى اللاشيء ستكون كافية. دقائق يا الله، بدون صراخ. ثوانٍ فقط، ألا يستحق هذا حقًا؟

مسكين عقله، حتى أنه لا يستطيع تخيل ما يريده. يرى ذلك حلمًا بعيد المنال، يصعب عليه تخيل الأمان.

وقف أمام المرآة، بخاطره سؤال واحد: من هو؟

سؤال تكرر في ذهنه ملايين المرات.

هل هو محمد الذي ظن أنه أقوى من الحياة، وسيهزمها يومًا ما؟ أم محمد الذي ظن أنه فهم الحياة، لكنه لم يتجرع إلا رشفة منها؟

هل هو محمد الذي كسى الحزن وجهه وأبكت الأيام عينيه؟ أم هو محمد الذي تخيّل أن لحظة واحدة بدون حزنه ستكون يوم سعده؟

هل يبكي على محمد أم يحتضنه؟ هل يواسيه أم يصفعه ليسقطه أرضًا؟

يا للأسف... إنه محمد.

استمع إلى تلك الدقات التي صدحت في منزله. ذهب بهدوء لفتح الباب. لم يتفاجأ وهو يراه أمامه. كان "عدنان" الذي انتظر خروج الجميع وأتى إليه.

تحدث "عدنان" وهو يضع يده فوق كتف الأخير:

-أنت عارف إني بشوف نفسي فيك؟ عارف إنك دلوقتي بتفكر في كل اللي حواليك؟ يمكن عقلك كمان بيرسملك هتخسر كل واحد إزاي أنا فضلت عمري كله خايف أخسرهم وخسرت.

تفوه من بين أنفاس لفافة التبغ التي احتلت بين أصابعه، كان دخانها منبعثًا من حريق قلبه من الأساس:

- جاي ليه يا عدنان؟ ارغي أحسن.

جاء سؤاله مرة منبعثًا من قلبه قبل لسانه، سؤال حي بداخله منذ سنوات يحيي لأجله:

- ابني فين يا محمد؟

مسح وجهه بقوة وهو يتنهد بصعوبة قبل أن يصيح به:

- أقسم باللي خلقني معرفش ! بقالك سبع سنين معذبني ومعذب نفسك، سبع سنين وأنت عارف إني ما أعرفش ابنك فين والله ما أعرف ابنك فين!.

رغم صارمته وقوته، ورغم كل الكبرياء الذي زُرع بداخله، وقف يبكي، تمسك به وهو يبكي بحرقة أب بوجع زرع بداخله منذ سنوات:

- حرام اللي بتعمله معايا ده. حرام! أنا تايه، وأنت رغم كل اللي عملته معاك بتمنعني من سعادتي، ابني اللي ما لحقتش أنقذه.

رغم صعوبة الموقف، إلا أنه لم يرحم ضعفه حتى، وتحدث بتشفي غير مقدر أوجاعه:

- وأنت بقى ما كنتش عارف إن كل ده هيحصل؟ الوش ده مش ليك يا عدنان مش لينا.

صرخ به بشدة وهو يدفعه بعيدًا عنه، يشعر بالغضب من كل حديثه:

- كنت عاوزني أعمل إيه؟ لقيت نفسي في الشارع مليش حد. جربت تعيش اللي أنا عشته؟ جربت تبقى ابن حرام؟ جربت تعامل مع الكلاب؟ جربت تبقى زي الوباء، محدش بيبصلك غير بقرف ويبعد عيالهم عنك لتكون معدي؟ أنا حتى لما بقيت مجرم، خسرت! سرقت، نصبت عادي! ما أنا اتسرق مني عمري كله،نصبوا عليّ في عمري، مراتي اتقتلت، وابني لحد النهارده مش لاقيه. في جزء أكتر من كده يعجبك؟

تراجع عن حديثه بعد سماعه لحديثه، شعر بذنب وكأنه قتله عمدًا الآن:

- وأنا ما أعرفش ابنك فين! إحنا اتخطفنا سوا. لما هربنا من عندك أنا وابنك ساردار ونائل وأدريان. لكن بعد الحريق اتفرقنا، ولما هربت لقيت نائل بس.

تفوه بغضب وهو يجز على أسنانه بكراهية وكأنه سيلتهمه الآن:

- لو عرفت إن ابني عندك وأنت مخبيه ما هيكفيني موتك! أنا عاوزك تفتكر إني حميتك لما أهلك باعوك. لولاي كان زمانك ميت، كان زمانك مسجون ولا متشرد أنا حافظت عليك سنتين، اعتبرتك ابني التاني، وكنت هرجعك لنوح، إلا إنك أول حاجة عملتها، هربت! وموتت صاحبك وضيعت ابني، أنت مش بس ضيعت ساردار، أنت ضيعت نفسك وضيعت نائل وضيعت أدريان ضيعت لي عيالي الأربعة علشان واحد منهم غبي.

صاح به وهو يدفعه بعيدًا عنه، لا يدري بدموع الأخير ولا أحزانه كأنه فقد كل مشاعره:

- أنا مش ابنك! فوق بقى! فوق! ابنك زمانه مات وشبع من الموت، أنت فاكر ناس زي دول هيعملوا فيه إيه؟! هيخرجوا دريم بارك ولا هيأكلوا آيس كريم؟

لكمه بقوة في وجهه وهو يدفعه بعيدًا بغضب أعمى عينيه:

- أنت فعلًا مش ابني، روح اتشطر على اللي رماك وهو السبب في كل اللي إحنا فيه، **ابني** هلاقيه، هشوفه، يا محمد، ومش هتضيعه بغبائك تاني!

توقفوا عن الحديث بعد أن قطع هذا الموقف دقات الباب مرة أخرى. وكان القدر دائمًا يخفي المجهول خلف دقات الباب.

ذهب ولم يكن بحسبانه أن هناك غريبًا، خُيِّل له أن أحد أصدقائه نسي أشياءه وجاء مرة أخرى، لكن آخر ما توقعه هو وجود "عادل" أمامه.

تخطاه "عادل" وهو يحدق به بتعجب.

نطق الأخير وهو يعقد حاجبيه ويحرك يده أمامه كأنه يفيقه:

- دي صدمة ولا مفاجأة ولا إيه؟

أجابه ببلاهة وهو لا يتفهم ما يتلفظ به:

- لا، دي كارثة. أقصد مصيبة.

تخطاه الآخر حتى ثبت مكانه كالصنم، ينظر إلى "عدنان" الذي كان متفاجئًا هو الآخر، لكنه كان ينظر له بتحدٍّ، نظرات انتصار على عدو في معركة تحمل ذكريات.

اقترب "عدنان" وهو يبتسم له بتحدٍّ، نطق بابتسامة تزين ثغره الملتوي بسخرية:

- أظن دي آخر حاجة تتخيلها.وجودي، صح؟ لكن أنت بتنسى إن في حاجات مش بإيدينا، زي الموقف ده.

بينما "محمد" حرّك رأسه وهو ينظر إليهما بتعجب:

- إنتوا تعرفوا بعض إزاي؟

نظر له "عادل" بغضب وهو يتبادل النظرات مع الآخر:

- المفروض أنا اللي أسأل، ليه واحد زي ده يكون هنا؟

استنكر الأخير حديثه وأعاد كلماته بسخرية:

- أنا واحد زي ده؟ ماشي، على العموم أنا كنت في بيت محمد مش في بيتك ولو متعرفش، يعني من ضمن اللي متعرفوش، إن أنا وهو أصحاب جدًّا. لا، عدينا المرحلة دي، إحنا إخوات. لا، فرق كبير اعتبره ابني.

استشاط "عادل" غضبًا من كلماته وأمسك بياقة ملابسه وجذبه للأمام بقوة:

- ابنك؟! إنت لو نطقت الكلمة دي تاني، قسم بالله هشيلك من على الأرض!

بينما "محمد"، الذي كان لا يتفهم الوضع، حاول تخفيف الأمر بسخرية:

- تشيله من على الأرض ليه؟ وبعدين تشيله ليه؟ هو لسه مولود؟

نظر له "عدنان" باشمئزاز من مزحته السخيفة قائلًا:

- وحياة أمك؟؟، ده وقت ظرف أهلك دلوقتي؟!

أجابه "محمد" بعدما حمحم بحرج مما قاله:

- الحقيقة مش وقته خالص يعني.

ابتسم "عدنان" ببرود وهو يخرج قائلًا:

- ده جو عائلي بقى، أسيبكم لوحدكم، بس خد بالك من محمد علشان معاد نومه قرب، أصل أنا عارف، لو ملحقش ينام قبل ما الشمس تطلع، هيضطر ميناموش لبكرة دي طبعًا حاجات إنت متعرفهاش، بس أنا أعرفها.

بعد خروجه، كانت نظرات "عادل" ملتهبة كالجمر وهو ينظر له بغضب.

تساءل بصوت مرتفع وهو يقترب منه، يجز أسنانه بغضب:

- سؤال واحد: الراجل ده بيعمل إيه هنا؟!

أجابه ببرود غير مبالٍ به، قائلاً وهو يلقي بجسده فوق الأريكة:

- وإنت مالك؟! أنا اللي سألت: انت تعرفه إزاي؟!

مسح وجهه بعنف وهو يشعر بالحقد تجاه هذا الذي كان يقوم بدوره كأب بدلاً منه. والأعظم أنه يعلم من هو. تحدث بغيظ كاد يحطم داخله:

- إنت مش من حقك تسألني، إنما أنا من حقي!

قهقه بقوة حتى بات صوت ضحكاته مسموعًا، ثم تحدث وهو يتنهد من كثرة الضحك:

- ده على أساس إيه؟! إنك مصدوم في تربيتي ولا زعلان على عمرك اللي ضيعته عليا؟!، إنت ملكش أي حق تسألني، ولو شاكك مثلاً إني بشتغل معاه أو عملت حاجة غلط، لا، اتأكد! أنا عملت حاجات متجيش في خيالك أصلاً عشان أفضل لحد دلوقتي عايش وبتنفَّس.

كان غير مرحَب به كالأشياء التي تأتي متأخرة عن موعدها بعد أن تجاوزت ضرورة وجودها. ورغم أنه كان يودّ اعتذارًا واحدًا منذ سنوات، أما الآن، فلو جاء له بأسف العالم... لا يريده.

حتى الكلمات لم تكن قادرة على أن تخرج من فمه في تلك اللحظة وهو يستمع لحديثه. كان يخرجه الآن إلى حقيقته، يريه خطيئته التي تتزايد مع الأيام.

تحدث بهدوء وهو يحاول أن ينهي هذا الغضب:

- طيب، إنت صح، عندك حق، بس مفيش حلول أنا غلط في حاجة أنا مش عارف إيه هي، وإنت سامحني عليها. مينفعش تكمل مع الراجل ده، مستحيل أسيبك تعمل كده.

استنكر حديثه وهو ينظر له بصدمة. أي شعور يمتلكه هذا!؟ كيف له ألا يشعر بخطيئته رغم كل هذا!؟

نطق بغضب واستنكار وهو ينظر له بحقد دفنه في قلبه منذ سنوات:

- مستحيل تسيبني؟! ومش عارف عملت إيه؟! إنت أصلاً السبب في كل ده، إنت سبْتني مع ناس عمرهم ما كانوا بيحبوني، أنا لما وثقت فيك وقلتلك متسبنيش خذلتني، أنا شوفت أسوأ أيام حياتي بسببك، عاوزني أسامحك بعد كل ده؟! طيب... وأنا أسامح نفسي إزاي لأني معرفتش آخد حقي؟! حتى لو أنا سامحتك، أرجوك متسامحش أنت نفسك على اللي عملته فيا.

في إحدى الليالي سابقًا، تمنى مجيئه إليه والاعتذار. تمنى عناقًا يصلح هذا الخراب بداخله. تمناه بشدة حتى صاحبه في دعائه. والآن... لا ينتظر مجيئه، ولا ينتظر عناقًا. ينتظر فقط أن يبتعد بعيدًا جدًا... أن يفترقا.

نظر له بحزن، لأول مرة يشعر أنه مذنب، يشعر بالندم على ما فعله. بأي ذنب قتل هذا البريء؟ وأي جريمة ارتكبها؟ ليست هناك أي جريمة سوى أنه جاء إلى الحياة ابنًا له.

تحدث بتساؤل وهو يقترب منه، محاولًا الوصول إلى ما بداخله:

- أنا كنت المفروض أعمل إيه؟! أدور على عشرين سنة أنا معرفش عنهم حاجة؟! وانت حتى مش عارف تساعدني أفهم موقفي، أنا كنت خايف، طيب كنت هعمل إيه لو طلعت فعلاً مش ابني؟! مع ذلك أنا لسه بدور وهاعرف أكيد.

لكن هذه المرة، كان يريد أن تزوره الأحزان. ليس حقدًا، إنما عدل. يريد أن يفقد كل ما يحبه، يتمنى أن ينتهي به العمر وحيدًا. ليس ظلمًا، بل فقط ليشعر بما شعر به. يريد أن يشعر بأنه عارٍ بلا حياة، بلا أهل. يتمنى أن يراه يتألم كما تألم هو.

تحدث إليه بنظرة غلبها البكاء الذي لم يطاوعه وينهمر. بداخله نيران مشتعلة لا تنطفئ، وقال بصوت غاضب:

- يعني إنت اخترت راحتك عليا؟! أنا لو كان أبويا الشيطان نفسه ماعتقدش كنت هشوف كل ده، أنا بتمنى ليك كل الحزن اللي في الدنيا، رغم كل اللي كان نفسي يحصل دلوقتي، بتمنى تختفي، بتمنى تموت يارتيك متّ من زمان أوي.

انهمرت دمعة وحيدة منه، لكنه أسرع يمحوها عن وجنته. تحدث محاولًا تحسين موقفه، أو حتى الدفاع عن نفسه:

- مكنش ينفع أضحي بكل اللي عملته، أنا مكنتش حمل إني أتكسر مرة كمان آه، كنت أناني، لكن أنا فكرت فيا وفيك تقدر تقولي لو عرفت إنك مش ابني، كنت هعمل إيه؟! يمكن كنت أذيتك، يمكن كنت عملت أي حاجة. وكانت سهلة أوي إن التحليل يكون مزوّر وقتها.

بينما هو يتحدث، كان الصداع ينهش رأسه بلا رحمة. هذا ليس صداعًا فقط؛ بل هناك سفاح داخل رأسه، يحمل فأسًا ويضرب به أبواب الذكريات التي أغلقها في قلبه. الذكريات المدفونة تُستخرج من قبورها رغمًا عنه. لا أحد يسمع الحفر سواه، ولا أحد يشعر أو يعاني منها غيره. إنه الكثير من المعاناة... هو والسفاح والذكريات لا يتوقفون.

نطق من بين شفتيه، بهدوء يحمل داخله الخذلان ومشاعر مبعثرة من الحزن، ربما اليأس. بدا كجندي عاد من معركة ذهب إليها بكل حماس، لكنه عاد يجر جثث رفاقه، ويحمل يده التي لوّح بها الحماس مقطوعة:

- بردو بتفكر في نفسك؟ بردو أناني؟ إنت جاي ليه؟! مفيش فايدة بينا، استمتع إنت بحياتك، وأنا عمري ما هخربها، لأن لو في حاجة واحدة مصراني عليك، هتكون أمي، فأرجوك حافظ عليها، سيبني أحاول أصلح حياتي اللي بالمناسبة، ملكش فيها.

نظر له وقد طفح الكيل منه. أمسك بالأشياء من حوله وقذفها في الهواء. كانت رغبة غريبة بالتدمير تنتابه. يريد أن يدمر كل شيء حوله. صرخ بصوت مرتجف لكنه مليء بالإصرار:

- أنا حاولت ومش هبطل أحاول، أنا عمري ما استسلمت لخسارة في حياتي، والمرة دي مستحيل أخسرك، أنا عرفت إنك مش إنت اللي قتلت بنت الست اللي اتهمتك بيه، وعرفت إنك بطلت تروح للدكتور علشان جلسة فك الجلطة، أنا ماسيبتكش ولا لحظة في الأيام اللي فاتت. روحت المدرسة اللي خرجوك منها أنا بحاول .

كانت عيناه زائغتين، ممتلئتين بالوجع. وفي أسفل وجهه آثار تعب طويل من عدم وجوده حتى اكتفى. وفي هذه اللحظة فقط، ورغم كل شيء، كان طفلاً بداخله يود عناقًا. عناقًا لا ينقطع. روحًا ترتجف، وقلبًا بلا وجهة. عناقًا ليعود داخل صدره، ليطمئن سائر جسده. عناقًا يذكره أن الحياة ما زالت جميلة، وأنه ما زال صغيرًا بين ذراعيه.

همس بنبرة يائسة:

- إنت ليه مش قادر تستسلم للقدر؟ خلاص، هي خلصت على كده. إنت مش هترجع الزمان.

كان من فرط خوفه قد نسي كيف يشعر بالأمان. خشي المستقبل يخشى أن يكون كالحاضر. والأسوأ أن يكون كالماضي. كانت يده ترتجف، دقات قلبه متسارعة، عيناه زائغتان تائهان مهزوزتان. صوته يرتجف، مليء بالخوف. إنه يخاف أن يخاف. معقد لا يفهم فقط خائف.

صاح بغضب مرتفع كالجحيم، وكأن كل لحظة تحترق داخله تؤذيه بشدة، لكنه لا يستطيع التخلي عن قلبه، فكيف يتركه؟:

ـ لا، مش قدر! ولا هستسلم! أنا هحاول وهقدر أكيد! مش مكتوب عليا أفضل متشتت، بلا عيلة طول عمري! يعني لا كنت ابن كويس، ولا أخ نافع، ولا زوج، ولا حتى أب! لا، لازم أنجح ولو لمرة واحدة! أحس إنّي فعلاً حافظت على عيلتي.

لكن إن كان الأذى من العائلة، فمن أين سيجد المواساة؟ لا يعلم أن علاجه يكمن في نفس السُّم الذي تجرعه، فداءه ودواءه اجتمعا أمامه في هذا الشخص.

نظر إليه الآخر بحنق، وفمه ملتوي بسخرية، ليقول بصوت يحمل الازدراء:

ـ إيه كمان؟ كمل أشجيني! لا، بجد! أنا إزاي ابن عاق كده؟ إيه المعاناة دي اللي انت عشتها؟ إنت بتقلب الترابيزة بدل ما أنا اللي أشكي؟ فجأة أنت اللي جاي تحمّلني الليلة؟

تقود بغضب، متجنبًا النقاش، وهو يخرج من المكان بأكمله:

ـ هقولك إيه؟ أنت مريض، والله! بس لو مش بعمل كده علشانك، بعمله علشان مش هسمح لنفسي بالخسارة تاني!

كان الصمت سيد اللحظة. لكن ما هو الصمت سوى عجزٍ عن حتى الهمس، بينما المشاعر بداخله لا تنتهي إلا بالصراخ.

"مريض؟"

كلمة سمعها عشرات المرات من قبل، وكان يُحصيها بلا اكتراث. لكن هذه المرة، اخترقت قلبه كسهامٍ مسمومة. لأول مرة يشعر بثقل الهواء حين صدرت منه.

جلس يحتضن رأسه بين كفيه، ينظر إلى الفراغ بجمود. لم يعد يعلم كيف وصل إلى هذه الحال.

ـ "هل كان العمر سريعًا لهذه الدرجة؟!"

عندما تجف عيناك، بينما قلبك يفيض بالبكاء، فهذا هو ما يُسمى "تصحَر القلوب." الألم هنا يكون أقسى من كل شيء، والأمل يكاد يكون معدومًا. إنها النهاية الحتمية.

كل شيء حوله منتشٍ، يرقص، باستثناء شيء واحد: الإنسان كل الكون في حالة هدوء وسكينة:

الأشجار تزهر وتتمايل، الطيور تغرد وترقص في سماء صافية، الأنهار تنساب نحو مصبها، والنجوم تشع وتنير السماء لكن الإنسان وحده، ذلك الذي فضّله الله بالعقل، يعيش في قلق وانطفاء.

"هل الإنسان ضحية عقله؟"

لحظة واحدة قادرة على صنع فجوة في حياتك بأكملها.

لحظة تغير كل شيء.

نظرت "نبيلة" إلى ذلك الرجل القابع أمامها ببرود اعتادته، وقالت بصوت بارد:

ـ يا 'أنس'، انت بِعت الأرض بتاعتي أنا و'نسمة'؟

رفع "أنس" طرف عينيه نحوها بضيق، وأجاب بلهجة متحفزة:

ـ أيوة، مش انت مراتي وحبيبتي؟ إيه المانع؟ وبعدين، اعتبريها قصاد أي حاجة من اللي عملتها علشانك. أنا طول عمري محافظ على المودة والرحمة بينا.

عقدت حاجبيها بدهشة واستنكار، ثم ردت بسخرية مشوبة بالغضب:

ـ رحمة؟ دي تبقى الست أمك، يا 'أنس'! انت هتعملهم عليا؟

اقترب منها ببطء، وعيناه تتقدان غضبًا، ثم أمسك بخصلات شعرها بقوة، وشدّها بين أصابعه قائلاً بحدة:

ـ أنا هعمل نفسي ما سمعتش حاجة، علشان تصرفي مش هيعجبك أبدًا. أنا مستحملك وأنت لا بتخلفي، ولا ليك لازمة! أرض بور وغبية، وفيك كل حاجة وحشة! احترمي نفسك معايا أحسن لك.

هربت من أمامه مسرعة، دموعها تبلل وجهها وهي تلهث، بالكاد تلتقط أنفاسها.

عند الباب، وجدت ابنها "قاسم" يدخل وهو يتأفف ويطلق زفيرًا عاليًا. عقد حاجبيه حين رأى والدته تحتضنه فجأة، وتدفن وجهها في صدره. حاول أن يبعدها قليلاً وهو يسأل ببرود:

ـ في إيه يا ماما تاني؟ هو كل شوية عياط؟

نظرت له بعينين دامعتين، ومسحت دموعها، ثم قالت بصوت متحشرج:

ـ أبوك تاني يا 'قاسم' علشان خاطري، يا حبيبي، تعال نمشي، أنا معايا فلوس لسه، نقدر نمشي أنا وأنت، وخد الفلوس وافتح أي مشروع. بس أبعدني عن هنا علشان خاطري.

لكن "قاسم" لم يلتفت لحديثها، وردّ عليها بانزعاج:

ــ ماما، أنا مش هسيب بيتي ولا هسيب بابا. محدش عملك حاجة أصلاً. ولو حابة تنسحبي أمشي.

نظرت إليه بحزن عميق، وشعرت بجرح يثقل قلبها. ابنها الذي أفنت عمرها من أجله، تركها الآن وحدها في منتصف الطريق وكأنها غريبة عنه.

جاء "أنس" من خلفها، يمشي بهدوء كعادته. وضع يده على ظهرها وربت عليه بلطف كاذب وهو يقول:

ــ ماشي يا روحي، امشي. بس لو سمحتي، مفاتيح عربيتي قبل ما تخرجي. وبرضو كل الهدوم اللي فوق والمجوهرات والحاجات اللي بتخلي شكلك قمر وأنتِ لابساها... بصراحة مش بتاعتنا خلاص. والبيت الصغير الجميل بتاعنا ده، اللي كنتِ هتروحي تعيشي فيه... بقا بتاعي. يلا يا روحي، اتفضلي.

شعرت وكأن أضلاعها تُسحب من جسدها، كأنها عارية في وسط مزدحم، والستر الذي سُحب عنها كان قلبها ذاته. هذا هو الخذلان بعينه.

نظرت إليه بعينين غارقتين في الدموع، وجهها غارق في الحزن، ومشاعر الخذلان تجتاح ملامحها. شعرت بيده تمسكها من مرفقها وتدفعها للخارج.

توسلت بصوت مملؤة الانكسار، وهي تحاول العودة للداخل:

ــ خلاص يا 'أنس'، خلاص سيبني أدخل جوه تاني، علشان خاطري يا 'أنس'.

تركها وهو يبتسم بسخرية وتشفي، بينما اتجه نحو الداخل، حيث كان ينتظره الثلاثة: "سوزي"، "مصطفى"، و"حسن".

دخل الثلاثة بهدوء يحملون عواصف في قلوبهم؛ حقدًا وكراهية ومشاعر لو خرجت لكانت أرواحهم محض سراب.

تحدثت "سوزي" وهي تنظر إليه بتساؤل:

ــ ها جبتنا هنا ليه؟

ابتسم "أنس" وهو ينهض ليغلق الأبواب الخشبية للمكتب، ثم قال بهدوء:

ـ محمد الله يرحمه إن شاء الله شهر بالكتير، وهنطلع جنازته.

شهقت "سوزي" بقوة، واتسعت أعينهم جميعًا دهشة من هول الكلام. صمتوا للحظة، عاجزين عن السيطرة على انفعالاتهم. كيف سيقتلونه؟ هل الأمر بهذه السهولة؟ ولو كان كذلك، لماذا لم يحدث من قبل؟

تحدث "حسن"، والدهشة تطغى على كلماته:

ـ أكيد اتجننت! لا مستحيل... ولو كنت عملتها من زمان، مش كان نجا منك كام مرة؟ ده مستحيل يحصل.

نظر "أنس" لهم بابتسامة عريضة، وكأن ما يقوله لا علاقة له بالواقع، وقال:

ـ المرة دي مش هيقدر يهرب. مهما حصل. أنتو مستغربين؟ 'محمد' هو السبب في كل المصايب في حياتنا. لو مات، أخوكي يا 'سوزي' هيكون ليكي تاني، خصوصًا إنه بدأ يصدقه ويدور وراه. ابنك يا 'مصطفى' هيكون ليك من تاني. تخيلوا أنه بيعمل ده كله من غير ما يتكلم؟ و'هاجر' هترجع تتجوز 'قاسم' ابني، و'حسناء' هتختفي زي ما ظهرت.

صمت للحظة ليزيد من وقع كلماته، ثم تابع بصوت أشبه بوسواس شيطاني:

ـ الشغل كمان هيرجع ليك لوحدك يا 'مصطفى'، بعد ما 'عادل' يسافر. 'رزان' بنتك، اللي 'محمد' دمّرها، هتتعافى تاني. كل حاجة هتكون تمام لو 'محمد' مات. هو السبب في كل غلط في حياتنا، والوحيد اللي عارف سر 'عدنان'. لو مات، مش هيبقى في 'عدنان'، ولا سجن، ولا أي حاجة وحشة. ولا نسيتوا 'سامح' واللي حصل في المعبد؟

صمت يعم المكان، وكأن جزءًا من الماضي المجهول ينبض فجأة. سر دفين، تبخر من ذاكرة الجميع، كان هو نقطة التحول

التي غيرت كل شيء إلى الأبد.

جزء من القصة لا يعرفة أحد تبخر انمحي من كل الذكريات هذا الجزء تحديدا غير كل شيء بالكامل .

تحدثت "سوزي"بقوة وهي تضغاده عن كل شعور بداخلها :

- لازم تخلص منه لازم يختفي من حياتنا لازم يموت، و مش كده و بس لازم ينتهي يتفضح علشان حتى محدش يترحم عليه .

صاح "مصطفي"بغضب وهو غير راضي على حديثهم يشعر بالاستياء من أفكارهم حتى التي تجردت من الرحمه:

- ايـه أنت خلاص اتجننتي!؟، ده إبن اخوكي ده أنت ربتيه فوق العشر سنين، ده انقذك من الموت مرتين،سيبك من كل ده، ده بقا جوز بنتك عاوزة تقهريها و تضيعيها هي كمان ؟؟

نهض "حسن"كالذي صعق أو لدغته عقربه وهو يصيح بهم:

- أنا مستحيل أوفق على الجنان ده، انتو اذيتوه بكل حاجه كمان عاوز تقتله!؟

قهقه "أنس"بصوت مرتفع قبل أن يسعل من شدة ضحكه وهو يتحدث بسخرية:

- بكلم مين ملانكه يا ناس،انا مش جايبكم علشان تتفق مثلاً، لا أنا بلغكم و مش عاوزكم تنسوا،أن كل واحد فيكم لي عندي اللى يكمله عمره في سجن طره الخمس نجوم ده لو مقبلش عمو عشماوي.

لم يقدر أحد أن ينبس بكلمه واحده كان الأقدار اجتمعت ضد شخص واحد لتكتب جواب رحيله بيد كل يد انقذها تكتب الآن سفينة النهاية له .

تبدأ الشمس بالظهور بدلال طاغٍ يغمر العاصمة بأكملها. رغم جمالها، إلا أن البرودة التي تخيم على الأجواء ليست مجرد برودة الطقس، بل برودة تنبع من القلوب. أصحاب تلك الأعياد غير المفهومة كعيد الأم مثلاً، هل فكروا يوماً فيما يفعلونه؟ قل لي بكل صراحة، ماذا استفدت حين تحرق قلب يتيم يفتقد والدته؟ لا شيء. أراهنك بإيمان الله أن والدتك نفسها لم تشعر بأي شيء من هذه الاحتفالات التي قهرت بها قلوب الآخرين.

كان هذا حاله وهو يقف أمام قبرها. من الخارج يبدو هادئاً، وكأنه لا يحترق من الداخل، لكنه في الواقع يهرب من ضجيج العالم إلى العدم، والعدم... يفزعه. فلا هدوء في الهدوء كما يُظن. كان أشبه بطائر بجناح مكسور، يحلم بالتحليق ليوم واحد. كغريب بلا وطن، يحلم بالانتماء لجزء من شيء، أي شيء.

هل تلاشت الآن ولم تعد هنا؟

كان هذا السؤال يطارده حتى تحدث أخيراً:

- وحشتيني عارفة؟ لسه حاسس إني يتيم من غيرك رغم وجود أمي، حسناء، اللي دمها من دمي، لكن وجودك أنت كان جوايا، وده مينفعش ينتهي أنا مفتقد كل لحظة معاك، رغم إنها عوضتني عن كل حاجة، أنت لو كنت عرفتي إنها أمي، كنت أكيد هتفرحي. هي طيبة أوي وبتعوضني عن كل حاجة. أنا كويس، متخافيش، وأكيد أنت كويسة. لو في حاجة، كنت حسيت، زي ما بحس بيك دايماً، يا سمر.

أنهى حديثه كمن يُخرج السموم من روحه بتنهيدة طويلة مزقت أحشاءه. وضع فوق القبر رسالة، كان مضمونها:

"والآن، يا أمي، أكتب لك في الساعة الخامسة فجراً. أعلم أنك تبغضين نومي المتأخر. الجميع في المنزل نائمون، إلا أنا، وعقلي، وأجزاء من ذكرياتنا التي لا تغفو أبداً. ما زال الصراخ مستمراً في رأسي، لكن مصدره مجهول، كصحراء. أكتب رسالتي من هنا، من أقرب مكان إلى قلبي. أتحدث مع نفسي فلا تجيبني، أتحدث مع الجدران فلا ترد عليَّ، حتى أنت لا تجيبينني. أعلم جيداً أن هذه الرسالة لن تصل إليك، كما أعلم أنك لن تسمعي صوتي الآن، لكنني أكتب بقلب الصغير الذي ما زال متشبثاً بك. مضمون كل ما أريد قوله: اشتقت إلى كل جزء من تفاصيلك. تغاضي عن كل ما كتبتُ قبل ذلك. سأضع الرسالة الآن على قبرك وسأعود الأسبوع المقبل كما أفعل دائماً. أعلم أنني لن أجد الرسالة، لأنها ستتلاشى مع الهواء، لكنني أكذب على نفسي وأقول إنك قرأتها. اشتقت لك، ويبدو أنني سأكون بجانبك قريباً جداً."

وضع بجانب القبر هدية مزينة بالورود. ثم ابتعد قليلاً، مبتسماً كأنه يراها أمامه. عاد بعدها ليحتضن القبر بين ذراعيه، وشعر وكأن ألم العالم كله اجتمع في قلبه.

حتى لو عادت الأشياء جميلة، لن يعود هو كما كان. ما في

قلبه ليس غبارا يمحوه الزمن، بل طعنات لا يمكن إصلاحها.

والآن، إلى اللقاء يا من جعلت من شيطان مشوه روحا شاردة تشبهه. إلى اللقاء، يا سمر، ولكن في لقاء قريب.

كان يقف مستعداً لقدوم أصدقائه لنقل ما تبقى من أثاث منزله الجديد. رغم الحزن الذي يسيطر عليه، إلا أنه كان ينتظرهم بحماس، عازماً على ألا يُفسد سعادتهم هذه المرة.

تحدث "أحمد" وهو يتنهد بنفاد صبر:

- العيال دي اتأخروا ليه كده!؟ وبعدين، ده عزا اللي جمبك ده ولا إيه؟ شكل الناس عندها عزاء وإحنا بنحتفل.

رد "محمد" وهو ينفث دخان لفافة تبغه ببطء:

- لا يا عم. "أمير" قالهم ما يعملوش دوشة. كده كده حتى لو مفيش العزاء هنعمل حاجة في الهدوء يعني.

بعد دقائق، دوى صوت أبواق السيارات عالياً، جعلهم يهرعون للخارج بخوف.

كانت المفاجأة أمامهم... صديقهم الأبله يقف فوق سيارة النقل، يصرخ بجنون، بينما تقف "جنى" أسفل السيارة تصفق له بحماسة.

صاح بصوت مرتفع، تغطيه أصوات الأغاني الصاخبة:

«اسمع هس! اللي واقف يقعد، واللي قاعد يقف، واللي نايم يصحى! النهاردة ليلة العصابة... ليلة صحبي! اسمعي يا منطقة!»

وضع "محمد" كفه على جبينه، وغمغم بغضب:

- أنا اتفضحت، الحمد لله.

اشتعل صوت الموسيقى أكثر مع خروج الجيران من منازلهم، يتابعون المشهد على وقع الأغاني الصاخبة.

هبط "سليم" من فوق السيارة، يرقص بحماس مع أصدقائه والجيران الذين انضموا إليهم. أمسك أحد الشباب بمكبر الصوت وبدأ يغني بصوت نشاز:

«اسمع هس وبص على الحلوين، ترقص فالناس يقوموا راقصين. اهي اهي اهي، جايه هناك اهيه، دي فرحة ولا إيه!؟»

تجاوبت الفتيات بحماس، يرددن بسخرية:

«إنت لو كنت بتهتم... إنت لو كان عندك دم... إنت لو بتحس يا عم، كنت عرفت إيه اللي مزعلني!»

صاح بهم "محمد"، وركل "سليم" الذي كان يواصل رقصه بلا مبالاة:

- والله مفيش حد معندوش دم غيرك! وإنت يا بني آدم! مش عندكم عزاء؟ نازل ترقص يا أهبل؟!

تدخل "باسم"، وهو يقف بجوار فتاة تضحك بصوت مرتفع على نظراتهم الغاضبة:

- عزاء إيه يا عم؟ تف من بقك، ده أنا وأخواتي، آه نسيت أعرفك عليهم: "بسمة"، "بهيرة"، "بانهار"، و"بتول"، وأنا "باسم". عارف؟ كذبة أبريل قربت، فقلنا نعمل بروفا.

نظر له "محمد" بامتعاض، وبصق في وجهه وهو يقول:

- أنا أستاهل الضرب بالجزم إني سألتك أصلاً.

تراجع "باسم" غاضباً، وتمتم:

- مكنتش أقصد تتف عليا! بقول "تف" وخلاص! هو أنا كل ما أكلم حد يتف في وشي؟!

في هذه الأثناء، لفتت "جنى" الأنظار إليها، وقد لفت جسدها بأحد مفارش السفرة. تساءل "أحمد" وهو يراقبها:

- "جنى"، إنتِ لفة نفسك بمفرش السفرة ليه؟ تبع الجهاز ولا إيه؟!

أجابته بثقة وهي تهم بالدخول إلى المنزل:

- لا، أصل سقعت في السكة، وطلبت من "سليم" الجاكيت، رفض. فأخدت مفرش من الجهاز عادي.

هز "أحمد" رأسه بتعب، وهو يحاول التخلص من أثر هذا الحديث الغريب، وابتعد عنهم وكأنهم وباء يُصيب الجميع بالغباء.

بعد مدة، وقف "محمد" يتأملهم بعينين تملؤهما السعادة.

كانوا أكثر من أصدقاء... كانوا وطنه، عائلته، روحه، وسعادته.

كانوا الحياة نفسها في عينه.

لا يمكنه أن يتخيل العيش دونهم.

كان يقف بين يدي الله، متوسلاً في صلاته. لا أحد يدري بشأن تلك العبرات التي انهمرت على وجنتيه كسيل لا يتوقف، تجر معها ذكريات الألم التي أثقلت قلبه. البرد كان يلف جسده، لكنه لم يصل إلى نيران قلبه التي لم تهدأ أو تنطفئ. صوته ارتفع عذباً ومليئاً بالبكاء، وهو يتلو بخشوع:

"إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون."

أنهى صلاته، لكن الحزن ما زال ممسكاً بزمام قلبه. شعرَ أن حظه كان أشبه بجُنديّ لقي حتفه برصاصة أطلقت فقط لإنهاء الحرب، لا لسبب آخر. رفع يديه إلى السماء، لكن دعاءه حمل غصة:

"اللهم قلباً قاسياً، اللهم لا رحمة، اللهم انزع من قلبي كل شعور إنساني، واجعل سواده يكفي لانتقامي"

فاجأته لمسة خفيفة على كتفه. رفع نظره ببطء ليرى "رحاب" واقفةً إلى جواره. كان يبتعد عن النظر في عينيها؛ يعلم أن كل مذهب للعقل محرم، وعيناها كانتا خمراً خالصاً.

جلست بجانبه، وبدت كلماتها ناعمة كنسيم الفجر:

- صوتك جميل جداً في الصلاة، بس مش عارفة أقولك إيه، هل الحل في إنك تدعي بقسوة القلب؟ بدل ما تدعي بالراحة والرحمة ليك؟

تطلع إليها بأعين محملة بالدموع، تحدث بصوت يملؤه الغضب والقهر:

- رحمة!؟ فين كانت الرحمة دي؟ لما ترميني في الشارع واتاخد ابنك منك؟ فين كانت الرحمة وأنا راجل قانون، كنت بدافع عن الحق وضاع أهلي؟ فين كانت الرحمة لما اختي اتخطفت واترمت زي الكلاب؟ ولما رجعت، الناس عيرتنا لحد ما ماتت بحسرتها؟ متطلبيش مني رحمة، أنا خلاص اتنهيت.

كانت تعرف أن كلماته أصابت قلبها، لكنها التزمت الصمت أمام انهياره. كان عقله يعيد شريط الذكريات كأنها تُعرض أمامه الآن: ابتسامة أخته، نظراتها، حرارة دموعه وهي تنساب على خديه يوم دفنها. استعاد توسله لله أن ينظر لحاله، لكن السماء لم تُجب. كان كل شيء يؤلمه، حضن أمه الذي لم يعد موجوداً، أمان أبيه الذي ذهب، ويد حبيبته التي تخلت عنه.

قالت "رحاب" بنبرة تحاول تهدئته:

- عارفة إنك تعبان، وعارفة إن الموضوع مش سهل، لكن ربنا مش بيدي الاختبارات الصعبة إلا للي عارف قوتهم، هما في الجنة إن شاء الله، وأنا عارفة أي حاجة هقولها مش هتريحك، بس لازم تعرف إن محدش يقدر يغير قدره.

تأملها للحظة، وكأن كلماتها حملت شيئاً من العزاء، لكن الألم كان أعمق. همس:

- رحاب، هو ينفع أسامح؟ أقصد، مستحيل أسامح، لازم آخد حقهم. بس ممكن أقولك حاجة؟

عقدت حاجبيها وقالت بسخرية خفيفة:

- لا مش ممكن. أقصد أنا مش عايزة أسمع، هو كل شوية حد يجي يلف ويدور عليا! هو أنا حد قالكم إن اسمي الدائري؟

نظر لها بدهشة قبل أن يطلق ضحكة وسط دموعه:

- إنتِ بتضحكيني ليه دلوقتي؟ وبعدين كنت هقول حاجة مهمة.

ردت وهي تصلح حجابها وتبتعد:

- طالما حاجة مهمة يبقى همشي، أصلاً الساعة عدت ١٢، ولازم أرجع.

نظر إليها بمشاكسه قائلاً:

- سندريلا فرع المعزا؟ ولا بتختفي زي الجنيات؟

وقفت عند باب منزلها وقالت بابتسامة صغيرة:

- بعيداً عن إني مش بحب سندريلا، بس مبسوطة إنك فرحت شوية، تصبح على خير يا زنديق.

أغلقت الباب خلفها، بينما ظل يحدق أمامه مبتسماً، ثم همس لنفسه:

- نحنا والقمر جيران، بالمعنى الحرفي.

والآن، في تلك اللحظة التي تراجعت فيها نيران قلبه قليلا، شعر بشيء مختلف، هي كانت إيمانه الجديد، وكل شيء سواها ذنوب.

عاد إلى المنزل، وكل شيء حوله يشير إلى وطنٍ، إلا هو. كان ما يزال تائهًا، غريبًا، لا يملك أي وطن يحتضنه.

بينما كان يتقدم نحو الداخل، استرعى انتباهه صوت مشاجرة حادة، تسائل الطابع، يتردد عبر الأرجاء. هرول بخطوات متسارعة، الأرض تكاد تلتهمها قدماه من العجلة، حتى توقف وهو يلتقط أنفاسه المتسارعة، ليجد المشهد المعتاد أمامه: شقيقته سوزي تخوض معركة كلامية جديدة مع زوجته حسناء. وكما يحدث دائمًا، كانت حسناء المنتصرة وهي تلف خصلات شعر سوزي حول أصابعها، كأنها ترفع راية النصر.

سوزي، التي بدا مظهرها كمن خرج للتو من معركة طاحنة، اقتربت منه وقالت بحدة:

ـ لو ماخدتش حقي من البتاعة دي، اعتبرني مش أختك.

أما حسناء، التي لم تبدُ متأثرة بالتهديد، ردت ببرود وهي تقلب عينيها بملل:

ـ يلا يا عقربة، يا أنثى الحرباء، يا بومة! إنتِ فاكرة كل مرة هتقولي حاجة عن ابني وأسكت لك؟ مش عارفة إيه الغباء ده!

فقد أعصابه تمامًا وصاح بغضب، ناظرًا إليهما بنظرات مشتعلة:

ـ بس! إنتوا الاتنين زي الراديو المفتوح! أنا جبت آخري منكم.

غيرت سوزي نبرتها فجأة، اقتربت منه وربتت على كتفه. تتحدث بهدوء مخادع:

ـ أنا ما كنتش جاية غير أشوفك، لكن الغجرية دي مسكت فيّ، وكنت بس هقولك على الواد المتخلف ابنها! تخيل مش راضي يخلي هاجر تشوفني؟ ده اتجنن، ده سايب ولد عنده في مافيا، فاهم؟!

زفر بضيق، يشعر أن كتمان تساؤلاته ودفن حقائق الواقع كان خطأً فادحًا. حان الوقت ليضع حدًا لهذا العبث، فتحدث بحدة، محاولًا السيطرة على الموقف:

ـ أولًا، قولي اسمه مش واد. ثانيًا، مستحيل يكون منعها عنك، لأنها كانت هنا، وسمعته وهو بيقنعها تعزمك في الحفلة. وبعدين، مين السبب في اللي إحنا فيه ده؟ مش إنتِ اللي شككتيني في ابني وخسرتيني مراتي؟ لما أمنتك عليه رجعت لقيته بالمنظر ده. تقدري تقوليلي إيه اللي حصل؟! دي مراتي، واحترامها من احترامي، ولو مش عاجبك وجود محمد، تجاهليه.

تطلعت إليه سوزي بصدمة، وكأن العالم بأسره قد انقلب. ردت بعينين تلتهبان كراهية:

ـ إنتَ بتقولي أنا كده؟! أنا اللي خوفت على مصلحتك، أنا اللي بنيتك، تقدر تقولي كنت هتوصل لكل ده إزاي في وجودها هي وابنها؟ أنا استحملت غضبك وعصبيتك وتصرفاتك. استحملت جنان ابنك، وده اللي آخده؟ خلاص، لو أنا وحشة قوي كده، رجّع لي كل اللي بنيته معاك، رجّع لي تعبي ومساعدتي!

صرخ فجأة وضرب بيده على الطاولة، جعلتهما تتراجعان بخوف. كانت صرخته كصرخة محارب مهزوم في معركة لم يختر دخولها:

ـ مكنتش عايز كل ده، والله ما كنت عايز أتحرم من إني أشوف أمي لآخر مرة، ما كنتش عايز إن أبوكي يبقى أكتر واحد بيكرهني، ما كنتش عايز أخسر الست الوحيدة اللي حبيتها، كنت عايز أعيش عيالي اللي ماتوا، كنت عايز ابني اللي وصل ي الحال إنه مش طايق اسمي يكون بعد اسمه، أنا دفعت تمن كل ده وحدي تعب، وسهر، ووحدة، وخوف. وبعد كل ده، عايزة إيه؟!

لكن كلماته كانت كالصدى في غرفة خاوية. نظرت إليه سوزي ببرود، وكأن حديثه لم يحرك فيها شيئًا. تركته واقفًا هناك، كشخص محترق حتى الرماد، بلا معنى ولا لون.

أول ما فعلته وهي تخرج من المنزل، كان إرسال رسالة إلى رقم مجهول:

ـ "معاك فرصة. أنا الوحيدة اللي أقدر أوصلك بـ'أنس' و'محمد'، لكن بشروطي... 'محمد' لازم يموت."

في الداخل، تقدمت منه ببطء حتى اقتربت، وضعت يدها فوق جبهته، وهي تعقد حاجبيها:

ـ مش سخن، وحرارتك طبيعية. في إيه!؟ 'عادل'، إنت هتموت وقررت تكفّر عن سيئاتك!؟ ولا تكون اتجوزت وبتريحني عشان ما شكش فيك!؟ اتجوزت عليّا!؟ ده نهار أبوك أسود معايا، طبعًا عاوز تخلف. ما هي كانت ناقصة مصايب.

لم يتحمل المزيد من ثرثرتها، فوضع يده على فمها ليكتم حديثها، قائلاً بانزعاج:

ـ بس! بس! إيه الخيال ده كله؟ اتجوز تاني؟ لا، ده أنا توبت. وبعدين أخلف مين يا هبلة؟ هو أنا عارف أربي الكبير الأول أما أخلف!؟

عقدت حاجبيها واقتربت منه بطريقة درامية، وكأنها تلقي عليه تهمة كبرى:

ـ يعني لو كنت عرفت تتخلص من 'محمد'، كنت اتجوزت؟ تصدق؟ أنا غلطة إني كنت هفرح بكلامك.

ابتسم بسخرية وهو يبتعد عنها بهدوء:

ـ أنا أصلًا عندي بنتين ومخبي عليك، إيه رأيك؟

شهقت بصدمة وهي تدفعه للخلف بقوة قبل أن تصدّه، لكنه أمسك يدها، ثم جذبها نحوه واحتضنها قائلاً:

ـ أنا عندي أجدع وأجنّ بنت في مصر كلها، وقبل ما تقتليني، أقصدك إنتِ.

توقفت قليلاً، ثم تساءلت بنبرة فضولية:

ـ والبنت التانية!؟

ابتسم وهو يمسك بيدها، يقودها للداخل:

ـ هاجر خلاص، كده ارتحتي؟

ابتعدت عنه وهي تضم شفتيها بحزن مفتعل:

ـ لا، أنا زعلانة خلاص، ما تصالحنيش.

نظر إليها بدهشة، ثم صاح وهو يرفعها عن الأرض بخفة:

ـ ما هو مزاجك المتقلب ده تقلبيه في سريرك فوق، إنما عليا؟ لا يا عيوني.

ومن بين أنقاض الحروب القديمة، وبقايا القلوب المحطمة،

ومن وسط معارك جديدة، كانت روحه تحاول جاهدا أن تبقى على قيد الحياة، تصارع لتجد سلامها وسط الفوضى.

في هدوء الليل، عندما تسكن جميع الأصوات ويخيم الصمت على العالم، يبدو وكأن السكون قد غلب، لكن الحقيقة أن معارك من نوع آخر تبدأ في هذا الوقت. معارك لا هدنة فيها ولا حل، تستمر حتى تنهكك تماماً، ثم تنتهي الحرب... بانتهائك.

وقف بعيدًا يراقبها بصمت. ملامحها كانت أشبه بالكتب العتيقة والأساطير، تغريه فكرة التسلل إلى قلبها، كقارئ يقتحم صفحات رواية لم تُكتَب نهايتها بعد.

كانت غارقة في سكون غريب، عيناها تائهتان، كأرض معركة لم يبق على سطحها أي مقاتل. تبكي كل يوم لتفرغ آلامها، لكنها وسط ضجيج العالم، كانت تفضل الصمت. تتجاوز كل شيء بهدوء، وكأنها لم تتعثر أبدًا.

جلس بجانبها، منهكةً من يوم طويل شاق، وهي تسرد ما حدث لها بصوت خافت. أما هو، فكان ينصت لها بكل جوارحه، كما ينصت المؤمن لصوت صلاته الأولى.

نظر إليها بتفحص، ثم تساءل بصوت مليء بالقلق:

ـ مالك يا حبيبتي؟ شكلك تعبان ليه؟

نظرت إليه بهدوء، ثم فجأة، وكأن الجدران التي بنتها حول نفسها انهارت، أجهشت بالبكاء. احتضنته بقوة، تحتمي به من العالم، دموعها تنهمر، وشهيقها يعلو.

ربت على ظهرها بلطف، محتضنًا إياها بخوف، قائلاً:

ـ إيه اللي حصل؟ أي حاجة هتتحل، صدقيني. ما تخافيش، طول ما إحنا سوا كل حاجة سهلة.

فجأة، ابتعدت عنه، تخفي وجهها بين يديها، عاجزة عن النطق. ثم صرخت بصوت ممزوج بالألم:

ـ مفيش حاجة هتتحل! مش هتفضل معايا يا 'أمير'، خلاص، أنا مش هخلف أبدًا. أنا جالي ثنائي القطب. أنا تعبت ومش هنكمل سوا.

لم يلتفت إلى كلماتها، احتضنها بشدة، ناسيًا كل شيء إلا وجودها أمامه:

ـ مش عاوز غيرك. صدقيني، أنا عاوزك إنتِ بس يا 'جيداء'. اسمعيني بصي لي، أنا 'أمير'. إنتِ مش بس مراتي، إنتِ أختي، وصاحبتي، وأمي، وبنتي. مش عاوز أي حد غيرك. هنعدي ده سوا. لو مش هنخلف، نتبنى طفل. أي حاجة هتحتاجيها هنلاقيها. بس ما تسيبينيش.

نظرت إليه وهي تحاول أن تهدأ، وكأنها تتشبث ببصيص أمل:

ـ الدكتور قال إن العلاج هيطول سنة؟ سنتين؟ عشرة؟ مفيش أمل، أنا خوفت أقولك، بعدها عرفت من الدكتورة لما أغمي عليّ. نفسيتي باظت. طلقني عيش حياتك بعيد عني. أنا مش هقدر أتبنى طفل. مش هقدر أربي حد، ولو رجع أهله؟ أنا خايفة خايفة أوي يا 'أمير'.

أما هو، فكان يكافح خوفًا أكبر. خوفًا من أن يغيره الألم، أن يصبح شخصًا ممسوخًا لا يشبه نفسه. ومع ذلك، في هذه اللحظة بالذات، كان قراره واضحًا، كالسيف القاطع:

ـ "مش عاوز غيرك. سنتين؟ عشرة؟ حتى عشرين؟ أنا جنبك، مش هتتعب ولا هنمل. هتتعالجي، وحتى لو إرادة ربنا محكمتش ، مش مهم. عارفة؟ موضوع ثنائي القطب ده كمان ممكن يبقى لفترة. يمكن ده كله من الصدمة. صدقيني، كل حاجة هتبقى تمام طول ما إنتِ جنبي.

وعندما تنتهي آمالك، يتوقف كل شيء ينبض بداخلك. أحلامك، وجودك... كل شيء ينتهي إذا اختفت بسمة من تحب.

في بعض الأحيان، لا تتمنى أكثر من جلسة واحدة تنهي فيها كل أحزانك وحطام لياليك.

كانت تجلس واضعة رأسها على كتف أخيها، الذي كان يربت بهدوء على خصلاتها البنية. تبس بقلق وهو يضمها إليه:

- أنا خايف عليكِ. ساعات بفكر في وجود 'محمد'، وبحسّه غريب أوي، أنا خايف يئذيكِ، هو اتأذى كتير، وخايف أذاه يطولك، أنا مليش غيرك في الدنيا دلوقتي.

اعتدلت في جلستها ونظرت إليه، ثم أجابت بحزم مشوب بالاطمئنان:

- مستحيل يئذيني، أنت عارف محمد، حنون، بيعرف إزاي يخلّيني هادئة وأنا منهارة، بيستمع لكل حكاياتي حتى لو كانت تافهة، وبيعتذر على أي كلمة خرجت منه بهزار، بيخاف لما يشوفني تعبانة، وحتى في غضبه بيقلق من غيابيؤ هو بيمسح دموعي من غير ما يعرف السبب. مهما دورت، مش هلاقي زيه تاني.

أمسك بيدها ومسح عليها بهدوء قائلاً:

- يارب يكون كلامك صح. هو اتظلم واتأذى كتير، وأتمنى ده ميأثرش عليه، أهم حاجة تاخدي بالك من نفسك، ماشي؟

أومأت برأسها وهي تحتضنه بحنان:

- عارف طول الوقت كنت بهرب من الحب حتى أنت، مكنتش قادرة أحبك ولا حتى أحب نفسي، هو الوحيد اللي قدر يجرني للحب ومن يومها، وأنا بحب كل حاجة، طول ما هو موجود، ده مكاني ووطني لو مش معايا، يبقى مليش وطن. عارف لما يكون حد مألوف كأنه أنت؟

بعدما رحل، ظلت مكانها تفكر فيه بابتسامة صغيرة. كلماته كانت تتردد في ذهنها كأنها موسيقى لا تنتهي.

من مسافة قريبة، كان هو يراقبها. عقله يهمس بخوف، لكن قلبه، أو ما تبقى منه، كان يصرخ، جميلة هي.لا مثيل لها. تشبه المطر في ديسمبر بعد صيف حار، تشبه تفتّح الزهور لأول مرة في الربيع. تشبه الأمل الذي يأتي بعد اليأس. تشبه الأنغام الهادئة، وتشبه كل ما هو وردي ودافئ.

اقترب منها وجلس بهدوء، دون أن تتكلم، وضعت رأسها على كتفه. لم تكن بحاجة إلى كلمات، فقط أرادت حضنه؛ جداراً لا يتحرك، وأماناً يتحمل حزنها وتعبها ومعاركها.

قالت بصوت خافت مملؤة القلق:

- أنت مش هتسيبني، صح؟ أوعدني إن مفيش حاجة هتبعدنا.

قبّل خصلات شعرها ورد بهدوء، وكأنه لا يدري بما ينطق:

- مقدرش أسيبك، كل حاجة جوايا متلخبطة، ضلمة عقلي مش بتنتهي، وزحمة الكلام اللي كان جوايا انتهت من زمان. أنت الفكرة الوحيدة الدافئة وسط أفكاري الباردة، والنور الوحيد في عتمتي.

بصوت منخفض، أكملت وهي تمسك بيده، وكأنها تخشى أن ينتهي كل شيء:

- أوعي تنساني في يوم، أو تتغير.

شدد من عناقها، وكأنها القشة الأخيرة التي انتشلته من بحر الظلام، وقال:

- حتى لو في يوم نسيتك، عينيك زي تاريخ الميلاد، لا يمكن أنسى أو أتغير عنها.

احتضنته بقوة أكبر، بينما صدحت موسيقى بعيدة بصوت عذب:

رغم الحدود رغم السدود

واللى عدى من العهود رغم الجراح رغم الالام

رغم ان جوه القلب فيه زحمة كلام رغم اللى قال واللى فاكر انه ممكن

يخنق العقل بقيود

انقضى الشهر بسرعة غير معهودة، وكأن الأيام استعجلت الرحيل. انتهى رمضان، الشهر الأكثر هدوءاً وصفاءً في السنة، الشهر الذي يجمع الجميع حول موائده ولياليه المبهجة. ومع نهايته، عاد العالم كما كان؛ مخيفاً، أسود، غامضاً، ومفعماً بالحزن.

في منزل "ياسر"، انشغل الجميع بتحضيرات العيد. كان المنزل يعج بالحركة والضحكات، بينما اختار "ياسر" الوقوف بعيداً، يهرب من المشاركة في المساعدة.

على الطاولة، كانت الفتيات ممسكات بقطع العجين الناعمة، يزيّنها بنقوش دقيقة بعد حشوها بقطع من الحلوى. في هذه الأثناء، كان "محمد" منهمكاً في وضع لمساته الأخيرة على كعكة العيد، وقال بفخر:

- أنا السنة دي داخل منافسة مع كحك العيد!

نظرت إليه "حسناء" بشفاه ملتوية وبسخط واضح:

- تدخل منافسة بالكحكة المشققة دي يا عم؟ روح بطل هبل!

ابتسم "محمد" بخبث وأشار إلى "هاجر"، التي كانت تقف بجانبه وتعمل بصمت:

- ومين قال إني هنافس بالكحك ده؟ أنا هنافس بالكحك أبو سكر اللي جمبي ده.

ابتسمت "هاجر" بخجل، بينما تبادل الجميع نظرات مختلطة بين الاشمئزاز والسخرية.

في زاوية أخرى من الغرفة، اقترب "أحمد" من "محمد" وهمس في أذنه:

- ممكن أفهم عرفت إيه عن 'أصلان' خلاك متوتر كده يومها؟

حاول "محمد" الحفاظ على هدوئه حتى لا يلفت الانتباه، ورد بصوت خافت:

- أدريان' ما كانش يعرف مكان بيتهم هنا في مصر، وكان مستني أخوه 'أصلان' لأنه الوحيد اللي نزل مصر مع أهله. يبقى إزاي 'أصلان' دلوقتي بيسألني عن بيت أهله؟

أشاح "أحمد" بنظره وهو يحاول طمأنته:

- يابني، متحطش في دماغك. يمكن نسي المكان أو أصلاً ما كانش يعرفه، و'أدريان' بس اللي توقع كده.

أومأ "محمد" برأسه دون اقتناع، وعاد إلى عمله.

وبينما كان يراقب الأجواء العائلية من حوله، شعر بشيء مختلف يختلج صدره. لقد مر وقت طويل منذ أن شعر بهذا القدر من السعادة والدفء وسط عائلة حقيقية.

بينما في مكان آخر، كان يجلس فوق كرسيه الفاخر، ينظر إلى الشخص الواقف أمامه بعينين جامدتين ووجه خالٍ من أي تعبير. سيطر الصمت على الأجواء، إلا من صوت أنفاسه الممتزجة بدخان سيجارته.

تفوه بكلمات حادة، بلغته الأجنبية، قائلاً:

ـ "والآن، بعد أن سردت لك كل شيء عن هذا الـ'محمد'، هل فهمت ما عليك القيام به؟"

رفع الآخر عينيه نحوه بابتسامة باردة، تحمل وراءها نوايا قاتمة، وأجاب بنبرة هادئة ومليئة بالتحدي:

ـ "لقد فهمت كل شيء. والآن دعني أقول لك إن نهاية 'دائرة الخطأ' ستكون على يدي أنا. أما 'محمد'، فاعتبره منتهيًا. أعدك أنه لن يرى يومًا سعيدًا بعد الآن. كل لحظة في حياته ستكون هلاكًا."

انتهى الحوار، لكن الصدى الذي خلفته الكلمات لم ينته. بدا كأن الغرفة تختنق بثقل المعاني المخبأة بين جدرانها.

النهايات...

هي شيء من الهلاك. ليست النهاية قفل الستائر، كما يتوهم البعض، بل هي غالبًا بداية جديدة في غياهب الظلام.

البارت الثاني والثلاثون

"تساقط صفحات الماضي"

شيئا ما لم يكن وفقا للخطة ظهر مرتجلا بين صفحات الماضي

شيء بدونه لم كأن وضعا هنا تنثر الماضي في كل شيء

حتى الحاضر الذي بات ممسوخا.

تحدث الرجل الذي كان يطغى عليه الشيب والهيبة كان في عينيه شيء من القسوة التي تجعلك تخشى حتى النظر إليه:

«و هذا ما كان بخاطري، ولكن اجعلني أخمن تلك المرة، البداية من عند "أحمد"اجعلني أشاهد حرب باردة تريح قلبي بعد هذا، ولكن اترك لي" اسلام" لبعض الوقت.»

نظر إليه الثاني وعيناه مليئة بالتساؤلات والقصص كان يبدو شرساً من النظرة الأولى الشر الذي يتراقص بداخل عينيه، وهذا الوشم الذي يخفي جزءاً من وجهه وباقيه رقبته أعينه القاتمة التي تسرد أحزانه كل شيء كان مهيباً :

«افعل ما تريد يا قائدي، كل ما يهمني الآن أن أجعل تلك البلد حطام رماد، أريد أن أرى الدمار في كل إنش بداخل هذا المكان، كل ما أريده أن أرى خسارة "محمد" تلك المرة على يدي سأقتلع السعادة من عينيه.»

نظر إليه الثاني ابتسامة باردة، وهو ينسحب بمقعدها المتحرك:

«يبدوا أنك تحبه كثيراً، وهذا ما أريده، لكن أرجو أن لا ينال وفاته سريعاً، يجب أن يرى نهاية كل شيء بعينيه قبل أن يأخذ رصاصة الرحمة.»

شيء من الانتقام يجعلك شيئا آخر يجعل الدمار يحاوط أيامك كالكراهية لا تنتهي إلا بنهايتك والشيء الوحيد الثابت في تلك المعركة هي خسارتك.

تناثر الليل جعلنا من الأرض مقابر، بينما في تلك الزقاق بين الشوارع والأحياء في تلك الأماكن المظلمة في إحدى الأركان التي يلسعه الصقيع و كأنك هنا تحديداً تعرية من كل أثقالك، امام إحدى الحانات تجمعت كل حطامه على كرسي خشبي برائحة المطر عتيق يجلس بكل خذلان العالم بداخله مقابر متناقلة كل ما بداخله يستنجد ويبكي عادة هو أرجو في حال أن مررت بجانبه أن تدعه وشأنه فا حتى أيامه لم تفعل ذلك له كن رحيماً بقلبه فلا شيء له.

إنها الخامسة فجراً بينما القمر ينثر ضوء حول الأرض كان هو يجاهد النوم في لليله. وكيف ينام ورأسه محط للتفكير، كانت الرصاصات تتطاير أمام عينيه بلا هوادة ذكريات لا تنتهي لا مفر من تلك المعركة التي يوجهه في نومه الآن بعيداً عن المنال كلما حاول الفرار يزداد الأمر سوءاً تزداد الأفكار و إلحاح عقله لا ينتهي، معركة لكنه لأن ينتصر بها.

نظر إلى حاله الأن، وقد انتهى منه كل شيء اقتربت منه إحدى الفتيات التي على ما يبدو أنها فتاة ليل حاولت الاقتراب منه بكل وقاحه، بينما هو أعطى لنفسه تلك الفرصة. ولكن عند أول لمسه وجدها هي حبيبة الفؤاد أمامه بدلاً منها وكأنه تظهر له عنوة، أبعد الفتاة عنه بقوة، وهو يبتعد كأنه صعق.

نظرت إليه الفتاة بخوف، ثم ذهبت تهرول بعيداً، بينما هو سقطت دمعة منه وهو يتذكرها مرة أخري.

كانت تجلس فوق سيارته من الخارج بهيئتها الشرقية الفاتنة وهي تعيد خصلاتها للخلف:

«"عدنان" إلا يجب أن تراجع عن حبي الآن ؟؟، طريقي باكمله متاعب.»

أبتسم وهو يحتضنها بهدوء وهو ينظر بداخل بحور عينيها:

« لو كانت حروب العالم باكمله لك ساقودها أجمع "زمهرير" أن لا شيء بدون حبك، الله كتب في قدري هكذا كتب "عدنان"لأن تفترق يا عبدي عن "زمهرير" وأنا لن اخلف قدر ربي ».

أمسكت بيده وهي تسحبه الي مكانهم المفضل إلى تلك الشجرة التي شاهدت حبهم حفرت فوق جذوعه اسمائهم وهي تضع يدها بداخل معطفة وتقول:

« الأن لنضع اسمنا هنا، وعندما يمر اي عاشقين سيعلمون بالتأكيد أننا زوجين و يحسدنا الجميع على هذا الحب ».

تذكر نهاية حبه لها وهي تصيح بوجهه تضربه ورغم خفه ضربتها إلى أنها كانت تضرب روحه:

« أكرهك أبغض كل لحظة عشتها معك أنت حرقت روحي بيديك حرقتنا جميعاً، أنظر اين نحن الآن أين ابني!؟، أين "ساردار"أنا استمع إليه الآن أبني يخشي الظلام كثيراً يخاف من البرد، لقد قتلت روحنا بيدك أكرهك "عدنان"اكرهك كثيراً بقدر حبي لك كنت أعشقك كل شيء يخصك والآن أنا لا أعلم ماذا أفعل بدونك ماذا أفعل قل لي اين اذهب وانا لا أعرف الا أنت أنا أكرهك وليس لي سواك .»

عاد إلى وقعه مرة أخري الآن هو بلا حبيبته وزوجته وبلا ابنة وبلا اي شيء هو وحيد تماماً.تذكر تلك الأغنية العربية التي كانت تستمع إليها دائماً بجانبه والآن هو في مكانهم المفضل يستمع إليها وحيداً .

"شـــــــوف بقينا فين يا قلبي .. وهي راحـــــــــــــــــت فين

شـــــوف خدتنا الفين يا قلبي .. وشـــــــــــــــوف سابتنا فين

في سكة زمان راجعين في سكة زمان .. في نفس المكان ضايعين في نفس المكان

لا جراحنا بتهدي يا قلبي .. ولا ننســـــــــــــــــــــى اللي كان يا قلبي

بتصحي الطريق خطوينا وأنين السنين .. والسما بتبكي علينا والناي الحزين

حتى نجوم ليالينا والقـــــــــــــــــــــــــــــــــمر غايبين

الحزن وجوة عديدة كحزن قلبه وهي تتركه وحيداً بلا وطن أو حبيب وهل يوجد له اوطان بعد أن هجرته كل اوطانه

جلس فوق أحدي الأرصفة لا يهتم إلى رجاله الذين ينظرون له بتعجب ولا إلى المرين من حوله كل ما يفكر به هل كان على خطا في تلك اللحظة أمر قلبه بالتريث ولو بالقليل منه يجب أن يكون حيادياً منصفا كأنه ليس منه .

نظر إلى الغبار الذي يغطي السيارة وهو يدون فوق الغبار رغم حزنه بابتسامه هادئه

"حبيبتي كل ما بنسى .. تفكّرني الحاجات بيك".

- الأبنودي

بينما في الصباح حيث أشرقت الشمس مرة أخري كالمعتاد تضي كل تلك البقع السوداء معاده بعد القلوب تعطي للحياة فرصة مرة أخري للهدوء و الالتحاق بما رحل وترك الذكريات .

كانت تقف تنتظره ولكن بوجهه قاتم متعب و حزين شارد وكأنه لشخص ليس له روح .

بينما هو كان يشعر أنه عندما ينظر إليها يشعر بقتال بين يساره و يمينه، و تغار عينه من قلبه الذي يراها، يتطير الشوق منه كخصلاتها ربيعيه الملمس البني الذائع الطويل، من عينيها الياقوتيه الهادئه كحبات البن، و رموش العمر حول اهدابها، يؤمن أن ليس الجمال أربعين مشابهاً طاغي الحسن و الذوق لا يوجد بالكون شيء يماثل هذا البدر .

أقترب عقد حاجبيه بتساول وهو يقترب منها قائلاً:

« مالك!؟. شكلك متغير وتعبان أنت كويسة!؟»

حركت رأسها عن يمين ويسار وهي تسحب أنفاسها:

« معرفش، متوترة اوي و خايفة و تعبانه أنا مش قادرة أحدد اي حاجه، أنا آسفة اني ببوظ يومك و حياتك على طول بس حقيقي أنا خايفة جداً .»

كان يجب أن لا يسألها لماذا حزينه يقوم الأول بتوبيخ الحزن و القضاء عليه، ثم يعود مواسياً بعناق طويل يجعل الخوف يفر بعيداً .

أقترب منها بهدوء وهو يحمحم بخشونة قبل أن يبتسم وهي ترفع عينيها إليه لأول مرة يشعر بأن له اهمية بتلك الحياة بأن له فائدة:

« مش المفروض تداري عني خوفك، لا قوليلي و بوظي يومي زي ما بتقولي، وأنا هعدله أنا ها اطمئنك، لو كل الدنيا بتخوف اعتبريني المكان الوحيد الأمان، أنا طول عمري مش عارف انا عايش ليه لأول مرة أعرف أني اتولدت بس علشانك لو الخوف خوفك أنا ههزمه و اطمئنك .»

و كم من فارس بالحب لقي حتفه أن الحب يصطاد الاسود بالغزلان الحب كاضوء المدينة تصبح لحظات الحب خالده ام عنها فكانت تؤمن أن لديها فارس لا يصطاد ولو على روحه .

نظرت له وهي تبتسم له بعفوية تشعر أن كل شيء بداخلة ينبت يعود للحياة مرة أخري حتى أنها الآن تتصالح مع مخاوفها:

« تعرف أنا طول عمري بخاف طول الوقت كنت بخاف و اكتشافات أني بخاف من الخوف نفسه، لم خطفني الراجل اللى المفروض يكون أبويا زمان فضلت محبوسه في مكان ضيق و ظلمة كان وحش اوي لم خرجت في الشمس خوفت اكتشفت اني مش بس بخاف من الضلمة و الضيق أنا بخاف من الشمس، بخاف حد يبعد عني لم البنات اتجوزوا خصوصاً "هاجر"حسيت اني مليش حد خالص .»

أمسك بيدها وهو يبتسم يربت فوقهم يتذكر أول لحظة رآها بها مازال رحيق هذا القاء متمسك به كالليله من ذاق طعم الحب لن ينساه بشيء من الدنيا :

« أنا جمبك، لو كل الناس اختلفت أنا هكونهم كلهم أمك و ابوكي و عيلتك و صحابك وخواتك أنا هكون بيهم كلهم، فداء ضحكه وحدة منك هو الدنيا فيها كام ضحكه ليك علشان اضحي بيها .»

كان يحبه بالسر في داخله فقط بين الغابات السوداء في عقله، والآن يحب في العلن أمام الجميع يصارع العالم لأجل نظرة واحدة .

نظرات له بمشاغبة وهي تسحب يديها بعد أن أطال تمسكه بهم، في الحقيقة أنه يزداد جمال الحبيب أضعافاً كلما يكون غير هادئ، حاجبين كالهلال معقودين برابطه حب، نظرات متزعجه من أعين الياقوت، خدود حمراء مرتفعه كالغيوم و صوت كالرحيل في نهاية العالم .

كان يتحرك بجانبها قبل أن تتحدث هي مناديه بإسمه الذي خرج من بين شفتيها بهدوء:

«سليم" شكراً لكل مرة كنت فيها كل الناس أنا بحبك اوي بجد و عمري ما ها أندم اني عرفتك».

أبتسم بهدوء وهو ينظر لها متذكر أحدي الكلمات التي قراءها يوماً اليوم فقط تفهمها قلبه رآها بقلبه وليس بعينيه:

« عارفه مرة زمان قرأت لـ"فؤاد حداد"استغربتها اوي و مصدقتهاش غير دلوقتي بس "ماليش غيرَك،وطن تاني، ولا صاحِب، ولا مَطرح "،انا فعلاً مليش غيرك ولو هعيش عمري كله اطمئنك اعرفي اني هكون أسعد إنسان على الأرض ومين أحن عليا من عينك يا طريقي!؟»

لشخص واحد فقد أنت جاءت للحياة لتكون له ملجيء ومنزل و ملاذ وليل و أمان دائما كمفعول اول ضحكه لطفل و أول نظرة هادئة تلك هي الحياة تحسب بعدد كل لحظة .

كان عائداً من عمله ولأول مرة كان سعيد في كل مرة كان يعود لمنزله كان يشعر بالغربة بالوحشة بالخوف لا رفيق له لا أنيس ليس له أي ونس، لكن اليوم حتى وإن كان كل ما يملكه كلمة واحده منها أو جملة تكفيه لتكون انيسأ له ولليله .

كان يمسك بيده حقيبة من المشتريات التي ابتعها خصيصاً للصغير "يزن" لم يكن له أخ يوماً ولا حتى ابن أو صديق دائماً كان وحيد لكن بوجود هذا الصغير الذي كان أكثر الاشياء حنان على قلبه شعر أن له أخ صغير و إبن و صديق رغم عمره الصغير وصدقتهم الغير متوفقة إلا أنه أصبح كل شيء بالنسبة له.

لم يكمل ابتسامته عقب استماعه إلى أصوات صراخ من الاعلي لا يدري كيف صعد الدرجات ولا كيف وصل إليهم وهو يدق الباب لكن لا فائدة تسارعت نبضات قلبه وهو يتذكر نفس المشهد الذي عاشه من قبل وهو يستمع إلى صراخ والدتها والنيران تمنعه من وصوله إليها .

لم يفيق من تلك الحالة الا وهو يحطم باب المنزل و يصبح بالداخل رأي الصغير مختبئ خلف الأريكة بذعر ذهب إليه يحتضنه لكنه تفاجأ بقول الاخير:

«صرصار واقف هناك .»

رفع شقته للاعلي بسخرية وهو يمسح فوق وجهه بهدوء:

« "يزن" انت نشفت دمي يا حبيبي كل ده على صورصار فين ده يا حبيبي!؟»

أمسك بيده الصغير إلى الداخل وجدها تقف بعيداً عن تلك الحشرة وبيدها أحدي الزجاجات كل ما كان يشغلها كان الصغير الذي يصرخ حتى أنها كانت تواسيه وهي أيضاً يبدوا عليها الانزعاج:

« متخافش يا "يزن" مفيش حاجه والله حبيب ماما أنا هتصرف يا روحي ادخل عندي الاوضه وقفل من جوا .»

استمعت الى صوت حمحمه خشنه تنتمي الى صوت ذكوري نظرت إليه بأسف بينما هو أقترب من موضع تلك الحشرة وهو يبتسم بستهزاء قائلاً بثقة:

« هو ده اللى مخوفكم!؟، يا جماعه ده لطيف جداً ».

كان كل هذا قبل أن يصرخ بذعر وهو يجد تلك الحشرة تطير نحوه قائلاً:

« طلع بيطير اجري يا "رحاب" ».

أسرعوا بالفرار بعيداً عن الغرفة، بينما بعد فترة قصيرة و بعد أن انتهي من تلك الحشرة التي حطمت كل هيبته في الأسفل كان يجلس على قرب بعيداً منها ومن الصغير الذي كان يمسك بالمثلجات بجانب والدتها .

قهقه الصغير بمرح وهو يقلد حالته بالاسفل:

« شكلك كان بيضحك اوي وانت بتجري تحت من الصرصار، طلعت بتخاف ».

أقترب منه بهدوء وهو يهبط بجسدة إلى طول الصغير:

« أستر عليا الله يستر عليك، أنا لو الموضوع ده اتعرف في القسم عندي هينقلوني قسم ضباط الإيقاع ».

بعد مدة من الصمت تحدثت له بتساول وهي تشعر بشيء ما بالداخل يتزعزع وكانه يظهر لأول مرة :

« قولي بقا انت حاسس بأيه يعني اخر مرة مكنتش احسن حاجه، هو انت قبلت "نبض"

ولا لا!؟، مقصدش يعني اكون فضوليه بس أنت اخويا يعني و مفيهاش حاجه لو اتكلمنا صح!؟»

حرك رأسه بهدوء وهو ينظر إليها من طرف عينيه يشعر بشيء ما يجعله يريد الاقتراب أن يجازف بخوف يقترب إليها تشبه الأضواء المبهرة :

« تصدقي انا مبسوط والله بجد رغم كل حاجه وحشه و الزحمة و الخراب اللى جوايا أنا مبسوط، من نعم ربنا عليا وجودكم والله أنا بقيت مبسوط بوجود "يزن"ربنا يحفظه ليك و وجودك يعني بقا مريح، "نبض"خلاص اخر جزء كان جوايا بيحبها وعاوزها مات من يوم ما اتجوزت أنا مش قليل علشان ترجعي لي بعد ما التاني يسبها عارفه أدق وصف للى أنا فيه كلام "جاهين"

"في لسه ركن في قلبي عاوز يبتسم ."وانتوا الركن ده ».

ابتسمت له وهي تبعد نظرها عنه قائلة بهدوء تحاول تخفيف قلقها:

« ربنا يريح قلبك يا "حسام" انت طيب و تستاهل كل خير، حتى بجد "يزن"اتعلق بيك رغم اني كنت في الأول مش عاوزة يتعلق بحد أكتر منه لكن حبيت وجوده معاك، صحيح انت معزوم كده كده في العرض بتاع "هاجر" علشان تشوف الديكور بتاعي .»

مسح وجهه بيده وهو يتنفس بعمق وينقل نظرة إليها وهو يحاول أن يهدأ من قلق قلبه الذي يرتجف قائلاً مختصر سريعاً وهو لا يعلم بما ينبس حتى:

«استاذة "رحاب" أنا يتيم و راجل كسرت الثلاثين و مليش أهل ومعرفش حد غير "محمود" العسكري، تقبلي تبقي عيلتي أقصد يعني أنتِ عندك "يزن" اهو لو يعني تتبنيني معاه و ينوبك ثواب، ايه اللى بقوله ده!؟"رحاب" تقبلي تتجوزيني و تكوني عيلتي و امي و اختي اللى اتحرمت منهم!؟، تقبلي ابقي إبنك اللى الدنيا هلكته!؟،لو تقبليني أب ليك و لـ"يزن" أكون اسعد مخلوق خلقة ربنا .»

في الحقيقة هو الآن فقط يحسد زاوية منزلها، و كل انش يحتويها، و حتى أغانيها التي تسرد حكاياتها، حتى يحقد على وجهه الذي لا يشبه و حتى يشعر بالقلق لنفسه لأنه يحبها .

نظرت له بذهول وكأنه غير واعيه لم يحدث بينما هو تنهد وهو يثبت نظره على وجهه قائلاً:

« أنا عارف أن يمكن مكونش حد كويس بالنسبة ليك .....»

بتر حديثه وهي تقف أمامه بغضب قائلة:

«هو مش علشان أنا كلمتك بطريقة محترمة و عملتك كويس ده معناه انك تفهمني كده يا استاذ يا محترم .»

نظر لها بصدمة وهو يحاول أن يصلح ما وصل إليها:

« أنتِ ازاي فهمتيني كده!؟، أنا بقولك عاوز اتجوزك، و مفيش داعي كل شوية تفكريني انك عملتيني كويس، "رحاب" أنا بحبك .»

في لحظة واحدة شعرت بأن كل مشاعرها متناقضة كل الأفكار تحاوطها من كل مكان ضاقت بها كل السبل،ماذا عن صغيرها الان!؟و ماذا عن كل ما كان يعاني منه هل يمكن أن يكون شخص سيء، ولما لا هل يحق لها أن تحب مرة أخري!؟

تفوهت وهي تتنهد و كان كل الهواء يختفي من حولها وكل جزء من قلبها يصارع الجزء الآخر و كأنه ليس منها :

« أنا مش هجاذف بابني ولا بنفسي أنت متعافتش وقرارك ده مش مدروس، حضرة الظابط ارجوك ولا ليك علاقة بابني ولا بيا مرة تانية و ياريت ميكونش بينا اي كلام .»

أسرعت تحمل صغيرة و تبتعد بينما تركته يقف ينظر للسماء بحزن هل عاد وحيداً!؟الاجابة نعم و هل كان في يوم من الأساس غير وحيداً انهمرت دموعه تغرق بؤبؤي عينيه وهو يمسد حول قلبه بهدوء وها هو مرة أخري بعيداً عن العالم .

كانت تهبط الدرجات بسرعه وهي تحمل صغيرة الذي كان يتململ منها أغلقت باب منزلها بينما الصغير الذي وقف أمامها يضرب الأرض بقدمه غاضباً:

« ماما أنت نزلتيني من عند "حسام"ليه؟؟انا كنت عاوز افضل معاه .»

هبطت إلى موضع طوله بقدميها وهي تمسك بوجهه الصغير بين كفيها:

« مفيش "حسام" تاني، لو سمحت يا "يزن"ملكش علاقة بي تاني ده راجل غريب .»

نظر لها الصغير بحزن وهو ينبس بهدوء:

« يعني خلاص هو كمان مش هيكون في "حسام"تاني، بس هو مش غريب إحنا أصحاب وهو كان بيجي عند المدرسة لم بابا مكنش بيجي، وكان دايما بيشجعني وأنا بلعب كورة ماما أنت مش قولتيلي مينفعش نسيب أصحابنا من غير ما نقولهم سبب ليه بقا احنا سيبناه دلوقتي زمانه زعلان .»

تركها غاضباً من موقفها، بينما هي جلست أرضاً وهي تمحي عبراتها المنهمرة و للمرة الثانية ينتصر عقلها على كل ما يريده قلبها .

لا تعلم أن كانت تحبه ام لا هل هذا حب!؟ أم أنه حلم مجرد عطف عليه أم أنه حمل قلبها بعيداً، مشاعرها متناقضة في داخلها، شيء ما يجعله تريد الفرار الآن حفاظاً فقط على صغيرها حتى لو كانت تحبه ولكن كيف ستنهي ما نبت بقلبها؟؟.

بدأت الشمس بالظهور جعله من الأرض مسرح مضيء كانت اشاعه الشمس تتناثر بهدوء فوق وجوه البعض كم تفعل كل صباح عادة تلك التي لم يعرف النور طريقاً لها، كانت تجلس تمحي دموعها بهدوء وحتى وهي في أشد حزنها في أعمق خوفها لم تنسي تلك الكلمات التي حفرت بداخلها كالوسواس، وهي أمام مرآتها تمحي دموعها بانامله و باليد الأخري تضع احمر الشفاة فوق مبسمها تصفف خصلاتها تتزين بكل شيء يجعلها تلمع كالنجوم لكنها متعبة وبعد كل هذا تجهش باكيه .

استمعت الي صوت دخول والدها الذي احتضنها بهدوء وهو يربت فوق ظهرها بحنان لكنها كانت تزداد بكاء وهي تحتضنه قائلة:

« اشمعنا أنا؟؟، ليه كل ده بيحصل لي، أنا ليه انهزمت كدد يا بابا، ليه سيبتها تنتصر عليا!؟»

أجابه بهدوء وهو يمحي عبراتها بانامله يحاول تخفيف حزنها لكن لا فائدة هو نفسه يمر بأيام سيئه منذ قتل زوجته لا منذ زمن بعيد و الأحزان ترافقه:

« هي مين يا حبيبتي اللى انتصرت عليك!؟»

أجابته بحقد كراهية تجعل عينيها دائماً مخفيه عن الحقيقة تجعلها بعيداً دائماً عن حقيقتها:

« "هاجر" أنا بكرها يا بابا و بتعب اكتر كل ما احس انها مش بتكرهني، وليه هي تاخد كل حاجه وأنا لا شايف "محمد" اللى بقا جمبها عاند الدنيا كلها و اتجوزها، أخوها اللى ساب أهله و فضل جمبها، أصحابها حتى مشروعها بينجح كل حاجه معاها وأنا لا طيب هي عندها كل ده حتى الشخص الوحيد اللى كان بيحبني و بيخاف عليا اخدته مني .»

و للاسف بعد تلك المدة الطويلة من التعافي و بعد كل هذا الألم و طي صفحات الماضي، و إحراق كل ما كان ذكري جميلة يوماً، أدركت للمرة التي لم تعد تعرف عددها أنها تحبه و أن رغبه الانتقام لم تعد تطاردها فحسب بل أصبحت بداخلها .

نظر له بقلق رأي لأول مرة بعينيها"أنس"كيف ورثت كل صفات عمها بتلك الطريقة:

« مش كده يا "رزان" أولاً ده نصيب، ثانياً "عبدالله"بيحبك اكتر من اي حد ليه عينيك معميه عنه كده .»

لكن كيف تحب غير حتى لو كان أكثر منه حباً حتى لو كان مغرماً هو مدفون بداخلها بين ثنايا روحها كان مازال متروك بداخلها كرسائلة ورقية في صندوق بريد لأحد المنازل المهجورة التي لا تنتمي للحياة .

تطقت بكراهية وهي تبتعد عن عناقه تمحي عبراتها المنهمرة فوق وجنتيها:

« بس أنا كنت عاوزه، أنا طول عمري اللى بحبه بيكون ليا اشمعنا المرة دي، أنا لو اتنزلت عن حقي المرة دي مش هيجيلي اللى بحبه تاني يا بابا .»

شعورها بالاسي على حالتها كان بليغ يبدوا كغابة اشتعلت بها النيران ولا يوجد شيء يطفئها فالحريق كان من الداخل .

احتضنها بشدة شعور بالخوف على أبنته التي بدأت بالتغير وكان داخلها تحول :

« "رزان" افهمي "محمد"مش لعبه ولا عربية ولا فستان عاوزة تشترية مامتك كانت معوداكِ على كل طلباتك منفذة، لكن ده بني أدم مستحيل تشترية .»

خرجت من عناقه الدافئ إلى حقيقتها الباردة العارية إلى انتقامها المدمي الذي نشأ شيء فشيء بداخلها:

« انت صح يا بابا بس لو مكنش ليا مش هيكون لغيري، أنا هنزل أقبل "عبدالله".»

عقد حاجبيه وهو يتساءل بقلق:

«تقصدي ايه مش هيكون لغيرك!؟»

لم تجيبه بل خرجت من المكان باكمله تاركه خلفها خوفه عليها لا يعلم أن ما نشب بقلبها كان انتقام كان كراهية ولدت بأصلها لن يتمكن إنسان من محيها، بل سيكون ضحيتها شخص بريء ليس له أي علاقة إلى أنه ترك قلبه يحب .

في منتصف الليل بعدما علم الجميع إين أماكنهم و من هم و حاربتهم الذكريات و كانت المعارك بينهم و بين العوائق ممتده كان هو لا يعلم أين هو إلى الآن ولا حتى من هو .

كانت تجلس بحزن فوق طرف فرشها بحزن تترقب تلك الصورة بيدها لزوجها الذي أخذته الحياة ربما كان يجب أن يرحل، كانت مجموعة صور له بين يديها و كأنه تحمل اجزاء من خيباتها بين يديها .

نظرت لصورته وهي تتنهد بخيبه و خذلان ينبت بداخلها كل يوم وكأن حتى خيباتها تنمو:

« ليه!؟، ليه دمرت حياتنا بايدك ضيعت عمرنا ليه وأحنا كان بينا كتير، انت حتى حرمتني من العتاب يا "مؤمن" ولادنا حتى ضيعتهم الاتنين ميعرفوش أن كل مشاكلهم أساسها انت، ميعرفوش أن كل اللى حصل كان ......»

بتر حديثها بخوف وهي تستمع لصوت خطوات تقترب منها أخفت الصور خلف الوسادة بينما دلف "عز"يبتسم لها لكنه عقد حاجبيها بتعجب وهو يقترب منها قائلاً:

« خبيتي ايه وراكي يا ماما دي صور !؟»

ارتبكت وهي تنهض إليه قائلة:

« ولا حاجه يا حبيبي دي صور قديمة، انت وحشتني أوي .»

احتضنها ورغم أنه أصبح رجل كبير ولم يعد هذا الصغير إلا أنه مازال يتشبث بثيابها و يحاوط خصرها بيديه مثلما كان يفعل وهو طفل يتعد طول قدميها بقليل و مازالت هي تحمله ايضاً في عناقها .

بعد لحظات كان يتمدد بجانبها كعادته منذ الصغر يضع يده اسفل وجنتيه و يضم قدميه إليه، بينما هي كانت تمسد خصلاته بحنان كامضاد الجروح مفعول يديها وهي تتخلل بين خصلاته، كالذي كان بعيداً عن موطن و الأن يستنشق أولي نسماته .

تساءلت بهدوء وهي تنظر له بحنان:

« مالك كده حاسه انك مش تمام يا حبيبي .»

نظر لها بحب وهو يقترب منها كان يشعر بالأمان و السعادة وهو بجانبه وكأنه عاد صغير لا يحمل للدنيا هم أو مصاعب:

« أنا كويس وأنا جمبك بس يا ماما، ياريت كنت فضلت معاك طول الوقت، أنا اكتشفت أن كل الأحلام اللي رسمتها كانت كوابيس وأنا اللي مغفل .»

عانقت رأسه بيديها بينما هو كان فقط يريد وجوده نعم هو تأثر و قضي عمره بأكمله بسبب تلك اليد التي مسحت على خصلاته فألقت بكل الهموم من فوق راسه، و ربتت فوق أكتافه تزيل كل العوائق من فوق كتفه، و علمته كيف يكون العناق، كيف يكون الأمان و الوطن بين ذراعين فقط، نعم هي والدته .

أبتسمت له وهي تنهض من الفراش:

« طيب طالما انت عندك حكايات كتير اوي كده يا نور عيني هجهز لنا عشاء و أرجع .»

أرسل له قُبلة في الهواء وهو يصفق بمرح وبعد أن أصابه الملل من غيابه أخرج تلك الصور التي رآها تخبئها وهو يتحدث إلى نفسه بهمس :

« طبعاً اكيد كانت بتشوف صور "أمير" إبنه المفضل يا عيني عليا بجد .»

تلاشت تلك الابتسامة بهدوء من فوق وجهه وهو يقلب الصور فيجد صور خادشه للحياء أقل ما يقال عنها فاضحه لوالده مع تلك السيدة التي كانت شريكته في العمل، و صور أخري مع فتيات كانت كل الصور تطعنه بقلبه كل صورة تجعله يريد أن يتقيا روحه .

و كيف أن لا يكون للقلوب المحطمه صوت حين تتهشم؟؟،هل يمكن أنها تستتر لكي لا تفجر طبلات إذن البشر حين تسمعها حين تعرف آلامها .

هل حقاً هذا والده!؟، هذا هو قدوته!؟، هذا هو الذي كاد يجن لأجل أنه فقد من ذاكرته لحظة قتله، كان يستحق القتل نعم، حرك رأسه بالنفي لا لم يكن يستحق هو والده هذا الرجل حمله عدة مرات فوق كتفه في مرضه هذا الرجل صاحبه في أحلامه كثيراً هذا الرجل ابيه كيف له أن يبغضه!؟

أغمض عينيه يحاول محي ما التصق بعينيه تحدث بصوت مبحوح وهو يمسح وجهه بيديه همس بداخله:

« لأول مرة أفهم احساس "محمد".»

دلفت إلى الغرفة والدته بينما هو كان أخفي الصور من قبل، تحجج بالاتصال بزوجته وهو يخرج، تظاهر بأنه لم يشعر بشيء وأن ما رآه لم يعمي عينيه وأن قلبه لم يصاب بطعنه أخري .

كان بين الطرق و النسمات تصافح وجه الجميع عادة وجهه الذي حرم من الهواء في تلك اللحظة ومن هنا و هو رماد في تلك اللحظة من الزمن و بتلك الغصة بقلبه التي نهايتها الموت علم لاول مرة أنه كان يهرول خلف سراب، أنها لم يكتشف بعد هذا السر و أنه طريقه بلا راجعه .

على أنغام الموسيقى يتناثر ضوء القمر في الليل بعذوبة يطغي طلته الهادئة فوق الأجواء وعلى أنغام الموسيقى تناثر حبه لتلك الأنغام التي جاءت بصوت أعذب هادي:

"في يوم وليلة، خدنا حلاوة الحب، كلو في يوم وليلة، أنا وحبيبي ..أنا وحبيبي، دوبنا عمر الحب كلو في يوم وليلة ..."

همسات هادئه صدرت من بين شفتيها بهدوء وهي تضع صينية الطعام بداخل الفرن:

"عمري ما شفتو ولا قابلتو، و ياما ياما شغلني طيفه وفي يوم لقيته، لقيته هو، هو اللى كنت بتمنى اشوفه، نسيت الدنيا و جريت عليه سبقني هو و فتح أيديه ».

صدرت شهقة منها عندما وجدت صوت خشن رجولي يكمل معها الاغنية بهدوء، طغي الأمان على وجهها عندما وجدته هو لا أحد سوي زوجها .

اقتربت منه تضع يدها تحاوط عنقه وهي تبتسم:

« عندي ليك خبر يستحق البشاميل اللى عملته ليك ».

ابتسم وهو ينبس بهدوء ممسكاً يدها:

« كل حاجه منك جميلة يا "جميلة"قولي يا عيوني ».

نبست بسعادة وهي تضمه بحب و حماس:

« أنا عملت التحليل انهاردة و طلع سلبي أنا خلاص مبقتش مدمنه يا "أحمد" أنا حاسه اني أخيراً قادرة أفرح ».

أشد من عنقها وهو يهمس بالحمد لله هو لم يكن يظهر لها خوفه أو حتى قلقه له لكنه حقاً كان يحزن لوجود هذا السم بداخلها:

« الحمدلله أخيراً، أنا مبسوط اوي بجد بيكي و فخور جداً انك قدرتي تبطلي ».

نبس بقلق وخوف مره اخري بتردد كان يشعر أنه ينطق بشيء سيدمر كل سعادتهم لكنه لا يستطيع أن يخفي عنها شيء كهذا:

« "جميلة"في سر لازم تعرفيه، أنا كنت يعني أقصد "جميلة" أنا غصب عني اتورطت زمان في.......»

وضعت يدها فوق فمه تمنعه من الحديث أو النطق بي اي شيء همست هي بهدوء قائلة:

« مش عاوزة اعرف اي حاجه، طالما زمان و بعدين تفتكر ايه اللى ها يتغير!!؟، انت عرفت الماضي بتاعي و دعمتني و وقفت جمبي وحبك متغيرش، أنا كمان لو عرفت اي حاجه مش ها اتغير ».

أبتسم وهو يتنهد بسعادة شعر بأن كل تلك الأحزان و العوائق التي كانت فوق قلبه تلاشت و تبخرت بعد كلمتها تلك .

بعد مدة كان يجلس ينظر لها وهي تغفو بالنوم يحب عينيها بالأخص عندما يداهمها النعاس، تبدوا كغروب الشمس حيث تغرب، ولكن ما يحزن أنها تتلاشى من أمامه و تهذوا و يبدوا هذيانها كالانغام يقترب يجده تسقط بداخل حضنه الشيء الوحيد الذي يشعره أنه على قيد الحياة .

نهض من مكانه ثم فتح هذا الدرج الخاص به اخرج بطاقه سوداء كبيرة مطبوع فوقها دائرة حمراء و كلمة خطأ هي أول كلمة بها من ثم تكتمل الدائرة و بالاسفل مدون إسمه كاملاً بوشم لوجه فرعوني .

نعم هي الدائرة عزيزي دائرة الخطأ اللعنة التي تصيب حياتك الى الابد مثل السحر لا يمكن قتله أو انتهاءه ابدا مهما حاولت، الخطأ خطأ واحد قادر على جعل حياتك عقدة من الأخطاء الخطأ هو بداية الدائرة ولا يوجد نهاية للدائرة ابدا .

كان يجلس بهدوء منشغل بعمله بينما ينتظر قدوم زوجته بحامله الاكواب التي تحتوي على مشروب الحياة و الشيء الوحيد الذي يطغي حتى على حبه "الشاي" .

جلست بجانبه وهي تضع تلك الحامله الاكواب فوق الطاولة بينما هو وضع يده فوق كتفها بهدوء وهو ينبس بهدوء:

« معلش يا "سما" أنا بتأخر عليك كتير الأيام دي ».

أبتسمت وهي تتحدث بهدوء:

« والله احترامك ده بيكسفني، ولا يهمك يا حبيبي أنا عارفة انك مشغول بالبنت الصغيرة "دهب" دي هي لسه مخرجتش من المستشفى ؟؟»

أجابها وهو يتنهد ببطئ يشعر بالخوف مما هو قادم:

« لا مخرجتش، المكان ده كارثة بجد يا "سما" دول مش بس بيتاجروا في الاعضاء الموضوع بقا حقيقه بعد ما كان شك، دول بيتاجروا بالبني ادمين كمان بالأطفال ».

فتحت عينيها على مصراعيها وهي تنظر له باستنكار:

« ازاي يا "سيف" أنا مش فاهمه حاجه؟؟»

أجابها وهو يرتشف من كوب الشاي بهدوء:

« شوفي أنا لحظت أن في بنات بيدخلوا للولادة و بيخرجوا من غير ولادهم، و بليل بتيجي ناس تاخد الأطفال وتمشي، اللي اكتشفته أن في حمل من البنات دي بيكون غير شرعي فا بيجوا للمستشفي و بياخدوا فلوس مقابل أنها تسيب ابنها او بنتها اللي خلفته، و في ناس تانية بيتكذب عليهم أن الجنين مات في حالات أن الأم بتتوفي بيكون ده اكتر لان الكل بيكون ملهي عن الطفل ».

لم تكن تستطيع استيعاب ما قاله هل يمكن أن تتنازل ام عن أبنها مقابل أموال!؟،كيف يمكن أن يكون هناك قلوب مثل قلوب هولاء!؟

بينما جاء الليل و سكن كل شيء في تلك اللحظة وهو ينظر إليها هي لا تشبه القمر ولا حتى النجوم هي لا تنتمي للأشياء هي شيء فريد الجميع ينتمي إليه هي السماء .

نظر لها بهدوء وهو يقول:

« أنا اكتشفت أن مفيش حاجه في العمر كله احن من وجودك معايا .»

ابتسمت له بحب وهي تربت فوق يده بينما هو كان غارق في بحور عينيها عيناها كانت كالبحر لا حدود له لم تكن بلون البحر ولكنها تحمل صفاته لا حدود لها تغرق أيضا وهو الغريق الوحيد، المحدود جدا من يرى العيون دائرية .

في عتمة الليل كانت تجلس في غرفتها أرضاً لم تكن تشعر بشيء ولا بوقت ولا اين هي حتى، تسلل القلق و الحزن إليها وهي تنظر إلى هيئتها في المرآة كانت تحب جمالها، ملامحها كانت تعشق خصلاتها تلك التي تتزين بلون القهوة، كانت تحب صوتها تحب ضحكاتها، مغرمة بعينيها، تحب اهدابها متيمة بكل ملامحها، والآن لا شيء له اهمية لا شيء يعجبها .

نظرت إلى قدوم زوجها الذي أسرع بالتحرك إليها قبل أن يهبط بجسدة إلى موضعها نظر لعينيها التي كانت مليئة بالدموع محي تلك العبرات بانامله من فوق وجنتيها .

تحدثت وهي تنظر إليه ببكاء تحاول أن تكبح دموعها قائلة بحزن على حالتها تلك:

« حاولت والله يا "أمير" حاولت وانا في الشغل كنت بضحك عادي والله أكلت كمان بس لم برجع لوحدي، بخاف بفتكر كل حاجه وحشه بتوه من نفسي، أنا كنت بستغرب من صحابي لو قالوا إن عندهم اكتئاب رغم ضحكهم لحد ما فهمت و بقيت مكانهم .»

كضماد على ندبه مفتوحه كان مفعول يده حين أمسكت يدها، وهو ينظر إلى تلك العيون التي أوقعت به وألان كيف تبدل الأيام ضحكاتها وتحول نصرها هزيمة .

احتضنته وهي تشدد من عناقه بقوة وكانه اخر قشه نجاة لها :

« مش عارفه القي نفسي تاني يا "امير" يعني بنتنا الى كتبت اسمها من يوم ما عرفتك مش هخلفها!؟، أنا مش هبقا ام ازاي أنا خايفة من كل حاجه جايه .»

تبس بهدوء بثبات بكل قوة حب بداخله وهو يبتعد عنها :

« أنا هلاقي نفسك، ما أنا اكتر حد عارفها، أنا مش عاوز بنات ولا ولاد أنا عاوزك أنت أنا اخترتك أنت، أنت بنتي واختي وامي، هتبقي ام ربنا مش هيخيب ظنك ربنا كريم، لو خوفتي و انا عايش يبقا كاني اتهيت .»

حملها من فوق الأرض وهو ينزع عنها سترتها السوداء الثقيلة ثم ساعدها في أن تبدل ملابسها بالكامل قبل أن يرتب خصلاتها و يضمد هذا الجرح بيديها ثم وضع لها العطر التي تحبه، كانت تبتسم وهي تراه يخلع عنها احمالها يعيدها لحياتها وكأنه ابنتها التي تولي رعايتها .

هو الشخص الوحيد الذي يري كل جروحها ورغم أنه لا يتسبب بها إلى أنها يضمد كل الجروح بحب بعناق بنظرات .

أبتسم محياها وهي تنظر لهيئتها التي تبدلت بعد أن بدل لها ملابسها و ساعدها في ارتداء الملابس المريحه:

« لو ربنا مكتبش ليا رزق في الولاد، هو وهبني كل رزقي فيك، أنا ممتنه لكل حاجه بتعملها علشاني .»

فتح يديه وهو ياخذها بين ثنايا روحه في عناق طويل في الحقيقة يختلف معني الوطن من شيء لآخر فالوطن يمكن

أن يكون مساحه صغيرة جدا لا تسع الا شخص واحد حدودها كتفين فقط .

ولج إلى الغرفة بوجه صارم للحق هو لم يكن من أولئك الذين يدعون الصرامه أو يحبها من الأساس ولكن هو لا يجيد الابتسامة لا يجد البكاء لا يجد لغات الحياة من الاصل، حتى وجودها هنا يجعله مضطرب خائف من كل حقيقة ستظهر له بعد تلك اللحظة .

جلس ببرود فوق المقعد ينظر له بفتور و كأنه جثه هامدة تتحرك فقط، بينما الاخير نظر له وهو يعيد نظارته الطبية للخلف قائلاً بستياء و تذمر :

« هو أنا مش مخلص!؟، و بعدين أنا عندي سؤال هو انت و إبنك مش مقتنعين بوجود باب لازم نخبط عليه!؟، بتدخولوا مكتبي ولا كانه ميدان عام يا بشمهندس احترموا خصوصيتي شوية».

رفع عينه إليه وهو يتنفس بعمق قبل أن ينبس من بين شفتيه التي تشبة فحيح الخريف فوق زهور الربيع:

« أنا عاوزك تساعدني أساعد "محمد"، عاوز اعرف كل حاجه عنه ».

تحولت ملامح وجهه للغضب وهو ينظر له بجمود قائلاً:

« أنا دكتور و اتعقدت واقسمت اني مفصحش عن أي سرر لمريض عندي يا استاذ حتى لو لأهله، و بعدين خلينا نتكلم بصراحه يا "عادل" و اسمحلي امحي اللقاب لاني مش بحبها أنت مش عاوز تساعد إبنك انت عاوز بس تبعد مشاكله عنك ».

انفعال الاخير و تبدلت اسارير وجهه و ملامحه بالكامل كل هذا الجمود أصبح نفور منه:

« وهي ايه مشاكله دي أصلا!؟، أسرار ايه اللي ممكن تحول كل حياتي بالطريقة دي!؟»

تنهد "نبيل" وهو يحاول امتصاص غضب هذا الذي يقبع أمامه وفي تلك اللحظة فقط علم من المريض الحقيقي المتسبب بكل تلك الأمراض والعقد بتلك العائلة:

« أنا هساعدك علشان "محمد" بس، أنا هقولك على الطريق لكن ولا كلمة "محمد"هيقولها هنا هتعرفها لو كلامك صح و خايف عليه هتمشي الطريق علشانه ».

بأعصاب مهزوزة وقلب ربما يعود للنبض مرة أخري تنهد وهو لا يعلم ماذا هو الطريق الذي يجب عليه أن يسلكه!؟، اي طريق هذا وهو تائه منذ زمان ولا يعرف كيف يعود للأمان:

« أنا مش اناني ومش وحش و مش شيطان ولا مؤذي زي ما الكل شايف، أنا إنسان بشر بغلط عادي بس انا معرفش أنه عادي أنا طول الوقت مش عاوز اغلط و الغلط الوحيد عملته في حاجه مستحيل تتصلح، في ابني ».

قاطع حديثهم دلوف فتاة في منتصف عقدها الثاني على ما يبدوا بشوشه الوجه وهي تقول بهدوء:

« دكتور"نبيل"أستاذ "محمد "برا و عاوز يقبلك ».

نهض "نبيل"من مكانه كالمصعوق وهو ينظر لها بارتباك قائلاً:

« لا لا بلاش يدخل دلوقتي خالص يا "روح" قوليلوا اي حاجه وانا هكلمك لم أخلص اوعي تسيبيه يدخل فاهمه!؟»

خرجت الفتاة في عجلة بينما هو خرج من مقعدها وهو يمسك بـ"عادل" يحركه من مكانه وهو يمسك ذراعيه يدور به قائلاً:

« هوديك فين!؟، اعمل فيك ايه دلوقتي "محمد" لو دخل و شافك مش ها يقرب لهنا تاني، نط من الشباك طيب!؟، لا مش هينفع انت ضخم اوي عليه، استخبي وراء الكنبة!؟لا لا مش هينفع، خلص على نفسك وانا هخفي الجثة ».

كان الأخير ينظر له بصدمة وهو يبعده عنه قائلاً بغضب:

« دد انت صحيح مجنون، لازم تكون مجنون اكيد المجانين اللى عندك جننوك ».

أجابه بحنق وهو ينظر له بستياء:

« اسمه مرضه نفسيين مش مجانين ».

لكمه في ذراعه يبعده عنه وهو يتحدث بغضب منزعجاً من ثرثرة الاخير:

« هو ده وقته!؟، خلينا في المجنون اللى برا ».

أمسك به يسحبه من ذراعه إلى أحد الأعمدة التي تفصل مكتبة عن مكتب زوجته :

« خليك هنا وراء العمود ده و اوعي تطلع صوت ».

عقب حديثه ضغط الزر الاحمر ينبه السكرتيرة بالخارج لتجعل الاخير يدلف إليه .

ولج الاخير بنزعاج وهو ينظر له بغضب:

« انت بتذنبني برا يا "نبيل"الحق عليا اني عملت مؤدب ومدخلتش عليك قفشتك؟. كنت بتعمل إيه يا محترم ؟؟»

استهزاء الاخير من حديثه وهو يجلس مكانه:

« ايه الغلاسه دي يا "محمد" انت من باقي أهلي!؟، أنا ... اه أنا كنت خلع الجاكيت بس من الحر و استنيت ألبس ».

عقد حاجبيه بتعجب مستنكراً منه:

« ايه العبث ده!؟.ما علينا أنت كنت كلمتني من يومين ليه!؟»

تذكر "نبيل"أنه تحدث معه منذ يومين لكي يجعله يسرد له ماحدث معه في تقابل "عادل"و "عدنان"، في نفس اللحظة اذكر وجود الاخير هنا فقرر تغير مسار الحديث:

« أنا عندي أسئلة بس كنت عاوز اسمعه منك، "محمد" أنت ليه مضطرب و مهزوز من موقفك اتجه "عادل"؟؟»

تنهد بعمق وهو يمسح وجهه بقوة. كيف يجيبه نعم كان سيغفر له لو بدل كل هذه الأسئلة بعناق، ولو كان مسح فوق رأسه لو كان هدم تلك العوائق للوصول إليه لو كان بداخله قلب كان غفر له، وحتى إن غفر له لم يكن يجدي نفعاً حتى لو غفر له لن ينسي لن يسامح :

« علشان أنا اتحرمت من كل الحنان اللى احتاجته بسببه، أنا كنت بحقد على اي حد عنده أهل وانا لا، والله ما كان في النيه اني أحسد النعمه عليهم بس أنا كنت عيل. مش قادر اسمحه علشان معرفوش علشان اتدست تحت الرجلين بسببه علشان بعد كل ده انا متحضنتش لحد انهاردة ».

بينما في مكانه خلف الحائط تلالات الدموع كحبات الرمل الساخنة في عينيه علم الآن كيف كان شخص سيء بل بشع وفي حياة من حياة إبنه .

أردف مكمل حديثه وهو يتعري من تلك الحقائق التي دنست روحه وجعلتها مشوهه و ممسوخه:

« عارف "قاسم" كان اكتر حد بحس اني وحش قدامه، طول الوقت كان بيحقق كل أحلامي، لنفسه طبعاً لسه فاكر لم كذب وقال إني ضربته في البحر وكنت عاوز اغرقه، فأكر نظرات أمه و شتيمتها فاكر أيد أبوه اللى علمت في وشي فاكر كلمته لم قالى يمكن انت احسن مني بس الفرق الوحيد أن أنا عندي أهل وأنت يتيم ملقش حد ».

تذكر امام عينيه مشهد البحر الذي يفرق بينه وبين الاخير وهم أطفال صوت صدي كلماته كان يلاطم صخور البحر كانه في اعماق الموج يلاطم صخور قلبه و صدره غريق و قلبه في منتصف قاع البحر مفقود .

حاول "نبيل" تهداته وهو يحدثه في أمر آخر كي يشغله، كان يشعر به تلك الطاقة التي تدلف إلى روحه باحزان الاخير كانت تلك المرة قاسية:

« و "حسناء" ليه مفتردتش معاها نفس الفكر!؟»

تبس وهو يبتسم فقط وهو يتذكر ابتسامتها عينيها يدها التي تربت فوق ظهره تمحي الالم الماضي عناقها الذي يمسحه عنه كل دنس الأيام:

« الموضوع مختلف هي اتظلمت زيي، هي حضنتني وقفت جمبي مصدقتش كلمة واحدة عني وحشه، أنا بوجود "سمر"ولحد دلوقتي عمري ما هنساها بس عارف لم تحس بذنب وانت بتاخد حضن مش من حقك مش من تصيبك!؟، أنا اتعيرت مرة زمان من "عمر" لم قولتولوا أنا مش زيك قالي على الأقل أنا مش بشحت عطف وحنان من حد، أنا لو لسه عايش وبقاوم لحد دلوقتي ببقا علشان أمي نفسي متحرمش من حضنها ده تاني ».

أكمل ببرود وهو يغير من حاله المزاجي:

« إنما "عادل"ده!؟، يا راجل ده بيتكلم بيسمع المجارات اللى حوالينا تفتكر ها احبه ازاي ده!؟، ده بعيداً عن أنه ميتعشرش أصلا ».

اخفي "نبيل"ضحكاتة وهو يحاول الثبات:

« يا راجل متقولش كده حرام عليك ».

كان الأخير بعد أن تأثر بحالته صعق من حديثه عنه وهو يسبه بافظع الشتائم تلك المرة .

تحدث "نبيل"مرة أخري وهو يدرس أسئلته تماماً كان لا يريده أن ينطق بي اي شيء من ماضيه مجرد اسئلة لآن يفهم الاخير منه شيء و أيضاً أن يجعله يعرف كم يعاني إبنه و كيف حالته:

« طيب و "هاجر"!؟، صحابك أنا عاوز بس اعرف انت وصلت لحد فين؟؟»

تنهد بهدوء وهو يحاول وصف ما يشعر به رغم ثقبل أحماله وعوائق الايام حوله رغم كل شيء مازال يهلكه لكنه الآن عاد بدفتر جديد:

« شعور مختلف، عارف انا عمري ما عشت اي فترة عمريه، ولا عشت طفولتي ولا مراهقتي ولا حتى شبابي، أنا حاسس اني اتولد كده واحد عنده "٢٤" سنه، بس معاه بيرجعلي الطفل اللى تائه مني و المراهقه اللى مدفونه في قلبي، دفاتر قلبي اللى ملاها الزمن و شخبطها، جمبها بتتمسح بتتمحي، مفيش حاجه جمبها وحشه كل حاجه معاها حلوة هي حلوة وخفيفه وعينيها حلوة ».

بتر حديثه وهو يسحب الهواء بأنفه يشعر برائحه يعرفها جيداً مازالت مطبوعه بداخله:

«"نبيل" هو "عادل"جالك هنا!؟، انت شامم ريحته ».

تفاجأ الأخير لكنه حاول أن لا يبدي اي رده فعل أمامه:

« لا مجاش خالص، أنا بس غيرت البرفيوم بتاعي يمكن شبهه ولا حاجه ».

شعر بعدم الراحه في وجود تلك الرائحة تذكر عندما كان صغير يغفو بداخل حضنه وتذكر أيضاً عندما كان يتركه بكل برود:

« لا لا غير البرفيوم دي او متحطش منها لم اجي أنا مش عاوز افتكر اي حاجه و الرائحه دي بتفكرني ».

نهض من مكانه ورغم الحاج الأخير بأن يظل لفترة اكبر إلي أنه أصر على الفرار من المكان بسبب تلك الرائحه التي كانت تجعل الذكريات تعصف به بلا رحمه .

خرج من خلف الحائط بهدوء لأول مرة يشعر بتلك الذنوب التي أثقلت كتفه بالخطايا:

« هو أنا إزاي كرهته فيا كدا!؟، هو للدرجه دي مش طايق حتى رايحتي ؟؟»

كان لأول مرة في عمره يكون في دور الجلاد و ليس مداوي الجروح، وهو ينطق بقوة:

« أيوة مش طايقك فعلاً، أنت عملتله عقدة مش هتتفك أبداً، أنت ازاي قلبك طاوعك أنك تنساه كده!؟، ايه الأنانية دي اللي تخليك تحتفظ بحاجه و تبهدلها وهي مش ليك؟؟،طيب افترض أنه فعلاً مش إبنك أقل حاجه اعمل تحليل تسب اعرف مين أبوه أرحمه من اللي شافه .»

تلاشت كل المشاعر الجامدة بداخله لأول مرة منذ وفاة والدته يشعر بتلك الغصة يشعر بذنوبة التي أصبحت عارية و واضحه أمام الجميع:

« طيب قولي ايه اللي حصل!؟، مين أذاه وأنا، أنا هجيب حقه أنا ها اتصرف .»

حرك رأسه يمين ويسار بهدوء وهو ينبس بشده متخلياً عن لين قلبه و شعورة بالانتصار وهو يجعله ربما يعود لرشده مرة أخري:

« تؤتؤتؤ، مش هتقدر مش هتعرف تداوي كل الجراح دي مش هتعرف تصلح كل الخراب اللى جواه مش هيرجع يحبك،عارف ليه!؟..لن حتى لو عملت كده ده مش فضل منك دد فرض عليك.»

تنفس بغضب وهو يجز أسنانه بقلق:

« و بعد كل دد هو مش هيسامحنى؟،هو اصل...؟؟»

إبتسم الاخير كاشفاً عن اسنانه بهدوء وهو يتعجب من تلك الشخصية الغريبة :

« أنت مش قادر تطلب حتى المساعدة!؟، أنا هساعدك من غير ما تطلب بس علشانه مش علشانك .»

أردف مكمل حديثه بهدوء وحقاً كان يتقن حديثها ولا يعطي له أي شيء:

« "سوزي" أخت حضرتك،"حسن"و "عدنان" "مصطفي"و"انس"، هي دي النقط اللى هتوصلك، نصيحه اخيره قرب من "محمد" و بطل تشوف نفسك مش بتغلط أتحمل المسؤولية .»

تركه ورحل يشعر بأن كل الاجابات ماهي الا نهايات جديدة لن يقدر على تحملها وكل الذنوب كانت تعيدة لحقيقتها المدنسه بالحقائق .

بعد أن قضت الشمس غرورها و دورتها اليومية في الحياة تركت المهم للقمر الذي تناثر ضوءها على أنحاء الاحياء و الميادين جعل من لحظات الربيع شيء غريب البعض مازال تأثير الشتاء يصاحبها بملابسه الثقيلة ووجهها الهادئ، و البعض الآخر تأثير الصيف أصابها بملابس خفيفة ووجه عابس، أما هو فكما هو بملابسه التي دائما لتتناسب الأجواء ملابس خريفية غريبة، و كان الخريف لم يكن زائر في يوم داخل عمره بل أصبح يصاحبه حتى في عمره .

بينما هي كانت بجانبه مشرقة كنور الشمس الأنظار تتلافت حولها بتلك البهجة التي تحاوطها من كل إتجاه وهي تخرج معه من دار عرض الأفلام كانت تمسك بدب بني محشو بالقطن وهو يمسك لها كوب من الفشار كانت الابتسامة تزين ثغرها جعلت من كليهما كالشمس والقمر هي الشمس التي تعكس الضوء على القمر المعتم جعلته رمادي كما يرتدي الآن و برغم من كون الشمس والقمر لا يلتقيان تلاقي هما الإثنين كحبيبان.

تحدثت بصوت هادئة كعادتها و الابتسامة تزين محياها:

« مبسوط!؟، أنا مبسوطة اوي ».

نظر إلى عينيها التي كانت تنير من الحماس الطفولي بداخلها تلك الطفولة التي دفنت بداخلهم ولم تخرج من كهفها إلى الآن:

« أنا مبسوط انك معايا يا "هاجر"، عجبك الفيلم!؟»

أبتسمت وهي تشعر بأن شيء ما في الهواء تغير لماذا يبدوا الطقس أكثر جمالاً اليوم!؟ولماذا برغم كل هؤلاء البشر الذين مروا بهذا الشارع ليس لهم وجود، للحق اليوم كل شيء جميل حتى عينيها التي كانت تشيع حماس :

« الفيلم حلو اوي، مع أنه قديم و حبيت فكرة أنه بيصور و يوثق كل حاجه بتحصل في حياته».

بنظرات مضطربة وحماس طفل لليلة ممتعه مع والدته كان يتجول ببصرة في وجهه الأمن الذي أصبح ملاذ لها من العالم، تحدث بهدوء وهو يأخذ نفس طويل :

« لو مكنش قديم مكنتش هشوفه، كل حاجه جديدة ملوثة فيها نظرات الناس فيها خبثهم و حماسهم المتزيف، لكن القديم زي البيوت ريحه البيوت القديمة لونها شكل المساجد القديمة الاطمئنان اللى فيها، حتى الاغاني الفن كان بيوصف، أنا مش منعزل ولا بفرض عليك رأيي بس بجد أنا مش بحب الدوشة ولا بحب الألوان الكتير ».

كانت تنظر له كلوحه شهيرة عتيقة مليئة برائحه المطر كل افكاره أسلوبه كل ما يحتويه من معني من رونق يروق لها حقاً كل نظراته و ارائه رغم بعثرتها إلى أنها حقيقة .

تحدثت عن الفيلم الذي سرق عينيها منذ أول لحظة به :

« بس تعرف الفيلم فعلاً جميل، بما اني حاسه اني بستكشفك من أول وجديد قولي ايه اكتر مشهد حبيته!؟، بس خد بالك كل كلمة هتقولها محطوطه تحت الإختبار و هحللها ».

أبتسم هو على نظراتها المتفحصه وهي تشير إلى عينيها بمعني اراك، فكر بسرعة قبل أن يتذكر هذا المشهد :

« اه بما اني تحت الإختبار هحافظ على كلامي، اكتر مشهد كان لم صورها و إزاي اتفاجات بالصورة لدرجة فرجتها للناس كلها، أنا شوفته من بعض آخر يعني يمكن الصورة مكنتش احسن حاجه و في احسن منه بس الحقيقة أن مش الكاميرا اللى بتصور احنا اللى عينينا بتصور وكل ما كانت العين شايفاك حلوه كل ما كانت الصورة حلوة ».

تلاشت ابتسامتها بالتدريج إصابتها الحقيقة مرة أخري انطفاء سحر اللحظة عند تذكرها بأنها ليست بحلم إنما بواقع و واقع أليم أيضاً

تحدثت بهدوء وهو تحرك اهدابها تحاول أن توقف تلك الدموع التي تكونت بعينيها:

« "محمد" تفتكر هيجي اليوم اللى هنكمل في سوا!؟، يعني إحنا اتجوزنا كتب كتاب فجأة أنت قررته بس مشوفناش ازاي الواقع ضدنا ماما و بابا و كل الماضي اللى انت عاشته و غيرك بالطريقة دي، تفتكر هيجي يوم نحقق حلمنا أنا أقدر وقتها أحقق مشروعي يبقا عندنا بيت و اولاد !؟»

تنفس يخرج دخلت سجارته التي كانت في الحقيقة رماد قلبه يشتعل ليس إلا، تفوه بهدوء و بكامل الحقيقة التي يصدقها:

«مقدرش أكذب عليك و أقولك اه، لأن ببساطة أنا بطلت أحلم ببكرة من كتر ما بكره خذلني فيه، اللى أقدر أوعدك بي أن عمري ما ها أسمح بشيء يأذيك مهما كان الثمن، أنا مش عاوز نجاح ولا عاوز أطفال أنا أصلا عمري ما حبيت أكون أب، أنا عاوزك أنت عاوز الشخص الوحيد اللى عينيه بتلقيني وسط توهتي، أنا معنديش حد غيرك ومش عاوز حد غيرك أنا قلبي من غير وجودك بيكون غريب كانك أنت الوطن اللى اتولد في طول عمري بقول أن الخوف جوايا اول مرة اكون مطمئن ».

كل كلمة نطق بها كانت حقيقة في قلبه هي من جعلته يتنفس و يهدأ وتنتهي ثوراته جعلته مؤمن وحي، يدور بروح صبي في يد والدته التي علمته الحياة، هي حقيقية مليئة بالحنان عرفت كيف الطريق الى الصغير المفقود وعندما التقت به عاد الكهل الذي هو عليه شاباً و عاد الشاب طفل وعاد هو حي .

شعرت بيده تعيد خصلاتها للخلف وتحاوط كتفها هذا الأمان الذي يكمن بين ذراعيه يجعلها مطمئنه. ولكن كيف لشخص مثلها لم يشعر بالأمان يوماً لم يكن لديه أمل الان يعطيها الأمان و الدافئ الذي لم يراه، نبست بهدوء تحاول أن تخفي هذا الصوت بداخلها الذي يجعلها دائماً خائفة:

« ليه!؟، ليه بتحبني وليه بتديني كل الحنان و الأمان رغم انك عمرك ما حسيت بيهم!؟، أنا لسه خايفة من حاجات كتير أولها انك تضيع مني هي كل الناس حياتها مليانة الغبطة دي زينا ولا دة حظنا إحنا بس!؟»

تلك الحقيقة هو لم يشعر بالأمان كم قالت. لم يشعر بالحب ليوم لكنها أحبها من قال إنها لا يمكن أن يحب!؟، أحبها بذلك الانطفاء بتلك الغابات السوداء في قلبه، كم راها لا يهم شكلها أو وصفها لا يهم. الشيء الوحيد الذي يستحق الحرب يستحق العناء هو أن تكون بجانبه بداخل أحضانه، أن يحتضنها كلما هزمتها الحياة يعود إليها كالطفل خائف مرتجف يحتضنها حتى تهدأ الحروب ينتظم النفس حتى تشرق الشمس ويعود هذا الطفل اللى وطنه قبل أن يصبح كهلاً.

لم تكن الكلمات تسعفه أن يقول ما بخاطره من حب، تحدث وهو يحدق بها يتوقف عن السير:

« علشان محتاجك، مفيش حاجه اسمها حبتني ليه ده مش بايدي، ولو بايدي بردوا كنت احبك أنت محتاج نص تاني يقسم معايا الحب للاغاني حب الليل حب البكاء، ميكونش زي السم في العسل، يشاركني الصمت و النوم الضحك و الرقص و الخوف اللى ملازمني ، أنا وأنت ماضينا مش مهم مهما حصل أنا محتاج حضن بس انسي كل اللى عشناه، هكون لك سند و بيت و وايد مش ها تسيبك ولو ترضي تكوني امان، و انا هكون امل وحيد موافقه تمشي العمر مع واحد تايه و غاوي زيي!؟»

هل يراها أحد موطنه ها حقاً تستحق كل هذا الحب!؟، كل تلك الأسئلة ترددت بداخلها حتى عينيها انهمرت تعلن عن استنزاف قلبها وهي تقول بصراع مع نفسها:

« موافقه، حتى لو كل اللى جاي أصعب من اللى فات على الأقل مش هعيشه لوحدي ».

أبتسم لها وهما يعودوا إلى السير و ياديهم تحتضن بعدها كيف ساسرد تلك الأنغام التي يصنعها الحب الصادق!؟، نبضات القلب التي تصبح مسموعه فجأة، الابتسامة التي تجعل حتى الجفون فوق العين تبتسم، اول نظرة للشمس بلا خوف وأول ليلة ممطرة بلا برد، نعم القلب يستطيع أن يفعل الكثير في القلب الذي كان تائباً عن الحب ثم تحاول الى عاصي في العشق، أن يصبح العالم دافئ لا أحد في العالم سوا من تحب أن يعود العمر من أول لحظة مرة أخري و تتبخر دفاتر الماضي المدنسه بالألم .

يتساقط المطر فوق جسدها الرعد يجعله تشعر بالخوف رغم هذا الثبات، لكنها رأته في كل قطرة سقطت تذكرت كل كلمة كل وعد بالوصال و اصبح هجر تذكرت أنه لم يعد من حقه و الآن هو من حق من!؟،عدوتها أكثر شخص تحقد عليه في هذه الحياة لذلك فالانتقام لم يعد رغبة بل أصبح حقيقه .

كانت تشعر بهذه الحقيقة التي تجعلها تحترق بكونها شخص غبي و حاقد حتى في انتقامها نظرت من زجاج سيارتها في تلك المنطقة الصحراوية المهجورة إلى هذا الذي يقترب منها قبل أن تهبط هي من سيارتها .

أعلنت بوجهه صورة لفتاة وهي تنبس بكل كراهية العالم :

« هي دي "هاجر" ده مكان المعرض وده تاريخ الافتتاح ».

تنفست بعمق قبل أن تكمل بكراهية و هذا الغضب الذي أعمى عينيها عن الحقيقة:

« ده اكتر يوم هتكون مبسوطة في أنا عارفة علشان كده عاوزة تنتهي وهي مبسوطة تخلص عليها في نفس الليلة اللى هتكون اول فرحة في حياتها لازم تكون الأخيرة ».

حرك الرجل رأسه بالموافقة وهو يبتسم لها كاشفاً عن اسنانه بهدوء قبل أن يبتعد .

دائما ما يأتي القدر بما لا تشتهيه سفينة الحياة فهل تلك المرة

يتغير القدر لأجل الدائرة التي لا تنتهي هل يحالفا الحظ و تنتهي دائرة خطاؤنا!؟

الباب الثالث والثلاثون

"طوفان الأقدار"

حقيقه تلو الأخرى ثم تهزمك الحروب الخالدة في عقلك

المشوهه بالحقيقة، و كأنه كتب عليك أن تصبح دائما أكثر

الأشياء حزنا في تلك الحياة كل الحقائق مؤلمة و كل ناتج عنها يشوهه الحياة أكثر وأكثر..

أبتعد الرجل الذي كان ملثم بعدما أعطتها "رزان" صورة لتلك التي كل ما كان ذنبها كان حبها له..

هبط زجاج السيارة يعلن عن وجه "اراس" بوشمه وعينيه الخضراء التي تحمل كراهية العالم و شروره مثل البركان الذي ينتظر أول خطوة ليفصح عما بداخله..

تحدث بعربية طليقه رغم جنسيته المختلفة وهو يتنهد بهدوء لجسد بلا روح ميت:

« أنظر أفعل لها ما تشاء ولكن، يجب أن تتخلص منها بعد قتل تلك الفتاة .»

نظرت له الأخيرة ببلاهه وهو لا يفهم أي شيء من حديثه:

« لامؤاخذة يا باشا أنت خارج من فيلم هندي!! ما تتكلم زي الناس يا عمنا مالك!؟ عاوز جثه عاوز جثتين أنا هخلص عليهم الأتنين و أمري لله بقا .»

ظهر الغضب في حدقتين عينيها وهو يرمقه قائلًا بغضب:

« هل تمزح معي يا هذا!؟ أنظر أنت لن تفعل أي شئ للفتاة تلك ماذا كان أسمها يا الله!!

نعم نعم "هاجر" فقط أحضرها لي وأنا سأفعل ما أريد هل فهمت شيء أيها الأحمق أم أنك تحملق بوجههي فقط هل أشبه خالتك او ما شبه!؟»

حرك الرجل رأسه بالإيماء وهو يزيد على حديثها ببرود و إستفسار:

« و ليه الغلط بس ياباشا الله، بس قولي يا باشا هو مين الجدع ده اللى مفيش كلب في الشارع طايقه حضرتك عاوز تخطف مراته و البنت الملعبكة اللي جوه عاوزة تقتلها هو الواد ده حرامي!؟ ولا يكون قاتل أعوذ بالله.»

تحدث بشرود وهو لا يدري مع من حتى يتحدث كأن حزنه على ما فاته و خوفه من القادم و تشتته يجعله غير واعي بما يكفي :

« ولا شيء من هذا ولكن بسبب هذا الولد اللعين فقدنا الكثير من الأحباب وهو كذلك لم يكن له أي صلة ولكنه دائمًا كان غبي لا يفهم مثلك تمامًا هكذا ..»

تحرك بسيارته يشق الأرض من أسفله، و تدوي صوت صرخات الأرض من شدة تحركه مع الرياح التي إرتفعت تخفي مشهد رائع الأهرامات و طريقه ينشق نحوها مشهد كتبه الزمان و خلده الإنتقام..

بينما هي مازالت جلسه بسيارتها لا تعلم أين الطريق لا تعلم كيف أنتهى به الأمر قاتلة هل حقًا كان حبها يستحق!؟ كل ما تعلمه أنه سيتذكرها عندما ينتهي كل شئ مؤكد ينتظرها، يجب أن يعلم أنها مازالت تحبه مثل وطنها، كتلك الأرض التي نشأت بها، مثل عرضها، مثل أخر قطره من دماءها مثل تلك اللحظة في ولدتها مازالت تحبه بهذا القدر .

تنهدت وهي تنظر إلى رسائل "عبدالله"لها هذا الرجل الذي أحبها وأحب تلك العيوب بها الذي جعل كل إنتقامه بجانب وهي بجانب، تخلى عن كل شئ لأجلها وهي لا تستحق اي شئ مما فعل .

رفعت الهاتف ترد على مكالمتها التي بدأت بصوتها الحنون العذب رغم ما تذوقه من الآلام و الخوف :

« أنت فين يا "رزان"!؟ كل ده بدور عليك أنا جهزت كل حاجه كنت طلبتيها بخصوص الخطوبة، عارفه حاسس إن كل حاجه في إنتظارك أنت ..»

تساءلت بشرود تريد أجابها واحده ولكن ليس منه من شخص آخر تتمنى لو كان مكانه تتمنى لو كان لها:

« بتحبني بجد!؟ أنا حلوة أنا البنت اللي نفسك تكمل معاها حياتك!؟»

ابتسم هو في الجانب الأخير وهو يتذكر إبتسامتها الساحرة ربما لم تكن بكل مقاييس الجمال لكن قلبه فتن في كل كلمة تخرج من بين شفتيها:

« بحبك!؟ ده أنا سيبت الدنيا كلها علشانك مكنتش سهلة أتخلى عن "محمد" و أضيع حق أهلى بس علشانك أنتِ كل صعب أتحول سهل، أنتِ كلك جميل يا "رزان" كلامك حلو، وعيونك حلوة صوتك حلو نفسك حلوة، حتى لما أضحي بالدنيا علشانك هتبقى حلوة .»

انهمرت دموعها فوق وجنتيها بحرقه من أثر كلماته التي كسرت من روحها تعيدها لحقيقتها المقززة هي تخونه، نعم تخونه عند كل مرة تفكر بها في شخص أخر عندما تتمنى أن يكون مكانه كانت تخونه بشتى الطرق وهي لا تدري ربما تدري ولا تتصالح .

تسأل عن حالها بخوف و فزع ظهر في نبرة صوته الخائفة قائلاً:

« "رزان" أنتِ كويسه!؟ حبيبتي ردي عليا مالك في ايه!؟ »

استعادت قوتها الوهمية التي اختلقها الخيال يحيك لها قصة باردة ينقصها الروح في جسد فارغ بل عقل :

« أنا تمام بس كلامك بس أثر فيا مصدقتش إن حد يحبني كده أنا كويسه متقلقش.»

إنتهت تلك المكالمة لكن لم ينتهي شعورها بالحرب بالخوف

بالإرادة دائما ما يصفون الحب الأول بصفوة الحياة تلك الفترة

التي يكون بها القلب صغيرا مهدهد ليس به أي خدوش

صنعتها الحياة، لكن ماذا وإن أصبح مرضا معاناه أصبح ضريح للحزن و مقام للخوف!؟

في هدوء الليل حيث الظلام يطغي بهدوء، والقمر المستدير ينير بقع القلوب الداكنة رغم حلكه الليل الشديدة، بينما هو كان يجلس بهدوء مظهره من الداخل كان يوحي بهدوء مشاعره يجعله كالليل بلا صرير ولكن عندما تقترب أكثر من زوج العينان المكحلة بحلكه الأيام، و الإبتسامة التي تشبه الشبح فوق شفتيه، و أصوات الضجيج الذي يحمله في داخله الأجيج الضاري كما لو كان كالبركان الذي حفر بداخل الجليد..

أفاق من شرود عقله على صوت "أصلان " الذي أصبح ملازم له في الفترة الأخيرة وهو يقول بهدوء:

« ما بك يا فتى هل ستظل تندب حظك الاسود الباقي من عمرك يا أخي!؟»

ابتسم بهدوء وهو يسحب أنفاسه بقهر يشتكي من عقله الذي لم يهدأ و نبض قلبه الذي لا يستقر ولا حتى يتوقف عن النبض، و ذكرياته التي لا تنمحي من عقله. يشتكي من نفسه التي لا تهدأ و لا تعوض من ضلالهها:

« حظي!؟ لا يا عم ولا حظ ولا حاجه أنا بس زعلان على أحوالنا، "أمير"غرق في مشاكل مراته و شغله، و "عز" متغير من غير سبب و مش راضي حتى يكلمني، حتى "سيف" مشغول بحوار المستشفي ده، و طبعًا "حسام" من يوم "رحاب" ما سابته وهو في حال تاني، و "أحمد"بردو في حاجه مغيره، حتى .....»

بتر حديثه عقب صراخ الأخير به بغضب وهو يتحدث بذعر من كل ما أصابهم:

« يكفي يكفي، ما كل هذا يا أخي هل يوجد شخص واحد تعرفه لا يوجد بحياته مشاكل!؟ يبدوا أن وجهك مثل البومة حقًا، وتأتي بالشؤم على الجميع .»

رمقه بغضب وهو يبتعد عنه يشعر بالإهانة عند وصفه بأنه المتسبب بكل هذا، تبس بحنق مستنكرًا من حديثه:

« طيب يا سيدي شكرًا أنا وشي فقر، وبعدين أتنيل أنت مش أحسن مني ده أنت أفقر من حظي أصلًا .»

شعر بغضبه من حديثه، قرر تصليح ما قاله منذ دقائق بهدوء وهو يمازحه بمرح:

« هل غضبت مني أخي!؟ أتأسف بشدة وحقًا هذه حقيقه أنت سئ الحظ، أريدك أن تساعدني في إيجاد أصول عائلتي ».

تغاضه عن حديثه السئ و ما لفت نظره هو سؤاله لأول مرة عن عائلته، حاول الهدوء و هو ينبس قائلًا:

« قولي أسم عيلتك اللي هنا وأنا هحاول أعرف عنهم أي أخبار مع إني أشك إن والدتك مازالت في تفكيرهم أصلًا ».

حاول تذكر أسم العائلة الذي كان به صعوبة حتى في النطق بالنسبه للغته المختلفة، و برغم من رؤية الشك في عيون الأخير إلى أنه أصر على حديثه :

« أسم العائلة كان مدون ببطاقة هوية أمي كان غريب ولكن يجب أن أتذكره "فرطوش النمساوي " كان الأسم هكذا ».

نظر له ببلاهه قبل أن يستوعب ما تفوه به الأخير حتى قهقه بشدة و صوت ضحكاته يرتفع ببطئ كلما يتذكر هذا الأسم، في الحقيقة ضحكته كانت نابعه عن تذكرة لصديقه "ادريان" وهو ينطق بالأسم منذ أعوام تذكر طريقه حديثه تذكر إبتسامته تذكر أيامهم، تذكر حتى جثته المتفحمه على يديه في هذا اليوم المشؤم، توقفت ضحكاته وهو يشعر بضيق نفسه و ذنب موت صديقه يتعلق بكتفه مرة أخرى .

أفاق من شروده على صوت دقات باب المنزل الذي كان مزعج بطنين في راسه، نهض لفتحه قبل أن يتحدث إلى "اصلان" قائلاً بهدوء:

« أدخل جوا أنت ها و ياريت متخرجش لو ملقتش حد نعرفه ».

أؤمئ له الأخير قبل أن يدخل للغرفة خلف الجدار، بينما هو تحرك لفتح الباب كان يشعر بالرغبة أن يأتي أحدهم يدق منزله في هذا الوقت لكن شكوكه تحققت وهو يهمس بإسم من يقف أمامه:

« "أنس" إيه اللي جابك!؟».

ابتسم الأخير ببرود وهو يدلف بدون إذن حتى ينظر للمنزل بإعجاب قائلًا:

« كده يعني مش عاوزني أزورك!؟ يا أخي عيب ده أنا في مكان عمك يا راجل ».

مسح وجهه بضيق وهو يشعر بأن طبول الحرب الآن تدق بقلبه وهو يراها أمامه هكذا بكل هذا البرود، ألتفت ينظر له بغضب قائلًا:

« بلا عمي بلا عمتي أنجز يا "أنس"علشان أنا خلقي ضيق و مضمنش ممكن أعمل فيك ايه دلوقتي .»

ابتسم له ببرود وهو يتلاعب بأعصاب يقترب منه بهدوء قبل أن يصفق بوجهه متحدث بهدوء قاصدًا إستفزاز الأخير :

« مبقتش تخاف أنت هايل بجد مع إن من فترة مش بعيدة أعتقد إني كنت أسوأ مخاوفك، على العموم اللي جاي أقوله ليك هيرجعلك الذكريات جدًا "اراس" و "أرسلان"في مصر حبايبك راجعين ليك مخصوص .»

أحتنق وجهه و زينته الحمرة وهو يستمع لأسماءهم شعر بشيء ثقيل يقف فوق قلبه يجعله يأخذ أنفاسها يلهث وكأنه خرج من حرب في ميدان عام جميع الأعداء به كانوا هو هناك شيء في أعماقه تحطم تهشم بالداخل، لا ليس ضلع يمكن علاجه، ولا حتى حرق بروحه، شئ أهم من العظام شيء لا يمكن التعافي منه أبدًا .

بينما خلف الحائط كان يستمع لكل شيء بذهول هل يمكن أن يعود ما دفنه الزمان بتلك السهولة حقًا؟! وإن كان يعود فهل النهايات أيضًا تعود ؟!

تحدث "محمد" وهو يحاول إسترداد ما تبقى من ثباته الذي تلاشى مع دخان سيجارة الأخير :

« و المطلوب!؟ حاجه متخصكش يا "أنس" بدل ما وديني و إيماني أهد المعبد على اللي فيه وأخربها بيك وإلا أنت مفكر إني هضحي بنفسي لأجل سواد عيونك!؟»

كانت إبتسامته التي رسمت بيد فنان حاقد فوق شفتيه لا تتحرك وكأنه مطبوع بغضبه أستهزأ من حديثها بابتسامه جانبية ساخرة:

« لا لأجل سواد عيون حبيبة القلب زوجتك المصون "هاجر" تخيل لو عرفت حقيقتك و عرفت إيدك دي داست على كام زناد هتعمل إيه ولا لو عرفت حقيقة أهلها، و مامتك يا عيني الست الطيبة دي لو عرفت أبنها عمل إيه في حياته وأختلط بكام عصابة تفتكر شكلك قدامها هيكون ايه!؟»

أشتد غضبه بعروق رقبته البارزة و شفتية التي بدأت بالضغط فوق أسفلها و نهيج قلبه الذي بدأ صوته يعلو تدريجيًا، نظر له بغضب وحقد محمل منذ سنوات وهو يقترب منه بهدوء قبل أن ينقض فوق رقبته وكأنه أسد وجد فريسته الأولى منذ أيام:

« قسمًا بعزة وجلال الله لأخلص عليك حتى لو على موتي لو فكرت تنطق حرف واحد، هتقول إيه ها!! هتقولهم إنكم إتكاترتوا على عيل صغير وشيبتوه قبل ما يتم العشرين!؟ هتقولهم إنك رمتني كبش فداء لـ"عدنان" أوصله مخدرات!؟ هتقولهم إني قتلت و بعت سلاح و أتعذبت و إتشوهت علشان أنتوا ناس فاجرة معندكوش رحمه!؟ ».

حاول الأخير الذي كان يلطقت أنفاسه بأعجوبة الفرار من بين يديه ولكن بلا فائدة كان يتمسك به مثل الذئب بعينيه الرمادية التي كانت غير متزنه حتى في حديثه:

« عارف أنا أول مرة قتلت كان مين!؟ كان ممرض في المصحة اللى رمتني فيها كأن هو اللى بيكممني لما "يحيي" يدخلني جلسات كهرباء، مسكت المخدة فوق وشه زي ما كان بيعمل و خناقته بأيدي وأنا عيل ومن ساعتها وأنا الموت بقا أسهل من الحياة عندي، أنا اتسجنت و دخلت مصحة و اتحبست يعني خلاص مفيش حاجه هتهدني، و "اراس" لو عاوز ياخد حقه أنا مش خايف "أرسلان" إللي رماني للموج وأنا صغير هو نفس الشخص اللي أنا حسرت قلبه السنين دي كلها يعني أنا مش هخاف ولا منك ولا منه ولا من الجن الازرق ».

ترك عنقه من بين يديه بهدوء وهو يضغط فوق أسنانه يمسح فوق وجهه وعينيه يحاول إخفاء تلك المشاهد المتقطعه التي تتجول أمامه مثل الشياطين .

بينما الأخير كان يلهث وهو يستنشق الهواء و سعال شديد يخرج من بين رئتيه التي كادت تتوقف منذ ثواني معدودة .

تحدث "أنس" بنفس نبرة الكراهية التي تنبع من كل أنش بداخله حقد يمتزج مع غضب يخرج منه كل شر يمكن أن يحدث:

« أنت مفكر نفسك وسخ كده يعني و تخوف!؟ أنا أوسخ منك كل اللي أنت شايفة معاناه ده أنا عشت أسوأ منه بكتير اوي، اللي عاوزك تعرفه إن قبل ما لسانك ده ينطق بكلمة لـ"أرسلان" هكون مخلص عليك ».

ابتسم بهدوء وهو يحاول إخفاء كل شعور حزن و غضب و تشتت و خوف بداخله يمحي كل هذا بمزاح يخرج من بين شفتيه:

« قولي صحيح أنت أمك كانت غسالة!؟»

رمقه بسخرية وفم ملتوي متزين ببسمه ساخرة و عينين تأكد تخرج من مكانها:

« ليه للدرجه دي شايفني نظيف !؟»

أجابة ساخرًا من حديثه بهدوء و برود :

« لا سمح الله، اومال جايب اللف والدوران ده منين !؟»

أردف مكمل حديثه بوعيد للأخير وعينيه فيها كل إنش من العزم و التحدي بقلبه رسم داخل نظرته:

« لو بتسأل عن البردية فها هي معايا من غير لف و دوران يعني بس و الله في سما مهتشوفها في عمرك دي مرة تانيه أبدًا ولا حتى على جثتي .»

شعر بلذة غريبة عندما علم أن حلم كل تلك السنوات مازال موجود ولم يصيبه مكروه رغم كل هذا، أقترب منه بهدوء وهو يتحدث قائلًا'

« طيب مش أصول بردو البردية تكون ليا بالزوق أحسن ما يتخدها "أرسلان" بالعافية؟؟ يا راجل أنا كل شوية هفكرك إني في مقام عمك يعني العم والد و أنا زي أبوك وكده .»

ضحك الأخير بصوت مرتفع وهو يضرب كفه بالكف الأخر يحرك رأسه بمعني _لا فائدة _

وهو ينظر أليه مرة أخرى:

« لا دي أنا شد كرسي وأقعد أتفرج ع قليل الأصل والتربية وهو بيتكلم عن الأصول والتربية يمكن أستفاد .»

طفح الكيل من الأخير الذي ركل المقعد بعيدًا بيديه وهو يقترب منه يهدده بوعيد وهو يضغط فوق أسنانه بغضب :

« أنت اللي جبته لنفسك يا "محمد"كل اللى جاي بموتك متنساش أنا مين!؟»

رمقه بسخرية وهو مازال يعلق عينيه علي وجهه كأنها يحفظ تلك الملامح في عينيه جيداً:

« أنت مين!؟ العرب زمان كان بيقولوا لأن الخيل قد قلت، تحلت حمير الحي بالسرج الأنيق إذا ظهر الحمار بزي خيل يكشف أمره عند النهيق ، و أنت نهقت أقصد إتكلمت .»

تركه وهو يصفع الباب خلفه بعنف يدل على كل ماهو سئ يتني مرة أخرى كأنه لم يمضي هذا الحزن و لم ينتهي أبدًا

زفر يخرج كل تلك الآلام من جوفه أشبه ببركان صامد لا يحرق إلى نفسه شعور غريب يشعر بأن كل شيء يتكرر أمامه بنفس الطريقه أنفاسه تنقبض فوق قلبه عينيه لا تبصر إلى ما مر به من إيذاء وكل ندبه او حرق في جسده ينبض بآلام من جديد، يتسأل هل كان يستحق كل هذا!؟ شاءت أقداره أن تأتي بكل الأحزان لأجله هو فقط شعر بالفقدان بالحزن بالأسى على حاله، شعر بالبرد وهو يحتضن جسدة بكلتي يديه يمنع تلك العواصف من الذكريات الميتة التي لقت حتفها في مخيلته وإلى الآن لم تشيع لموقعها الأخير .

أستمع إلى خطوات الأخير التي تأتي من الداخل إلتفت ينظر إليه ولكن تفاجأ بالأخير يسحبه إلى حضنه يضمه بهدوء .

في الحقيقة كان يتمنى هذا العناق فعلًا يشعر بيد الأخير تمسد فوق ظهره و كأنه يُهدهد طفل صغير بهدوء يضمه بين ذراعيه .

رفع "محمد" رأسه وهو ينظر بؤوجه" اصلان"

ينظر له بشرود و هو يجمع قوة قائلًا ينبس من بين شفتيه بتردد:

« أنا تايه أوي يا "أدريان" .»

تركه الأخير وهو يشعر بالتوتر يعقد ما بين حاجبيه بتعجب مستنكرًا من حديثه :

« ماذا يا أخي أنا " أصلان" لست "أدريان" ألا تعي ما تقوله!؟»

جلس مكانه بهدوء وهو يمسح وجهه بتشتت لا يعلم أين هو حتى الآن تداخلت لحظات الماضي بطوفان عالي من الأفكار على عقله الذي كان لا يتوقف عن وهمه بأنه بداخل كابوس مزعج لا ينتهي، أثر صوت الطنين برأسه يجعله مرتبك لا يستطيع حتى الحديث :

« أنا أسف يا "أصلان" بس أنا متشتت شويه و إفتكرت " أدريان" الغريب مش أنكم نفس الشكل الغريب أن هو كمان كان بيحضني كده نفس الطريقه، نفس الحركات كأنكم واحد مش أتنين .»

لبتسم على حديثه الأخير وهو يتذكر شقيقه الذي تقاسم معه كل شيء من بداية رحم والدتهم إلى صفاتهم و حديثهم و حتى حزنهم كان مشترك، لكنه تركه بلا عناق و بلا مأوى ولا شقيق .

تحدث بهدوء وهو يحاول إخفاء تلك العبرات المتلاله داخل حدقتي عينيه الخضراء:

« لا داعي للاسف "محمد" أتمنى أن يصبح كل شيء على ما يرام فإحسب، لا تؤخذني ولكن هذا الراجل غير مريح بالمرة، أنا لم أراه ولكن إستمعت إلى بعض من حديثكم بدون قصد مني، هل هناك مشكلة معك!؟»

سخر من حديثه وهو يبتسم بستهزاء قائلًا:

« مشكلة واحدة!؟ يا راجل قول مشاكل، بس أنا هقدر أحلها أن شاء الله ».

أومئ له بهدوء وهو يبتسم قبل أن ينسحب ذهابًا إلى غرفته بغرض النوم بعض هذا الليل الطويل .

زفر يتذكر كل ماهو سيء و كل ما مر به يعلم بخطئه يعلم بقبح جريمته لكن هل يعاقبه الله!؟ هل يحاسبه قانون لأنه أراد أن يحيا فقط قاوم وحارب و أجرم فقط من أجل أن يمتلك نفس واحد للحياة، و كم كان يتمني أن يجد طريق يعود به إلى نقطة البداية، إلى ما قبل كل شيء إلى ما بعد العناء إلى اللاشئ إلى إنتهاء الوجود، ولكن هل يصح الهروب في وسط المعركة!؟ كتب عليه القتال ولا شيء يعيد ما جاء به القدر أبدًا فا أما أن يصارع طوفان القدر و يعود سالمًا او ينتهي به الأمر غارقًا في اللاشئ .

بينما هو ظل محبوس بداخل خياله و الذكريات التي تعصف به ولا تنتهي و بداخل عقله سؤال واحد فقط ما هي الحياة!؟ هل الحياة لعبة بيد طفل!؟ أن صراع دائم لا ينتهي!؟ هل الحياة شتات بعد كل ثبات و خوف بعد كل سعادة!؟ هل الحياة قدر يجول بنا و لا يأبى بتلك النفوس البالية من الحزن!؟ هل هي طريق طويل به طفل في البداية و صراع شتات و قهر و إنكسار بالنهاية، هل هي حرمان من السعادة أم طوفان من الخوف!؟ ربما الحياة هي لحظة عابرة لضحكات طفل قبل المعركة ربما الحياة ليست لأمثاله من الأصل .

عند بزوغ الشمس تبدأ الحياة في نثر أحداث اليوم فوق السحاب الذي يأت ممطرًا رغم أجواء الربيع و بداية الصيف بعد أيام .

عاد وحيدًا مرة أخرى كما كان دائمًا ولكن تلك المرة هو وحيد و مشتاق أيضًا، أعتاد وجودهم لهفه عينيه عند لقياهم، تلك الإبتسامة التي تعود له رغم إغتصاب الزمان لها عندما يعود طفل بجانبه .

لم يسمح له القدر أن يراها اليوم فأصبحت كل الطرق غير مألوفة ووجوة العابرين بين الأحياء شاحبة، و الأماكن فارغة، و ضوء الشمس خافت اليوم، و كل شيء موحش ليس له أيه معني بدونك و كإنك العمر .

خرج من عمله يشعر بكل الإستياء و الحزن الذي مر به، في الآونة الأخيرة كان يعود سعيدًا للمنزل، و لكنه الآن سيعود بمفرده دون عائلة دون نفسه حتى .

كانت السماء ممطره و لم يزيده المطر إلا شوقًا لها و لعينيها بينما تناغم حبات المطر تراقص أمام عينيه مشهد من حلاها صوت المطر كان عذب مثل لحن قلبه عند لقاءها .

بينما هي كانت تنتظر قدومه رغم عنها قلبها ينتظر فقط رؤيته وهي تسقي الورود كم كانت تحب الورد وكم تشابه معها!؟ و لطالما كان حب الورد غرام هي من تعطي للورد الحياة هي الزهرة الوحيدة التي تمتلك عيون .

صار أمامها عينيهم تلاقت في أحد الثواني العابرة نظرة عابرة التقطتها قبل ان يسرع إليه الصغير "يزن" يحتضنه والأخير هبط بجسده يحمله بين يديه بشوق لهذا الصغير الذي أصبح أخ له و إبن و صديق و في عناقه يجد عناق أبيه رغم فارق العمر هو كل عائلته.

أسرعت هي إليه تسحب أبنها من بين يديه بقسوة لا تعلم متى إكتسبتها لم تشعر بذعر الصغير ولا بكسر قلب الأخير كل ما شعرت به هو الخوف .

تحدثت بغضب مستاءه من ما يفعله ظنًا منها أنه يضغط عليه عن طريق أبنها:

« لو سمحت تبعد عن أبني وعن حياتنا مش فاهمه بصراحه إيه الإصرار ده !؟»

رمقه بحسرة حاول قدر المستطاع اخفاءها لكنه لم يقدر على هذه الغصه التي ظهرت في صوته:

« أنا مقربتش منه، و مش من حقك تحرميه مني على فكرة .»

نظرت له بتحدي وهي ترفع حاجبيها بتعجب مستنكرة من حديثه بأكمله:

« لا والله وأنت مين بقا علشان أحرمه منك!؟»

بدأ صوتهم بالإرتفاع بينما هو كان مازال يمسك بيد الصغير وينظر له بتعجب لا يعي كيف تطورت الأمور لتلك الدرجة السيئة .

قاطع حديثهم "عمر" الذي تحدث بهدوء يبتر حديثهم :

« في إيه بس أنتوا الأتنين بهدوء شوية .»

رمقته بغيظ وهي تبتعد عنهم مسافة صغيرة تحاول أن تتمسك بأعصابها:

« شوف الأستاذ والله مش أنا .»

أقترب "عمر"منه يصطحبه للخارج بهدوء وهو يتحدث إليه :

« خير بقا عاوز أسمعك من بدري لم "يزن"كلمني عنك كتير .»

تنهد بهدوء يحاول شرح ما يشعر به رغم الألم بداخله الذي يجتاحه:

« أنا جارهم إحنا اتعرفنا أكيد، أنا بس قربت من "يزن" و بجد ربنا يباركلك فيها يارب لكن مدام "رحاب" مش موافقه على قربي منهم .»

ابتسم بهدوء يعلم مقصد حديثه وان القرب كان منها وهو ما جعله حزين نبس بترحاب:

« أنا فاهم إنك حبيت "رحاب" و أعتبرتهم عائلتك على فكرة أنا مش مضايق منك لأني شايف أبني مبسوط ودي أهم حاجه، القصد من كلامي متتخلاش عنها هي بس خايفه و مترددة حاول ألف مرة سعادتك و حبك يستحقوا .»

أبتسم رغم شعوره بالحرج لكنه شعر بتعاونه معه تغيرت فكرته عنه إلى الإمتنان:

« بجد شكرًا اوي يا "عمر" أنا ممتن ليك وأن شاء الله أنا هحاول لأني فعلًا محتاج وجودهم .»

تركه ورحل بينما "عمر" الذي ولج مرة أخرى للمحل ينظر لها من بعيد ينتظر أن تعود لهدوءها مرة أخرى قائلًا:

« أنت أحسن دلوقتي!؟»

حركت رأسها بإيماء وهي تحاول الهدوء قائلة:

« معلش يا "عمر" أخرتك عن معادك أنا بس هجيب شنطة "يزن" و بعدها هيروح معاك .»

تبس بهدوء وهو يقترب من ما تشعر به من آلام و إشتياق:

«حاسس بيك وعارف أنك بتحبي "حسام" .»

شعرت بالحرج وهي تحاول أن تمحي تلك الفكرة من راسه:

« لا مش بحبه إيه الكلام ده!؟ غصب عني يا "عمر"قلبي راح لي لوحده و بحاول أمنع نفسي و مش قادرة .»

أبتسم وهو سعيد بما وصلت له من مشاعر سويه دون مشاعره السامه، تلفظ بسعادة وهو يسحب مقعد للجلوس:

« أولًا أنا مش زعلان بعلاقته بـ"يزن"بالعكس مبسوط لأنه فعلًا بيحبه و بيخاف عليه، مينفعش تهربي من الحب يا "رحاب" أنتِ عمرك ما حبيتي ولا أنا حبيتك أنتِ كنتِ مبسوطة بمشاعر الأمومة اللي أطلقتيها عليا، و أنا كنت مبسوط بالإهتمام اللي إتحرمت منه، الخلاصة شوفي حياتك و أبني أنا عمري ما هحرمه من أمه أنا بجد بتمنا ليك كل السعادة .»

أبتسمت لها بالايجاب وهو يرحل برفقه صغيرهم الذي إعتذرت منه وهي تحتضنه تهبط على قدميها قائلة بحنان وهي تربت فوق ظهرها تتذكر عندما كانت تهُدهد وهو صغير :

« أنت عارف إني بحبك صح!؟ أنت أغلى حاجه عندي أوعى تزعل مني يا "يزن" أنا آسفة بجد لو زعلت مني يا روح ماما .»

لثم فوق جبينها وهو يحتضنها بسعادة قبل أن يتحدث إليها بمرح :

« أنا مش بزعل منك يا ماما مين هيستحمل تقلباتك المزاجية دي غيري ها، و بعدين مش أنتِ قولتي أننا لازم تعذر اللي بنحبهم أنا بحبك و مش زعلان .»

ضمته بهدوء قبل أن يرحل من أمامه مع أبيه الذي أصبحت سعيدة جدًا بتغيره المفاجئ بينما عقلها مازال منشغل به لما لم تقول له الحقيقة لماذا لم تقول إنها تراها من شق نافذة محلها هكذا كل يوم منذ أن إعتادوا الإنفصال تكفيها نظرة عين عن الإشتياق، ربما كان الحب أقوى من كل ما تخيلته هي ولكن كيف تقنع عقلها بهذا.

بينما هو كان في الطريق ذاهب إلى صديقه الملجأ الوحيد له في تلك الحياة تلك الصدفة التي ألقت به أمامه في أكثر الظروف قبح هي في الحقيقة كانت نجاة وليست صدفة.

مازالت تسرق حتى أفكاره منه كان يعاتب لسانه الذي أبي أن يقول لها الحقيقة لماذا لم يقل أنه في الليلة الماضية كان حلمه يعج من تفاصيلها و إبتسامتها، كان يراها مثل ضوء القمر ينير السماء كان كل شيء جميل ولكن أفترق عنها في نهاية الحلم وأصبح كابوس .

تذكر تلك اللحظة التي لم تلقي عليه السلام بها ياليتها ألقت السلام ولو مرة ليحيا قلبه مزهرًا العمر بأكمله، ما كان السلام معنى من قبل لقاءها ولا له معني إن لم تنطقه به هي، هي العمر و السلام أجمع.

وصل إلى المنزل بينما "محمد" أصر على أن يصنع له طعام و مشروب قبل أن يتحدث بي أية شيء.

ربت فوق كتفه وهو يضع الطعام قائلًا بود:

« أسف على سوا تقديم الأكل يعني بس أنا مصدقت أعرف أطبخ يعني .»

اؤمئ له بسعادة وهو يبدأ بالطعام بجانبه الأخير يتحدث إليه بأحاديث مختلفة قبل أن يبدأ بسرد ما حدث عند مجئ "أنس"

إجابة وهو يشعر بأن الخوف يقترب منهم و بشدة:

« وجود "أرسلان" و "أراس" ميريحش أبدًا الموضوع يكبر أكتر كل مرة بنحاول تصغره .»

تسأل بهدوء مرة اخري قائلًا:

« "محمد" أنت علاقتك بيهم بدأت أزاي و تفتكر ممكن يحصل جديد!؟»

تنفس بهدوء وهو يمسح وجهه بتشتت يتذكر تلك المواقف السيئة التي مر بها:

« الموضوع بدأ لم هربت من المصحة بعد ما قتلت الممرض، لفترة كبيرة كنت عند عمي "نوح" بعدها لم خاطفني"أنس" بعتوني أسلم صفقة شمال لـ"عدنان" لكنه غدر بيهم و أخد الفلوس و البضاعه وخطفني معاهم، المهم بعد ما هربت منه بعد سنه ونص تقريبا البيت إتحرق يومها لقوني رجاله "أرسلان" محروق و متبهدل في الغابة كده .»

تحدث يكمل حديثه مرادفًا يحنق مستنكرًا من ما مر به:

« فضلت معاهم لحد معرف كل حاجه وعرض عليا يرجعني مصر بس أساعدهم في الوصول لمقبرة في وادي الملوك، و ده اللي حصل فعلًا رجعت انا و "أراس" و " عائش" حبيبته لكن للأسف اللي فتح المقبرة بشكل ما غلط و المقبرة وقعت، "عائش" ماتت و "أراس" إتصاب و أنا هربت بالبرديه اللي فيها فتح المقبرة .»

كان يستمع إليه بتشتت مستنكرًا يسخر من حقيقة ما مر به صديقه هل مضي بكل هذا قبل أن يتم عقدها الثاني والأن مازال في منتصف العقد الثاني!؟ هل يمكن أن تضحي عائلة بطفلهم بتلك الطريقة هل هناك عدل أن يحدث كل هذا في شخص لم يفعل هذا .

ضرب مقدمة جبهته بيده وهو يرمقه قائلًا بأسى على ما مر به:

« مش قادر أستوعب إنك بتحكي كل ده عادي!؟»

أجابه بتسامة تزين ثغرة تقتل هزائمه و ماضية المؤلم ينتهي حسرةً بها :

« أنا كنت هقول نفس كلامك لو أنا برا حياتي و بسمع زيك، و يمكن مكنتش أصدق كل ده، لكن من مكاني هنا بقولك إني شايفة عادي و إنجاز إني قدرت أعيش كل ده .»

بدأ "حسام" بسرد ما مر به الأيام الماضية بهدوء كعادته لا يشعر بالألم إلى بداخله و الخارج يظل ثابت .

تحدث بعتاب و آسف على حاله الذي بأت شديد الظلم على قلبه:

«" محمد" هو أنا راجل وحش!؟، أصل "نبض" زمان رمتني و رجعت لم أطلقت و ملقتش غيري، و "رحاب" دلوقتي بكل صراحه في عينيها بتقولي أنت مقدرتش تحمي نفسك ولا عائلتك هتحميني إزاي!؟ هفضل طول عمري وحيد!؟»

لم ينطق بكلمة فقط مسد فوق كتفه قبل أن يسحبه إلى صدره معانقًا له برفق وهو يتحدث إليه بحب لهذا الصديق الذي إشتد به على الظروف و الحياة الذي آمن به رغم كل عيوبه:

« أنت مش وحش وعمرك ما كنت وحش، كل الحكايه أن ده مش نصيبك، أنا واثق إن ربنا شايلك الأحسن لأنك تستاهل ده، أنت جدع و طيب و حنين أنت تستحق تتحب .»

أبتسم له وهو يربت فوق كتفه بعمق ينظر لعينيه التي تحمل من الأسى أنواع ولكن مازال لين مازال يعطي حتى وهو بلا أمان:

« أنا بجد بشكر ربنا إنك معايه، رغم كل اللى أنت في ولسه فيك حيل تواسي حد ربنا يحفظك والله ».

رحل بعد وعد باللقاء قريبًا عندما تتحسن الظروف و تهدأ الأحوال بينما هو مضى وهو في الطريق يبحث عن ذكري ترافقه للمنزل لكي لا يعود وحيدًا، و هو يعرف أنه لا يوجد ذكرى غيرها ذكرى جميلة تجعله يشرد في البلاد و ينسى المنزل و المكان و الوقت ومن هو أملًا أن لا يعود وحيدًا.

بعد أن أشترى تلك الورود الحمراء وهذا الدفتر الوردي أمسك بورقة وهو يعلم أنها تحب تلك الطريقة لذلك قرر بكتابة جواب إليها:

" عزيزتي"رحاب" من الزنديق" حسام" للعلم أعرف معنى كلمة زنديق جيدًا ولكني كنت أحبها منك .

أدعو الله أن تكوني بخير دائمًا، أنا لا أحبك لا تغريني ملامحك العربية ولا عينيك البنية و لا الشامة السوداء فوق حاجبيك، أحب روحك أحب أمي التي حرمت منها في نصائحك، أحب أختي التي أجدها في حديثك، أحب حتى أسمي عندما تنطقيه أحب أن تكون عائلة و أن أنول شرف وضع أسمي بعد أسمك وأن يكون إبنك إبن لي .

ولن الله أمرنا في قوله قال -تعالى-: (وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَجًا لِّتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

وأنا بكامل قوية القلبية أطلب زوجك أطلب أن أكمل معك طريقي المظلم ليضيء بنورك

مَاذَا لَو التقيْنَا غدًا مثْل غريبيْن هل يكْفينَا سَاعَة من الزَّمن لِلْعتاب على هذا الشُّوْق!؟ بيْن الكلَام والْمشاجرة بيْن نَظرات الوداع هل تعُود!؟ عَيني هل ستخبرك عن لَهفتِي وَشوقي للقائك!؟ هل كلماتك وتلْك النَّظرات آلتي يملؤها الشُّوق تَكفِي لِأقول أحبك يَا عُمرِي، أم يَسرق الزمن عُمرنَا دُون وَدَاع!؟

وضع الورقة بجانب الزهور وهو يضعهم أمام منزلها بهدوء ثم رحل إلى شقته أمامها وهو ينتظر أن يعود عليه الصباح بقدومها .

دلف لمنزل أخيه بقلق وهو يحاول أن يمحي من عقله ما حدث في يوم زيارة والدتها لكن القلق كان يعتريه كان يستمع لصوت دقات قلبه مثل طبول الحرب تعلو رويدًا رويدًا بخوف .

عانقه بحرارة وهو يشعر بكل هذا الخوف يجتاحه والقلق يعتري عينيه وهو يتحدث قائلًا:

« "أمير" انا عاوز أسالك عن حاجه »

رمقه بقلق وهو يشعر بأن ماهو آتِ سيكون أسوأ مما يتوقعه بكثير:

« أسأل أنا سامعك طبعًا»

زفر بقوة وتنفسه غير منضابط يحاول شرح ما يشعر به رغم كل تلك الآلام في قلبه :

« أنا شوفت صور بابا عند ماما، الصور مع ستات صور بشعه لا يمكن تخيلها و رغم كده ماما محتفظه بيهم .»

صوت الليل كان مسموع يلاطم قلبها في الصخور التي تحمل قلبه وهو يحاول أن لا يشعر بالإرتباك:

« "عز" أنت لازم تفهم أن مهما حصل ده أبوك يمكن هو كان علاقته مع الستات للأسف كتير ربنا يسامحه عليها بس أنت مش لازم تفكر في حاجه تانية .»

صاح بوجهه بغضب وهو ينهض من مقعده كالمصعوق يشعر بأن كل الأشياء تتفق على حرق روحه:

« أنت عاوز تجنني يا "أمير" عاوزني أعرف أن أمي جرالها كل ده من تحت رأسه وأحبه و أسامحه كمان لا بجد أنت بتحلم .»

أمسك بيدها يحاول منعه من الخروج لكن لا حياة لم تنادي إلا أنها صاح أكثر يخرج كل ما في قلبه من هلاك :

« فضلت طول عمرك بتدافع عنه، رغم إنه عمره ما كان طايقنا عمره ما فكر في تربيتنا حتى في شغله كان فاشل و عمك يشهد، عمره ما حبنا عمره ما كان راجل مسؤول و أنت طول الوقت بتحاول تخليني أحبه غصب بس أنا مش هكمل كده أبدًا .»

تركه ورحل بعيدًا وكان حركته السريعه تطفي اللهب الذي يتصاعد من داخله بضوضاء و تشتت.

يحارب دموعه لن يبكي. لكن الهواء حامض و قاسي على جفونه، و ماذا لو فر المدينة يبكي هل من معين!؟. هل من عناق لأجله، يبحث في ثنايا الذكريات عن شيء يضمد روحه المتعب لكنها لا يجد كل الذكريات أوجاع، كل شيء يوجعه .

بينما الأخير هبط فوق مقعده منهزم من كل شئ حوله يلعن نفسه وتلك الظروف التي فعلت به هكذا على حق، أخيه الصغير على حق كيف يحترم شخص كان يعود مخمورًا كل ليله كيف يحترم شخص لم ينجح أن يكون أب ليوم واحدا!؟

ليته يستطيع أن يتقيأ ما سمعه يتقيأ ما يشعر به من الألم حتى الروح لها معدة تضطرب .

شعر بيدها تتحرك بأنامله فوق خصلاته السوداء وهي تتحدث بهدوء تواسي حالته:

« كل حاجه هتتحل يا حبيبي متقلقش أنا جمبك ».

أمسك يدها مُقبلًا أيايها بهدوء وهو يشعر بكل إنش بداخله يحترق من تلك الذكريات التي تعصف له و تقتلها مع كل نفس ياخذه .

إقتربت منه وهي تتحدث بحسرة وحزن حاولت إخفائها في نبرتها السعيدة :

« تعرف إني لقيت حل لينا !؟»

عقد ما بين حاجبيه بتعجب مستنكرًا من حديثه الغامض و المبهم بالنسبة له:

« حل ايه!؟ وأرجوك أوعي تعيدي موضوع الجواز تاني ».

ابتسمت وهي تقترب منه بهدوء تحاول السيطرة على أعصابها:

« لا حل تاني خالص بس سيبني أخلصه قبل ما أقولك أخر حاجه ».

لم تعطيه فرصة للإجابة التي كانت غامضة تركته رحاله بينما هو أمسك بيدها بهدوء قائلًا بتساؤل والخوف يتسلل إلى قلبه بهدوء كالعدو الذكي في الحروب:

« حل إيه ده مش لازم أعرفه!؟»

أخذت نفس عميق تحاول فيه إطفاء كل الحرائق بداخلها و تجميع رماد شتاتها الذي أصبح واضح حتى في حديثها :

« أحنا هناجر رحم "أميمة" صحبتي يا "أمير" وأنا وهي أتفقنا على كل حاجه .»

الصدمة التي تمكنت منه صعقته بكل قوته وهو ينتظر أية تفسير ينظر لها بتشتت يشعر بأن كل الصدمات عادت لتلقيه بحتفه تلك المرة .

ظهرت أشعة الشمس في السماء الرمادية المحترقة من ظلام الليل كل شئ ليس على ما يرام كل الأجواء مشتته عادة هو الذي كان يعرف وجهته جيدًا وهي عينيها .

فتحت إليه باب المنزل للخشبي مزين بالحجر الاسود في منتصف الباب تفاجأت من عناقه المفاجئ الذي كان و مازال يحتويها .

مسدت فوق ظهره بهدوء وهي تجلس بجانبه وهو مازال يشعر بأن لا يريد أن يترك هذا الحضن الذي حرم منه طوال عمره .

تحدث"محمد" بهدوء وهو يتذكر ذكريات لم تكن سعيدة أو حتى دافئة:

« أنا أسف لو بتضايقي من حضني رغم زواجنا، أنا بس إتحرمت من الحضن ده كتير، أنا عمري ما أتحضنت مكنش عندي أم ولا أب حتى حضن "نوح" أتحرمت منه، يمكن مافهمتيش كلامي بس إحساس إني عندي حد ممكن ألجأ لحضنه لوحده إنجاز ليا .»

ابتسمت تعاقب حديثه وهي تشعر بمشاعر مضطربة بين الحب والأسى على حديثه:

« أنا جمبك دائمًا أنا عارفه إنك أتحرمت من حاجات كتير أوي لكن متأكدة إن ده مش هيحصل تاني .»

تحدثت"هاجر" مرة أخرى تكمل حديثها بقلق:

« هو أنت ليه فتحت معايا موضوع إننا نكون سوا في بيت واحد!؟»

أجابها بهدوء وهو يحاول وصف ما يشعر به و إطمئنانها أيضًا من خوفها:

« علشان ده الوضع الطبيعي أحنا متجوزين و أنا عايزك جمبي، أنا مش بكون مبسوط ولا عايش غير وأنا جمبك بحس إني مطمن عليك .»

شعرت بالحنان في حديثه ولكن لا شيء يتسلل إلى قلبها كما يتسلل حنانه و حنين قلبه لا شئ يسرق نظرها إلا حبه الممتد لا شيء يعجب عقلها إلا جنونه لأجلها:

« أنا فهماك جدًا والله، بس خايفه أنا لسه مش حاسه إني جاهزة لأي حاجه و لسه متعالجتش حتى .»

أمسك بيدها وهو يقترب منها قائلًا بحنان و حب يقبع في قلبه ولا يتزعزع من مكانه مع مرور كل الأزمات تظل هي أجمل ما مر به:

« أنا حاسس بيك، و مطلبتش أي حاجه من اللي تخيلتيه و هستنى علاجك أنا بس عاوزك جمبي، أنا مليش غيرك و مش هطمئن مع حد تاني الفترة الجاية .»

أردف يكمل حديثه بنفس الحماس وهو يمسك بيدها:

« تعالي نروح لدكتورة "حياة" دلوقتي وهي أكيد ها تقولك الحل، و أنا أصلا مش مستعجل خليها بعد المعرض بتاعك علشان تكوني أهدى و تعرفي تتعايشي في البيت التاني .»

بعد فترة قصيرة كانوا بداخل العيادة النفسية أتت المساعدة تخبرها بأنه حان دورها ربت هو فوق يدها ملثمًا يدها بهدوء قبل أن ينهض يعانقها وهو يرى نظرات الخوف تملئ عينيها .

تحدث بحب قائلًا وهو يعطيها الثقة من كل جهات الخوف التي تتسلل إليها:

« متقلقيش خالص أنا هفضل جمبك هنا لو أحتاجت أي حاجه كله هيكون تمام يا "هاجر" أنا موجود .»

ابتسمت له وهي تشعر بالسعادة لوجوده بجانبها دائمًا ما يعطي روحها الثقة والهدوء رغم صخب قلبه و خوف عينيه .

صافحت "حياة" قبل أن تجلس بهدوء وهي تتحدث قائلة بهدوء:

« "محمد" عاوز نعيش سوا بعد المعرض .»

كعادتها الهادئة وهي تنظر بالحب نبست بتفاهم و هدوء:

« أنتِ عاوزة ده يحصل شايفة أنك لو كنتِ معاه هتكوني مرتاحه!؟»

الأسئلة تمتزج مع الاجابات بعقلها الذي لا يعطي إجابة واحده لكنها رأته في كل حالته حقًا رأته وهو مستاء، و هو سعيد و هو متذمر، و هو منتشي، و هو عنيد، وفي كل مرة كان حنانه لا يختفي إتجاهها أبدًا.

إجابتها وهي تغمض عينيها تريح تلك الأعباء فوق جفونها تجد إجابه تصف ما في قلبها:

« أنا عرفت "محمد" بما في الكفاية شوفته في كل حالته تقريبًا وكل مرة حنانه عليا كان بيحاوطني رغم تعبه، أنا عاوزة أكمل معاه .»

أبتسمت لها قبل أن تسأل سؤال آخر بصيغة أخرى تراوضها في عقلها وهي تقول:

«طيب أنتِ عارفه أن أي شئ تاني مش ممكن يحصل حاليًا انتِ لسه متعافتيش، إيه الحاجات اللي شايفاه تستحق إنك تشتغلي عليها الفترة الجاية!؟»

إجابتها بكل ثقة وإبتسامتها تعود لعينيها مرة أخرى إكتفت به نعم لأول مرة تنظر له بهذه الطريقة لا ترى غيره، هو الأول بالحب الأول بالغرام هو الذي أصبح منزلًا و موطن وعائلة وحياة، لم يكن القلب و بابه يريدون طرقات الحب يومًا لكن الأن يا مرحب بهذا الضيف الخفيف هذا الضيف الحنون :

« علاقتي بكل اللى حواليا عمومًا، مشروعي أنا فخورة إني بعمل حاجه وليا أهمية و دي أكتر حاجه تفرحني .»

أومأت لها بالإيجاب وهي تطلب منها بشكل هادئ:

« تمام أنا كده شايفه أن نفسيًا أنتِ أحسن كتير، لكن الجانب الجسدي مقدرش أقولك إنك هتقدري خصوصًا إنك لسه مش متصالحه مع أي شيء قذر شوفتيه، ممكن تكلمي "محمد" يدخل و علشان عاوزة أكلمه!؟»

تفاهمت حديثها قبل أن تؤمي لها بالإيجاب وتتركها لتأتي به إليها كم طلبت .

نهض وهو يبتسم بهدوء وهو يراها أمامه أقترب منها بسعادة متسائل:

« تمام خلص كده و لا لسه هتكملوا جالسه تاني أنا مستنيك عادي !؟»

أجابته بتسامه تزين محياها وهي تنظر إليها بهدوء قائلة :

« محتاجاك جوا أنا اللى هستنى هنا .»

حرك رأسه بالإيجاب وهو يلوح لها يدلف للداخل مغرم بتلك الإبتسامة التي تغرقه دائمًا

جلس علي مقعده وهو ينتظر ما ستنطق به من أسئلة متكررة كما يعتاد من جلسات الأطباء النفسيين .

تساءلت بهدوء في طياته أسئلة كثيرة قاصده إستفزازه وهي تنبس قائلة:

« تفتكر أنت بتحب "هاجر" بجد !؟ ولا علشان مفيش غيرها!؟»

إجابها بتذمر و حنق و هو يشعر بتقليل لمشاعره رغم حبه لها هي الآن تظهره كاذب تفوه بهدوء:

« مين قال إن مكنش في غيرها!؟ كان في و كل واحده كانت بتحبني بجد يمكن أنا محبتش زيهم، بس مفيش غيرها فعلًا عرف يخليني أطمن و أحب أنا مستعد لأي أزمة طول ما هي موجوده، أنا لم بشوفها بس بحس إني لسه عايش، كل حاجه فيها حلوة زي ما قال "الأبنودي" من بين عيون الناس أخترت جوز العيون اللي قتلوني .»

ابتسمت بهدوء وهي ترى معالم الحب في عينيه ك هذا الصفاء الذي ظهر في نبرة صوته الحنونه لأول مرة هو غير غاضب أو منزعج هو سعيد و منتشي ولا شيء يقتل حبه

تحدثت وهي تسأله عن مخططاته للأيام القادمة:

« عندك بقا أي خطط للأيام الجاية و تقلتوا تعيشوا سوا!؟»

كان يحلم بهذا اليوم ترى هل يمكن أن يبقوا معًا ولو لعمر طويل، يتقاسمون فراش واحد و غرفة واحدة!؟ صوتها فقط وهو أنغام الموسيقى و ضحكاتها الجميلة هي الألحان، و بريق عينيها ضوء يشق الظلام. لا حدود تفصل بينهم لا مدن لا وطن لا وجود وهو أمامها هل يستطيع الرقص على أنغام صوتها هل يسمح له القدر ان يعيش سعيد ولو للحظة!؟

إجابة بهدوء وهو ينظر للفراغ امامه :

« معنديش أي خطط غير أنها تكون في أمان ومبسوطة، تعرفي أنا عمري ما خوفت على حاجه غير "هاجر"يمكن الحقيقة أن مفيش غيرها أصلًا أخاف عليه .»

عندما تحب تعود للحياة تعود طفل يحب الفراشات و الغيوم و النجوم و الموسيقي و الطيور الأشجار و القهوة، تحب كل شئ ماعدا أنثى غيرها .

كانت نظراته له متشتته وهي تشاهد كل هذا الحب في عينيه كل هذا الهلاك تحدثت متسأله وهي ترمقه بهدوء:

« أنت مين أكتر حد بتهتم بي و بساعدته!؟»

أجابة بتسامة وهو يشعر بالإمتنان و الحماس لوجودهم يشعر بالحب أيضًا كانت أجابته واثقة:

« "هاجر" أكتر حد، و "حسناء"و أكيد صحابي أنا عمري ما أهتميت لأي حاجه إلا سعادتهم، و سعادتها هي بالذات هي أكتر حد أنا بهتم بي .»

يريد أن يكون معها، لحظات عده تجمعهم التواجد بقربها شئ مريح أن تنقضي لحظات عمره و يداهم مازالت تحتضن بعضها شئ أجمل المهم أن يظلوا سويًا، و كل ما يخشاه أن تبتعد أن لا يجد يديها بقرب منه .

كانت تعلم أن سؤالها لن يكن بصفه خاصه ولكنها كانت تريد أن ترى بنفسها الإجابة قبل أن تحكم بشئ :

« و ياترى بقا أنت مين أكتر حد بيهتم بيك!؟ يعني أنت بتقول إنك بتهتم بسعادة "هاجر"مراتك و مامتك و أصحابك، أنت بقا في حد منهم بيهتم بسعادتك زي ما أنت بتهتم!؟»

نظر بشرود لا يجد إجابة لسؤالها هل يوجد أحد يهتم بأمرة!؟ ربما نعم ربما لا، هل ما أعطه من حب عاد إليه أم أن كل الحب الذي أعطاه لم يعود له .

أجابه متحدث بهدوء يحاول كبت المشاعر التي تضاربت معه في نفس اللحظة:

« أيوة يمكن كلهم بيهتموا ولو محدش فيهم بيهتم حتى أنا مبسوط طول ما هما حواليا بخير .»

أردفت وهي تشعر بشئ من الحزن على حاله ربما هو يعطي كل هذا الحماس و الحب و الحنان الذي حرم منه طوال عمره ولا أحد يعطيه مقابل:

« أنت عمرك اهتميت بـ"محمد"نفسه!؟ الإجابة لا وده شيء مش كويس أنت لازم تفهم أن بإهتمامك ده مش فرض عليك أنك تنسى نفسك علشانهم .»

تفوه يحنق مستنكرًا من حديثها ربما ساخرًا من وضعه الخطأ:

« وأنتِ شايفه بقا اني أهتم بإيه!؟ في حاجه تستحق الإهتمام ده!؟ أنا كل اللى بحاول أعمله إني أعيش و بس .»

رمقته بغيظ وهي تتسأل بهدوء قائلة:

« "محمد" أنت ليه كل أفكارك ضد المجتمع!؟»

إبتسامة ساخرة زينة فمه الملتوي وهو يستهزئ من حديثها:

«هو أنتوا بتسموا الزريبة اللي إحنا عايشين فيها دي مسميات مختلفة كل واحد بيسميها أسم!؟»

أردف متحدثًا قبل أن تجيبة كان حديثه ملئ بالغضب و الغيظ المكتوم في قلبه :

« مجتمع إيه اللى يدخلني مصحه وأنا عيل علشان واحد دفع رشوة!؟ مجتمع إيه اللي يحاكمني إني أرجع للبلد بطريقة غير شرعية من غير ما يسألني روحت أزاي و ليه تهرب من بلدك لو منتظرة مني أي إجابات تانية للأسف مش هقدر أرد .»

تركها وهو يشعر بالغضب يجتاح عقله كم يبغض البشرية كم يكره البشر كيف له أن يحاكم على حبه لها على حياته معها !؟

خرج إليها مبتسم وهو ينظر إليها بحب قبل أن يلثم فوق جبينها وهو يتحرك معها للخارج كانت عينيه مثبته فوق وجهه وكأنه ينظر لمتحف أثري كل ما يحتويه يستحق التأمل .

تساءلت بهدوء وهي تشيح نظرها عنه بهدوء قائلة بخجل :

« مالك بتبصلي كده ليه!؟»

أجابه متحدث بمشاكسه في حديثه الذي دائمًا يكون ملئ بالحب:

« هو مش التأمل في عجائب ربنا عبادة!؟ أنا بكمل عبادتي في عينيك أمنعيني بقا علشان ربنا يحاسبك على منع عبادتي ».

ابتسمت وهي تغطي فمها بيديها قبل أن ترتفع ضحكاتهم ترن في الحي لا ينظرون لوجود الناس ولا حتى لمكانهم فقط هي لحظة و يجب أن يستمتعوا .

أزاحت الشمس ستائرها عن الليل الذي جاء يكافح خيبات آمال الصباح يحاول أكمل ما بدأه من الإشتياق و ها هو الليل ينثر ضوء قمره فوق القلوب المعتمه مرة أخرى .

ولج "محمد" بجانب"سليم" لمنزل صديقهم"إسلام" الذي أبتعد عنهم فجأة ورغم هذا أصروا على المجيء بدون تركه بلا إجابات فتلك المودة بينهم و الأعوام التي إنقضت في صداقتهم لا يمكن أن تنتهي هكذا .

فتح لهم المنزل "جمال" والده الذي رحب بهم بود ومحبه وهو يجلس معهم في إنتظار الأخير الذي تأخر عن موعده اليوم .

تحدث "سليم"بعد أن سردوا له ما حدث في أخر لقاء بينهم:

« والله يا عمو أحنا يومها محبناش نكبر الموضوع على أساس إن اللي بينا أكبر من كده و يستحق إننا منضيعهوش لكنه من يومها مش بيسال فينا ولا بيرد على تليفونه ».

أجابه وهو يحرك راسه بإيماء مصدقًا حديثهم يعلم أن أبنه يمكن أن يفعل هذا بكل أريحية ولا يهتز أبدًا:

« أنا عارف أنه يعمل كده، حتى أنا كلامنا سوا مش زي الأول محملني مسؤولية اني أب تافه و مش زي ما هو أتمنى ».

شبح ابتسامة تملؤها الحسرة ظهر على وجهه وهو يتابع حديث الأخير الذي أجاب عليه "محمد" قائلًا:

« والله "إسلام" ده مغفل بجد أنت يقول عليك كده!؟ طيب ده أنا كان حلمي أوصل للمرحلة اللي أنت فيها دي تعرف إني ساعات بشوفك قدوة، مش بتسمح لي اي حاجه تبوظ يومك و دايما عندك حل لكل المشاكل .»

أجابه بحسرة وهو لأول مرة يخرج تلك الأسرار التي تعفنت بداخله بدون أن يراها أحد:

« علشان محدش وصل للمرحلة اللى وصلتلها و بتمني محدش فيكم يوصلها، أنا جاتلي أزمة قلبية من سنتين و أنا مسافر و محدش عرف الموضوع ده، و لا حتى حد يعرف إني باخد علاج للقلب، أنا بقيت عارف قيمه العمر مفيش لحظة همشيها في حزن و نكد هترجعلي تاني لازم تستغلوا كل لحظة مش تضيعوها في نكد و خناق العمر قصير أوي، أنا حتى مش هعمل العملية أنا عاوز أموت مبسوط .»

كانت الصدمة تسيطر على وجههم و ما أفاقهم من هذا الشرود و الصدمة هو دخول"إسلام" الذي زفر حين رأهم وهو يشعر بالغضب .

تحدث متجاهل وجودهم حتى لم ينظر لهم هو فقط ينظر لبعيد :

« خير في مصيبة تانية محتاجين تلبسوني فيها!!؟»

شعر "سليم " بالغيظ وهو ينهض يصيح به بغضب شديد:

« أنت أتجنيت ولا ايه يا "أسلام" إيه اللي بتقوله ده إحنا جايين نطمن عليك .»

تحدث إليه يجيبه ببرود قائلًا:

« لا شكرًا مش محتاج أي حاجه منكم أنا كويس جدًا.»

قرر "محمد" الخروج من المنزل وهو يشعر بخيبة و حسرة على حالهم الذي وصلوا إليه:

« إحنا ها نمشي يا "إسلام" بس بعد أذنك محدش لي ذنب تعرفه سواد قلبك غيرنا .»

إستهزأ من حديثه بملل و هو يقصد التقليل منه و إستفزازه:

« طبعًا بتتكلم عن أبويا مش بعيد تكون بتحسدني كمان عليه .»

نظر له الجميع بصدمة عادة "محمد" الذي كان يشعر بطعنه في قلبه يشعر بالخذلان من كل شيء حوله:

« بحسدك!؟ أنا مش هنكر أني بحترم أبوك و بحبه و كنت أتمنى يكون ليا أب زيه لكن تحسبها حسد أنت شايفني كده بجد !؟»

قهقه بشدة مستهزأ من حديثها وهو يتحدث ببرود:

« يعني أنت معملتهاش قبل كده!؟ مقربتش من "نوح" لحد ما نسيته إبنه حتى ياراجل ده كان حبك أكتر من إبنه الحقيقي، حتى "أمير" اللي غلبته بمشاكلك و كلامك رميت نفسك عليه أكتر من أخوه، و "سمر" اللى عملتها أمك و خليتها تنسي "زينة" بنت أختها!؟ أنت كذاب و تستحق كل اللى يجرالك مش علشان أهلك حتى محبوش وجودك تقوم تسرق مشاعر الناس ».

كان الجميع يشعر بصدمة حتى زوجته "ميرنا" التي كانت تنظر له بصدمة تنتظر أن يتراجع عن حديثه أن يختفي هذا الحقد من الأجواء ويعود زوجها مرة أخرى لكن لا فائدة

نظرت "جيجي" إلى "محمد" الذي كان ينظر للجميع ينتظر منهم إجابة واحدة أن يجد كلمة تكذب ما قالها، تحدثت "جيجي" بغضب من أبنها الذي تفاجأت بكل هذا القبح بداخله:

« أنت أتجننت يا "أسلام"!؟ إيه اللي أنت بتقوله ده فوق لنفسك فوق ».

تحدث "سليم" بغضب وهو يصيح به و يدفعه للخلف يدافع عن صديقه بقوة:

« أنت مجنون والله مجنون، أنت بتقول كده لصاحبك أنت شايف اللي عمل كل ده علشانه يستحق منك كده!؟ أنت إنسان واطي و أنا غلطان إني طاوعته يصالحك يا صاحبي ».

تحركوا إلى الخارج بينما التحقت بهم "ميرنا" تحاول منعهم لكنها فوجئت بيده التي دفعتها للخلف بقوة حتى سقطت أرضًا .

التفت الجميع ينظرون لها بينما الصدمة تجتاح وجوههم بخوف و هما يرون تلك الدماء تغطي ملابسها البيضاء .

إقتربت منها "جيجي" وهي تصرخ بهم لطلب الإسعاف بصوت مرتفع:

« حد يطلب الإسعاف "ميرنا " بتساقط ».

لاشيء يوازي لحظات الصدمة التي تمتزج مع الخوف تعطي كل ماهو يخيف الخوف يتسلل في قلبك و أسوأ الإحتمالات تتراقص أمام عينك بوضوح.

البارت الرابع والثلاثون

"لعنة الماضي"

اه ياليت الحروب تنتهي، وتعود بقايا الأحلام بروح طفل صغير .

يخبرك الزمان قصه لم يكن لها بداية منذ الأزل قصه تعبر عن هزائمك عن ضيق نفسك الساخر قصه لن تفهمها وهي تشرحك، لن تراها و لن تدرك قصه نهايتها أنت ولا بداية لها لا بداية ابدا .

كان يهرول في طرقات المشفي كالمجنون وهو يحمل زوجته التي حاوطتها الدماء من كل مكان حتى ملابسها التي تحولت للون دماءها كانت تابي على الاستسلام تنهي نفسها عن ان تغيب بعيداً لا يمكن ان تستسلم لموت جنينها كان أمل الأم في كل لحظة نجاة لطفلها بنظرات عتب حارقه .

توقف الزمان منذ لحظة دخولها لغرفة العمليات كل شيء هنا بلا لون او معني لا حركه في المكان كل شيء مظلم رائحه الموت تملئ المشفي تقلب القلوب رائحه الخوف أيضاً تفوح من كل مكان و كانه تخبرك انه لا مفر من الخوف لا مفر من الفقد .

كان الجميع وجهه يملأه الوجوم لا أحد يعلم كيف سينتهي الأمر وماهي النهاية من الأساس شعور بالذنب يجتاح الجميع ينظر من وجهته انه مخطئ أنه المتسبب في ذلك .

تحرك "اسلام" الى موضع "محمد" الذي أصر على المجيء معهم للمشفي و بدون تردد كان يمسك به من ياقة ملابسه يضغط فوق أسنانه بغضب و كل إنش بداخله يحترق :

« لو مراتي او ابني حصل ليهم حاجه، انا مش هسامحك ومش هسيبك كل حاجه خوفت عليها منك و من شر معرفتك بردوا صابتني إنسان ملعون ».

لم يتنفس لم يتحرك وجهه الذي اصابه الوجوم عينيه التي وسعت حدقتها و اهدابه ترفرف تحاول استيعاب ما ينطق به لكن لا شيء يعقل ولا شيء يقنع ان الحديث يأتي من صديقه .

كانت الإجابة من "سليم" الذي دفعها بقوة جعلته يرتد للخلف، بينما كان قد طفح الكيل منه وهو يتحدث اليه بحنق مستنكراً من حديثه اللاذع:

«هو اللى ملعون!؟، هو اللى مؤذي بتحمله ذنب حاجه معملهاش !؟، مين اللى خبط "ميرنا"!؟، مش أنت لو حصل حاجه يبقا أنت السبب فيها ».

ذم شفتيه بغضب وهو يخرج كل خوف كبته بداخله منذ أشهر كل لحظة من الذعر إصابته الآن يخرجها :

« يا اخي كنت عاوز ابعد عنكم، أبعد عن اي حاجه ممكن تاذيني انا مش مضطر أكمل في حاجه مش ليا، تولع انت وهو على ابوه على عيلته كلها أنا ذنبي ايه !؟»

بدأ قلبه بالخفقان بشدة وهو يشعر بأن كل شيء امامه يتعري من كذبه تظهر الحقيقة بشكل مفجع طبول تدق داخل عقله صرير و أنين طفل متمسك باذنه لن يتركها، ظهر الحزن المكبوت على وجهه وهو يشعر بالاسي قبل ان يتحدث بغضب منزعجاً من كل شيء حتى نفس الهواء :

« لم تفتكر اني السبب في الاذي، افتكر اني فديتك بروحي افتكر اني شوفتك اخويا عمري ما شوفت صحبي أنا كنت بدور على فرحك قبلي، افتكر اني سهرت جمبك كم ليله، افتكر ان رغم كل اللعنه و اني ملعون يا صحبي قسمت الفرح عليكم افتكر إنك لم وقعت في مشكلة كنت في ضهرك افتكر ان الضرب في البيت حرام و أنا ميت من بدري اوي »

الدموع التي استقرت في عين "سليم" تتسلل خلسه الى عينيه وهو يستمع لحديثه يشعر بقهرة بوجعه بخذلانه وهو ينظر الاخير بغضب:

« متستحقش والله ما تستحق كل حاجه حلوة عشتها بينا ازاي هان عليك كل ده !؟»

أبتسم استهزأ من هذا المشهد الدرامي أمامه وهو يدفعه للخلف بحقد يستقر بداخله يعلو و يعلو حتى أغفل عينيه عن الحقيقة:

« أنا وسخ اوي كده!؟، أنا غدار ايوة بس أنت يا "سليم" لم في يوم تضربلك رصاصه و يدفنك جمب "نائل" و يكمل حياته بعدك متبقاش ترجع تفهم انه مش بيفكر غير في نفسه »

جحظت عينيها بصدمه وهو يستمع لحديثه النيران تلتهم كل ذكرياته كل مشاعره تحرق روحه تذيب جليد قلبه أمسك به من كتفيه وهو يحركه بغضب يجزم انه مسحور لا يمكن ان يكون كل هذا بقلب صديقه يستحيل :

« أنت بتتكلم عني أنا!؟، أنا يا "اسلام" لا لا أكيد في حاجه غلط انت حد مهددك صح!؟، أنا وحش اوي كده، بس مش هينفع والله ما هينفع كل ده يضيع، أنا كام مرة انقذتك كام مرة أنا ضحيت بنفسي قدم "أرسلان" بدالك انت كنت أغلي عندي من نفسي في كل مرة وأنا كنت رخيص اوي كده عليك!؟، كام مرة قلبي اتحرق من كلامك و عديته علشانك كام مرة صلحتك و أنت اللي بيع!؟، إبنك اللي بيتولد جوا ده مكنش هيبقا إبن صحبي كان ابن أخويا بس إزاي تحس أن كل ده يكفيك مستحيل »

تراجع للخلف يدافع عن نفسه بكل قوة يحرق في روحه يبعد الأعين عنه يحرر نفسه من ذنوب قلبه المدنس:

« ميشرفنيش تكون أخويا ولا تبقي عمه ولا حتى صحبي روح المستنقع اللى اتربيت في احسن لك وانا غلطت غلطة لم دخلت نفسي بالغلط في سكتك و السكة السودة دي و عمري ما هكمل فيها .»

لكمه قوية اصطدمت بوجهه من يد "سليم" الذي كان يركله بقدميه يحاول إفراغ كل الغضب بداخله لكن يمنعه "محمد" الذي كان يكبل حراكته لا يريد ان يري هذا المشهد مرة اخري .

بينما أخذ "جمال" ابنه خلفها بحماية وهو يحاول تهدات "سليم" الذي مازال يحاول ان يضربه و مازال يسبه باللعن الشتائم التي جاءت بخاطره .

اوقفهم الطبيب الذي صاح بهم بقوة وغضب وهو يحاول تهداءت الوضع :

« بس بس احنا مش في شارع يا استاذ انت وهو دي مستشفي وفيها مرضه، مين فيكم زوج مدام "ميرنا" .»

ذهب مسرعاً الي الطبيب الذي كان وجهه لا يبشر بالخير أبدا وهو يتحدث بهدوء اعتاد النطق بتلك الكلمات كثير حتى أصبحت مشاعره متبلده تماماً:

« أولا احنا لازم نعمل محضر تثبت حاله الاجهاض اللى كانت ها تحصل، الحمد لله العملية نجحت بس حصل تهتك في الرحم وده ها يحتاج علاج لفترة .»

اغمض عينيه يغفل علي جفوته وهو يحاول التماسك قبل ان يتحدث بصوت ملئ بالخوف متحشرج :

« و ابني يا دكتور ابني حصل له ايه !؟»

أجابه الطبيب وهو يمسك ببعض الأوراق يمدها اليه قائلاً:

« بخير الحمد لله بس لازم يدخل الحضانه لانه نزل قبل معاد الولادة غير مكتمل هنعمل الازم بعد ما تمضي على الاقرار ده .»

هدأت العواصف و بدأ يتنفس بهدوء وهو يستمع لحديث الطبيب يشعر بأن كل الاحمال فوق ظهره قد تلاشت يشعر بالراحه .

بينما على الجانب الاخر و بعد ما استمعوا لحديث الطبيب قرروا الإنسحاب بهزائمهم و خذلانهم و كل الاوجاع و الجروح التي تعرت كان يجب لها ان تتلاشي مثلما تلاشي وجودهم بهدوء .

"رباه أدعوك وانا لست بباطن الحوت ولكني بعيد بعيداً جداً، رباه أن الروح ترجو رحمتك، ضاقت بي الدنيا و لا متسع الا رحمتك، و بابك مشروع ان لم تكن بجلالك ترحمني و تغيث قلبي فمن ذا يغيثني!؟ "

يندثر الليل يخفي القمر ضوءها اليوم يشعر بالحزن على حال القلوب التي باتت حالمه له تعد النجوم و اليوم باتت القلوب تبكي ورغم حلكه الليل و السماء الملبدة بالغيوم لكن لا أحد يهتم للغائبين حتى ولا للقمر .

كان يجلس بزاوية بعيدة تتردد الانغام الموسيقية على مسمعه لا يهتم يحاول ان يغوص أكثر في العمل يحاول ان يكبح تلك الأصوات التي تترد في عقله لكن لا فائدة تتشتت الذكريات بعقله يعيش بين نابين بين نارين، قلبه المندفع النابض العجول، و عقله الحذر المتيقظ و ثالثهم هو الذي انتهي قبل أن يبدأ.

ذكري قديمة كساها الظلام و الخراب بداخل قلبه كساها الحزن و الأسى تذكر الأمواج العاتية وهي تتلاحق لتغرقه و كانها عدوه الأول .

"فلاش باك"

كان في السابعة عشر من عمره وهو ينظر للامواج من زجاج تلك السفينة التي تتحرك بهدوء تتناغم مع الأمواج .

نظر بجانبه التقت عينيه بعين عمه الذي كان بمنتصف عقدها الرابع كان بشوش الوجه عكس والدها كانت عينيه الهادئة تعكس الطمأنينة على من حوله .

تحدث "عادل" إليه بهدوء وهو ينظر للامواج بإعجاب و انبهار قائلاً:

« شايف المواج شكله حلو اوي يا عمو، بس يخوف . »

أجابه "مراد" عمه وهو يتابع التحرك مع الموج بوجه هادئ يبدوا عليه الانزعاج:

« عمري ما حبيت البحر، أبوك بس اللى كان بيحبه و دايما مصمم انه يتعلم السباحة و اهو هو بقا غطاس و بيفهم البحر و بيفهمه وأنا طلعت زي ما أنت شايف .»

عقد حاجبيه بتعجب مستنكراً من حديثه :

« ليه بتقول كده!؟، بالعكس أنا بشوفك يمكن أحسن من بابا، يعني مش بتتعصب من غير سبب ولا دايماً مشغول .»

استمع الى صوت "يزيد" والده الذي جاء متهكم :

« هايل ممتاز معجب بشخصيتك زيادة عليا فاشل و صايع جديد صح!؟»

حاول الدفاع عنه نفسها وهو يهم بالحديث لكن قاطعه الاخير .

صاح بغضب وهو يقترب منهم منفعل :

« الشخصية الجميلة اللى عجبه سيادتك دي، واحد فاشل دراسياً و عائلياً و عقلياً، واحد مس فالح في اي حاجه يوم ما فكر في الجواز اتجوز رقاصه حتى ابنه مش عارف يتعامل معاه و أنت بقا عاوز ايه تكون صورة منه ها !؟»

كانت النظرات مليئة بالوجوم بالخوف بالقلق حاول أن يدافع عن نفسه ان يبعد نظرات التي تلتهمه وهو يتحدث:

« بس أنا كل ده مكنش ذنبي ده مجرد حظ، وأكيد "عادل" مكنش يقصد كل ده و ملوش لزوم الكلام ده ابداً .»

قهقه بصوت رجولي مرتفع يستهزئ ساخراً من حديثه:

«حظ!؟، حظ انك تفشل في تعليمك، و حظ انك متقدرش تتولي امر نفسك وأنا افضل شايل همك طول عمري!؟، وحظ انك تروح تدور على اقذر أماكن في المجتمع و تتجوز منها!؟، و حظ انك تخلف منها و إبنك حتى مش عارف تربيه و سيبه لتربية العوالم، ده غير المصيبة اللى جاي بيها، عمك المحترم يا حبيبي قاتل واحد وجاي يستخبي هنا .»

أمسك بذراع إبنه الذي مازال مندهش متعجب

يتابع تلك الصدمة التي تلقها باكثر شخص كان يحبه و يشعر بجانبه بالأمان لم يكن يتصور تلك الصدمة .

نظر للبحر الأزرق امامه الذي لم يكن صافياً كان عالى منفعل قاسي جداً و غاضب و كانه أوشك على الانتهاء .

تحدث وهو يسحبه الى الخارج بينما الاخير يحاول الإمساك به ولكن لا فائدة من ذلك تحدث وهو ينظر الى "عادل" إبنه الذي مازال لديه اسر الصدمة:

« وأنا مش هسمحلك تكون شبه عمك ابداً مهما حصل، مش ده البحر اللى مخوفكم انتوا الاتنين!؟، لازم تتحدي خوفك و تنزل ».

انهاء حديثه بالتزامن مع دفعه الى الماء الى الأمواج التي لا تهدأ تصرخ الأمواج بالشاطي وهو بالمنتصف يغرق، لم يكن يشعر بشيء سوى الصدمة الآن كل شيء تبدل هو يعانق الموج بجسدة أقرب شخص له قاتل و ظالم ازهق روح بلا رحمه!؟، أبيه القي به وسط الأمواج هل هذا كابوس و سينتهي هل سيعود الى حضن والدته الآن!؟، ام ان اللعنه بدأت ولن تنتهي !؟

يبدوا أن هناك شيئاً اخر في البحر يغرق ليس الماء فقط، هناك شيء ما يحرق بالماء شيء ما مخيف لا ينسي أبداً مازال مستمر كان يغرق و لا يوجد يد تمسكه ينظر لعين ابيه يري قسوة لا يري نفسه، يصرخ يمكن ان يسمعه ربما ينقذه الآن ولكن لا فائدة، لا نجاة بعد الان يحاول ان يعود للسطح ولا فائدة ينتظر ان ينتهي هذا الكابوس الآن سينتهي و سيأخذ نفس طويل يعانق الهواء الان لن يغرق يجزم ان الموت حرقاً كان سهل للغاية مجرد وجع سينتهي و يموت، و لكن الان هو يكافح الموج يحارب الوقت ولا فائدة، حتماً الحريق لا يقارن بالنار و لا الغرق مقروناً بالماء فقط .

"عودة"

شهق بقوة وهو يشعر بنقباض أنفاسه و تسارع نبضات قلبه يخفق بشدة وهو يحاول ان يعود إلى واقعه يحاول ان ينزع من داخله شعور ما يجتاح قلبه مثل الحروب يتدفق كل الخوف لداخله كل شعور مؤذي تقضي عليه لا شيء يمضي لا شيء ينتهي لا يرحل عنه الخوف ولا ترحل ذكرياته .

بالخارج كانت تجلس بهدوء قبل ان تستمع الى صوت اصطدام شيء بالداخل و شهيق طرقت الباب قبل ان تدلف إليه بهدوء وهي تقترب منه تنظر الى عينيه التي تشبث الخوف بها و ملامحه التي يملاها الفزع .

تحدثت "حسناء" بقلق وهي تقترب منه بهدوء:

« حصل ايه يا "عادل"مالك !؟»

أمسك بيدها قبل ان يقربه منه يلقي برأسه لكي تضمه إليها، ضمته بهدوء وهي تحرك اصابعه بين خصلاته السوداء .

ثمة لغة واحدة أبلغ من بلاغة الكلمات لغة لا يمكن فك شفراتها و لا فهمها لاشيء يشبهه و لا تعريف في معاجم اللغات اجمع يصفها، لمسة واحدة تشفي جروح مازالت توجع ندابات لم يشفيها الزمان، تلك القبضة سرد واضح لكل المشاعر هذا العناق الذي يخفيك من العالم يبعدك عن العالم هو لغات الكون .

تحدث وهو مازال يتمسك بها وكانه مصدر النجاة الوحيد :

« كل مرة بقول كل ده هينتهي و مش بينتهي كل مرة بتصدم أكتر، عارفه أول مرة أتصدمت في "مراد"عمي أكتر واحد حبيته و كنت أتمنا أكون زيه، طلع قاتل و كداب و فاشل، بعدها صدمة في أبويا اللى عمره ما حبني أنا محبتهوش او حبيته معرفش، بعدين في أمي اللى مقدرتش تدافع عني وسط ظلمه، حتى اليوم اللى بقيت أب في أتصدمت أنه ممكن ميكونش أبني .»

عقدت حاجبيها بتعجب وهي تشعر بحزنه الذي لأول مرة يعترف به :

« طيب ليه بتقول كده دلوقتي!؟، يعني خلاص كلهم الله يرحمهم مبقاش لي لزمة الكلام ده لازم تنسي او حتى تتعايش معاه .»

الخوف الذي يلتهمه بنيران تشتعل بداخله و عينيه التي تأبى أن تبكي و روحها المتعبه تلك القوة المزيفة التي لا تظهر كل هذا مازالت تتمكن منه وهو يحاول أن يتحدث بهدوء قائلاً:

« خايف لو عرفت كل اللى فات أنصدم في حد تاني .»

جلست أمامه وهي تحاوط وجهه بيديها أبتسمت بهدوء و هي تعطيه الاجابة متحدثه:

« مش لازم تعرف كل حاجه أوقات النور الزيادة بيعمي صاحبه، أعرف بس اللى يفيدك .»

أمسك بيدها وهو ينظر لها بمتنان وغرام مازال ينبت بقلبه كل لحظة مرة واحده تمر بعمرك إمرأة واحدة لا تنسي عندما تذهب يذهب معها الربيع مواسم الخريف تجر ظلها الأبيض من السماء، تاخذ الحب كله دفعة واحدة تاخذه بكثرة تاخذ روحك، إمراة يستحيل محيها من الذاكرة فهي لا تغادرك يغادرك العالم ولا ترحل .

تحدث إليها بحب نظراته المليئة بالحب و يده التي تحتضن يدها قبل ان يمسكها مُقبلاً أيبها بهدوء:

« عارفه الفترة اللى بعدتي عني فيها كانت كل حاجه زي ما هي ما تغيرت، بس كان نقصها نور مضلمه، كنت بشوفك في كل الستات بس لم بقرب ودور في الوشواش مش بلاقي عينيك مش بلاقي "حسناء" مش بلاقي نفسي اللى بلاقيها معاك .»

و رغم المسافات و رغم استحالة اللقاء كات يراقب وجوة العابرين في كل مكان عله يجد وجهه لعل الزمان يسمح بنظرة أخري ليهدا شوقه او لينتهي هو و يظل وجهه اجمل ما رآه .

كانت عينيها تنبض قبل قلبها تشعر لأول مرة بأن كلماته لها معني بأنه بدأ ان يعود كما كان تحدثت وهي تبتسم بسعادة قائلة بمرح:

« الله ما اهو أنت بتقول كلام حلو أهو اومال ايه وش الخشب اللى مصدره للى خلقوني ده يا "عادل" أنت كنت بتحتفظ بالكلام لحد ما تموت ولا ايه!؟»

رمقها بستنكر وهو يحرك اهدابه بتعجب من حديثها قائلاً:

« أموت!؟، ومستغربة مش بعرف اقول كلام حلو ليه!؟»

تحدث ينهي حديثها الذي ينتقل دائماً الى مشاجرة بينهم؛ لذلك قرر التحدث بجدية وهو يسحب خصلاته للخلف بهدوء:

« كنت عاوز أقولك لو تعرفي حاجه عن "محمد" أنا معرفهاش ياريت تبلغيني .»

قطبت حاجبيها وهي ترمقه بتعجب قائلة بحديث مستنكر من ما تفوه به :

« بتسأل ليه ومالك مهتم بالموضوع ده من فترة!؟»

قطع حديثه رنين الهاتف برقم مجهول الهوية بالنسبة لها

ولكن هو كان يعلم المتصل جيدا وهو يتحرك للخارج بقلب نابض يستعد لأولي صدماته

ينغمس الليل في ظهور الشمس التي جاءت هادئة لا تعكس أبداً الغيوم الملبدة و لا السماء الرمادية كانت الشمس تضهي كل شي ولا تتغير .

مازال يقف ينتظرها أن تفيق مرة أخري يشعر بأن كل شيء يتحول الى السراب لا شيء ثابت لا شيء يبدوا على ما يرام كل شيء هنا ليس له علاقة بالواقع يبدوا و كانه في عالم اخري .

بدأت عينيها بأن تعود الى الواقع بهدوء تنفتح لم تكن تمتلك عقلها الذي مازال يحاول أن يتذكر ما حدث نظرة واحدة مليئة بكل ما يمكن أن يقال نظرتها له وهي تسمح لتلك العبرات المتراكمة على حافة اهدابها بالانهمار فوق وجنتيها .

تحدثت والبكاء يتسلل بين الحروف التي تخرج من حديثها كان كل إنش بوجهه يبكي يصرخ يتالم:

« إبني فين!؟، أنت قتلته أنت السبب يا "إسلام" أنت اللى دمرت كل حاجه حاولت تحافظ عليه، لكن كان إيه الحال خسرت صحابك و أهلك شوفت كل الناس خطر عليه و الحقيقة أن الخطر الوحيد كأن أنت يا "إسلام" أنت .»

احتضنها بسرعة وهو يشدد من عناقها بينما هي مازالت تنهره و تسبه تحاول ان تبعده عنها لكن لا فائدة هو يتمسك بها قبل أن يتحدث يحاول أصلاح كل شيء لكن أمله كان مزيف :

« أبنها كويس والله كل حاجه كويسه هو في الحضانه محدش يقدر ياذيك او ياذيه "ميرنا" أنا بحبك والله مكنش قصدي والله غصب عني كنت اعمي .»

صرخت به وهي تبعده عنها بقوة رغم ألم جرحها كان حديثها ممزوج بآلام بالخوف بالعتاب بالخذلان ملئ بالغضب:

« أنت مبتحبش حد، أنت أناني مش بتحب نفسك أصلاً ها تحب ازاي!؟، أنا ذنبي ايه إبنك ذنبه ايه!؟، أهلك ذنبهم إيه صحابك كل اللي حواليك ذنبهم إيه!؟»

نفس عميق حاول أن يهدأ به وهو يحتضن الهواء الى داخل رائتيه التي كانت مليئة بحزنه حاول أن يشرح لكن الحديث خرج من بين شفتيه مرتبكاً متخفي:

« أنا محدش حبني أبويا و امي انشغلوا بمشكلهم بشغلهم حتى كلامهم كان مش مفهوم كله نصايح أنا كنت محتاج حد يمنعني دخلت في عالم مش بتاعي اتخبيت وراء شاشات لقيت نفسي متورط في "دارك ويب" بسببهم حتى صحابي دول أنت راضيه عنهم راضيه عن مشاكلهم!؟»

كانت نظرتها له مبهمه تشعر و كأنه تتعرف عليه من جديد شخص لا تعرفه جزء مظلم منه لا تعرف كيف ظهر ، تحدثت وهي تنظر له بستياء بعتاب:

« غبي أنت غبي يا "إسلام" عمرك ما قدرت تفهم أن كل ده كان حب، أنت لقيت حد ينصحك أنت لقيت حد جمبك أنا ملقتش أنا يتيمة أنا حتى لو فكرت اسيبك دلوقتي وامشي مش هلاقي حد يقف جمبي .»

أرتفع صوت بكاءها بالتدريج وهي تخفي وجهه بيديها بينما هو كان يقف لا يعلم أين الطريق ماذا يجب عليه أن يفعل هل يرحل الآن ولكن رغبة عارمة تجتاح مشاعره باحتضانه .

استمع الى صرير الباب الذي فتح بسرعة ظهر أمامه الفتيات الذي كان الخوف يجتاح ملامحهم وهم يسرعون نحوها .

كانت اقربه واسرعهم إليها "جميلة" التي احتضنتها بقوة وهي تمسد فوق ظهره بهدوء متحدثه بحنان وهي تنظر الى عينيها:

« أهدي بس خدي نفسك إحنا كلنا جمبك والله كلنا معاكِ و أن شاء الله البيبي ها يكون بخير والله .»

صرخت بقوة وهي تنظر له تنتظر منه أن يتحدث أن يتأسف أن يحتضنها ولكن لاشيء كل الانتظار يأتي بلا جدوى:

« طلعوه برا مش عاوزة أشوف ابعدوا عني بقا .»

نظر إليهم بحرج وهو يسرع بالفرار من أمامها لا أحد ينتبه لتلك العبرات الساخنة التي تنهمر فوق صفح وجهه لأ أحد يهتم لتلك النيران التي تلتهم قلبه لا أحد يعرفه لا أحد بجانبه ولا أحد سيحتضنه الآن، ولكن الحقيقة انه لا وجود له ليس هنا ليس حاضراً، ولا هناك وليس له ماضي، ولا يربطه بالوجود اي شيء هو مجرد ذكري عابرة مجرد مسافر على سفر دائم لا يصل أبدا ليس له اي غاية لا يعرف خطواته وليس له محطة وصول .

أصبحت كل الالوان أمامه سوداء بلا معنى كانت تبكي باحضانهم لا تعلم هل تبكي لقله حيلته!؟، او أنها تبكي على كل ما تحملته تبكي لأن أسعد لحظات عمرها التي كانت تتمنها تحولت إلى كابوس مزعج تبكي لأنها وحيدة ام لأنها بعيدة !؟

تحدثت وهي تستمع الى ضربات قلبها المرتفع و تلك الغصه بحلقها وهي تحاول أن تمحي عبراتها:

« أنا مش عاوزة تاني، "أسلام" كان هيموت إبنه أنا مش عارفه ازاي كل ده حصل في ثانية كل ده حصل إزاي!؟»

اقترابت منها "هاجر" وهي تزيل الخصلات التي التصقت بوجهه حاوطت وجهه بين يديها وهي تتفوه بهدوء وحنان كانت تخشي عليها ان يجرحها حتى الهواء :

« بس بس براحه كل حاجه هتتحل "اسلام" بيحبك اكيد مكنش يقصد يعمل اي حاجه، أهدي شوية و بعدين افهمي ايه اللى حصل كل حاجه هتبقا تمام يا روحي "ميرنا" أنتِ اختي وأنا عارفه أنك مش بالضعف ده لازم تفوقي و تصمدي علشان إبنك حتى .»

بينما كانت "جنى" معارضه لكل حديثها وهي توجه الحديث إليها قائلة:

« أنتِ عارفه أن "إسلام" عمل كل ده بسبب أن "محمد" و "سليم" حاولوا يعرفوا هو ليه قطع علاقته بيهم!؟، يعني كل ده لأنه أناني و غبي مش أكتر .»

كانت نظرات "زينة" المعاتبه لها وهي تضغط فوق أسنانها بحذر:

« مش وقته الكلام ده خالص يا "جنى" اسكتِ دلوقتي .»

كانت "سما" مصابة بحاله من الإنكار وهي تشاهد كل هذا بصمت قبل ان تنطق بوجه عابس :

« أنا ها روح أشوف " جيداء" اطمنت على البيبي ولا لا .»

ذهبت وتركتهم بينما القت التحيه على "جيهان" التي دلفت بوجه غاضب يبدوا عليه الانزعاج من كل شيء قبل أن تذهب لتحتضن "ميرنا" بحنان أم حقيقي مليء بالحب .

مسدت فوق ظهرها بهدوء وهي تحاوطها بيديها تضمها بحب و حنان أم حقيقي مليء بالحب كانت تشعر حقاً أنها ابنتها أنها جزء منها .

تحدثت بحنان وهي تربت فوق يديها بهدوء :

« أنتِ كويسه ياروحي صح!؟، مع اني مش طايقه احضنك بعد الكلام اللى قولتيه للواطي اللى معندوش تربيه إبني بقا أنتِ يتيمه و مفيش عندك اهل!؟، اومال أنا ايه ها أنا أمك أنا اللى ربيتك أنا إللى اعتبرتك بنتي و صحبتي، انتِ عمرك ما كنتِ مرات إبني أنتِ بنتي ده انا بفكر اتبرا من "اسلام" والله ».

أبتسمت عقب حديثها بينما هي أكملت مرادفه وهي تنظر لها ببتسامه صافيه ترتسم فوق شفتيها بصدق:

« أيوة كده اضحكي، بالنسبة للكلام المتخلف بأنك هتسيبي البيت والعبث ده لو اتقال تاني هتبرا من "اسلام"ابني وأنتِ هخنقك، احنا لازم نمشي معاه في الخطه "ج" يعني من الاخر ها نطلع عينيه و نكرهوا في حياته لحد ما يعرف أن الله حق بفكر تطرده برا البيت!؟ ماهو مش علشان إبني أتنازل عن حقوق المراة لا يا امي ».

كانت "هاجر"ترمقه بتعجب وهي تحاول استيعاب ما تقوله من اسباب على أبنها:

« هو أنتِ متاكده أن "اسلام" إبنك ولا اتوا لقيتوه على باب جامع !؟»

بينما بالخارج كانت تنظر عبر الزجاج الشفاف الى الأطفال حديثي الولادة دموعها التي كانت تنهمر بهدوء وهي تنتظر أن تكون أم في يوم من الايام هل ستنتهي أحلامها تلك هل حرمت من الانجاب من عناق صغيرها في يوم كيف أن تنتهي أحلامها قبل ان تبدأ!؟

كانت "سما"خلفها تنظر الى حالتها تلك و البكاء الذي بدأت أن تجهش به احتضنتها بقوة وهي تدفن رأسها في حضنها الذي بأت ملجأ أمان لها .

تحدث"سما" تواسيها وهي تحتضنها تحاول ان تخفف من آلامها:

« والله إن شاء الله كل حاجه هتبقي تمام، ربنا هيعوض عليك يا "جيداء" ».

مازالت تحتضنها تشعر بتلك الرجفة التي تسري في جسدها وهي بداخل أحضانها كانت تبكي على حالتها وهي تحاول أن تخفف عنها لكنها كانت تتاثر أكثر ليس الا كيف لها ان تري اقوي اصدقائها بتلك الحالة "جيداء"كانت دائماً اكثرهن قوة و حكمه اكثرهن حب وحنان .

جاء من خلفهم "أمير" ينظر لها بهدوء ملئ بالاشتياق تحدث بهدوء وهو يمسك بيدها :

« "جيداء" اللى أنت بتفكري في ده ها يبعدنا عن بعض مش هيقربنا ابداً ممكن ترجعي البيت و تنهي الموضوع ده !؟»

صرخت بوجهه وهي تدفعه بعيداً عنها دون إرادة منها ومن مشاعره كان كل شيء بداخلها يحارب نفسه حتى حديثها كان يحاربها

تفوهت وهي منفعله تحاول أن تدافع عن امومتها التي لن تاتي الا بتلك الطريقة:

« أنا مش هتنازل يا "أمير" أنت بتقول كده لأنك في اي وقت تقدر تسيبني و تتجوز غيري أنا لا و حتى لو هتنتهي علاقتنا أنا هكون أم .»

كان مصاب بصدمة حاله من الإنكار كانت تعتري قلبه وعقله لا يصدق ما يسمعه كان مستنكراً من كل ما يحدث يرمش باهدابه يحاول العودة للواقع :

« أنت سامعه نفسك بتقولي ايه!؟، دي حاجه محرمه شرعاً و قانوناً الولد اللى هتخلفيه ده هيبقا إبنك ولا أبنها تقدري تفهميني!؟»

أبتسامة ساخرة رسمت فوق ثغرها وهي تخفض صوتها الذي سبب التفات الناس حولهم و تجمع النظرات:

« ابني طبعاً أنت بتشكك في ايه!؟، و بعدين هو ايه اللى حرام شرعاً ها!؟، مش أطفال الأنابيب كانت حرام و اتحللت بعدها لأنها مش حرام!؟، كل حاجه وليها حل مش الضروريات تبيح المحظورات!؟»

طفح الكيل به وهو يصرخ بها قبل أن يعود لوعيه مره اخري و يهدأ:

« أنت عاوزة تجننيني!؟، حتى لو مش متحرم في الدين بالنسبة للقانون ايه اخباره معاك!؟، و بعدين هي "أميمة"صاحبتك دي معندهاش قلب!؟، للدرجه دي بتبيع نفسها عادي!؟»

أجابته بأسف وهي تشعر بشيء يلتهم روحها وهي تتحدث إليه قائلة:

« "أميمة" مريضة قلب و كان نفسها تكون أم لكن خطوبتها مكملتش .»

نظر لها بصدمة وهو يحاول الانسحاب من أمامها يشعر بالغضب يسيطر عليه:

« أنتِ بتقولي ايه!؟، دي واحده عندها القلب يعني ممكن تموت يعني مش كفاية تاجير أرحام لا ده كمان حاله انتحار .»

رحل وتركها لم يستطيع لم يقوه على الحديث معها يشعر ان كل احلامه تتلاشى حب حياته الشيء الوحيد الصادق في حياته كان هي والان حتى هي لن تكون موجودة .

صباح هادئ تشرق به الشمس ترافقه نسمات هواء باردة و نظر بوجهه كان خير ما يبدأ به المرء يومه، أتت أخيراً بالنور و الاشراق يبدوا ان عينيها تنافس الشمس في إشراقها بينما لا فرق بينما اشراقهما الشمس تشرق تضي و تنثر النور للعالم، وهي تنشر ضياءها في عالمه .

كعادته بحنانها المعتاد تعد الفطور لأجله بكل سعادة لا تعد الامر شاق بل محبب الى قلبها كثيراً

بينما هو كان ينظر لها كالمتيم يقسم أنه لو فتحت ستائر المنزل فالصباح لادركت الفراشات أماكن الزهور الحقيقية عند وجهه .

جلست أمامه وهما يتناولان الفطور بهدوء بينما هو أبتسم بحب ابتسامه تليق بعاشق ولهان مثله .

كانت الابتسامة مازالت فوق شفتيه وهو يتحدث إليها بمرح:

« شوفي البيت هادي إزاي من غير "سليم"!؟بجد بحس اني مخلف عاصفة مش إنسان .»

أبتسمت عقب حديثها و اردفت هي بهدوء قائلة:

« هو اه كارثة وعاصفة بس وجوده في البيت لوحده بس بيحسسني إني مالكه العالم كله ربنا يحفظه مش عارفه هعمل ايه لم يتجوز .»

رمقه "ياسر" بوجه عابس يظهر عليه علامات الضجر بشكل طفولي :

« كل ده لـ"سليم" طيب ربنا يخليهولك اركن انا على جنب .»

صدر صوت ضحكاته مما جعل وجهه يزداد بريقاً وهي تتحدث إليه قائلة بصدق:

« لا متقولش كده أنت الخير والبركة بردوا .»

استنكر من حديثها وهو يرفع احدي حاجبيها بتعجب قائلاً بانزعاج:

« الخير و البركة!؟، وانا جدك ولا إيه!؟، الله يسامحك يا "عشق" .»

أبتسمت "عشق" بمشاغبة وهي ترمقه بهدوء متحدثه بدلال وهي تترك العنان لضحكتها:

« لا بجد يعني عينيك مش على وحده كده ولا كده انا عارفه أزمة منتصف العمر دي، و أنا خلاص شكلي كبرت في عيون الناس و بقيت طنط .»

نظر الى الكحل الذي يزين عينيها يكاد يجزم انهم لو أخذوا العالم من سواد كحلها، لأصبحت الحياة بيضاء و الورود بيضاء وقلوبهم بيضاء كل شيء سيكون ملئ بالحب و النقاء لو كان هي.

أبتسم بحب وهو يقترب منها وهي تعد الشاي بهدوء كان كل إنش بوجهه يبتسم عندما ينظر لمحياها، تحدث بحب يليق تماماً بعينيه المتيمة قائلاً:

« بس أنا مش بشوفك بعيون الناس، أنا بشوفك بعين الآب بنتي، و بعين الرسام لوحة، و بعين الإبن امي، و بعين الكاتب رواية، بعين المسافر طريق، بعين المؤمن هدي، و بعين الموسيقار مقطوعه، و بعين الدنيا أنت حياتي .»

كانت عينيها مثبته عليه تحاول أن تستوعب حديثها المعسول بينما تحدثت وكأنه مازالت تتأكد من حبه لها :

« لا يا راجل بجد!؟، يعني كنت بتحبني رغم أنك اتجوزتني وأنت مش بتطقني!؟»

أخذت عينيه جوله بعيدة بين الذكريات وهو يتذكر عندما تزوج منها لإرضاء والده فقط و للزواج من أبنه عمه المتوفي ورغم أنه لم يكن يحبها عكس حال شقيقة الذي تزوج من شقيقتها و ابنته عمه عن حب، و برغم من ذلك ورغم زوجهم التقليدي الذي تحول لقصه حب اسطوريه كأن بطلها شخص مغرم بعينان سوداء مكحله .

تحدث بهدوء وانفاسه تحمل كل الحب وهو يبتسم لها:

« أنا مش هانكر أبداً إني اتجوزت من غير حب أنتِ كمان أكيد مش هنسا لم كنتِ بتسبيني أنام غصب على الكنبة و تعملي الأكل كله شطه علشان تنتقمي مني ما علينا لو كنت فضلت فترة كمان كنت قتلتني، بس مع كل يوم كان بيزيد كنت بحبك أكتر يمكن أنا محبتكيش كده مرة واحدة مع كل يوم كل سنه وشي في وشك مفيش غيرك في ضهري بقيت مقدرش أعيش من غيرك أنتِ مش تصي أنتِ كلي أنتِ اللى كملتيني عشرة طويلة و حاجات لو شكرتك عليها عمري يخلص قبل ما أتم شكرك وتيجي تساليني ابص لوحده تانيه ده أنتِ ستات الكون كلهم في عينيه .

كلما تقدم به العمر يزداد تعلقه بها يزداد مع كل نفس مع كل لحظة مع كل نظرة كلما طالت صحبتها طال معها حبه .

مغرم بعينيها أقل وصف كأن هذا مازال يحدق بعينيها وهي تبتسم له بينما تزامن مع هذا المشهد الذي يشكل لوحه من العصر الفيكتوري صدوح صوت "وردة" ولا شيء يمكن أن يوازي او يسرد قصه حب الا انغامها:

" وعملت ايه فينا السنين عملت ايه فرقتنا لا غيرتنا لا ولا دوبت فينا الحنين

السنين

لا الزمان ولا المكان قدروا يخلو حبنا ده يبقى كان يبقى كان الزمان

وبحبك والله بحبك والله والله بحبك قد العيون السود احبك

وانت عارف منته عارف قد ايه كتيره وجميله العيون السود في بلدنا يا حبيبي

احبك والله بحبك والله والله بحبك قد اغاني الصبر بحبك

وانته عارف قلنا ايه فيها كل ليله وقال معانا الناي في سهرنا يا حبيبي

احبك والله بحبك والله والله بحبك قد اللي فات من عمري بحبك

قد اللي جاي من عمري بحبك وشوف قد ايه شوف قد ايه بحبك"

قبل أن يكملوا حديثهم استمعوا الى صوت تكسير من الخارج جعلهم يتحركون بسرعه الى مصدر الصوت، الذي لم يكن سوا مفرق الجماعات و قاتل اللذات"سليم" هذا الطفل الكبير .

تحدث بحرج وهو يتراجع للخلف يشاهد ما أحدثه من فوضى بسبب دخوله يتأرجح يمين ويسار:

« احم اسف والله يا ماما هي وقعت من غير قصد طبعاً . »

لم يجيبه أحد اكتفوا بالتحديق به بالخصوص والدته التي كانت ترمقه بوعيد وهي تتفحصه.

تحدث إليهم يتساءل وهو ينظر لهم بعين ضيقه يملأها الشك:

« انتو كنتوا مبسوطين اوي كده ليه!؟، و بتعملوا ايه جوا ها !؟»

لم يجيبه أحد و بنفس الطريقة كانوا ينظرون إليه بختلاف نظرات الغضب تلك المرة .

ترجع للخلف بطريقة درامية وهو ينظر لهم بحزن تفوة بهدوء:

« مش بتردوا عليا!؟، هو أنا مش ابنكم أنتِ مش أمي يعني ضنايا لا هو اللى ضناك باين لا ثانية أنا اللى ضناكم صح !؟»

رمقه "ياسر" بسخرية قبل أن يجيبه بهدوء حقيقي وهو يقترب منه :

« أنا هقولك الحقيقة إللى خبيتها عليك طول عمرك، أنت مش ابننا أصلاً إحنا لقيناك في دريم بارك .»

أبتسم بسماجه وهو يعقب حديثه قائلاً:

« هو مش كان قدام جامع بعد الفجر و بعدين اتطورت ولقيناك قدام معبد يهودي اي بقا حوار دريم بارك ده ؟؟»

زفر بقوة قبل أن يمسك به بانفعال يفقده اعصابه متحدثاً بغضب:

« أنت يابني حد موصيك عليا عاوز تجنني عاوز تشلني يا حبيبي!؟، يا قاتل اللذات يا مفرق الجماعات .»

بينما كانت "عشق"تتابعهم بملل قبل أن تتركهم لتنظيف ما حطمه والدها:

« أنا اللي هتجنن منكم ارحموني و كفايه تكسير في البيت انا تعبت والله هسيبلكم البيت و محدش هيعرفلي طريق تاني .»

نظروا إليها سوياً وهما يرددون نفس الكلمة بنفس الطريقة:

« و محدش هيعرفلك طريق ولا حتى النحلة لأن إحنا عيشتنا تقصر العمر و تجيب الضغط يا ستار منكم يارب .»

نظر له" سليم "وهو يهمس لأبيه بهدوء :

« هتروح لخالتوا "ملاك"متخفش .»

تسأل "ياسر" بتعجب وهو يحاول استجواب الأخير:

« أنت كنت فين كل ده !؟»

لم يجيبه وهو يتحرك للمطبخ قائلاً بملل وهو يذهب بعيداً:

« بابا أنا مش قادر أتكلم والله أنا أكلت انهاردة خمس مرات بس يعني على لحم بطني أنت عارف .»

توسعت عينيه وهو ينظر له بتعجب مستنكراً من حديثه حرك اهدابه عدة مرات وهو يتحدث إليه قائلاً:

« على لحم بطنك من خمس أكلات!؟، ارحمني يارب أنت يا إبني صحبك حصله ايه مراته اللى كانت بتموت حصل إيه معاكم!؟»

أجابه متحدث بهدوء يحاول التغاضي عن ما حدث طوال اليوم من إرهاق و صدمات :

« كل حاجه كويسه الحمدلله متقلقش .»

انتهى حديثهم بدلوف "سليم" للمطبخ وهو يغمغم لنفسه كعادته الثرثرة، بينما "ياسر" كان يضرب كفه بكف وهو يتعجب من أبنه الذي كلما يتحرك يذهب معه العواصف و الفوضى

تتشابك الأقدار وكانه تتسارع مع الماضي لتنتج حاضر أسوأ مما مضي و كان الزمن نفس الزمان و المكان يختلف تولد من كل رحم حقيقه قصه مختلفة ربما ممزوجه بآلام الماضي ربما يقضي عليها الحاضر و ينقذ المستقبل .

جلست تنتظر هذا الطبيب النفسي المدعو "خالد" لم تكن تعلم اي شيء من ملامحه او شخصيته كل ما تعرفه أنه يريد أخبارها بأمر هام يخص زوجها ليس إلا .

انتظرت فترة قصيرة قبل أن يسحب مقعد و يجلس مقابل لها بهدوء قدم يده لكي يصافحها لكنه أشارت من بعيد دلالة على عدم مصافحتها للرجال .

تحدثت بهدوء رغم عدم توازن قلبها او حتى أنفاسها تشعر بأن حديثه لن يكن أبداً مبشر بالخير :

« خير إن شاء الله حضرتك طلبت مني إنك تقبلني بخصوص "عز" جوزي ».

أعاد نظارته الطبية للخلف بإصبعه وهو ينظر لها بهدوء لا يوحي بي اي صفه من علامات التوتر او الخوف مثلاً تفوه بهدوء قائلاً:

« الحقيقة يا مدام "زينة" أنا كنت عاوز أتواصل مع اي حد من أهله من فترة كبيرة لحد ما وصلت لأستاذ "أمير" ولكن هو عصبي لدرجه لا تسمح بالنقاش اصلاً ».

كانت تحاول أن تجمع جميع الخيوط معاً ربما تفهم شيء يرد قلبها الذي أصبح مشتعلاً بالخوف والقلق لماذا يمكن أن يكون أكثر الأشخاص هدوءاً "أمير"منفعلاً على الطبيب المعالج لأخيه لحظة و مما يعالجه من الأساس؟؟

تحدث بستفسار وهي تنظر له بعدم ارتياح قائلة بشك :

« هو حضرتك دكتور ايه بالضبط وايه المطلوب مني؟؟»

استنتج بلمح البصر أنها تشك به وتحاول أن تفتعل القوة أمامه رغم خوفها؛ لذلك قرر الحديث بصراحه أكثر قائلاً بهدوء:

« أنا معالج نفسي، "عز" وصل عندي من ثلاث شهور بس، على حسب تشخيص حالته هو مصاب بحاله من الإنكار يصتحبها فقدان ذاكرة مؤقت ».

أرتعشت يدها وهي تنظر له بأعين مصعوقة تشعر بنقباض في كل عضلات قلبها الذي توازي خفقانه مع أصوات طبول الحرب في رأسها، معالج نفسي!؟، كيف ومتي زاره و لماذا ذهب له كل تلك الأسئلة كانت تتلاعب مع عقلها تنتج الصدمة فوق وجهه .

تحدث بقلق وهي لا تفهم ولا تعي ماذا يحدث حولها وهناك كثيراً من الأسئلة مقيدة في عقلها:

« يعني ايه فاقد الذاكرة و إنكار لي إيه بالضبط؟؟، أنا بحذرك لو كان كلامك ده كدب انا هوديك في ستين داهيه ».

تغاضي عن حديثها وكأنه لم يسمعه أكمل بهدوء مخفي الملامح تماماً وهو يجيبها بشرح :

« "عز" علاقته بوالدة كانت سيئه جداً يعني هو كان في سن محتاج رعاية وحب و والده مكنش الشخص اللى بيقدم الرعاية دي وده عمل عقدة عند "عز "لكنه أعترف بالأمر الواقع و صارح أبوه وقتها كل حاجه اختلافت تماماً لانه ما تفهمه و قرب منه بشكل ملحوظ جداً سمح لي أنه يشعر بالتعلق، لكن المفاجأة أن بعد مدة تقتصر على ثلاث شهور او أربعه اتقتل قدامه و شهد بنفسه على قتله وقتها حصلتله حاله من الإنكار يعني بمعني أدق رفض يصدق أن هو مات أو اتقتل و أنتظر رجوعه من مكان هو ميعرفهوش حمل نفسه مسؤولية أنه لو كان ناقشه من الأول كان أبوه اتغير و عاش معه فترة أطول، ده اللى سبب له حاله من الإنكار لفترة طويلة و هو قال إنه اتعالج من الموضوع بعد أربع سنين و ده الشق الأول من المرض ».

لم يعطيها أي فرصه للحديث او حتى للاستنتاج قبل أن يكمل مرادفاً بهدوء:

« الشق الثاني "سلمي" حبيبته الأولي على حد كلامه قرب منها في فترة المراهقة لحد أوائل العشرينات في عمره أخوها كان صديقه جداً و لكن حصلت مشكلة مصرحش عنها اتسببت في خناقة كبيرة وقتها "عز" قتله بدون وعي منه وحصل نفس الشيء إنكار ادي الى فقدان ذاكرة يعني اتمسح من دماغه مشهد قتل أبوه و مشهد قتله لصاحبه "فارس"، بعدها عرفت "سلمي" أنه قتل أخوها فقررت تقتله و اللحظة دي كمان انمحت من عقله هو فاق شافها مقتوله قدامه ولكن هل هو اللى قتلها هو مش فاكر هل شخص تاني قتلها بردوا مش فاكر ولحد اللحظة دي مازال إنكاره لكل المواقف دي مستمر ».

أخذت عينيه جوله في المكان حولها أنفاسها تتسارع عينيها التي برقت وتثبت بؤبؤي عينيها بفزع تستمع لحديث لم تسمع له قط في حياتها هل كان كل هذا حقيقياً هل ما مر به يمكن أن يكون بهذا القسوة ؟؟

تحدثت بتلعثم أفقدها كل ما كانت يمكن أن تقوله:

« المطلوب دلوقتي إيه يعني يتعالج ازاي ؟؟»

أجابها وهو وهو ينظر للساعه في معصم يده بترقب :

« المطلوب منكم أن كل المواقف دي لا تتكرار مرة تانيه، و تحاولي تنشطي الجزء اللى فقد القدرة على استيعاب الصدمات في دماغه يعني أسهل حولي تخلي يفتكر هو عمل إيه في لحظة قتل "فارس" و مين قتل "سلمي"؟، بينما الحلول الطبية عندي بنفس الطريقة في حاله أنه أستمر على العلاج، للاسف أنا مضطر أمشي عندي ميعاد ».

استوقفته و الدموع تتلألأ في عينيها تحدث بأسف و ندم على كل لحظة تركته يعاني وحده :

« طيب لو حصل اي جديد لازم تبلغني، أسفه لو اتعملت معاك بأسلوب صعب شويه ».

اؤمي له براسه بتفهم أبتسم بهدوء وهو يبتعد قبل أن يتلاشي من أمام عينيه للخارج، بينما هي ظلت في مكانه لفترة طويلة لا تعلم ماذا تفعل بعد ما عرفته ولأول مرة تعلم كم أن الجهل نعمه كبيرة وكل إدراك هو حزن و شقاء لن ولم ينتهي .

أمسكت بهاتفهما وأول من جاء على خاطرها هو "محمد" هو أكبرهم إليها و اخيه الصغير من وجهه نظرها، أجابه بخوف وقلق بعد تردد فعادةً هي لا تتصل الا في الضروريات .

تحدث بنبرة هادئة يملأها الخوف و القلق :

« خير في حاجه حصلت !؟»

تحدثت وهي تنظر للمكان حولها ربما كانت جهلت أين تجلس او حتى نست عمداً كي تحاول تكذيب ما سمعته :

« "محمد" أنا في النادي ومش قادرة أروح تعال عاوزك في موضوع ».

استمعت لاجابته بالموافقة قبل أن تغلق الخط وهي مازالت لا تعرف ماذا يجري حولها ماذا يصيبها في تلك الحياة لم تكن تعلم هل تحزن لأنه أخفي الأمر عنها!؟، أو تشفق عليه وتحزن على حاله!؟، هل تبكي لأن له حبيبه اخري لم يخبرها عنها!؟، ام تحزن على ذنب هو ارتكبه أو ظن انه ارتكبه وقتل!؟، هو لا يستحق لا تنكر كل لحظة أسعدها بها كل ابتسامه رسمت فوق شفتيها بسببه ....

قطع شرودها "محمد" الذي سحب مقعد و جلس أمامه بقلق و رهب قبل أن يتحدث بتساؤل:

« خير حصل إيه شكلك مش مظبوط ؟؟»

كلمة واحدة خرجت منها ببطئ وهي تنظر له بهدوء قائلة:

« "محمد" أنت كنت تعرف أن "عز" بيتعالج عند دكتور نفسي؟؟»

تلاشت الملامح من وجهه وأصابه الوجوم فجأة حاول أن يسيطر على تلك الغصه في حلقه أو نظرت عينيه التي كانت تهرب منها في كل مكان، لكنه استسلم للأمر الواقع وعاد مهزوم مرة اخري قائلاً:

« كنت اعرف بس أنا مش هقدر احكي حاجه، أنا مش عاوز اخسر "عز"كمان مش كفاية "إسلام" مش عاوز ادمر حياة حد تاني زي ما قال .»

التمعت الدموع في عينيها كحبات المطر وهي تشعر بدموعها تنهمر كانت أنفاسها مضطربة وهي تتحدث إليه برجاء:

« علشان خاطري أنا يا "محمد" و رحمه "سمر"عندك أنت عارف إني مش هقدر استحمل الظنون ولا هقدر احكي له أنا هكون جنبه بساعد من بعيد أرجوك فهمني في إيه .»

حاول أن لا يخبرها حاول إنكار الخوف من عينيه لكن لا فائدة من هذا تحدث بحسرة على ما وصلوا له جميعاً:

« وعد مش هتحكيله حاجه!؟، "عز" كان من فترة كبيرة عند دكتور تاني بس قبل الجواز و بعدها معرفتش حاجه تانيه .»

عقدت ما بين حاجبيها تتعجب من جهله بالموضوع حركت عينيها وهي تحدق به قائلة مستفسرة:

« تعرف مين "فارس"!؟»

حاول استيعاب الصدمة للمرة الثانية لم يكن يدرك أنها توصلت لتلك المعلومات و فجاة كانت تندلع الحرب بينه و بين ذكرياته التي تتدفق في مخيلته بقوة وهو يحاول محى تلك الأفكار من عقله .

انحسم الأمر يجب أن يتحدث يجب أن ينقذ صديقه من شبح الماضي الذي عاد ليسفك دماءهم بدون حرمه و كأنهم ليسوا بشر من الأساس تحدث بحزن وهو يعيد تذكر كل شيء:

« "فارس" كان صاحب "عز" و لم عرف بموضوع قتل أبوه قاله أنه ممكن يجيب حقه فعلاً لكن يتفق مع " العارف" دول مجموعة مؤسسها "أرسلان صويصلان" و للاسف هو سمع كلامه و مشي وراه لكن الحقيقة أنه بقا مدمن و بيساعد في حاجات غير مشروعها من غير أدراك منه ولم الموضوع مس "أمير"بعد عنهم لكن "فارس"مسبهوش وفضل وراه اخر مرة لم قبله لقوه مقتول ولحد انهاردة "عز" ميعرفش مين اللي قتله .»

كانت تستمع له بصدمة تنظر له لكنها لا تراه لم تعد تعلم هل ما تعيشه حقيقه أو أنها مجرد كابوس سيء هل بعد كل تلك السعادة التي لم تنالها او تكتفي منها تظهر لها حقيقه من ماضي قديم تغلق و تقتل كل سعادتها تلك ؟؟

تحدثت و شفتيها ترتجف عينيها وأنفه الذين تحولوا الى الحمرة الشديدة وهي تحاول أن تتحدث بهدوء:

« و "سلمي" دي ظهرت إزاي؟؟، هو "عز" اللي قتل "فارس" بجد؟؟»

حرك رأسه برفض لتلك الكلمات لم يكن لديه شك حتى في صديقه يستحيل أن يفعل ذلك أبداً لا يمكن أن يكون مجرم هو مريض لكنها ليس بقاتل أبداً .

أجابه متحدث بهدوء يملأها القهر و الحيرة على تلك الظروف التي حولت طفولتهم و مراهقتهم و حتى شبابهم الى شيب وحزن و ماضي يطاردهم:

« مستحيل يكون عمل كده بغض النظر عن أن هو اتصوب بالنار و "عز" مكنش معاه مسدس أصلا و السلاح مظهرش حتى، "سلمي" أخت "فارس" و كان في بينها و بين "عز" يعني قصه كده قديمة لكن لم عرفت بحوار أخوها حاولت تقتله لكن أغمي عليه و محصلوش حاجه لكن لم فاق لقها مقتولة .»

وضعت يدها فوق أذنيها تحاول أن تمنع عقلها من الإستماع لما يقوله تحاول أن تغمض جفونها لتفيق من هذا الكابوس الذي يقهرها و يحرق روحها .

حاولت أن تقف لكن قدميها هزمتها هي الاخيرة و لولا أنه أمسكها وتحملت عليه كانت سقطت أرضاً وضعه فوق المقعد و اعطي لها كوب من الماء حاولت الارتشف منه لكن رعشت يدها كادت تسقط كوب الماء قبل أن تجهش بالبكاء بصوت مرتفع .

تحدثت بكلمات متلعثمه وهي تشعر بالاختناق تحاول أن تتنفس وهي تتفوة له بحزن من بين دموعها قائلة:

« إزاي كل ده حصل إزاي!؟، و ليه ليه يا "محمد" ليه أنت يحصلك كل ده و ليه " عز" يحصله كل ده ليه ليه بس أستغفر الله يارب .»

حاول تهدأتها وهو يمسك كوب الماء من يدها متحدثاً بهدوء يحاول تخفيف ما بها :

« "زينة" إحنا مفيش في أيدينا اي حاجه أنا احارب وهو يحارب كل اللى إحنا في قدر أنا و أنت لازم نقف جمبه من بعيد و تسنده أنا مش هسيبه ولا هسيبك إحنا كلنا كفه واحدة .»

أمسك بكوب عصير واعطه لها ثم صار بجانبه وهو يطمئن على حالها بهدوء قبل أن يتلفظ قائلاً:

« كل حاجه هتبقي كويسه ياريت متعرفيش "عز" أنك عرفتي وأنا متابع كل حاجه معاك من بعيد .»

أبتسمت له بعد أن هدأت قليلاً من حديثه تحدثت بمتنان وهي تنظر له و تصعد الى سيارتها :

« أنا مش عارفه اقولك ايه يا "محمد"أنت أخويا والوحيد اللي جه في بالي "سمر"الله يرحمها كانت عارفه أن ملناش غير بعض كانت دايما بتقول أن الإخوة مش صلة دم أو قرابه الإخوة بكل مرة وثقت فيها ولم دورت على كتف لقيته وأنت مش أخويا بس أنت فعلاً كنت و مازالت أب و أخ و أبن كمان .»

أبتسم بهدوء وهو يشعر بامتنان لكل ذكرياتهم معاً لكل لحظة كانت به أخته التي تقف خلفه في كل حروبه تحدث قائلاً بتساؤل و طلب :

« إحنا مفيش بينا شكر ولا كلام عشرتنا أطول واكبر من كده، أنا بستاذنك إني هروح البيت القديم كام يوم كده أفضل .»

وافقته و هي تشعر بأن ما يأتي في الأيام القادمة لن يكون

سهل أبدا و لكن مهما حدث من صعاب يكفي وجودهم معا كعائلة واحدة وروح واحدة .

الشمس حارقه رغم صفاء السماء كانت عينيه تراها ملبدة حتى الهواء اليوم حامض لاشيء يكتمل كما يجب فقد الحياة أصبحت كل الطرق مهلكه مخيفة الحياة ماهي الحياة هل هي تلك الأيام التي قضها يصارع كل شيء؟؟او هي شيء اخر لا يعلمه؟؟

كان يعد حقيبته بضجر وهو مشوش بينما أستمع الى صوت "أصلان" من الخلف يتحدث بهدوء وهو الآخر ياخذ حقيبته:

« لدي رحلة قصيرة الى مدينة شرم الشيخ أعتقد عندما أعود ستكون أنت الاخير عدت أليس كذلك؟؟»

أشار له بموافقه وهو يغلق حقيبته قائلاً بوداع:

« أكيد خد بالك أنت من نفسك و أبقي كلمني لو حصل معاك حاجه، أنا مش هطول في البيت هناك، صحيح أنا عرفتلك مكان البيت القديم بتاعك لم ترجع بالسلامه هعرفك مكانه .»

أبتسم له بود وهو يشير إليه بالايماء قبل أن يحتضنه يربت على كتفه ثم ذهب من أمامه قائلاً بهدوء:

« أتمنا أن تكون بخير "محمد" عند عودتي سأذهب معك اعتني بنفسك جيداً اخي .»

وداعه وهو يعود للداخل ليجمع باقي ملابسه بضجر لاشيء يعجبه يشعر أن حتى الهواء الآن مزعج ولا يهمه أي شيء الا انهاء اليوم .

أستمع الى دقات باب المنزل ذهب بضجر لكي يعلم هوية الطارق عقب فتحه للباب زفر بقوة وهو يتركه عاداً للداخل .

كان "أنس" يحمل ما يكفيه من البرود لكي يدلف بدون إذن مسبق و كأنه لا يعترف أبداً أنه ليس منزله .

تحدث "محمد"بغضب منفعلاً من وجوده أمامه وهو يقترب منه بهدوء:

« انت ايه اللي جايبك تاني أنا مش فاهم ؟؟»

أجابه الاخير ببرود و سماجه وهو يجلس قاصداً استفزازه قائلاً بهدوء:

« جيت أطمئن عليك يا عيوني فيها حاجه دي!؟»

ضغط فوق أسنانه بقوة وهو يدفع المقعد بقدميه بغضب قبل أن يمسك بملابسه وهو يحركه للامام قائلاً بغضب:

« أنت من اي ملة أنا عاوز أفهم، أنا على اخري اني اقتلك .»

تغاضي عن حديثه وهو يتطرق لحديث غرة قائلاً بخبث وهو يحاول أن يضغط على أعصابه:

« عارف يا "محمد" أن" يحيي" و "عدنان" بيخططوا ليك!؟، طيب عارف أنك السيء في رواية "أراس" و "أرسلان" و "عدنان"!؟»

أبتسم مستهزءاً من حديثه وهو يتفوه بسخرية لاذعه قائلاً:

« إيه ده هي العصابات كمان عملوا روايات!؟، المجال لم جامد بعد "العراب" و الله الله يرحمه.»

أنتفض "أنس" من مكانه وهو يكشف اخر بطاقته للعب معه قائلاً بحسم وهو يهدده:

« بصي يا "محمد" أنت معندكش فرصة للنجاة، "عدنان" مش هيسيبك وهو عارف أن ابنه عندك ده غير أنه عاوز يخلص عليا عن طريقك، "أرسلان" مش هيسيبك طول ما البردية في إيدك ولو افترضنا أنه سابك "اراس" مش هيسيب حق مراته اللى ماتت بسببك، ده غير "سوزي" اللى هتقضي عليك احسنلك تكون معايا و الكلام دد بقوله لآخر مرو صدقني أنا اللى هنهي كل دد و يمكن اخليك تورث "عادل" قريب وابقا محيت كل اللى ها يتعبك ».

اشتغلت النيران في قلبه قبل عقله أصبح كالجمرة المحترقة وهو يقترب منه يدفعه للخلف قائلاً بغضب عارم يعمي عينيه:

« لو فكرة تاذي أي حد يخصني ها اقتلك بي أيدي يا "أنس" سامعني؟؟، ولو فكرة تقرب من أمي او مراتي ها اندمك على اليوم اللى اتولدت فيه ».

عقد ما بين حاجبيه قبل أن يبتسم ساخراً منه يفتح كل الجروح التي عالجها الزمان :

« ايه خوفت عليه!؟، هو أنت ناسي أن "عادل" السبب في كل اللى أنت في ده!؟، هو أنت عاوز تموت ولا إيه مستبيع اوي كده ليه !؟».

ذهب الى الباب ثم فتحه أمامه وهو يلقي بآخر حديث عنده قائلاً بهدوء:

« علشان عارف اني حتى لو موتني هكون قضيت عليكم قبلي أنت اللى بدأت اللعنه أنت اللى دخلتني في وسط كل الناس دي، علشان كده أنت بالذات حسابك تقل اوي معايا ».

نظرة تحدي كانت تتنقل بينهم قبل أن يرحل متوعد له بكل انتقام .

أخرج "أنس" هاتفه وهو يتحدث الى مجهول قائلاً:

« لا شيء متبقي أمامنا سوى قتله ليس له اي فائدة ولكن قبل أن تقضي عليه يجب أن يخرج البردية ».

بينما بالداخل كأن يجلس خلف الباب محتضن جسده بيده يحاول أن يعيد تنظيم أنفاسه التي بدأت وكانه يلهث خارجاً من أحدي الحروب، يحاوطه الخوف من كل مكان الخطر مثل الهواء بالنسبة له كل شيء يعود للحظة الأولى عندما كان كل شيء خالي منه .

خارج من المنزل بسيارته التي لا يعلم الى الآن كيف تحرك بها و مازال ناجي رغم عدم شعوره بأنه كان يقودها من الأساس، لم ينزعج من أصوات البائعين المتجولين و لم ينزعج من أصوات الحي و الزحم كعادته بل كان يبتسم هنا كانت تنتظره "سمر" بعد كل اختبار في الدراسه، هنا كانت تتشاجر مع جارتها و بائع الخضروات هنا كان يذهب معها هنا كل ذكري مازالت مستمرة في عقله لم تنقطع .

دلف للمنزل وهو يشعر بأنها مازالت هنا تقدم خطوات ببطئ ولكنه عاد يسرع وهو يتقدم فوق الدرجات السلم يكاد يقسم أنه يستمع الى صوتها حتى أنفه تعانق رائحه الطعام الشهي التي كانت تعده وصل الى باب الشقة و تحطمت امنيته وجدها فارغه لا حياة بها لا روح بها وقتها فقط علم أنها لم تعد بالحياة .

أبتسم وهو يضع أنامله فوق الصور الخاصة بها تحدث إليها بحب:

« وحشتيني وحشني كلامك و وجودك و عيونك و ايديكي اللى كانت بتطبطب عليا هقبلك قريب أنا متأكد بس بردوا مش قادر أنا مشتاق ليك أكتر من روحي »

ترك الصورة من يده وهو يتذكر حديثها الأخير له يتذكر عدم قبولها أن يكون المنزل بهذا الشكل و كم كانت ستغضب لو رأته هكذا وقتها فقط تمني لو كان بإمكانه أن يبكي لو كان يمكن أن يجهش بالبكاء بصوت مرتفع لو يمكنه الصراخ وإخراج هذا البركان من داخله ولكن مازالت جميعها اماني و أمانيه لا تتحقق دائماً .

مر وقت طويل وهو ينظف المنزل ومع كل مكان كان يخطوه كان يري ذكري و كان الذكريات تلاحقه ولا تنتهي، بينما هو انتهاء من تنظيف المنزل و صعد للاعلي الى تلك الغرفة التي يربي بها "طائر الحمام"

برج الحمام الخاص به مبني مرتفع يستعمل كعش و ماوى للطيور كان مصنوع من الخشب أشتاق الى تحليقه أمامه صعد و كانت تلك الغرفة المسمي بعيدة عن الأرض يوصل لها سلم خشبي عتيق صعده بهدوء وهو يخرج الطيور من اماكنها و يمسك بأحد الرايات و عقب تحليق الطيور بالسماء كان هو يرفرف بتلك الراية وهو ينظر للسماء بشرود .

أخذ يدندن مع كلمات الأغنية التي تنبعث من مكبر الصوت الصغير كان صوته عذب يشرح كل ما بداخله:

" ليالينا، ليالينا، و تاهت بينا تاهت ليالينا، ليالينا و قولنا ترسي ترسي على ميناء مشينا و أدينا من غير أهالينا ولا حد بيسأل فينا.

كان يتذكر لقطات مر بها في حياته مما يجعله يزيد بتحريك الرايا أكثر وهو يقترب من حافه السطح لم يكن يخشي الوقوع و اي وقع بعد وقوعه يمكن أن يخيفه هو وقع في الجحيم دون علم من الاساس.

أكمل وهو يتذكر كم كانت الحياة قاسية عليه و بشدة سرقت كل ما أحبه سرقت منه حتى البكاء :

" واتاري الدنيا غدارة، غدارة بتغدر كل يوم بينا غدارة والله و جيتي علينا يا دنيا و جيتي علينا، علينا يا دنيا وجيتي كثير على تاس قبلينا عيني علينا يا، عيني علينا بيعي يا دنيا و أشتري فينا جيتي علينا وجوم و ياكي بعد ما جابوا الحق علينا .

تنفس بقوة وهو يري مشاهد أمامه كانه لقطات من قصه بائسه بطلها هو يري طفل صغير ياخد من بين الأمان الى أعناق الجحيم يري طفولة مسلوبه أخذت منه عنوة يري صديقه الذي لأول مرة يره بوضوح، أكمل بعد أن تنفس من دخان لفافه التبغ في يده :

" وآه يا قلوب مفيهاش حنية، آه يا دموع جرحتي عيني، توهتينا و جرحتينا و ضيعتينا لياليناً ليالينا وتاهت بينا تاهت ليالينا، الحنية طب فين هي!؟، إبكي يا قلبي على الحنية

دلفت هي بهدوء بعد أن عرفت مكانه من "زينة" لم تستطيع أن تتركه بمفرده مرة اخري

كان يدخن في مكان مرتفع نظرت له بحب وهو لم ينتبه كان غارقاً في نظرة للسماء غارقاً بدخان سيجارته لكنه ألتفت رآها في الأسفل أشار إليها أن تصعد صعدت السلم الخشبي بخفه وهي تنظر الى الأرض بحذر تخشي الوقوع بينما هو جذبها بيده للاعلي ترك السيجارة و ترك الطيور ترفرف في السماء و ترك كل شيء و لجأ الى عناق يضمه بعيد عن البشر يبعدها عن كل تلك الحروب.

شعرت بصدمة من فعلته تلك لكنها لم تريد أن تبعده هي الأخيرة تعلم كم يحتاج لهذا العناق كانت تدفئه برائحتها بعينيها، بحنانها بجنونها بهدوئه بقربها بعناقها بنظراتها المسيرة بدونها موحشه غريبة هي الدافئ و الحب منها من رائحتها و رؤيتها بيدها بوجودها تصبح الحروب سلام .

تحدثت بمزح وهي تنظر له بعد أن جلس بعيداً قائلة بمشاغبة:

« وأنت بقا جاي هنا على أساس هربان يعني من مشاكلك، بص يا إبني أنا هقدر أساعدك بما أنك واحد صاحبه باعه و أبوه تقريباً اتبرى منه ومحدش رباك حتى مامتك أنت تعرفه من خمس شهور تقريباً لذلك أنا هنصحك .»

نظر له بسخرية وهو يبتسم قبل أن يلقي حديثه بوجهه بشكل لاذع:

« عاوز بس تفتكري ان أمك كانت حبساكي و ابوكي ماشاء الله بيطيق العمي ولا يحبكم وأن مركب غرقانة مقبله مركب تعبانه زي مركب سعادتك كده فا اقعدي ساكته واتيلي على العيلة بنت الجزمة اللى اتولدنا فيها اتنيلي .»

شعرت بالاحراج وهي تجلس بجانبه بضجر وهي تنظر للفراغ قائلة:

« عندك حق إحنا الاتنين حياتنا ضايعه بس تعرف حتى لو ضيعنا سوا ضامنه أننا مش ها نفترق.»

وضع يده فوق كتفها وهو يضمها إليه بحنان يحاول إخراج ما يحترق بداخله:

« عارفه أنا معنديش حاجه في الدنيا غيرك، أنا مش مضايق أن "إسلام"عمل كده معايا مزعلتش لم قال عليا كل ده كل اللى زعلني اني مش عارف اكذبه يمكن أنا لعنه فعلاً .»

نظرت له مرة أخري وهي تثبت عينيها فوق وجهه تحتضنه بنظراتها وهي تمسد فوق ظهره بهدوء قائلة بحنان:

« أنت مش غلطان أبداً "محمد" أنت اللى اتاذيت مش حد تاني، كل حاجه هتتغير أنا متاكدة .»

أردفت تكمل حديثها بنبرة هادئة يملأها الحب وهي تبتسم :

« أنا هكون معاك مش هسيبك تعرف إني يمكن بس الايام دي واثقة في حبنا .»

أمسك بيدها وهو يصتحبه على حافه البرج قائلاً بهدوء:

« تيجي نطير زي الحمامه دي و منرجعش تاني نلف السما مع بعض بس!؟»

لماذا تبدأ الحياة في أظهر جوانبها المختلفة مرة واحدة تعطيك من الحب الذي حرمت منه عمرك بأكمله وهي تسحب منك نفسك تعطيك الحياة فرص لكي تكون إنسان ثم تأخذك بعيداً لتعيدك الى جحيم عمرك .

وقف يتأمل ظلام الليل الأسود وهو ينفس من دخان لفافه التبغ التي تعانق اصابعه كان ينظر للقمر ولكن ليس القمر بالاعلى كان ينتظر ظهور القمر بالشرفة التي بجانبه يتمني أن تمنحه هو و العالم الذي يفيض بنورها .

لم يأتيه الرد منذ اخر مرة ترك بها طلب لزواجها ولم ترد عقله يتسال هل هو بهذه البشعة لماذا تتركه؟؟، لا شيء هو يعلم كم أن الحب مؤلم أن البعض يدخن، و البعض يبكي، والبعض يغني، البعض يرسم، والبعض يكتب، و الاخر يشرب، و هناك من يقع في الحب، و الحقيقة هي أن أنهم جميعاً وجدو طرق مثالية للهلاك .

أبتسم وأخيراً ظهرت طفي نورها بريق القمر و ماهو القمر أن لم يكن هي مجرد خرافات هي فقط من تنير العالم،كانت عينيها تشرح و تبوح بكل الأسرار التي لم تقدر على نطقها يوم كانت تنظر له وهو يعلم، بنتهي الأمر بينهم يجب أن يسحب احدهم قبضته الآن بسهولة يمكنه أن يكون كطائر يبحث عن الحرية، يجب أن تنتهي الرسائل لم يصل الحنين لم تصل ذراعيه الهادئة لم يصل دافئ عناقه، أنتهي الأمر، لم تبالي بجنونه ولا بثورة حبه لها لم يكن بهذه الثورة من قبل حتى أمام غزاة الوطن واي وطن وهي وطنه وموطنه أنتهي الامر هي لم تحبه لم تراه محارب لأجل وطنه راته عدو يريد الإحتلال .

تحدث "حسام" بتساؤل و جزء من الامل يظهر في عينيه السوداء التي أصبحت مليئة بالتساولات :

« هو أنا كنت قدمت على طلب جواز عندكم يا استاذة "رحاب" خير أنا متقبلتش؟؟»

استدرت تنظر له وهي تحاول أبعاد عينيها عنه تستغفر الله كيف له أن يكون كالخمر يسكر في هذه اللحظة الشوق له أصبح لا يمكن تحمله، أجابته بعكس ما تشعر:

« أخاف أقولك النتيجة النهائية تزعل يا حضرة الظابط بلاش أحسن .»

هو يعلم الإجابة ولكن ماذا كان سيفعل بآثار الاشتياق التي مازالت عالقة في جوفه عالقه في عينيه ليتها اخذت معه كل الشوق قبل أن تنوي الرحيل .

ابتلع غصه في حلقه يحاول أن يقنع عقله أنه غير مرفوض لهذا الحد ولكن و في هذه اللحظة شوقه لها فاق استيعاب قلبه فاق حدود عقله فاق ما يعرفه من حب فاق كل شيء في الوجود، تحدث وهو ينظر لعينيها تاركاً لنفسه التأمل:

« كان نفسي والله كان نفسي تكوني ليا، كان نفسي اتحب عادي بس كنت عارف أنها امنية ومش هتتحقق كنت بقول تيجي زي ما تيجي بس والله كان نفسي المرة دي بس تيجي زي ما اتمنيت.»

ربما كانت بعيدة عن عينيه إلا أنه راها في كل الوجوه راها في الكتب في اللوحات في الزهور في الأنغام و الأغنيات، و بين نجوم السماء راها في فراقها أكثر من وجودها، حين تغيب يشتاق قلبه لتلك النبضة المجنونة التي تفقد قلبه توازنه تجعله ينبض من جديد .

تجمعت الدموع بعينيه أفقدته البصر حوله لم يري تلك العبرات التي انهمرت منها وهي تدلف للداخل بسرعه تحاول أن تكتم شهقاتها دلف هو الأخير للداخل قبل أن يسرع إلى باب المنزل يقسم أنه سيهدم هذه المبنى فوق راس الجميع أن لم تجاوبه لماذا لا تحبه .

بينما هي في غرفتها قررت أن تذهب للخارج يجب أن تعرف من يكون لماذا آتي في هذا التوقيت لماذا هو من الأساس لماذا يحبها .

تزامنا مع فتحه للباب هي الاخيرة فتحته وبعد لحظات من الصمت كانت حديث للعيون حدقت به هي قبل أن تتحدث بتساؤل وهي تخفي دموعها :

« أنت مين!؟، ليه جيت دلوقتي خلاص انا مش هجرب تاني أنا بقيت أم ليه مكنتش أنت الفرصة الأولي ؟؟»

أقترب يبتعد عن منزله وهو ينظر لها يحاول أن يحتفظ بتلك الملامح بين عينيه أجابها بلا وعي بتلك الجملة التي حفظها من قصيدة:

« أنا اقدم شارع فيكي، أقدم جزء من قلبك

و آمالك من اللي باليكي، أنا الغريق الوحيد اللى اتعلق بموجه مش بقشه، أنا طفل تعلق بيكي في نص السكة و توهتيه ».

أردف يكمل حديثه مرادفأ بجواب على سؤالها:

« أنا جيت لأن ده معادي ربنا بعتك تطبطبي على جرحي وبعتني انقذك من توهه، مش بيقولوا الدنيا حلوة لولا الناس، اهو لولا وجودك مكننش تحلي، والدنيا حلوة وحشه لولا الناس اهي الدنيا الدنيا لولا عيونك كانت تبقي وحشه اوي الدنيا حلوة علشان انت فيها و وحشه لو انت مش فيها يا "رحاب" أنا بحبك أنت الوحيدة اللى قسمتي قلبي في حب أمي ».

هل نحن هل نحب هل تعود يجب أن تعود مرة اخري، أم أن القلب أقسم بالقسوة ولا يمكن أن يلين، ولكن يلين لأجله يعود للعشق لأجله يحب لأجله ويحيي أيضاً للقاءه .

أبتسمت وهي تنظر له لأول مرة بحب قائلة:

« طلبك مقبول لكنه لسه تحت المراجعه هحاول اخدلك معاد من ابني "يزن" تيجي تطلبني بس بدري علشان بينام بدري ها ».

أبتسم وهو لا يشعر بقلبه الذي أصبح خفيف جداً جسدة أيضاً لولا وجود جاذبيه كان أصبح يطير الآن، لماذا أصبح الهم اخف و يتلاشي ما هذه النسمات كيف ظهرت بالصيف لماذا الشمس أشرقت على عمره و عم الدافئ مرة اخري على قلبه البارد؟؟

تحدث وهو لا يصدق انه ليس حلم كان يرمش باهدابه وهو ينظر لها ينتظر أن تتلاشي كم يحدث باحلامه الوهميه:

« قولي و المصحف!؟، خلاص عادي موافقه لا لا مش مصدق عادي كده احمدك يارب تعرفي والله لروح افتح الحجز واطلع كل اللى في ».

نظرت له وهي تبتسم متفاجاة من رده فعله المبالغ بها:

« أنت مجنون هتفتح على المساجين و بعدين أنا لسه موفقتش أصلا يعني.»

حرك رأسه وهو يتنفس الصعداء براحه مبتسم وهو يجيبها:

« أصل انا عمري ما حاجه كملت معايا للآخر او زي ما بتمنا فا مستغرب إزاي عادي كده .»

قبل أن يكمل حديثه ظهر من العدم شخص يرتدي ملابس سوداء يخفي وجهه ثم أسرع يقترب بسرعه من موضعهم وهو يسحبها من ذراعها.

تحدث بفحيح وهو يري نظرات التعجب على وجههم:

« أخيراً لقيتك وحياة أمي لحسبك علي. كل لحظة دورت فيها عليك و على حسرتي طول السنين دي، ورحمه "صفاء" أختي اللى قتلتيها غدر لحسر قلبك باقي العمر .»

برقت عينيها وهي تري أكبر كوابيسها أمامها الآن حاولت الابتعاد عنه وهي تحرك يدها لكنها فؤجت بـ"حسام" الذي انقض عليه باللكمات قبل أن يكشف عن وجهه وهو ينصدم مما رأي رأي وجهه لا يمكن أن ينساه أبدا وجه حفر بداخل عقله حتى يوم الانتقام

نبس بمفاجأة وهو ينظر له بشرود:

« "صفوت" و ليك عين تظهر قدامي بعد ما قتلت أهلي، أنت عارف أنا استنيت اليوم ده كام سنه؟؟»

كانت المفاجأة الصدمة على وجه الجميع فضح ماضيها و ظهرت قاتله ام هو فوجد من دمر حياته و انهك عمره كل تلك السنوات وهذا هو القدر هذه هي لعبة الماضي التي لا تتوقف عن اللحاق بك مهم حدث أنت محاصر من الماضي مهما حاولت تجاهله او التصالح معه أنت بدائرة الخطأ .

البارت الخامس والثلاثون

"ما قبل النهاية.. خطوة"

"أنا الملعون بأمر الماضي وحكم القدر "

و شاء القدر أن يغفر لي و يعطيني عينيك سلاما قبل أن يسلبهم مني قبل أن أعود بعمري في وسط الأمواج ليس لدي نجاة قبل أن ينتهي عمري و أعود شريدا .

لا أحد يدري كيف انكشف كل ما اخفه بكل تلك السهولة كيف شاء القدر أن يكشف النهاية بتلك السهولة "رحاب" التي كانت تشعر بأنها أصبحت وهم كشف الله حقيقتها ربما أراد القدر أن يتعاون مع الماضي لأجلها لكي لا تنسي جرمها، بينما هو "حسام" الذي تحققت كل أمنيته أمامه الآن من قتله من جعله شريداً و وحيداً في الأرض من سلب منه عمره و قصته و تركه للسراب، و ثالثهم "صفوت" التي يقف أمام من سرقت قلبه بنظرة واحدة يقف أمامه بعد أن قتلت شقيقته وقتلته معها عندما وقف عاجزاً يراها تهوه الى الأرض و أمامه من ظلمه من قضي على عائلته هو الان في موقف الجاني و المجني عليه .

أزاح "حسام" من فوقه وهو يستعد للهرب بينما تمسك بقدمه وهو يخرج سلاحه ولكن "صفوت" كان أسرع في رد الفعل وهو يمسك براسه يضربها بالحائط قبل أن يمسك بجرحه الذي أصابه "حسام"بمعدته نظر إليها بنظرة مليئة بالكراهية مزينه بالشوق وهو يقترب منها لا يهتم بدماءه التي تسيل من جُرحه تحدث إليها قائلاً وعينيه تنبض من الألم ليس الألم الذي سببه الجرح ولكن جرح قديم:

« و رحمه اختي و عيون "صفاء" لحسرك على كل لحظة عيشتيها هتتمني الموت و مش هموتك هحسرك زي ما حسرتيني ببعدك و بموتها ».

تركه ورحل يحاول أن يركض رغم جرحها و دماءه التي تسيل تخطو خطوت الدمار فوق الأرض.

أفاقت من صعقتها من كل ما حدث و من حديثه وهي تقترب من المغشي عليه أرضا

اقتربت وقبل أن تلمسه عاد للحياة مرة اخري و فتح عينيه وهو ينظر له يحاول النهوض قائلاً بغضب :

« راح فين!؟، هربتيه فين انطقي!؟»

أجابته وهي تبتعد عنه بغضب و تدفعه للخلف بكامل قوتها متحدثه بغضب:

« انا هربته!؟، هرب فين هو اللى ضربك و خرج كنت ها امسكه انا يعني!؟»

سحب خصلاته للخلف وهو يزفر بقوة قبل أن يقترب من موضعها تحدث وهو يضغط فوق أسنانه بغضب و وعيد:

« و اللى خلقني لو انت هربتيه مش هسيبك .»

صفعه قوية شعر بها تهبط فوق وجهه وهو ينظر له مصعوق بصدمة مندهش من فعلتها تلك قبل أن تتحدث هي تكمل بحديثها صدمته:

« أنت لو فكرت تهددني تاني صدقني ها انشوف مني وش وحش أوي و بالنسبة لسي "صفوت" يولع و تولع معاه خلصوا على بعض، و عرضك لو اتكرر تاني اعرف اني مش هقبله أنا أصلا مكنتش بحبك .»

عجز عن الاستيعاب كيف كانت تخدعه الم تكن الآن تعترف بحبها!؟، و ماذا عنه ماذا عن حبه عن قلبه اللعين الذي يتمسك بها في كل مرة بعد جرحها يزداد تعلقاً يزداد خوف من فراقها .

رمقها بستنكر وهو ينبس من بين شفتيه بحزن يحاول فيه إني يعيد كرامته المفقودة:

« و عمرك ما ها تحبي حد تاني، انت انانية و قتله مش قاتلتي اخته!؟، أنا كنت هبقا اكبر مغفل لو حبيتك .»

تركها وهو يصفع الباب بوجهه لا يقدر على فعل شيء هبط بجسده خلف الباب محتضن جسده بيده كانت أصعب مراحل الحزن التي مر بها جسده يعرق بشدة يرتجف مثل طفل صغير خائف يعيد أمامه الماضي ذكريات قاسية، شعر بالخوف يغمر قلبه عانق نفسه في زاوية الغرفة لأن لا احد هناك يعانق روحه . و كانه مجرد شبح يتلاشى بداخل السراب مرة أخري .

الذكريات تطارده عندما رأي صفوت لأول مرة في عملية لتهريب المخدرات كان هو من أمسك به وعندما جاء إليه تهديد بالقتل و تحويل حياته الى جحيم يتذكر كم استهزأ منهم و لعنهم و استخف بحديثهم هو رجل قانون و من يمكنه أن يقف فوق القانون لا أحد بالطبع ولكن خذله القانون و خذله العالم وقتها و عندما راي جثه والدته متفحمه و منزلهم و غرفته التهمتهم النيران التهمت ذكرياته و عائلته، عندما رأي والده مصاب بعيار ناري وروحه مسلوبه، عندما

جاءت إليه شقيقته بعد خطفها مجروحه و روحها ترتجف عينيها لم تكن تراه تري فقط من اعتدي عليها و من قتل ربيعها و من دمر أحلامها تري من هتك عرضه و السبب في كل هذا هو، عندما انتحرت أمامه، فقط وقتها علم انه لا يوجد قانون هو في غابة و لا يوجد حكم به الا القتل جميع العقوبات جريمة اخري .

حاول النهوض ولكنه كان مشوش من البكاء لم يكن يبكي كان يغسل عيناه من بشاعة الموقف من هول حزنه من شدة خذلانه .

أمسك بصورة تجمعه بعائلته لم يكن بهذا الوهن من قبل و لكنه أشتاق لعناق والدته أشتاق لنصائح أبيه أشتاق لحب شقيقته يقسم أنهم لو مازالوا هنا لم يكن ليحزن أبدا و الكثير من لماذا كانت تروضه تجتاح رأسه كالمعارك، تحوم حوله و بين أزقة الشوارع و تلك المدن و بين ثنايا روحه تلك المدينة التي يقتن جميع سكانها بداخله، طنين ضربات قلب و ضجيج مرتفع و اصوات صراخ لا يسمعها غيره، و عقله الذي ينسج الف فكرة جميعها بنهايته يقاوم و يقاوم يطارد الموت بين أمواج عقله حتى ينتهي ثم لا ينتهي يظل عالقاً بين النجاة و الهلاك بين الغيث و الغرق، ينتهي الأمر بنومه ينتهي كل شيء النوم هو الحل ولكن النوم لا يحل ولا تاتي الافكار الدافئة تستوطن عقله تحتله في كل مرة حتى أنتهي الامر انه يفكر في الخلاص من قلبه ربما عقلة أيضاً لكي ينام نومه هادئة ولو لمرة واحده .

تذكر كيف اعترفت بحبها كيف جاءت سعادته أخيراً و تذكر كيف سلبت منه و سرقت وكأنه لعنه لشخص ما لعنه بـ"صفوت" يأتي لياخذ أحبابه ولحظات سعادته ويرحل .

و لكن بالحقيقة ماهي الى صدفة جمعته بها و شعر بأن أمواج البحر غمرته شعر ان الفراشات تحلق به، و للحظة فقد ذلك الشعور و رأي أنها لم تكن سوا حلم سوا حياة كانت بين يديه و الاهم أنها تلاشت كانت ذو نهاية سيئة .

مرات الأيام بسرعه تتوالي اسفل غطاء الليل لا تنتهي ولا يمضي الحزن بل يتكاثر و يغرقك في ليله اكثر .

ولج للمنزل وهو يصافح والدها بهدوء كان الحزن يرسم نفسه باحسن صور فوق وجهه مثل رسام بارع أضاف الى لوحته هالات سوداء أسفل عينيه لحيته التي أصبحت كثيفة وغير مهندمه كالسابق عينيه التي اكتسبت حجم أكبر و خطوط حمراء من عدم النوم كل شيء كان مرسوم بشكل محترف .

جلس "اسلام" وهو ينظر بعينيه يبحث عنها بداخل المنزل قبل أن يتحدث الى والده بعتاب وهو يشعر بالخذلان من موقفهم نحوه:

« يعني ينفع كده يا بابا؟؟، مفيش حد فكر يسال عني "ميرنا" سابت البيت و ماما أصرت اني مفضلش هناك دي غيرت الكالون أصلا و حتى البيت هنا جابت "ميرنا" و طردتني .»

أبتسم "جمال" بشماته وهو يحاول أخفي سعادته بأن زوجته قدرت على ان تعيد ابنه من تلك الغفلة، تحدث بتشفي وهو يحاول استفزازه قائلاً:

« مش أنت اللي عملت كده في نفسك!؟، استحمل بقا يا حبيب قلب بابا من جوا .»

استنكر من حديث والده وهو يهب واقفاً أمامه بغيظ قائلاً بغضب:

« أنت شمتان فيا يا بابا!؟، شمتان في إبنك!؟»

حرك "جمال" راسه بالايماء بـ 'نعم' ـ وهو يتحدث بهدوء يثبت حديثها:

« ايوة شمتان فيك يا إبني و بالمناسبة أنا معرفتش أربي لأنك قليل الاصل و التربية وفوق ده كله اهبل و عبيط .»

شعر بالغيظ يعلم مغزاه من الحديث، رمقه بغضب وهو يتحدث بهدوء ملئ بالغيظ:

« بتقول كده علشان موضوع "محمد" صح!؟، هو أنا اللي إبنك ولا هو!؟، ده أبوه نفسه مش بيزعل عليه ده .»

كان يشعر بالغيظ ربما شعور بالغيرة من هذا الحب للاخير و ذلك التهميش له على خطئ خلافهم خسر أصدقاءه وزوجته و والدته و والده و حتى منزله أصبح غريب لا أحد يهتم بأمره من الأساس .

نظر الى والدته " جيجي" التي تهبط الدرجات بجانبها "ميرنا" زوجته التي خرجت من المشفي منذ عدة أيام بينما مازال صغيرهم بالمشفي يكمل علاجه .

جلست بعيداً عنه وهي تشيح نظرها عنه بهدوء عينيها التي كانت تشرح جرحه لها و دموعها التي كانت متحجرة وهي تراه أمامها تشعر برغبة في العتاب رغبة في اللوم و الشوق يحرقها و ليس لقلبها حل .

تحدث بتساؤل وهو ينظر له ينتظر منها جواب يرد قلبه و يزيح الهموم من فوق قلبه :

« مش كفاية لحد كده يا "ميرنا"!؟، أنا اعتذرت كام مرة!؟، أنا عاوزك و محتاجك و خلاص ابننا حتى ملحقناش نختارله اسم ارجوك لاخر مرة بلاش تخسريني .»

تحدثت بستهزاء تستنكر من حديثه وهي تشعر بأن كل الحزن الذي بقلبها يخرج الآن بهيئة عاصفة:

« أخسرك!؟، وأنت خسرتني كام مرة ها!؟، أنا كا مرة قولتلك أنا مش عاوزة حاجه في الدنيا غيرك كام مرة قولتلك متتغيرش متضيعناش من بعض كام مرة مسكت في أيديك ترجع وأنت رفضت، انا هامنك على نفسي و على إبني إزاي وانت قدامي بعت صحابك لا و صحبك اللى ضحه بروحه مرة علشان بعت اهلك حتى انا مش مامنك عليا وعلى إبني .»

شعر بالغضب يجتاحه وهو يتفوه بصوت مرتفع غاضب يحاول الدفاع عن نفسه امامها امام القاضي عليه و المتهمه و الضحية في آن واحد :

« أنت شايفه كده!؟، مش هنخرج من الدايرة السوده دي!؟، متمسكه بكل ده ليه انا مش فاهمه وانا بردوا صح و مغلطتش و بقولهالك تاني .»

صاحت "جيجي" والدته تفصل بينهم وهي تساعد الاخيره في الجلوس بعد أن تألمت من الوقوف فهي مازالت تعاني من آثار الجراحه .

تحدث وهي تنظر له بهدوء قائلة:

« الفيلم ده علشان يخلص لازم شروط و "ميرنا" مش ها تتحرك من هنا لو شرط واحد منهم اترفض، وانت خليك في الفندق اللى انت مرمي في يارب تتعظ شوية .»

أجابه بنفاذ الصبر وهو يتحمل يضغط فوق أسنانه بقوة من شدة الغيظ:

« طلبتكم إيه انا ممكن اعمل اي حاجه علشانها وهي عارفه .»

كل شيء كان يظهر على وجهه قبل الحديث و لكن كيف يخبرها انه غارق وهي طوق النجاة الوحيد له هي كل السبل في نجاته!؟، كيف يخبره ان الظلام اجتاحه احاسيسه أصبحت باردة كيف يخبرها انه أخطئ أنه أصبح غريباً بين ليله وضحاها تلاشت أعناق الاصدقاء التي كانت تحمله، اختفي الحنان من وجه امه، و هي اشاحت عينيه حبها عنه. كيف يخبرها أن لا يوجد مكسب الان يضاهي خسارته .

تحدث وهي تلقي بطلباتها على مسمعه تلك الشروط التي أتفقن عليها في الأيام الماضية:

« أول شرط ها تروح تعتذر ليا أنا و باباك هو شرط متخلف بس اخرج برا و تعال اعتذر تاني، تاني شرط هتعتذر لصحابك اللى طاردتهم من البيت و "محمد" أول واحد، تالت شرط "ميرنا" هتفضل معايا هنا بعد ما البيبي يجي بالسلامه وانت زي بعضه هسيبك تقعد معانا او في بيتكم لوحدك .»

نظر له "إسلام" بتساؤل وهو يمسك يد والدته متفحص لوجهه قائلاً:

« ماما هو أنا مش إبنك!؟، أنت لو جايبني من السوق هتحبيني أكتر من كده حرام والله .»

تجاهل "جمال "كل هذا وهو يتسال بفضول و ابتسامه سعيدة ترتسم فوق وجهه:

« صحيح اختارتوا إسم لحفيدي ولا أختار أنا، سيبوني اختار تسمي "طارق" علشان بحب الإسم و مامتك مردتش بي و مردتش تخلف تاني، او تسمي "جاسر" .»

رمقته "جيجي" بسخط وهي تنظر له بقوة قائلة بهدوء وهي تقترب من وجهه:

« لم يبقا يكبر و يبقا بتاع ستات و تكتبله رواية عن الفهود و ضربني فاحبته تبقا تقولي اسمه "جاسر" .»

رمقه بقرف وهو يشعر بالغضب منه قبل أن تكمل هي حديثها وهي تبتسم ببرود:

« ما هو ده الشرط الأخير كنت سايبه الآخر علشان تاخد الصدمة مرة واحدة، "ميرنا" ها تسمي البيبي "نوح" زي ما "محمد" طلب منكم .»

اتسعت عينيه بدهشه و الغضب مازال يسيطر عليه صاح بوجهه بحنق وهو يقترب منها قائلاً:

« هي دي شروط ولا تعجيز حتى إبني هتسموا على مزاجه؟؟»

أجابته "ميرنا" ببرود وهي تحاول كبح مشاعرها تفوهت بخفوت:

« لا مش على مزاج حد انا بحب الإسم وأنت عارف غير أن عمو "نوح" كان قريب مني و بيشجعني أيام ثانوي .»

كان ينظر الي ملامحها بدهشة لأول مرة يري نفسه بعينها شخص اخر لماذا لم تأتي لماذا لم تحتضنه؟؟، تحدث بموافقه وهو يشعر بغصه في قلبه :

« اعملي اللي أنت عاوزة خلاص انا بقيت شرير كده .»

تمسكت لم تتحدث ولكن كيف تخبره أنها تخشي الفقدان، أنها تود عناق طويل ليعيدها للحياة مرة اخري تخبره ان ثنايا الروح مشتاقة له، كيف تخبره انه تبغضه تكرهه الآن لكنه تشتاق له اي حيرة التي إصابتها تلك أي مشاعر .

تتوسط الشمس السماء قبل الغروب لم يكن غروب الشمس فقط هو غروب للروح غروب للمشاعر غروب للحياة و ياليت لا يعود الصباح مرة أخري .

دلف بخطوات ثابتة تلاقت عينيه بعينيها التي لم يرها منذ أشهر طويلة يتمني لو كان بإمكانه أن يسرع بالهروله إليها يحتضنها كالصغير تحدث بالحديث سراً حديث لم ولن تستمع له " انا متعب يا أمي" ينظر كل يوم الي وجهه بالمرآة هو بخير إلا من الذاكرة من الذكريات، الاشياء البسيطة يا أمي صارت اصعب و اوجع الحزن بدأ زمانه منذ أمد يا أمي لم اخبرك يا أمي ولا عن الليل الذي لا أنامه دون ان اتذكر قبحي و قبح الذكريات قدره انه ولد لأم بدون أم .

تحدثت "سوزي" بهدوء تخفي خلفه الغضب منه :

« إيه يا "عمر" معقولة افتكرت أن ليك اهل وجاي تزورنا ؟؟»

ابتلع غصه في حلقه وهو يقترب منها حاوطها بذراعيه وضع راسه فوق كتفها وهو يعانقها شعر بالجفاء عندما لم تبادله العناق حتى لم تهتم الى تلك الدموع المتحجرة بداخل عينيه .

تحدث بهدوء وهو يبتلع تلك النيران بداخله :

« للدرجه دي يا ماما حتى الحضن!؟، ماما انت ليه مكنتيش بتحضنيني انا فاكر حضنتيني مرة بعد الثانوية ومرة بعد الجامعه ومرة لم ضحيت بمراتي وابني و مرة لم جوزتيني للى على مزاجك، ممكن تحضنيني المرة دي بجد من غير ما يبقا منظر قدام الناس ممكن ؟؟»

نظرت له بطرف عينيها وهي تجلس بلا مبالاة لم تهتم بل تحدثت بجمود وهي تطالعه بنظرات سخرية:

« و إيه كمان اقنعك بي إيه "محمد" اقنعك إني غوله صح، أنا عاوزة مبرر واحد يخليك تثق في واحد تربية شوارع زي ده .»

طفح الكيل وفاض بـ"عمر" الذي تحدث بغضب بدون أن يرفع صوته كان يتحمل فوق قلبه بلا غضب:

« ليه ليه "محمد"؟؟، كل مشاكلك بتتلخص في "محمد" و بعدين هو تربية الشوارع ده مش حضرتك السبب في يا ماما ؟؟»

نبست بغضب وهي تمسك بطرف ملابسه تضغط فوق أسنانه بقوة قائلة بغضب:

« علشان هو السبب في كل ده هو اللى سرقك مني هو اللى أخد أختك مني، هو اللى دمر حياة أخويا هو وأمه .»

اشاح بنظره بعيداً بضجر و و يمسح وجهه يخرج تلك الكلمات العالقة في جوفه تشتعل بنيران تحدث بحزن وصوت هادئ:

« ماما محدش سرق منك حاجه "محمد" ملوش ذنب أنا ضيعت منك بسببه ولا بسبب اني قررت أتغير؟؟، "هاجر" اختارته و اختارت حبها وأحلامها بس اللى ضيعنا بجد أنك عمرك ما حبتينا عمرك ما كنت أم، حتى "عادل" اخوكي هو اللى دمر حياة "محمد" مش العكس لو مرة وحده فكرتي فينا من غير ما تجيبي اللوم على واحد حياته ضاعت بسببكم مكنتش هبقا محتاج حضن دلوقتي ومش عارف اروح لمين .»

أنتبه لدلوف "هاجر" التي ولجت من الخارج مسرعه بعد اتصال "عمر" بها الذي أثار شكوكها وجعلها تأتي خائفه هرولت ناحيته وهي تعانقه وهو يشدد من عناقها بينما كانت أنظار "سوزي" لهم فارغه بلا مشاعر .

نظرت "هاجر" لها الآن تتمنى لو بإمكانها أن تنظر لها دون أن تتذكر جرحاً قديمًا او خيبة دون أن تخذل منها مرة أخرى .

تحدث "هاجر"بتساؤل وهي تنظر إلى أخيه بأعين ضيقة يملأها الشك:

« "عمر" انت جايبنا هنا ليه؟؟»

إجابتها "سوزي" والدتها ساخرة وهي تطالعها بغضب:

« هو جابك جهنم ولا مكنتيش عاوزة تشوفيني ؟؟»

رمقتها بهدوء وهي تحاول أن تتحدث بدون ان تقاطعها غصه حلقه أو تبدأ بالبكاء:

« لا إزاي انا كنت هاجي كمان مع "محمد" علشان اطلبك تحضري المعرض بتاعي بعد أسبوع و هيكون كمان بمناسبة الفرح احنا كتبنا الكتاب بس ومش متفقين على فرح كبير فا كده أسلم حل .»

قطعته "سوزي" وهي تتقدم منها بعنف قاصده الإمساك بخصلاتها قبل ان يمنعها "عمر" تحدثت بغضب وصوت مرتفع :

« يا بجاحتك كمان عاوزة تجيبيه لحد هنا طيب الله في سماء يا "هاجر" يا بنتي ما هخلي يشوف يوم عدل بعد انهاردة عرفيه أن كل اللي فات كان تهويش واللي جاي هيكون نهايته .»

دلف "مصطفى" مسرعاً بعدما استمع الى صوت مشاجرة بالداخل تفاجى بهم ابنته وابنه في المنزل لوهله شعر بالسعادة قبل أن يعود للواقع الأليم مرة أخري لأن تلك السعادة لن تكتمل أبداً .

صاح "عمر" بصوت مرتفع وهو يلقي أوراق الاشاعه أمامها كل محاولاته باتت بالفشل في إسعاف نفسه في إسعاف أحبته انتهت الطرق وهو لم يصل البؤس يطبع نفسها كالوشم فوق قلبه فشل حقاً في ان يعود شخصاً لديه حياة :

« كفاية بقا حرام عليكم كفاية يا ماما كفاية، انا هموت انا جاي أقولك اني مش مسافر العب أنا يموت انا عندي "Leukemia" سرطان دم وفي مرحلة متأخرة انا يموت يا ناس حسوا بيا ».

لحظة من الصمت عمت المكان القلوب تتلظى من الخوف عينيهم التي جحظت بعد حديثه القلب الآن فارغ ولا شيء يعيده كما كان لا شيء يداوي هذا الجرح ابداً .

أقترب منه "مصطفى" والدها الذي كان يقف اقربهم إليه لم تكن الصدمة على وجهه بل تسري في جسده بالكامل عانقه بقوة وحرارة بينما "عمر" الذي استسلم أخيراً للبكاء بداخل عناقه :

« "عمر"انت بتهزر صح عاوز تشوف هنعمل إيه لم تعرف حاجه زي دي قول أنك بتهزر يا إبني بلاش تقول كده مستحيل لا ».

بينما "هاجر" التي أخيراً استوعبت ما نطقه به دفعت يد والدها عنه وهي تبعده بكل قوتها تنظر بداخل أعين أخيه بدون تصديق أمسكت بيديه وهي تصيح بـ"مصطفى":

« أبعد عنه متلمسهوش أنت السبب انتم الاتنين السبب، "عمر" دي مش تحليلك صح أكيد هما غلطنين بيكذبوا يا حبيبي كذابين والله انت مستحيل يحصلك كده لا لا علشان خاطري أتأكد بس ».

بينما "سوزي" التي مازالت لم تستوعب ما يحدث أمامها "عمر"أبنها كيف ومتي حدث هذا لم تكن تردد كلمه إبني في عقلي لكي تستوعب كانت تردده لكي تقنع قلبه الصخري وعقلها انه أبنها و يجب ان تنهار :

« حصل إزاي يا "عمر" مفيش حاجه بتحصل كده من غير سبب أنت بتقول كده علشان تضغط عليا صح؟؟، لا أكيد لا ».

جلس بمعني أدق سقط فوق المقعد وهو ينظر لهم بضعف اخفي وجهها قبل أن يرفع يد "هاجر" التي كانت في حاله من الإنكار لثم فوق يدها وهو ينظر لها يحفظ ملامح وجهه وكانه يحتضنها بعينيه :

« أنا من فترة بدأت أتعب مش قادر اتنفس و اغمي عليا كام مرة و تعبت لحد ما روحت للدكتور و قالي انه سرطان دم و الحاله متأخرة و نصاحني اني أسافر ألمانيا لجلسات الاشعاع هناك هتكون أقوي في حالتي دي ».

أبتسم يكمل حديثه مرادفاً والدموع تنهمر فوق وجنتيه:

« بس متقلقوش اوي كده الدكتور قال اني لسه قدامي من "٣ الى ٨" سنين أعيش بالمرض يعني شوية كويسين، أنا بس كنت جاي اطلب منكم إني لو موت محدش ياخد "يزن" من أمه دي أمانه محدش يحرمها منه ارجوكم .»

عانقته "هاجر" وهي تتمسك بملابسه بقوة و من بين دموعها كانت تواسيه و تواسي نفسها قائلة:

« مش هيحصل حاجه يا "عمر" هتعيش أنت مش هتسبني صح لا مش دلوقتي ليه لم قربت مني عاوز تبعد ليه ؟؟»

تحدث وهو ينظر لها بهدوء يحاول أن يطمئنها وهو يربت فوق يدها :

« مش هسيبك أنا معاكي حته لو مشيت معاكي و بابا و ماما هيكونوا معاكي و "محمد" كمان مش صح يا ماما ؟؟»

أجابه "مصطفى" الذي جلس أمامه بقلق يربت فوق كتفه والصدمة مازالت تجتاح وجهه:

« صح صح يا حبيبي صح أنت كمان هتقوم و هتكون جمبها و "يزن" انت هتربيه مع "رحاب" أنت مش هتموت يا "عمر" لا مش هتموت .»

بينما "سوزي" التي كانت تجلس بعيداً لا تنطق هل فهمت يوماً رغبة الاخرس بالصراخ؟؟، بنفس تلك القسوة كانت تعاني، رغبة الطير مكسور الجناح بنفس تلك القسوة كانت تريد التحليق بذلك العجز وتلك القسوة تحاول ان تحارب .

نهض بهدوء وهي مازالت متمسكه بيده رحل تارك المنزل والغريب أن لا أحد كان ينظر إليه ولا أحد أمسك به اختلفت كل طرقه واخذ طريق اخر رغم عنه شاءت الأقدار أن تقتله لم يختار ما يعيشه فرضته الحياة على لهذا لم تغادره رغبة الهروب الإبتعاد حتى عن نفسي ليته يستطيع ان يخرج من روحه الى روح اخري .

أمسك بيد "هاجر" وهو ينظر إليها بهدوء يحاول أن يطمئنها ويمسح هذا الحزن من فوق عينيها وهو يمحي الدموع :

« أنت مش هتقولي الكلام ده لي اي حد ولا حتى "محمد" انا اللى هقوله لم اسافر بلاش تكسري فرحته، و هتتمسكي يا "هاجر" أنا أصلا كويس ناس كتير تعايشت مع المرض صدقيني بس لو فضلتي على الحال ده انا مش هرجع من ألمانيا وتنسيني خالص سامعه ؟؟»

عانقته بهدوء وهي تربت فوق ظهرها ومعالم الإنكار تطبع فوق وجهه تحدثت بتأكيد وقلق:

« حاضر أنا أنا مش هقول لحد بس بلاش تسبني انا هفضل جمبك ومش هقول لحد أبداً .»

وضع أصابعه فوق فمها وهو يجعله يبتسم وابتسم هو الاخير وهو يتحدث إليها قائلاً وعينيه تنبض من الحزن :

« شايفه ضحكتك دي انا بس من كام شهر وانا عندي إستعداد اموت فداها، انا فضلت احوكي عمرك كله بس انا مكنتش اخ غير من كام شهر .»

محت دموعها وهي تعلم أن لاشيء سيغير تلك الأزمة إلا أن تهدأ وتقف بجانبه لآخر نفس بعمرها لن تترك يده تلك

مرة أخري وأبدا .

السماء يكسوها الغروب و الحياة ينقصها الود و الحنين يمكن أن يكون الشوق منثوراً في الهواء لذلك نعود دائماً بالاشتياق أم أنه فرض علينا الاشتياق!؟

كانت "رزان" تجلس تنتظر غروب الشمس تستمتع بالهواء الذي يداعب خصلاتها عينيها كانت تنظر لبعيد كالمسحورة تري المستقبل بعينيها وهي تتنفس بعمق .

شعرت بيد تربت فوق كتفها ثم أنحني "حسن"والدها برأسه يلثم فوق وجنتيها بهدوء، جلس بجانبها وهو يشاهد كل هذا الانطفاء بعينيها قائلًا بتساؤل:

« الجميل ماله سرحان في إيه ؟؟»

ابتلعت غصه في حلقها وهي تنظر إليه بحزن قبل أن تساله وهي تتفوة بإحباط:

« هو لسه محدش عرف ماما ماتت إزاي؟؟، هو القتل ده صعب أوي كده؟؟»

عقد حاجبيه بتعجب مستنكراً من حديثها وهو يحرك اهدابه تحدث بهدوء قائلاً:

« الله يرحمها، انت عارفه البوليس تحقيقاته طويلة و للاسف مفيش اي كاميرا او دليل يثبت مين قتلها، ليه بتسالي السؤال ده ؟؟»

زفرت بقلق وهي تتلعثم في حديثها وهي تعيد نظرها إليه:

- علشان اعرف اغفر لها، أنا معرفتش أنسي أي حاجه وحشه ماما عملتها بحاول افتكر لها الخير.

أقترب "حسن" من أبنته وهو يمسك يدها طابع قُبلات حنونه وهو يضمها الى صدره قائلاً بهدوء يتأسف عما حدث بسببه :

- أنا آسف إني سيبتك تعيشي كل ده لوحدك، اعرفي إني مش ها أسمح لي اي حد ياذيك أبداً.

ابتسمت له وهي تعانقه ربما لم تجد ما يشرح له انه لا يوجد شيء آخر ياذيها لقد وصل الاذي اخر مراحله تركته وهي تتقدم تمشي بخطوات مهزوزة تلك الهزيمة لا تنتهي ابداً وكأنها مشهد معاد أصبح سخيفاً لكنه لن ينتهي مهما حاولنا .

تقدم منها "عبدالله" الذي كانت تملي الابتسامة محياه وهو يصافح يدها تلك القشعريرة التي تسري بجسده عندما يلمسها او ينظر لعينيها تلك اللمعة التي تظهر في الحياة لوجودها كل تلك الأشياء تأخذه الأفق البعيدة:

- وشك تعبان ليه يا "رزان"!!

أجابته بهدوء تنهي جميع اسالته المعتادة ثم تحدثت عن موعد زفافهم:

- أنا خايفة من كلام الناس إزاي مش هيكون فرح!؟، و بردوا خايفة اعمل بعد موت ماما يقولوا عليا ايه!؟

أجابها بابتسامه حانقه وهو يطالعها بعد اهتمام قائلاً بسخرية:

- كلام الناس المفروض ما يهزناش ولا ولا انت كنا رقاصات قبل كده .

تنهدت بضجر وهي تنظر له بأعين ضيقة من مزاحه الاذع قبل ان يمسك هو يدها يشرح حديثه بعد انتهاء من ضحكاته:

- أنا أقصد لو فضلنا نفكر في الناس مش ها نفرح أصلا اهم حاجه اختيارتنا إحنا مش نظرة الناس فهماني يا "رزان"!؟

أجابته "رزان" بضيق وهي تشعر بالاحباط الذي اجتاح ملامحها:

- ايوه بس "هاجر" هتعلن جوازها في معرض كبير قدام الناس يبقا ليه احنا لا؟؟

عقد حاجبيه وهو ينظر لها بنزعاج قبل ان ياخذ نفس عميق يشعر بكراهيته لـ"محمد" تزداد يوم عن يوم هل مازالت تفكر به حتى انه تقارنه في حياتها:

- اولاً ملناش علاقة بحد ثانياً انت قولتي في معرض مش فرح ولا حفلة، ثالثاً هي مامتها محصلهاش ظروف مامتك اصلا، وغير كل ده انا موافق على رايك أياً كان ها تختاري إيه.

ابتسمت بعد الاستماع لآخر حديثه وهي تقترب منه تمسك ذراعه يتحركان معاً للإمام، ربما لا يري الناس دائما خطواتهم الصحيحة ربما تظل دائماً مؤمن بأنك تتقدم للإمام بينما انت تعود للخلف ألف الخطوات.

بينما "حسن" الذي كان جالساً يطالعها من بعيد ربما هذا السؤال جعله يتجرع من كاس الذكريات القتل هو شيء مضاد انت تقتل فتقتل.

عاد "حسن" بذاكرته إلى هذا اليوم المشئوم كان شقيقة "انس" الذي يصغره بعامين ربما لا أحد يعرف من الأساس أنه هو الإبن الأكبر لطالما كان شقيقة محتل تلك المساحة .

دلف للمنزل وهو يستمع الى صوت هذا الضجيج المرتفع اصوات شجار تأتي من غرفة والدته آلتي لم ينطق لها يوماً او ناداها أمي دائماً ما كانت "سمارة" تبتعد عن أولادها تراه في غباء و طيبة والدها بينما كانت تخشي "أنس" تعلم أنه ورث منها و من عمه الكراهية والعنف.

دلف "حسن" للغرفة صعقت عينيه و جحظت من هول ما رأي "سمارة" والدته جثه هامدة فوق فراشها الذي امتلأ بدماءها أقترب منها بهدوء وخطوات غير ثابتة قبل أن يقع أمامها وهو يمسك بيدها تفحص نبضها وهو يزيل تلك الخصل آلتي التصقت بجبينها.

تحدث بقلق وهو يضرب وجهه بخفه والدموع تتكون بداخل حدقتين عينيه:

- "سمارة" فوقي أنت مش ميته صح؟؟، "سمارة" لا انت مستحيل تموتي إللي زيك ميموتوش فضلتي طول عمرك الغجرية القوية إللي محدش قدر عليها، تموتي إزاي وانا لسه مقولتش ليك يا امي "سمارة" يا امي فوقي أبوس دماغك وانا مش هقولك يا ماما، انا بحبك انا إبنك كان نفسي احضنك أقولك يا امي وانت عايشة قومي تاني عتبيني زعقي أمي فوقي احضنك يا أمي .

استمع إلى خطوات شقيقة "أنس" الذي جاء من الخارج اقترب منه يهرول وهو يبكي تشوشت الرؤية أمامه بدون نضارته الطبية مع البكاء وعينيه التي أغرقت بالدموع تمسك بيد أخيه وهو يتحدث وقلبه يتمزق :

- أمك ماتت يا "أنس" ماتت "سمارة" راحت اتقتلت مين قتل أمك يا "أنس" مين قتلها رد عليا .

تحدث "أنس" ببكاء وهو يحتضنه بخوف :

- معرفش الكلب إللي كان معاه هو إللي قتلها أمك ضاعت يا "حسن" زي ما ابوك ضاع .

آفاق من الشرود الذي أعاده لتلك الذكريات التي مزقت روحه

لن ينسي يظن الإنسان نفسه ناسيا مع مرور الوقت و الذكريات و الحياة يظن انه تعافي من االلمه لكنه لا ينسي ولا يتعافي في حياة الإنسان مجموعة من العقد اول عقدة تسمي "الأهل " و طالما هي منعقدة هو لن ينسي .

عاد الصبح نسمات الهواء الباردة نقية من ثرثرة البشر و حقدهم حتى غرائزهم لم تنتشر بالجو بعد مازال فقط نقي مع اصوات الطيور .

بدء الصباح بصوت "فيروز" الذي تخلل الأجواء و جاب المكان بعذوبتها:

"آخر إيّام الصيفية
والصبية شويّة شويّة

وصلت عَ ساحة ميس الريم
وانقطعتْ فيها العرَبية

آخر إيّام المشاويرْ
في غيمة زرقا وبرد كتيرْ

وَحدي منسيّة .. بساحة رمادية
أنا والليل وغنّية

تأخَرنا وشو طالع بالإيدْ حبيبي وسَبَقتنا المَوَاعيدْ

أنا لو فِيي .. زُورك بِعِينَيي وعمرا ما تمشي العربية .

كانت "جميلة" تجلس تنهي حقيبتها وهي تستعد للخروج اول يوم تخرج من المنزل بهذا الحماس بعدما تلاشي السم من داخل أوردتها لم تنتبه يوماً ان رائحة الهواء نقية و لطيفة بهذه الطريقة ولا أنها بتلك الخفة كانت خفتها مندثرة أسفل تلك السموم حياتها التي امتلأت بالذعر و الخوف و اصدقاء السوء كانت ترجمتها لكل هذا أن اليوم الذي لا يرضي الله لا يرضي النفس أيضاً كيف كانت حياتها لو أنها لم تتعالج من الإدمان ولم تاخذ هذا القرار!؟، بالطبع كانت سينتهي بها الحال جثة هامدة من كثرة المخدرات او حتي كانت ستتدمر صحتها وتنتهي .

ابتسمت وهي تستمع الى صوت "أحمد " الذي كان يهبط من الدرج بتسامته المعهودة وهو يعطيها نصيبها من الشوكولاته آلتي يبتعها لها كل يوم:

- كنت ها تمشي قبل ما تخدي الشيكولاته بتاعتك!؟

ابتسمت له وهي تأخذها من يده ربما كانت اغبي كائن على وجه الأرض في اللحظة التي قررت ان تتركه بها كيف يترك رجل مثلها!؟، هل يوجد رجل في حنانه او حبه هذا من الأساس:

- "أحمد" هو أنت لسه بتحبني!؟

حرك اهدابه رمش بلطف وهو يقترب منها تنهد بعمق قائلاً بحب ربما لن يعرف كيف يصفه ولكنه شيء غريب ينمو بداخله :

ـ السؤال ده لسه بدري أوي عليه، بس في كل مرة ها تسالى ردي هيكون اني اتولدت بحبك و هموت بحبك في فرق بين الحب و القدر ممكن كنت احبك بمزاجي واخسرك لكن القدر إللى ربنا كتبه اني أحبك حتى في موتي هكون بحبك يا "جميلة" .

ابتسمت وهي تقترب منه تحاوط عنقه بين يديها قبل ان تضمه بهدوء لا أحد يعلم تاثير كلمة أحبك حتى لو قيلت كل لحظة من الأحباب لن تكن مملة ستظل شيء يريح القلب و يطفيء لهيب العقل من خوفه لو كان للحياة معني فهي في هذا الجزء الذي ولدت فيه عائلتك و اصدقاءك ومن تحب ولو كانت الحياة شخص سيكون هو ولو كانت مكان سيكون تلك المساحة الضيقة التي هي أكثر الأماكن اتساعاً ستكون عناقه .

في غرفة مضاءة بنور الشموع مع نسمات هواء الصباح في الشروق كانت "زينة" تجلس على السجادة الصلاة في هذا الركن الذي صمموه خصيصاً للعبادة كان المكان جميل ينبعث منه الهدوء تصميم الخشب العربي في هذه الطاولة التي تحمل الكتاب الكريم سجادة الصلاة التي مدون بها بالخيوط في جه القبلة أية كريمة وهي كانت مرتدية ثوبًا بسيطًا للصلاة يضفي عليها هالة من الطمأنينة بعد أن أنهت صلاتها هدأ روعها من كل هذا الخوف الذي يعتريها

الصمت يملأ المكان، عدا همسات الابتهالات بصوت "النقشبندي":

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم

إن كان لا يرجوك إلا محسن فمن الذي يدعو ويرجو الآثم.

أدعوك ربي كما أمرت تضرعا فلإن رددت يدي فمن ذا يرحم .

اغمضت عينيها برفق وهي تشتم من رائحة البخور تلك العادة التي ورثتها عن خالتها "سمر" كلما ضاق بها الحال تتجه الى السلام و الصلاة، وتبدأ في تلاوة الدعاء بصوت خافت، ترقرقت الدموع خفيفة من عينيها، ليس من حزن، بل من تأثر عميق بروحانية اللحظة، و عندما تتذكر ما مر به زوجها تشعر بالانقباض كيف أخفي كل هذا عنها؟!

رياح خفيفة تهب من النافذة المفتوحة، تنعش الغرفة وتضيف إلى الأجواء السكون والسكينة. الشموع تترنح قليلاً، ولكن نورها يظل ثابتًا، يعكس الظلال على الجدران، مما يخلق جوًا من السلام انتبهت الى "عز" الذي جلس بجانبها قبل ان يهبط برأسه وضعها فوق قدميها بينما هي تسللت باصابعها تخلخل خصلاته .

تحدثت "زينة" وهي مازالت تلمس وجهه وتحرك أناملها بين خصلاته تحتفظ بالعبرات بعينيها:

- ليه محكتش ليا كل اللى عشته ده يا "عز"؟؟

رفع رأسه ينظر إليها بصدمة حجظت عينيه على أسر حديثها وهو يتحدث بضطراب قائلاً:

- مقولتش إيه!؟، "زينة" أنت عرفتي إيه ؟؟

محت عبراتها بأطراف أناملها وهي تحاول ان تقف ارتجاف شفتيها قائلة:

- عرفت كل حاجه يا "عز" قرأت الورق اللى بتكتبه و بتحرقه وعرفت كل حاجه، أنا خايفة عليك ليه خبيت عني وجعك ده كله ليه؟!

ارتبك وهو ينهض جلس أمامها ممسكاً بكفين يديها وهو يقربهم منه يضمهم بيديه معانقاً يديها وهو ينظر لعينيها بخوف من ان يفضح أمامها كل عثراته لم تجد الدموع مجري لعينيه ظلت حبيسه داخل قلبه ولم تترقق حتى تحدث "عز" بحزن وهو يأخذ نفس عميق :

- لأنك تعبتي موت "سمر" و موت اهلك و كل إللي عشتيه مكنش ينفع احملك أكتر من طاقتك، أنا كويس بيكي وعلشانك انا عمري ما كان عندي أمل بالحياة غير في وجودك .

عيناها من خلالهم يصل للاعماق الاعماق التي لا يوجد بها نهايات التي تحمل العدل اقل قسوة من تلك الحياة، الحياة غير عادلة كيف لشخص واحد ان يعيش من الحزن ما يمكن ان ينقسم على مجموعة و يظل جميعهم في حزن عميق .

لم تستطيع ان تعترف له بلقاءها مع الطبيب او حتى ان تفصح له عن كل ما علمته اكتفت بعناق طويل حرر مشاعرهم من الهلاك ربما لا احد منهم معافي من الخيبات او الهزائم ربما لم تَ قرار زوجهم كان شيء من التهور ولكن عناق الأيدي هذا يزيل كل تلك الهموم يمحيها و يحرر هذا الإحتلال في قلوبهم.

تحدث "عز" وهو يحاول ان يتقبل أنها علمت بالحقيقة كان فقط يود لو أنه يبث الطمأنينة بداخلها يعيد إليها الهدوء هي لا تستحق كل هذا من خوف يكفي ما عانته يكفي أنها معه :

- "زينة" أنا بحبك، مكنتش أقصد أبداً إني اغشك او أخبي عنك انا خوفت عليك بس أوعدك إني ها اتعالج وها أنسي كل إللى تعبني علشانك علشان تستحقي أحسن مني تستحقي أحسن حاجه في الدنيا .

هي اجمل نساء الأرض في عينيه اجمل ما انجبت حواء هي فرحة السنين التي حُرم منها يحمل لها روحه و اطنان مضاعفه من الحب هي التي اخذ نصيبها من إسمها هي زينة و تزين الأرض في عينيه .

تنهدت وهي تضع رأسها بداخل عناقه فوق قلبه وهي تغمض عينيها بهدوء ربما كل تلك المشكلات و العقد والنهايات لا تعطيهم سوى التمسك سوى الحب مهما حدث سيظل الحب ينبت يتغذي على كل هذا الحزن .

كانت "رحاب " تجلس على حافة السطح، تلامس بيديها الباردتين حواف الطوب المتآكل، وترنو بنظراتها الشاردة إلى الأفق البعيد. الشمس بدأت تميل نحو الغروب، تاركةً خلفها لوحة زاهية الألوان، كأنها تُذكِّرها بأيامٍ مضت كانت فيها الحياة أكثر بساطة وسعادة.

النسيم العليل يلفح وجهها بلطف، يمزج بين برودة المساء ورائحة الذكريات العتيقة. صوت العصافير العائدات إلى أعشاشهن ينسج حولها سيمفونية هادئة، تُعيد إلى ذهنها أصوات ضحكات كانت تملأ هذا المكان في وجوده كانت تملأها سعادة قبل ان يملأه الآن الشوق.

تستعيد في مخيلتها صورًا لذكريات عندما توفي والدها وكانت هي في طفولتها البائسه تنهدت وهي تتذكر هذا المشهد القاسي كانت "رحاب" ذات الخمسة عشر عاماً تجلس بمفردها تبكي وهي تتذكر امر عمها "خالد" الذي هددها هي و والدتها ان لم تتزوج من ابنه "صفوت" سيء السمعه بشع الطباع الذي يكبرها بعشرة أعوام سيطردهم من المنزل و يصبحوا بلا مأوى و ليكتمل هذا الظلم ستتزوج بطريقة غير شرعية "عرفي" لأنه لا يوجد مأذون شرعي سيزوج فتاة في هذا العمر .

انتبهت الى خطوات "صفية" أبنته عمه الصغري التي تكبرها بأربع سنوات كانت أكثر فتاة طيبة عرفتها جلست بجانبها وهي تربت فوق يديها بحنان:

- كفاية بكاء بقا يا "رحاب" علشان خاطري عندك ورحمة ابوكي.

انتبهت لها وهي تندفع بحديثها بقسوة وهي تصرخ بوجهه:

- أهدي ازاي و ابوكي عاوز يجوزني لـ"صفوت" الفاشل طبعاً ها تحسي بيا إزاي وانت بنته .

تغيرت ملامح وجه "صفية" وهي تنظر لها بحزن قبل أن تتحدث بهدوء:

- حاسه بيك ومش هزعل من كلامك، بصي انت لازم تهربي وانا هساعدك انت و طنط تهربوا عند عم بابا الكبير في البلد اهو ده الوحيد إللي مستحيل بابا يقف قدامه احنا من بكرا لازم تهربك .

تحمست "رحاب" وهي تشعر بالدماء تنتفض بداخل أوردتها مرة اخري كأنها عادت للحياة:

- إزاي قوليلي ها تعمل إيه قبل ما الزفت ده يكبس علينا .

وكأنه يستمع الى صوت شتائمه من علي بعض وجدته يدلف من باب السطح وهو يخطو بسرعة نحوهم أمسك بشقيقتها من خصلاتها بعدها أستمع لحديثها دفعها للخلف و هو يقترب من الأخيرة قائلاً بوعيد يهددها :

- أنتِ مفكرة انك ممكن تهربي مني!؟، تبقي بتحلمي لو فكرتِ بس أنا ممكن اقتلك .

قطب حاجبيه وهو يبتسم لها يقترب رويداً رويداً يتسلل الى مساحتها بينما هي التصقت بالحائط بسور السطح وهي تنظر خلفها أن وقعت من هنا ستنتهي حياتها لا فرار شعرت بأنفاسه التي التقت بوجهه وهو يتلمس جسدها وهي تحاول ان تبعدها عنها .

جاءت من الخلف "صفية" التي أمسكت بشقيقها من الخلف تحاول منعه من ما يفعله ظل التدافع بينهم حتى فرت "رحاب" تسحب السكين من فوق الطاولة من طبق الفاكهة التي جلبته الأخيرة.

وقفت تهدده بالسكين بعدما انتبهت انه اغلق باب السطح بالمفتاح لم يهتم للسكين بينما "صفية" وقفت بينهم وهي تتحدث بذعر :

- كفاية إللى بتعملوا ده افتح الباب يا "صفوت" مش ها نخلص على خير صدقني .

لم يهتم لحديثها وهو يقترب أكثر منها قائلاً ببرود :

- انا مش عاوزة تخلص على خير انزلي انتِ يا "صفية" و سيبينا نحل مشاكلنا.

اقتربت منه "رحاب" بجسدها الهزيل ووجها الشاحب ملامح المراهقة بعمرها الصغير كان العند هو اكسير الحياة المقاومة هي ما تجعلها للان تتنفس وبكل ثقتها تحدثت وهي تغرز سن السكين بمعدته تلاحظ ملامح الخوف في عينيه و الذعر:

- مشاكلنا مش هتتحل غير بموتك يا "صفوت" اتفاجات إني قدرت اعمل كده صح!؟

لحظت اقتراب "صفية" التي هرولت بخوف على أخيها وهي تجلس بجانبها أرضاً تتحسس نبضه قبل ان تقف مقابله للاخيرة :

- إيه اللى عملتيه ده!؟، سيبي السكينة يا "رحاب" سيبيها ارجوكي.

دفعتها الاخيره وهي تنظر تعود له لتطعنه مرة أخري لكنها لم تنتبها لتلك التي كبلت حركتها من الخلف ظل سرعهم قائم يدفعون بعدهم بقسوة.

حتى تحدثت "رحاب" وهي تدفعها للخلف و بدون قصد منها وجدت جسدها يهوي للخلف في الهواء تسقط من الطابق السادس صرخت باسمها وهي تضرب جسدها تلقي بالسكين:

- صفية الحقونا يا ناس، يا صفية.

لم تجد مفر الى الهروب من فوق برج الحمام الى سطح منزل اخري حتى تصل الى المنزل المهجور وتهبط من سلمه .

عادت للواقع وهي تحتضن جسدها بعد عشر سنوات

تذرف دمعة بصمت، تسقط على الطوب، كأنها تعيد للمكان جزءاً من روحها الضائعة. تتساءل في سرها كيف تغيّرت الأمور، وكيف انقلبت الحياة إلى ما هي عليه الآن. تبقى هناك، تحتضن ذكرياتها، وتنتظر لحظة تحمل لها الأمل مجدداً .

"رحاب" تلك التي تحملت كل طعنات الحياة ولم تذق الحب الا وحرمت منه فات أكثر من أسبوع على يوم ظهور "صفوت " كل تلك الأيام لم تكن تكلمه الا عبر عينيهم كلما يمر أمامها تختلس النظر له في طريقة للعمل في الصباح تقضي اليوم تنتظر نظرة اخري عند عودته. كانت تري إبتسامته البائسة وهو يطالعها خلسه من خلف الزجاج ربما ولأول مرة تشعر بهذه الخسارة الفادحة لقد خسرت شعور الأمان من قبل عندما افاقت من حلمها الوردي في الطريق بجسد متهالك و طفلها مسروق منها و والدتها تركتها و توفت و من بعدها اخذا تصارع حتى جاء هو و في لحظات الامان عاد مرة اخري وجاء خسارتها .

استمعت الى خطوات تأتي من الخلف و كمشهد مطابق تذكرت نفس المشهد بالسطح منذ عشرة أعوام امسكت بالسكين وهي تختبئ خلف الباب تنتظر قدوم "صفوت" كما تظن وعندنا شعرت بالخطوات تقترب بدون تفكير انقضت على الأخير بالسكين على عنقه .

ابتلعت تلك الغصة وهي تتنهد بهدوء عندما فوجئت بـ"حسام" أمامها قررت ان تنسحب لكنها شعرت به يمسك بمعصم يدها يعيدها للخلف.

تحدث وهو يثبت عينيه فوق عينيها للغة العيون لا تكذب ستبلغه بالحقيقة على اي حال :

- قتلتي اخت "صفوت" بجد يا "رحاب"!؟، لا أنتِ متقتليش مستحيل بس انسي كل ده انتِ كذبتي عليا مش بتحبيني!؟، اتكلمي ارحميني من عذابي ده اتكلمي .

صرخ في اخر كلمته مما جعل جسدها يرتعد خوفاً وهي تنظر ود للخلف بخوف قبل ان تتحدث بتلعثم قائلة:

- قتلتها انا قتلتها، مكنتش أقصد .

أخفت وجهه بيدها قبل ان يجلس هو بجانبها يستمع الى سردها لم حدث في هذا اليوم كان مشتاق لصوتها للغة عينيها لكل شيء بها كان مشتاق لأبعد حد ممكن .

أنهت حديثها وهو ينظر لها يتحدث بهدوء قائلاً:

- على العموم مفيش اي تهمه متوجه ليك لان بشكل أو بآخر أهله قالوا إنها وقعت عن طريق الخطأ و قفلت القضية على كده .

تنفست بهدوء وهي تبتسم بستهزاء هل اغلقت القضية لصالحها:

- حتى لو القانون مش هيحاسبني اروح فين من ضميري إللي مش بيسبني أروح فين من عقلي إللى بيقولي إبنك هيروح زيها اروح فين من ربنا .

رمقها "حسام" بحزن وهو يتفهم ما تشعر به أمسك بيدها وهو ينظر لها بهدوء:

- إن الله غفور رحيم، و بعدين ده كان عن طريق الغلط كنتِ بتدفعي عن نفسك .

أردف وهو ينظر بعينيها بشوق متسائلاً بغصة في حلقه يلعن قلبه الذي يفعل به كل هذا:

- أنتِ فعلا مش بتحبيني!؟

نظرت لها بشرود كيف تعترف له ان عقارب الساعة لا تدور في غيابه بل تجتث من العمر ثم تقسم زمانها وتجز الدقائق و تقطع الساعات وتنشر العمر و تبتر البهاء و تشطر الافئدة .

لن تخبره حتى ان الحب هو الثبات هو الامان و الإطمئنان إذا تخلله الخوف هدم أصبح بلا معني .

تحدثت وهي تبتعد ترحل عنه قائلة وهي تعود للواقع تهد الأحلام التي تمنتها:

- مبقاش ينفع أنا وانتوا مش مناسبين في الف حيط يمنعنا .

تحدث وهو يبتسم له شعر بالانتصار على عقله نعم تحبه ولكن تخشي إذا قلبه لا يكذب:

- ها هدمهم كلهم و هتخطاهم لأجلك الف حيط الف محيط طالما علشانك سهلة هو حد يلاقي نفسه و يسيبها تاني !؟

ابتسمت وهي تهرول تطرقه بخجل ربما تلك هي اغرب علاقة بالتاريخ تحدث المصائب و يجرح كل واحد منهم الآخر بدون قصد و ياتي مثل اللاخرق يداوي ما فعله و يتاسف يحرق روحه ليكون معها ولكن القدر الخوف من المصير المحتوم دائما ينهي الحب .

كان القمر يتعمد على هذه المساحة من الأرض مساحة بها كل المهلكين و الذين انتهوا من الحياة تلك الفئة التي أصبحت غير صالحة للحياة ولا تصلح للموت سيظلوا معلقين ليوم معلوم يوم بعث قريب .

كان "محمد" يجلس في تلك الحديقة الصغيرة امام منزله الذي أعده للزواج يتذكر قد أشتري هذا المنزل عندما استلم اول مبلغ في عمله قرر ان يكون له منزل غير الذي ورثه من "سمر" قبل وفاتها تنازلت عن المنزل له وهو أعاد تنظيمه من جديد .

و اول صفه في منزله هذا أن يكون له حديقة صغيرة مثل تلك التي يجلس بها الآن بجانبه سماعات الصوت يخرج منها صوت السيدة للتي شاركت في حبه "فيروز" :

أنا كلّ ما بشوفك .. كأنّي بشوفك	لأول مرة .. حبيبي
أنا كل ما تودّعنا .. كأنّا تودّعنا	لآخر مرة .. حبيبي
قلّي احكيلي نحنا مين	وليش منتلقّى خايفين
ومن مين خايفين	موعدنا بُكرا .. وشو تأخّر بُكرا
قولك مش جايي .. حبيبي	عم شوفك بالساعة .. بِتكّات الساعة .

أمامه كان يدون بخطه المرسوم كتابات تعبر عن ما يمر به لوحة بيضاء خط هو بداخلها :

كان رفيقي وكان شقيقي   كان طريقي وكان بريقي

وكان يواسي ف المحن.

- الأبنودي

هو هكذا أعتاد أن يقضي الليل يفر بين المقابر حاملاً حزنه على كتفه حائر الى أين مقبرة سيعود الليلة، لا رغبة لديه في التحرر شاء القدر أن يكون لاشيء بلا خطوات يبحث عن مجهول .

شعر بطيفها حوله رائحتها حركت انفه عينيه تعمدت على وجهه كان لا يؤمن بالسحر و المعجزات على اي حال مجرد أساطير لكن ان كانت الاسطورة عينيها هو اول مؤمن بها.

جلست "هاجر" بجانبه وهي تنظر له بهدوء تخفي كل تلك الأسرار في عينيها اقتربت منه بلا حديث وضعت رأسها فوق كتفه وهي تضم قدميها إليها تحتضنهم .

نظر "محمد" لها وهو يضع يده خلف ظهرها متحدث بهدوء قائلاً:

- "هاجر" ممكن تحضنيني لو مش مضايقة!؟، انا كان كل أحلامي اتجوزك علشان احضنك .

ابتسمت وهي تضمه لم تعترف انها هي من كانت تريد هذا العناق لم تشعر يوماً بهذا الأمان من قبل رغم ضيق تلك المساحة إلا أنها أمنه وبشدة مثل القصص الازلية هو مثل الأساطير لا تسرد كلما بدأت بالحديث و السرد يتلعثم القدر و تنتهي الاحداث على مشارف اللسان .

تسائل وهو يضم يديها الى صدره ينظر بعينيها التي بدأت مختلفة له البريق الذي بها أصبح باهت :

- "هاجر" انتِ كويسة ؟؟، انا سمعك انا أصلا معنديش غيرك لو انتِ مش مبسوطة يبقا انا مهزوم في كل حروبي .

ابتسمت "هاجر" بهدوء وهي تتذكر حديث شقيقها لن تسرد له ما بها ربما في وقت اخر سيكون أصح لكن الآن لا داعي ان تقتل فرحته :

- أنا كويسة جداً يمكن بس متوترة من المعرض مش مصدقة ان حلمي اخير بيتحقق، انت كويس شكلك تعبان .

أجابها بهدوء مبتسم وهو يخفي عنها اي حزن كان سيتجرد منه أمامها لا داعي ان ينهي حماسها وسعادتها هو يتحمل أحزانه لكن هي لا يصح ان تحزن :

- أنا كويس، بس انا كمان زيك متوتر حلمك هيتحقق في نفس اليوم إللى حلمي ها يتحقق فيه هشوفك مبسوطة وبتحققي أحلامك، و حلمي أنك تكوني معايا ها يتحقق .

تحدث بسؤال وهو يستند إليها بهدوء:

- هو ليه الإنسان مش بينسى!؟، أنا بحقق أكبر احلامي في وجودك بس انا لسه حاسس بوحشة غريبة انا غريب لم كنت معكم زمان مع "سوزي" مع الناس إللى المفروض يكونوا اهلي كنت غريب، لم كنت في الحارة عند "سمر" كنت غريب، انا طول الوقت غريب معرفتش الوطن و الأهل غير فيك هو انتِ ازاي ليا أنا واحد زيي ميستهلش كل الأمان اللي فيك انا كنت فاكر ان ربنا غضبان عليا بس بوجودك متاكد انه غفرلي و هداني .

تمنت لو ان لها القدرة على قطع ذكرياتها من الماضي لو كان يمكن ان تشق عقلها تماما لو ان الذاكرة مثل الدفتر لكانت احرقته بالكامل، حديثه عن الفراق يعيدها لتلك اللحظة التي ستفقد بها شقيقها.

تساءلت "هاجر" وهي تنظر له ترتشف من قهوته قائلة بحزن لم تظهره :

- هو الموت وحش اوي كده!؟، إزاي لسه فاكر موت "نوح" إللي فات عليه سبع سنين!؟، ازاي لسه فاكر موت "هيثم" من اربع سنين، حتى "سمر" خلاص قرب يفوت سنه للدرجة دي مش بنقدر ننساه ؟؟

تساؤلات في عقلها ماذا يشعر الإنسان عندما يستيقظ اول صباح وهو مهزوم!؟، هو مثلا شعر بأنه عاد غريب منزل ليس منزله و وطن لا ينتمي له وحشة وغربة تجتاح قلبه وهو لاشيء يعنيه .

تنهد بهدوء عميق وهو يطفئ النار التي نشأت بداخله تحدث بشرح هزائمه يخرج هذا الرماد من روحه:

- الموت مش وحش اكيد إللي شافه وحش مفهمش الفراق، الفراق هو إللي قتل محدش بينساه هزيمته أنا عمري ما هنسا اني مقدرتش انزل مع "نوح" القبر علشان أهله قالوا اني مش منهم،

مش هنسا هزيمتي لم مات "هيثم" إحنا كنا صحاب عشنا سوا بس انا كنت بشوف في عينيه أوقات سؤال بيسالني أنا مين ليه شاركته في أبوه وللأسف راح قبل ما اجاوب، لكن "سمر" انا مستحيل أنساها أنتِ عارفه يعني إيه حد يعرف كل عيوبك و قذارة عمرك و يتقبلها هي أمي لو محملتنيش ولا ولدتني هي شالتني في قلبها محدش بينساه انه اتهزم يا "هاجر" .

لم يرد ان يعترف بهزيمته من "إسلام"مازال لم يفهم كيف يخبرها انه يجلس يحاكي قلبه كل يوم أنه عابر ولا حزن على العابرين أو الغائبين، ولكن قلبه لا يصدق ان الرفيق و الصديق ماهو الا عابر او أنه سيظل غائب يستحيل ان يقتنع. مصطلح الغربة يصنف للكثير ولكن الغربة هي أن تسافر بعينيك تبحث عن الغائب ولا تجده تبصر كل الوجوه في الوجود عاده ذلك الوجه.

وضعت رأسها بداخل عناقه وهي تتحدث لها بهدوء:

- اوعدني ان مهما حصل مش ها يجي اليوم اللي تتخلى في عني أنت بالذات انا مش عاوزة اخسرك من بين الناس .

أبتسم "محمد" يخاطب قلبه آه لو تعرف كيف هو مفتون و مغرم لو تعلم أنه لا ينتمي لأحد الا هي لما كانت تحدثت هكذا :

- أنا مش هخسرك لان مليش غيرك، لو انتِ معايا انا مستعد احارب كل الدنيا لكن من غيرك مقدرش اكمل طريق، انا فيا عقل لكن قلبي معاك و ده مش بايدي انا مفتون بحبك بعقلي قبل قلبي مفيش بشر في الدنيا غيرك يا "هاجر" .

الوعود هي تلك الكذبة التي تصنعها لكي تحمل الأمان لكن الحقيقة انه لا يوجد وعود كيف تعطي وعد وانت لا تعلم ماذا سيحدث بعد دقائق!؟، ربما الحب ان اخفي عنك آلامي لأني أخشي عليك مني ومن آلامي ومن العالم .

الليل هو تلك الفترة آلتي يسمح بها عقلك لكي ترتاح تغفو

في أفق بعيده المدى ينتهي بك الأمر وحيدا نائما في حلم سبات عميق يسمي الكابوس .

كان " أنس" الذي لم يتعدي عمره السابعة عشر عاماً يجلس امام والدته "سمارة" كان يسدد لها نظرات حانقة بعدما رآها مع أحد الرجال عندما عاد للمنزل :

- انا بكل هدوء بقولك اخرجي وراء الكلب اللي كان معاكي .

توسعت عينيها وهي تنظر له بصدمة قبل ان تتحدث بتحدي وهي تمضغ تلك العلقة بفمها:

- ولو مخرجتش!؟، البيت ده يا حبيبي وكل إللي ورثته من أبوك تحت تصرفي انا وصاية عليكم يعني ممكن أبيع كل ده في اي لحظة .

ابتلع ريقه بهدوء وهو يقترب منها بخطوات حذره وامام عينيه يرسم بفن بارع متقن كيف سيتخلص منها :

- عارفه يا "سمارة" انا طول عمري بكره من أبويا و بقرف منه ليه!؟، أقولك أنا مش علشان رجل تافهه و لا غبي لكن علشان اتجوز غازية في الموالد، حته لم كنت بشوفك بتكلمي رجاله مكنتش بحزن عليه، بس انا مش زيه ومش هتفضلي علامة سوده في حياتي ومش هفضل إبن الرقاصة.

استهزات "سمارة" من حديثة بسخرية وهي تطالعه ببرود :

- اومال هتعمل إيه يا عيون "سمارة" !؟

أقترب منها مبتسم وكاته مختل يتلذذ بما يفعله قبل ان يغرز سلاحه الأبيض الذي يشبه السكين "قرن غزال" بداخلها أخرج السلاح وهو يعيد نفس المشهد لثلاث مرات متتالية بلا رحمة لم يجد اي شعور يجعله يتراجع لم تكن والدته ليوم لن يتراجع هذا هو القرار الصحيح .

فقدت أنفاسها واختل توازنها فسقطت أمامه جلس "أنس" بجانبها وهو ينظر لجثتها الهامدة بلا شعور جلس يحاكي أفكاره و أخيراً شعر بتلك الكارثة التي ارتكبها .

نهض وهو يحمل جثتها للداخل اختل توازنه مرتين وهوت جثتها منه أرضاً لم يكن جسده يتحمل ليس لحجمها او لكونها ثقيلة بل لهذا الذعر الذي هشهش أضلاعه وجعله مرتخي الجسد، و أخيراً نجح في وضعها فوق الفراش نظر حوله وهو يزفر بضيق شديد يفكر بخطوته الأخري خطواته آلتي رسمت على يد شيطان بارع .

أسرع للخارج يمحو كل أثر لجريمته القذرة قبل ان يعود للغرفة مرة اخري أقترب منها يمتعاض وهو يمزق الثياب عن جسدها ثم لطخ الملائه بدماءها و لكي تصبح جريمة كاملة كان ينقصه فقط الطرف الاخري "كريم" صديق "سمارة" والذي يتردد على المنزل كثير الجميع يعلم بقصة حبهم القديمة عندما كان هو يغني وهي ترقص على انغامه في بقاع الأرض كل شهر .

و بالفعل بعد ساعات كان قد أصاب "كريم" بعيار ناري قتله ثم حمله للمنزل ووضعه بجانبها كي تكتمل جريمته بشكل مكتمل إمرأة و عشيقها في خلاف قتلهم أبنها دفاع عن شرفه المسلوب .

كان يقف بجانب "يزيد" شقيق والده الذي كان يطابقه شكلاً ومضموناً رغم وجود الدماء و جثتين لم يتحرك لهم جفن و يظلوا يتابعوا بهدوء.

تحدث "يزيد" مستفسراً بأعين ضيقة يستنكر بشك:

- يعني انت دخلت لقيتهم مع بعض و قتلتهم !؟

أجابها "أنس" بهدوء وهو يرسم دوره بإتقان شديد:

- أيوة يا عمي و دلوقتي إيه العمل نبلغ البوليس!؟

عقد "يزيد" حاجبيه ببتسامه صفراء يعلم مغزاها وهو يحملق به:

- لو البوليس جه هتتحبس، أنا مش اخوك العبيط اللي هتضحك عليه البوليس يعني طب شرعي إللي هيثبت أنها مش قضية شرف أصلا دە غير أن انا وأنت عارفين ان الواد دە لسه ميت غير امك إللي لسه فيها الروح .

جحظت عينيه وهو يقترب من جثتها يتحسس أنفاسها ارتبك وهو يشعر بانفاسها ثم صوت انينها وهي تنظر له و تنظر حولها تتحدث بوهن :

- "أنس" ها تقتل أمك و تلوث سمعتي و انت واخوك حرام تظلمني المرة دي وعلى ايد ده إللي قتل أبوك يا "أنس" .

حرك نظرة بينهم قبل ان يقترب أكثر متحدث بقهر و غيظ حقد دفين في قلبه :

- سامعتك وهي فين دي علشان الوثها!؟، عارف أنه هو إللي قتله و ميهمنيش بس انت لازم تنتهي علشان انا ابدا كان لازم تنتهي اشوفك على خير في جهنم أصلا مستحيل انا وانت ندخل الجنة .

عقب حديثه أمسك بالوسادة بقوة وهو يضعها فوقها يكتم أنفاسها ببرود لم يشعر بنظرات "يزيد" يقف مصعوق متعجب مما حدث ولا أنين صوتها كل ما كان يراه هو الهلاك الذي حتماً سا يصيبهم .

شعر "أنس" بالاختناق وهو يتنفس بسرعة يحرك رأسه يهرب من هذا الكابوس المزعج قبل أن يصرخ وهو ينهض من نومه يلهث أنفاسه .

كانت بجانبه "نبيلة" زوجته التي قدمت له كوباً من الماء بفزع رغم أنها اعتادت على ما يحدث:

- هي الكوابيس دي مش ها تنتهي ابداً ؟؟

أجابها "أنس" وهو يستعيد أنفاسه بانهاك:

- مفيش حاجه في الحياة خوفتني قد الكوابيس دي حساب على كل لحظة عشتها مش ها تنتهي الا لو انتهت.

أكثر المجرمين والذين انتصر عليهم الشر هم الاذكياء.

لن تجد أبدا غبي شرير او حاقد لكنها دائما ما يكون ذكي بالقدر الذي يجعله يعلم نهايتها ويكمل .

كان يسير في الطريق بسيارته يستمع الى الأنغام التي تاتي من مشغل الصوت "الكاسيت" بهدوء في طريقة ذاهباً الى والدته التي قضي مده طويله لم يراها.

و مثل حال "محمد" الدائم يتفحص الطريق من خلفه الف مرة لن يعيش بأمان أبداً و هو يعرف ذلك و لذلك لن يثق او يصدق ابداً .

و بالفعل شكه كان بمحله عندما ظهرت سيارتين من امامه و من خلفه يسددون له الطلقات النارية بينما هو هبط بجسده يتفادي الطلقات وهو يخرج سلاحه و يخرج جسده من زجاج السيارة قرر أصابه إطارات السيارة لكي تقف وفي المرة الاولي فشل،دلف مرة أخري بجسده للداخل يتابع الطريق و قف بسيارته يقطع الطريق قبل ان يعود للخلف يضرب السيارة من خلفه، و بسبب توتر السائق جات نقطة لصالحه و انقلبت السيارة في الطريق .

بينما اكملت السيارة الاخري مسيرتها و قضت برصاصها على إطارين من عنده و دمرت الزجاج ولكن تلك المرة اصاب "محمد" الهدف بنجاح و قتل السائق ثم صوب على مفتاح البنزين فا نفجرت السيارة بقوة.

بينما هو خرج من سيارته يمسح دماءه التي تتدفق فوق وجهه من أثر شظايا الزجاج ينظر للحريق بأعين ضيقة .

استمع الى خطوات تاتي من خلفه وقبل ان ينظر تحدث الأخير بابتسامة عريضة و لهجة مصرية ركيكة وغير صحيحه لكنها شعبية:

- ليك وحشه يا "زغلله" مكنش العشم تبوظ العربيات .

أبتسم "محمد" عندنا أستمع لهذا اللقب منه وهو ينظر له ببرود يحرك نظره بين النيران المشتعلة ووجه الأخير:

- و علشان انا "زغلله" كان المفروض لم تحفرلي حفرة تحفرها على مقاسي و اتاكد الف مرة انك حفرها كويس، لاني طالما طلعت منها هدفنك فيها انت واللى خلفوك .

الماضي هو تلك الأيام التي تنفسا و قضينها رغم إرادتنا ولكن تلك الأيام لها ضريبة قوية جدا يجب ان ترد ولو بعد الف عام .

البارت السادس والثلاثون

"أسطورة الوداع"

تبدأ الحياة بمحاولة مستميتة للبقاء، وتواجه في بداياتها إحباطا يشبه الشعور بأنك مسؤول عن تحقيق إنجازات وأنت لا تزال رضيعا. وعندما تصل إلى الحقيقة، تكتشف أنك في رحلة لا ترجى منها أي مكاسب.

وقف "محمد" ينظر إلى "أراس" ولكن ليس فيه، بل في الماضي الذي يطارده بلا هوادة. كيف مرت كل هذه السنوات؟ مجرد أربع وعشرين عامًا قضاها في هذا الهلاك.

تحدث "أراس" وهو مستند إلى السيارة، نظرته تحمل دهشة وتعجبًا:

- هل تعلم يا "محمد"، لا شيء بك يتغير. رأيتك أول مرة وأنت في الثالثة عشرة من عمرك، ثم اختفيت لتعود في التاسعة عشرة ولم تتغير. والآن، بعد كل هذه السنوات، ما زلت كما أنت.

ابتسم "محمد" بوجع، وسحب شفته السفلية إلى داخل فمه وهو يضغط عليها بحيرة:

- أنا كمان مستغرب فيك، إزاي مش بتزهق من كل مرة برجّعك فيها؟ عاوز إيه يا "أراس"؟

رفع "أراس" كُم قميصه الأسود، ليظهر الوشم المدون على يده اليسرى بالحبر الأسود: "لا حياة خارج الدائرة، أنت لا أحد، أنت جزء من دائرة الخطأ". ثم تحدث بهدوء وعيونه تترجم كلمات عميقة:

- هل تتذكر هذا الوشم؟ أعلم أنك أجريت تعديلات بالليزر ومحوت الوشوم عن جسدك، لكن هل محوتها من روحك يا روحي؟ عندما بدأت "دائرة الخطأ"، كان "أوسكارد" المؤسس الأب، رحمه الله، مصريًا من جهة الأم، وكان أبوه مختصًا بالآثار. وفي لغة الآثار، الدائرة تعني الخلود والأبدية. لذلك أبشرك يا عزيزي أنك لن تخرج من الدائرة إلا ميتًا، وللأسف، لن تموت الآن. ستظل في الدائرة، لا اسم لك ولا عمر، كما تعلم أنت "الحارس" ولا أحد سواك.

حاول "محمد" أن يبدو غير مبالٍ، لكنه من الداخل كان يتلقى الكلمات كصفعات تقلبه رأسًا على عقب. كان يشعر بالقشعريرة تسري في جسده، يتذكر كل مرة تمنى فيها أن ينطق أحدهم باسمه، ولو عن طريق الخطأ، دون أن يسمى "الحارس". في كل مرة، كان الواقع يسخر منه، لم يكن شيء. لقد بنوا داخله الخوف، ليعرف أنه لا شيء، لا اسم له ولا هوية. هو شيء، وليس إنسانًا. اقترب من "أراس" ودفعه للخلف، يلكمه بعنف وهو يصرخ باضطراب:

- أنا مش هرجع، اسمي "محمد"، مش "الحارس". سامعني؟ أنا مش خايف منكم!

ابتسم "أراس" ببرود، يبصق الدماء التي تجمعت في فمه من جراء اللكمة الأخيرة، ثم تحدث وهو يتنهد ببرود:

- لك أن تتحدث كما تشاء، ولكن أنت أي "محمد"؟ هل بشهادتك الأصلية "محمد عادل الجبالي"، أم بالبطاقة المزورة "محمد نوح"؟ يمكنك أن تكون كل شيء، ولكن ستظل في حقيقتنا "الحارس". هل تتذكر "أرسلان"؟

كان بداخله فلاح ممسك بمنجل، يقطع كل بذرة سعادة تنبت في قلبه كأنها حشائش ضارة. سحب "محمد" خصلات شعره للخلف، وتحدث بسخرية لاذعة:

- مين ينسى "أرسلان"؟ صاحب كتاب "كيف تدخل جهنم في عشر خطوات".

واصل "محمد " حديثه، نبرته لم تفقد هدوءها رغم كل الخوف الذي يملأ أعماقه، كان يعلم أن النهاية قريبة، وأنه لن يقدر على مواجهة تلك الرياح، لكنه لم يظهر ضعفه:

- ما الذي تريده مني يا "أراس"؟ لما هربت من "عدنان" وانتوا خطفتوني بأمره، كان ليكم مصلحة فيّ، فما بلاش تقنعني إن الحداية بترمي كتاكيت.

تنهد "أراس" بعمق، يخفي عينيه وكأن مجرد النظر في وجه "محمد" يوقظ فيه رغبة الانتقام. لم ينسَ أبدًا أن فعلًا طائشًا أدى إلى مقتل حبيبته. تحدث بنبرة حادة، يملؤها الرهب:

- عندما اختطفتك، لم يكن بأمر "عدنان"، لأنه مجرد فرد، ونحن الفرع الأقوى وأنت تعلم. أريد روح "ست".

قهقه "محمد" بقوة حتى انقطعت أنفاسه، ثم نظر له متعجبًا:

- عاوز تفهمني إن كل ده علشان عايزين واحدة ست؟

أخرج "أراس" سلاحه بلحظة تهور، وعينيه تنبضان بالانتقام، وصوب فوهة السلاح نحو رأس "محمد". وقبل أن يضغط على الزناد، رفع السلاح وصوبه في الفراغ، عيناه ممتزجتان بالأوردة الحمراء، وعروق جبينه بارزة وهو يخنق عنقه بقوة:

- لا تختبر صبري، "محمد". إياك وأن تفعل هذه السخافات معي. أريد روح الإله "ست"، وأنت ستجد لي مقبرته. وإن لم تُخرج روح "ست"، سأفنن في أرواح أحبائك.

دفعه "محمد" بقوة وهو يلهث، يشعر بأنفاسه تكاد تنقطع. رفع رأسه ونظر له بعمق، قبل أن يتفهم حديثه الأخير. اندفع نحوه يسدد له اللكمات بعنف، حتى امتزجت الدماء بالرمال تحت أقدامهم:

- أقسم بالله لو لمست حد مني، مش ها تشوف يوم بعدها.

نظر له "أراس" بسخرية، وهو يتنفس بحقد، ثم تحدث بنفاذ صبر:

- اسمعني يا "حارس". روح الإله هنا، في أراضيكم. ومهمتنا منذ خمس وأربعين سنة هي أن تحرر روح الإله "ست". إله الصحراء والفوضى. وأنت من ستفعل هذا. الروح ستتحرر لتعود لنا سيادة الأرض، وسيخبرنا الإله عن الكنز الذي تركه من "رع".

لم ينتظر "أراس" ردًا. نظرته الحادة شرحت كل شيء. عاد إلى سيارته وانطلق بها يمزق أرض الصحراء بإطاراتها السوداء. يعلم أن "محمد" لن يوافق، لكن ليس بيده حيلة. هذه الأرض المصرية تحمل أسرارًا وخفايا لن يهتم بها سكانها أبدًا. هم مجرد أناس عاديين، لكن أصحاب الأرض الحقيقيين لم يكونوا مثلهم. الأرض تحتاج إلى الأعظم، إلى من يعرف سرها، وتحتاج لحاكمها الأول "ست".

أما "محمد"، فقد كان لا يزال واقفًا بذهول، يحاول أن يجد طريقًا للهروب ولكن اين النهاية!؟، والى أين يذهب اين يمكن ان يبكي بلا لأئمة اين تنتهي تلك المعاناة لو كانت في اخر الأرض سيذهب لكنها تنتهي .

لكن وان طالت الحروب وكثرت، ستظل رغبته الوحيدة ان يعيش المتبقي من عمره في هدوء وسلام بين سرب الحمام.
يحلق في السماء يطير مرة ويسقط في الاخري
يتعافي و ينجرح ويشفي، لعله يحقق حلم هذا الطفل اليتيم بداخل قلبه.

من خلف النافذة، تسللت أشعة الشمس الأولى كخيوط من ذهب رقيق، تلامس زجاج النافذة برفق، وتنساب كأنهارٍ من نور في الغرفة الهادئة. كانت السماء تكتسي بألوان الفجر المتوهجة، درجات من الوردي والبنفسجي تتمازج في تناغم بديع، كلوحة رسمها فنان ماهر على قماش الطبيعة.

"أمير " الواقف أمام النافذة كان غارقًا في صمته، يتأمل شروق الشمس بنظرة تائهة، عيناه تغوصان في الأفق البعيد ولكن عقله كان في مكان آخر، مكان ممتلئ بذكريات لا تُنسى. كانت تلك الأشعة التي بدأت تضيء الكون من حوله تشعل في داخله نار الذكريات، تجلب معه وجع الأيام الماضية وحنينًا لأوقات لم تعد إلا أطيافًا في الذاكرة.

توقف الزمن للحظة، وكأن الشروق نفسه قد تجمد في تلك اللحظة، ليترك المجال لروحه الهائمة لتتجول في أزقة الماضي، والده الذي رحل ذنب أخيه الذي تعلق بعنقه، تضارب مشاعر هل كان يحب والده!؟، كيف يحبه بعد كل ما رآه في حياته تعنيف لوالدته أهمل في حياتهم لم يكن يهتم له او لأخيه كان يهتم لنفسه فقط، كل تلك الصور تتراقص أمامه كأشباح من زمن بعيد، تسرق منه لحظات السكون وتغمره بشعور عميق من الحنين.

تحدثت من جانبه "جيداء" التي كانت تجلس فوق السرير بحاله يرثي لها هالاته السوداء اسفل عينيها عينيها التي كستها الحمرة:

- ها تفضل وقف في الشمس كتير!؟

عاد بنظره إليها وهو يتأمل ملامحها كيف وصلت الى تلك النقطة كيف تحولت الى كل هذا البؤس والاسي أجابها بهدوء وهو يتنهد بنبرة ملائها الحزن والاسف لأجلها:

- وأنتِ ها تفضلي كده!؟، "جيداء" إحنا إيه اللى عمل فينا كده!؟، انا اعرفك من ست سنين متجوزين من خمس سنين، مرينا بمشاكل و ضغوطات بس انتِ عمرك ما اتغيرتي .

أشعة الشمس استمرت في الارتفاع، تعبر النوافذ لتلامس كل زاوية من الغرفة، ولكن هناك جزء في قلبه لم يصل إليه الضوء بعد، مكان مظلم يتشبث بذكريات عالقة في أعماق الروح. ومع كل لحظة تمر، كان يدرك أن شروق الشمس من النافذة لن يمحو تلك الذكريات، بل ربما يسلط عليها الضوء ليظهرها بألوان أكثر وضوحًا.

قهقهت بدون قصد قبل ان تتألم وهي تمحي عبراتها حاولت "جيداء" النهوض قبل ان تتعثر في طرف الفراش؛ بسبب تشوش رويتها امسك بها وهو يحتضنها قبل أن تتحدث بحزن وهي تبكي بهدوء:

- أنا مكنتش كده يا "أمير" لم عارضت أهلك واتجوزتني وانا مليش أهل و متربية في مدرسة داخلية مكنتش كده. لم تزلت من الأردن وخرجت من المدرسة كنت متحمسه كنت حاسه اني عاوز اعيش .

أمسك بيدها وهو يقبلها يحتضنها بشدة وكأنها تسلب من بين يديها، لو كان بإمكانه ان يخفيها بين اضلعه من هذا العالم البائس، تحدث بهدوء صادقاً وهو ينظر لها:

- أنا أهلك، مش عاوز حد غيرك، مش عاوز أطفال انت بنتي، أنا ابوكي و عيلتك لو تسمحيلي عمري كله في حضنك يبقا جنه يا "جيداء" أنتِ مني حته مني .

في تلك اللحظة، بين ضوء الفجر الساطع والذكريات المتدفقة، كان يعرف أن الزمن يمضي، ولكن ما في القلب يظل راسخًا، كأن الشروق من النافذة ليس إلا بداية ليوم جديد من التذكر والتأمل، حيث تبقى الروح معلقة بين الماضي والحاضر.

رمقته "جيداء" بهدوء وألم وهي تتامل تفاصيل وجهه الذي لم يكن غريباً عنها في يوم كان دائماً مالوف من اللحظة الأولي:

- " أمير" إحنا لازم نطلق علشاني و علشانك .

فزعت روحها من كلماتها وهو يرمقها بأعين جاحظة آخر ما توقع سمعه منها هو تلك الكلمة، أمسك بيدها وهو ينظر له بحيرة و حسرة متحدثاً بقلق:

- لا مستحيل، أنا مش ها طلقك محدش بيستغني عن روحه، مش عاوز أطفال دول ناس هتبقا غريبة عني إنما انت روحي أنتِ أنا مش هسيبك علشانهم مش عاوز .

رفرفت باهدابها وهي تستمع الى حديثه لم تتوقع رد كهذا منه أبداً بداخل عينيها الدمع ينهمر، و داخلها النيران تشتعل لا شيء يرضي قلبها، لا يوجد من يواسي روحها هل كتب عليها ان تعيش هكذا!!؟، معلقة في الاشيء لا تنتمي لي احد، تحدثت بحيرة و تساؤل قائلة :

- هو انكتب علينا نعيش كدد!؟، متعلقين في النص، لم كنت في المدرسة كانت المشرفة دائما تقولي ان الانسان عندها عائلتين، عيلة اتولد فيها مخترهاش ودي مكنتش عندي، و عيلة بيكونها هو بشريكة و أولاده وأصحابه، انا ربنا حرمني من الاتنين ان يكون عندي أب و أم، او حتى أولاد، بس عوضني بيك أنت.

هل كتب عليهم ان تكون كل احلامهم مجرد تأمل!؟، أن يظل سعيهم على قارعة الطريق ولا يوجد طريق أخري للوصول!؟. مضت كل تلك السنوات في العناء إذاً اين ينتهي العذاب .

أردفت تمل حديثها وهي تعيد خصلاتها المشعثة للخلف تبتعد عنه بهدوء، تبست بألم وهي تشعر بالذنب اتجاهه:

- بس انت ذنبك إيه تعيش مع واحدة زيي، مليش اهل محبطه عندها hipolar "ثنائي القطب" و مش بتخلف، و متقلبة المزاج ....

وضع يده فوق فمها يقطع حديثها وهو يتحدث بابتسامة مراوغة يُقبل يدها ينظر لها بتامل وكانه لوحة فنية مليئة بالحياة، تحدث بنفاذ الصبر وهو يشاغبها :

- شوق هتقوليلي مش بتخلفي، مريضة نفسية، بعين واحدة مارد وشوشني شوقي لو عملتي ايه انا لزقت فيك خلاص مش اتجوزنا بيقا انا لزقة انجليزي .

ابتسمت له قبل أن يقترب منها وهو يدغدغها بطريقة مفاجأة جعلت ضحكاتها تصل حد السماء وهو يحملها ألقاها فوق الفراش وهو يجلس بجانبها يمسد فوق خصلاتها ورغم كل الألم بداخله أبتسم وهو ينظر لها .

تحدث "أمير" بحماس وهو يتنفس الصعداء قائلاً بمزح:

- اعملي حسابك اني هعجز جمبك هنا، فنستحمل بعض كده واهو كلها كام سنه يعني أصلع و سناني تقع و نقضيها بقا مسكنات انا عندي شغف اشوفك وانتِ عجوزة .

جلست بداخل أحضانه وهي تضحك على حديثها بينكا هو كافح العالم بصوت ضحكاتها، ربما لا تريد من يحارب لأجلنا بقدر ما نحتاج من يعد لنا الإبتسامة من ياخذ الحروب لأجل ابتسامتنا ربما لا يوجد أحن من لحظات الحب .

في قلب المدينة النابض بالحياة، كان هناك مستشفى يبدو للوهلة الأولى كملاذ للأمل وراحة المرضى، لكن خلف جدرانه المهيبة كانت تكمن شبكة من الشرِّ تتنكر في ثوب الإنسانية. كام "سيف" طبيب في أوج شبابه في لحظات لن تعود مع العمر ، وقف في أروقة المستشفى وكأنّه نحاتٌ يراوغه صخر الصدأ، محاولًا تشكيل كل جرح في جسد المرضى. لم يكن عمله مجرد مهنة، بل كان رسالته، تلك الرسالة التي صاغها قَسَمُ أبقراط، منذ ولدته مصاباً بالربو وهو اقسم على نفسه لن يترك طفل يتالم .

ذات مساء معتم، حينما أرخى الليل عباءته على المدينة، جلس "سيف" في مكتبه، محاطاً بأوراق طبية مبعثرة وأقلام متوهجة، وأضواء المكاتب الخافتة تُلقي بظلالها على جدران المكتب. هوى بصره على ملف يحتوي على تقارير طبية، ومجموعة من الصور التي كانت تُظهر أعضاء بشرية غير مُعلَمة، مُرفقة بأسماء وهمية وأرقام مشبوهة. كان الأمر أشبه بخيانة لمبادئه، وخياناتٌ كهذه لا يمكن أن تمرّ بلا ثمن.

حين تذكَّرَ "سيف" ليلتها وعوده الأبدية في سبيل إنقاذ الأرواح، تضربه الحقيقة القاسيه كل ابتسامة كان يزرعها على وجوه المرضى لم تكن سوى جزء من حلقة أوسع تتلاعب بالأرواح بلا رحمة. المخاوف التي بدأ يراها على وجه زملائه، والحديث الذي سمعه همسـاً بين الأروقة، بدأت تأخذ شكلًا مقلقًا.

صوت عالٍ من الباب أخرجه من تأملاته؛ كان "حمزة الوايلي" الذي اخذ من وشاح الطب ساتر لافعاله الدنيئة:

- أنت لسه هنا يا "سيف"!؟، إيه يا راجل الدقة في العمل دي دد انت حتى لسه في التدريب .

زفر "سيف" بقوة وهو ينهض من خلف مكتبه الخشبي قائلاً بغضب:

- دكتور "حمزة" اظن وجودي في المستشفي مش تعبك اوي ولو تعبك عادي مش فارق .

رمقه "حمزة" ببرود وهو يقترب منه قائلاً بتعجب من طريقة حديثه وهو يراوغها:

- أنت من امتي بتتكلم كده يا دكتور؟؟

أبتسم له الثاني وهو يتذكر حديث صديقه "محمد" رفرف باهدابه بعدم مبالاه وهو يتحدث بصوت منخفض يهمس باذن الاخير:

- تسمع عن " محمد الجبالي"!؟، معتقدش لأن اللي زيك مبعرفهوش، من الاقوال المأثورة لصحبي، طول ما انت ماشي صح حط صباعك في عين التخين، ولو ماشي غلط بردو لان محدش له عندك حاجه .

حنق وجه الأخير وهو يتفهم مغزي حديثه نظر له بنظرات حادة وهو يخرج من العرفة حفاظاً على ماء الوجه من هذا الوقح .

بينما وصل "حمزة" الى قبو المشفي بخطوات حذره وهو يلتفت حوله بقلق، نظر حوله الى المساحة الواسعة التي تحمل كل خطايا ما فعلوه .

انتبه الى "لؤي البغدادي" ضابط الشرطة الفاسد صديقه القريب و زوج شقيقته، تحدث ببرود وهو يشيح نظره للفراغ:

- أنا خلصت كل الاجراءت اللى هتسفروا بيها الاعضاء، و ظبطت الكماين علشان متتمسكش بالاعضاء.

اقترب منه "حمزة" وهو ينظر حانقأ الوجه يرفرف باهدابه بعدما استيعاب لغباء الاخير، نبس باندهاش من غباءه:

- بص يا "لؤي" امسك مايك يا أخويا، و صرخ بقا براحتك قول أننا بنبيع اعضاء بقا براحتك كده و يلا نروح تقابل عشماوي بالمرة ما أنت مزقوق عليا والله لو قاصد تفضحنا مش ها تعمل كده.

نظر له بإحباط وهو يتركه خلفه و يرحل متقدم لإمام بستياء:

- دايما كده جايبلي احباط، مش كفاية المكان اللى قابض روحي ده .

جاء من الخلف "أسماعيل الشاعر" مدير المشفي او المجزار لو كان الامر أصدق، و "أنور الصياد" صاحب المستشفي والمدير التنفيذي لها كان وجودهم في هذا المكان يعكس حقيقتهم ضابط فاسد، و طبيبان قتلين، و رجل أعمال قذر، في مكان قذر يتجمع فيه أحقر فيئات البشر لكي تسرق من دماء غيرها .

تحدث "أنور" يتساؤل وهو يتنهد بنبرة حادة :

- كل حاجه تمام ؟؟

أجابه " إسماعيل" بابتسامة واثقة وكأنها اختراع حل للعالم تفوه بفخر واعتزاز:

- كل حاجه تمام و على اكمل وجه، بس انا مش فاهم ليه نتعاون مع "انس" ونسيب "عدنان" بيه ده كان بيسهل علينا كل حاجه .

رمقه "أنور "بنظرات حادة وهو يقترب منه بهدوء قبل ان يلكمه بقوة في وجهه وهو يتنفس بغضب، تحدث بغيظ وهو يمسكه من ياقة ملابسه:

- غبي أنت غبي، أنا قولت الف مرة محدش يناقشني في قراري، دلوقتي الكام عيل إللي عندكم بكرا الصبح يكونوا جاهزين، و ياريت تستنضفوا شوية بلاش المقرفين اللى كلهم أمراض دول .

بينما "سيف" الذي تجمدت أنفاسه وهو يقف خلف الجدار يستمع لحديثهم، وعقله صارع بين رغبته في الانسحاب والحفاظ على المهنة التي أحبها، لكنه شعر بثقل المسؤولية، وكأن تلك القيم التي لطالما آمن بها تضعه في صراع مرير، يواجه الطبيب قدره برباطة جأش، يعرف أنه في حال كشف الحقيقة، سيواجه قوى تفوق قدراته، لكنه في ذات الوقت لا يمكن أن يغضَ الطرف عن هذا الظلم.

كانت تلك اللحظات هي لحظة المفصل، حيث يتحدد مصير دكتور "سيف" هل سيظل صامتاً، آملاً في النجاة، أم سيتحلى بالشجاعة للكشف عن تلك الجريمة والوقوف في وجه القوة التي تهدد شرف مهنته؟

نظر حوله بترقب وهو يستغل انشغالهم ثم تقدم مسرعاً بخطوات حذره وهو يقرر في نفسه إنقاذ ما يمكن إنقاذه من هولاء المساكين، تذكر الصحيفة التي دونوا بها إسم صاحب العملية ويومها اليوم مقرر ان يقتلوا روح "تصار" و بعد عشر ايام هناك فتاة اخري، ولكن عقله اللعين في تلك اللحظة فقد قدرة التذكر في اي غرفة يوجد هذا الشاب، ظل يتخبط بالغرف و هو يبحث عنه في كل مكان بلا امل فمن المستحيل ان يبحث في اربع طوابق بهم اكثر من ثمانين غرفة و لا يعثر عليه أحد، و الأكثر من ذلك ان وجده كيف سيخرج به من المشفي كيف سيخرج من بين انيابهم.

الغرفة رقم "٥٣" دلف للغرفة بهدوء وهو ينظر حوله وجد اربع من اسرة بهم إثنين من الفتيات و فتيان تحرك للداخل وهو يتحقق من أسماهم، المدونه أمام كل مريض، حاول بشت الطرق ان يفيقهم رغم علمه بأنهم تحت تخدير قوي جداً لن يؤثر بهم أي شيء يفيقهم، وأخيراً سقطت عينيه على "تصار" شاب في التاسعة عشر بملامح حادة بداية من طول قامته وجسده الذي رغم كونه هزيل إلى أنه قوي في بنيته.

فتح عينيها ببطئ بوهن شديد وهو يتنفس مثل الأموات نظر الى "سيف" الذي يقف أمامه يحدق به بتعجب قبل أن يهمس بصوت خافت:

ـ قوم معايا بسرعة معايا يا "نصار" .

رمقه ببرود وهو يدير ظهره ووجه بعيداً عنه بلا مبالاة تحدث ببرود فاتر :

- عاوز ايه!؟، هما مش هيسرقوا اعضائي!؟، عادي سيبني أنام بقا علشان التكيف حلو هنا .

بينما "سيف" الذي اتسعت عيناه بشكل لا إرادي، وارتفع حاجبيه حتى لامست جبهتها تقريبًا تحدث بتعجب و شفتيه متدليه من الصدمة وظل فمه مفتوحًا دون أن ينبس بكلمه:

- أنت بتهزر ولا بتتكلم جد علشان مش ناقصة توتر بجد ؟؟

تحدث "تصار" بفتور لا يبالي بما يحدث يخشي هذه الجدران التي زرعت في قلبه واوصاله ولا شيء اصعب من الخوف، ان تتحرر بعد فوات الاوان لا تعلم ما هي الحرية ولا تدري كيف تحي حر، ماذا سيفعل الضوء في نظر الاعمى، ماذا سيغير الهواء في شخص تعود على التخفي، تفوة بعدم انصات بدون اهتمام لحياته:

- أصل إيه الفائدة، أهرب معاك وارجع فين!؟، الشارع بص يا بيه أنا ولا ليه أب ولا أم ولا حتى بيت يلمني لو رجعت كده كده هموت من الجوع من المرض هيتقبض عليا اقلها لو موت هنا أنا والعيال دي هنلاقي حد يدفنا ولا إيه رأيك!؟

كان يتحدث بلامبلاة بينما هو يشعر بالام من حديثه كيف لهذا الشب الذي مازال في بداية عمره ان يتحدث بهذه الفظاعه!؟، مالذي مر به ليكون مستسلم هكذا!؟، ربت فوق ذراعه قبل ان يتحدث، لكنه فجأة سقطت عينيه على يده، تجمدت ملامح وجهه في تعبير غريب، يجمع بين الدهشة والارتباك .

رمقه بتعجب وهو يرفع يده يقرأ هذا الوشم الذي دون فوق يده، تحدث بتساؤل وهو ينظر لها بشك يتذكر أين رآه هذا الوشم من قبل :

- هو إيه الوشم اللى على دراعك ده ؟؟

اجابه ببرود وهو يذم شفتيه قائلاً:

- معرفش أنا لقيت نفسي كده، ويلا بقا يا دكتور بدل ما تودينا في داهية .

وفجأة عاصفته الصورة أمام عينيه هو ذاته الوشم الذي تخلص منه 'محمد" منذ أشهر هذا يعني أنه، كيف هل يكون "نصار" أحد الأفراد من هؤلاء تحدث بسرعة وهو يساعده على الوقوف:

- يلا نهرب من هنا بسرعة يلا قوم معايا .

أبتعد عنه " نصار" وهو يخلص نفسه من يده قائلاً بغضب يبتعد عنه وهو يحارب آلامه ودموعه تنهمر فوق وجهه:

- مش همشي من هنا، مش همشي واسيب اخواتي يموتوا ينموت سوا ينهرب سوا، سابني بدل ما اصوت و كلهم يجوا هنا .

وعلى حين غفلة غرس الحقنه بعنقة وهو يضخ المخدر بين اوردته و لكونها في حاله من الوهن ومازال المخدر بجسده سقط فاقد للوعي بدون حركة، رفعة"سيف" وهو يسنده على كتفه قبل أن يضعه فوق السرير و ذهب للخارج يجلب كرسي متحرك وهو ينقل جسده فوق الكرسي وغطي وجهه بمسك طبي ثم اخذه وأسرع بين اورقه المشفي يهرب به .

في تلك اللحظة، أدرك "سيف" أنه في قلب المعركة

الحقيقية، معركة لا تقاس بالأسلحة ولكن بالقلوب والنبل، وأن خياره سيحدد مصير الكثيرين، كما سيفعله هو بنفسه.

في سكون الليل، حيث الهدوء يملأ الفضاء، وقف "محمد" على عتبة منزل "عادل" يفترض أن يكون منزل عائلته لكن على العكس هو منزل غريب، لم يأتي هنا الى لأجلها لأجل سعادتها لكي لا تنقص بسببه. التقت عينيه بأعين"ياسر" الذي كان جالساً بصحبه "عادل " في الحديقة،صرخات الغضب والحزن تتردد في ذهنه وهو يرفع يده لطرق الباب كان القلب يثقل في صدره، كل دقة من دقات قلبه كأنها تدق على بوابة ماضيه البائس.

عندما انفتح الباب، كأنما سقطت عليه ضغوط العالم. وقف أمامه "سوزي" الذي على ما يبدوا كانت هل الأخيرة تود الخروج بينما هو يدلف لوالدته "حسناء" ، عيونها ترمقه بتشكك كان يعلم أنه لا تحبونه، بل تنظر إليه كغريب لا مكان له بين أفراد عائلتها العظيمة . كل نظرة منها كانت كسهام نارية، توخز قلبه.

تقدم بخطوات ثابتة، عازماً على المضي قدماً رغم التوتر الذي كان يملأ أرجاءه. ألقى تحية رسمية، لكن الكلمات التي خرجت من فمه بدت وكأنها تُنقش بأصابع من حديد، مرسخة عزمًا لا يتزعزع.

تحدثت "حسناء" التي أسرعت اليه وهي تحاوط عنقه بيديها وهي تحتضنه بحنان وهي تعاتبه:

- إيه يا حبيبي كل ده متجيش تشوفني يا "محمد"؟؟

عانقها بشدة لن تعلم أن بهذا العناق يتمسك بالحياة يعود إليها مرة اخري في اللحظات الصغيرة تلك يعود به الماضي، عندما كان طفل يتمني عناق والدته الآن أصبح شاب ومازالت الرغبة بداخله .

أجابها "محمد" بعتذار وهو يجلس بجانبها مبتسم الثغر لها رغم شعوره بالقلق:

- حقك عليا، كنت مشغول مع "هاجر" في تحضيرات المعرض و الحفلة .

هبت من مكانها وقفت امامها وهي تزفر بغضب تحدثت "سوزي" وهو تجز فوق أسنانها بغيظ:

- إللى في دماغك مش ها يحصل يا "محمد" مش ها سيبك تضيع كل إللى عملته .

"أنا هنا لأجلها"، قال بصوت عميق داخل قلبه وهو يغرز اظافره بكف يدهِ يمنع نفسه من ارتكاب اي حماقة، لم ينتبه لـ"عادل" الذي جاء من الخارج مع "ياسر" على أي حال كان يعلم ان المشاجرة ستأتي على اي طريق .

تحدث "محمد" بصوت هادي يحمل بداخله تحدي لنفسه قبل ان يكون لها :

- و حياة عيون بنتك الخضراء اللى موقعاني من الدور العشرين، و أللى خلقها ملاك من عيلة زيكم كده، و ربنا إللى زرع حبها في قلبي، مش ها تقدري تفرقينا عن بعض مهما حصل، مستعد اضيع سنين علشان أكون حد يستحقها ولا إني اسيبها ليكي.

كان صوته هادئاً وقوياً، لكن مع كل كلمة كان يشعر وكأنه يحمل عبء العالم على كاهله. لم يكن الأمر مجرد اختبار لعلاقته، بل كان معركة بين حب صادق وكراهية غير مبررة.

رمقته بغضب وهي بالكاد تتحمل ان لا تقتله، ثم عادت إلى طريقتها المعتادة في النواح وهي تنظر الى شقيقها قائلة بشكوه:

ـ شايف إبنك!؟، شايف بيقول إيه أنا مش ها تكلم علشانك.

زفر بقوة وهو ينظر لهم في هذا الاختبار ام أن يخسر احد منهم او يخسرهم معاً .

بينما "محمد" الذي استغل فرصة سحب الانظار من عليه هبط بجسده ليصل إلى أذنها قائلاً بمكر قاصداً ان يغيظها:

انتي مش عارفه انا مبسوط ازاي ان كلامي ده ضايقك، حاس بسعادة فظيعة يا حماتي .

صعقت عينيها وهي تنظر له بصدمة وقبل ان تهوي بيدها تلطم وجهه كان هو يمسك بيدها قائلاً ببرود:

- بتستخدمي إيه للبشر يا حماتي مش باين خالص انك ستين سنه؟!

استمع الى صوت ضحكات مرتفعه صدرت من "ياسر" و "حسناء" التي لم تستطع منع ضحكتها بعد حديثها .

بينما "عادل" نظر له بصدمة وهو يطالعهم بغباء قائلاً:

- عجبك كده!؟، "محمد" احترم نفسك و اتلم .

رمقه "ياسر" بغضب وهو يضربه في كتفه متعجب من فعله قائلاً بسخرية:

هو عمل حاجه!؟، ده انت بابا غنوج ممكن يكون أب احسن منك .

لم يهتم "محمد" بحديثهم وهو يخرج دعوات الزفاف مزينة برسومات ذهبية:

- دي دعوات المعرض و الحفلة، هو مش فرح اوي بس بعد المعرض هنخرج نحتفل و منها الناس تعرف بردوا .

كانت نظرات "سوزي" له تشع النيران الآن فقط تندم أنه لم تحرقه وتتاكد انه بالمنزل يومها، لكنه كان دائما الحظ حليفاً له، يتم خطفه ولكنهم لا يقتلوه ويعتبره فرد منهم، يهرب و تحرق به المنزل يموت اصدقاءه وهو لم يصيبه الا بعض التشوهات ولكن الآن لا مفر من موته .

اخذت الدعوة من يده وهي تقترب من موضع اذنه تبسها بحقد :

- عقبال ما يكون عزاءك واشربها سادة على روحك .

أبتسم لها وهي تخرج من المنزل صاح بصوت مرتفع قائلاً بتحدي يمكر لها بنظراته:

- مش قبلك يا حماتي اتكلي على الله و هعملك عزاء متعملش لملكة بريطانيا حتى .

ضمته "حسناء" بقوة سعيدة لأجله، ربما شعور الأمومة هو أجمل ما مرت به و أقوي ما تمنته تشعر بالفخر بكل شيء يفعله بكل نظرة حتى سيظل صغيرها حتى لو لم تكن تراه وهو طفل في يوم .

بينما "عادل" الذي ضغط على نفسه وهو يقترب منه يحاول أن يضمه، تفاجأ بالاخير يضع يده فوق كتفه يبعدها عنها وهو ياخذ خطوة للخلف .

عاد خطوة للخلف هو يحتفظ برائحة الاشياء جيداً لديه أنف لا تنسي، يعرف رائحة من يحب من ملابسهم، يعرف رائحة الخوف، رائحة الحب، رائحة الغدر، رائحة الشتاء، ولكن تلك الرائحة مختلفة ستظل أسوأ رائحة في حياته لو كان بإمكانه لقطع أنفه لكي لا تتذكرها، رائحة التخلي و الفرق رائحة الخذلانه، سيظل يعد المشهد امامه وهو يتركه يهزمه يومها وهو طفل ليت رائحته احترقت كم احترقت روحه .

جلس "عادل" بجانبه بينما "حسناء" التي دلفت للداخل لكي تعد مشروب لهم، كانت الأجواء متوترة بينهم لا أحد ينظر بعين الأخير وكان كل هزائم تتولى على المكان .

تحدث "عادل" وهو يبتلع ريقه بتعب حزن من داخله يحاول إصلاح كل تلك الاعباء التي امتلأت بقلبه تبس بحيرة وهو لا يستعد للكلمات:

- أنت عاوز إيه يا "محمد"!؟، كل اللي بتعمله ملوش علاقة ببعض .

عاد للخلف بظهره وهو يزفر بضيق تفوة بما يكنه في قلبه واوصاله:

- عاوز أمي تكون معايا، عاوز "هاجر" عاوزهم مبسوطين غير كده ميهمنيش .

تفهم "عادل" حديثه وهو ينظر له بهدوء، حاول تدارك الأمر و بدون بداية واضحه يحاول ببعض الكلمات اصلاح سنوات، ربت فوق كتفه وهو يتحدث بحنان:

- أنا عارف أن كل إللي عشته مكنش سهل، تعالى نبتدي من جديد، أنا ظلمتك لكن نظرتي كانت غلط .

لكنها لا يعلم ان الف اعتذار لا يكفر ذنبه، لا يداوي جرحه، لا يكفي أنه ظل يبحث بين الطرق عن الأمان ياخذه خلسه من هناه و عنوة من هناك، يتقاسم فتات الامان من العابرين وكانه لاشيء جعله متسول يبحث عن الامان عن الدفي عن العائلة .

لأول مرة وضع عينيه بعينه وهو يدقق النظر داخلهم انهزمت روحه، هل هذا ما يستحقه!؟، كلمات هادئة بدون اعتذار حتى!؟، بدون عناق يشفيه من الالمه!؟، بدون ان ينتقم لأجله بدون ثأر لم فعلوه، أهذا ثمن معاناته!؟، للمرة الأول تراوضها رغبة بالانهزام أن يلقي بروحه بداخل عناقه ويبكي، أن ينطق و يقوله له " أنظر ماذا فعلوا بي يا أبي" يريه روحه التي احترقت يتحدث و يتحدث حتى تنفذ الكلمات، لكنها لم يتحدث أصابه الصمت ظل يحدق به في ريبه يتالم لكنه ثابت، شيء بداخله يموت لا يعرف ما يكون، ربما حلم!!، ربما عناق!؟، ربما سعادة!؟، لا يعلم لكنه شيء موجع شيء ياخذ من روحه شيء لن يعود لأنه لم يكن له وجود .

رمقه "محمد" بهدوء يخفي هذا الجرح القديم بداخله وهو يمد يده بالكارت الخاص بالدعوة، وعلى وجهه بسمه مزيفة متالمة برع في رسمها كفنان ماهر، تبس بهدوء يحمله الألم:

- بكرا الساعة تاسعة ياريت تبقا موجود، هتفرق مع "هاجر" .

وهكذا تنتهي الأحرف وتموت الكلمات يا عزيزي عسي انك لم تكن تعلم، حسرة على قلوبنا الهادئة كيف للكلمات ان تضرب هكذا بعرض الحائط و تنسي تندثر هباء في الأفق وكانها لا شيء تنتهي و تدفن و تظل هي في قلوبنا لم تقل .

كاذبون البشر حين يظنوا أن الحياة قد مضت وأنهم نسيوا وانتهت الذاكرة، ربما يمضي العمر وتمضي الرحلات، لكن شيء ما سيعيدك ربما لقاء، رائحة، انغام، شيئاً غير قابل الاندثار يابي الاضحلال مشاعر صادقة لن تتركك.

وقف أمام باب المنزل، مشاعر متضاربة تجتاحه. كانت الشمس تلقي بآخر أنفاسها على الأفق، تلوّن السماء بمزيج من البرتقالي والأرجواني، وكأنها تبشر بعاصفة من نوع آخر، عاصفة داخلية لا يمكن الهروب منها.

طرق الباب برفق، يداه ترجفان كأنهما تحملان وزرًا لا يُحتمل. الباب يفتح ببطء، ويجد والدته واقفة أمامه. وجهها مشبع بتجاعيد السنين. لكن خلف تلك التجاعيد تكمن حكمة عمر بأكمله. تطالعه بنظرة محبة، يخطو إلى الداخل بخطوات مثقلة، يحاول الحفاظ على اتزانه بينما يعبر عتبة المنزل.

يتجول في أرجاء الغرفة بأعينه، يشعر بضغط السنين يتراكم على صدره. كل زاوية من هذا المنزل تحمل ذكرى، بعضها سعيد، والبعض الآخر مظلم. يجلس على الأريكة العتيقة التي لطالما كانت ملاذه في طفولته، تلك القطعة من الأثاث التي شهدت على كل لحظة مهمة في حياته.

تحدث "أمير" وهو يشعر بالنيران تلتهم روحه ينظر لوالدته بخفوت متحدث بصدمة على حديثه:

- "زينة" قبلت دكتور "خالد" ..

كانت تقدم له كوب من العصير لكنها توقفت فجأة، وكأن صاعقة نزلت عليها، وظهرت على وجهه علامات الارتباك والدهشة،اهتزت أطرافه، وبدت على ملامحه تساؤلات لم تجد لها إجابة، نبست "ملاك" بدهشة وهي تطالعه:

- و عملت ايه!؟، حد عرف حاجه !؟

أنفاسه تتسارع، ويشعر بثقل غير مرئي يضغط على كتفيه. يغمض عينيه للحظة، يجمع شتات أفكاره، ثم يفتحها مجددًا، جاهزًا لمواجهة الحقيقة. يضع يده على جيبه، يخرج شيئًا صغيرًا وقديمًا، يحمل في طياته سرًا عميقًا، سرًا دُفن لسنوات طويلة.

نظرته تتجه نحو والدته، التي تقف بعيدًا، مراقبةً بصمت. يشعر بالزمن يتوقف للحظة، كأن العالم بأسره يترقب ما سيحدث بعد ذلك. يضع الشيء في وسط الغرفة، وكأنه يقدمه كقربان. يعود ليجلس، يشد قبضتيه، يحاول السيطرة على ارتجاف يديه، بينما يملأ الصمت المكان.

تحدث "أمير" بضطراب وهو ينظر لوالدته بحزن لم يجد وصفاً له :

- ها يعرف إيه!؟، أنتِ عارفة انه نسي كل حاجه، عارفه دي إيه يا ماما!؟، دي الرصاصة اللى اتقتل بيها أبويا لسه محتفظ بيها لحد دلوقتي.

اجهشت بالبكاء على الحاله التي وصل إليها أولادها ليتها لم تقضي هذا العمر، كل شيء حدث بسببه كل شيء انتهي بسببه هو لعنه اصبتها و اصبت أولادها بالخريف .

تحدثت "ملاك" ببكاء وهي تنهار بجانب قدمه تمحي دموعه اصابتها هيستريا وهي تفقد املها من هذا الوضع:

- قوله الحقيقية يا "أمير" قول للناس كلها بس متعملش في نفسك كده، قول يا "امير" قول يا أبني حرام عليك نفسك قول .

ركل الطاولة بقدمه وهو يهب من مقعده واقفاً قبل ان يسحب خصلاته للخلف بقوة يحاول منع نفسه من كل هذا الضغط اقترب منها وهو يمحي دموعها قائلاً بصوت مهموس ينطق بجرمها:

- أقوله انك قتلتي أبوه يا أمي قتلتي أبونا، واني عارف كل السنين دي و مشاركك!؟

السكون يلف الغرفة، بينما الغروب في الخارج يودع اليوم الأخير من حياة سابقة، مفتتحا بابا جديدا، باب الحقيقة.

في عمق الليل، جلست "رحاب" قرب سرير ابنها، تحكي له قصة غامضة مليئة بالأسى والأمل. بنبرة هادئة، بدأت سرد القصة وهي تقرأ من كتابها:

"كان هناك أمير شجاع، لا يعرف اليأس، عزم على العثور على أميرة كان يعتقد أنها ستكون سعادته الأبدية. بعد معارك ونتائج حروب كلفته الكثير من الأحبة، بدأ الأمير رحلته الشاقة نحو قلب الأميرة. كان يركب خيله الجموح، ويتسلق الجبال، ويخوض الأنهار، كل ذلك أملاً في أن يجدها."

نظرت له وهي تغلق القصة و تسرد من خيالها كان الامير تلك المرة هو حبها الوحيد "حسام" وهي الاميرة التي قطعت كل سبل الوصال لعلها تهدأ

وأضافت بلمسة من الحزن: "ورغم كل تلك التضحيات، كان الأمير لا يرى إلا الظلام أمامه. فقد أحباءه، وسعى بشغف نحو الأميرة، إلا أنه اكتشف شيئاً صادماً؛ الأميرة لم تكن تريده. قلبها كان مقفلاً بأسرار عميقة، وكان حب الأمير لا يتجاوز حدود التمني في خيالها."

توقفت للحظة، وكأنها تسبح في بحر الذكريات تتذكر هزيمته بسببه وكل ما عانه تتذكر أسرارها: "في الحقيقة، كانت الأميرة تخفي سراً غامضاً؛ كانت محبطة وسعيدة في عالم آخر، حيث كانت عالقة بين ما يريده قلبها وبين ما يتوقعه منها العالم. كانت معاناتها أعمق من كل الأساطير، ومثلما لم يكن الأمير قادراً على ملء الفراغ في قلبها، لم تكن هي قادرة على مد يدها نحوه."

وبدأت الأم في ختام القصة بلمسة من الشفقة: "وهكذا، في نهاية المطاف، افترق الأمير والأميرة، كلٌ يحمل في قلبه جرح الفراق. بينما الأمير عاد إلى وطنه، مفعماً بالألم والأمل، وتاهت الأميرة في عالمها المظلم، لم تلتقي أبداً مع حب كان يمكن أن يكون مخلصاً. لقد ظل كل واحد منهما يحمل ذكريات الآخر كحلم بعيد، وكأنهما عاشا في عالمين متوازيين، لا يمكن لأحدهما أن يصل إلى الآخر."

قطب الصغير "يزن"جبينه بملل وهو ينظر لها بتعجب منصدم متهكم بملامح طفولية :

- يعني الأمير والأميرة في النهاية مبقوش سعداء!؟

اجابته"رحاب" وهو مسد خصلاته الذهبية باناملها ببتسامة هادئه ملائها الالم:

- أيوة مش كل النهايات وردية، اوقات بيكون في نهايات مفتوحة و تعيسه و رمادية كمان .

أجابها وهو يستعد للنوم بينما تذكر حديث "محمد":

- بس "محمد" قالي أن طول ما احنا عايشين مفيش نهاية، و أن حتى لو اتفرقنا ها تفضل في قصص حلوة عشناها و اسمها ذكريات .

ابتسمت على حديث صغيرها وهي تتركه للنوم بعد ما لثمت رأسه بحنان، في الواقع حبها لم يكن بهذا القدر لأحد غير صغيرها، رغم الظروف الذي انجبته و رغم الصعاب التي بينهم إلى أنه الرابط الوحيد للحياة بالنسبة لها .

لقد نست عينيها على وجهه في اخر لقاء ليت الارض تعود بهم جميعاً.

بينما "حسام" كان يقف في شرفته بجانب شرفتها ينتظر ان تظهر من خلف ستائر الواقع كل يوم ورغم كثرة الشوارع في المدينة، الا أن أقدمه اخذت من شارعها نصيب .

مازال على حاله يمسك بورقة و قلم و يكتب الان هو يكتب كطريقة للمقاومة للنسيان، بعدما كان يكتب لإثبات الحب، وهذه هي اللعنة التي تصيبنا .

حرك قلمه ليكتب اوجاعه:

كلما تجرعت من نسيانك حد السكر وانطرحت أرضاً، واصبح جسدي يتارجح لا يسعفني أمامك، كم طلبتك ان تعودي كم صرخت و حاربت، اقسم انني حاولت و صرخت كثيراً، لكن حبك قاوم بشدة حارب لكي يتركني و يخرج مني، دعوت الله لكي انساكِ لكنني مرتد بحبك لا دعاء لي، كم كتبت وكم بكيت وكم صرخت وكم سكرت و كم ناجيت الله وكم تركتي .

في الأيام الماضية و بعد فراقها انتهي الأمل تاكد بانها لن تعود نسى اخر ليلة نام فيها كما ينام فيها البشر، بدون كوابيس بدون افكار، نسى كيف يكون إنسان، بدأ له الوطن الذي يحرسه غريب، و صوت العالم مخيف، تغيرت السبل للوصول وظل هو يسعي للحب، و للأمن، و للحماية، ولكن دون جدوي، منزله لم يعد مسكن و الديار ليست لنا عاد غريباً في صخب المدينة .

ها هو و مجدداً يهيم بما لا يملك، يتمنها حد الارق و البكاء يمنع دمعه من الانسياب كي لا ينهار ليس وقتها ان يضعف ينهار امام نفسه معلناً ضعفه.

الان اصبحت غريبة، عدت لا تعرفه كان ما بينهم سراب، الآن هو في عالم وهي في عالم لا شيء بينهم حتى لفظ اسمه اصبح ثقيل غرباء الآن.

ظهرت هي من خلف الستائر وهي تنظر للسماء بهدوء خالي منها ومن حماسها اصبحت محبطه ليتها لم تدق طعم الحب يوماً ليتها لم تراه ولم تحبه .

تحدث "حسام" بأمل كهل محبط وهو يطالعها انتفضت أوصاله وهو ينظر لها ينتظر و ينتظر كل انثي به ينتظر، حتى بات الانتظار لا معني له يسال نفسه سؤال واحد هل ما تهواه الروح أبت كي يستريح من أحلامه:

- "رحاب" انا عاوز اسمع منك كلمة واحدة ممكن؟؟

تسارعت أنفاسها واختل توازنها وهي تستند بالجدار تشعر بأن العالم يقف فوق انفاسها، اجابته بهدوء يحمل في طياته احباطها:

- عاوز تسمع إيه يا حضرة الضابط؟؟

كان مفتون بعينيها لماذا لا يره نفسها بهذه الطريقة الا في عينيها!؟، وحين ينظر لنفسه لا يجد شبه له، سوي ملامح بعثرها الزمان، لا يجد الا اعين أرهقت من الانتظار، لا يجد نفسه القديمة لا يجد الا الفراغ .

نبس بحيرة وهو يقترب من حافه شرفتها قائلاً بندفاع:

- البامية بتاعتك احلي ولا بتاعتي يا "رحاب"؟؟

حدقت به بغباء و تدلي فمها للاسفل مندهشه من حديثه، و بدون تفكير ألقت بزجاجه المياة الخاصة بانباتاته في وجهه وهي تصيح:

- تصدق أنك واحد اهبل ؟؟

تركته وهي تدلف للداخل بملل من فعالها الطائش الصبياني لا يلاحظ ابداً ماهم به قبل مزاحه .

وقبل ان تجلس لكي تهدأ من غضبها استمعت الى دقات باب منزلها، في الواقع كانت على وشك أن تخلد للنوم وتتركه يدق الباب حتى الصباح لكنها تذكرت امر أبنها مؤكد سيفيق على صوت الباب؛ لذلك اضطرت أن تذهب لفتح الباب .

فتحت الباب بهدوء متوقعه ان تجد "حسام" أمامها لكنه وجدت "صبحي" أمامها صاحب المسكن هذا الفظ ورغم سنه الكبير إلا أنه مازال كشاب طائش .

عقدت "رحاب" حاجبيها بشك وهي تتحدث إليه بنفاذ الصبر:

- خير ياعم "صبحي" غسيلكم وقع من تحت عندي، ولا عاجبكم المنظر من هنا اؤمر .

أجابها ببرود وهو يضع يده مستند للباب متحدثاً ببرود،تملأ عينيه نظرة شهوانية تعكس جشعه الطامع في جسد الفتاة التي تصغره بسنوات عديدة، وكأنها فريسة بين يديه،يحاول إخفاء رغباته الدنيئة خلف إبتسامة وديعة، لكنه لا يستطيع إخفاء نظراته التي تفصح عن نواياه القذرة:

- مش ها تحني عليا ابداً يا ست "رحاب"؟!، ده انا حتى طالبك في الحلال غلطت يا عالم .

حدقت به بغضب وهي تنتظر حديثه بدهشة، قبل ان تدفع يده للخارج بقوة وهي تصيح في وجهه بغضب:

- أنت إنسان قليل الأدب وحيوان أصلا انا محترمك بس علشان انت راجل كبير .

بينما "صبحي" الذي لم يتاثر مازال يراقبها بنظرات قذرة لا تخطئها عين، وكأنها ليست أكثر من مجرد غنيمة يسعى لامتلاكها، تفوح من عينيه رائحة الخبث وهو يتأمل الفتاة التي في عمر بناته، راغباً في جعلها جزءاً من ممتلكاته الخاصة:

- خلاص لو مش عاوزه جواز و الناس تعرف وهيصة على الفاضي، نضرب ورقتين عرفي و لا من شاف ولا من دري .

صفعه قويه لطمت بوجهه جعلته يرتد للخلف، بينما ظهر شبح من خلفه حاصره من الخلف وهو يلكمه بقوة في وجهه حتى باتت دماءها تخرج من فمه .

تحدث "حسام" وهو يبصق بوجهه بعض أن طرحه أرضاً:

- طول عمري أسمع عن عرة الرجالة أول مرة أشوفه .

رفع "صبحي" جسده وهو يلهث أنفاسه ورغم كل ما يحدث ظل كما هو وضيع ليس له مبدأ او ضمير:

- دي ست مش كويسه يا باشا وهتجرك وراها انت فاهم الموضوع غلط .

صعقت "رحاب" وهي تحتمي خلفه تمنع بكاءها وهي تدعوا الله على هذا الوقح :

- حسبي الله ونعم الوكيل فيك، يا راجل يا واطي .

رفعه من جسده وهو يشعر بكل انش بداخله غاضب يعتصرها تحدث بتهديد و وعيد له يحمل كل الغضب من داخله:

- أسمع يا راجل أنت، انا عمري ما مضيت ايدي على حد اكبر مني وعمري ما افتريت على حد، بس انت و ديني و ما اعبد لو قربت منها تاني مش هسيب فيك حتى سليمه دة غير ورشتك اللى هقفلها يا راجل يا عديم الذمة.

تحدث "صبحي" متهكم بملامح حادة حانقة:

- وأنت لامؤخذه يعني يا باشا بتتكلم بصفتك إيه يعني؟!

بماذا يجيبه هل يقول إنه هو ذلك الغريب الذي يحاوطها من برودة الليل كل يوم بذكرياته، الذي يكره واقعه و يهرب الى منامها في واقع اجمل، هو الصعلوق المتمرد في حبها هو الحامي و سرق الحب هو الذي هُرم لاجل ابتسامه .

تبس بندفاع وهو يتمني في حديثه بقوة:

- انا خطيبها وإن شاء الله شهرين بالكتير وتكون مراتي، و أنا والله في سماء اللى ها يمس طرف من مراتي ها ندمه على اليوم اللى اتولد في .

فر من أمامه وهو يبحلق بهم بدهشة تعثر عدة مرات مترنح من اللكمات التي أثرت عليه بمشاعر محبطه بعدما ذالت رغبته.

اقترب منها وهو يطالعها بمشاغبة وهو يلقبها بإسم جديد مبتسم بتامل وكانه بين يدي رسامه فاتنه:

- إيه يا "رحرح" مشوفتش غضبك ولا شتمتيني لم قولت مراتي إيه شكلك نفسك فيها!؟

جحظت عينيها من حديثه وتدلي فمه الاسفل بدهشه قبل ان تردد كلمته الاذعه:

- "رحرح"!؟، إيه الكلمة دي!؟، و مين دي اللى مراتك دة في الأحلام دة .

أبتسم وهو يدلف لمنزله بعد أن اتخذ قراره الأخير متحدث بحنان:

- أنا الدنيا مقسمتش ليا الفرح غير فيك يا "رحاب" والمرة دي مش ها تنازل عنه أبداً.

و ينفك الزمن، و يهرم الوطن، و تتجلي السماء، ويبقي منتظر ان يحن فؤادها او يرق له عقلها يبقى منتظر بسمة ثغرها و لمسه يدها.

في غرفة صغيرة مضاءة بضوء خافت، جلس خمسة أصدقاء على الأرض حول طاولة خشبية قديمة. كل منهم كان غارقًا في عالمه الخاص، لكن صمتهم كان مشبعًا بمعانٍ أعمق.

سليم، بابتسامة خفيفة على شفتيه، كان يبدو عليه الهدوء. يداه كانت مشغولة بترتيب الأوراق أمامه، لكنه كان يسرح ببصره عبر النافذة المفتوحة، حيث تراقص ستارة خفيفة مع النسيم البارد.

حسام، جالسًا في الزاوية، كان يحمل بيديه صورة قديمة، ويحدق فيها بعينين مليئتين بالشجن. لم يكن يراها فعليًا، بل كان يعيش في ذاكرته، مسترجعًا لحظات كانت تجمعه باحبائه

محمد، كان مستلقيًا على ظهره، متكئًا على كومة من الوسائد، عيونه مغلقة، لكن تعابير وجهه كانت مشدودة. بدا وكأنه يحاول الهروب من شيء ما، صوت ماضٍ يطارده، لكنه في هذا الصمت لم يجد مفرًا.

عز، كان يجلس بجانب النافذة، أصابعه تداعب حبات مسبحة صغيرة بين يديه. عيونه كانت مركزة على الأرض، وحاجباه معقودان، كأنما كان يحاول استشراف المستقبل المجهول. كان قلقًا، لكنه لا يعرف تحديدًا مما يخشى.

أما أحمد، فقد كان جالسًا بعيدًا عن البقية، على كرسي خشبي متهالك. يده كانت ترتعش قليلاً وهو يمسك بهاتفه المحمول، وكأنما كان يخشى من شيء مخفي فيه. عيونه كانت تراقب الجميع بحذر، خائفًا من أن يلتفت أحدهم إليه ويكتشف أسراره.

الهدوء في الغرفة كان ثقيلاً، محملاً بأعباء الماضي والمخاوف من المستقبل. كل منهم كان غارقًا في عالمه، لكن وجودهم معًا كان كافياً ليخفف من وطأة تلك الأفكار الثقيلة، ولو للحظات.

افاق "محمد" من شروده و افكاره الضبابية، نظر لهم امامه قلوب ترتجف خائفة، و حوله الرهب في كل مكان، حوله الكثير من الآلام، لكنه سيحتضن اشواكهم حتى لو جرحه الامر، يفهم صمتهم ربما روحه تبكي لكنه لن يتركهم تحدث بكلمات قليلة يقتل به الصمت:

- انا قابلت "اراس" .

تحدث " سليم" بتساؤل وهو ينظر له بقلق:

- مين "اراس"!؟، و "سيف" فين و "اصلان" .

بينما "احمد" الذي لم يضطرب مثل حال الأخير، أجابه بهدوء يفصح عن أجابته:

- "سيف" قال إن معاها حاجه مهمه و هيقابلنا بكرا بعد الحفلة، و "اصلان" من وقت ما راح بيت اهله مش راضي يخرج .

حدق بعيداً على سيرة "اصلان" تذكر "ادريان" يتذكره بوجه عابس وجه كئيب ملئ بالحزن متعب أنتهي من الحياة، ينتظره وهو يتذكر لعل رياح الشوق تاخذه تحمل عنه آلامه لكن لا لم تنتهي ولا شوق يتركه

انتبه الجميع له وهو يسرد لهم معرفته ب"اراس" يسرد هزائم لم يكن له ذنب به هزائم تقتله و اوجاع لن يقدر على التعافي منها، لكنه لم ينسي كلمه قيلت له يوم، سيظل يتذكر حاله الطقس يومها وعدد السحب و نبرة صوته و تاريخ اليوم و ملابسه وكم قطعه من قلبه تهشمت يومها، سيظل يتذكر رماد المشاعر التي احترقت بداخله لا احد ينسي هزائمه ولم مر الف عام ولم مسحت ذاكرته الف المرات ذاكرة القلب لا تخون .

تحدث "محمد" وهو يتذكر كل ما مر به من الالم:

ـ بعد ما هربت أنا و " ادريان" و "نائل" من بيت "عدنان"، هربنا في بيت مهجور فضلنا في مدة بسيطة، اشتغلنا مع المرشدين في أثينا بنبيع تحف مضروبة، يعني حراميه بس بشرفنا، لحد ما جه اليوم اللى البيت اتحرق في و ضاعت كل حاجه، "ادريان" خرج "نائل" كان مخنوق من الحريق ودخل تاني معرفش ليه بس مخرجش، هو كان مخنوق وانا كنت اتصابت بحروق لكن مقدرتش استنا أخرج جثته، لم شوفت رجاله "عدنان" بتدور علينا هربت وانا بشده ورايا مخنوق لحد ما اغمي عليا بعد سبع ساعات في طريق مقطوع، لم فوقنا راجعنا بعد يومين ندور على جثته .

زفر بضيق وهو يتذكر هذا المشهد الشنيع، عندما افاق بطريق مقطوع وجد صديقه يبكي و يرتجف وهو ينظر إليه لم يكن يعلم ما سبب خوفه وعلامات التقزز على وجهه، لم يمتلك مرايا ليري ما اصابه الا في انعكاس الماء، وجد ظهره محترق منظره يجبرك على ان تقرف تشعر بقشعريرة تسري في جسدك من الريبه، لم يكن هذا أكثر مشهد شنيع بل جثه صديقة التي وجدوها محترقة اشلاءه التي جمعها بيده بعدما تفرقت في الانحاء:

- لقينها بعد ما دورنا في الانقاض. دفنه لكن قبضوا علينا بعدها، خطفنا واحد اسمها "أرسلان" وده اكبر حد وصلنا له .

عقد "عز" حاجبيه بتعجب وهو يسال عن هذا الرجل:

- طيب و "اراس" ده ايه نظامه .

انهشته الأيام وكانه فريسة بداخل غابة. لا النوم اصبح دواء ولا السهر يفيد بشيء أصبح مضلل رغم ان الضوء في كل مكان تائه رغم ان الخريطة له، غريق في وسط النيران .

اجابه يخفف من الاجواء التي امتلأت برائحة الذكريات الحزينة، تحدث بمزح يسخر منه:

- يعني هو حاجه كده تعبان على هيئة سحلية بس من جواه روحه كده بصراحه علشان لازم نحكم على الروح برص،عامل ميكس بين أبو لهب و هتلر حاجه كده في منتهي ياربـ احفظنا من ولاد الحرام .

صدرت ضحكات "حسام" صاخبة وهو يستند برأسه الى كتف الأخير رغبة في تخفيف اعباءه يشعر بكم الألم في حديثه لكنهم جميعاً لن يظهرو نظرة الشفقة تلك التي تقتله :

- اهو ده النوعية المحببه لقلبي ده باين هيبقا شغل عالي .

قطب "أحمد" جابينه مستهزاءاً من استخففهم بالامر قائلاً بتهكم:

- وهو إيه اللي عمل في كده إن شاء الله!؟

أجابه "سليم" وهو يعبث بالصور التي من ضمنها صور " ارسلان" و "اراس" قائلاً بهدوء:

- مر بفترة مراهقة أربعينية هي السبب انه يبقا Notey كده

أمسك "محمد" بأربع صور تحمل اسماء فوقها وهو يوضحها امامهم متحدثاً بشرح :

- ده "اراس" شوف هو اي شخص بيعبد الاصنام النار الشمس. حاجه في الوسط ده هيبقي مثله الأعلى و هتلاقيه في ديله طول الوقت .

ثم أشار للصورة الاخري "ارسلان" الذي بدأ عليه علامات كبر السن خصلاته يملأها الشيب و تجاعيد وجهه نالت من بريق وجه الاوربي:

- ده "ارسلان" هو انت هتشوف حواليه جيوش وحراسه، و سلاح بس هو في الآخر بيخاف من الصورصار اللى بيطير .

و الاخيرة كانت من تصيب "عدنان" و صغيره الذي اختطف في يوم ميلاده الرابع :

- ده "عدنان" لا ده مش بس متحضنش وهو صغير، ده محدش ابتسم عليه، و ده "ساردار" إبنه اتخطف من خمس عشر عام، أظن فهمتوا ايه الخطة الجديدة!؟

في زوايا الظلام، اجتمعوا كالعاصفة الهوجاء، شباب تاهوا بين دروب النسيان، لكن الماضي لم يتخل عنهم، بل ظل يطاردهم

كظل لا يزول. تركوا الحاضر جريحا، لم يحاولوا تضميد جراحه أو

رتق تمزقاته، بل انغمسوا في عبق الانتقام، وبدلا من تصليح ما كان، قرروا أن يحيوا الألم ويغرسوا سيف الثأر في قلب الماضي الذي اعتقدوا أنه رحل بلا عودة. لقد أعماهم

الانتقام، فكانوا كمن يطفئ النار بالنار، ولم يدركوا أن الماضي

ليس مجرد زمن مضى، بل هو جذر يمتد في أعماق أرواحهم،

ويؤجج لهيب حاضرهم ومستقبلهم.

تقف رزان أمام المرآة في غرفة مضاءة بالأنوار الخافتة، تمسك بطرف فستانها الأبيض الطويل المزين باللؤلؤ، الفستان الذي طالما حلمت به كل فتاة في مثل عمرها. أناملها تلامس النسيج الناعم برقة، بينما تحاول أن تستجمع شتات أفكارها. المشاعر تتضارب في قلبها بين الفرح والتردد، وبين الماضي والحاضر.

عينها تتأمل تفاصيل الفستان البديع، لكنه لم يكن قادراً على إخفاء ذكريات حب قديم لم يكتمل. حبيبها القديم، الرجل الذي لم يبادلها الحب أبداً، يمر كخيال شاحب أمامها. تذكرت لحظاتهما المشتركة، وكلماتها التي لم يُستجب لها، لتشعر بنبضات قلبها تتباطأ للحظة.

تلتفت لتفكر في عبدالله، الرجل الذي سندها في أصعب لحظاتها، والذي سيصبح زوجها بعد ساعات قليلة. تذكرته عندما كان بجانبها بعد مقتل والدتها، والدتها التي لم تكن تحبها، والتي لو كانت هنا اليوم لكانت ربما تشعر بالسعادة لأنها ليست جزءًا من هذا اليوم.

ترفع رزان رأسها، تحاول أن تبتسم في المرآة، ولكن انعكاسها يعكس مزيجًا من المشاعر المتناقضة. تحاول جاهدة أن تتخلص من الماضي، لتسير بخطوات واثقة نحو حياة جديدة، ولكن روحها ما زالت محاطة بظلال الحب القديم والحنين إلى أشياء لم تحدث أبدًا.

نظرت في المرآة مرة اخري لم تجد شبيهاً للسعادة آلتي كانت تسكن وجهه في حضوره هل له ان ياتي في نهاية المطاف، يعانقه و يقدم اعتذار لطيف، وقتها تنسي قصائدها المليئة بالغزل، و قُبلاته التي وشمت على جسدها، و تتقبل انه ينظر لغيرها بنظراته المليئة بالحب، وقتها فقط ستحب انه يلمس يد غيرها بيده الدافئة و تنام برائحة بين يد حبيبها و تركه ولكن هل ياتي .

انتبهت الى "حسن" الذي جاء من خلفها ينظر لها بحنان مشاعر الأبوة تلك آلتي تنمو بداخله كم تنمو هي والآن جاء المطاف الذي كان ينتظره الآن هي تغادره لتقيم حياة اخري و عائلة اخري، ازال دموعه المتجمدة بعينيه وهو يذهب يحتضنها قائلاً بتاثر:

- كبرتي يا "رزان" امتى كبرتي؟!، انتِ أحلي حاجه أنا شوفتها في حياتي، انا رغم كل محاولاتي الفاشلة قبل كده إني اكون قريب ليك، لكن انا معشتش غير علشانك .

شددت في عناقة أكثر تغلب رغبتها في الهرب، لديها رغبة جامحة أن تهرب لا تعلم لي اي وجهه، ولا الى اي مكان، ولكنها تريد ان تهرب بلا توقعات او ذكريات بدون نفسها لو يمكن ان تهرب منها يكون هو النجاة.

تبست وهي تنظر له وتمحي عبراتها هي الأخيرة رغم كل شيء سيء يحدث او حدث من قبل لكنها لن تنكر أن أجمل ما كان بحياتها هو والدها رغم كل شيء هو لم يتركها ولم يتخلي عنها :

- أنا بحبك أوي، أنا محظوظة بوجودك، كل محاولة منك كانت بتحسسني أن لي أهمية إني عايشة، مهما وصفت حبي ليك مش ها اقدر .

أبتسم "حسن" وهو يمحي دموعه قائلاً يمازحها:

- لا كفاية كائبه بدل ما اخطفك واهربك والله انا على اخري أصلا من "عبدالله" ده و قلقان منه دد ولا اللى اول مرة يحضر فرح في حياته .

ابتسمت على حديثه قبل ان يجيب على الهاتف امامه المتصل الذي لم يكن الا "عبدالله" استمعت إليه من الجانب الآخر:

- الو يا عمي انت عند مراتي، بنتك سابقاً عمى سلم عليها و بوسهالى ولا اقولك لا خلاص قولها العريس جاي .

زمجر "حسن" بنفاذ الصبر وهو يجيبه بتهكم:

- اتعدل يا ابني أنت، عاوز إيه تاني ؟!

تحدث من الجهه الأخري وهو يحمحم بإحراج:

- كنت هاخد رايك، لبسي حلو شكلي حلو!؟، أصل اول مرة ابقي عريس، صحيح تفتكر لازم انزل ولا اروح اصل انا حاسس اني قلقان، ما تحضر بدالي!؟

لم تستطيع منع ضحكتها وهي تقهقه قائلة بصوت يسمعه المتصل من الجانب الأخري:

- اخلص يا "عبدالله" بدل ما اسيب الفرح وامشي .

أجابها قبل أن يغلق الخط بهدوء قائلاً بحب ظهر في نبرته :

- لا منقدرش يا نعناعه، ابقي اقراني الورقة اللى سبتها عندك .

تركها "حسن" وهو يدعو على هذا الوغد الذي جاء لكي يقلب حياتهم، قبل ان يعطيها عدة تحذيرات ان كانت تود الهروب وعدم الزواج و تظل معه لوقت أكثر.

أمسكت بالورقة وجدت فوقها بعض من نبات النعناع، ابتسمت فور تذكرها ما حدث وكيف احببته، من كان يصدق ان الفتي الاخرق التي قبلته عند خروجها من اقسي مراحل عمرها، صاحب نباتات النعناع، بعد لحظات سيكون زوجها أمام العالم ، من يصدق أنه ينسي ثأر عائلته و يفقد اصدقاءه لأجلها ولكن مهما حدث سيظل أحن ما جاء بعمرها .

محت عبراتها بأطراف أناملها وهي تبتسم على حديقه المعسول :

- اغلقي ستائر حسنك، و اطفئي اضواء عينيك، اخمدي نيران شوقي المشعة، لا اود أن احترق بتلك السهولة، لا اود ان تسيل دمائي من اجل عينان اجتمع فيهم جمال العالم اغلقي إزرار الحسن المتلبس فيك، لا أعلم كيف جئتيني هكذا، دون موعد وتفضت كل هذا الغبار الكثيف عن قلبي كيف تصح هذا القلب بعد حبك ؟؟

تشعر بالتعب دون ان تتعب، تهرب من نفسها لكنها بداخل نفسها ولا تهرب، تحتضن نفسها دون احتضان، ما اقسي ان تترك ما تهوي وانت في المنتصف ولا أنت قادر على نسيانه ولا تقدر على العودة .

لعنته لأول مرة لعنت "محمد" الحب القاتل الاعمي الذي جعلها لا تسمح لأحد غيره بأن يتخطي غشاء قلبها لماذا ترك كل بقاع الأرض واتي الى قلبها مثل جمرة مشتعلة، مثل رصاصه مثل دمعه لم تخبئها عين !؟، ولكنها ستتخطاه بكل هدوء مثلما تخطاها لاسيما و زفافه اليوم، هي تحب زوجها ولن تفرط به و الماضي سيظل ماضي مهما حدث .

هاجر تقف أمام المرآة، ملامحها تتأرجح بين الثقة والقلق. اليوم هو يوم عرض أزيائها الأول، ويبدأ الحفل الذي طالما حلمت به. أنظارها تتلألأ بأحلام النجاح، لكن قلبها يتخبط بين سعادة الانتصار وعبء التوتر. بجانبها، يضيء وجه محمد بابتسامة مطمئنة، الرجل الذي كان لها أكبر داعم رغم كل ما عاناه. تجول في ذاكرتها صورة هذا المحارب الشجاع، الذي عاش ألوان المعاناة، فاجأها بحبه اللامحدود وأصبح رمزا للأمل في حياتها. يتجلى وسامته في عينيها، حنانه يجذبها ويشعرها بحماية لم تعرفها من قبل، وهي تتمنى أن تحميه من أي ألم.

وفي الخلفية، أصدقاؤها يتواجدون بجانبها، مجموعة من البشر غير المتشابهين، التناقض بأبعاده، لا يعرفهم الحظ ولا يأبه بهم العالم. لكن، في خضم هذا النجاح، يتسرب القلق من غياب والدتها، الخوف الأكبر الذي يؤرقها. تشعر بفراغ قاتل، وكأن النجاح لن يكون كاملاً بدون دعمها. والدتها التي تخلت عنها في ليلة زفافها ونجاحها، متوجهة إلى زفاف رزان، تثير في نفسها خوفاً من نظرات الاحتقار التي قد تلقيها عليها، ولكن هاجر مصممة على أن تنجح مهما كلف الأمر، فهي ستبني انتصارها رغم كل شيء.

نظرات للمرآة مرة اخري قبل أن تجد "حسناء" خلفها تنظر لها بفخر واعتزاز و كأنها ابنتها و تشهد على نجاحها الآن:

- أنا مبسوطة جداً بيكي، و فخورة جداً بكل خطوة اخدتيها، أنا مؤمنة بيك و متاكدة أنك ها تنجحي حتى لو منجحتيش قصد الناس انتِ نجحتي في وجودك .

لم تستطيع التعبير عن مشاعرها بي اي شيء اخر سوي العناق تقدمت ببطئ قبل أن تسرع إليها وهي تضمها بشدة، رغم فارق السن و رغم ان معرفتهم ليست طويلة لكنها أصبحت جزء من تلك الحياة التي صنعتها، صديقتها و والدة الرجل الوحيد الذي كان العالم بعينيها، ربما "محمد" محظوظ به بالرغم من حرمنه من والدته الا ان عوضه جاء بها .

بينما جاء طيفهم من بعيد يسرعون إليها بعد أن أصبح الوقت المتبقي قليل جداً، الفخر كان يملئ أعينهم شعور بالتحليق وأنت تري احلام من تحب تتحقق .

تحدثت "جميلة" وهي تضع له حمرة شفاه قائلة بسعادة:

- شكلك يجنن بجد إحنا جمبك خلاص كل اللى اتمنتيه اتحقق.

بينما عدلت لها "زينة" تسريحه شعرها آلتي لم تكن ملائمة لمظهرها بدور ام حنونه تعطي النصائح تبست بسعادة:

- ركزي وانتِ طالعه المسرح، بلاش تتوتري و متبصيش في عين حد .

أعطتها "جنى" كورة حمراء صغيرة تتمدد و تساعد على استرخاء العضلات وهي تبتسم لها بحب:

- اضغطي على دي لو حسيتي بي اي توتر .

اخرجت "سما" الدفتر الذي كتبت به المقدمة التي ستلقيها في اخر الحفل وهي تمسك بيده تنظر بداخل عينيها تعطيه الأمل:

- دي انا كتبتلك فيها الختام و كل حاجه ممكن تحتاجيها، انا واثقة فيك .

كانت تقف بعيد خلف الستائر تنظر لهم بحزن وهي لا تشاركهم هذه السعادة قبل أن يمسك هو بيدها يتقدم بها أمامها وهو ياخذ انفاسه بهدوء .

تسللت دمعه من عينيها وهي تراها أمامها تحدثت "هاجر" وهي تسرع في خطوتها لتعانق صديقتها التي ظنت أنها لن تاتي "ميرنا" تفوهت بعتاب وهي تحتضنها:

- كده سيباني لوحدي يا "ميرنا"!؟

تاسفت لها وهي تمحي عبراتها بأطراف أناملها مبتسمه لها بفخر قائلة بعتذار:

- معلش يا روحي بس كنت مشغولة مع "نوح" جداً.

تلاقت الانظار بعد ذكر اسم الصغير، كان " سليم" مازال غضب من "إسلام" يعلم أن ما فعله لن ينساه بتلك السرعة، بينما "أحمد" الذي لم يسامح في جرح صديقه لكنها كان يعلم ان بهذه الفعلة سينسي كل شيء .

تحدث "إسلام" وهو يحمحم بحرج يحاول أن يخفي توترهم من عدم قبولهم اعتذاره:

- أنا كلمت "محمد" وهو إللي عزمني، حقك عليا يا "سليم" .

رمقه ببرود وهو يشيح انظاره عنه بحركات طفولية بائسه لم يغيرها منذ ذلك الحين :

- مش مضايق أصلا المهم بس اللي أنت جرحته بجد .

نطق "عز" ينهي النقاش الذي كان متاكد من أنه سينقلب شجار في نهاية المطاف:

- خلاص مش وقته دلوقتي.

بينما جاءت "جيداء" من الخارج رغم الظلام الذي يحتل داخلها قررت ان تكون بقعة ضوء في وسط الجميع وكان شيء لم يكن، و جاءت من الصبح مع "رحاب" لصناعه الديكور للعرض .

احتضنتها وهي تربت فوق ظهرها بحماس امسكت بيدها قائلة:

- متاكدة أنك ها تعملي حاجه مبهرة .

افاقتهم "رحاب" وهي تاتي من خلف الستائر تمسك صغيرها في يدها ومن خلفها "حسام" الذي أصبح كالطفل يصاحبها في كل مكان رغم تذمرها :

- يلا يا "هاجر" العرض هيبدا و كل الموديل جاهزين .

شعرت بالتوتر وعينيها تبحث عنه في كل مكان، الفتي الشجاع الذي جاء و اخذ الاميرة من خلف الحصون و الأسوار و جعلها أمام الناس معلنه و الآن اختفي .

تقدمت بخطوات هادئة متوترة وجدت أمامها الكثير من الكاميرات و مسجلات الصوت الكثير من الاسئلة تاتي من الصحافيين و المراسلين. شعرت بأن اذنيها قد انتهت ولا تسمع أي كلمة، حتى وجدته تقدم من بينهم ومد يده بباقة من الورود قبل ان يبتسم لها و ياخذها من بينهم و يرحل .

وقفوا خلف الستائر التي تفصلهم عن العرض كانت تشعر بالتوتر حتى ان كل اوصالها كانت ترتجف وهي تنظر له تنظر منه كلمة تنهي هذا .

أمسك"محمد" بيدها وهو يضمهم بيديه معانقاً يديها قبل أن يغمرها بداخل عناقه وهو يمسد فوق ظهرها يحاول أن يجعلها تهدأ قائلاً:

- النهاردة الحلم اللي اتمنتيه طول عمرك، لم قولتيلي أنا بحلم قولتلك لو نجمة في السماء مستعد اجبها لك، و النجمة جت لحد عندك أهي، أنا واثق ان "هيرو" هتبهر كل الناس زي ما بتبهرني .

اخذت نفس عميق قبل أن تتحدث بهدوء مقترحه بخوف :

- إيه رايك نتابع العرض من هنا ولم يخلصوا اخرج اقول الختام وخلاص!؟

أبتسم وهو يمسك بيدها ضمها بذراعه وضع رأسها فوق موضع قلبه وهو يؤمي لها بالموافقة، و مثل طفلين صغيرين يتابعون فيلمهم المفضل جلسوا ينظرون بشغف يترقبوا بداية الحلم .

في قاعة تتنفس عبق التاريخ، أقيم عرض أزياء يجسد عظمة الحضارات التي مرت على مصر. تضفي نقوش الأرابيسك على الجدران رونقًا عربيًا، بينما تحاكي الأعمدة الرومانية عظمة الإمبراطورية القديمة. العارضات ينسلن على المنصة بإطلالات مصرية قديمة بديعة؛ تيجان ذهبية وأردية بيضاء تمتزج بلمسات من الزخارف البطلمية. وفي الخلفية، تتردد أنغام مصرية قديمة تتداخل مع ألحان عربية، لتكمل لوحة تجمع بين الأصالة والرقي، وتستحضر روعة تاريخ مصر في لحظة واحدة.

بدأ العرض مع موسيقي هادئة من صنعه و حتى النيران و الورود التي اتفق مع "رحاب" عليها كان كل شيء هو من اعده بنفسه او اشرف عليه، كانت موسيقي فرعونية لانشودة:

- اى رمت ترو أن باجو تتس حنوت وعت سنج أن إيست بغ أن اس جت اف سنج أن إيست اتس حنوت آمنت تاوى ام اسيبوى سنج أن ايست ايرت رع ور حسوت ام سبات سنج أن إيست ردى تس عات أن تيسو بيتى".

همس بداخل أذنها وهو يترجم له الأنشودة الذي اختارها هو كان ينظر بداخل عينيها يقصد كل حديثه لأجلها:

- يا أيها البشر والآلهة الذين في الجبل، إنها السيدة الوحيدة مهابة لايسة، فإنها التي تلد النهار، مهابة لايسة، فإنها سيدة الغرب والأرضين معا، مهابة لايسة، فإنها عين رع عظيمة القدر في الأقاليم، مهابة لايسة، فإنها التي تهب الكثير لملك مصر العليا والسفلى".

ابتسم على كلمته " السيدة الوحيدة" تذكرت في طفولتهم كان هو المسؤول عن الترجمة للافلام كان هو القاري الوحيد لها لكنها لم تكن تعلم انه لم يكن يقرا الافلام كان يقرائها هي .

انسحب كف يدها من يده بعض ان اختتم العرض وهي تذهب للمنصة بينما هو أسرع ليهبط للاسفل يتابعها من القاعة الداخلية .

اخذت "هاجر" نفس عميق طويل يحمل كل ما عانته من الم لتصل الى هنا، نظرت بداخل اعين "ميرنا" التي تكن لها كل الحب، و بأعين"جميلة" وجدت التشجيع، وجدت نظرة الفخر تلمع باعين "حسناء" و نظرة السعادة بداخل عينين "سما" نظرات "زينة" المليئة بالشغف و نظرات "جيداء" التي تشبة نظرة الام، نظرة "رحاب" السعيدة و نظرة الصغير "يزن" المليئة بالمرح، نظرة "جنى" متحمسة، و نظرات "عمر" شقيقة الذي جاء بدور العائلة نظراته الحنونه بثت في قلبها الأمان، نظرة "عادل" القوية تدفعها لتكمل ما بدأت.

تحدثت بثبات قائلة وهي تنظر لحلمها الذي أصبح واقع :

- أنا معنديش كلام كبير أقوله، صحابي جهزوا كلام بس مش حاسه اني ها اقدر، انا مبسوطة جداً أن حلمي اتحقق، بس مبسوطة اكتر بوجود الناس اللى بحبها هنا شكراً لكل اللى ساعدني، و شكراً للبطل الخفي اللي شجعني لكل ده، انهاردة بعلن عن إنطلاق "مُو إست" معناها بالعربي الماء و النار.

لم يكن خطابه له اي تاثير لم يصفق أحد بدوره كانت علامات التعجب من الاسم واضحه على اعين الجميع، لكنها هو نهض وسط جميع الحضور وهو يصفق لها انتقلت جميع الأنظار إليه حتى صفق الجميع معه لأجلها.

هبطت من فوق المنصة وكان هو اول مستقبل لها ضمها بسعادة وهو يبتسم لها حاملها بين ذراعية وهو يدور بها.

آفاقه "عمر" الذي جذبه للخلف وهو يتحدث بتهكم حاقداً عليه :

- خلاص يا حبيبي كفاية محن يا بابا عرفنا انكم اتجوزتوا سيب اختي شوية يا غلس.

تافف وهو يتركها عاداً للخلف بحركات لا تتناسب مع هيئته الوقورة نبس بحزن مزيف وهو يذهب الى جهه والدته كي تضمه :

- حقد كله بيحقد عليا، احضنيني انت يا أمي انا جالي جفاف عاطفي .

وقبل ان تضمه وجه يد "عادل" التي تفصل بينهم وهو يدفعه للخلف برفق وهو يجذب "هاجر " بداخل عناقه بينما امسك بـ"حسناء" خلفه :

- ابدك عن مراتي بدل ما اقطعها انهاردة .

وجد "إسلام" خلفه يجذبه من يده وهو يمد يده بالصغير "نوح" كان يتأرجح بين الشعور بالغيرة و الحقد على ان الجميع فضلها عنه عائلته و زوجته و أصدقاءه، الجميع يبتعد عنه و يأخذ جهته، و بين شعوره بالحزن على صديقه نعم هو لا يكرهه لكنها لا يزال غاضب منه .

فور أن وقعت عينيه على الصغير الذي كان يبتسم له و لمس قلبه صوت الاسم "نوح"، ارتبط قلبه و كل انش بداخله بهذا الاسم يحمل الإسم ذكريات و ضعفه كبيرة من المشاعر يحمل حنين و حنان و سعادة و فراق و يحمل نسخة منه تركته ورحلت يحمل "نوح" الاب و الداعم و السند و الحق .

امسك الصغير باصبعه برفق، شعر بقشعريرة تسري في جسدها يشعر بالخوف من هذا الكائن لماذا جاء الى الحياة!؟، مازال نقي و صافي لا يصح ان يلمس شخص مدنس مثله .

رفعته "ميرنا" وهي تقربه منه برفق لكي يحمله :

- يلا أمسك شيله بقا يا "محمد" .

شعر بانفاسه و جسده يتقرب منه صعق وهو يشعر بخوف غريب من مجهول لا يعلمه ارتد للخلف وهو يبتعد حتى كاد ان يسقط الطفل لولا حملته والدتها تبس بخوف وهو يحاول أن يضبط مشاعره:

- لا لا سيبي معاي أنا مش بعرف اشيلهم ابعدي بس .

كانت نظراتهم المليئة بالتعجب تتوجه إليه لكنها تخطاها وهو ينظر الى "مصطفى" الذي يقف بعيداً يراقبهم بحزن اشتد في خطواته وهو يذهب إليه تاركهم يلتفون حول الصغير كأنه شيء جديد .

تحدث بتساؤل وهو ينظر له بريبه:

- خير جاي تبوظ حاجه تانيه هنا .

أجابه بيائس وهو يحرك رأسه يشعر بالعجز:

- المرة دي لا، "محمد" أنا مش بحبك و مش بكرهك بس المرة دي أنا خايف عليك .

قهقه بشدة ساخراً من حديثه وهو يرفع جزء من ثغرها استهزأ من حديثه بابتسامة صفراء:

- خايف عليا أنا!؟، بص أنا مش معاديك علشانها هي و بس لكن لو فكرت تكسر فرحتها او تقرب لمراتي أنا مش هرحمكم .

هبطت من عينيه دمعه مستسلمة عن كل ما حدث بدون إرادته عن أبنته التي تاهت منه في مفترق طرق لن يعود، و ابنه التي ذهبت حياته هباء :

- متزعلش من "سوزي" دي بردوا ام، أنا جاي بس أشوفها دي بنتي، "محمد" انا واثق انك هتقدر تحافظ عليها، بس عارف ان محدش هيسيبك لو حصل أي حاجه مفيش قصادك حلول وانتهت كل الطرق اعترف بكل حاجه لابوك .

لم يهتم بحديثه على اي حال ما استوقفه فقط هي كلمة أم!؟، هل تستحق كلمة أم هي مجرد حروف!؟، كيف تكون أم من تحول حياة ابناءها لجحيم:

- أم!؟، دي أم مسيلمة الكذاب تعبت في التربية اكتر منك .

تخطاه "مصطفي" وهو يقطع تجمعهم و ينتشل أبنته من وسطهم وهو يضمها بشدة رغم أنها لم تبادله العناق إلا أنه أكملها وهو ندم على كل لحظة تركها فيها تركهم هكذا بدونه و انساق خلف غرائزه و اطماعه .

خرجت "هاجر" من عناقه وهي تتحدث بعتاب:

- خلاص كل حاجه خلصت جاي ليه!؟، اتفضل يا بابا علشان متتاخرش عن فرح "رزان" .

تركته وهي تسرع بعيداً بينما هو شعر بالحرج من حديثها طمئنه "عمر" وهو يتحدث بهدوء قائلاً:

- خلاص يا بابا هي مش متضايقة، اتفضل أنت بس علشان متحصلش خناقة و خلينا نتكلم مرة تانية .

بينما هو كان يجلس بجانبها أرضا يحتضنها هي حصاد كل الاعوام العجاف، جاءت وجاء معها كل الضياء جزء من العمر

هي بل أحن ما جاء به، يذهب لها حاملا البلاغة كلها وامام اول شعاع من عينيها التي تشبه حد السيف، ينسي اللغة و يعود

طفل لا يفقه عن اللغة شيء .

تحت أضواء قاعة الزفاف المتلألئة، وقفت رزان بجانب عبد الله، وكأن الزمن توقف لحظات ليتأمل سعادتهما التي فاضت على كل من حولهما. كانت قلوبهما قد خاضت معارك الألم والتحديات، لكن الحب الذي جمعهما ظل صامدًا، يحارب كل ما حاول إبعادهما. على منصة الرقص، تراقصت خطواتهما بتناغم هادئ، وكأنهما ينسجان معًا لحنًا من الفرح والطمأنينة. كانت ابتساماتهما تتحدث دون كلمات، وسعادتهما كانت تشع في أرجاء المكان، تنير القلوب وتنشر الدفء في النفوس.

تحدث "عبدالله" وهو يترقص معها بتناغم غير مبالين بي اي شيء حولهم :

- عمري ما كنت حاسس اني سعيد زي انهاردة، لدرجة لو مت دلوقتي مش هكون نقصني حاجه .

انقبض قلبها عقب كلماته وهي ترمقه بحزن، قبل ان تتحدث بخوف تنفي ما قاله:

- بعيد الشر عنك، ما تجيبش السيرة دي، أنا كمان مبسوطة اوي يا "عبدالله" اوعدني مش هتسبني في يوم ها نحارب لحد اخر لحظة .

نبس بحب وهو يقترب من أذنها يهمس بشوق و سعادة بلغت عنانها في سماء:

- أوعدك لحد اخر نفس فيا مش ها حارب غير ليكي .

نظر بالاسفل وجد "أنس" الذي كان يجلس بملامح وجهه عبثه كمعظم الحضور، تحدث بسخرية وهو ينظر له :

-هو عمك ده مش بيبتسم!؟، هما قالوله لو ابتسم الولدة هتبقا رقاصة!؟، ثم إن فعلاً الوالده كانت راقصة معتزلة يعني هو مش خسران حاجه في العموم .

جحظت عينيها بعدما استوعبت انه يسب جدتها أمامها و بحذءها ذو الكعب العالي ضغطت فوق قدمه وهي تستغل انشغال الانظار عنهم قائلة:

- لسانك ده!؟، واضح مش ها نكمل من دلوقتي.

بينما بالاسفل كان "أنس" يقف بجانب "سوزي" التي كان وجهه يشتعل غيظاً قائلة:

ـ شوفت الاستاذ اللى سابنا ومقي ده !؟

تبس بسخرية وهو يزفر من دخان السيجارة بيده متحدث ببرود:

- انا عارف انت صابره على "مصطفي" ده ليه!؟، على العموم كلها ساعه و كل حاجه تتغير، مش زعلانه عليه يا "سوزي" !؟

رمقته بهدوء وهي تقطب جبينها عقدت حاجبيها بتساؤل وهي تطالعه بنظرات ماكرة:

- "محمد" !؟، لا انا عمري ما حبيته بسببه انا ضاع مني حاجات كتير كان لازم يموت من بدري .

أعد سؤاله مرة اخري وهو يراوغ من اول كلمة قالها بتساؤل:

طيب و"عادل"!؟، و "هاجر" مش يمكن يزعلوا عليه .

ابتسمت وهي تشيح انظارها عنه ببرود قائلة بوجه يملأه الحقد :

- محدش ها يزعل عليه كلب و راح و الحياة مش بتقف على حد .

بينما "حسن" الذي صعد بسرعه فوق منصه الرقص وهو يعتذر لابنته بتعجل قبل ان يتركها :

- أنا اسف جداً يا حبيبتي بس لازم امشي دلوقتي دي مسائلة حياة او موت .

في أوج لحظات السعادة، قرر أن يتركها خلفه. كان يعلم أن الواقع ينتظره هناك، حيث لم يكن كل شيء كما يتمنى. في لحظة الفرح العارم، جاءت المفاجأة الصادمة، تلك التي لم يكن

يتوقعها. السعادة دائما هشة، تتهشم أمام ثقل الواقع. ترك ضحكته معلقة في الهواء، وسار نحو المجهول، متسائلا كيف يمكن للفرح أن يختفي في غمضة عين.

بينما في الجانب الاخري كانت اجواء الحفل هادئه رومانسيه لحد يجعل كل شيء جميل هي مرة واحدة في العمر ياتي شخص مثل الربيع بعد خريف مؤلم، يأتي ينير العتمة من جديد يملئ قلبك بالحنان حنون مثل الامهات، يسكن أحلامك وتصبح حلم له واكبر سعادته و امنيته هي سعادتك. كل الأشياء المبعثرة يرتبها داخلك رغم أنه أكثر الاشياء تبعثراً هو شخص واحد و ياتي مرة واحده لا يمكن ان يعاد .

تحدث "محمد" الذي كان يحتضنها وهو يرقص معها بسعادة ربما لم يشعر بها من قبل كيف كان عالمه بدونها و كيف جاءت لكي تضي تلك العتمة. تسأل عن شعور لم يعرفه يوم وهو يعقد حاجبيه قائلاً:

- هو أنتِ حسيتي بي إيه لم "مصطفي" حضنك بعتبر أنك بنته يعني ؟؟

ذمت شفتيها وهي تتنفس بهدوء قبل أن تتحدث بتردد لا تعلم ماهي مشاعرها :

- معرفش، بس حسيت اني بعمل حاجه جديدة غريبة، كنت حاسه اني مكسوفة رغم اني بنته حاجه مش بتتكرر ازاي اتعود عليها!؟. بس مكنتش مبسوطة .

ضمها وهو يكمل تلك الرقصة بشكل اجمل وهي بين يديه سمفونية رائعه وهي زوجته الآن كل شيء مرتب :

- انا ها افضل جنبك طول الوقت اوعي في يوم تروح اللمعه دي من عيونك يا "هيرو" اوعي تبقي زيي .

كان "عمر" الذي يقف في المنتصف بين "رحاب" و "حسام" يبادلهم النظرات بحرج قبل ان ينظر الى الاخير الذي نكزه لكي يتحدث إليها.

تحدث وهو يحمحم بحرج قائلاً يسرع في حديثه :

- الحقيقة يا "رحاب" ان "حسام" كلمني عن جوازكم و طلب مني ايدك وانا وفقت مُبارك يا اختي والله.

حدقت بهم بتعجب مندهشه مما يفعلوه خاصة بعد أن صافحوا بعدهم بحرارة وهم يباركوا بحفاوة قبل ان يلتقط"عمر" إبنه"يزن" بين عناقه و يذهب .

رمقته بتعجب وهي تتسائل مندهشه مما يفعلون:

- معلش بس هو ايه اللى حصل!؟

ضيق عينيه وهو يقترب منها بمشاغبة قائلاً ببرود:

- غالباً جوزونا يا "رحرح"مع اني مكنتش حابب، و على رأي المثل جوزوا مشكاح لريما ما على الاتنين من قيمة .

توسعت عينيها من اثر الصدمة وهي تتمتم بداخله بغباء من هذا الأحمق ربما شيء ما تحرك داخله شيء مثل الحب!؟

كانت "جنى" التي تقف بعيد تمحي عبراتها التي انهمرت بدون رضاها تشعر بالوحدة بعد ذهاب صديقتها لزواجها .

نظر لها "سليم" وهو يمد إليها يده بمنديل ورقي تمحي به دموعها :

- مش معقول كدة يا "جوكر " كل ده عياط ؟!

نظرت له بغضب وهي تبتعد عنه بحنق من كلمته الغبية تلك :

- بطل الكلمة المستفزة دي ها "جوكر" ايه دد بجد ؟!

ابتسم وهو يشاغبها قائلاً بمرح وهو يقترب منها وهي تعود للخلف مبتسمه :

- طيب مش بذمتك حلوة يا "جوكر" يا سكر أنت اهو انت الجوكر اللى وقع الفرسان .

جلست "ميرنا" وهي تمسك صغيرها تداعبه برفق وهي تتامل ملامحه الصغيرة بشعور جديد ولد منذ ولادته .

تحدث "إسلام" بهدوء وهو يجلس بجانبها يحاول جذب اطراف الحديث مهما كانت الطريقة يجب ان تعود لحبه :

- "ميرنا" أنا بحبك، كفاية اللى احنا بنعمله في بعض ده، أوعدك مش ها يتكرر اللى حصل ده تاني .

نظرت له بهدوء تحاول ان تسامحه رغم كل هذا الحب مازال الشك يسيطر على قلبها تبست بهدوء وهي تنهض تصطحبه لمنصه الرقص:

- في حاجات بتفضل مشروخه طول العمر، يلا نقوم نرقص!؟

أمسك بيدها وهم يتركون صغيرهم بجانب عائلتهم ربما في بعض الظروف يجب ان تتخطي من اجل الحب .

تحدث "أحمد" الذي كان يرقص مع زوجته بجانب اصدقاءه وهز يصيح لكي يسمعه 'محمد" :

- هشغلك أغنية فيروز اللي بتحبها.

على الجانب الأخري تحدثت "رزان" وهي تضع راسها على كتف "عبدالله " و مازالت تلك الذكري بداخل رأسها تعاهدت يوم ان تستمع لتلك الاغنية يوم زفافها :

- دي أغنية فيروز ها تحبها اوي .

في الحفلة الثانية كانت "هاجر" تنظر له وهي ترقص بجانبه متسائلة بهدوء تشعر بأن الأمان يمكن ان يتلاشي:

- تفتكر دي النهاية السعيدة ؟!

أجابها وهو يبتسم يحتضنها بحنان و جميع انتصاراته بين يديه :

- طول ما احنا عايشين مفيش نهاية .

صدح صوت "فيروز" الملئ بالشجن :

كنّا نتلاقى من عشيّة ونقعد على الجسر العَتيقْ

وتنزَل على السّهلة الضبابة تمحي المدى وتمحي الطريقْ

ابتسمت "رزان" وهي تدور حول نفسها ممسكه بيدها تردد الكلمات :

- هفضل جمبك على طول.

وما حدا يعرف بمَطرحنا

غير السَما وورق تشرينْ

تبس "محمد" وهو ينظر لها بحب تدور حوله الفراشات:

- انا بحبك . ويقلّي بحبّك أنا بحبّك ويهرب فينا الغيم الحزينْ

يا سنين اللي رِحْت ارْجعيلي ارْجَعيلي شي مرّة ارْجَعيلي

وانْسيني عَ باب الطفولة أرْكُض بشمس الطَرقاتْ

بينما "امير" الذي كان يشعر انه يرقص مع جثه بدون روح كم يود ان ينتشل الحزن من قلبها يهلكه يدافع عنها في حرب يقودها هو، يحطم ما ابعدهم أن يكمل العمر بها و يتجمل العمر بوجودها، ما نفع الحب ان لم تتقاسم حزنه!؟، ان كسرت سيرمم ما تبقي، أن اعوجت الخطوات ان غرقت سيكون هو البوصلة هي الحياة ولا احد يتخلي عن حبه .

يا سنين اللي رِحْـت ارْجَعيلي ارْجَعيلي شي مرّة ارْجَعيلي

وردّيلي ضحكات اللي راحوا اللي بَعدا بْزَوايا الـساحاتْ

استمع "محمد" الي رنين هاتفه فا اعتذر لها لكي يذهب بعيداً عن الموسيقي لكي يسمعه تحدث الا "اصلان" :

- انت فين يا ابني كله ده مش هتيجي!؟

تحدث من الجانب الاخر بخوف وهو يصرخ به :

- اخرج من المكان يا "محمد" اراس داخل عليك كلكم هتموتوا اخرج بسرعه .

لم يستمع له بسبب الاصوات المرتفعه تحدث بضجر :

- بتقول إيه يا "اصلان" مش سامعك يا ابني .

صاح وهو يصرخ به باعلي صوته يحاول ان ينقذ تلك المعركة:

- انا مش اصلان انا ادريان، اخرج يا محمد بالله عليك اخرج هتموت اخرج هيقتلوك .

تافف من عدم سماعه و اغلق الخط ساخطاً على هذا الابله الذي ينتظر منه ان يسمعه وسط هذا الضجيج .

بتذكّر شو حكّيوا عليّ لمّا نطرتْ وإنتَ نسيتْ

بينما كان "مصطفي" وصل أخيراً أمام القاعة التي اقيم به حفل "رزان" كان يزفر بهدوء يتمني لو بإمكانه العودة لابنته.

عم الصمت فجاة في اجواء الزفاف ولم يتبقي الا صوت "فيروز" وهي تغني بصوت مرتفع يعكس ما سيحدث في تلك اللحظة

نظر "محمد" الى الشاشات التي تنتقل فجاة زفاف "رزان " شعر بقلبه يخفق بشدة وهو يتاكد مما سيحدث الآن كانت شاشات عرض زفافه تعكس زفاف الجانب الآخر ، و شاشات الجانب الاخر يذاع بها الحفلة هنا .

وصار الشتي ينزّل عليّي   وإجا الصيف وإنتَ ما جيتْ

تحدثت "رزان" وهي تضمه كاخر حلم لها في نهاية الرقصه:

- ها تفضل معايا يا "عبدالله"؟!

تبس وهو يحتضنها بشده قائلاً بهدوء:

- لآخر نفس .

اتجهت اعين الجميع الى الشاشات التي تعرض زفاف محمد ارتبك " انس " وهو يتابع ما يحدث وقبل ان يتحدث اي أحد كان الانفجار اقوي مما تخيله

في لحظة خاطفة من الفرح، انفجر الزمان بكل ما فيه. كان الزفاف يتلألأ بالألوان والموسيقى، عندما هزَ المكان دوي رهيب. تحولت البهجة إلى فوضى عارمة، وسقطت الأجساد كأوراق الخريف. سحب الدخان أسدلت ستائر الرعب على الوجوه، والدماء تروي حكاية الألم. في ثوانٍ، عُدم الزفاف، واندثرت الأحلام وسط الدمار والدماء.

بينما على الجانب الاخري على شاشات العرض الكبيرة في قاعة الزفاف، كانت الصور تراقص بشكل غير متوقع، مشهد انفجار هائل يدمر فرحة الزفاف. كانت انظار "هاجر" التي فور ان استوعبت ان والدتها في هذا الانفجار قررت الجري و الجميع في حفل الزفاف الآخر، مذهولان، عيناهما تتابعان اللقطات المرعبة بذهول وصمت. قبل أن يتمكن أي منهما من استيعاب الوضع أو اتخاذ أي قرار، انطلقت الطلقات النارية بكثافة، موزعة الفوضى بين الحاضرين. صرخات الفزع واختلاط الأصوات زاد من ضراوة المشهد، والدماء تنتشر كاشفة عن مجزرة في قلب الفرح.

يا سنين اللي رِحْت ارْجَعيلي   ارْجَعيلي شي مرَة ارْجَعيلي

وانْسيني عَ باب الطفولة   أركُض بشمس الطرقات

ماهي الا ثواني فقد بيها الوعي و غاب عن العالم كان الأمر مثل كابوس سرب طيور مهاجر هكذا ملأ الوداع الليل، كان حلم طفل و أنتهي كان يركض يسارع الامواج بطائرته الورقية، و الضحكات تملئ الشاطي حوله، لكنه وهو يرقص مع الانغام سقط، و امتلأ وجهه ودفن في

التراب، عندما نهض كان كل شيء أختلف الطائرة فلتت من يده، اصوات الانغام مازالت عالقة بروحه "فيروز" تغني و النحيب يعلو الدماء تملي الأرض و تملأها، و هو غريب في هذه الزحمة اين ذهبت الأفراح كل الذي يعرفهم أصبحوا رماد ذكريات و دماء الجميع انتهي هنا وهو وحده جلس يبكي يصرخ حتى انقطعت احبال صوته لا يعرف هل يبكي على دماءها التي تنزف ام على هذه النهاية التي لا يستحقها، و هكذا هي النهاية لقصة الامير التعايسه لكن مع كل نهاية تبدأ بدايات ربما لم يمت أحداً وهي مجرد "اسطورة وداع!؟" .

صرخت "ميرنا" بهستريه و هي تري الدماء في كل مكان و صغيرها مفقود وهي تنادي على صغيرها الرضيع :

- "نوح" ابني فين ابني راح فين !؟

بينما "محمد" الذي كان يتماسك يحاول النهوض من وسط الدماء يبحث عن اي احد يعرفه ينظر حوله في دهشه قبل ان تقع انظاره على الشاشات التي دون عليها كلمات منذ زمن مصري قديم :

- الحقيقة تطفو على السطح مهما طال حبسها في الأعماق.. والخديعة تسقط في الأعماق مهما طال بقاؤها على السطح.

صرخ بشده وهو يفقد وعيه من اثر جرحه و صدمته :

- انا بحلم بحلم ده كابوس بحلم .

كانت فيروز مازال تصرخ على انغامها تنكشف الحقيقة

يا سنين اللي رِحْتِ ارْجَعيلي	ارْجَعيلي شي مرّة ارْجَعيلي
ورِدّيلي ضحكات اللي راحوا	اللي بَعدا بْزَوايا الساحاتْ

دو جمله لن ينساها الجميع لتكون مكان للذكريات :

" انتظر الاسطورة تلك هي البداية "اسطورة ست" .